التفسير الكبير

مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني
لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

المجلد السابع

سورة الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: التفسير الكبير - المجلد السابع
الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

AT-TAFSĪR AL-KABĪR
"Commentary of The Holy Qur'ān"

By: Ḥaḍrat Mirzā Bashīr -ud- Dīn Maḥmūd Aḥmad,
Khalīfatul Masīḥ II

Volume: 7
SŪRAH AL- SHU'ARĀ' TO SŪRAH AL-ANKABŪT

(Arabic Translation)

Translated from Urdu by: Abdul Momin Tahir

© Islam International Publications Ltd.

First Published in UK in 2007 by:
Al Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed and bound in Great Britain by:
William Clowes Ltd, Beccles, Suffolk

ISBN: 1 85372 861 6

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله الذي وفّقنا بعونه لإخراج المجلد السابع من هذا التفسير القيّم بلغة حبيبه وحبيبنا محمد المصطفى ﷺ.

ولقد كان شرف ترجمته إلى العربية من نصيب الأستاذ عبد المؤمن طاهر، حيث راجَعه الأستاذان الفاضلان الدكتور محمد حاتم حلمي والمهندس هاني طاهر. تقبَّلَ الله سعيهم، وجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأعانهم على إخراج الأجزاء المتبقية من هذا التفسير العظيم. آمين.

ثمة أمور عن هذه الترجمة ينبغي توضيحها:

أولاً: لم تُذكر في الأصل (الأردو) معظم الاقتباسات من الحديث النبوي الشريف والسيرة وغيرهما من المراجع بنصوصها، وإنما ذكرها المفسر رضي الله عنه بألفاظه وأسلوبه.. غير أننا نقلناها عند الترجمة بنصها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، اللهم إلا في بعض الأماكن التي تعذر علينا فيها الأمر، فترجمنا المضمون مع الإشارة إلى النص الأصلي أو مرجعه في الهامش.

ثانيًا: هناك مواضع في الأصل أشار فيها حضرة المفسر رضي الله عنه إلى بعض الأمور إشارةً عابرة قد لا تكون كافية لبعض القراء، فقام المترجم بتوضيحها في الهامش صرفًا للالتباس.

ثالثا: إن ترقيم الآيات في التفسير هو باعتبار البسملة أول آية من كل سورة.

رابعًا: لقد قام المفسر بهذا التفسير قبل حوالي نصف قرن من الزمان. فلو أخذ القارئ الكريم هذا الأمر بعين الاعتبار لسهل عليه فهم كثير من الأمور والأحداث المذكورة فيه.

خامسًا: يجب التنويه إلى أن هذا المجلد قد تُرجم وطُبع في أقل من سنة، فإذا وجد القراء الكرام أية أخطاء مطبعية وغيرها فليخبرونا بها مشكورين حتى يتم تداركها في الطبعة القادمة، إن شاء الله تعالى.

وأخيرًا فإننا نتقدم بخالص الشكر والدعاء لكل من ساهم في إخراج هذا الكتاب، ولا سيّما الأستاذ سيد مير محمود أحمد ناصر، عميد الجامعة الإسلامية الأحمدية (معهد تأهيل الدعاة) بربوة باكستان، لتفضله بالإشراف على مجموعات الأساتذة والطلاب الذين قاموا بتخريج أو توثيق معظم المراجع لهذا التفسير. وكذلك نخص بالشكر والدعاء الإخوةَ السادة الأفاضل: المهندس تميم أبو دقة، الدكتور أيمن فضل عودة، الدكتور علي خالد البراقي، عكرمة حسن نجمي، محمد أويس السعودي، محمد عمار المسكي، الحافظ عبد الحي بهتي، مرزا خليل بيك، مقبول أحمد ظفر، مير أنجم برويز، عبد المجيد عامر، محمد أحمد نعيم، ومحمد طاهر نديم، لمساعدتهم المشكورة في شتى المجالات العلمية والفنية. فجزاهم الله جميعًا أحسن الجزاء.

كما ندعو الله العلي القدير أن يجعل هذا التفسير سببًا لشفاء غليل الكثيرين من عباده علميًا وعمليًا وروحيًا، ووسيلةً لفهم كلامه سبحانه وتعالى. آمين!

الناشر

جمادى الثانية ١٤٢٨ هـ

تموز/يوليو ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الطبعة الأردية الأولى

يحتوي هذا المجلد من التفسير الكبير على تفسير سور النمل والقصص والعنكبوت*..... وأقول بكل ثقة إن كل من يقرأ أي جزء من هذا التفسير لن يسعه إنكار نفعه العظيم. إنه تفسير جديد وفريد من نوعه، وكل من يقرأه سيوقن بأن القرآن الكريم كلام رباني حي، إذ يطلع بقراءته على معارف قرآنية مبتكرة وحقائق عجيبة ودقائق رائعة، فيرقص قلبه فرحًا وتخرّ روحه ساجدة على أعتاب الله تعالى شكرًا وامتنانًا على أنه وهبنا كتابًا كاملاً منقطع النظير كالقرآن الكريم.

تأثير التفسير الكبير: يقول الكاتب الأريب والأديب الشهير في الهند البحاثة العلامة نياز فتحبوري في رسالة له (إلى حضرة المفسر ﷺ):

"أطالع في هذه الأيام المجلد الثالث من التفسير الكبير بنظرة فاحصة. ولا شك أنك قد قدمت رؤية فريدة تمامًا لدراسة القرآن الكريم. إنه لأول تفسير من نوعه جُمع فيه المنقول مع المعقول بشكل رائع. إن كل كلمة منه لدليل ساطع على غزير علمك وشمول نظرك وعمق فكرك وحسن استدلالك وذكائك الفذ. ويؤسفني أني ظللتُ جاهلاً بهذا التفسير العظيم إلى هذا الأوان. ليتني أتمكن من قراءة كل الأجزاء من هذا التفسير. لقد اطلعت أمس على أفكارك الرائعة حول قصة لوط عليه السلام أثناء مطالعة سورة "هود"، فلم أملك نفسي حتى كتبت هذه

* ملحوظة: لقد ضُمَّ تفسير سورة الشعراء أيضا إلى هذا المجلد في الطبعة الحالية. سيد عبد الحي.

الرسالة. ليس بوسعي أن أؤدي حق الإشادة بأسلوبك الفريد في تفسير قوله تعالى: ﴿هؤلاء بناتي﴾ والذي هو مختلف تمامًا عن باقي المفسرين - أطال الله بقاءك".

وقال في رسالة أخرى:

"لقد ظل التفسير الكبير قيد مطالعتي بصورة مستمرة، وأواظب على قراءته ليلا بوجه خاص. أمَا كيف وجدتُه؟ فإن هذا السؤال يتطلب شرحًا كبيرًا. وباختصار، أرى أنه أول تفسير باللغة الأردية على الإطلاق يُقنع العقل الإنساني إلى حد كبير ..... ولا شك أن الخدمة التي أسدتْها مؤسستُكم إلى الإسلام من خلال هذا التفسير لعظيمة بحيث لا يسع معارضيكم أيضا إنكارها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء."

كان سيدنا أمير المؤمنين الخليفةُ الثاني - أيده الله تعالى - قد قام بمراجعة مسودة هذا التفسير العامَ الماضي نفسه، ولكن بما أن حجم الجزء الثاني من المجلد الخامس قد فاق المتوقع، لذا التمسنا من حضرته تأخير هذا المجلد إلى العام التالي، فقبِل التماسنا مشكورًا، فهنا نحن ننشره الآن.

وفي الأخير أرجو من قرائنا الأفاضل جميعا وبكل تواضع وإلحاح أن يدعو الله تعالى أن يشفي حبيبه "محمود" وإمامَنا الهمام شفاءً كاملا عاجلا، ويوفقه لإكمال هذا التفسير ذي النفع الكبير للإنسانية. آمين، اللهم آمين.

العبد المتواضع

جلال الدين شمس

ربوة في ١٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٦٠م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم   بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

وهي مع البسملة مئتان وثمان وعشرون آية وأحد عشر ركوعًا*

زمن نـــزولها: سورة الشعراء مكية عند معظم المفسرين، لكن مقاتل يرى أن بعض آياتها مدَنية منها قول الله تعالى عن الشعراء ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون﴾(الآية ٢٢٥)، وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ﴾(الآية ١٩٨). بينما يرى ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا أربع آيات منها نـــزلت بالمدينة، وهي قول الله تعالى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخر السورة (تفسير القرطبي)

والحق أن مثل هذه الأقوال لا قيمة لها، ويرجع ذلك إلى أمرين: أوّلهما أن المفسرين صنّفوا هذه الآيات إلى مكية أو مدنية لأن مضامينها تناسب الفترة المكية أو المدَنية؛ وثانيهما أنهم وجدوا بعض الأحداث التاريخية تتفق مع مضامين بعض الآيات فقالوا بكونها مكية أو مدَنية بناء على قياسهم. ولكن الحق أن هذا التمييز بين الآيات لا يصح إلا إذا كان هناك دليل قوي أو شهادة تاريخية. وعلى سبيل المثال، قد اعتبر مقاتل قول الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ﴾(الآية ١٩٨) من الآيات المدَنية، وليس ذلك إلا لكونه يتحدث عن علماء بني إسرائيل؛ وهذا خطأ، وذلك لأنه برغم أن سورة "مريم" مكية على وجه

* بالإضافة إلى تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضًا إلى ركوعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعـــة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان وإندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي. (المترجم)

القطعية واليقين (القرطبي)، إلا أنها مليئة بذكر المسيحية واليهودية. كما أن سورة "طه" أيضًا مكية يقينًا (القرطبي)، ومع ذلك فهي مليئة بذكر بني إسرائيل.

أما ابن عباس واثنان من تلاميذه فلم يعتبروا الآيتين الأخيرتين من هذه السورة مدَنية إلا لأنه قد ورد فيهما أن الشعراء لا عمل لهم سوى قرض الشعر تخريصًا وتكلفًا إلا الصالحين منهم، إذ المسلمون لم يتوجهوا إلى قرض الشعر بوجه خاص إلا خلال الفترة المدَنية و لم يكن بينهم شعراء قبل ذلك. ولكن هذا الاستدلال غير صحيح، لأن بيان المبادئ والقواعد لا يستلزم وقوع حوادث معينة؛ إذ لو سلّمنا بصحة طريقة هذا الاستدلال وطبّقناها على كتابات أرسطو وسقراط لكانت أمامنا سوانح غريبة لحياهما بناء على ما ورد في كتبهما. ألا يعلمون أن المرء قد يفكر أيضًا بعيدًا عن الوقائع والأحداث؟ وعليه، فلا يصعب على المرء أن يدرك إمكانية تناوُل القرآن الكريم بعضَ المواضيع والمبادئ بعيدًا عن الأحداث الجارية، وإن لم يعتبره كلام الله تعالى.

والأغرب من ذلك أنه لم يقع في هذا الخطأ في أول الأمر إلا المسلمون أنفسهم، ثم أخذ منهم المسيحيون فقاموا بتكراره وإثارته. ولكن كل من يتدبر في الأمر، وإن كان عدوًّا للإسلام، سيفطن إلى خطأ هذا الاستدلال. فمثلاً قد خطّأه "ويري" (R. Wherrey) في تفسيره، واعتبر هذه السورة كلها مكية بشكل يقيني. (تفسير القرآن الكريم لـــ "ويري")

إذًا، فهذا الاستدلال باطل حتمًا سواء قام به المسلمون أو المسيحيون. فلا يجوز لنا تحديد زمن السور إلا بناء على الشواهد التاريخية، ومع ذلك كل ما يجوز لنا قوله هو إن السورة الفلانية أو معظمها قد نـــزلت في الفترة الفلانية. أما أن نقول أكثر من ذلك بناء على القياس فقط، فسوف يجرّنا هذا إلى الخطأ، ولن يجلب لنا أي خير.

الترتيب والترابط: لقد قال الله تعالى في أواخر سورة "الفرقان" أن لا يظن الناس أنه تعالى سيدمر النظام الذي قد أقامه بواسطة الأديان القائمة في الدنيا منذ أزمان سحيقة. عليهم أن يعرفوا أن الله تعالى قد خلق الإنسان لكي يلبي نداءه ويتخلق

بأخلاقه تعالى، وإذا لم يحقق الإنسان هذا الهدف فما الداعي أن يحافظ الله على مثل هذا الإنسان أو النظام، ويأسفَ على هلاكه؟ أما في هذه السورة فقد بين الله تعالى أن محمدًا رسول الله ﷺ يتوجس خِيفةً من هذا الخطر نتيجة حبه وعطفه على الإنسانية، ويود أن يُنقَذ الناس من هذا الدمار إن أمكن. ولا شك أن تفكيره ﷺ هذا دليل على حبه الشديد للإنسانية، ولكنه تفكير لا يتماشى مع الخطة الإلهية. إنما يريد الله تعالى أن يهَب الإنسان العلم والعرفان ليتيح له الفرصة لكي يبحث برغبته وإرادته عن سبل التقرب إلى الله تعالى، وإذا لم يغتنم الإنسان هذه الفرصة فليتحمل النتائج المنطقية لذلك. ولولا هذه الخطة الإلهية لصار الإنسان كالآلة، ولم يكن ذلك الكائن الذي أراد الله تعالى أن يخلقه على صورته. لذا فبرغم أن ما يفكر به محمد ﷺ دليل على حبه وعطفه على الإنسانية، إلا أنه لا بد للإنسان أن يعيش بحسب الخطة الإلهية، وإلا فلن يحظى بالنجاة الحقيقية.

بدءًا من سورة "يونس" كان الخطاب موجهًا إلى النصارى واليهود، أما في هذه السورة فقد توجه إلى المسلمين، ومن أجل ذلك حدث تغيير في حروف المقطعات.

لقد سُمّيت هذه السورة "الشعراء" لأن مضمونها يؤكد أن الإنسان لا يمكن أن يحرز الرقي إلا إذا توافق قوله مع فعله، وأما الذين يقولون ما لا يفعلون فلا يحالفهم النجاح كما هي حال الشعراء. وكأن الله تعالى قد بيّن بذلك أن المسلمين هم وحدهم الذين ستتفق أفعالهم مع أقوالهم في هذا العصر، فلن يكون النجاح حليفًا لأحد سواهم. أما غيرهم فهم كالشعراء.. بمعنى أنهم يقومون بدعاوى عريضة، ولكن لا يعملون إلا قليلاً جدًّا، فلن ينجحوا إزاء المسلمين.

ملخص مضامينها: لقد أُشير في مستهلّ هذه السورة أنها والسور التالية لها شرحٌ لصفات الله الثلاث: اللطيف والسميع والمجيد، حيث برهنَ الله تعالى فيها على أنه مطّلع على أخفى الأسرار ومجيبًا للدعاء وعلى أن أحكامه تدل على عظمته وليس على أي ظلم وجبر منه تعالى. (الآية ٢)

إن هذا الكتاب يذكر بنفسه الأدلة على صدقه ولا يحتاج إلى مساعدة خارجية لهذا الغرض. (الآية ٣)

ثم يقول الله تعالى إننا لما أخبرْنا محمدًا بهلاك الكفّار في السور السابقة وبأننا لن نتركهم دون عقاب أصابه حزن شديد لعطفه الشديد على الإنسانية، ولكن حزنه هذا غير مجد، لأن الله تعالى قادر على أن يجبر هؤلاء القوم على الإيمان، ولكن لا فائدة من مثلٍ هذا الإيمان. (الآيتان ٤-٥)

إن هؤلاء القوم لا يريدون قبول الحقائق الثابتة ويسخرون من كل حقيقة. (الآيتان ٦-٧)

لقد خلق الله تعالى في الدنيا أسبابًا شتى لسد كل حاجة للناس، وخلق الأزواج من كل نوع، فما الغرابة في وجود الأزواج في العالم الروحاني؟ أي ما الحرج إذا خلق الله تعالى مثيلا لموسى ومثيلاً لعيسى؟ إن هذا ليس مدعاة للاعتراض، بل هو دليل على قدرة الله ورحمته. (الآيات ٨-١٠)

ألم يروا أن الله تعالى قد بعث موسى إلى فرعون، ولكنه خاف بطش أهل بلده واعتذر ليعفى من هذه المهمة واقترح أن يُبعث هارون عوضًا عنه؛ ولكن الله تعالى لم يقبل عذره لأنه كان هو الأولى والأنسب لذلك، غير أنه تعالى ضم إليه هارون قائلاً لهما إني معكما فاذهبا إلى فرعون وبلِّغاه رسالتي، وقولا له أن يسمح لبني إسرائيل بمغادرة البلاد. (الآيات ١١-١٨)

فذكّر فرعونُ موسى بما أسدى إليه من معروف في الماضي، وأثار بعض المطاعن على حياته متهمًا إياه بنكران الجميل. فقال له موسى ردًا على مطاعنه: لو كنتُ كما تظن لما اختارني الله تعالى لرسالته. (الآيات ١٩-٢٢)

ثم قال له موسى: ما قيمة أياديك عليّ إزاء ما فعلتَ بقومي حيث اتخذتَهم عبيدًا. (الآية ٢٣)

فغيّر فرعون مجرى الحوار متهربا وأخذ يثير بعض الاعتراضات على وجود البارئ تعالى. فلما أجابه موسى عجز فرعون عن الجواب وهدد موسى قائلا: لئن اتخذتَ إلـــهًا غيري لألقينَّك في السجن. فقال موسى: هل ترغب أن ترى بعض

آيات الله؟ قال: فأت بها إن كنت من الصادقين. فألقى موسى عصاه فرآها فرعون ثعبانًا. وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء لامعة. فعزا فرعون هذه الآيات إلى الشعوذة والسحر، وأثار قومه ضد موسى وقال: إنه يريد أن يتسيَّد عليكم ويخرجكم من دياركم. فأشاروا عليه أن يدعو السحرةَ ليبارزوا موسى. فدُعي السحرة فغُلبوا فآمنوا بموسى. (الآيات ٢٤-٥٢)

فأمرْنا موسى أن يخرج بقومه من تلك البلاد. (الآية ٥٣)

فهيّج فرعون قومه على موسى، وخرج يطاردهم، ولكنه هلك. فأعطى الله تعالى موسى مثل النعم التي كان يتمتع بها فرعون (وبالفعل يقال إن بلاد الشام هي مثل مصر بل هي أفضل منها). (الآيات ٥٤-٦٠)

ولما تقدم فرعون بجنوده خاف قوم موسى، فهدّأ من روعهم. فأخرج الله موسى وقومه من البحر عبر طريق يابس كمعجزة، وأغرق فرعون. (الآيات ٦١-٦٩)

ثم انظروا إلى إبراهيم الذي أخبر قومه أن الله تعالى يسمع ولكن أصنامهم لا تسمع بل لا حول لها ولا قوة. فأجابوه وقالوا: مهما يكن فإننا لن نترك الدين الذي وجدنا عليه آباءنا. فقال إبراهيم إن ما تعبدون من دون الله هم عدو لي، أما أنا فلا أؤمن إلا بالله الذي هو رب فعال متصرف في أمور الكون. منه ينـــزل الهدى، ومنه يأتي الرزق المادي، ومنه يأتي الشفاء، ومنه تأتي الحياة بعد الموت، وعليه نعقد الآمال كلها بعد الموت. (الآيات ٧٠-٩٠)

مِن سنة الله المستمرّة على الدوام أنه ينصر أهل الصلاح ويعاقب أهل الشر. إن المجرمين يتكبرون في أول الأمر، ولكنهم يضطرون للاعتذار في نهاية المطاف. وكل هذا يشكّل برهاناً على أن الله تعالى ملِكٌ ورحمن. (الآيات ٩١-١٠٥)

ثم انظروا إلى نوح، فهو الآخر أعلَن أنه مبعوث من عند الله تعالى، فأمر بفعل الخير، وأراد خدمة قومه بدون أي مقابل، ولكن معارضيه اعترضوا عليه وقالوا إن أتباعه من أراذل القوم فكيف يمكن أن ينتصر علينا. فقال لهم نوح: إنما تُعرف مكانة المرء بالأعمال الصالحة، لا بالعشيرة والسلطة. (الآيات ١٠٦-١١٦)

فهدّده المعارضون بدلاً من أن يجيبوه على ما قال، فابتهل إلى الله تعالى أن يحكم بينه وبين قومه. فلم تنفع المعارضين ما عندهم من أسباب مادية شيئًا، و لم يكن إلا ما أراده الله تعالى. (الآيات ١١٧-١٢٣)

ثم جاء هودٌ قومَه عادًا، فحصل معه ما حصل مع الرسل قبله. لقد نبه قومه أن الأمم لا تحيا بما تحققه من عظمة مادية، بل تحيا بالأخلاق والروحانية التي لا توجد فيكم. فقالوا له لقد قال الأولون أيضًا ما تقوله لنا، و لم تضر هذه الأقاويل أحدًا شيئًا. فأُخذوا وعُوقبوا في نهاية المطاف. (الآيات ١٢٤-١٤١)

ثم جاء صالح قومَه ثمودَ، وأعلن أنه جاء ليخدمهم بدون مقابل، وأخبرهم أن العظمة المادية بدون القوة الروحانية تدفع الأمم إلى الدمار. فرفضه قومه وقالوا كيف يمكن أن نتبع شخصًا حقيرًا مثلك. فعوقبوا في نهاية الأمر. (الآيات ١٤٢-١٦٠)

ثم جاء لوط، فحل بقومه مثل ما حل بغيرهم من قبل إذ كانوا متورطين في المساوئ الخُلقية. (الآيات ١٦١-١٧٦)

ثم جاء زمن أصحاب الأيكة، فعاملوا نبيهم شعيبًا المعاملة نفسها، فأخذهم الله تعالى، وكانوا يغشّون في تجارتهم ويُخسرون الميزان. (الآيات ١٧٧-١٩٢)

كذلك فإن هذا القرآن وحي الله تعالى ويقدم أدلة صدقه بنفسه. إن الأنبياء السابقين قد أنبأوا به، وإن علماء بني إسرائيل أيضًا يعرفون صدقه بناء على ما ورد في كتبهم. ثم إنه قد نـزل بلغة القوم الذين هم أول المخاطَبين به. ولو نـزل القرآن بلغة غير لغتهم لم يفهموه، فلم لا يتدبرون في القرآن وقد نـزل بلغتهم؟ فليس سبب إنكارهم إلا أنه قد حال دونهم ودون الإيمان ما قد حال دون إيمان أمم الأنبياء السابقين. إنهم ينتظرون العذاب، ولكن ماذا ينفعهم العذاب إذا جاءهم؟ لو كان محمد ﷺ صادقًا فعليهم أن يدركوا أن مجيئه هو بمثابة العذاب للذين لن يصلحوا ما بأنفسهم. (الآيات ١٩٣-٢١٠)

على الناس أن يتدبروا تعاليم القرآن الكريم ليروا ما إذا كان فيها ما يؤيد الشيطانَ. وإذا لم يكن فيه ما يدعم الشيطانَ، فكيف يظنون أن الشيطان نـزل بهذه التعاليم التي تعارض الشيطان وتنصر اللهَ تعالى؟ و لم لا يدركون أن الشيطان لا

يقدر على أن يأتي بهذا الكلام العظيم المليء بالمعارف؟ إن ما في القرآن هو ما يأتي به الأنبياء الصادقون، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يسمع الكلام الذي ينـزل على أنبياء الله الصادقين. فيا أيها الرسول، استمرّ في تبليغ رسالة الإله الواحد، وابدأْ بدعوة قومك أوّلاً. فمن آمن منهم فعليك بتربيتهم، أما الذين كفروا فأعرضْ عنهم متوكلاً على الله تعالى الذي يراك وسيهبك القوة والغلبة. لن يبقى المسلمون متفرقين هنا وهناك طويلا، بل سيجمعهم الله تعالى حيث يعيشون معًا، وحيث يعبدون الله الأحد في حرية، لأنه تعالى مجيب الدعاء.

إنما تتنـزل الشياطين على الأفّاكين الآثمين. إنها تتنصت إلى ما ينـزل من السماء، وأكثرهم كاذبون. والشعراء يتبعهم الضالون الغاوون الذين ليس همُّهم إلا التمتع بالكلمات الجميلة، أما العمل الصالح فلا يوجد له أثر عند المعلمين منهم ولا تلاميذهم. أما المؤمنون فهم عابدون لله ودعاةٌ للصدق. يتحملون الأذى في سبيل الصدق، ولا يرفعون السلاح إلا إذا اضطروا للدفاع؛ والدليل على صدقهم أنهم، رغم ضعفهم، يتغلبون على الأعداء في النهاية. (الآيات ٢٢١-٢٢٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

طسم ﴿٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٣﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

المُبين: أبان الشيءُ: اتضح، وأبان فلانٌ الشيءَ: أوضحه. (أقرب الموارد)

باخعٌ: بَخَع بالشاة: بلَغ بذبحها القفا (الأقرب). والبَخع: قتلُ النفس غمًّا (المفردات)

التفسير: اعلم أن الطاء في مقطع "طسم" اختزال لاسم الله تعالى اللطيف، والسين للسميع، والميم للمجيد. في هذه السورة والسور التابعة لها في المضمون قد سلّط الله تعالى الضوءَ وقدّم البراهين على كونه محسنًا عظيمًا وعليمًا بخفايا العباد ومجيبًا لدعائهم، وعلى أن قوانينه تؤكد مجده وسمو شأنه، وليس فيها ما يدل على ظلم أو إكراه منه تعالى.*

واعلم أن من أبرز مزايا الإسلام أنه يعرض على الناس صفات الله تعالى بشكل مكتمل لا يوجد له نظير في أي من الكتب السماوية السابقة. لا شك أن كل كتاب سماوي قد قدّم للناس وجود البارئ تعالى وركّز على أهمية الإيمان به ﷻ لأن الله تعالى هو جوهر الدين وأساسه، ولو لم يقدم الدين للناس وجود البارئ تعالى فوجود هذا الدين وعدمه سيّان؛ ولكن فيما يتعلق بصفات البارئ تعالى ونوعية صلته ومعاملته لعباده فهي أمور لم تتحدث عنها الصحف السابقة بالتفصيل. ولا جرم أن مجرد قولنا "الله محبّة" (رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤ : ٨)، أو "أن إلهنا رحيم

* اقرأْ شرحًا مفصلاً للمقطعات في الجزء الثالث من هذا التفسير تحت قوله تعالى من سورة يونس: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. (المترجم)

كريم" لا يقدم صورة حقيقية لصفات الله الحسنى. بل الحق أن نسبة مثل هذه الصفات إلى الله تعالى قد تُعَدّ نتيجة للأفكار الدنيوية والأغراض المادية؛ فمثلا يمكن أن يقال إن هؤلاء القوم لما وجدوا الناس يستحسنون الرحمة قالوا إن الله رحيم، أو لما رأوا أن الناس يشيدون بالإحسان والكرم قالوا إن ربنا محسن وكريم. فثبت أن ذكر الأديان السابقة بعضًا من صفات الله تعالى فقط ليس دليلا على أنها قد ألقت على هذه القضية الضوء المفصل.

ثم إذا كانت بعض تلك الأديان قد ذكرت في كتبها بعض صفات الله الأخرى فهي لم تقم بشرحها، كما لم توضح ما يوجد بين مختلف صفات الله تعالى من صلات.

أتذكّر جيدًا أنني رأيت في الرؤيا مرة أن أحد المسلمين الألمان الجدد يسألني سؤالاً، فأذكر له في الجواب بعض صفات الله تعالى التي منها صفة الرب. فقال لي: إن هذه الصفات مذكورة في التوراة أيضًا. وكان لقوله تفسيران محتملان: أوّلهما أن هذه الصفات مذكورة في التوراة، فلا يمكن أن يكون لهذا الدليل أي تأثير في النصارى، وثانيهما أن القرآن إنما يقلّد التوراة فحسب. ونظرًا إلى هذين المعنيين قلت في نفسي: إن هذا الشخص مسلم جديد، فلربما يقول في نفسه إن معظم تعاليم القرآن تشبه تعاليم التوراة، فما فضل القرآن إذًا؟ وبمجرد أن تولدت هذه الفكرة في نفسي بدأتُ ألقي أمامه خطابًا حماسيا وأقول: إن صفات الله التي ذكرها القرآن مميزة على الصفات التي ذكرتها التوراة. فقد ذكرتها التوراة ذكرًا عاديا كأسماء الله فقط، بينما ذكر القرآن دقائق تلك الصفات وأسرارها ووسّع نطاق مضامينها. وقلتُ: خذوا مثلا صفة الرب التي قد ذكرتها التوراة أيضا، حيث قالت إن الله تعالى خالق أو مربٍّ أو خالق السماوات والأرض، ولكن القرآن لا يكتفي بهذا القول فقط، بل يخبر في سورة الفاتحة أن الله رب العالمين. وكلمتا "رب" و"العالمين" كلتاهما تحتويان على دلالة مميزة، حيث لا يعني لفظ "الرب" أن الله تعالى خالق أو مربٍّ فحسب، بل يدل أيضا على أنه يطور بالتدريج ما في الإنسان من دقائق القوى والقدرات على أحسن وجه. ثم إن كلمة "العالمين" أيضًا لا تتضمن

معنى الأرض والسماوات فحسب، بل تدلّ أيضا على شتى الكيفيات والحالات التي تكون فيها شتى المخلوقات الأخرى؛ فكلمة ﴿ربّ العالمين﴾ تعني أن الله تعالى رب هذا العالم، كما أنه رب العوالم الأخرى أيضا؛ وأنه رب السماوات ورب الأرضين أيضا؛ وأنه رب عالم الأجسام وعالم الأرواح، وعالم النساء وعالم الرجال، وعالم الفكر وعالم الشعور، وعالم التصور وعالم التقدير، وعالم العقل؛ بمعنى أنه لا يهيئ لنا الخبز المادي ولا يمدّنا بما ينمّي الأجسام فقط، بل يهيّئ الأسباب لتنمية الأرواح أيضا. كما أنه أمرنا في القرآن الكريم بتنمية كل ما في الفطرة الإنسانية من عواطف وحاجات. فلم أزل في الرؤيا ألقي أمام هذا المسلم الجديد خطابا مستفيضا حول هذا الموضوع في متعة وسرور، وكنت أشعر أنه قد انكشف عليّ معنى جديد وأنني في حالة جديدة، إلى أن تنبّهت من النوم.

إذًا، فأوّلاً قد تحدثت الصحف السماوية السابقة عن صفات الله تعالى حديثًا مجملا لا يكشف لنا عظمتها كما ينبغي، وثانيًا إنها لم تشرح تلك الصفاتِ، وثالثًا لم توضح العلاقاتِ الكامنة بين شتى الصفات الإلهية. أما الإسلام فقد قدم لبني الإنسان تعليما جامعا مكتملا، فبيّن أن صفات الله تعالى نوعان: أوّلهما الصفات التنزيهية التي تنزه الله تعالى وتقدّسه عن كل ما يوجد في المخلوقات والأشياء المادية من خواص، وثانيهما الصفات التشبيهية أي صفات الله التي تبدو مشابهة لصفات المخلوقات. فالإسلام يخبرنا أن الله تعالى - الذي هو المحور للكون كله - هو أحد.. أي أنه وحيد ومنفرد في ذاته. ثم إنه ﴿الصَّمَدُ﴾.. أي الذي يحتاج إليه الجميع، ولا يحتاج هو إلى أحد. وأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.. أي أنه لم ينجب أي أولاد، كما هو ليس مولودا لأحد. ثم أخبر القرآن الكريم عن الله تعالى أنه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.. أي ليس ثمةَ قوة تعمل مع الله جنبًا بجنب، كما ليس هناك قوة تكون ندًّا له تعالى. ثم إنه تعالى ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾.. أي أنه علّةُ العلل لجميع الأشياء، وأن كل المخلوقات ترجع إليه هو. ثم إن الله تعالى ﴿القدير﴾.. أي أنه يملك القدرة كلها على تنفيذ كل ما يريد. ثم إنه ﴿الحيّ﴾.. أي الذي يحيا على الدوام، والذي يهب الحياة للآخرين. ثم إنه تعالى ﴿القيّوم﴾.. أي أنه قائم بذاته

كما أنه سبب قيام كل ما سواه. ثم إنه تعالى ﴿ربُّ العالمين﴾.. أي أنه خالق كل العوالم ومربّيها. وإنه تعالى ﴿الرحمن﴾.. أي أنه قد هيّأ بمحض فضله كل ما يحتاج إليه الناس حتى قبل أن يخلقهم. وإنه تعالى ﴿الرحيم﴾.. أي أنه يأتي بأفضل النتائج لجهود الناس ومساعيهم. وإنه تعالى ﴿مالِك يوم الدين﴾.. أي أنه تعالى، بالإضافة إلى النتائج التي يأتي بها بحسب القوانين الطبيعية، قد جعل لكل عمل نهاية يصدر عندها قراره الأخير، فينال الصالح جزاء حسناته وينال الشرير عقاب سيئاته. ولكن هذا الجزاء أو العقاب يكون خاضعا لمالكية الله تعالى.. أي أنه لا يعاقب العباد فحسب، بل يعفو عنهم أيضا إذا شاء. ثم إنه تعالى﴿العليم﴾.. أي عنده العلم بكل ذرة في الكون بل بكل ما في الفطرة الإنسانية من أسرار خفية. ثم إنه تعالى ﴿السميع﴾.. أي أنه يسمع دعاء الناس وابتهالهم ويستجيب لهم. وإنه تعالى ﴿القهّار﴾.. أي أن كل شيء في قبضة قدرته. وإنه تعالى هو ﴿الجبّار﴾.. أي أنه يصلح كل فساد. وإنه تعالى ﴿الوهّاب﴾.. أي أنه يعطي عباده حظا وافرا من نعمه. وإنه تعالى ﴿الغفور﴾.. أي أنه يتغاضى عن أخطاء عباده. وإنه تعالى ﴿المهيمِن﴾.. أي أنه المحافظ والمراقب لكل شيء. وإنه تعالى ﴿السلام﴾.. أي أنه يهب للناس السلام. وإنه ﴿القابض﴾.. أي أنه يجعل كل شيء في حدّ معين. وإنه تعالى ﴿الباسط﴾.. أي أنه يعطي عباده السعة والرخاء. وإنه تعالى ﴿الرافع﴾.. أي أنه يرفع الإنسان ويوصله إلى أعلى الدرجات. وإنه تعالى ﴿الحفيظ﴾.. أي أنه يحفظ الخلائق ويحميهم. وإنه تعالى ﴿المتكلم﴾.. أي أنه يتكلم مع عباده وينزل عليهم وحيه وإلهامه.

باختصار، إن الإسلام يعرض على العالم إلهًا كامل الصفات. إنه لا يقول كالمسيحية إن الله محبّة، ثم يلزم السكوت. وإنه لا يكتفي كالتوراة ببيان بعض صفات الله تعالى، بل يذكر بالتفصيل جميع صفات الله التي هي وثيقة الصلة بخلق الإنسان. وكأن الإسلام قد كشف جميع أقسام السماء، مما يشكل دليلا بينًا على أنه قد نزل من السماء.

ثم إن الإسلام لم يكتف بتقديم صورة مكتملة لصفات الله تعالى فحسب، بل أخبر الناس أيضا أنهم إذا أرادوا التقرب إلى الله تعالى فسبيله أن يصطبغوا بصبغة الله، أي عليهم أن يحاولوا محاكاة صفات الله وتقليدها. يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ﴾(الأعراف:١٢). وهذه الآية توضح أن للإنسان خلقتين: خلقة بشرية، وخلقة روحانية، والخلقة البشرية مذكورة في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾.. أي جعلناكم كائنات ذات حياة، وأما الخلقة الروحانية فقال الله تعالى بصددها ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾.. أي أعطيناكم صورة روحانية تتميزون بها عن باقي المخلوقات. وإلى هذا المعنى نفسه قد أشير في التوراة كالآتي: "خلَق الله الإنسان على صورته" (التكوين ١: ٢٧). ولكن كلمات التوراة توهم وكأن الله تعالى شيء مادي، أما كلمات القرآن فتوضح بجلاء أن المراد من الصورة هنا صورة روحانية لا مادية، ذلك لأن الله تعالى قد سبق أن ذكر الخلق المادي، فليس المراد من قول الله بعد ذلك ﴿صوّرناكم﴾ إلا أننا زوّدناكم بقوًى وقدرات تستطيعون بها محاولة الاتصاف بصفات الله تعالى، بمعنى أننا قد خلقنا الإنسان خلقًا جسمانيًّا أولاً، فجعلنا له الأنف والأذن والأيدي والأرجل وغيرها من الأعضاء، ثم قمنا بتنمية عقله وتطوير قواه بحيث أصبح جديرًا بالاصطباغ بصبغة صفات الله تعالى وانعكاسها؛ ثم بعد ذلك قلنا للملائكة اسجدوا لهذا الإنسان. وبما أن القرآن الكريم يركّز بشدّة على أن السجود لا يجوز لغير الله تعالى، فالمراد من السجود هنا سجود مجازي وهو الطاعة والانقياد. غير أن السجود المجازي أيضا إنما يتم أمام إله مجازي، ولذلك قال الله تعالى ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾.. أي أننا زودناكم بصفات فيها شبهٌ بصفات الله تعالى أولاً، وعندما صرتم قابلين للاتصاف بها والتحلي بها، قلنا للملائكة: لا شك أن السجود الحقيقي لا يجوز لغيري بحال من الأحوال، إلا أننا نأمركم بسجود مجازي، وهذا السجود المجازي يتطلب إلهًا مجازيًا، وهذا الإله المجازي هو الإنسان الذي فيه انعكاس لصفات الله تعالى. ولكن لو فُسّر قوله تعالى ﴿اسجدوا لآدم﴾ أن يسجد الملائكة لكل إنسان، لم يستقم المعنى، إذ

يكون المراد عندها أنه إذا سرق إنسان فعليكم مساعدته في السرقة، وإذا سلب أحدٌ غيره فعليكم أيضا أن تسلبوه، وإذا أراد أحدٌ قتل الآخرين فعليكم أيضا بقتلهم. وهذا المعنى خطأ بالبداهة. إنما يصحّ السجود لآدم الذي لا يمكن أن يسرق أو يكذب أو يخدع أو يظلم أو يقع في أي سيئة أخرى أبدا. وبما أنه يكون متصفا بصفات أفضل من صفات الملائكة فلا بأس مطلقًا في طاعتهم لآدم كهذا. وأنّى للملائكة أن لا يتبعوا مَن يكون مظهرًا لصفات الله تعالى؟! كلا بل إن من واجبهم أن يكونوا معه.

إذًا، فإن الله تعالى قد زوّد كل إنسان بملَكة يستطيع بها أن يكون مظهرًا لله تعالى، وإذا تحلّى أحد بصفات الله تعالى أمَر ملائكته بنصرته. وإلى هذا المعنى يشير حديث الرسول ﷺ أن الله تعالى إذا أراد أن يجعل عبدًا من عباده مقبولا في الدنيا أمَر ملائكته، فيعملون على نشر قبوله في الدنيا. (كنز العمال: كتاب الفراسة، البخاري: كتاب بدء الخَلق، باب ذكر الملائكة).

إذًا، فكل إنسان مزوَّد بملَكةِ التحلّي بصفات الله تعالى، ولو تحلى بها فإن الله تعالى يأمر ملائكته باتّباعه، لكونه قد أصبح كائنا ينعكس فيه الله تعالى، ويتم له الارتباط به ﷻ والاتصال به. ذلك لأننا نرى في الدنيا أيضا أن الشيء لا يتصل بشيء إلا إذا كان بينهما نوع من المشابهة. فمثلا بوسعنا أن نوصّل الحديد أو الجلد بالخشب لأن بينهما مشابهة، وهي أن كليهما صلب، ولكن لا نستطيع أن نجعل الماء أو الهواء يتصل بالخشب، إذ لا مشابهة بينها. ونفس الحال في العالم الروحاني أيضًا، فلا بد أن يوجد بين شيئين روحانيين اشتراك حتى يتم بينهما الاتصال. فلكي يتصل العبد بالله تعالى لا بد أن يوجد بينه وبين ربه نوع من المشابهة، وما هي إلا أن يتخلّق بأخلاقه تعالى. وعندما يتحلى العبد بصفات كصفاته تعالى يصطبغ بصبغة الألوهية، فيصبح الاتصال بينه وبين ربه ممكنا كما أن اتصال الخشب بالحديد ممكن. ورغم أن العبد لا يمكن أن يصبح إلهًا إلا أنه يصبح كمرآة تعكس وجه الله تعالى، شأنه شأن الخشب الذي لا يمكن أن يصبح حديدا، أو الحديدِ الذي لا يمكن أن يصبح خشبا، إلا أنهما مهيَّآن للاتصال فيما بينهما.

إذًا، من أجل الارتباط والوصال بالله والتقرب إليه لا بد للإنسان أن يتخلّق بأخلاق الله تعالى وأن يمتلئ قلبه بحبه تعالى، فإذا فعل ذلك جذبتْه محبة الله تعالى إليه كما يجذب المغناطيس قطعة الحديد.

إن هذا التعليم الذي عرضه الإسلام على العالم يبلغ من الأهمية بحيث لو بذل كل إنسان جهده بحسبه وأصبح مظهرًا لصفات الله تعالى لتغيرت خريطة العالم يقينا ولتبوّأ كل إنسان مقاما عاليا من الصلاح، بحيث يصبح من المحال لأحد أن يجعل قدمه تزل بعد ثبوتها على هذا المقام العالي.

وقد عُلّمت هذه الحقيقة في إحدى الرؤى حيث رأيتني ألقي خطابا وفي يدي مرآة، وأقول للناس أثناء الخطاب إن الله تعالى قد جعل قلب الإنسان مثل المرآة. وكما أن الإنسان يرى جماله في المرآة كذلك يريد الله تعالى أن يرى جماله في مرآة قلب الإنسان؛ فإذا عكس قلبه صفاته تعالى بشكل جيد، اعتبره الله تعالى متاعًا غاليًا، ولكن لو كان قلبه وسخًا ورديئا و لم يعكس وجهه تعالى أو عكَسه بشكل خاطئ، لم يقبل الله قلبه ورماه بعيدا. ولما قلتُ هذه الكلمات رميتُ المرآة التي كانت بيدي على الأرض قائلاً: هكذا يرمي الله تعالى مثل هذا القلب الوسخ، فينكسر ويتناثر. (جريدة "الفضل" قاديان ١٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٤م ص ١٢)

إن هذه الرؤيا تبيّن نفس الأمر؛ أي أن الله تعالى قد خلق الإنسان ليعكس نوره ويكون مظهرًا لصفاته تعالى. فمن الضروري أن يكون كل إنسان، في نطاق وسعه، ربًّا ورحمانًا ورحيمًا ومالك يوم الدين وجبّارًا وستّارًا وغفّارًا وعليمًا وشكورًا وحميدًا ومجيدًا وودودًا. يجب أن يعكس كل صفات الله تعالى التي من المشهور عنها أنها تسع وتسعون (البخاري: كتاب الشروط، باب ما يجوز من الأشراط)، ولكنها في الحقيقة أكثر من ذلك بكثير. ولو فعل الإنسان ذلك لحقق الغاية من خلقه، أما إذا لم تنعكس صفات الله تعالى في مرآة قلبه فهو كإناء مكسور لا فائدة منه، أو كمرآة وسخة قد أكلها الصدأ فلا تعكس وجه الله تعالى. وكما أن الإنسان لا يحتفظ بالمرآة الوسخة المتآكلة بالصدأ، كذلك لا يحتفظ الله سبحانه وتعالى بمثل

هذه المرآة الإنسانية التي كان من المفروض أن تعكس وجه الله تعالى، ولكنها بسبب وسخها ودرنها لا تعكس الجمال الإلهي.

مجمل القول إن الإسلام يركز على بيان صفات الله تعالى بشكل خاص، وينبّه الناس إلى أن حسنهم كلّه متوقف على محاولة اصطباغهم بصبغة صفات الله تعالى. عليهم أن يتذكروا جيدا أنه كلما تمكن المرء من الاتصاف بصفات الله تعالى تحلى بالأخلاق الفاضلة أكثر، وبالتالي حظي بقرب الله تعالى أكثر. وهذا يعني أن الإسلام يقدم تعريف الحسنة والسيئة من منظور جديد، ويبني الأخلاق السامية على أساس انعكاس الصفات الإلهية. إن هذه النظرية الإسلامية مهمّة للغاية، والحقّ أننا لو تدبرناها لوجدنا أنها قد أحدثت في عالم الأديان ثورة، وغيّرت تعريف الحسنة والسيئة كلية. فإننا نرى أن الذين هم ليسوا معتادين على التفكير العميق إنما يؤدون العمل الذي يعجبهم، أما ما لم يعجبهم فلا يؤدونه. والحسنة عندهم هو ما يحبونه، والسيئة ما يكرهونه. والحق أن هذا التعريف للسيئة والحسنة باطل تماما، لأن هناك آلافًا من الناس الذين يرغبون في عمل شيء اليوم، ولكنهم لا يرغبون في القيام به غدا، ومن الناس من لا يحب اليوم شيئا يجب أن يحبّه، ولكنه يرغب فيه غدًا، ولو سأله أحد: لماذا رغبت في ذلك الشيء من قبل ولا ترغب فيه الآن، ولماذا كرهت هذا الشيء من قبل وترغب فيه الآن؟ فربما يقول إن ظروفي كانت مختلفة من قبل، أو يقول لقد كنتُ مخطئا حين لم أرغب فيه من قبل، وقد أصبتُ حينما رغبت فيه الآن؛ ولكن الحق أن قوله هذا أيضا ليس أمرا قطعيًا، إذ من الممكن تماما أن يكره غدًا ما بدأ يحبه اليوم.

ثم لو كانت الحسنة ما يحبّ المرء فعله، فهل على المرء أن يسكت إذا قتل أحد والده بحجة أن القاتل يحب ذلك؟ وهل على السيد أن يسكت على تقاعس خادمه في تنفيذ أوامره لو قال له الخادم إن هذا العمل لا يعجبني؟ إذا كان حبُّ المرء لفعلٍ ما هو الحسنة، فليس من العدل أن يرفع أحد القضية ضد قاتل أبيه، كما أنه من الظلم أن يعاقب السيد خادمه عند التقاعس في تنفيذ الأمر، ذلك لأن القاتل أحب قتل القتيل، ولأن الخادم يحب التقاعس عن القيام بما يأمره سيده. ولكن ما نراه

على صعيد الواقع يبطل هذه النظرية، لأن الشخص الذي يقول إن الحسنة ما يحبّه المرء وإن السيئة ما يكرهه، يثور غضبًا إذا ما قتل أحد أباه ويصرّ على أخذ الثأر منه، مع أنه كان من الواجب عليه أن يفرح بما فعله قاتل أبيه لأنه قد قام بعمل حسن بحسب النظرية التي يقول بها ابن القتيل عن الحسنة والسيئة. كما كان على السيد أن لا يعاقب الخادمَ عند تقاعسه عن العمل وقوله إني أحببتُ التقاعس، بل كان عليه أن يفرح لأن خادمه سائر في طريق الحسنة. ولكن هذا لا يحدث على أرض الواقع أبدًا، فثبت أن هذا التعريف للحسنة والسيئة ليس صائبًا على الإطلاق.

وهناك آخرون تقدموا خطوة أخرى بصدد تعريف الحسنة والسيئة، فزعموا أن الحسنة ما يحبه المجتمع والسيئة ما يكرهه المجتمع. ولكننا نقول مقابل هذا التعريف إن المجتمع الهندوسي لا يحب أكل لحم البقر لأنه إثم كبير عنده، بينما يحب المجتمع المسلم أكله لأنه جائز في دينه؛ وبالمثل نجد المجتمع السيخي يحبّ أكل لحم الحيوان الذي لا يُذبح وإنما يُقطع رأسه بضربة واحدة، ولكن المجتمع المسلم ينهى عن أكله لأنه حرام عنده؛ ثم إن المجتمع الأوروبي يحب شرب الخمر، ولكن المجتمع المسلم لا يحب شربها لأنها حرام؛ فبحسب رغبة أي المجتمعات نفصل في هذه الأمور؟ أنحكم بحسب رغبة المجتمع المسلم أم المجتمع السيخي أم المجتمع الهندوسي أم المجتمع الأوروبي؟ فلو حكمنا بحسب رغبة المجتمع الهندوسي الذي يعدّ أكل لحم البقر جريمة عظيمة، لقال المجتمع المسلم كلا، بل إن أكله جائز. ولو حكمنا بحسب رغبة المجتمع السيخي القائل بأكل لحم الحيوان المقطوع عنقه بضربة واحدة، لقال المسلم كلا، بل إن أكله حرام. ولو حكمنا بجواز شرب الخمر نزولاً عند رغبة المجتمع الأوروبي، لقال المسلم كلا، بل إن شربها حرام. إذًا، لن نجد مجتمعا واحدا ترضى بقيةُ المجتمعات برغباته، ولو فصلنا الأمر بحسب الرغبات ما رضي أحد عن الآخرين. هنالك آلاف القضايا التي يوجد حولها اختلاف كبير بين الناس فيما إذا كانت حسنةً أو سيئة. فثمّة عمل يعتبره هذا المجتمع حسنة كبيرة، بينما يعتبره المجتمع الآخر جريمة كبيرة، وهناك فعل يعتبره أحد المجتمعات ذنبا كبيرا بينما يعتبره مجتمع آخر عين الصواب. فمثلا يعتبر الأوروبيون شرب الخمر عملا حسنا، ولكن

المسلمين يعدّون شربها إثمًا كبيرًا. فهل نعتبر شرب الخمر حسنة كبيرة بحسب معيار الأوروبيين، أم نعتبره سيئة كبيرة بحسب معيار الإسلام؟ فإذا قدّم أوروبي لمسلم كأس الخمر ورفضها المسلم، فهل نعتبر تصرف المسلم عملا خلاف التحضّر والتهذيب بحسب معيار الأوروبيين، أم نعتبر تصرّفه حسنة بحسب معيار الإسلام؟ ما هو السبب الذي نقبل بحسبه قول المجتمع المسلم أو نرفض موقف المجتمع المسيحي؟ أو نقبل الموقف المسيحي ونرفض الموقف المسلم؟

ثم هناك قوم تقدّموا أكثر من ذلك وقالوا أن الحسنة ما يحبّه أغلبية الناس، وأن السيئة ما تكرهه أغلبيتهم. ولكن هذا التعريف أيضا ليس صحيحًا، إذ لا يمكننا أن نعتبر ما تراه الأكثرية معيارًا لمعرفة الحسنة أو السيئة إلا إذا تمسكت هذه الأكثرية بموقف واحد على الدوام، فإن ما نراه على صعيد الواقع هو أن أفكار الأكثرية تختلف من زمن إلى زمن ومن بلد إلى بلد ومن قوم إلى قوم؛ فكيف يمكن إذن أن يكون رأي أكثرية الناس معيارا لمعرفة الحسنة أو السيئة؟

ثم إننا لو اعتبرنا هذا التعريف صحيحا لكان معنى ذلك أن الأكثرية إذا قالت إن الله غير موجود، لكان إنكاره ﷻ هو الحسنة في ذلك العصر! وإذا قالت الأكثرية إن الله موجود لكان الإيمان به ﷻ هو الحسنة في ذلك الزمن، وكان إنكاره تعالى سيئة؛ وهذا يعني أن تعريف الحسنة والسيئة سيتغيّر وفق تغيُّر عقائد الأكثرية. فثبت أن هذا التعريف أيضا ليس تعريفا ثابتًا.

وهناك قوم يقولون أن الحسنة ما يجلب سرورا أكثر، وأن السيئة ما لا يجلب سرورا مثله في ظروف مماثلة. ولكن هذا التعريف أيضا ليس تعريفا صائبا، لأن هذا يعني أن أحدا إذا صار أكثر سعادة بالسطو على أموال الناس كان السلب والسطو هو أفضل حسنة بالنسبة له؛ ولكن لا أحد يقبل هذا الأمر.

ومن الناس من يقول إن الحسنة ما هو نافع لمعظم الناس. ولكنا لو قبلنا هذا التعريف لوجب علينا التسليم بأن فرنسا لو أغارت على بلجيكا لكان عملا حسنًا، ذلك لأن سكان فرنسا أكثر من بلجيكا. لا شك أن سكان بلجيكا الذين هم أقل عددا سيتضررون نتيجة هذا الهجوم، ولكن هجوم الفرنسيين على البلجيكيين

وسلبهم أموالهم سيعتبر حسنة، لأن الفرنسيين الذين سينتفعون من هذا الهجوم هم أكثر عددا. وهكذا فإن هذا التعريف سيجيز لكل أكثرية أن تستبيح أموال أي أقلية، ثم تقول إنه عمل حسن؛ وإذا سئلت: كيف يكون سلب أموال الناس عملا حسنا؟ أجابت: انظروا في الكتب فقد ورد فيها أن الحسنة ما كان عليه أكثر أهل الدنيا. وعلى النقيض لو هاجمت شعوب قليلة العدد أممًا أكثر عددا واستولت على أموالها، لعُدَّ تصرُّفها هذا سيئة، لأن فيه فائدة الأقلية وضرر الأكثرية.

وقد قال البعض أن الحسنة ما يكون نفعه واسع النطاق وطويل المدى. ولكن هذا التعريف أيضا يلزمنا القول أن الأمة التي تقوم بأعمال السطو والسلب لمئة سنة هي أقل حسنة من الأمة التي تقوم بهذه الأعمال لمئتي سنة.

ومن الناس من يقول أن الحسنة ما تنفع صاحبها أكثر، وأن السيئة ما تضر صاحبها. ولكن الكذب لو نفع صاحبه أكثر لعُدَّ حسنةً بالنسبة إليه فقط، ولكن لا أحد يقول بصحة ذلك.

وهناك قوم يقولون أن تعريف الحسنة والسيئة يجب أن يتم على أساس الفطرة، فالحسنة ما هو حسن عند الفطرة، والسيئة ما هو سيئ عند الفطرة. هذا التعريف مصيب إلى حد ما ولكنه ليس بصحيح تماما. لقد ذكرت في مناسبات عديدة أن الخليفة الأول للمسيح الموعود ﷺ كان يحكي أنه قال لسارق مرة أن السرقة عمل سيئ للغاية، وعليك أن تكسب المال الحلال بجهودك. فقال: أيها الشيخ، إننا نحن السارقين نبذل جهودا كبيرة ونواجه أخطارًا شتى في أثناء عملية السرقة، فأرى ألا بأس في السرقة بل هي عمل جائز تمامًا! فقال حضرته للسارق: لو وضعتَ الذهب المسروق عند صائغ وطلبته منه بعد بضعة أيام، فرفض طلبك وقال لم تعطني أي ذهب، فماذا ستقول عن هذا الصائغ؟ فقال السارق: هل يوجد في الدنيا رجل خبيث يأكل أموال الناس بهذه الطريقة؟ وهكذا نرى أن مما لا شك فيه أن فطرة الإنسان تخبره بما هو حسن وسيئ، ولكن بقدر محدود، لأنها تصبح في بعض الأحيان مشوّهة ممسوخة من جراء البيئة المحيطة بها.

والآن يبقى السؤال: ما هو تعريف الحسنة والسيئة إذًا؟ هل الحسنة ما يعتبرها الدين حسنة والسيئة ما يعتبرها سيئة؟ وإذا كان هذا الكلام صحيحا فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: أي الأديان حسناته حسنات وسيئاته سيئات حقًّا؟ والإجابة على هذا السؤال صعبة للغاية. فإن في الدنيا ديانات كثيرة، وهي تختلف اختلافًا كبيرًا فيما يتعلق بتعريف الحسنة والسيئة. فهناك عمل يعتبره أحد الأديان حسنة، بينما يعتبره دين آخر سيئة. إذًا فهذا التعريف أيضًا لا يمدّنا بعلم حقيقي بصدد الحسنة والسيئة.

ثم هناك سؤال آخر: إذا اعتُبر عمل ما إثمًا لا لحكمة، بل لمجرد أن الشرع ينهى عنه، فسوف يُعتبر حكم الشرع هذا لغوًا وعبثا، أما إذا اعتُبر هذا العمل سيئًا لكونه سيئًا فلا يصحّ القول بأن السيئة هي ما ينهى عنه الشرع، وإنما الصحيح هو أن الشرع ينهى عما هو سيئ؛ وفي هذه الحالة يجب أن نُرجع ذلك الأمر أو النهي إلى تلك الحكمة وليس إلى الشرع. إذًا، فلا يكفي أيضًا القول أن ما ينهى عنه الشرع هو السيئة وأن ما يأمر به الشرع هو الحسنة.

أما الإسلام فيقدم تعريفًا للحسنة والسيئة يخالف هذه النظريات كلها، وهو أن الحسنة تعني موافقة الإنسان مع صفات الله تعالى، وأن السيئة هي تصرُّفه المخالف لهذه الصفات. فيأمر الله تعالى المؤمنين بهذا الصدد في القرآن ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾(البقرة: ١٣٩).. أي أن الله تعالى هو رب العالمين والرحمن الرحيم ومالك يوم الدين، فعليك أن تسعى لتكون مظهرا لربوبية الله للعالمين ولرحمانيته ورحيميته ومالكيته. كما أن الله تعالى ستّار وغفّار وقهّار وحميد ومجيد وشكور وودود، فعليك أن تسعى قدر الإمكان لتكون ستّارًا وغفّارًا وقهّارًا وحميدًا ومجيدًا وشكورًا وودودًا، ليتم بينك وبين الله تعالى نوع من المماثلة وتنعكس فيك صفاته، فتتحلى بالأخلاق الحميدة السامية.

فالحسنة الحقيقية عند الإسلام ما يتفق مع الحسن الأزلي، والإثم أو السيئة هو ما يتنافى مع صفات الله تعالى. وبما أن الإنسان مؤهَّل لأن يكون مَظهرًا لصفات الله تعالى، أو بتعبير آخر، أن الله تعالى هو الأصل والإنسان هو الصورة، ويكمُن جمال

الصورة في أن تكون مطابقة للأصل، ويكمن قبحها في أن تكون خلافا للأصل. إذًا، فكل عمل يجعل الإنسان أكثر موافقة ومشابهة بالله تعالى هو الحسنة، وكل عمل يجعل الإنسان على نقيض من صفات الله تعالى هو السيئة. وكأن التعريف الحقيقي للحسنة والسيئة عند الإسلام هو أن الحسنة اسمٌ لكل عمل أو فكر يؤدي إلى نوع من المشابهة بين الإنسان وبين الله تعالى الذي هو كامل ومنـزه عن كل عيب، والسيئة اسمٌ لكل عمل أو فكر يتنافى مع مرضاة الله أو أفعاله ﷻ.

لا شك أن بعض الناس يمكن أن يقول لنا: أنا لا أؤمن بالله؛ وعندها سيكون من واجبنا أن نقدم له الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى، ولكن بعد الإقرار بوجود الله تعالى ليس أمامنا سبيل لمعرفة الأخلاق الصحيحة إلا أن ندرك أن العمل الموافق لصفات الله تعالى هو الحسنة، وأن العمل المنافي لصفاته تعالى هو السيئة، لأنه تعالى هو وحده المنـزه عن العيب والمتّصف بكل الصفات الحسنة السامية. وبعد تحديد هذا التعريف للسيئة والحسنة لن يصعب علينا معرفة الأخلاق الفاضلة والأخلاق السيئة، ذلك لأن الإنسان إذا وجد النموذج الحيّ لم يبق بعده بحاجة إلى صورة خيالية. وإننا نستطيع أن نُثبِت، ثبوت الشمس في كبد السماء، أن هناك ذاتًا متصفًا بكل الصفات الحسنة العليا يستطيع الإنسان إصلاح أفعاله إذا ما حاول الاتصاف بصفاته، وهذا الذات يملك الحسن والجمال لدرجة أن الإنسان إذا تأسى بأخلاقه أصبحت أفعاله أيضا جميلة. فإذا كان الله تعالى موجودًا - وهو موجود حتمًا - وإذا كان متصفا بجميع الصفات الحسنة، فكل من يقلّده في أفعاله تحلى بالأخلاق الفاضلة.

إذًا، فإنما الأخلاق الفاضلة هي تلك التي تتهيأ للإنسان بتقليد صفات الله تعالى وأفعاله، وإنما الأخلاق السيئة هي تلك التي تحول دون أن يكون الإنسان مظهرا لصفات الله تعالى، ذلك لأن الله تعالى هو المبدأ والمنبع، وليس الإنسان في الواقع إلا مرآة له ﷻ؛ فكلما حاول الإنسان التخلق بأخلاق الله تعالى تحلّى بالأخلاق الفاضلة السامية، وكلما فشل في التحلّي بصفاته تعالى، حُرم من التخلق بالأخلاق الفاضلة. ومن أجل هذه الحكمة قد ركّز الإسلام على صفات الله تعالى بشكل

خاص، وقد ذكرها مرارًا وتكرارًا لتكون دليلا على وجود الله تعالى من ناحيــة، ومن ناحية أخرى ليصبح الإنسان مظهرًا لتلك الصفات حتى يصبح كمرآة تعكس وجه الله تعالى، فلا يكون فيه إلا الحسن والجمال، ويتنـزه من كل نقص وعيب.

لقد استهلّتْ سورة الشعراء أيضا بثلاث من صــفات الله تعــالى، وأُولى هــذه الصفات هي صفة "اللطيف". وقد ورد في القاموس أن اللطيف هو: "البَرُّ بعبــاده، والمحسنُ إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف... أو العالِمُ بخفايــا الأمــور ودقائقها" (أقرب الموارد).

وإذا أمعنّا النظر في نظام الكون وجدنا هذين المعنيين يتحققان بالتمام والكمال، و لم نجد بدًّا من الاعتراف بأن الله تعالى لطيف بالفعل. فقد منّ الله تعالى على خلقه بصنوف النعم لفائدتهم ولاستمرار حياتهم، وهيأ لبقائهم من الأسباب والنعم بحيث إن المرء لو ظل يشكر الله تعالى على هذه النِعم طول حياته لم يستطع أن يؤدي حق شكرها. فمثلا قد خلق الله تعالى من عظيم إحسانه الشمسَ والقمر والنجوم على بعد آلاف الأميال في السماء، وسخرها في خدمة العباد ليــل نهــار. وخلــق ﷻ الأرض التي هي الأخرى لا تزال تخدمهم بدون انقطاع. يلقي المرء في الأرض بضعة كيلوغرامات من البذر ويرجع إلى بيته، وبعد مدة قليلة يرجع إلى بيتــه بعــشرات الأطنان من الغلال عوضًا عن هذه البذور القليلة. وينام المرء في بيتــه في راحــة، ولكن الأرض تظل تخدمه بدون انقطاع، فتنبت له الغلال والخضار، وتخــرج لــه أنواع الثمار والأزهار، وعندما يهبّ من نومه ويأتي إلى الحقل يأخذ منه الخــضار والثمار جاهزة. ثم انظر إلى جسم الإنسان لتعلم ما وهبه الله من الــنعم. إن أذنــه عضو صغير، ولكنه نعمة ربانية عظيمة. إن موجات الهواء التي توصل الأصوات إلى آذانه هي الأخرى من خلق الله تعالى. ثم إن أوتار الحلق التي تُحدث الصوت أيضا من عطاء الله تعالى. وعندما يتغنى المطرب جميل الصوت يقول الناس ما أجمل صوته! مع أنه إنما يتغنى بمساعدة هذه الأوتار التي هي هبة من الله تعالى. وعندما يرى النــاس شخصا قوي الذاكرة يقولون: ما أقوى ذاكرته، مع أن الدماغ الذي فيه الذاكرة مــن صنع الله وعطائه. ثم إن خلايا المخ أيضا من صنع الله تعالى. وإن المصلي حين يــصلي

إنما يردد كلمات الصلاة بلسان هو أيضا من صنع الله، وإن المكان الذي يحفظ فيه المصلي هذه الكلمات.. أي الدماغ.. أيضا من صنع الله تعالى. إنه يركع ويسجد ويقوم في صلاته، وكل القوى والأعضاء التي يستعملها في هذه الحركات مخلوقة بيد الله تعالى لا بيد المصلي. كذلك حين يؤدي المرء الزكاة فإنما يؤديها مما أعطاه الله من مال، كما أن جميع المواهب والكفاءات التي كسب بها هذا المال أيضا هبة من عند الله، وإن اليد التي أدى بها الزكاة أيضا عطاء من الله تعالى. وحين يصوم الإنسان فلا يقوم من عنده بشيء في الواقع، إذ لو لم يمنحه الله تعالى القدرة على تحمّل الجوع لاثنتي عشرة أو خمس عشرة ساعة لما صام أبدًا، فثبت أنه إنما يصوم بفضل ما أعطاه الله تعالى من قدرة، وليس بفضل أية قوة ذاتية. وإن الحداد البارع في مهنته أيضًا إنما يستعين بالأشياء التي هي عطاء من الله تعالى. لقد خلق الله له مسبقا الحديد والفحم، والنارَ التي يسخن بها الحديد، وأيضًا الأعصابَ التي يعمل بها؛ فكل الأشياء التي يستخدمها في مهنته إنما هي عطايا من الله تعالى، وليس من الحدّاد إلا إرادته. ولكن رغم كل هذه النعم العظيمة يغمض المرء عينيه عنها أحيانًا، ويصبح ناكرًا للجميل جدا، فلا يرى أي نعمة منه تعالى، ولا يبصر أي فضل منه تعالى، ولا يتولد في قلبه أية مشاعر حب لله تعالى برؤية أي نوع من الرحمة الإلهية.

لقد رأينا الأثرياء الكبار الذين يسافرون في سياراتهم الفخمة وتكون موائدهم مليئة بصنوف الأطعمة، ولكنهم عندما يجلسون عليها للأكل يقولون هذا الطعام ليس بجيد، وذاك الطبق ليس بلذيذ. وعلى النقيض ترى الإنسان الفقير يأكل كسرة الخبز الجاف بمتعة كبيرة ويجدها ألذّ من نعم الدنيا كلها. أتذكر جيدا أنه عندما كان سنّي حوالي ثلاث سنوات أُصبتُ بمرض في عينيّ، فمنعني الأطباء من أكل الخبز في هذه الحالة. وفي صبيحة أحد الأيام شعرت بألم شديد في عينيّ - وذلك لأن العين المريضة تظل مغمضة طوال الليل فتمتلئ بالماء فيبكي الطفل لشدة الألم في الصباح- فبدأت أبكي، فاحتضنتني خادمة في البيت وأخذت تداعبني، وكانت في يدها كسرة خبز بائت، وكانت تأكله بمتعة كبيرة وتداعبني أيضا. ولم أتمتع في حياتي كلها برائحة أي طعام كما تمتعت برائحة كسرة ذلك الخبز البائت. والسبب أن

هذه الخادمة كانت مطمئنة البال، فكانت تجد في هذه الكسرة البائتة متعة ولذة لدرجة أن لذتها سرت إلى مشاعري أيضا. وبرغم أنها كانت تأكل هذه الكسرة بدون أي طبيخ يبلّلها، غير أنها كانت تأكلها بنهم متلذذةً بها ومحدثةً معها الأصوات، وكانت هذه الأصوات تؤكد لي أن هذه الكسرة هي ألَذّ الأطعمة عندها. وبعد حوالي أربع سنوات من هذا الحادث سألتني أمّي مرة: هل تحب أكل شيء معين؟ فقلت أريد أن آكل الخبز البائت. وإنما قلت هذا نتيجة التأثير العميق الذي تركه ذلك الحادث في قلبي.

إذاً، فلو كانت عند الإنسان القناعة والرضا، ولو نظر إلى كل شيء بمشاعر الشكر لله تعالى، لوجد أبسط شيء كأكبر نعمة من نعم الدنيا.

كان الخليفة الأول ﷺ يحكي لنا أنه قال مرة لعجوز صالحة عابدة: يا أمّاه مُرِيني بخدمة أقوم بها لك، فإني أريد أن أحقق لك رغبة ما لأُثاب عليها. فقالت له: لقد أعطاني الله كل شيء، ولست بحاجة إلى أي شيء آخر. فقال لها بإصرار: إنني أود من الصميم أن أقوم بخدمة لك. قالت: نور الدين! ماذا أريد أكثر مما أعطاني الله تعالى؟ يحتاج المرء إلى خبز ولحاف، ويبعث الله تعالى إلي برغيفين فآكل أحدهما ويأكل ابني الآخر، وعندنا لحاف واحد وكلانا ننام فيه؛ عندما أشعر بالتعب خلال النوم وأريد أن أغيّر جنبي، أقول لابني أن يغيّر جنبه، فأنام على جنب آخر؛ وعندما يتعب هو، يخبرني فنغيّر جنبنا؛ وكلانا نعيش في راحة ومتعة، ولسنا بحاجة إلى أي شيء بعد ذلك. فألَحّ عليها أكثر فقالت: إذا كنت مصرًّا لهذه الدرجة، فأَحضِرْ لي مصحفا بخط كبير لأن بصري قد ضعف، ولا أقدر على قراءة الحروف الصغيرة، فلو وجدت مصحفا بحروف كبيرة سهلتْ عليّ تلاوة القرآن الكريم.

فانظر إلى البون الشاسع بين هذه العجوز والناس الآخرين. فمن يكسب منهم أربع مئة روبية فهو في قلق، ومن يكسب منهم خمس مئة فهو أيضًا في اضطراب، ومن يكسب منهم ألف روبية فهو الآخر في كرب؛ مع أن المال ليس الهدف، إنما الراحة والسكينة هو الهدف، وإذا لم يتمتع الإنسان بالسكينة، فما الفائدة من المال؟ ولكن الإنسان لو ولّد في قلبه عواطف الشكر لبدت له كل ذرة من الكون محسنةً

إليه، وحيث إن كل ذرة من الكون خاضعة لمنن الله وإحسانه سيجد المرء أن الله هو المحسن الحقيقي إليه. كان حضرة ميرزا مظهر جان جانان - رحمه الله - من كبار أولياء الله تعالى في دهلي، وقد ورد في الكتب عنه أنه كان يحبّ الحلوى الشهيرة عندنا باسم "لدو". وهذه الحلوى تصنع في دهلي من "القشطة" فتكون لذيذة جدًّا. وذات مرة كان حضرته في مجلسه إذ جاءه شخص بحبّتين من هذه الحلوى هدية له. وكان تلميذه غلام علي شاه عنده في ذلك الوقت، فأعطاه الحبّتين. وبما أن حبّات حلوى "لدو" المصنوعة من القشطة تكون صغيرة بحجم الجوز أو أصغر قليلا، فوضع التلميذ الحبّتين في فمه مرة واحدة وأكلهما. فقال له حضرته: يبدو أنك لا تعرف كيف تؤكل هذه الحلوى! فسكت التلميذ في تلك المناسبة، ولكنه بعد بضعة أيام قال لحضرته: سيدي، علِّمْني كيف تؤكل حلوى "لدو" فقال له: ذكِّرْني إذا أتتنا هذه الحلوى في يوم آخر فأعلّمك كيف تؤكل. وبعد بضعة أيام جاء شخص بالحلوى، فذكّر التلميذ أستاذه بوعده وقال: ها قد جاءت الحلوى، فعلِّمني كيف آكلها. فأخرج حضرته منديله ووضع عليه الحلوى، وأخذ قطعة صغيرة من حبة ووضعها في فمه، وقال: سبحان الله، سبحان الله، ثم قال مخاطبًا نفسه: ما أكثرَ مِننَ الله عليك، يا مظهر جان جانان! ثم أعاد قوله: سبحان الله، سبحان الله، وتوجّه إلى تلميذه وقال: غلام علي، هل تعرف مِمَّ تُصنع حلوى "لدو"؟ فأخذ يعدّد الأشياء التي صُنعت بها كالقشطة والسكر والدقيق. فأخذ الأستاذ يسبّح الله تعالى ثانية وقال: هل تعرف كيف صُنع السكر الذي وُضع في الحلوى؟ قال التلميذ: لقد زرع الفلاح قصب السكر، ثم عصره في المِعصرة، ومن ذلك العصير صُنع السكر. فقال الأستاذ: هذا الفلاح الذي زرع قصب السكر كان يستيقظ في الصباح الباكر، ويترك أهله وأولاده ليذهب إلى الحقل، ويحرث الأرض ويسقي الزرع، ولم يزل يتكبّد العناء ويجتهد بمشقة، كل ذلك فقط لكي تُصنع حبة "لدو" لمظهر جان جانان؟ ثم أخذ الأستاذ يسبّح الله ويحمده، واستأنف كلامه بعد برهة وقال: لم يزل هذا الفلاح يعمل في زرعه ويسقيه ستة أشهر، ثم عصر قصب السكر بمشقّة كبيرة، ثم أشعل النار ودخل جحيم الدنيا هذه مرات

ومرات لغليان العصير ليتحوّل إلى السكر، وكل ذلك فقط لكي يأكل مظهر جان جانان حبّة من "الدو". ولم يزل حضرته يبين لتلميذه بالتفصيل كيف صُنعت القشطة والدقيق، وكيف ظل آلاف الناس يعملون على صنع هذه الأشياء ليلا ونهارا غير مبالين براحتهم وصحتهم، ولم يسخرهم الله تعالى في هذه الأعمال إلا ليأكل مظهر جان جانان حبة "لدو". وعندها طرأت على حضرته حالة من الوجد فأخذ يسبّح الله ويحمده حتى حانت صلاة العصر، فخرج من مجلسه للصلاة، وظلت الحلوى كما هي.

وقد رأينا أنه كان من عادة سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أنه إذا أراد أن يتناول الطعام كسر لقمة صغيرة من الرغيف ووضعها في فمه ثم لم يزل يمضغها لوقت طويل. لم يكن حضرته يأخذ لقمة كبيرة أبدًا، بل كان يأخذ لقمة صغيرة دائما، وأثناء مضغها كان يأخذ في يده لقمة أخرى يقلّبها بين أصابعه ويكسرها كسرات صغيرة عديدة وهو يردد: سبحان الله، سبحان الله. ثم بعد ذلك يأخذ من تلك الكسرات كسرة ويبللها بالطبيخ ويتناولها، وكانت الكسرات الأخرى تبقى على الخوان كما هي. وقد كان بعض الذين يرون هذا المشهد يظنون خطأً أنه عليه السلام يفرّق بذلك بين الحلال والحرام من الكسرات! وبما أن كسرات كثيرة تجتمع على خوانه فكان الناس يتقاسمونها بينهم تبرّكًا إذا فرغ من الطعام.

فالواقع أن رحمات الله وبركاته كثيرة وواسعة جدًّا بحيث لو فكّر الإنسان لتبيّن له أن كل خطوة يخطوها، وكل لحظة يقضيها، وكل ساعة تأتي عليه من حياته، تكون مصحوبة بأفضال الله تعالى ونعمه التي لا تعد ولا تحصى. ولو أنه أمعن التفكير أكثر لتبيّن له أن كل الكون مسخر لخدمته، وأنه ينهل من فيوض الله تعالى ليل نهار بدون انقطاع. فكلما مدّ يده، أو لمح ببصره، أو رفع صوته، أو بلع ريقه، فإنما يفعل ذلك نتيجة فضل الله ومنّته، وإلا فمتى كانت عنده القدرة على ذلك؟ فلو كان أحد يعاني من سوء الهضم، وأراد الأطباء أن يعملوا على إصلاح القوة الهاضمة عنده بإعطائه جرعات من "حامض كلور الماء" لمات في بضعة أيام، ولكن الله تعالى قد ركّب في الإنسان آلة بيولوجية تُحدث في كل غذاء يدخل في

معدته تغييرات كيماوية شتى لتنقله إلى الدم، فيجري الدم بهذا الغذاء إلى القلب فورا، فيمرَّر عبر الرئة لتنقيته، فيصل هذا الدم الصافي إلى الجانب الأيسر من القلب ويخرج منه عبر شريان كبير ينقسم بعد ذلك إلى قسمين: أحدهما يأخذ الدم إلى الرأس والآخر يأخذه إلى ما أسفل القلب؛ وهكذا يأخذ كل عضو من أعضاء الإنسان نصيبه من هذا الغذاء بحسب حاجته. فتأخذ الأجزاء العليا من الدماغ - وهي مركز العقل والشعور - نصيبها من هذا الغذاء، كما أن المراكز الدماغية التي تحرّك شتى أعضاء الجسد تأخذ منه نصيبها، كما تأخذ العين والأنف والأذن واللسان وغيرها من الأعضاء نصيبها من هذا الغذاء. فهناك نظام رائع عظيم خلقه الله تعالى داخل الإنسان لاستمرار حياته. عندما يشاهد الناس المصانع يستغربون، فمثلاً إذا شاهدوا الطاحونة يتحيرون قائلين: كيف تطحن هذه الآلة القمح؟ ولكنهم لا يشعرون بأن الله تعالى قد ركّب في الجسم الإنساني نفسه مصنعًا أعظم من جميع هذه المصانع. فالمصنع المركب في الإنسان يطحن ويصفّي ويزوّد الجسم بالطاقة والقوة أيضا. فكما أن بعض الطواحين الآلية التي صنعها الإنسان تُنتج السميد الخشن منفصلاً عن السميد الناعم، كذلك فإن المصنع الذي ركبّه الله تعالى في جسم الإنسان تُنتج بعض آلاته الدمَ الصالح، وبعضها تقوّي العقل، وبعضها تقوّي السمع، وبعضها تقوّي البصر، وبعضها تقوّي النطق. فهناك نظام هائل يعمل داخل الإنسان ليل نهار بدون توقف وانقطاع، فينتج عشرات المنتجات التي بعضها تقوّي حاسة اللمس، وبعضها تنمّي حاسة الشمّ، وبعضها تقوّي حاسة الأعصاب. وهنالك فروع وأقسام في دماغ الإنسان لا توجد مثلها في المؤسسات الحكومية أيضا. ومع ذلك لا يشعر الإنسان بما أنعم الله عليه من المنن، بل يمر بهذه الأشياء كالعميان، ويظل قلبه خاليا من محبة الله تعالى. أما رسول الله ﷺ فكان إذا بدأ الطعام قال: بسم الله، وإذا فرغ من الطعام قال: الحمد لله، وإذا لبس شيئًا حمد الله تعالى وأثنى عليه، مع أنه كان يلبس لباسا بسيطا جدا. إن الناس يلبسون في هذه الأيام أنواع الملابس المريحة من أجود الأقمشة، ومع ذلك لا تتولد في قلوبهم عواطف الشكر لله تعالى. إنهم يدّعون بأنهم يؤمنون بالله ورسوله، ولكنهم لا

يفكرون أبدا أن أضعف مسلم بينهم اليوم أيضًا يلبس ما هو أفضل وأكثر راحة بآلاف المرات من ملابس رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى له: "لولاك لما خلقتُ الأفلاكَ" (تفسير الألوسي، سورة النبأ، الآية: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾)، ومع ذلك لا تمتلئ قلوبنا بمشاعر الحمد والشكر لله تعالى كما كان قلب محمد ﷺ يمتلئ بعواطف الشكر العميق وهو يلبس أبسط الملابس، ولا تتولد في قلوبنا الحسرة أن يا ليت نبينا ﷺ تمتَّعَ بهذه النعم إذ كان أحق وأولى بها.

ذات مرة جاء إلى حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه شخص وقال: إنني من السادات الأشراف*، وأريد تزويج ابنتي، فأرجوك أن تساعدني. وكان الخليفة الأول رضي الله عنه كريمًا جوّادًا، ولكن المرء يميل أحيانًا إلى جهة معينة لهدف معين، فقال للسائل: إنني مستعد لأن أعطيك لزواج ابنتك كل ما أعطاه الرسول ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها. فقال الرجل على التو: هل تريد أن تجدع أنفي أمام الناس؟ فقال حضرته: هل أنفُك أعزُّ من أنف الرسول ﷺ؟ إنما يحترمك الناس لأنك من السادات، فإذا كان هذا القدر من جهاز العروس لم يسبب أي إهانة للرسول ﷺ فكيف يسبب لك الإهانة؟

فالحق أن أدنى المسلمين درجة اليوم أيضا يتمتع من النعم المادية بما لم يتمتع به الرسول ﷺ، ومع ذلك يخلو قلب هذا المسلم من مشاعر حبّ الله تمامًا. إنه يعلم أن الله تعالى قد أنعم عليه بنعم الدنيا أكثر من الرسول ﷺ بآلاف المرات، ومع ذلك لا يشكر ربه سبحانه وتعالى. بينما كان قلب الرسول ﷺ عامرًا على الدوام بمشاعر الشكر لله تعالى. عندما ينـزل المطر من السماء يمرّ به الفلاح غافلا، مع أن هذا المطر قد جاء لينبت زرعه. إنه يدخر هذه المياه دون أن يفكر من أين جاءت. إن القرى والمدن التي ليس فيها آبار يخزّن أهلها مياه الأمطار في الغُدر والسدود سدًّا لحاجاتهم على طول السنة، وإن هؤلاء عندما يدّخرون هذا الماء لأنفسهم ولمواشيهم لا يتولّد في قلوبهم أي إحساس بأن ربّهم قد منّ عليهم منّة عظيمة. إنهم لا يفكرون أن الله هو

* أي كان من نسل الرسول ﷺ. (المترجم)

الذي قد حوّل مياه البحار بخارًا بواسطة أشعة الشمس، ثم أتى به بواسطة الرياح وأمطره على بلادهم. ولكن لم يكن عند محمد ﷺ غُدران ولا سدود ولا زروع ولا مواشي، ومع ذلك كان من عادته ﷺ أنه كلما جاء المطر خرج إلى فناء بيته وأخرج لسانه وتلقى به قطرات المطر وقال: هذه نعمة جديدة من ربي.•

ما أروعَ وما أجملَ هذا الأسلوبَ للحبّ والشكر! إن الناس يتناولون ألذّ الأطعمة وأحلاها، ومع ذلك لا يجدون في قلوبهم أي حماس لمحبة الله ولا يشكرونه على نعمه، ولكن الرسول ﷺ كان يحب الله تعالى حبًّا يجعله يخرج لسانه ليتلقى به أول قطرات المطر شكرًا لربّه على هذه النعمة الجديدة. ومن أجل ذلك قد نبّهنا الله تعالى في القرآن الكريم إلى الشكر على نعمه وذكر مننه دائما. إذا عدّ الإنسان كل شيء نعمةً من ربّه وقدر نعمه تعالى، نال سلّمًا يوصله إلى ربّه، فلا يستطيع الشيطان أن يعيق طريقه، كما لا تستطيع نفسه أن تسقطه. فلا يزال يصعد في هذا السلّم ليصل إلى ربه رأسًا، ذلك لأنه كلما رأى منن ربّه امتلأ قلبه شكرا له سبحانه وتعالى، وهذا الشكر هو الذي يرفعه باستمرار ويحفظه من السقوط للأبد.

والمعنى الثاني لكلمة "اللطيف" هو "العالم بخفايا الأمور ودقائقها". وقد أشار الله تعالى بهذا المعنى إلى أن بصر الإنسان، برغم كل ما يملكه من علوم ومخترعات، محدود بظاهر الأشياء فحسب، وأن الإنسان يجهل غيب الله العظيمَ الذي يعمل وراء هذه الأمور وما فيها من دقائق الحكم الخفية، ولا تنكشف عليه غوامض الكون وأسراره إلا إذا أراد الله تعالى أن يُطلعه على أسراره ويزيل عن عينه حجب الخفاء نتيجة صفته "اللطيف". وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأمر نفسه حين أمر رسوله ﷺ أن يقول للناس ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ

• نصّ الحديث كالآتي:
عن ثَابت عن أَنَس قال: "أصابَنا وَنَحْنُ مَعَ رَسُول الله ﷺ مَطَرٌ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، فَحَسَرَ ثَوْبَهُ عَنْهُ حَتّى أَصَابَهُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله لِمَ صَنَعْتَ هذا؟ قالَ: لأَنّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ". (أبو داود: كتاب الأدب: باب المطر) (المترجم)

السُّوءُ﴾(الأعراف:١٨٩). والحق أن التدبر العميق يكشف لنا أن الله تعالى قد جعل في استئثاره بالغيب نوعين من البركات للإنسان؛ البركة الأولى ينالها الإنسان ببقاء بعض الأمور وراء حجاب الغيب، والبركة الثانية ينالها الإنسان حين يكشف الله تعالى له الغيب. والبركة التي ينالها الإنسان نتيجة بقاء الأشياء وراء حجاب الغيب متجلّية من حيث إن حياة الإنسان كلها تتوقف على السعي والاجتهاد، وليس أساس السعي والاجتهاد إلا منوطًا بالغيب، إذ لولا حجاب الغيب لما كان هناك سعي ولا عمل مطلقا. فمثلاً يوصل الآباء أبناءهم إلى المدرسة، ولو كان الأولاد أذكياء مجتهدين أدركوا أنهم سينالون مكانة مرموقة في الدنيا إذا نالوا التعليم العالي، ولكن بعض الطلاب يمرض أحيانًا قبل موعد الامتحان بقليل أو يموت نتيجة حادث، فلولا أن الله تعالى قد استأثر بعلم الغيب، ولولا أن هذا الطالب لا يعلم أنه سيموت إذا بلغ الخامسة عشرة من عمره، لأصابه الحزن الشديد منذ البداية، ولأخذ والداه في البكاء والعويل، ولضيّع ابنه عمره كلية. ولكن الطالب يظل يجتهد بسبب حجاب الغيب، وبرغم أنه يموت بعد ذلك في تلك السن المبكرة، إلا أنه يترك وراءه نبراسًا يضيء طريق الطلاب الآخرين ويساعد على الرقي، شأن الشهاب الثاقب الذي يتساقط ولكنه يضيء الطريق لكثير من المسافرين الضالين ويجنبهم السقوط في الحفر؛ ذلك لأنه لولا أسوة هذا الطالب المجتهد لما اجتهد كثير من الطلاب في دراستهم. إنهم لا يجتهدون إلا لأنهم يشاهدون اجتهاده وذكاءه، فيرغبون في الدراسة ويرتقون.

وكذلك يعيش الإنسان بين أصدقائه وأقاربه، مع أن بعضًا منهم إنما يصادقه لأهداف ومآرب، وبعضهم ينسج ضده أنواع المكائد الخطيرة؛ أو يظهر له بعض أقاربه الحب الزائف، بينما يتربص به الدوائر. ولولا حجاب الغيب بينهم، ولولا أنه لا يعلم ما يكنّ له بعضهم من العداء وما يتربص له من الدوائر، لقامت القيامة في الدنيا، ولوجدنا أهل كل بيت في حرب وقتال، ولتصدى بعضهم لبعض قائلا: إنك تحمل ضدي أفكارًا سيئة، وتنسج ضدي مؤامرات، ولوجدنا المرأة تسخط على

زوجها، والزوج يغضب على زوجته، ولغاب الأمن والسلام من العالم. فثبت أن حجاب الغيب الذي جعله الله تعالى بيننا لرحمة عظيمة منه تعالى.

ثم لولا حجاب الغيب بين الناس لنشبت الحروب في الدنيا كلها ودمرتها. يقول الرسول ﷺ: الحرب خُدعةٌ (الترمذي: أبواب الجهاد).. أي أن أفضل الطريق للحرب هو أن تخفي كل الأمور عن العدو، وأن تدير الأمر بالسياسة وتمويه العدو. ولكن لولا حجاب الغيب، لعلِمَ أحد الفريقين بمكان العدو ولوجّه إليه مَدافعَه، ولسقطت قذائف الفريق الآخر على رؤوس عدوه مباشرة، فلم يبق من الطرفين متنفس واحد. ولكن ما يحدث الآن هو أنه إذا خاض الحرب جيش قوامه مئة ألف جندي، لم يقتل منهم إلا بضعة آلاف ويرجع بقية الجيش سالمين، ولكن لولا حجاب الغيب بين الفريقين لعلم الطرفان كل شيء، ولضرب كل واحد منهما عدوّه ضربة قاضية و لم يسلم من الهلاك أحد.

ثم إن التقدم العلمي والاكتشافات الجديدة والعلوم المبتكرة أيضا منوطة بالغيب نفسه. إذ لو كان كل شيء ظاهرا مكشوفا لانتهت هذه السلسلة من السعي والعمل والاختراع، ولأصبح الإنسان كائنًا عاطلا. فثبت أن كل الكون يدار نتيجة الغيب، ولولا الغيب لانتهى هذا الكون.

ثم إن الجزاء والعقاب في العالم الروحاني أساسه أيضًا الغيب، ولو أُزيل حجاب الغيب لما ترتب على الحسنة جزاءٌ ولما نال المرء على ترك السيئة ثوابًا. ذات مرة زرنا مدينة "لكناو"، فوجدنا هنالك شيخًا أفغانيًا شديد العداء لجماعتنا وكان اسمه عبد الكريم. وقد ألقى بعد مجيئنا هناك خطابا تحدّث فيه بكل احتقار وبذاءة عن حادث وقع مع المسيح الموعود ؑ. والحادث الذي أشار إليه هذا الشيخ بأسلوبه البذيء هو أن المسيح الموعود ؑ ذهب مرة إلى دهلي، وكان هناك قريب لأحد أخوالي يدعى ميرزا حيرت الدهلوي، فخطرت بباله مكيدة شريرة، فجاء إلى مكان إقامة المسيح الموعود ؑ متنكّرًا في زيّ مفتّش شرطة ليخوّفه، وقال له: لقد بعثتني الحكومة لآمرك بمغادرة هذه المدينة فورا وإلا لتعرضت لضرر كبير. فلم يلتفت إليه المسيح الموعود ؑ، وعندما أراد بعض الإخوة تحرّي الأمر هرب هذا المفتش

الزائف. هذا هو الحادث الحقيقي، ولكن هذا الشيخ الأفغاني قام بتزييف الحقائق في خطابه فقال أن مؤسس جماعتهم يدّعي بأنه إله، ولكنه لما ذهب إلى دهلي حضره "ميرزا حيرت" في زي مفتش شرطة، وصعد إلى غرفة المؤسس في الطابق الثاني - وهذا كذب صريح لأن المسيح الموعود عليه السلام لم يكن في الطابق العلوي بل كان في الطابق الأرضي - فلمّا سمع بمجيء مفتش الشرطة أصابه الهلع، حتى زلّت قدمه أثناء نزوله من الدرج وسقط على وجهه. فضحك الناس واستهزأوا بسبب خطاب الشيخ عبد الكريم الأفغاني، ولكن في نفس الليلة حل عقاب الله بالشيخ، حيث كان نائمًا على سطح بيته الذي لم يكن محوطًا، فأراد أن ينزل لحاجة وهو نعسان، فسقط من السقف ومات في مكانه. (حيات أحمد (أردو) المجلد الثالث الجزء الأول ص ١٦٩)

فلو لم يكن هناك حجاب الغيب وعلم هذا الشيخ أنه سيعاقَب على هذه الإساءة والوقاحة لما فعل ما فعل، بل آمن بالمسيح الموعود عليه السلام، ولكن مثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه شيئا إذ لولا عنصر الغيب في الإيمان لما كان فيه فائدة، إنما الإيمان النافع ما يكون في حالة الغيب، أما إذا كان الثواب أو العقاب ظاهرًا بيّنًا فكل واحد سيؤمن. إن أبا بكر رضي الله عنه لم يؤمن إلا وهو يدرك بأن عليه تقديم التضحيات في سبيل الدين ولا بد له أن يضحي بنفسه؛ ولكن لولا حجاب الغيب ولو علم أبو بكر مسبقا أن هناك نعمًا مقدرة له فآمن طمعًا في هذه النعم لما كان لإيمانه نفع. كذلك لما آمن عمر رضي الله عنه لم يكن يعلم أن سيصبح خليفة في يوم من الأيام، وإنما كان قد خرج بنيّة قتل الرسول ﷺ، ولكنه لما قرأ بضعة أوراق من القرآن الكريم وجدها عند أخته، حصحص له الحقّ فآمن وهو يعلم أن عليه أن يقدّم نفسه في سبيل الإسلام. (السيرة النبوية لابن هشام: الجزء الأول: إسلام عمر)

أما عثمان رضي الله عنه فكان إنسانا هادئ الطبع متواضعًا، ولكن الله تعالى قد أكرمه بسبب تضحياته إكرامًا عظيمًا، ففي صلح الحديبية لما أراد النبي ﷺ أن يبعث أحد أصحابه للتفاوض مع أهل مكة، قال الصحابة كلّهم: يا رسول الله، إن عثمان هو أنسب شخص لهذه المهمّة. فذهب عثمان إلى مكة، وكان له فيها أقارب كثيرون،

فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. وأبطأ عثمان ﷺ في المفاوضات مع أهل مكة حتى خيّم الظلام، فطارت الأراجيف بين المسلمين أنه قد استُشهد. فجمع النبيّ ﷺ صحابته حين بلغه ذلك ودعاهم إلى البيعة على الموت، وهي البيعة الوحيدة التي أخذها الرسول ﷺ على الموت. فبايع الصحابة على يده بأنهم سيقاتلون العدو جميعًا حتى الموت. ولما فرغ الصحابة من البيعة قال النبي ﷺ: إن عثمان ليس بيننا وربما قُتل ولكن هناك إمكانية أن يكون حيًّا، فوضع النبي ﷺ يده الأخرى على يده وقال: هذه بيعة عثمان. (تاريخ الخميس: الجزء الثاني ص ٢٢ بيعة الرضوان، والسيرة النبوية لابن هشام: الجزء الثالث، أمرُ الحديبية ص ١٥٨).

فترى مدى التكريم العظيم الذي ناله عثمان بهذه المناسبة. والحق أنه لو عُمّر ألف سنة وضحى بحياته في سبيل الإسلام، لما كان لتضحيته أي قيمة إزاء هذا التكريم. ولكن عثمان لو علم مسبقا أن هذا الإعزاز والتكريم مقدر له، وأن كذا وكذا من النعم مكتوبة له، وآمن طمعًا في هذه النعم والجوائز، لما كان لإيمانه قيمة ولا ثمن.

أما عليّ ﷺ فآمن وهو لا يزال صبيا، وقد آمن مدركا أنه سيتعرض لشتى المحن نتيجة إسلامه وأنه ربما يضطر للتضحية بنفسه في سبيل الله ﷻ. ورد في الروايات أن النبي ﷺ في بداية رسالته أقام مأدبة دعا إليها بني عبد المطلب لكي يبلغهم رسالة الله. فحضرها كثير من أقاربه، فلما فرغ الجميع من الطعام أراد النبي ﷺ أن يبلغهم رسالة الله، ولكن أبا لهب شتّتهم جميعا، فرجع الناس إلى بيوتهم دون أن يسمعوا من كلامه ﷺ شيئًا. فأخذته الحيرة وقال: ما بال القوم لا يسمعون لقولي وقد أكلوا عندي. ولكنه ﷺ لم ييأس، وأمر عليًّا ﷺ بإقامة مأدبة أخرى، فدُعي إليها الجميع ثانية، فلما أكلوا وشبعوا قام النبي ﷺ وقال: أيها الناس، لقد منّ الله عليكم إذ بعث فيكم نبيا من أنفسكم. إني أدعوكم إلى الله، فلو آمنتم بي لورثتم نعم الدين والدنيا. هل فيكم من يؤازرني في هذا الأمر؟ فساد السكوت على الجميع، ولكن قام صبيّ

من بينهم فجأة وقال: أنا يا رسول الله مع أنني أضعف القوم وأصغرهم سنًّا. وكان هذا الصبي هو عليّ رضي الله عنه. (السيرة الحلبية: الجزء الأول ص ٢٨٥- ٢٨٦)

كما وفّق الله عليّا رضي الله عنه لتقديم تضحية عظيمة أخرى وهي أن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج من بيته ليلة الهجرة أمر عليًّا رضي الله عنه أن ينام على سريره مكانه حتى إذا نظر الكافرون داخل البيت ظنوه ﷺ نائمًا و لم يخرجوا لمطاردته. فلم يقل علي للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن فتيان قريش محاصرون للبيت شاهرين السيوف، ولو أنهم علموا في الصباح أنك قد خرجت من البيت لهجموا عليّ وقتلوني، بل إنه نام على سرير النبي ﷺ دونما خوف، فوضع النبي عليه رداءه. ولما رأت قريش في الصباح أن عليًّا هو الذي خرج من سريره عضّوا الأنامل من الغيظ، وأخذوه وضربوه. ولكن ما كان هذا لينفعهم شيئًا، إذ تحققت النبوءات السماوية وخرج النبي ﷺ من مكة سالمًا (السيرة الحلبية: الجزء الثاني، باب عرض النبي ﷺ على القبائل أن يحموه). و لم يكن عليّ رضي الله عنه يعلم عندها ما كتب الله له من الجوائز والنعم، ولكن الله تعالى كان يعلم أنه ليس عليّ وحده الذي ينال العزّ والإكرام بسبب هذه التضحية، بل إن أولاده أيضا سينالون الإعزاز والتكريم. فأول ما منّ الله به على عليّ رضي الله عنه أنه شرّفه بأن يكون نسيبا للرسول ﷺ، وثانيًا قد ألقى الله تعالى في قلب الرسول ﷺ حبًّا شديدًا تجاه عليّ حتى إنه أثنى عليه في مناسبات عديدة، ولا شك أن عليًّا رضي الله عنه حين كبر شعر بمنتهى الاعتزاز والراحة برؤية هذه الأفضال الإلهية.

وذات مرة أراد النبي ﷺ الخروج لحرب وأمَر عليًّا أن يبقى في المدينة، فقال: يا رسول الله، هل تتركني مع النساء والصبيان؟ فقال ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ (الترمذي: أبواب المناقب، باب مناقب عليّ).. أي أن موسى عليه السلام لما ترك هارون وراءه، هل كان في ذلك أي نقصان في مكانة هارون؟

فترى أن التضحيات التي قدمها عليّ رضي الله عنه لا تساوي شيئًا إزاء هذا الإعزاز والتكريم. وليس هذا فقط، بل إن أكثر أولياء الأمة والصوفية كانوا من أولاد علي رضي الله عنه. وقد أظهر الله على أيديهم معجزات تحيّر العقول. لقد سمعت من سيدنا المسيح الموعود عليه السلام مرة أن هارون الرشيد أمر بسجن الإمام موسى الرضا - رحمه

الله – لسبب ما، فأُلقي في السجن مكبّلاً. و لم تكن في ذلك الزمن مفارش مريحة ذات اللوالب كالتي نجدها في هذه الأيام، بل كانت مفارش عادية محشية بالقطن. وكان هارون الرشيد نائمًا في قصره على فراشه المريح مرة، فرأى في المنام أن الرسول ﷺ جاءه والغضب بادٍ على وجهه الشريف، وقال له: إنك تدّعي بأنك تحبّنا ومع ذلك لا تخجل أنك نائم على الفراش المريح نومًا عميقًا مريحًا وابني ملقًى في السجن مكبّل الأيدي والأرجل في الحر الشديد؟ فتنبّه هارون الرشيد من نومه والفزع مستول عليه، فأسرع مع بعض قادته إلى السجن، وأخذ يحل بيده قيد الإمام موسى الرضا رحمه الله. فقال له الإمام: ما بالك قد جئتني الآن بنفسك وقد كنت تعادينا عداء شديدًا؟ فحكى له هارون الرشيد منامه طالبًا منه العفو عنه إذ لم يكن يعرف حقيقة الأمر. (ملفوظات (أردو)، المجلد الخامس ص ٤٩٣)

لقد رأينا أولاد الكثير من الملوك مشرّدين يُدَعُّون على الأبواب دعًّا. فقد رأيت بنفسي شخصًا من العائلة المغولية التي كانت حاكمة على الهند يعمل سقّاءً، ولكنه كان يملك من الحياء ما يمنعه من سؤال الناس. وعلى النقيض ترى أن الله تعالى يحذّر ملِكًا في الرؤيا ويأمره بحسن معاملة أولاد عليّ ﵁، وذلك برغم انقضاء كل هذه الحقبة الزمنية الطويلة على عصر النبي ﷺ وعليّ ﵁. ولكن لو كان عند عليّ ﵁ علم الغيب وعلِم أنه سينال هذه العزة، ولو أنه أسلم من أجلها، لما كان إيمانه إلا تجارة مادية لا تستحق أي إنعام ولا جزاء.

كذلك قد آمنت السيدة خديجة – رضي الله عنها – وهي لا تعلم ما كتب الله تعالى لها من بركات نتيجة إيمانها. ولا شك أنها قد ضحّت بكل مالها في سبيل الإسلام ومن أجل محمد ﷺ، حتى اضطرت لتعيش في فقر وضيق بعد أن كانت أغنى سيدة في مكّة. ثم إنها عانت الشدائد في شِعب أبي طالب على مدى ثلاث سنوات متتالية مما أدى إلى وفاتها بعد خروجها من شِعب أبي طالب فورًا (السيرة النبوية لابن هشام: حديث تزويج النبي ﷺ خديجة، خبر الصحيفة). فتقبّل الله تعالى تضحياتها قبولا حسنا حتى إن العالم الإسلامي كله يذكرها حتى اليوم باحترام وتقدير عظيمين.

لقد ألقى الله تعالى في قلب رسوله ﷺ حبًّا عميقًا لخديجة. لقد جيء بأبي العاص في واقعة بدر أسيرًا وكان زوجَ بنت الرسول ﷺ زينب ولكنه لم يكن قد أسلم بعد، فبعثت زينبُ من مكة، عقْدًا لها تفتدي به زوجها، وكان هذا عقدًا قد أعطتها إياه أُمُّها خديجة. فلما رأى الرسول ﷺ هذه القلادة تذكّر زوجته خديجة فاغرورقت عيناه بالدموع، وقال لأصحابه: إن شئتم فاتركوا هذا التذكار لخديجة محفوظا عند ابنتها. (السيرة النبوية لابن هشام: أبو العاص عند الرسول وبعث زينب في فدائه)

وبعد انقضاء عدة سنوات على وفاة خديجة - رضي الله عنها - كان النبي ﷺ جالسا في بيته ذات يوم إذ جاءت هالة أختُ خديجة واستأذنت للدخول، وكان صوتها يشبه صوت خديجة كثيرًا، فلما تناهى صوتها إلى أذن النبي ﷺ تذكّر خديجة وهبّ من مكانه مرتاعًا وقال: ربّاه، هذا الصوت كصوت خديجة.✱

ثم إن الله تعالى قد منّ على خديجة - رضي الله عنها - منّة أخرى إذ رزق النبي ﷺ جميع أولاده من خديجة إلا إبراهيم الذي ولدته مارية القبطية (أُسُد الغابة: كتاب النساء، حرف الميم). لقد رُزق النبي ﷺ من خديجة ثلاثة ذكور وأربع إناث، وقد توفي أبناؤه في صغرهم أما بناته الأربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن، فقد كتب الله لهن الحياة ووفّقهن للدخول في الإسلام (أسد الغابة: كتاب النساء، حرف الخاء). وقد وُلد الإمامان الحسن والحسين من بطن فاطمة الزهراء بنت خديجة، وهي التي يسمَّى أولادها اليوم السادات والأشراف- رضي الله عنهم أجمعين.

إذًا، فقد أنعم الله على خديجة وعلى نسلها كلهم نعما عظيمة خارقة للعادة، ولكن خديجة - رضي الله عنها - لو علمتْ عندها أنها ستنال هذا الإعزاز العظيم حيث يدعوها العالم الإسلامي كله "أم المؤمنين"، وأن نسلها سينال العزة والتكريم

✱ نصُّ الحديث كالآتي:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنتْ هالةُ بنتُ خويلد أختُ خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذانَ خديجة، فارتاع لذلك، فقال: "اللهم هالةُ". (البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة) (المترجم)

إلى يوم القيامة، لما كان إيمانها نافعًا لها؛ لأنها ستكون قد آمنت من أجل العزّة والمكانة فقط، لا لوجه الله تعالى.

وبالمثل كان أبو جهل يظن أنه سيقضي على محمد ﷺ وأصحابه ويمحو كل أثر للإسلام، ولكنه لو علم أن الإسلام سينتشر في الدنيا رغم معارضته، وأن الدنيا ستذكره باللعنة والثبور، وأنه سيُقتَل في الحرب ضد الإسلام، بل إن ابنه نفسه سيُسلِم، لما رفع صوته ضد الإسلام.

قصارى القول إنه لولا حجاب الغيب لما صار أبو بكر أبا بكر ولا أبو جهل أبا جهل.

بيد أنه إذا كانت أمور الدنيا تتم نتيجة وجود حجاب الغيب أمام أهلها، فإن إيمان المؤمنين يزداد نتيجة انكشاف الغيب. فعندما يُبعث الأنبياء في الدنيا ويخبرون أهلها بأخبار الغيب، ثم تتحقق أنباؤهم رغم الظروف غير المواتية، يتولد في قلوب المؤمنين إيمان جديد، ويظهر وجود الله تعالى أمام الناس عيانًا بحيث إن أي إنسان أمين لا يمكنه إنكار وجود البارئ تعالى.

في زمن المسيح الموعود عليه السلام حصل شجار بين المسلمين الأحمديين وغيرهم على ملكية مسجد في مدينة "كبور تهله"، وكان القاضي يسلك مسلكا معارضا للأحمديين، فخافت جماعتنا في "كبور تهله" وكتبوا إلى المسيح الموعود عليه السلام يطلبون منه الدعاء. فكتب لهم في الجواب: إن كنتُ من عند الله تعالى فسوف يُردّ المسجد إليكم. ولكن القاضي استمر في سلوكه المعادي حتى إنه أصدر حكما ضد الأحمديين. وفي اليوم التالي كان يجهّز نفسه لحضور المحكمة ليعلن قراره، فأمر خادمه بأن يُلبِسْه الحذاء. فألبسه أحد نعليه، وبينما هو يلبسه النعل الآخر سمع صوتًا، ولما رفع بصره وجد القاضي قد فارق الحياة بسكتة قلبية. وبعد موته عُيّن قاض آخر للفصل في القضية، فغيّر الحُكم لصالح الجماعة. فكانت آيةً عظيمة لأفراد الجماعة، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم حتى بلغ إيمانهم عنان السماء. (أصحاب أحمد (أردو) المجلد الرابع ص ٢٣-٢٥)

إذًا، فمن سنة الله ﷻ أنه ينبئ أنباءً غيبية باستمرار بواسطة الأنبياء، وعندما تتحقق يزداد المؤمنون إيمانا مع إيمانهم.

إن أنباء الغيب هي التي ملأت قلوب المؤمنين بمحمد ﷺ بسالة وشجاعة حتى إن أحدهم كان يرقص فرحا إذا وجد فرصة التضحية في سبيل الله تعالى، وكان يقول: فزتُ وربِّ الكعبة، مع أننا نرى الناس يخشون الموت أشد الخشية! كيف تولّدت فيهم هذه الروح يا ترى؟ إنما نفخها فيهم محمد ﷺ بإخبارهم أنباء الغيب. ولولا انكشاف الغيب على المسلمين، لما تبوءوا ذلك المكان الرفيع من الإيمان.

فكلا الأمرين ذو فائدة للناس؛ الغيب نافع في حد ذاته، كما أن انكشاف الغيب نافع في حد ذاته أيضا. إن اللذة كلها في الغيب، وإن الروحانية كلها في انكشاف الغيب.

والصفة الإلهية الثانية التي قد أُشير إليها في مقطعات ﴿طسم﴾ هي "السميع". والسميع هو من يسمع دعاء الناس ويتقبله بشكل عجيب، وليس بمقدرة أحد سواه- حيًّا كان أو ميتًا - أن يستجيب لأدعية الناس، إنما الله وحده يستمع لدعائهم ويستجيب لهم. وبالفعل ترى أن بعض الناس يدعون الله تعالى في أوروبا، وبعضهم في آسيا، وبعضهم في الصين، وبعضهم في اليابان، وبعضهم في روسيا، وبعضهم في مصر، وبعضهم في الشام وبعضهم في فلسطين، ومع ذلك فيستجيب لأدعية الجميع.

فالله تعالى قد نبه الناس بذكر هذه الصفة أن إلههم إنما هو ذلك الذي يستجيب لأدعيتهم ويسدّ حاجاتهم كلها. فمن واجبكم أن تنيبوا إليه تعالى وتدعوه كلما واجهتكم الشدائد. وهذا الدعاء لا يكلّف المرء مالاً ولا مهارة ولا قوة ولا طاقة، فمن كانت يداه مشلولتين، أو بلغ به الضعف بحيث لا يقدر على أن يهبّ من فراشه ليقوم بأداء حركات الصلاة، فهو الآخر يستطيع أن يدعو، لأن الدعاء لا يستلزم هذه الأمور، بل يمكنه الدعاء وهو مستلق على فراشه، بل حتى لو كان لسانه مفلوجًا و لم يقدر على ترديد كلمات الدعاء، فبوسعه أن يدعو في قلبه. أما إذا كان أحد قد فقد العقل فإنه معذور لأنه قد انقضى وقت عمله، ولكن ما دام

الإنسان في الدنيا ولا يخرج عن حدوده الإنسانية الطبيعية، فبوسعه أن يقوم بالدعاء وإن كان معاقًا إلى أقصى الحدود، حتى إن الأخرس الذي لا يقدر على النطق، والأصم الذي لا يقدر على السمع، والمفلوج الذي أعوزه الحس والحركة وصار طريح الفراش كأنه مضغة لحم، فإن بوسعه أيضًا أن يدعو ربّه بكل حماس وحرارة كأي إنسان صحيح معافى يدعو ربه.

فالدعاء شيء قد جعل البسطاء والأكابر والفقراء والأثرياء سواسية، والدعاء هو السلاح الماضي الذي يقول الله تعالى بشأنه في القرآن الكريم: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(النمل:٦٣). من ذا الذي يسمع دعاء عبده المضطرّ فيأتي لإغاثته مسرعًا؟ يقول الله تعالى إنني أنا الذي أجيب دعاءه!

فالدعاء أكثر الأعمال قوة. لا شك أن الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد كلها أحكام مهمة لا بد من العمل بها، ولكن الدعاء هو العمل الذي قال الله تعالى عنه إن العبد إذا دعاني بصدق القلب أتيت لنجدته حتمًا. قال الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(البقرة: ١٨٧).. أي عندما يسألك عبادي عنّي يائسين من الآلهة الأخرى التي اتخذوها من البشر مثلهم وقالوا: أين ربنا السماوي، فقد ضقنا ذرعًا من أناس كأمثال فرعون ونمرود وشدّاد، فلا ندري أين نفرّ منهم، وكيف نتخلص من المصائب والبلايا؟ فقل لهم إنهم ليسوا بحاجة للمجيء إليّ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.. أي قد جئتُ بنفسي قريبا منهم. ولو كان أحد من آبائهم أو أعمامهم وغيرهم من أقاربهم قادرًا على نصرتهم وكان على مقربة منهم، لكان عليهم أن يفرّوا إليه، ولكنهم الآن ليسوا بحاجة إلى الفرار إلى أي مكان، إذ قد أتيتُ بنفسي قريبًا منهم، فلن أتأخر عن إغاثتهم. إذا كان المرء يضطر للذهاب إلى أصدقائه وأقاربه لينصروه، فإني قد جئتهم مسرعًا، فكيف يمكن أن يبقوا في المعاناة.

هذه الرسالة التي وجهها الإسلام لكل فرد من البشر رسالة عظيمة ثورية بحيث لا يمكن بعدها لأي أذى أن يحزُن الإنسانَ. إذا كان عدوّك قد بلغ في استكباره عنان السماء فما فوقها، فإنك لو دعوت ربّك بصدق القلب فإن الله قادر أن يمدّ يده من السماء ويكسر عنقه. ومهما اتخذ العدو الحيطة في الأكل والشرب ليل

نهار، ومهما قام بتصفية الماء الذي يشربه، فإن الله تعالى لو قرر هلاكه أمَر جراثيمَ الكوليرا أو الطاعون أو الرشح بالهجوم عليه بأعداد لا ينفع معها دواء ولا عـــلاج في الدنيا، فيموت في كرب وعذاب، ليفرح عبد الله المؤمن بأن الله تعالى قد نصره.

حُكي أن أحدًا من أولياء الله تعالى كان يقيم في حيّه أناس يعملون في الـــبلاط الملكي، وكان من عادهم الانغماس في الغناء والموسيقى في ساعات متأخرة بالليل. فنصحهم مرارا بأن يمتنعوا عن ذلك ولا يفسدوا على الناس نومهم ولا صـــلاتهم، فلم ينصاعوا له. فلما ألحّ عليهم كثيرًا خافوا أن يجمع أهل الحي معه فيمنعوهم من الغناء، فأحضروا بعض الجنود الملكيين لمساعدتهم. فلما علم الرجل الصالح بما فعلوا قال: إذا كانوا قد أتوا بالجنود لحمايتهم فإننا سنحاربهم بسهام الليل (أي الدعاء). ويبدو أن الصلاح وخشية الله لم تزل في قلوب هؤلاء القوم، فلما علموا أن الرجل الصالح يهدد بمحاربتهم بسهام الليل، جاءوه مسرعين واعتذروا إليـــه قـــائلين: لا تقاتلنا بسهام الليل، فلن نعود لما كنا نفعله.

فالدعاء سلاح رائع لو استعمله المرء بيقين كامل وإيمان قوي لصار المـــستحيل ممكنًا. أتذكر جيدًا أننا ذهبنا مرة للتنـــزه على ضفة النهر مع بعض الأصدقاء، بمن فيهم السيد عبد الرحيم الذي كان أستاذي في الصغر. وبينما كان القارب يجـــري بنا في النهر قال لي ابني ناصر أحمد، وكان طفلا صغيرًا: يا أبت، لو كـــان عنـــدنا سمك في هذا الوقت لكانت متعتنا أكثر. فقلت له: يزعم الناس أن "الخضر" يحكم المياه، ولو أنه رمى إلينا بسمكة لتحققت أمنيتك. وعندما قلت له هذا قال الـــسيد عبد الرحيم متضايقًا: ماذا تقولون؟ إن هذا الولد يهذي. فقلت: إن ربنـــا يملـــك القدرة كلها، ولو أراد لبعث إلينا سمكة. وما إن أكملت كلامي حتى ارتفع مـــوج من الماء وقفزت منه سمكة كبيرة ووقعت في القارب. فقلت للسيد عبد الـــرحيم: أرأيت كيف تجلى الله بقدرته وحقق لنا أمنيتنا؟ لا شك أن الخضر المزعـــوم قـــد مات، ولكن ربنا الذي هو خالقنا ومالكنا هو حي وسميع الدعاء، ويعلم ما يختلج في قلوبنا من مشاعر وأمان، فلما رأى أمنيتنا حقق بفضله ما قلتُ.

وذات مرة أخذ المطر يهطل بعد حرّ شديد، ففتحتُ نافذة غرفتي لأتمتع بمنظر المطر، وبما أن المطر قد نـزل بعد انقطاع طويل، فوجدت به متعة كبيرة. وكنت مصابا بمرض الإسهال في تلك الأيام، وبينما أنا أتمتع بمنظر المطر، شعرت بالحاجة إلى دورة المياه. فدعوت الله تعالى بصورة عفوية: رب، لو انقطع المطر خلال غيابي فأنـزلْه ثانية عند عودتي فضلا منك ورحمة. فلما تركت مكاني انقطع المطر فورًا، وعندما رجعت إلى غرفتي وفتحت الشباك عاود المطر واستمر نـزوله إلى نصف ساعة أو أكثر. فترى أنه لم يكن لي أي تصرف على المطر، ولكن الله تعالى بفضله جعله ينـزل ثانية بمجرد أن دخلت غرفتي.

وفي عهد الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام ذهبت إلى أحد فروع جماعتنا بدعوة منهم. وعندما كنت عائدًا من هناك، فكّرت في حاجة كنت أريد شراءها، فوضعت يدي في جيبي فوجدت أن المبلغ الذي معي لا يكفي لشراء ما أريد بل تنقصني روبية واحدة، فدعوت الله تعالى قائلا: رب ابعثْ لي روبية واحدة من عندك! وبينما كان هذا الدعاء ينبعث من قلبي رأيت شخصًا قادمًا إلينا من قرية قريبة. فالتفّ رفاقي حولي لأجل حراستي، فقلت: ماذا حصل؟ قالوا هذا الشخص عدو لدود لجماعتنا ويهاجم الأحمديين كثيرا، فاجتمعنا حولك حتى لا يصيبك بأذى. وعندما اقتربنا من القرية جاءني هذا الشخص يجري ودفع أصحابي وتقدّم إليّ ومدّ يده في منتهى الأدب ووضع على يدي روبية، وذهب. فقلت لرفقائي: كنتم تقولون إنه جاء بقصد إيذائي، ولكنه بدلاً من ذلك أهدى لي روبية. ثم أخبرتُهم أنني كنت دعوت الله تعالى في قلبي قبل قليل بأن يبعث لي مِن عنده روبية واحدة، فأرسل هذا الشخصَ ليعطيني الروبية هديةً.

إذًا، لو كان المرء موقنًا بالله تعالى يقينًا كاملا لأظهر له آيات عظيمة. لقد ورد في الحديث أن ثلاثة نفر ممن قبلنا انطلقوا، فجاءهم عاصفة شديدة المطر، فأَوَوا إلى غار، فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم الغار، فلم يستطيعوا الخروج من الغار. لقد فرّوا من مصيبة صغيرة إلى الغار فوقعوا في أشد منها. فلم يجدوا في تلك البرية من ينجيهم من هذه المصيبة. فبلغ منهم الهلع كل مبلغ، فلما لم يجدوا مخلصا

مما هم فيه، قال أحدهم لرفقائه: تعالوا ندع الله تعالى متوسلين بأكبر حسنة عملناها في حياتنا لكي يزيح الصخرة عن فم المغارة. فأخذ أحدهم يدعو ربه قائلا: اللهم أنت تعلم أني كنت استأجرت أجيرًا ذات مرة، فذهب قبل أن يأخذ مني أجرته، فاستثمرتُ أُجرتَه في التجارة، فاشتريت بها شاة، فكثرت أولادها حتى صار عندي قطيع كبير فيه مئات الماعز والشياه. فجاءني هذا الأجير بعد عدة سنوات وقال: أَدِّ لي أجرتي! فأخذته معي وقلت: كل ما ترى من هذا القطيع هو أمانتك التي تركت عندي، فخذها. فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ بي، فليس لي عندك إلا نصف درهم! فقلت له: لقد استثمرتُ أُجرتك في التجارة فصارت هذا القطيع من الماعز والشياه كما ترى. فقال: إذًا فهي ليست لي، بل هي لك. فقلت له: كلا، إذ لم أستثمر مالك لنفسي بل لك. فأخذته الحيرة، واستاق القطيع إلى بيته. اللهم، إن كنتُ قد فعلتُ ذلك ابتغاء مرضاتك، فارحمني وحوِّلِ الصخرة عن فوهة المغارة. فانفرجت شيئًا قليلا، ولكنهم لم يستطيعوا الخروج.

فدعا الآخر وقال: اللهم كنتُ أحب فتاة من أقاربي حبّا شديدًا، فراودتها عن نفسها فامتنعت، حتى حلّت بالبلاد مجاعة شديدة، فعانت الفتاة وأقاربها من الجوع حتى أوشكوا على الموت. فاضطرت للمجيء إليّ طلبًا للمساعدة، فأعطيتها المال على أن تُخلي بيني وبين نفسها، فرضيت على مضض. حتى إذا اقتربت منها ناشدتْني اللهَ تعالى بأن لا أدفعها إلى المعصية! فما إن سمعتُ قولها حتى تركتُها، وقلتُ: لقد استعذتِ بعظيمٍ، فأتجنب المعصية لوجهه تعالى. فانصرفت إلى بيتها بالمال الذي أعطيتها. اللهم إن كنتُ قد فعلتُ هذا ابتغاءَ وجهك ونيل مرضاتك، ففَرِّجْ عنا هذه الصخرة. فجاء من فوق الجبل سيل جارف، فانفرجت الصخرة قليلا غير أنهم لم يستطيعوا الخروج منها.

ثم توجَّهَ الثالث إلى الله تعالى وقال: اللهم إنك تعلم أني كنت أرعى الغنم وأعيش على درّها، فخرجت بها مرة بعيدا، ورجعت إلى البيت متأخرًا جدًّا. وكان لي أبوان كبيران وأولاد صغار. فلما رجعتُ وجدتُ والدَيّ نائمين، أما أهلي وأولادي فكانوا مستيقظين ينتظرون، فطلبوا مني الحليب ليشربوهويناموا. فقلت:

لن أُطعم أحدًا قبل أبويّ. فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما، بينما ظل أهلي وأولادي يصرخون جوعًا ولكني لم أبال بذلك، حتى برق الفجر فاستيقظ أبواي فشربا الحليب، ثم قدّمتُه لأهلي وأولادي. اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء مرضاة وجهك و لم تكن بنيتي شوائب الدنيا فأَزِحْ هذه الصخرة عن طريقنا. فجاء سيل عارم أزاح الصخرة عن فم المغارة، فخرج الثلاثة. (البخاري: كتاب الإجارة: باب من استأجر أجيرًا فترك أجره)

إذًا، فالدعاء سلاح عظيم ينفع الإنسان عند كل شدّة وينجّيه من كل مصيبة. فما أشدَّه غباءً مَن يترك هذا السلاح الرائع عند حلول مصيبة ويتوجّه للاستعانة إلى غير الله تعالى! إنما المؤمن الحقّ من يسأل الله تعالى كل حاجة حتى شراك نعله، موقنًا بأنه تعالى قادر على سدّ كل حاجة، وأنه لن يُرجعه من بابه خائبًا خاسرًا. عندما تستولي هذه الحالة على باطن المؤمن، ينسى العالم كله ولا يرى أي معين حقيقي سوى الله ﷻ.

لقد ذكرت من قبل مرارًا أنه كان في جماعتنا أخ اسمه المولوي إمام الدين، وكان من قرية "جوليكي" في محافظة غجرات، وهو والد القاضي أكمل، وقد تُوفّي الآن. كان شخصا صوفيا وكان يقول لي دائمًا إننا لم نحرز في الأحمدية تلك المكانة الروحانية العالية التي كنا نسمع عنها كثيرًا. فقلت له مرة: ما هي تلك المكانة السامية التي كنت تسمع عنها؟ قال: كان شيخنا في التصوف يقول لنا: إن الذي يعيش في صحبتنا بضعة أيام نمكّنه من السجود على العرش ومِن رؤية الله تعالى عيانًا. ثم قال لي المولوي إمام الدين: لا شك أني أراني أفضل حالا مما كنت عليه قبل انضمامي للأحمدية، ولكني لا أرى فيها ذلك المشهد الروحاني الذي كان شيخنا يتحدث عنه. فقلت له: كان الخليفة الأول ﵁ يحكي لنا أن أحد الشيوخ المتصوفين لما سمع أني قد بايعت على يد المسيح الموعود ؑ أرسل إليّ أحد مريديه وقال: ما الذي أحرزتَه بتصديق هذا الرجل وبيعته؟ لو بايعتَني أنا لمكّنتُك من السجود على العرش دون تأخير لما أتمتع به من مكانة روحانية. فقلت لمريده: قل لشيخك، ألا يرى أنني لو سجدتُ على العرش سوف أتلقى الضرب والإهانة إذ

سيقول لي الله تعالى: لقد أمرتك بالسجود على الأرض وأنت جئت للسجود في السماء؟

ولما سمع المولوي إمام الدين قولي هذا قال: هذا صحيح، ولكن قلبي لا يطمئن بما تقول. فلم يزل بعد ذلك يثير نفس السؤال كلما قابلني وكنت أجيبه بأسلوب أو آخر ولكنه كان لا يطمئن. وقلت له في آخر مرة: هل فكّرتَ مرة كيف تكون حال من يرى الله عيانًا ويبلغ من الروحانية بحيث يسجد على عرش الرحمن؟ لا شك أن الله ﷻ يتكفّل مثل هذا الإنسان ويجعله في غنى عن الناس، فلن يسأل أحدًا سوى الله تعالى، ويكون مصداقًا لوحي الله تعالى للمسيح الموعود ؑ: "ينصرك رجال نوحي إليهم من السماء" (براهين أحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٢٦٧)، وإنْ ساعده الناس في الظاهر؛ وسيساعده الناس لحاجتهم إليه، وليس لحاجته إليهم. إن الذي يعطي مثل هذا الإنسان شيئا يظنّ أنه يساعده، ولكن الواقع أن هذا الإنسان يوقن بأنه قد أحسن إلى هذا حين قبِل هذا الشيء من المعطي، ذلك لأنه يوقن في قرارة نفسه أن الله تعالى هو الذي يبعث الناس لسدّ حاجاته سواء أجاءه زيد أو عمرو بتلك الهدية، وأنه ليس بحاجة إلى زيد أو عمرو، إنما هو محتاج إلى الله تعالى. إن مثل هذا الإنسان يدرك جيدًا أن الله تعالى هو الذي يبعث له هذا الشيء أيًّا كان الشخص الذي أتى به. ثم قلت للمولوي إمام الدين: فأَخبِرْني الآن: هل يتبوّأ شيخك هذا المقام؟ أعني هل الله تعالى يتكفّله في كل ما يحتاج إليه؟ فسكت مليًّا ثم قال: الآن قد فهمتُ كل شيء! إن شيخنا يدّعي بأنه سيمكّننا من رؤية الله عيانًا ومن السجود على العرش، ولكنه يخرج إلى الفلاحين والمزارعين زمن الحصاد ويقول لهم: لا تنسوني أنا أيضا. لقد علمتُ الآن أنه لو كان يتمتع بقرب الله حقًّا كما يزعم لما قال لأحد من عباد الله تعالى أن لا ينساه.

باختصار، إن الذي يحظى برؤية الله ﷻ فلا ينظر إلا إلى الله، ولا يعرض حاجته إلا إلى الله، ولا يرى أحدًا سوى الله تعالى نصيرا أو كفيلا.

بيد أنه من الواجب على المؤمن، إضافةً إلى أن يدعو الله تعالى دائمًا، أن يتخلّى عن الطمع والجشع كلية وفي كل حين، ولا يشكو ربه أبدًا. يوصي الله تعالى

المؤمنين ﴿وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا به أَزْوَاجاً منْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاة الدُّنْيَا لنَفْتنَهُمْ فيه وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:١٣٢).. أي لا تمُدَّنَّ بصرك إلى غيرك طمعًا في مثل ما عنده من متع الدنيا، فإنك لا تعلم ما إذا كان ما عنده نافعًا لك أم ضارًّا. فمن المحتمل جدًّا أن تجد مثل ما عنده فيسبّب لك الأذى. مما لا شك فيه أنه يجوز لمن عنده عشرة بلايين من المال مثلا أن يدعو الله تعالى ويقول: رب إني بحاجة إلى المزيد من فضلك، ولكنه لو كان يملك عشر روبيات فقط ولا يزال يشعر بالقلق والكرب لأن غيره يملك مئة روبية، ثم يأخذ بالشكوى من الله تعالى، فهذا غير مناسب أبدًا. فيجوز للمرء أن يسأل الله تعالى المزيد من فضله ومن نعمه، ولكن يجب ألا يشعر بالقلق والعتاب على الله بما هو فيه، ولا يظنن أن الله تعالى قد جعله أدنى مقاما من غيره.

لقد كتب صاحب كتاب " المثنوي الرومي" حكاية بأن أحدًا من الحُواة أمسك بحيّةٍ لم توجد مثلها عند أقرانه، فكان يحرص عليها حرصًا شديدا ويعتز بها أمام أصدقائه كثيرًا. وذات ليلة لم يُغلق الوعاء الذي كان يحفظها فيه، فهربت فلم يجدها في الصباح. فحزن على فقدها حزنًا شديدًا، وأخذ يدعو الله تعالى أن يعيد له الحيّة. وبعد دعاء كثير فتح الوعاء ثانية آملاً أن تكون الحية قد رجعت إلى مكانها، ولكن بدون جدوى. فظل يدعو الله تعالى طوال النهار والليل، وفي الصباح جاءه شخص وقال له: تعال نذهب إلى بيت فلان فقد دخلت في بيته حية فريدة من نوعها ولدغته فمات، وقد جاء الحُواة وقبضوا عليها، وهم في انتظارك. فلما ذهب وجد أنها حيته التي هربت منه، والتي كان يدعو الله تعالى منذ أربع وعشرين ساعة أن يرجعها إليه.

فيبدو أن صاحب الحيّة كان يتمتع بشيء من الخير والصلاح، فكان الله تعالى يحبه، فجعل الحيّةَ تفرّ من عنده إلى غيره، فحاول هذا الشخص القبض عليها، فلدغته، فمات. فلما رأى صاحب الحيّة هذا المشهد خرّ ساجدًا أمام الله تعالى وقال: ربّ، كنت أظن أنك لم تستجب لدعائي، ولكنك قد أجبته في الواقع، إذ كان فقدي الحيّةَ فضلاً ورحمة لي. (المثنوي الرومي (فارسي) دفتر ثان)

إذًا، فهناك آلاف الأماني التي يتمناها المرء وتكون ضارة به في الواقع. فمثلا يتمنى المرء الأولاد، ولكنهم يكونون في بعض الأحيان سيئين ويسببون وصمة عار للآباء، فيبكون برؤية حالهم. لا شك أن والدَي نبيّنا ﷺ قد دَعَوَا الله تعالى عند زواجهما بأن يعطيهما ولدًا من فضله، ولكن والدته ﷺ كانت من أسرة فقيرة، و لم يكن والده ﷺ أيضا من أسرة ثرية، فلا شك أن زواجهما قد تم بإنفاق بسيط و لم يحضره إلا بضعة أفراد. وعلى النقيض يمكن أن تقدر كيف كان زفاف والد أبي جهل؛ لا شك أنه كان زواجًا مشهودًا مشهورًا حيث قُدّم فيه لأهل مكة لحوم الإبل شواءً لعدة أيام، ولكن هذا الزواج الشهير أنتج أبا جهل، أما الزواج الآخر الذي تم في صمت قد أنتج محمدًا رسول الله ﷺ. لا جرم أنه عند زواج والد أبي جهل كان الناس يقولون بعضهم لبعض منبهرين: كم هو مبارك هذا البيت! بينما كانوا يترحّمون على حالة والد النبي ﷺ يوم زفافه قائلين: ما أشد أهل هذا البيت فقرًا! ولكن لم يتخيل أحد منهم أن البيت الذي يعدّونه مباركا سوف يتسبب في هلاك العرب، وأن صاحب البيت الآخر الذي يترحمون عليه سيؤدي زواجه إلى ولادة شخص لن ينقذ العرب من الهلاك فحسب، بل سيكون رحمة وبركة للعالم أجمع.

فثبت أن المرء لا يعلم أن ما يسأل اللهَ تعالى هو نافع له أم ضار، إنما علمه عند الله فحسب؛ وما دام علم المرء محدودا لهذه الدرجة، فكيف يحقّ له أن يشكو الله، أو يعتبر ما أعطاه الله تعالى ضارًّا به؟ نعم، إن من حق المرء أن يدعو الله تعالى كما دعا موسى ﷺ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(القصص:٢٥)، فإذا أعطاك الله مئة مليون فيمكنك أن تقول: رب إنني فقير إلى عشرات البلايين، ولكن لا يحق لك أن تقول لربك: لقد ظلمتني وألقيتني في العناء والضيق، لأن هذا نكران لنعم الله تعالى وهو غير جائز.

والصفة الإلهية الثالثة التي قد نبّهنا الله إليها في هذا المقطع هي صفة "المجيد"، ومعناها أن الله تعالى ذو مجد عظيم. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(الرحمن:٣٠).. أي أن

الله تعالى يتجلى كل حين بشأن جديد، ويُظهر دائمًا من آياته ما يكشف للدنيا مجده العالي والرفيع. ذلك لأنه من الواقع أن الإنسان لا يتمتع كثيرًا برؤية شيء قد رآه من قبل، لأن الله تعالى قد أودع فطرتَه حُبّ الجديد، فيريد أن تنكشف عليه مشاهد جديدة. وعلى سبيل المثال، لما اختُرع القطار اعتبره الناس أعجوبة من العجائب، فكانوا يزينونه بالورود والأزهار، ولكن فتر حماسهم بمرور الوقت. ثم لما اختُرعت الطائرات وغيرها من المراكب الجديدة توجّه الناس إليها منبهرين. فثبت أن فطرة الإنسان تجد المتعة في كل ما هو جديد وتطمئن إلى كل ما هو فريد من نوعه، لأنه عندما يرى شيئًا جديدًا تتولد في نفسه أمنية جديدة، فيظن لعله سيشاهد مشهدا جديدا؛ وتلبية لهذه الرغبة الفطرية فيه قد خلق الله تعالى فصولا مختلفة وأثمارا متنوعة، ولهذا السبب نفسه تجد الإنسان يغيّر لباسه حينًا ومكانه حينًا، ويعدّ أطعمة جديدة كي تجد فطرته السكينة والمتعة بالشيء الجديد. لا شك أنني أجد في قراءة القرآن حظًا كبيرًا، ولكن عندما يهمس الله تعالى في أذني شيئًا بالليل فلا تسأل عن المتعة التي أجدها، وليس ذلك إلا وفقًا للمقتضى الفطري بأن الشيء الجديد يملأ القلب لذة وسرورا.

مجمل القول إن الإسلام يخبرنا أن إلهكم مجيد، حيث يتجلى دائمًا بقدرته المتجددة التي تدلّ على عظيم مجده وعلو شأنه. فمن مشاهد قدرته المتجددة دائمًا أن اليهود لما قاموا بتأليب كسرى فارس على النبي ﷺ، كتب إلى واليه على اليمن يأمره بإلقاء القبض على من ادّعى النبوة بين العرب ويبعثه إليه. فأرسل حاكم اليمن شرطته إلى النبي ﷺ وأمرهم أن يقولوا للنبي ﷺ نيابة عنه: إني لا أعرف جريرتك، ولكن الأفضل لك أن تنطلق إليّ معهما، وإلا سيزحف كسرى بجنوده على العرب، ويخرّب البلاد كلها. فلما قدموا على النبيّ ﷺ وطلبوا منه المسير معهم قال النبي ﷺ لهم: ارجعوا حتى أجيبكم غدًا. فمكثوا يومين وجاءوه في اليوم الثالث، فأمرهم بالانتظار ليوم آخر. فلما التقوه في صباح اليوم التالي قال لهم النبي ﷺ: اذهبوا وقولوا لواليكم، إن ربي قد قتل ربَّه البارحة. فأخذهم الحيرة من قوله ﷺ والتمسوا منه الانصراف معهم، ولكن النبي ﷺ قال لهم: لقد أجبتُكم، فاذهبوا

إليه بجوابي. فلما رجعوا إليه وأخبروه الخبر قال: إما أن هذا الشخص مجنون أو نبي صادق. فلننتظر بضعة أيام لنرى هل يتحقق ما قاله أم لا! وبعد أيام قلائل رست بميناء اليمن سفينة نزل منها سفير فارسي حاملا معه رسالة إلى والي اليمن. فلما رأى الوالي الرسالة وجدها مختومة بختم ملك جديد، فقال لحاشيته: يبدو أن ما قاله نبي العرب حقّ. ثم فتح الرسالة فإذا هي من شيرويه ابنِ كسرى، حيث قال فيها: كان أبونا ظالما غاشما. لقد عاث في البلاد الفساد، فقتلته في الليلة الفلانية واعتليتُ العرش مكانه، فعليك أن تأخذ من أهل مملكتك إقرار الطاعة لي. وقد علمتُ أيضا أن من مظالم أبي أنه كتب إليك أن تلقي القبض على نبي العرب وتبعثه إليه، ولكنا قد ألغينا هذا الأمر. (الطبري: مجلد ٣ ذكر خروج رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك)

فترى أن كسرى أراد إلقاء القبض على النبي ﷺ ومعاقبته ليُهينه في العالم، ولكن الله المجيد قد زاده ﷺ مجدًا وعظمةً وأهلك كسرى بيد ابنه.

كان حضرة الخواجا "نظام الدين أولياء" من كبار الصلحاء في دهلي، فأخذ الملك المعاصر له "غياث الدين تغلق" في معاداته. وكان الملك يريد المسير إلى البنغال لحرب، فقال لحاشيته: سأعاقب هذا الشخص بعد عودتي من الحرب. فلما بلغ ذلك مريدي الخواجا، حضروا إليه قلقين وقالوا له: علينا أن نتشفّع إلى الملك بواسطة بعض حاشيته المقربين. فأجاب حضرته باللغة الفارسية: "هُنُوْز دِلِّي دُوْر اَسْت"، ومعناه: أن عاصمته دهلي لا تزال بعيدة عنه؛ إنه لم يخرج من دهلي بعد ولم يخرج لحرب العدو بعد، فعلامَ القلق من الآن؟ فلما انقضى أسبوع أو أكثر حضره المريدون وقالوا: لقد مضت عشرة أيام على تهديد الملك وقد خرج للحرب أيضا، فعلينا معالجة الأمر الآن. ولكن حضرته أعاد جوابه وقال: "هنوز دلي دور است". وأخيرًا جاء الخبر بأن الملك قد انتصر في الحرب، وأنه عائد إلى دهلي، فهرع إليه المريدون في قلق وذعر وأخبروه بأن الملك عائد، فأجابهم: "هنوز دلي دور است"، فهو لا يزال على مسافة أربع مئة ميل عن دهلي، فأي داع للقلق؟ فلما اقترب الملك أكثر رجع المريدون إلى حضرته وقالوا: لقد اقترب الملك من دهلي جدًا! فأعاد قوله: "هنوز دلي دور است". فلما اقترب أكثر جاء المريدون إلى

حضرته في كرب شديد، ولكنه أعاد لهم نفس الكلام: "هنوز دلي دور است". وأخيرًا علم الناس أن الملك وجنوده قد عسكروا خارج أسوار مدينة دهلي، فجاءه المريدون مسرعين وقالوا ها قد وصل إلى أسوار المدينة، فقال حضرته: "هنوز دلي دور است"، إنه لا يزال خارج أسوار المدينة و لم يدخلها، فلماذا نقلق؟ وأقام ولي العهد في تلك الليلة مأدبة ملكية عظيمة احتفالا بالانتصار اشترك فيها الآلاف، فأكلوا ورقصوا وغنّوا. وقد أقيمت المأدبة على سطح قصر كبير، فاجتمع عليه أناس كثيرون، فتهدّم السقف فجأة، فمات الملك مع حاشيته مدفونًا تحت أنقاض السقف. وفي الصباح لما بلغ نعي الملك حضرةَ نظام الدين أولياء قال: ألم أقل لكم: "هنوز دلي دور است". (مشاهير الإسلام (أردو) ص ١٥-١٦ - وتذكرة الأولياء (أردو) الجزء الثاني ص ٣٤١-٣٤٢)

فالله تعالى ذو مجد عظيم، وكل من يقيم معه صله صادقة ينال المجد بقدر روحانيته ودرجته. وكما أن من صال على مجد الله وعظمته عاقبه الله تعالى، كذلك من صال على المقربين عنده تعالى لا ينجو من عقابه أبدًا.

لقد جاء في الدنيا آلاف الأنبياء الذين لا نعرف أسماء أكثرهم، وأجسادهم مدفونة تحت أطنان من التراب، وأممهم غير موجودة أيضا، ولكنهم كانوا مبعوثين من الله المجيد، ولذلك قد كتب لهم من المجد والعزّ ما لو أساء إليهم أحد اليوم أيضًا أتى الله لنصرتهم مسرعًا وأزال عنهم كل وصمة عار تُلصق بهم وأرسى كرامتهم وشرفهم ثانية.

باختصار، قد نبّهنا الله ﷻ بقوله ﴿طسم﴾ إلى ثلاث من صفاته، وهي اللطيف والسميع والمجيد، مبيّنًا أن هذه السورة تُلقي الضوء على أن الله تعالى هو عالم الأسرار، ومحسن عظيم، وسميع الدعاء، وصاحب المجد والجبروت.

وقد برهن الله ﷻ على صفاته هذه من خلال الوقائع التاريخية، فأوّل دليل قدّمه على ذلك هو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.. أي أنها آيات الكتاب الذي يبيّن كل حقيقة أيما بيان، مما يدلّ على أن الله تعالى الذي أنزله يعلم كل ما يحتاج إليه الإنسان، وأنه مطّلع على كل ما يوجد في فطرته من أسرار خفية.

ويتّضح من دراسة القرآن الكريم أن كلمة "مبين" قد وردت فيه صفةً لعدة أشياء منها: الرسول ﷺ (الزخرف:٣٠ والدخان:١٤)، والنـــور (النـــساء:١٧٥)، والفـــضل (النمل:١٧)، والحق (النور:٢٦)، ولكنها لم ترد فيه وصفًا لأيّة صحيفة سماوية ســـوى القرآن الكريم. صحيح أن القرآن الكريم قد وصف كتاب موسى بكلمـــة مماثلـــة وذلك مرة واحدة فقط، ولكنه قد استعمل لذلك لفظ ﴿المستبين﴾ حيث قـــال الله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات: ١١٨).. أي أننا قد أعطينا موســـى وهارون كتابا كاملا احتوى جميع الأحكام. وهذا يعني أن القرآن الكريم قد فـــرّق بين فحوى كلمتي "مبين" و"مستبين"، علمًا أن كلمة "مبين" قد وردت في القرآن وصفًا له اثنتي عشرة مرة: عشر مرات وصفًا للكتاب ومرتين للقرآن. وقد تبيّن من ذلك بجلاء أن ﴿المستبين﴾ تعطي معنى الوضوح، أما ﴿المبين﴾ ففيها معنى الوضوح والإيضاح، ذلك لأن "استبان" يعني اتّضح، و"أبان" يعني اتّضح وكذلك أوضـــحَ. إذًا، فإن الله تعالى قد أشار بوصف القرآن بكونه مبينًا إلى ميزة خاصة لـــه علـــى الكتب الأخرى، وهي أن القرآن الكريم ليس بواضح في معانيه ومفاهيمه ولا يبيّن الحقائق الثابتة فحسب، بل هو مُوضح أيضًا.. أي أنه يقوم بتوضـــيح مـــا ورد في الكتب السماوية السابقة من أمور وحقائق. وهذا فضلٌ للقرآن لا يشاركه فيه أي سفر من الأسفار السابقة. لقد انحصرت مهمة الصحف الأولى السابقة في توضيح معانيها وفحواها هي وحدها، لأن كل واحد من تلك الصحف إنما نـــزل لشعب معين، ولم يكن يهمّه ما إذا كانت الكتب الأخرى تبدو صادقة أم باطلة، ومـــا إذا كان الأنبياء الآخرون يبدون صادقين أم كاذبين، أو ما إذا كانت الشعوب الأخرى تبدو وارثة لنور الله تعالى أم لا. لم تتحدث تلك الكتب إلا عن نفسها فقط لكونها محصورة في نطاقها القومي فحسب، ولكن القرآن قد جاء لجمع شعوب العالم كلها على مقام واحد، فبيّن جميع الأحكام التي تخصّ الناس بيانًا تفصيليًا، ملقيًا الـــضوء على كل جزئية منها؛ وليس هذا فحسب، بل قد بيّن حقيقة الكتب السابقة أيضا، حيث برّأ ساحة الأنبياء السابقين من التهم الملصقة بهم، ونـــزه الكتب السابقة عن المطاعن، وكل ذلك بالدلائل والبراهين، فتارة بالإشارة إلى تطوّر الفطرة الإنسانية،

وحينًا إلى التحريف الذي تعرّضت له الأسفار السابقة بأيدي الناس، أو أحيانًا إلى اجتهاداتهم الخاطئة.

إذًا، فالقرآن الكريم قد بيّن محاسن الأنبياء السابقين والأسفار السابقة والأمم الخالية، كما برّأهم وكتبهم من التهم، وهكذا قد ارتقى من درجة "المستبين" إلى درجة "المبين". فمثلاً قالت التوراة إن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر إلى كنعان كان عدد شبابهم البالغين سن العشرين والصالحين للحرب ستمئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة، وذلك ما عدا شباب السبط الثاني عشر (الخروج ٢: ٣٢). وإذا أضفنا إلى هذا العدد شباب السبط الثاني عشر أيضًا صار عدد المحاربين بين بني إسرائيل حوالي ستمئة ألف وخمسين ألفا. ولو جعلنا هذا العدد عشرة أضعاف لمعرفة العدد الإجمالي لبني إسرائيل بما فيهم النساء والولدان والشيوخ - حيث إن ما بين ستة إلى عشرة بالمئة من القوم يكونون صالحين للأعمال الحربية عمومًا - بلغ هذا العدد ستة ملايين. ولكن العقل يرفض أن يكون بنو إسرائيل بهذا العدد الضخم وقت خروجهم من مصر. فأوّلاً من المحال أن يخرج هذا العدد الهائل من البشر من مصر في تلك الفترة القليلة، وثانيًا أن القرية التي سكنوا فيها بعد عبور نهر الأردن لا يمكن أن تستوعب هذا العدد الضخم من الناس! فإن عدد سكان فلسطين لا يتجاوز اليوم أيضًا مليونًا ونصف مليون◆، وذلك مع وجود اليهود الذين قد أتوها من الخارج واستوطنوها بمساعدة أمريكا. إذًا، فمما يخالف العقل أن يأتي ستة ملايين شخص ليسكنوا هذه البلاد التي كانت مسكونة سلفًا. فثبت أن العدد الذي ذكرته التوراة لبني إسرائيل غير مقبول عقلاً! ولكن القرآن جاء فأخبر أن هذا البيان مغلوط، إذ لم يكن عددهم إذّاك إلا بضعة آلاف. قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾(البقرة:٢٤٤). إذًا، فالتوراة زعمت أن

◆ أي في وقت كتابة التفسير. (المترجم)

بني إسرائيل كانوا عدة ملايين وقت خروجهم من مصر، ولكن القرآن الكريم قام بتصحيح خطأ التوراة وأخبر بأنهم لم يكونوا ملايين بل آلافًا.

وكان سليمان عليه السلام من أنبياء الله الأطهار، ولكن التوراة وصمته بالشرك حيث ورد فيها: "ولما كان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملنَ قلبَه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب" (الملوك الأول ١١: ٤)، وورد فيها أيضًا: "فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتّبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب." (الملوك الأول ١١: ٩-١٠). وهذا يعني أن سليمان عليه السلام قد بلغ في الكفر -حاشا لله- درجة أنه برغم أن الله تعالى قد ظهر له مرتين ونهاه مرتين عن عبادة الآلهة الباطلة، إلا أن جمال أزواجه خلب لبّه حتى إنه بنى للآلهة الباطلة معابد وخرّ لها ساجدًا.

ولكن القرآن الكريم جاء فأوضح وقال ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾(البقرة: ١٠٣).. أي لم يكفر سليمان عليه السلام قط، بل الذين اتهموه بالكفر والشرك هم الذين كفروا.

والشواهد التاريخية تؤيد بيان القرآن الكريم وتدحض بيان التوراة، حيث ورد في الموسوعة التوراتية:

صحيح أن سليمان كانت له زوجات كثيرات - بعضهن إسرائيليات وبعضهن غير إسرائيليات - ولكنه لم يصنع لهن أية مذابح، كما لم يشرك في عبادة الله تعالى أيَّ إله من آلهة زوجاته. لقد كان من المحال لسليمان أن ينكر وحدانية الله تعالى حتى في التصور والخيال. (الموسوعة التوراتية المجلد الرابع تحت كلمة: Solomon)

إذًا، فالتاريخ أيضا يؤكد أنه برغم أن سليمان عليه السلام قد تزوّج بالعديد من النساء اليهوديات وغيرهن، ولكن من الخطأ القول أنه بنى معابد للأصنام أو سجد لأي منها.

فترى أن التوراة تقول أن سليمان سجد للأصنام، ولكن القرآن جاء فرفض زعم التوراة، ثم إن الباحثين اليهود والنصارى أعلنوا اليوم أن بيان التوراة كذب، وأن الحق مع القرآن.

ثم تقول التوراة إن هارون عليه السلام صنع العجل لبني إسرائيل وعلّمهم الشرك حيث ورد فيها:

"ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قُمْ اصْنَعْ لنا آلهةً تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجلُ الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأْتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنَعه عجلاً مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتْك من أرض مصر." (الخروج ٣٢: ١-٤)

ولكن القرآن جاء وأعلن أن هذا افتراء مبين، فإن هارون عليه السلام قد نهى قومه عن الشرك بشدّة وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾(طه:٩١).. أي لا تطيعوا السامري الذي يعلّمكم الشرك والوثنية، بل اتّبِعوا خطواتي أنا.

إذًا، فالتوراة تتهم هارون نبي الله الطاهر بأنه قد أشرك بالله تعالى، ولكن القرآن الذي هو "المبين" جاء وأخبر أن هذا كذب صريح، فإن هارون الذي بعثه الله تعالى لم يزل يدعو قومه إلى وحدانية الله تعالى، ولكنهم اتبعوا السامري لشقاوتهم، وأخذوا يعبدون العجل.

أما عيسى عليه السلام فقد اتهمه اليهود والنصارى بتهم خطيرة، ولكن القرآن الكريم دحضها وبيّن أنها ليست إلا افتراء عليه من قبل أعدائه. فمثلاً قال اليهود أن المسيح (عليه السلام) وُلد نتيجة الفاحشة - والعياذ بالله.. أي أنه وُلد من بطن مريم بنطفة يوسف قبل زواجهما. (الموسوعة البريطانية المجلد الخامس ص تحت كلمة: "Celsius").

وكذلك زعم اليهود أن المسيح ابنٌ لجندي روماني اسمه "بنثيرا" - معاذ الله - حيث كانت له علاقة غير شرعية مع مريم. (الموسوعة اليهودية المجلد السابع تحت كلمة: Birth of Jesus)

ولكن القرآن الكريم قد برّأ ساحة السيدة مريم من هذه التهمة معلنًا: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً

لِّلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:٩٢).. أي أن مريم الصدّيقة والدةَ المسيح قد حفظت جميع منافذها من الإثم، وأن حملها لم يكن حملا غير مشروع، بل حملت بروح طاهرة نفخناها فيها، وجعلناها وابنها عيسى آية للعالم كلّه.

كذلك يتّهم النصارى المسيح عليه السلام بأنه مات معلّقا على الصليب ميتة ملعونة - والعياذ بالله - حيث ورد في العهد الجديد قول بولس: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا، لأنه مكتوب: ملعونٌ كل مَن عُلّق على خشبة". (غلاطية ٣: ١٣).

وهذا يعني أن المسيحيين قد اعتبروا عبدًا من عباد الله المقرّبين ملعونا تحقيقًا لأهواء أنفسهم، ولكن القرآن الكريم فنّد هذه التهمة بلسان المسيح نفسه حيث قال ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(مريم:٣٤).. أي أن الذين يزعمون أن ولادتي كانت نتيجة الفاحشة إنما يفترون علي، إذ قد شملني سلام الله تعالى وقت ولادتي؛ وأن الذين يزعمون أني قد متّ ميتة ملعونة هم أيضًا مخطئون، لأن موتي أيضا سيتمّ تحت حماية الله تعالى، وأنني سوف أُنقذ من الميتة الملعونة؛ وأن الذين يظنون أنني مكثت في جهنم ثلاثة أيام كفّارةً عن آثام الآخرين هم أيضًا مخطئون، لأن حياتي الثانية ستبدأ تحت ظل سلام الله تعالى.

مجمل القول إن الله سبحانه وتعالى قد دحض في القرآن الكريم كل التهم التي كانت قد تسرّبت إلى الكتاب المقدس بأيدي الناس، وقدّم رسلَه تعالى إلى العالم مبرَّئين من كل عيب.

والهندوس أيضا قد رموا أنبياءهم وصلحاءهم بتهم مماثلة. فمثلاً قد ورد في كتبهم أن والدة حضرة "كريشنا" قالت له: "يا بُنيّ، عندي تسع مئة ألف بقرة حلوبة، فكُلْ مِن زُبدها كما شئت، ولكن لا تسرق الزبدة من بيوت الآخرين!" (مها ريشي ويد وياس، شريمد بهاگوت مها پران دوسرا كهنڈ سكنڈھ ٩-١٢)

وكذلك قالوا عنه أنه عاش مع النساء الأجنبيات منغمسًا في الملذات، وقد ذكروا اسم امرأة على وجه الخصوص وقالوا إنه أيقظها بالليل وقال: أيتها الجميلة، دَعِـي النوم ومَتِّعيني بشبابك. (برهم دي ورت، بران كريشن جنم، كهنڈ ٤ أدهياء ٧٢)

ولكن القرآن الكريم قد ذكر حضرة كريشنا وغيره من الأنبياء الكثيرين الذين لم تبق أسماؤهم أيضا محفوظة في صفحات التاريخ ذكرا إجماليا، وقـال ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(الأنعام:٩١).. أي أن جميع هؤلاء القوم قد هـداهم الله تعالى أي كانوا من المُنعَم عليهم الذين ورثوا أفضال الله ونصرته، فمن واجبك الآن أن تتبع خطواهم وتسلك نهجهم.

لقد تبيّن من ذلك أن القرآن الكريم يعتبر جميع الأنبياء معصومين من الخطـأ، ويدحض كل تهمة رُموا بها سواء من قبل المنافقين أو من المعارضين. إنه يزيل كل غبار عن وجوههم الجميلة الطاهرة ويجلو نورهم أكثر فأكثر. وهي منّة عظيمة من القرآن الكريم لا يوجد لها نظير في أي سفر من الأسفار الموجودة في العالم.

ثم إن القرآن الكريم قد أكّد أنه "مُبِين" من حيث إنه قد عمل على إرساء كرامة كل نبيّ في الدنيا، وفرض على أتباعه الإيمان بهم أجمعين. لو فحصنا أحوال أي بلد لعلمنا أن أهلها يؤمنون ببعض الصلحاء والأبرار من قومهم حتمًا، ولكنهم يظنون أن الصلحاء لم يوجدوا إلا في قومهم فقط. فمثلا يؤمن أهل الهند بـأن حـضرة كريشنا وحضرة رام شندر جي كانا من "أوتار" أي من الأنبياء، ولكنهم يقولـون أيضا أنه لم يبعث أي نبيّ سواهما في أي بلد آخر. وكذلك يقول النصارى واليهود وغيرهم أن أنبياءهم هم وحدهم الصادقون، أما غيرهم ممن ادّعوا النبـوة فكلـهم مفترون كذابون. ولكن القرآن الكريم جاء فأعلن ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خـلا فِيهَـا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥).. أي ليس هناك قوم إلا وقد بُعث فيهم مصلح أو هاد. وعندما نفحص تاريخ الأمم نعلم أنها كلها تؤمن بمجيء مصلح ما بينهم. فنجد في تـاريخ الهندوس مثلا أن حضرة كريشنا وحضرة رام تشندر جي قد بُعثا إليهم، وعنـدما ننظر إلى المسيحيين نجد بينهم المسيح، وحينما نرى اليهود نجد بينهم موسى وغيره

من الأنبياء الكثيرين. وباختصار لا توجد بقعة من بقاع العالم لم يُبعث فيها نبيّ من الأنبياء. ذلك لأن الله ﷻ كما هو إله الجزيرة العربية، فهو إله الهند والصين والشام ومصر وإيران وغيرها من الأقطار والبلاد. لقد خلق الله الشمس والقمر والنجوم للعالم كله على السواء، وجعل الأرض للناس جميعا، وما دام الله تعالى قد سدّ الحاجات المادية للناس كافة، فكيف يمكن أن يهمل سدّ حاجاتهم الروحانية؟ مع أن الحفاظ على الروح أهم من الحفاظ على الجسم، لأن الجسم فانٍ، والروح غير فانية. فالمسلم عندما يقرأ هذه الآية يتمنى أن يتأكد من تحققها، فيذهب إلى الهندوس ويسألهم متوجِّسًا: هل بُعث في قومكم نبي؟ فيقولون: نعم، لقد جاءنا كريشنا ورام تشندر جي اللذان كانا من أنبياء الله في عصرهما، فيتهلل وجه المسلم سرورًا، ويقول: الحمد لله! لقد تحقق قول الله تعالى في القرآن الكريم إنه قد جاء في كل أمة نبي. ثم يذهب هذا المسلم إلى الصين ويسأل أهلها ما إذا بُعث فيهم نبي. فيذكرون له اسم "كونفوشيوس"، فيمتلئ قلبه سرورا وحبورا، ويقول: الحمد لله! لقد بعث الله نبيا في الصين أيضا حسبما قال في القرآن الكريم. ثم يصل هذا المسلم إلى إيران ويسأل أهلها: هل بعث بينكم نبي؟ فيسمّون له "زرادشت"، فلا يتمالك نفسه من الفرحة ويقول في نفسه: الآن قد تأكد صدق ما قاله القرآن أكثر. ثم يذهب إلى اليونان ويسأل أهلها: هل جاءكم أحد برسالة الله؟ فيجيبونه: نعم، لقد ادّعى سقراط في بلادنا بأن الله تعالى يكلّمه. فتزداد فرحة المسلم ويقول: الحمد لله! لقد تأكد هنا أيضا صدق كتابي القرآن الكريم. فأينما يذهب يرتفع رأسه فخرًا واعتزازًا ويمتلئ قلبه لذّة وسرورا، ويقول في نفسه: ها قد تحقق حرفيًّا ما أعلنه كتابي. ولكن المسيحي أو الهندوسي أو اليهودي حيثما ذهب اسودّ وجهه غمًّا. فإذا ذهب إلى الشرق الأوسط وسمع أن محمدًا رسول الله ﷺ كان أعظم الأنبياء قاطبة، احترق قلبه حسدًا. وإذا ذهب إلى بورما وسمع من أهلها أن بوذا كان نبيا من أنبياء الله تعالى، أخذ هذا اليهودي في البكاء والنياح. وعندما يسمع من أهل الهند أن كريشنا كان نبيًا يصاب اليهودي بالجنون، وعندما يذهب إلى اليونان ويعرف من أهلها أنه كان في هذه البلاد نبي باسم سقراط يأخذ في الصراخ. فأينما

ذهب عانى الأمرّين، ولكن المسلم أينما ذهب سر وفرح، وزاده هذا التعليم القرآني في كل بلد رفعةً وعزًّا. إذًا، فبرغم أن هذه الآية وجيزة، إلا أنك لو تجولت في العالم كلّه مؤمنا بها فلن ينقبض قلبك لدى سماع عظمة أي نبيّ في أي بقعة في العالم، بل ستعترف بأن القرآن قد برهن على فضله على جميع الصحف الأخرى بتقديم هذا المبدأ.

ثم إن بعض الديانات قد قدّمت نظرية خاطئة عن النفس الإنسانية، التي هي مهبط وحي الله تعالى وأنواره وبركاته، حيث تزعم بعض الأديان أن الإنسان آثم بفطرته وطبعه، ذلك لأن آدم وحواء ارتكبا معصية الله تعالى مما أدى إلى ولادة الإنسان آثما بفطرته. كما زعمت بعض الديانات الأخرى أنه من المستحيل على الإنسان أن يتطهر مهما يبذل من الجهد، ولذلك تُلقى روحه في سلسلة من الولادات المختلفة المتكررة التي لا نهاية لها. النظرية الأولى تقدمها المسيحية (رومية ٥: ١٢)، أما النظرية الثانية فتقدمها الهندوسية (أنوار حقيقت (ترجمة أردية لستيارث بركاش) الباب التاسع ص ٢٤٧-٢٤٨)، حيث اعتبرت كلتا الديانتين فطرة الإنسان نجسة غير طاهرة، وقد روّجوا لهذه النظرية الخاطئة لدرجة أن هذا الإنسان الذي خُلق ليحظى بقرب الله تعالى وليتخلّق بالأخلاق السامية وليتحلّى بالروحانية العالية حتى يكلّمه الله ويكون مهبطًا لوحيه، قد استولى عليه اليأس كلية، فقال في نفسه: ما دامت طرق الرقي مسدودة في وجهي وما دمتُ قد خُلقت نجسًا غير طاهر بفطرتي، فمن المستحيل أن أتطهر. ذلك لأن من فطرة الإنسان أنه إذا سمع أمرًا بصورة متكررة متتالية، خضع لتأثيره بالتدريج. فمثلا لو قيل لأحد مرارا: إنك غبيّ وبليد، فإنه بالفعل يصبح بليدًا شيئًا فشيئًا، ولو قيل للمرء إنك ابن سارق، رسخت هذه الفكرة في قلبه رويدا، وكلما طمع في مال غيره وأراد أن يسرقه، لم يستطع مقاومة فكرته الشريرة، بل قال في نفسه: ما دام الناس يقولون إنني ابن سارق، وما دمت مفطورًا على الشر جيلا بعد جيل، فلماذا أمتنع عن تنفيذ رغبتي؟ ومن أجل ذلك قد استنكر النبي ﷺ مثل هذه الأمور بشدّة واعتبرها سببًا لهلاك الأمم ودمارها، لأن العقلية الإنسانية إذا أُخضعت لتأثير معين ووُجّهت إلى جهة معينة خضعت لذلك التأثير شيئًا فشيئًا. والحق أن علم النفس نشأ على يد النبي ﷺ والقرآن الكريم، حيث قال ﷺ: "إذا قال الرجل هلَك الناس فهو أهلَكَهم." (مسلم: كتاب البر

والصلة، باب النهي عن قول هلك النـــاس). ذلك لأنه إذا قيل لقوم بالتكرار أنهم قد هلكوا فقدوا قوة المقاومة، وأخذوا في التردّي والانحطاط. لقد قالت المسيحية للنـــاس إن آدم أخطأ، وانتقلت خطيئته في ذريته بالوراثة، ولا يستطيع الناس أن ينجـــوا مـــن الخطيئة ولو أرادوا ذلك. وبعد هذه العقيدة المسيحية، كيف يمكـــن لمـــسيحي أن يقاوم الإثم عندما تغزوه فكرته؟ كلا، إنما يقول: لا أستطيع مقاومة الإثم ولا يمكن أن أنجو منه. وعندما يترك مقاومة الإثم فلا بد أن يقع فيه. ولكن القـــرآن الكـــريم أخبر أن الإنسان قد أُعطي فطرة سليمة، وأنه مهما تردّت حالته فـــإن بوســـعه أن يرتقي ويحظى بقرب الله تعالى إذا حاول ذلك حيث قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْـــتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٧). فإنك ترى أن الله تعالى لم يقل هنا "وما خلقتُ آدم إلا ليعبدني"، بل قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾.. أي لقد خلقتُ الناس كلهم لعبادتي ولقربي سواء أكانوا ذوي فطرة نارية مشاكسة أو من أصحاب الفطرة الطينية المطيعة؛ علمًا أن المراد من الإنـــس قـــوم يميلـــون إلى الطاعة، أما الجن فهم قوم غطّتهم الغشاوة.. أي قد حُجبـــت فطـــرتهم الـــسليمة وصاروا بعيدين عن الله تعالى. إذًا، فكأن الله ﷻ يقول هنا: حتى أصحاب الطبائع النارية المائلين إلى الإثم قد خلقتُهم لعبادتي، لأن طبعهم الناري طبعٌ ثانوي ولـــيس بطبع أصلي؛ ذلك أن الإنسان له طبعان؛ الطبع الأول الأصيل الذي فُطـــر عليـــه وجُبل، والطبع الثانوي الذي يتولد فيه نتيجة تأثير محيطه ويتغلّب على طبعه الأول. وقد سمّي أصحاب الطبع الثانوي جنًّا، أي أن فطرتهم الأولى الأصلية تصبح محجوبة تحت الغشاوة، فلا نستطيع أن نراها؛ وحيث إننا لا نرى فطرتهم الأولى فنـــسمّيهم جنًّا. إن الناس إذا ثبتوا على الخير والصلاح لفترة طويلة وعاشوا بحسب مشيئة الله تعالى سُمّوا إنسًا، وإذا غفلوا عن تعاليم نبيّهم أصبحوا جنًّا؛ ذلـــك لأن فطـــرتهم السليمة تصبح محجوبة مستورة لدرجة أنهم ينسون الغاية من إنشاء جماعتهم وإقامة نظامهم أو ينسون التعليم الذي أتى به نبيّهم. فالله تعالى يقول هنا: لقـــد خلقنـــا لعبادتنا كلا الفريقين: الإنس والجن.. أي أولئك الذين قـــد أصـــبحت فطـــرتهم الصحيحة في غطاء وتغلبت عليهم الفطرة الثانوية حتى بدا وكأن فطرتهم الثانويـــة

هي فطرهم الأولى، فصاروا من الجنّ.. أي مِن المحجوبين عن الله تعالى، وكذلك أولئك الذين يميلون بطبعهم إلى الخير، ولا تزال جذوة حب الله تعالى متّقدة في قلوبهم. يقول البعض كيف يمكن أن ننصح فلانًا؛ فهو خال من الخير تماما؟ بينما يقول البعض الآخر لا يمكن أن يهتدي فلان لأنه عنيد متعصب، ولكن الله تعالى يقول: لا تقولوا هكذا. إنكم تقومون بهذا الاستنتاج الخاطئ ناظرين إلى طبيعته الثانية، في حين أن طبيعته الأولى مائلة إلى الخير، إذ لم نخلق الجميع إلا لعبادتنا. فإذا كانت الفطرة السليمة لأحد في حجاب فمثله كمثل شخص يسقط في جرّة مليئة بـ "النيلي"، فيصبح كله أزرق اللون، ولكن هذا لا يعني أنه لم يعد إنسانا. أو مثله كمثل شخص لبس جلد الدبّ، فيخافه الرائي ويفرّ منه، بينما هو إنسان في الحقيقة. هذا هو مثل القوم الذين تصبح فطرهم مشوهة ممسوخة بتأثير محيطهم، وتصبح صورهم الظاهرة كصور الجنّ. فحتى أولئك الذين يؤمنون بوجود الجنّ غير المرئيّين ويعترضون علينا نحن الأحمديين بأننا لا نؤمن بالجن، هم أنفسهم يطلقون أحيانًا اسم الجنّ على من أصبحت فطرته محجوبة في الظلمات، ويسمّون من فسدت أخلاقه ذئبًا، ولا يعنون أنه قد صار ذئبا في الواقع، وإنما مرادهم أنه قد غلبت عليه طبيعة الذئاب. وكذلك يسمون البعض ثعبانًا ويقولون إنه يلدغ كالثعبان، أو يسمّون البعض عقربًا ويقولون إنه يلدغ لدغ العقارب. فثبت من ذلك أن الفطرة الثانية للبعض تتغلب على فطرته الأولى الأصيلة أحيانًا حتى لا نكاد نجد فيه خصال الإنسان، ولكن عندما تلوح فطرته الصحيحة ندرك أنه لا يزال فيه الصلاح والخير. فمثلاً إنك تعلم مدى عداء معارضي الرسول ﷺ له، ولكن حين حصل فيهم انقلاب مذهل لم يصلحوا أنفسهم فحسب، بل بلغوا في الروحانية درجةً عاليةً بهرت العقول. فمثلاً كان عمر رضي الله عنه شديد العداء للإسلام والمسلمين، ولكنه حين أسلم حصل فيه انقلاب عظيم، فأخذ يُلقي نفسه في المشقّة والعناء من أجل راحة الآخرين ومنفعتهم، وظل يخدم الإسلام ليل نهار. وهكذا كان حال عكرمة رضي الله عنه. فلما فتح النبي ﷺ مكّة فر عكرمة منها إذ كان يبغض النبي ﷺ بغضا شديدًا، فقال لن أعيش في بلد يوجد فيه هذا الشخص. وكان النبي ﷺ قد

أمر بقتله حيثما وُجد لما ارتكب من فظائع بشعة، وقال: إنني لن أعفو عنه! فجاءت زوجته إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، أنت رحيم وكريم وقد عفوت عن كثيرين، ولو عفوت عن عكرمة فلن يضرّك هذا شيئًا. وأضافت قائلة: يا رسول الله، هل تفضّل أن يعيش عكرمة في بلد غير بلدك ذليلا مهانًا أم أن يعيش في بلدك كأحد رعاياك مفتخرًا بعفوك عنه؟ فأعجب النبي ﷺ قولها فقال: لقد عفونا عن عكرمة. فخرجت زوجته بحثًا عن زوجها الذي كان قد وصل إلى البحر وركب سفينة متّجهة إلى الحبشة. فوصلت إليه زوجته وقالت له: أين تذهب! تعال ارجعْ، لقد استعطفتُ محمدًا ﷺ من أجلك، وقد عفا عنك. فتحيّر عكرمة من قولها وقال: كيف يمكن أن يعفو عني محمد وقد ارتكبت جرائم بشعة؟ فقالت: إنك لا تعرف مدى حلمه وعفوه. صدِّقْني أني قد طلبت منه العفو عنك فعفا عنك، فتعال وارجع معي. فنزل عكرمة من السفينة ورجع مع زوجته. وعندما حضر الرسولَ ﷺ قال: يا رسول الله، لقد أخبرتني زوجتي أنها قد استعطفتك من أجلي فعفوت عني، فهل هذا صحيح؟ فقال الرسول ﷺ: نعم، هذا حقّ، فقد عفونا عنك. قال: فهل تسمح لي أن أعيش في مكّة وأنا كافر بك؟ قال النبي ﷺ: نعم، يمكنك أن تعيش هكذا. فلمـّا علم عكرمة بأن النبي ﷺ قد عفا عنه رغم ما ارتكبه هو ووالده أبو جهل من مظالم متكررة وجرائم بشعة، وسمح له بالعيش في مكّة بحرية تامّة سواء اعتنق الإسلام أم لم يعتنقه، تأثرَ من هذه المعاملة تأثرًا كبيرًا، وقال: يا رسول الله، ها أنا أدخل في الإسلام على يدك، فإني أرى أن مثل هذا العفو لا يمكن أن يصدر إلا من إنسان بارّ قد اصطفاه الله تعالى فعلاً. (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة- وأُسد الغابة: عكرمة بن أبي جهل)

فترى كيف حصل انقلاب عظيم في قلب عكرمة؟ فقد كان يبغض النبي ﷺ من قبل لدرجة أنه يكره العيش في بلد يعيش فيه النبي ﷺ، ولكن حين قال له النبي ﷺ: إنني لا أعفو عنك فحسب، بل أريد مكافأتك أيضا، فسلْ ما بدا لك! قال عكرمة الذي كان ميّالا إلى الدنيا من قبل: يا رسول الله، إني لا أسألك إلا أن تدعو لي بأن يغفر الله لي كل ما سبق مني من الذنوب (المغازي للواقدي). فشتان بين أن يهرب

عكرمة من مكة وبين أن يدخل في الإسلام ويحدث فيه هذا الانقلاب المفاجئ العظيم حيث يتخلى عن العداوة كلية. كان يحارب النبي ﷺ من قبل، ولكنه بلغ بعد ذلك من الفداء والتضحية للإسلام لدرجة أنه لما استُشهد كثير من الصحابة في واقعة اليرموك أخذ عكرمة معه جماعة من الفتيان وذهب إلى أمير الجيش المسلم أبي عبيدة وقال له لا أستطيع رؤية موت صحابة الرسول ﷺ في القتال هكذا. من ذا الذي سيقوم بنشر الإسلام إذا قُتل هؤلاء القوم اليوم؟ فاسمح لنا نحن الفتية أن نخرج حاملين أرواحنا على أكفّنا لنهاجم قائد الجيش المسيحي ونقتله، لتنتهي الحرب. فقال أبو عبيدة: هذا عمل صعب! كيف يمكن أن أبعثكم لمحاربة جيش قوامه مليون محارب؟ فإنكم ستهلكون حتمًا. فأشار عليه باقي المسلمين: اسمح لهم بما يريدون ما داموا يتطوعون بهذه التضحية عن طيب خاطر. وبما أن كثيرا من الصحابة قد استُشهدوا في هذه المعركة فسمح لهم أبو عبيدة بهذه المخاطرة. فشن عكرمة مع هؤلاء الفتية الهجوم على قلب الجيش المسيحي ووصلوا إلى قائدهم "ماهان"، فأصابه الذعر الشديد ولاذ بالفرار، فحصلت الفوضى في جنوده وانتهت الحرب بفوز المسلمين. لكن عكرمة رضي الله عنه وفتيانه كلّهم تقريبًا قد استُشهدوا في هذه الحملة.

ومن وقائع هذه الحرب أن عكرمة رضي الله عنه أُصيب بجراح شديدة وأخذ يضطرب من شدة الألم والعطش، فمرّ به مسلم يحمل قربة ماء، فلما رأى عكرمةَ رضي الله عنه في كرب اقترب منه وسأله: هل أنت عطشان؟ قال: نعم. فقدّم القِربة إلى فمه ليسقيه، وما إن وضع عكرمة فاه على فم القربة حتى وقع بصره على الفضل بن العباس الذي كان يضطرب قريبا منه من شدة العطش، فقال للساقي: إن الفضل أشد ظمأ مني فاسقه قبلي. فلما وصل الساقي إلى الفضل وجد الفضل مسلمًا آخر يضطرب على مقربة منه فقال للساقي: إن أخي هذا أشد عطشًا مني، فاسقه أولاً. فلما وصل الساقي إلى الثالث، أشار هذا إلى الرابع، ولما وصل إلى الرابع أشار إلى الخامس أن اسقه قبلي. ويذكر التاريخ أن هؤلاء الجرحى كانوا سبعة وكانوا جميعهم يضطربون من شدة العطش، ولكن كل واحد منهم قال للساقي: لا تسقني الماء بل اسق

صاحبي قبلي. ولما وصل الساقي إلى الجريح الأخير وجده قد فارق الحياة. ولما رجع للآخرين ليسقيهم وجدهم أيضًا قد استشهدوا كلهم.*

فترى كم هي عظيمة هذه التضحية التي قدّمها عكرمة رغم عدائه الشديد ضد الإسلام من قبل. إذًا، فمن الخطأ الفاحش أن يقال عن أحد أنه لن ينال الهدى. كلا، بل إذا أراد الله تعالى الهداية لأحد هداه في لمح البصر. وهذا هو المعنى الذي بيّنه الله ﷻ في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات: ٥٧).. أي أنه تعالى قد خلق كل واحد ليهديه وينعم عليه بقربه. فما أشدَّه يأسًا مَن يكفر برحمة الله تعالى، ويظنّ أن الإنسان يولد آثمًا، فلا يمكنه أن يتطهّر أو يتزكّى! إن الإسلام يعلن أن هذه النظرية خاطئة تمامًا، وأن الإنسان قد خُلق بفطرة نقية وقدرات طاهرة، وأن الله تعالى قد خلق كل واحد ليحظى بقربه.

وكذلك يقول الله تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(الشمس: ٨-١١).. أي أننا نقدّم النفس البشرية كشهادة على أننا قد خلقنا الإنسان منزهًا عن العيوب كلها، وأودعنا فطرتَه قوةَ معرفة الخير والشر، فمن وقى روحه من الشوائب الخارجية نجح وفاز، ومن أفسد طهارته الفطرية خاب وخسر.

إذًا، فالإسلام لا يدَع الإنسان يقع فريسة للقنوط واليأس كما تفعل الأديان الأخرى، بل يشحن روحه بقوّة تحلّقه عاليًا وترفعه من الثرى إلى الثريا.

ثم إن القرآن الكريم كتاب "مبين" من حيث إنه قد بيّن آلاف الحقائق التي لا يوجد لها أي أثر في الكتب السابقة. وعلى سبيل المثال، قد ذكر القرآن الكريم أن

* لقد وردت هذه الواقعة في المصادر التالية مع شيء من الاختلاف: تاريخ الطبري: خبر اليرموك- وأسد الغابة: عكرمة- والكامل في التاريخ: ذكرُ وقعة اليرموك- والاستيعاب في معرفة الأصحاب: عكرمة- والبداية والنهاية لابن كثير: ذكر وقعة اليرموك. (المترجم)

فرعون غرق مع أصحابه في البحر، ولكن جثّته أُنقذت وحُفظت ليكون عبرة ونصيحة للذين يأتون بعده (يونس:٩٣)، وذلك برغم أن القرآن الكريم قد نزل بعد موسى وفرعون بحوالي مئتين وألفَي عام. وقد عثروا الآن بالفعل على جثة فرعون موسى بين الموميات القديمة، وجثته محفوظة اليوم في المتحف المصري وقد رأيتها بأم عيني. فما أعظمَها شهادةً على أن القرآن الكريم كتاب مبين، فإن التوراة التي قد نزلت في الزمن الذي غرق فيه فرعون لم تذكر أي شيء عن حفظ جثّته، ولكن القرآن الكريم جاء بعد مئتين وألفي سنة، وكشف عن هذه الحقيقة. وبعد مرور أربعة عشر قرنًا من هذا الإعلان القرآني تم العثور على مومياء فرعون بالفعل. وهكذا ثبت أن القرآن الكريم هو في الواقع كلام الله العليّ الذي هو عالم الأسرار كلها ومطّلع على الغيوب بأسرها.

ثم إن القرآن الكريم كتاب "مبين" من حيث إنه ليس بحاجة إلى الأدلّة الخارجية لإثبات صدقه، بل إنه يقدّم بنفسه البراهين على صدق دعاويه، وذلك خلافًا للصحف السماوية الأخرى التي تقدّم الدعاوي بدون أن تذكر الأدلة على صدق ما تدّعي. اقرأ التوراة من أوّلها إلى آخرها وكذلك الإنجيل والفيدا، وستجد وكأنها قد افترضت افتراضًا بأن العالم كلّه مؤمن بالله تعالى ولا أحد من الناس يشكّ في وجوده تعالى. لقد سلّطت هذه الكتب على صفات الله ﷻ ضوءا قليلا جدًا لا تشفي غليل النفس البشرية مطلقًا. وغاية ما تبيّنه تلك الكتب هو المعجزات، مهملةً تمامًا ذلك الأمر الأهم الذي هو أساس كل دين.

أما القرآن الكريم فتجده على النقيض حيث لا يقول للناس إن الله موجود فحسب، بل يسوق على ذلك الأدلّة والبراهين، وليس هذا فحسب بل يذكر البراهين على جميع صفات الله تعالى، وهكذا يقدّم للعالم مبدأ جديدا، ألا وهو أنه لا بد من تقديم الأدلة على جميع صفات الله التي تتعلق بالعباد أيضا، وإلا فلن تثبت صفات البارئ تعالى، وإن ثبت وجوده تعالى. فمثلاً قد قال الله تعالى في القرآن الكريم بهذا الصدد ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الأنعام:١٠٤).. أي أن البارئ تعالى لا تصل إليه أبصار الناس، ولكنه بنفسه

يصل إلى أبصارهم ويكشف عليهم وجوده من خلال قدرته وقوته وتجلي صفاته، وهو اللطيف الخبير.

لقد بيّن الله ﷻ هنا أن عدم رؤيته تعالى لا يعني أنه لا وجود له، إذ من صفات الله تعالى أنه لا يُرَى، بل إنه بنفسه يكشف وجوده للناس من خلال آياته، وأنه يرعى العباد ويسدّ حاجاتهم المادّية والروحانية كلها، وهذا دليل على أنه موجود ولكنه لطيف. وهذا يعني أن بعض صفات الله تعالى كالزوجين وتعمل معًا لتدلّ على وجوده تعالى. فمثلا إن العلم الدقيق والخبرَ بكل صغيرة وكبيرة والاطلاعَ على كل تغيُّر في الكون مهما كان صغيرًا، هو من الأمور التي لا يقدر عليها إلا اللطيف.. أي الذي هو على اتصال كامل بكل ذرة من الموجودات. فصفة "الخبير" هي بمنزلة الزوج لصفة "اللطيف"، لأن الأولى تنكشف من خلال الأخرى، أو أن العلاقة بينهما كعلاقة الجسم مع الروح، حيث لا تثبت الأولى بدون الثانية ولا الثانية بدون الأولى. فلو لم تنكشف صفة "الخبير" من خلال ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ لم يثبت قوله تعالى ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ أيضا، بل لثبَتَ العدم، وبالمثل لو لم يثبت ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾.. أي كونه تعالى لطيفًا لم تثبت صفة "الخبير" أيضًا، لأن الذي ليس له اتصال كامل بكل ذرة من الموجودات لا يمكن أن يكون خبيرا أيضًا.

باختصار، إن القرآن الكريم كتاب مبين من حيث إنه لا يقوم بالدعاوى فقط، بل يقدّم الأدلّة على كل ما يدّعي به أيضًا، لكي يعمل الناس بأحكامه ببشاشة موقنين بأن ما يؤمرون به إنما فيه منفعتهم، ولا يعتبروها غرامة وعبئًا.

ثم إن القرآن الكريم كتاب "مبين" من حيث إنه قد تناول كل الأمور من أحكام أو أخلاق أو عقائد وغيرها ببيان مفصّل مكتمل،كما أنه قد بيّن كل ما يتعلق بقرب الله وحبّه أيما بيان. وهذا يعني أن القرآن الكريم كتاب جامع فيه تفصيل كل شيء كالتوحيد والنبوّة والدعاء والقضاء والقدر والبعث بعد الموت والمعاد وغيرها من القضايا، أما الأسفار الأخرى فقد لزمت الصمت عن كل هذه الأمور المهمة، وإذا تحدثت عنها بشيء فهو لا يسمن ولا يغني من جوع. كما أن التوراة والفيدا

والزندأفستا وغيرها من الكتب السابقة صامتة تمامًا عن الأمور المهمة الأخرى مثل منصب النبي وواجباته والنبوة وحقيقتها. أما القرآن الكريم فقد أفاض في وجود البارئ تعالى وصفاته، كما تحدث بالتفصيل عن قوى الإنسان الروحانية، وأيضا عن تلك الأمور الروحانية الضرورية التي تساعده على تكميل هذه القوى. كما أنه ألقى الضوء على مآل الحياة الإنسانية وساق الأدلة على ذلك. ثم إنه لم يهب الناس بصدد هذه القضايا نورًا جديدًا من الناحية النظرية فحسب، بل قد أوجد بالفعل شخصيات تشرّفت بوصال الله تعالى واكتملت قواها الروحانية نتيجة العمل بالقرآن الكريم.

إذًا، فالقرآن الكريم يفوق جميع الأسفار السابقة من حيث كونه مبينًا بشكل بارز جدًا بحيث إنك لو نظرت إليه من أي زاوية بهرك حسنه وجماله.

ثم إن القرآن الكريم لا يتفوّق على الكتب السماوية الأخرى من حيث إنه قد أتى بمعارف جديدة أو قام بإصلاح ما في الأديان الأخرى من نقائص وعيوب فحسب، بل قدّم تعليمًا أفضل وأكثر شمولاً حتى في الأمور التي يوجد فيها تشابه بين القرآن والكتب السابقة. فمثلاً إذا كان بعض الكتب السابقة قد علّمت طريقة الأكل والشرب أو اللباس وغيرها من الأمور فإن القرآن الكريم قد علّمها بطريقة أفضل. فليس هناك أمر، مهما كان بسيطًا، إلا وقد أتى القرآن الكريم بشأنه بتعليم هو أكثر شمولا وتفصيلا من الصحف السابقة، مؤكّدًا أنه الكتاب المبين. وأتناول هنا مثلاً قضية السلام العالمي الذي ما زالت الدنيا تسعى له على مرّ العصور، فهي حينًا تسعى للسلام الخارجي، وإذا نجحت في ذلك حاولت تحقيق السلام الداخلي. فكلما التقى كبار الأثرياء والعلماء والمفكرين في منتدى ناقشوا هذا الموضوع، وقالوا إننا نتمتع بكل شيء إلا سكينة القلب. وهذا يؤكد أن السلام لا يكون خارجيًا فقط بل هناك سلام داخلي أيضا وهو سكينة القلب، بل الحق أنه لا قيمة للسلام الظاهري إذا لم يتيسر للمرء اطمئنان القلب.

إذًا، فإننا نشاهد أن جميع الناس يتمنون اليوم السلام، ولكنهم قد فشلوا في تحقيقه، وذلك لأن بينهم آلاف الفروق والاختلافات؛ فمصالحهم مختلفة،

وعواطفهم متباينة، وميولهم متفاوتة، وحاجاتهم شتى، فكيف يمكن أن تتمتع الدنيا كلها بالسلام رغم هذا التفاوت الكبير في ميول الناس وحاجاتهم؟ لذا فما لم يسعوا لتحقيق الأمن والسلام وفق قاعدة واحدة لن ينعم الجميع بالسلام والاطمئنان. إن الإسلام يعلّمنا أنّ السلام إنما ينعم به الناس رغم وجود هذا التفاوت في ميولهم وحاجاتهم وأفكارهم، إذا ما أصبح العالم كله تابعًا لذات الله تعالى الذي يريد أن يهيئ لهم السلام. أما بدون ذلك فلن يتيسر لهم الأمن والسلام أبدًا. فإننا نشاهد كل يوم في البيوت أن الوالدين إذا غابا عن أنظار الأولاد لبعض الوقت أخذوا في الشجار والضرب حتى يجرح بعضهم بعضًا ويمزّق بعضهم ثياب بعض، وإذا حضر الوالدان تظاهر أمامهما الأولاد كالمساكين وكأنه لم يجر بينهم شيء من الشجار والخصام؛ وليس ذلك إلا لأن الآباء يريدون لأولادهم أن يعيشوا في أمن وسلام. فالحق أن الدنيا إنما تنعم بالسلام إذا حكمتها ذاتٌ عليا تريد لهم أن يعيشوا في سلام، وتريد أن تهيئ لهم السلام، وتريد إصدار الأوامر التي تؤدي إلى إرساء دعائم السلام، ولن يكون مانحًا للسلام حقيقة إلا الذي يدعو إلى تلك الذات، والحق أن ذلك الشخص الذي يدعو إلى تلك الذات العليا إنما هو محمد رسول الله ﷺ، إذ إنه هو الإنسان الوحيد الذي علّم الناس أن من أسماء الله تعالى "السلام".. أي مانح السلام، حيث ورد هذا الاسم الإلهي بين الأسماء التي عدّدها الله ﷻ في سورة الحشر قال الله تعالى ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾(الآية ٢٤).. أي يا محمد، ادْعُ الناس إلى الله الذي هو مانح السلام للدنيا ومنبع جميع أنواع السلام.. أي كما أن الآباء لا يطيقون الخصام أو الفساد بين أولادهم، بل يعاقبون مَن يخرّب مِن أولادهم السلام، ويحبّون من يحافظ على جو السلام بينهم، كذلك هناك إله فوقكم يرى أن مصالحكم مختلفة، ونواياكم شتى، وحاجاتكم متفاوتة، وأمانيكم متضاربة، وأنكم تستعدون للإخلال بالسلام أحيانًا منجرفين وراء أهوائكم وعواطفكم، ولكن عليكم أن تتذكروا أن الله ﷻ لا يرضى بذلك لأنه السلام وما لم يسلك المرء سبيل السلام لن يكون محبوبًا عند الله تعالى. إن بوسع كل إنسان أن يدرك أن مجرد تمنّي السلام لا يمكن أن ينشر السلام في العالم، ذلك لأن المرء يحبّ السلام لنفسه ولا

يريده للآخرين عادة. فمثلاً حين يقول أحدهم إن المال شيء نافع جدا، فلا يعني بذلك أن ما عند عدوّه من مال هو شيء جيد، وإنما يعني أن المال جيد جدًّا له ولأصحابه فقط. وعندما يقول أحدهم إن الصحة شيء مفيد جدا فلا يعني بقوله هذا أن صحة عدوّه شيء مفيد، إنما يعني أن الصحة مفيدة جدا بالنسبة لنفسه فقط، إذ لا يريد المرء الصحة لعدوه بل يريد له أن يظل فقيرًا وضعيفًا على الدوام. وكذلك عندما يتمنى المرء العزّة والمكانة فلا يتمناها للجميع بل لنفسه فقط. فإذا كانت هذه هي حال أهل الدنيا فإن مجرّد تمنّي السلام سيؤدي إلى الفساد فيها حتمًا، لأن الذين يتمنون السلام إنما يتمنونه لأنفسهم أو لشعبهم فقط، أما العدو فيريدون له أن لا يتمتع بالسلام أبدًا؛ ولو حققنا أمنيتهم فلن يتمتع بالسلام إلا قلّة من الناس، أما باقي العالم فيظل محروما من السلام. ومن الواضح أن السلام الذي ليس سلامًا عالميا لا يمكن أن يسمى سلامًا حقيقيا، إنما يتأتى السلام الحقيقي إذا أدرك الإنسان أن فوقه ذات عليا لا تريد السلام له فحسب بل للعالم أجمع، وأن المرء إذا أراد السلام لنفسه أو لشعبه أو لبلده فقط فلن يحظى بالنصرة والرضا من تلك الذات العليا. فثبت أن إرساء السلام في العالم مستحيل إلا بالترويج لهذه القاعدة والعقيدة.

إذًا، فإن القرآن الكريم قد قام بتطهير نوايا الناس من كل فساد حين أعلن أن الله تعالى هو ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾. ومن الحقائق الثابتة أن الأعمال لا تصلح ما لم تصلح النيات. والحق أن كل ما يوجد في العالم من فساد وحرب إنما يرجع إلى فساد النيات، لأن نوايا الناس لا تتفق مع ما يقولون بأفواههم، ولا تتفق أقوالهم ولا أفعالهم مع نواياهم. فمثلاً يعلن العالم كله اليوم أن الحرب شيء سيئ للغاية، ولكن ليس المراد من قولهم هذا إلا أن إثارة غيرهم الحربَ ضدهم أمرٌ منكر، أما إذا بدأوا هم الحرب ضد أحد فلا بأس في ذلك. ولا يوجد هذا العيب عندهم إلا لأنهم لا ينظرون إلى تلك الذات العليا التي هي السلام. إنهم يفكرون أنهم سوف يعملون بهذه المبادئ ما دامت تصبّ في مصلحتهم، أما إذا تعارض شيء منها مع مصلحتهم فسيرفضونه. ولكنا نجد بين أسماء الله تعالى التي ذكرها القرآن الكريم أنه

رب العالمين، وليس ربًّا لشخص معين أو لشعب معين. وهذه العقيدة هي التي يمكن أن تؤدي بالناس إلى السلام الحقيقي، أي أن للعالم كله إلـهًا يريد أن يتمتع الجميع بالسلام. وإذا تمسكنا بهذه العقيدة فلن تكون نوايانا مغرضة، بل ستكون نافعة للعالم كله، وعندها لن نفكر ما إذا كان أمر ما نافعًا لنا أم ضارًّا، بل سنفكر في تأثير هذا الأمر على الدنيا كلها. إن الناس يقضون على سلام الآخرين من أجل مصلحتهم دائما، ولكن هذه العقيدة ستمنعهم من ذلك، حيث يدركون أن هناك ذاتًا عليا سوف تمزّقهم إذا فعلوا ذلك. لا شك أن الطفل حين يستولي على لعبة طفلٍ آخر يجلب السكينة لنفسه ولكنه يقضي على سكينة صاحبه في نفس الوقت، لا جرم أنه يفرح بينما صاحبه يبكي، ولكن هل تظن أن أباه أو أمه أو أستاذه سيسمح للطفل المعتدي بالاستمرار في التمتع بلعبة صاحبه؟ كلا، إنهم لن يتحمّلوا ذلك بل سوف ينتزعون منه اللعبة ويردّونها لصاحبها، وعندها يدرك الطفل المعتدي أن السلام الذي يناله المرء على حساب الآخرين لا يدوم أبدًا، إنما السلام الحقيقي ما لا يكون فيه هضم لحقوق الآخرين.

باختصار، لا يمكن أن يتأتّى السلام الحقيقي ما لم يؤمن الناس بوجود ذات عليا. وإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي علّم الناس أن الله ﷻ هو واهب السلام فقال تعالى ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾.

ثم بعد ذلك يأتي دور رسالة الذات العليا، ذلك أن الإنسان إذا عرف مشيئة الذات التي تريد إرساء السلام، تمنى أيضًا أن يعرف ما إذا كانت قد هيأت الأسباب لتوطيد السلام أم لا. ذلك لأنها تلك الذات العليا إذا لم تهيئ لنا أسباب السلام فلا بد أن نسعى لذلك بأنفسنا؛ وهناك احتمال كبير أن نخطئ في مسعانا وجهودنا، فنعيث في الأرض الفساد بدلاً من إرساء السلام فيها. فثبت أن مجرد تمنّي الناس لإرساء السلام لا يضمن للإنسان السير في الطريق الصحيح للسلام ما لم يعلم ما أعطتْه تلك الذات العليا من تعليمات تساعده على إرساء السلام. إن الخادم لا يمكن أن يُرضي سيده ما لم يكن عنده علم صحيح بما يريده سيده، وإن تمنى طاعة سيده. ولكن إذا علمنا بما يريده سيدنا بدون أن نعرف الطريق الصحيح لتحقيق

إرادته، فأيضا لا يمكن أن يدوم السلام فينا، إذ من الممكن أن نختار طريقا للسلام يخالف مشيئة سيدنا. إذًا، لكي نتمتع بالسلام لا بد أن تدلّنا هذه الذات العليا على طريق لإحلال السلام.

وعندما نفحص القرآن الكريم لنعرف ما إذا كان قد أرشدنا بهذا الشأن نجد الجواب في قول الله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾(البقرة:١٢٦).. أي ما دام ربكم السلام في السماء يريد إرساء السلام في الدنيا فكان لا بد أن يقيم مركزًا يهيئ السلام للعالم، وبالفعل قد بنى الله مدرسة لهذا الغرض ليجتمع فيها الناس من كل أنحاء العالم ويتلقوا فيها درس السلام. إذًا، فربنا لم يوصنا بإرساء السلام فحسب، بل قد أقام مركزًا للسلام في العالم وهو الكعبة المشرفة، ليأتي إليها الناس ويتعلموا السلام.

أما المنهج الذي سيتم تدريسه في هذه المدرسة، فقد أعلنه رسول الله ﷺ بناء على وحي الله القائل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾(المائدة:١٦-١٧).. أي أيها الناس، كنتم في ظلام ولا تعرفون كيف تحققون مشيئة الله، فأقمنا لكم مدرسة في الدنيا، ولكن المدرسة وحدها لا تنفع بدون الكتب، ولذلك ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾. إذًا، فالله تعالى قد أقام في الإسلام مدرسة السلام، وجعل لها منهج السلام، كما عيّن فيها معلّم السلام. والمعلّم هو محمد رسول الله ﷺ، ومنهج السلام هو ﴿كِتَابٌ مُبِينٌ﴾.. أي يبين كل الأمور والقضايا ويهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. فمن أراد رضى الله تعالى فعليه أن يقرأ هذا الكتاب، لأن دروسه تهدي إلى "سبل السلام"، وليس فيه حكم يؤدي العمل به إلى تدمير سلام الناس.

إذًا، فإن الله تعالى يقوم بإصلاح نوايانا، وأما المدرسة فهي تساعد على حلّ قضايا حياتنا العَملية، وأما محمد ﷺ فهو تفسير عَمليّ لهذا الكتاب، حيث يعلن النبي ﷺ هنا بأن الله تعالى قد أرسل لكم كتابًا يفصّل لكم جميع الأمور التي تساعد على إرساء السلام.

ويبقى بعد ذلك سؤال: من ذا الذي يريد له الإسلام هذا السلام؟ يقول الله ﷻ جوابًا على هذا السؤال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾(النمل:٦٠).. أي يا محمد، قُلِ الحمد لله الذي أرسى السلام في الدنيا ونجّى الخَلق من القلق والاضطراب، فالذين يحظون برضا ربهم ويضحّون بأنفسهم في سبيله، سيكتب لهم السلام، فيعيشون في أمن وسكينة.

لقد أعلن هنا رسول الله ﷺ أن كل أولئك الذين يتبعونه ويتعلمون في مدرسته سيتمتعون بالسلام الكامل ولن يروا في أي مرحلة من حياتهم قلقًا ولا اضطرابًا.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما دام الله تعالى هو السلام، فيجب أن يكون السلام الآتي منه للجميع وليس للبعض، فإن السلام الخاص بالبعض ليس حلا مُرضيا للقضية. وقد أجاب الله ﷻ على هذا السؤال في القرآن الكريم وقال: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ ۞ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(الزخرف:٨٩-٩٠).. أي أن محمدًا ﷺ قد جاء بأحكام هي ذخيرة رحمة لكل إنسان، وتهيئ السلام للجميع، ولكن الناس لا يعلمون ذلك للأسف الشديد، بل يحاربون هذه التعاليم التي هي في الحقيقة بشرى سارّة لهم حتى اضطر محمد (ﷺ) ليشتكي لربّه ويقول: يا رب قد جئت قومي برسالة السلام، ولكنهم لا يؤمنون بها.. أي لا يدَعونه في أمنٍ وسلام - علمًا أن من معاني الإيمان التصديق وأيضًا إتاحة الأمن والسلام للآخرين (انظر أقرب الموارد) - وإلى هذا الأمر نفسه قد أشار الله تعالى بقوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾(الزخرف:٨٩).. أي أن نبيّنا هذا يبتهل إلينا مرارا ويقول: يا رب قد جئتُ قومي برسالة سلام، ولكنهم بدل أن يقدّروها قد عقدوا العزم على معارضتي حتى أنهم قد دمروا سلامي أيضًا. فقلنا لنبيّنا ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾.. أي أنهم يجهلون عظمة تعاليمك فيغضبون ويعارضونك، فاصفح عنهم لأننا إنما بعثناك لإرساء الأمن والسلام. ثم قال الله تعالى ﴿وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.. أي إذا هاجموك وضيّقوا عليك الخناق فلا تقل لهم سوى أنني ما جئتكم إلا بسلام، وستعرف الدنيا عما قريب أنك قد أتيتها بالسلام

لا بالحرب. وهذا يعني أن السلام الذي أتى به النبي ﷺ ليس خاصًا بالمؤمنين فقط بل هو للجميع.

ثم يقول الله تعالى مخاطبا المؤمنين جميعا وليس محمدا ﷺ فقط: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾(الفرقان:٦٤).. أي أن الجاهلين الذين لا يعرفون غاية الإسلام عندما يتخاصمون مع المؤمنين يقول المؤمنون لهم: لا نريد لكم إلا خيرًا وسلامًا وإنْ أردتم لنا شرًّا. وعندما يقول لهم أعداؤهم إنكم تنشرون في الدنيا عقائد سيئة يردّون عليهم بأنها ليست عقائد سيئة ولا باطلة، إنما هي تعاليم تدعو إلى السلام. وهذا يعني أن السلام الذي أتى به الرسول ﷺ لم يكن خاصا به ولا بالمؤمنين، بل كان للعالم بأسره.

ثم هناك سؤال يطرح نفسه: أمؤقت هذا السلام الذي أتى به محمد (ﷺ) أم دائم؟ صحيح أنه قد أتى من عند الله تعالى بالسلام للدنيا، ولكن بعض أنواع السلام الذي يكون عابرًا ومؤقتا يكون منطويًا على مفاسد كبيرة. شأنه شأن المصاب بالحمى، فإنه كلما شرب ماءً باردًا شعر براحة كبيرة، ولكن بعد دقيقة أو ثلاث تشتد به الحمى ثانية فيصرخ: لقد احترق جسمي. ثم إنه يشرب ماءً مبرَّدًا بالثلج، فيظن أنه قد تماثل للشفاء، ولكن يعود إليه اضطرابه ثانية. فالسؤال: هل السلام الذي أتى به محمد مؤقت أم دائم؟ وقد أجاب الله على هذا السؤال فقال: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلى دَارِ السَّلامِ﴾(يونس:٢٦).. أي أن أهل الدنيا يدفعون الناس بتعاليمهم إلى الفساد، ولكن التعاليم التي أتى بها محمد لا تهب الإنسان سلامًا في هذه الحياة فقط، بل تهب له سلامًا دائمًا يستمر بعد وفاته أيضا، ويأخذه إلى دار في الآخرة التي ليس فيها إلا السلام. وهذا يعني أن سلسلة هذا السلام مكتملة الحلقات، حيث تجد في أوّلها تلك الذات العليا التي هي السلام، ثم تجد في وسطها مدرسة السلام التي عُيِّن فيها مدرس للسلام يعلّم منهج السلام، كما أقيمت جماعة من المؤمنين الذين ﴿إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾. وفي آخر هذه السلسلة أيضًا سلام لقوله تعالى ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾. إذًا، فهناك سلام في الماضي

وسلام في الحاضر وسلام في المستقبل أيضًا، وهكذا اكتملت حلقات سلسلة السلام هذه دون أي نقص.

ثم هناك سؤال: ما هي الذرائع والطرق لإرساء هذا السلام؟ وقد سلّط الله تعالى الضوء على هذا السؤال في القرآن الكريم حيث أعلن على لسان رسوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الأنعام:٨٢).. أي كيف يمكن أن يصيبني القلق والخوف من أصنامكم التي أشركتموها بالله الأحد في حين لا تخافون أنكم أشركتم بالله، مطمئنين في قلوبكم اطمئنانا زائفا. بينما الواقع أنكم أنتم في الخطر. وما دامت جهالتكم تمنحكم السلام، فكيف تظنّون أن معرفتي الكاملة لا يمكن أن تهب لي السلام والسكينة، ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقِينِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتم تَعلَمُون﴾.. لو أعملتم الفكر والعقل متخلين عن الغباء والحماقة لعلِمتم مَن منا في الأمن ومَن في الخطر.

لقد بيّن الله هنا طريقين عظيمين لإرساء السلام في العالم، أوّلهما: التوحيد الكامل، فمن المستحيل أن يتمتع العالم بالأمن والسلام بدون قيام التوحيد الكامل، وإنما ستستمر الحروب. وذلك لسببين: أولهما أن الشرك لا يعني فقط أن يؤمن المرء بثلاثة آلهة مثلاً عوضًا عن الإله الواحد، بل إنك ترى أنواعًا كثيرة وصورًا مختلفة للشرك والوثنية حينما يقع الناس في الشرك الخفي. والسبب الثاني هو أنه ما دامت تعاليم الأديان مختلفة ونظرياتها متباينة، فلا يمكن أن يدوم السلام في العالم إلا إذا تمّت بين الناس مؤاخاة حقيقية، ولا يمكن أن تتم بينهم أية مؤاخاة إلا بواسطة إله واحد. لا شك أنك تجد الناس يتقاتلون في الدنيا تفاخرًا بأنسابهم، حيث يقول أحدهم: كان جدّي من العظماء، فيرد عليه الآخر: جدي أعظم من جدّك، ولكنك لن تجد الإخوان يتقاتلون فيما بينهم متفاخرين بنسبهم، فلن يقول الأخ لأخيه: أنا أعزُّ منك نسبًا! ولكن إذا قام التوحيد الكامل في الدنيا، انتهت مثل هذه النزاعات والحروب. فدرس الأُخوّة والمساواة الذي يعلّمنا التوحيد لا يمكن أن نتلقاه بأي طريق آخر. والحق أن أعداء الإسلام أيضا يعترفون أن درس الأُخوّة

الذي أعطاه الرسول ﷺ لم يعطه أحد غيره (Muhammad And Teaching of Quran p. 114).

والواقع أن النبي ﷺ لم يُعطِ المسلمين درس الأُخوّة بشكل منفصل عن التوحيد، بل عندما علّمهم التوحيد، نشأت الأُخوّة بينهم تلقائيًا كنتيجة منطقية للتوحيد. فمثلا عندما أقول في صلاتي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي أن الحمد كلّه لله الذي هو ربُّ المسيحيين ورب الهندوس ورب اليهود وغيرهم من الفئات والشعوب، فكيف يمكن بعد هذا الإعلان أن أكرَههم؟ حينما أقول في صلاتي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكأنما أقول: الحمد لله ربِّ الأديان كلِّها، والحمد لله ربِّ الأقوام كلِّها، والحمد لله ربِّ البلاد كلّها. وما دمت أعترف بهذا الأسلوب الرائع بأن الله تعالى ربُّ الشعوب كلها وربّ الناس كلّهم، فمن المحال أن أكنّ لهم العداء بعد ذلك. إذًا، فقد علّمنا الله تعالى بقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنه إذا قام التوحيد حقًّا، وإذا ظلَّ لسان المرء رطبًا بحمد رب العالمين فعلاً، فمن المحال أن يكنّ في قلبه البغض تجاه أمة من الأمم، إذ كيف يمكن أن يتمنى هلاكهم من ناحية، ويحمد الله ويثني عليه برؤيتهم من ناحية أخرى؟

والطريق الثاني الذي نبّهنا الله تعالى إليه هنا لإرساء السلام هو قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾، ومعناه أن السلام إنما يُدمَّر في الدنيا حين يترك الإنسان دين الفطرة ويتّبع التقاليد الفارغة والعادات الزائفة. لو تمسّك الإنسان بالأمور الفطرية الطبعية لما حصلت في الدنيا خلافات ولا نزاعات، ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ: الإسلام دين الفطرة. والحق أن الدين الذي يوافق الفطرة، هو الذي يقدر على إرساء السلام في العالم، ولن يستطيع أي دين نشر الأمن في الدنيا إلا الذي يكون نسخة منه محفوظة في عقولنا؛ إذ كيف يمكن أن يدعونا الله تعالى إلى تعليم لم يجعل فطرتنا منسجمة معه، ولم يجعل عقولنا وأذهاننا مستعدّة لقبوله. ولذلك قال الله تعالى هنا: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾.. أي قل لهم إنكم تتبعون ما يخالف الفطرة الإنسانية، وأنا أدعوكم إلى ما هو في فطرتكم. فكلما حاول الإنسان أن يدرس فطرته اعترف قلبه من تلقائه أن الكتاب الذي يحمله محمد ﷺ في يده حقٌّ وصدقٌ، لأن نسخته الأخرى موجودة في عقله وفطرته. وهكذا

فكل العالم سيجتمع على مركز واحد بالتدريج، ويتّحد الجميع على فكرة واحدة، وبالتالي سيسود السلامُ العالم.

وبقي الآن سؤال آخر وهو: لا شك أن محمدا رسول الله ﷺ هو معلّم السلام، وأنه قد أقام مدرسة لإرساء السلام في العالم، وأن الله ﷻ قد جعل فيها منهجًا للسلام، وأن الإسلام يقدّم تعاليم تتفق مع الفطرة تماما إذ لا تملك الفطرة الإنسانية إلا الاعتراف بصدقها، ولكن هل الحرب شيء سيئ في كل حال؟ لقد أجاب القرآن الكريم على هذا السؤال، وبيّن أنه لا بد من الحرب أحيانًا لإرساء السلام. قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥٢).. أي أن السلام شيء غال بلا شك، وأن الله تعالى قد جعل العقل الإنساني يحبّ السلام، ولكن في بعض الأحيان يبتعد العقل عن الفطرة وتحيد عقائد الناس عن مركز السلام بحيث تبعد عن السلام بعدًا كبيرًا ، وإنها لا تنحرف عن السلام فحسب، بل تحاول القضاء على حرية الضمير والرأي. ولا بد في هذه الحالة من التصدي للشرير إرساءً للأمن وتوسيعًا لرقعة السلام. إذًا، فمثل هذه الحرب لا تكون من أجل القضاء على السلام؛ بل لإرسائه في الحقيقة. وكما أن الإنسان إذا فسُد عضو من أعضائه توسل إلى الطبيب بدفع مال كثير كي يبتر عضوه الفاسد، كذلك توجد في الدنيا من حين لآخر فئات تعمل كخلايا السرطان، ولا بد من استئصالها كي لا يهلك باقي القوم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾.. أي لو لم ندفع شرَّ بعضهم بواسطة آخرين لاستشرى الفساد في الأرض عوضًا عن السلام. وكما أن الشرطة تؤمَر أحيانا بضرب الناس بالعصيّ، كذلك نسمح لعبادنا أحيانًا بضرب البعض لأنه إذا لم يكن هناك ضرب بالعصي لقُضي على سلام العالم كلّه.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.. أي أنه تعالى لا يريد السلام لأمّة واحدة، بل يريد أن يعيش جميع العالمين في أمن وسلام. وبما أن هذه الفئة المفسدة تريد القضاء على سلام العالم، فاقتضى الأمر التصدّي لها ليسود السلام العالم كلّه. لا شك أن هذا التصرف منا سيدمّر سلام هذه الفئة المعيّنة،

ولكن لا بأس بذلك فإن الناس يقارنون دائمًا بين المصلحتين، فإذا تعارضت المصلحة الصغيرة مع المصلحة العليا، ضحّوا بالمصلحة الصغيرة. كذلك نعلن الحرب ضد الفئة القليلة المفسدة من أجل سلام باقي الدنيا، ولا نُخلي سبيلها إلى أن ترتدع عن تصرفاتها المخلّة بالأمن.

هذا ملخّص التعاليم التي يقدّمها الإسلام لإرساء السلام. وليس يخاف على أي امرئ مدى الشمولية والتفصيل التي تناول بها الإسلام هذه القضية، في حين نجد الأديان الأخرى صامتة حولها تمامًا حيث لم تقدّم للناس أي نوع من الهداية بهذا الصدد. أما قولهم: "مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحَوِّلْ له الآخر أيضا، ومَن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاتركْ له الرداء أيضا، ومَن سخّرك ميلاً واحدًا فاذهَبْ معه اثنين" (متى ٥: ٣٩-٤١)، فلم يكن حلاً للقضايا العالمية، كما لم تنجح اليهودية والمسيحية قطّ في إرساء السلام في العالم عملاً بهذا التعليم فقط، بل الحق أن العمل به يؤدي إلى الفساد في الدنيا بدلاً من إرساء السلام. فمثلا إذا كان أحد يريد أن يحمل أمتعته إلى بيته فأراد أن يقهر أحدًا على حملها، فإن المسيحية تأمر هذا الشخص أن يذعن له ولا يقاومه، ولكن عليه أن لا يتوقّف عند بيته بل يأخذه بعيدًا عن بيته بميل آخر! فهل العمل بهذا التعليم يضمن السلام لأحد يا ترى؟ كلا، بل إن صاحب المتاع سوف يضطر لحمل أمتعته ثانية، كما أن الشخص الثاني سيضطر لحملها إلى مِيل زائد، هذا يعني أن كليهما لم يجد السلام بل وجدا عناءً وتعبًا.

فالحق أن السلام إنما يتأتى بالعمل بالتعليم الذي يقدّمه الإسلام فقط، لأن الإسلام يعرض على العالم كتابًا مبينًا قد ألقى الضوء على جميع أحكامه، ولا تستطيع أيّة صحيفة أو كتاب أن تباريه في هذا المجال، سواء أكانت التوراة أو الإنجيل أو الزندأفستا.

وخلال معرض الحديث عن "الكتاب المبين" أرى لزاما عليّ أن أذكر أن الله ﷻ لم يجعل معرفة صدق الكتاب المبين منحصرة في الأدلة الظاهرة، بل قد أعدّ لبيان صدقه كتابا آخر اسمه في المصطلح القرآني "كِتاب مَكْنُون" (الواقعة:٧٩). ومثال

الكتاب المكنون كمثل الماء الذي يكون مخفيًّا في باطن الأرض، ومثال الكتاب المبين كمثال الماء الظاهر الذي يجري أمام أعيننا في الأنهار والجداول والعيون. وكما أن سطح ماء الآبار يرتفع نتيجة كثرة ماء الأنهار والجداول والأمطار، كذلك يُخرج الكتاب المكنون أيضا خزائنه عند نزول الكتاب المبين، وعندما ينقطع مطر الكتاب المبين يصبح الكتاب المكنون أشدَّ خفاء. والمراد من الكتاب المكنون هو الفطرة السليمة والضمير الحيّ، والمراد من الكتاب المبين هو ما ينزل من عند الله من وحي جديد. والدليل على صدق الكتاب المبين أنه يطابق الكتاب المكنون تمامًا كأنهما قطعتان من جوهر واحد يمكن أن نسميه الكتاب المطلق. وإذا توافق الكتاب المكنون والكتاب المبين فتيقّنوا أن الكتاب المبين هو من عند الله ﷻ. وكأن الله تعالى أراد أن يحفظ عباده من الخداع، فأودع نسخة من كتابه قلوبنا وعقولنا أيضا لنصدّق الكتاب الذي يكون مطابقًا لهذه النسخة ونرفض الكتاب الذي لا يطابقها باعتباره كتابا باطلا. ومثاله ما حصل معي خلال سفري عندما كنت عائدًا من إنجلترا عام ١٩٢٤الميلادي. ذلك أن أحدًا من المهندسين العاملين على السفينة أخذني جانبًا وقال: لا جرم أنك لم تذهب إلى إنجلترا بغرض الدعوة إلى الإسلام بل كان هدفك أهم من ذلك وكانت الدعوة مجرّد غطاء. فقلت له: كلا، لقد ذهبنا هناك من أجل نشر دعوة الإسلام ولم تكن لنا أية غاية أخرى. ولكنه كان موقنًا بأني ذهبت هناك تحت غطاء الدعوة والتبليغ، فقال لي: كلا، إنما ذهبت للتآمر على الإنجليز متظاهرًا بالدعوة والتبليغ. فأعدتُ عليه جوابي، ولكنه ظل مصرًّا على موقفه وقال: إنني جاهز لتقديم الخدمات لك، فمُرْني بما تريد. فإن كنت تريد أن تبعث إلى ممثلك في إنجلترا أية تعليمات سرية فإنني مستعد للقيام بهذه المهمة على ما يرام وفي سرّيّة تامّة. ولكي يجعلني أثق به أخرجَ بطاقته التعريفية وجعَلها نصفين، وقال: ها هي بطاقتي، فإذا بعثتَ إليّ رسالتك المشتملة على تعليماتك السرّية لأُوصلها إلى ممثلك، ضَعْ معها نصف البطاقة، وابعث نصفها الآخر إلى ممثلك؛ وعندما يطالبني ممثلك برسالتك السرّية ويخرج لي نصف بطاقتي سوف أقارن هذا النصف مع النصف الذي معي، فإذا توافق النصفان، علمتُ أنه ممثلك الذي يجب

علي تسليم رسالتك إليه. ثم إنه ضرب لي مثالا وقال: لنفترض أني ذهبتُ برسالتك إلى مدينة البندقية (Venus)، ووجدت هناك شخصا هنديًا في انتظاري، فيُخرج لي من جيبه نصف بطاقتي، فسوف أقارن هذا النصف بالنصف الذي معي، فإذا توافق النصفان دفعت إليه الرسالة.

لا شك أن المهندس ضرب لي مثال البطاقة نتيجة ظنّه الخاطئ بأننا نقوم بمؤامرة ضد الإنجليز، ولكنه لم يحد عن الصواب في قوله إنه إذا تطابق نصفا البطاقة لم تبق أي شبهة في أن البطاقة أصلية وليست مزورة. وبالمثل قد أودع الله تعالى أحد نصفَي الكتاب المبين في ضمير الإنسان وعقله، وإذا توافق النصفان تبين جليًا أن الكتاب المبين حق. ولكن كما أن مياه الآبار تختفي عند انقطاع الأمطار، كذلك لا ينفع الكتاب المكنون إلا عند هطول مطر الكتاب المبين، أما في زمن "الفترة".. أي انقطاع هذا المطر الروحاني.. فيختفى الكتاب المكنون أيضًا. فمثال الكتابين كمثال صديقَين محبّين إذا اقترب الواحد منهما اقترب الآخر، وإذا تباعد أحدهما ابتعد الآخر أيضًا. فعندما يتجلى الكتاب المكنون في أحد لصفاء ضميره وزادَه صفاءً وجلاءً بالعمل به، نزل عليه الكتاب المبين أي الوحي والإلهام فجأة؛ وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾(النور:٣٦).. أي أن الفطرة المحمدية المباركة كانت طاهرة صافية لدرجة أنها تكاد تضيء من تلقاء نفسها.. بمعنى أنها تكاد تطّلع بنفسها على معارف السماء ودقائق الروحانية دون أن تلمسها نار السماء؛ ذلك لأن من سنة الله أنه إذا التهب زيت الروحانية في باطن المرء جذب نار السماء من تلقائه. إذًا، فهناك علاقة غريبة بين هذين الكتابين؛ فإذا اقترب الواحد منهما اقترب الآخر أيضًا. الحق أنه إذا كانت فطرة المرء سليمة جذبت إليه الوحي والإلهام، وإذا تمتع المرء بنور الإلهام تجلت ما في فطرته من ملكات صحيحة، وتولدت بينها وبين الإلهام لذة كلذة اللازم والملزوم. وبالمثل إذا امّحى الكتاب المكنون في الإنسان لم يحظ بالكتاب المبين أيضًا، وإذا حُرم من الكتاب المبين امّحى الكتاب المكنون الموجود فيه أيضًا. وهذا هو السبب في أنه يستحيل على المرء أن يحظى بالإيمان الكامل من خلال التدبر وحده مستعينًا بفطرته فقط، ذلك لأن فطرة

المرء إذا كانت سليمة كاملة فمن المحال أن تبقى بدون الإلهام الكامل، بل لا بد من أن ينـــزل عليها الإلهام فورًا كما يلتقط جهاز المذياع السليم من أي عطل الأخبارَ تلقائيًا، أو كما تُلتَقط الأمواج الكهرومغناطيسية على الأدوات اللاقطة لها.

مجمل القول إن الإلهام والفطرة السليمة قطعتان من جوهر واحـــد، واعتبارهمـــا شيئين منفصلين حمق وغباء. إن الفطرة السليمة والمشاعر المتناسبة الملائمة هي التي تُلهب نار الحب الإلهي التي تستنـــزل الوحي والإلهام وتسهّل الوصال بالله تعـــالى. إذًا، فليس الوحي الحق والكلام السماوي إلا ذلك الذي يكون وثيق الصلة بالفطرة الصحيحة والعواطف الطبيعية، والذي لا يقتل عواطف الإنسان الطبيعية بل ينميها على نحو سليم، والذي تدعمه الفطرة الإنسانية السليمة معلنة أن هذا الكلام إنما هو قطعة مني. أما الكلام الذي يحاول قتل الفطرة السليمة فلا بد أن يعارض الكتـــاب المكنون، ومهما أشادت به الألسنة إلا أن القلوب لا تطمئن بها، ولا بد أن يفـــشل في تحقيق الهدف، ومثله كمثل نصف الجسد أو كمثل الذَّكَر الذي لا يقدر علـــى الإنجاب بدون الأنثى.

إذًا، فإن من أكبر فضائل القرآن الكريم أنه كتاب مبين، وأن هذا الكتاب موجود في الفطرة الإنسانية السليمة، بمعنى أنه ليس في القرآن حكم واحد يتنافى مع الفطرة الإنسانية. ولكن بما أن دقائق كنوز الفطرة السليمة أيضًا لا تظهر بـــدون المعونـــة السماوية، فيُنـــزل الله تعالى الكتاب المبين لينكشف الكتاب المكنـــون، وليعـــرف الناس صدق الكتاب المبين مستعينين بالكتاب المكنون. وقد بين صلحاء الأمة هذه الحقيقة بقولهم: "مَن عرَف نفسَه فقد عرَف ربَّه".. أي أن الإنسان يـــصل إلى الله تعالى بمعرفة دقائق الفطرة الإنسانية. بيد أن قولهم هذا ناقص إذ هو بمثابـــة أحـــد شطري البيت. وليس الحق إلا ما قال القرآن الكريم بأنه مما لا شك فيه أن الإنسان يعرف ربه من خلال معرفة نفسه، ولكن معرفة النفس أيضًا لا تتيسر إلا بوحي الله تعالى. وهذا يعني أن الإنسان بحاجة إلى الكتاب المبين حتى لمعرفة نفسه أيضًا، وأن الواحد متصل بالآخر بصلة متينة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.. أي يا محمد، هناك رغبة عارمة في قلبك لتوصل إلى الناس وَحْيَنا الذي أنزلناه عليك لتهديهم ولتمتّعهم بهذه الثروة التي لا زوال لها؛ وقد اشتدت بك هذه الأمنية بحيث نخشى أن تقتل نفسك أسفًا على أنهم لا يؤمنون بهذا الكتاب المبين الذي قد نزل لخيرهم في الدنيا والآخرة، والذي ينطوي على أسباب رقيهم بكل أنواعه ماديًا وروحانيًا. علمًا أن البخع يعني ذبح الذبيحة حتى قفاها (المنجد)، فكلمة البخع تنطوي على معنى المبالغة والقسوة في الذبح؛ وعليه فإن هذه الآية تشير إلى أن محمدًا رسول الله ﷺ قد بلغ به حبُّ الإنسانية والأسف على عدم اهتداء الناس بحيث يكاد يقتل نفسه حزنًا عليها، حيث أصبح كالذي يذبح الذبيحة بحماس شديد حتى يذبحها إلى قفاها. لقد بُعث إلى الدنيا آلاف الأنبياء، ولكن لم يبلغ أحد منهم ذلك المقام العالي في حب الإنسانية إلا محمد رسول الله ﷺ. والحق أن حياته ﷺ كانت أروع مثال للعقل والحكمة من جهة، ومن جهة أخرى كانت أظهر ظهور للعواطف بحيث أصبح مثالاً شامخًا للعواطف الإنسانية ينطبق عليه ما قاله بعض الشعراء بالفارسية:

هرگز نميرد آنكه دلش زنده شد بعشق

ثبت است بر جريدهٔ عالم دوامِ ما

(ديوان حافظ الشيرازي (فارسي) ص ٩٩)

أي لا يموت أبدًا من كان قلبه عامرًا بالعشق، فخلودنا مسجل في صفحات تاريخ العالم.

الحق أنه لم يُكتب الخلود للعقل وحده أبدًا، إنما كُتب للعشق والعواطف دائمًا. لقد خلا في الدنيا كبار الفلاسفة والعشاق، ولكن لم يتمتع الفلاسفة بالمكانة التي تبوّأها العشاق في قلوب الناس. دعوا جانبًا ما ضربه الأنبياء من أمثلة رائعة في مجال العشق الحقيقي، وخذوا أمثلة العشق المجازي فقط. فقليل هم الذين يعرفون أحوال أرسطو وأفلاطون أو حتى اسميهما، ولكن هناك عدد لا حصر له من الناس يعرفون اسم ليلى ومجنونها، وما أكثرَ الذين يحاولون تقليدهما. فما من قرية ومدينة إلا وتجد

بها الشعراء، وليس هؤلاء الشعراء إلا تلاميذ ليلى ومجنونها في الواقع. ولو استثنينا منهم أولئك الشعراء الذين قد استثناهم الله تعالى في القرآن الكريم والذين يقرضون الشعر خدمة للدين أو في ذكر الله تعالى، لوجدنا أن سائر الشعراء الآخرين إنما يقلّدون ليلى ومجنونها. لا شكّ أنهم ليسوا ليلى ولا مجنونها حقيقةً، ولكنك إذا سمعت شعرهم لخُيّل إليك أن هؤلاء القوم لم يذوقوا الطعام قط، ولم ينعموا بالنوم قط وإنما يقضون لياليهم ساهرين دائمًا، ولم تجفّ الدموع من عيونهم قط، ولم تبقَ القلوب والأكباد في أبدانهم وإنما ذابت وأصبحت ماءً ودمًا منذ زمن بعيد، وأن هذا الإنسان الذي يراه الناس حيًّا قد مات مرارًا ودُفن مرارًا، وأن حبيبه قد جاء يزور قبره ولكنه قد زاره بكل احتقار. وهذا يعني أن هؤلاء الشعراء يريدون أن يسبقوا ليلى ومجنونها عشقًا ومحبةً، مما يؤكد أن العشق أشد غلبةً على قلوب الناس من العقل. ولكن محمدًا ﷺ لم يحرز قصب السبق في مجال العقل والحكمة فحسب، بل قد فاق الجميعَ في مضمار الحب والعشق أيضًا، فلا يمكن أن يباريه أي محب ولا عاشق. دعوا حبَّ الله تعالى جانبًا فهو أسمى من متناول معظم الناس، وتعالوا نر حبه ﷺ للإنسانية. من هو مجنون ليلى؟ كان مجرد عاشق لامرأة، وكان مغرضًا في عشقه حيث كان يريد التمتع بجمالها، أما النبي ﷺ فكان حبه للإنسانية أسمى من أي غرض ومنفعة. ثم إن حبه ﷺ لم يشمل شخصًا أو شخصين، ولم يقتصر على الأصدقاء والأقارب ولا أهل الحسن والجمال، بل شمل الجميع، بل كان شديد الحب لأهل الدمامة أيضًا حيث يقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.. أي يا محمد ربما تُهلِك نفسك لا من أجل ذوي الحسن والجمال فحسب كأبي بكر وعمر اللذين استنارت وجوههم نورًا وجمالاً نتيجة إيمانهم، بل أيضًا من أجل ذوي الدمامة الذين لا يطيق المرء النظر إليهم، والذين يكاد الرجل الروحاني يتقيأ برؤيتهم كأمثال عتبة وشيبة وأبي جهل، فلمَ تُهلك نفسك حبًّا لهم وحزنًا عليهم بأنك لا تقدر على نفعهم؟ فشتّان بين حب مجنون ليلى وبين حب النبي ﷺ للإنسانية؟ إن المجنون قد عشق امرأة أعجبه جمالها، ولكن النبي ﷺ قد أحب حتى أولئك القوم الذين كانت تُكره وجوههم الدميمة الخالية من الروحانية.

ثم إنه ﷺ لم يحب إنسانًا واحدًا بل قد أحب الإنسانية جمعاء، و لم يحب أهل زمنه فحسب، بل قد أحب أيضًا أولئك الذين لم يأتوا بعد حيث قال الله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾(الجمعة:٤).. أي أن محمدًا رسول الله (ﷺ) لا يريد أن ينفع أهل زمنه فحسب، بل يود أن تنفع فيوضه حتى أولئك الذين لم يولدوا بعد. فما أعظمَ مكانةَ النبي ﷺ في عالم الحب والعواطف أيضًا، حيث لا يعرف حبه الحدود والانتهاء! لقد ألهب النبي ﷺ جذوة حب الله تعالى في قلبه، ثم طار إلى أعالي السماء، وخرّت روحه على العتبة الإلهية، واقتبس حبه قبسًا من نار حب الله تعالى، وهذا يعني أن محبته المحدودة جذبت المحبةَ الإلهية غير المحدودة وأنزلتها إلى الدنيا، وكما أن أشعة الشمس تسطع من الشرق وتنتشر على وجه الأرض كذلك انتشر حب النبي ﷺ في العالم وشمل الشرقي والغربي والأبيض والأسود والجميل والدميم أجمعين. ثم إن حبه ﷺ قد تجاوز حدود الزمان والمكان، و لم ينته رغم مرور الأحقاب والقرون، ولن ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لا شك أن كل إنسان بارّ يمر بأيام هذا الحب من حين لآخر، فقد ورد عن حضرة نظام الدين أولياء – رحمه الله – أنه كان يمشي مع مريديه مرة، فمر به طفل جميل، فتقدم إلى الطفل وقبّله. فبدأ المريدون يقبّلون الطفل ظنًا منهم أن شيخهم ربما رأى في وجهه التجلي الإلهي، ولكن أحد مريديه المقربين لم يقبل الطفل فأخذوا يتكلمون فيه ويعيبونه. ثم مرّ شيخهم بمخبز تخبز فيه امرأة، وكانت تشعل النار في الموقد بإلقاء الأوراق، وكان منظرًا جميلاً، فتوقف الشيخ يشاهده، ثم تقدم وقبّل شعلة النار، فتقدم مريده المقرب وقبّل النار مثله، و لم يجرؤ أحد من المريدين الآخرين على تقبيلها. فتوجه إلى زملائه وقال: لقد قبلتم الطفل الجميل مع أن الطفل الجميل يعجب الجميع، أما شيخنا فإنما قبّله لأنه قد رأى فيه جلوة الله تعالى، ولكني لم أستطع أن أرى فيه جلوة الله فلم أقبله، أما الآن فقد شاهدَ جلوة الله في النار فقبّلت شعلتها اتّباعًا لشيخنا. أما أنتم فإنما قبّلتم الطفل الجميل اتباعًا لهوى النفس فقط.

فثبت من ذلك أن كل واحد من أهل الله تعالى يمتلئ حبًّا للإنسانية بين فترة وأخرى، ولكن حب النبي ﷺ للناس لم يكن مؤقتًا، بل كان جزءًا لا يتجزأ من جسمه وروحه، وما أدل على ذلك من الكلمات التي جرت على لسانه المبارك قبيل وفاته حيث قال: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على قبور). وهذا يعني أن قلب النبي ﷺ كان يتقطع أسفًا على شراءِ اليهودِ والنصارى الجحيمَ لأنفسهم، ومن أجل ذلك أوصى أتباعه أن لا يفعلوا كما فعل هؤلاء القوم. وهذا يعني أن حب النبي ﷺ لفئتي الكفار والمؤمنين كلتيهما قد تجلى حتى عند سكرات الموت، فكان يتمنى إنقاذ اليهود والنصارى من الشرك من جهة، ومن جهة أخرى كان يخاف أن يقع أتباعه في نفس الخطأ. إذًا، فإن حياته ﷺ كلها تؤكد أنه كان يكنّ الحب لكل شريحة من شرائح الناس.

ورد في الحديث أن رأس الرجل فيمن قبلكم كان يُشَقّ بالمنشار بسبب دخوله في دين الله، ومع ذلك كان لا يتأفف (البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام). وأما الرسول ﷺ فظل يُشَقّ بالمنشار كل يوم ليس سنة أو سنتين أو عشر سنوات بل إلى يوم وفاته، وقد تحمل من الأذى والتعذيب حتى قال له رب السماء: لم تُهلك نفسك أسفًا عليهم بأنهم لا يؤمنون. يقول المسيحيون إن المسيح قد كفّر عن ذنوب جميع الآثمين بموته على الصليب (رومية ٥: ٢-٨ وغلاطية ٣: ١٣)، ولكن الأمر أنه ؑ قد عُلّق على الصليب مرة واحد فقط في كل حياته، بينما قضى محمد رسول الله ﷺ كل لحظة من حياته معلقًا على الصليب، وقبِل الموتَ آلاف المرات؛ ومن أجل ذلك لم يمدح الله تعالى أحدًا كما مدحه ﷺ؛ لا نوحًا ولا إبراهيم ولا موسى ولا داود ولا سليمان ولا عيسى - عليهم السلام - ذلك لأنه لم يوجد في قلب أي واحد من الأنبياء مثل ذلك القلق العميق الذي وُجد في قلب النبي ﷺ لإصلاح الدنيا وهدايتها. وعندما نفحص وقائع حياة النبي ﷺ نجد عند كل خطوة أحداثًا تدل على ما كان يكنه من حب وشفقة نادرين تجاه الإنسانية.

لقد تحمل في سبيل تبليغ رسالة الله تعالى ولسنوات عديدة من الأذى والتعذيب ما لا حدود له.

فذات مرة كان النبي ﷺ في الكعبة فخنقه الكافرون بردائه خنقًا شديدًا حتى احمرت عيناه وكادتا تخرجان من حدقتهما. فعلم أبو بكر رضي الله عنه بذلك، فأتى مسرعًا ودفع عنه الكافرين وقال لهم وقد اغرورقت عيناه: ألا تخافون الله تعالى؟ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ (البخاري: كتاب المناقب، مناقب أبي بكر رضي الله عنه)

وذات مرة كان النبي ﷺ مستغرقًا في أفكاره جالسًا على صخرة، فمر به أبو جهل ولطمه بشدة وبدأ يسبه سبًّا فاحشًا، فتحمل النبي ﷺ هذا الأذى والسباب ولم يكلّمه بشيء. وعندما ذهب أبو جهل قام النبي ﷺ من مكانه وأتى بيته. وكانت مولاةٌ لحمزة تشاهد كل ما جرى مع النبي ﷺ. ولم يكن حمزة قد أسلم بعد، وكان امرأً يحب البأس والقنص، فكان يقضي يومه في الصيد، فلما رجع في المساء دخل بيته متفاخرا كمحارب مدجج بالسلاح، وكانت مولاته خادمة قديمة في بيته - والخدم القدماء يُعَدّون من أهل البيت - وكانت كاظمة لغيظها منذ الصباح، فلما رأت حمزةَ لامَتْه بشدة وقالت: ألا تستحي، تحمل القوس لصيد الوحوش، ولا تعرف ماذا فُعل بابن أخيك صباح اليوم؟ لقد رأيت وأنا واقفة بالباب أن ابن أخيك كان جالسًا على تلك الصخرة، فأتاه أبو جهل، فلطمه وآذاه وشتمه دون أن يقول لأبي جهل ما يغيظه؛ بل لم يكلّمه رغم لطمه وشتمه. فلما سمع حمزة هذا الكلام مِن فم امرأة خادمة في البيت ثارت حميته، فتوجه إلى الكعبة. وكان رؤساء مكة يجلسون في المساء بفناء الكعبة يتفاخرون فيما بينهم فيكيل لهم الناس المديح. وكان أبو جهل جالسًا في القوم، فأقبل نحوه وضرب رأسه بقوسه بشدة وقال: لقد سمعت أنك ضربت محمدًا (ﷺ) وشتمته أيضًا، مع أنه لم يقل لك شيئًا حتى تسبّه. تظن نفسك بطلاً وتعتدي على الضعيف الذي لا يرد عليك. ها قد ضربتك أمام أهل مكة كلهم، فاضربني الآن إذا استطعت. فهمَّ فتيان القوم ليبطشوا بحمزة ويعاقبوه، ولكن أبا جهل أصيب برعب شديد، فقال: دعوه، فأنا الذي قد اعتديت على ابن أخيه في الصباح. (السيرة الحلبية المجلد الأول ص ٢٩٦-٢٩٧)

وكان النبي ﷺ يصلي في الكعبة مرة، فلما سجد وضع بعض الأشرار على ظهره بين كتفَيه سلا جَزورٍ، فلم يستطع أن يرفع رأسه. وعلمت فاطمة – رضي الله عنها – بذلك، فأتت مسرعة باكية وطرحت هذه القذارة عن ظهره ﷺ (البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا أُلقيَ على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد صلاته)

وفي إحدى المرات كان النبي ﷺ يمر بالسوق بمكة، فاجتمع حوله جماعة من الرعاع، وظلوا يضربون على عنقه ﷺ ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي.

وكان جيران النبي ﷺ يرشقون بيته، ويلقون في مطبخه الأقذار والأوساخ وبقايا أمعاء الخراف والإبل. وكانوا يلقون عليه التراب وهو يصلي، حتى اضطر لأن يصلي مستترًا تحت صخرة ناتئة. ولكنه ﷺ ظل يرفع اسم الله الأحد، ويدعوه لهداية القوم رغم كل هذا الأذى والتعذيب. (الطبري، والسيرة الحلبية)

ولما رأى أهل مكة أن مظالمهم لم تقدر على زعزعة هذا الرجل، قرر الجميع أن يقوموا بمقاطعته وأصحابه ويحاصروهم في شعب أبي طالب أجمعين، فلا يبيع لهم أحد شيئًا ولا يتعامل معهم أبدًا. وبالفعل قاموا بمقاطعته وأصحابه، فعانى الصحابة عناءً كبيرًا حتى اضطروا لأكل أوراق الشجر ونوى التمر، ولم تنتهِ هذه المعاناة في بضعة أيام أو أسابيع أو شهور، بل استمرت ثلاث سنوات على التوالي. وبعد هذه السنوات الشداد قام بعض شرفاء مكة ضد هذا الظلم، فأعلنوا إلغاء المعاهدة وأخرجوا المسلمين من شعب أبي طالب. ولكن مظالم هذه السنوات الثلاث أدت إلى وفاة زوجة النبي الوفية خديجة – رضي الله عنها – حيث تدهورت صحتها نتيجة المقاطعة الطويلة. وبوسع كل إنسان أن يدرك أن تدهور صحة هذه السيدة كان طبيعيًا، إذ كانت من أغنياء مكة وكانت تملك عشرات العبيد، وكانت تُطعم عشرات البيوت، ولكنها اضطرت للفاقة أو أكل أوراق الشجر ونوى التمر نتيجة هذه المقاطعة الاجتماعية، وماتت. ومرت بضعة أيام فتوفي عم الرسول ﷺ أبو طالب أيضًا. (السيرة الحلبية، باب اجتماع المشركين على منابذة بني هاشم... وكتابة الصحيفة، وباب الهجرة الثانية إلى الحبشة، وباب وفاة عمه أبي طالب وزوجته ﷺ خديجة)

ورغم كل هذا الأذى والمعاناة قرر النبي ﷺ فور خروجه من شعب أبي طالب أن أهل مكة إذا كانوا غير مستعدين لتلبية نداء الله تعالى فهو سيخرج لتبليغ رسالة الله للذين يعيشون خارج مكة عسى أن يجد بينهم روحًا سعيدة تستجيب لدعوة الله وترث أفضاله ﷺ. فذهب إلى الطائف وهي مدينة شهيرة تبعد عن مكة قرابة ستين ميلاً. فدعا أهلها إلى الله الواحد، ولكنهم عوضًا عن أن يستمعوا إلى رسالة الله ويقبلوها سلّطوا عليه ﷺ الأولاد، فأخذوا يرشقونه حتى أدموه، كما جرحوا خادمه زيدًا الذي كان يرافقه ويحاول حمايته. ولم يزل هؤلاء الغوغاء يرمونه ﷺ بالأحجار وهو يفر من أمامهم حتى توقف بعد عدة أميال ليلتقط الأنفاس. فأخذ يمسح الدم ويقول: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون. وكان في الطريق بستان لأحد رؤساء مكة، فتوقف النبي ﷺ فيه للاستراحة، فلما رأى الرئيس ثيابه الملطخة بالدماء أشفق عليه جدًّا، فدعا عبدًا له وأعطاه قطفًا من العنب وقال له مشيرًا إلى النبي ﷺ وزيد رضي الله عنه: اذهب به إليهما. وكان الإرهاق قد بلغ من النبي ﷺ كل مبلغ نتيجة جروحه التي أصابته بيد هؤلاء الأوباش في هذه المطاردة الطويلة، ومع ذلك قال للعبد: من أي البلاد أنت؟ فقال: أنا من نينوى. قال ﷺ: فأنت من قرية أخي يونس. فاستغرب من قوله ﷺ وقال في نفسه: هذا الشخص عربي ومع ذلك يعتبر يونس أخاه مع أنه من سكان نينوى، فسأل النبيَّ ﷺ عن حاله وقال: لماذا يعاملك الناس هكذا؟ فقال ﷺ: أنت من سكان نينوى وأنت تعلم أنه كلما جاء الدنيا مصلح رباني عامله أهلها هكذا. إنني لم أصبهم بسوء، إنما قلت لهم أن يعبدوا الله وحده، ولا يعبدوا الأصنام، وإنني أنصحك أيضًا بهذا. وكان هذا العبد مسيحيًا، فأيقن أن الرجل مبعوث من عند الله تعالى. وكما ورد في الإنجيل عن المسيح عليه السلام أن امرأة جاءته وأخذت "تَبُلُّ قدمَيه بالدموع، وكانت تمسَحهما بشعرِ رأسها" (لوقا ٧: ٣٨)، كذلك خر هذا العبد على قدمي النبي ﷺ ومسح عنهما الدم والتراب بيديه، وقبل يديه من فرط الحب. ولما رجع نهره سيده على ذلك. ولكن قلبه كان قد انشرح للإيمان، فصدق النبي ﷺ ولم تستطع أي معارضة أن تمنعه من اتباعه ﷺ. (السيرة الحلبية: ذكر خروج النبي ﷺ إلى الطائف)

فكم هي عارمة هذه الرغبة في قلب النبي ﷺ من أجل خير الإنسانية! وعلى النقيض نجد في الإنجيل أن امرأة جاءت المسيح وتوسلت إليه أن يساعدها، فقال لها إن هذا التعليم ليس إلا لبني إسرائيل الذين هم أبنائي، و"ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب" (متى ١٥: ٢٢-٢٦). أما الرسول ﷺ فيأتيه شخص لم يكن من قومه، وجاء عندما كان النبي ﷺ منهكًا بالجروح، ملطخًا بالدماء ومرهقًا للغاية نتيجة فراره من أمام الأعداء لعدة أميال، وكان في مكان يمتلكه عدوه وكان هناك خطر كبير أنه إذا قام بالدعوة ولو قليلا لوقع في بلاء شديد، ولكن بمجرد أن أتاه هذا الشخص الغريب أخذ في دعوته، ذلك لأن العرب والعجم كانوا سواسية عنده، و لم يكن حبه وآلامه للعرب فقط، بل كانت للجميع؛ سواء أكان أبيض أو أسود، مصريًا أو هنديًا. وكان في كل حركةٍ وسكنةٍ له يسعى أن يتيسر للناس الهدى فيرجعوا إلى عتبة الإله الواحد. إن سفرَ النبي ﷺ إلى الطائف نموذج حي عظيم للتضحية والإيثار حتى إن مستشرقًا مثل السير وليام موير أيضًا لم يملك نفسه من أن يتأثر به، فاضطر لأن يقول في كتابه "حياة محمد" ما تعريبه:

"إن سفر محمد (ﷺ) إلى الطائف كان مثالاً رائعًا للشجاعة. فإن شخصًا وحيدًا محتقرًا مطرودًا من قِبل قومه يخرج بكل شجاعة مثل يونان النبي نبيِّ نينوى إلى مدينة وثنية ليبلّغ أهلها رسالة الله ويدعوهم إلى التوبة. إن هذا الأمر لدليلٌ بيّنٌ على أنه كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأنه مبعوث من عند الله تعالى". (Life of Mohamet p. 117)

وبعد عودته من الطائف عاد أهل مكة إلى إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء به، ولكنه ظل ينهاهم بلطف ومحبة عن عبادة الأوثان. كان الناس يفرون منه، ولكنه كان يذهب وراءهم ويدعوهم، وكانوا يعرضون عنه، ولكنه ظل يعظهم وينصحهم. وفي الأخير اضطر النبي ﷺ بسبب مظالمهم المستمرة إلى أن يترك في ظلام الليل وطنه الذي كان بدأ دعوة أهله إلى الإسلام لأول مرة وظل يدعوهم إليه لمدة ثلاث عشرة سنة. فخرج منه سرًّا ووصل إلى المدينة، ولكن الأعداء لم يدَعوه ليعيش هناك في سلام، بل ظلوا يشنون الغارات على المدينة بين فترة وأخرى. لقد اضطر النبي ﷺ وأصحابه لأن يخوضوا حوالي مئة وعشرين معركة، واستُشهد فيها مئات

من صحابته وأقاربه ﷺ. ولكنه لم يبال أبدًا بأي مصيبة أصابته في سبيل إعلاء اسم ربه الأحد. فلم يزل يبلغ الناس رسالات الله في الصباح وفي المساء وفي آناء الليل وأطراف النهار، ولم يتردد في تقديم أية تضحية من النفس والنفيس أو المشاعر والعواطف أو الأعزة والأقارب. كانت ابنتاه ﷺ متزوجتين من ابني أبي لهب، فهدده أنه إذا لم ينته عن تعليم وحدانية الله فإنه سيأمر ابنيه بأن يطلّقاهما، ولكن النبي ﷺ لم يبال بذلك، فأمر الشقي ابنيه فطلقا ابنتيه ﷺ. (أسد الغابة: رقية بنت رسول الله ﷺ)

وكان النبي ﷺ أول هدف للعدو في كل وقت حرج، ولكنه في كل مرة كان يلقي بنفسه في نيران الأخطار ببسالة نادرة وكأنه لا يقيم لنفسه قيمة. فخلال معركة أُحد أصابه حجرٌ في رأسه فدخلت مسامير خوذته في رأسه، فأغمي عليه وسقط على جثث صحابته الذين كانوا قد استُشهدوا دفاعًا عنه، ثم سقطت على جسمه الأطهر جثث الصحابة الآخرين وغطته، فظن القوم أنه قد استُشهد، ولكنه ﷺ لما أُخرج من تحت الجثث وعاد إليه الوعي، لم يأبه لجراحه، ولا بكسر أسنانه، ولا باستشهاد أقاربه وأصحابه، بل بمجرد أن أفاق دعا ربه وقال: "اللهم اغفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون". (مسلم: كتاب الجهاد، باب غزوة أحد)

وكذلك ورد في الحديث أن الأعداء لما أدموا النبي ﷺ بالأحجار في الطائف وكان يجري أمامهم طرأت عليه حالة من الكشف وظهر له ملَك الجبال وقال له: لو شئتَ لأطبقت على أهل الطائف الجبلين اللذين يكتنفانها، فقال رسول اللّه ﷺ: لا، إنما فعلوا بي ما فعلوا نتيجة جهلهم، وإني لأرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم قومًا خادمين للإسلام. (البخاري: كتاب بدء الخَلق، باب إذا قال أحدكم آمين) *

وهذا ما أكده الواقع، فبرغم أن هؤلاء الأعداء قد سموا النبي ﷺ مجنونًا وكاهنًا وساحرًا وكذّابًا، ولم يألوا جهدًا في القضاء على دعوته، ولكن قد خرج منهم في

* نص ما قاله النبي ﷺ بحسب المرجع المشار إليه هو: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا." (المترجم)

نهاية المطاف قوم سعداء آمنوا بالحق بشجاعة، وخرجوا لنشر الإسلام واضعين أرواحهم في أكفّهم، ونوروا كل أنحاء العالم بنور الإسلام في فترة قصيرة.

إذًا، فإن قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى المحبة النادرة التي كان يكنّها النبي ﷺ للإنسانية، وقد بين الله تعالى بذلك أنه ﷺ كان يسعى ويدعو لهداية الناس آناء الليل وأطراف النهار حتى كاد يُهلك نفسه حزنًا عليهم، حيث كان لا يهتم من أجل راحتهم بطعامه ولا بشرابه ولا براحته. كان يقوم بالليل ويبكي ويبتهل أمام ربه لإنقاذ الناس من الغي والضلال وهدايتهم إلى طريق النجاة والسلام حتى تتورم قدماه من طول القيام. (البخاري: أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه). فكما أن الإنسان يذبح الكبش بكل شدة أحيانًا حتى تصل المُدية قفا الذبيحة بحيث لو اشتد في ذبحها قليلاً لانفصلت عنقه تمامًا، كذلك لم يدخر النبي ﷺ وسعًا في ذبح نفسه من أجل الإنسانية، وإذا كان لم يُهلك نفسه فليس سببه أنه قصر في التضحية بنفسه، وإنما سببه أن الله تعالى قد قام بحمايته على وجه خاص، وإلا فإنه ﷺ لم يقصر في إزهاق نفسه من أجل الإنسانية.

وفي هذه الخصوصية المميزة للنبي ﷺ درس عظيم للمؤمنين، حيث نبههم الله تعالى أنهم إذا كانوا يريدون الرقي والازدهار فعليهم أن يرفعوا مستوى تضحياتهم بحيث يعتبرها العدو انتحارًا صريحًا، في حين أنكم تعلمون أنه ليس انتحارًا بل هو سرّ خلودكم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم في معرض الحديث عن غزوة أُحد إن المنافقين: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾(آل عمران: ١٦٨).. وهذا لا يعني أنهم كانوا لا يعلمون أن القتال سيقع، بل الواقع أنهم كانوا يشيرون على المسلمين أن لا يخرجوا من المدينة للقتال، وقد استمر هذا النقاش يومين كاملين، وهذا يعني أن المنافقين كانوا يعتبرون القتال خارج المدينة انتحارًا، وإنما كانوا يعنون بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أن قتال العدو خارج المدينة ليس حربًا عندنا إنما هو انتحار، ولذلك لم نشترك فيه. فثبت من ذلك أن الله تعالى يأمر جماعته المؤمنة بما يعتبره الناس انتحارًا حيث يطالبهم بالتضحية بكل غال ورخيص من نفوس وأموال وأوقات وشرف وكرامة حتى يقول الناس إن هؤلاء قد أصبحوا مجانين حيث

يقدمون هذه التضحيات الجسيمة، ويقول المنافقون عنهم إن هؤلاء قوم سفهاء ويريدون منا أن نكون أيضًا سفهاء مثلهم حيث يدعوننا أن نقدم التضحيات مثلهم. فالأعداء والمنافقون كلهم يعتبرون تلك التضحيات هلاكًا وانتحارًا، ولكن المؤمنين يعلمون أنها ليست انتحارًا بل فيها تكمن حياتهم الخالدة.

فالله تعالى لم ينبهنا بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إلى خصوصية مميزة للنبي ﷺ ونموذجه النادر للشفقة على خلق الله تعالى فحسب، بل أيضًا قد أوصى المؤمنين أنهم إذا كانوا يريدون قرب الله تعالى فعليهم أن يرفعوا مستوى تضحياتهم بحيث يقول العدو إن هؤلاء يقطعون أعناقهم بأنفسهم، ويظن الجميع أنهم يُلقون أنفسهم في فم الموت. هذا هو المقام الذي يجب أن تصبو إليه الجماعات الإلهية، إذ لا خلود لها بدون ذلك.

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝٥ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٦ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧

شرح الكلمات:

أعناقهم: الأعناق جمعُ العنق وهو: وصلة ما بين الرأس والبدن يذكَّر ويؤنَّث؛ الرؤساءُ؛ الجماعةُ من الناس. (الأقرب)

خاضعين: جمعُ خاضعٍ، يقال: خضَع له: انقاد. (الأقرب)

مُحدَث: المحدَث: نقيضُ القديم. (الأقرب)

التفسير: أي لو شئنا لأنزلنا عليهم عذابًا يخضع أعناقهم ويقهرهم على الإيمان بمحمد رسول الله (ﷺ)، لكن هذا الإيمان لا ينفع صاحبه، إنما ينفعه إذا آمن ما دام

الخير والشر كلاهما خافيَين عليه. ذلك أن المرء لا ينال جزاء إذا آمن بشيء يراه عيانًا؛ فالشمس مثلاً شيء نافع، ووجودها أمر قطعي لا مراء فيه، ولكن المرء لا يستحق أي جزاء على تصديقه بوجود الشمس.

ولو قيل: ما دام الإنسان يُجزى بإيمانه بمحمد، فلم لا يُجزى بإيمانه بوجود الشمس؟ لقلنا: إن المرء يستحقّ الإنعام على إيمانه به ﷺ لأن معرفة صدقه ﷺ إنما تتيسر له نتيجة البحث والاجتهاد والتضحية، بينما إيمانه بوجود الشمس لا يتطلب منه بحثًا ولا جهدًا ولا تضحية، لأن وجودها أمرٌ بيّنٌ وقطعيٌّ، فلا ينال أي جزاء على التصديق بوجودها.

ولو قيل: كان المؤمنون بمحمد (ﷺ) في عصره قدّموا التضحيات فاستحقوا الجزاء، ولكن الذين أتوا بعده لا يضطرون لتقديم أي تضحية، فكيف يستحقون الجزاء؟ فالجواب: لا شك أن المسلمين بالمولد لا يقدّمون في سبيل الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ تضحية كالتي قدمها أصحابه، ولكنهم يقدّمون التضحيات في كل حين حفاظًا على إيمانهم، إذ تنشأ في قلوبهم أسئلة عديدة حول أحكام الإسلام، فيتساءلون: لماذا نعمل بكذا، ولماذا نطيع كذا؟ فيضطرّون لإعمال الفكر في الحِكم الكامنة وراء الصلاة والصوم والحج والزكاة ليعرفوا الجواب على التساؤلات الناشئة في قلوبهم. كما أنهم يجتهدون ويضحّون بكثير في كل حين للعمل بهذه الأحكام. إذًا فلا أحد من المسلمين مستثنى من تقديم التضحية. لقد قدم الصحابة التضحيات في سبيل الإيمان والإسلام، أما الذين جاءوا بعدهم فيقدمون التضحيات حفاظًا على إيمانهم.

فبما أن الجزاء الإلهي إنما يُنال بتقديم التضحيات، فمن سنة الله تعالى أنه لا يُظهر أبدًا أية آية تبلغ من الوضوح والجلاء بحيث تخضع أمامها أعناق المعارضين الألداء فلا يبقى لهم مجال للإنكار، فيبادرون إلى الإيمان. ذلك لأن مثل هذا الإيمان سيُعَدّ نوعًا من الجبر والإكراه مِن قبل الله تعالى، والله لا يحب أن يؤمن الناس قهرًا، فيُحرَموا ما كتب لهم من الجزاء والنعم.

إنه لمن المؤسف أن نجد من المسلمين من خاضوا النقاشات حول إمكانية الجبر والقدر أو عدمه برغم وجود مثل هذه الآيات الصريحة المخالفة لعقيدة الجبر والإكراه، فاعتقدوا أن الله تعالى يمارس الجبر في بعض الأمور. فمثلاً لو قلت اليوم لمسلم: ما هو سبب مشاكل المسلمين لتنفّسَ الصعداء وقال: هذا هو المكتوب في القدر، وهكذا يلقي المسؤولية على الله تعالى، ولن يقول إنما سبب مصائبنا أننا قد وقعنا في شتى النقائص والعيوب، تاركين العمل بأحكام القرآن الكريم ووصايا الله وتعاليم الرسول ﷺ. بينما تصرح هذه الآية أن الله تعالى لو أراد قهر الناس لأجبرهم على الخير والهدى ولأنــزل آيات واضحة جلية تخضع لها أعناق أشدهم كفرًا، فيضطرون للإيمان. ولكن الله تعالى لا يفعل هكذا أبدًا.

إنه تعالى إنما يُنــزل الآيات التي تنطوي على عنصر الخفاء والستر أيضًا، ليؤمن الناس بالسعي والجهد والبحث، فيجزيهم بقدر سعيهم وجهدهم. المؤسف أنه يوجد لدى المسلمين اليوم مفاهيم خاطئة عن آيات الله تعالى. فذات مرة عقد المشايخ غير الأحمديين مؤتمرًا في قاديان، فقال أحدهم في خطابه بكل حماس: كيف يدعي المرزا (أي مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية) أنه نبي؟ الواقع أن معجزاته لا تساوي شيئًا. إنما المعجزة ما أظهره سيدي عبد القادر الجيلاني، حيث أهداه شخص فرخًا مشويًا، فلما فرغ من أكله قال له: لقد عملتَ بنا معروفًا، ونريد الآن أن نعمل بك معروفًا. ثم أخذ عظام الفرخ في يده وضغط عليها بشدة، فخرج منها ديك يصيح.

الحق أن هذه القصص لم تَلق رواجًا بين المسلمين إلا لأنهم قد غضّوا الطرف عن سنة الله في المعجزات. إنهم لا يدرون أن المعجزات لو ظهرت جلية واضحة هكذا فمن ذا الذي يمكنه إنكار النبي؟ وإذا آمن المرء برؤية مثل هذه الآيات الواضحة الجلية فمن ذا الذي يمكنه القول إنه قد قدّم تضحية عظيمة في سبيل إيمانه وأنه يستحق الجزاء؟

مجمل القول إن الله تعالى قد بيّن هنا أنه لا يُظهر أبدًا الآيات التي تبلغ من الوضوح والجلاء بحيث تخضع لها أعناق الكفار فيؤمنون، لأن مثل هذا الإيمان يُعَدّ نوعًا من الإكراه في الواقع، والله لا يحب الإكراه في الدين.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.. أي كلما أتت الناس رسالة جديدة من الله الرحمن رفضوها، فكيف يقبلونها هذه المرة؟ علمًا أن لفظ ﴿مُحْدَث﴾ - أي جديد - لا يعني هنا أن كل نبي يأتي بشريعة جديدة، بل المراد أن ذكرَ الله أو رسالته تكون خافية عن الأعين عند بعثة أي نبي، حيث ينسونها ويغفلون عنها لدرجة أنهم يظنون ما أتى به النبي جديدًا أي بدعًا ويفرّون منه خوفًا، مع أنه ضالّتهم المنشودة. وقد أطلق الله تعالى لفظ ﴿الحديث﴾ بهذا المعنى على الصحف السماوية السابقة أيضًا وذلك في معرض بيان فضل القرآن الكريم على غيره من الصحف حيث قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾(الزمر:٢٤).. أي أن الله تعالى هو الذي قد أنزل بكل قوة وعظمة هذا الكتابَ الذي هو أحسن الحديث.. أي أفضل الصحف السماوية كلها. إذًا، فكل الأنبياء الذين ظهروا في الدنيا قد أتوا برسالة جديدة بهذا المعنى، فمنهم من أتى برسالة جديدة من حيث إنه جاء بشرع جديد وهدي جديد فعلاً، بينما جاء أكثرهم برسالة جديدة من حيث إنهم قدّموا للناس في كؤوس جديدة نفسَ الشراب القديم الذي منبعه نور الله تعالى. بيد أنه لم يحدث قط أن جاء رسول إلى الدنيا فلم يعرض أهلها عنه، ولم يتخذوه هدفًا لصنوف الأذى. الواقع أن الله تعالى يدير هذا الكون وفق نواميسه العامة عادة بحيث لا نرى يد الله تعالى متجلية لنا في بادئ النظر. لقد دفع الله تعالى عجلة الكون في بداية خلقه، فأخذت الأرض تدور حول الشمس وأخذ القمرُ يدور حول الأرض، وبدأ النظام الشمسي كله يدور متوجهًا إلى جهة مجهولة. وكل من يرى الكون في بادئ الرأي يظن أنه خُلق صدفة، وليس له خالق ولا مدير، لأنه يرى فيه قانونًا ثابتًا يمشي بحسبه. والحق أن مثل هذا الرائي كمثل شخص لم ير ساعة حائط تُعبَّأ بالمفتاح بعد كل أسبوع مثلاً، فيدخل بيتًا لا يسكن فيه أحد، ويجد على الحائط ساعة تتحرك، فيظن أنها تتحرك

من تلقائها، وليس هناك من عبأها، اللهم إلا أن يحين وقت تعبئتها بالمفتاح أو أن تتوقف عن الحركة فيعبئها أحد، أما فيما بين هاتين الفترتين فلا يمكنه أن يتصور أنها لا تتحرك إلا لأن أحدًا قد عبأها من قبل. وبالمثل فإن الله تعالى قد عبأ هذا الكون بالمفتاح فبدأ عمله، ولا يزال يعمل منذ بلايين السنين؛ فيظن الرائي الجاهل بالحقيقة أنه يدور من تلقائه مثل الذي يظن أن الساعة تعمل من تلقائها، اللهم إلا أن يكون عنده العلم بحقيقة الأمر. ولكي يُبرهن الله ﷻ على ألوهيته يُظهر، بالإضافة إلى نواميسه العامة، أمورًا أخرى غير عادية من حين لآخر، وهذه الأمور غير العادية هي التي تؤكد أن هناك خالقًا ومالكًا لهذا الكون. وكما أن الجاهل الذي يظن أن الساعة تدور من تلقائها دون أن يعبئها أحد، فيأتي صاحب الساعة ويعبئها بالمفتاح ويضعها في مكانها، فيدرك هذا أنها تتحرك بتحريك صاحبها، كذلك تمامًا يكشف الله وجوده على الدنيا من خلال صفاته الخاصة، التي تتجلى من خلال من يبعثه تعالى من الرسل والمصلحين. ومن البديهي أن الله تعالى لا يتدخل في أمور أهل الدنيا إلا لسبب، وإنما يتدخل في شؤون العباد عندها لأنه يراهم قد ابتعدوا عنه ونسوه وأخذوا يسخرون من أحكامه، فيبعث من عنده المرسلين والمأمورين ليذكّرهم الله بنفسه. والمرسل أو المأمور إنما يأتي الدنيا في الزمن الذي يكون الناس قد نسوا فيه ربهم، وإذا نسي المرء شيئًا فتوجيهه إليه ثانية أمر صعب جدًّا، إذ يكون قد اتخذ طريقًا مخالفًا نتيجة هذا النسيان، بينما يريد المرسل الرباني إبعاده عن الطريق الذي قد اعتاده ورسخ فيه، وتوجيهه إلى طريق جديد، وإذا أراد المرء إبعاد أحد عما رسخ عنده من العادات لم يعتبره صديقًا بل عدوًّا له. فمثلاً من العادات الراسخة عند أهل الهند أن النساء يمضغن "بان"*، مع أنه ليس ضروريًا في الحياة، إذ لا يزيدهن علمًا ولا مالاً؛ ومع ذلك لو نصحهن أحد بترك

* "بان" في الأصل اسم شجرة هندية. يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. (المترجم)

"بان" رفضن قوله وأصررن على تناوله. بل لو طلبت من الناس التخلي عن تقليد عادي لقاموا لمعارضتك. وعلى سبيل المثال، إن النساء في القرى عندنا يدّهنّ رؤوسهن بالزبدة، وفي المدن يدّهنّ بالزيت، أما الأوروبيات فلا يستعملن الزبدة ولا الزيت بل بعض الغسولات. وادهان الرأس بالزبدة ليس ضروريًا في الحياة وإلا فكيف يكفي الادهان بالزيت أو الغسول فقط؟ إن استغناء البعض عن الادّهان بالزبدة والبعض الآخر عن الزيت والبعض الثالث عن الزبدة والزيت كليهما، يشكّل دليلاً على أنه يمكن التخلي عن هذه الأشياء كلها. ومع ذلك لو حاولت منع نساء القرى عن الادّهان بالزبدة فلربما تطلَّبَ ذلك سنوات حيث يجادلنك بقولهن: إذا لم ندهن بالزبدة أصابنا الصداع أو الزكام، وسوف يعارضن قولك بشدة باعتبارك حجرًا يعيق طريق حياتهن. فثبت بذلك أن منع الناس من العادات البسيطة أيضًا ليس بأمر سهل. أما المصلح المبعوث من عند الله تعالى فإنما يأتي ليقلب العالم كله، ويسعى لصدّ الناس عن تقاليدهم وعاداتهم، فكيف ينجو من المعارضة؟ ومن أجل ذلك كلما بُعث مصلح سماوي استهزأ به الناس وسخروا منه، وضربوه وأصحابه. وهذه هي السنة المستمرة منذ القدم. فمثلا كان أهل مكة يؤمنون بآلهة كثيرة لدى بعثة النبي ﷺ، فلما أعلن بينهم أن الله واحدٌ أحدٌ استغربوا من قوله مستهزئين كما هو مذكور في القرآن الكريم. وإذا لقي بعضهم بعضًا قال: أتؤمن بأن اللات إله؟ فقال الآخر: نعم، إنه إله. فقال: أتؤمن بأن مناة إلهٌ؟ فأجاب: بكل تأكيد. فقال: هل تؤمن بأن العُزّى إله؟ قال: نعم، يقينًا. فكان صاحبه يضحك عاليًا ويقول: هل سمعت ما يقول هذا الرجل؟ لقد جعل جميع الآلهة إلهًا واحدًا. ذلك أن الكافرين كانوا يظنون أن محمدًا (ﷺ) قد خلط الآلهة كلها وجعل منها إلهًا واحدًا، مثلما تفعل المرأة عندنا حيث تأخذ شيئًا من الملح والفلفل والنعناع وتطحنها وتخلطها وتصنع منها طحينة. وقد ورد في القرآن الكريم أنهم قالوا مستغربين: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ص:٦). فكان من المستحيل عليهم أن يتصوروا أن هذه الأصنام ليست بآلهة في الحقيقة. ولذلك كلما قيل لهم: إن الله

واحد، ظنوا وكأن هذا قد قام بخلط الآلهة كلها وجعل منها خليطًا يسميه إلهًا واحدًا. فكانوا يضحكون فيما بينهم على فكرة الإله الواحد ويعتبرون النبي ﷺ مجنونًا. ولكنك لو طرحت فكرة الآلهة العديدة على مسلم اليوم لضحك هو الآخر. لأنه موقن بأن الله واحد وقد أصبحت هذه الفكرة راسخة عنده؟

إذًا، فكلما عرض نبي من أنبياء الله ﷺ على أهل عصره أي فكرة هبّوا لمعارضته لكونهم معتادين على ما ترسخ عندهم. فعندما جاء آدم عليه السلام عامله المعارضون بالغش والخداع، فاضطر للخروج من المكان الذي كان مولده ووطنه، والذي بُعث لهداية أهله من عند الله تعالى. ولما جاء نوح عليه السلام أوذي بصنوف الأذى حتى اضطر للهجرة من بلده. ثم أتى إبراهيم عليه السلام، فأُلقي في النار. وجاء موسى عليه السلام، فتعرض لمحن شتى من قبل فرعون مدة طويلة، وقد شُقّت رؤوس بعض بني إسرائيل بالمنشار كما ورد في الحديث. ولما جاء عيسى عليه السلام علّقه الأعداء على الصليب، وآذوا خلفاءه وحوارييه أيضًا، فقتلوا بعضًا وصلبوا بعضًا. ثم جاء النبي ﷺ، فواجهَ أشد المحن والمصائب، وتعرض العديد من صحابته للقتل والمُثْلة، وقتل الكافرون بعضًا منهم شر قتلة حيث ربطوا رجليه ببعيرين ثم ساقوهما في اتجاهين مخالفين، فشقّوه نصفين؛ وألقوا بعضهم على الرمال المحرقة، وجرّوا بعضهم على الأحجار الصلبة، ورقصوا بالنعال على صدور بعضهم، وقتلوا بعض المسلمات بالطعن في فروجهن.
(انظر البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى أطّلع الغيب، والإصابة، تحت: حمزة وخبّاب بن الأرتّ، وأسد الغابة، تحت: بلال بن رباح وعمار بن ياسر وخبّاب بن الأرتّ، والسيرة النبوية لابن هشام: ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، والكامل في التاريخ: ذكر تعذيب المسلمين)

فقد لجأ الكافرون في زمن النبي ﷺ إلى كل نوع من أنواع الأذى والتعذيب التي عذب بها أعداء الأنبياء أصحابهم في الماضي، ولم يقبلوا رسالته ﷺ.

وهذا ما حصل اليوم عند بعثة المسيح الموعود عليه السلام أيضًا، حيث سعى المعارضون للقضاء عليه بطرق شتى، وما ذلك إلا لأنه كان يدعوهم إلى ما كان يتنافى مع أفكارهم البالية، وكان يريد أن يحدث تغييرًا في نفوسهم. عندما أعلن حضرته عليه السلام دعواه كانوا يعتقدون أن المسيح الناصري عليه السلام سيعود إلى الدنيا ثانية، وسيقوم

بنهب كل أموال غير المسلمين ويضعها في أيدي المسلمين. ولكن لما جاء المسيح الموعود عليه السلام أعلن أن عيسى عليه السلام قد تُوفي. ولم يكن في هذا الإعلان غرابة في الظاهر، فكل إنسان يأتي إلى الدنيا يموت أخيرًا، وقد جاء عيسى عليه السلام إلى الدنيا ومات وفق هذه السنة الإلهية. ولكن هذا الإعلان وجّه صدمة عنيفة إلى تصورات المسلمين التي كانوا يحملونها حول البعثة الثانية للمسيح، فقالوا: هذا يعني أنه لن يأتي أحد لقتل المسيحيين، ولن يبعث أحد لإهلاك الهندوس، ولن يجيء أحد للقضاء على السيخ، ولن توزع ثروة أمريكا وأوروبا على المسلمين بل سيظلون ضعفاء كما كانوا من قبل، إلا أن يبذلوا الجهود والتضحيات فيتقدموا.. إذًا فهذا لم يكن مجرد إعلان عن موت المسيح، بل قد دُفن به المسلمون في القبور وهم أحياء. لقد كان خيبةً لآمال المسلمين الذين كانوا يجلسون في البيوت عاطلين ظانين أن ثروة الرئيس الأمريكي ستوهب لفلان، وأن أموال روكفيلر (Rockefeller) ستوضع في يد فلان. لقد خابت آمالهم كلها وخُيِّل إليهم أنهم قد ماتوا وهم أحياء. فبرغم أنه كان تعليمًا بسيطًا فيما يبدو، ولكنه وجه إلى أفكار المسلمين صدمة عنيفة لم يصبروا عليها، فانبروا لمعارضة المسيح الموعود عليه السلام. لقد كانوا يُدعون إلى السعي والعمل فكانوا يقولون: ما الحاجة للعمل؟ سيأتي المسيح وسينهب أموال الكافرين ويملأ بها بيوتنا. ولكن مجيء مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية كان خيبة لآمالهم كلها، حيث قال لهم: ليس لكم إلا ما تسعون له، فأنتم الذين ستقاتلون، وأنتم الذين ستموتون، وأنتم الذين ستجتهدون وعندها ستحرزون الرقي والغلبة. وهذا يعني أنهم قد أُمروا ببذل السعي والجهد والتضحية لينالوا ما كانوا يتوقعونه جالسين في البيوت عاطلين. لقد قيل لهم إنهم يضيعون حياتهم الغالية عبثًا من جراء أفكارهم الخاطئة. فكان من الطبيعي أن يغضبوا على مؤسس الجماعة عليه السلام ويهبّوا لمعارضته.

وكأن ما حصل معهم هو كمثل شخص يقول لصاحبه لقد أعددتُ الوليمة لجميع عائلتك اليوم، فعليك أن تحضر معهم في ساعة كيت. وعندما يحين موعد الطعام يبلَّغ أن صاحبه قد خدعه إذ لم يعدّ لهم أي طعام، فيثور غضبًا لأنه جائع وأولاده يبكون من شدة الجوع. فتأخذ زوجته في عجن العجين؛ وتحاول إيقاد النار؛ وكل

واحد متضايق ويصرخ: ما هذه المصيبة؟ متى يجهز الطعام ومتى سنأكل؟ هذا ما حدث بالضبط لدى بعثة المسيح الموعود ؑ. فقد قيل للمسلمين من قبل أن الله تعالى قد أعدّ لكم وليمة لن تعملوا فيها شيئًا سوى الأكل؛ سيأتي المسيح من السماء وينهب ثروات الناس ويملأ بها بيوتكم. وكان المسلمون جالسين في بيوتهم مطمئنين ظنًّا منهم بأن لا حاجة بهم إلى تعلُّمٍ وتعليم وكسب مال ولا سعي ولا تضحية، سيأتي المسيح ويأخذ بهم فجأة إلى قمة الرقي والازدهار. وبسبب هذه العقيدة أصحبوا محرومين من العلم والتقدم والعز والشرف، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة والنكسة، فجاء المسيح الموعود ؑ وقال لهم: ليس لكم إلا ما تسعون، ومن الخطأ الفاحش أن تعقدوا الآمال على سواكم. يمكنك أن تقدّر مدى صدمة المسلمين من قوله. إنك إذا لم تجد الطعام لوقت واحد، أو لو قال لك أحد مستهزئًا: لقد أعددت لك ولعائلتك مأدبة طعام الليلة، وعندما يحين وقت الطعام وحينما يكون أولادك يتضورون من الجوع، عرفت أن هذا الشخص قد سخر منك، فاضطررت لإعداد الطعام، فيمكنك أن تقدر مدى غيظك. وأي شك في أن استياء المسلمين وغضبهم بسبب إعلان المسيح الموعود ؑ كان أشد من غيظك بملايين المرات، ذلك لأنهم مع أجيالهم كانوا يعقدون الآمال على المسيح الذي سيأتي ويوزّع عليهم أموال النهب والسلب.

وليس هذا فقط، بل كانت ثمة عشرات القضايا الأخرى التي كانت سبب نـــزاع بين المسلمين، فحينًا كانوا يختصمون على رفع اليدين في الصلاة، وحينًا على الجهر بـــ "آمين" في آخر الفاتحة، وتارة كانوا يتشاجرون على رفع السبّابة أثناء التشهد، وأخرى كانوا يتقاتلون على ربط الأيدي على الصدر أو تحت السرة. فجاء المسيح الموعود ؑ وأنهى كل هذه النـــزاعات بإعلانه أن الخصام على هذه الأمور البسيطة عبث. فحينًا قد جهر النبي الكريم ﷺ بآمين لنفخ الحماس في القوم، وقد خفض بها صوته أيضًا في الأحيان الأخرى، وتارة ربط يديه على صدره في الصلاة حفاظًا على روح القتال والبطولة فيهم، وتارة أخرى ربطهما تحت السرة تواضعًا وتذللاً. وفي بعض الأحيان رفع السبابة وقت التشهد، ولم يرفعها أحيانًا

أخرى، لأن رفعها في التشهد هو بمثابة الإقرار بوحدانية الله تعالى، وهذا جائز على الطريقتين، ولا تفسد الصلاة سواء أُرفعت السبابة فيها أم لم تُرفع. الواقع أن الرسول ﷺ لما رأى أن عقيدة التوحيد لم ترسخ بعد في قلوب بعض العرب أمر برفع السبّابة في الصلاة، ولكنه لم يرفعها في بعض الأحيان؛ ولا حرج إذا لم يرفعها من هو متمسك بعقيدة التوحيد بقوة. ولكن المسلمين قد ركزوا على هذا الأمر أكثر من اللازم حتى قطعوا أنامل الذين لم يرفعوا السبابة وقت التشهد.

ثم إنهم اعتقدوا خطأً أن في القرآن الكريم آيات عديدة هي منسوخة (القرطبي: قوله تعالى: ما ننسخ من آية)، ولكن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام جاء فأعلن أنه لا توجد في القرآن الكريم أية آية منسوخة مطلقًا، بل إن كل حرف من القرآن الكريم من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إلى ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ قابلٌ للعمل. (إزالة أوهام (أردو)، الخزائن الروحانية المجلد الثالث ص ١٧٠)، فبدلاً من أن يشكره عليه السلام المسلمون على هذا التعليم العظيم الذي يكشف جمال القرآن وعظمته، أخذوا في معارضته إذ كان متعارضًا مع ما رسخ عندهم من أفكار خاطئة؛ فأثار المشايخ من أقصى الهند إلى أقصاها زوبعة من السباب والشتائم، وأفتوا بكفره وارتداده وإلحاده وقتله. (جريدة "إشاعة السنة النبوية" المجلد ١٤، عدد ١ ص ٥ وعدد ١٠ ص ٢٩٨، والمجلد ١٥ عدد ٧ ص ١٤١)

إذًا، فكل فترة من تاريخ الأنبياء تشهد على صدق قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.. أي كلما جاء قومًا نبيٌّ برسالة فيها حياتهم استهزءوا به وحاولوا القضاء عليه، معرضين عن رسالته.

ويقول الله تعالى بعد ذلك ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.. أي أن هؤلاء قد كذبوا بالحق، فستتحقق أنباؤنا العظيمة عن الأمور التي كانوا يستهزئون بها، وسيعلمون خطورة كفرهم بمحمد رسول الله (ﷺ). وقد قال تعالى هنا إنه سيأتيهم أنباؤنا المتعلقة بالعقاب لأنه سبق عند نهاية سورة الفرقان أن حذّر الكافرين بقوله ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾(الفرقان:٧٨).. أي أن الله تعالى لن يبالي بكم إذا لم تدعوه وتبتهلوا إليه. وهذا يعني أن الكافرين إذا لم

يتوبوا فسوف ينـــزل عليهم العذاب ويدمَّرون. وبما أن الكافرين ظلوا يستهزئون بنبأ العذاب الوارد في آخر سورة الفرقان معرضين عن رسالة محمد ﷺ، فأخبر الله هنا أن أنباءنا بصدد الأمور التي يستهزئون بها ستتحقق الآن وسيعلمون أن ما قال لهم رسولنا كان صدقًا وحقًا.

علمًا أن العلامة أبا البقاء قد قال إن لفظ "النبأ": "لم يرد في القرآن الكريم إلا لما له وقع وشأن عظيم" (كليات أبي البقاء: فصل النون ص ٣٥٤). وبما أنه ليس ثَمّةَ خبر هو أكبر وأعظم من غلبة الإسلام، فإن لفظ ﴿أنباء﴾ الوارد هنا إنما يُعتبر إشارةً إلى تلك الأنباء القرآنية التي تحدثت عن هلاك الكفر وغلبة الإسلام، فظل الكافرون يستهزئون بها مغترّين بقوهم ومنعتهم، ولكن لم تمض أيام حتى رأوا أن العبيد الذين كانوا يجرّونهم في الطرق ويلقون على صدورهم أحجارًا ثقيلة ليقهروهم على عبادة اللات ومناة، قد دخلوا في مكة ممتطين جيادهم وملوّحين برايات الفتح والظفر. فلم يملك عندها صناديد مكة إلا أن يختفوا في بيوتهم أو يفرّوا من مكة. إذًا، فقد تحققت بالفعل أنباء هلاكهم، وانتشر الإسلام في كل شبرٍ من الجزيرة العربية، وقد انتشر اليوم في كل بقاع العالم، ولن يزال في الانتشار والازدهار في المستقبل أيضًا بفضل الله تعالى.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٨
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠

شرح الكلمات:

زوج: الزوج: كلُّ واحد معه آخرُ مِن جنسه. (الأقرب)

التفسير: أي ألم يفكّر هؤلاء القوم كيف أخرج الله تعالى من الأرض أنواع الخضار والثمار وغيرهما؟ ولو أنهم فكروا لعلموا أن الله تعالى فاعلٌ الشيء نفسه في الدين أيضًا حتمًا، وسينعم على الناس بنعم عظيمة تغذّي الروح، وسيُخرج من بين الناس عبادًا روحانيين عظماء ناصحين يواسي بعضهم بعضًا. لا شك أن هؤلاء الكافرين لا يلبّون الآن نداء الله تعالى إلا أن ربك عزيز رحيم، ولا بد أن يهيئ الأسباب لتوطيد حكمه في الدنيا لتنفع رحمته عباده فترة طويلة.

وقول الله تعالى ﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يمثّل إشارة إلى أن النباتات كلها أزواج.. أي بعضها ذَكر وبعضها أنثى، ولقاحهما ينتج الثمار والغلال. ولذلك نجد علماء الزراعة ينصحون بتربية النحل في البساتين لأنها خلال انتقالها مِن شجرة إلى أخرى تأخذ حبوب الطلع المذكرة من الشجر إلى إناثها وتلقحها، فيكثر الثمر. وكان العرب يعلمون هذه الحقيقة عن شجر النخل، فكانوا يقومون بتأبيرها، ولكن النبي ﷺ كان لا يعلم ذلك، رأى ذات مرة بعض المسلمين يؤبّرون النخل، فقال لهم: ماذا تفعلون؟ قالوا: نلقح ذكور النخل بإناثها ليكثر الثمر. فقال ﷺ: ما الفائدة في ذلك؟ إنها ستثمر ما كُتب لكم في كل حال. فتركوا التأبير، فلم يأت الثمر جيدًا. فأتوا النبي ﷺ يشتكون إليه قلة الثمر. قال: ما السبب؟ قالوا: نرى أن ذلك لأنك نهيتنا عن تأبير النخل، فلم نؤبرها. فقال ﷺ: إنما أنا بشر مثلكم، وأنتم أعلم بأمور دنياكم، فافعلوا في أمور دنياكم كما تعلمون (مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً). فثبت بذلك أن النبي ﷺ لم يكن عنده معرفة شخصية بهذا العلم، فأخبره الله تعالى أن النباتات كلها أزواج، بل قال ﷻ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الذاريات:٥٠).. أي ليس الناس وحدهم أزواجًا، بل كل الأشياء من جماد ونبات وحيوان أزواجٌ. إن العلماء قد اكتشفوا اليوم أن المعادن أيضًا أزواج، حيث قرأت في كتاب لأحد العلماء أن "القصدير" (Tin) نوعان: ذكر وأنثى، حيث يتأثر الواحد من الآخر ويتشكلان بشكل آخر؛ ولكن الله تعالى يزيد على ذلك ويقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، وكلمة

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ تشمل النبات والحيوان والجماد وكل ذرة من العالم ومجموعة ذرات العالم. وحيث إن الله تعالى يعلن: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ فهذا يعني أن كل ما سوى الله تعالى زوجان، وأنه من المستحيل أن يأتي شيء ما بنتيجة مرضية بدون زوجه.

وكما أن الله تعالى قد جعل كل شيء في العالم المادي زوجين، كذلك قد جعل الله للروح الإنسانية في العالم الروحاني أيضًا زوجًا، وهو فضل الله ورحمته، فما لم يصحب فضلُ الله الروحَ الإنسانية لن يكون هناك أي نسل روحاني. أتذكر جيدًا رؤيا رأيتها في أيام طفولتي، وهي أنني موجود في مدينة "أمرتسر"، وأن هناك تمثالاً للملكة مصنوعًا من المرمر، قاعدته مرمرية وسُلّمُه أيضًا مرمري. ورأيت على أدراج السلم طفلاً واقفًا في ثياب نظيفة وجميلة جدًّا يبلغ من العمر قرابة ثلاث أو أربع سنوات، وهو يرنو إلى السماء، وأظن في الرؤيا أنه المسيح. وبعد قليل انشقت السماء ورأيت شيئًا يخرج منها ويطير إلى الأرض، وكان ملفقًا في لباس زاهي الألوان، وكانت له أجنحة يطير بها. وفهمت في الرؤيا أن الشيء الطائر هو السيدة مريم. وعندما نــزلت وضعت أجنحتها على الطفل كما تغطي الدجاجة فراخها بأجنحتها، وعندها جرت على لساني الكلمات التالية: Love creats love .. أي أن الحب يخلق الحب (جريدة "الفضل" قاديان ١٥ مارس/أذار ١٩٣٠ ص ٩). وعندما استيقظتُ فهمتُ أن مريم التي رأيتها في شكل الأم هي محبة الله، والمسيح هو إنابة الروح الإنسانية إلى الله تعالى، ذلك لأن إنابة الروح الإنسانية إلى الله تعالى تؤدي إلى ولادة كائن روحاني يحبه الله تعالى كما تحب الأم ولدها. ذلك لأن الله تعالى لا يحب الأجسام وإنما يحب الأرواح، والكائن الروحاني الذي يخصه الله تعالى بحبه يتولد نتيجة الاتصال برحمة الله تعالى، ويكون الله له بمثابة الأم للولد.

هذا هو الدرس الذي يلقّنه الله تعالى الكافرين في هذه الآية حيث يقول ألم ينظروا إلى الأرض كيف خلق الله فيها أزواجًا جميلة، ليدركوا بذلك أن الله تعالى كما خلق لكل شيء في العالم المادي زوجًا كذلك فإن روح الإنسان بحاجة إلى زوج لانكشاف الكفاءات الكامنة فيها، وهذا الزوج هو رحمة الله تعالى. فإذا كان

الكافرون يريدون لهم نسلاً روحانيًا فعليهم أن يتمسكوا بيد رحمة الله التي قد ظهرت لهم في شكل محمد رسول الله، وإلا سيظلّون محرومين من النعم الروحانية التي يوزعها محمد شأنَ المرأة العاقر التي تظلّ محرومة من الأولاد.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ
فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾
وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٤﴾
وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا
بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٦﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا
رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

ذنب: الذَنْب يُستعمل في كل فعلٍ يُستَوخَم عُقباه. (المفردات)

التفسير: بذكر هذه الواقعة قد لفت الله تعالى الأنظار إلى أنه تعالى ما دام قد هيأ الأسباب لهداية قوم فرعون فكيف لا يهيئها لأهل مكة، خاصة وأن إبراهيم كان قد دعا لهم بينما لم يكن لقوم فرعون أي دعاء من قبل أي نبي. والدعاء الذي قام به إبراهيم لأهل مكة هو: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٣٠). فما دام الله تعالى قد بعث موسى عليه السلام لهداية قوم فرعون بدون أي دعاء سابق في حقهم، فلم لا يبعث الله لهداية أهل مكة نبيًا خاصة وهناك هذا الدعاء العظيم في حقهم؟ ثم هناك وعد إلهي لإبراهيم عليه السلام بأنه سيبارك في إسماعيل ويكثّره ويجعله

أمة كبيرة (التكوين ١٧: ٢٠). فلا غرابة في مجيء محمد (ﷺ)، وإنما الغرابة أن لا يهيئ الله تعالى أسباب الهداية لهؤلاء القوم ويذهب دعاء إبراهيم سدى.

ثم نبّه الله تعالى بذكر موسى اليهود أيضًا إذ كانوا يؤمنون بكتاب موسى وكانوا على علم بوجود نبوءة فيه تعلن: "أقيمُ لهم نبيًا مِن وسط إخوهم مثلَك، وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يُطغي فيتكلم باسمي كلامًا لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي" (التثنية ١٨: ١٨-٢٠). ألم يكن لزامًا بحسب هذه النبوءة أن يُبعث بعد موسى في بني إسماعيل إخوةِ بني إسرائيل نبي مثيلٌ لموسى.. أي يكون هو الآخر صاحب شرع جديد مثل موسى؟

هذا، وتؤكد هذه النبوءة أيضًا أن ذلك النبي الموعود كلما يقرأ على الناس كلام الله تعالى يقرأه باسمه تعالى. وبالفعل لا توجد في القرآن الكريم سورة لا تبدأ بسم الله تعالى. إن كل سورة قرآنية تبدأ بقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، الأمر الذي يُدين كلَّ يهودي وكلَّ مسيحي أنه لِمَ لا يصدّق النبيَّ الذي كلما قرأ كلام الله على الناس أعلن - كما أنبأ موسى - أنه يقرأه عليهم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ومع ذلك لا يعاقبه الله تعالى؟

باختصار، قد ذكر الله تعالى هنا موسى عليه السلام تنبيهًا لأهل مكة إلى دعاء إبراهيم لأهلها، وتذكيرًا لليهود والنصارى بالنبوءة الواردة في التوراة، فنصحهم أن يدركوا عظمة ذلك الدعاء وتلك النبوءة، فلا يكفروا بمحمد رسول الله (ﷺ)، كي لا يحل هم غضب الله كما حل بفرعون حين كفر بموسى.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ قومَ فرعونَ﴾ فهو بيان بأن موسى عليه السلام إنما بُعث إلى فرعون لينجي بني إسرائيل من حياة الرق والعبودية، فيقول لفرعونَ أن يسمح لبني إسرائيل بالذهاب معه ولا يحول دون المشيئة الإلهية. وبالفعل لما خرج هم موسى عليه السلام من مصر لم تبق له أية علاقة مع المصريين، بل ارتكز جلّ اهتمامه على بني إسرائيل الذين بُعث لهدايتهم ورقيهم.

كان هؤلاء القوم يعيشون بين المصريين و لم يكن هناك سبيل لتوجيه الخطاب إليهم ونفخ الروح الدينية فيهم بشكل مباشر منفصل عن المصريين، لذا جعل الله تعالى فرعون وقومه أيضًا شركاء في الدعوة التي وجهها موسى عليه السلام إلى قومه، فقام بتبليغ رسالة الله إلى فرعون وقومه بشكل مكثف وأقام عليهم الحجة بآيات عديدة متواترة. ولكن بعد خروج بني إسرائيل من مصر لم تعدْ لموسى عليه السلام أي صلة بالمصريين حيث كان مبعوثًا لهداية بني إسرائيل أساسًا، أما رسولنا ﷺ فلم تنقطع صلة عن أهل مكة بعد هجرته إلى المدينة، بل ظل يسعى لهدايتهم باستمرار، الأمر الذي يشكّل دليلا ساطعًا على سموّ درجته وعلوّ مكانته ﷺ.

أما قوله تعالى ﴿أَلاَ يَتَّقُونَ﴾، فبيّن به أن إقامة التقوى أهمّ هدف من بعثة الأنبياء. ولكن الناس يخطئون عادة فيعدّون الصلاح والتقوى شيئًا واحدًا، مع أن الصلاح يعني ذلك العمل الصالح الذي قد قمنا به أو نقوم، أما التقوى فالمراد منه بلوغ المرء درجة حيث لا يتولد في قلبه إلا مشاعر طاهرة وطيبة، لأن المشاعر منبعها القلب وإن كان ظهورها يتم عبر أعصاب الدماغ.

لم يزل العلماء على مر العصور في نقاش دائم حول منبع الروح الإنسانية، فزعموا أن منبعها الدماغ لا القلب، ولهذا السبب لم يستطيعوا استيعاب حقيقة الروح. مع أن الواقع أن منبع الروح هو القلب كما هو ظاهر من تعاليم الأنبياء ورؤاهم وكشوفهم. بيد أن الدماغ لما كان منبت الأعصاب فهو الذي يشعر بالعلوم القلبية ويستفيد من معارف القلب الخفية؛ ومن أجل ذلك قد اعتبر الله تعالى القلب مكان الحياة لا الدماغ. والظاهر أن الروح ستكون وثيقة الصلة بالعضو الأهم في البدن الإنساني والذي عملُه أبرز من الأعضاء الأخرى، وهو القلب لا الدماغ. فمثلاً لو توقفت حركة القلب لثانية واحدة لمات الإنسان فورًا، ولكن لو حصل عطلٌ في دماغ المرء فلا شك أن علومه تصبح في غطاء لكون الدماغ يدرك العلوم القلبية إلا أنه لا يموت بالضرورة. إذًا، فالدماغ إنما هو بمثابة الخادم، أما القلب فهو المركز الحقيقي الذي يُنــزل الله عليه أنواره.

وسواء أصدّقَ المرء الفلاسفةَ، فاعتبر الدماغ منبع التدبر والفكر والأخلاق الفاضلة، أو اعتبر القلبَ هو منبع العقل والمعرفة وأن لا علاقة للدماغ بنشوء العلوم والمعارف، فاستعمل لفظ المشاعر والأفكار بدلاً من القلب والدماغ، إلا أنه لا بد له في كل حال من تطهير شيئين: أوّلهما الأفكار، وثانيهما المشاعر اللطيفة. وتطهير الأفكار - الذي يسمَّى التنوير بالعربية - يتم بطهارة الدماغ. والمراد من التنوير أن يتولد في المرء نور يؤدي إلى نشوء الأفكار الصحيحة فيه دائمًا. وكما أن الصحة نوعان: أحدهما أن يكون المرء معافى من المرض الآن، والثاني أن يظل معافى من المرض في المستقبل أيضًا، كذلك فإن التنوير اسم لذلك الإصلاح الذي يؤدي إلى نشوء الأفكار السليمة في المستقبل دائمًا. ومفهوم التنوير بالنسبة إلى الدماغ، هو نفسه مفهوم التقوى بالنسبة للقلب.. أي كما أن تولُّد الفكرة الصحيحة في بعض الأحيان لا يعني التنوير، وإنما التنوير أن تنشأ عند المرء ملَكةٌ بحيث لا تتولد فيه إلا الأفكار السليمة دائمًا، كذلك فإن التقوى ليس اسمًا لقيام المرء بعمل حسن واحد أو أكثر، بل المراد منه بلوغ المرء درجة بحيث لا تتولد فيه إلا المشاعر الطيبة الطاهرة. وهذا المعنى يدعمه ذلك الحديث الذي قال فيه النبي ﷺ: إن شيطاني قد أسلمَ (مسلم: كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان).. أي لا تتولد في قلبي إلا أفكار طيبة طاهرة.

مجمل القول إن لفظ "التنوير" يُستعمل للأفكار ولفظ "التقوى" للعواطف والمشاعر، ولا يكون المرء في مأمن من السيئة إلا إذا تيسر له تنوير الأفكار وتقوى القلب. وقد بين الله تعالى بقوله ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ أن موسى جاء قوم فرعون برسالة تقوى الله، وكانت الغاية العظمى من بعثته أن يصلحهم من خلال الدعاء والتبليغ والوعظ إصلاحًا لا يقوّم أفكارهم ومشاعرهم فقط، بل يولّد فيهم ملَكةً بحيث لا تنشأ في دماغهم بعد ذلك إلا الأفكار الطاهرة، ولا في قلوبهم إلا المشاعر الطيبة. وهذا هو الأمر الذي لم يزل الأنبياء كلهم يركّزون عليه، وقد ركّز عليه الإسلام تركيزًا كبيرًا، لأن المعارف الروحانية تنــزل من عند الله على القلوب، وإذا لم يكن قلب المرء طاهرًا ظل محرومًا من الفيوض الربانية.

ولما أمر الله تعالى موسى ﷺ بالذهاب إلى فرعون قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.. وهذا لا يعني أنه ﷺ كان يجهل أن الناس منذ القدم يكفرون بمن يبعثه الله إليهم، بل المعنى أنه ﷺ كان يعلم أن جميع الأمم التي كفرت برسلها قد هلكت، فخاف أن يكفروا به ويقعوا تحت طائلة العقاب الإلهي، وهذا الأمر يسبب لأنبياء الله أذى شديدًا. إذًا فموسى ﷺ إنما عبّر عن هذه المخاوف نظرًا إلى قوة فرعون ومظالمه، فرأى أن فرعون طاغية متكبر وسيكذّبني، وسيلقى حتمًا المصير الذي لقيه منكرو الأنبياء دائمًا.

وهذا المعنى يدعمه الجزء التالي من الآية حيث قال موسى ﷺ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ حيث أُشير إلى مدى الحب الذي كان يكنّه موسى ﷺ للقوم، فبين أنه يضيق ذرعًا برؤية كفر وفسوق هؤلاء الناس، وأن نفَسه ينقبض حين يفكر أنهم سيرفضون رسالة الله وهدايته وبالتالي سيستوجبون العذاب.

بيد أننا نجد هناك فرقًا كبيرًا بين النبي ﷺ وموسى بهذا الصدد، وذلك أن موسى ﷺ قال: ﴿رَبِّ إني أخافُ أن يُكَذِّبُونِ﴾، بينما قال الله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالمينَ بآيَاتِ اللَّه يَجْحَدُونَ﴾(الأنعام:٣٤)، حيث بين الله تعالى أن محمدًا (ﷺ) لم يكن يخاف تكذيب القوم له، وإنما كان قلقًا لأنهم سيكذبون آيات الله تعالى. وهذا يعني أن حزنه لم يكن من أجل نفسه وإنما لأن القوم يكفرون بالله تعالى؛ وهناك بون شاسع بين الأمرين كما لا يخفى على أحد، إذ كان موسى ﷺ يخاف تكذيب القوم له، أما النبي ﷺ فكان يحزنه إنكار القوم لأمر الله تعالى.

ثم هناك أمر آخر جدير بالانتباه، وهو أن موسى ﷺ كان يحب قومه حبًّا محدودًا حيث كان كفرهم يسبب له ضيق الصدر، أما النبي ﷺ فكان كفرُ قومه يؤلمه لدرجة أنه كاد يُهلك نفسه حزنًا عليهم حيث قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:٤).. أي أن كفرهم يسبب لرسولنا ألَمًا كاد يجعله يضع السيف على رقبته ويقطعها حتى القفا. وإذا كان ﷺ يحزن بهذه الشدة على عدم إيمانهم فقط، فما بالك بحزنه وأساه لو ماتوا على الكفر. فإن الذي يحزن

على عدم إيمان القوم بهذا الشكل فكم بالحري أن تشتد صدمته إذا علم أنهم قد ماتوا على كفرهم؟

ومن المستغرب حقًا أن نرى الناس يضحّون دائمًا بالصغير الرخيص من أجل الكبير الغالي، بينما نجد الله تعالى أنه لم يزل يضحي بعباده الذين كانوا كالجواهر الكريمة الغالية الثمن من أجل الإنسانية الضعيفة. لقد كان آدم عليه السلام أغلى جوهرة في عصره، ولكن الله تعالى قد ضحى به من أجل عباد ضعفاء ساندوا الشيطان. وكان نوح عليه السلام أفضل إنسان في زمنه، ولكن الله تعالى قد ضحى به من أجل أشقياء رفضوا الهدى. وكان إبراهيم عليه السلام أغلى كائن في زمنه، ولكن الله تعالى ألقاه في المحنة والبلاء من أجل إنقاذ أناس ناقصين. وكان موسى عليه السلام أغلى إنسان في زمنه، ولكن الله تعالى ضحى به من أجل بني إسرائيل الجبناء الذين تعاموا رغم رؤية آيات الله فقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥). وكان عيسى عليه السلام أغلى كائن في زمنه، ولكن الله تعالى ضحى به من أجل قوم ناداهم عيسى نفسه بقوله: "أيها الحيّاتُ أولاد الأفاعي" (متى ٢٣: ٣٣). ومن ذا الذي جاء إلى الدنيا وكان أطهر وأسمى وأغلى من محمد رسول الله ﷺ الذي قد خُلق الكون من أجله حيث قال الله عز وجل له في حديث قدسي: "لولاك لما خلقتُ الأفلاكَ" (روح المعاني للألوسي)، ومع ذلك قد عُلّق هذا الإنسان على صليب لم يره الناس، من أجل هداية وخير أبي جهل وعتبة وشيبة، ولكن الله تعالى لا تخفى عليه خافية فكان يراه معلقًا على ذلك الصليب فقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.. أي لعلك، يا محمد، ستذبح نفسك حتى القفا بسكّين الهم والحزن لأنهم لا يؤمنون؟

إذًا، فلا شك أن جميع الأنبياء قد أحبّوا أممهم وضحّوا من أجلهم كثيرًا، وكل واحد منهم قد أحزنه كفر قومه ونفاقهم، ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين محمد ﷺ وغيره من الأنبياء، إذ كانوا يضيقون ذرعًا برؤية كفر أممهم، وأما محمد ﷺ فكان يحزن برؤية كفر قومه بحيث يكاد يُهلك نفسه.

ثم إن موسى عليه السلام يقول هنا: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، ولكن الرسول ﷺ لما أُمر بتبليغ رسالة الله أخبر زوجته بدون تأخير، ثم أخبر قومه جميعًا، و لم يقل: رب إني أخاف أن يكذّبون، بل لبى نداء الله بشجاعة و لم يبد خوفًا ولا وجلا. وهذا الأمر دليل على أن محمدًا ﷺ أعظم درجة بكثير من موسى عليه السلام.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾. وقال أيضًا كما ورد في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾(القصص: ٣٥).. ولكن من عجائب قدرة الله تعالى أن موسى عليه السلام الذي كان يخاف أن لن يقدر على الكلام أمام فرعون، لم يدَعْ هارونَ يتكلم بجملة واحدة أمامه، بل أجاب بنفسه على أسئلته كلها. وإن كلمة: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾ تدل على أن موسى كان فصيح اللسان بكل تأكيد، و لم يكن بلسانه أي عيب كما ظن بعض المفسرين القدماء (الرازي)، بيد أنه كان يرى أنه أقل فصاحة من هارون - عليهما السلام. ولكن لما فوّض الله إلى موسى أمر الرسالة فذهب إلى بلاط فرعون فإن قوة فصاحته وبراهينه بهرت فرعون وألقته في ورطة، ففكر أنه لا بد الآن من عقد مناظرة جماعية يساعده فيها الآخرون إزاء موسى وإلا فإنه سيُضِلّ الناس جميعًا.

ولقد رأينا في جماعتنا أيضًا أن كل من ينضم إليها بإخلاص ينطلق لسانه وإن كان من قبل أُمّيًا لا يعلم شيئًا، فيهابه كبار المشايخ أيضًا ويهربون من نقاشه. إنه يزداد ذكاء من ذي قبل، وإن قدرته على النقاش تزيد بشكل مذهل، مما يكشف جليًا أن علمه ليس علمًا ذاتيًا، إنما هو موهبة وعطاء من الله تعالى الذي يؤيده في كل موطن ويلهمه عند الحاجة ما يحير العقول.

كان في قاديان شخص يدعى "پيرا"، وكان خادمًا للمسيح الموعود عليه السلام. كان شخصًا بليدًا جدًّا بحيث كان من المتعذر عليه أن يفهم ما هي الأحمدية، ولكنه كان يحبّ المسيح الموعود عليه السلام حبًّا جمًّا. كان من سكّان الجبال، فأُصيب بداء الروماتزم، فقيل لأقاربه أنه لن يشفى في هذه المنطقة الجبلية الباردة، فليذهبوا به إلى بعض مناطق السهول الحارة. فجاء به أهله إلى مدينة "غورداسبور". ولكنهم كانوا فقراء، فلم يرض أحد من الأطباء بأن يعطيه الدواء ويطعمه أيضًا. فقيل لهم: هناك

في قاديان شخص من أهل الله تعالى، وهو طبيب أيضًا، فليذهبوا به إليه، فإنه سيتولى علاجه وطعامه أيضًا. فجاءوا به إلى سيدنا المسيح الموعود ؑ وتركوه عنده وانسلّوا عائدين إلى وطنهم. فبدأ علاجه، فتماثل للشفاء شيئًا فشيئًا. وعلم أهله أنه قد شُفي وأصبح قادرًا على العمل، فجاءوا قاديان في فصل الشتاء التالي وحاولوا إقناعه أن يرجع معهم. ولكن قلب الرجل كان عامرًا بالخير على ما يبدو، فأجابهم: لا شك أنكم أهلي، ولكنكم تركتموني عند هذا الرجل وفررتم، فليس لي قريب الآن إلا الذي قام بعلاجي، ولا أستطيع تركه.

فكان هذا الرجل يقضي النهار مستلقيًا في باحة دار المسيح الموعود ؑ، ويقوم ببعض أعمال البيت البسيطة، فمثلاً إذا جاء ضيف قدم له الطعام. وكان بليدًا لدرجة أن الخليفة الأول ؓ كان ينصحه كثيرًا بأن يصلي ولكنه كان يجيبه دائمًا: لا أعرف كيف أصلي. وكان حضرته ؓ يقول: سيعترض القوم على المسيح الموعود ؑ بسبب هذا الرجل الذي يقضي النهار مستلقيًا على السرير أمام بيته ؑ ولا يصلي، ولذلك كان متحمسًا جدًّا لإصلاحه، وكان ينصحه مرة بعد أخرى بأداء الصلاة، ولكنه كان يجيبه دائمًا: أنا لا أعلم الصلاة. وفي الأخير قال له حضرته: إذا كنت لا تعلم الصلاة، فيمكنك أن تردد في الصلاة: سبحان الله، سبحان الله. فكان الرجل بعد ذلك يقف مع المصلين في كل أسبوع مرة، ويردد في صلاته: سبحان الله، سبحان الله. وظن الخليفة الأول ؓ أنه لو أغراه بالجائزة فلربما يواظب على الصلاة، فقال له ذات يوم: لو أديت الصلوات الخمس كلها في اليوم ولو مرة واحدة لأعطيتك روبيتين. وكان هذا المبلغ جائزة كبيرة له في ذلك الزمن، فقال: سأصلّي اليوم كل الصلوات. وربما بدأ بصلاة العشاء، ثم صلى الفجر ببالغ الصعوبة، واشترك في صلاتي الظهر والعصر أيضًا، وبقي عليه أن يصلي المغرب فقط. ولما كان عدد الضيوف الذين يأتون المسيح الموعود ؑ في تلك الأيام قليلا، فكان طعامهم يُعّد في بيتنا، ويقدَّم لهم بعد صلاة المغرب. وتصادف أن صلاة المغرب أُخرّت في ذلك اليوم قليلاً، وحان وقت تقديم الطعام للضيوف. وكانت في البيت خادمة تحمل الطعام إلى "پيرا" ليقدمه للضيوف، فنادته من داخل

البيت بأن الطعام جاهز، فتعال وخُذْه إلى الضيوف، إذ كانت لا تعرف أن "پيرا" غير موجود في باحة البيت كالمعتاد، بل ذهب يصلي مع الناس في المسجد*، فنادته ثلاث أو أربع مرات، ولكن لا مجيب لمن تنادي. فهدّدته بصوت عال وقالت: تعال يا "پيرا" خُذ الطعام وإلا سأشكوك إلى أهل البيت. فسمع "پيرا" صوتها العالي هذه المرة، فأجابها وهو يصلي: "انتظري قليلاً، فسآتيك بعد الانتهاء من التشهد." أي أنه تكلم وهو في قعدة التشهد من الصلاة، وبالتالي قد حُرم من جائزة الروبيتين. إذًا فكان المسكين غاية في البلادة حتى إنه كان يضيف زيت الكيروسين إلى طعامه مكان زيت الطعام ثم يأكله ليضحك الضيوف، وإذا قيل له: لماذا وضعت الكيروسين في الطعام؟ قال: ما الحرج في ذلك، فكلاهما زيت.

لم يكن في تلك الأيام مكتب للرسائل البرقية في قاديان و لم تكن السكة الحديدية للقطار قد مُدّت إليها بعد، وكلما احتاج المسيح الموعود عليه السلام إلى إرسال رسالة برقية أو إلى استلام طرد بعث شخصًا إلى محطة القطار بمدينة "بطالة"، وكان يبعث "پيرا" لهذا الغرض أحيانًا. وكان المولوي محمد حسين البطالوي - الذي كان من أشد الناس عداء لجماعتنا - يذهب إلى محطة القطار بمدينة "بطالة"، وكلما رأى شخصًا غريبًا ينـــزل من القطار أسرع إليه وسأله: أين تريد أن تذهب؟ وإذا علم أنه ينوي الذهاب إلى قاديان حاول إغواءه وقال: ارجِعْ إلى حيث جئت لأنك ستضيع إيمانك لو ذهبت إلى هناك. وفي أحد الأيام لم يجد البطالوي على المحطة شخصًا آخر، فتوجه إلى "پيرا" الذي كان قد ذهب هناك لإرسال رسالة برقية أو لاستلام طرد، فقال له: إن الميرزا (أي المسيح الموعود عليه السلام) كافر ودجال، فلماذا تضيع إيمانك يا "پيرا"، وتدمّر عاقبتك باتّباعه؟ وظل "پيرا" منصتًا إلى حديثه بدون أن يتكلم بشيء. فلما أخرج البطالوي كل ما في جعبته وظن أن "پيرا" قد اقتنع بكلامه، قال له: ما رأيك فيما قلتُ؟ فأجابه: أيها الشيخ، إني رجل جاهل لا أعلم

* علمًا أن المسجد ملاصق بدار المسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

شيئًا ولا أفهم هذه المسائل، غير أن هناك أمرًا أستطيع أن أفهمه، وهو أنني منذ سنوات كثيرة آتي إلى هذه المحطة لاستلام الطرود وإرسال الرسائل البرقية، وأراك تأتي هنا دائمًا لتحاول منع الناس من الذهاب إلى قاديان، وربما قد استهلكت أحذية كثيرة في الذهاب والإياب، ومع ذلك لم يتأثر أحد بوعظك، وأما حضرة الميرزا فهو جالس في قاديان ومع ذلك ينجذب إليه الناس انجذابًا؛ ولا بد أن هناك سببًا وراء هذا الفرق بينك وبين حضرته.

فكم هو لطيف وصحيح هذا الجواب. الواقع أن "پيرا" كان أكثر غباء من أن يفهم المسائل الدينية، وكان لا يدري الأدلة والبراهين، ولكنه بسبب حبه الطبيعي للمسيح الموعود عليه السلام أدرك على التو أن الشيخ البطالوي كاذب حتمًا.

إذًا، فإن الله تعالى يعلّم عباده أحيانًا ما يحير العقول؛ ذلك لأن الله تعالى يملك كل شيء، وكل ما يفتقر إليه المرء موجود عنده تعالى. فإذا أعوزه الذكاء فهو موجود عند الله، وإذا نقصته الشجاعة أو السخاء أو الصحة أو العزة أو المال، فعند الله خزائنها، وإنه تعالى يهب عباده من هذه الخزائن بشكل مذهل.

كان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول: لقد رأينا أثناء المناظرة التي تمت بين المسيح الموعود عليه السلام وبين القسيس "آتم" مشهدًا أذهلنا ورفع إيماننا إلى السماء. فإن القسيسين لما عجزوا في المناظرة ورأوا أنهم لا تنفعهم حيلة تجاه حضرته عليه السلام، مكروا مكرًا بمساعدة بعض المسلمين ليستهزئوا به عليه السلام، فأحضروا في أحد الأيام بعض الصمّ والعُمي والعُرج قبل موعد المناظرة وأخفوهم هناك، ولما حضر المسيح الموعود عليه السلام قدّموهم إليه فجأة وقالوا: إن هذا النـــزاع لن يُحسَم بالنقاشات؛ إنك تدعي بأنك مثيل للمسيح الناصري، وكان المسيح يهب البصر للعُمي والسمع للصُمّ وقوة المشي للعُرج؛ وقد أحضرنا كل هؤلاء لكي لا تتعب في البحث عنهم، فإذا كنت مثيلاً للمسيح الناصري حقًّا فاشفِ هؤلاء القوم؟ يقول حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه لما سمعنا كلام القسيسين وجلت قلوبنا وخارت قوانا. كنا نعلم أنه كلام فارغ، ولكن خشينا شماتة الأعداء واستهزاءهم. فلما نظرنا إلى المسيح الموعود عليه السلام لم نجد على وجهه أي آثار للقلق أو الضيق، بل لما فرغ القسيسون من كلامهم قال لهم بكل

هدوء: إن المسيح الذي أدّعي بأني مثيل له لم يكن، بحسب تعليم الإسلام، يشفي العمي والصم والعرج الماديين، وإنما أنتم الذين تعتقدون بأن المسيح كان يشفي العمي والصم والعرج الماديين؛ وقد ورد في كتابكم أيضًا أنه لو كان فيكم إيمانٌ مثلُ حبّةِ خردلٍ لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقِلْ من هنا إلى هناك فينتقل، وتضعون أيديكم على المرضى فيبرَؤون (متى ١٧: ٢٠ ولوقا ١٧: ٦ ومرقس ١٦: ١٨)؛ فلا يحق لكم أن تطالبوني بهذا، لأني لا أستطيع أن أُري أية معجزات إلا كالتي أراها سيدي محمد المصطفى ﷺ، ولو طالبتموني بها فإني مستعد لأريكم إياها. أما المعجزات التي تقولون أن المسيح قد أراها فإن كتابكم يعلن أن كل مسيحي فيه حبة خردل من الإيمان قادرٌ على أن يُريها؛ وقد أحسنتم صنعًا إذ وفّرتم علينا تعب البحث عن العُمي والصم والعرج، فاشفوهم إن كان فيكم مثقال حبة خردل من الإيمان. ويروي الخليفة الأول ﷺ أن هذا الجواب بهت أولئك القسيسين الكبار، فأخذوا يُبعدون العُميَ والصمّ والعرج عن أنفسهم. (جنگ مقدس، الخزائن الروحانية المجلد ٦ ص ١٥٠-١٥٦)

إذًا، فإن الله تعالى يُكرم مقرّبيه في كل موطن، ويلهمهم من الأجوبة ما يبهت الأعداء تمامًا.

وذات مرة جاء قاديان قسيسٌ أمريكي شهير اسمه زويمر، وكان يحرر جريدة تبشيرية كبيرة، وكان من أبرز الشخصيات في المنظمات التبشيرية المسيحية في العالم أجمع. كان قد سمع عن قاديان، فلما جاء لزيارة الهند وفرغ من زيارة شتى المدن والأماكن أتى قاديان بصحبة قسيس آخر اسمه غاردن (Garden). وكان المرحوم الدكتور خليفة رشيد الدين حيًّا عندها، فأراه جميع الأماكن الهامة في قاديان. ولم يكن في قاديان في تلك الأيام أي بلدية ولا مكتب لها تهتمّ بنظافة القرية، فكانت القمامة مرمية هنا وهناك في الشوارع. والقسيس قسيسٌ في كل حال إذ لا يترك فرصة للطعن تنفلت من يده، فقال القسيس زويمر للخليفة رشيد الدين ساخرًا: لقد رأينا قاديان ورأينا نظافة قرية المسيح الجديد أيضًا! فأجابه ضاحكًا: جنابَ القسيس المحترم، لم تخضع الهند لحكم المسيح الجديد بعد، بل لا تزال خاضعة لحكم المسيح

الأول°، وإن ما تراه إنما هو نموذج نظافة المسيح الأول في الواقع. فتعرَّضَ القسيس لندم وخزي شديدين.

ثم بعث إليّ القسيس بأنه يريد مقابلتي. وكنت عليلا بعض الشيء، فأرسلت إليه أن يخبرني عن هدف لقائه. فقال إنه يريد أن يوجه إلي بعض الأسئلة، ولكنه لا يريد أن يخبرني بها قبل اللقاء. فدعوته للمقابلة، فجاء مع القسيس غاردن وشخص أو شخصين آخرين. فقال: أريد أن أسألك بعض الأسئلة؟ قلت: تفضّل. قال: ماذا رأي الإسلام عن التناسخ؟ هل يُقرّه أو يرفضه؟ وما إن وجه إلي السؤال حتى ألقى الله في روعي أنه يقصد في الحقيقة أنكم تؤمنون أن المسيح الموعود هو بروز ومثيل للمسيح الناصري، وهذا يعني أن روح المسيح الناصري قد حلت به، وإذا كان هذا هو المراد من البروز فهذا هو التناسخ بعينه، والتناسخ يتنافى مع القرآن الكريم. فقلت له متبسمًا: لقد فهمتَ الأمر خطأ، فإننا لا نقول بأن روح المسيح الناصري قد حلت في مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليهما السلام، وإنما نسمّيه مثيلاً للمسيح من حيث إنه قد جاء متخلقًا بمثل أخلاق المسيح مصطبغًا بمثل روحانيته. فتغيّر لون القسيس من جوابي وقال: من ذا الذي أخبرك أنني كنت أريد أن أوجه إليك هذا السؤال؟ فقلت له: ولكن أخبِرْني أنت: ألم يكن هذا هو قصدك من وراء السؤال؟ قال: نعم، هذا ما كنت أقصد، إذ كنتُ أتساءل: إن القرآن الكريم يخالف عقيدة التناسخ، فكيف يسمي الأحمديون مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية مسيحًا موعودًا.

ثم قلت له: تفضل بسؤالك الثاني. فقال: أين يجب أن يُبعث النبي؟ أي أين يجب بعثته حتى يقوم بمهمته على ما يرام؟ وبمجرد أن تفوه بسؤاله هذا حتى ألقى الله في روعي ثانية أنه يريد أن يقول إن قاديان قرية صغيرة، فكيف يمكن أن تكون مركزًا للعالم كله، وكيف يمكن دعوة الدنيا كلها من هذه القرية الصغيرة النائية؟ إذا كان

° يعني أن الهند خاضعة لحكم الإنجليز الذين هم أتباع المسيح الناصري عليه السلام. (المترجم)

هدف بعثة مؤسس الجماعة تبليغ دعوة الإسلام في العالم كله، فكان ينبغي أن يُبعث في مكان يصل منه صوته إلى أنحاء المعمورة كلها، لا في قاديان التي هي قرية صغيرة. فقلت له متبسمًا: حضرة القسيس، النبي يمكن أن يُبعث في أي قرية مثل الناصرة أو أكبر منها. لقد بُعث المسيح الناصري الطَّيْكِلاَ في قرية اسمها الناصرة التي لم يكن بها وقتئذ أكثر من عشرة أو اثني عشر أسرة. فامتُقع القسيس بجوابي مرة أخرى حيث أجبته على السؤال الحقيقي الذي كان يخفيه وراء كلماته.

ثم سألني سؤالاً ثالثًا لا أحفظه الآن. على كل حال، لقد وجه إلي ثلاثة أسئلة، وقد أخبرني الله تعالى في كل مرة عن قصده الحقيقي من وراء السؤال الذي كان يوجهه بأسلوب ملتوٍ. فثبت أن الله تعالى يتصرف على قلوب عباده بشكل غريب لينصرهم، وهذا التصرف إنما يتأتى من عند الله تعالى وليس من قبل الناس. فذات مرة قابلني شيخ مجادل وقال لي: ائتِني بدليل واحد على صدق مؤسس الجماعة؟ فقلت له: إن القرآن الكريم كله يشكل دليلاً على صدقه الطَّيْكِلاَ. قال: أخبرْني أية آية تدل على صدقه؟ قلت: كل آية قرآنية. ولا شك أن كل آية قرآنية يمكن أن تشكل بطريق أو بآخر برهانًا على صدق نبي، ولكن بعض الآيات القرآنية يصعب شرحها للآخرين حتى يعرفوا كيف أنها تشكل دليلاً على صدق نبي. لنفترض أن هناك آية تتحدث عن القتال، فبرغم إمكانية الاستدلال بها على صدق نبي، إلا أن ذلك الدليل أسمى من أن يستوعبه عامة الناس؛ غير أنني كنت على يقين بأن الله تعالى سيتصرف على لسان هذا الشيخ بحيث إنه لن يشير إلا إلى آية تدل حتمًا على صدق المسيح الموعود الطَّيْكِلاَ دلالة واضحة. فظل الشيخ يصر عليّ أن أخبره عن آية قرآنية واحدة، بينما أقول له: يمكنك أن تقرأ أي آية وستجد فيها صدقه الطَّيْكِلاَ. وفي الأخير قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:٩). فأيقنت أن الله تعالى هو الذي قد تصرف على لسان هذا الشيخ فجعله يقرأ هذه الآية، لأنه كان قد سألني من قبل: ما دام المسلمون يصلّون ويصومون ويحجّون، ويؤمنون بالله ورسوله، فأي حاجة بهم إلى نبي؟ فقلت له: عمن تتحدث هذه الآية؟ قال: عن المسلمين. قلت: إذًا فإنها تعلن أن بعض المسلمين

أيضًا يفسدون حيث يقولون بأفواههم إنهم مؤمنون، ولكنهم ليسوا بمؤمنين في الحقيقة؛ والقرآن يبين أنه لا يكفي المرء قوله بلسانه إنه مؤمن ما لم يؤكد إيمانَه بعمله. فإذا كان المسلمون يمكن أن يفسدوا أفلا يبعث الله تعالى لإصلاحهم نبيًا؟

لا شك أن الله تعالى هو الذي يهب الإنسان الاقتناع والاطمئنان، إلا أن قولي هذا أفحم الشيخ، فلم يستطع الجواب. وكنت موقنًا من قبل أنه لن يقدم أمامي إلا تلك الآية التي تفحمه.

إذًا فإن العلم والشجاعة والعزة والقوة كلها بيد الله تعالى. ولذلك نجد أن موسى عليه السلام ظن أنه لن يستطيع الكلام في بلاط فرعون، ولكن لما حان وقت الكلام أيّده الله تأييدًا أذهل فرعون، فلم يملك إلا أن يقبل الهزيمة أمام موسى عليه السلام في مجال الأدلة والبراهين.

وأما قول موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ فليس معناه أن لا يبعثه الله رسولاً ويبعث هارون مكانه، وإنما المعنى أنه توسل إلى الله بأن يوحي إلى هارون أيضًا ويرسله معه مساعدًا، كما هو واضح من قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَاجْعَلْ لِّي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾(الآيات ٣٠-٣٣).

الواقع أن الله تعالى عندما يشرّف أحدًا من عباده الأطهار بالنبوة فإنه يصاب بالقلق والذعر بسبب تواضعه، مخافة أن لا يقدر على حمل هذه المسؤولية الجسيمة كما ينبغي، ويقصّر في أداء مهمته. وهذا هو دأب جميع الأنبياء وهذا هو المسلك الذي سلكه موسى عليه السلام أيضًا، فتوسل إلى الله تعالى أن يبعث هارون أيضًا معه. وتؤكد الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضًا تواضعَ عند بدء الوحي، فعندما قال له الملاك: "اقرأْ" أجاب: "ما أنا بقارئ" (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي).. أي لست من الأناس المثقفين، فكيف أقوم بهذه المهمة الصعبة؟ ومن أجل ذلك قد قضى النبي صلى الله عليه وسلم الأيام الأولى من الوحي في اضطراب شديد، حتى إذا تواتر التأييد الإلهي أدرك أن من واجبه الآن أن يمضي قدمًا غير خائف ولا هياب.

بيد أن النبي ﷺ لما كان أكثر عرفانًا بالله تعالى من موسى ، فلم يطلب مساعدًا ولا وزيرًا، بل تقدم وحمل هذا العبء الثقيل وحده، مع أن مهمته ﷺ كانت أكبر وأعظم من مهمة موسى . فقد بُعث موسى إلى أمة متمدنة، وإن تعليم الأناس المتمدنين علوم الدين وإقامة النظام بينهم ونفخ روح الجماعة فيهم أمرٌ سهل نسبيًا، ولكن الرسول ﷺ قد بُعث في قوم كانوا لا يعرفون ما التمدن وما التحضر، بل كانوا يعتبرون الطاعة التي هي شعار الأمم المتمدنة ذلاً وضيمًا. فقد ورد في الكتب الأدبية العربية أن ملِكًا عربيًا اسمه عمرو بن هند كان يحكم منطقة في الجزيزة العربية ناحية العراق والشام، وقد بلغ أوج العز والمنعة بالنسبة للعرب، حتى ظن أن كل العرب يطيعونه. فقال لحاشيته ذات يوم: أتعلمون أحدًا من العرب يأبى الطاعة لي؟ كان يدرك جيدًا أن العرب أُمّة أبيّة لا تعرف الطاعة والانقياد، ولكنه ظن أنه قد نال من القوة والهيبة بحيث لن يرفض أحد منهم الخضوع له. فقيل له: نعم، هناك شخص واحد على الأقل لن ينقاد لك واسمه عمرو بن كلثوم، وهو سيد قبيلته. قال: حسنًا، سأدعوه للتأكد من ذلك. فأرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره لأنه مشتاق لرؤيته، وأن يُحضر معه أُمّه وأفرادًا من قبيلته. وكان الملك عندها مقيمًا في رُواقه خارج المدينة، فحضر عمرو بن كلثوم مع أصحابه، وضرب خيامه قريبًا من خيام الملك. وكان الملك قد أغرى أُمّه أن تستخدم أم عمرو في قضاء أمر على مائدة الطعام لاختبار إبائها وحميّتها. ورغم أنه كان ملكًا إلا أن أُمّه أخذت تخدم ابنها والضيوف على مائدة الطعام على عادة العرب، وهذا يعني أنها أصبحت خادمة لعمرو بن كلثوم ولأمه وأقاربه، ولو ساعدتها أم عمرو في حاجة ما على المائدة لم يكن في ذلك ما ينال من عزتها وكرامتها. ولكن ما حدث هو أنه فيما كان الجميع يتناولون الطعام قالت أمُّ الملك لأمِّ عمرو ناوِليني الطبق، و لم تستطع أن تطلب منها أي مساعدة أكثر من هذا. فأخذت أم عمرو بن كلثوم تصرخ وتستغيث قائلة: يا ويلَ أُمِّ عمرو بن كلثوم! وكان عمرو حينذاك يتناول الطعام مع الملك، وكان قد ترك سيفه في خيمته تكريمًا للملك، فلما سمع صراخ أمه لم يسألها عن سبب الصراخ، بل قام فزعًا ونظر في الخيمة، فوجد سيف الملك معلقًا

هناك، فخطفه وقتل به الملكَ. ثم خرج من الخيمة وأمر قبيلته بالسلب والنهب، ثم عاد إلى وطنه بالغنائم. (تاريخ الأدب العربي للزيات ص ٦٤، والشعر والشعراء المجلد الأول، عمرو بن كلثوم ص ١٥٧)

فإلى مثل هؤلاء القوم الهمجيين الوحشيين والمنحرفين قد بُعث النبي ﷺ.

ثم لم يُبعث النبي ﷺ لهداية أمة واحدة مثل موسى الطَّيِّلاً الذي جاء لهداية بني إسرائيل فقط، بل قد حُمِّل ﷺ مسؤولية جمع العالم كله على دين واحد وإحضارهم إلى العتبة الإلهية. ورغم هذه المسؤولية الكبيرة لم يسأل النبي ﷺ ربه بأن يجعل له وزيرًا من أهله أو معارفه، بل قام ولبى نداء الله وبدأ العمل. وهذا يعني أن موسى الطَّيِّلاً لم يكن واثقًا بنفسه لحمل المسؤولية وحده، فطلب مساعدًا. لا جرم أن مساعدًا واحدًا لا يغني المرء عن جماعة من الناس إلا أنه إذا وجد مساعدًا بجنبه ارتفعت معنوياته وقال في نفسه إنه ليس وحيدًا بل هناك صاحب له. ولكن محمدًا رسول الله ﷺ لم يبال بكونه وحيدًا، و لم يكترث بما ستعامله به الدنيا.

على أية حال، توسّل موسى الطَّيِّلاً إلى الله تعالى أن يبعث أخاه هارون معه كمساعد، فقبل الله طلبه. ولكن موسى الطَّيِّلاً الذي كان يعتذر إلى الله تعالى بعدم انطلاق لسانه، عندما ذهب إلى بلاط فرعون شحنه الله تعالى بقوة البيان، فظل يرد على كل سؤال أثاره فرعون دون أن يستعين بهارون الطَّيِّلاً. وهذا يماثل حادثًا وقع عند وفاة النبي ﷺ، فإن الأنصار والمهاجرين لما اختلفوا في أمر خلافته ﷺ ذهب أبو بكر وعمر إلى سقيفة بين ساعدة، ويروي عمر قائلا: كنت قد أعددت في نفسي كلمة لهذه المناسبة لإقناع الأنصار بصحة موقفي، ليختاروا الخليفة من المهاجرين بدلاً من الأنصار. ولما حضرنا قام أبو بكر خطيبًا، فقلت في نفسي: ماذا يمكن لهذا الرجل أن يقول؟ ولكنه، والله، قد ذكر كل ما أعددته في نفسي بل زاد عليه، فعلمتُ أني ما كنت لأسبقه أبدًا (صحيح البخاري: كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، ومسند أحمد: حديث السقيفة، والبداية والنهاية للدمشقي: الجزء الخامس، فصل في ذكر أمور مهمة وقعت بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه، قصة سقيفة بني ساعدة). كذلك تمامًا ظن موسى الطَّيِّلاً أنه لن يستطيع الكلام في بلاط فرعون، ولكنه لما وصل هناك أيده الله تعالى

بشكل مذهل لم تكن بعده حاجة أن يتكلم هارون بكلمة واحدة، وهكذا كشف الله تعالى للناس عظمة اختياره لموسى ﵇.

بعدها قدّم موسى ﵇ إلى الله تعالى عذرًا آخر فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.. أي أنهم يتهمونني بارتكاب ذنب فأخاف أن يقتلوني. وهذا لا يعني أن موسى ﵇ كان يخاف الموت في سبيل الله تعالى، إنما كان يخاف أن يذهب إلى فرعون فيلقي عليه القبض فورًا، ثم يأمر بإعدامه بحجة قتل مصري كان قد مات بيده من قبل، فلا يتمكن من تبليغهم رسالة الله. وهذا يعني أنه لم يكن يخاف موته، وإنما كان يخاف أن يُقتل قبل أداء واجبه، فتتضرر المهمة التي فوّضها الله إليه، وإلا فإن الأنبياء لا يخافون الموت في سبيل الله تعالى. لا شك أن الأنبياء أغلى بكثير من أقوامهم بحيث لو تطلّب إنقاذ حياة نبيٍّ التضحيةَ بكل من في الأرض لجازت هذه التضحية، ولكن فيما يتعلق بالحق فهو أغلى من النبي، لأنه خادم للحق كما يكون أي من أتباعه البُسطاء خادمًا للحق، ولو مات أو نُفي نبيّ من أية سلسلة روحانية - ما عدا أوّل وآخر نبيّ فيها، لأن تلك السلسلة متوقفة عليهما - فلا يقدح ذلك في صدق ذلك النبي، كون الحق حاكمًا والنبي تابعًا له، كما يكون النبي حاكمًا وأُمّته خادمة له. وكما أنه لا حرج في التضحية بالعالم كله من أجل نبيّ، كذلك لا حرج في استشهاد نبي بعد أن يكون قد بلّغ رسالة الله تعالى، إذ لم يأت إلى الدنيا إلا لنشر ذلك الحقّ.

مجمل القول إن موسى ﵇ لم يقل هذا الكلام خوفًا من الموت، بل حفاظًا على الحق حيث خاف أن يقع فريسةً للاضطهاد قبل تبليغ رسالة الله ﷻ للناس.

ويتضح من قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أن القتل الذي تم بيده ﵇ لم يكن عمدًا و لم يجعله مجرما عند الله تعالى، ذلك لأن الذنب هو كل فعل يأتي بنتيجة سيئة وإن لم يجعل صاحبَه مجرمًا عند الشرع. (المفردات*)

* نصّ ما ورد في "المفردات" هو كالآتي: "يُستعمل الذنْب في كل فعل يُستوخم عقباه اعتبارًا بذَنَبِ الشيء، ولهذا يسمى الذنْب تبعةً اعتبارًا لما يحصل من عاقبته". (المترجم)

وبالمناسبة فهنا أيضًا نجد فرقًا واضحًا بين مكانة الرسول ﷺ وبين مقام موسى عليه السلام، ذلك لأن موسى عليه السلام كان قد اتُّهم قبل بعثته بهذه الجريمة، بغض النظر عن صحتها أو زيفها، أما محمد رسول الله ﷺ فكان الناس يسمونه أمينًا وصَدوقًا قبل بعثته معترفين بصلاحه وأمانته وعدله.

المهم أن شخصًا من قوم فرعون كان قد قُتل بيد موسى عليه السلام في ذلك الحادث، وكان وزراء فرعون يريدون قتله بتهمة قتل عمد، ففرّ موسى من مصر إلى مدين، ولذلك سمّى فعله هذا ذنبًا، معربًا عن مخاوفه أنه لو رجع إليهم فسيلقون عليه القبض فورا ويقتلونه.

وقد وردت هذه الواقعة في القرآن الكريم ونوجزها كالآتي:

كان موسى عليه السلام يمشي في المدينة في إحدى الليالي، فوجد شخصين يقتتلان أحدهما من قومه والآخر من قوم عدوه فرعون. فاستغاثه الذي من قومه ضد عدوّه، فتقدم موسى عليه السلام ووجه إليه لكمة. ويبدو أن اللكمة كانت شديدة، أو كان المصري ضعيف القلب أو الكبد فأصابت قلبه أو كبده، فمات في مكانه. وفي صبيحة اليوم التالي خرج موسى عليه السلام في المدينة فوجد الذي استغاثه البارحة يتقاتل مع شخص آخر ويستغيث به ثانية، فعلم أن هذا الشخص من قومه عصبيّ المزاج كثير الخصام، وإلا فلمَ لا يتقاتل الناس إلا معه هو؟ فزجره موسى وقال: لعل الذي كان يقاتلك البارحة كان معتديًا عليك، ولكنك شخص عصبي فيما يبدو. ثم تقدّم موسى عليه السلام وهمّ أن يبطش بالذي هو من أعدائه، ولكن الذي هو من قومه ظن أنه يريد ضربه هو بعد أن زجره، فأخذ الغبي يصرخ عاليًا ويقول لموسى: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ فاجتمع الناس بصراخه وعلموا أن موسى هو الذي قتل الرجل البارحة. وبما أن القتيل كان من قوم فرعون فانتشر الخبر في المدينة انتشار النار في الهشيم. فثار القوم كلهم حتى بلغ الخبر كبار المسؤولين، فأجمعوا على قتل موسى عليه السلام. وكان بين المسؤولين شخص يتعاطف مع موسى سرًّا،

فجاءه فزِعًا وأخبره أن رؤساء القوم يتآمرون على قتله، فعليه أن يهرب من المدينة فورًا. ففرّ موسى العَلَيْهِ‌السَلام ولم يبرح حتى وصل إلى مدين.

وإلى حادث القتل هذا أشار موسى العَلَيْهِ‌السَلام بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾، حيث خاف أن يقتله القوم بتهمة القتل.

وفي قوله هذا دليل آخر على فضل الرسول ﷺ، حيث أخذ موسى العَلَيْهِ‌السَلام من خلال هذه المخاوف وعدًا من الله لحمايته، ولكن الرسول ﷺ قام لتوّه لتبليغ رسالة الله ﷻ غير خائف أو هيّاب، ولم يكترث للأذى الذي سيصيبه في سبيل الله ﷻ.

ولما أبدى موسى العَلَيْهِ‌السَلام مخاوفه قال الله له: كلا، لن يصيبك ضرر كما تظن، فاذهبْ أنت وأخوك بآياتنا إلى فرعون وأنا معكما أسمع وأجيب دعاءكما دائما؛ فابتهِلا إلي كلما واجهتكما مشكلة، وسآتي لنصرتكما فورًا. فاذهبا الآن إلى فرعون وقولا له إنا رسول رب العالمين، فأطلِقْ سراح بني إسرائيل لنأخذهم معنا.

يعترض البعض هنا ويقول: كيف قيل هنا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مع أن المفروض أن يقال "إنّا رسولا رب العالمين"؟

والجواب أن العرب تقول أحيانا: "هذانِ رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي" (فتح البيان: تحت قوله تعالى: فأْتيا فرعون فقُولا...). كما ورد في مكان آخر من هذه السورة نفسها قول إبراهيم العَلَيْهِ‌السَلام عن الأصنام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(الآية:٧٨)، مع أن المفروض في الظاهر أن يقال "إنهم أعداء لي". وعليه فلا يمكن الاعتراض على قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا من حيث القواعد العربية ولا من حيث أساليب القرآن الكريم.

أما حرف "أن" في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾، فقد تكون تفسيرية أو مصدرية.

وأرى لزامًا عليّ هنا أن أبيّن الاختلاف الموجود بين القرآن الكريم والتوراة حول هذا الموضوع. فقد ورد في التوراة أن الله تعالى قال لموسى العَلَيْهِ‌السَلام: "تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له: الربُّ إلهُ العبرانيين التقانا، فالآن نمضي سَفَرَ ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا" (الخروج ٣: ١٨). وكأن الله

تعالى- والعياذ به - علّم موسى وهارون الغشّ والخداع، حيث قال لهما إن فرعون لن يسمح لبني إسرائيل بالفرار من مصر لو أخبراه بذلك صراحة، فعليهما بخداعه، فليقولا له إنا نريد تقديم القرابين لربّنا فليسمَحْ لبني إسرائيل بالخروج من مصر، فإذا سمح فرّوا من بلاده. ولكن القرآن الكريم يعلن أن هذا كذب إذ لم يأمر الله موسى وهارون باللجوء إلى الغش والخداع أبدًا، بل أمرهما بأن يقولا لفرعون صراحة أن يرسل معهما بني إسرائيل إذ قد تجاوز في اضطهادهم الحدود كلها.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾، يبيّن أيضًا أن موسى عليه السلام كان مرسلاً إلى قومه بني إسرائيل فقط، لكي يحرّرهم من قيود الرقّ والعبودية التي كانوا يرزحون تحتها منذ مئات السنين. أما محمد رسول الله ﷺ فقد فضّله الله على موسى من هذه الناحية أيضا، إذ لم يبعثه إلى قوم واحد بل إلى الدنيا كلها. قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾(سبأ:٢٩).. أي لا فرق عندنا بين عربي وعجمي وشرقي وغربي، فمن واجب كل إنسان، أيًّا كان وطنه أو لغته، أن يلبي دعوتك ويعمل بوصاياك.

لقد وُلد النبي ﷺ في بلاد كانت شِبْهَ منعزلة عن باقي العالم، وكانت متخلفة حضاريا وعلميا وسياسيا، وفي هذه البلاد التي كانت أضعف بلدان العالم، كان محمد ﷺ أضعف إنسان، ومع ذلك أخبره الله تعالى أنه قد بعثه رسولاً إلى العالم أجمع.

ولو قمنا بتفسير هذه الجملة القرآنية بشكل سليم لكان معناها كالآتي: يا أيها النبيّ، قُلْ للناس: لقد أُرسلتُ لهداية بلاد كندا التي لا تعرفونها، وبُعثت لهداية الولايات المتحدة الأمريكية التي لم يتم عمرانها بعد، وجئت لهداية بلاد البرازيل وكوبا وبوليفيا وتشيلي وكولومبيا والمكسيك التي لم يعمرها أحد بل لا تزال مجهولة للناس، وستُعمر في المستقبل؛ وقد أُرسلتُ إلى أهل بلاد اليابان والفيلبين التي لا تعرفونها، بل إنني مأمور بهداية البلاد التي لم تكتشف بعد.

إذًا، فإننا حين نتوسّع في تفسير هذه الآية نصاب بالذهول، إذ لم يملك النبي ﷺ أية أسباب لتحقيق دعواه هذه. فمتى كانت عنده الطائرات حتى يصل بها إلى

أمريكا وكندا والبرازيل وكولومبيا وبوليفيا؟ ومتى كانت عنده الوسائل لتبليغ دعوته إلى هؤلاء الأمم حتى بعد وفاته؟ ومتى كان بإمكانه أن يصل إلى البلاد التي لم تكن قد اكتُشفت بعد؟ ثم إننا نرى في الدنيا أن الآباء إذا قالوا لأولادهم شيئا نسوه، وإذا تذكّروه نسيه أحفادهم أو أبناء الأحفاد حتمًا، أما الرسول ﷺ فأي ضمان كان يملكه لتحقُّق دعواه هذه، إذ كانت هذه البلاد مجهولة للناس في عصره، فقد اكتُشفت أمريكا بعد وفاته بتسعة قرون. ولو فرضنا جدلاً أن أمريكا كانت معروفة للعالم آنذاك، فما كانت بيده أي حيلة لتحقيق دعواه. فإن ما نراه في الدنيا أن الناس يضحّون أحيانًا بأولادهم وإخوانهم وراحتهم ورخائهم من أجل أهدافهم المشروعة منها وغير المشروعة، ومع ذلك لا تحقق تضحياتهم أهدافهم إلا بنطاق محدود جدا، كما لا يقدمون أي ضمان لتحقيق هذه النتائج المحدودة أيضا. أما محمد رسول الله ﷺ فكما كانت دعواه غريبة جدًّا، كذلك كان جزاؤه أيضًا مذهلاً جدًّا. فبرغم أنه لم تتيسر له الأسباب لتبليغ رسالته إلى بلاد العالم كلها، إلا أن الله ﷻ وضَع له القبول بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، فأخذ دينه ينتشر في مختلف الشعوب والبلدان حتى وصل إلى أقصى أنحاء الأرض. فيوجد اليوم ملايين المسلمين في الصين، ويصل عددهم في إندونيسيا تسعين بالمئة، ويتراوح عددهم في القارة الهندية ما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين بالمئة من السكان، ويقطن ملايين المسلمين في أفغانستان وإيران وبورما والشام وفلسطين والحبشة وفي وسط إفريقيا وغربها وشرقها وشمالها وجنوبها، وفي مناطق كثيرة في أمريكا وآسيا وأوروبا.

إذًا فإن ما يميّز نبينا ﷺ عن غيره من الرسل أنه مرسل إلى العالم أجمع، أما موسى عليه السلام فلم يُبعث إلا لهداية بني إسرائيل فقط.

ولما كانت قبضة فرعون الحديدية هي السبب الأساسي لرقّ بني إسرائيل، فبعث الله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وحذّره أن آهات بني إسرائيل المضطهدين قد وصلت إلى عرش الرحمن، فليس أمامه خيار إلا أن يطلقهم من قبضته الحديدية

ويحررهم من حياة العبودية، وإلا سينـــزل الملائكة بسيوفهم من السماء وسيعاقبونه عقابًا شديدًا.

قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٩ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٠ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢١ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٢ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣

التفسير: لقد قال فرعون هذا الكلام لموسى عليه السلام احتقارًا وسخرية، مثلما قال الكتبة والفريسيون للمسيح عليه السلام حين رأوه يقوم بدعوته ويرفع اسم الله الأحد في الشوارع والأسواق، حيث ورد: "أليس هذا ابن النجّار؟ أليست أُمُّه تُدعى مريمَ، وإخوتُه يعقوبَ ويوسي وسمعان ويهوذا؟ أوليست أَخواتُه جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها؟ فكانوا يعثُرون به" (متى ١٣: ٥٥- ٥٧).

فكما أن الفريسيين استغربوا حين جاء يعظهم "ابن النجار" الذي كانت أخواته متزوجات بينهم، كذلك أصيب فرعون بالذهول حين جاءه موسى وهارون يبلّغانه رسالة الله، فقال بكل كبرياء: كيف يجرؤ علينا هذا الذي كانت أُمُّه قد ألقتْه في البحر خوفًا منّا، فأنقذناه وربّيناه في بيوتنا؟ وكيف يتنكر لصنيعنا هذا الذي قد عاش على لفاظات موائدنا، فلا يكترث لقوتنا وعظمتنا، بل يدعونا إلى الإذعان له؟

لقد قال فرعون هذا الكلام ناظرًا إلى قوّته ومنعته، وإلى بداية موسى المتواضعة، ولكنه نسي أن البذرة حين تلقى في الأرض تكون ضئيلة الشأن جدًّا، ولكنها تنمو وتكبر وتصبح دوحة كبيرة تحيّر الناس، وأن من الأشياء ما يبدو عظيمًا في بدايته،

ولكنه يعود ضئيل القدر في نهاية المطاف حتى يقول الإنسان في نفسه كيف عظّمت هذا الشيء الحقير؟ وعلى سبيل المثال، كان النبي ﷺ وأبو جهل متقاربين في السنّ، وقد وُلد النبي ﷺ في ظروف بسيطة جدًّا، حيث تُوفّي أبوه قبل ولادته، ولو كان حيًّا أيضًا عند ولادته ﷺ لم يتغير الوضع كثيرًا إذ لم يكن من الأثرياء! ولم يكن جدّه عبد المطلب أيضًا من الأغنياء. لا شك أنه كان ميسور الحال، ولكنه كان كريمًا جوادًا فلم يبق عنده من ثروته إلا قليل في آخر سني عمره. إذًا فلم يكن النبي ﷺ من أسرة ثرية أوّلاً، وقد وُلد في حالة فقر ثانيًا، وكان أبوه قد تُوفي قبل ولادته ثالثًا، فما كانت أُمه لتفرح كثيرًا عند مولده، إذ لم تملك مالاً، وأهل الدنيا ينظرون إلى ثراء المرء ويميلون إلى من عنده المال، فما كانوا ليُولُوا ولادته أهمية فيأتوا أُمَّه مهنئين بمولده، وربما لم يأت لتهنئتها إلا أقاربها الأقربون. وعلى النقيض كان والد أبي جهل رجلاً ثريًّا، فيمكنك تقدير مدى فرحته واحتفاله بولادة أبي جهل - علمًا أن أبا جهل كان يسمى أبا الحكم، ولكنه لما أكّد غباءه بمعاداة النبي ﷺ سماه المسلمون أبا جهل - فلا غرو أن كل أولئك الذين كانوا بحاجة إلى أبيه الثري أسرعوا إلى بيته يهنئونه بمولده مبالغين في كيل المدح له وقائلين: كم هي مباركة بلادنا التي قد وُلد فيها هذا الطفل الذي تدلّ أمارات وجهه على مستقبله المشرق! ولا ندري كم من جِمال نُحرت، وكم من دفوف ضُربت، وكم من نساء غنّتْ احتفالاً بولادته. وربما كان القوم يمرّون عندها ببيت والد النبي ﷺ، ويقولون في أنفسهم: ها قد وُلد اليوم في بيت هذا الإنسان الفقير طفل سيعيش مغمورًا وسيموت مغمورًا، وإذا مرّوا ببيت والد أبي جهل قالوا: ها قد وُلد اليوم في بيت هذا السيد سيد آخر سيقوم في الدنيا بإنجازات عظيمة.

باختصار، كانت بداية النبي ﷺ جدّ متواضعة في الظاهر، أما نهايته العظيمة فحدِّثْ بها ولا حرج؛ فإن الطفل الذي رفضته المراضع، ولم يعبأ أهل مكة بولادته، كان له عند وفاته شأن عظيم جدا، ليس في تاريخ العرب فقط، بل في تاريخ البشرية كلها، فكأنما أصبح مصداقًا للنبوءة الإلهية الواردة في الصحف الأولى

كالآتي: "الحجر الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية" (مرقس ١٢: ١٠ ولوقا ٢٠: ١٧). فقد خضعت له القبائل العربية كلها التي لم تخضع لِملِكٍ قبله قط. ثم إن الناس يهابون ملوك الدنيا خوفًا من عظمتهم المادية، فيُثنون عليهم بلسانهم ويسبّونهم في قلوبهم، وتصاب البلاد بصدمة عند موت الملك بلا شك، ولكن الناس يقولون أيضًا: لا بأس، سيقوم مكانه ملِك آخر ويفعل ما فعله هذا؛ فهناك مثل إنجليزي بهذا المعنى يقول: The king never dies.

(3000 Proverbs by Sam Phillips P. 87)

.. أي أن الملك لا يموت أبدا، لأنه إذا مات ملكٌ قام مكانه ملكٌ آخر لا يكون بينهما فرق كبير، ويستمر الشعب - إذا كان شعبًا يقظًا - في الرقي والازدهار تحت حكم الملك الجديد أيضا. ولكن الأمر كان مختلفًا تمامًا فيما يخص النبي ﷺ، إذ كان العرب كلهم عند وفاته معترفين بمحاسنه وعظمته وأهميته، فلم يعتبروا موته موت إنسان واحد أو موت شعب واحد، بل اعتبروه موت العالم كلّه. لقد رثاه ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه بشعره الشهير:

كنتَ السوادَ لناظــري فَعَمِي عَلَيَّ النَّاظِــرُ

مَن شاءَ بعـــدَكَ فَلْيَمُتْ فعليكَ كنتُ أُحَاذِرُ

(ديوان حسان بن ثابت ص ٣٠٨)

أي كنتَ، يا رسول الله، حدقة عيني، فلم تمت أنت وإنما عميتْ عيني بموتك، فليمت الآن من شاء فإنما كنت أخشى موتك فقط.

هذه هي عاطفة الحب العميق التي كان الصحابة يكنّونها تجاه النبي ﷺ. والحقّ أن حسان بن ثابت رضي الله عنه لم يقل هذا الكلام على غرار الشعراء الآخرين، بل كان العرب كلهم يرون أن حسان إنما أعرب عن عواطفهم في شعره، كما يدلّ عليه التاريخ. لقد جرى على لسانه صوت العرب كلهم، إذ يذكر التاريخ أن المسلمين في مكة والمدينة وغيرهما من المدن ظلوا يرددون لأسابيع في بيوتهم وفي أسواقهم وأثناء أعمالهم:

كنتَ السوادَ لناظري فَعَمي عَلَيَّ النَّاظِـــرُ
مَن شاءَ بعدَكَ فَلْيَمُتْ فعليكَ كنتُ أُحَاذرُ

أما أبو جهل الذي ذُبحت عند ولادته الجمال وقُدّمت شواءً لذيذا للناس، وظلّ صوت الدفوف يدوّي أرجاء مكة لأسابيع، فقد قُتل في غزوة بدر شرّ قتلة، حيث أصيب بجراح بالغة على يد صبيّين أنصاريين يبلغان من العمر خمس عشرة سنة فقط. يروي عبد الله بن مسعود ﷺ أنه لما أخذ الناس يعودون من ساحة القتال إلى بيوتهم، خرجت أبحثُ عن الجرحى - علمًا أن عبد الله بن مسعود ﷺ كان من سكان مكة أصلا، فكان يعرف أبا جهل جيدا - وبينما أنا أمشي في ساحة القتال إذ أنا بأبي جهل يتأوّه من شدّة الجراح. فلما جئته قال لي: لا أراني ناجيًا من الموت، وقد اشتد بي الوجع، وحيث إنك من أرض وطني مكة، فاعمل لي معروفًا، وهو أن تضع النهاية لحياتي لتنتهي آلامي. وإني، كما تعلم، من الأسياد، ومن عادة العرب أنهم يقطعون رؤوس الأسياد من أصل الأعناق كدليل على سيادتهم، فأتمنى أن تقطع رأسي من أصل العنق. يقول عبد الله بن مسعود: فقطعتُ عنقه قريبا من الذقن، كي لا تتحقق أمنيته الأخيرة أيضًا. (البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، والسيرة الحلبية*: المجلد الثاني ص ١٧٢)

فلو نظرت إلى العواقب لوجدت أن أبا جهل مات ميتة مخزية مزرية، فكان يمشي في حياته رافعًا عنقه من شدة كبريائه، فقُطعت عنقه عند ذقنه وقت الوفاة كي لا تتحقق أمنيته الأخيرة أيضا.

وكان الكافرون يحفرون في طريق النبي ﷺ حفرًا، وكانوا يجرّون المسلمين على أرض كثيرة الحصى والحجارة، وكان النبي ﷺ قد أنبأ أن هؤلاء الكافرين سيؤخذون بالنواصي ويُجَرّون، وبالفعل جرّ الصحابةُ بأمر النبي ﷺ جثث الكافرين

* نص ما ورد في السيرة الحلبية: "عن ابن مسعود ﷺ قال: لما ضربتُه بسيفي لم يغن شيئًا، فبصق في وجهي وقال: خُذْ سيفي فاحتزّ به رأسي من عرشي ليكون أبهى للرقبة - والعرش عرقٌ في أصل الرقبة - ففعلت." (المترجم)

يوم بدر وألقوها في بئر عمياء. (سورة العلق:١٦-١٧، والسيرة النبوية لابن هشام: الجزء الثاني، ذكرُ رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب)

باختصار، لو نظرت إلى النبي ﷺ وإلى أبي جهل من حيث الولادة والخاتمة، لوجدت أن الذي كان لا يؤبه له عند ولادته مات وهو سيد العرب، أما الذي كانوا يرونه سيد العرب عند ولادته فتبين لهم عند وفاته أنه أرذل القوم وأذلّهم. فثبت أن من الأشياء ما يكون في بدايته على غير ما يكون عند نهايته.

لا شك أن والدَي المسيح الموعود عليه السلام فرحوا بمولده كثيرا، ولكنه لما كبر وزهد في الدنيا، كان أبوه يتحسر عليه حزنًا بأن ابنه لا يصلح لشيء. لقد حكى لي أحد السيخ وقال: كان أبي يأتي لزيارة الميرزا الكبير - يعني جدّي ميرزا غلام مرتضى - وكان يصطحبني أنا وأخي أحيانًا. فقال له الميرزا الكبير مرة: إن ولديك هذين يزوران ابني غلام أحمد، فقل لهما أن ينصحاه. فأمرنا أبونا بذلك. فلما هممنا بالانصراف إليه قال لنا الميرزا الكبير: قولا لغلام أحمد: إن أباك حزين بسببك حيث يرى أنك ستعيش بعده على كسرات خبز أخيك الأكبر! فعليك أن تتوظف في وظيفة في حياته، لأن جميع مصادر دخله ستنقطع بموته، وإنه يحاول في هذه الأيام أن يجد لك وظيفة جيدة - علمًا أن أباه عليه السلام كان يسعى في تلك الأيام أن يجد له وظيفة في ولاية "كبور تهلة"، وبالفعل كانت هذه الولاية قد اتخذت القرار بتعيينه عليه السلام مديرًا في مديرية التعليم فيها. وأضاف هذا السيخي: فذهبت أنا وأخي إلى ميرزا غلام أحمد (عليه السلام)، وقلنا له: إن أباك قلق عليك جدًّا، ويقول: ماذا سيكون مصير غلام أحمد بعد وفاتي إذ ليس عنده أي عمل؛ فلمَ لا تستجيب لرغبة والدك. فأجاب: إن والدي قلق عليّ بدون داع، ويخاف عليّ بلا سبب، إذ قد توظّفت سلفًا عند مَن أردت العمل عنده. فرجعنا وحكينا لأبيه الحديث الذي جرى بيننا. فقال أبوه: إذا كان هو يقول هكذا فلا بد أن يكون حقًّا، لأنه لا يكذب أبدًا.

هكذا كانت بدايته عليه السلام. ولا شك أن الأمر لم يبلغ النهاية بعد، ولكن ما قد تم حتى وفاته عليه السلام هو أن آلاف الناس كانوا يفدونه بأرواحهم. لقد قال حضرته عليه السلام في بيت شعر له:

لُفاظات الموائدِ كان أكلي وصرتُ اليومَ مِطعامَ الأهالي

(آئينه كمالات إسلام (أردو)، الخزائن الروحانية، المجلد الخامس ص ٥٩٦)

أي لقد أتى علي زمان كنت أعيش فيه على كسرات الخبز المتبقية على موائد الناس، أما اليوم فتعيش مئات الأسر على مائدتي. لقد كانت بدايته ضئيلة حقًّا، ولكن عند وفاته كان يأكل في دار ضيافته يوميًا ما بين مائتين ومائتين وخمسين شخص، إضافةً إلى الإخوة الذين كانوا يقومون بشتى الخدمات الدينية.

الواقع أن حضرته عليه السلام كان شريكا متساويا مع أخيه في إرث والده، ولكن من عادة أصحاب الأراضي أهم لا يعدّون شريكًا معهم في العقارات إلا من يعمل معهم، ومن لا يعمل معهم لا يعدّونه شريكا فيها وإن كان وارثًا عند الشرع. ولا تزال هذه العادة موجودة عندهم حتى اليوم، حيث يقولون كيف يكون لأحد نصيب في العقار وهو لا يعمل معنا؟ ولذلك فكلما جاء عند المسيح الموعود عليه السلام ضيف وأرسل إلى زوجة أخيه لتبعث للضيف طعامًا، قالت: كيف يأكل هذا عندنا مع أنه شخص عاطل لا يقوم بأي عمل! فكانت ترفض أن تبعث أي طعام للضيف، فكان حضرته يُقدم طعامه للضيف ثم يجوع بنفسه، أو يأكل حبات قليلة من الحمص. ومن غرائب قدر الله سبحانه وتعالى أن زوجة أخيه هذه التي كانت تعامله بازدراء، بايعتْ في الأخير على يدي أنا وانضمتْ إلى الأحمدية.

فالحق أن بداية العمل الذي يكون من عند الله سبحانه وتعالى تكون ضئيلة جدًا، ولكن نهايته تحيّر العالم، ولذلك نجد فرعون يعيّر موسى عليه السلام بضآلة شأنه في بداية أمره، ويقول له: كيف تجرؤ على وعظي؟ ألستَ ذلك الذي تربى في بيتنا؟ ولكن الواقع أن الأمور بخواتيمها لا ببداياتها. خذوا مثلا بذرة الشجرة التي تسمى "تين البنغال". لا شك أن الذي يستهين ببذرتها الصغيرة يُعَدّ غبيًّا، ولكن الأشد منه غباءً مَن يرى بأمّ عينه شجرة "تين البنغال" وقد أصبحت دوحة كبيرة يستظل مئات الناس تحت ظلها المريح، ومع ذلك يرفض الجلوس تحت ظلها بحجّة أن بذرتها كانت صغيرة حقيرة تذروها الرياح.

لقد أبدى فرعون أيضًا نفس الغباء حيث عيّر موسى ؏ بكونه قد تربّى في بيته. ولكنه نسي أن من سنة الله القديمة أنه يكتب لأنبيائه الرقي والغلبة تحت ظل أعدائهم. فقد تربى المسيح الناصري ؏ تحت حكم الرومان. وتربى النبي ﷺ في صغره عند بني ثقيف، وهم الذين أمدّوا أبرهة بدليل يهديه الطريق لما جاء لهدم الكعبة (السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، أمر الفيل، وقصة النسأة، ثقيف تهادن أبرهة، البداية والنهاية، للإمام إسماعيل بن كثير الدمشقي، الجزء الثاني، فصل إقامة ست قبائل من سبأ في اليمن، سبب قصر أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة). ومع ذلك هيأ الله ﷻ عندهم الملاذ لهذا الإنسان العظيم الذي كان مصداقًا لدعاء إبراهيم ؏ والغاية الحقيقية وراء بناء الكعبة. كما أتاح الله تعالى لصحابة النبي ﷺ الملاذ عند الدولة المسيحية في الحبشة، مع أن أبرهة كان أحد ولاة هذه الدولة. وقد اتخذ الله ﷻ نفس التدبير في هذا الزمن أيضا حيث بعث المسيح الموعود ؏ تحت الحكومة الإنجليزية المسيحية، مع أن الله تعالى قد بعثه للقضاء على المسيحية. يعترض الجهّال على بعثته ؏ تحت حكم الإنجليز، ولكنهم لا يرون أن الله ﷻ قد ربّى موسى ؏ في كنف فرعون، وهيأ الملاذ لصحابة النبي ﷺ عند مملكة مسيحية، وجعل النبيَّ ﷺ يتربى عند بني ثقيف الذين ساعدوا أبرهة في الهجوم على الكعبة. فإذا كانت تربية هؤلاء كلهم تحت ظل أعدائهم لا يقدح في صدقهم، فكيف أصبح ازدهار المسيح الموعود ؏ تحت حكم الإنجليز موضع اعتراض؟ كلا، بل إنه لمن آيات الله العظمى أنه يبعث أنبياءه تحت حكم أعدائهم، ثم يكتب لهم الغلبة والازدهار، وهكذا يبرهن للدنيا أن لا مانعَ لما أراد ﷻ. خذوا مثلا ما حدث لموسى ؏، فكان فرعون قد أمر بقتل كل وليد يولد عند بني إسرائيل، ومع ذلك جعله الله تعالى يربّي موسى في بيته.. فكأن الذي كان المواليد يُقتَلون من أجله قد تربّى في حضنه موسى وترعرع، ثم تسبب في دماره أيضا. فإن والدة موسى ؏ قد قذفته في النهر وهو وليد صغير موقنةً بوعد الله تعالى. لا شك أنها قد اتخذت تدابير كثيرة قبل إلقائه في النهر، ولكن من ذا الذي يجرؤ على إلقاء طفله الصغير في النهر وإن اتخذ أفضل مما اتخذته أم موسى من التدابير؟ ولكن أم موسى رضيت بموت ابنها امتثالا لأمر الله تعالى،

فكتب الله له الحياة الأبدية. لقد أنقذ الطفلَ من الغرق أولاً، ثم أوصله إلى بيت فرعون، حيث أكل وشرب في بيته، وترعرع لاعبًا في حضنه، وفي الأخير استطاع أن ينقذ جميع بني إسرائيل من قبضته، بينما غرق فرعون مع جنوده في اليم.

وبعد أن عيّر فرعونُ موسى عليه السلام بتربيته في أسرته، قال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.. أي أنك تعلم جيدًا أنك قتلت شخصا من قومنا. وليس المراد من الكفر في قوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الكفر العادي، بل المراد أنك قد أصبحت ناكرًا للجميل حيث قتلتَ نفسًا من قوم أحسنوا إليك.

فأجابه موسى عليه السلام ألا يتهمه بدون النظر إلى ملابسات الحادث كلها. لا شك أن القتل قد صدر منه، ولكن: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.. أي قد تم القتل من فرط حبه لقومه، حيث وجد شخصًا من أعدائه يعتدي على فرد من قومه المظلومين، فثارت حميته، فتصدى للظالم، فمات ولكن دون قصد منه.

إن ما يشير إليه فرعون هنا هو نفس الحادث الذي سبق ذكره حيث وجد موسى عليه السلام في إحدى الليالي مصريًا يقاتل أحدًا من قومه، فاستغاثه الذي من قومه، فرأى أنه إذا لم ينصر أخاه الإسرائيلي فسوف يُقتَل، فتقدم ولَكَمَ المصريَّ لكمة، فإما أن موسى عليه السلام تحمَّس وضربه ضربة شديدة، أو أنه كان ضعيف القلب؛ فمات في مكانه. وهذا ما عيّر به فرعونُ موسى وقال: لقد ربيناك عندنا كأولادنا، فتنكرت لصنيعنا وقتلتَ شخصًا من قومنا. فقال له موسى عليه السلام: لا تتهمني بدون النظر في كل الملابسات. صحيح أن الرجل مات بيدي، ولكن المهم أن ترى فيما إذا كنتُ قتلتُه عمدًا أم لا، وليس هل قتلته أم لا؟ فإذا كانت الملابسات تفرض عليّ نصر مظلوم من قومي، فلا تثبت إدانتي وإن ثبت قتل شخص بيدي. إنما تثبت جريمتي إذا كنت هاجمته قاصدًا قتله، ولكني لم أرد قتله، فكيف أُدان بجريمة القتل؟ كل ما في الأمر أنني نصرت فردًا من قومي المضطهدين، فمات بيدي شخص من القوم الحاكمين، فخفتُ أن لا يُنصِفوا في قضيتي، فأتعرض للعقاب؛ ففررت منهم، ولكن ربي الذي كان مطلعا على أسراري برّأ ساحتي، وأنزل شريعته علي وبعثني رسولا. أما تربيتكم إياي التي تمنُّ بها عليّ، يا فرعون، فلا تساوي أمام جريمتكم

شيئًا، حيث اتخذتم قومي بني إسرائيل عبيدًا منذ زمن أبيك رعمسيس الثاني، وتسخرونهم في أعمال شاقة بدون أجر، وتصبّون عليهم من الفظائع ما يندى له جبين الإنسانية. فما قيمة تربيتكم طفلاً بينكم إزاء تسخيركم شعبًا كله ذكورًا وإناثًا وأطفالاً في أعمال شاقة وحشية؟

علمًا أن فرعون الذي قام بتربية موسى عليه السلام اسمه رعمسيس الثاني (الخروج ١: ٨-١٧) أما فرعون الذي ذهب إليه موسى عليه السلام بعد النبوة فهو ابنه منفتاح (الموسوعة اليهودية المجلد الثامن تحت كلمة: Merneptah). لقد رأى الأخير موسى يتربى في القصر الملكي، وكان يعلم كيف قام أبوه بتربيته بكل حب ولطف، ولذلك عيّر موسى عليه السلام مشيرًا إلى ما كان يخصّه به أبوه من حب وحنان: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾. وفي الجواب أخذ موسى عليه السلام يذكر له الفظائع التي كان يرتكبها أبوه ضد بني إسرائيل حيث أمر بقتل ذكورهم واستحياء إناثهم من المواليد. ولما خلف منفتاح أباه على العرش ظل يضيّق الحياة على بني إسرائيل مثل أبيه، حتى إذا بلغ صراخهم المؤلم إلى السماء وهزّ عرش الرحمن بعث الله موسى لإنقاذ هؤلاء المضطهدين المستعبَدين، وأمره أن يذهب إلى فرعون ويطالبه بإطلاق سراحهم. ولكن فرعون بدلاً من أن يرتدع عن ظلمهم ويفك أسرهم أخذ يعير موسى قائلا: ألست الذي تربيت على خبزنا، وقد جئت اليوم تعظنا؟ فأجابه موسى عليه السلام: صحيح ما تقول، ولكن هل يبرر هذا ما تصبّه على بني إسرائيل من الفظائع. هل تربيتُكم إياي تخوّل لكم استعباد قومي وإكراهَ عباد الله الذين هم بشرٌ مثلكم على حياة الذل والهوان؟

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير: عند سماع هذا الجواب من موسى عليه السلام حاول فرعون إخفاء ندامته، فغيّر مجرى الحديث وقال: حسنًا، مَن هو رب العالمين الذي تقول إنه بعثك رسولاً؟ قال: إن رب العالمين هو رب السماوات والأرض وما بينهما، ويجب أن يكفيك هذا الدليل إن كنت من الموقنين. فتوجَّه فرعون إلى من حوله وقال: هل تسمعون هراء هذا الشخص؟ قال موسى عليه السلام: إذا كنت لا تفهم من هو خالق السماوات والأرض فاعلم أن رب العالمين هو رب آبائك الأولين. فبُهت فرعون من قوة هذا الدليل ولجأ إلى الشتم والسب وقال لأصحابه: لا شك أن هذا الذي قد أُرسل إليكم لمجنون. وكان يعني أنني أنا ربُّكم - كما هو مذكور في سورة النازعات - فكيف يزعم موسى أن هناك إلهًا غيري هو رب العالمين. وحيث إنه مصرٌّ على دعواه رغم أنني قد أخبرته بمعتقدي فيبدو أنه مصاب في عقله.

الواقع أنه لم يأت إلى الدنيا نبي من عند الله تعالى إلا ورماه المعارضون بالجنون. ذلك لأن المجنون يبذل قصارى جهده فيما يريد القيام به غير مكترث للعواقب، كذلك يفعل النبي أيضًا حيث يهبّ لتبليغ رسالة الله تعالى باذلاً كل ما في وسعه، ومعرضًا عن كل إغراء، وغير مكترث للعواقب، فيسميه الجاهلون مجنونًا حيث يرونه يعمل بكل حماس وتفان في سبيل هدفه الذي يبدو خلافًا للعقل والمنطق في الظاهر، ولا يستطيعون رؤية يد الله التي تشدّ ظهره، فيسمونه مجنونًا.

لقد قال علماء النفس في معرض الحديث عن أنواع الجنون إن المجنون ينهمك في تحقيق هدفه غاضًا النظر عن الظروف المحيطة به، وغير مبال بأي شيء. أتذكر أن إحدى المعلّمات أصيبت بالجنون في عهد الخليفة الأول رضي الله عنه، وكانت تتخلل مرضها فترات من الصحة أيضًا. وذات مرة كان حضرته رضي الله عنه يلقي دروس القرآن الكريم للنساء، وكانت هذه المعلمة جالسة بينهن، فانتابتها نوبة من الجنون، فحاولت القفز

من النافذة، فرآها الخليفة الأول ؓ وقد أوشكت على السقوط، فقام مسرعًا وأمسكها. وقد وقع هذا الحادث بعد وفاة المسيح الموعود ؑ ببضعة أشهر وقبل أن يصاب الخليفة الأول ؓ بجروح بالغة نتيجة سقوطه من ظهر فرس، وكان عندها لا يزال يتمتع بالقوة والحيوية حتى إنه كان يمد يده للحاضرين أحيانًا ويقول: فليتقدم من شاء وليحاول ثَنْيَ يدي. ورغم كونه ؓ قويًا لهذه الدرجة لم يستطع حضرته منع هذه المجنونة النحيفة المتدلية في النافذة من السقوط، حيث كانت تنفلت من يده. فدعا النساء ليساعدنه لأن المجنونة على وشك السقوط. فأتت خمس أو سبع منهن، فربطها بالحبال بمساعدتهن، وذلك برغم أن أيّ فتى عمره سبعة أو ثمانية عشر عامًا كان قادرًا على البطش بهذه المجنونة في حالة صحتها. وليس سبب ذلك إلا لأن الإنسان السليم العقل يظن أنه لو بذل الجهد أكثر من حد معين لأصابه ضرر، ولكن المجنون لا يمنعه عقله عن بذل كل ما في وسعه، ومن أجل ذلك نجده مشحونًا بقوة غير عادية حتى لا يقدر على البطش به إلا ثمانية أو عشرة أشخاص معًا. فبما أن المجانين يعملون أحيانًا بحماس غير عادي لا يصدّقه العقل، فإن الناس حين يرون الأنبياء يرفعون صوتًا مخالفًا لتيار زمنهم، ثم إنهم يحاولون تحقيق هدفهم غير مكترثين للموت في هذا السبيل، فيعتبرونهم مجانين إذ يقولون لو كان هؤلاء عقلاء ما رفعوا الصوت ضد الرأي العام. لما بُعث النبي ﷺ دعا أهل مكة إلى عبادة الإله الواحد، فحيّر العربَ الذين كانوا يعبدون اللات والعُزّى ومَناةَ، فقالوا إنه لمجنون حيث جعل الآلهة الكثيرة إلهًا واحدًا. فاعتبروا ما قاله النبي ﷺ ضربًا من الخبل والجنون ليس إلا.

ثم إن العرب كانوا يسمونه ﷺ مجنونًا أيضًا لأنه كان ينهاهم عن شرب الخمر، ولعب الميسر، وأكل أموال الناس بالباطل؛ فكانوا يقولون مستغربين: ما لهذا الرجل يمنعنا من الخمر التي هي لذة الحياة، وينهانا عن الميسر أو النهب مع أنه عمل نافع جدًّا، إن هو إلا هراء يتكلم به المجانين. كما كانوا يقولون: ما لمحمد يدعونا إلى أن ننذر حياتنا لخدمة الإنسانية، وننفق أموالنا في سبيل الله بوعد الثواب منه؟ إنه كلام لا يتكلم به إلا مجنون.

وكان شعيب عليه السلام ينهى قومه عن السطو على أموال الناس وعن إنفاق أموالهم في غير الحق، فكانوا يصابون بالذهول ويقولون له: لقد أصابك مس من الجنون ولذلك تتكلم كما يتكلم المجانين.

وفي هذا العصر أيضًا نرى أن الناس قد رموا المسيح الموعود عليه السلام بالجنون. فعندما قدم للناس مسألة وفاة المسيح الناصري عليه السلام أصابهم الذهول والدهشة، إذ قالوا ما دام أكابر الأمة يقولون منذ ثلاثة عشر قرنًا إن المسيح عليه السلام حي في السماء، فكيف يقول هذا بوفاته؟ وما أدلّ على ذلك من الحادث التالي:

كان في البنجاب طبيب شهير جدًّا حتى إن طبيبًا عظيمًا كمثل الخليفة الأول رضي الله عنه أيضًا كان معترفًا بمكانته الطبية، وكان من مدينة "بهيرة"، وكان اسمه "الله دِين". فذهب إليه المولوي فضل دين البهيروي - الذي كان من الأحمديين المَخلصين وكان صديقًا حميمًا للخليفة الأول رضي الله عنه - فحاول تبليغه دعوة الأحمدية. فقال له: ماذا ستخبرني عن الأحمدية؟ وماذا تعرف عنها؟ وماذا ستعلّمني عنها؟ لا يوجد عندك عُشر ما أكنّه لحضرة الميرزا° من الحب والاحترام. فسُرّ المولوي فضل دين من قوله وظن أنه يؤمن بحضرته عليه السلام في قلبه، فقال له: إنه لمن دواعي سروري أنك تحب مؤسس جماعتنا، وأود أن أسمع منك المزيد. فقال له الطبيب: إن الشباب الأغرار في هذا العصر لا يعرفون حقيقة الأمر ومع ذلك يتحمسون لدعوة الآخرين بدون داعٍ. فكيف تجاسرت على شرح مسألة وفاة المسيح لي وأنت لا تعرف الحكمة التي دفعت حضرة الميرزا إلى تقديم نظرية وفاة المسيح عليه السلام. فقال له المولوي فضل دين: هلا أخبرتني بتلك الحكمة؟ قال: اسمَعْ. الواقع أن حضرة الميرزا قد قام بتأليف "براهين أحمدية"، والحق أنه لم يؤلف أحد من المسلمين منذ ثلاثة عشر قرنًا كتابًا مثله. لقد ملأه بعلوم ومعارف لا يوجد لها مثيل في كتاب أي مسلم، فكان "براهين أحمدية" سدًّا منيعًا قام بحماية الإسلام ضد هجمات أتباع

° أي حضرة مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. (المترجم)

الأديان الأخرى. ولكن قد بلغ الحمق والغباء بالمشايخ درجة أنهم عوضًا عن أن يشكروه ويأتوه متأدبين كالتلاميذ ويقولوا له: سنستعمل ضد أعداء الإسلام نفس الأدلة والبراهين التي ذكرتها في كتابك، فإنهم استكبروا فرحين بما عندهم من العلم، وأفتوا بكفر هذا الإنسان الذي قد أسدى للإسلام، وأمام أعينهم، هذه الخدمة العظيمة التي لم يُسْدِها إليه مسلمٌ بعد النبي ﷺ خلال ثلاثة عشر قرنًا مضت. فكان من الطبيعي أن يغضب حضرة الميرزا، فقال لهم: إذا كنتم فرحين بما عندكم من العلم فتعالوا لمبارزتي. وقال لهم: لا شك أن عقيدة حياة المسيح عليه السلام ثابتة من القرآن الكريم بحيث إنه لمن شِبه المستحيل إثبات وفاته منه، ومع ذلك فإني أُثبت لكم وفاته من القرآن، فادحضوا موقفي إن كنتم صادقين. فالواقع أنه لم يقدم نظرية وفاة المسيح عليه السلام إلا ليبكّت المشايخ ويفضحهم، ثم راح يقدم الأدلة من القرآن الكريم على وفاة المسيح. والآن لن يستطيع مشايخ الهند كلها دحض أدلته مهما حاولوا لذلك وإن انكسرت أقلامهم وجُرحت ألسنتهم. لقد هزمهم هزيمة نكراء لن يقدروا بعدها على رفع رؤوسهم ثانية. وليس أمامهم الآن سبيل لحل هذه المعضلة إلا أن يذهبوا إليه كلهم على شكل وفد ويعتذروا إليه ويقولوا: إنهم قد أساءوا الأدب تجاهه بإصدار فتوى كفره، فليعف عنهم. وسوف يرون أن حضرة الميرزا سيثبت لهم حياة المسيح عليه السلام من القرآن الكريم نفسه!

ومن هنا يمكنك أن تدرك مدى يقين المسلمين بصحة عقيدة حياة المسيح عليه السلام. فرغم أن هذا الرجل كان واثقًا من حسن نوايا حضرة مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام ومعترفًا بكونه أكبر خادم للإسلام منذ ثلاثة عشر قرنًا، إلا أن عقله لم يرض بوفاة المسيح عليه السلام كما أثبت مؤسس الأحمدية، بل ظن أن حياة المسيح عليه السلام حقيقة ثابتة من القرآن الكريم، وأن حضرته إنما قدم هذه النظرية تبكيتًا للمشايخ فحسب. وإذا كان هذا هو أسلوب التفكير عند رجل كان واثقًا بسلامة نوايا حضرته عليه السلام ومعترفًا بكونه أكبر خادم للإسلام، فما بالك بقوم كانوا يعتبرونه عدوًا للإسلام؟ فكان طبيعيًا أن يعتبروه مجنونًا.

وكذلك لما عرض المسيح الموعود عليه السلام على المسلمين نظريته عن الجهاد، معلنًا أن الجهاد قد تغيّر شكله الآن، حيث يقتضي هذا العصر أن ننشر الإسلام بالدعوة والتبليغ وإشاعة الكتب، أخذهم حيرة وقالوا كيف يمكن أن يتغلب الإسلام على العالم بهذا الطريق؟ كانوا يرون أن السبيل الوحيد لازدهار الإسلام هو قتل غير المسلمين، فلما سمعوا حضرته عليه السلام يقول إن غلبة الإسلام لن تتم بقتل غير المسلمين بل بالتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الإسلام قالوا: إنه مجنون حيث يقدم هذه النظرية المنافية للعقل.

وهذا السلاح نفسه قد استعمله فرعون أيضًا، فلما رأى أنه قد عجز عن دحض أدلة موسى عليه السلام قال إنه مجنون يهذي.

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

ثعبان: الثعبان: ضربٌ من الحيّات طِوالٌ. (الأقرب)

التفسير: لما رمى فرعون موسى عليه السلام بالجنون أدرك موسى أنه يحاول تغيير الموضوع الأساس وإرباكه في النقاش، ويريده أن يترك الحديث عن رب العالمين

ويرد على ما وجهه إليه من تهمة شخصية فيقول له: كيف تسميني مجنونًا ولا يوجد عندي شيء من أعراض الجنون. فرأى موسى أن من الأفضل أن يستمر في نقاش الموضوع الأصلي ولا يرد على سبّ فرعون إياه، فقال: إن رب العالمين هو ذلك الإله الذي هو رب المشرق والمغرب وما بينهما.. بمعنى تزعم يا فرعون أنك رب المصريين، مع أن مصر لا تساوي شيئًا أمام باقي العالم، إذ توجد فيه مئات البلدان التي هي أكبر من مصر بكثير. ولو سلّمنا جدلاً أنك يا فرعون تقوم برعاية أهل مصر، فمن ذا الذي يرعى أهل المشرق والمغرب وما بينهما؟ إن الذي يرعى العالمين كلها هو رب العالمين، ولا يمكن أن تكون رب العالمين حيث إنك تدعي بنفسك أنك رب المصريين.

فاستشاط فرعون غضبًا فقال لموسىعليه السلام: عليك أن تؤمن بأنني أنا الإله وإلا فلسوف أزجّك في غياهب السجن لتعلم جزاء وقاحتك. ومن غرائب القدر أن الذي أراد أن يلقي موسى في سجن القضبان الحديدية ألقاه الله تعالى في سجن الأمواج المتلاطمة في البحر الأحمر، فلم يستطع الخروج منه رغم جنوده وأنصاره.

وعندما هدد فرعون موسى بالسجن قال: أتسجنني ولو أتيتك بدليل واضح على صدق ما أقول؟ فعلم فرعون أن أمامه فرصة سانحة للتخلص من النقاش الأساس ولو مؤقتًا، فقال: فأْتِ به إن كنت من الصادقين. فألقى موسى عليه السلام عصاه على الأرض، فرآها الناس ثعبانًا بشكل واضح. ثم نـــزع موسى يده من جنبه، فبدت مضيئةً لامعة للناظرين.

وليكن معلومًا هنا أن تحوُّل عصا موسى عليه السلام إلى ثعبان مبين ورؤية الناس يده مضيئة نيّرة إنما هو من قبيل الكشوف التي أشرك الله فيها فرعون وأصحابه أيضًا. وهذا من الحقائق الثابتة المسلم بها، وتوجد نظائرها بكثرة في تاريخ الأنبياء والأولياء حيث يوسّع الله تعالى نطاق مشاهد الكشوف أحيانًا فيراها غيرهم أيضًا. ومثاله معجزة انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ إذ كانت مشهدًا من الكشف الذي وسّعه الله تعالى حتى رآه قوم من أهل مكة (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى وانشق القمر). وليس هذا فحسب، بل قد شاهده ملكٌ من ملوك الهند أيضًا فأسلم، كما

ورد في التاريخ (تاريخ فرشته (أردو) مجلد ٢ مقالة ١١ ص ٤٩١). ولكن المفسرين لم يفهموا هذه الحقيقة، فظنوا أن القمر قد انشق وصار قطعتين حقيقةً. مع أن الواقع أن القمر ظل على حاله، ولكنه أُرِيَ وكأنه قد انشق، تمامًا كما أن عصا موسى ظلت عصًا ولكنها أُرِيتْ لفرعون وملئه كأنها ثعبان مبين. وحيث إن كل حلم وكشف يتطلب تعبيرًا فكان تعبير هذا الكشف أن الانقلاب العظيم الذي سيتم على يد محمد ﷺ وشيك، وأن سلطة الكافرين على الجزيرة العربية قد حان زوالها. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى نفسه بقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾(القمر:٢).. أي قد حان دمار العرب، ودليله أن القمر قد انشق. ففي هذه الآية دلالة واضحة على أن هناك صلة وثيقة بين اقتراب الساعة وانشقاق القمر، ولكنا لا نجد أية علاقة ظاهرة بين اقتراب الساعة وانشقاق القمر. إذ لو كانت بينهما علاقة ظاهرة فكان من المفروض أن تقوم القيامة عندها، ولكنها لم تقم حتى اليوم رغم مرور ثلاثة عشر قرنًا على حادث انشقاق القمر، في حين نجد الله تعالى يقول لقد اقتربت الساعة ودليله أن القمر قد انشق. فثبت أن المعنى الذي يفسر به انشقاق القمر عادةً معنى خاطئ، كما أن المعنى الذي يفسَّر به لفظ "الساعة" أيضًا خاطئ. الحق أن الساعة تُطلق في القرآن الكريم على زمن بعثة الأنبياء وغلبتهم وازدهارهم وعلى هلاك معارضيهم ودمارهم. وعليه فإن هذه الآية تعني أنه قد حان الآن أن تحل تلك الساعة المقدرة ببعثة النبي ﷺ والانقلاب المنوط به، وعلامته أنْ قد انشق القمر.

وقد ذكر الله تعالى هذه العلامة لأن القمر كان رمزًا لحكم العرب حيث تروي صفية - رضي الله عنها التي كانت بنتًا لأحد رؤساء اليهود والتي صارت فيما بعد من أزواج النبي ﷺ - أنها رأت في المنام مرة أن القمر قد سقط في حِجرها. فحكت رؤياها لأبيها، فلطمها لطمة شديدة وقال: تريدين الزواج بملِك العرب؟ (الإصابة: كتاب النساء، حرف الصاد●)

● ورد في المصدر المشار إليه أعلاه أنها حكت رؤياها لزوجها وفي مكان آخر لأمها. (المترجم)

لقد ثبت بذلك أن العرب كانوا يعنون بالقمر سلطانهم.

فكان المراد من رؤية النبي ﷺ انشقاقَ القمر قطعتين في الكشف اقتراب هلاك العرب الكافرين، ذلك لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا هدفًا للاضطهاد منذ فترة طويلة، فبشّرهم الله ﷻ بإراءة انشقاق القمر أن غلبة الإسلام موشكة.

وهذا المشهد لم يره النبي ﷺ فقط، بل قد رآه الكافرون أيضا ليعلموا أن اندحار الكفر قريب، وأن محمدا ﷺ رسول الله حقًّا.

وقد اعترف المسيح الموعود عليه السلام أيضا باتساع نطاق الرؤى والكشوف على هذا النحو وذلك خلال بحث مستفيض عن هذه المعجزة في كتابه "سرمه چشم آريا" حيث قال ما تعريبه:

"من الممكن أيضا أن يكون الراءون قد أُعطوا عيونا كشفية نتيجة تأثير القوة القدسية للنبي ﷺ، حيث أراهم الله تعالى بهذا الحادث كيفية الانشقاق الذي سيحصل عند قرب القيامة. وإنه من الحقائق الثابتة أن قُوى المقرّبين الكشفية تؤثّر أحيانًا في الآخرين أيضا عند شدّتها وحدّتها، وهناك نظائر كثيرة لذلك في وقائع أرباب المكاشفات، حيث أرَى بعضُ الأكابر نفسه في بلدين مختلفين ومكانين متغايرَين في آن واحد بإذن الله ﷻ." (سرمه چشم آريا(أردو)، الخزائن الروحانية المجلد الثاني ص ٢٧٧-٢٧٨)

ويقول عليه السلام أيضا ما تعريبه:

"تنكشف على أصحاب المكاشفات أمور يعجز العقل تمامًا عن إدراك كُنْهها. فيرى صاحب الكشف في بعض الأحيان شيئًا رؤية واضحة وهو على بعد مئات الأميال وبينهما شتى الحجب، بل أحيانًا يسمع صوته أيضا في حالة اليقظة بإذن الله تعالى. والأعجب من ذلك أن الشخص الآخر الذي يراه صاحب الكشف أيضا يسمع صوته في بعض المرات. يلقى صاحب الكشف أحيانا أرواح السابقين في حالة كشفه الذي يماثل حالة اليقظة إلى حد كبير. وعلى العموم يمكن اللقاء بالأرواح السعيدة أو الأرواح الشقيّة أيضًا فيما يُسمّى "كشف القبور"، وإن صاحب هذا المقال لذو خبرة في هذا المجال. وهذه الظاهرة تقضي على عقيدة

التناسخ الهندوسية قضاءً مبرمًا. والأعجب من كل هذا أن صاحب الكشف يظهر أحيانًا لشخص آخر من خلال تركيزه عليه بإذن الله ﷻ في حالة اليقظة، مع أنه يكون بينهما مسافة مئات الأميال بدون أن يتحرك جسد صاحب الكشف من مكانه. ووجود شيء في مكانين في وقت واحد محال عند العقل، ولكن هذا المستحيل ممكن الوقوع في هذا العالم الآخر." (المرجع السابق ص ١٧٨)

وقد وقعت للرسول ﷺ أيضا كشوف اشترك معه فيها الآخرون. فمثلا ورد في الحديث أنه بينما النبي ﷺ في مجلس مع أصحابه جاءه شخص غريب ليست عليه آثار السفر، فجلس بمحاذاته ﷺ ملصقا ركبتيه بركبتيه، وسأله: ما الإيمان؟ وما الإسلام؟ وما الإحسان؟ وما هي أمارات القيامة؟ فأجابه النبي ﷺ على كل سؤال، فذهب. فقال النبي ﷺ لأصحابه: "ذلك جبريل أتاكم يعلّمكم أمر دينكم". (الترمذي أبواب الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام).

فهذا الحادث أيضا كان من قبيل هذه الكشوف حيث تم توسيع نطاقه حتى رأى الصحابة أيضًا جبريل يتحدّث مع النبي ﷺ.

كذلك لما أنــزل الله تعالى ملائكته لنصرة المسلمين في غزوة بدر، رآها الصحابة في حالة الكشف، كما رآها الكفار أيضا، حتى تحدثوا عنها في مجالسهم متحيرين (تفسير ابن جرير، تفسير آية ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (آل عمران:١٢٥)، السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الثالث، ذكر رؤيا عاتكة بنت عبدالمطلب، الملائكة تشهد وقعة بدر)

وكذلك رُوي أن النبي ﷺ عندما كان عند مرضعته حليمة جاءها أحد أولادها يجري وقال: إن أناسًا قد هجموا على أخي محمد (ﷺ). فخرجتْ مسرعة، فوجدت النبي ﷺ جالسا. فسألتْه عما حدث؟ فقال ﷺ: جاءني قبل قليل ثلاثة نفر، فشقّوا صدري وغسلوا قلبي وأعادوه في مكانه وذهبوا. (السيرة النبوية لابن هشام: ولادة رسول الله ﷺ ورضاعته)

وهذا الحادث أيضا كشف رآه النبي ﷺ واشترك فيه معه أحد أولاد حليمة حيث إن الملائكة ليست بحاجة إلى أن يشقّوا قلب أحد شقا ظاهرا من أجل تطهيره.

كذلك تقول ميمونة - رضي الله عنها: كان الرسول ﷺ نائما عندي في إحدى الليالي في المدينة، فاستيقظ لصلاة التهجد. وبينما هو يتوضأ سمعتُه يقول: لبيك لبيك لبيك، نُصرتَ نُصرتَ نُصرتَ. فقلت: يا رسول الله! هل جاءك أحد كنتَ تتحدث معه؟ قال ﷺ: نعم، لقد لقِيني الآن في حالة الكشف وفدٌ من بني خُزاعة، ورأيتهم يسرعون إلي صارخين بأصوات عالية ويقولون: ننشدك الله، يا محمد، بما عاهدتنا عليه أنت وآباؤك. إننا ما زلنا ننصرك، ولكن قريشًا قد نقضت عهدها، فبيّتونا بين ساجد وراكع، وقتلوا منا عديدًا، وقد جئناك الآن مستنجدين. وعندما رأيت وفدهم قلت لهم: لبيك لبيك لبيك، نُصرتَ نصرت نصرت. (السيرة الحلبية: المجلد الثالث، فتحُ مكة شرفها الله)

وهنا أيضًا تجد النبي ﷺ يرى كشفًا ويقول في حالة الكشف: لبيك لبيك لبيك، نُصرتَ نُصرتَ نُصرتَ ثلاث مرات، حتى سمعت ميمونة - رضي الله عنها - صوته ﷺ. وهذا يؤكد أن الآخرين أيضا يشتركون أحيانا مع صاحب الكشف. فهنا تجد أن ميمونة - رضي الله عنها - لم تر وفد الخزاعيين، ولكنها سمعت ما قال لهم النبي ﷺ في حالة الكشف، وبعد أيام وقع كما رآه النبي ﷺ في الكشف.

وهذه الأحداث والآيات لم تقع في حياة النبي ﷺ فحسب، بل ما زال الله ﷻ يُريها بعده ﷺ أيضا. فذات مرة كان عمر ؓ يلقي خطبة الجمعة، فقال أثناء الخطبة بصوت عال: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، يا سارية الجبل. فأخذت الناسَ حيرة وقالوا: ماذا قال عمر في أثناء خطبته؟ حتى قال بعض المنافقين إنه قد أصيب بالجنون حيث قال في أثناء الخطبة ما لا علاقة له بها. فذهب عبد الرحمن بن عوف إلى عمر - رضي الله عنهما - وقال له: إن الناس يتكلمون فيما بينهم عما وقع اليوم ويقولون كيف قال عمر في خطبته: يا سارية الجبل! فقال عمر ؓ: بينما أنا ألقي الخطبة، أخذتني حالة من الكشف، وتراءت لي

أرض العراق، فرأيتُ القائد المسلم ساريةَ وأصحابه يقاتلون العدو، ورأيت أن العدو على وشك أن ينتصر عليهم، وكنت أرى ساحة القتال فصحتُ: يا سارية، احترِزْ إلى الجبل لتنجو من هجوم العدو. وبعد بضعة أيام وصلت إلى عمر ﷺ رسالة من سارية يقول فيها: تشابكنا مع العدو في فجر يوم الجمعة، واستمرّ القتال إلى أن حانت صلاة الجمعة، فتناهى إلى آذاننا فجأة صوتك يقول: يا سارية الجبل! فتركنا ساحة القتال فورًا والتجأنا إلى الجبل، فكتب الله لنا الفتح وهزم العدو. (تاريخ الخميس مجلد ٢: كرامة عمر ﷺ صفحة ٢٤٣)

فترى هنا أن الجيش الإسلامي كان في العراق وكان عمر ﷺ في المدينة وكان بينهما مسافة مئات الأميال، ولكن لما استولت عليه حالة من الكشف، لم يسمع صوته مَن حضر خطبة الجمعة فحسب، بل سمعه سارية وجنوده المحاربون في أرض العراق على بُعد مئات الأميال، ثم عمِلوا بأوامر عمر ﷺ، فنجا جيش المسلمين من الهلاك المؤكد وانهزم العدو.

إن هذا المثال أيضًا يؤكد بكل وضوح أن نطاق الكشوف يتسع أحيانا بحيث يشترك فيه الآخرون رغم أن مسافة مئات الأميال تفصلهم.

كما ورد عن أولياء الله الذين خلوا في أمة المصطفى ﷺ أن بعضًا منهم كان يدعو الله تعالى بابتهال كل ليلة أثناء صلاة التهجد، وبينما هو يدعو الله تعالى ذات ليلة، جاء أحد مريديه وجلس بجانبه. فتلقى الولي بعد الدعاء إلهامًا سمعه المريد أيضا، ولكنه ظل صامتًا احترامًا لشيخه. وفي اليوم التالي استيقظ الولي لصلاة التهجد وبدأ الدعاء والابتهال، فتلقى نفس الإلهام الذي نــزل عليه أمس وسمعه المريد أيضا، ولكن المريد لم يتكلم احتراما للولي. وفي اليوم الثالث قام الرجل الصالح لصلاة التهجد والدعاء، ولما فرغ من صلاته تلقى نفس الإلهام وسمعه المريد أيضا، فقال له: سيدي، أراك منذ ثلاث ليال متتالية تتلقى كل مرة إلهاما يقول: لن نستجيب لدعائك، ولكنك مستمر في الدعاء رغم ذلك؟ عليك أن تترك الدعاء بعد هذا الجواب، لأن الله تعالى ما دام لا يريد أن يستجيب لدعائك فما الفائدة من الإلحاح عليه؟ فقال الرجل الصالح: لقد تضايقتَ من سماع هذا الإلهام ثلاث مرات

فقط، وأنا لم أقنط من رحمة الله مع أنني أسمع هذا الصوت منذ ثلاثين عاما، لأن على العبد أن يستمر في الطلب والدعاء، فإن المؤمن لا ييأس من روح الله تعالى. وقد ورد في الكتب أن الله ﷻ أوحى إلى الوليّ في اليوم التالي وقال: لقد استجبنا لكل دعاء قمتَ به خلال ثلاثين سنة الماضية. فدعا الرجل مريده وقال له: انظُرْ، لو قبِلتُ رأيك وتركتُ الدعاء لأصبحتُ محرومًا من كل هذه الأفضال الإلهية العظيمة، وذلك بعد أن اقتربت من باب النجاح.

فترى هنا أيضًا أن الله ﷻ قد وسّع نطاق الإلهام الذي أنـــزله إلى الوليّ حتى سمع المريد أيضا صوت الإلهام، ولثلاثة أيام متتالية.

ورأينا ذلك في هذا العصر أيضا. فإن الله ﷻ لما أرى المسيح الموعود عليه السلام كشف القطرات الحمراء فإنها لم تقع على قميصه فحسب، بل وقعت قطرة منها على طربوش أحد أصحابه ميان عبد الله السنوري، وهكذا أشركه الله هو أيضًا في هذه الآية. (چشمه معرفت (أردو) الخزائن الروحانية المجلد ٢٣ ص ٤٣٢-٤٣٣)

وذات مرة أخبرني ملاكٌ في زمن المسيح الموعود أنه عليه السلام قد تلقى هذه الليلة الإلهام التالي: "إني مع الأفواج آتيك بغتةً". وفي الصباح كتَب حضرته عليه السلام إلهاماتِه على ورقة ليبعثها لكي تُنشَر في الجريدة، وبالصدفة نسي أن يسجّل فيها هذا الإلهام، فقلت له عليه السلام: لقد أخبرني الملاك البارحة أنك تلقيت إلهاما يقول: "إني مع الأفواج آتيك بغتةً" ولكنه غير موجود بين هذه الإلهامات التي كتبتها على الورقة! فقال: أنت على حق، لقد تلقيت هذا الإلهام ولكني نسيت تسجيله هنا. ثم رجع عليه السلام إلى الداخل وأتى بالدفتر الذي كان يسجل فيه إلهاماته وقال: انظر، هذا الإلهام مسجّل هنا، ثم نشره في الجريدة مع الإلهامات الأخرى.

فترى هنا أن إلهامًا ينـــزل على المسيح الموعود عليه السلام من جهة، ومن جهة أخرى يخبرني الله تعالى أيضا أن هذه الكلمات قد نـــزلت على المسيح الموعود عليه السلام في وحيه، وفي الصباح نعلم أن هذا الخبر صحيح.

باختصار، إن رفقاء المرء أيضا يشتركون أحيانا في ما يراه من رؤى وكشوف. وهذا أمر قطعي يقيني، حتى كتب المسيح الموعود عليه السلام وهو يدعو الملكة فيكتوريا إلى الإسلام، ما تعريبه:

"لو مكَث طالبُ حقّ في صحبتي بصحة النيّة فترة من الزمن وأراد أن يرى المسيحَ (الناصري) عليه السلام رؤيةَ كشف، فسيراه ويكلّمه أيضًا ببركة عنايتي ودعائي، ويمكنه أن يطلب منه الشهادة عن أحواله. فإني أنا ذلك الشخص الذي قد سكنتْ روحُ يسوع المسيح في روحي على سبيل التمثّل والبروز°. (تحفة قيصرية (أردو)، الخزائن الروحانية المجلد ١٢ ص ٢٧٣)

والحقّ أن ظهور عصا موسى عليه السلام على شكل ثعبان كبير كان من قبيل هذه الكشوف، وقد اتسع نطاق هذا الكشف حتى رآه فرعون وأصحابه فخافوا وارتجفت قلوبهم. وهذا الحادث يماثل تماما ما وقع لأبي جهل مرة كما ورد في الحديث؛ وذلك أنه كان لأحد الفقراء دَينٌ على أبي جهل، ولكنه كان يماطله. فجاء النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال له: إن أبا جهل مدينٌ لي، ولكنه لا يدفع مالي رغم أنني طالبته به مرارا، فساعدْني في استرداد مالي منه. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اشترك قبل بعثته في حلف قد أقسمَ جميع الأطراف فيه على نصرة المظلوم واسترداد الحق لصاحبه، فقام النبي صلى الله عليه وسلم معه مسرعَ الخطى إلى بيت أبي جهل، وذلك برغم أنه صلى الله عليه وسلم كان في تلك الأيام يواجه معارضة شديدة من قبل أهل مكة، وكان في خروجه في شوارعها وحيدًا خطر على حياته. ولكنه خرج مع الرجل غير مكترث بالعواقب، وطرق على أبي جهل بابه. فلما خرج قال له النبي صلى الله عليه وسلم: هل أنت مَدينٌ لهذا؟ قال: نعم.

° يجب أن لا يُسيء أحد فهم هذه العبارة فيظن أن حضرته عليه السلام كان يؤمن بعقيدة الحلول والتناسخ كما يعتقد البعض وخاصة الهندوس. كلا، بل إنه عليه السلام قد دحض هذه العقيدة صراحة في أماكن عديدة. ولأجل ذلك قد زاد هنا أيضًا كلمتي "التمثّل والبروز"، كما قال في كتابه "التبليغ" بعد تسجيل رؤيا له ما نصّه: "ولا نعني بهذه الواقعة كما يُعنَى في كتب أصحاب وحدة الوجود، وما نعني بذلك ما هو مذهب الحلوليين." (التبليغ ص ١٢٨) (المترجم)

قال ﷺ: فادفَعْ إليه ماله. فدخل أبوجهل بيته صامتًا وردّ المال لصاحبه. ولّما سمع أهل مكة بالخبر، أخذوا يلومون أبا جهل ويقولون: تنهانا عن طاعة محمد، وتخافه لدرجة أنك تدخل أمامه البيت صامتا وتأتي بالمال وتسلّمه لصاحبه. فأجابهم أبو جهل: إنكم لا تدرون ما حدث معي. فإني لما فتحتُ الباب ورأيت محمدا وجدت على يمينه وشماله جملَين هائجين، فأيقنت أنهما سيفترسانني إذا رفضتُ طلبه، فلم أر بُدًّا من سداد الدين. (السيرة النبوية لابن هشام: المجلد الثاني، أمرُ الإراشي الذي باع أبا جهل إبله)

وهذا المشهد الذي رآه أبو جهل كان أيضا من قبيل الكشوف، إذ لم يكن على يمين النبي ﷺ ولا شماله أي جمل هائج في الظاهر.

وكان هناك هندوسي من مدينة لاهور وكان يعمل محاسبا، فجاء مرة إلى قاديان في مناسبة عرس، وكان خبيرًا في علم التنويم المغناطيسي، وكان بنيته أن يمارسه على المسيح الموعود ؑ في مجلسه فيرقص ويُفتضح بين الناس. وقد ذكر هذا الهندوسي بنفسه هذا الحادث لأحد الأحمديين اسمه "ميان عبد العزيز مُغل" وذلك حين أعطاه المسيح الموعود ؑ كتابا من كتبه ليوصله إلى ذلك الهندوسي. فذهب ميان عبد العزيز إليه بالكتاب، وقال له: لماذا بعث إليك حضرة الميرزا هذا الكتاب، وما هي نوعية العلاقة بينك وبينه؟ فحكى له قصته مع المسيح الموعود ؑ وقال: إني أملك مهارة عالية في التنويم المغناطيسي بحيث لو ركّزتُ على شخص راكب في عربة حصان لنـــزل منها وأخذ يجري وراءها، وإن لم يكن بيني وبينه أي معرفة سابقة. ثم قال: كنتُ سمعت من الآريين الهندوس الكثير ضد حضرة الميرزا، فقررت أن أمارس عليه التنويم المغناطيسي لأفضحه أمام مريديه. فجئت قاديان في حفلة عرس وقصدت مجلسه، فوجدته يلقي خطاباً أمام الناس. فجلستُ عند باب المسجد، وبدأت أركّز عليه، فلم يتأثّر مطلقاً. فقلت في نفسي: إنه قوي الإرادة جداً، فعليّ أن أركّز عليه بشدة أكثر. ففعلت ولكن بدون جدوى، حيث ظلّ يحدّث الناس على ما يرام. فأدركت أن قوته الإرادية أشدّ مما ظننت. فبدأت أبذل كل ما في وسعي للتركيز عليه. وحين ركزتُ عليه هذه المرة رأيت على

مقربة منّي أسداً، فارتعدت فرائصي برؤيته. فلُمتُ نفسي بأني قد أصبحت فريسة للأوهام، إذ من المستحيل وجود أسد هنا. فعاودت التركيز عليه، فإذا الأسد قد اقترب مني، فأخذتْ جسمي رجفةٌ برؤيته، ولكني استجمعتُ قواي وحواسّي، واستأنفت التركيز عليه مستنــــزفًا طاقتي كلها، فوجدت الأسد قد انقضّ عليّ. فصرختُ بصوت عال من شدة الخوف، وأخذتُ حذائي وهربت. فلما سمع حضرة الميرزا المحترم صراخي قال لمريديه: انظروا، من هذا الذي هرب، وماذا حصل به؟ فطاردني شخصٌ وأمسكني في الميدان القريب من المسجد، وكان الهلع قد بلغ مني كل مبلغ، فتوسلت إليه أن يتركني لأني خائف جداً، فخلّى سبيلي. ثم بعد ذلك كتبتُ لحضرته الحادثَ كله، وقلت له: لقد أسأتُ إليك إساءة بالغة، حيث لم أعرف مكانتك الروحانية. لا شك أنك من كبار الصالحين الواصلين بالله تعالى، فاعف عني.

وكان ميان عبد العزيز مُغل يحكي لنا أنه سأل هذا الهندوسي: لماذا لم تستنتج من هذا الحادث أن حضرة الميرزا هو الآخر ماهرٌ في التنويم المغناطيسي، بل هو أعلم منك؟ فأجاب: كلا، لأن التنويم المغناطيسي يتطلب تركيزاً، ولا يمكن أن يمارسه المرء إلا إذا كان هادئا صامتًا، أما حضرة الميرزا فكان يتحدث مع أصحابه في ذلك الوقت، فعلمتُ أن قوته الإرادية قوة سماوية وليست أرضية، وأنه من عباد الله الواصلين. (سيرت المهدي (أردو) ص ٤٨-٤٩)

وقد ظلّ هذا الهندوسيّ طوال حياته يكنّ احترامًا وحبًّا كبيرين تجاه المسيح الموعود عليه السلام ويراسله دائمًا.

كذلك تنبأ المسيح الموعود عليه السلام عام ١٨٩٣م عن القسيس عبد الله آتم أنه سيُلقَى في الهاوية وتُضرب عليه الذلّة خلال خمسة عشر شهرًا إلا أن يرجع إلى الحق. فاستولى على قلب "آتم" الرعبُ من هذه النبوءة، وأخذ يرى مناظر مروعة جدًا. فذات مرة رأى في مدينة "أمرتسار" ثعبانًا مخيفًا، فأصابه الذعر الشديد حتى ترك أهله وأولاده وفرّ إلى مدينة "لدهيانا" ليقيم عند صهرٍ له. ولكنه لم يذق طعم الراحة هناك أيضًا، حيث رأى أناسًا مسلحين بالرماح يريدون قتله، ودخلوا داره. فأصيب

بالهلع وهرب إلى مدينة "فيروزبور" ليقيم عند صهرٍ آخر له. ولكنه رأى هنالك أيضًا أناسًا مسلحين بالبنادق والسيوف ويريدون الهجوم عليه. وباختصار قضى "آتم" تلك الأشهر الخمسة عشر في فزع وكربٍ، وظلّ يهرب من مكان إلى مكان. (أنجام آتم (أردو) الخزائن الروحانية المجلد ١١ ص ٨-٩)

إن هذه المشاهد التي رآها "آتم" إنما كانت من قبيل الكشوف في الواقع، إذ لو كان هناك أي ثعبان ماديّ لقتَله "آتم" بدون صعوبةٍ بالغة، ولو كان ثمة بشرٌ يريدون الهجوم عليه بالفعل لما كان إلقاء القبض عليهم صعبًا. ولكن هذه الأشياء لم يرها إلا آتم، وهو الذي قد تحدث عنها بنفسه.

فكما أن أبا جهل رأى جملين هائجين، وكما أن الهندوسي من لاهور رأى أسدًا يريد افتراسه، وكما أن عبد الله "آتم" رأى الثعابين والناس المسلحين بالبنادق والسيوف والرماح يريدون قتله، كذلك رأى فرعون عصا موسى على شكل ثعبان واضح، فارتعد منه خوفًا.

لا شك أن فرعون ظنّ عصا موسى عليه السلام ثعبانا ماديًّا، ولكن تأويله في الواقع أن جماعة موسى عليه السلام ستلتهم فرعون وجنوده كما تلتهم الأفعى الناس، وأن بني إسرائيل الذين لم يكن فرعون يريد أن يرسلهم مع موسى سيتسببون في هلاكه ودماره، فيصبح موسى من الغالبين. فقد ورد في كتب التعبير: "مَن رأى أنه مَلكَ ثعبانًا فإنه يصيب سلطانًا عظيمًا". (تعطير الأنام في تعبير المنام: كلمة ثعبان)

إذًا، فكان هذا الكشف يتضمن نبأً عن غلبة موسى عليه السلام وجماعته ودمار فرعون وقومه. كما كان يمثّل تحذيرًا لفرعون بأنه لا بد من بقاء بني إسرائيل تحت إشراف موسى، وإلا فسوف يتأثرون بعادات فرعون وأخلاقه الذميمة، وبالتالي لن يعودوا أناسا بل سيصبحون ثعابين. سيصبحون - مثل الثعبان الذي يأكل تراب الأرض - ديدانَ الأرض بدلاً من أن يكونوا جماعة نشيطة قوية. ولكن فرعون لم يدرك مغزى هذا المشهد من الكشف، وظن أن موسى عليه السلام ساحر كبير وحوّل العصا ثعبانًا بقوة سحره.

وليكن معلومًا أن القرآن الكريم قد استعمل لبيان تحوّل عصا موسى إلى ثعبان ثلاث كلمات، أُولاها كلمة ﴿ثعبان﴾ التي وردت في الآية التي هي قيد التفسير، وأيضًا في الآية رقم ١٠٨ من سورة الأعراف. وثانيتها كلمة ﴿حيّة﴾ التي وردت في سورة "طه" الآية رقم ٢١، وثالثتها كلمة ﴿جانّ﴾ وذلك في سورة النمل الآية رقم ١١، وسورة القصص الآية رقم ٣٢.

ويعترض أعداء الإسلام جهلاً منهم ويقولون: لماذا استعمل القرآن الكريم كلمات مختلفة لبيان أمر واحد، فهذا دليل على وجود اختلاف فيه؟

والحقّ أن اعتراضهم إنما منشأه قلّة التدبّر، فلو أعملوا الفكر لما وجدوا أي اختلاف. الواقع أن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه في بلاط فرعون ظهر للناس ثعبانًا، وكلما ذكر القرآن الكريم ما وقع في البلاط، استعمل لفظ الثعبان فقط؛ إذًا فليس ثمة اختلاف فيه فيما يتعلق بحادث البلاط. أما كلمتا ﴿حيّة﴾ و﴿جانّ﴾ فقد استعملهما القرآن الكريم حين تحدّث عن تشريف الله موسى بكلامه وأمره بالذهاب إلى فرعون، فعندما أمره الله سبحانه وتعالى في تلك المناسبة أن يلقي عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾(طه:٢١) ولفظ الحيّة يطلق على الأفاعي الصغيرة منها والكبيرة. أما في سورة النمل والقصص فقد قال الله سبحانه وتعالى عند الحديث عن نفس الموضوع والمناسبة: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾(النمل:١١).. أي لما رأى موسى عصاه تهتزّ كأنها أفعى صغيرة، ولّى مدبرا و لم ينظر إلى الوراء. وقد وردت نفس الكلمات أيضًا في سورة القصص (الآية:٣٢) عند الحديث عن الحادث نفسه.

إذًا، فلو كان ثمة مجال للاعتراض فإنما هو أن يقال: لماذا استخدم القرآن لفظ ﴿حيّة﴾ في مكان ولفظ ﴿جانّ﴾ في مكان آخر مشيرًا إلى مناسبة واحدة؟ أما استعمال القرآن الكريم لفظ ﴿ثعبان﴾ فلا يجوز الاعتراض عليه مطلقًا كما بينتُ آنفًا إذ قد استعمله بصدد مناسبة أخرى.

فليكن معلومًا - بصدد الاعتراض الذي يثار على ورود كلمتين مختلفتين عن مناسبة واحدة - أن القرآن الكريم لم يقل في سورة النمل ولا في سورة القصص في

وصف العصا "أنها جانّ"، بل قال في وصفها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾.. أي أنها كانت حيّةً كبيرةً وكانت تتحرك بسرعة كما تتحرك الحيّة الصغيرة. إذًا، فلا تعارُض بين اللفظين اللذين استخدمهما القرآن الكريم، لأنه حين استعمل لفظ ﴿جَانٌّ﴾ فإنما أراد به الإشارة إلى سرعة حركتها لا إلى ضخامتها.. أي حين ألقى موسى عصاه أخذت تسعى بسرعة كما تتحرك الحيّة الصغيرة بسرعة. وإذا فحصنا الآيات التي استعمل فيها القرآن الكريم لفظ ﴿ثعبان﴾، لتبيّن لنا أنها تتحدّث عن الحادث الذي وقع أمام فرعون في بلاطه، وحيث إن الله ﷻ أراد تخويف فرعون، فقد تراءت له العصا على صورة ثعبانٍ عظيم. فالحقّ أنه لا تعارُض بين آيات القرآن الكريم، وإنما نشأت هذه الاعتراضات في قلوب هؤلاء القوم نتيجة قلّة التدبّر وجهلهم باللغة العربية.

والمعجزة الثانية التي ظهرت بهذه المناسبة هي أن موسى عليه السلام لما أخرج يده من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾. وهذا أيضًا كشفٌ من الكشوف أراه الله فرعونَ وأصحابه أيضًا، وكان يتضمّن الإشارة بأنكم، يا أتباعَ فرعون الماهرين في علم المِسْمَرِيّة (التنويم المغناطيسي)، تعرفون جيدًا أن اللون الأبيض يرمز إلى الصلاح والورع وطهارة القلب، فظهور يد موسى بيضاءَ دليلٌ على أنه طاهر القلب منـــزه عن العيب، ولا يشوب ما يقوله لكم كذب ولا افتراء. لو ظهرت يده سوداء لكانت دليلا على سواد قلبه وظلام باطنه، ولكنكم ترون يده بيضاء تلمع وتبهر العيون كالشمس، فبإمكانكم أن تعرفوا، بناءً على مهارتكم في هذا العلم، أنه شخص صالح طاهر، وبالتالي عليكم بتصديق قوله.

كما أن يد موسى البيضاء كانت إشارة إلى وقوع انقلابات عظيمة على يده، وأنها لن تقع نتيجة ظلم وعدوان أو مكر وغش وكذب وافتراء من قبل موسى، بل بسبب تأييد الله تعالى ومعجزاته التي ستتحقق ببركة دعاء موسى ربه ﷻ، وأن الجماعة الروحانية التي يتمّ تأسيسها على يد موسى عليه السلام ستضيء العالم بأنوارها لا محالة. وكما أن الشمس والقمر يبدّدان الظلمات، كذلك فإن الآيات التي ستظهر

على يد موسى ستبدد الظلمات التي تحيط بقلوب الناس وسيقوم حكم الرحمن مكان حكم الشيطان.

هذا، وكان هذا الكشف إشارة إلى طهارة قوم موسى عليه السلام أيضا، ذلك أن اليد تأويلها القوم أيضًا إلى جانب الأخ والابن والأقارب الآخرين (تعطير الأنام: كلمة يد)، لأن أفراد القوم يقوّي بعضهم بعضًا ويساعد بعضهم بعضًا في المحن والشدائد. فكان ظهور يد موسى في الكشف بيضاء لا عيب فيها يعني أنه مما لا شك فيه أن بني إسرائيل موصومون بعيوب كثيرة الآن، ولكنهم حين يجتمعون على يد موسى فسوف يزودهم الله سبحانه وتعالى بأنواره حتى يكونوا هداة للضّالين ويحوزوا في الأخلاق والروحانية درجات عُلا.

ويتساءل البعض ويقول: كيف يمكن خروج الأشعة من جسم الإنسان على هذا النحو حتى يراها الآخرون أيضًا؟ فاعلم أن هذا التساؤل إنما سببه أن الناس يظنون هذه المعجزة معجزة مادّية، ولو أنهم اعتبروها كشفًا من الكشوف، لما نشأت هذه الوساوس في قلوبهم. فإننا قد شاهدنا في هذا الزمن أيضا - ناهيك عن زمن موسى عليه السلام - آيات مماثلة حيث رأى فيها أصحاب البصيرة الكشفية أنوار الله سبحانه وتعالى متمثلة في الظاهر وتمتعوا بتأثيرها الروحاني. فقد ذهب المسيح الموعود عليه السلام إلى لاهور عام ١٩٠٤م وألقى هناك خطابًا في اجتماع. وكان من بين الحضور محامٍ من غير جماعتنا اسمه "شيخ رحمت الله". ويقول هذا المحامي إنه رأى عمودا من نورٍ يخرج من رأس المسيح الموعود عليه السلام أثناء خطابه ويصعد إلى السماء. وكان معه صديق آخر فقال له: انظر إلى ذلك! فقال صاحبه من فوره: إنه عمود من نور يخرج من رأس حضرة الميرزا ويصل إلى السماء. وقد ترك هذا المنظر في قلب "شيخ رحمت الله" وقعًا كبيرًا، فبايع على يد المسيح الموعود عليه السلام في نفس اليوم. (جريدة "الفضل" ١٥ سبتمبر/أيلول ١٩٤٤م ص ٢)

وذات مرة صام المسيح الموعود عليه السلام بأمر الله سبحانه وتعالى ستة أشهر متتالية. يقول حضرته عن التأثير الروحاني لذلك الصيام ما تعريبه:

"ومن التأثيرات العجيبة التي جرّبتها نتيجة ذلك الصيام مكاشفاتٌ لطيفة انكشفت عليّ في تلك الأيام، حيث لقيتُ بعض الأنبياء السابقين، وقابلت كبار أولياء هذه الأمة الذين خلوا من قبل. كما رأيت أنوارًا روحانية متمثلة على شكل أعمدة حمراء وبيضاء، تبلغ من الجمال والروعة ما لا أستطيع وصفه مطلقا. وكانت لتلك الأعمدة النورانية - التي كانت تصعد إلى السماء رأسًا وكانت بعضها بيضاء ناصعة لامعة وبعضها خضراء وبعضها حمراء - علاقةٌ عجيبة بالقلب حيث كانت رؤيتها تغمر القلب سرورًا وحبورًا، وليست في الدنيا لذة تماثل اللذةَ التي كان يتمتع بها قلبي وروحي برؤية تلك الأعمدة. وظنّي أنها تمثّلت في الظاهر نتيجة امتزاج حبّ الله وحبّ العبد.. أعني أن نورًا صعد من قلب العبد ونورًا آخر نزل من السماء، وعندما اتصلا تحوَّلا عمودًا. وهذه أمور روحانية لا يمكن أن تعرفها الدنيا لأنها بعيدة عن أعينها، ولكن هناك أناس في الدنيا يُطْلَعون على هذه الأمور". (كتاب البرية، الخزائن الروحانية المجلد ١٣ ص ١٩٨-١٩٩ الهامش)

كذلك قال العَلَيْهِ في مناسبة أخرى ما تعريبه: " لقد رأيت أن فيوض الله تعالى تذهب إلى النبي ﷺ في شكل نوراني عجيب، وعندما تصل إليه ﷺ تسري في صدره، ثم تخرج منه في شكل أنابيب لا تُعَدّ ولا تحصى، وتصل إلى كل مستحقّ بقدر نصيبه." (جريدة الحكم ٢٨ فبراير/شباط ١٩٠٣م صفحة ٧)

وذات مرّة تشرّف المسيح الموعود العَلَيْهِ بلقاء النبي ﷺ في رؤيا حيث رأى أن جبينه ﷺ المبارك يسطع كما تسطع أشعّة الشمس. (براهين أحمدية (أردو) الأجزاء الأربعة، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٢٧٤-٢٧٦ الهامش)

وقبل أن يُقرأ مقاله العَلَيْهِ في المؤتمر الأعظم للأديان في لاهور، رأى المسيح الموعود العَلَيْهِ رؤيا، فقال: رأيت "أن يدًا من الغيب حطّتْ على قصري، فخرج منه نورٌ ساطع انتشر فيما حوله، ووقع على يديَّ أيضا". (مجموعة اشتهارات (أردو) المجلد ٢ ص ٢٩٣-٢٩٥ رقم الاشتهار ١٤٩)

باختصار، إن الذين يُبعَثون لإصلاح الخلق يجعلهم الله ﷻ مهبطًا لأنواره وتجلياته، وتتجلى هذه الأنوار في بعض الأحيان تجليًا ظاهرًا أيضًا، حتى يراها

الآخرون، لكي ينتفع منها أصحاب الفطرة السعيدة ويُحدثوا تغيّرًا طيّبًا في قلوبهم. وقد تمثّل لي أيضًا نور الله ﷻ في الظاهر، ففي عام ١٩١٠ أو ١٩١١م، أصابتني الحمّى وبدأت أشعر في منبت الفخذ ألمًا شديدا. وكان بعض الناس قد ماتوا في تلك الأيام بسبب الطاعون، فخفتُ أن أكون مصابًا به. فأغلقتُ عليّ باب الغرفة وأخذت أفكر في مصيري. وبينما أنا في ذلك وعيوني مفتوحة وأرى غرفتي وجدرانها وكل ما فيها، طرأت عليّ حالة الكشف، فرأيت نورًا ناصعًا لامعًا للغاية يسطع من أرضية الغرفة ويشقّ سقفها صاعدًا إلى السماء، وليس له بداية ولا نهاية. ثم رأيت يدًا تخرج من هذا النور حاملة قدحًا مليئًا باللبن وتناولني إيّاه، فشربت اللبن. ولما فرغت من شربه، رأيت أنه ليس بي ألم ولا حمى ولا أثر للمرض، بل أصبحت على ما يرام.

وأحيانًا يرى المرء أشعّة تخرج من الآخرين وتكشف عليه أفكارهم الباطنة، فيعرف ما إذا كانوا من المؤمنين الصادقين أم لا. ولقد جربت مرارًا أن المرء يحدّثني فأشعر أن روحي تصطدم بروحه فتعلم أنها روحُ منافق. كذلك يُبدي لي البعض إخلاصًا عظيما ويهمّ بتقبيل يدي، ولكنه حينما يقبلها أشعر بأنه قد لطّخ يدي بنجاسته وأنه لا يكلّمني بل يسبّني. ذلك لأن الله ﷻ يكشف على المرء سرائر الآخرين بحيث أن المتحدث يتكلم حينًا بما يدلّ على ما يكنّ في باطنه، أو تسطع حينًا من قلبه أشعة دقيقة وتقع على قلب الآخر، فينكشف عليه ما يظنّه صاحبه أنه لا يزال مستورًا في قلبه. ذلك لأن من عباد الله ﷻ من ينفذ بصره - رغم أنه بصرُ إنسان - إلى قلوب الآخرين، فيكشف عليه ما يكون خفيًا على الآخرين، ولكن بما أن هذا العبد يلبس رداء ربه الستّار ﷻ، فيستر عيوبهم مثله ﷻ. إنه لا يخبر الناس عيوبهم لأن أفكارهم لا تنكشف عليهم، وإنما يفعل ذلك لأن الله تعالى لا يريد أن يهتك سترهم. أتذكّر جيدًا أن امرأة بهائية جاءت إلى قاديان وظلّت تناقشني أيامًا في مسائل مختلفة بدون أن يؤثر فيها كلامي. وشعرتُ ذات يوم أثناء الحوار أن شيئا يخرج من جسمي ويصطدم بها ولا ينفذ فيها، فدعوت الله ﷻ، فرأيت أن هذا الشيء الذي كان يصطدم بها بدأ ينفذ فيها، وكانت النتيجة أن هذه السيدة التي

كانت تناقشني بكل حماس أصيبت بالذعر فجأة وتوقفت عن الجدال وقالت لي: عليّ أن أذهب الآن لأن ابني مريض، مع أنه لم يكن به مرض.

مجمل القول إنه تنبع من أجساد أنبياء الله وأوليائه أشعة شتى ذات ألوان مختلفة بحسب درجتهم الروحانية، ولكنها لا تُرى بالعين المادية، إنما تُرى بالعيون الكشفية التي تتيسر بفضل الله ﷻ.

هذا هو النور الذي سطع من يد موسى ، فرآه فرعون وحاشيته أيضا بقدرة الله تعالى، ولكنهم كانوا جاهلين بالعلوم الروحانية فلم يعرفوا عظمة موسى ومكانته الرفيعة رغم رؤية هذه الآية العظيمة، بل ظنّوا أنه إنما فعل ذلك بقوة سحره.

إذًا، فقد تجلى الله ﷻ بجلاله وجماله على يد موسى ، وأعطاه آيتين: آية تحذيرية على شكل ثعبان، وآية تبشيرية على شكل يد بيضاء. وقد اعترفت التوراة بظهور آية تحوُّل العصا إلى ثعبان، ولكنها لا تعزوها إلى موسى بل إلى هارون عليهما السلام. أما آية اليد البيضاء فلم تذكر التوراة مطلقًا أن موسى قد أراها في بلاط فرعون. وهذا خطأ كبير من التوراة، وقد تداركه القرآن الكريم. والحق أن هناك شهادة داخلية في التوراة نفسها تدلّ على أن موسى قد أرى آية اليد البيضاء في البلاط، وذلك أنها تقرّ بأن الله تعالى لما أمر موسى بالذهاب إلى فرعون:

"فقال له الرب: ما هذه في يدك؟ فقال: عصا. فقال: اطرَحْها إلى الأرض. فطرحها إلى الأرض، فصارت حيّة. فهرب موسى منها." (الخروج ٤: ٢-٣)

كذلك ورد فيها:

"ثم قال له الرب أيضا: أَدْخِلْ يدك في عُبّك. فأدخل يده في عبّه، ثم أخرجها، وإذا يده برصاء مثل الثلج."(الخروج ٤: ٦)

لقد اعتبرت التوراة هنا بياض يد موسى نتيجة لمرض الجذام، وهذا أمر مخجل جدًا. لقد كان موسى نبيًّا من أنبياء الله تعالى، وكان المكان الذي كلّمه الله فيه مركزًا للتجليات الإلهية، وكان تكليم الله موسى في هذا المكان المقدس إنعامًا عظيمًا وكان الوقت وقت بركةٍ وفيوض ربانية، فكيف يمكن أن

ينـــزل - في ذلك المقام المبارك والوقت المبارك - عذاب من عند الله تعالى على موسى، فتصاب يده بالجذام؟ فالواقع أن يده لم يصبها الجذام قط، وإنما أصاب الجذامُ الروحاني قلبَ يهودي شقيّ نسب هذا العيب إلى موسى . ولذلك قد أضاف القرآن الكريم عند ذكر هذا الحادث كلمات ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾(طه:٢٣).. أي أن بياض يده لم يكن بسبب مرض، وإنما ابيضّت كآية من عند الله تعالى.

ونعود إلى الموضوع الأصلي ونقول إن التوراة بعد ذكر المعجزتين تقول:

"فيكون إذا لم يصدّقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدّقون صوت الآية الأخيرة." (الخروج ٤: ٨)

فلو أن فرعون آمن برؤية آية تحوُّل العصا إلى ثعبان لسلّمنا أنه لم تكن هناك حاجة لإظهار المعجزة الثانية، ولكنه ما دام لم يؤمن بالمعجزة الأولى فكان لزامًا - بحسب بيان التوراة نفسها - أن يريه موسى معجزة اليد البيضاء أيضًا. ولو أنه لم يؤمن أيضًا فكان عليه أن يُريه المعجزات الأخرى التي قد جاء ذكرها في التوراة والقرآن الكريم أيضًا. فقول التوراة إن فرعون إذا لم يؤمن برؤية المعجزة الأولى فعلى موسى أن يُريه المعجزة الثانية، يدلّ على أن موسى قد أراه المعجزتين كلتيهما. ولكن التوراة لما كانت قد تعرّضت للتحريف على أيدي الناس، فذكرت أن موسى قد أرى فرعون المعجزة الأولى دون أن تذكر المعجزة الثانية. بيد أن الشهادة الداخلية للتوراة تؤكد أن الله قد أمره بإراءة المعجزتين في بلاط فرعون. فالواقع أن ما ذكره القرآن الكريم هو الحق، وأن ما قالته التوراة هو باطل بشهادتها هي.

أما قول التوراة أن هارون هو الذي ألقى العصا في بلاط فرعون لا موسى (الخروج ٧: ١٠)، فهو قول خاطئ، لأن التوراة نفسها تعترف بأن الله تعالى قال لموسى لا لهارون:

"ما هذه في يدك؟ فقال: عصًا. فقال: اطرَحْها إلى الأرض. فطرحها إلى الأرض، فصارت حيّة. فهرب موسى منها. ثم قال الرب لموسى: مُدَّ يدك وأَمْسِكْ بذنَبها. فمدّ يده وأمسكَ به. فصارت عصًا في يده." (الخروج ٤: ٢-٤).

كما أن الله ﷻ قال لموسى لا لهارون إنهم إذا لم يؤمنوا برؤية المعجزة الأولى فسوف يؤمنون برؤية المعجزة الثانية. (الخروج ٤: ٨)

فما دام الحوار كلّه قد جرى مع موسى، وما دامت عصاه هي التي تحولت ثعبانًا، وما دام موسى هو الذي قال الله ﷻ له إن فرعون وملأه إذا لم يؤمنوا برؤية المعجزة الأولى فسيؤمنون برؤية المعجزة الثانية، فكيف يمكن أن يلقي هارون عصاه في بلاط فرعون بدلاً من موسى؟ فهذا أيضًا باطلٌ بالشهادة الداخلية للتوراة، وثبت أن ما قاله القرآن هو الصحيح.

باختصار، إن هاتين آيتان عظيمتان أظهرهما الله ﷻ على يد موسى ؑ. وبرغم أننا نعترف أن إلقاءَ موسى عصاه وتحوُّلَها إلى حية في أعين الناس، وضَرْبَ موسى البحر الأحمر فانفلاقه، وضَرْبَ موسى الصخرة فانفجار الماء منها، لآيات عظيمة، إلا أنه لا يسعنا سوى الإقرار بأنها لا تساوي شيئًا أمام معجزة العصا التي أُعطيها محمد ﷺ. لا شك أن عصا موسى ؑ كانت وثيقة الصلة بآيات عظيمة، ولكن لا يوجد لعصاه اليوم أثر في الدنيا! لقد بقيت عصاه في يده هو فقط، وانتهت آياتها بوفاته، ولكن العصا التي أعطاها الله محمدًا ﷺ لا يؤثر فيها موت إنسان أو مرور زمان، ولا تقدر أقوى دولة في العالم على كسرها. إنها عصا لا تأكلها سوس الأرض، ولا تفنيها صاعقة السماء. إنها عصًا لا تزال تشجّ رأس الكفر حتى اليوم وستظل تلقف فخاخ الشيطان وحباله إلى يوم القيامة. إنها القرآن الكريم الذي أُعطيه محمد ﷺ، وقيل للمسلمين ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾(الفرقان:٥٣).. أي أيها المسلمون، خذوا القرآن الكريم، وجاهدوا الكفار به جهادا كبيرا. وهذا يعني أن القرآن الكريم ليس كتابا فقط، بل هو سلاح ماضٍ أيضًا نستطيع به التصدّي للظلمات التي قد نشرها قوى الكفر والشيطان.

لقد نبّهنا الله تعالى بقوله ﴿بِهِ﴾ أن القرآن الكريم كما هو هدفٌ وغاية للإنسانية، فإنه الوسيلة لتحقيق ذلك الهدف أيضًا، بمعنى أنه ليس بحاجة إلى مساعدة محامٍ يقدّم الأدلّة والبراهين الروحانية على صدقه، بل إنه بنفسه يسوق الأدلة على صدق دعاويه، وبالتالي يرفع المستوى العقلي والفكري لدى الناس.

باختصار، يبلغ القرآن الكريم من السموّ والقوة بحيث يمكن به فتح العالم بدون اللجوء إلى السيوف والمدافع. لا شك أنه يوجد اليوم بين المسلمين الآخرين أيضًا صحوة وحماس للتضحية، ولكن هذا الحماس يدفع بهم إلى حمل السيوف والبنادق. إن مسلم اليوم أكثر صحوة ويقظة من المسلم الذي كان قبل قرن ونصف، ولكنه يسارع إلى تناول السيوف والبنادق والمدافع. إنه ينظر بحسرة إلى الذين يصنعون القنابل الذرية آملاً أنهم سيتصدقون عليه ببعض ما عندهم من السلاح، ولكن الله تعالى أخبرنا بواسطة المسيح الموعود عليه السلام أن مدفعكم القرآن، وأن بندقيتكم القرآن، وأن مسدسكم القرآن. إن السلاح الذي تدمغون به رأس العالم هو القرآن. لستم بحاجة إلى بنادق الإنجليز من أجل الفتح، ولستم بحاجة إلى أمريكا لتجود عليكم بقنبلة أو قنبلتين ذريتين، أو إلى فرنسا أو ألمانيا لتزودكم بالمواد الكيماوية، وإنما واجبكم أن تأخذوا القرآن بأيديكم لتفتحوا به العالم.

إن القرآن كتابٌ يولّد في قلب الإنسان خشية الله ويُرغِّبه إليه تعالى، ويلبّي له كل ضرورة طبعية وروحانية. قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾(الإسراء:٩٠).. أي أننا قد بيّنا في القرآن الكريم وبأساليب متنوعة كل ما تحتاج إليه طبائع البشر بكل أنواعها. الحق أن هناك أمرين اثنين يؤكدان فضل أي تعليم، أحدهما أن يشمل كل المواضيع والقضايا، وثانيهما أن يكون صالحًا لشرائح الناس كلها. والقرآن الكريم متّسم بكلتا الميزتين، أي ليس هناك إنسان لا يخاطبه القرآن، وليس هناك أمر لا يبينه القرآن. وما دام القرآن الكريم قد بيّن كل شيء، وما دام قد أنـــزل فيه جميع التعاليم المتنوعة، نظرًا إلى كل الطبائع البشرية، فكيف يمكن بعد ذلك أن لا يحظَى العاملون به بحب الله ولطفه؟ لا شكَّ أن موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء السابقين - عليهم السلام - قد حظوا بوصال الله تعالى بحسب إيماننا، ولكن قلوبنا لا تطمئن بهذا فقط، بل نود أن نحظى أيضا بحب الله تعالى، وليس الكتاب الحيّ إلا الذي يوصلنا بالله الحيّ، أما الكتاب الذي لا يوصلنا بربنا فوجوده وعدمه سِيَّان بالنسبة لنا. والله تعالى يعلن في

القرآن الكريم أنه قد أنــزل في القرآن الكريم ما يسدُّ كل ضرورة روحانية لكل إنسان، فكل من عمل به بصدق حظي بوصال الله تعالى وقربه.

وكذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ في القرآن الكريم أن يعلن للناس ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾(الأنعام:٢٠).. أي لقد أُوحي إلي هذا القرآن لأنفعكم به وأنفع كلَّ من يصله صوتي أيضًا. فالقرآن الكريم يعلن من ناحية أنه قد تناول جميع المواضيع والقضايا بالبيان، وأنه قد خاطب كل شريحة من شرائح الناس، كما يعلن من جهة أخرى أنه سينفع كل من يبلغه، لأنه قد نــزل لنفع كل من يصل إليه صوته.

إذًا، فالقرآن الكريم سلاح عظيم وُهب لمحمد رسول الله ﷺ. لقد ظهرت عصا موسى عليه السلام لفرعون وملئه على صورة ثعبان لوقت قصير فارتعشت أبدانهم لبعض الوقت، ولكن القرآن الكريم كتاب لا ينفك يقوم بالإنذار، ثم إن إنذاره ليس خاصًا بقوم دون قوم أو ببلد دون بلد، بل إنه موجه إلى كل الشعوب وجميع البلدان. ثم إنه أسمى من قيود الزمن أيضًا، فلن يأتي إلى يوم القيامة زمانٌ يتعطل فيه عمل القرآن الكريم كنذير مبين لأعداء الإسلام، أو تفقد فيه آياته المنذرة قدرتَها على سحق قوة الأعداء وجعلِ المسلمين غالبين.

ثم إن عصا موسى عليه السلام كانت لا تُري الآيات إلا ما دامت في يده، أما القرآن الكريم فإنه لا يزال كتابًا حيًّا لكل مؤمن صادق مخلص أيضًا كما كان بالنسبة للنبي ﷺ، ولا يزال يعطي كلَّ فرد مخلص من أفراد أمته ﷺ نصيبًا من معارفه وعلومه بقدر إيمانه وإخلاصه كما كان يمدُّه ﷺ من معدنه بجواهر الحقائق والمعارف التي لا تُعد ولا تُحصى؛ ذلك لأنه نــزل من الله الذي يعلم الغيب، والذي هو مطلع على أفكار الإنسان ومشاعره وعواطفه. إن أحدًا، مهما كانت خبرته واسعةً، لا يقدر على معرفة كل ما يختلج في قلوب البشر جميعًا من أفكار وخواطر وعواطف، إنما يقدر على ذلك مَنْ خلقهم، وهذا الخالق هو الذي يتكلم في القرآن الكريم، ولذلك يجد كلُّ إنسان في القرآن كل ما يحتاج إليه. نجد في الدنيا أن من الناس من يحتاج إلى الكتَّان من الأقمشة، ومنهم من يحتاج إلى الناعم منها، ومنهم من يحتاج إلى

السميك منها، ومنهم من يحتاج إلى الرقيق منها، ومنهم من يحتاج إلى الدافئ منها، ومنهم من يحتاج إلى الحرير والإستبرق منها. وعندما يخرج المرء من محل الثياب بعد شراء حاجته منها، فلا يكون في كيسه كل نوع من الثياب، وإنما توجد الثياب بكل أنواعها في المحل فقط الذي أقيم في القرية أو المدينة وفق حاجات الناس. وإنما مثل العالِم العادي كمثل شخص عادي يشتري الثياب، ومثل العالِم الكبير كمثل شخص ثري يشتري من المحل شتى أنواع الثياب بمقدار كبير وفق ضرورة أسرته، وستجد في أكياسه أنواعًا كثيرة من الثياب من ثوب رقيقٍ وسميكٍ وناعمٍ وحريرٍ وغيرها، ومع ذلك لن تجد في أكياسه كثيرًا من أنواع الثياب الأخرى، برغم أنه قد اشتراها بإنفاق آلاف الروبيات من المال. فلذلك كل من يطالع القرآن الكريم يغترف منه عقلُه بقدر حاجته، مهما كان ضئيل العلم، شريطة أن يحبّ القرآنَ الكريم، ذلك لأن مثال القرآن الكريم كمثال الدنيا التي تخرجون إلى غاباتها، ويقطع كل واحد منكم شجرة أو أخرى بحسب حاجته، ولكن لا تعرفون ماهية المعادن المدفونة في أرض تلك الغابات، كذلك فإن الذين يستوعبون معارف القرآن الكريم يمكن أن يكونوا مساعدين للآخرين في فهمه، ولكنهم لا يمكن أن يقوموا مقام القرآن الكريم؛ إنما القرآن هو الذي يقوم مقامه. إن أي إنسان، ولو كان أكبر مفسر بل لو كان نبيًا أيضًا، لن يكون إلا مؤيِّدًا ومعينًا للقرآن الكريم، ولكنه لن يقوم مقامه أبدًا؛ بل إن الإنسان الذي كان بنفسه القرآن - أعني محمدًا رسول الله ﷺ - أيضًا لا يمكن أن يقوم مقامه؛ ذلك لأن الأرض التي توجد فيها عنصر "اليورانيوم" - الذي تُصنَع منه القنبلة الذرية — أيضًا لا تدرك الدفائن الموجودة في بطنها، وإن الأمّ التي تحمل في بطنها جنينها تسعة أشهر أيضًا لا تعرف تماما قدراته وكفاءاته. إن القرآن قرآن، والإنسان إنسان. إن القرآن يظهَر لقارئه بحلّة جديدة عند كل مناسبة جديدة وضرورة جديدة وعاطفة جديدة وفكرة جديدة. إنه يقابل كل من يبحث عنه بلباس جديد، ويفتح لكل من يبتغيه بابًا جديدًا. فأَحِبّوا القرآن الكريم واعشقوه، وعَوِّدوا أنفسكم على التدبّر فيه، إذ من المحال أن يتولد في القلوب حب الله تعالى والروح الإسلامية الصادقة بدون التدبّر في القرآن. وقد

أشار مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام إلى هذه الميزة القرآنية نفسها في بيت شعر له بالأردية فقال:

پہلے سمجھے تھے کہ موسیٰ کا عصا ہے فرقاں
پھر جو سوچا تو ہر اک لفظ مسیحا نکلا

(براهين أحمدية (أردو) الأجزاء الأربعة، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٣٠٥)

أي كنا نظن من قبل أن القرآن الكريم يماثل عصا موسى حيث يمزّق بقوة أدلته وبراهينه ومعجزاته وآياته كلَّ الأحابيل التي ينشرها أعداء الإسلام كما التهمت عصا موسى ثعابين السحرة، ولكننا حين أعملنا الفكر وتدبّرنا مزايا القرآن الكريم بعمق أكثر، تبيّن لنا أنه أفضل من عصا موسى بملايين المرات، لأن عصاه إنما فضحت السحرة فقط والتهمت ثعابينهم، أما القرآن الكريم فلا يقضي على أعداء الإسلام كقائد نشيط محنّك فحسب، بل إن كل كلمة من كلماته تحيي الأموات وتنفخ فيهم الروح. وبتعبير آخر، عصا موسى لم تكسر إلا رأس العدو فقط، وقضت عليه قضاء روحانيًا فحسب، ولكن القرآن الذي أتى به محمدٌ ﷺ لا يُهلك الأعداء فقط، بل يهب لهم حياة جديدة، ويجعلهم من المقربين عند الله سبحانه وتعالى. وهذا يعني أنه لا يتميز بخصوصية دفع الشرّ فقط، بل يتميّز بميزة إيصال الخير على أتم وجه أيضًا، حيث يحيي الأموات.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه الميزة القرآنية في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٥)، فهذه الآية صريحة في أن القرآن الكريم قد جاء لإحياء الموتى. ولا شك أن العمل بالقرآن الكريم يجعل العُمْي يبصرون، والصُمّ يسمعون، والعُرْج يمشون، بل إنه يعيد الموتى الروحانيين إلى الحياة الروحانية ثانية. هذه هي الروح التي أحدثت الثورة في الجزيرة العربية، فإن الذين كانوا يسجدون للأصنام والجماد، ويستمتعون بارتكاب الفواحش بجميع أنواعها، أخذوا يعبدون الله وحده ويقدّمون رؤوسهم للذبح في سبيل الله كما تُذبح الشاة والمعز، وظلوا يزدادون حظوة وقربا عند الله سبحانه وتعالى.

إذًا، فلا قيمة لعصا موسى عليه السلام إزاء هذا الإنعام العظيم الذي ناله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي لا يزال يشكّل حتى اليوم برهانًا قاطعًا ضد أعداء الدين.

والآية الثانية التي أراها موسى عليه السلام في بلاط فرعون هي أنهم رأوا يده بيضاء نورانية. لا شك أنها آية عظيمة دلت على ما تبوَّأه موسى عليه السلام من مكانة سامية من الطهارة وقرب الله تعالى، كما كانت إشارة إلى البركات التي كان ظهورها مقدّرًا على يده، ولكن الله تعالى قد فضّل النبي صلى الله عليه وسلم على موسى في هذا المجال أيضًا؛ ذلك أن آية موسى عليه السلام هي أن يده ظهرت للناس بيضاء، أما محمدٌ صلى الله عليه وسلم فقد سماه الله تعالى نورًا مجسّدًا، حيث بشّر الإنسانية بمجيئه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾(النساء:١٧٥)، وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾(المائدة:١٦). فترى أن الأشعة النورانية لم تسطع إلا من إحدى يدي موسى عليه السلام فقط، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد اعتبره الله تعالى نورًا متجسدًا، ذلك لأن موسى عليه السلام إنما جاء لإصلاح بني إسرائيل فقط، بينما بُعث محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لإصلاح العالم كلّه.

ومما لا شك فيه أن يد موسى عليه السلام بدت نورانية، ولكنها كانت يده هو في كل حال، أما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اعتبر الله يده يدًا له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(الفتح:١١).. أي أن الناس يرون في الظاهر أنها يد محمد، ولكنها في الواقع يد الله سبحانه وتعالى.

وفي غزوة بدر رمى النبي صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى، فهبّت ريح عاصفة أعمتْ عيون الكفار، وقال الله تعالى مشيرًا إلى هذا الحادث: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(الأنفال:١٨).

وكان بياض يد موسى عليه السلام إشارة إلى ما سيتبوّؤه قومه من مقام عال في الطهارة والروحانية وما سيقدّمونه من تضحيات عظيمة في سبيل الدين. ونجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أفضل من موسى عليه السلام من هذا المنطلق أيضًا. لقد وعد الله سبحانه وتعالى قوم موسى عليه السلام بأرض كنعان، ولما خرج بهم موسى من مصر ووصل إلى كنعان، قال لهم: هلموا حاربوا أهل هذه الأرض واستولوا عليها. فظن قومه خطأً أن الله تعالى ما دام

قد وعدهم بهذه الأرض، فهو الذي ينجز لهم وعده هذا ويضع هذه البلاد في قبضتهم، أما إذا فتحوها بالحرب فما الجدوى من الوعد الإلهي؟ فقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥). فأغضبوا الله تعالى بقولهم، فأعلن الله تعالى: لن يدخلوا هذه الأرض الآن، بل سيظلون تائهين في البراري والفلوات أربعين سنة. ثم تُوفق أجيالهم فيدخلون هذه الأرض باذلين أرواحهم وينالون ما وعدهم الله به من النعم.

لقد منّ الله ﷻ على قوم موسى عليه السلام منّة عظيمة حيث رأوا بأم أعينهم آية ربانية عظيمة إذ قام بتحريرهم من عبودية فرعون وأنقذ أجيالهم من أعمال وضيعة كصنع اللَبِن وقطع الخشب، ومع ذلك رفضوا أوامر موسى عليه السلام إذ أمرهم بشن الهجوم على قوم عاد الحاكمين على أرض كنعان ليستولوا عليها، فقالوا: لا طاقة لنا بقتالهم، فاذهب أنت وربك فقاتلا، وعندما يهلك العدو ونأمن جانبه، سنأخذ زمام الحكم من أيديه. أما نبيّنا ﷺ فقد أعطاه الله أصحابًا لم يجيبوه قط بأننا لن نقاتل معك، بل قاتلوا عن يمينه وعن شماله ومن أمامه ومن ورائه، مؤكدين صدق دعوى فدائهم له في كل موطن حرج. ورد في السيرة أن النبي ﷺ تلقّى بعد هجرته إلى المدينة خبرًا بأن أبا سفيان آتٍ من قبل الشام في قافلة تجارية محرّضًا جميع القبائل في طريقه ضد المسلمين. ولما كان طريق هذه القافلة يمر قريبا من المدينة فكانت جميع القبائل المقيمة حول المدينة تبيع وتشتري منها، وكانت تربطهم بها علاقات تجارية قوية. ولما علِم النبي ﷺ بأن أبا سفيان سيمرّ قريبًا من المدينة بهذه القافلة التي تحرض الناس على المسلمين، وأن أهل مكة قد خرجوا بجيش لحماية قافلتهم التجارية مخافة هجوم أهل المدينة عليها، استشار ﷺ أصحابه قائلا: لو بقينا في المدينة بدون حراك فإن العدو سيتجاسر علينا أكثر، فعلينا الخروج من المدينة كي لا يظن العدو أننا نخافه. فخرج ﷺ بجماعة من أصحابه من المدينة ووصل إلى بدر. وكان ﷺ يعلم بناء على الإشارات الإلهية أن جيشا للمكيين قادم وأن المسلمين سيشتبكون معه، ولكن لم يُسمح له ﷺ بكشف هذا الخبر السماوي لأحد؛ ولذلك لم يخرج مع النبي ﷺ إلا قليل من الناس، إذ ظنوا أنهم لا يخرجون للحرب وإنما لإلقاء الرعب في

قلب العدو. ولما وصل النبي ﷺ قريبا من بدر قرر كشف الحقيقة لهم، فجمع أصحابه وقال: أيها الناس، لقد أخبرني الله تعالى أن جيشًا للعدو قد اقترب، وربما نشتبك معه بدلاً من القافلة التجارية، فماذا ترون الآن؟ فأخذ المهاجرون يقف الواحد منهم تلو الآخر ويقول: يا رسول الله، إننا مستعدّون للقتال. ولكن الأنصار ظلوا صامتين، ذلك لأن الجيش القادم من مكة كان مشتملاً على أقارب المهاجرين من أخ وعمّ وخال وزوج أخت أو أخي زوجٍ وما إلى ذلك، فظن الأنصار أنهم لو قالوا للرسول ﷺ إنهم مستعدون لقتالهم، فربما يقول المهاجرون إنهم يريدون قتال أقاربهم، فالتزموا الصمت مراعين مشاعر المهاجرين وتكريمًا لهم إذ كانوا ضيوفًا عليهم. أما المهاجرون فكانوا يعبّرون الواحد تلو الآخر عن حماسهم للفداء والتضحية. ولكن النبي ﷺ ظلّ يقول في كل مرة: أيها الناس أشيروا عليّ. ولما أعاد ﷺ قوله هذا مرارًا قام أنصاريّ وقال: يا رسول الله، إن الناس يشيرون عليك ومع ذلك تعيد قولك: أشيروا عليّ أيها الناس! فربما تعنينا نحن الأنصار لنبدي رأينا؟ فقال النبي ﷺ: نعم، هذا هو قصدي. فقال الصحابي: يا رسول الله، لقد تعاهدنا في اتفاقية عقدناها معك وأنت في مكة بأن العدو إذا هاجمك في المدينة فسنحاربه معك، ولكنه لو حاربك خارج المدينة فلن نخرج معك للقائه إذ لا قِبل لنا بحرب العرب كلّهم؛ وربما تستشيرنا مرارًا بسبب تلك المعاهدة؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فقال الأنصاري في حماس شديد: يا رسول الله، عندما أبرمنا معك تلك المعاهدة، لم نكن نعرف مكانتك الحقيقية، فلم نر حرجًا في وضع هذه الشروط في المعاهدة. أما الآن فقد انكشفت علينا حقيقة الإسلام تمامًا وتبيّن لنا صدقك بكل جلاء، فكيف يمكن أن نشترط عليك بشيء؟ فلو أمرتنا الآن أن نخوض هذا البحر الذي أمامنا بخيلنا وركابنا لخضناه، ولو وقع القتال، يا رسول الله، فسنقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن أمامك ومن ورائك، ولن يخلص إليك العدو الذي هو أكثر منا قوة وعددًا إلا على جثثنا الهامدة. (البخاري: كتاب المغازي، باب قوله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾، والسيرة النبوية: غزوة بدر الكبرى)

هذا هو النموذج الذي قدّمه الصحابة. ثم إنهم لم يدّعوا الإخلاص والفداء بأفواههم فقط، بل بالفعل قدّموا تضحيات جسيمة في سبيل الإسلام ليل نهار، ضاربين أروع الأمثلة للفداء. حتى اضطر السير وليام موير أن يقول في كتابه حياة محمد (ﷺ) لقد جاء الكافرون عند غزوة الأحزاب بجيش عرمرم كانت هزيمة المسلمين أمامه أمرًا مؤكدًا، ولكن لم يحالفهم النصر رغم كثرتهم لأنهم ارتكبوا خطأ تكتيكيا، وهو أنهم كلما عبروا الخندق حاولوا، لغبائهم، التقدمَ إلى خيمة الرسول ﷺ الذي كان صحابته يفدونه بأرواحهم ومهجهم، فكلما رأوا أن الكفار يريدون الهجوم عليه حالوا بينه وبينهم ذكورًا وإناثًا وأطفالا كالمجانين، فكان الكافرون يضطرون للانسحاب في كل مرة. ولو أنهم لم يرتكبوا خطأ التوجه إلى خيمة محمد ﷺ لانتصروا في غزوة الأحزاب.

قصارى القول إن الصحابة قد ضربوا أمثلة رائعة للحب والفداء للنبي ﷺ ولا قيمة إزاءها لما فعله قوم موسى عليه السلام. فثبت أن اليد البيضاء لمحمد ﷺ كانت أفضل من اليد البيضاء لموسى، وأن عصا محمد - أي القرآن الكريم — هي أفضل من عصا موسى من كل النواحي.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ يُرِيدُ أَن
تُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوٓاْ
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٨﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ

﴿مَّعْلُومٍ ۝٣٩ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٤٠ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝٤١﴾

شرح الكلمات:

أَرْجِهْ: أرجهَ الأمرَ: أخَّره عن وقته. (الأقرب)

ميقات: الميقات: الوقت، وقيل: الوقت المضروب للشيء؛ والموعد الذي جُعل له وقت، وقد يستعار للموضع الذي جُعل وقتًا للشيء. (الأقرب)

التفسير: لقد رأى فرعون آية العصا واليد البيضاء، ولكنه كان جاهلا بعلوم الدين، فلم يدرك أن هذه الآية إنما هي كشف رآه الآخرون أيضًا، بل ظنّ أن موسى ساحر ماهر، والساحر لا يكون إنسانا ربّانيا، فظن فرعون أن وراء هذا السحر هدفًا وغرضًا وهو أن موسى يريد بقوة سحره أن يخرجه وقومه من أرضهم. و لم يفكّر هذا الغبي أن موسى قد سبق أن قال له قبل قليل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ فما دام موسى عليه السلام يريد أن يذهب ببني إسرائيل من مصر، كيف يمكنه أن يخطط لطرد معارضيه من مصر؟ فكلا الأمرين ضدّان لا يجتمعان. ذلك لأن بني إسرائيل لو خرجوا من مصر لصار المصريون أكثر قوة وأرسخ قدمًا. فشتان بين أن يخرج موسى ببني إسرائيل من مصر وبين أن يطرد المصريين منها؟

ولكن يبدو أن حاشية فرعون كانوا لا يزالون في وعيهم، فعلموا أن الملك يهذي في كلامه لأن كلام موسى يدل على أنه ينوي الخروج بقومه من مصر، وليس أن يُخرج المصريين منها، فقالوا لفرعون: أيها الملك، أَمْهِلْ موسى وأخاه بعض الوقت، وابعَثْ رجالك لإحضار كبار السحرة كلهم؛ فإذا كان ساحرًا لا نبيًا صادقًا، سيلقى الهزيمة على أيدي السحرة وسينكشف بطلان دعواه. فتم الإعلان، وجُمع السحرة، وقيل للناس: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

هذه الجملة تكشف لنا العقلية المتدنية للكافرين. فبما أن قلوبهم تخلو من خشية الله فلا يستعدّون لتصديق النبي في أي حال، ولكن لو حقق أحد من معارضيه

النجاح القليل يستعدّون لاتّباعه. وقد أشار الله ﷻ إلى العقلية المتدنّية لقوم فرعون في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾(هود:٩٧-٩٨).. أي لقد أرسلنا موسى إلى فرعون وأعيان قومه بالآيات البينة والبراهين الواضحة، ولكنهم أطاعوا فرعون بدلا من أن يطيعوا موسى. لم يكن تعليم فرعون يرشد إلى الصواب بل كان يدفع إلى الضلال إلا أهم اتّبعوه، رافضين قول من يهديهم إلى الصواب.

وهذا هو دأب الكافرين للأسف منذ البداية. فلما بُعث النبي ﷺ وعرض تعليمًا يهدي إلى الرشد والنجاح، رفضه أهل وطنه، واتبعوا أبا جهل الذي كان يمثل فرعون في زمنه راضين بتعليمه الذي كان ينشر كل رجس وفساد ورافضين ما يقدمه الرسول ﷺ من تعاليم سامية.

وهذا ما حصل بعده ﷺ أيضًا، فلما صار أبو بكر ؓ خليفةً صدّقه الصحابة، ولكن سائر العرب بغوا وطغوا، واتبعوا سبيل أبي جهل وأعوانه، وأطاعوا فراعنة زمانهم من المتنبئين كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي وسجاح الكاهنة، تاركين الخليفةَ الحق للرسول ﷺ والذي كان قادرًا على أن ينفخ في الناس روح الإسلام الصحيحة. (البداية والنهاية: كتاب تاريخ الإسلام الأول من الحوادث... سنة إحدى عشرة من الهجرة)

ثم لما اختار الله عمر ؓ خليفة لرسوله ﷺ حصل نفس الشيء. فحينما ذهب عمر للحج قبيل وفاته أخذ بعض الناس يقولون: سنختار بعد وفاته فلانًا خليفةً، ولن نبايع أحدًا سواه. ولما صار عثمان ؓ خليفة وفق المشيئة الإلهية، قام عبد الله بن سبأ - وكان مصريا مثل فرعون - ببثّ الفتنة فتبعه الناس (تاريخ الطبري: سنة خمس وثلاثين).

ثم لما انتُخب علي ؓ خليفة سلك الناس نفس المسلك الخاطئ. لقد انتخبوه خليفةً أوّلاً، ثم ثاروا عليه بناء على حجة واهية داحضة وهي تصالُحه مع معاوية، واشتهروا باسم الخوارج، واستمروا يثيرون القلاقل ويخلّون بأمن البلاد طيلة قرنين من الزمان.

ولما انقضى زمن طويل على بعثة النبي ﷺ بعث الله أولياءه في الأمة، فسلك الناس نفس المسلك الخاطئ، فلم يستمعوا لهؤلاء العباد الأطهار، بل اتبعوا أعداءهم الذين كانوا فراعنة زمنهم. فقاموا بمعارضة حضرة معين الدين التشتي، وحضرة قطب الدين بختيار الكعكي، وحضرة نظام الدين أولياء، وحضرة خواجه فريد الدين غنج شكر -رحمهم الله تعالى. وعندما ظهر حضرة سيد أحمد السرهندي همس معارضوه في أذن الملك المغولي "جهانغير" أنه يريد التمرد على ملكه، ولا بد له من التصدي له وإلا ستكون في البلاد فتنة كبرى. فألقاه الملك "جهانغير" في السجن في قلعة "غواليار". فقال له البعض إن هذا الإنسان من الصلحاء الكبار، فالأفضل إطلاق سراحه، فعاد الملك إلى صوابه وأفرج عنه.

إذًا، فمنذ أن بدأ الله تعالى ببعثة الأنبياء والخلفاء، كان الحق عرضةً للمعارضة والعداء. وكانت فكرة المعارضة نفسها مسيطرة على قلوب وعقول فرعون وأكابر قومه، فإنهم لما جمعوا الناس لم يقولوا لهم: سنتبع موسى إذا غلب السحرةَ، بل قالوا: سنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، برغم أنه كانت هناك إمكانية لانتصار موسى وهزيمة السحرة. فكان بوسعهم أن يقولوا: سنتّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، وسنتبع موسى إن كان هو من الغالبين، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اكتفوا بقولهم: سنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، وهكذا دلّوا على ما يضمرون في قلوبهم من بغض وعناد، مؤكدين أنهم لا ينشدون الحق، وإنما ينشدون رضى فرعون، ولهذا فقط كانوا يريدون إقامة هذه المناظرة.

وجمعُهم السحرةَ لمواجهة نبي عظيم كموسى عليه السلام يشكّل دليلاً على أن بداية أنبياء الله تعالى تكون متواضعة جدًا. كان موسى عليه السلام نبيًا من عند الله تعالى بعثه لدعوة فرعون، ولكنه احتقره لدرجة أنه دعا السحرةَ لمبارزته. فشتّان بين ما كان عليه موسى عليه السلام حينها وبين ما تتمتع به أُمّته اليوم من قوة ومنعة، حيث تخاف سخطها دول كبرى؛ حتى إن قوة عظمى مثل أمريكا تضطر لدعم الأمّة اليهودية التي قد تمكنت من تأسيس حكومتها على أرض فلسطين. أما في ذلك الوقت فكان موسى عليه السلام ضئيل الشأن لدرجة أن فرعون قد أتى بالسحرة لمواجهته. فلو أن

الهندوس أو المسيحيين أتوا اليوم بساحر لمواجهة أحد علماء المسلمين لأقاموا ضجة بأنه قد أُسيء إليهم، ولكن موسى عليه السلام لم يرفض اقتراحهم بل استعد لمبارزة السحرة أيضًا لعل القوم يهتدون بهذا الطريق. وعندي أن فرعون لو أُعيد إلى الحياة اليوم لحسِب نفسه إزاء موسى عليه السلام أذلَّ من قرد، ولأخذته الدهشة حين لا يجد لنسله أثرًا في الدنيا، ويجد قومَ موسى عليه السلام حاكمين على فلسطين.

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٣﴾

التفسير: إن قول السحرة هذا يدل على البون الشاسع بين طبيعة النبي وغيره من البشر. فإن كل ما سبق من كلام موسى عليه السلام يكشف بوضوح أنه كان يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى ربُّه وربُّ الكون كله، وكان لا يعقد أية آمال بأي إنسان. أما السحرة الذين جمعهم فرعون للتصدي لموسى، فكانت طموحاتهم متدنية وهممهم منحطة بحيث إنهم ما إن دخلوا بلاط الملك حتى قالوا: جلالة الملك، هل لنا من أجرٍ إن كنا نحن الغالبين؟

علمًا أن المعنى نفسه قد ورد في سورة الأعراف أيضًا ولكن بشيء من الاختلاف في الأسلوب، حيث قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾(الأعراف:١١٤). بينما قالوا هنا: ﴿أئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾. ولو تدبرنا الموضعين وجدنا أنه ليس ثمة اختلاف في الواقع. لا شك أن الجملة هنا استفهامية، ولكن الاستفهام لا يعني أنهم كانوا يشكّون في نيل الأجر، إذ يفيد الاستفهام التوقعَ أحيانًا، بمعنى أن الأجر يكون مؤكدًا ومع ذلك يقول المرء: هل لي من أجر؟

فأجابهم فرعون على سؤالهم عن الأجر وقال: نعم، سأكافئكم حتمًا، بل سأجعلكم من المقربين.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٥﴾

التفسير: عندما فرغ السحرة من الحديث مع فرعون قال لهم موسى عليه السلام: ألقوا ما أنتم ملقون إزائي.

هنا أيضًا نجد اختلافًا في الظاهر بين ما ورد في سورة الأعراف وما ورد هنا، حيث ذكر القرآن الكريم هنالك أن السحرة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۞ قَالَ أَلْقُوا﴾(الأعراف: ١١٦-١١٧)، بينما لا تذكر سورة الشعراء أي سؤال من قبل السحرة. والحق أنه ليس ثمة اختلاف بين البيانين، وإنما قيل هنا ما يتماشى مع السياق، ذلك أن سياق الكلام في سورة الأعراف يبين أن السحرة كانوا موقنين بنيل الأجر، ولذلك قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، أما هنا في سورة الشعراء فالسياق يفيد التوقع أكثر من اليقين، ولذلك لم يُذكَر هنا قول السحرة لموسى عليه السلام وإنما ذُكر قول موسى لهم فقط ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُمْ مُلْقُونَ﴾.. أي لا تهتمّوا بمصيري، بل جرِّبوا حظكم أوّلاً وأخرجوا ما في جعبتكم. فألقَوا حبالهم وعصيهم، وقالوا إرضاءً لفرعون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.

إن هذه الكلمات التي وردت هنا على لسان السحرة تشكّل دليلاً ساطعًا على صدق القرآن الكريم بأنه من عند الله تعالى. ذلك أن القسيسين المسيحيين يزعمون دائمًا أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ، ولكنا نؤكد أنه زعم باطل، ونوقن أن القرآن وحي من عند الله تعالى الذي عنده العلم التام بما مضى وبما هو موجود وما سيكون في المستقبل. ومع ذلك لو سلّمنا جدلاً بما يقول الأعداء بأن القرآن كلام محمد ﷺ، فلا بد لهم من الاعتراف بسمو مكانته ﷺ الأدبية العالية وسعة معلوماته. ذلك أن القرآن الكريم يعلن أن فرعون لما جمع سحرة مصر لمواجهة موسى، قالوا قبل أن يُروا أعمالهم السحرية ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾. وهذه الكلمات

لا يمكن أن تتبادر إلى ذهن العرب، إذ لم يكن بينهم سحرة يسمع منهم النبي ﷺ هذه الكلمات فيعرف أنهم يستعملونها دائمًا قبل أن يأتوا بسحرهم. فالذين يزعمون أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ عليهم أن يفكروا أنه ﷺ قد وُلد في بلد لم يكن للسحرة وشعوذتهم السحرية أثر؛ فمن ذا الذي علّمه هذه الجملة يا ترى؟ لقد طالعتُ تاريخ العرب بكل دقة، وكل ما نعرف من تاريخهم أنهم كانوا مولعين بالشعر، ويعيشون على رعي الغنم والإبل؛ ولكن لا نجد في تاريخهم أثرًا للسحرة ولا لشعوذتهم، إنما كان السحرة في مصر والهند وغيرها من البلاد، ولكن رسول الله ﷺ لم يزرها؛ فكيف، يا ترى، علم أن السحرة يرددون كلمات كهذه قبل قيامهم بأعمالهم السحرية؟ لقد رأيت بنفسي بعض السحرة أنهم، قبل البدء بشعوذتهم السحرية، يقولون للحضور: فليكن هكذا بعزتك يا فلان، مثلما قال السحرة في زمن موسى عليه السلام: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾؛ ولكننا لم نرَ أي تعبير كهذا في تاريخ العرب. إذن فهذه الجملة تدل صراحة على أن القرآن تنـــزيل من رب العالمين.

ولو سلّمنا جدلاً بأن هذه الجملة من تأليف الرسول ﷺ لا من وحي الله سبحانه وتعالى، فإنها تشكّل دليلاً على سمو مكانته الأدبية وسعة معلوماته، إذ نجد السحرة لا يزالون يرددون كلمات مماثلة حتى اليوم.

هذا، أفليس من المضحك أن نجد السحرة من جهة يحاولون أن ينتصروا على نبي الله سبحانه وتعالى مؤكدين أنهم هم الغالبون، ومن جهة أخرى نجدهم يكيلون المدح والثناء لمن يعملون من أجله السحر قائلين: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، وليس ذلك إلا ليعطيهم عطاءً زائدًا!

فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٦﴾ فَأُلْقِيَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٧﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٨﴾ رَبِّ

مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

تلقَفُ: لقِف الشيءَ: تناولَه بسرعة (الأقرب). أي أخذتْ عصا موسى تقضي بسرعة على سحر السحرة.

خلاف: الخلاف: المخالف؛ وفي القرآن ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾.. أي أن تكون الواحدة منهم يُمنى والأخرى يُسرى (الأقرب).

ضيرٌ: الضير: المضرَّة. (المفردات)

التفسير: لما ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم، ألقى موسى عليه السلام عصاه. وكانت حبالهم وعصيّهم محشوّة بالزئبق الذي كان يحرّكها، فانكسرت بضرب موسى إياها بعصاه وخرج منها الزئبق، وانكشف خداع السحرة، فخرّوا ساجدين إذ كانوا يعرفون حقيقة سحرهم، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾. أي قد عرفنا الآن أنه نبي صادق ولسنا إلا سحرة دجّالين.

وقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ يشير إلى أنهم لقوا هزيمة نكراء، وكأن قوة خفية سحبت البساط من تحت أرجلهم فخرّوا لله ساجدين معترفين على الملأ أنهم يؤمنون بالله الأحد ويتّبعون موسى وهارون - عليهما السلام.

فاستشاط فرعون غضبا مما فعلوا وقال: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.. أي سترون كيف تكون عاقبة ما فعلتم.

وهذا يعني أن فرعون نسِي بسرعة كيف كان يستعين بهم لمواجهة نبي الله تعالى مغريًا إياهم أنه سيجعلهم من المقربين، أما الآن فبدأ يستهين بهم حتى يهددهم بالعقاب كيفما شاء، ويقول: لأنكم خالفتموني، فسوف أقطّع أيديكم وأرجلكم من خلاف وأقتلكم صلبًا لتكونوا عبرة للآخرين. ولكن السحرة الذين كانوا يأتون بألاعيبهم السحرية أمام الناس نظير المال، كانوا قد آمنوا بصدق، فما كانوا ليكترثوا لتهديد فرعون؛ فقالوا له دونما تردد: لا حرج، إذ إننا راجعون إلى ربنا في يوم من الأيام، ولو قُتلنا بيدك فما الحرج في ذلك؟ بل إن موتنا بيدك خير لنا لأن الله تعالى سيغفر لنا ذنوبنا إذ تعرضنا للتعذيب في سبيل دينه، وتركنا مجتمعنا الفاسد مؤمنين بنبيّه.

الحقّ أن الإنسان ما لم ير الله تعالى تبدو له مصائب الدنيا كجبال شامخات، وتتراءى له محِنها كبحار لا شاطئ لها، ولكنه حين يرى الله ﷻ يهون عليه كل أذى ومصيبة، وعندها لا يكون أمامه إلا هدف واحد وهو أن يتحقق ما قال الله تعالى، ولا تساوي عنده الحكومات والممالك والعقارات إزاء قول الله ﷻ شيئًا؛ فيتقدم ضاحكًا ويضحّي بنفسه ليحضر عند الله تعالى. لم يكن صاحبزاده عبد اللطيف رضي الله عنه الذي استُشهد* من جماعتنا إلا إنسانًا مثلنا، ولكن لما دعاه الملِك وقال له: حضرة الشيخ، أكنّ لك احتراما كبيراً، وأريد إطلاق سراحك، ولكني لو خلّيتُ سبيلك هكذا لعارضَني المشايخ؛ فأرجو أن تساعدني في ذلك؛ فإذا سألتك عما إذا كنت قاديانيًا فقلْ بلسانك لا وإن آمنتَ بصدقه في قلبك، فأطلق سراحك. فأجابه صاحبزاده: أيها الملك، ترى حياتي غالية، ولكنها لا تساوي عندي شيئًا! وإنني لم آتِك إلا لتقديم هذه التضحية. لقد سبق أن قال لي القوم أن أخفي على الناس انضمامي إلى الأحمدية، ولكني رفضت اقتراحهم – علمًا أن حضرة صاحبزاده كان قد عُرض في أول الأمر على الوالي الذي كان من

* استُشهد حضرته رضي الله عنه في كابول في حياة المسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

تلاميذه ﷺ، فأشار عليه أن يفرّ من هناك لأن حياته مهددة بالخطر، ولكن حضرته أجابه: هات بالسلاسل وقيّدني بها، لأن الله تعالى قد أخبرني البارحة أنني سألبس أسورة من الذهب، فلا أخاف الموت، بل أود أن أضحي بنفسي لنجاة قومي. ثم لما رشقوه بالحجارة كان قلبه خاليًا من أي بغضاء تجاه قومه. بل لما أرادوا دفنه إلى نصفه قبل رشقه بالحجارة حتى لا يهرب، قال لهم: لا داعي لدفني هكذا لأني لن أهرب. ويقول شهود عيان أنه لما بدأوا رشقه أخذ يدعو الله ﷻ بصوت عال: اللهم ارحمْ قومي فإنهم لا يعلمون!

(تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية، المجلد ٢٠ ص ٤٩-٦٠)

هذه الأمثلة الرائعة هي التي تحيي الأمم. لا شك أن بين المؤمنين ضعفاء، ولكن الشباب منهم عندما يرون مثل هذه النماذج الرائعة للتضحية تمتلئ قلوبهم حماسا ويقولون: كم كان مصير هذا الإنسان رائعًا عند الله ﷻ! فهلمّ نضحي بأنفسنا مثله، فيقفزون في أنهار النيران والدماء. وهذه هي الحكمة وراء تشبيه الملكوت الروحاني بالكرم في الإنجيل (لوقا ٢٠: ٩-١٨)، ذلك لأن كرمة العنب هي الشجرة الوحيدة التي تُسقى بالدم فتنفعها كسماد فتظلّ مخضرّة نضرة. إذًا، فقد أشار الله ﷻ بهذا التمثيل أن نضارة دينه تتطلب دائما التضحيات الإنسانية، وسوف تعاد إلى هذا البستان الحياة والنضارة بإراقة دماء الناس في جذور أشجاره. إن التاريخ الطويل للجماعات الروحانية دليل ساطع على صدق هذه الحقيقة، إذ لم يُبعث نبيّ قط إلا ومرّت جماعته بأشدّ المحن والخطوب. لقد اعتُقلوا وقُتلوا وصُلبوا واستُشهدوا بالسيوف، ورغم كل هذا التعذيب والأذى كانت الغلبة للحقّ دائمًا. لقد دمّر نبوخذنصر بيت المقدس بعد داود عليه السلام تدميرًا، ولم يُبق من الهيكل السليماني أثرًا.

(الموسوعة التوراتية: المجلد ٣ ص ٣٣٧٠: تحت كلمة: Nebuchadrezzar)

ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لم تستطع الدنيا محو ما أتى به موسى عليه السلام من تعاليم، ولا تزال كرامته قائمة في الدنيا حتى اليوم، ولا يزال هناك من يضحّون بأرواحهم دفاعا عن اسمه. يمكن أن يسبّ المرء مِلكًا حيًّا مستبدًّا يملك نظام

مخابرات مدهشًا ومع ذلك يمكن أن ينجو من عقابه ويفلت من بطشه، ولكن هؤلاء الأنبياء الذين كانوا بشرا كغيرهم وقضوا حياقم في فقر، وإذا كان بعضهم ملوكا فلم يكونوا كملوك الدنيا، ورغم أهم مدفونون اليوم تحت أطنان من التراب، ولا يوجد أثرٌ لنسل بعضهم، وقد اندثرت أمم بعضهم، ومع ذلك إذا أساء أعتى ملكٍ في العالم بحقّهم فلا يمكن أن ينجو من الخزي والهوان، وليس ذلك إلا لأهم رَضوا بأن يُذبحوا بسكّين محبّة الله ﷻ، فنالوا لقب "أكباش الله". وكما أن لحم الكبش يصبح بعد الذبح غذاءً للإنسان وجزءًا من جسده، كذلك فإن الذين يصبحون أكباشًا لله تعالى ويُذبَحون ويتفانون في الله تعالى، ينالون الملكوت الأبدي. والحق أن السَّحَرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام قدّموا هذا النموذج الرائع للتضحية، فقالوا لفرعون: لقد أصبحت قلوبنا الآن عامرة بنور الإيمان، فلن ننحرف بعد ذلك عن جادة الحقّ من جراء ما تصبّه علينا من العذاب.

هذا هو الإيمان الذي يهب النجاة للإنسان، وهذه هي روح التضحية التي تجعل الأمم غالبة في الدنيا.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

أَسْرِ: سرَى الرجل: سارَ عامّةَ الليل أي معظمَه. وأسرَى بمعنى سرَى؛ وقيل: أسرَى لأوّل الليل وسرَى لآخر الليل. (الأقرب) فالمراد من قوله تعالى ﴿أَسْرِ بِعِبَادِي﴾.. اخرُجْ بعبادي ليلاً، أو اخرُجْ بهم في بداية الليل.

شِرذِمةٌ: الشرذمة: الجماعة القليلة من الناس. (الأقرب)

حاذِرون: جمعُ حاذر، وهو المتأهّب المستعدّ. (الأقرب)

التفسير: أي أن الله تعالى أخبر موسى ؑ أن فرعون قد خاف كثيرًا فلا حاجة لاستئذانه، بل اخرُجْ بقومك باسم الله ليلاً. ولكن عليك بأخذ الحذر لأن فرعون وأصحابه سيطاردونكم.

وهذا ما حصل بالفعل حيث بعث فرعون رسله في جميع المدن، وأعلن أن بني إسرائيل جماعة صغيرة حقيرة تثير سخطنا ونحن جماعة كبيرة ذات عدّة وعتاد، فكيف يمكن أن نخاف هذه الأقليّة ولا نبادر بالقضاء عليها؟

هذا العيب نجده في أعداء كل نبيّ في أي عصر، حيث يصيبهم الزهو بكثرتهم وقوتهم، فبدلاً من أن يراعوا مشاعر الآخرين يهدّدوهم بإصلاحهم بالعصا إذا لم يرضوا بقولهم. يقال إن ذئبًا كان يشرب الماء من جدول، فجاء جديٌ وأخذ في شرب الماء. فلما رآه الذئب سال لعابه وأراد أكله. والحيوان ليس كالإنسان، لأن الإنسان يقدّم الدليل لتبرير ما يفعل، أما الحيوان فهو في غنى عن تبرير فعله. وحيث إن الذئب في هذه الحكاية يبرر أكل الجدي بدليل كما سنرى لاحقًا، فالمراد من الذئب هنا إنسان عنده خصال الذئب، والمراد من الجدي إنسان ذو خصال الجدي. على أية حال، طمِع الذئب في افتراس الجدي فقال له: لماذا تكدّر الماء الذي أشربه! ألا تستحي؟ فأجابه الجدي: سيدي، أنا لا أكدّر ماءك، حيث ترى أنك في الناحية العليا من الجدول وأنا في الناحية السفلى منه، وأشرب من الماء الذي يجري من عندك، وليس العكس. فتقدّم الذئب ولطَم الجدي وقال: كيف تجاسرت يا قليل الأدب أن تردّ عليّ؟

هذا هو مثل أعداء الحقّ. إنهم لا يفكرون ليروا ما هو الحق إنما يرون أنهم يشكلون الأكثرية وأنهم قادرون على أن يفعلوا ما يحلو لهم.

أتذكر أن المولوي ثناء الله الأمرتسري جاء قاديان مرة وقال لأتباعه في اجتماع كبير بين هتافات التكبير: أبيّن لكم أمرًا مهمًّا، هناك طريق سهل للفصل بيني وبين الميرزا محمود، وهو أن نسافر أنا وهو بالقطار إلى مدينة "كولكتا" وسيقف القطار

بعشرات المحطات، وسترى الدنيا أيُّنا يُرشَق بالحجارة وأيُّنا يُمطَر بالورود، ويحظى بتأييد المسلمين؟ فجاءني الإخوة وقد بلغ منهم الذعر كل مبلغ وقالوا: كان لقول الأمرتسري تأثير كبير في الناس ونفخ فيهم حماسًا وهياجًا. وكان من المخطط أن أُلقي في المساء كلمة فقلتُ فيها: لقد قام الشيخ ثناء الله بنفسه بفصل القضية وأخبر أينا صادق وأينا كاذب، والفرق الوحيد أنه قد أتى بهذا الاستنتاج من عند نفسه، ولكن ما حصل في زمن النبي ﷺ يؤيدنا نحن. وقلت: يقترح المولوي ثناء الله الأمرتسري أن نسافر معًا بالقطار إلى "كولكتا" لنرى أينا يُستقبل في الطريق بالورود وأينا بالحجارة، واستنتج الشيخ الأمرتسري أن الذي سيُستقبل بالورود هو على الحقّ، مع أنه لم يكن بحاجة ليقوم بأي استنتاج، إذ يوجد أمامنا مثال لمحمد ﷺ وأبي جهل. فليخبرنا الشيخ الأمرتسري أيٌّ منهما كان يُرشق بالأحجار في مكة وأيٌّ منهما كان يُستقبل بالورود؟ فما دام النبي ﷺ هو الذي كان يُرشق بالحجارة، وما دام أبو جهل هو الذي يُستقبل بالورود، فالنتيجة واضحة. إن الذي يُرشق بالأحجار صادق، والذي يُستقبل بالأزهار كاذب.

إذًا، يشكل من لا دين لهم الأكثريةَ في بعض الأحيان، فيصبّون على غيرهم كل نوع من الظلم والتعذيب، ولكن ما يحدث هو أن العاشق الصادق يصاب بنوع من النشوة مثلما تصاب الأكثرية بالزهو والغرور ويُفقدهم العقل والصواب، ولكن النشوة التي تصيب العاشق الصادق لا تدفعه إلى قتل الآخرين بل تجعله يقدّم نفسه للقتل. وبالفعل ترى أن أصحاب الأكثرية قد قتلوا دائما أصحاب الأقلية نتيجة زهوهم، ولكن العاشقين قد ضحّوا بأرواحهم من أجل من عشقوهم دائمًا. وقد أشار المسيح الموعود عليه السلام إلى هذه الحقيقة في بيت شعر له بالفارسية، فقال:

در كوئے تو اگر سرِ عشاق را زنند

اوّل كسے كہ لافِ تعشّق زند منم

(آئينه كمالات إسلام، الخزائن الروحانية المجلد الخامس ص ٦٥٨)

أي لو صدر الحكم بكل من يعلن عشقه لك ويقصد ديارك – وإن كان العشق لا يحتاج إلى ادعاء – فإني أوّل من يهتف بعشقك على الملأ.

الحقّ أن العاشق والمسلم ليسا بضدّين، بل هما اسمان لشيء واحد، ولكن ليس المراد من العاشق هنا من يتّبع هواه، بل المسلم الصادق الكامل في إيمانه. فإنه لا يصبر على المصائب فحسب، بل يُصاب بالقلق والاضطراب إذا لم تحلّ به المصائب مخافة أن يكون حبيبه قد سخط عليه. إن الهروب من المصائب من دأب المنافق. والحق أن الصبر على الشدائد ليس من خواص المسلم فقط، بل قد يصبر عليها غيره. والمسلم الصادق من لا يصبر عند حلول المحن فحسب، بل يعتبر فترة الشدائد سببا لرقيه الروحاني، وإذا تأخرت عنه المصائب لفترة من الزمن أصابه القلق خوفا من أن يكون قد حصل نقص في إيمانه، فلا يدبّر له ربّه ما يكشف إيمانه على الناس.

إذًا، فإن الأكثرية تظلم المؤمنين نتيجة كبريائها، ولكنهم يصبرون على ظلمهم إلى أن يبلغ السيل الزبى، فيعاقَب المجرمون الذين يضطهدون الآخرين مغترين بقوتهم. لما فتح النبي ﷺ مكّة سأل الكافرين الذين كانوا يعذّبونه وأصحابه ليل نهار أشد التعذيب، وقال: يا أهل مكّة، ماذا ترون أني فاعل بكم؟ ولم يكن يعني بقوله هذا إلا أن يذكّرهم بأنهم كانوا يحتقرونه مغرورين بأن تسعة وتسعين بالمائة من أهل مكة معهم، فكيف يجرؤ على مواجهتهم؟ فهؤلاء الذين كانوا يدعون الأكثرية أصبحوا في ذلك اليوم عديمي الحيلة كلية، ولم يملكوا إلا أن قالوا له ﷺ: نأمل أن تعاملنا كما عامل يوسف إخوته. فعفا عنهم جميعًا*.

وكان فرعون أيضا مغرورا بالأكثرية، بل الحق أننا لو أمعنا النظر لوجدنا أنه منذ أن خُلقت الدنيا وُجد فيها نوعان من الحكومات دائمًا: إحداهما تعتمد على

* نصّ ما ورد في شتى المصادر هو كالآتي: "يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخ كريم. قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم. اذهبُوا فأنتم الطلقاء." (زاد المعاد في هدي خير العباد: المجد الثاني ص ١٦٥، دخول النبي ﷺ والمسلمين مكة) (المترجم)

العقل والمنطق، والأخرى تعتمد على القوة والبطش. وقد اختلفت التعابير الآن باختلاف الزمان، حيث تُسمى اليوم الحكومة التي تعمل بالعقل والحكمة جمهورية، بينما تُسمى الحكومة التي تعمل معتمدة على القوة والبطش والعنف دكتاتورية، أو يطلقون عليها أحيانا "هتلرية". ومهما اختلفت الأسماء والتعابير فإن هاتين القوتين لا تزالان تعملان في الدنيا منذ زمن آدم إلى يومنا هذا. حيث يتضح من القرآن الكريم أن آدم كان له ابنان، فقرّبا قربانا فتُقبّل من أحدهما و لم يُتقبّل من الآخر. لقد قدّم أحدهما قربانه بإخلاص وتقوى فتُقبّل، ولكن الآخر قدم قربانا خاليا من الإخلاص والتقوى فرُفض (المائدة:٢٨). وكان الطريق الحكيم السليم الذي كان ينبغي أن يتبعه من رُفض قربانه أن يتحلى بالتقوى والتواضع مدركًا أن الله تعالى هو الذي رفض قربانه وليس أخوه، ولكنه حمل العصا وجاء إلى أخيه وقال لأقتلنّك. أما أخوه فاتبع سبيل العقل والمنطق وقال له: إن الله هو الذي يقبل القرابين من الناس، فإذا لم يقبله منك فلا ذنب لي في ذلك، فإنما أنا عبد متواضع.

وهذه هي الفطرة الإنسانية منذ القدم، حين لم تكن هناك أية مصطلحات كالدكتاتورية والجمهورية، ولكن الروح التي تؤدي إليهما كانت موجودة. وهذان التياران المتوازيان مستمران منذ خلق آدم أو منذ خلق الكون. إذ وُجدت في الدنيا طبقة من الناس لم تزل متمسكة بالحقّ والإنصاف، وطبقة أخرى تتباهى بقوتها ومنعتها ولا تبرح تعلن أنها ستفرض رأيها على الآخرين في كل حال، وإذا لم يتبع الناس رأيها فستُرغمهم على ذلك من خلال القوة التي تتمتع بها حكومتها وحزبها. وبما أن جماعات الأنبياء تكون صغيرة في بدايتها دائمًا، بل تكون أحيانًا قليلة العدد لدرجة أن الرسول ﷺ قال: "إنه لم يؤمن ببعض الأنبياء إلا شخص واحد" (البخاري: كتاب الطب، باب من لم يرقِ)، ومن أجل ذلك يستهزئ بهم الجميع ويعتبرون دعواهم ضربا من الجنون. وإن غرور فرعون بقوته جعله يبعث المنادين إلى كل المدن ليحرّضوا الشعب ضد بني إسرائيل ويقولوا: كيف تجرؤ هذه الجماعة الصغيرة الحقيرة على إثارة غيظنا مع أننا نشكل الأكثرية الساحقة، ونملك العدّة والعتاد

ونعمل بحذر وبُعد نظر، فمن واجبنا أن نسحق هؤلاء الأراذل بكل قوة ونغلق في وجوههم كل باب للرقي.

فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٦٠﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

كنوزٌ: جمع كنـز: والكنـز: اسمٌ للمال إذا أُحرزَ في وعاء؛ الذهبُ والفضّة؛ ما يُحرَز فيه المال كالمخزن والصندوق. (الأقرب)

مُشْرِقين: جمعُ مُشرِق، وأشرقَ الرجلُ: دخَل في شروق الشمس. (الأقرب)

التفسير: كان فرعون مغرورا بكثرة جنده وقوته، وكان يحتقر بني إسرائيل احتقارا شديدا، فلما علم أن موسى قد ذهب ببني إسرائيل خرج بجنوده لمطاردهم. يقول الله ﷻ هكذا أخرجنا فرعون وجنده من البساتين والعيون والكنوز وبلاده التي كان معززا فيها وجعلنا بني إسرائيل ورثة لهذه النعم.

والجدير بالملاحظة هنا أن الله ﷻ قد قال عن فرعون وجنوده أننا ﴿أَخْرَجْنَاهُمْ﴾، مع أهم قد خرجوا من هناك بأنفسهم في الظاهر. والحق أن الله تعالى قد نسب هذا الفعل إلى نفسه لأن فرعون إنما خرج من هناك بسبب موسى الذي جاءه في مصر ثم خرج منها، والواضح أن موسى عليه السلام لم يذهب إلى فرعون ولم يخرج ببني إسرائيل من مصر إلا بأمر الله ﷻ، وهكذا فإنه تعالى هو الذي أخرج فرعون وجنوده ولو بطريق غير مباشر.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فليس المراد أن الله تعالى أعطاهم نفس البساتين والعيون والكنوز التي كان يملكها فرعون وقومه، بل المعنى أنه تعالى أورثهم بساتين وعيونا وكنوزا مماثلة في فلسطين.

يظن البعض خطأً أن بني إسرائيل أصبحوا مسيطرين على مصر، ولكنه ظنّ باطل لا يصدّقه القرآن ولا التوراة. إنهما يبيّنان أن بني إسرائيل بعد أن خرجوا من مصر ظلوا تائهين في البراري مدّة طويلة نتيجة عصيانهم، وبعد قضاء أربعين سنة في التيه استولوا على أرض كنعان. فليس المراد من قوله تعالى: ﴿أورَثْناها﴾ أرض مصر، بل أرضٌ تيسّرت لهم فيها كل تلك النعم، وهي أرض فلسطين التي فيها البساتين والعيون كما في أرض مصر..

أما قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ فيكشف أن فرعون وجنوده خرجوا لمطاردة موسى عليه السلام عند شروق الشمس، أما موسى فكان قد أخذ أُهبته للسفر مسبقًا، فخرج قبل جنود فرعون؛ ولكن لما تراءت الفئتان خاف أصحاب موسى الذين ظلوا عبيدا لفرعون منذ قرون، ورفعوا عقيرتهم قائلين: يا موسى إنا لمدرَكون. فهدّأ موسى عليه السلام من جزعهم وقال: لا تقولوا هكذا! إن هؤلاء الجنود معهم فرعون، أما جنودي فمعهم الله تعالى، وسوف يعبُر بنا البحر حتمًا.

لا شك أن هذا نموذج عظيم للثقة بالله تعالى من قبل موسى عليه السلام، ولكننا لا يسعنا إنكار الحقيقة أن نموذج التوكل واليقين والإيمان الكامل الذي نراه في حياة الرسول ﷺ حين كان محدقًا بأخطار أشد وظروف أحلك لهو أسمى وأرفع شأنًا وأدعى للإيمان من توكل موسى عليه السلام. فعندما أمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة اصطحب أبا بكر وخرج إلى جبل ثور الواقع على مسافة ستة أميال من مكة، واختبأ في غار في قمة الجبل. وفي الصباح لما لم يجده الكافرون في بيته وعلموا أنه قد خرج من بينهم رغم محاصرتهم إياه، خرجوا لتوّهم يبحثون عنه مستعينين بأفضل قصّاصي الأثر في مكة. فوصل بهم إلى مدخل الغار متتبعًا آثارهما، وقال: إذا كان محمد في مكان على الأرض فهو هنا، إذ لا أجد آثار الأقدام بعد ذلك. كان العدو واقفا على رأس الغار و لم يكن مدخله ضيقا حتى يصعب عليهم أن يطلّوا منه إلى الداخل ليروا ما

إذا كان بداخله أحد أم لا، بل كان مدخله واسعا. ورغم ذلك لم يصب النبيَّ ﷺ خوف ولا ذعر، بل إن قوته القدسية قد جعلت قلب أبي بكر أيضًا قويًا الذي لم يقل كأصحاب موسى ﴿إنّا لَمُدْرَكون﴾ بل كل ما قاله هو: يا رسول الله، لقد اقترب العدو منا جدا بحيث لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا. فقال له النبي ﷺ: "يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما".. أي لسنا اثنين بل إن الله معنا، فكيف يمكن أن يرونا؟ (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار...﴾، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر ﷺ، والسيرة الحلبية). وهذا ما حصل بالضبط، فبرغم أن الأعداء كانوا قد وصلوا إلى مدخل الغار إلا أنهم لم يتقدموا ليطلّوا داخله، بل رجعوا متأسفين حانقين.

إذًا، هناك عدة جوانب في هذا الحادث تسترعي الانتباه، أولها: أن أصحاب موسى ﷺ قالوا مذعورين ﴿إنّا لمدرَكون﴾، وهذا يعني أنهم ظنوا أن فرعون سيقبض على موسى معهم، ولكن توكُّل النبي ﷺ على ربه قد أثّر في صاحبه أيضا فلم يقل "إنا لمدرَكون" بل قال: لقد اقترب منا العدو بحيث يستطيع أن يرانا. ولكن النبي ﷺ لم يرض بهذا الظن أيضا وقال: لا تظنّ هكذا، فإننا لسنا وحدنا بل نحن ثلاثة حيث إن الله ﷻ معنا.

وثانيها: أن موسى ﷺ لما خرج من مصر كان معه آلاف من بني إسرائيل الذين قد جعلتهم التوراة مئات الآلاف على سبيل المبالغة (الخروج ١٢: ٣٧-٣٨)، أما النبي ﷺ فلم يكن معه جمعٌ غفير بل شخص واحد، وإن كان هذا الشخص الواحد يزيد على مئات الآلاف بسبب إيمانه.

وثالثها: أنه كان أمام موسى ﷺ وأصحابه مجال للفرار، أما النبي ﷺ فكان محصورا في الغار لا يمكنه الفرار منه. وبرغم أن النبي ﷺ كان معه شخص واحد، وبرغم أنه لم يكن أمامه طريق للفرار، وبرغم أنه لم يكن معه أي سلاح، إلا أنه ﷺ كان واثقا بالله ﷻ لدرجة أنه قال لأبي بكر: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠).

ورابعها: قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.. أي سيدلني على طريق النجاح، أما محمد ﷺ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وهكذا شمل أبا بكر معه وقال له: إنك أيضا تتمتع بمعية الله مثلي، فلا داعي للقلق.

وخامسها: أليس غريبًا أن فرعون لما خرج في مطاردة موسى عليه السلام وأصحابه فإنه رآهم، أما النبي ﷺ فإن أهل مكة لما خرجوا لمطاردته أعماهم الله سبحانه وتعالى، فلم يفشلوا في القبض عليه فحسب، بل لم يستطيعوا أن يروه أيضًا، وهكذا جعلهم خائبين خاسرين تماما. وأما سُراقة الذي تمكّن من رؤية النبي ﷺ أثناء هجرته إلى المدينة فلم يرجعه الله تعالى إلى مكة إلا بعد أن رأى آية صدق النبي ﷺ ومكانته العظمى. وهذا يعني أن العدو لم يتمكن من رؤية النبي ﷺ خلال هجرته إلا مرة واحدة، وإن العدو لم يحرز أي نجاح إذ لم يستطع أن ينال من النبي ﷺ شيئًا، بل إن النبي ﷺ هو الذي تمكن من صيده، حيث اعترف بصدقه ﷺ وعظمته وقت الهجرة وإن كان قد أسلم يوم فتح مكة. (الإصابة: حرف السين، سُراقة بن مالك، مجلد ٣ ص ١٣٥)

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

انفلق: انفلق أي انشقّ. (الأقرب)

فِرق: الفِرق الطائفة من الشيء المتفرّق. (اللسان)

الطَود: الجبلُ العظيم؛ المُشْرِف من الرمل؛ الهضبةُ. (الأقرب)

أَزْلَفْنا: أزلَفَه: قرّبه؛ جمَعه. (الأقرب)

التفسير: يخبرنا الله تعالى هنا أنه أوحى إلى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، فانشق، فتراءى كل من ماء البحر وماء البحيرات الصغيرة الموجودة قريبًا من البحر كتلال مرتفعة، فقرّب الله تعالى جنود فرعون من ذلك المكان، فمرّ موسى عليه السلام بسهولة من اليابسة المنكشفة بين البحر والترع، بينما أصيب فرعون وجنوده بالذعر حيث أخذت عجلات عرباتهم تغوص في الرمال، فلم يستطيعوا عبورها حتى فاجأهم المدّ وأغرقهم جميعًا.

لقد ذكرت التوراة هذه المعجزة كالآتي:

"ومدَّ موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سُورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميعُ خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر. وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين، وخلع بَكَرَ مركباتهم حتى ساقوها بثقلة. فقال المصريون: نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم. فقال الرب لموسى: مُدَّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمدّ موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه. فدفع الرب المصريين في وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماءُ سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم. فخلّص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيلُ المصريين أمواتا على شاطئ البحر، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعبُ الربَّ وآمنوا بالرب وبعبده موسى." (الخروج ١٤: ٢١-٣١)

لقد ذكر المفسرون القدامى بصدد هذه المعجزة قصصًا عجيبة غريبة، فقالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ إن موسى عليه السلام "ضرب البحرَ فصار وانشقّ اثني عشر فلقًا بعدد الأسباط" (فتح البيان)، لتعبر كل قبيلة من مسلك منفصل.

وقد بالغ البعض أكثر فقال إن جدارًا مائيًا حال بين كل قبيلة وأخرى، فلم يستطع بعضهم رؤية بعض، فقالوا لموسى: لن نتقدم خطوة واحدة ما لم يرَ بعضنا بعضًا. فدعا موسى ربه، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يُدخل عصاه بين الجدران المائية الحائلة بينهم، ففعل، "فصارت فيها كُوى فتراءَوا وتسامعوا كلامهم"، وعبروا البحر فرحين مسرورين. (الكشاف)

ولا شك أن المفسرين قد ذكروا هذه القصة إشباعًا لطبائعهم المعجَبة بالعجائب والغرائب. ليتهم ذكروا أيضًا طول عصا موسى عليه السلام التي تمكن بتمريرة واحدة بها من ثقب جميع الجدران المائية الحائلة بين اثني عشر مسلكًا مرّ بها اليهود. وليتهم بيّنوا أمرًا آخر، وهو أن بني إسرائيل إذا كانوا متحابّين فيما بينهم بحيث رفضوا عبور البحر إلا ويرى بعضهم بعضًا، فلماذا لم يعبروه من طريق واحد؟ ولماذا اختارت كل قبيلة طريقًا منفصلاً؟ فعبورهم البحر من طرق مختلفة في ذلك الوقت الحرج الذي كان فرعون يطاردهم فيه، وحبُّ بعضهم لبعض لدرجة أنهم قد رفضوا التقدم خطوة واحدة إلا إذا كانوا يرون بعضهم بعضًا، لأمرانِ متعارضان يدلان على أن القصة كلها كذب وافتراء.

كل ما في الأمر أن الله سبحانه وتعالى قد أتى ببني إسرائيل إلى البحر وقت الجزر، فما إن ضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر حتى أخذ الماء ينحسر. وعندما وصل فرعون البحر كان موسى عليه السلام قد عبر معظم اليابسة التي انحسر عنها ماء البحر، فلما رآهم فرعون يعبرون البحر من ذلك المكان أسرع وراءهم بعرباته. ولكن رمال البحر أدّت إلى هلاكه وجنوده حيث أخذت عجلات عرباتهم تغوص في الرمال، وقضوا وقتًا طويلا في محاولة إخراجها من الرمال، حتى حان وقت المد، فرجع الماء وأغرق فرعون وجنوده.

والحق أن قوله تعالى ﴿فانفلق﴾ أيضًا يشير إلى هذه الحقيقة، لأن الانفلاق يعني الانشقاق والانفصال. والمراد من انفلاق البحر أن ماءه انحسر عن الشاطئ، فظهرت اليابسة، فمرّ بها بنو إسرائيل والبحرُ على جانب منهم والبحيراتُ الصغيرة الواقعة قريبًا من البحر على جانبهم الآخر، وتراءت لهم مياه البحر والبحيرات كتلال مرتفعة.

يقول الله ﷻ مشيرًا إلى هذه المعجزة العظيمة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي تكمن في هذه الواقعة آية عظيمة تدل على قدرة الله ﷻ وعظمته، ولكن المؤسف أن الناس يتعامون عن هذه الآيات العظيمة ولا يحظون برضاه وحبه من خلال الإيمان بأنبيائه. فكلما يأتيهم نبي من عنده ﷻ يكفر به الأكثرية منهم، وقليل هم الذين ينالون شرف الإيمان به. مع أن المفروض بعد رؤية هذه الآيات العظيمة أن تلبي الأكثرية منهم نداء الله تعالى، ولا يحرم من ذلك إلا قلة قليلة جدًا. ولكن الغريب والمؤسف جدًا أن الناس لا يفتحون عيونهم لرؤية الحق رغم ظهور مثل تلك الآيات العظيمة أيضًا، بل يصرون على الرفض والإنكار والمعارضة، وبالرغم من إنكارهم يعلن الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي أنه تعالى يجعل أنبياءه غالبين كبرهان على كونه تعالى عزيزًا، ورغم استهزائهم وكفرهم يبعث رسوله مرة أخرى عند ظهور الفساد في الأرض، كدليل على أنه تعالى رحيم. ذلك أن ﴿الرحيم﴾ على وزن فعيل، والكلمات العربية التي تكون على هذا الوزن تدل دائمًا على الاستمرار والتواتر؛ وعليه فقد أشار الله ﷻ بذكر صفته "الرحيم" هنا إلى سنّته المستمرة منذ الأزل أنه كلما ظهر الفساد في الأرض بعث الله ﷻ أحدًا من عنده ليأتي إليه بعباده الضالين التائهين ويوصلهم به ثانية. فلم يُبعَث في الدنيا نبي قط لم يتغلب على أعدائه، ولم يحدث قط في الدنيا أن أهلها فسدوا ولم يهيئ الله ﷻ الأسباب لإصلاحهم. لقد جاء آدم فعارضه الناس، ولكن الله ﷻ لم يقل بسبب معارضتهم: حسنًا لن نبعث إليهم بعد ذلك نبيًا، بل بعث نوحًا بعد آدم لهدايتهم. فتعرض نوح أيضًا للمعارضة الشديدة، ومع ذلك لما وجد الله ﷻ عباده قد ضلوا بعده أقام إبراهيم لهدايتهم.

فواجه إبراهيم أيضًا معارضة شديدة حتى ألقوه في النار، ورغم ذلك بعث ربنا الرحيم موسى لهداية البشر، ثم بعث من بعده في أمته مئات الأنبياء الذين قد قُتل بعضهم أيضًا، ورغم العداء الشديد الذي تعرض له الأنبياء قد بعث الله تعالى نبيَّه ﷺ لهداية الناس حين رأى أن الفساد قد ظهر في البر والبحر.

إذًا، فإننا نجد في كل عصر الدلائلَ على كون الله سبحانه وتعالى عزيزًا حيث كان الله ورسله هم الغالبين في كل عصر كما يعلن الله سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(المجادلة:٢٢). كما نجد البراهين على كون الله سبحانه وتعالى رحيما أيضًا في كل عصر، بمعنى أنه تعالى لم يزل - رغم معارضة الناس لأحبته بكل شدة - يبعث رسله لهدايتهم مرة تلو أخرى. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في قصة موسى عليه السلام صفتيه "العزيز" و"الرحيم" لأنهما قد أكدت أن الله عزيز حيث صار موسى عليه السلام غالبا على فرعون الذي دُمّر تدميرًا، برغم أن موسى عليه السلام لم يملك أية قوة إزاء فرعون وجنوده. كما برهنت هذه المعجزة على أن الله سبحانه وتعالى رحيم أيضًا، حيث لم يمتنع سبحانه وتعالى عن بعث رسله إلى الناس على الرغم من تعرُّض نبيه موسى لمعارضة شديدة، بل كلما ضرب عبادَه الجوعُ والإفلاس روحانيًا بعث رسله لمساعدتهم وإصلاحهم.

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٧٠﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٣﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

أصنامًا: الأصنام جمعُ صنم وهو صورةٌ أو تمثالُ إنسانٍ أو حيوانٍ يُتّخذ للعبادة، أو كلُّ ما عُبد من دون الله. (الأقرب)

وورد في "المفردات": بل كلُّ ما يشغل عن الله تعالى يقال له صنم.

عاكفين: العكوف: الإقبالُ على الشيء وملازمتُه على سبيل التعظيم له. (المفردات)

التفسير: هنا يأمر الله تعالى رسوله أن يتلو الآن على قومه - للتدليل على كون الله عزيزًا - قصة إبراهيم الذي علّم قومه التوحيد ونهاهم عن عبادة الأصنام.

كان إبراهيم الطَّيْلا من مدينة "أُور" في بلاد الكلدانيين، وقد وُلد في عائلة تعبد الأصنام، بل تنحتها وتعيش على بيعها وما يُقَدَّم لها من قرابين. تُوفي أبوه وهو طفل صغير، فتربّى عند عمّه، وعندما بدأ يعي الأمور جعله عمه يشتغل في بيع الأصنام مع أولاده. لم يدر عمه الجاهل بالحقيقة أن هذا القلب الذي قد اختاره خالق الكون لا يمكن أن يكون فيه مكان للأصنام. ففي أول يوم بدأ إبراهيم العمل في محل عمه جاء شيخ عجوز ثري لشراء صنم، ففرح أبناء عمه بأنهم سيربحون اليوم ربحًا كثيرا. فاختار العجوز صنمًا وأراد دفع ثمنه، فتوجه إبراهيم الصبي إلى الزبون وقال له: أيها العجوز، ماذا ستفعل بهذا الصنم وقد بلغت من الكبر عتيًا؟ قال: سأحمله إلى بيتي وأضعه في مكان نظيف طاهر وسأعبده. فلم يتمالك الطفل مشاعره وسأل العجوز: كم عمرك؟ فأخبره عن عمره. فضحك الطفل ساخرًا وقال: ألا تستحي وقد بلغت هذه السن الكبيرة أن تخرّ ساجدًا أمام الصنم الذي قد صنعه عمّي قبل أيام؟ الله أعلم ما إذا كان جواب الطفل قد أشعل جذوة التوحيد في قلب العجوز أم لا، إلا أنه لم يستطع شراء الصنم بل رماه وذهب. فسخط أبناء عم إبراهيم لأنهم خسروا زبونًا جيدًا، فشكوه إلى أبيهم "تارح"، فعاقبه عقابًا شديدًا. (الموسوعة اليهودية تحت كلمة: Abraham)

وكان هذا أوّل عقاب تحمّله هذا الصبي الطاهر الصغير السن في سبيل وحدانية الله تعالى، ولكنه زاده حماسًا وتمسّكا بوحدانية الله تعالى بدلاً من أن تخمد جذوتها في قلبه. فقد دفعه هذا العقاب إلى التفكير والتدبر الذي فتح عليه نوافذ المعرفة.

حتى إذا بلغ رشده تحوَّل طِيبه الفطري إلى عقيدة راسخة. وفي الأخير نزل النور الإلهي على نور عقله، ونــزل عليه نور الوحي والإلهام، فشرّفه الله بالنبوة ليقوم بمهمة إصلاح الدنيا.

ولما كانت عائلة إبراهيم عليه السلام كلّها تعيش على ما تدرّه عليها تجارة الأصنام، وكان عمه "تارح" نفسه يعبد الأصنام كما هو ثابت من سفر يشوع ٢٤: ٢ من التوراة، فقال له عمّه وأبناؤه إننا كما تعلم يا إبراهيم، عائلة من الكهّان وليس لنا أي مورد آخر للدخل، فإذا امتنعت عن عبادة الأوثان انقطع رزقنا. فأجابهم الصبي بكل شجاعة: لن أسجد لأصنام يصنعها الناس بأيديهم.

والحق أن من المحال أن يعرف عظمة جواب إبراهيم إلا الذي أتيحت له فرصة التضحية في سبيل الله تعالى. فبرغم أنه توجد في هذا العصر حكومات منظمة، ويسوده الأمن والسلام، ولا يتعرّض فيه المرء لكثير من المحن والشدائد لو دخل في الأحمدية، ومع ذلك يكتب إليّ بعض من ينكشف عليهم صدق الأحمدية من ذوي الثقافة والذين لديهم أهل وعيال ويقولون: كيف تواسوننا وماذا يكون مورد رزقنا إذا دخلنا في الأحمدية؟ أما إبراهيم عليه السلام فكان كسير القلب سلفًا، إذ كان يتيمًا لا أهل له ولا أقارب إلا عمّه الذي كان يربّيه، ومع ذلك لم يفكّر إبراهيم في كيفية عيْشِه إذا ما طرده عمُّه، بل أجاب بكل شجاعة وبدون تردد: لن أسجد لأصنام يصنعها البشر!

لقد وقع حادث مماثل مع النبي ﷺ، وذلك أنه لما طالت دعوته ضد الشرك ويئس رؤساء مكّة من إرجاعه وأصحابه إلى دينهم رغم جهودهم المضنية، أتوا عمه أبا طالب وقالوا: إن ابن أخيك يستحق أن نعامله بالقسوة، ولكنا لم نتشدد عليه حتى الآن من أجلك. إنه لا يزال يسيء إلى آلهتنا إساءة كبيرة رغم عيشه تحت حكمنا، وقد استفحل أمره الآن ولن نصبر أكثر من ذلك، وقد جئناك لنخبرك بقرارنا النهائي بأن تنصحه بالكفّ عما يفعل. إننا لا نمنعه من عرض تعليمه على الناس وإنما نريد أن لا يتكلم عن آلهتنا بسوء وشدة بل يلين في دعوته، ولو لم ينتصح بنصحك من أجلنا، فعليك بأن تقاطعه وتخلي بيننا وبينه، ولئن لم تقبل بقرارنا فلن

نصبر أكثر من ذلك، فقد بلغ السيل الزُّبى، ولسوف نقاطعك أيضا رغم احترامنا لك واعترافنا بفضل عائلتك.

لم يكن أبو طالب مؤمنا بالرسول ﷺ و لم تكن عنده تلك الشجاعة التي تتولد في قلب المرء بعد الإيمان. لقد كان من رؤساء القوم وكان أخوف ما يخافه أن يفقد الرئاسة. كانت مكة كلها تحترمه وتبجله، فإذا لم يتخل عن النبي ﷺ فسيُعرض عنه الجميع. وهذا لم يكن بأمر هيّن، حيث يبذل الناس الكثير حفاظا على مثل هذا الشرف والمكانة، ويودّون أن يأتي الناس إليهم للتبجيل والتعظيم. كان حضرة المولوي نور الدين ﷺ الخليفة الأول للمسيح الموعود لما رجع إلى وطنه "بهيرة" بعد انتهائه من الدراسة* أثار بعض المشايخ ضجة كبيرة ضده بأنه وهّابي، وقادوا حملة تكفير ضده. وكان هناك شيخ كبير للمتصوفين ذو نفوذ كبير في "بهيرة" وما حولها. فذهب إليه المشايخ بفتوى التكفير ليوقع عليها. وكان أصدقاء الخليفة الأول ﷺ لا يخافون المشايخ، ولكنهم خافوا أنه لو انضم شيخ المتصوفين هذا إلى صف المشايخ، فستقع فتنة كبيرة. فذهب أحد زملائه ﷺ الأذكياء إلى شيخ المتصوفين وقال له: سمعت أن المشايخ قد جاءوا حضرتك لتوقّع لهم على فتوى التكفير. فقال: نعم، لقد جاءني هؤلاء، وأرى أنهم مصيبون في موقفهم، وأريد أن أوقّع على فتواهم. قال: إن حضرتك شيخ المتصوفين، ويأتيك الناس ليقدموا لك تحية التبجيل والتعظيم. ومهما كان نور الدين مخطئًا فإنه يقدم لك التحية، ولكنك إذا أفتيت ضده، فسوف يمتنع هو وأصدقاؤه عن تقديم تحية التبجيل لك. فخاف الرجل وقال: ما لنا وللفتاوى؟ عليك أن تقول للمولوي نور الدين أن لا يمتنع عن إلقاء السلام علينا. فرجع صديق الخليفة الأول ﷺ وأخبره بما فعل، وأن شيخ المتصوفين ينتظر منه أن لا يتوقف عن تقديم التحية له. فقال حضرته ﷺ: ما الحرج أن نسلّم عليه؟ فرجع هذا الشخص إلى شيخ المتصوفين وأخبره أن نور الدين يقول إن

* علمًا أن هذه الواقعة حدثت قبل انضمامه ﷺ إلى الأحمدية بزمن طويل. (المترجم)

حضرة الشيخ شخصية كبيرة، وكيف يمكن أن نمتنع عن تقديم التحية له! ففرح الشيخ جدًا وقال: سوف نمرّ من طرف المولوي نور الدين في يوم كذا وقل له أن لا ينسى تقديم التحية لنا. فمرّ في اليوم الموعود من أمام عيادة حضرة المولوي نور الدين ﵁، فخرج حضرته مع رفاقه للتسليم عليه. فأوقف الشيخ حصانه وبدأ يقول لحضرته ﵁: لقد جاءنا المشايخ بفتواهم، ولكنا رفضنا التوقيع عليها، وقلنا لهم: ما لنا ولهذه الأمور، فإن الجميع يقدمون لنا التحية. وشاع خبر هذا الحادث في المدينة، فانفصل مريدو شيخ المتصوفين عن الحركة المناوئة لحضرة الخليفة الأول ﵁ وهدأت عاصفة المعارضة.

إذًا فكان أبو طالب أمام اختبار صعب، فكانت مكة كلها تبجّله، وكان يخاف على مكانته المرموقة، فدعا النبي ﷺ وقال: يا ابن أخي، أعلم أن ما تفعله إنما تفعله باعتباره حقًّا، وقد ساندتك دائمًا وحمَيتُك من الأعداء، ولكن القوم قد جاءوني اليوم وهددوني قائلين: قل لابن أخيك أن يلين في الدعوة، وإن لم يفعل فعليك أن تتخلى عن حمايته وإلا فسوف نقاطعك. وأنت تعلم يا ابن أخي أن مقاومة القوم كلّهم أمر صعب، فانظر ماذا ترى! فاغرورقت عينا النبي ﷺ بما سمع من عمه وقال: يا عم، إنني أكن لك احتراما كبيرا، ولكني لن أرضى بما تقول إزاء الحق، ولو أنهم وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، فلن أرضخ لمطلبهم ولن أمتنع عن نشر التوحيد! إنني مستعد أن أضحي لك بكل غال ورخيص، ولكني لن أرضى بما تقول، ويمكنك أن تتخلى عن حمايتي، وتصالح القوم، والله يكفيني. وبرغم أن ترك القوم كان صعبًا جدًّا على أبي طالب، ولكن جواب النبي ﷺ ترك فيه وقعًا كبيرًا، فقال: فليخذلني قومي إذا شاءوا ولكني لن أخذلك. (السيرة النبوية لابن هشام: المجلد الأول، مباداةُ رسول الله ﷺ قومَه وما كان منهم)

لا يمكن أن يقدّر مدى أهمية جواب أبي طالب إلا الذين هم ملمون بحادث آخر يدلّ على حالة قلبه. وذلك أنه لما دنا أجله أصاب النبيَّ ﷺ قلق شديد لما كان يكنّه له من حب عظيم. لقد تذكّر كل ما فعله من أجله من حسن المعاملة والتضحيات الأخرى، فآلَمه أن يموت مثل هذا الإنسان المحسن دون أن يُسلِم! فأخذ النبي ﷺ يأتي

عمه من اليمين حينًا ومن الشمال حينًا، ويقول له: يا عمّ، الموت قريب، فاشهَدْ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ولكن أبا طالب لزم الصمت و لم يستجب له. فأصرّ النبي ﷺ كثيرًا واستولت عليه الرقّة وهو يقول: يا عمّ، انطق بالشهادة مرة على الأقل لكي أشهد أمام الله تعالى بأنك قد أسلمت. فقال له أبو طالب في الجواب أخيرًا: إنني لا أستطيع ترك دين قومي (السيرة الحلبية: المجلد الأول ذكر وفاة عمه أبي طالب وزوجته ﷺ خديجة).

وهذا يعني أنه كان يحب قومه كثيرًا بحيث إنه لم يرد أن يدخل الجنة بدونهم. ولكن هذا الشخص الذي كان يكنّ هذا الحب الشديد لقومه قد تأثر ببسالة النبي ﷺ في الجواب فقال: فليتركني قومي لو شاءوا ولكني لن أخذلك أبدًا.

ينقل جوزيفوس المؤرخ اليهودي الشهير عن المصادر القديمة أن إبراهيم الطَّيْلا هو أول إنسان أعلن بكل شجاعة أن الله تعالى خالق وواحد، وأنه هو المتصرف في النجوم التي تتحرك بأمره. ولما كان الكلدانيون - وهم قومه - يعبدون النجوم، فثاروا عليه غضبًا لمعارضته عبادة النجوم، فاضطر للهجرة من وطنه إلى كنعان.

وقيل إن إبراهيم كان ابن أربعة عشر عاما حين ترك أباه فرارًا من عبادة النجوم والأوثان، ودعا ربه أن ينقذه من أخطاء البشر.

وورد أيضا أن إبراهيم الطَّيْلا اخترع بعض الطرق المفيدة في الزراعة، ودعا أباه "تارح" إلى وحدانية الله تعالى، ولكنه كان يأمره أن يلتزم الصمت خوفًا من القوم. وعندما عارضه إخوته أشعل النار في معبد الأوثان، فمات أخوه "حاران" أثناء محاولته لإنقاذ بعض الأصنام - يبدو من هذا أن تلك الأصنام كانت من الخشب ومن أجل ذلك ورد أيضًا أن إبراهيم قطعها بالسيف.

وورد أيضا أن إبراهيم الطَّيْلا كان يراقب القمر عند طلوعه في بداية السنة ليعلم كيف تكون المعيشة في تلك السنة، فأوحى الله إليه وقال: ما قيمة تأثير النجوم أمام المشيئة الإلهية. فقام إبراهيم بدعاء كثير، وترك قومه من أجل إرساء دعائم الحقائق السامية في العالم.

وفي بعض الروايات أنه تلقى العلم الحقيقي وعمره ثلاث سنوات، أو عشر سنوات، أو أربعين سنة بحسب مختلف الروايات. وهناك تفاصيل كثيرة عن إبراهيم عليه السلام في كتب الربّيّين الفلسطينيين، إذ ورد فيها أن الملك المعاصر له كان اسمه نمرود. وتذكر هذه الروايات المفصّلة قصة القمر والنجوم كالآتي: لقد خبّأ "تارح" إبراهيمَ ثلاث سنوات خوفًا من الملك نمرود الذي كان يريد قتل أبنائه - لأن المنجمين أخبروه أنه قد وُلد طفل سيقضي على حكمه. فلما خرج إبراهيم من مخبئه ورأى الشمس ظنّها إلــهًا، فلما أفلتْ ظنّ أن القمر هو الإله وأن النجوم خدمه، فلما طلع الصبح قال: ليست الشمس ولا القمر إلــهًا إنما الإله غيرهما. فسأل أباه: من الذي خلق السماوات والأرض؟ قال: إن إلهنا هذا الصنم الذي أمامنا. فقال إبراهيم سأقدم له نذرا. فأعد طعامًا وقدّمه إليه، ولكنه لم يأكله. فأعد طعامًا أجود من ذي قبل وقدّمه إليه، ولكنه لم يأكل. فأحرقه مع الأصنام الأخرى. ولما رجع أبوه تارح قال: من أحرقها؟ فقال: لقد سخط الصنم الكبير على الأصنام الصغيرة وأحرقها! قال أبوه: أيها الأحمق، كيف يمكن أن يحرقها من لا يسمع ولا يرى ولا يمشي؟ قال إبراهيم: فلمَ تعبدها إذًا وتترك الإله الحي؟

وذات يوم جاءت امرأة بطعام نذرًا للأصنام، فقال إبراهيم: إن لهم أفواهًا لا يتكلمون بها، وعيونًا لا يبصرون فيها، وآذانًا لا يسمعون بها، وأيدي لا يبطشون بها، فليكنْ مثلَها من صنعها وآمن بها. ثم هب إبراهيم وكسّرها ثم أحرقها. فذهبوا به إلى نمرود فقال له: ألم تعلم أنني أنا الإله والحاكم على الكون كلّه؟ فأجابه إبراهيم: إذا كنت أنت الإله والحاكم على الكون، فأْتِ بالشمس من المغرب بدلاً من المشرق، وإذا كنت أنت الإله والحاكم على الكون، فأخبِرْني بما هو في نفسي الآن، وماذا سيكون مصيري؟ فبُهت نمرود ولم يستطع الجواب. واستمر إبراهيم في كلامه وقال: إنما أنت ابن "كونوس"، وإنك فانٍ مثله. لم تستطع إنقاذ أبيك من الموت، ولن تنجو منه أنت أيضًا.

وورد أيضا أن نمرود قال لإبراهيم عليه السلام: يجب أن تعبُد النار. قال: ولِمَ لا أعبد الماء التي يطفئها؟ قال: حسنًا، اعبُد الماء. قال: ولِمَ لا أعبد السحب المترعة بالماء؟

قال: حسنًا، اعبُدْها. قال: لم لا أعبُد الرياح التي تسوق السحب أيضًا. قال: حسنًا، اعبُد الرياح. قال: ولكن الإنسان ينجو من ضرر الرياح ويختبئ في البيت. قال نمرود: فاعبدني أنا، فإني ملِكُ الناس! قال: إن كنت إلـــهًا فأت بالشمس من المغرب. فأمر نمرود بإحراقه. فجمعوا الخشب وأعدّوا محرقة مساحتها خمسة أمتار مربّعة وأشعلوا فيها النار، وألقوا إبراهيم فيها. وإلى ذلك يشير ما ورد في التكوين ١٥: ٧. علمًا أنه قد ورد في بعض النسخ من التوراة في هذا المكان: "أخرجَك من نار الكلدانيين." (الموسوعة اليهودية تحت كلمة: Abraham)

وكانت عبادة الشمس شائعة في منطقة "كلديا" خاصة، وكان اسم إله الكلدانيين مينوداك (Menodack). كانوا يظنون أنه شعاع الشمس أو ضوء النهار وأنه ينفع الناس. وكانوا يسمونه بَعْلاً أي سيدًا أيضًا. وكان من أصنامهم الآخرين: صنم اسمه "الشمس" أي إله الشمس، وصنم آخر اسمه "السين" أي إله القمر، وصنم ثالث اسمه "نيبو" أي الإله النبي أو الإله المعلّم. (Nelsons Encyclopedia: vol.3: Babylonia)

وإشارةً إلى الأحداث نفسها قال الله تعالى هنا لرسوله الكريم ﷺ: إذا كان قومك لا يتّخذون العبرة من أحداث موسى وفرعون، فاقرأْ عليهم وقائع إبراهيم لأن أهل مكّة يعظّمون هذا النبيّ تعظيمًا كبيرًا. واذكر لهم خاصة ما جرى بين إبراهيم وأبيه وقومه من حوار إذ قال لهم: ما تعبدون؟ وبما أنهم قد اتخذوا أصنامًا باسم الشمس والقمر والنجوم يعبدونها، فقالوا في الجواب: إننا نعبد هذه الأصنام، ونظل لها عاكفين طوال النهار. قال: هل تتلقون أي جواب منهم عندما تنادونهم لتعلموا أنهم قد استجابوا لدعائكم، وهل تظهر أي نتيجة لدعائكم نفعًا أو ضررًا؟ أي إذا كانت هذه الأصنام تمتلك قدرات إلهية فيجب أن تستجيب لدعائكم كما يستجيب الله تعالى لدعاء عباده، وأن تكون قادرة على نفع المؤمنين وتدمير الكافرين بها كما يحمي الله تعالى عباده من كل أذى ويهيئ لهم أسباب الرحمة والبركة. فهل تقدر أصنامكم على كل هذا؟ هل تستجيب لكم دعاء، أو تدفع

عنكم ضرًا، أو تجلب لكم نفعًا؟ وإذا كانت لا تتمتع بأي من هذه القدرات والصفات، فلمَ تعبدون ما لا يسمع ولا يجيب ولا ينفع ولا يضرّ؟

وهذا الدليل يبلغ من القوة بحيث يقول أحد أصحاب النبي ﷺ: لم أدخل في الإسلام إلا نتيجة هذا الدليل. وذلك أنني خرجت مرة في سفر وقد حملت معي صنمًا صغيرًا – بحسب عادة العرب – لينفعني عند الحاجة. وبينما أنا أمرّ ببرية عنّتْ لي حاجة، فوضعتُ أمتعتي هناك وقلت للصنم: سيدي، أرجوك أن تقوم بحماية متاعي ريثما أعود من عملي هذا. ولما رجعت وجدت ثعلبًا يبول على الصنم رافعًا رجله، فثرت غضبا وقلت: ما دام هذا الصنم لم يستطيع حماية نفسه من ثعلب يبول عليه، فكيف يحمي أمتعتي؟ فرميت الصنم بعيدًا وأسلمت حين عدتُ.

ويقول صحابي آخر: لقد آمنت بالتوحيد لأني خرجت ذات مرة في سفر مع رفاق لي، فصنعت صنمًا من العجين وأخذته معي. وتصادف أن نفد زادنا، و لم نجد شيئًا نأكله رغم البحث المضني. واشتد بنا الجوع، فاضطررنا لقطع صنمي المصنوع من العجين وصنعنا منه الخبز. وعندما شبعنا من الأكل ضحكتُ على نفسي وقلت: ما أشدّني غباء، إذ كنت أعتبر الشيء الذي قطعتُه وأكلتُه وهضمتُه إلــهًا قاضيَ الحاجات! فأسلمتُ بعد عودتي فورًا.•

فإبراهيم عليه السلام قد نبّه هنا قومه إلى عجز الأصنام وقلّة حيلتها وقال: هل تنفعكم شيئًا أو تصيب أعداءكم بأذى؟ فقال قومه نادمين: كلا، لم نر لعبادتنا لهذه الأصنام أي نتيجة ولا فائدة إلا أننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فعبدناها مثلهم.

• ورد في كتب الحديث: "في رواية مسلم: وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسم ﷺ. ومن جملة ما يتحدثون به أنه قال واحد: ما نفع أحداً صنمُه مثل ما نفَعني. قالوا كيف هذا؟ قال: صنعتُه من الحيس، فجاء القحط، فكنتُ آكله يوماً فيوماً. وقال آخر: رأيت ثعلبين جاءا وصعدا فوق رأس صنم لي وبالا عليه، فقلت: أَرَبٌّ يبول الثعلبانُ برأسه؟ فجئتُك يا رسول الله وأسلمتُ، كذا في المرقاة." (تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، كتاب الاستئذان والآداب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إنشادِ الشِّعر) (المترجم)

والحق أن جوابهم هذا يماثل طريقة كان الخليفة الأول ﷺ يحكيها لنا. وذلك أن كنّاسا وكنّاسة كانا يأتيان البلاطَ الملكي لتنظيفه، وكانا قد قاما بتربية الخنازير في بيتهما. فمات خِنّوص من خنانيصهما. وحبُّ المرء للحيوانات التي يربّيها، سواء كانت خنازير أو غيرها، أمرٌ طبيعي. وكان الخنّوص بالنسبة للكنّاسَين كالفرس أو كأي حيوان آخر بالنسبة لنا. وفكرت الكنّاسة أثناء العمل في خنّوصها الميت، فأخذت تبكي مستندة إلى جدار القصر. فجاء أحد خدام البلاط ووجدها باكية، فظن أنه ربما وقع مكروه في بيت الملك، وفكّر في نفسه أن الناس إذا رأوه لا يبكي أساءوا به الظن وشكّوا في ولائه للملك، فأخذ يتباكى. ثم جاء أحد الحراس ووجدهما يبكيان، فظن أن حادثًا ما قد وقع في بيت الملك، وفكر أنه لو رآه أحد لا يبكي لشك في ولائه، فأخذ يتباكى. ثم جاء صغار الموظفين ثم كبارهم وبدأوا يبكون لبكاء الآخرين. ثم أتى رجال البلاط والوزراء وقالوا في أنفسهم: لا جرم أن القوم يبكون لحادث قد وقع اليوم في القصر ومن واجبنا نحن أن نكون على علم بما يحدث هنا، وإذا لم نبك فسوف يشكّ القوم في ولائنا، وبدأوا يتباكون على مقاعدهم واضعين المناديل على عيونهم. ثم حضر وزير كان أذكى من الآخرين فلم يبك، بل سأل أحد زملائه الجالس بجنبه: ما الذي حدث؟ قال: لا أدري، إنما وجدت الوزير الجالس بجانبي يبكي فبدأت أبكي. فقال: اسأله ما الذي حدث؟ فلما سأله قال: أنا لا أعلم شيئا إنما كان الوزير الجالس بجانبي يبكي فبدأت أنا أبكي. فلم يزل يسأل الواحد منهم صاحبه حتى سألوا الكنّاسة عن سبب بكائها، فقالت: إنما أبكي لأني قد تذكرت خنوصًا لي قد مات!

فكما أن كل رجال البلاط بكوا برؤية الكنّاسة الباكية بدون سبب، كذلك قال قوم إبراهيم: لقد وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأصنام ويتوسلون إليها ويسجدون لها، فبدأنا نتوسل إليها ونخرّ أمامها ساجدين.

قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ
ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِى
خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٩﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٨٠﴾ وَإِذَا
مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٢﴾
وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

الدين: الجزاء؛ المكافأة؛ الحساب؛ القضاء. (الأقرب)

التفسير: أما قول إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فقد جاء فيه الخبر بصيغة المفرد مع أنه جمع، فقال ﴿فإنهم عدوٌّ لي﴾ بدل أن يقول "إنهم أعداء لي"، وذلك لأنهم في العربية يأتون بالخبر مفردا وإن كان المبتدأ جمعًا، فلا اعتراض على ذلك. ونظيره في القرآن الكريم قول الله تعالى لموسى وهارون في هذه السورة: ﴿فقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، مع أن الظاهر يقتضي أن يقال "فقُولا إنّا رسولاَ ربِّ العالمين". وهذا الأسلوب شائع في اللغة العربية، فمثلا يقال "هذان رسولي ووكيلي" و"هؤلاء رسولي ووكيلي" (فتح البيان)، مع أن الظاهر يقتضي أن يقال "هذان رسولاي" و"هؤلاء رسلي".

وقد قال البعض عن قول إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾: لماذا سمى الأصنامَ عدوًّا له مع أنها جماد لا حيـــاة فيها؟ وقد أجاب المفسرون على ذلك بأن النسبة قد جاءت مقلوبة هنا. ومثاله في لغتنا: "الميزاب يجري"، مع أن الميزاب لا يجري، إنما الماء يجري في الميزاب، فقال إبراهيم إنهم عدوّ له، بينما يقصد أنه عدو لهم. وهذا ما فسّر به الفرّاء، حيث قال إن النسبة قد جاءت في هذه الجملة مقلوبة.

ولكنني أرى أن إبراهيم عليه السلام إنما اتخذ هذا الأسلوب تعريضا بعقيدة المعارضين،

حيث قال لهم: إنكم تظنون هذه الأصنام آلهة ولكنني لا أعبدها، فلا بد أن تصبح أعداءً لي إلا رب العالمين الذي أعبده، وسوف نرى الآن ما إذا كان ربي الذي هو رب العالمين ينصرني ويحميني، أم ستهلكني آلهتكم التي تعاديني. إذا كانت هذه الأوثان تملك أي قدرة، فلتهلكني الآن وتدمرني، ولكنها إذا لم تقدر على هلاكي، كان دليلا على أنها عاجزة ولا حول لها ولا قوة.

وبالفعل قد أكدت الأحداث أن رب العالمين نجّا إبراهيم و لم تستطع آلهة قومه أن تضرّه شيئًا.

كما نجح اليهود وهلك أعداؤهم - نتيجة لهذه النبوءة الإبراهيمية- حيث كانوا يؤمنون بإبراهيم عليه السلام.

كما أشار إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿رب العالمين﴾ إلى أن الإله الذي أؤمن به إلهٌ حيٌّ قويٌّ، أما آلهتكم فلا حول لها ولا قوة. مما لا شك فيه أن كلمة ﴿ربّ العالمين﴾ تعني أن ربنا هو رب الناس ورب الحيوانات، ورب الهوام والحشرات، كما أنه رب العرب ورب الفرس ورب الهنود أيضًا، ولكن كلمة ﴿رب العالمين﴾ تشير إلى العوالم المختلفة نظرًا إلى العصور المختلفة أيضًا، وعليه فإن إبراهيم يعني أيضًا أن الإله الذي يدعو إليه إلهٌ حيّ، إذ كان ربًّا للذين كانوا في زمن آدم، وللذين كانوا في زمن نوح، وللذين هم في زمنه، وللذين سيأتون بعده أيضًا. فثبت أن مثل هذا الإله إلهٌ حيّ إذ لو لم يكن إلـــهًا حيّا لما كان ربًّا لأهل كل عصر. إذًا، فإن إبراهيم عليه السلام قد نبّه أيضًا بقوله ﴿رب العالمين﴾ أن ربي هو إله حيّ يمكن أن ينتفع منه أهل كل عصر كما انتفع منه أهل العصور الغابرة، ولكن آلهتكم لم تنفع أحدًا من قبل ولا تنفعكم أيضًا، فاجمعوا كل آلهتكم من أجل تدميري وادعوها بالبكاء والابتهال ثم انظروا هل يكون النصر حليفًا لربي الذي هو رب العالمين أم لآلهتكم. فكما أن الطفل الصغير حين يمر في الشارع وحيدا ويضايقه الأولاد الأشرار، ويريدون ضربه، فيصرخ فتسمع أمه صوته فتخرج من البيت مسرعة قلقة، كذلك يقول إبراهيم عليه السلام إنكم مهما عاديتموني ومهما حاولتم تدميري فمن المحال أن يخذلني ربي وتنتصر آلهتكم على الله الأحد. إن كبار الملوك والمفكّرين والزعماء أيضًا

يعتمدون في الدنيا على مساعدة الآخرين عند حلول المحن، وبالفعل يأتي بعض الناس محاولين إنقاذهم، فينجحون أحيانا ويفشلون أحيانا، ولكن المؤمن عندما يُبتلى بمحنة فإن الله الأحد بنفسه ينـــزل من السماء ويتصدى لمن يعتدي على عبده المؤمن. وهذه خير جزاء يمكن أن يناله أي إنسان. وهذا هو نفس الجزاء الذي ناله الرسول ﷺ وجماعته، وعيسى عليه السلام وجماعته، وموسى عليه السلام وجماعته، وإبراهيم عليه السلام وجماعته، حيث كان الإله الحي القوي معهم دائمًا، وكلما هاجمهم العدو نـــزل الله من السماء ووقف إلى جنبهم وأظهر لهم الآيات الكبرى. إن هذا الحب الإلهي شيء ثمين لدرجة أنه لو جاز للإنسان لتمنى أن يعاديه الناس أكثر لتثور له محبة الله أكثر. ولكن الإسلام ينهى عن مثل هذه الأمنية حيث قال الرسول ﷺ: "لا تتمنّوا لقاءَ العدو." (البخاري: كتاب التمني، باب كراهية تمنّي لقاء العدو).

علينا أن نتوقف هنا مليًا للتدبّر في معنى هذه الكلمة، فمن ذا الذي يتمنى أن يهاجمه العدو؟ كلا، لا أحد في الدنيا يتمنى أن يشن عليه عدوه الهجوم فيقاتله ويلقيه في المحنة ويهلكه. لكن الواقع أن المسلمين كانوا يستطيعون أن يتمنوا في بعض الأحيان أن يشن العدو عليهم الهجوم لينـــزل الله من السماء لنصرهم، هذا هو الأمر الذي بسببه قال النبي ﷺ: أيها المسلمون، لا شك أن الله تعالى يقف بجنبكم كلما يهاجمكم العدو، وتجدون في ذلك من المتعة والسرور ما يجعلكم تتمنون لقاء العدو كلما توقف هجومه لكي ينـــزل الله إليكم مرة أخرى؛ ولكن هذه الأمنية صحيحة فيما يتعلق بالحب والعشق، ومنافية فيما يتعلق بحِكم الله ومشيئته، فلا تتمنوا ذلك كيلا تخالفوا أمر الله تعالى. أما إذا كان العدو هو البادئ بالهجوم فلن يخذلكم ربكم إن كنتم على صلة صادقة معه، لأن من سنته المستمرة أنه ينصر رسله ويُري آياته تأييدا للذين يؤمنون برسله. فإبراهيم عليه السلام يشير بقوله ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى هذه السنّة الإلهية القديمة، ويوضح لقومه قائلا: إن آلهتكم التي تُمرِّغون أنوفكم أمامها ساجدين هي عدو لي، فليضرّوني بشيء إن كانت تملك أي قدرة إزاء ربي الذي هو إلهٌ حيّ وقويّ ورب العالمين. سترون أن آلهتكم ستفشل حتمًا وسوف ينصرني ربي الذي هو رب العالمين.

هذا، ويتضمن قوله ﴿رب العالمين﴾ نبوءة أن هذا الدين سيصبح دينًا عالميًا في نهاية المطاف، حيث يبعث الله ﷻ نبيًّا إلى الناس أجمعين ولن تبقى نفس منفوسة خارجة عن نطاق فيوضه.

ثم يقول إبراهيم ﷺ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.. أي أن رب العالمين هو ذلك الإله الذي خلقني، فلا بد أن يحميني من الأخطار والحوادث ويوصلني إلى غايتي ويكتب لي النجاح في مهمتي، إذ كيف يمكن أن يخلقني ويبعثني لغاية عظيمة ثم ينسحب عن حمايتي ومواساتي، ويدَعني فريسة للحوادث والمحن؟ إن صفة "الخَلق" في ربي تقتضي أن يحالفني النجاح من عنده أيضًا، لأن الكائن الذي هو محتاج إلى غيره حتى من أجل وجوده لا يستطيع أن يهيئ بنفسه أسباب الرقي والتقدم لنفسه، بل يكون محتاجًا إلى خالقه في هذا المجال أيضًا. فمثلا إذا بنيتَ بيتًا فلن يكون له باب ولا شبّاك ولا نافذة ولا كُوّة إلا إذا وضعتها أنت بنفسك لأنه بيتك وأنت بانيه، كذلك ما دام اللهُ ربُّ العالمين هو الذي قد خلق الإنسان فلن يحقق الرقيّ ماديا أو روحانيا ما لم يهيئ له رب العالمين أسباب الرقي.

وقد أكد إبراهيم ﷺ بهذه الكلمات أمرين، الأمر الأول أنه أنبأ قومه بانتصاره ورقيّه معربًا عن يقينه الكامل بأن ربّه لن يخذله أبدًا؛ فليخذلْه عمه وإخوته وأصدقاؤه وقومه إذا شاءوا، ولكن الله رب العالمين الذي عاش هو في كنفه وتربى في حضنه لن يخذله أبدًا، بل سيكتب له العز والنجاح والغلبة. والأمر الثاني هو أن إبراهيم ﷺ قد حث هنا قومه على التفكير في غاية خلقهم، فلا يضيعوا أعمارهم سدًى. الواقع أنه برغم أن كل إنسان يدرك أنه لم يُخلق بنفسه، إلا أن قليلاً هم الذين يفكّرون في غاية خلقهم. إنهم يظلون منغمسين في متع الدنيا وزخرفها بحيث تنشأ في قلوبهم مئات الأسئلة الأخرى، ولكن السؤال الذي لا يتولد في قلوبهم هو: ما هي غاية خلقهم؟ لقد رأيتُ أن كثيرا من الناس يتساءلون: لماذا خُلقت الأزهار الجميلة الخلابة في غابات أو جبال يصعب وصول الإنسان إليها؟ وما الحاجة إلى خلق آلاف الأنواع من الديدان والحشرات التي تتولد في موسم الأمطار؟ وما الجدوى من أن يخلق الله تعالى في البحار الجُدْجُد وغيره من

الحيوانات الدميمة؟ ولماذا أنبت الله الأعشاب بهذه الكثرة؟ ولماذا خلق الله الحيّة والحريش وغيرهما من الزواحف. فهناك آلاف المخلوقات في البرّ والبحر والجو التي يسأل الناس عن غاية خلقها. وكما قلت يجد المرء منظرا خلابا للأزهار الجميلة على أعالي الجبال التي يصل إليها بصعوبة بالغة فيتساءل: ما الحكمة في خلق هذه الأزهار الرائعة الجمال في هذا المكان النائي؟ فهناك آلاف التساؤلات المماثلة التي تنشأ في القلوب، وكل إنسان يحاول الإجابة عليها بحسب عقله وفهمه، فيقول مثلا: يُصنع اليوم مِن سموم المخلوقات السامّة مثل الحيّة وغيرها أدوية كثيرة ذات مفعول سريع. أو يقول مثلا: لقد خُلقت هذه المناظر الخلابة في الأماكن النائية لكي لا يتمتع بجمالها إلا الذي يتكبّد العناء والمشقّة. إن هذه الأسئلة والأجوبة توضح بجلاء أن الإنسان يعترف بأن كل شيء في الدنيا قد خُلق لهدف وغاية، ومع ذلك لا يفكّر الإنسان أبدًا في غاية خلقه هو. إنه توّاق لمعرفة الحكمة وراء خلق الأشياء الأخرى، ولكنه لا يفكر أبدًا في غاية خلقه هو، وفيما إذا كان يحقق هذه الغاية أم لا، وما إذا كان عدم خلقه يمثّل أي نقصان في الدنيا. فهناك كثير من الناس الذين وجودهم أو عدمهم سواء. إنهم لا يعلمون غاية حياتهم، كما لا يسعون لتحقيقها. ولو أن الناس كلّهم فكّروا في هذا السؤال لتجنبوا الكسل والغفلة و لم يدَعوا أعمالهم ناقصة، بل سعوا لرقيّهم الروحاني باذلين كل تضحية.

ومن الواضح أنه ليس باستطاعة الجميع أن يكون مثل هتلر ونابليون وتيمورلنك، لأن مضمار الرقي المادي ضيق جدا؛ ولكن هناك مضمار متاح للجميع ليثبت فيه وجوده ويحرز الرقي كيفما شاء دون أن يلحق بأحد ضررًا أو يعيق له طريقًا، وهو مضمار التقرب إلى الله تعالى. ذلك لأن تقدُّم المرء فيه لا يضر غيره، كما أن كل إنسان يمكن أن يتقرب إلى الله تعالى أيًا كانت مهنته أو درجته بين الناس. فبوسع الملِك أن يتقرب إلى الله تعالى، وبوسع الأمير أن يتقرب إلى الله تعالى، وبوسع الفقير الذي لا حول له ولا قوة أن يتقرب إلى الله تعالى، ويمكن للخبّاز أن يتقرب إلى الله تعالى، ويمكن للغسّال أيضا أن يتقرب إلى الله ﷻ. يقال إن وجود ملِكَين في إقليم واحد مستحيلٌ، ولكن يمكن أن يوجد عشرة من أولياء

الله تعالى في إقليم واحد، بل في بيت واحد، بل في غرفة واحدة، بدون أن يتضرر أحد منهم شيئًا، بل إن سبيل الوصال إلى الله تعالى واسعة بحيث لا يمكن أن تضيق على السائرين فيها أبدًا. وكما أن النهر لا ينقصه شربةُ عصفور، كذلك هو حال التقرب إلى الله تعالى. فإنه كنـــز عظيم لا ينقص منه شيء أبدا. فقد نال نبينا ﷺ من حب الله تعالى نصيبًا أوفر بحيث لا نجد نظيره عند سائر الأنبياء، ومع ذلك بقي عند الله تعالى حب كثير ليوزعه على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وغيرهم من الصحابة - رضوان الله عليهم - فنال كل واحد منهم حظًا وافرًا منه بقدر درجته.

فعلى الإنسان أن يفكر دائمًا في غاية خلقه. وإن غاية خلق الإنسان بحسب القرآن الكريم أن يكون محبوبا عند الله تعالى. وعندما يتبوّأ هذا المقام فلا ينمحي اسمه من سجلّ الله تعالى وإن انمحت الدنيا كلها! إنه يستطيع أن يكون مقربا عند الله تعالى وهو يعيش في أسمال بالية، فينال عنده تعالى من العزّ ما تتضاءل أمامه عزّة الدنيا كلية. لقد لفت إبراهيم عليه السلام أنظار قومه إلى هذه الحقيقة الأساسية ودعاهم إلى التدبر في غاية خلقهم والانتفاع بأسباب الهداية التي خلقها الله لهم. وإلا ستذهب حياتهم سدًى، فيكونون كالباحث عن حتفه بظلفه.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.. أي أن الله ربَّ العالمين هو الذي يطعمني ويسقيني، إذ لم أخلق أنا الحنطة ولا الماء ولا الملح ولا الفلفل ولا اللحم ولا الخضار وما إلى ذلك، إنما وُجدتْ هذه الأشياء كلها قبل ولادة أجدادي أيضا. الحق أن أقدم أُسرة باقية في العالم أيضًا لا ترقى إلى أكثر من مئة جيل، بينما وُجدت الحنطة والماء والخضار واللحم والملح والفلفل والغلال كلها قبل وجود هذه الأسر بكثير وكثير، فكيف يمكن للإنسان إذًا أن يدعي أنها ملكٌ له؟ إنما نأكل هذه الأشياء لأن الله ﷻ سمح لنا بذلك، وإلا فليس بوسعنا أن نوجد أيًّا منها. خذوا مثلاً الماء، فإننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن الماء الذي نشربه قد ادخره الله تعالى في طبقات الأرض، وقد ذكّرنا الله تعالى في القرآن الكريم بأنه لو ذهب بهذا الماء، فمن أين تأتون بماء مثله؟ وهذا حق وصدق تمامًا، إذ لا طاقة لنا على إيجاد الماء، بل إن

الله تعالى قد هيأ لنا بمحض فضله كل هذه الأشياء التي لا غنى لنا عنها. إننا نعاني كثيرًا إذا لم نجد الماء لبضع ساعات، ولكن المناطق التي يكون فيها الماء شحيحا يشرب أهلها شيئًا شبيهًا بالوحل لا يمكن أن يسمّيه أهل بلادنا ماءً. فمثلاً في بعض مناطق السند وبلوجستان° يشرب الناس ماء شبيهًا بالوحل ولا يستطيع أهل بلادنا شربه إلا في حالة الاضطرار الشديد. وباختصار ليس هناك شيء يؤكل أو يشرب إلا وقد أعدّه الله تعالى لنا، ولكن الله ﷻ خفيٌّ عن الأعين ويحسن إلى الناس من وراء الغيب، فلا يشعرون بمننه التي لا تعد ولا تحصى. ترضع الأم ولدها فيظن أن أمه هي التي تحسن إليه حيث ترضعه من دمها، مع أن عاطفة التضحية هذه لم تخلقها الأم في نفسها بنفسها، بل إن الله ﷻ هو الذي قد خلقها فيها حتى قبل ولادته. فترى الفتيات يصنعن الدمى ويلعبن بها، وما هي إلا الأمومة وعاطفة تربية الأولاد، وإن الله ﷻ هو الذي قد خلق هذه العاطفة فيهن سواءً عبّرن عنها بوعي أو بغير وعي. على أية حال، إن الله ﷻ هو الذي قد خلق في المرأة الرغبة في الأولاد و لم تخلقها هي بنفسها، إذ قد أُودعتْ فيها حتى قبل ولادتها هي. فما دامت عاطفة الأمومة موجودة في الأم حتى قبل ولادتها فثبت أنه لا دخل لها في وجودها فيها. وهنا ينشأ السؤال: إذا كانت المرأة لم تخلق عاطفة الأمومة فيها بنفسها فمن ذا الذي خلقها فيها؟ لا بد أن يكون خالقها غير المرأة، وبالتالي لا بد من الاعتراف أن الذي خلق جميع المخلوقات هو الذي قد خلق هذه العاطفة في الأم. ومع ذلك نرى أن الولد يحب أُمّه ولا يحب الله تعالى، وذلك لأنه لا يرى اللهَ تعالى. إنه لم ير ذلك المشهد عندما كانت ملائكة الله ﷻ تودع حبَّ الأولاد في فطرة أمه وهي لا تزال جنينًا في بطن أمها، وإنما رأى أن أُمَّه ترضعه بثديها، ورغم أنها تتعرض للفاقة والجوع والضعف والهزال بحيث يختفي اللحم من جسمها ولا يبقى منها إلا هيكلها العظمي، ومع ذلك تضع في فمه ثديها الجاف الذي لم يبق فيه قطرة من اللبن. فبما

° إقليمان في باكستان. (المترجم)

أنه لا يرى اللهَ الذي خلق هذه العاطفة في أمه فلا يحبّه بل يحبّ أمّه التي يراها ترضعه من ثديها. كذلك يأكل الإنسان الخبز، فيشكر من أعطاه الحنطة التي صنع منها الخبز، أو يشكر مَن أعطاه على العمل أجرة اشترى بها الحنطة، أو يشكر أُمَّه أو زوجته التي صنعت له الخبز؛ ولكنه لا يشكر من خلق له الحنطة والملح والماء؛ وذلك لأنه يرى من أعطاه الحنطة، أو الأجرة، أو يرى المرأةَ التي خبزت له الخبز في الأتون في اليوم الحار أو أعدت له الفطور جالسة في البرد القارس في فناء البيت، بينما كان هو ملتفّا باللحاف و لم يرد الخروج من فراشه؛ فلأنه يرى هؤلاء فتتولد في قلبه مشاعر الشكر لهم، ولكنه لا يرى المُنعِم الحقيقي وراء هذا الإنعام، فلا يدرك أن المنعِم الحقيقي هو غير هؤلاء.

هنالك طريفة شهيرة في بلادنا - والله أعلم ما إذا كانت حقيقية أم من نسج الخيال - وهي أنه في أيام حكم الإنجليز على بلادنا كان الناس يذهبون إليهم بالهدايا المغلّفة في السلال لكسب ودّهم. وقد أصبح هذا العمل محظورا فيما بعد بحسب القانون، ولكن الشاطرين من الموظفين ورؤساء القوم ظلوا يقدّمون الهدايا كلما قابلوا المسؤولين الإنجليز. ويقال أن حاكم محافظة ذهب مع أحد الجباة لمقابلة مسؤول إنجليزي، وأحضر معه هدية، والجميع يعرف أن المحافظ أعلى منصبًا من جابٍ حيث يعمل الأخير تحت سلطة الأول الذي تخضع له مناطق واسعة. وبالمصادفة كان عند المسؤول الإنجليزي وقت ضيق للقاء، فبدلاً أن يدعو كل واحد منهما على انفراد دعا الاثنين معًا. فهمَّ المحافظ حملَ سلّة الهدية، ولكن الجابي سبقه وحملها قائلاً: سيدي، لماذا ترهق نفسك بحملها وأنا حاضر؟ ثم حمل السلة ودخل بها ووضعها أمام المسؤول الإنجليزي بدون أن يخبره أنها من قِبل المحافظ. وظن الإنجليزي أن الجابي هو الذي قد أتى بالهدية، فجلس متوجهًا إلى الجابي ومديرًا ظهره إلى المحافظ، وأخذ يسأله عن أحوال المنطقة، وظل المحافظ يحترق كمدًا طول الوقت ولكن بدون جدوى. واستمر اللقاء بين المسؤول الإنجليزي والجابي ساعتين لم يتوجه فيهما بأي سؤال إلى المحافظ. وعندما خرجا من عنده

صبّ المحافظ جام غضبه على صاحبه، فقال له الجابي: سيدي، ما كان لائقًا بي أن أدَعك تحمل سلّة الهدية.

فترى أن الهدية كانت في الواقع من قبل المحافظ، ولكن الجابي هو الذي قدّمها للمسؤول الإنجليزي، فخصّه بلطفه ووده. هذه هي حال الإنسان، فإنما تأتيه العطايا من عند الله ﷻ، ولكن أباه وأمه وابنه وأخته وأخاه هم الذين يقدمونها إليه، فيظنّ أنها منهم، مع أن يد الله تعالى هي التي تكون وراء هذه الهدايا كلها.

فتذكيرًا بالمحسن الحقيقي أمرَنا الإسلام أن نقول بسم الله قبل الأكل أو الشرب، لأن قولنا هذا يعني أنه برغم أن الأم أو الزوجة أو الأخ هو الذي يضع الطعام أمام المرء، ولكن الحقّ أن الله تعالى هو الذي بعث الطعام إليه. وعندما يذكّر المرء بهذا الأمر مرارًا وتكرارًا ويدرك أن الله تعالى هو معطي هذه النعم كلها وهو الذي يطعمنا ويسقينا ويكسونا، فيميل قلبه إلى الله تعالى شيئًا فشيئًا وتتولد محبّة الله في قلبه. هذا هو الأمر الذي يبيّنه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.. أي أن الله تعالى هو المحسن الحقيقي الذي يطعمنا ويسقينا؛ وإذا كان تعالى هو المحسن الحقيقي فمن الغباء الشديد أن يُعرض الإنسان عن محسنه الحقيقي ويخضع أمام الناس الذين قد جعلهم الله تعالى مجرد واسطة. لأن هذا التصرف يعني أن الإنسان ينظر إلى الغصن ولا ينظر إلى الجذع، ومثل هذا الإنسان يسدّ بيده طريق رقيّه الروحاني ويجلب عليه سخط الله ﷻ.

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ حيث نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى. ذلك لأنه تعالى قد خلق الأشياء كلها لنفع الإنسان، ولكنه إذا أساء استعمالها مرض أو تضرر، ثم حين تدارك الإنسان خطأه وعالجه شُفي؛ ولذلك يُعزى المرض إلى الإنسان والشفاء إلى الله ﷻ.

والحق أننا لو تدبرنا كل ما يصيب الإنسان من مشاكل ومصائب لتبين لنا أن مصدر كل مصيبة هو سوء استعماله لنِعم الله تعالى، ولو أنه أحسن استخدامها استطاع تجنّب المصائب والبلايا. لماذا يمرض الإنسان؟ إنما يمرض لأنه يتناول ما يضرّ جهاز هضمه، أو أنه يأكل ما ليس فيه ضرر مباشر، إلا أنه يتجاوز في استعماله حد

الاعتدال أو يسيء استعماله فيمرض. خذوا الشمام مثلا، فإن هذه الفاكهة في حدّ ذاتها نعمة من الله تعالى ولكن المرء لو تجاوز حد الاعتدال في تناولها أصبحت هذه النعمة نقمة عليه وأصابته بالمرض. أو خذوا ثمرة المانجو مثلا، فإنها نعمة ربانية، ولكن إذا تناولها المرء أكثر من حد الاعتدال أضرّته. فجميع نعم الله تعالى تنفع الإنسان إذا استعملها إلى حد الاعتدال، وتصيبه بالمرض إذا تجاوز هذا الحد. على سبيل المثال إن الباذنجان وقثاء الحمار تأثيرهما حارّ، وتناوُلهما إلى حدّ معيّن نعمة، ولكن إذا تناولهما المرء أكثر من حد الاعتدال سبّب له الأول البواسير والثاني الإسهال. وتناوُل قصب السكر إلى حدّ الاعتدال مفيد جدًا، ولكن تجاوز هذا الحدّ المعتدل يسبب بعض أمراض البول. فثبت أن قصب السكر لا يسبب المرض، وإنما تجاوز الحد في استعماله هو الذي يسبب المرض. بل الحق أن السكر ضروري جدا لجسم الإنسان. فبرغم أن الجلوكوز ليس إلا السكر، إلا أن الأطباء إذا حقنوا به مريضًا أوشك نبضه على التوقف من شدة الضعف عاد نبضه قويًا ثانية. كان الناس في الماضي يعالجون بسبب جهلهم مرضى السكري بتفريغ السكر من أجسامهم تماما مع أنه عنصر ضروري جدا للجسم، فكان قلب المريض يتوقف بسبب نقصان السكر فيموت. ولذلك ينصح الأطباء في هذه الأيام أن حقنة الأنسولين إذا أثرت في قلب المريض تأثيرا سلبيا فيجب أن يعطى حقنة الجلوكوز فورا فيعود نشيطًا.

فثبت بذلك أن كل الأمراض التي تصيب الإنسان إنما سببها هو سوء استعماله لنعم الله تعالى، ولو أنه أحسن استعمالها لما أصابته بالمرض بل نفعته. لقد خلق الله الحديد لفائدة الإنسان وإذا أحسن استعماله نفعه نفعًا كبيرًا، حيث يصنع من الحديد أنواع من الأجهزة والماكينات النافعة، ولكن إذا أسيء استخدام الحديد أصبح شيئا ضارًا جدًا. أتذكر أنه في أيام طفولتي جاء بعض النجّارين من سيالكوت لبناء بيوتنا، وكنت أشاهدهم وهم يعملون. وعندما كانوا يعملون بالقَدّوم كنت أتمنى أن أعمل به مثلهم. كانوا يعملون بهذه الأداة كسبًا للرزق، ولكني كنت أظن أنهم يستعملونه من أجل المتعة فقط، فتمنيت أن أتمتع أنا أيضًا

باستعماله مثلهم. فحاولت مرارا أن أجرّب استعمال هذه الأداة، ولكنهم كانوا يمنعونني قائلين: لا تلمسها وإلا ستجرح نفسك. وكنت أظن أنهم إنما يمنعونني ليحرموني من متعة استعماله! وأخيرًا سنحت لي الفرصة يومًا حيث ذهبوا إلى المسجد لأداء الصلاة، تاركين أجهزتهم على الأرض، فحملت القدّوم وحاولت استعمالها. ولكن ما إن ضربت بها الضربة الأولى حتى أصابت يدي ولا يزال أثر الجرح بيدي.

فترى أن الله تعالى لم يخلق القدّوم لتجرح الإنسان، ولكن سوء استعمالها جرح يدي. وبالمثل فإن كل ما خلق الله تعالى من شيء إنما خلقه لنفع الإنسان، ولكن سوء استعماله إياه يؤدي إلى ضرره. مثلا يحمل الواحد على الآخر بالسيف أو الخنجر أثناء القتال فيقتله، لكن السؤال الذي يفرض نفسه: هل خلق الله الحديد ليشجّ به الإنسان رأس الآخرين؟ كلا، بل لو صنع من الحديد السكاكين والمدى لقشر الخضار وقطعها بدلاً من أن يشجّ به رؤوس الناس، أو صنع به الفؤوس لقطع الأشجار أو صنع به أدوات الحراسة وغيرها من الأدوات والماكينات، لكان الحديد نافعًا جدًّا للناس، ولكنه لو استعمل الحديد لضرب الآخرين لشجّ رؤوسهم.

فثبت أنه ليس في الدنيا شيء يمكن أن يضرّ الإنسان إن أحسن استعماله. إن ما يضره هو سوء استعماله لهذه النعم، وليس النعم نفسها. إن سمّ الحيات والعقارب فتّاكٌ جدا، ولكن أطباء الهوميوباثي (العلاج بالمثل) يستعملونه اليوم في علاج أمراض عديدة، وقد وجدوه ناجعًا جدا. فمثلا إن المريض الذي تتشقق أظافره إذا أُعطي جرعة من سمّ الحيّة على شكل دواء الهوميوباثي، تماثلَ للشفاء فورًا. والزرنيخ سمٌّ زعافٌ يقتل كثيرًا من الناس، ولكن علينا أن نرى كم من الناس يموتون به وكم يحيون. ولو قمنا بالدراسة لانكشف علينا أن ألفًا أو ألفين من الناس يموتون بتناول الزرنيخ سنويًا، أما الذين يُشفَون به فيبلغ عددهم مئات الآلاف. فعندما لا ينجع في مريض الملاريا دواء يعطى جرعة قليلة من الزرنيخ، فيتماثل للشفاء. كما أنه مفيد في معالجة أمراض عديدة أخرى. وبالمثل إن جوز القيء سمّ قاتلٌ يموت العديد بتناوله، ولكنه ينقذ حياة مئات الآلاف أيضا. كما أن الأفيون

شيء مدمّر جدًا، ولكن نفعه أكبر من ضرره. وكان المسيح الموعود عليه السلام يقول: لقد كتب الأطباء أن نصف الأدوية يُستعمل فيها الأفيون، وأن إحصاء منافعه الطبية أمر متعذر (جريدة "الفضل" قاديان عدد ١٩ يوليو/تموز ١٩٢٩م ص ٢). عندما يصاب الإنسان بالاكتئاب والقلق ويفقد النوم تمامًا وتنهكه الأوجاع والآلام حتى يتمنى الانتحار، يحقن بالمورفين فيشفى على الفور بإذن الله تعالى.

إذًا، فليس في الدنيا شيء هو ضار في حد ذاته، وإنما الضرر يكمن في سوء استعماله من قبل الإنسان وذلك نتيجة تقصيره وكسله، ومن أجل ذلك نسب إبراهيم عليه السلام هنا المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله سبحانه وتعالى. وعلى النقيض إن المسلمين في بلادنا يدّعون الإيمان بالله تعالى ولكنهم إذا فشلوا في أمر يقولون: لقد بذلنا كل ما بوسعنا ولكن الله أفشلنا، وهكذا يعزون الخير إلى أنفسهم والشر إلى الله تعالى؛ وهي إساءة كبيرة تُرتكب في بلادنا في حق الله سبحانه وتعالى. مع أن المؤمن الصادق كلما أتى عمله بنتيجة مرضية قال الحمد لله.. أي أن الله تعالى هو الذي وفّقه في هذا الأمر؛ وإذا فشل في أمر قال "إنا لله وإنا إليه راجعون".. أي لم أفشل إلا بسبب تقصيري وخطئي، لأن الله سبحانه وتعالى كان قد هيأ لي كل سبب للرحمة والبركة. والحق أنما ينال البركة من عند الله تعالى من يعزو العيب إلى نفسه والحُسنَ إليه تعالى، لأن الله تعالى يقول عندها: إن عبدي نسب العيب إلى نفسه والحُسن إليّ، فمن واجبي الآن أن أكتب له النجاح التام لكي ينسب إليّ المحاسن كلها. ولكن الإنسان إذا لم يسلك هذا المسلك وعزا العيب إلى الله تعالى، تخلى الله عنه ولم ينصره.

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾. لقد ذكر هنا اثنتين من صفات الله تعالى: المحيي والمميت. ومن الأدلة على إحيائه تعالى مئاتُ الآلاف من المواليد الذين يولدون كل يوم في الدنيا وفي ظروف خارجة عن نطاق قدرة الإنسان، ثم يكبرون في ظروف غير مواتية، ولولا أن هناك تصرّفًا مباشرًا من ذات عليا لما تربّوا في تلك الظروف وما كبروا أبدا. الواقع أن ولد الحيوان يصبح قادرا على سد حاجاته بنفسه خلال بضعة أيام فقط، وفراخ العصافير تتمكن من الطيران وعمرها أسبوع أو أكثر قليلا، وفراخ الدجاج تقدر على سدّ حاجاتها وعمرها ثلاثة

أو أربعة أسابيع فقط، ومواليد الأنعام تقفز بعد الولادة فورا؛ ولكن ولد الإنسان يظلّ بحاجة لأن يُحمل في الحضن حتى سبعة بل تسعة أشهر، وفي بعض الحالات لا يستطيع أن يحبو على رجليه حتى بعد أن يبلغ تسعة أشهر. وحينما يولد يكون غذاؤه الذي يتربى عليه موجودا في ثدي أمه. ثم تخرج أسنانه التي يمضغ بها طعامه بعد سنتين أو ثلاث عادة، وإن كانت هناك استثناءات حيث تأخذ أسنان بعض الأولاد في الخروج بعد ستة أو سبعة أشهر. وفي كل هذه الفترة تخدم الأم ولدها بعناء شديد. وتحمُّل هذه المعاناة الشديدة محال لو لم يودع الله فطرتها عاطفة حبّ الولد وتربيته. ولا تظنن أن كونها أُمًّا هو وحده يولّد هذه المحبّة الغريبة فيها، ذلك لأن عواطفها لا خيار لها فيها، ويُنسب إلى المرء من الأمر ما يكون خياريًا، أما ما لا يكون خياريًا فلا يُنسب إليه، بل يُنسب إلى ذات أخرى حتمًا؛ وتلك الذات هي الله ﷻ الذي أودع قلب الأم حبّ الأولاد وزوّدها بقوة تمكّنها من أن تلدهم وتربيهم. وبالفعل تقوم الأم بتربية أولادها سنوات عديدة؛ فأوّلاً تحمل الولد في بطنها تسعة أشهر، ثم تحمله في حضنها سنتين، وهذا يعني أن ولدها يكون همّها الوحيد لحوالي سنتين ونصف. وبمجرد أن تفرغ من تربية هذا الولد تحمل بولد آخر في معظم الحالات، وهكذا تقضي المرأة أفضل فترة من حياتها في تربية أولادها. فثبت أن عاطفة المحبّة التي توجد في كل امرأة تجاه الأولاد إنما هي من خلق الله ﷻ، وإلا فمن المستحيل أن يقاسي أحد هذه الآلام الشديدة بناء على العقل فقط. الحق أنه لولا خلق الله تعالى هذه العواطف في قلب الأم لتوقف الإنسان، بناءً على فلسفته وعقله، عن إنجاب الأولاد بالتدريج أو أهمل تربيتهم.

ثم إن صفة الله "المميت" أيضا تتجلى لنا كل يوم حيث يموت مئات الناس في المدن الكبيرة، فتجد الناس يمشون مع الجنازة في شارع أو آخر، أما المدن الصغيرة فيموت واحد من أهلها كل أسبوع تقريبا، أما القرى الصغيرة فيموت فيها اثنان أو ثلاثة كل سنة. فنرى مشهد الموت هذا بكثرة في العالم.

إذًا، فإن الناس يشاهدون صفتي الله "المحيي" و"المميت" بحيث لا يسع أحدا إنكارهما. إن الحياة تسبب للناس فرحة، ويسبب الموت لهم حزنًا حتى تتولد الرحمة

في قلب المرء برؤية جثّة العدو أيضًا - إلا أن يكون قاسي القلب - وينسى العداوة التي قد مرّ عليها عشرات السنين، فينبعث من قلبه الدعاء لعدوّه أو تتولد مشاعر الرحمة والمواساة تجاه أقاربه وأعزته؛ إذ يدرك أنه سيأتي عليه أيضًا هذا اليوم كما أتى على عدوّه. ولكن لا تسبب أيٌّ من هاتين المناسبتين فرحةً أو همًّا لله ﷻ الذي هو عالم الغيب، ذلك لأنه عندما يولد طفل في بيت يظنّ أبواه وأقاربه أنه قد طلع على الدنيا قمر جديد، وفُتح عليها باب جديد من الرحمة، مع أن هذه الروح الجديدة الآتية إلى الدنيا قد تسبب كثيرًا من المصائب والآلام لأهلها. إن أقاربه يفرحون عند ولادته، ولكن ملائكة الله في السماء يحزنون. إذًا، فالولادة تحمل رسالة واحدة أي الفرحة لأهل الدنيا، وإن تفاوتت درجة فرحتهم من طفل إلى آخر، ولكن ملائكة السماء يكون معربين عن أسفهم وألمهم عند بعض الولادات التي تستدعي ذلك، ويفرحون عند بعض الولادات كثيرًا وإن لم يفرح بها أهل الدنيا.

ونفس الحال بالنسبة للموت، فعندما يموت إنسان في الدنيا يحزن أقاربه وأصدقاؤه قلّوا أو كثروا. فمثلا عندما يموت أحد الصعاليك فلا تفرح زوجته ولا أولاده قائلين مثلاً: نِعم ما حصل! إذ كان زوجي أو أبي صعلوكا فتّاكا قد عاث في الأرض الفساد. كلا، بل يطلقون الصراخ عاليا كما يصرخ أبناء أي إنسان بارّ محسن عند وفاته، ويرى أهل الصعلوك موته خسارة كبيرة للدنيا تمامًا كما يرى أولاد أي مصلح عظيم موت أبيهم خسارة عظيمة للعالم، أو أكثر من ذلك.

كان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا طريفة بأنه لما توفي المهراجا "رنجيت سنغ" كان هناك بكاء عام بين الناس إذ قام المهراجا بتوطيد الأمن والسلام في فترة حكمه قاضيًا على الفوضى المنتشرة في البلاد. فبكاه الناس جميعا بما فيهم الهندوس والمسلمون أيضا، علاوة على السيخ الذين كانوا من قومه وأهل ملّته، خشية اندلاع الفتن في البلاد ثانية. فبينما كان الجميع يصرخون ويذرفون الدموع، كلٌّ

حسب علاقته بالراجا، مرَّ أحد الكنّاسين قريبا من لاهور* ووجد الجميعَ في مأتم وبكاء، فسأل بعضَهم: ما الذي حدث اليوم، ولماذا يبكي الجميع؟ فأجابه: ألم تعلم؟ لقد مات المهراجا رنجيت سنغ. فقال: آه، فإنهم يبكون لموت المهراجا! ولكن ما الغرابة في موت الراجا رنجيت سنغ ما دام أبي لم ينج من الموت؟

فترى أن المهراجا قد أرسى دعائم الأمن والسلام في البلاد ومع ذلك لم يحزن الكنّاس على موته إذ لم يكن قريبا من قلبه كما كان أبوه عزيزًا عليه، ولم يعرف المنافع السياسية في حياة المهراجا، فوجد وفاة أبيه أشد وطئًا عليه من وفاة الأول.

وقد جاء الدنيا عديد من الجبابرة الآخرين كأمثال "هولاكو خان"، فهل تظن أن زوجته أو أولاده أو أقاربه كانوا أقلَّ صدمة بوفاته من زوجات وأولاد الملوك الآخرين عند وفاتهم؟ لا جرم أنه قد أصاب زوجةَ وأولاد "هولاكو خان" عند وفاته من الحزن ما أصاب زوجةَ وأولاد الملك الفارسي "أنو شيروان" عند وفاته. ومع أن الأخير كان شهيرا بعدله وإنصافه، بينما كان "هولاكو خان" مشهورًا بظلمه واستبداده، إلا أن صدمة أزواجهما وأولادهما كانت متساوية، أو ربما كان موت "هولاكو خان" أشد وطأة على زوجته وأولاده لكونهم أشدّ عاطفة.

ولكن لا يكون الأمر هكذا في السماء. فبرغم أن جميع الأهل والأقارب - قلّوا أو كثروا - يفرحون في الدنيا بولادة إنسان، إلا أن أهل السماء يفرحون بولادة إنسان ويحزنون بولادة إنسان آخر. وكذلك الحال بالنسبة للموت أيضًا؛ فمع أن أهل الأرض يحزنون بموت كل إنسان، قلّوا أو كثروا، إلا أن أهل السماء، يحزنون بموت إنسان ويفرحون بموت إنسان آخر. ثم إن مشاعر الملائكة أيضًا تختلف نسبيًا عند موت الناس، ويكون فرحهم أو حزنهم مركّبًا في بعض الأحيان، بمعنى أنهم لا يحزنون فقط عند موت إنسان، أو لا يفرحون فقط عند موت إنسان آخر، بل تكون مشاعرهم مزيجًا من الحزن والفرحة أحيانًا؛ فمثلاً عندما يموت شخص ظالم مستبد قد دمّر سلام أهل الأرض يفرح ملائكة السماء لأن عباد الله تعالى نجوا من

* كانت لاهور عاصمة المهراجا رنجيت سنغ. (المترجم)

جور هذا الظالم، ولكنهم يحزنون أيضا لأن شخصًا مات بدون أن ينال رضا ربّه. كذلك عندما يموت بعض عباد الله الصالحين الأبرار ويقع في الأرض صراخ وعويل، فإن ملائكة الله في السماء يفرحون مرتقبين صحبته. ذلك لأن الموت ما هو إلا باب للخروج من هذه الدنيا إلى الآخرة. وكما أن إنسانًا مصلحًا أو محسنًا إذا ما دخل بلدة ابتهج أهلها بمجيئه، وإذا غادرهم حزنوا بفراقه، في حين أن أهل المدينة الأخرى التي سيدخل فيها يفرحون بقدومه، كذلك عندما يُتوفى أحد عباد الله الصالحين الأخيار، الذي يكون أفضل من الملائكة ورعًا وتقوًى وتقربًا إلى الله تعالى، بل يكون معلِّما للملائكة - كما هو بيّن من قصة آدم عليه السلام - فإن أهل الدنيا يتألمون بأن إنسانًا بارًّا قد فارقهم إلى الآخرة بعد أن أنهى أيام حياته بينهم، ولكن الملائكة يفرحون بقدومه إلى عالمهم.

فيمكنك أن تقدّر - مثلاً - القيامة التي قامت بالمدينة عند وفاة نبينا ﷺ، ولكن يمكنك أيضًا أن تقدر مدى فرحة أهل الجنّة في تلك المناسبة، إذ كانوا يسمعون من الله وملائكته أن عبدًا من عباده المختارين قد ولد في الدنيا، وأنه يتبوّأ أسمى المقامات الروحانية، ولا بد أنهم كانوا يتمنون بلفهةٍ لقاءه بعد سماع هذا الكلام ويفرحون بتصور ذلك اليوم العظيم الذي سيلتحق بهم فيه ذلك الإنسان المبارك، وتتحقق آمالهم القديمة.

ولكن هذا إنما يحدث في السماء فقط، أما الأرض فأهلها يحزنون بموت كل إنسان.

وكما أننا نرى أن الله تعالى يتجلى بهاتين الصفتين في الدنيا، كذلك يكون هناك أناس كثيرون يكونون بمثابة الولادة أو الحياة للعالم. فالآباء والأمهات - مثلاً - يتسببون في ولادة الأجيال الجديدة، والأطباء يعالجون المرضى، ورجال الدفاع المدني ينقذون الغرقى، ويطفئون الحرائق، ويساعدون منكوبي الحوادث والكوارث؛ وما هؤلاء إلا نموذجًا ومظهرًا لصفة الله "المحيـــي". وعلى النقيض يوجد في الدنيا أناس لا ينشرون فيها إلا الهلاك والدمار، ويتسببون في القتل والسطو والفساد، وإنْ هم إلا مظاهر لصفة الله "المميت".

بيد أن كل مقلّد لصفة من صفات الله تعالى لا يكون بالضرورة مقبولا عنده تعالى. لا شك أن الله مميت، ولكن هذا لا يعنى أن يقتل المرء أحدًا بغير حق ثم يقول: إنه مقرّب إلى الله ﷻ لأنه قد كشف بقتله صفة الله "المميت"، فإن مثل هذا الادعاء باطل تماما. ذلك لأنه إذا قتل أحدًا بالحق وفقًا للشروط التي تخوّل له قتله فيمكن أن يكون من المقرّبين عند الله تعالى، ولكنه إذا قتله بدون توفّر تلك الشروط فلن يكون مقرّبا عند الله تعالى. وبالمثل إن الولادة مظهر لصفة الله "المحيي"، ولكن المرء إذا تسبب في ولادة ولد غير شرعي، فلا يجوز له الادعاء بأنه مقرّب عند الله ﷻ بحجّة أنه قد كشف صفة الله "المحيي". إنما يُعَدّ المرء مظهرا لصفة الله "المحيي" أو "المميت" إذا عمل بهما بحسب القوانين والشروط التي وضعها الله تعالى لذلك. فإذا أحيا بحسب القانون الإلهي صار بدون شك مظهرا لصفة الله المحيي، وإذا أمات وفق القانون الإلهي عُدَّ مقرّبا عند الله تعالى، أما بدون ذلك فلا. فمثلا إن كلا الفريقين يقوم في القتال بعمل واحد مماثل في الظاهر، فيضرب المؤمنُ الكافرَ، ويضرب الكافرُ المؤمنَ، ولكن كلما سقط مؤمن بسيف كافر اهتز له عرش الرحمن ولعن الملائكة الكافر، ولكن كلما سقط كافر بسيف مؤمن، فرح الملائكة وأنزلوا رحمة الله على المؤمن. فبرغم أن الفعل واحد، والمقام واحد، وآلة القتل واحدة، إلا أن أحدهما يتلقى الرحمة والبركة من الله تعالى، بينما يبوء الآخر بلعنة الله تعالى وملامته.

إذًا، فكون المرء مميتًا أو محييًا ليس بأمر حسن أو سيئ في حد ذاته، وإنما يكون إحياؤه عملاً حسنا إذا تم بحسب القانون الإلهي، وتكون إماتته عملا حسنا ما دامت ضمن أمر الله تعالى. أما إذا تم الإحياء أو الإماتة بخلاف قوانين الله تعالى كان عملاً سيئا.

فالإسلام يعلّمنا أن نسعى لتكون أعمالنا خاضعة لمشيئة الله على الدوام، وأن نأخذ العبرة من حقيقة أن بعض الناس يُعَدّون ظالمين رغم اتصافهم بصفة الإحياء، ويكونون غاشمين رغم اتصافهم بصفة الإماتة. ولكن المؤمن لا يكون هكذا، بل كلما صار محييًا نال الرحمة، وكلما صار مميتًا نال الرحمة أيضا، وإذا قَتَل نال الثواب

وإذا أنجب نال الثواب أيضًا. فعليكم ألا ترتكبوا أي فعل يحرمكم من رضوان الله تعالى.

نرى في هذا العصر أن دولاً كبيرة قلقة نتيجة اختراع القنبلة الذرية، وتحاول جاهدةً لاختراع ما يحميها من دمارها. وعلى النقيض نجد أن الله ﷻ أيضًا يلقي "قنبلته الذرية" دائمًا حيث يهلك ملايين البشر كل سنة نتيجة الموت الطبيعي، بل يصل هذا العدد أحيانًا ما بين عشرة ملايين إلى خمسة عشر مليونًا لدى انتشار مختلف الأوبئة في الدنيا. ولكننا نرى أن هذا العدد الهائل من الأموات لا يصيب الناس بالهلع والذعر، وليس سبب ذلك إلا لأن الله ﷻ إذا كان يُهلك الملايين بقنبلته الذرية أي بالموت الطبيعي من جهة، فإنه تعالى يخلق الملايين أيضًا من جهة أخرى. إذا كان الله تعالى قادرًا على الإفناء فإنه قادر على الإحياء أيضًا، ولأجل ذلك لا نرى عند الناس أمارات الهلع عندما يموت عشرات الملايين كل سنة نتيجة الموت الطبيعي، لأنهم يعلمون أن ربّهم محيٍ ومميت أيضا. ولكن القنبلة الذرية وما شابهها من المخترعات قد جعلت الموت في قبضة البشر الذين يعرفون الإفناء دون الإحياء، ومن أجل ذلك نجد بين الناس هذا الفزع الذي بثّته هذه المخترعات؛ بينما نرى الناس يموتون كل يوم ولكن لا يصابون بالهلع. عندما يموت إنسان يندبه أقاربه بضعة أيام ثم يهدأون؛ وبعد انقضاء فترة قصيرة نجد أهله، الذين كانوا يصرخون ويبكون على موته من قبل، يقيمون حفلة عرسٍ مثلاً تنطلق منها أصوات الغناء والموسيقى. إذًا فإن القلق الذي يصاب به أهل بيت على موت أعزّ قريب لهم يكون مؤقتًا يزول بعد أيام، ولكن الهلع الذي قد أصاب الناس بسبب القنبلة الذرية كبير جدا، وليس سبب ذلك إلا أنها تنشر الموت والدمار فقط وليس هناك معه تدبير للإحياء. ولو كان مع القنبلة الذرية سبيل للإحياء لما أصاب الناس الذعر إلى هذا الحدّ. هنالك فرقة هندوسية يعتقد أهلها أن الإله "براهما" يخلق، والإله "شِوْ" يُهلك. ويُقال أنه لا يوجد في الهند كلها إلا معبد واحد للإله "براهما"، بينما يوجد للإله "شِو" معابد كثيرة. ويحكى أن أحد الراجات من هذه الفرقة الهندوسية لم يكن عنده أولاد، فاستشار وزراءه، فقالوا له: عليك أن تعبد الإله "براهما" فسيهب

لك ابنًا. فبدأ يعبده ناذرًا أنه لو وهب له ابنًا فسيُرغم رعاياه كلهم على عبادته، وسوف يُكرِههم على ترك عبادة الإله "شِوْ". وبعد فترة قصيرة رُزق الراجا ابنًا، فأمر رعاياه أن يتركوا عبادة الإله "شِوْ" ويعبدوا الإله "براهما" فقط. فجاءه أحد الراجات الآخرين الأذكياء وقال له: لقد أنجزَ لك الإله "براهما" ما كان بوسعه ووهب لك ابنًا، فالأفضل أن تعبد الآن الإله "شِـــو" حتى لا يسخط عليك ويُهلك ابنك. فرضي الراجا بقوله وأمر الناس بعبادة الإله "شِوْ" ليحيا ابنه. فأخذ الناس يعبدون "شِوْ" ونسوا "براهما". ولما كبر الابن سمع من الناس بأن الإله "براهما" خلقه، ولكن أباه ترك عبادته وأخذ يعبد الإله "شِـــو". وكان الابن يتحلّى بالشجاعة الأخلاقية، فقال في نفسه: عليّ أن أقدّر المعروف الذي صنعه إليّ محسني حيث أنعم عليّ بالحياة، فقرر أنه لن يعبد إلا "براهما". وعندما علم الأب بقرار الابن خاف أن يسخط عليه الإله "شِوْ" فيُهلك ابنه، فنهى ابنه عن عبادة "براهما"، فقال له الابن: لن أكون ناكرًا لمعروف الإله "براهما". واستمر الجدال بينهما وازداد الاثنان عنادًا، لأن المرء إذا نُهي عن شيء ازداد تمسّكًا به. وفي النهاية دعا الأبُ الإلهَ "شِو" بأن يُهلك ابنه! فقبض "شِو" روح ابنه. فسخط الإله "براهما" على ذلك وأحيا الابن ثانية. فعاد "شِو" وأماته ثانية، فأعاده "براهما" للحياة مرة أخرى، وهكذا بدأت الحرب بين الإلهين ولا تزال مستمرة إلى اليوم.

هذه عقيدة الهندوس، ولكن الحقيقة أن الله ﷻ يملك القوتين: قوة الإحياء وقوة الإفناء. وفي هذا العصر زوّد الله تعالى البشر بقوة الإفناء بدون أن تكون عندهم قوة الإحياء، وهذا هو السبب وراء قلق الناس، فتجد كل الدولَ التي ليس بحوزتها القنبلة الذرية تعيش في خوف وفزع، وتسمع من جميع أنحاء العالم أصواتا تنادي بعدم استعمال القنبلة الذرية في الحرب. ولكني أرى أن القنبلة الذرية تحذر الناس أنهم حين يملكون القوة تصبح مدمّرة للغاية، حيث يسيئون استعمالها فيُزهقون بها حياة الملايين، وليس هذا فحسب، بل يسعون ليجعلوها أكثر فتكًا لينشروا الدمار على أوسع نطاق ويُزهقوا بها الأرواح بأكبر عدد وأقلّ وقت. مع أنهم لو أحسنوا استعمال الطاقة الذرية لنفعت الإنسانية نفعًا كبيرًا.

وليس لهذا القلق والذعر إلا علاج واحد، ألا وهو أن يعود الناس إلى ربّهم الذي يحيي ويميت، والذي يملك قوة الإحياء وقوة الإفناء. وهذا ما يؤكده إبراهيم عليه السلام هنا ويقول: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ .. أي ربنا محي ومميت أيضا، فعلينا أن نكون مع الذي يُفني الملايين ومع ذلك لا يصاب الناس بالهلع والذعر. فعندما يموت في بيت شخصٌ يبكيه أهله لبضعة أيام ثم يهدأون، وبعد فترة وجيزة يولد في نفس البيت مولود جديد فيُهنئ بعضهم بعضا. ولكن كل هذا في يد الله تعالى، لذا فعلينا أن نتوجّه إليه ونتوكل عليه فقط، أما قوى الإنسان وقدراته فهي ضعيفة لا اعتبار لها. لن تستطيع القنبلة الذرية فعل شيء ما دام الله تعالى يريد بقاء الناس، لأنه تعالى قادر على إفناء هؤلاء الذين ينشرون الدمار، ويمكن أن يهيئ من الأسباب ما يُبطل مفعول القنبلة الذرية وغيرها من المخترعات المدمّرة. فعلى المرء أن يهتمّ برفع مستوى روحانيته مستغنيا عن هذه الأمور كلها، ويعبد الله وحده الذي إذا كان مميتًا فهو محيٍ أيضًا.. أي أنه لو كان سيميتنا من ناحية فإنه سيحيينا ثانية، وهكذا لن يأتي بعد الموت إلا الخير. إن فترة الموت فترة عابرة إذ ليس للإنسان إلا الحياة فقط في نهاية المطاف.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.. أي أن ربي هو ذلك الذي أرجو أن يستر تقصيراتي الناتجة عن الضعف البشري، ويشملني بفضله ويكتب لي النجاح والفلاح عند ظهور النتائج.

علمًا أن لفظ "غفَر" الذي ورد هنا لا يُستعمل لغفران الذنوب فقط، بل يعني تغطية التقصيرات وستر العيوب أيضًا، يقال: غفَر الشيءَ غفرًا: ستَره، وغَفر المتاع في الوعاء: أدخله وستَره، وغفَر الله ذنبه: غطّى عليه وعفا عنه. (الأقرب).

كما أن لفظ "الخطيئة" أعمّ من الإثم، لأن الإثم يُطلق على الجرم الذي يُرتكب عمدا، بينما تُطلق الخطيئة على الجرم المتعمد وأيضًا على التقصيرات البشرية غير المتعمدة. (الأقرب)

أما لفظ "اليوم" فلا يفيد معناه المعروف فقط، بل يعني الوقت والزمن مطلقًا أيضًا، حيث ورد لفظ "اليوم" في القرآن الكريم بمعنى ألف سنة وكذلك خمسين

ألف سنة (السجدة: ٦ والمعارج: ٥). كما استعملته العرب بمعنى الزمن والوقت مطلقا كقول الشاعر:

يوماه يوم ندًى ويوم طِعانِ (لسان العرب وتاج العروس)

يقول الشاعر في مدح صاحبه بأن حياته فترتان: فترة سخاء وفترة حرب. كذلك ورد في الحديث: "تلك أيام الهرج" (أبو داود: كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة).. أي تلك أوان الفتنة. وقد ورد لفظ اليوم في الآية قيد التفسير أيضا بمعنى الوقت والزمن.

أما لفظ "الدين" فله أيضا معان عديدة سوى الديانة، مثل الطاعة، الجزاء والمكافأة، الفصل والقضاء، المِلّة، الحساب، السلطان والغلبة، الحُكم والمُلك، التدبير، العادة، طريق العبادة، الصلاح، الحال، الشأن، والسيرة. (الأقرب واللسان)

إذًا، فلفظ ﴿يوم الدين﴾ لا يعني فقط يوم القيامة حتى نحصر دعاء إبراهيم عليه السلام في الجزاء الذي يتلقاه الناس في ذلك اليوم، بل الدين يعني أيضًا الجزاء والنتيجة بحسب العمل كما بينت آنفًا، وعليه فإن إبراهيم عليه السلام يقول في هذا الدعاء: إنني آمل أن يستر ربي تقصيراتي ويشملني برحمته ويكتب لي النجاح في مقصدي حينما يُظهر نتائج أعمالي.

إن الذين لا علم لهم بالأمور الروحانية يظنون أن المرء إنما يطلب الغفران إذا دنّس حياته بأنواع الذنوب والآثام، ولكن هذا الظنّ دليل على جهلهم باللغة العربية وبالروحانية. الواقع أن كل إنسان بحاجة لأن يهبه الله تعالى نصيبا من نوره ويقوّيه بقوّته ويعطيه من علمه. فكما أن عين الإنسان لا تعمل بدون ضوء الشمس، وأذنه لا تسمع أي صوت بدون واسطة الهواء، كذلك فكل إنسان - ولو كان نبيًّا - محتاج إلى نصرة الله وعونه، ولذلك قد علّمنا الإسلام أن من واجب كل واحد منا أن يدعو ربّه في كل ركعة من صلواته الخمس ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. أي ربنا إننا نريد أن نعبدك وحدك، ولكننا لا نستطيع ذلك بجهودنا وإرادتنا وحدها، وإنما سننجح فيه إذا كان عونك حليفًا لجهودنا. إذا اجتمع هذان الأمران سيتم ما ننشده، أما بدون ذلك فلن تكلل جهودنا بالنجاح. وبهذا المعنى

نفسه يقول إبراهيم ﷺ إنني أسعى جاهدًا ليل نهار لنشر وحدانية الله تعالى بقدرِ وُسعي، ولكن جهودي لن تكلل بالنجاح بدون فضل الله وتأييده، ولذلك به أستعين وآمل أن يبارك في جهودي المتواضعة عند ظهور نتائجها ويسدّ بفضله كل خلل يوجد فيها جراء الضعف البشري ويكتب لي النجاح في مهمتي.

ومن معاني الدين الغلبة أيضًا، وعليه فقول إبراهيم ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ يعني أني آمل أن يتغاضى الله ﷻ عن تقصيراتي البشرية إبّان رقي هذه الجماعة الروحانية التي تقام بيدي، وأن يهيئ الأسباب لاستمرار عملية الدعوة والتربية، فتصل سفينة هذا الدين إلى بر الأمان سالمة من أمواج الفتن والحوادث المتلاطمة.

الواقع أن نبوءة غلبة الجماعات الإلهية إذا كانت تحمل في طياتها بشارة عظيمة، فإنها تنطوي على نوع من الإنذار أيضًا. ذلك لأن آلافًا من الناس يدخلون في تلك الجماعة أيام غلبتها، وبما أن هؤلاء القادمين الجُدد ليسوا ممن تحمَّل التعذيب في سبيل الدين، وليسوا ممن يفقه تعاليم دينه إلى حد كبير، فيصابون بأنواع الفساد. لا شك أنهم يصدّقون بأفواههم جميع العقائد، ولكن عَملهم لا يتفق مع دعواهم، ويعتبرون أنفسهم في غنى عما فرض عليهم دينهم من واجبات وقيود، وهكذا تنمو بذرة انحطاط الأمة. لقد رأى إبراهيم ﷺ بفراسته الثاقبة هذه البذرة، فبدأ يدعو الله ﷻ لاستئصالها، كما أعرب عن أمله أن يكون الله معه دائمًا، وأن يغضّ الطرف عن هذا الضعف البشري فيه، حيث لا يقدر إنسان واحد على تربية آلاف الناس. ولكن الله ﷻ سيهيئ من عنده الأسباب لتربية هؤلاء القادمين الجدد ليرفعوا بكل إخلاص وفداء لواءَ الإسلام عاليًا على الدوام.

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾
وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ

﴿جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٦﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٨﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٩﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٠﴾﴾

شرح الكلمات:

حُكمًا: الحُكم بالشيء: أن تقضي بأنه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ ذلك غيرَك أو لم تُلزِمه.... والحكمةُ إصابةُ الحق بالعلم وبالعقل.... والحُكم أعمُّ من الحكمة، فكلُّ حِكمة حُكمٌ، وليس كل حُكم حكمة. (المفردات)

والحكمة: العدلُ؛ العلم؛ الحلم؛ النبوة؛ قيل: ما يمنع من الجهل؛ وقيل: كلُّ كلام موافق الحق؛ وقيل: وضعُ الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسَداده. (الأقرب)

لسان صدق: يُعبَّر عن كل فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به.... (أما قول إبراهيم عليه السلام): ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ فإن ذلك سؤال أن يجعله الله تعالى صالحًا بحيث إذا أثنى عليه مَن بعده لم يكن ذلك الثناء كذبًا. (المفردات)

ولسان الصدق: الذِّكر الحسَن. (الأقرب)

سليم: السلامة التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة (المفردات). فالقلب السليم: البريء من كل آفة وفساد.

التفسير: كان إبراهيم عليه السلام قد عقد على الله سبحانه وتعالى آمالاً كبيرة، فرأى أن من واجبه أن يُنيب إليه سبحانه وتعالى ويدعوه لتحقيق رغبته ويوفقه لتبليغ رسالته على أفضل وجه، فدعا الله سبحانه وتعالى وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. والحُكم في الأصل - كما قال الإمام الراغب - هو المنع لإصلاح، ومنه سُمّيت اللِجام حَكمةَ الدابة لأنها تمنعها. والحُكمُ بالشيء أن تقضي بأنه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ غيرَك أو لم تُلزمه (المفردات). بيد أن الحكم لا يعني الفصل والقضاء فقط، بل

فيه دلالة على أن وراء هذا القضاء سببا معقولاً، ولأجل ذلك اشْتق منه لفظ الحِكمة التي تعني الفلسفة. إذًا، فالحكم لا يعني تنفيذ الأمر بالقوة والجبر فقط، بل يتضمن معنى إضافيا وهو أن وراء هذا القرار غاية هامة وأن العمل به سينفع الإنسان نفسه، وأن هذا القرار ليس صادرًا من أجل إظهار السلطة والقوة فحسب، دونما تروّ وتفكير.

ولما كانت الغاية الأساسية لبعثة إبراهيم عليه السلام نشر وحدانية الله سبحانه وتعالى فما كان لينجح في تحقيق تلك الغاية ما لم يكن كل حكم من أحكامه حكيمًا ينفذ إلى أعماق القلوب، ولذلك دعا ربه بأن يعطيه تعليما مليئًا بالحكمة ليقبله الناس ببشاشة وانشراح، وليسهّل له الطريق لنشر الهدى.

لقد ذكر المفسرون معاني مختلفة للحكم هنا منها: النبوة والرسالة؛ العلم والفهم؛ المعرفة بالله وبحدوده وأحكامه؛ والقدرة على الفصل بين الناس بالحق (القرطبي وروح المعاني). ولم يذكروا هذه المعاني المختلفة إلا لأنهم لم يراعوا السياق، بل ذكر كل واحد منهم ما خطر بباله من المعاني.

الواقع أن القرآن الكريم قد استعمل لفظ الحُكم بمعان شتى، فحينًا ورد فيه الحكم بمعنى الحكومة والغلبة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾(الجاثية:١٧)، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللهِ﴾(آل عمران:٨٠)، وحينًا ورد بمعنى الفراسة النافذة في أمور القضاء، كقول الله سبحانه وتعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(يوسف:٢٣)، وتارة بمعنى القرار، كقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾(المائدة:٥١)، وكقوله تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾(الأنعام:٦٣)، وتارة أخرى بمعنى أحكام الله وتعاليم دينه، كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾(المائدة:٤٤)، وتارة بمعنى النبوة، كقول موسى عليه السلام: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(الشعراء:٢٢).

والسياق هنا يبين أنه كانت هناك فكرة واحدة مستولية على قلب إبراهيم وعقله، وهي أن تتحقق غاية بعثته على خير ما يرام، ولا يقع في البناء الروحاني الذي بعثه الله تعالى لرفع قواعده شرخٌ يؤدي إلى زعزعته. وحيث إن تحقيق هذه الغاية مستحيل بدون عون الله ﷻ، فدعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا رب هب لي من عندك الغلبة، وأعطِني الفراسة لاتخاذ القرار الصحيح في القضايا الدينية، ووفِّقْني لتنفيذ الأحكام التي تسارع الفطرة السليمة لقبولها تلقائيًا.. أي فَلْيتّبع الناس أحكامك ولكن ليس بقوة العصا بل نتيجة اعتراف عقولهم وفطرتهم بعظمتها وفضلها.

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. واللافت للنظر هنا أن هذا الدعاء قد خرج من فم نبي مختار كانت نجاته وقربه عند الله ﷻ أمرًا مؤكدًا. لو أن شخصًا لم تكن نجاته وقربه بالأمر اليقين قام بهذا الدعاء لقلنا إنه قد فعل ذلك لنجاته وقربه، إذ لم يكن متأكدًا من ذلك. ولكن من المحال أن نتصور أن نجاة أنبياء الله ﷻ ليست بأمر يقين، لأنه إذا لم تكن نجاتهم وقربهم بالأمر اليقين فمن المحال أن تكون نجاة أحد مضمونة. الحق أن رسل الله وأنبياءه يكونون من الناجين قبل دعواهم أيضًا، لأنهم إذا لم يكونوا هم الناجين فكيف يمكن أن يُبعثوا لإنقاذ الآخرين. فكونهم مبعوثين من عند الله تعالى لإنقاذ الآخرين دليل على كونهم من الناجين من قبل. فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان إبراهيم واحدًا من رسل الله ﷻ، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن لشخص بُعث هاديًا للناس وأُمروا باتّباعه إذا أردوا النجاة؛ أن يدعو الله تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؟ هل دعاؤه هذا يعني أنه لم يكن من الصالحين- معاذ الله - أم أن له معنى آخر؟

فليكن معلومًا أن مدلول كل كلمة يتغير بتغير السياق. خذوا مثلاً لفظ القامة، فإن قامة الإنسان التي تُعَدّ متوسطة في بلد تُعَدّ قصيرة في بلد آخر. فإن سكان النرويج أطول قامة من أهل إنجلترا وغيرها من البلدان، فذات مرة جاءت راهبتان نرويجيتان إلى الهند للسياحة، وكانتا أطول من الأناس المتوسطي القامة عندنا بحوالي قدم. ومن الواضح أن النرويجيين لم ينتقوهما من بين جميع النرويجيات من أجل

طولهما ليتأثر أهل الهند بقامتهما، بل الواقع أن النرويجيين كلهم طوال القامة. فثبت من هنا أن معيار القامة يتغير من بلد إلى بلد، فإن الذي يبلغ طوله خمسة أقدام ونصف يُعتبر في بلادنا من متوسطي القامة، ولكن الشخص بهذا الطول سيُعتبر طويلاً في النيبال، ويُعتبر قزمًا في النرويج! ونفس الحال بالنسبة للون أيضًا، فإن الذي يكون لونه فاتحًا بعض الشيء يُعَدّ في بلادنا أبيض اللون، ولكن أهل إنجلترا سيعدّونه أسود اللون، ولكنه لو ذهب إلى أفريقيا سيُعَدّ من البيض؛ بل إن الذي نعتبره أسمر اللون عندنا سيُعَدّ عند الأفارقة أيضًا من البيض. فمثلا لم يكن المولوي عبد الرحيم نير - أحد دعاتنا في غرب إفريقيا - أبيض اللون بل كان حنطيّ اللون، ولكنه لما وفد إلى إفريقيا اعتبره الأفارقة أبيض، حيث كانوا يقولون: لقد تنبّأ بعض صلحائنا بأن بلادنا سوف تزدهر كثيرًا عندما يأتيها داعية أبيض اللون.
فكما أن مدلول اللون أو القامة يتغير من بلد إلى آخر، كذلك يتغير معنى كلمة "الصالح" بتغير السياق. فمثلاً يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٧٠). فهنا اعتُبر الصلاح أدنى المقامات الروحانية المذكورة هنا، بينما سمى الله ﷻ نوحًا ولوطًا صالحين خلال الحديث عن زوجتيهما حيث قال: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾(التحريم:١١)، مع أن كل واحد منهما نبي، والنبوة أفضل من الصلاح. كما قال تعالى عن إسحاق ويعقوب: ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾(الأنبياء:٧٣)، مع أنهما من الأنبياء. وقال ﷻ في سياق البشارة بولادة يحيى عليه السلام بأنه يكون ﴿نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:٤٠). وكذلك قال الله ﷻ عن المسيح: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:٤٧)، مع أنه عليه السلام كان نبيًّا. وقد ثبت من ذلك أن لفظ "الصالح" له مدلولات شتى، فعندما يدعو شخص عادي ربه قائلا: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فالمراد اجعَلْني من أهل الصلاح، وعندما يقوم أحد من الصلحاء بهذا الدعاء فالمراد أن يبوّئه درجة الشهداء، وعندما يدعو أحد الشهداء بهذا الدعاء فالمراد أن يجعله من الصّدّيقين، وعندما يقوم أحد الصّدّيقين بهذا الدعاء فالمراد أن يجعله

الله من كبار الصديقين أو يجعله مع الأنبياء، وعندما يدعو به أحد الأنبياء فالمراد أن يُلحقه بالأنبياء الذين هم أعلى منه درجة. وهكذا يختلف معنى الصلاح من شخص إلى آخر.

ومثاله الآخر أن الله تعالى يقول في القرآن الكريم لبعض الناس: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾(الحجرات:١٥)، بينما يقول ﷻ في موضع آخر عن إبراهيم ﵇: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:١٣٢). وهذا يعني أنه ﷻ اعتبر الإسلام في الآية الأولى خطوة أولى إلى الإيمان، بينما اعتبره في الآية الثانية منتهى الإيمان والمعرفة الروحانية.

وبالمثل نعلم أن الناس كلهم عباد الله ﷻ، ولكننا نرى أنه تعالى قد سمى النبي ﷺ في القرآن الكريم ﴿عَبْدُ اللهِ﴾ (الجن:٢٠)، و"عبد الله" هو أفضلُ أسمائه ﷺ عند الصوفية (اصطلاحات الصوفية للقاشاني ص ٤٥). فترى أن كل إنسان - مؤمنًا كان أو كافرًا - يسمى عبد الله لأنه تعالى قد خلق البشر كلهم، ولكن هذه الكلمة حين وردت في حق النبي ﷺ صار لها مدلول مختلف عن مدلولها العام.. أي أنه ﷺ هو العبد الوحيد الذي بلغ في عبودية الله ﷻ درجة الكمال.

وبالمثل إن لكلمة "الصلاح" مدلولات مختلفة، فمن الصلاح ما هو دون الصّدّيقية والشهادة، ومن الصلاح ما يدعو من أجله الأنبياء أيضًا، إذ يدركون أن لا نهاية لمدارج قرب الله ﷻ، ومهما تقرب الإنسان من ربه فلا يمكنه القول إنه قد بلغ الغاية من قربه ﷻ، ولذلك يدعو الأنبياء أيضًا أن يكتب الله لهم المزيد من الرقي، ويهب لهم معيّة القوم الذين هم أكثر منهم معرفة به وقُربا منه. فإنك ترى أن النبي ﷺ لما لقي الأنبياء ليلة المعراج لم يجدهم جميعًا في سماء واحدة، بل وجد بعضهم في السماء الأولى، وبعضهم في الثانية، وبعضهم في الثالثة، وبعضهم في الرابعة، وبعضهم في الخامسة، وبعضهم في السادسة، وبعضهم في السابعة. فبما أن ثمة تفاوتًا كبيرًا بين مدارج الأنبياء، فعندما يدعو أحدهم: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فلا يعني ذلك أنه ينال الصلاح الذي هو دون الشهادة أيضًا، بل المراد أنه يريد اللحاق بالذين هم أعلى منه درجة. وبما أن مدارج قرب الله ﷻ غير محدودة، وبما أن المرء

إذا بلغ درجة من قربه ﷻ رغب في الوصول إلى الأعلى منها، وإذا بلغها تمنى بلوغ التالية لها، فلا يبرح يدعو: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، ولا يمكن أن يأتي عليه وقت يستغني فيه عن هذا الدعاء.

فالحق أن إبراهيم عليه السلام قد علّمنا بهذا الدعاء درسًا عظيمًا، ألا وهو أن المرء مهما بلغ من الرقي فعليه ألا يظن أنه قد بلغ منتهاه، لأنه يأخذ في الانحطاط بمجرد أن تنشأ هذه الفكرة في قلبه. الواقع أن أكبر سبب وراء انحطاط الأمم ودمارها أن أفرادها يظنون أنهم قد بلغوا منتهى الرقي، وكلما أصيبوا بهذه الوسوسة وقعوا فريسة للانحطاط. لقد جعل الله ﷻ هذا الكون متحركًا بحيث إن كل ذرة منه تتحرك، بعضها حركةً دائرية، وبعضها حركةً أمامية، والقلب الذي جعله الله ﷻ مركز حياة الإنسان أيضًا يتحرك كل حين بدون انقطاع، ولو توقف عن الحركة مات الإنسان فورًا. وهذه هي حال الإيمان أيضًا، ولذلك قد ضرب النبي ﷺ مثال قلب الإنسان حين تحدث عن زيادة الإيمان ونقصه، فقال: ألا إن في جسد الإنسان مُضغة إذا صَلُحَت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله (البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه). ونفس المشهد نراه في العالم المادي أيضًا، حيث نجد مرض القلب أشدّ فتكًا من أي مرض آخر، فإذا أصيب به المرء لم يعجبه الأكل والشرب، وكان في قلق وحزن واكتئاب دائمًا، فأصبحت حياته أسوأ من الموت. كذلك إذا أُصيب قلب المرء بمرض روحاني فَقَدَ القوة المميزة بين الخير والشر، واستمر في التردي حتى يُصبح أسوأ حالاً من الدواب. فعلى المرء ألا يطمئن بما هو عليه أبدًا، بل يجب أن يطمح ويسعى دائمًا للوصول إلى الدرجة الأعلى فالأعلى.

وباختصار إن هذا الدعاء الذي سجله القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام لا يعني أنه كان يشك في نجاته، وإنما هو تذكير للمؤمنين بأن لا يقتنعوا بأي مرحلة خلال سفرهم الروحاني أبدًا، ولا يظنوا أنهم في مأمن من السقوط من ذلك المقام العالي. ولولا هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام لظن الناس أنهم في غنى عن مثل هذا الدعاء. شأننا في هذا الدعاء شأن الأنبياء، فبرغم أنهم يبلغون أسمى درجات قرب الله ﷻ، حيث يقضون كل لحظة من حياتهم في عبادة الله ﷻ، ويظلون نشوانين

في حُب الله وعشقه ليلاً ونهارًا، وقيامًا وقعودًا، ويقظة ورقودًا، ويجري ذكر الله على ألسنتهم كل حين، وتشتغل كل ذرة من كيانهم وكل لحظة من حياتهم في إعلاء كلمته، ومع ذلك كله يأمرهم الله تعالى بأداء الصلاة؛ وليس سبب ذلك إلا لأنهم إذا لم يصلّوا لم يُصلّ أتباعهم أيضًا الذين يرون أُسوتهم فيتأسون بها قدر الإمكان، فلأجل ذلك لم يُبعث في الدنيا نبي قط قد أعفاه الله تعالى من العبادة، بل كل نبي عبد الله تعالى كغيره من البشر برغم أنه يقضي كل لحظة من حياته في عبادة الله ﷻ في الواقع. خُذ النبي ﷺ مثلاً، فإنه لم يصلّ الصلوات الخمس فحسب، بل قضى كل لحظة من حياته في عبادة الله تعالى حتى أمر الله ﷻ أن يعلن بين الناس: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٣).. أي لا تظنوا أني أصلّي الصلوات الخمس فقط، بل الواقع أن عبادتي وتضحياتي، وكل حركة وسكون في حياتي إنما هي لله رب العالمين، إذ لا تأتي عليّ لحظة أتغافل فيها عن ذكر الله وحبه، بل إن موتي أيضًا عبادة. تروي عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ لما تُوفّي كان على لسانه الكلمات التالية: "اللهم الرفيقَ الأعلى" (البخاري: كتاب المغازي، باب آخر ما تكلّم به النبي ﷺ).. أي أُريد الذهاب إلى رفيقي الجالس على العرش. فثبت أن النبي ﷺ إنما أدى الصلوات من أجل هدايتنا وتربيتنا، إذ كان كل حركة وسكون من حياته صلاة وعبادة، ومع ذلك لم يقل كما يقول المتصوفون الزائفون: لقد بلغنا درجة من قرب الله ﷻ بحيث لم نعد الآن بحاجة إلى الصوم والصلاة.

فذات مرة تقدم إلي أحد المتصوفين بعد أن فرغت من صلاة الجمعة وقال لي: أُريد أن أسألك سؤالاً. قلت: تفضّل. قال: إذا وصل الراكب إلى شاطئ النهر فهل يبقى في القارب أم ينـــزل منه؟ وما إن وجّه إلي السؤال حتى فهّمني الله تعالى قصده الحقيقي، وذلك أن عامة المتصوفين في هذه الأيام مخدوعون حيث يقولون إن الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من الأحكام إنما هي مطايا تُوصلنا إلى أعتاب ربنا الحبيب، وإذا وصل المرء باب حبيبه ولم ينـــزل عنده بل ظلّ على راحلته، فلا بد أن يُعَدّ تصرفه هذا إساءة كبيرة إلى حبيبه، وبالمثل مَن حظي بقرب

الله ﷻ فلا تبقَ له حاجة إلى الصلاة والصوم وغيرهما من الأحكام إذ قد وصل إلى باب الله ﷻ. لقد كشف الله عليّ هذا الأمر عندما وجه إليَّ ذلك المتصوف سؤاله، فقلت له: إذا كان للنهر الذي يُسافر فيه الراكب شاطئ، فعليه أن ينــزل من القارب إذا بلغ الشاطئ، ولكن إذا كان النهر بلا شواطئ فعليه أن يتذكر أنه بمجرد أن ينــزل من القارب يغرق. فأخبِرْني الآن عن النهر الذي تتحدث عنه، أمحدود هو أم غير محدود؟ قال: بل هو غير محدود. قلت: فإن الراكب إذا نــزل من القارب في هذا النهر غرق حتمًا، فالخير له أن يظل في القارب.

إذًا، فالإله الذي نُسافر إليه غير محدود. لا شك أن حياتنا في الدنيا سنوات معدودة، ولكن الله ﷻ قد وعدنا أن هناك حياة بعد هذه الدنيا لا نهاية لها؛ ومن أجل ذلك نُؤمن بدوام نِعم الجنة وعدم انقطاعها. فما دمنا نسبح في نهر غير محدود، وما دمنا نصبو إلى المزيد من قرب الله الذي هو أزلي وأبدي، فكيف يصح أن نتوقف مطمئنين عند مقام واحد؟ لو توقفنا لهلكنا يقينًا.

فبرغم هذه الحقيقة الواضحة، يخوض الناس نقاشات لا طائل منها ويقولون: كيف يمكن أن يدعو نبيٌّ ربّه قائلا: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، بدلاً من أن يتذكروا هذه الحكمة القرآنية، فيسرعوا الخطى في رحلتهم إلى الله ﷻ، ويسعوا للفوز بمرضاة الله ﷻ من خلال التضحية، والإيثار، وخدمة الخلق، وسمو الأخلاق، والأسوة الحسنة، ومساعدة الفقراء، وخدمة القرآن وإشاعة الإسلام. إنهم لا يدرون أن جميع الصلحاء لا يتبوؤون درجة واحدة، فإن المكانة التي وصلها الرسول ﷺ لم يصلها أبو هريرة، والدرجة التي حازها أبو هريرة لا يحوزها المسلمون في هذا العصر، ولذلك فإن قوله تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ تنبيه لنا لكي نواظب على الدعاء بأن نكون في معية الصالحين. فإذا حظينا بمعية صالح، فعلينا أن نتمنى اللحاق بصالح آخر هو أرفع درجة من الأول، ثم الذين يلونه، ثم الذين يلونه، وهلم جرّا؛ ويجب أن تشتد بنا هذه الرغبة دائمًا حتى نصل إلى أقدام النبي ﷺ الذي هو أسمى وأعلى وأرفع درجة من الصالحين أجمعين. وعندما نتأمل حياة النبي ﷺ نجدها مصبَّغة بنفس الصبغة، حيث كان يسرع الخطى دائمًا لنيل مراتب لا نهاية لها في

قرب الله ﷻ. إن الشباب في هذه الأيام يُصلّون بضعة أيام، فيظنون أنهم قد بلغوا أقصى درجة في قرب الله ﷻ، وهذا يعني أنهم يستهينون بالله تعالى ويعتبرونه شيئًا بسيطًا، فيظنون أنهم قد ظفروا به، مع أن البارئ تعالى عظيم جدًا بحيث يستحيل علينا القول حتى عن كبار الأنبياء الذين قد بلغوا الدرجات العلى في قرب الله ﷻ إنهم قد بلغوا الغاية في قربه، بل الحق أنهم كلما ازدادوا قربًا منه ﷻ وجدوا قدرته وقوته تعالى أكبر من ذي قبل، فيقرّون أنه لا تزال أمامهم درجات لا نهاية لها من قربه تعالى. فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان رغم كبر سنه يطيل القيام في الصلاة متضرعًا خاشعًا باكيًا أمام الله ﷻ حتى تتورم قدماه أحيانًا، فكانت أزواجه يشفقن عليه بأنه يشقّ على نفسه، فقالت له عائشة - رضي الله عنها - مرة: يا رسول الله، لماذا تشقّ على نفسك في العبادة والابتهال لهذه الدرجة وقد غفر الله تعالى لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: "أفلا أكون عبدًا شكورًا".(البخاري: كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترِم قدماه، والدر المنثور: قوله ﷻ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا).. أي ما دام الله ﷻ قد غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، أفليس من واجبي أن أشكره على فضله هذا، فأعبده وأشكره أكثر من غيري.

فالنبي ﷺ أيضًا كان يبذل أقصى ما في وسعه دائمًا ليزداد قربًا من الله ﷻ. وهذا هو الدرس الذي علّمنا الله ﷻ بهذا الدعاء الإبراهيمي. ولو أن الناس وعوه و لم ينسوه لما ماتت روحانيتهم، و لم يستولِ عليهم الشيطان أبدًا.

ثم يقول إبراهيم ؏: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾..أي: يا رب اكتبْ لي الذِكر الحسن ظاهرًا وباطنًا على الدوام.

علمًا أن لفظ الصدق عندما يضاف إلى شيء يدل على دوام ذلك الشيء وحسنه ظاهرًا وباطنًا حيث يقول الإمام الراغب في مفرداته: "يُعبَّر عن كل فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصَف به". فإن إبراهيم ؏ يعني رب اجعَلْ أهل الزمن الأخير يدعون لي دائمًا أبدًا، وأن لا يُثنوا علي بلسانهم فقط، بل اجعل حسناتي تدوم في الدنيا، لأنال بذلك ذكرًا حسنًا ظاهرًا وباطنًا.

والحق أن المسلمين هم الوحيدون الذين حققوا هذا الدعاء الإبراهيمي بين أتباع جميع الديانات. من الممكن أن أبناء إبراهيم ﷺ وأحفاده كانوا يدعون له، ولكن بعد انقضاء عدة أجيال قد نسيه أولاده الماديون والروحانيون. أما المسلمون فلا يزالون يدعون له منذ ثلاثة عشر قرنًا بدون انقطاع، وسيستمرون في ذلك إلى يوم القيامة. فإن كل مسلم يدعو في جلوس التشهد من كل صلاة قائلاً: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارِكْ على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد". وهذا يعني أننا موقنون تمامًا بما حبا الله به إبراهيم من حُبّ ولطف عظيم.

بيد أن بعض الجاهلين بالحقائق يعتبرون هذا الدعاء إساءة إلى النبي ﷺ، فيقولون: ما دام النبي ﷺ أفضل الأنبياء قاطبة، فكيف يمكن أن يأمرنا الله ﷻ بأن ندعوه بأن يُنـزل بركاته وأفضاله على رسول الله ﷺ كما أنـزلها على إبراهيم ﷺ؟

وإجابة على هذا السؤال سأضرب بعض الأمثلة التي ستحُلُّ المعضلة. الواقع أن لشجرة البرتقال خواصَّ معينة، مثلاً إنها تتوسع إلى حد معين، وتثمر إلى حد معين، وترتفع إلى حد معين، حيث يصل طول أفضل شجرة برتقال حوالي عشرين قدمًا؛ فلو زرع المرء شجرة برتقال وبلغت هذا الطول قلنا إنها بلغت الكمال في طولها. وإذا كانت أفضل شجرة برتقال يبلغ عرضها خمسًا وعشرين قدمًا، فبلغت الشجرة التي زرعها هذا الشخص خمسًا وعشرين قدمًا، قلنا إنها قد بلغت الكمال في عرضها. وإذا كانت أفضل شجرة برتقال تثمر ألف حبة فأثمرت بهذا المقدار قلنا إنها بلغت الكمال في الإثمار. ولكن شجرة "تين البنغال" العادية يبلغ طولها ما بين ثمانين إلى تسعين قدمًا، وقد ترتفع مئتي قدم، وقد يبلغ عرضها حوالي مئتي قدم. ولو زرع أحدٌ هذه الشجرةَ، فارتفعت خمسًا وعشرين قدمًا، وبلغ عرضُها خمسًا وعشرين قدمًا، فقال أحد إنها بلغت كمالها، فلا بد أن يُعتبر غبيًا. أو لنفترض أن شجرة السِّدْر تحمل حوالي عشرين ألف حبة، فلو زرعها المرء، فأثمرت ألف حبة، وزرع غيره شجرة "تين البنغال" فبلغ عرضها خمسًا وعشرين قدمًا، وزرع الثالث

شجرة البرتقال، فاتسعت خمسًا وعشرين قدمًا أيضًا، فأخذ البعض يقارن بينها ويقول: لأن عرض شجرة "تين البنغال" مثل شجرة البرتقال، ولأن ثمرة السدر مثل ثمرة البرتقال أيضًا، فثبت أن شجرتَي "تين البنغال" والسدر أفضل من شجرة البرتقال، فلا بد أن يُعَدّ غبيًا، لأن هذا ليس دليلاً على فضلهما بل على نقصانهما.

ثبت أن الفضل والكمال أمرٌ نسبيٌّ، فمثلا لو زرعنا شجرة البرتقال، فجعلها الله بفضله ترتفع وتعرض وتثمر إلى أقصى حد ممكن، ثم زرعنا شجرة المانجو داعين الله تعالى أن يبَارك فيها كما بارك في شجرة البرتقال، فلا يعني هذا الدعاء أن يجعل الله ﷻ طولها وسعتها وثمرها بقدر طول شجرة البرتقال وسعتها وثمرها، بل المراد أن يرفعها ويوسعها ويثمرها إلى أقصى حد ممكن لتصل درجةَ الكمال في جنسها كما وصلت شجرة البرتقال حد الكمال في جنسها.

فدعاؤنا: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم..." يعني أنه كما بلغ إبراهيم عليه السلام حد الكمال من بين الأنبياء الذين كانوا مبعوثين إلى أقوامهم فقط، فاجعَلْ يا ربّ، نبيَّنا - الذي هو نبي من نوع آخر حيث بُعث إلى العالم كله - أن يبلغ الكمال في مجاله. ذلك أن البرتقال والمانجو و"تين البنغال" أنواع مختلفة من الأشجار، وعندما ندعو الله تعالى أن تصل المانجو درجة الكمال كالبرتقال، فلا نعني بذلك أن تثمر ألف حبة كشجرة البرتقال، بل نعني أن تثمر عشرة آلاف حبة؛ وكذلك حين نقول أن تصل شجرة "تين البنغال" كمالها مثل شجرة البرتقال، فلا نعني أن يبلغ طولها عشرين قدمًا كشجرة البرتقال بل نعني أن يصل طولها مئتي قدم.

إذًا، فالمعنى الحقيقي للصلاة الإبراهيمية إنما هو أن إبراهيم كما بلغ الكمال في نوعه من الأنبياء، فاجعل يا رب نبيَّنا ﷺ الذي هو مبعوث إلى العالم كله يبلغ درجة الكمال وفقًا لمنصبه.. أي أن تصل الشجرة المحمديةُ الذروةَ طولاً وسعةً وثمرًا.

إنما مثل هذا الدعاء كمثل شخص اشترى ماعزًا، فبارك الله له فيها، فأخذت تدرّ عليه كيلوغرام من الحليب يوميًا، وتلد سَخلَين كل ستة أشهر. ثم اشترى بقرة،

فدعا ربه بأن يبارك له فيها كما بارك في الماعز. فهل، يا ترى، يعني دعاؤه أن تدرّ عليه البقرة بكيلوغرام واحد من الحليب يوميًا، وتلد عِجلَين كل ستة أشهر مثل الماعز؟ كلا، لأن أفضل البقرات لا تدرّ بكيلوغرام من الحليب فقط، كما لا تلد أيّ بقرة عِجلَين في ستة أشهر. إنما المراد من دعائه أن تكون البقرة من أجود البقر كما كانت الماعز من أجود المعز.

إذًا، فإنما المراد من دعائنا: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم..." أنه كما بلغ إبراهيم عليه السلام درجة الكمال بين نوعه من الأنبياء، فليبلغ نبينا ﷺ أيضًا الكمال بحسب منصبه ومهمته. ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان نبيًا إلى شعب عُرف فيما بعد ببني إسرائيل، فبلغ الذروة بين أنبيائهم. فكأننا ندعو الله تعالى أن يبلغ نبينا ﷺ أيضًا الذروة والكمال في مهمته نظرًا إلى منصبه وهو كونه نبيًا إلى العالم كله. لقد باركت اللهم على إبراهيم من أجل بني إسرائيل الذين كانوا عندها واحدًا بالألف من سكان العالم، فبارِكْ الآن في محمد ﷺ ألف ضعف من البركة التي جعلتها في إبراهيم من قومه، لأن محمدًا ﷺ مبعوث إلى سكان العالم كله الذين يزيدون على بني إسرائيل بألف ضعف. ذلك لأن لفظ "كما" يفيد المماثلة النسبية كما وضحتُ بمثال الماعز والبقرة، حيث يتغير معنى "كما" بتغير الجنس والنوع. لقد كان إبراهيم عليه السلام نبيًا من غير نوع الرسول ﷺ؛ كان عدد قوم إبراهيم قرابة أربع مئة ألف، ويتراوح عدد اليهود اليوم ما بين خمسة عشر مليونًا إلى عشرين مليونًا، بينما يتجاوز عدد سكان العالم اليوم مليارين.. وهذا يعني أن عدد اليهود هو واحد بالمئة من سكان المعمورة. إذًا، فالمراد من الصلاة الإبراهيمية هو اللهم بارك على محمد بمئة ضعف ما باركت به على إبراهيم فيما يخص الأمة اليهودية. فمثلاً إذا كان الله تعالى قد أعطى اليهود عشرة مليارات من المال، فليعط الأمة المحمدية ألف مليار.

وبالجملة فإن لفظ "كما" تفيد هنا الزيادة لا المساواة، لأن الجنس أو النوع مختلف. فلو كان النبي ﷺ مبعوثًا إلى العرب فقط لأفاد لفظ "كما" المماثلة والمساواة، لأن النسبة هي نسبة الماعز إلى الماعز، أو البقر إلى البقر، لكن الأمر ليس

كذلك هنا، لذلك فالمعنى أنه كما بلغ إبراهيم عليه السلام الكمال في نوعه من الأنبياء، كذلك فليوفق الله سبحانه وتعالى نبيَّنا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الذروة نظرًا إلى منصبه ومهمته. ومن الواضح أن من المحال أن تساوي درجة إبراهيم عليه السلام المبعوث إلى قومه فقط درجةَ النبي صلى الله عليه وسلم المبعوث إلى العالم كله، تمامًا كما أن الضابط الصغير الذي تحته عشرون جنديًا لا يساوي مرتبة القائد الكبير الذي يقود جيشًا قوامه ثلاثمائة ألف جندي مثلاً. فلو قلنا إن هذا القائد يقود جنوده كما يقود الضابط البسيط رجاله، فلا يعني ذلك أن الضابط البسيط يقود جيشًا قوامه ثلاث مئة ألف، بل إن كل عاقل لن يفهم من قولنا هذا إلا أن هذا القائد العظيم يقود رجاله بنجاح كما يقود الضابط البسيط رجاله بنجاح، مع أن بينهما بونًا شاسعًا في الحقيقة حيث إن الأول يقود ثلاث مئة ألف جندي، بينما يقود الثاني عشرين جنديًا فقط؛ ولو أُمر بقيادة مئة شخص لفشل، أما القائد فهو قادر على قيادة ألف شخص بمرتبة الضابط البسيط أيضًا.

إذًا، فعندما ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم يبلغ الذروة بحسب منصبه كما جعل إبراهيم يبلغ الذروة بحسب منصبه، فليس في ذلك أية إساءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أبدًا.

على أية حال، لقد وهب الله سبحانه وتعالى لإبراهيم كمالاً لم يهبه لأحد سواه من بين الأنبياء الذين كانوا من نوعه. وبيان ذلك أننا نجد في الدنيا أن الدول تضع خُطّتَين للرقي والتقدم: إحداهما قصيرة المدى؛ والأخرى طويلة المدى. والخطة الأولى تكون لمعالجة المشاكل العابرة، والثانية تكون للنهوض بالبلاد على المدى الطويل حيث لا تزدهر دولة في الدنيا بين عشية وضحاها، بل يتطلب ذلك بذل الجهود المتواصلة مدة ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة، ولهذا تضع الدول خططًا للرقي طويلة المدى؛ ولكن هذا لا يعني أن تغض الدولة الطرف عن حاجات المواطنين العابرة، فمثلاً لو ضربت المجاعة البلادَ فلن تقول الحكومة بأنها مشغولة بتنفيذ خطة الثلاثين سنة القادمة، ومن ثمّ فلن تساعد المنكوبين، بل ستتركهم فريسة للموت؛ كلا، بل إنها تعمل عندها بحسب الخطة القصيرة المدى لكي لا تُعيق هذه الكوارث العابرة نجاح الخطة الطويلة المدى. والحق أن الأمم تقدم تضحيات جسيمة لنجاح الخطط

الطويلة المدى التي تستهدف إزالة مشاكل الأجيال التالية. ولكن خططهم وتضحياتهم تتضاءل أمام ما فعله إبراهيم ﷺ.. أعني ليس هناك شعب ولا أمة وضعت خطة طويلة المدى كالتي وضعها إبراهيم ﷺ لأجياله القادمة. ذلك أن المرء إذا رأى أحدًا يموت جوعًا، فقدم له الطعام، قيل إنه رجل محسن صالح، أو إذا وجد أحدًا من العطاشى، فسقاه، قيل إنه إنسان صالح، وإذا لم يفعل هكذا دُعي ظالمًا. ومثل هذه الحسنات والأعمال تُعَدّ من قبيل الخطة القصيرة المدى، وهي توجد في الناس بكثرة. ولكن هناك نوع من الحسنات تنفع العالم كله وهي التي تُعتبر من الخطة الطويلة المدى. يُحكى أن ملِكًا مر بفلاح عجوز يغرس الأشجار التي تنمو ببطء شديد ولا تثمر إلا بعد ثمانين سنة. فقال الملك للفلاح: أمجنون أنت حيث تزرع شجرة لن تثمر إلا بعد ثمانين سنة؟ أتظن أنك ستعيش هذه المدة؟ إن موتك قريب، ولن تطول أيام حياتك أكثر من بضع سنين، فلماذا تزرع شجرة لا تنفعك شيئًا؟ فقال الفلاح: إنك ملِكٌ ومن المفروض أن تكون من ذوي الخبرة. وتعلم أيها الملك أن المرء لا يقدر على أعمال الحراثة بنجاح إلا إذا بلغ من العمر حوالي عشرين عامًا، ولو زرع عندها الشجرة ليأكل ثمرها فعليه أن ينتظر ثمانين سنة أخرى، فهل ترى أنه سيعيش هذه الفترة؟ كلا، بل إن كثيرًا من الفلاحين يموتون قبل ذلك، وقليل هم الذين ينتفعون مما يغرسون، ولو أن آباءنا لم يزرعوا بناء على هذه الفكرة لما وُجدت هذه الشجرة في الدنيا، ولقال كل واحد منهم: لماذا أغرس شجرة لن آكل ثمارها؟ ولكنهم رغم ذلك غرسوا، فأكلنا الثمار، والآن نغرسه ليأكل أولادنا الثمار. فأعجب الملِك قولُه فقال لوزيره: "زِهْ".. ومعناه: أحسنتَ. وكان الملك قد أمر وزيره الذي كان يرافقه في رحلاته دائمًا أنه إذا قال لأحد "زِهْ" فعليه أن يُعطيه ثلاثة آلاف درهم جائزةً. فلم يلبث الوزير أن سلّم إلى الفلاّح صرّة فيها ثلاثة آلاف درهم. فلما استلم الفلاح الصرّة قال: لماذا أعطيتني إياها؟ قال الوزير: إن الملِك عندما يسره قولُ إنسان يقول: "زِهْ"، فنسلّم له صرّة الدراهم. فقال الفلاح للملِك: أدام الله عمرك، لقد قلتَ لي إني أزرع شجرة لن آكل ثمرها، وبالفعل يزرع الناس الأشجار ويأكلون ثمارها بعد سنوات طويلة،

ويزرعون القمح ويحصدونه بعد ستة أشهر، ولكنك تراني آكل ثمرة شجرتي بدون أي انتظار. فقال الملك: "زِهْ". فناول الوزير الفلاحَ صرّة فيها ثلاثة آلاف درهم. فأخذ الفلاح الصرّتين في يديه وقال للملك: إن الأشجار المثمرة تحمل الثمار في السنة مرة واحدة أو مرتين على الأكثر، وبعض الزروع تُحصد بعد شهرين أو أكثر، ولا يوجد في الدنيا زرع يُحصد في نفس اليوم مرتين، ولكنني قد أكلت ثمرة شجرتي في دقيقة واحدة مرتين. فقال الملك: "زِهْ". فسلّم الوزير للفلاح صرة ثالثة، وقال الملك لرفاقه: تعالوا نهرب من هنا وإلا فإن هذا العجوز سيسلب كل ما عندنا.

فترى أن العجوز كان قد زرع الشجرة المثمرة من أجل الأجيال القادمة، هذا ما يسمى الخطة الطويلة المدى. وكما قلت إن الناس يبذلون تضحيات عظيمة من أجل الخطة الطويلة المدى، فيشترون الأراضي من أجل أولادهم كيلا يعانوا من المشاكل، ولكني لم أرَ أيًا من المزارعين اشترى الأرض لأحفاده. لا شك أن شراء الأرض من أجل الأبناء أيضًا من الخطط الطويلة المدى، ولكن كبار المزارعين أيضًا لا يشترون الأرض من أجل أحفادهم وإنما من أجل أبنائهم فحسب. إن عدد جماعتنا يبلغ مئات الآلاف بفضل الله تعالى، وأكثرهم من المزارعين، ويوجد بينهم أثرياء كبار، ولكني لم أرَ أحدًا منهم اشترى الأرض لينتفع بها أحفاده. وهناك آلاف من المسلمين غير الأحمديين ومن الهندوس والمسيحيين يأتون لمقابلتي طالبين مني المشورة والدعاء، وأعرف أحوالهم جيدًا، ولم أرَ أحدًا منهم يشتري الأراضي ويدّخر الأموال من أجل أحفاده، وإنما يفعلون ذلك من أجل أبنائهم فقط دون أن يهتم أحد منهم بأحفاده. ولكن انظر إلى عظمة الخطة الطويلة المدى التي اتبعها إبراهيم عليه السلام. لقد كان له ابنان، فأمَر أحدَهما، وهو إسحاق، بالذهاب إلى بلد عامر ليقوم بالدعوة بين أهله، بينما ترك ابنَه الآخر، وهو إسماعيل، في مكة التي كانت حينها واديًا غير ذي زرع، وذلك لأن الشعب الذي سيستوطن هذا المكان بعد خمسة عشر قرنًا سيحتاجون إلى هادٍ، فيقوم نسله بهدايتهم ورفع كلمة الله بينهم. فترى كم هي طويلة هذه الخطة. يُقال أن قبيلة جُرْهم مرّوا بالوادي بعد أن

ترك فيه إبراهيم ابنه إسماعيل بيومين، وسكنوا هناك. وبما أن عددهم كان قليلاً جدًا ربما لم يتجاوز خمسين أو ستين فردًا، ولذلك لم تصبح مكة بلدًا عامرًا في حياة إسماعيل، بل استغرق ذلك حوالي خمسة عشر قرنًا بعده الطَّيْكِلاً.

إذًا، لقد أسكن إبراهيم إسماعيلَ في واد غير ذي زرع ليقوم نسله بالدعوة بين الناس عندما تُعمر تلك البرية بعد خمسة عشر قرنًا. وهذه الخطة تماثل أن يقوم أحد من رجالات الدين الهندوسي أو البوذي أو الجيني من زمن الملك الهندي "أشوكا" أو "بكرماجيت" بإسكان بعض من أولاده في برية "سرجودها" أو "مونت غومري"* ليرفعوا كلمة الله سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين أهلها حين يتم عُمرانها. إذًا، فقد قام إبراهيم الطَّيْكِلاً بخطة طويلة المدى فعلاً. كان له ابنان فقط فبعث أحدهما إلى منطقة مأهولة بالسكان ليقوم بالدعوة بين أهلها، بينما أسكن ابنه الآخر في واد غير ذي زرع حتى إذا تمّ عمرانه قام نسله بدعوة الناس إلى الله سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وكما قلت لم يضع أحد من الشعوب أو القبائل أو العشائر أو أي فئة من العلماء أو جماعة من الفلاسفة أيَّ خطة طويلة المدى كالتي وضعها إبراهيم الطَّيْكِلاً، لا سياسيًا ولا تجاريًا ولا علميًا. إن إبراهيم الطَّيْكِلاً لم يخطط من أجل بضعة أيام، بل لمئات بل آلاف السنين، مع أنه لم يكن يعرف متى سيتم عمران برية العرب وكم سيقاسي أولاده هناك. لا شك أن وحي الله سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضًا قد لعب دوره فيما نواه إبراهيم الطَّيْكِلاً وفيما وقع من الأحداث، ولكن الله سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينظر إلى قلوب عباده ويُنـــزل وحيه بحسب إخلاصها، فلو لم يكن قلبه الطَّيْكِلاً مفعمًا بمشاعر الإخلاص والفداء لهذه الدرجة لما أمره الله سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذبح ابنه، ولو لم يكن في قلبه رغبة عارمة للتضحية في سبيله سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما هيأ له الأسباب المواتية لذلك. إن إتاحة هذه الأسباب من عند الله سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دليل على وجود تلك الأمنية الشديدة في قلبه الطَّيْكِلاً، ولذلك ندعو الله تعالى: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل

---

* سرجودها ومونت غومري محافظتان في باكستان، وكانت معظم أراضيهما غير عامرة قبل حُكم الإنجليز على الهند. (المترجم)

محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد". عندما نردد الصلاة الإبراهيمية نتذكر تلك الرغبة العارمة التي كانت تختلج في قلبه ﷺ، وتمتلئ قلوبنا حماسًا لنرفع اسم الله ﷻ في العالم كله؛ ونجعل أرجاء الأرض كلها، سواء المأهولة منها أو غير المأهولة، تدوّي بصوت: الله أكبر، الله أكبر.

هناك موضع في جبال "دلهوزي" يدعى "كهجيار" ويبعد عن المدينة حوالي اثني عشر ميلاً، وتوجد فيه بحيرة صغيرة طولها مئتا قدم وعرضها مئتا قدم تقريبًا. وتوجد بتلك البحيرة جزيرة صغيرة عائمة؛ الله أعلم كيف انفصلت عن اليابسة وأخذت تعوم في البحيرة. والجزيرة مكونة من التراب والكلأ ويبلغ حجمها حوالي خمسة وثلاثين قدمًا، وإذا هبت الريح تحرّكت من هنا إلى هناك، ويعتقد الهندوس أن الجزيزة آية من آيات الله ﷻ. ويوجد بالقرب من هذه البحيرة معبد هندوسي بناه الهندوس تذكارًا لأحد نسّاكهم. ويقال إنه أراد معرفة قعر البحيرة، فلم يزل يفتل الحبل ويلقيه في البحيرة طيلة ثمانين سنة، ومع ذلك لم يصل الحبل إلى قعرها، وفي الأخير قفز في البحيرة وهو يهتف أنت الإله، وغرق.

وذهبت مرة إلى "كهجيار"، وقلت لرفاقي علينا أن نصعد على هذه الجزيرة العائمة في البحيرة، وقلت لأحد منهم أن يعقد الهمة ويجمع بعض الخشب من جذوع الأشجار المبعثرة هناك لنحاول بها الوصول إلى الجزيرة. ولم يوجد هناك أحد من الهندوس أو الموظفين الحكوميين ليمنعنا مما أردنا. فألقينا جذع شجرة في البحيرة وقلنا لرفيقنا هذا أن يتمسك بالجذع لندفعه فيصل إلى الجزيرة العائمة. وأعطيناه مجدافًا أيضًا حتى يستعين به عند الحاجة. فدفعنا الجذع ووصل أخونا إلى الجزيرة، وسحبها إلينا رويدًا رويدًا، وعندما اقتربتْ منا قلت لأصحابي: تعالوا نصعدها ونرفع اسم الله عليها، فإنها فرصة تاريخية إذ لم يرفع أحد اسم الله عليها قبلنا. فصعدناها ورفعنا الأذان مرة بعد أخرى. ولما علمت الحكومة بذلك سنّتْ قانونًا يحظر على الناس سحب الجزيرة أو الصعود عليها. ولكننا تمكّنّا من رفع الأذان ورفع اسم الله عليها على أية حال. وبينما كنا نرفع الأذان على الجزيرة جاء أحد مجاوري المعبد، ولكنه لم يتجاسر على منعنا من الأذان بل حاول تخويفنا حيث

قال: إن في الجزيرة ثعبانًا كبيرًا فأخاف أن يلدغ بعضكم. فقلت: لا تخف علينا من الثعبان وسوف نرفع الأذان حتمًا. ذلك لأن المؤمن يتمنى بشدة أن يرفع اسم الله ﷻ في مكان لم يرفع اسمه فيه. فعليكم أن تتحلّوا بالحماس الإبراهيمي، فاخرجوا للدعوة إلى البلاد المأهولة، وأسكِنوا أولادكم في البلاد التي لم يتم عمرانها بعد كما أسكن إبراهيم أولاده في برية العرب ليرفع أولاده اسم الله فيها إذا ما تم عمرانها. عليكم بعمران صحراء "غوبي" وغيرها من الأماكن التي لا تزال حتى اليوم براري قاحلة، فعسى الله ﷻ أن يمكّن الإنسان من اختراع أجهزة كهربائية تساعد على عمرانها؛ وهذا ليس بأمر مستبعَد، لأن المناطق المسكونة اليوم كانت غير مسكونة في يوم من الأيام. فإذا كنا نوفد دعاتنا من ناحية إلى أمريكا وإفريقيا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من البلاد المأهولة، فعلينا من ناحية أخرى بإسكان الأحمديين في المناطق الصحراوية غير المأهولة في "غوبي" وفي الهند والجزيرة العربية وغيرها من البلاد، حتى إذا تم عمرانها وُجد فيها ذرية الأحمديين الذين يرفعون بين أهلها اسم الله ﷻ واسم رسوله ﷺ. ذلك لأن السنة الإبراهيمية هي إيفاد الدعاة إلى المناطق المأهولة، وإسكان الأولاد في المناطق غير المأهولة. وسيبارك الله كل خطوة تتخذونها مدفوعين بهذه العاطفة والحماس، وسيعاملكم كما عامل نسل إبراهيم عليه السلام. إننا حين ندعو الله ﷻ ليلاً ونهارًا في الصلاة الإبراهيمية فلا نقول فيها "كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم" إلا لأن نسله كانوا متحلين بهذه العاطفة والحماس، حيث أخذ بعضهم يقومون بالدعوة في المناطق المأهولة، وذهب بعضهم ليسكنوا في البراري الجرداء. واليوم أيضًا لن يرث أولاد محمد ﷺ الروحانيون هذه البركات ما لم يقم فريق منهم بالدعوة في المناطق المأهولة ليأتوا بأهلها الضالين إلى الصراط المستقيم، وما لم يذهب فئةٌ منهم ليسكنوا في الأراضي غير المأهولة حتى إذا تمّ عمرانها وُجد فيها قوم يضحّون بأنفسهم في سبيل الله، فتدوّي بقاع الأرض كلّها، المأهولة منها وغير المأهولة، بأصوات التكبير.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾، والمراد من أبيه هنا عمه، الذي كان يعبد الأصنام. ذلك لأن الواضح من التاريخ أن أباه كان قد تُوفي

في صغره، فتربى عند عمه (الموسوعة اليهودية تحت كلمة: Abraham)، كما تربى نبينا محمد ﷺ بعد وفاة أبويه عند عمه أبي طالب الذي كان أيضًا من عبدة الأصنام. والثابت من القرآن أن لفظ الأب يُستعمل بمعنى العم أيضًا، فقد ورد في القرآن أن يعقوب عليه السلام سأل أبناءه قبيل وفاته: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾(البقرة:١٣٤). فترى أنهم قد أطلقوا هنا لفظ الأب على إبراهيم الذي كان جدَّ يعقوب، وعلى إسماعيل الذي كان عمَّه.

وهنا أيضًا ليس المراد من الأب إلا عمه الذي لم يترك عبادة الأصنام وإن كان إبراهيم عليه السلام قد استعمل لفظ الأب حيث قال: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي﴾. وقد قام عليه السلام بهذا الدعاء لأن القرآن الكريم يخبرنا أن عمه هدده قائلاً: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(مريم:٤٧).. أي إذا لم ترتدع عن عيب آلهتنا فسوف أقتلك رشقًا بالأحجار، فالأفضل أن تغيب عني لبعض الوقت حتى لا أُصيبك بضرر من فورة الغضب، فأجابه إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(مريم:٤٨).. أي رغم أنك تعاملني بقسوة إلا أنني سأدعو ربي أن يرحمك ويغفر لك فإنه كان بي لطيفًا. فلأن إبراهيم كان قد قطع هذا الوعد لعمه فدعا ربه سبحانه وتعالى بحسب الوعد وقال: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾. بيد أن القرآن الكريم يخبرنا أيضًا أن الله سبحانه وتعالى لما كشف على إبراهيم أن عمّه عدوّ للتوحيد تبرّأ منه، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾(التوبة:١١٣- ١١٤). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني إما أن يخبرهم الله أنهم قد صاروا من أصحاب الجحيم بسبب إنكارهم وحدانيته سبحانه وتعالى، أو أن يموتوا في حالة الشرك فيعرف الجميع أنهم ماتوا مشركين.

وهناك دليل آخر على أن الأب هنا بمعنى العم، وذلك أن القرآن الكريم يخبرنا من جهة أنه لما تبين لإبراهيم عليه السلام أن أباه عدو لله؛ أي قد مات في حالة الشرك، امتنع

عن طلب المغفرة له كلية، ولكن يخبرنا القرآن من جهة أخرى أن إبراهيم دعا ربه عند بناء الكعبة وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾(إبراهيم:٤٢). والظاهر أنه ﷺ قد بنى الكعبة بعد أن أصبح إسماعيل شابًا. وبما أن إبراهيم رُزق إسماعيل وإسحاق في كبره، فثبت أنه قام بدعاء: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ في الفترة الأخيرة من عمره، بينما قام بدعاء: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ في الفترة الأولى من عمره، ثم ترك هذا الدعاء. فلو كان الأب هنا بمعناه العام لما دعا إبراهيم ﷺ لمغفرة أبيه بعد أن أصبح إبراهيم شيخًا هرمًا وعَلِم علم اليقين أن أباه عدو لله ﷻ. فدعاؤه لمغفرة والديه في آخر عمره عند بناء الكعبة يدل على أنهما قد تُوفيا في زمن "الفترة".. أي حين لم يكن هناك نبي.. فلذلك دعا لمغفرتهما، أما عمه فقد بُعث إبراهيم نبيًا في حياته، فدعاه إلى التوحيد ولكنه أصر على الشرك ومات مشركًا، لذلك امتنع إبراهيم عن الدعاء له خلافًا لما وعده من قبل. والثابت من القرآن الكريم أن الذين يموتون قبل بعثة نبي في قومهم ولا تقام عليهم الحجة، فأمرُهم مختلف عن الذين يُبعث فيهم نبي ويقيم عليهم الحجة. قال الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة:٢٠).. أي يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بعد فترة طويلة من انقطاع بعثة الرسل مبينًا لكم أحكامنا كي لا تقولوا يوم القيامة ما جاءنا بشير ولا نذير.

لقد ثبت من هنا أن القرآن الكريم قد اعتبر عدم الاطلاع عذرًا مقبولاً، حيث بيّن أنه قد يكون دليلاً على صدق ادعاء قوم ماتوا على الكفر والشرك، لذلك قد أزال الله ﷻ هذا العذر فبعث إليهم أنبياءه لينشروا هداه بينهم ويقيموا الحجة عليهم، فلا يبقَ لهم مجال للعذر.

غير أنني أرى أن قضية عدم إقامة الحجة أيضًا بحاجة إلى إعادة النظر. ذلك لو قلنا إن الحجة إنما تقوم على الناس عند مجيء نبي إليهم لكان معنى ذلك أن الحجة إنما تقوم على الذين يجدون زمنَ نبي، أما غيرهم فلا تقوم عليهم؛ ولو سلّمنا بهذا

لصار معظم الناس من الذين لم تقم عليهم الحجة، ذلك لأن الأنبياء لم يُبعثوا إلا في فترات قليلة في آلاف السنين، إذ نجد هناك فترات طويلة مرت بدون بعثة نبي، وهكذا نضطر للقول بأن الحجة إنما تقوم على الذين كانوا في زمن نبي، أما باقي الناس فلا تقوم عليهم أي حجة. لذلك أتناول هذه الشبهة أولاً.

فاعلم أن هذه الآية القرآنية لا تعني أن الحجة إنما تقوم على الذين يوجدون في زمن نبي فيكفرون به، بل يتضح من القرآن الكريم أن كل نبي له نوعان من الحياة: حياة جسم وحياة فيوض. فهناك فترة يكون النبي فيها حيًا بين القوم بجسده، وهناك فترة يكون فيها حيًا بينهم بفيوضه، وكلتا الفترتين من حياته سيّان فيما يتعلق بأعذار الناس وإقامة الحجة عليهم، حيث يوجد في فترة حياته الفيضانية قوم سمعوا كلام الله بلسان النبي مباشرة وينالون نصيبهم من قوته القدسية. لا شك أن هناك بونًا شاسعًا بين النبي وبين أتباعه، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أن الناس كما رأوا الإله الحي من خلال النبي ﷺ كذلك رأوه بواسطة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أيضًا رضوان الله عليهم أجمعين، كما رأوا نفس الإله الحي بواسطة الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز والجنيد البغدادي ومحيي الدين بن عربي وشهاب الدين السهروردي ومعين الدين الجشتي وسيد عبد القادر الجيلاني رحمهم الله أجمعين. فهم قوم حافظوا على ما في الإسلام من تأثيرات الإحياء، واستمرت من خلالهم حياةُ فيوض النبي ﷺ. ذلك لأنه ليس المهم مقدار الشيء، وإنما المهم وجوده، لأنه إذا وُجد فكونه قليلاً أو كثيرًا يصبح قضية ثانوية. فمثلاً توجد في الدنيا أنواع كثيرة من البقر والخيل، وبعضها أفضل من بعض. فلو رأى المرء بقرة أو حصانًا من نوع أجود، ثم قال: لن أصدق بوجود البقر أو الخيل في الدنيا ما لم أرَ بقرة أو حصانًا بهذه النوعية الجيدة فسوف يُعَدّ مخطئًا. فمثلاً زرت مرة ولاية "كبورتهلة"، ورأيت هناك بقرة للمهراجا قد جلبها من إنجلترا وبلغ ثمنها ثلاثة آلاف روبية. فلو قال شخص: لم أرَ أية بقرة، وهو يقصد بقرة المهراجا التي ثمنها ثلاثة آلاف روبية، فلن يصدقه أي عاقل. كذلك يوجد بين الخيل فرس هجين يمكن أن تشتريه بثمن بخس، وعلى النقيض يوجد بين الخيل حصان أصيل يبلغ ثمنه مليونين

ونصف المليون روبية. فلو سمع أحد عن هذا الحصان الغالي ثم قال: لم أرَ أي حصان، وهو يقصد نفس ذلك الحصان الأصيل الذي يبلغ ثمنه مليونين ونصف المليون، فلن يصدقه أي إنسان. ذلك لأنه إذا كان قد رأى حتى حصانًا مريضًا نحيفًا فلا يجوز له أيضًا القول إنه لم يرَ حصانًا قط. كذلك لو رأى الناس أثر حياة فيوض الرسول ﷺ في إنسان وإن لم يكن أثرًا كبيرًا واضحًا، ورأوا انعكاس الله ﷻ في مرآة قلب هذا الإنسان بحيث لا يسعهم إنكار البارئ تعالى بل يعترفون أنهم قد رأوه ﷻ بواسطة هذا الإنسان، فلا يصح لأحد القول إني لن أصدّق ذلك ما لم أرَ الله ﷻ كما رآه الناس في حياة النبي ﷺ. ذلك أنه إذا ثبت وجود شيء فإنكاره إنكار للحقائق الثابتة. أما كون ذلك الشيء صغيرًا أو كبيرًا فهذا أمر آخر تمامًا.

إذًا، فكل أولئك الذين يوجدون في زمن الحياة الفيضانية لنبي فإن الحجة تقوم عليهم حتمًا، إذ يرون على أيدي الذين تربَّوا في كنف النبي أو عملوا بتعاليمه آياتٍ تدل على وجود الإله الحي. وإننا نرى في الإسلام أن الفيوض المحمدية جارية في أمته باستمرار دونما انقطاع. لقد بدأت هذه الفيوض تسطع منذ فجر الإسلام واستمرت في سطوعها بدون انقطاع من خلال المجددين وأتباعهم ومريديهم حتى زمن حضرة سيد أحمد الشهيد البريلوي رحمه الله، فشكّلت دليلاً على استمرار فيوض الرسول ﷺ. فقد نـــزلت عليهم إلهامات من عند الله ﷻ، فكانوا يذكرونها للآخرين، فازداد الناس يقينًا بوجود الله تعالى. ولم يُبعث هؤلاء المجددون في الهند فقط، بل بُعثوا في باقي العالم أيضًا، فكانوا سببًا لهداية الناس ورشدهم.

وهناك سوء فهم عند الناس فيما يتعلق بالمجددين، حيث ظنوا أن مجددًا واحدًا كان يُبعث إلى العالم كله، وهذا خطأ. الحق أن الله تعالى يبعث المجددين في كل قطر وفي كل منطقة، ولكن الناس يظنون أنه مجدد للدنيا كلها، مع أن الإسلام ما دام للعالم كله فكان لزامًا أن يُبعث كثير من المجددين في شتى بقاع العالم. لا شك

أن سيد أحمد الشهيد البريلوي* - رحمه الله - كان مجددًا في عصره، ولكنه لم يُبعث للدنيا كلها، بل كان مجددًا لأهل الهند فقط. إذا كان مجددًا للعالم كله فمتى عمل لهداية أهل الجزيرة العربية ومصر وإيران وأفغانستان؟ كلا، إنه لم يعمل أبدًا لهداية أهل هذه البلاد. ولكنا عندما نفحص تاريخ هذه البلدان نجد فيها أُناسًا تلقوا الوحي والإلهام وعملوا على هداية أهلها، وكل واحد منهم كان مجددًا، والفرق الوحيد أنهم يختلفون درجة ومكانة. لا شك أن للمجددين المبعوثين في الهند أهمية خاصة كونها البلاد التي كان سيُبعث فيها المسيح الموعود، فكانوا بمثابة إرهاص لبعثته عليه السلام، وإلا فلا نعني أبدًا أن هؤلاء وحدهم بُعثوا مجددين في الإسلام، بينما ظلت باقي الدنيا خالية من المجددين. الواقع أن كل إنسان يقوم بالتجديد الديني بناء على الوحي هو مجدد روحاني، وكل إنسان يقوم بأي عمل تجديدي للإسلام والمسلمين هو أيضًا مجدد وإن لم يكن مجددًا روحانيًا. لقد ذكرتُ مرارًا أن المسيح الموعود عليه السلام قد سمى "أورنغ زيب"° مجددًا، مع أنه لم يدّع بتلقي الإلهام قط.

إذًا، فإن فترة استمرار الفيوض الروحانية لنبي تُعَدّ أيضًا فترة حياته. وعليه فإن فترة انقطاع الوحي تصبح في الواقع قصيرة جدًا. صحيح أن هناك بلادًا تبدو فترة انقطاع الوحي فيها طويلة نسبيًا، ولكن الحق أن الفيوض الإلهية ظلت تنـزل بدون انقطاع في البلاد المجاورة لها. خذوا مثلاً بلاد العرب، فقد أتت عليها فترة طويلة

* وُلد حضرة سيد أحمد البريلوي - رحمه الله - عام ١٢٠١ الهجري الموافق عام ١٧٨٦ الميلادي في "رائي بريلي" بالهند. كان من أولياء الله الكبار. خرج، بناء على إشارة سماوية، لمحاربة السيخ الحاكمين الذين منعوا المسلمين من القيام بأداء شعائرهم الدينية، وساموهم سوء العذاب. فدارت بين الفريقين معارك ضارية. وأصيب حضرته في إحدى المعارك بجراح تسببت في استشهاده يوم ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦ الهجري الموافق ٦ مايو ١٨٣١الميلادي. ودُفن في "بالا كوت".
لقد اعتبره سيدنا المسيح الموعود عليه السلام إرهاصًا لــه ومجددًا للقرن الثالث عشر، وقد انضم بعض مريديه إلى جماعته عليه السلام. (المترجم)

° هو أحد الملوك المغول بالهند، وكان لا ينفق على نفسه من بيت المال بل كان يكتب القــرآن الكريم ويعيش على ما يكسب به. (المترجم)

من انقطاع الوحي، وإن كان البعض يقول ببعثة بعض الأنبياء في تلك الفترة أيضًا، حيث اعتبر البعض خالد بن سنان نبيًا.◈

ولو اعتبرنا هذا القول صحيحًا لم تعد فترة انقطاع الوحي عن العرب فترة طويلة. ومع ذلك لو سلّمنا بطول فترة انقطاع الوحي عن بلاد العرب فأيضًا لم يزل الله ﷻ يبعث في البلاد المجاورة للعرب رسلاً دعوا الناس إلى الله ﷻ ودللوا على وجوده ﷻ بالآيات والمعجزات. لم يكن ضروريًا أن لا تقام الحجة على العرب إلا بواسطة نبي يُبعث فيهم مباشرة. فما دام الله تعالى قد ظهر على العرب من خلال داود وسليمان وعيسى ويحيى وذي القرنين - الذي هو الملك الفارسي كورش - حيث تلقى كل واحد منهم الوحي وبُعث في البلاد المجاورة للعرب، فما كان يحق لهم - إذا كان الوحي قد انقطع عنهم فترة من الزمن - أن يقولوا: لم نعرف أن الشرك أمر سيئ؛ ذلك لأن هؤلاء الأنبياء كلهم قد عرضوا على الناس عقيدة وحدانية الله تعالى مرة بعد أُخرى، وقد بُعثوا في جوار العرب كما قلت آنفًا ولم يكن العرب يجهلون أحوالهم وتعاليمهم. وعليه فإن الفترة التي لم يُر فيها نور الله ﷻ تصبح قصيرة جدًا. لا شك أن فترة انقطاع الوحي قد طالت على العرب إلى حد ما، ولكن الله ﷻ قد بعث فيهم خاتم النبيين وذلك ببركة دعاء إبراهيم لهم أوّلاً، وتعويضًا عن انقطاع الوحي عنهم مدة طويلة ثانيًا، وهكذا سدّ النقص الذي حصل بشأنهم.

على أية حال، إن ما أؤكد عليه هو أنه لا تُغفر لقوم أعمالهم المنافية لوحدانية الله ﷻ بحجة أنه لم يُبعث فيهم نبي لإقامة الحجة عليهم، إذ لم يبرح الله ﷻ يدحض هذا العذر دائمًا، ويقيم الحجة عليهم ببعثة الأنبياء فيهم، سواء أتمت هذه الحجة عليهم في فترة حياتهم الجسمانية أو في فترة حياتهم الفيضانية.

◈ هناك رواية تقول: عن بن عباس دخلتْ ابنةُ خالد بن سنان على النبي ﷺ فقال: مرحبًا بابنة نبي ضيّعه قومه. (البداية والنهاية للدمشقي: الجزء الثاني، فصل: تفويض قُصيّ أمر الوظائف لابنه عبد الدار، ذكرُ جماعة مشهورين في الجاهلية) *(المترجم)*

أما الذين لا يوجدون في فترة حياة الأنبياء الجسمانية ولا في فترة حياتهم الفيضانية فأمرُهم مختلف تمامًا، حيث ورد في الحديث أن الله ﷻ سيبعث يوم القيامة رسولاً لاختبار مثل هؤلاء القوم، فيجزي كل واحد منهم حسب طاعته له أو كفره به.

لقد تبين من هنا أن الأهمية التي تكتسبها الأحكام الإلهية في زمن نبي لا تبقى في أيام "الفترة"؛ أعني بالفترة الزمنَ الذي تنتهي فيه الحياة الفيضانية لنبي أو تفتر مؤقتًا. فمثلاً إن النبي ﷺ حي بفيوضه الروحانية، ولكن قد أتت على أمته فترة قصيرة حيث لم يُوجد فيها من يتلقى في مرآة قلبه روحانيته ﷺ وأنواره، فيعكس أشعتها على الناس لتنويرهم. ولكن الواقع أن تلك الفترة كانت قصيرة جدًا، حيث لم يغفل تلاميذ حضرة سيد أحمد البريلوي الشهيد عن خدمة الدين فور وفاته حتى يُقال إن هذه الفترة بدأت إثر وفاته فورًا. لقد استُشهد سيد أحمد البريلوي في ٦ مايو/ أيار ١٨٣١م (سيد أحمد شهيد (أردو) ص ٤١٤)، وقد بدأ المسيح الموعود عليه السلام يتلقى الوحي والإلهام في حوالي ١٨٦٤م، وأخذ يكتب المقالات دفاعًا عن الإسلام في عام ١٨٧٢م (سيرت حضرت مسيح موعود عليه السلام (أردو) ص ٧١)، وهذا يعني أنه لم تنقضِ بعد وفاة حضرة البريلوي الشهيد فترةٌ تساوي عمر إنسان حتى بعث الله ﷻ شخصًا آخر لإصلاح الناس، وهذا برهان واضح ساطع على الحياة الفيضانية للنبي ﷺ، ويؤكد أن فترة الانقطاع في الإسلام قصيرة جدًا، بل لم تكن إلا كبرهة من الزمن، إذ لم يمت مجدد في مكان إلا وبُعث آخر في مكان آخر، وهكذا ظلت الفيوض النبوية تصل إلى الناس دائمًا. ولكن إذا ما انتهت الحياة الفيضانية لنبي وطالت بعده فترة انقطاع الوحي،

فتكتسب الأحكام الشرعية بصدد من وُلد في تلك الفترة صبغةً مختلفة، فلا بأس بالدعاء له بالمغفرة مطلقا.

وتتحدث الآية قيد التفسير عن شخص كان في زمن نبي.. أعني أن عم إبراهيم عليه السلام كان موجودًا عندما دعا عليه السلام قومه إلى التوحيد، فالشخص الذي يدعوه نبي إلى التوحيد ولكنه يُصر على الشرك، بل يحاول أن يقهر النبيَّ على ترك التوحيد، فلا شك أنه يُعامَل بغير ما يُعامَل به الذين يوجدون في أيام "الفترة". ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام امتنع عن أن يدعو لعمه بالمغفرة وتبرأ منه، أما والداه اللذان ماتا في أيام "الفترة" فلم يبرح يدعو لهما في كبره أيضًا، إذ كان حكمهما مختلفًا عن حُكم عمه. ومثال ذلك ما حصل في قضية حياة المسيح الناصري عليه السلام، فإن المسلمين الذين قد ماتوا وهم يعتقدون أن المسيح عليه السلام حيٌّ، قد اعتبرهم المسيح الموعود عليه السلام من الصالحين والأولياء، رغم أنه كان يعتبر هذه العقيدة الخاطئة سببًا لقوة المسيحية وازدهارها في الزمن الحاضر. ذلك لأن الذين خلوا من قبل بعثة المسيح الموعود عليه السلام لم يدركوا خطر هذه العقيدة على الإسلام، أما الآن فقد انكشفت هذه الحقيقة على الناس بكل جلاء. وبالمثل كان والدا إبراهيم عليه السلام قد توفيا في زمن "الفترة"، ولذلك دعا لهما بالمغفرة، أما عمه فقد أصرّ على الشرك رغم أن إبراهيم عليه السلام دعاه إلى التوحيد، ولذلك تبرأ منه و لم يدعُ له بالمغفرة بعد ذلك.

لقد ذكر القرآن أن اسم أبي إبراهيم هو "آزر" (سورة الأنعام:٧٥)، ولكن التوراة تقول إن اسمه "تارح" (التكوين ١١: ٢٧)، وحيث إن المستشرقين المسيحيين يعتبرون كل ما ورد في كتابهم وحيًا سماويا، فيزعمون أن القرآن قد أخطأ حين أخبر أن اسم أبي إبراهيم "آزر" خلافًا لما ورد في التوراة.

والواقع أن الكتاب المقدس ليس مصدرًا تاريخيًا، كما أنه ليس حجة علينا. والحق أن بياناته متعارضة ومتناقضة بحيث لا يمكن اعتبارها صحيحة إزاء ما يقوله القرآن الكريم. فإن الذين كتبوا اسم أبي إبراهيم في الكتاب المقدس لم يكونوا معاصرين له، بل جاءوا بعده بأكثر من قرنين وربع قرن من الزمان؛ فكيف يُعتبر قولهم صحيحًا من الناحية التاريخية؟ ومما يدل على خطأ بيان التوراة قولها بأن

عدد المحاربين من بين بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى الطَّيْلا من مصر بلغ ستمئة ألف (الخروج ١٢: ٣٧)، وهذا يعني أن عددهم الإجمالي رجالاً ونساء وولدانًا كان قرابة مليونين ونصف المليون. ومن المحال أن يتكاثر بنو إسرائيل في غضون قرنين وربع القرن بحيث يصل عددهم إلى هذا الحد. يمكن أن يبلغ عددهم في تلك الفترة أربعة آلاف على الأكثر، شريطة ألا يوجد بينهم امرأة عاقر ولا رجل عقيم. فلو سلّمنا أنهم كانوا يتكاثرون بأقصى ما يمكن أن يتكاثر به أي فئة من الناس، وأن عددهم كان يصبح ضِعفين كل أربعين سنة، فكان يجب أن يصل عددهم أربعة آلاف على الأكثر حتى زمن موسى الطَّيْلا. ولكن التوراة تزعم أن عدد المحاربين بينهم وحدهم وصل ستمائة ألف لدى خروج موسى الطَّيْلا من مصر.. أي أن عددهم الإجمالي بلغ حوالي مليونين ونصف المليون. ولكن القرآن الكريم الذي جاء بعد موسى الطَّيْلا بألفي سنة يخبر أنهم كانوا ألوفًا (البقرة:٢٤٤)، وهو نفس العدد الذي قدّرته لبني إسرائيل على أقصى تقدير. إذًا، فكيف يمكن أن يُعتبر الكتاب المقدس مصدرًا تاريخيًا؟ إنه ليس تاريخًا وإنما هو قصص وحكايات، وإذا كنا نحترم هذا الكتاب فإنما لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أخبرنا أنه أنــــزله على موسى، وإلا فإنه قد تعرَّض للعبث والفساد بأيدي الناس بحيث لا يمكن الثقة به ثقة كاملة.

ثم يزعم الكتاب المقدس أن هارون أشرك بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصنع بيده عجلاً للعبادة (الخروج ٣٢: ٢-٦). ولكن القرآن الكريم يعلن أن هارون لم يقع في الشرك قط، بل حاول منع الآخرين منه، الأمر الذي يليق بمكانة النبي. (طه: ٩١)

فما دام الكتاب المقدس قد أخطأ في ذكر العديد من الحقائق التاريخية، فكيف يقال إنما الاسم الصحيح لوالد إبراهيم الطَّيْلا هو ما ورد في الكتاب المقدس وأن القرآن قد أخطأ في ذكر اسمه؟

ثم إذا كان بيان الكتاب المقدس هو الصحيح، وإذا كان الاسم الحقيقي لوالد إبراهيم هو "تارح"، فلماذا ورد في التلمود أن اسم أبيه "زارا"؟ ولماذا قال المؤرخ اليهودي الشهير "جوزيفيوس" إن اسم أبيه هو "آذر" (راجعْ ترجمة القرآن للمستشرق Sale ص ١٧٧-١٧٨). إن هذا الاختلاف بين اليهود يشكل دليلاً حاسمًا على أنهم

كانوا مختلفين في اسم أبي إبراهيم، وبما أن القرآن الكريم جاء ليزيل الاختلاف الموجود في الصحف السابقة، ففصل في هذا الاختلاف، مبيِّنًا أن اسم أبيه "آزر".

بيد أنه من الممكن أن يكون اسم "آزر" المذكور في القرآن الكريم تعريبًا لاسم "تارح"، حيث تُقلَب التاء إلى الزاء، ويضاف الألف عند عملية القلب. ويبدو أن العرب كانوا يجدون الصعوبة في نطق "تارح"، فحولوه إلى "زارا" ثم إلى آزر. وبما أن القرآن يستعمل عادة أسماء معربة، حيث عرّب إبراهام إلى إبراهيم، ويسوع إلى عيسى، ويوحنا إلى يحيى، وأخنوخ إلى إدريس، فكذلك عرّب "تارح" إلى "آزر". إذًا، فلا مجال للاعتراض.

ثم إننا لا نُسلّم بأن الأب هنا بمعنى الأب الحقيقي، إنما هو بمعنى العم، ولأجل ذلك عندما ذكر القرآن الكريم دعاء إبراهيم عليه السلام لأبويه في موضع آخر استعمل لفظ "الوالد". فما دمنا نعتبر "آزر" عم إبراهيم فلا اعتراض على القرآن الكريم إن كان الكتاب المقدس يقول إن اسم أبيه هو "تارح". إنما يجوز الاعتراض إذا كان الكتاب المقدس يقول إن اسم عمه "تارح"، ولكنه لا يقول كذلك بل يعلن أن "تارح" هو أبوه الحقيقي، بينما يقول القرآن أن اسم عمه هو "آزر". فلا مجال للاعتراض.

ويدعم ذلك ما ورد في الكتاب المقدس حيث قيل: إن سارة زوجةَ إبراهيم كانت بنتًا لتارح (التكوين ٢٠: ١٢). فلو اعتبرنا "تارح" أبًا حقيقيًا لإبراهيم لكان معنى ذلك أن إبراهيم تزوج بشقيقته، مع أن الزواج بالشقيقة كان حرامًا عندهم. فهذا أيضًا يؤكد أن "تارح" لم يكن أبًا حقيقيًا لإبراهيم، وإنما كان عمه. فبما أنه كان قد تربى في بيت "تارح" فنسبه الناس إليه خطأً، ثم إن المؤرخين أيضًا اعتبروه ابنه. ولكن التلمود قام بإصلاح الكتاب المقدس موضحًا أن سارة لم تكن شقيقة إبراهيم بل كانت ابنة عمه.

كما ورد في التلمود أيضًا أن إبراهيم عليه السلام لما رفع صوته ضد الأصنام تضايق منه "آزر" وشكاه إلى الملك. وصدور مثل هذه الفعلة من قبل الأب الحقيقي مستبعَد عقلاً.

فكل هذه القرائن تُؤكد أن المراد من الأب هنا العم، ولا اعتراض على القرآن إذا اختلف مع الكتاب المقدس في ذكر هذا الاسم.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۞ إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.. أي يا رب احفظني من خزي ذلك اليوم الذي سيُبعث فيه الناس ليحاسَبوا على ما فعلوا، ولن ينفع فيه المرء ماله ولا أبناؤه، إنما يفوز من أتى الله بقلب طاهر بريء من العيب عامر بالاطمئنان. ومن الظاهر أن اطمئنان القلب إنما يتيسر للإنسان إذا كان على يقين بأنه قد حقق الغاية من خلقه ولا يكون عنده خوف على مصيره، وهذا اليقين لا يتأتى إلا بوصال الله تعالى. فالحق أن القلب السليم لا يتيسر إلا لإنسان يُنشئ صلته مع الله تعالى، لأن الثراء والمال لا يجلب لأحد الطمأنينة أبدًا. ألا ترى أن الشعوب الأوروبية لا تقدر أية أُمة أن تباريها في المال والثراء، ولكنها رغم امتلاكها القوة والكثرة والمال تشعر في قرارة نفسها أنها تفتقر إلى شيء يوجد عند الآسيويين. وهذا الإحساس بالدونية عندهم ليس بارزًا بعد حتى يشعر به صغارهم وكبارهم كلهم، إلا أن طبقة بينهم أخذت تدرك أنهم يملكون المال والثراء ولكنهم محرومون من طمأنينة القلب. إنهم يشربون الخمر ويرتادون السينما ويقضون معظم الليل والنهار في الرقص والغناء، وعندما يزول سكرهم ويستلقون على السرير يشعرون بفراغ في داخلهم، وهذا الفراغ لا يمكن أن يملأه إلا الدين والوصال بالله تعالى. لقد تيسرت لهم كل نعمة مادية، ومع ذلك يشعرون بقلق بأنهم لا يزالون يفتقرون إلى شيء ويجب أن ينالوه. والحق أن حب الله ووصاله نعمة لو تيسرت لإنسان تخلص من هموم الدنيا كلها، ولم تبقَ في قلبه حسرة. لا شك أنه يواجه همومًا عابرة، فمثلاً إذا أصيب المرء بشوكة تألم، ولكنه ألم عابر ولا يسميه أحد مرضًا. كذلك تواجه الناس آلام ومشاكل عابرة ولكنها لا تعيق طريقهم، وكل واحد يحظى بالسكينة والاطمئنان بحسب درجة إيمانه. ونظرًا لأهمية طمأنينة القلب قال الرسول ﷺ: ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.

(البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه)

يقول البعض في هذا العصر، وخاصة العلماء والأطباء المتخصصون بالتشريح، إن العضو الذي يقوم بضبط أعمال الإنسان وأفعاله وإراداته ورغباته وينظّمها هو الدماغ لا القلب، وقد بدأ بعض المسلمين يفسرون آيات القرآن الكريم بما يوهم أن المراد من القلب في القرآن ليس بالقلب المعروف، وإنما معناه ذلك المقام أو العضو الذي يتحكم في جسده. ولكني أرى أنهم إنما لجأوا إلى هذا التأويل خوفًا من هؤلاء العلماء، وإلا فإن التدبر في القرآن الكريم يكشف أنه يعني بلفظ القلب نفس العضو الذي يوجد في صدر الإنسان، والحق أن تأويل القلب بمعنى الدماغ مكابرةٌ دونما دليل.

على أية حال، إن هذا الحديث النبوي يبين أن تطهير الأعمال الإنسانية منوط بتطهير القلب، إذ لا تستطيع أن تتطهر بغسل يديك وتنظيف فمك ورأسك، ذلك لأن منبع الطهارة هو القلب، فإذا طهرت قلبك أتيت الله بقلب مطمئن. إن تطهير القلب هو أهم شيء عند خالقنا ومالكنا الذي خلق الخلق ليتطهروا، لأن غراس التقوى إنما تنمو وتزدهر في أرض طاهرة مطهرة، ولا يمكن لقلب نجس أن يكون مهبط تجليات صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يمكن ليد نجسة أن تمس أعتاب عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩٢﴾ وَقِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ
﴿٩٤﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٥﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٧﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٩٨﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿١٠٠﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا

كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

أُزلفتْ: أَزْلَفَه: قرّبه. (الأقرب)

بُرِّزتْ: برَّزه: أظهَرَه وبيّنه. (الأقرب)

الجحيم: النارُ الشديدةُ التأجّجِ؛ كلُّ نار عظيمة في مَهْواةٍ فهي جحيم؛ المكانُ الشديدُ الحرِّ؛ اسمٌ من أسماء جهنم. (الأقرب)

كُبْكِبوا: كَبْكَبَهُ: قلَبه وصرَعه. كبكبَ الشيءَ: رماه في الهوّة (الأقرب).

الغاوون: جمعُ الغاوي، وغوَى الرجلُ ضلَّ وخاب؛ وانهمكَ في الجهل؛ هلَك. (الأقرب)

جنود: جمعُ جند، والجند: العسكرُ؛ الأعوانُ. (الأقرب)

نسوِّيكم: سوّاه بكذا: عدَّل. (الأقرب)

حميم: الحميم: القريبُ الذي تهتمّ بأمره؛ الصديقُ (الأقرب).

كَرَّة: كَرَّهُ كَرًّا فكَرَّ: رجَعه فرجَع. والكَرّة: المَرّة (الأقرب).

التفسير: والمراد من تقريب الجنة إلى المتقين أن الإنسان التقيّ كلما عمل حسنة واحدة سهل عليه القيام بالمزيد من الحسنات، وبالتالي اقتربت الجنة منه.

لقد رأيت على العموم أن المرء إذا وجد لذة في العمل الصالح تقدم في الصالحات بدلاً من أن يتأخر، ويعمل الحسنات الواحدة تلو الأخرى، ويسهل عليه فعل الحسنات. ذهبتُ مرة إلى دلهي، وذلك قبل انقسام الهند وحين لم يكن الشودري ظفر الله خان يتقلد منصب الوزير في الحكومة الهندية، بل كان يعمل محاميًا لها في إحدى القضايا. وكانت الحكومة عندها قد استحضرت خبيرًا اقتصاديًا من إنجلترا لاستشارته في بعض الأمور. فدعاه الشودري ظفر الله خان إلى مأدبة طعام ليقابلني فيها. فقدم له الشودري ظفر الله خان أثناء تناول الطعام نوعًا من الحلوى نسميه

عندنا "گُلابْجامَنْ" أو "رَسْگُلّے"، وكانت شيئًا غريبًا لهذا الشخص الإنجليزي. فخاف من تناولها، فقال الشودري: لا تخف، وجرب؛ إنها حلوى جيدة. فتناول قطعة منها. فأراد الشودري أن يناوله قطعة أخرى، ولكنه تردد، فقال له: لقد أكلت القطعة الأولى عجبًا، فكُل الثانية استمتاعًا. فقلت للشودري ظفر الله خان: ما هذا الذي قلت له آنفًا؟ قال: هناك تعبير إنجليزي يقول: يُؤكل الشيء للمرة الأولى عجبًا، ويُؤكل للمرة الثانية استمتاعًا.

هذا مثل لأهل الدنيا، ولكني قد رأيته ينطبق في العالم الروحاني تمامًا، حيث تعمل الخير في البداية لتجرّبه وتتذوقه، أما بعد ذلك فتعتاده تلقائيًا. فإن الناس يخافون شرب السوائل المطهرة المصنوعة من الكحول الطبي، ولكن أهل أوروبا يستمتعون بشربها ولا يمتنعون من تعاطيها رغم الحظر. فعندما فُرض الحظر قانونيًا على تعاطي الخمر في أمريكا مات آلاف الناس لأنهم شربوا الكحول الطبي إشباعًا لإدمانهم على تعاطي الخمر التي لم يجدوها. واستمر الوضع هكذا لسنين، حيث كانوا لا يجدون الخمور فكانوا يشربون الكحول الطبي الذي فيه سموم، فكثير منهم فقدوا البصر، وكثير منهم ماتوا، ومع ذلك لم يقدروا على كبت رغبتهم في شرب الخمر.

إذًا، فلكل شيء لذتان، لذة أصلية ولذة تتولد نتيجة الاعتياد. ففي بلادنا مثلاً يمضغ الناس "بان"، وبعضهم يضيفون إليه مادة مصنوعة من التبغ تسمى عندنا "زرده"، ومن لم يكن معتادًا على تناول هذا النوع من "بان" يصاب بالدوار بتناوله. أتذكر أنني أُصبتُ ذات مرة بنوبة شديدة من مرض النقرس، فقال لي أحد الإخوة: عليك بتناول هذا النوع من "بان" فسوف تشفى بإذن الله تعالى. فقلت له: إني لم أتناوله قط وأخاف أن يصيبني الدوار. قال: كلا، عليك أن تجرب. فأعطاني "بان"، فلما تناولته شعرت تحسنًا ملموسًا بالفعل. ثم لم يزل يعطني إياه كل بضع ساعات ليومين كاملين قضيناهما في السفر معًا، فرأيت أن الألم قد زال إلى حد كبير. فامتنعت عن تناوله مخافة أن أصاب بإدمانه.

إذًا، إن الأشياء المؤذية والرديئة الطعم أيضًا إذا تناولها المرء كعلاج لفترة طويلة اعتادها واستطابها. فإذا كان المرء يعتاد ما فيه قليل من النفع فكيف لا يعتاد على ما فيه كثير من النفع كالتضحية في سبيل الدين؟ كل ما في الأمر أن يُشجَّع على تقديم التضحية، وسوف يجد بعد ذلك متعة في خدمة الدين من تلقاء نفسه بحيث يستحيل عليه الصبر بدونها طرفة عين. إن المرء إذا لم يجد ما يأكله يصرخ ويبتهل أمام الله ﷻ ليهيئ له الطعام، كذلك حال من يوفق لخدمة الدين وإشاعته، فإذا تمكن من خدمة الدين شكر الله ﷻ وحمده، وإذا لم يوفق لها بعض الوقت ابتهل إلى الله ﷻ بأن يزيل ضعفه، ويعينه على خدمة الدين أكثر فأكثر؛ وهكذا يسهل عليه القيام بالصالحات شيئا فشيئًا، وتقترب منه الجنة رويًدا رويدًا.

وهذه التضحيات الدينية التي تكون سهلة على المؤمنين تبدو للذين يكونون منحرفين عن الحق كألْسنة النار، فيحاولون الفرار والتملص منها. وهذا يعني أن المؤمنين يقفزون في نيران التضحيات ابتغاء مرضاة الله ﷻ فتصبح لهم جنة، بينما تجعل هذه النيران المنافقين والضالين حطب جهنم، حيث تهتك الستر الذي يُخفي كفرهم ونفاقهم.

كما أخبر الله ﷻ في قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أيضًا أنها ستُقرَّب منهم في الزمن الأخير، بمعنى أن الله ﷻ سيهيئ الأسبابَ العاملة على تقريب أحكام الدين من عقول الناس فيفهمونها، وستخبو تلقائيًا جذوةُ المعارضة التي يواجهها الدين من قبل العلم، وبالتالي يسهل على المتقين دخول الجنة. وبالفعل نرى أن هذه النبوءة القرآنية قد تحققت في هذا العصر، حيث أخذت فئة من شرفاء أوروبا يتنازلون شيئًا فشيئًا عما ادعوه من قبل، بينما أخذت فئة أخرى منهم يرجعون إلى الدين معترفين أن الأمور التي كانوا يرونها خلاف الطبيعة هي ليست كما ظنوا من قبل. فكأن الوضع أصبح مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ بمعنى أن العلماء أخذوا في الصعود في معرفة الحقيقة، بينما أخذت المبالغات التي أدخلها العلماء في الدين في الزوال شيئًا فشيئًا، وهكذا تتهيأ الدنيا لتصديق أحكام الله ﷻ وتُقرّب إليها الجنة رويدًا رويدًا.

ثم يخبر الله تعالى أن الذين سيُعرضون عن هداية الله ﷻ في مثل هذا العصر، فلا بد لهم من المثول أمام الله ﷻ للحساب، فيقال لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾، وعندما يرى هؤلاء مصيرهم بأعينهم حيث يُلقى بهم وآلهتهم وجنودهم الأبالسة في الجحيم، ويُنـــزع منهم كل عزة، فإنهم سيختصمون فيما بينهم. فالذين اتبعوا زعماءهم في الدنيا اتباعًا أعمى، ولم يلبّوا نداء الله ﷻ سيقولون لزعمائهم: تالله لقد كنا في خطأ كبير، إذ جعلناكم أندادًا لرب العالمين واتبعناكم بدلاً من أن نلبي نداء المنادي الذي جاء من عند الله ﷻ. ثم يقولون ليهوّنوا الأمر على أنفسهم: ما ذنبنا في ذلك ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ﴾، فلو لم يصدّوا طريقنا لم نلقَ هذا المصير. لقد كانوا يقولون في الدنيا سنحمل عنكم أوزاركم ونوصلكم إلى الجنة، أما اليوم ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۝ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

كان الخليفة الأول ؓ يحكي لنا أن إحدى أخواته كانت من أتباع أحد المتصوفين الزائفين، فجاءت تزوره في قاديان مرة، فقال لها: يا أختاه لماذا لا تنضمين إلى الأحمدية؟ قالت: لا حاجة بي لذلك فإنني قد بايعت على يد رجل قد قال لي: افعلي ما شئت، وليس بك حاجة إلى القيام بأي عمل حسن، لأننا قد حملنا عنك خطاياك كلها. فقلت لأختي: عندما تزورينه في المرة القادمة قولي له: لا شك أن كل إنسان سيُضرب بالنعال جراء ذنوبه يوم القيامة، فهل فكّرتَ في عدد الضربات التي ستتلقاها حيث إنك قد حملتَ ذنوب جميع مريديك؟ فوعدتْني أختي بأن توجه هذا السؤال إلى هذا الرجل. وبعد مدة من الزمن جاءته أخته ثانية فسألها: هل سألت الرجل ما قلتُ لك؟ قالت: نعم، ولكنه قد حل المعضلة بمنتهى البساطة. قلت: كيف؟ قالت: قال لي: انظري، عندما يسألكِ الملائكة عن ذنوبكِ فقولي: لا أعرف أي شيء، بل اسألوا سيدي الشيخ هذا. فيخلي الملائكة سبيلك، فتدخلين الجنة بسلام. فقلت للرجل: ولكن ماذا ستفعل أنت يا سيدي؟ قال: عندما يسألني الملائكة سأستشيط غضبًا وأقول لهم: ألم يكفِكم ما قدّمه جدي

الإمام الحسين في كربلاء من تضحية عظيمة حتى جئتم اليوم لمضايقتي سائلين: ماذا فعلتَ ولماذا فعلت؟ فسيتندم الملائكة ويخلون سبيلي، فأركُض إلى الجنة.

ونرى هذا المشهد كل يوم في الدنيا حيث نجد الناس لا يتورعون عن الكذب من أجل أصدقائهم، ويلجأون من أجلهم إلى أنواع الغشّ والخداع والتزوير، ضاربين أحكام الله ورسوله عرض الحائط. أما يوم القيامة فلن ينفع أحدًا صديق ولن ينقذه مَن يعده بحمل ذنوبه من عذاب الجحيم، فيقول بكل حسرة وأسف: لو كانت لي قوة للعودة إلى الدنيا لتداركت ما فات، ولكن هيهات أن يتحقق له ما تمنى، لأن وقت العمل قد فات. يقول الله تعالى: إن في واقعة إبراهيم آية عظيمة، حيث رفَع الصوت ضد الأصنام رغم ضعفه وقلة حيلته، فعارضه قومه حتى اضطروه إلى الهجرة، ولكن الفوز كان حليفه في آخر المطاف، و لم تنفع قومه أصنامهم شيئًا، ومع ذلك ظل معظم قومه منغمسين في الملذات المادية و لم يُوفقوا للإيمان. ولكن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي لا شك أن الأكثرية من قوم إبراهيم لم تؤمن به، ولكن ربك ذو غلبة ورحمة، وسيوفق أكثر قومك للإيمان في النهاية، وسيمتّعهم بنعمه زمنًا طويلاً. وهذا ما حصل فعلاً بعد فتح مكة، حيث آمن بالنبي ﷺ قومه، ثم متعهم الله بنعمه لمئات السنين ببركة إيمانهم، ووهب لهم الحكم دهرًا طويلاً.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١١﴾

التفسير: أي أن قوم نوح أيضًا كذبوه حين بُعث إليهم ممثلاً للرسل جميعًا. لقد قام بوعظهم فلم يتعظوا، فقال لهم: لم لا تفهموا قصدي من نصحكم، ألا ترون أنني لا أسألكم أي أجر على نصحي، بل إن كل رجائي وثقتي بالله رب العالمين؟ فعليكم أن تتقوه وتطيعوني.

وقوله عليه السلام: ﴿وأطيعون﴾ يبين أن طاعة النبي والعمل بشريعة الله تعالى قضيتان منفصلتان ولا بد منهما. يزعم "القرآنيون"* أننا مأمورون من عند الله تعالى بطاعة القرآن فقط لا بطاعة محمد ﷺ. ولكن نوحًا عليه السلام - وهو أدنى درجة من الرسول ﷺ - أيضًا يقول لقومه إنه لا بد لهم من طاعته وعندها ستكتمل تقواهم. ذلك أن أول درجة في سُلّم العلاقة بالله تعالى هو إنشاء الصلة بأنبيائه تعالى. فكما أن من المحال أن يصعد الإنسان السطح بقفزة واحدة، كذلك يستحيل عليه إنشاء الصلة بالله تعالى بدون طاعة أولئك القوم الذين يُبعثون لهداية الناس من عنده تعالى.

بيد أنه كما يحدث أحيانًا أن المرء يكون جالسًا على السطح فيرى أن أسدًا قد هاجم شخصًا، فيدلي له الحبل ويسحبه إلى السطح، كذلك يحدث أحيانًا أن الله تعالى يرى عبدًا من عباده يتلهف للقائه بصدق، ولكنه يعيش في بيئة لا تتيسر له فيها هداية نبي، فيجذبه إليه بنفسه. ولكن هذا أمر شاذ، والقوانين لا تُسنّ نظرًا إلى الحالات الشاذة، بل القانون العام أن الناس يحرزون الرقي الروحاني بواسطة أفراد يتراءى فيهم وجه الله تعالى. وهناك طريق واحد لإحراز ذلك الرقي وهو: أن يؤثر المرء حبَّ هؤلاء القوم على حب كل إنسان سواهم، وعندها يسهل عليه طاعتهم والتأسي بأسوهم، فيوقن أنه لا يطيع أحدًا من الأغيار، بل يعتبر مُطاعه أبًا له يجري دمه في عروقه. وقد نبه نوح عليه السلام أيضًا قومه إلى الأمر نفسه بأنهم إذا أرادوا النجاة فعليهم بتقوى الله تعالى، كما لا بد لهم من طاعته عليه السلام لأنه مبعوث من عند الله تعالى لهدايتهم.

* "القرآنيون" أو "أهل القرآن" هم فرقة لا تعترف بالسنة النبوية ولا تأخذ بأحاديث الرسول ﷺ. (المترجم)

قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ
﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾

التفسير: لم يزل أنبياء الله تعالى على مدى التاريخ يواجهون هذا الاعتراض وقد واجهه نوح أيضًا في عصره، فقال له المعارضون: إن الذين آمنوا بك هم أراذل القوم. ونِعم ما أجابهم به إذ قال: إن الهدى بيد الله تعالى، وقد هداهم بالفعل لأنه وجدهم جديرين بذلك. وحيث إن الله تعالى قد اعتبرهم من أهل الصلاح فكيف يمكنني طردهم؟ إنما حسابهم على الله تعالى لا علي، ليتكم تدركون ذلك، فلا تحتقروا مَن هو مؤمن عند الله. وإذا أبيتم إلا احتقارهم فلست بطاردهم، لأن الله تعالى قد جعلهم في رعايتي. إنما واجبي أن أنهى الناس عن السيئات، وإذا كان الله قد هدى أحدًا فلا شك أنه قد امتنع عن السيئات وبالتالي قد أصبح من أهل العزة والشرف، وهو الذي سيعد من المكرمين، لا أنتم.

وهناك واقعة رائعة بهذا الصدد في تاريخ الإسلام. ذهب عمر ﷺ للحج مرة، فجاء القوم بعد الحج يزورونه يوم العيد، فجاءه أولاً أبناء الرؤساء والأسياد من أهل مكة، ثم جاء بعض العبيد الذين أسلموا في أوائل الإسلام، فأمر عمر ﷺ أبناء الرؤساء أن يفسحوا المجال للعبيد، فقربهم إليه في المجلس. ثم جاءت جماعة أخرى من العبيد المسلمين، فأجلسهم عمر قريبًا منه، وأمر أبناء الرؤساء بإفساح المكان لهم. وهكذا كلما جاء العبيد أمر عمر رؤساء القوم بإفساح المجال لهم، مما سبب خجلاً شديدًا لهؤلاء الرؤساء، فخرجوا من المجلس. ثم قال بعضهم لبعض: ألم تروا كيف تعرضنا اليوم للخزي في المجلس؟ وكان بينهم شاب ذكي فقال لهم: الذنب ذنبنا. فإن هؤلاء العبيد الذين تحتقرونهم هم من أوائل المسلمين، وقد قدموا

تضحيات جسامًا في سبيل رقي الإسلام حين كان آباؤنا يعادون الإسلام والنبي ﷺ، فاليوم - وقد صار الإسلام غالبًا - إن هؤلاء العبيد أَولى بالإعزاز والتكريم. فقال له أصحابه: فما العلاج إذًا؟ فقال: تعالوا نسأل عمر نفسه. فرجعوا إلى عمر، ففطن لقصدهم، فقال: أيها الشباب، أعرف ما تتمتعون به من مكانة مرموقة في مكة، ولكن من واجبي أن أُجلس هؤلاء القوم في صدر المجلس لأن النبي ﷺ كان يعاملهم هكذا، فكيف أستطيع أن أفعل عكس فعله ﷺ؟ فقالوا: فما العلاج إذًا؟ فاغرورقت عينا عمر الذي كان يعرف ما كانت تتمتع به أسر هؤلاء الشباب من مكانة عالية، فأشار بيده نحو الشمال، وكان يعني أن هناك حربًا تدور بين المسلمين والمسيحيين في الشام، فعليهم أن يذهبوا ويشتركوا فيها ليكفّروا عما ارتكبه آباؤهم من ذنوب. فخرجوا من المجلس في صمت، وركبوا مطاياهم فورًا قاصدين الشام، وانضموا إلى جيش المسلمين، واستُشهدوا جميعًا في الحرب ضد الكافرين، ولم يرجع أحد منهم حيًا. (عمر بن الخطاب ﷺ للجوزي ص ٨٥)

إذًا، إنما العزة من عند الله تعالى، لا بالمال والثراء. فلا شك أن احتقار الكفار لمن يؤمن بالرسل بسبب فقرهم لحماقة شديدة، إذ الحقيقة أن الذين يؤمنون بالنبي في أول أمره هم أعزُّ القوم. لقد كان أبو بكر وعمر وزيد أوّل المؤمنين بالرسول ﷺ، لذلك اختار المسلمون أبا بكر خليفة له رغم وجود صناديد مكة بينهم، مما بعث والد أبي بكر أيضًا على العجب (البداية والنهاية لابن كثير: الجزء السابع، فصل وقعة القادسية، ذكرى من توفي في هذا العام من المشاهير). وأما أبو جهل وعتبة وشيبة فلم يُساووا عند المسلمين نعالَ أبي بكر وعلي - رضي الله عنهما. وهذا ما وجه إليه نوح عليه السلام أنظار المعارضين فقال: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.. أي إذا كنتم تروهم أراذل القوم فإنني لا أعلم ما هي حسناتهم الخفية التي تقبلها الله تعالى، فشرفهم بالإيمان بنبي زمنهم، وما هي سيئاتكم التي سلبتكم نور البصيرة وحالت دون تلبيتكم نداء الله تعالى. ما دام الله تعالى قد منّ عليهم بسبب حسناتهم بهذه المنة العظيمة إذ شرّفهم بتصديق نبيهم، فكيف يُعَدّون من الأراذل؟ إنما الأراذل من حرَمهم الله تعالى من معرفة نبيهم جراء سيئاتهم.

يقول نوح عليه السلام: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.. أي لا شك أن هؤلاء فقراء لا يملكون مالاً ولا عقارًا، ولكن الله تعالى لن يضيع تضحياتهم وسوف يكتب لهم رُقيًا عظيمًا، ليتكم تشعرون بذلك، فلا ترفضوا هدى الله تعالى متذرعين بأعذار واهية.

يتضح من دراسة القرآن الكريم أنه قد تناول هذا الموضوع في أماكن شتى بأساليب مختلفة. فحينًا قال إن المعارضين لا يشعرون، وحينًا قال إنهم لا يعلمون. علمًا أن الشعور هو ذلك الإحساس الذي يتولد من داخل الإنسان، والعلم هو ذلك الإحساس الذي يتولد فيه من تأثير خارجي، سواء بالرؤية أو باللمس أو التذوق. مثلاً إنك تمشي فترى غابة، فتزداد معلوماتك برؤيتها، أو تذوق شيئًا فتعرف طعمه، فهذا هو العلم إذا أتاك من الخارج و لم يتولد في داخلك. وعلى النقيض بينما تكون جالسًا يتولد فيك فجأةً الإحساسُ بما تحتاج إليه أنت أو قومك أو أولادك أو أسرتك، وهذا الإحساس التلقائي هو الشعور. وكأن الإنسان عندما يُحس بما جبله الله تعالى عليه من القوى فيختار له طريقًا بناء على هذا الإحساس، فيسمى هذا شعورًا. وإذا بذل جهده للتدبر في شيء ليرى ما إذا كان نافعًا له أم لا فهذا يسمى تفكرًا. وقد حثّنا القرآن على التفكر مرارًا لأن القوة الفكرية تساعدنا على أخذ النتائج من علمنا الخارجي. وجزء من هذه القوة يسمى عقلاً، إذ إن العقل هي تلك القوة التي تساعدنا على العمل بحسب العلم والفكر والشعور، لأن العقل يعني أن يُفكر الإنسان ويقرر ما إذا كان الشيء ضارًا به أم مفيدًا، فإذا قرر بأنه ضار، وإذا منعه هذا الإحساس من ذلك الشيء الضار فهذا يسمى عقلاً. أي أن ما يمنعه من الشر هو العقل. وقد أشار إليه القرآن الكريم بلفظ التفقه، لأن التفقه هو الوصول إلى كُنه الشيء ودقائقه. فيقول الله تعالى لنا: تمرون وترون أشياء كثيرة غافلين دون أن تحاولوا معرفة مغزاها ونتيجتها كالديك أو الكلب أو القطة. ذلك أن هذه الحيوانات شريكة مع الإنسان في عملية الرؤية في الظاهر، ولكن ما الفرق بين رؤيتها ورؤية الإنسان؟ إنما الفرق أن الإنسان يصل إلى نتيجة إذا رأى شيئًا، ولكن هذه الحيوانات لا تصل برؤيته إلى أية نتيجة. فمثلاً إذا رأى الكلب أو القط

شجرة ما فإنما يرى جذعا طويلاً، ولكن الإنسان لا يرَى في الشجرة جذعًا فقط، بل يرى ثمرها أيضًا، ويدرك أنها تثمر في فصل كذا ولا تثمر في فصل كذا، وأن ثمرها تنفع كغذاء أو دواء، أو ينحصر نفعها في ظلها فقط. وإذا وجد خشبها صلبًا قطَعها وصنع منها أبوابًا مثلاً، وإذا وجد خشبها قويًا قادرًا على حمل الأثقال صنع منه أعمدة لحمل السقف، وإذا وجد خشبها قادرًا على مقاومة الماء استعمله حيث يكثر المطر، وإذا وجد خشبها يصلح للحرق فقط استعمله حطبًا أو حوّله فحمًا. فالشجرة التي يراها الإنسان والحيوان واحدة، ولكن الإنسان يستعملها في شتى حاجاته، أما الحيوان من كلب أو قط أو ماعز أو ابن آوى فلا يعرف من تلك الشجرة إلا أنها تهيّئ الظل فقط.

ثم إن القرآن الكريم قد نبّهنا إلى أمر آخر وهو الاستنباط. والاستنباط أن تتدبر في أحداث مختلفة وتتوصل منها إلى نتيجة، وكأنك تولّد شيئًا جديدًا بقوتك الفكرية. مثلا إذا رأيت زيدًا وبكرًا وعَمرًا في مكان، ثم علِمتَ أنهم ينتمون إلى جماعة واحدة، وأنهم جاءوا من أماكن مختلفة وطرق شتى واجتمعوا هناك، فستستنتج من هذه الأمور كلها أنهم اجتمعوا بحسب خطة معينة، أو إذا رأيت ما يفعله عدوك تفكر فورًا كيف تتصدى له وتلحق به الضرر. ولكن الحيوان من ماعز وقط وغيرهما لن يتوصل إلى هذه النتيجة، وإنما يرى أن بعض الأشخاص قد جاؤوا فقط.

فالقرآن الكريم قد حثنا مرارًا على الاستعانة بالشعور والعلم والفكر والعقل والتفقه والاستنباط، وقد ندّد بأعداء الحق مرة تلو المرة فقال: أفلا تشعرون؟ أفلا تعلمون؟ أفلا تتفكرون؟ أفلا تعقلون؟ ودعاهم إلى التفقه والاستنباط. وقد بين القرآن الكريم أن الفرق بين النبي ﷺ وأعدائه أنه يفكر ولكنهم لا يفكرون حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي يا محمد، قُلْ لهؤلاء المعارضين إن ثمة فرقًا بيني وبينكم. لا شك أنكم تتمسكون بعقيدة وأنا أيضًا أتمسك بعقيدة، ويحق لأي إنسان منهم أن يقول: إذا كان محمد يعتبر نفسه صادقًا في ما يعتقد فيحق لنا أيضًا أن نعتبر

أنفسنا صادقين في ما نعتقد. لماذا نعتبر ما يقوله محمد حقًّا وما يقول معارضوه باطلا؟ يجب أن يكون هنا سبب واضح يجعلنا نصدق قوله؟

هناك عدة أجوبة على هذا السؤال، وقد ذكر القرآن الكريم هنا واحدًا منها فقال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.. أي قل يا محمد لأهل مكة إن أكبر دليل على كذبكم وعلى صدقي أنني أنا وأتباعي نقبل أي شيء بالدليل، وأما أنتم فتصدقون أي شيء بلا دليل، وتصديقكم الشيء دونما دليل يشكل برهانًا على أنكم لا تُعملون الفكر، وتصديقنا الشيء بدليلٍ برهانٌ على أننا لا نؤمن إلا بعد تفكير وتدبر. والبديهي أن الذي لا يُصدق الشيء إلا بعد إعمال الفكر يكون أقرب إلى الحق ممن يصدقه دونما تفكير، وإن كان ما يصدّقه حقًا وصدقًا، ذلك لأن الله تعالى سيقول له، وإن كان هو على الحق: كيف عرفت أن هذا حق؟ فإنك قد آمنت به بدون تدبر ولا تفكير. وعلى النقيض هناك شخص أعمل الفكر وتوصل إلى نتيجة ولكنها نتيجة خاطئة فإنه رغم كونه على الخطأ يستحق الثواب عند الله تعالى لأنه بذل الجهد الصادق للوصول إلى النتيجة الصحيحة. ومن أجل ذلك قال الرسول ﷺ أن من اجتهد فأخطأ في اجتهاده فله أجرٌ (البخاري: باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ)، لأنه أعمل الفكر وبذل كل ما في وسعه للوصول إلى القرار السليم ولكنه أخطأ، فيقول الله تعالى إنه قد أدى واجبه، واستحق الثواب لا العقاب. كذلك قال النبي ﷺ إن الذي لا تقوم عليه الحجة لن يدخل النار إذ لم تُتَحْ له الفرصة للتدبر وإعمال الفكر. كذلك قال النبي ﷺ لن يدخل المجنون النار لأنه معذور لعدم قدرته على التفكير. وأيضًا قال النبي ﷺ إن المولود الذي يموت في صغره، أو الشيخ الفاني الذي فقد عقله، أو من يسكن في الجبال ولم تصله دعوتي، لن يدخل النار إذ لم تتح له الفرصة للتفكر والتدبر. فثبت أنه لا يستوجب العقاب إلا

الذي وجد فرصة لإعمال الفكر ومع ذلك لم يفكر؛ وأنه لا يستحق الثواب إلا الذي يقبل الحق بعد التفكير والفحص. إذا اتبع المرء دينًا أو مذهبًا تقليدًا للآباء فحسب فلن يحظى بمرضاة الله تعالى.

وهذا هو القانون الذي نراه مطبَّقًا في الظاهر أيضًا، حيث نجد النبي ﷺ ينصح قومه بالتدبر في كل شيء. كما ينصح أصحابه أيضًا أن يعملوا الفكر ويفهموا الأمر ثم يصدقوه، وكانت النتيجة أن الصحابة سبقوا قومهم في العلم أيضًا؛ فكان أحدهم، رغم كونه أميًا لا يعرف القراءة والكتابة، يسوق الأدلة والبراهين أمام المعارضين فيُعجِزهم فكانوا يحاولون إجباره على قبول رأيهم بقوة العصا، لإدراكهم أنهم لا قبل لهم به في مجال البراهين. فمثلاً إذا قال أحد المشركين من مكة إن الدليل على صحة عقيدة الشرك أن آبائي يعملون هكذا فهل هم مخطئون؟ وهل تظن أن لا رأي لهم ولا عقل؟ فإذا قيل له: نعم إن آباءكم جاهلون، فكان من الطبيعي أن يثور شبابهم غضبًا ويهبّوا للمعارضة قائلين: كيف يجرؤ على هذا القول؟ ولكن الدليل الذي كان النبي ﷺ يقدمه لهم هو: عليهم أن يفكروا فيما إذا كانت أصنامهم تملك قوة أو حيلة، فإذا كانت لا تقدر على شيء فلماذا يعبدونها؟ حيث ورد في القرآن الكريم أن هذه الأصنام لو يسلبها الذباب شيئًا فلن تقدر على استرداده منه (الحج:٧٤). وإذا كانت أصنامهم ضعيفة وعديمة الحيلة لهذه الدرجة فاعتبارها آلهة أمر غير معقول حتمًا. ومن الواضح أن الذي يصدق بشيء بناء على الدليل لا يمكن أن يقاومه من هو معتاد على قبول الشيء بلا تفكير ولا دليل، فسينهزم أمامه في نهاية المطاف. ومن أجل ذلك قال القرآن مرارًا وتكرارًا: أفلا تعقلون، أفلا تتفكرون، أفلا تشعرون. وكان النبي ﷺ كلما أعجبه عملُ إنسان دعا

له بأن يوفقه الله تعالى للتدبر وإعمال الفكر. يقول ابن عباس - رضي الله عنهما: دخل النبي ﷺ المرحاض مرة فوضعتُ له الماء ليتوضأ به، فسُرّ النبي ﷺ ودعا له: "اللهم فَقِّهْه في الدين." (البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء)

فإن من المهم جدًا أن يفكر الإنسان ثم يصل إلى النتيجة، أما إذا اتبع أمرًا دونما تفكير وفحص فهذا ينال من مكانته العالية. وكان من تأثير هذا التعليم الإسلامي أن المسلمين حيثما ذهبوا أذهلوا الناس بأعمالهم، حيث كان طفلهم أيضًا ذا علم غزير وكان يتكلم بالدليل. والحق أن اعتيادهم على التفكير هو الذي جعلهم أقوياء الإيمان لا يتزعزعون عما يعتقدون، لأنهم لم يؤمنوا بشيء إلا بعد الفحص والتفكير، مستوعبين كل ما فيه من معنى ومغزى. وهذا هو السبب في أن الناس كانوا يستغربون كيف أن المسلم يضحي بحياته ببسالة نادرة. يقول أحد الصحابة إنما أسلمتُ لأني رأيت مسلمًا يضحي بحياته بشجاعة مذهلة. وبيان ذلك أن الأعداء حاصروا مجموعة من المسلمين على قمة جبل خدعةً، ثم وعدوهم بأنهم لو نـــزلوا إليهم من الجبل فلن يتعرضوا لهم بأذى، ولكنهم لما نـــزلوا إليهم شنوا عليهم الهجوم وقتلوا معظمهم. ويقول هذا الصحابي: كنتُ من قبيلة أخرى، وكنا نسمع عن المسلمين كلامًا سيئًا بأنهم قوم لا دين لهم وأنهم يعادون عامة العرب، ولذلك كنت انضممت إلى هؤلاء المهاجمين الذين قتلوا المسلمين خدعة. فرأيت أن مسلمًا طُعن في صدره حتى انشقّ صدره، فلم يلبث أن هتف قائلا: "فُزْتُ وربِّ الكعبة"، ثم سقط صريعًا واستُشهد. فأذهلتني كلماته جدًا، وقلت في نفسي: هل هذا مجنون؟ فإن العدو طعنه وهو بعيد عن أهله ووطنه حوالي مئة وخمسين ميلاً، فبدلاً من أن يقول: واأماه ويا أبتاه ويازوجاه، يقول: فزت ورب الكعبة؟ مع أنه لم يفز، بل مات. فكيف تفوَّهَ بهذه الكلمات؟ فلا شك أنه مجنون ولا يعرف الفرق بين الفوز والفشل. ثم بعد القتال سألت أحدًا من الكافرين: ألا ترى أن هذا الشخص كان مجنونًا؟ فإنه لما طُعن في صدره صاح: فزتُ وربِّ الكعبة! بدلاً من أن يتأوه ويتوجع. فأجابني صاحبي: إن هذا هو دأب المسلمين جميعًا، فإنهم يرون الموت فوزًا! فكان لقوله وقع كبير في نفسي وقلت: إذًا لا بد أنهم

على الحق، إذ لا يضحي أي إنسان بحياته على هذا المنوال. فذهبت إلى المدينة خُفيةً، وسمعت حديث النبي ﷺ، فانشرح صدري للإسلام وعلمت أنه هو الحق. وعندها علِمتُ لماذا يضحي المسلم بحياته هكذا. إنما يضحي بحياته لأنه يرى النور، ومن شاهد النور فكيف يقاومه من لا يرى النور بل يهيم في الظلام؟ (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع)

باختصار، إن الرسول ﷺ والقرآن الكريم قد حثّا المسلمين مرارًا وتكرارًا على التفكير والتدبر. والحق أننا لا يمكن أن نفوق الأمم الأخرى بدون أن نعتاد على الفحص والتدبر، لأننا لو اكتفينا بقولنا للناس: كونوا مسلمين واقرؤوا القرآن، فسيقول الهندوس: كونوا هندوسًا واقرؤوا "الفيدا"، وسيقول السيخ: كونوا سيخًا واقرؤوا "غرنث"، وسيقول المسيحيون: كونوا مسيحيين واقرؤوا "الإنجيل". فلا يُرى بيننا وبين هذه الأمم أي فرق ولا فضل. هناك طريق وحيد لأن نتميز عن غيرنا وهو: أن نؤمن بعد الفحص والإمعان دائمًا. وإذا اعتاد الناس على تصديق أي شيء بعد التدبر والتفكير فإن المؤمن بالكتاب الحق سيزداد إيمانًا على إيمان، والمؤمن بالتعليم الباطل سيزداد كراهة لما يؤمن به. مثلاً عندما نتدبر القرآن الكريم ونعمل الفكر في تعليمه فسوف نعرف المزيد من دلائل صدقه، فنـــزداد إيمانًا على إيماننا، ولكن المسيحي كلما أعمل الفكر في دينه ضعف إيمانه به أكثر فأكثر. بالمثل كلما فكر اليهودي في التوراة ساء ظنه بها أكثر فأكثر. وكذلك كلما أمعن الهندوسي في كتابه "الفيدا" ازداد نفورًا منه. إذًا فإن التدبر والفحص سيزيد المسلمين إيمانًا على إيمان، بينما يؤدي إلى زعزعة إيمان الهندوس والمسيحيين واليهود بدينهم أكثر فأكثر.

إذًا فالتفكر والتدبر يقوي الدين والإيمان. ويمكن أن تلاحظ منافع مادية للتدبر والتفكر أيضًا، فإن المسلمين لما بدأوا إعمال الفكر والتدبر حققوا رقيًا مدهشًا. لا شك أن اللغة العربية كانت موجودة قبل الإسلام إذ كانت اللغة الأم للعرب، وكان علم التاريخ أيضًا موجودًا قبل الإسلام، ومع ذلك لم ترَ بين العرب أي نهضة في هذه المجالات، أما بعد الإسلام فحدث فيهم انقلاب مدهش، حيث قاموا

بتدوين اللغة العربية، ووضعوا القواميس وقواعد الصرف والنحو وأُسس الفقه والتاريخ. كيف حدث هذا الانقلاب يا ترى؟ إنما سببه أن المسلمين كانوا مأمورين بالتفكر والتدبر، فأعملوا الفكر فسبقوا الأمم في كل مجال، وكان بينهم كبار الصرفيين والنحاة والقضاة والمؤرخين والقادة، ولكنهم لّما تركوا التدبر والتحري والفحص وأخذ الأوروبيون في التدبر والتفكر سقط المسلمون وسبقهم الأوروبيون بشوط كبير جدًا. حينما كان المسلمون أُمة حية كان دأبهم التدبر في كل شيء، فاستنارت عقولهم بشكل مدهش، فكانوا يحلّون المعضلات دونما صعوبة. في كتب القصص للصغار في أوروبا توجد قصة شهيرة لابن أبي ليلى الذي كان قاضيًا في عهد عمر ﷺ، وتدل هذه القصة على ذكائه الخارق ومهارته المدهشة في القضاء. جاءه ذات مرة شخصان أحدهما زيّات، والآخر جزّار، وكانا يتشاجران على كيس نقود. فاهتدى ابن أبي ليلى إلى حيلة بارعة تدل على ذكائه الخارق. لقد رأى أن أحدهما زيّات والآخر جزّار، ولا يمكن أن تجتمع عندهما هذه الثروة الكبيرة فجأة، بل لا بد أنهما قد قاما بجمعها شيئًا فشيئًا، ولكن مَن صاحبها؟ فدعا بماء وأمر بتسخينه، ثم ألقى فيه النقود ليرى ما الذي يطفو على الماء: الزيت أم الشحم؟ فإذا طفا الزيت فالنقود للزيّات، وإذا طفا الشحم فهي للقصاب. ففصل بينهما بحسب هذا المبدأ.

ولم يكن قراره هذا إلا نتيجة التفكير، لأن عقله فكّر، فاهتدى لتلك الحيلة البارعة التي حسمت الأمر بينهما.

وهناك كثير من القرارات المماثلة اتخذها ابن أبي ليلى خلال قضائه، ولا تزال تُدرَّس حتى اليوم في أوروبا، وقد اشتهر ابن أبي ليلى عندهم بلقب القاضي الذكي، إذ كان سريعًا في حكمه ومصيبًا على الدوام. وليس سبب ذلك إلا عادته على التدبر وإعمال الفكر.

كان أهل الكوفة في زمن عمر ﷺ يثيرون الفتن مرة بعد أخرى، فكلما جاءهم والٍ من عنده شكوه إلى عمر، فكان يستبدله بآخر. فقال الناس لعمر: لماذا تغير ولاتك على الكوفة بشكاوي أهلها في كل مرة؟ فإنهم قوم دأبهم كثرة الشكوى

ضد كل وال. فأجاب عمر: سوف أستمر في تغيير الولاة عليهم إلى أن تنفد أعذارهم كلها. فلما كثرت شكاواهم قال عمر: سأبعث إليهم الآن واليًا لن يقدروا على إثارة الشكوى ضده. فبعث ابن أبي ليلى وهو لا يزال في التاسعة عشرة من عمره. فلما علم أهل الكوفة بأن الوالي الجديد شاب لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره فرحوا كثيرًا وقالوا: سوف نسخر منه ونهينه. فلما بلغهم مَقدَمُه جمعوا كبارهم وكوّنوا وفدًا من كبراء القوم وكبار السن ليستقبلوه خارج المدينة، ورافق الوفدَ الآلاف من عامة الناس في تظاهرة وقرروا أنه إذا جاء الوالي سألوه عن سنه ليسخروا منه. فخرجوا للقائه، ولما اقتربوا منه تقدم شيخ كبير منهم وقال: كم سنك حضرة الوالي؟! وكانوا يظنون أنه سيقول: سني تسعة عشر عامًا، فيضحك الجميع أن واليهم الجديد لم يتجاوز تسع عشرة سنة. ولكن ابن أبي ليلى كان معتادًا على التفكير والتدبر نتيجة تربية النبي ﷺ، فكان يفطن إلى حقيقة الأمور بسرعة فائقة ببركة هذه العادة. فلما سألوه عن عمره أدرك لتوّه أنهم يريدون أن يسخروا منه. فلم يقل أن عمره تسع عشرة سنة، بل قال: أيها الشيخ، إنني أكبر بعام من أسامة بن زيد الذي جعله النبي ﷺ أميرًا على جيش بعثه إلى حدود الشام، وكان فيه صحابة أجلاء مثل أبي بكر وعمر ﭫ، وكان أسامة لم يتجاوز عندها ثماني عشرة سنة. فلما سمعوا جوابه قرروا عدم إثارة أية فتنة ما دام واليًا على الكوفة. فظل يعمل واليًا عليهم مدة طويلة ولكن لم يجرؤ أحد منهم على المطالبة بتغييره.

فينبغي للمرء التدبر وإعمال الفكر دائمًا ليصل إلى النتيجة الصحيحة وإلا سقط من مقامه. فترى أن المسلمين كانوا سبّاقين في جميع المجالات العلمية، ولكنهم حين أخذوا يقولون لقد تمّ ما تمّ ولا مجال الآن للمزيد من التقدم العلمي، سقطوا إلى الحضيض، فتجدهم متخلفين عن أتباع جميع الديانات الأخرى في كافة المجالات العلمية. وعلى النقيض قال الأوروبيون: إذا كان الأولون قد أحرزوا الرقي فكيف لا نحرزه؟ سنُعمل الفكر ونشق طرقًا جديدة للرقي، فكانت النتيجة أنهم اخترعوا شتى المخترعات. فمثلاً ليس القطار الذي يسافر به الناس إلا نتيجة تفكيرهم. فقد

رأى مخترع القطار أن القدر إذا وُضع على الموقد وأخذ في الغليان بدأ غطاؤه في القفز بطاقة البخار، فأدرك نتيجة تفكيره أن البخار طاقة هائلة، ولو حُبس البخار في القدر ورُكبت فيه عجلات أخذ في الجري. فقام بالتجربة فركّب في القدر عجلات وحبس فيه البخار، فأخذ القدر يجري، فاخترع القطار على نفس المبدأ.

فترى أنه ليس في الدنيا شخص يمكنه القول إنه لم يرَ البخار يخرج من القدر قط، فكل يوم تقوم النساء بأعمال الطبخ في البيوت، كل يوم يرى الرجال غطاء القدر يقفز بقوة البخار، ولكنهم لا يكلّفون أنفسهم عناء التفكير في هذه الظاهرة. أما مخترع القطار فرآها وفكّر في السبب وراءها، فاخترع شيئًا تنتفع به اليوم الدنيا كلها. وهناك الكثير من الأمور الصغيرة الأخرى التي تؤدي إلى نتائج مذهلة. فمثلا كان "كولومبوس" قد سمع من المسلمين أن الأرض ليست مسطحة بل هي كروية الشكل – علمًا أن علم الفلك لم يكن متطورًا في ذلك الزمن، وقام المسلمون بهذا الاستنتاج نتيجة تدبُّرهم في ظاهرة خسوف القمر، حيث وجدوا أن ظل الأرض على القمر خلال الخسوف مدور، فاستنتجوا من ذلك أن الأرض كروية الشكل – فقال "كولومبوس" في نفسه: لأن الأرض مدورة، فإني سوف أُبحر من أسبانيا وأدور حول الأرض وأصِل إلى الهند. فعرض خطّته على الملكة ثم على الملك راجيًا منهما المساعدة، ثم أبحَرَ. لا شك أنه لم يصل إلى الهند ولكنه وصل إلى بلد أكبر وأغنى من الهند أعني أمريكا. (Encyclopaedia of Britanica Vol. 6 p.111: Columbus Christopher)

ما الذي كان وراء ذلك الحدث العظيم؟ إنما سببه أن المسلمين كانوا معتادين على التدبر والتفكر، ففكّروا في ظاهرة خسوف القمر، واستنتجوا أن القمر ينخسف حين تأتي الأرض في دورانها بين الشمس والقمر. ثم إنهم فكروا في الظل المدور الواقع على القمر أثناء الخسوف، فعلموا أن هذا الظل المدور هو ظل الأرض، فاستنتجوا من ذلك أن الأرض مدورة وليست مسطحة. فلما سمع "كولومبوس" برأي علماء المسلمين عن كروية الأرض استنتج من ذلك أن الأرض إذا كانت مدورة فسوف يُبحر من أسبانيا ويدور بالأرض كلها ويصل إلى الهند، لأن الدوران حول الشيء المدور ممكن، أما الشيء المسطح فالدوران حوله محال

لأنه ينتهي عند أطرافه. فكانت نتيجة تفكيره في هذه الأمور الدقيقة اكتشاف بلد جديد كبير، ذلك البلد الذي يقوم بقيادة العالم اليوم وتتطلع الدنيا كلها إليه من أجل السلام، ويظن الجميع أن هناك سبيلاً واحدًا لسلامه ألا وهو أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية في صفه. ولو أن المسلمين ظلوا ينظرون إلى القمر كما فعل مَن قبلهم، ولم يفكروا في السبب وراء الظل المدور الواقع على القمر أثناء خسوف القمر، ولو أن "كولومبوس" لم يستنتج من كروية الأرض أن بإمكانه الدوران حول الأرض كلها، لم تُكتشف الأراضي الأمريكية، ولم يتم اختراع السيارات ولا الطائرات ولا الكهرباء، ولم تظهر على خريطة الدنيا هذه القوة العظمى التي اضطر الإنجليز والفرنسيون أيضًا للدوران في فلكها. وبالمثل إن معظم المخترعات التي تم اختراعها في هذا العصر إنما هي نتيجة للتدبر والتفكر في أمور بسيطة جدًا. لقد طالعت حياة "أديسون" مخترع المخترعات الكثيرة مثل الفونوغراف والكهرباء وغيرهما، وقد كتب فيها أن كل مخترعاته ما هي إلا نتاج تفكيره في أمور بسيطة.

إذًا فالتفكر والتدبر ضروري جدًّا لرقيّ القوم. إن الشعوب التي ترفع الهتافات الحماسية ولا تعمل شيئًا، يمكن أن تملأ الدنيا ضجّة وتبثّ الرعب في الضعفاء من الولدان والنساء، ولكنها لن تقدر على إنجاز شيء في الحقيقة، اللهم إلا أن تعتاد على إعمال الفكر والتوصل إلى النتائج الصحيحة. وهذا ما نبه إليه نوح عليه السلام قومه فقال: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.. أي ليتكم ترتدعون عن توجيه الاعتراضات التافهة إلى الآخرين، وتسعون لفهم الحقيقة مستعينين بالحس الخفي الذي يمدّ الإنسان بعلم ما في باطنه من قوى وقدرات، والذي يوقظ الفطرة السليمة، فتفكروا في أنفسكم وتتخلصوا من عيوبكم، وتميزوا بين الخير والشر.

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٧﴾
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا
وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى
ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٣﴾

شرح الكلمات:

المرجومين: رجَمه: رماه بالحجارة؛ قتَله؛ قذَفه؛ لعَنه؛ شتَمه؛ هجَره؛ طرَده. (الأقرب)

المشحون: شحَن السفينة: ملأها. (الأقرب)

التفسير: لما رأى المعارضون أنهم عاجزون عن أن يتغلبوا على نوح عليه السلام بالدليل والبرهان قالوا: ليس أمامنا الآن إلا خيار واحد وهو أنك إذا لم ترتدع عما تقول فسوف نقتلك رشقًا بالحجارة. فخرّ نوح عليه السلام أمام ربه وقال: رب إن قومي كذبوني، فافتح بيني وبينهم واحمني وأصحابي من شرورهم. فاستجاب الله دعاءه، وأنجاه وأصحابه من عدوه في سفينة مشحونة، وأغرق الباقين بالطوفان. إن في هذه الواقعة آية عظيمة على عظمة الله وقوته، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ورغم أنهم لم يؤمنوا إلا أنه ثبت أن ربك عزيز ورحيم، حيث انتصر نوح عليه السلام على أعدائه، وصار أصحابه المحتقَرون أسياد العالم.

والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى قد وصف هنا سفينة نوح بلفظ "المشحون" الذي يعني المملوء، ومن الواضح أن السفينة إذا كانت مليئة بالركاب سلفًا فلا

يمكن أن يركبها المزيد من الناس، فكيف ركب نوح وأصحابه في السفينة المشحونة يا ترى؟

فاعلم أن العرب يصفون الشيء أحيانًا بما سيكون عليه في المستقبل. فمثلاً قال النبي ﷺ: مَن قتَل قتيلاً فله سَلَبُه (أبو داود: كتاب الجهاد، باب في السلب يُعطَى القاتل).. أي من قتَل في الجهاد كافرًا فهو يأخذ مال القتيل ومتاعه. فترى هنا أن النبي ﷺ قد استعمل لفظ القتيل مع أن الرجل حيٌّ لم يُقتل بعد. وبالمثل كانت السفينة ستمتلئ بنوح عليه السلام وجماعته بعد قليل، فقال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٥﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٦﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٧﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٨﴾

التفسير: وهنا أيضًا قد اعتبر الله تعالى هودًا ممّثلاً للرسل جميعًا حيث قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾.. ذلك لأن إنكار رسول واحد هو إنكار كافة الرسل في الحقيقة.

فالله تعالى يقول لقد كذّب هودًا قومُه عادٌ كما كذّب نوحًا قومه، مع أننا أخبرناهم صراحة بأنه لا بد لهم من طاعة هود بالإضافة إلى العمل بكلام الله تعالى، كما يشير إلى ذلك لفظ ﴿أَطِيعُونِ﴾.

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٩﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٠﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣١﴾ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣٢﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾
أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٥﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٦﴾

شرح الكلمات:

رِيْعٍ: الريع: التلُّ العالي؛ الطريقُ المنعرج في الجبل؛ الجبلُ المرتفع؛ وقيل: مَسيلُ الوادي من كل مكان مرتفع (الأقرب).

تعبثون: العبث: ارتكابُ أمر غير معلوم الفائدة أو ليس فيه غرضٌ صحيح لفاعله (الأقرب). فالمراد من ﴿تعبَثون﴾ أنكم تعملون أعمالاً لا فائدة فيها.

مصانع: المصانع: القرى والمباني من القصور والحصون (الأقرب).

بطشتم: بطَشه: أخَذه بالعنف وتناوَله بشدة عند الصولة (الأقرب).

جبّارين: الجبّار: كلُّ عاتٍ متمرّد (الأقرب).

التفسير: كان قوم عاد الذين بُعث إليهم هود عليه السلام مولعين بفن البناء والعمارة ولعًا خاصا، لأن أساس حضارتهم كان قائمًا على علم الهندسة والكيمياء والفلك. كان مؤسسو هذه الحضارة يرون أن الله تعالى جعل في العالم المادي الشمسَ والقمر والنجوم، فلا بد من تقليد هذا النظام للرقي، فعلى الناس أن يفكروا في النظام الشمسي ويطّلعوا على أسراره وغوامضه، ويعملوا بحسبه. كما أن الحضارة الآرية والرومانية والفارسية قد تركت تأثيرًا عميقًا على العالم المتمدن، وأقامت نظامًا جديدًا مكان النظم القديمة، كذلك قد تركت هذه الحركة البابلية التي كان مؤسسوها من قوم عاد أثرًا عميقًا على ثقافة العالم وحضارته. وبرغم أن مؤسّسي

الحضارة البابلية فقدوا السيطرة السياسية على المنطقة بعد فترة من الزمن، وحلّت محلّها شعوب أخرى، إلا أن الشعوب الغالبة عليها لم تتمكن من التحرر من الفلسفة البابلية. وبما أن هذه الحضارة موغلة في القدم فلا نجد من آثارها اليوم إلا قليلاً، بيد أن ما اكتُشف من آثارها يؤكد صدق القرآن وعظمته.

لقد وضع أساسَ هذه الحضارة البابلية قومُ عاد، وقد نالوا من الغلبة والمنعة في زمنهم ما لم يتمتع به أي قوم من الأقوام العربية. وكان مِن حملة لواء الحضارة البابلية شعبانِ: عادٌ الأولى، وهم الذين أسسوها، وقومُ ثمود الذين كانوا فرعًا من عاد وخلفوهم. وتتحدث هذه الآيات القرآنية عن عاد الأولى، حيث أخبر الله تعالى أن هودًا خاطب قومه عادًا الذين كانوا أقوى قوة في عصرهم وقال: تبنون على كل جبلٍ عمارات فخمة ومصانع كبيرة ومعامل كيميائية ضخمة، ظانين أنكم ستخلدون بها إلى الأبد؛ شأنهم شأن أوروبا وروسيا اليوم الذين يظنون أن حضارتهم ستبقى للأبد.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.. أي لقد بلغتم من القوة والمنعة أنكم حين تتغلبون على بلد تدمرون حضارته تدميرًا، وتقومون بترويج حضارتكم ومدنيتكم مكانها، ذلك أن الجبار هو من يجعل نفسه رفيعًا وغيره وضيعًا.

ومن الممكن أيضًا أن نستنبط من هذه الجملة أنهم اخترعوا في زمنهم آلات حربية مدمرة. وقد استنتج بعض المؤرخين برؤية المباني التي بنوها في الجبال أنهم كانوا قد تمكنوا من اختراع البارود والمتفجرات في ذلك العصر. وعليه فالمراد من هذه الجملة أنكم تخترعون آلات حربية مدمرة تبيدون بها الأقوام الأخرى، وتروّجون في بلادهم حضارتكم ومدنيتكم.

مجمل القول إن الحضارة البابلية قد ركزت على بناء العمارات واختراع آلات الحرب وإقامة المراصد بوجه خاص. وإن ما ورد في التوراة عن الدولة البابلية يصدّق بيان القرآن الكريم حيث جاء فيها:

"وقالوا: هلمّ نبني لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنـــزل الرب لينظر المدينةَ والبرجَ اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الرب: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلم ننـــزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض." (التكوين١١: ٤-٧)

هذه الفقرة تؤكد أن قوم عاد كانوا بارعين في بناء العمارات العالية بحسب التاريخ اليهودي، إذ قيل أن اختلاف ألسنة الناس راجع إلى كون أهل بابل بدأوا في بناء عمارة عالية لتكون علامة لهم، وكيلا يتشتتوا ولا يتفرقوا، ولكن الله تعالى أراد تشتيتهم، فجعل اختلافًا في ألسنتهم، فزالت وحدتهم وذهبت ريحهم، ولم يستطيعوا رفع هذا البناء.

إن ما ذكرته التوراة هنا من سبب وراء اختلاف ألسنة الناس في العالم إنما هو قصة فارغة فحسب، بيد أن هذه الفقرة تشكّل شهادة تاريخية على أن أهل بابل كانت لهم يد طولى في بناء المباني الشاهقة، فكانوا يبنون عمارات عالية يخيل للرائي إليها أنها تحتكّ بالسماء. وبالفعل نجد في الجزيرة العربية حتى اليوم مباني قديمة عالية وضخمة. وقد رأيت بأم عيني في اليمن - عندما توقفت هناك خلال سفري إلى أوروبا - مباني عالية جدًا مبنية على تلال عالية على بعد عدة أميال من مدينة عدن، وكان بها حياض ويقول الناس إنها مما بناه قوم عاد.

لم يزل الأوروبيون ينكرون وجود قوم عاد أصلاً، زاعمين أنه لم يوجد في التاريخ قوم بهذا الاسم، ولكنهم عثروا على آثار قوم عاد قبل حوالي نصف قرن من الزمان، فأخذوا يعترفون بوجودهم. بل لقد قال المؤرخ المسيحي الشهير "جرجي زيدان" في كتابه "العرب قبل الإسلام": لم تقدر مئات الصفحات من كتب المؤرخين أن تُمِدّ الناس بالمعلومات التي قدّمها القرآن الكريم عن قوم عاد في كلمات وجيزة.

يخبرنا القرآن الكريم أن عادًا خلوا بعد قوم نوح عليه السلام مباشرة حيث قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾(الأعراف:٧٠)، ولذلك قد

تحدّث القرآن الكريم في هذه السورة أوّلاً عن موسى عليه السلام الذي كانت نبوءاته تنبئ عن بعثة محمد رسول الله ﷺ. ثم تحدَّثَ عن إبراهيم عليه السلام الذي بدأت منه السلسلة الموسوية. ثم تحدث عن نوح لأن إبراهيم كان تابعًا لشريعة نوح، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤)، ولذلك ذكر الله بعد إبراهيم مؤسسَ شريعته. ثم بعد نوح عليه السلام ذكر الله تعالى هودًا الذي بُعث إلى قوم عاد، لأن عادًا خلفوا قوم نوح.

يحذر هود عليه السلام قومه بأنكم تبنون عمارات شاهقة على التلال المرتفعة، وتدمرون الشعوب الأخرى ظلمًا لتخلد حضارتكم، ولكن كل هذا عبث، لأن الله تعالى سيقضي عليكم رغم وجود آثاركم الظاهرة، ولن يُكتب الخلود إلا للتقوى. إنكم تبنون مصانع ومراصد ظانّين أنها تخلّدكم، وتظلمون الضعفاء مغترّين برقيكم المادي، ولكن لن تنفعكم هذه العزة الزائفة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.. أي إذا كنتم تريدون الخلود فعليكم بتقوى الله وطاعتي.

ثم يقول هود عليه السلام: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.. أي أن هذا العلم الذي تزدهرون بسببه إنما هو هبة ربانية، وأن كل الأسباب التي تستعينون بها أيضًا عطاء رباني، وكذلك الأنعام والأولاد والبساتين والعيون، فإذا لم ترجعوا إلى الله تعالى فسوف ننـــزعها منكم في نهاية المطاف.

قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ
﴿١٣٧﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٩﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤١﴾

التفسير: لما نصحهم هود ﷺ بالعودة إلى الله تعالى قالوا: سواء علينا أوَعظتنا أم لم تعظنا لن نؤمن بك، إذ لم يزل البعض منذ قديم الزمان يعظون الآخرين قائلين: لا تجمعوا أموالا طائلة، ولا تزهوا بثرواتكم، مع ذلك لم يحصل شيء بل لا يزال الناس مستمرين في أعمالهم الدنيوية. سنبني المصانع ونجمع الأموال ولن يصيبنا زوال، لذا فسواء دعوتنا إلى ما تريد أم لم تدعُ فلن نرضى بما تقول.

الواقع أن المرء إذا ازداد بغيًا وتمردًا فيصبح توجيهه إلى الصلاح أمرًا غاية في الصعوبة. ومع ذلك يأمرنا القرآن الكريم ويقول: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾(الأعلى:١٠).. أي من واجبك أن تستمر في النصح والوعظ لأن ذلك ينفع الناس حتمًا. لذا فمهما بلغ أحد في العداء والمعارضة فعلينا ألا نقنط منه أبدًا، لأن القلوب بيد الله تعالى. علينا أن نوصل قول الله ورسوله إلى آذان الناس مرة بعد أخرى، وسيأتي يوم يزول فيه صدأ قلوبهم فتنشرح لقبول الهدى. ورد في كتب الأولياء أن شخصًا كان يؤذي المسلمين إيذاء شديدًا، وكان لا يرتدع عن إيذائهم رغم نصح الناس حتى تضايق منه العديد من جيرانه وهاجروا من ذلك الحي. فذهب أحد أولياء الله تعالى من قريته إلى الحج، فوجده يطوف بالكعبة. فسأله في حيرة: ماذا تفعل هنا؟! كان دأبك سماع الموسيقى وشرب الخمر طوال اليوم، فكيف جئت لطواف بيت الله؟! فأجاب الرجل: إن لكل شيء موعدًا. لقد أسمعتموني القرآن والحديث، ولم أتأثر بهما شيئًا، ولكني بينما أنا في حلقة ندمائي ذات يوم وأباريق الخمر مصفوفة أمامنا حتى تناهى إلى سمعي صوت شخص غريب يمر بالشارع وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾. فظننت أن هذه الآية قد نزلت من السماء حالاً من أجلي، ففاضت عيناي، فقلت لرفاقي: إليكم عني واخرجوا من عندي. وكسرت أدوات الموسيقى، وتبتُ وجئت إلى الحج كما ترى. لقد أسمعتموني القرآن كله من قبل ولكن بدون جدوى، ولكن لما حان وقت هدايتي فإن آية واحدة قد قلبتني رأسًا على عقب.

إذًا فإن القلوب تتقلب أحيانًا بشكل مذهل. ففي زمن الرسول ﷺ ضربت امرأةٌ امرأةً أخرى وكسرت سنها، وكان العقاب بحسب الشريعة أن تُكسَر سنها قصاصًا. فرُفعت القضية إلى الرسول ﷺ، وترافع أبو هريرة◈ من جانب المعتدية، فقال يا رسول الله ﷺ: لا شك أن عقابها أن يكسر سنها قصاصًا، ولكني أرجو الطرف الآخر أن يعفو عنها منًّا عليها. فقال النبي ﷺ لأقارب التي كُسرت سنها: لا شك أن الشريعة تمنحها حق القصاص، ولكن لو عفوتم لكان خيرًا لكم. ولكنهم لم يرضوا بذلك وأصروا على كسر سن المعتدية قصاصًا. فتحمس أبو هريرة وقال: والله لن يُكسَر سن قريبتي هذه. فتأثّر أقارب المرأة وقالوا لرسول الله إننا نعفو عن الجانية، فقال النبي ﷺ: "رُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسمَ على الله لأبرَّه".

فترى أن هذا الصحابي رضي الله عنه حلف بالله تعالى متحمسًا أن سنّ قريبته لن تُكسَر، فتغيرت قلوب الطرف الآخر فجأةً وتنازلوا عن حقهم، مع أنهم رفضوا من قبل شفاعة النبي ﷺ في حقها أيضًا.

إذًا فعلى المؤمنين أن يدركوا أهمية هذه الظاهرة فلا يبرحوا في نصح بعضهم بعضًا، ولا يظنوا أن أحدًا لا يمكن إصلاحه. ولو سلمنا أن إصلاحه محال فإن وعظنا إياه سيؤدي إلى إصلاح أنفسنا على الأقل. وعلى العموم لا يخلو التذكير من الفائدة. فعلينا بالنصح والوعظ بيننا وكذلك بين الآخرين. فكلما جمع الإخوةَ

◈ هذا سهو، لأن هذه الصحابية كانت قريبة لأنس بن النضر لا لأبي هريرة - رضي الله عنهما، ونص الرواية كالآتي:

حَدَّثَني عَبْدُ اللهِ بْنُ مُنِير سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ بَكْرٍ السَّهْمِيَّ حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الأَرْشَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلاَّ الْقِصَاصَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ". فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ". (البخاري: كتاب التفسير، باب يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص) (المترجم)

مجلسٌ فلينصح بعضهم بعضًا بالصدق وحسن المعاملة والعيش في المحبة والوئام وتجنُّب الشجار والسباب. واعلموا أن قومًا إذا تركوا الوعظ والنصح فيما بينهم وقعت أجيالهم في أخطاء كثيرة، ذلك لأن الكبار يكونون قد خاضوا حروبًا كثيرة ضد الشيطان، ويكونون متحلين بالصلاح والورع، ولكن لا تكون للأجيال الصاعدة أي خبرة بحرب الشيطان، فيقتحم عليهم بسهولة. لم يذكر الله تعالى قصة آدم والشيطان إلا ليحذرنا أن قليلاً من الغفلة يؤدي إلى خسائر فادحة. فإذا كان الشيطان قد تمكن من خداع آدم رغم أنه قد حاربه من قبل زمنًا طويلاً، فكم بالحري أن يخدع الشيطان من لم يخض أي حرب ضده. والحق أن آدم لم يخدعه الشيطان إلا لأنه جاءه متخفيًا بعباءة الدين، فظن آدم أن هذا قد أصلح نفسه الآن، فتصالح معه، فكانت النتيجة مدمرة. أما إذا جاء الشيطان في زي إنسان صالح إلى شخص غير خبير بالحرب ضده فلا بد أن ينخدع منه بسرعة. وكما قلت لم يذكر الله تعالى هذه القصة في القرآن الكريم إلا ليبيّن أن آدم عليه السلام طالما انخدع بالشيطان، فكيف يطمئن من الشيطان قوم لا علم لهم بمكائده؟ فلكي نحمي أنفسنا وأجيالنا من هجمات الشيطان قد أمرنا الإسلام بالقيام بالنصح والوعظ فيما بيننا دائمًا، وأن نبلغ رسالة الله إلى الآخرين أيضًا، كي ييأس الشيطان من إغواء ذرية آدم للأبد.

مجمل القول إن عادًا لم يُصغوا لنصائح نبيِّهم هود عليه السلام، وكذّبوه، فأهلكهم الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي أن عادًا أرادوا أن يخلفوا وراءهم أثرهم الخالد من خلال العمارات الضخمة، ولكنا تركنا لهم أثرًا خالدًا من خلال تدمير مدنهم. بيد أن هذه الآية ما كانت لتنفعهم إذ كانوا قد هلكوا وبادوا وصاروا آية عبرة لمن بعدهم.

كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤٢﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٤﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٤٥﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٦﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٧﴾ فِي جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٤٨﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخۡلٍ طَلۡعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٩﴾ وَتَنۡحِتُونَ
مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٥٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥١﴾
وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥٢﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٣﴾

شرح الكلمات:

طَلْعُها: الطلع من النخل: شيءٌ يخرج كأنه نعلان مُطْبَقان. (الأقرب)

هضيم: أي داخلَ بعضها في بعض كأنما شُدِخَ. (الأقرب)

تنحتون: نحَت الحجرَ: سوّاه وأصلحَه. ونحَت الجبل: حفَره. (الأقرب)

فارهين: جمعُ فاره، والفاره: الحاذقُ بالشيء. (الأقرب)

التفسير: يخبرنا الله تعالى أن قوم ثمود جاؤوا بعد قوم عاد، فبعث الله فيهم نبيه صالحًا عليه السلام، فنصحهم بتقوى الله موضحًا لهم أنه لا يريد منهم على ذلك أجرًا، وإنما أجره على الله تعالى. وقال لهم: إن الرقي المادي الذي تفرحون به لن يدوم، ولن يبقى ما تملكون من بساتين وعيون وزروع ونخيل ذات طلع متداخل بعضها في بعض. إنكم تنحتون من الجبال بيوتًا وتتباهون بذلك، ولكن هذا ليس سبيل العزة

أبدًا، إنما العزة في تقوى الله تعالى. فاتقوا الله وأطيعوني ولا تتبعوا الذين يتجاوزون الحدود، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.

يتضح من القرآن الكريم أن قوم ثمود خلفوا قوم عاد، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾(الأعراف:٧٥). ويقول أبو إسماعيل في كتابه "فتوح الشام" إن قوم ثمود كانوا منتشرين ما بين المدينة السورية "بُصرى" إلى "عدن" في اليمن، وكانوا حاكمين على هذه المنطقة.

وقد جاء ذكر ثمود في التواريخ اليونانية أيضًا حيث ورد فيها أن زمنهم كان قريبًا من زمن المسيح الْكَلِيْلاً، وكان مركزهم "الحِجْر" التي كانت عاصمة لهم - وكانت الحِجر تقع بين المدينة المنورة وتبوك - وكانت لهم قوة ومنعة في هذه المنطقة.

ويتضح من قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أن بلاد قوم ثمود كانت بلاد عيون وبساتين وزروع ونخل جيدة. وأما قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ فيوضح أن القوم كانوا يجيدون النحت. وبالفعل تكشف آثارهم أنهم كانوا يحفرون الجبال، ويقيمون داخلها مدنًا وقرى. وكانوا ينحتون في الجبال قصورًا غريبة. ولكن هذا لا يعني أنهم كانوا يعيشون في الجبال فقط، ولم تكن لهم بيوت أخرى، وإنما هو إشارة إلى مبانيهم الخاصة الدالة على حضارتهم الراقية. كما أن حفر البيوت في الجبال تمثّل إشارة إلى أن القوم كانوا يقضون جزءًا من السنة في الجبال للاستجمام والاصطياف مطمئنين ولم يكن أحد يجرؤ على شنّ غارة على بلادهم.

لقد كفر هؤلاء القوم أيضًا بنبيّهم صالح الْكَلِيْلاً ولم يُصغوا إلى نُصحه، وما ردّوا به على نبيهم مذكور في الآيات التالية.

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٤﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا
فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ
لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ
فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٧﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٨﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ
أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

شرح الكلمات:

عقَروها: عقَره: جرَحه؛ نَحَره؛ وعقَر الإبلَ: قطَع قوائمها بالسيف (الأقرب).

التفسير: لما وعظهم صالح عليه السلام قالوا: يا صالح إننا نرى أن أحدًا يُطعِمك.. أي أنك تتلقى الرشوة من قبل بعض أعدائنا لتتآمر علينا.

لقد أُثير هذا الاعتراض ضد كل نبي في كل عصر، فمثلاً اتهم الكافرون نبينا ﷺ بأن قومًا آخرين يعينونه، وقد اتهم المعارضون مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية أيضًا بأن الإنجليز أعطوه المال وأقاموه لمحاربة المسلمين.

أما قولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا... الخ﴾ فيعني أنه لا فضل لك علينا، إذ لست إلا بشرًا كأي واحد منا. فإذا كان لك علينا فضل، وإذا كنت صادقًا في دعواك، فأْتنا بما عندك من آية. فأجابهم صالح عليه السلام: حسنًا، هذه ناقتي قد جعلها الله تعالى آية لاختباركم. عندما تجتمعون على الماء تعيثون الفساد، ولكن من الآن فصاعدًا ستكون لناقتي نوبة لشرب الماء وتكون لكم ولأنعامكم نوبة في وقت آخر، فلا تتعرضوا لناقتي بأذى وإلا فسوف يأخذكم عذاب يوم عظيم. ولكنهم قطعوا قوائم الناقة ثم أصبحوا نادمين.

يقول المفسرون في تفسير هذه الآيات إن ناقة صالح عليه السلام كانت ذات مزايا خصوصية، بل قد نسج بعضهم حولها قصصًا غريبة، حيث يقولون إن القوم أتوا صالحًا وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخلق ناقة من الجبل. فدعا الله تعالى، فخرجت الناقة من الجبل بل ولدت مِن توِّها ولدًا بحجمها (الدر المنثور: سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا... إلى قوله تعالى: ولكن لا تحبون الناصحين﴾). وكل هذه القصص ترهات لا علاقة لها بالقرآن الكريم. فإن القرآن الكريم لا يعتبر ولادة هذه الناقة آية إنما يعتبر حُريتها في التنقل هنا وهناك آيةً حيث حذرهم صالح عليه السلام أنهم لو آذوا ناقته لأخذهم العذاب. وليس ذلك لأن الناقة في حد ذاتها كانت ذات أهمية، بل لأن صالحًا عليه السلام كان يخرج عليها في البلاد في رحلاته التبليغية. لم يكن في ذلك الزمن سيارة ولا قطار ولا طائرة، وكانت الناقة هي الوسيلة الوحيدة للسفر، فكان صالح عليه السلام يخرج على ناقته للدعوة والتبليغ، وكان معارضوه غير راضين بجهوده التبليغية، فكان من المحتم أن يعيقوا رحلاته ويمنعوه من التنقل من هنا إلى هناك من أجل التبليغ. فلما تجاوزوا الحد في شرورهم جعل الله تعالى الناقة آية لهم، وقال لهم دعوها تتنقل بصالح حيثما شاء ولا تُعيقوا جهوده التبليغية، وإلا سيأخذكم العذاب. فاعتبروا تحذيره ضربًا من الخبل والجنون، وازدادوا بغيًا وطغيانًا، وقطعوا قوائم الناقة. وكأنهم قد تحدّوا الله تعالى وقالوا لن نسمح لصالح برفع اسمه تعالى في أرضنا. فلما أرادوا إغلاق أبواب بلادهم في وجه الله تعالى أغلقَ أبوابها في وجوههم، وضربهم بسيف قهره وعذابه. لا شك أنهم عندما رأوا العذاب أصبحوا نادمين، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.. أي أن في هذه الواقعة آية عظيمة تمثّل درسًا هامًّا للناس بأن الذين يعيقون طريق الجماعات الإلهية ويمنعونها عن الدعوة والتبليغ ورفعِ اسم الله تعالى يصبحون عرضةً لسخط الله وقهره. بيد أن هذا الدرس كان عبرة فقط للذين أتوا فيما بعد، أما قوم صالح فأكثرهم لم يؤمنوا به، بيد أنهم قد أكدوا بهلاكهم كون الله تعالى عزيزًا ورحيمًا. لقد أرادوا أن يكون صالح من المغلوبين، ولكن الغلبة كانت لله ولرسوله. لقد

أرادوا أن تفشل جهوده الدعوية، فلا ينتشر اسم الله ورسوله في الأرض، ولكن الله الرحيم بارك في جهود نبيه، فتكونت بأنفاسه القدسية جماعةٌ أشعل أفرادها قناديل نور الله في صدورهم، فصاروا هداةً للإنسانية الضالة إلى الحق.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٦﴾
وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
عَادُونَ ﴿١٦٧﴾

التفسير: هنا أيضًا يقول الله تعالى إن قوم لوط كذّبوا المرسلين، وهذا إشارة إلى أن لوطًا عليه السلام كان - ككل نبي - ممثلاً عن الرسل كافة، وكان إنكاره بمثابة إنكارهم جميعًا.

قال لوط عليه السلام لقومه لقد جئتكم من الله تعالى كرسول أمين، فاتقوا الله وأطيعوني لتحظوا بالنجاة. ولا أسألكم على ذلك أجرًا، إنما أجري على الله رب العالمين. لقد جئتكم لأعظكم بترك السيئات والعمل بأحكام الله تعالى. وإن من أفظع سيئاتكم أنكم تمارسون الشذوذ مع الذكور، معرضين عما شرع الله لكم من علاقات بين الرجل والمرأة إشباعًا للرغبة الجنسية ولخلق المودة والألفة. وتصرُّفكم هذا دليل على أنكم تخالفون الفطرة الإنسانية.

قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٩﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهۡلِى مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٧٠﴾

شرح الكلمات:

القالين: قلَى فلانًا: أبغضَه وكرِهه غايةَ الكراهة فترَكه (الأقرب).

التفسير: فتضايقَ القوم وهدّدوا نبيهم قائلين: لئن لم تنته، يا لوط، سوف نطردك من أرضنا. فقال: افعلوا ما شئتم، فإنني أكره أعمالكم السيئة كراهة شديدة، وأدعو الله تعالى أن يُنجيني وأهلي منها.

لقد علّمنا الله تعالى هنا درسين: أوّلهما أن الدعاء للنجاة من العمل السيّئ أهمّ من الدعاء للنجاة من العذاب. وثانيهما: أن على المرء أن يكره الأعمال السيئة دائمًا وليس أن يكره صاحبها ويعاديه. هذا الأمر هامّ جدًّا لإصلاح الأخلاق، وقد ركز عليه الإسلام تركيزًا خاصًّا وفرّق بين السيئة ومرتكبها. إنه أمرنا أن نقضي على السيئة، ولكنه لم يقل أن نقضي على مرتكبها، وإنما جعل بين الأمرين حدًا فاصلاً، ونهانا عن تجاوز هذا الحد. يقول الله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(المائدة:٣).. أي ينبغي ألا يُعميكم عداء قوم فلا تُنصفوا إليهم وتظلموهم. كلا، بل من واجبكم أن تلتزموا بالعدل والإنصاف في حقهم أيضًا، وإلا فتسقطون من مقام التقوى. ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾(الممتحنة:٩). إذًا فالإسلام يوصينا أنكم إذا رأيتم من فرد أو قوم ما يتنافى مع الصلاح والورع فعليكم أن تَكرهوا فعله هذا، ولكن يجب أن لا يمنعكم هذا عن إسداء المعروف إليه، إذ لو ماتت هذه العاطفة فيكم أصبحتم غافلين عن إصلاحه أيضًا. وكان لوط عليه السلام

متحلّيًا بهذا الخلق العظيم، فقال لقومه إني أسعى جاهدًا لإصلاحكم ولكني أكره أعمالكم السيئة كراهة شديدة، حتى إني أدعو الله ﷻ أن يحفظني وأهلي، الماديين منهم والروحانيين، من سيئاتكم.

الغريب أن القرآن الكريم قد أثنى على سموّ أخلاق لوط عليه السلام حيث قال الله ﷻ عنه: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾(الأنبياء:٧٦)، ولكن التوراة تتهمه بتهمة شنيعة للغاية بأنه زنى بابنتيه (التكوين ١٩: ٣٠-٣٨)، بل تزعم التوراة أن إحداهما ولدتْ، نتيجة لهذه العلاقة غير الشرعية، ابنًا اسمه "موآب" الذي صار أبًا لقبيلة "الموآبيين"، بينما ولدت الأخرى ولدًا اسمه "بن عمي" الذي كان أبًا لقبيلة "بني عمّون". وكأن التوراة تتهم لوطًا عليه السلام وبابنتيه بالزنى من ناحية، ومن ناحية أخرى تقول إن الله ﷻ أنعم على هذين الابنين غير الشرعيين للوط بفضل كبير وبركة عظيمة فأخرج منهما ذرية كثيرة حتى صار كل واحد منهما مؤسس قبيلة كبيرة! هل من الممكن، يا ترى، أن يبارك الله ﷻ في نسل لوط هذه البركة العظيمة لو كان كما وصمته التوراة؟ كلا، بل الحق أن أحد بيانَي التوراة المذكورَين أعلاه يمثّل شهادة عَملية من الله ﷻ على بطلان هذه التهمة البشعة. ثم إن القرآن الكريم الذي نــزل ككتاب مبين جاء وصرح أن لوطًا كان من عباد الله المقربين وكان منــزهًا عن جميع السيئات والمنكرات التي كان قومه منغمسين فيها، بل كان يدعو الله ﷻ أن يعينه ويحميه وأهله مما يعمل قومه من المساوئ والمنكرات.

فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ
دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ
ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾

شرح الكلمات:

عجوزًا: العجوز: المرأة المسنّة لعجزها عن أكثر الأمور (الأقرب).

الغابرين: غبر: مكَث وبقِي. والغِبْرُ: الحقد (الأقرب). فالغابر: المتخلف؛ الحاقد.

التفسير: فاستجاب الله ﷻ دعاء لوط ﷺ ونجّاه وأهله، إلا زوجته العجوز التي حل بها العذاب إذ كانت من الغابرين. وكما سبق في شرح الكلمات أن الغبر يعني الحقد أيضًا، وعليه فقوله ﷻ: ﴿إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ يعني أن زوجة لوط ﷺ كانت تضمر الحقد تجاه تعاليمه وتعاديه، فلما جاء العذاب كانت من الهالكين.

تقول التوراة من جهة إن زوجته كانت من الناجين، بل تقول إن الملائكة أمسكوا بيد لوط وزوجته وابنتيه وأخرجوهم من المدينة لأن الله ﷻ تفضَّل عليه (التكوين١٩: ١٦)، ومن جهة أخرى تقول التوراة إن زوجته نظرت إلى الوراء أثناء خروجها من القرية فصارت عمودَ مِلحٍ (التكوين ١٩: ٢٦).

وأقول أوّلاً: فيما يتعلق بتحوُّل إنسان حي إلى عمود مِلح نتيجة نظره إلى الوراء فهو أمرٌ لا يقبله عاقل إلا أصحاب التوراة. وثانيًا: إذا كان الله ﷻ يريد إنقاذ زوجة لوط من العذاب فلماذا حوّلها إلى عمود ملح؟ وثالثًا: ما دام الله ﷻ كان يعلم أن زوجة لوط ستهلك بعد خروجها من القرية بعدة خطوات فلماذا أخرجها من القرية أصلاً؟ إن هذه البيانات المتناقضة تدل صراحة على أن الأيدي البشرية قد عبثت بالتوراة مما جعل روايتها لا تصلح للثقة والاعتبار، وإنما الحق ما بيّنه القرآن الكريم بأن زوجة لوط ﷺ كانت من معارضيه، ولذلك لما جاء العذاب أهلكها أيضًا. يقول الله ﷻ في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾(الحِجر:٧٥).. أي جاء زلزال عنيف جعَل الأرض الحجرية تتطاير إلى السماء ثم تسقط عليهم. إذًا فنــزل عليهم مطر الحجارة التي أهلكتهم بدلاً من أن ينــزل عليهم مطر الماء. وهذه الظاهرة تُشاهَد عند الزلازل العنيفة جدًا، حيث تتطاير قطع الأرض إلى السماء، ثم تسقط ثانية. لقد كانت هذه أيضًا آية، ولكنها كانت لمن بعدهم، أما قوم لوط ﷺ فلم يؤمنوا.

يتضح من التوراة أن لوطًا كان ابن هاران الذي كان أخًا لإبراهيم عليه السلام، وكان من مدينة "أُور"، وهاجرَ مع إبراهيم إلى فلسطين، ثم هاجر من عند إبراهيم، واستوطن في قرية "سدوم". (تكوين ١١: ٢٧، ٣١، تكوين: ١٣: ١٢)

لقد حذّر الله تعالى أهل مكة بذكر هذه الواقعة أنهم إذا لم يرتدعوا عن شرورهم فسوف يفعل بهم ما فعل بأعداء لوط عليه السلام. وبالفعل أُمطر أهل مكة بالحجارة كما أُمطر قوم لوط، وذلك أثناء معركة بدر حين جرت ريح كآية من الله تعالى، فوقعت الرمال والحصى في عيون الكافرين، فلم يقدروا على الصمود أمام المسلمين (تاريخ الخميس: المجلد الأول: غزوة بدر الكبرى)، فوقع صناديدهم صرعى، وكُسرتْ شوكة قريش وذهبت ريحها. ثم إن أهل مكة أُمطروا بالحجارة مطرًا معنويًا، فكما أن الله تعالى قلب قرية "سدوم" وجعَل عالِيَها سافِلَها، كذلك جُعل أعزّةُ أهل مكة أذلّةً، ودُمّرت أُسرها الكبيرة، ولم يبق منها إلا الذين استعاذوا بكنف النبي صلى الله عليه وسلم.

كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٨٠﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨١﴾

التفسير: بعد الحديث عن قوم لوط عليه السلام يذكر الله تعالى أصحاب الأيكة، ويخبر أنهم أيضًا كذبوا الرسل.

والأيك هي "الشجر الكثير الملتف، وقيل: الغيضة تُنبت السِّدْر والأراك، والواحدة: أيكةٌ. ويقال: فلانٌ فرعٌ مِن أيكة المجد" أي أنه من أسرة كبيرة (الأقرب). وعليه فكلمة "أصحاب الأيكة" قد تكون إشارة إلى منطقة كان أهلها يعتبرون أنفسهم من أسرة كبيرة. وحيث إن الله تعالى قال هنا ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا

تَتَّقُونَ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾(هود:٨٥)، فثبت أن المراد من "أصحاب الأيكة" قوم شعيب الذي كان من أهل "مَدْيَن"، التي كانت من مدن العرب، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل من العبرانيين.

وقد يكون المراد من قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أن قوم شعيب، الذين كانت عندهم غابة كثيفة، قاموا بتكذيب الرسل.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل كانت بالقرب من "مدين" غابة يكثر فيها شجر السِّدْر والأراك؟

فاعلم أن "برتن" قد قال في كتابه "Gold mines of Medyen" نقلاً عن بعض الجغرافيين اليونانيين أنه لا يوجد وراء المنطقة الواقعة وراء خليج العقبة إلا الأعشاب أو الأشجار التي تبلغ قامة الإنسان، وتكثر فيها قطعان الإبل الوحشية والأيل، وأيضًا قطعان المواشي من معز وضأن. (أرض القرآن ج ٢ ص ٢٣-٢٤)

لقد ثبت من هذه الشهادة التاريخية وجود غابة قريبًا من "مدين" الواقعة عند خليج العقبة وقد وُجدت فيها أشجار كثيرة بقامة الإنسان، ومن المعروف أن أشجار السدْر والأَراك هي التي تبلغ هذا الطول. ووجود الإبل الوحشية في تلك الغابة أيضًا دليل على وجود شجر السدر والأراك فيها لأن الإبل تعيش على هذا النوع من الشجر. ووجود قطعان المعز والضأن فيها دليل على أن أهل "مدين" كانوا يرعون مواشيهم في تلك الغابة.

كان هؤلاء القوم من نسل مدين بن إبراهيم عليه السلام من زوجته قطورة (التكوين ٢٥: ١-٤). فسُمُّوا باسمه، وسمّوا مدينتهم أيضًا باسمه.

وقد ذكر القرآن الكريم كلاً من شعب "مدين" وأيضًا مدينة "مدين"، فقال عن قوم "مدين": ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾(هود: ٨٥)، وقال عن مدينة "مدين": ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾(التوبة:٧٠). أي ألم يأتك نبأ أهل مدين والقرى التي قُلّبت نتيجة العذاب.. أي قرى قوم لوط عليه السلام.

لقد قال شعيب عليه السلام أيضًا لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فترى أن القرآن الكريم يخبرنا هنا وفي

الآيات السابقة أن كل واحد من الرسل قال لقومه: ﴿أَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. وهذا يبين الفرق بين الحكومة الإلهية والحكومة المادية. ذلك لأن الحكام الماديين يأخذون الأجر ممن يأمرونهم بطاعتهم، وعلى النقيض نجد كل رسول يقول لقومه أطيعوني وما أسألكم عليه من أجر. مما يدل على أن الطاعة التي نُؤمر بها من قبل الله ﷻ ليست طاعة جبرية، بل الحقيقة أن الرسول يكون خادمًا للناس رغم أنه يأمرهم بطاعته. وحيث إن الخادم يأخذ الأجرة على خدمته، فلذلك نجد كل واحد من الرسل يقول هنا لا أسألكم على طاعتي من أجر.. أي برغم أنهم سيطيعونه إلا أنه سيكون خادمًا لهم في حقيقة الأمر. إذًا فطاعتهم عجيبة وخدمته أيضًا عجيبة، حيث يطيعونه في الظاهر، ولكنه يكون خادمًا لهم في الواقع. إنه يقوم بخدمتهم بكل ما في وسعه ومع ذلك لا يتقاضى أي أجر منهم.

بيد أن الدرجة التي منحها الله ﷻ نبيَّنا ﷺ أرفع من ذلك حيث أمَره: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(الشورى:٢٤). يظن البعض خطأً أن النبي ﷺ يعلن هنا للناس: إني لا أريد منكم أجرًا لنفسي نظير ما أسديه إليكم من أيادٍ ومنن، بيد أني أرجوكم أن تعاملوا أقاربي بالحسنى (القرطبي). ولكن هذا المعنى باطل لأن الآية ستعني عندها: إني لا أسألكم أي أجر إلا أجرًا واحدًا وهو أن تحسنوا إلى أقاربي. مع أن الآيات القرآنية الأخرى تصرح أن النبي ﷺ قد أعلن للناس أنه لا يريد منهم أي أجر مادي، بل كل ما يريده منهم هو الإيمان فقط. وليس هذا فقط بل قال الله ﷻ لرسوله ﷺ في موضع آخر: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾(سبأ:٤٨). والواضح أنه ليس في قول النبي ﷺ للناس بأن يؤمنوا به ويطيعوه أي منفعة شخصية له، لأن الإيمان أو الطاعة لا ينفع إلا صاحبه. فالأجر الذي تم نفيه هنا وفي آية أخرى أيضًا إنما هو من قبيل الأجر المادي الذي كان من الممكن أن يناله النبي ﷺ أو عائلته. فما دام النبي ﷺ قد نفى في موضع آخر تلقّي أي أجر بأي شكل كان، وما دام الأنبياء الآخرون أيضًا أعلنوا أنهم لا يريدون من أتباعهم أي أجر، فلا يصح تفسير قوله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ بما فيه منفعة لعائلة النبي ﷺ، لأن هذا يخالف ما ورد في آية أخرى أولاً، وثانيًا ليس فيه ما يدل على

فضل النبي ﷺ على الأنبياء السابقين، بل على العكس فيه منقصة له ﷺ، إذ أعلن الله ﷻ على لسان الأنبياء السابقين أنهم قد خدموا الإنسانية لوجه الله ﷻ خالصة دون أن يأملوا أو يتقاضوا أي أجر لأنفسهم أو لأقاربهم؛ فكيف يصح إذًا القول إن النبي ﷺ قال - حاشا لله - إني لا أسألكم أي أجر بيد أني أقول لكم - خلافًا لسنة الأنبياء السابقين - أن تهتمّوا بأقاربي وتخصّوهم بالحب والعطف؟! فثبت جليًا أن هذا المعنى يمثّل إساءة للنبي ﷺ ونيلاً منه.

ثم إننا نرى أن الاستثناء بعد النفي يعني أن المستثنى يكون خارجًا من حكم المستثنى منه. فمثلاً، لو قلت: ليس عندي أية أوراق نقدية إلا فئة الخمس جنيهات، لكان معنى ذلك أنك تملك الأوراق من فئة الخمس جنيهات حتمًا. وعليه فستعني هذه الفقرة القرآنية: لا أريد منكم أي أجر لنفسي، ولكني أريد منكم أن تخصّوا أقاربي بالحب والإحسان. ولا جرم أن هذا المعنى يمثّل إساءة كبيرة إلى النبي ﷺ.

الواقع: (١) أننا لو فسّرنا ﴿المودة﴾ بمعنى المعاملة المادية الحسنة لكان معنى الجملة الكاملة: أيها الناس، لا أريد منكم أن تعاملوني معاملة حسنة ماديا غير أني أريد أن تخصّوا أقاربي بمعاملة مادية حسنة. (٢)- ولو فسّرنا ﴿المودة﴾ بمعنى العلاقة الروحانية لكان معنى الجملة: أيها الناس، لا أريد منكم أن تنشئوا معي أي علاقة روحانية، بيد أني أريد أن تنشئوا علاقتكم الروحانية مع أقاربي. والظاهر أن كلا المعنيين باطل، لأن المعنى الأول يعني أن النبي ﷺ يسأل أمته شيئًا، وهذا يحطّ من مكانته إزاء الأنبياء الآخرين، أما المعنى الثاني فهو كفر بواح لأنه يعني قطع الصلة الروحانية عن النبي ﷺ، مع أن إنشاء الصلة الروحانية به ﷺ هو السبيل إلى الإيمان، حيث صرح الله ﷻ لرسوله في موضع آخر أن هؤلاء لن يكونوا مؤمنين ما لم تكن أحبَّ إليهم من أزواجهم وأبنائهم وإخوانهم وأقاربهم (التوبة:٢٤). فالنبي ﷺ يعلن هنا أننا لا بد لنا من مودته ومحبته بحيث نترك من أجله ﷺ آباءنا وأزواجنا وأبناءنا وإخواننا وأصدقاءنا كلهم إذا اقتضى الأمر. إذًا فمثل هذه المودة من أجل النبي ﷺ ليست ثابتة فقط، بل نحن مأمورون بها بحسب القرآن الكريم، حيث أوضح الله ﷻ أنكم لن تكونوا مؤمنين ما لم يكن الرسول ﷺ أحب إليكم من كل قريب وعزيز.

إذًا فهذان المعنيان باطلان، فلم يبق أمامنا إلا أن نفسر قوله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ بمعنى يخص النبي ﷺ نفسه وينطبق عليه هو، ألا وهو: لا أسألكم عليه أجرًا ماديًا، بيد أنني أطالبكم أن تنشئوا معي علاقة روحانية صادقة لا تماثلها أية علاقة أخرى من علاقاتكم المادية. ولا جرم أن هذا المعنى يتوافق مع عظمة النبي ﷺ كل التوافق.

إذًا فقوله ﷻ: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يعني أني أطالبكم بعلاقة المودة التي تكون بين أقرب الأقارب. والحق أن هذا هو نفس المعنى المذكور في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾(النحل:٩١)، إذ المراد من ﴿إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أن نرغب في فعل الخيرات بحيث لا يخطر ببالنا الثواب، وأن نبلغ تلك المكانة الروحانية الرفيعة بحيث نكون أسمى من التفكير في النتائج أو الثمار. وعليه فقوله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يعني: أني أريد منكم محبة كالتي تكون بين الأُم وولدها. ذلك أن الأم لا تفكر في الأجر على الاعتناء بطفلها، بل تربّيه نتيجة حبها الفطري. ونفس الحال بالنسبة للولد فإن محبة أمه تسري في كل كيانه فيحبّها بلهفة شديدة. فهذا ما تنبهنا إليه هذه الآية حيث يوصينا الرسول ﷺ: عليكم أن تحبّوني كما يحب الولد أُمه بل أشد منه. وهو نفس ما أمرنا به الله تعالى في آيات أخرى أيضًا بحيث يكون أنبياؤه أحبَّ إلينا من آبائنا وأمهاتنا. وهذا أدنى ما يُطالَبُ به المؤمنون، وإذا لم يوجد هذا القدر من الحب في قلب المرء فليعلم أن دعوى إيمانه باطلة.

مجمل الكلام أن المراد من قوله تعالى: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أني لا أسألكم أي أجر غير أنني أريد منكم، من أجل إصلاحكم ورُقيكم، أن تحبّوني محبة تكون بين ذوي القربى، فلا تفكروا في الأجر والمقابل، بل يجب أن تنمحي فكرة الأجر من قلوبكم تمامًا.

ومن المفسرين من فسر لفظ ﴿الْقُرْبَى﴾ هنا بمعنى ما يقرّب إلى الله ﷻ، وقالوا إن المراد من الجملة: لا أريد منكم أي أجر بيد أني أود أن تتولد في قلوبكم محبة قرب الله ﷻ (القرطبي). ولكن المشكلة أن لفظ "الْقُرْبَى" لا تعني في العربية إلا قرابة الرحم

وليس القرب من شيء، لأن اللغويين قد فرقوا بين القُرب والقُربة والقُربى، حيث إن القُرْب يعني القرب المكاني، والقربة تفيد القرب المعنوي، أما القربى فلا تفيد القرب المكاني ولا القرب المعنوي، بل تفيد القرب الذي يكون نتيجة قرابة الرحم. فقد ورد في "أقرب الموارد": "قيل: القربُ في المكان، والقُربى في الرحم، والقُربَة في المنــزلة" (الأقرب). وعليه فلا بد لنا من أن نفسر لفظ ﴿الْقُرْبَى﴾ بما يتفق مع اللغة وبما لا يمثّل أي إساءة إلى النبي ﷺ، وهو كالآتي: إني لا أطالبكم بشيء إلا أن تحبّوني محبّةَ ذوي القربى، أي أَحِبُّوني كما تحب الأم ولدها والولد أمه، أو كما يحب الأب ابنه والابن أباه حيث لا تشوب حبَّهم فكرةُ منفعة مادية، بل يحب بعضهم بعضًا حبًّا فطريًّا تلقائيًّا. وكأن الرسول ﷺ يقول هنا: حيث إني معلّمكم، وأُمرت أن أعلّمكم دينكم، وهذا يحتّم عليكم أن يوجد عندكم إحساس طبعي لطاعتي وتقليدي، وهذا يتطلب منكم أن تحبّوني كما يحب الولد أمه كي تطيعوني طاعة طبعية تلقائية وليس أن تترددوا عند كل خطوة لطاعتي. وكأن المراد من قول الله ﷻ ﴿إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هو: عليكم أن تحبّوني كما يحبّ الابن أباه أو أُمَّه حبًّا طبعيًّا عفويًّا. ذلك لأنه إذا تدبرنا في علاقة الأولاد بوالديهم وجدنا بين الابن والأب وبين الأم والبنت تشابهًا مذهلاً من حيث الشكل والقامة والحركات وما إلى ذلك. فمثلاً لو كان الأب معتادًا على تحريك يده حركة معينة، وجدتَ ابنه أيضًا يحرك يده بنفس الطريقة، أو إذا كانت الأم معتادة على تحريك عينها بطريقة معينة، وجدتَ ابنتَها أيضًا تحرّك عينها بنفس الطريقة، أو إذا كان الأب يتحدث بنبرة معينة، لوجدتَ ابنه أيضًا يتحدث بنفس النبرة، أو إذا كانت اللكنة في كلام الأب كانت في أولاده أيضًا على وجه العموم. فثبت أن عنصر التقليد يوجد في الأولاد بشكل مدهش، فإذا وجدوا آباءهم يعملون عملاً معينًا عملوه أيضًا.

إذًا فالرسول ﷺ يطالبنا هنا بأن لا تكون علاقتنا معه ﷺ مجرد علاقة نظرية وعقلية، بل يجب أن تكون كعلاقة الولد بأبويه، فكما أن الولد يقلد أبويه تقليدًا طبعيًا تلقائيا علينا أن نقلد الرسول ﷺ في أفكارنا وخطراتنا وأعمالنا تقليدًا طبعيًا تلقائيًا. وهذا أمر مفهوم تمامًا إذ لن ينتفع من الرسول ﷺ حق الانتفاع إلا الذي

يقلده في كل شيء بشكل عفوي طبعي. وهذا المعنى يؤكد فضل النبي ﷺ على غيره من الأنبياء، وفي الوقت نفسه لا يعرّضه إلى أي إساءة، كما يعرّضه المعنى الذي يذكره المفسرون خطأً إذ يزعمون أن الأنبياء السابقين ظلوا يقولون لأقوامهم: إنا لا نريد منكم أجرًا، بينما قال النبي ﷺ لقومه: إني لا أريد منكم أجرًا لنفسي، بيد أني أرجوكم أن تحسنوا إلى أولادي وأقاربي! أما المعنى الذي بيّنته فهو يدل على كمال الوحي الذي نـــزل على النبي ﷺ، إذ إن الأنبياء السابقين قالوا لقومهم: لا نريد منكم أجرًا، أما النبي ﷺ فهو أيضًا قال لا أريد منكم أجرًا، ولكنه طالبهم بأجر أيضًا، ولكنه أجر ليس فيه أي منفعة شخصية للنبي ﷺ إنما فيه منفعة أتباعه، وهو أن ينشئوا معه علاقة كعلاقة الولد بأُمّه حتى يسهل عليهم اتّباعه في كل عمل وطاعته في كل حكم، شأن الولد الذي يلبس بطبعه ما يلبسه أبواه، ويتكلم اللغة التي يتكلمانها، ويأتي الأعمال التي يأتيانها. وهكذا سيتبعونه ﷺ اتباعًا كاملاً، وتسري في كيانهم تعاليمُه التي نـــزلت عليه من الله ﷻ لهدايتهم. وأي شك في أن هذا المعنى يؤكد فضل النبي ﷺ على الأنبياء السابقين إذ لم يقولوا ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ لأن تعاليمهم لم تكن بدرجة تعاليم الرسول ﷺ.

وهذا المعنى الذي بيّنته لقوله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يدعمه ما ورد بعد ذلك مباشرة حيث قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾(الشورى:٢٤).. أي أن الذي يعمل حسنة نزيدها من أجله حسنًا وجمالاً. فما العلاقة بين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ وبين ما يقول المفسرون بأننا مأمورون هنا بحب أقارب النبي ﷺ والإحسان إليهم؟ أما المعنى الذي بينته فهو منسجم مع السياق تماما ويجعل الآية جلية المعنى.

ولو قلنا إن قول الله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يعني: علينا أن نعتلق بالرسول ﷺ اعتلاقَ الأولاد بآبائهم، فنقلّده كما يقلّد الولد أبويه دونما تفكير ولا دليل، فهناك سؤال يطرح نفسه: صحيح أن الولد يقلد أبويه بدون تفكير أو دليل، ولكن مثل هذا التقليد ليس بعمل محمود، لأن على المرء أن يقبل الشيء عن دراية وبصيرة وليس أن يقلد الآخرين تقليدًا أعمى.

وقد أُجيب على هذا السؤال في الجزء التالي من الآية حيث قيل إن الدرجة الأولى من طاعتنا لمحمد ﷺ هي أن نقلده كما يقلد الولد أبويه، ولكن ﴿مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾.. أي أن مَن يقلد النبي ﷺ في أعماله وأقواله ومعاملاته وميوله ورغباته ويعمل الحسنات مثله ولو بدون وعي ودراية، فلا شك أنه يكون في الدرجة الأولى، ولكنه إذا استمر في طاعة النبي ﷺ موقنًا بأنه مبعوث من عند الله سبحانه وتعالى فإننا نعده بأننا سنـــزيد له فيها حسنًا.. أي نجعله يقوم بأعماله ببصيرة كاملة، فلن يبقى في درجته الأولى، بل سينـــزل على قلبه ببركة طاعته الكاملة للنبي ﷺ نور النبوة مباشرة، فيوهب له بصيرة ودراية.

إذًا فقوله سبحانه وتعالى: ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ قد أوضح أن قوله سبحانه وتعالى ﴿إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ لا يُشير إلى أيّ جزاء مادي لأن هذا المعنى يجعل قوله سبحانه وتعالى ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ مبتورًا عن السياق.

لا شك أن الأنبياء السابقين قد قالوا لأممهم بأنهم آباؤهم الروحانيون، إذ صرّح القرآن الكريم أن كل نبي يكون أبًا للمؤمنين، وأنه لا بد لهم من طاعته كطاعة الولد لوالده، ولكن هؤلاء الأنبياء اكتفوا بقولهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ولم يقولوا بعدها كما قال الرسول ﷺ: ﴿إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.. تلك الجملة التي تغمر القلب فرحة وسرورًا.

الواقع أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد إنجاز عمل عظيم على يد إنسان هيأ له الأسباب أيضًا. وقد أنجز الله سبحانه وتعالى على يد النبي ﷺ ما لم ينجزه على يد أي نبي آخر، لذلك قد أنـــزل عليه وحيًا كاملا.. فإنك حين تقرأ آياته تشعر وكأن شيئًا يجذب قلبك ويقول لك: تعال خُذْ هذا، وخُذْ ذلك أيضًا.

أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

شرح الكلمات:

القسطاس: الميزانُ؛ أقوَمُ الميزانِ (الأقرب).

التفسير: يتضح من هذه الآيات أن قوم شعيب عليه السلام كانوا مصابين بمرض الغش والخداع في التجارة على نطاق واسع، بالإضافة إلى الأعمال الوثنية. كانوا يعيشون على أعمال التجارة، فكانوا يغشون فيها إذ كانوا ينقصون في الكيل والوزن، وربما كانوا قد صنعوا موازين ومكاييل مزورة، فإذا أخذوا من الناس استعملوا موازين غير التي كانوا يستخدمونها عندما يعطونهم. ثم إنهم كانوا مهرة في الغش بالتلاعب بكفّة الميزان أيضًا، فكانوا ينهبون الناس كيلاً ووزنًا. فنهاهم شعيب عليه السلام عن الغش في التجارة، ولكنهم لم ينتهوا بل ازدادوا غشًا وخداعًا. فلما بلغ السيل الزبى، نـــزلت لإهلاكهم ملائكة السماء.

من المؤسف أن هذا المرض متفشّ في هذا العصر على نطاق واسع، فقد اختفت الأمانة في بلادنا كلية، ويحاول كل شخص أن ينهب غيره ويضره إلى أقصى حد ممكن. يريد الزبون أن يشتري حاجياته بأبخس سعر، بينما يحتال عليه صاحب المحل ليبيعه أردأ شيء. إني لا أذهب للتسوق، ولكن بما أن حاجيات البيت تُجلب من السوق، فأستطيع أن أجزم أن الناس لا يلتزمون عادة بالأمانة في البيع والشراء. فمثلاً يضعون التراب في الدقيق، ويضيفون أشياء رديئة إلى السكر، ويمكن أن تلاحظ هذا الغش بأدنى تأمل. فمثلاً إذا أمعنت النظر وجدت في كل ملعقة سكر شيئًا من التراب، مما يدل أنه مغشوش. وكذلك تجد ذرات التراب والرمل في الطحين حيث تسمع صوت الرمل إذا مضغت لقمة الخبز. إن الناس في بلادنا لا

يهتمون عادة بصحتهم، فلا يمضغون الطعام جيدًا، ولكنهم لو مضغوه جيدًا لوجدوا أنهم لا يأكلون خبزًا من الدقيق بل يأكلون التراب، لأن تسعين بالمئة من أنواع الدقيق يكون مغشوشًا بذرات التراب والرمل، وهذا ضار بالصحة جدًا.

ثم إن من حيل أصحاب المحلات أنهم يبيعون الدقيق غير الخالص، ويتقاضون سعر الخالص منه. مع أنه ليس الغش والخيانة أن تأكل مالاً كثيرًا لإنسان بغير حق فحسب، بل إذا أخذت قرشًا واحدًا بغير حق فهذا أيضًا غش وخداع. كذلك ليس الغش فقط أن تضيف إلى الدقيق خمسة بالمئة من التراب، بل لو أضفت إليه واحدًا بالألف من التراب فهذا أيضًا غش وخيانة وعمل قبيح. ذلك أن الخير أو الشر يتعلق بالقلب والنية. فلو أن أحد الفقراء أنفق قرشًا واحدًا خالصًا لوجه الله ﷻ ، فهو ليس أقل تضحية من شخص ثري ينفق مئة ألف روبية في سبيل الله تعالى، كذلك من غشّ في تجارته خمسة بالمئة فهو غشاش، ومن غش واحدًا بالألف فهو أيضًا غشاش مثله؛ ذلك لأن جزاء السيئة يكون بحسب النية مثل جزاء الحسنة تمامًا. فكما أن الله ﷻ لا ينظر إلى أن الفقير قد أنفق قرشًا واحدًا فقط وأن الثري أنفق مئة ألف روبية، بل ينظر إلى إخلاص كل واحد منهما فيجزيه بحسبه، كذلك لا ينظر الله ﷻ أن هذا قد غشّ بمقدار خمسة بالمئة وذلك قد غش بمقدار واحد بالألف، إنما يقول الله ﷻ إن كل واحد منهما غشاش، لأن الطهارة أو النجاسة منوطة بالقلب، فكما أن قليلاً من الحسنة أو كثيرها تُعتبر حسنة، كذلك إن كثيرًا من السيئة أو قليلها يُعتبر سيئة أيضًا على كل حال.

قد لا يقوم البعض بأعمال الغش بشكل مباشر، بل يُحضر هذه الأشياء من مكان آخر غاضًا النظر عما إذا كانت مغشوشة وناقصة، إلا أن ذلك لا يُبرئ ساحته من الجريمة، لأنه ذهب إلى الطحان وعلم أن الدقيق عنده مغشوش ومع ذلك اشتراه منه، فلذلك فهو مذنب إذ جلب الدقيق المغشوش وهو يعلم أنه كذلك. كان عليه أن لا يجلبه، ولكنه جاء به لأن سعره منخفض لكونه مغشوشًا، فثبت أنه حاول جلب الربح غير المشروع ولو بطريق غير مباشر. فمثلاً إذا كان هذا يعلم أن طحانًا يبيع الدقيق الجيد بمئة وواحد من الروبيات لكل أربعين كيلو غرامًا، ولكنه

لا يشتري منه بل يشتري من طحان آخر يبيع الدقيق الرديء بنفس المقدار بمئة روبية، فإنه غشاش أيضًا إذ ساعد هذا الطحان على الغش. لا شك أنه لا يقوم بالغش مباشرة، ولكنه يجلب سلعًا رديئة ليبيعها للناس، لذلك فهو أيضًا غشاش كمثل من يغش بيده.

هناك في إنجلترا عصابات للسارقين الذين يقومون برعاية الأيتام الصغار ثم يستغلونهم في القيام بالسرقات، فهل تظن أنهم أقل جريمة من الأيتام السارقين حيث لم يقوموا بالسرقة أنفسهم؟ كلا بل إنهم سارقون مثل الذين يسرقون بأيديهم. كذلك إذا جلب صاحب المحل دقيقًا رديئًا من بعض الطحانين وهو يعلم أنه رديء، فإنه مجرم كالذي يغش الدقيق بيده بالتراب والرمل.

وهناك من تجّار الغلال الأمناء في الظاهر الذين ينشرون الحبوب في الشمس، ثم عندما يجمعونها يضيفون إليها بعض التراب والرمل، ومع ذلك يظنون أنهم أمناء جدًا، مع أنهم ليسوا كذلك أبدًا.

بالمثل إن وكلاء شركات بيع الغلال عندما يشترون الغلال يضيفون إليها بعض التراب الناعم، وبما أن هذه الغلال تكون بكميات هائلة فلا ينكشف خداعهم على جميع الناس.

ومنهم من يبلل الغلال لتزداد وزنًا. ومنهم من إذا اشترى قال لصاحب المحل: لقد اشتريت منك سلعًا كثيرة فيجب أن ترخّص لي السعر، أما صاحب المحل فيقول للمشتري: هل تريد أن تسلبني كل شيء؟ وهناك روايات غريبة عن تجار مدينة "بومبائي". يُقال أن منهم من يستعمل ثلاثة أنواع من الموازين والمكاييل: مستقيمة، وناقصة، وزائدة، وقد سموها بأسماء غريبة جدًا مثل "سبحان الله"، "أستغفر الله"، و"لا حول ولا قوة". ويستخدمون هذه الموازين نظرًا إلى نوعية زبائنهم، فإذا كان الزبون ذكيًا يأمرون عمّالهم بإحضار الميزان المستقيم قائلين مثلاً: أَحْضِرْ "سبحان الله". وإذا كان الزبون ساذجًا أمروا بإحضار الميزان الناقص. وكذلك مِن دأب العطارين المحتالين عندنا، فكلما يتفشى وباء ما في البلاد، يصف أطباء الأعشاب لمرضاهم مياهًا مقطرة لبعض النباتات مثل الورد و"عنب الثعلب" و"كعب الثعلب"

مثلاً، فيذهب المريض إلى العطارين، فإذا كان العطار أمينًا و لم يوجد عنده الماء المطلوب، قال للزبون: لا يوجد عندي هذا الماء حاليًا، ولكن العطار الغشاش سيقول: عندي كل ماء، فهذا "ماء الورد"، وهذا ماء "عنب الثعلب"، وهذا ماء "كعب الثعلب"، وهذا ماء "الهندباء"، فيعطيه قارورة مليئة بالماء العادي.

ورد في تاريخ الطب الإسلامي أن أحد الملوك العباسيين قال لحاشيته مرة: إن الطب يتطور في هذه الأيام بسرعة. فقال بعضهم: كيف يمكن أن يتطور الطب وليس هناك عطارون أمناء؟ فمهما وصف الطبيب وصفة عالية الجودة فلا فائدة منها. فقال الملك: إن في بغداد ما بين خمسمائة إلى ستمائة محل للعطارين، فيمكن أن تجربوا ذلك. فكتبوا اسمًا زائفًا لعشبة وبعثوا من يحضرها من العطارين. فأخذ العطارون يبعثون أعشابًا مختلفة، فبعضهم بعث "عرق السوس" مثلا، وبعضهم "العناب" مؤكدًا أنها العشبة المنشودة. غير أن عطارًا واحدًا قال: لا يوجد عندي هذه العشبة و لم أسمع اسمها من قبل. فسأل الملك: أي العطارين صادق؟ فأجابه الحاشية: كلهم كذبوا إلا الذي قال لم أسمع اسم هذا الدواء من قبل، فإننا قد كتبنا اسمًا زائفًا لنختبر هؤلاء العطارين. فأصدر الملوك المسلمون الأوامر بإخضاع جميع العطارين للامتحان. وأُسست المدارس لمعرفة الأعشاب والعقاقير، و لم يسمح لأحد ببيعها إلا بعد النجاح في هذا الامتحان.

لقد رأيت في "كشمير" أن بعض الناس يُحضر صرة الغزال ويقول لك: إن فيها قرابة مئة غرام من المسك الخاص الذي ثمنه اثنان وثلاثون روبية، ولكني بحاجة ماسة إلى المال فأبيعه لك بخمس وعشرين روبية فقط. وبعض الأحيان يبيع لك هذه الصرة بنصف روبية أيضًا! فتشتريه وأنت تظن أنك أذكى إنسان في العالم ولكنك حين تفتح الصرة فلا تجد فيها إلا دمًا متجمدًا للحمام، فتعلم أنك مخدوع ولستَ أذكى الناس، بل إن الشخص الذي غشك ونهبك هو الأذكى! الواقع أن هؤلاء القوم يضعون بعض المسك خارج كيس الصرة ويملأونها بدم الحمام الذي يضيفون إليه بعض الكيمياويات، فيبدو كالمسك تمامًا، فيشتريه من لا خبرة له ويظن أنه قد

قام بصفقة رابحة إذ اشترى صرة المسك بنصف روبية، مع أنه ليس فيها إلا دم الحمام الذي لا يساوي شيئًا.

يُصنَع في "كشمير" نوع معين من السجاد الشهير يُنسَج من خرق الأقمشة الصوفية ويسمى "غابها". وكنت ذات مرة في زيارة بلاد كشمير وأُعجبتُ بهذا السجاد وأردت شراء قطع منه لأهديها لأقاربي. وكان في مدينة "إسلام آباد" بكشمير نساج شهير بمهارته في نسج هذا السجاد، فقلت له: أريد أن آخذ قطعًا من هذا السجاد هدية لبعض أقاربي في البنجاب، فاصنعْ لي بضع قطع جيدة منه. فقال: حاضر، وطلَب العربون. فدفعت له العربون، وذهبنا للتنــــزه في الجبال. وأخبرته بمقاييس غرفنا وأكدتُ عليه أن تكون السجادات بحسب تلك المقاييس تمامًا. فرضي وقال: لا تخف يا سيدي. وعندما رجعت إليه عرفت فورًا برؤية السجادات أنها ليست بالمقاييس الصحيحة. وعندما قسناها وجدناها أقل من المقاييس المطلوبة بشبر طولاً وعرضًا. فقلت له: لقد خدعتني خدعة كبيرة، وصنعتها أصغر من المقاس المطلوب. فأخذ يصرخ ويقول: ماذا تقول، إني مسلم، إني مسلم. فقلت: صحيح أنك مسلم ولكنك لم تفِ بوعدك معي. فدعوت شهودي الذين شهدوا لي، فذكّرته بوعده مرة أخرى، فأعاد قوله على طريقة الكشميريين: إني مسلم، إني مسلم. وكان عمري إذّاك حوالي عشرين سنة، فكنت أغضب لأنه لا يستحي ويعزو فعله إلى الإسلام. لماذا لا يعتذر ويطلب العفو؟ لماذا يقول مرارًا وتكرارًا: إني مسلم ومن حقي أن أغش؟ وكأن الإسلام قد انحط لدرجة أن المسلم يرى الغش حقًا مشروعًا له.

عندما زرتُ كشمير أول مرة علمتُ أن صادرات تجارة المصوغات الفضية الكشميرية وحدها إلى أوروبا كانت تبلغ عشرة ملايين روبية. وهذا يعني أن ربح التجار الكشميريين في هذه التجارة وحدها كان يتراوح ما بين مليونين ومليونين ونصف مليون من الروبيات، إضافة إلى أجرة العمل. فقيل لي إن هذه التجارة أُصيبت بالكساد ونقصت الآن إلى مليون ونصف مليون فقط. وذلك لأن التجار الأوروبيين شكوا من رداءة الصنع والجودة. فأحيانًا كان التجار الكشميريون

يصدرون مصوغات جيدة وأحيانًا رديئة ومغشوشة. ولو أهم كانوا أمناء في عملهم لبلغت تجارتهم اليوم أربعين مليونًا. علمًا أن الأعمال التجارية لم تكن على نطاق واسع في الماضي، وإنما ازدهرت في هذا الزمن. فإذا كانت تجارة المصوغات الفضية الكشميرية بلغت عشرة ملايين روبية في ذلك الزمن، فلا بد أن تكون قد وصلت اليوم أربعة أضعاف. ولكن بدلاً من أن تبلغ تجارتهم أربعين مليونًا ويكون ربحهم فيها ما بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليونًا، أُصيبت تجارتهم بالكساد حتى هبطت إلى مليون ونصف المليون. ولو لم يضروا تجارتهم بالغش والخيانة من أجل ربح قليل لازدهرت تجارتهم ازدهارًا كبيرا، ولكنهم خانوا فيها فأصيبت بالكساد. إن الناس يعادون الإنجليز كثيرًا، ولكن أعداءهم أيضًا يعترفون بأمانتهم التجارية. وبعد الإنجليز يثق الناس في التجارة بالأمريكان والألمان وغيرهم من الشعوب، أما الآسيويون فهم مشهورون بالغش في التجارة جدًّا فلا يثق بهم قوم، مع أن رقي الشعوب منوط بصيت أمانتهم. لو كان التاجر المسلم أمينا لاشترى أهل ملّته من محله تاركين محلات الآخرين، وقالوا: إن سلعه أفضل من سلع الآخرين. ولكنه إذا كان يغش في الدقيق الذي يبيعه فكيف يشتري منه المسلمون؟ فعلى كل واحد منا أن يعقد العزم على مكافحة الغش والخيانة والقضاء عليه من بيننا. فإذا كان أبوه أو أخوه أو زوجته أو قريبه أو صديقه تاجرًا، فعليه أن يكشف له أنه لن يسمح له بالغش، وأنه إذا لم يتورع عنه ولم يصلح حاله فسوف يحاربه. فلو قرر كل واحد منا التصدي للخونة والغشاشين لزال هذا العيب من مجتمعنا في ساعة واحدة. إذا كان أخوك أو أبوك أو أمك أو زوجتك من التجار الغشاشين فإنما يفعل ذلك لأنه يعلم أن أقاربه لن يشكوه إلى المسؤولين نتيجة حبهم له. ولكنه لو كان موقنًا بأن أقاربه لن يبالوا بقرابته ومحبته، بل سيرفعون الشكوى ضده حتمًا، فكيف يمكن أن يلجأوا إلى الغش والخيانة ولو لدقيقة واحدة؟ كلا بل سيتوسل الأب إلى ابنه قائلا: اغفر لي ما سلف فإني أعدك أني لن أغش بعد ذلك أبدًا. وكذلك سيقول الأخ لأخيه والزوجة لزوجها إني أتوب عن الغش من اليوم وأعدك إني لن أعود إليه أبدًا فاعف عني هذه المرة. فالحق أن إصلاح المجتمع في أيدينا نحن. إن إصلاح الابن في

يد الأب، وإصلاح الأب في يد الابن، وإصلاح الأخ في يد الأخ، وإصلاح الزوج في يد الزوج، وإصلاح الأم في يد الأولاد. ولو تصديتم للخائنين والغشاشين بهذا الأسلوب فسوف يتم إصلاح المجتمع ليس في أيام بل في ساعة واحدة. ولكنك إذا رأيت صديقك يغش ويخون فغطيت على خيانته وكذبت من أجله فإنك تدمره وتدمر نفسك أيضًا.

الواقع أن الجماعات الدينية لا تخلد بالمال بل بالإيمان. لو كان المال هو مدار الخلود فإن اليهود والنصارى والهندوس أكثر مالاً من المسلمين، فلماذا تركهم الله وخذلهم؟ ذلك لأن المال لا علاقة له بالإيمان. لا جرم أن الله ﷻ أيضًا يعطي عباده المال، ولكنه يعطيهم إياه إنعامًا ليساعدوا به الفقراء، أو اختبارًا ليرى كيف ينفقونه. فلو سلِم إيمان المرء رغم توفر المال عنده لكان خيرًا له وبركة، ولكن إذا أضاع المال إيمانه، فأخذ في النصب والاحتيال كالأشرار، ونهب أموال الناس كاللصوص والغشاشين - فيقوم مثلاً "بالسوق السوداء"، فإذا جاءه زبون لم يبع له السلع بالأسعار المحددة، بل أنكر وجودها عنده أصلاً. أما إذا جاءه أحد سرًا وأعطاه السعر الذي يريده قدم له السلعة فورًا -فإن مثل هذا المال يصبح عذابًا ونقمة عليه. يقال إن شخصًا جشعًا كانت عنده دجاجة تبيض بيضة من ذهب كل يوم، فطمع أن تبيض له أكثر من ذلك، ففكر أنه لو أطعمها أكثر فلربما تبيض بيضتين يوميًا، فبدأ يفتح فمها ويطعمها أكثر من حاجتها، فمرضت وماتت، فحُرم حتى من البيضة الواحدة. هذا مثل الرابحين بطرق غير مشروعة. إنهم يجمعون الأموال بلا شك، ولكنهم يذوقون وبال أمرهم في نهاية المطاف بطريق أو آخر. فالخسارة العاجلة التي تصيب البائع الغشاش هي أنه لو أعطى الزبون شيئًا أقل من الوزن اللازم فوزنه الزبون في بيته ووجده أقل من الوزن فلن يشتري منه بعد ذلك، بل يشتري من محل آخر، وهكذا فإن هذا الغشاش يكسب جنيهًا ويخسر ألفًا.

فالظن بأن المال يُكسب بالغش والخيانة فقط هو غاية الحمق. انظر إلى الصحابة- رضي الله عنهم - الذين كانوا أمناء في أعمالهم وتجاراتهم دائمًا ولم يخسروا أبدًا. فعندما تُوفي الصحابي عبد الرحمن بن عوف ؓ ترك وراءه ما يعادل

عشرين مليون روبية في ذلك الوقت، أي ما يعادل عشرين بليون روبية اليوم، وذلك برغم أنه كان يُنفق كثيرًا في سبيل الدين. كذلك ورد في التاريخ أن صحابيًا عرض حصانه في السوق للبيع، وجعل سعره خمس مئة درهم. فأعجب حصانه صحابيًا آخر فأراد شراءه ولكنه قال لصاحبه: بل سأدفع ألفي درهم لا خمس مئة درهم ، لأن الحصان أصيل وثمنه ليس ما قدّرتَ. فأخذ البائع يصر أنه لن يبيعه إلا بخمس مئة درهم، وظل المشتري يُلحّ بأنه سيدفع له ألفي درهم لأنه عديم الخبرة بالخيول وأن حصانه أغلى مما يظن، فكان الآخر يرد عليه: لن أقبل منك مالاً زائدًا تريد أن تتصدق به علي، فإني أعلم حصاني جيدًا وليس ثمنه إلا خمس مئة درهم.

انظروا كيف نرى في الدنيا اليوم ما هو عكس هذه الواقعة. كان المشتري حينذاك يزيد ثمن الشيء، أما اليوم فيبيع البائع بعشر جنيهات شيئًا ثمنه بضعة قروش. فعلى المشتري ألا يحاول إلحاق الخسارة بالبائع، وعلى البائع ألا يغش فيبيع المشتري شيئًا رديئًا، أو ينقص له الميزان أو الكيل.

بعد أن نصح شعيب عليه السلام قومه بالأمانة في تجارتهم قال: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. ويتبين من هذا أن القوم كانت تكثر فيهم حالات القتل والاغتيال والسطو على أموال الناس. كانت بلادهم تقع على الطرق المؤدية إلى الشام ومصر، وكانت القوافل تمر بالقرب منهم، فيبدو أن هؤلاء كانوا ينهبون المسافرين ويقتلون بعضهم. ويدعم هذا القياس أنهم يُسمَّون "أصحاب الأيكة".. أي كانت بأرضهم غابة كبيرة يكثر فيها شجر "السدر" و"الأراك"، ويسهل نهب المسافرين في مثل هذه الغابة لأنها تهيئ كمينًا سهلاً للصعاليك. فنصحهم شعيب عليه السلام بالأمانة في معاملاتهم وتجاراتهم والامتناع عن السرقة والسطو والنهب.

وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٥﴾

شرح الكلمات:

الجبلّة: قال الإمام الراغب: قيل للجماعة العظيمة جِبلٌّ (المفردات). فالمراد من ﴿الْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾: الجماعات السابقة.

التفسير: وأضاف شعيب وقال: عليكم أن تخشوا الله ﷻ الذي خلقكم والفئات التي خلت من قبلكم.. أي كيف تعملون هذه السيئات وتفتخرون بها؟ ألم تعلموا أن هذه المنكرات هي التي أدت إلى دمار الأمة التي كانت قبلكم، فلم لا تعتبرون بهلاكهم، ولم لا تفكرون في أسباب زوالهم، فتغيّروا ما بأنفسكم؟

الواقع أن الشعوب تتقدم في الدنيا وتهلك، وهذه الظاهرة مستمرة منذ بداية العالم. فإن التاريخ شاهد على رُقي آلاف الشعوب ودمار آلاف الشعوب أيضًا. والواقع أن ما سجله التاريخ لا يساوي عُشر ما وقع من أحداث منذ بداية الإنسانية، ذلك لأن الإنسان موجود ما قبل التاريخ بوقت طويل. كما أن الأحداث التي وقعت في العصر الذي يسمى "ما قبل التاريخ" أيضًا لم يبقَ معظمها محفوظًا. وقد عاشت آلاف الشعوب في العصر ذي التاريخ المحفوظ وفي العصر غير محفوظ التاريخ، وازدهرت وبلغت أوج الرقي، ثم أصابها الانحطاط فهلكت وبادت.

وهذه حقيقة لا يسع إنكارها، وبتعبير آخر فكما أننا لا يسعنا إنكار حياة الإنسان وموته، كذلك لا يمكننا إنكار حياة الأمم وموتها. ولكن الغريب أن الإنسان كما يشاهد موت الناس كل يوم ومع ذلك ينسى موته، كذلك فإن الشعوب تشاهد زوال الأمم الأخرى ومع ذلك لا تعتبر به.

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الأمر حديثًا مفصلاً، إذ تجده مليئًا بأسرار رُقي الشعوب بدءاً من سورة "الفاتحة" إلى سورة "الناس". لا شك أن الله تعالى قد بين في القرآن الكريم كثيرًا من المواضيع الأخرى من قضايا عقلية وعلمية وروحانية ومادية واقتصادية وسياسية، ولكنه ﷻ قد بين في سورة الفاتحة نفسها كل ما يتعلق برقي الأمم وانحطاطها، وستجد أنه تعالى قد بدأ فيها هذا الموضوع وختمه أيضًا بأسلوب رائع. والحق أن مثال سورة الفاتحة كمثال عيون صغيرة تتحول في نهاية المطاف إلى نهر عظيم. ذلك أن الإنسان القصير النظر حينما يرى النهر ينبع من عين

ماء يظن أنه جدول صغير سيجفّ وينتهي بعد مئة متر أو أكثر قليلاً، ذلك لأنه لا ينظر إلا إلى ذلك الجدول الصغير الذي ينبع من العين، والذي يمكن أن يعبره بقفزة واحدة، ولكنه عندما يمشي مع الجدول تأخذه الحيرة حينما يرى بعد قليل أنه قد أصبح كبيرًا، وعندما يتقدم أكثر يأخذه العجب أكثر، حيث يرى أن الجدول الكبير أصبح نهرًا، وحينما يمشي معه أكثر يُصاب بالذهول إذ يرى أن ذلك الجدول الصغير الذي كان قد نبع من العين الهادئة والذي كان يعبره بقفزة واحدة قد تحول إلى نهر عظيم. فمثلاً إن نهر "جِهْلُم" الذي يصبح نهرًا كبيرًا حين يدخل في منطقة "البنجاب"، منبعه صغير جدًا لا يتجاوز بضعة أقدام، ومن ينظر إلى منبعه لا يمكن أن يُصدق أن هذا الجدول الصغير النابع من تلك العين سوف يتحول نهرًا عظيمًا يسقي مئات الآلاف من الفدانات في منطقة البنجاب، وأن الناس سيعبرونه في القوارب مسافات شاسعة.

هذا هو مثال سورة الفاتحة، حيث تبدأ كجدول صغير نابع من عين هادئة، ولكنها تتحول إلى نهر عظيم في نهاية المطاف. فإن الموضوع الذي ابتدأ بقول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ كجدول صغير نابع من عين ماء قد أصبح عند قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ واضحًا وضوح النهر العظيم. وبوسع كل إنسان لم يفقد البصيرة الروحانية أن يدرك بسهولة أن الله تعالى قد بين في هذه السورة الوجيزة كل ما يتعلق برقي الأمم وزوالها بيانًا واضحًا. فقد تناول في قوله ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ موضوع رُقي الأمم، حيث علّمنا أن نسأله تعالى الهداية إلى الطريق الذي إذا سرنا فيه فزنا بنعمه، وأن يجعلنا من الذين تقدموا وارتقوا، أما قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ..﴾ فبيّن فيه أن كل أمة حققت الرقي تردّتْ في النهاية وهلكتْ. بيد أن الله ﷻ قد علّمنا في هذا الدعاء نفسه طريقًا نتجنب به الانحطاط والتردي. لا شك أن الله ﷻ هو أعلم بأحداث المستقبل، ولكنني أرى أنه ﷻ قد نبّه المسلمين بهذا الدعاء أنهم إذا تصرفوا بحذر وتعقّلٍ فيستطيعون أن يتجنّبوا التردي والانحطاط. والحق أن المسلمين لم ينجوا من التردي في العصور الماضية لأنهم نسوا هذا التحذير. بيد أن الله ﷻ قد بشّرنا بنشأة ثانية للإسلام أيضًا، وعصرها

يبدأ ببعثة المسيح الموعود عليه السلام، فبإمكان الأمة الإسلامية أن تعمل بحسب دعاء: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ فتتجنب الضلال وتعيش فترة أطول من الأمم الأخرى. علمًا أن الدعاء الذي يعلّمه الله سبحانه وتعالى عباده لا يضيع أبدًا إذا عملوا بحسبه، لأنه يتضمن وعدًا منه تعالى بأنه سيعطيهم ما يسألونه حتمًا، إذ لا يليق بعظمة الله سبحانه وتعالى أبدًا أن يُعلّم عباده دعاء ثم لا يستجب لهم إذا قاموا به. بل دَعْك من وعد الله تعالى فإنه شيء عظيم، إذ إننا نرى أن ما يعد به بعض من الناس أيضًا يكتسب أهمية كبيرة. فلو وعدك الملك أو الحاكم أو الوالي أو المسؤول الكبير بشيء فرحتَ فرحة كبيرة، موقنًا بأنه لن يخلف وعده، مع أن الأمر الواقع أن هؤلاء الذين وعدوك قد يموتون قبل إيفائهم الوعد، وقد يقولون لك إنهم لا يستطيعون الآن إيفاء وعدهم، ومن الممكن أن يفقدوا سلطتهم فلا يعودوا قادرين على إيفاء ما وعدوك به، ومن الممكن أن يتم ترحيلهم إلى منطقة أو دائرة حكومية أخرى. ولكن الله أزلي وأبدي لا يموت ولا يتغير ولا تُسلب قدرته ولا سلطته؛ لذا فعلينا أن نكون أكثر ثقة بوعده تعالى ممن يثق بوعود الملوك والحكام، فلا نشك أبدًا في إيفاء الله سبحانه وتعالى بوعده. فما دام الله تعالى هو الذي قد علّمنا هذا الدعاء فهو يتضمن وعدًا ربانيًا بأنه تعالى سيُؤخر عن المسلمين ببركة هذا الدعاء ما أصاب الأمم السابقة بعد رقيها من زوال وانحطاط، وسوف يُطيل فترة رقيهم وازدهارهم.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول إن أحد أولياء الله تعالى كان يقوم باستدلال عجيب من حركتَي المَدّة والشَدّة الواردتين في قوله تعالى: ﴿ولا الضَّالِّين﴾، فكان يقول أن فيهما إشارة إلى طول فترة رُقي المسيحيين. (حقائق الفرقان: تفسير سورة الفاتحة ص ٢٢)

ولكني أقول إن قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم﴾ يتضمن أمرًا أعظم مما ذكره هذا الولي، وهو أن الله تعالى إذا كان لا يريد تحقيق هذا الدعاء في حق المسلمين فلماذا حثّهم على القيام به أصلاً؟ فما دام سبحانه وتعالى قد أمرنا أن ندعوه بهذا الدعاء مرة بعد أخرى فهذا دليل على أنه سيستجيبه لنا حتمًا. وكان المسيح الموعود عليه السلام يقول دائمًا إذا كان من المستحيل وجود قوم يكونون مصداقًا لقوله

تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ في الأمة فلماذا علّم الله المسلمين هذا الدعاء أصلاً؟ كذلك أقول إذا كان الله ﷻ لا يُريد إنقاذ المسلمين من الزوال والهلاك فلماذا علّمهم دعاء: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. فكما أنه تعالى علّمنا دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ليخبرنا أنه يريد أن يخلق في الأمة فئةً تكون مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، كذلك فإنه تعالى لم يعلّم المسلمين دعاء: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ إلا ليؤكد أنهم إذا عملوا لن يدعهم الله تعالى ليكونوا من ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. فإذا كانت المَدّة والشَدّة في كلمة ﴿الضَّالِّين﴾ تُشيران إلى طول فترة رقي المسيحيين، فمن باب أولى أن يتضمن قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ وعدًا منه أنه سيجعل فترة رُقي المسلمين أطول من فترة رُقي المسيحيين، ويُنجيهم من أن يكونوا من الضالين.

لا شك أنه يتضح من الأحاديث أنه عند قرب القيامة لن يبقى في الدنيا إلا أشرار الناس (البخاري، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، ومسلم، كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء)، ولكن من ذا الذي يمكنه تحديد زمن قرب القيامة؟ إنما علمها عند الله ﷻ خاصة وأن القرآن الكريم يخبرنا أن بعض أيام الله ﷻ يساوي ألف سنة، بل خمسين ألف سنة أيضًا (السجدة:٦، والمعارج:٥). وهكذا لو قلنا إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وكان كل يوم منها يعادل ألف سنة، فتصبح هذه الفترة سبعة ملايين سنة، أما إذا كان كل يوم منها يعادل خمسين ألف سنة فيصبح عمر الدنيا ثلاثمئة وخمسين مليون سنة، بل يمكن أن يكون يوم الله تعالى أطول من هذا أيضًا. إذًا فليس بوسعنا تحديد عمر الدنيا، وإنما نؤمن أن هذا الزمن هو الزمن الأخير، وأما تحديده فهذا متروك لعلم الله ﷻ. والحق أن نقاشات الناس حول ذلك مجرد فلسفة، والنقاشات الفلسفية تكون بدون طائل دائمًا، إذ كل ما ورد عن الزمن الأخير إنما هو من قبيل الاستعارات التي يجب أن نترك تفاصيلها لله ﷻ.

المهم أن الله ﷻ قد أخبرنا في سورة الفاتحة أنكم مهما أحرزتم من الرقي كأمة فعليكم أن تضعوا في الحسبان دائمًا أن قدمكم لو زلّت قليلاً لأصبحتم من

المغضوب عليهم أو الضالين، وإذا أمسكتم بالله بقوة ودعوتموه باستمرار بأن يُثبّت أقدامكم على الصراط المستقيم فسوف يشملكم بفضله ويحميكم من الزوال والدمار.

والواقع أن شعيبًا عليه السلام قد لفت أنظار قومه إلى هذه الحقيقة نفسها، فذكّرهم وقال ألم تروا كم من قوم خلوا من قبلكم وكانوا أقوى الأمم في عصرهم ولكنهم عصوا الله سبحانه وتعالى فأُهلكوا ودُمروا، فلمَ لا تتقون الله تعالى في حياتكم التي هي أيام معدودة؟ ولِم تلجأون إلى حيل وتدابير غير مشروعة من أجل المتع المادية الفانية؟

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٦﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٧﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٨﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩٢﴾

شرح الكلمات:

المسحَّرين: سحَّره: أعطاه السَّحور (الأقرب). وورد في "المفردات": "سمّوا الغذاء سحرًا من حيث أنه يَدقُّ ويلطُف تأثيره."

إذًا فكلمة ﴿المسحَّرين﴾ تعني: الذين يتلقون الدعم والتشجيع من بعض الجهات.

كِسَفًا: جمعُ كِسْفةٍ: والكسفة هي القطعة من الشيء (الأقرب).

الظُّلة: أوّلُ سحابة تُظلّ. ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ سحابةٌ أظلّتْهم فلجأوا إلى ظلّها فأطبقتْ عليهم وأهلكتْهم (الأقرب).

التفسير: فأجاب شعيبًا العَلَيْهِ قومه أن تجاسرك علينا يدل على أن أحدًا يدعمك بالمال لتتآمر علينا وتقضي على قوتنا؛ ذلك أن التسحير يعني تقديم الطعام أيضًا كما ذُكر في شرح الكلمات، وهو استعارة عن تقديم المساعدة. فالمراد من قولهم لشعيب العَلَيْهِ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أننا قوم تجار وأن منافسينا في التجارة يدعمونك بالمال كرشوة لتنهانا عن الطرق التي تزدهر بها تجارتنا.

ثم قالوا لشعيب العَلَيْهِ: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ويعني إسقاط الكسف من السماء أن ينـــزل عليهم مطر شديد يدمر زروعهم وبساتينهم كلها. هذا هو المعيار الذي اقترحوه لمعرفة صدق شعيب العَلَيْهِ. فأجابهم أن ربي أعلم بأعمالكم وسيُعاملكم كما يشاء. فأصروا على تكذيبه، حتى حل بهم ما اقترحوه وأخذهم عذابُ يوم الظلّة، أي جاءهم الطوفان وهطلت أمطار غزيرة دمرت البلاد، فصار عذابَ يومٍ مخيف. فجعل الله ﷻ بلادهم آية باقية للأجيال التالية.

وليكن معلومًا أن القرآن الكريم قد استعمل لهذا العذاب ثلاث كلمات: ﴿الصيحة﴾ و﴿الرجفة﴾ و﴿الظُّلّة﴾، فقال الله تعالى في موضع: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(هود:٩٥)، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(العنكبوت:٣٨). ولكن الله سبحانه وتعالى لم يصرح في هذين الموضعين أن العذاب الذي حل بهم كان زلزالاً أو آفة أخرى، بينما صرح هنا في سورة الشعراء بلفظ ﴿الظُّلّة﴾ أن العذاب أظلهم على شكل مطر غزير مدمر، فأصبحوا ملتصقين بالأرض في بيوتهم.

علمًا أن لفظ ﴿الصيحة﴾ يُطلق على العذاب وأيضًا على الدمار المفاجئ (الأقرب). وأما ﴿الرجفة﴾ فهي إشارة إلى ذلك المشهد المخيف المرجف للقلوب

الذي رأوه جراء سوء أعمالهم، والذي هزّهم من أساسهم، حيث يُقال: "رجَف الإنسان: لم يستقرّ لخوفٍ عرَض له؛ ورجَف الرعد: تردّدتْ هَدْهَدَتُه في السحاب" (الأقرب). وعليه فقد أُشير بهذه الكلمات إلى مطر غزير مدمر سلب راحتهم، ودفعهم إلى عذاب مستمر لا مخرج لهم منه، حيث أصبح كل واحد منهم محصورًا في بيته حتى سقطت عليهم الجدران بسقوفها فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي أن قليلاً من قوم شعيب آمنوا به بينما ظلت الأكثرية منهم محرومين من الإيمان. ولكن يا محمد ﷺ لا حاجة بك للقلق ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي أن ربك الذي ربّاك حين كنت في غاية الضعف فبوّأك هذا المقام العظيم، لربٌّ غالب ويرحم مرة بعد أخرى. فبرغم أن الأكثرية من قوم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب لم تؤمن بهم إلا أن الله تعالى سيعاملك معاملة خاصة، لكونك نبيًّا متميّزًا عن سائر الأنبياء؛ فلن يدَع الأكثريةَ من قومك محرومين من الإيمان، بل سيُدخل أكثرهم في كنف رحمته ويشرّفهم بالإيمان بك، رغم عدائهم الشديد حاليًا. هذه هي الحكمة وراء تكرار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ في هذه السورة، حيث أشار الله تعالى بتكرار كلمة ﴿ربك﴾ هنا إلى ربوبيته غير العادية التي شملت النبي ﷺ دائمًا، فبيّن تعالى لنبيّه أن يتذكر كيف قد ربّاه في كنفه منذ الطفولة عند كل خطوة حتى بوّأه هذه المكانة الرفيعة، فكيف يمكن أن يخذله بعد ذلك؟ كلا، بل سيجعله ممتازًا على غيره من الأنبياء في مجال تبليغ رسالته وهدايته أيضًا، مؤكدًا فضله على الجميع.

والواقع أن الله سبحانه وتعالى قد قام بتربية النبي ﷺ بشكل غير عادي، ورفعه من حالة متواضعة جدًا خطوةً خطوة، حتى بلغ به أرفع مقام وأعلاه، مما لا نجد نظيره في حياة أي نبي جاء إلى الدنيا. لقد أصبح النبي ﷺ يتيمًا وهو طفل صغير، إذ تُوفي أبوه قبل ولادته ﷺ، وتُوفيت أُمُّه بعد ولادته ببضع سنوات. فتربى في كنف جده عبد المطلب بعض الوقت، ولما تُوفي جده تكفله عمه أبو طالب. ولا شك أنه ربى النبي ﷺ بغاية الحب والعطف، وقام بجنبه وسانده في كل موطن حرج، ولكن هناك

واقعة في حياة النبي ﷺ ينفطر لها قلبي ويضطرب دائمًا. ورد في السيرة أنه كلما كانت زوجة عم النبي ﷺ توزع الطعام كان أولادها يتشاجرون للحصول على الطعام، أما النبي ﷺ فكان يجلس صامتًا، وإذا أعطته شيئًا أخذه، ولكنه لم يسألها شيئًا أبدًا (السيرة الحلبية: المجلد الأول ص ١١٦ ذكر وفاة عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب).

وإن هذه الواقعة تُقدَّم عادة كدليل على وقاره ورزانته ﷺ، ولكني كلما أقرأها تستولي عليّ الرقة المتناهية. ذلك لأن تلك الفترة من عمر النبي ﷺ لم تكن فترة نبوته بل كانت زمن طفولته، وربما لم يتجاوز عمره عندها ثمانية أو تسعة أعوام، وليس ضروريًا أن نثبت عن طفل في مثل عمره أنه وقور رزين، وإن كان هذا الطفل سيصبح في المستقبل نبيًا؛ فإن النبي ﷺ نفسه يقول: "الصبيّ صبيّ ولو كان نبيًّا". ولذلك كلما أقرأ هذه الواقعة يُصيبني اضطراب شديد، إذ كان النبي ﷺ يدرك نتيجة ذكائه، رغم طفولته، أنه لا يحق له بمطالبة شيء من أهل ذلك البيت، بل إن عمّه وزوجته قد أحسنا إليه إذ أسكناه في بيتهما حبًّا وعطفًا. علمًا أن بعض الأولاد غير الأذكياء لا يفرّقون كثيرًا بين الأم وزوجة العم، فيضايقون أزواج أعمامهم من أجل الطعام كما يضايقون أمهاتهم، ولكن هذا لا يرجع إلى حبّهم لهن وإنما إلى قلة ذكائهم كما قلتُ. المهم أني لا أستطيع أن أمرّ بهذه الواقعة من حياة النبي عليه السلام بدون أن تستولي علي الرقّة المتناهية، فأفكر دائمًا عن المشاعر التي كانت تختلج في قلب النبي ﷺ عندها. كان عمّه يحبّه ﷺ كحب الأب، فكلما كان يرجع إلى البيت يجده ﷺ واقفًا في زاوية من البيت، بينما كان الأولاد يتشاجرون من أجل الطعام وغيره، فمثلاً إذا كانت أمهم توزع عليهم الحلوى فكان الواحد منهم يقول: لن آخذ قطعة واحدة بل قطعتين، وكان الآخر يقول لها: لم تُعطيني إلا قليلا جدًّا، وهكذا كان كل واحد منهم يتدلل عليها ويطالب بأكثر فأكثر، فكان عمّ النبي ﷺ يمسك بيده ويقول: تعال إلي يا بُنيّ، لماذا أنت جالس هكذا؟ ثم يقدّمه إلى زوجته ويقول: تعال والتصقْ بامرأة عمك وتشاجر معها من أجل حقك، ولكن النبي ﷺ لم يكن يلتصق بها ولا يسألها شيئًا. الحق أن تصرُّفه هذا كان نتيجة لتلك المشاعر التي أشرت إليها، حيث كان يرى أنه لا حق له على أهل هذا البيت وأن

ما يعطونه إنما هو إحسان منهم. لقد انكشفتْ عليّ هذه الحقيقة حين توفيت زوجتي "سارة بيغم"، وقد ذكرت هذا الأمر في مقال كتبته في نعيها وقد نُشر في جريدة الجماعة آنذاك. فذات مرة انكسر حذاء إحدى بناتي من "سارة" بعد وفاهّا، وكنت أسكنتُها في بيت بعض الأقارب. فأمروا خادمًا لهم بإحضار حذاء للبنت من السوق. فلما أحضره كنت واقفًا في ناحية من فناء البيت، فرأيت أن الطفلة أخذت الحذاء في حضنها وأخذت تقفز فرحًا وتقول: آها! قد جاء حذائي، قد جاء حذائي. ثم تغيّرَ وجهها فجأة، فوضعت الحذاء على الأرض ووقفتْ في حيرة وقالت بشكل عفوي: يا الله! لِمَن أُري حذائي الآن؟ لقد وُلدت هذه البنت عام ١٩٢٩م، وقد وقع هذا الحادث في عام ١٩٣٣.. وهذا يعني أن هذه الكلمات قد خرجت من فمها وعمرها أربع سنوات فقط. فحيرني أمرها وقولها، وعندها انكشف عليّ السبب وراء جلوس النبي ﷺ في ناحية البيت صامتًا.

لا شك أن هذه العواطف والمشاعر تبعث على منتهى الاضطراب والحزن، ولكن المرء لو أنفد حياته بعد ذلك في سبيل الله تعالى لرفعتْه هذه المشاعر – التي هي مشاعر ضعف في الحقيقة – من الثرى إلى الثريا. فإن هذا الطفل اليتيم الذي كان الأولاد يمرون بالقرب منه لاعبين راقصين، فيركب بعضهم على كتف أبيه ويلتصق بعضهم بأمه، ويقول بعضهم لها: لن آخذ من الحلوى قطعة واحدة بل قطعتين، ويقول غيره لماذا أعطيته أكثرَ فأَعطِيني الآن مثله، بينما كان هو جالسًا في زاوية من البيت في صمت، ولا يفكر أن يأخذ كلّ الحلوى التي كانت زوجة عمه توزعها على أولادها، بل لا يفكر أن يأخذ نصفها، بل ربعها، بل عشرها، بل لا يبالي ما إذا كانت ستعطيه منها شيئًا أم لا، وإنما يقول في نفسه إنه لا نصيب له في هذه الأشياء لأنه إذا سأل فبأي حق يسأل، ومن ذا الذي يسأل؟ ولكن هذا الطفل اليتيم العديم الحيلة عندما تُوفّي بعد قضاء حياته كلها في سبيل الله تعالى أصبحت الدنيا كلها له و لم يعد لأحد سواه نصيب فيها، وليس هذا فحسب بل ناداه خالق السماوات والأرض قائلا: "لولاك لما خلقتُ الأفلاك." (تفسير الألوسي، قوله تعالى: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً).. أي يا محمد اذكُرْ ذلك

الزمن الذي كنت تقول عندها في نفسك إنه لا حق لك في قطعة حلوى ولا كسرة خبز ولا قطعة لحم، فكنت تجلس في زاوية البيت وحيدًا وتناجي نفسك قائلاً: إن الذين لي حق عليهم لم يعُودوا في الدنيا، ولكنك يا محمد، لا تدري أننا كنا قد اتخذنا قرارًا حتى قبل خلق هذا الكون أننا سنخلق كل هذه السماوات والأرض من أجلك أنت، ولولاك لما خلقناها أبدًا.

لا شك أن هذا الحديث إنما هو من طائفة الأحاديث التي قد رواها الصوفية فقط، ولا يعتبره المحدثون صحيحًا، ولكن الوحي الذي نــزل على المسيح الموعود عليه السلام قد أكد صحته حيث أُوحي إليه أيضًا: "لولاك لما خلقت الأفلاك" (التذكرة ص ٥٢٥ يوم ٤ مايو/أيار ١٩٠٦، وحقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ١٠٢). فشتان بين حالتَي هذا الإنسان العظيم ﷺ، فإن اليتيم الذي كان يجلس في زاوية البيت معتبرًا أنه لا يوجد له أي قريب في الدنيا، والذي وُلد في بيت فقير، والذي كان يرى أنه لا حق له في كسرة خبز أو قطعة لحم في ذلك البيت، يدخل يومًا مكة فاتحًا، فيُعرَض عليه جميع رؤسائها المجرمين، فيسألهم: أتعلمون ما أنا فاعل بكم؟ وكأن اليتيم الذي كانوا يرون أن لا حق له في خرقة من بيوتهم، قد أصبح كل ذرة من كيانهم في قبضته، فمثلوا أمامه مطأطئين رؤوسهم وأجابوه: افعَلْ بنا ما فعل يوسف بإخوته*. إذًا فذلك اليتيم الذي لم يحسن إليه أهل الدنيا، والذي أصبح بينهم وحيدًا لا قريب له منهم، وفقيرًا لا حق له عليهم، عندما أعطاه الله القوة قال لهم: "لا تثريب عليكم اليوم".

فاليتيم الذي كان يجلس صامتًا في ناحية البيت قبل وفاته بحوالي ستين سنة، وكان لا يأخذ حقه ولا يلتصق بربة البيت كغيره من الأولاد ، معتبرًا أن لا حق له على هذا البيت، قد غير الله سبحانه وتعالى حال ذلك اليتيم العديم الحيلة رأسًا على عقب، حيث صار عونًا وسندًا للدنيا كلها، وأصبح بمنــزلة الأمّ للإنسانية كلها. إن ذلك

* انظر الهامش على صفحة ١٧٥. (المترجم)

الطفل اليتيم الذي كان يومًا بدون أب وأم قد أصبح أبًا وأمًا للدنيا كلها، وليس هذا فحسب بل إن أزواجه أيضًا أصبحن أمهات للمؤمنين. فلم تعُدْ هذه الأُبُوّة منحصرة فيه، بل تعدّت إلى الآخرين، وأرست في العالم عظمة القوم الذين كانوا على صلة معه ﷺ.

إذًا، فإن الله تعالى قد أشار بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إلى ما أنعم به على محمد ﷺ من منن عظيمة، مؤكدًا له أن الذي منحه هذا الرقي العظيم لن يضيعه في المستقبل أيضًا، بل سيحقق له كل ما تمناه، وسيكتب له الفتح والغلبة على الدنيا كلها، ولن تكون غلبة محدودة في زمن معين، بل سيكتبها له مرة بعد أخرى، لأنه رحيم يرحم مرة بعد أخرى. بتعبير آخر، عندما تخيّم الظلمة على الدنيا سيرى الناس أن شمس صدق محمد رسول الله ﷺ قد أشرقت على الدنيا بكل ضيائها وبهائها ثانية.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٣﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٤﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٧﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٨﴾

شرح الكلمات:

زُبُر: الزبر: جمع الزَّبور وهو الكتاب (الأقرب).

التفسير: بعد الحديث عن موسى وإبراهيم ونوح وغيرهم من الأنبياء المبعوثين إلى أقوام معينة، والذين كان الوحي النازل عليهم خاصًا لهداية أممهم فقط، يُخبر الله تعالى أن وحيه الذي أنـــزله على محمد ﷺ هو للإنسانية جمعاء، وبينما كان وحيه السابق دليلاً على ربوبية الله تعالى فقط، فإن وحيه الجديد دليل على ربوبيته للعالمين

جميعًا. وقد نــزل بهذا الوحي الروحُ الأمين، ذلك لأن وحي الأنبياء السابقين قد تعرض لأنواع الفساد وقد قصّر العباد في حفظه وحمايته، فأنــزل الله تعالى هذا الوحي على محمد ﷺ محفوظًا بواسطة الروح الذي هو أمين. وبما أنه لا بد من أن يبلغ الوحي بطريق سليم إلى صاحبه حتى يفهمه جيدًا، فقد أنــزله الله تعالى على قلب محمد ﷺ. ثم إن هذا الوحي مذكور في كتب الأولين، بمعنى أن جذوره وأصوله موجودة في تلك الكتب كما أن الأنباء عن نــزوله موجودة في تلك الصحف.

واعلم أن من أعظم ما يمتاز به القرآن الكريم عن سائر الصحف أنه يعرض على الدنيا فكرة ﴿رب العالمين﴾. والحق أن فكرة رب العالمين لم تكن موجودة في الدنيا قبل القرآن بصورتها الواضحة. لا شكّ أن الناس كانوا يؤمنون بأن هناك إلهًا هو خالق هذا الكون ومالكه، ولكن تصورهم عن الإله كان محدودًا؛ ذلك لأن تعاليم الديانات السابقة كانت مختصة بأقوامها فقط، كما أن المشركين على وجه الخصوص كانوا يقدّمون آلهة خاصة بهم فقط، ولذلك تجد فرعون أيضًا يقول لموسى عليه السلام أثناء الحوار: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:٢٤). أي يا موسى من هو رب العالمين الذي تدعي أنه بعثك. ثم إن فرعون لما غرق قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾(يونس:٩١). أما القرآن الكريم فقدّم فكرة ﴿ربِّ العالمين﴾ بشكل واضح، وبالتالي قد أرسى دعائم اتحاد الشعوب، الأمر الذي كان محالاً من قبل نظرًا إلى كون الشرائع السابقة مختصة ببعض الأمم. فإنك إذا طالعتَ التوراة وجدتها تقول: "مباركٌ الربُّ إلهُ إسرائيل الذي أرسلك" (صموئيل الأول ٢٥: ٣٢)، وتقول أيضًا "مباركٌ الربُّ إلهُ إسرائيل من الأزل إلى الأبد" (أخبار الأيام الأول ١٦: ٣٦)، وتقول أيضًا: "مبارَكٌ الربُّ اللهُ إلهُ إسرائيل الصانعُ العجائبَ وحده" (المزامير ٧٢: ١٨). ولكن القرآن الكريم غيّر هذا التصور كلية، فعَرَضَ اللهُ سبحانه وتعالى على العالم كربِّ العالمين، مبيِّنًا أنه تعالى ليس ربًّا لبعض الأفراد والشعوب فحسب، بل هو رب كل مخلوق. فقد افتتح القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. أي ليست بركات الله الذي هو رب العالمين مخصوصة بقوم دون قوم،

بل كما أن فيوضه المادية تصل إلى الجميع كذلك فإنه لم يحرم أحدًا من خلقه من فيوضه الروحانية. وقد حيرت هذه النظرية القرآنية الكافرين جدًا حتى قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾(ص:٦).. أي هل قام بخلط الآلهة الكثيرة وجعل منها إلهاً واحدًا؟ إذ كان من المستحيل عليهم أن يتصوروا أن هناك في الحقيقة إلهًا واحدًا فقط، وأن كل من سواه من آلهة فهي باطلة زائفة. ذلك لأنهم كانوا يسمعون من اليهود والنصارى أن إلهنا غير إلهكم. إذًا، فكانت عقيدة التوحيد تُعرَض عليهم من قبل تلك الأمم ولكنهم كانوا لا يفهمون منها أن إله الجميع إله واحد، بل كانوا يظنون أنه إذا كان هناك إله واحد، فإنه إله بني إسرائيل أو المسيحيين فقط، وإذا كان هذا صحيحًا فلم يبق لهم أي إله! فجاء الإسلام وبيّن أن للمؤمن والكافر جميعًا إلهًا واحدًا وليس هناك إله سواه. وهذه الرسالة الواضحة كانت غريبة للدنيا. لقد عُرضت هذه الرسالة الغريبة على الدنيا بواسطة محمد ﷺ الذي كانت بعثته أيضًا غريبة، حيث بُعث إلى الدنيا كلها، بينما كان الأنبياء السابقون مبعوثين إلى أممهم الخاصة فقط. لقد تم إرساء نظرية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في الدنيا بواسطة محمد ﷺ، مع أنه قد وُلد في بلد منعزل عن باقي العالم، إذ لم تكن للعرب صلات وطيدة بباقي العالم، بل كانت دنياهم منعزلة منحصرة في الجزيرة العربية فقط. وإذا كانت لديهم أي فكرة عن باقي الشعوب فهي فكرة الكراهية فقط. كان العرب متكبرين حتى كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل من أي شعب آخر، وإن كانوا يدينون للإمبراطورية الرومانية والفارسية بالسيادة السياسية، فكانوا يفدون إلى بلاطهم ويقدمون لهم التبجيل والاحترام، ليعطوهم شيئًا. وهذا يعني أن الرومان والفرس كانوا يحتقرون العرب من الناحية السياسية، بينما كان العرب يحتقرونهم وباقي العالم من الناحية القومية. إذًا، فكانت هناك أمور عديدة، فأوّلاً ما كانت العرب تعترف بأن الدنيا موحدة جغرافيًا وقوميًا، وثانيًا: كان عدد الذين يذهبون منهم إلى بلاط الرومان والفرس قليلاً جدًا، حيث لم يخرج الآخرون عن ديارهم أبعدَ من مئة ميل. وعلى النقيض كان بنو إسرائيل شعبًا متقدمًا حيث كانوا يعيشون في مصر تحت حكم المصريين الذين كانوا يحكمون بأنفسهم بلادهم التي كانت أكثر بلدان

العالم حضارة، وكانت سفنهم تصل إلى بلاد إفريقيا وأوروبا والهند وغيرها، وكانت لهم صلات سياسية وحضارية مع باقي العالم. والحق أن مصر كانت يومئذ متقدمة سياسيًّا وحضاريًّا كما هي إنجلترا في هذا العصر. لقد تقدمت إنجلترا اليوم سياسيًا وحضاريًا بحيث من المحال أن يظل سكانها جاهلين بما يجري في العالم، بينما يجهل سكان أفغانستان أحوال العالم لأن بلادهم متخلفة جدًا سياسيًا وحضاريًا. فكانت الجزيرة العربية إزاء مصر كأفغانستان إزاء إنجلترا اليوم. وبرغم أن موسى عليه السلام كان يعيش في ظل الدولة المصرية المتحضرة إلا أنه لم يعرض على الناس إلا تصوُّر "إله بني إسرائيل"، حيث ورد في التوراة مرارًا وتكرارًا: "إله بني إسرائيل يقول كذا"، و"إله بني إسرائيل يأمر بكذا". أما المسيح عليه السلام فقد بُعث في زمن كانت الحضارة والمدَنية قد انتشرت على نطاق واسع، وكانت أوروبا وآسيا قد اختلطتا، ومع ذلك أعلن أنه لم يُرسَل إلا لجمع خراف بني إسرائيل الضالة. وهذا يعني أنه لم يستطع أن يخرج عن تصور الإله القومي رغم اتحاد العالم في ذلك الوقت. لا شك أن المسيح عليه السلام لم يكن يؤمن أن باقي الناس ليسوا خلق الله تعالى، ولم يعتقد أن الله تعالى هو إله بني إسرائيل فقط، كلا بل كان عليه السلام يؤمن أن سائر الناس من خلق الله تعالى، وأنه تعالى هو إلههم كما هو إله بني إسرائيل، ومع ذلك قدّم نفس النظرية الموسوية وقال إن الله أبٌ لبني إسرائيل، وأما باقي الشعوب فهم بمثابة أولاد من أب آخر (متى ١٥: ٢٠-٢٦). وعلى النقيض نجد النبي ﷺ قد وُلد في بلد منعزل عن باقي العالم ومتخلف حضاريًا ومدنيًا، ومع ذلك عرض على العالم، ولأول مرة في تاريخ البشرية، نظرية تقول بأن الشعوب كلها هي خلق الله تعالى، وأنه تعالى إله كل قوم وشعب. لقد أعلن النبي ﷺ أنني عربي مولدًا بلا شك، والعرب هم الذين أُوجه إليهم الخطاب أوّلاً، ولكنني لم أُبعث لهدايتهم والنهوض بهم وحدهم، إنما "بُعثتُ إلى الأسود والأحمر" (مسند أحمد: مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه).. أي لقد أُرسلتُ إلى الصينيين والأفارقة والإنجليز والأمريكان والهنود واليابانيين كلهم، وحياتي منذورة لخير شعوب الدنيا جمعاء. لقد عاش موسى عليه السلام من أجل بني إسرائيل فحسب، وقد عاش عيسى عليه السلام من أجل قومه فقط، وقد عاش

إبراهيم ﷺ من أجل أهل فلسطين فقط، وقد عاش نوح ﷺ لأجل أهل العراق فقط، وقد عاش "كرشنا" و"رام تشندر" من أجل أهل الهند فقط. لقد تعرض هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - لصنوف الأذى والتعذيب ولكن من أجل الإسرائيليين أو الفلسطينيين أو العراقيين أو الهنود فقط؛ أما رسول الله ﷺ فأمره الله تعالى أن يعلن: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:١٦٣).. أي إذا كنت أتحمل هذه الشدائد والآلام فليس لقومي العرب فقط. لا شك أنني قد وُلدتُ بين العرب وهم أول من أخاطبهم، ولكن الحق أنني أقاسي هذا الألم والأذى من أجل الإنسانية جمعاء، لأنني قد نذرت حياتي لله الذي هو رب العالمين، الذي يقوم بربوبية جميع المخلوقات. فلست زعيمًا للعرب فحسب، بل أنا عبدٌ لله الذي هو رب العالمين، وله وقفت حياتي كلها. وما دام تعالى يقوم بربوبية العالمين كلها فكيف يمكنني - وأنا خادمه - أن أتحمل الأذى والألم من أجل شعب معين فحسب؟ كلا، بل أنا خادم الإنسانية جمعاء لأن ربي هو رب العالمين كلهم، وليس رب العرب أو رب بني إسرائيل فقط. ما دمتُ أؤمن برب العالمين فعلي أن أتحمل الآلام من أجل جميع مخلوقاته. ولذلك تكثر في تعاليم النبي ﷺ أقوال من قبيل: "لا فضلَ لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي" (مسند أحمد: مسند الأنصار)، بينما نجد أن المسيح ﷺ لما جاءته امرأة غريبة عن قومه وقالت: يا أستاذ، أعطِني من الحق الذي جئت به لبني إسرائيل، فبدلاً من أن يتحمل الأذى من أجلها أجابها: "ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب" (متى ١٥: ٢٦).. وهذا يعني أنه اعتبر بني إسرائيل أبناء الله بينما اعتبر الشعوب الأخرى كالكلاب. وعلى النقيض نرى العجب في أوائل أيام الإسلام التي لم تكن أحكامه قد نـزلت فيها بصورة كاملة، بل لم يكن جزء واحد من القرآن الكريم قد نـزل بعد، حيث يأتي النبيَّ ﷺ قوم ويسألونه أن يقرأ عليهم من تعاليمه ليهديهم ويرشدهم، وكان بعضهم من اليونان مثل سهيل، وبعضهم من الأحباش مثل بلال، وبعضهم من الفرس مثل سلمان، فلا يقول لهم النبي ﷺ: "ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب"، بل لم يفرّق بين هؤلاء القوم والعرب، فقرأ عليهم من تعاليمه. وليس

هذا فحسب، بل كان هناك أخوانِ يجهلان اللغة العربية ومعلوماتهما ضئيلة جدًا إذ يعرفان شيئًا من الكتاب المقدس، وكانت مهنتهما الحدادة، وكانا يطرقان الحديد، وكان النبي ﷺ يتوقف عندهما من شدة حبه لهما ويصغي لحديثهما، ثم يحاول أن يبلغهما دعوته، ولكنهما كانا لا يفهمان لغته لأنهما من اليونان، فكان يشرح لهما مراده بالإشارات، فمثلاً إذا ذكر اسم الله تعالى أشار إلى السماء، فاستأنسا وآمنا به في نهاية المطاف. (القرطبي)

وكان هناك بلال الذي كان من الأحباش الذين كانوا يُتخذون عبيدًا، ولكن النبي ﷺ لم يكن من الذين يحتقرون شعبًا من الشعوب، بل كان ينظر إلى الجميع بأنهم خلق الله وسواسية عنده. فكان يحب اليونان والأحباش كما أحب العرب، وإن حبه لهم هو الذي جعل الشعوب الأخرى يحبونه ﷺ حبًّا لم يكن كثير من العرب ليفهموا سببه. لقد وُلد النبي ﷺ في مكة، ووُلد بين العرب، وكان من قبيلة قريش التي كانت تعتبر نفسها أفضل من جميع القبائل العربية، فما له وللأحباش؟ المفروض أن يحبه بنو هاشم أو قريش أو العرب، أما الشعوب الأخرى التي قد دمرت جيوشه ﷺ دُولها، والتي قضت الدولة الإسلامية على تفوُّقها القومي، فكيف يمكن أن تحبه ﷺ يا ترى؟ كان من المفروض أن تعادي هذه الشعوب النبي ﷺ، ولكنها قد أحبته ﷺ حبًا جمًا. فبعد وفاة النبي ﷺ بعدة سنوات اجتمع بعض المسلمين في دمشق وقالوا فيما بينهم: كان بلال ﷺ يؤذّن في حياة النبي ﷺ، تعالوا نسمع منه الأذان مرة أخرى. وكان بلال ﷺ قد انتقل بعد وفاة النبي ﷺ من المدينة إلى دمشق. فلما أعربوا له عن رغبتهم رفض وقال: لقد امتنعت عن رفع الأذان بعد وفاة النبي ﷺ، لأنني كلما أريد رفع الأذان تتراءى لي أيام عهد النبي ﷺ المباركة، فلا أتمالك نفسي. وكان عمر ﷺ نازلاً في دمشق في تلك الأيام، فالتمسوا إليه أن يأمر بلالاً برفع الأذان وقالوا: بيننا قوم قد رأوا النبي ﷺ ويتلهفون لسماع أذان بلال مرة أخرى، وبيننا قوم آخرون لم يروا النبي ﷺ وإنما سمعوا عنه فقط، وهم أيضًا يتمنون أن يسمعوا الأذان من هذا الإنسان الذي كان النبي ﷺ يسمع أذانه. فدعاه عمر ﷺ وقال: يا بلال، إن الناس يرجونك أن تؤذن من أجلهم. فقال: أميرَ

المؤمنين، أنت خليفتنا فما دمت تريد أن أؤذن فلا خيار أمامي، ولكن قلبي لا يقدر على رفع الأذان. فقام بلال ﷺ وأخذ يرفع الأذان كما كان يرفعه في عهد النبي ﷺ، فلما انطلق صوته في الجو تذكر الصحابة العربُ العهدَ النبوي المبارك، ففاضت العيون بالدموع وانطلقت صرخات البكاء عالية، أما بلال ﷺ الحبشي الذي كان العرب يسخّرونه لخدمتهم، والذي لم تربطه بالعرب قرابة ولا أُخوّة، فما أن ختم الأذان حتى سقط مغشيًا عليه وفاضت روحه.°

لقد كانت شهادةً من قبل الشعوب غير العربية على صدق ما ادعاه النبي ﷺ بأنه لا فرق عنده بين عربي وعجمي. لقد كانت شهادةً من أجانب سمعوا من صوت النبي ﷺ الحنون ورأوا من آثار صدق هذا الصوت ما ملأهم باليقين بأن شعوبهم أيضًا لا يمكن أن تحبهم كما أحبهم النبي ﷺ.

ثم إن الناس ينسون وقت موقم آلام الآخرين لأن سكرات الموت تكون مؤلمة جدًا، حيث تقول عائشة ﷺ إنها كانت تظن أن الذي يُقاسي الآلام وقت موته يكون شخصًا آثمًا، ولكنها لما رأت النبي ﷺ وقت موته علمت أنها كانت على خطأ، إذ قاسى النبي ﷺ وقت موته آلامًا شديدةً (البخاري: كتاب المرضى، باب شدة المرض). والمرء عندما يحين موته يُوصي أعزته وأقاربه عادة بأمور دنياه، ولكنك ترى النبي ﷺ أنه حين أصيب بمرض الموت و لم يقدر على المشي جاء يومًا إلى المسجد مستندًا إلى بعض أصحابه، فجمع الناس وقال: كل إنسان يوصي عند موته، وأنا أيضًا أوصيكم وصية ألا وهي أن عبيدكم عبادُ الله مثلكم وإخوانكم، فعاملوهم بالحسنى دائمًا، ومن لم يستطع ذلك منكم فليُعتق عبده، ومن أراد أن يستعين بعبده في عمل فليُطعِمه مما يَطعَم ويكسوه مما يلبس، ومن لم يستطع ذلك فلا حق له أن

° يبدو أنه قد حصل هنا سهو، لأن المصادر لا تذكر أن بلالاً ﷺ أُغمي عليه ومات بعد الأذان، بل ورد فيها ما يلي: "إنه أذّن لعُمر بن الخطاب لما دخل الشامَ مرةً واحدة، فلم يُرَ باكيًا أكثر من ذلك اليوم." (أسد الغابة: تحت بلال بن رباح) (المترجم)

يستعين به في خدمته. ثم قال النبي ﷺ: يا أصحابي إن النساء هدفٌ للظلم الشديد، فعاشِروهن بالحسنى وأدّوا حقوقهن.◈

إننا لا نعرف شيئًا عن أحوال الأنبياء السابقين وقت وفاهم إلا المسيح عليه السلام، فعندما كان معلقًا على الصليب - وإن لم يكن الوقت وقت موته - فتح عينيه ووجد عنده أُمه مريم تقف حزينة، فعلم أنها تخاف من موت ابنها على الصليب، ولن يكون هناك بعده من يرعاها، فتوجه المسيح عليه السلام إلى حواريه "توما" فقال له- وإن لم يستطع أن يكمل كلامه من شدة عواطفه - يا "توما"، هذه أمك، وقال لأمه: أيتها المرأة هذا ابنك، أي أني أثق بـــ "توما" وأجعله ابنًا لك يا أمي، وهذه أمك يا "توما".

لا شك أن هذه العاطفة التي تولدت في قلب المسيح عاطفة سامية للغاية، ولكن الذي ينسى عند وفاته جميع أعزته وأقاربه ويقضي آخر لحظاته في تذكُّر الضعفاء والمظلومين، فما أعظمَه حُبًّا وما أروعَه عاطفة. فإن النبي ﷺ لم يفكر عند موته إلا في المظلومين المقهورين المنبوذين الذين لا حول لهم ولا قوة، وليس ثمة من يرعاهم ويهتم بهم.

◈ أقرب رواية وجدناها بهذا المعنى تقول: "كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أن قال: "اتقوا الله فيما ملكتْ أيمانكم. أطعموهم مما تأكلون، وأن تكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون. فما أحببتم فأَمسكوا وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله، فإن الله ملّككم إياهم ولو شاء لملّكهم إياكم. (تخريج أحاديث الإحياء، للحافظ العراقي، المجلد الثاني الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم)

عن كعب بن مالك قال : عهدي بنبيّكم قبل وفاته بخمس ليال فسمعته يقول: لم يكن نبي إلا وله خليل من أمته وإن خليلي منكم أبو بكر بن أبي قحافة، وإن الله اتخذ صاحبكم خليلا، وإن من كان قبلكم اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحائهم مساجد، ألا وإني أنهاكم عن ذلك ثلاث مرار.

ثم أغمي عليه فأفاق فقال: اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وأَلِينوا لهم في القول". (كنز العمال للعلامة المتقي الهندي ج١٢ رقم الحديث ٣٥٦٤١) (المترجم)

ثم إن الكلمة التي جرت على لسانه وقت الوفاة هي: "لعَن الله اليهودَ والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ" (مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور). كان اليهود والنصارى يؤمنون بالتوحيد في الظاهر، ولكن النبي ﷺ قد كرِه الذين كانوا يسجدون منهم للقبور. والحق أن النبي ﷺ كان يعني بقوله هذا: أيها المسلمون لا تتخذوا أحدًا رب العالمين، إذ ليس ثمة رب للعالمين إلا الله الواحد الذي هو مالك السموات والأرض.

ثم عندما حانت وفاته ﷺ جرت على لسانه الكلمة التالية: "اللهم الرفيقَ الأعلى، اللهم الرفيقَ الأعلى" (البخاري: كتاب المغازي، باب آخر ما تكلم به النبي ﷺ). لا شك أن النبي ﷺ قد استعمل هنا لفظ "الرفيق"، ولكن كلمة "الأعلى" تدل على أنه يشير إلى رب العالمين، فكأنما أشار بلفظ "الرفيق" إلى علاقته بالله تعالى، وبلفظ "الأعلى" إلى كونه تعالى رب العالمين.

فثبت أن محمدًا رسول الله ﷺ هو الوحيد الذي أرسى في الدنيا تصوُّر ﴿رب العالمين﴾ في الحقيقة، وإلى الأمر نفسه تشير الآية قيد التفسير، حيث بين الله تعالى فيها أن الأنبياء السابقين كلهم قد جاءوا لهداية أقوامهم فقط، وكان الوحي النازل عليهم مختصًا بقومهم وعصرهم، ولكن الوحي الذي نــزل الآن قد نــزل من الله رب العالمين، ومن أجل الشعوب كلها والبلدان كلها، والعصور والأزمان كلها إلى يوم القيامة.

ومن أعظم مزايا هذا الوحي أنه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

يتباهى المسيحيون دائمًا أن روح القدس نــزل على المسيح ؑ، والقرآن الكريم يعلن هنا أنه لم ينــزل على محمد رسول الله ﷺ روح القدس فقط، بل قد نــزل عليه ﴿الرُّوحُ الأَمِينُ﴾. وقد ذُكر نــزول روح القدس على النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:١٠٣). فمن الخطأ تمامًا القول أن روح القدس لم ينــزل إلا على المسيح ؑ، بل الحق أن الروح القدس قد نــزل بالقرآن الكريم أيضًا، وقد

نـــزل على الأنبياء السابقين أيضًا. بل يعلن القرآن الكريم أن كل ملاك يكون مقدسًا ومعصومًا، وبالتالي فكل ملاك ينـــزل بكلام الله ﷻ يكون "روح القدس" في الواقع، إذ قد وصف الله تعالى ملائكته بقوله: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم:٧). فلفظ الملاك نفسه يتضمن مفهوم روح القدس في الحقيقة.

بيد أن القرآن الكريم يمتاز عن غيره من الكتب بكونه قد نـــزل به ﴿الروح الأمين﴾ على الرسول ﷺ، أي أنه قد نـــزل عليه ﷺ بالقرآن ذلك الملاك الذي كان من واجبه أن يوصل القرآن إليه ﷺ بشكل صحيح سليم. وهذا يعني أن الله تعالى قد قام بحفظ القرآن الكريم من الجهتين، فأولاً لم يدَعْ عند نـــزوله مجالاً للخطأ أو النسيان إذ نـــزل به ﴿الروح الأمين﴾، وثانيًا وعد ﷻ بحفظ القرآن بعد نـــزوله حفظًا أبديًا حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:١٠). وكأن الله تعالى قام بحماية القرآن الكريم في الفترتين حالاً ومستقبلاً. ولكن ليس هناك وعد رباني بحماية الإنجيل في الفترتين، إذ لا توجد فيه فقرة واحدة تؤكد حفظ وحيه أثناء نـــزوله أو أثناء بقائه في ذاكرة المسيح عليه السلام قبل أن ينتشر بين الناس، كما لا توجد فيه أيّ فقرة تدل على وعد إلهي بحفظ وحيه إلى يوم القيامة بعدما أملاه المسيح على أصحابه أو قرأه على الناس؛ فثبت من الإنجيل نفسه أنه لا يتمتع بحماية الله تعالى. أما القرآن الكريم فيتضمن الأدلة على حماية الله ﷻ له حماية كاملة. فالآية قيد التفسير تشير إلى حفظ القرآن بدءًا من نـــزول وحيه على القلب المطهر للنبي ﷺ إلى شيوعه بين الناس. أما الدليل على حفظ القرآن الكريم بعد شيوعه وانتشاره بين الناس فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

مجمل القول إنما جيء هنا بكلمة ﴿الروح الأمين﴾ للإشارة إلى أن الله تعالى قد تولى حفظ هذا الوحي على وجه الخصوص كي يظل مصونًا من الفساد الذي قد تطرق إلى الصحف السابقة، وإلا فإن كل ملاك يكون أمينًا. والواقع أن وصف الشيء بصفة معينة يكون إشارة إلى ظهور تلك الصفة فيه بوجه خاص، فعندما قيل

إن هذا الوحي قد جاء به ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ فإنما أُريد به التأكيد أن هذا الوحي متصف بالقداسة بوجه خاص، والحق أن هذه الصفة مشتركة في وحي جميع الأنبياء. ولكن لم يرد عن وحي أي نبي أن ﴿الروح الأمين﴾ قد نــزل به، وإنما ورد عن القرآن الكريم فقط أن ﴿الروح الأمين﴾ جبريل عليه السلام قد نــزل به من عند الله سبحانه وتعالى على محمد ﷺ، ولذلك لم يُحفَظ من بين جميع ما نــزل من وحي الله على الأنبياء إلا ما نــزل على محمد ﷺ؛ إذ تعرضت الصحف السابقة كلها للعبث والتحريف بأيدي الناس.

ثم يقول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ﴾.. أي أن ﴿الروح الأمين﴾ مسؤول عن حفظ ما ينــزل إليك من الوحي بدءًا من نــزوله إلى أن يسري في قلبك لكي تبلّغه الناس على أحسن وجه. واعلم أن نــزول الوحي على القلب يعني أن الله تعالى كما يُنــزل الوحي بكلماته فإنه يُقوّي قلب النبي أيضًا بنــزوله، بمعنى أن الشخص الذي ينــزل عليه الوحي يُمنح طهارة القلب والاستقامة والثبات، لكي ينجح في نشر الوحي وإقامته في العالم. إذًا، فنــزول الوحي على القلب يعني أن صاحب الوحي لا يكون مجرد رسول فحسب، بل إن الوحي يسري في قلبه ويتغلغل حتى يصبح جزءًا من كيانه.

واقع الأمر أن هناك فرقًا بين الوحي التشريعي وغير التشريعي أو الوحي الظلي، وهو أن كل وحي تشريعي ينــزل على قلب النبي أيضًا لكونه مأمورًا بأن يعلن للناس: ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما نــزل علي من الوحي (الأعراف:١٤٤)، ولذلك ينــزل على قلبه أيضًا ليقوي قلبه ويثبّته. لقد أخطأ البعض وخاصة "البهائيون" في فهم هذه الآية، فظنوا أن كل فكرة تخطر بالقلب وحي. كلا، لأن القرآن الكريم والحديث الشريف يبيّنان أن الوحي ينــزل على اللسان أيضًا، حيث يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾(القيامة:١٧). والحق أن هذا النوع من الوحي يكون وحيًا مزدوجًا حيث ينــزل على اللسان وعلى القلب أيضًا. أما الوحي الذي ينــزل على الآخرين فيكون وحيًا ظليًا وبروزيًا، ولا ينــزل بالضرورة على القلب، بل ينــزل حينًا على الأذن فيسمع صاحبه كلامًا ويقول:

لقد تلقيت وحيًا كذا، أو تجري كلمات على لسانه فيقول: لقد تلقيت وحيًا كذا، أو يقول: قد جرى على لساني كلام كذا. أما الأنبياء المشرعون فوحيهم – وأحيانًا وحي الأنبياء الظليين والبروزيين أيضًا – لا ينـــزل على الأذن واللسان فحسب بل ينـــزل في وقت واحد على الأذن أو اللسان والقلب، بل الحق أنه ينـــزل في وقت واحد على الثلاثة: الأذن أو اللسان، والقلب والدماغ. ومثاله قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾(الواقعة:٧٨-٧٩).. أي أن هذا الوحي قد نـــزل على صورة القرآن الكريم من ناحية، ومن ناحية أخرى قد أُودِعَ هذا الوحي في الفطرة الإنسانية أيضًا.

قصارى القول إن وحي الأنبياء المشرعين ينـــزل على القلب أيضًا ويتغلغل فيه كما يدخل المسمار في الخشب، إضافةً إلى نـــزوله على اللسان أو الأذن. هذه هي الحقيقة التي قد أشار الله تعالى هنا بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ﴾.. أي بما أن هذا الوحي ينـــزل على قلبك فيغمرك باستقامة خارقة، حتى تقول لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك نشر وحدانية الله تعالى فلن أتخلى عن ذلك، لأن وحي الله تعالى ينـــزل على قلبي ولو لم ينـــزل على قلبي فربما رضيت بما تقولون، ولكن لا مجال للاستجابة لما تطلبون، لأن الله تعالى أنـــزل وحيه على قلبي، وثبّتَ عقيدة التوحيد في فؤادي كمسمار حديدي.

إذًا، فإن الذين استنتجوا من هذه الآية أن كل ما يخطر ببال الإنسان من فكرة وخيال هو الوحي منخدعون في الواقع، لأن الله تعالى قد بين هنا أن الوحي ينـــزل على اللسان والأذن وعلى القلب أيضًا من أجل التوثيق والتأييد. أما "بهاء الله" فيعترف من ناحية أنه لا يتلقى وحيًا لفظيًا، ومن ناحية أخرى يعتبر ما يخطر بباله من خواطر وأفكار "وحيًا". ونفس الحال بالنسبة لـــ "غاندي" حيث يسمي هو الآخر أفكاره "إلهامًا" في بعض الأحيان. ولكن الوحي الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ينـــزل بكلمات محددة متكررة مرة تلو المرة، وتجري على القلب أيضًا بالإضافة إلى نـــزولها على اللسان والأذن، وتتكرر جملة واحدة منه مدة نصف ساعة في بعض الأحيان.

ولو أن القرآن الكريم اكتفى بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ﴾ لجاز أن ينخدع أحد ويقول أن القرآن يعتبر كل ما يختلج في قلب المرء من خواطر وأفكار وحيًا. ولكن القرآن الكريم قد صرح في آيات أخرى أن الوحي النازل على الرسول ﷺ ينـــزل على لسانه وأذنه أيضًا ويكون بكلمات معينة. قال الله ﷻ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾(القيامة:١٧-١٨). فهذه الآية تبين بوضوح أن الوحي كان ينـــزل على الرسول ﷺ بسرعة كبيرة، فكان يحاول أن يردده بلسانه بسرعة ليضبط كلماته ويحفظها في ذاكرته حفظًا تامًّا، فطَمْأَنه الله ﷻ وقال لا حاجة لهذا لأن الوحي النازل عليك وحي تشريعي، والوحي التشريعي لا يُنسَى لأنه إذا نُسي أصبح الوحي المتلوّ ناقصًا؛ فاعلم أن علينا جمع هذا الوحي وقراءته على الدنيا أيضًا، فاقرأه بهدوء وراء قراءتنا إياه عليك.

فهذه الآية نص صريح على أن القرآن الكريم لم يكن ينـــزل على قلب النبي ﷺ المطهر فقط، بل كان الله ﷻ يُقرئه إياه أيضًا على الدوام، ومن المحال أن يُقرِئه الله ﷻ وحيه ما لم يكن بكلمات معينة.

ثم إن القرآن الكريم قد صرح في مكان آخر أن هذا الوحي كلام الله ﷻ وذلك دفعًا للوسوسة القائلة بأن محمدا ﷺ قد اعتبر ما اختلج في قلبه من أفكار وحيًا إلهيا. فإن لفظ "كلام الله" إشارة إلى أن ما في هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته كله كلام الله ﷻ، وليس فيه كلمة واحدة هي من افتراء البشر، دعك عن أن يكون مما اختلج في قلبه من خواطر وأفكار. قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:٦).. أي لو أن أحدًا من المشركين الذين يحاربونك طلب منك الجوار والأمان فعليك أن تجيره ليسمع الكتاب الذي نـــزل عليك والذي هو كله كلام الله ﷻ، فإذا سمع كلام الله أراد العودة إلى قومه فعليك أن توصله إلى المكان الذي يأمن فيه من أي خطر.

كذلك قال الله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:٢-٣). فهذه الآية أيضًا تصرح أن آيات القرآن الكريم كانت تنـزل على النبي ﷺ بكلمات محددة معينة، فكان يقرأها بسهولة.

ثم إن القرآن الكريم يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ويقول أيضًا: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، ويقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ويقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وكل هذه الآيات تدل على أن وحي القرآن الكريم كان ينـزل بكلمات معينة.

كذلك ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال إن الوحي ينـزل عليه أحيانًا "كصَلصَلة الجرس". والبديهي أن صوت الجرس يُسمَع بالأذن. وقال النبي ﷺ أيضًا: "وأَحيانًا يتمثل لي الملَك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول" (البخاري: كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي). فقد ثبت من ذلك كله أن وحي الله تعالى ينـزل على اللسان والأذن والعين أيضًا، كما أنه ينـزل على القلب أيضًا مما يجعل صاحبه أول المؤمنين به. وبما أن القلب منبع جميع العقائد والأفكار فبنـزول الوحي على القلب يصلُح كل شيء تلقائيًا.

باختصار، إن للوحي مراتب ودرجات، ووحي الأنبياء المشرعين لا يكون من نوع الوحي الذي ينـزل على الأنبياء البروزيين والظليين. إن الأنبياء البروزيين والظليين يمكن أن ينسوا وحيهم، ولكن الأنبياء المشرعين لا ينسون ما ينـزل عليهم من وحي تشريعي، لأنهم إذا نسوا الشرع هلكت أمتهم. كذلك لا يُنسى من الوحي الذي ينـزل على الأنبياء البروزيين والظليين ما يكون شرحًا وتوضيحًا لوحي الأنبياء المشرعين السابقين، أو يكون بيانًا لأمر روحاني خاص، لأن مثل هذا الوحي أيضًا يخضع للقانون الخاص بالوحي التشريعي، لأن الناس بحاجة إلى مثل هذا الوحي أيضًا. لا شك أن الوحي العام أيضًا يكون محفوظًا، فمثلاً لو تلقى المرء وحيًا عن موت أحد وتفشّي الطاعون، فلا بد من حفظه وحمايته لأن الأخبار الغيبية التي يُطلِع عليها الله أحدًا من عباده لو تم نسيانها كلها فبماذا يخبر الناسَ؟ ولكن مثل هذا الوحي لا يتمتع بنفس الحفظ والحماية التي يتمتع بها الوحي التشريعي الذي يُحفظ كل كلمة وحركة منه.

ثم يقول الله ﷻ بعد ذلك: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.. أي أن الله تعالى قد أنــزل هذا الوحي بلسان يُبين مطالبه ومَقاصِده أيَّما بيان. والحق أن من أسباب حفظ الوحي أن يوجد في الدنيا من يفهمه، وقد هيأ الله ﷻ هذا السبب للقرآن الكريم ليحفظه به، حيث أنــزله الله تعالى بلسان يوضح مطالبه أيما إيضاح، كما يتضمن أدلة صدقه بجميع أنواعها. فقد قال الإمام الراغب في كتابه الشهير لشرح غريب القرآن الكريم "المفردات": "العربي: المُفصِح"، والإعراب: البيان". وعليه فقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ يعني أنه تعالى أنــزل وحيه التشريعي الأخير بلسان يوضح معارفه ومعانيه تمامًا ويفصل كل قضية تفصيلاً، وليس هذا فحسب بل إنه مليء بالأدلة والبراهين أيضًا. وهذا يعني أن إعجاز القرآن لا يكمن في نــزوله باللغة العربية فحسب، بل في نــزوله بلسان عربي مبين.. أي بلغة قادرة على الإيضاح ومليئة بالأدلة والبراهين على صحة ما فيها من أحكام، حيث تبين لنا لماذا أعطانا الله تعالى هذه التعليمات، ولماذا أمر بالإيمان بالله وملائكته ورسله، ولماذا نهى عن الكذب، ولماذا أمر بالصدق ومنع من الظلم ودعا إلى العدل والإنصاف. فإن الكذاب يمكن أن يدعي بأي شيء، ولكنه لا يقدر على أن يأتي بدليل على صدق ما يدعي؟ أما هذا الوحي فلم ينــزل بلسان عربي فحسب، بل هو مبين أيضًا، بمعنى أنه يوضح الكلام تمامًا ويسوق أدلة صحته أيضًا.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾.. أي أن من فضائل القرآن الكريم أنه مذكور في صحف الأنبياء السابقين الذين أنبأوا صراحة بنــزوله، بل أخبروا أن هذا الوحي سيُقرَأ على الناس بلسان نبي عربي. وعلى سبيل المثال أنقل فيما يلي نبوءة النبي "إشعياء" الذي أنبأ في كتابه عن بعثة محمد رسول الله ﷺ قائلا:

"لِمَنْ يعلِّم معرفةً؟ ولِمن يُفهِم تعليمًا؟ ألِلْمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثُّدِيّ؟ لأنه أمرٌ على أمر، أمرٌ على أمر، فرضٌ على فرض، فرضٌ على فرض. هنا قليلٌ، هناك قليل. إنه "بشفةِ الوحشيِّ"* وبلسان آخر يكلِّم هذا الشعبَ الذين قال

* هكذا ورد في النسخة الأردية بينما ورد في النسخة العربية: "بشفةٍ لَكْناءَ." (المترجم)

لهم: هذه هي الراحة، أَرِيحوا الرازحَ، وهذا هو السكون. ولكن لم يشاءوا أن يسمعوا، فكان لهم قولُ الرب أمرًا على أمر، أمرًا على أمر، فرضًا على فرض، فرضًا على فرض. هنا قليلا، هناك قليلا، لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء، وينكسروا ويُصادوا فيُؤخذوا" (إشعياء ٢٨: ٩-١٣).

فها هو النبي إشعياء عليه السلام يتنبأ هنا أن الله تعالى سيُنـزل بعد انقضاء فترة من الزمان لبنًا من السماء ثانية لإزالة جوع الناس وعطشهم، ولكن هذا اللبن سيُسقى لأمة ظل أفرادها مفصولين عن الثدي فترة طويلة، أي الذين طالت عليهم فترة انقطاع الوحي. ومن خصائص ذلك الوحي أن الله لن ينـزله دفعة واحدة، ولا في مكان واحد أو مدينة واحدة، بل سينـزل حكمًا بعد حكم، وقانونًا بعد قانون، وفي أماكن شتى، وسوف يكتمل هذا الدستور الرباني في مدة طويلة. ومن خصائص هذا الوحي الموعود أيضًا أنه سينـزل بلغة أجنبية، وأن ذلك الرسول الكريم سيتكلم بشفة كشفة الوحشي. وكلمة "الوحشي" هنا إشارة إلى كون محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيًا عربيًا، لأن مصطلح "الوحشي" ورد في التوراة بمعنى العرب، ولذلك سُمي إسماعيل عليه السلام في التوراة وحشيًا (التكوين ١٦: ١٢). والواقع أن هذه الكلمة قد استعملها بنو إسرائيل من جراء العصبية ضد العرب، فكان بوسعهم أن يستعملوا كلمة "العرب" لو خلوا من التعصب، ولكنهم قاموا بترجمة كلمة "العرب" أوّلاً، ثم ترجموا الكلمة المترجمة أيضًا وحوّلوها إلى "الوحشي". ولقد اختاروا هذه الكلمة للعرب لأن مادة "ع ر ب" تعني الإفصاح عما في الضمير على أحسن وجه، وقد سُمّي العرب عربًا لشغفهم بالأدب وولوعهم بالكلام الفصيح البليغ. ولكنهم كانوا يعيشون في الخيام في البادية، فأطلق عليهم أعداؤهم تسمية "الوحشي". وقد استُعملت نفس التسمية في التوراة أيضًا، ولذلك ورد في نبوءة إشعياء النبي "إنه بشفة الوحشيِّ ولسان آخر يكلم هذا الشعب". أي أنه سيُبعث بين العرب وسوف ينـزل عليه كلام الله سبحانه وتعالى بلسان عربي. وللإشارة إلى الأمر

نفسه قد قال القرآن الكريم: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وقال يجب ألا يتردد هؤلاء في تصديق هذا الوحي لأن هناك نبوءات عن نـــزوله في كتب أنبيائهم.٥

ثم يقول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.. أي أليس آيةً لهم أن علماء بني إسرائيل أيضًا يعلمون هذا القرآن.. بمعنى أن أنبياء بني إسرائيل الذين خلوا قبل محمد ﷺ بأحقاب طويلة قد أنبأوا بنـــزول هذا القرآن، وقد تحققت أنباؤهم فيه ﷺ والقرآن الكريم، أفلا تكفيهم هذه الآية للإيمان بالقرآن؟

وهذه الآية تُلقي الضوء على مسألة أخرى أيضًا، ذلك أن الله ﷻ يقول في الآية التي قبلها: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾.. أي أن القرآن الكريم مذكور في الصحف السابقة. والمعروف أن الصحف إنما تنـــزل على الأنبياء، بينما تقول هذه الآية أو لم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل، فثبت من ذلك جليًا أن المراد من الأنبياء هنا أولئك القوم الذين نـــزلت عليهم تلك الزبر والصحف؛ وبما أن النبي ﷺ قال: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل" (مكتوب الإمام الرباني، الدفتر الأول الجزء الرابع ص٣٣ المكتوب رقم ٢٣٤)، فنستطيع، بناءً على هذه الآية، أن نقول بكل جزم ويقين أن هذا الحديث النبوي يعني "أنبياء أمتي كأنبياء بني إسرائيل".. أي سيأتي في أمتي أنبياء من نوع الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل. بيد أن هذا لا يعني إمكانية مجيء نبي مشرع في أمة الرسول ﷺ، ذلك لأن المشابهة قد تكون في كل الأمور وقد تكون في بعضها. وبما أن الله ﷻ قد وعد في القرآن الكريم بحفظه دائمًا، فمن المحال أن ينـــزل بعده أي شرع جديد. إذًا فلن يأتي في هذه الأمة إلا نبي ليس معه أي شرع جديد. والحديث يؤكد أن الرسول ﷺ قد سلّم بمجيء هذا النوع من الأنبياء في الأمة.

---

٥ ومن يرغب في المزيد من الاطلاع على هذه النبوءات فليرجع إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة:٤٢) في المجلد الأول من هذا التفسير. (المؤلف)

وبوسع كل إنسان يتدبر هذه الآيات أن يدرك كيف أن الله ﷻ قد تناول موضوع صدق القرآن وعظمته وضرورته بأسلوب شامل ورائع. فبيّن أوّلاً: أن هذا الكتاب قد أنــزله الله ﷻ؛ وثانيًا: أنه قد نــزل به جبريل عليه السلام؛ وثالثًا: أنه قد نــزل على قلب إنسان طاهر مقدس مثل محمد ﷺ؛ ورابعًا: أنه قد نــزل لتحذير الضالين من الأخطار التي ستواجههم في حياتهم؛ وخامسًا: أن لغته اللسان العربي المبين؛ وسادسًا: أن أنباء نــزوله لموجودة في الصحف السابقة، أو أن هذا الكتاب يشبه الصحف السابقة في أحكامها الجوهرية، فإنكاره هو إنكار جميع الديانات وكافة الرسل في الحقيقة، والإيمان به يمنح صاحبه جميع البركات والأنوار التي تمتع ببعضها بعض الشعوب في عصر معين، بل إن من ذاق حلاوة الإيمان فيكفيه آيةً أن أنبياء بني إسرائيل أيضًا قد تنبأوا بنــزول هذا الكتاب. فمن يكفر به، رغم هذه الأدلة على صدقه، أفلا يكون محرومًا من البصيرة الروحانية؟

وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٩﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٠﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٣﴾ فَيَقُولُوا۟
هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٥﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن
مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٦﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٧﴾ مَآ

أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٨﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٩﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢١٠﴾

شرح الكلمات:

الأعجمين: جمعُ الأعجم، وهو من لا يُفصِح ولا يبيّن كلامه وإنْ كان من العرب؛ وأيضًا من ليس بعربي وإن أفصحَ بالعجمية. (الأقرب)

سلَكْناه: سلَك الشيءَ في الشيء: أدخلَه فيه كما تُسلَك اليدُ في الجيب والخيطُ في الإبرة (الأقرب).

مُنظَرون: أنظرَ المعسرَ: أمهلَه (الأقرب).

التفسير: وكما سبق في شرح المفردات فإن من معاني "الأعجم" من ليس بعربي وإن أفصحَ. وهذا هو المعنى المقصود في هذه الآية حيث بين الله سبحانه وتعالى أننا لو أرسلنا هذا الكلام مع شخص غير عربي لقال هؤلاء إنه ليس من قومنا، ولا نعرف أحواله فربما يخدعنا، ولكن محمدًا رسول الله ﷺ قد بُعث من بين العرب، وهم يعرفون أحواله جيدًا، فكيف لا يعرفون صدقه من كذبه؟ فإن الذي لم يكذب على الناس في حياته كلها قط، كيف يفتري على الله تعالى؟ ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ في مكان آخر من القرآن الكريم بالإعلان التالي: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِه أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(يونس:١٧).. أي أفلا تفهمون، يا قوم، أن الشخص الذي كنتم تعترفون بصدقه وسداده حتى الأمس كيف يمكن أن ينقلب فجأة ضد الحق والصدق، فيفتري على الله سبحانه وتعالى؟ وهنا أيضًا قد نبه الله سبحانه وتعالى الكافرين إلى الأمر نفسه وقال إن محمدًا ﷺ من العرب ومن سكان مكة، فلو كان قد عاش في بلد أجنبي فكان بوسعهم أن يقولوا لا شك أنه من قومنا ولكنه قد عاش في الخارج، ولم نطلع على أحواله، فلا نستطيع الجزم بصدقه أو كذبه. أما الآن، فلم يبقَ أمامهم مجال للإنكار لأنه ﷺ من قومهم أوّلاً، ثم إنه قد عاش بين ظهرانيهم طفلاً وشابًا، فيعلمون أخلاقه جيدًا بل يشهدون أنه لم يكذب قط، وإنما بلغ من الصدق والأمانة ما

جعلهم يعتبرونه أكثرهم صدقًا وأمانة. فكيف يعتبرونه كذابًا رغم هذه البراهين الدالة على صدقه من ناحية، ورغم تحقُّق نبوءات الأنبياء السابقين في شخصه من ناحية أخرى.

وبما أن العرب عارضوا نبينا ﷺ غاضّين النظر عن كل هذه البراهين الدالة على صدقه، فقال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۞ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.. أي أن إنكار قومه ﷺ دليل على أنهم يحذون حذو مَن قبلهم من الأمم. فإنهم قد رأوا الآيات من موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومع ذلك كفروا بهم، وأهل مكة أيضًا يتبعون خطوات السابقين، ولن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.. أي سيأتيهم العذاب حتمًا ولكنه سيفاجئهم بغتةً كما هي سنة الله المستمرة منذ القدم، فيأتيهم من حيث لا يدرون.

وبالفعل تجد أن حادث يوم الفتح قد وقع فجأة حتى حيّر أبا سفيان أيضًا الذي كان من الزعماء المحنكين المجربين. فإنه لما رأى حول مكة نيرانًا مشتعلة في ظلمة الليل أمام خيام عشرة آلاف جندي قال لرفاقه مذعورًا: ما هذا الذي أراه؟ هل نـــزل جيش من السماء؟ فليس هناك قبيلة عربية يبلغ جنودها هذا العدد الهائل. فأخذ رفاقه يذكرون له أسماء مختلف القبائل، فكان يرفض رأيهم في كل مرة ويقول: كلا ليست هناك قبيلة عربية لها مثل هذه الجنود. وبينما هو يتحدث مع رفاقه فاجأه حرس المسلمين، وألقوا القبض عليه وعلى أصحابه. (البخاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، وتاريخ الخميس: غزوة فتح مكة)

ثم إنك ترى أن هؤلاء القوم آمنوا بالنبي ﷺ بعد رؤية العذاب كما كان القرآن الكريم قد أنبأ من قبل، مع أن أكثر أقوام الأنبياء السابقين لم يؤمنوا بهم هكذا، مما أكد أن الله ﷻ عزيز ورحيم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ۞ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۞ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يُمَتَّعُونَ﴾.. أي حينما يؤجَّل عنهم العذاب يقولون في مجالسهم لعلنا أفضل من الأمم السابقة، ولعل العذاب لن يحل علينا عاجلاً، وهكذا يتحدّون غضب الله ﷻ باستهزائهم وسخريتهم، ويريدون أن يعجّل لهم العذاب. لِمَ لا يفكر هؤلاء أننا لو أخّرنا عنهم العذاب بعض الوقت ثم أهلكناهم فماذا ينفعهم تأجيل العذاب؟ إنما ينفعهم أن يؤمنوا ويهتدوا، ولكنهم لا يسلكون طريق الهدى.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُونَ ۞ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.. أي ليتهم يفكرون فيما إذا كنا قد أهلكنا قبلهم أية قرية بدون إقامة الحجَة على أهلها. فما دام التاريخ يشهد أنه لم يحل العذاب بقوم إلا بعد بعثة نبي فيهم ليعظهم وينصحهم بترك السيئات، لذا لو أنـزلنا عليهم العذاب بدون إنذار لكنا ظالمين عند الناس، ولكنا لا نفعل هكذا ولا نهلك قومًا بعذابنا بدون الإنذار. فعلى هؤلاء القوم أيضًا أن يدركوا أنه ما دام قد جاءهم منذر فلا بد أن يأتيهم العذاب أيضًا نتيجة كفرهم به، ذلك لأن العذاب كما لا يأتي إلا بعد مجيء منذر، كذلك يأتي العذاب حتمًا بعد إنكارِ منذرٍ، لأنه إذا لم ينـزل العذاب بعد إنكاره لعُدّ من الكاذبين المفترين.

وقد بين الله ﷻ بقوله ﴿ذكرى﴾ أن الغرض الأساس من بعثة المنذرين أن يتعظ الناس ويصلحوا ما بأنفسهم، وليس أن يُهلَكوا ويُدمَّروا، ولذلك يُؤخَّر العذاب عن قوم رغم مجيء منذر إليهم، لكي يؤمن به من يؤمن. ولكن لو حل العذاب بعد بعثة نبي فورًا لم تبقَ هناك فرصة للذين يريدون أن يتعظوا ويتوبوا.

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٣﴾ فَلَا
تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٤﴾

التفسير: لقد رد الله ﷻ هنا على أحد مطاعن الكافرين حيث قالوا إن محمدًا ﷺ على صلة مع الشيطان - والعياذ بالله - وهو الذي يوحي إليه.

لا شك أن القرآن الكريم لم يذكر هذا الاعتراض بكلمات محددة، إلا أنه قد أشار إليه في أماكن شتى كقوله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾(التكوير:٢٦)، كما قال الله ﷻ هنا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾.

من المؤسف أن بعض المفسرين قد دعموا هذا الاعتراض الذي قد أثاره الكافرون وبالتالي قد ناولوا أعداءَ الإسلام سلاحًا خطيرًا. فيقولون أن رؤساء الكفر بمكة جاءوا النبي ﷺ مرة وقالوا إنه لم يؤمن بك إلا أراذل القوم، ولو لِنتَ في موقفك حضرنا مجلسك ليحضره باقي القوم أيضًا. وبينما هم في هذا الحديث حان وقت الصلاة، فقرأ النبي ﷺ في صلاته قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾(النجم:٢٠-٢١)، فألقى الشيطان على لسانه ﷺ الكلمات التالية: "تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لتُرتجى".. أي أن هذه الأصنام ذات الأعناق الطويلة عظيمة وأن هناك أملاً في شفاعتهن. ففرح الكافرون لسماع هذا القول من لسان النبي ﷺ، فلما بلغ نهايةَ السورة سجد فسجدوا كلهم معه ظنًّا منهم أنه ﷺ قد ليّن موقفه. (فتح البيان: قوله تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا إذا تمنى...)

وقد رُويت هذه الرواية بطرق شتى حتى اضطر عالِمٌ عظيم بمكانة "ابن حجر" أيضًا إلى قبولها وتأويلها. (المرجع السابق)

وإني لن أخوض في تفاصيل تأويله الآن إذ سبق أن ناقشنا هذا الموضوع في سورة الحج بالتفصيل، وإنما أريد أن أناقش صحة هذه الواقعة أو عدمها.

ويُعجبني كثيرًا موقف القاضي "عياض" بهذا الصدد حيث قال إن هذه الرواية قد أملاها الشيطان على بعض المحدّثين.. أي إذا كان لا بد من التسليم بسلطة الشيطان على أحد فلمَ لا نقول إن الشيطان قد وسوس لبعض المحدثين فاختلق هذه الرواية.

أما الجواب على ضوء ما ورد في القرآن الكريم فهو كالآتي:

يقال أن هذه الجملة المزعومة قد أجراها الشيطان على لسان الرسول ﷺ بعد ما قرأ قوله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾. في حين أن الله ﷻ يقول في الآية التالية: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۞ إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾(سورة النجم:٢٢-٢٤). كيف يُقال أن النبي ﷺ قرأ بين هذه الآيات الداحضة للشرك ذلك الكلامَ المزعوم، على سبيل المداهنة في عقائده، فسجد الكافرون معه؟ كلا، فمن المحال لأي كافر مهما بلغ من الحمق والغباء أن يسجد مع النبي ﷺ بعد سماع هذه الآيات القرآنية الداحضة للشرك. فإن هذه الآيات من سورة النجم تدل دلالة ساطعة على أن إقحام تلك الجملة المزعومة في هذا السياق مستحيل. كان الكافرون يعرفون اللغة العربية، فكيف يمكن ألا يدركوا أن كل كلمة من هذه السورة تبطل الشرك؟ فكيف يُقال، والحال هذه، أن النبي ﷺ مال إلى المداهنة في عقائده؟

هذا هو الموضوع الذي تناوله الله ﷻ في الآيات قيد التفسير، فبيّن أن اتهام الكافرين النبي ﷺ بنـــزول الشيطان عليه بوحيه لاتهام باطل، وذلك لعدة أسباب. فأولاً: إن هذا الإنسان طيب السيرة طاهر الشمائل، فمن المحال أن يكون للشيطان أي صلة بمثل هذا الإنسان العظيم.

وثانيًا: إن التعاليم التي نـــزلت عليه مقدسة فلا يمكن أن يُنـــزلها الشيطان النجس، إذ كيف يمكن أن يُعلّم الشيطان الناسَ ما فيه هلاكه؟! فما دام الوحي النازل على محمد ﷺ يُعلّم محاربة الشيطان فمن المحال أن يكون نازلاً من الشيطان؟

وثالثًا: إن هذا الكتاب مليء بالمعارف السماوية ويبطل تعاليم الشيطان مرة بعد أخرى، فلا يستطيع الشيطان ولا أعوانه أن يدسّوا فيه شيئا مهما حاولوا ذلك، إذ لن ينسجم في آياته شيء من كلام الشيطان. كما أن الشياطين لا يقدرون على بيان معارف السماء، حيث ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.. أي أن الله ﷻ لم يسمح لهم بسماع ما يجري في السماء من حديث. فالقرآن الكريم يُعلن أن لا أحد من الشياطين يقدر على الوصول إلى السماء، دعك من أن يصلوا إليها ويسمعوا ما يجري فيها من حديث.

ومن المستغرب أنه برغم أن الله ﷻ يعلن هنا أن الشيطان لا يقدر على سماع حديث السماء فإن بعض المسلمين يعتقدون أن الشيطان يصعد إلى السماء ويسمع ما يجري عند العرش من حديث بين جبريل والملأ الأعلى، ثم يعود إلى الأرض، ثم يوحي إلى رفاقه وأعوانه تلك الأخبار (الرازي). مع أننا نرى في هذه الدنيا أن الناس لا يستطيعون أن يصلوا إلى الملوك الصغار والضعفاء أيضًا، بل يخافون ويرتعدون من الاقتراب منهم، فما بالُك بالله ﷻ الذي هو الإله؟ كيف يقدر الشيطان على أن يسترق أسرار إله السماوات والأرض، ثم يشيعها في الناس بصورة مشوهة ممسوخة.

باختصار، إن القرآن الكريم يُفنّد اعتراض الكافرين، مبينًا أن هذا الكلام لم تنـــزل به الشياطين بل إنهم لا يقدرون على ذلك بمعنى أن أحكام القرآن الكريم متعارضة مع ما يعلّمه الشيطان، فكيف يمكن أن يُنـــزل الشيطان بنفسه على محمد ﷺ ما يتعارض مع التعاليم الشيطانية؟!

وهذا الدليل قد قدمه المسيح عليه السلام أيضًا حيث ورد في الإنجيل:

"وكان يُخرِج شيطانًا وكان ذلك أخرسَ، فلما أُخرِجَ الشيطان تكلَّمَ الأخرسُ، فتعجب الجموع. وأما قوم منهم فقالوا: بِبَعْلَزَبُولَ رئيسِ الشياطين يُخرِج الشياطينَ. وآخرون طلبوا منه آية من السماء يُجرّبونه. فعلِم أفكارهم وقال لهم: كلُّ مملكة منقسمة على ذاتها تخرَب، وبيت منقسمٍ على نفسه يسقط، فإن كان الشيطان أيضًا ينقسِم على ذاته، فكيف تثبُت مملكته؟ لأنكم تقولون إني بِبَعْلَزَبُولَ أُخرج الشياطينَ." (لوقا ١١: ١٤-١٨).

وكذلك ورد في الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال لهم:

"فإن كان الشيطان يُخرج الشيطانَ فقد انقسم على ذاته، فكيف تثبُت مملكته" (متى ١٢: ٢٦).

وقد قدّم القرآن الكريم هنا الدليل نفسه أمام المعارضين وقال لهم: إذا كان صحيحًا ما تقولون بأن الشيطان يُنـــزِل هذا الوحي على محمد ﷺ فقد قتل الشيطان نفسه بنفسه، ذلك لأن كل كلمة من هذا الكتاب تلعن الشيطان، وكل

حكم منه يدين الشيطان، فكيف يمكن أن ينـــزل الشيطان كل هذه الأدلة والتعاليم ضد نفسه؟! هذا خلاف العقل.

أما قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.. فيعني أن هذا القرآن يتضمن أخبار الغيب، ولا قدرة للشيطان على الإدلاء بأخبار الغيب. وهذا الدليل أيضًا قد ورد في الإنجيل حيث بيّن المسيح ؑ أن الله ﷻ وحده يعلم الغيب، وأن أسراره لا يطّلع عليها حتى الملائكة ناهيك عن الشياطين. فذات مرة أخبر المسيح ؑ قومه عن علامات مجيئه الثاني، وأكد لهم أن ما يقوله لن يزول، بيد أنه أوضح لهم أيضًا وقال:

"أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده. وكما كانت أيامُ نوح كذلك يكون أيضًا مجيءُ ابن الإنسان، لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوّجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوحٌ الفُلكَ ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميعَ، كذلك يكون أيضًا مجيءُ ابن الإنسان." (متى ٢٤: ٣٦-٣٩).

إذًا، فإن حياة النبي ﷺ الطاهرة المنـــزهة عن كل عيب، وتعاليمه المقدسة المطهرة، وكون القرآن متضمنًا علوم السماء وأخبار الغيب بكثرة، ثم عدم قدرة الشياطين على بيان علوم السماء، كل ذلك يدل بشكل قاطع على بطلان تهمة الكافرين بأن الشيطان على صلة مع محمد ﷺ، وأنه هو الذي يُنـــزل عليه هذا الوحي. الواقع أن محمدًا ﷺ ليس له أية صلة بالشيطان، بل هو على صلة مع الله ﷻ، وهو الذي يُنـــزل عليه هذا الوحي.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾.. أي أيها المسلم لا تدعُ أحدًا سوى الله ﷻ، فهو الذي يمكن أن يُطلعك على أسرار الفطرة الصحيحة، ولن يُساعدك على هذا سواه. أما إذا توجهت إلى غير الله ﷻ لمعرفة أسرار الفطرة الصحيحة: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾.. أي سيدفعك تعليم غير الله تعالى إلى العذاب تلو العذاب، ولن تنعم بالراحة أبدًا.

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٥﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٦﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٨﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٩﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢٢٠﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢١﴾

شرح الكلمات:

عشيرتك: العشير: القبيلة؛ القريب؛ الصديق؛ زوج المرأة؛ المعاشر (الأقرب).

اخفضْ: خفَض الشيء: ضدُّ رفعَه، وفي القرآن: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمنِينَ﴾.. أي تَواضَعْ لهم. (الأقرب)

تقلُّبَك: تقلَّبَ على فراشه: تحوَّلَ مِن جانب إلى جانب. ويُقال: هو يتقلب في أعمال السلطان: أي يتنقل من عمل إلى عمل (الأقرب). والتقلّب: التصرّف (المفردات).

التفسير: يقول الله ﷻ لرسوله الكريم ﷺ: عليك أن تُنذر الناس وتوقظهم، ولكن يجب أن تنذر أقاربك أولاً لأن لهم حقًّا مضاعفًا عليك.

الواقع أن للقرابة تأثيرًا كبيرًا في هذه الدنيا، ونجد في التاريخ أمثلة مذهلة على ذلك. فعندما بدأ النبي ﷺ بنشر دعوته بأمر الله ﷻ لم يدخر الكافرون وسعًا ليمنعوه من الدعوة، ولكن النبي ﷺ لم يحد عن تعاليمه و لم يمتنع عن نشر الحق. فجاء أهل مكة عمه أبا طالب وطلبوا منه أن ينصح ابن أخيه وإلا سيضطرون لمقاطعتهما. فدعا أبو طالب رسولَ الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، لقد وقفتُ بجانبك حتى الآن، ولكن القوم قد جاءوني اليوم وهددوني وقالوا: يا أبا طالب، إنا نحترمك كثيرًا، ولكنا قد قررنا الآن أنك إذا لم تتخل عن محمد فسوف نخلعك من السيادة.

كان أبو طالب إنسانًا فقيرًا ولكنه كان خادمًا لقومه، وكان كل ما لديه هو حب القوم وتعظيمهم له. ذلك أن بعض الناس في الدنيا يكسبون المال فجزاؤهم المال، وبعض الناس يخدمون القوم فجزاؤهم حب القوم لهم. ولما كان أبو طالب يعمل على خدمة قومه ليلاً ونهارًا فلم يملك من الدنيا إلا تعظيم القوم له. ولذلك قال للنبي ﷺ: يا ابن أخي، إن قومي جاءوني اليوم وهددوني بالتخلي عني إذا لم أتخلّ عنك. لقد فكر أبو طالب في نفسه أنه قد أفنى عمره كله في خدمة قومه، وقد هددوه بخذلانه الآن في شيخوخته، فماذا يفعل؟ فاستولت عليه الرقة واغرورقت عيناه بالدموع. ولما رأى النبي ﷺ عمه على هذه الحال وفكر أن عمه قد صنع به معروفًا كبيرًا وأيده ودافع عنه دائمًا رغم أنه ليس بمسلم، وقد هدده القوم أن يدفع ثمن تأييده له ويفقد ثروته الوحيدة التي كسبها في حياته: تعظيم القوم له. فاستولت عليه الرقة أيضًا واغرورقت عيناه، فقال لعمه بصوت شجي: يا عم، إن رسالتي التي أنشرها إنما هي من عند الله ﷻ، ولن أتخلى عنها لقول بشر. ويا عم، إني أعلم أن الله ﷻ واحد، فلن أتخلى عن عقيدة التوحيد إرضاءً لقومي. واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، وأَروا آية كبيرة لم يسبق لها مثيل على أن أقول أن خالق هذا الكون ليس إلهاً واحدًا فلن أفعل ذلك أبدًا. يا عم، إني لا أريد أن تقدم لي هذه التضحية العظيمة، بل إني أشكرك على ما أسديت إلي من أيادٍ من قبل، ولن أحمّلك المزيد من العبء في المستقبل، فيمكنك أن تتركني وأن تخبر قومك أنك تخليت عن ابن أخيك، وأنك معهم من الآن. فأصبح أبو طالب في موقف صعب إذ أصبح أمام محبتين: محبة الرسول ﷺ للحق والصدق، ومحبته لابن أخيه الذي كان يحبه ويهتم به أكثر من أولاده. لقد تذكر أبو طالب أباه عبد المطلب الذي حين جاءته المنيّة وضع يد محمد ﷺ في يده وقال: أبا طالب، إنه يتيم الأبوين، وقُمت بتربيته بحيث إنه كان أعزّ علي من أبنائي. لقد حان أجلي، وإني أثق بك يا بُنيّ، وها إني أُسلّم لك أغلى أمانة لي، فلا تُقصرنّ فيها أبدًا.

إذًا، فقد تمثلتْ أمام أبي طالب روحان: روح أبيه عبد المطلب، وروح ابن أخيه محمد ﷺ الذي كان يدافع عن الحق والصدق بنفسه ومهجته. ولم يستطع أبو

طالب مقاومة هاتين المحبتين رغم أنه لم يكن مسلمًا، فقال للنبي ﷺ: يا ابن أخي اذهَبْ وبلِّغْ دعوتك التي تراها حقًا. إني لا أستطيع أن أترك دين قومي ولكن قومي إذا كانوا سيتخلون عني بسببك فإني مستعد لتقديم هذه التضحية، وسوف أقف بجانبك دائمًا.

فقرر القوم مقاطعة أسرة النبي ﷺ بني هاشم، فذهب أبو طالب بعشيرته وبالنبي ﷺ وبعدد من المسلمين الذين كانوا عندئذ بمكة ليعيشوا في شِعْب قريب من مكة كان ملكًا لأبي طالب. فكل من كان يعادي النبي ﷺ من بني هاشم من قبل ويفرح أن يسبه ويشتمه ويرشقه بالحجارة، ويُؤذيه بتحريض من أبي جهل.. كل هؤلاء تركوا ديارهم وأصبحوا محصورين في شِعْب أبي طالب بسبب حميتهم وقرابتهم للنبي ﷺ معلنين للقوم أنهم لن يتخلوا عن أقاربهم (السيرة الحلبية مجلد١ باب اجتماع المشركين على منابذة بني هاشم).

إذًا، فالقرابة ذات تأثير كبير، وتدفع قرابة الدم أحيانًا إلى تقديم تضحيات تبدو مستحيلة في ظروف أخرى. ولذلك يقول الله ﷻ هنا لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.. أي يا محمد من واجبك تحذير الناس من كل أنحاء العالم، ولكن عليك أن تُنذر أقاربك أوّلاً، فلهم عليك حقّان: فإنهم يهلكون كباقي الناس، ثم إنهم أقاربك وإن آباءهم قد صنعوا بك معروفًا في يوم من الأيام. هناك مثل في الإنجليزية "Charity begins at home" أي أن الإحسان يبدأ من البيت. ونفس الحال بالنسبة للنصح، فعلى الإنسان أن يبدأ النصح بأهل بيته. وعملاً بهذا الأمر الرباني صعد النبي ﷺ على جبل "الصفا" كعادة أهل مكة، وأخذ ينادي كل قبيلة باسمها. فنادى "آل غالب" أولاً، فخرجوا من المسجد الحرام وأتوه، فقال أبو طالب للنبي ﷺ: ها قد جاء "آل غالب"، فقُلْ ما تريد. ولكن النبي ﷺ لم يلتفت إليه، بل أخذ ينادي "آل لؤي". فلما حضروا قال أبو طالب: لقد جاء "آل لؤي" فقل ما تريد. ولكن الرسول ﷺ لم يستمع لقوله وأخذ ينادي "آل مُرّة". فلما حضروا، أخذ ينادي "آل كلاب" و"آل قصي". فحضرت قبائل قريش جميعًا، ومن لم يحضر منها بعث ممثله، ليعلم سبب هذا الاجتماع. فخاطبهم النبي ﷺ وقال: لو قلت لكم

إن جيشًا كبيرًا قد اجتمع وراء هذا الجبل لشن الغارة عليكم، فهل كنتم مُصدِّقِيَّ؟ قالوا: بلى، فما جرّبنا عليك إلا الصدق. ويعلم المطّلعون على أحوال مكة أن قول الرسول ﷺ هذا يماثل قول من يُطالب بتصديق المستحيل. ذلك أن أهل مكة كانوا يرعون مواشيهم في ذلك الوادي، وكانوا يعرفون أن من المحال أن يختفي فيه جيش. ولكنهم كانوا متأثرين بصدق النبي ﷺ وسداده لدرجة أنهم صدّقوه وإن لم تصدق عيونهم ما يقول، لأن صدقه أمر لا غبار عليه. فلما اعترفوا بصدقه وسداده بلسان رجل واحد قال ﷺ: ألا إني قد جئتكم بخبر هام. ألا إن الله سبحانه وتعالى قد بعثني إليكم رسولاً، فاتّبعوني إذا أردتم النجاة من عذاب الله سبحانه وتعالى. فلم يتمالك أبو لهب نفسه وقال: "تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتَنا". فانفضّ الجميع من حوله ساخرين مستهزئين. ولكن النبي ﷺ ظل ينشر عقيدة التوحيد بين الناس ويبلّغهم رسالة الله رغم ما لاقاه منهم من معارضة وسخرية واستهزاء. فأخرج الله من بينهم قومًا ضحّوا بحياتهم في سبيل الإسلام. (البخاري: كتاب التفسير، قوله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين، وروح المعاني: سورة المسد)

لقد تبين من هنا أن كل إنسان تأتي عليه ساعات اليقظة والصحوة، فتنفتح نافذة قلبه، ويقبل الحق. لقد كان بين الصحابة من آمن بالرسول ﷺ في أول يوم من دعواه مثل أبي بكر وخديجة وعلي وزيد، ومنهم من آمن به ﷺ بعد عدة سنوات، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما. لا شك أن خالد بن الوليد كان يتمتع بالذكاء والفطنة حين أعلن النبي ﷺ دعواه، ولكن نافذة قلبه لم تكن مفتوحة عندها فلم يؤمن به، وكان عمرو بن العاص أيضًا يتمتع بالذكاء الذي كان يمكن أن يدخله في الإسلام في السنة الأولى من بعثة النبي ﷺ، ولكن نافذة قلبه كانت مغلقة آنذاك فلم يؤمن عندها، بينما كانت نافذة قلب أبي بكر وخديجة وعلي وزيد مفتوحة فآمنوا في أول يوم من دعوته، فبمجرد أن أعلن الرسول ﷺ أنه مرسل من عند الله سبحانه وتعالى قالوا جميعًا: آمنّا وصدّقنا. ولكن نوافذ قلوب الآخرين انفتحت بعد سنة أو سنتين أو أربع سنوات. وبعضهم آمنوا قُبيل وفاته ﷺ. فالأمر يتوقف على انفتاح نافذة القلب وإلا فإن الحق يؤثّر على الناس حتمًا.

ولكني أرى أن أفراد جماعتنا لا يهتمون بالتبليغ والدعوة بين أقارهم، فلا يضغطون عليهم هذا الصدد كما ينبغي. لقد كنت دعوتُ الإخوة ذات مرة إلى الاهتمام هذا الأمر بوجه خاص، فعملوا بنصحي وكان له تأثير ملموس. فقد أخبرني أحد الإخوة أنه ذهب إلى أقاربه يومًا وقال لهم إما أن تقنعوني فأنضم إليكم أو أُقنعكم فتنضمّوا إلينا. ولأن أدلته كانت معقولة وقوية فأثّرت فيهم فانضموا إلى جماعتنا. الواقع أن المرء لو أقنعَ صاحبه بخطئه فلا يتردد في قبول موقفه، ولكن المؤسف أن إخواننا لا يبدون الشجاعة الكافية في مجال الدعوة بين الأقارب. اعلموا أن من يملك دليلاً أقوى سيُقنع الآخر يقينًا، فلو قام إخواننا بالدعوة بين ذويهم لاهتمّ مئات الآلاف بالأحمدية. ثم إن هؤلاء الكثيرين سيقومون بالدعوة بين عشائرهم فيتسع نطاق التبليغ بما يفوق تصورنا. ألا ترون أن الصحابة أيضًا قاموا بالدعوة، ولكن متى كانت عندهم المطابع والكتب والمنشورات؟ ومتى كانوا دعاة يتقاضون رواتب؟ ومتى كانوا يعقدون الاجتماعات كما هو الحال عندنا؟ كلا لم يكن عندهم أي شيء من هذا القبيل، بل كان أسلوب دعوتهم أنه إذا ذهب الأخ إلى أخته وقالت له: لماذا تركت دين آبائنا، فكان يجيبها: إني أُحب آبائي وأحترمهم، ولكن اتخاذ الأصنام شركاء مع الله ﷻ خطأ فادح، إذ لا يمكن أن تهبنا الأصنام شيئًا، إنما المعطي هو الله وحده. وهكذا كان الواحد منهم يُعلّم صاحبه وحدانية الله ﷻ، فكان يؤمن لو شاء الله له الإيمان. لم تكن هناك خطب ولا منشورات ولا اجتماعات، بل كان مجال الدعوة يتسع بالتدريج من خلال لقاء الأقارب وحديثهم فيما بينهم. لقد رأيت أن بعض الإخوة من جماعتنا قد تركوا الدعوة بين أقارهم وضيّقوا نطاق علاقاتهم معهم وكأنما انتهت كل صلة بينهم، مع أن من واجبهم الديني والخلقي والشرعي أن يزوروا أقارهم كثيرًا، ويسعوا لإزالة ما عندهم من سوء فهم. ولكن ما يحدث على صعيد الواقع هو أن أحدًا عندما ينضم إلى الأحمدية أخذ يبتعد عن أقاربه غير الأحمديين. لماذا تعتبرون أنفسكم ضعفاء لهذه الدرجة؟ فإن عندكم الإيمان، وعندكم الحق، وعندكم المعجزات المتجددة، وعندكم الآيات السماوية، وعندكم التأييدات الإلهية. يجب أن يكون الأحمدي

شجاعًا بحيث إذا لم يلتق بعمّه - مثلاً - منذ عشر سنوات فعليه بإنشاء الصلات معه فور انضمامه إلى الأحمدية ليضمه إليها. وأرى أنه يوجد في هذه البلاد حوالي خمسة ملايين شخص من أقارب الأحمديين، فلا حاجة للذهاب إلى الآخرين للدعوة، بل بالحري أن تذهبوا إلى هؤلاء الخمسة ملايين من أقاربكم، وتبينوا لهم الحق. والقيام بالدعوة بينهم عمل جبار بحيث لن تجدوا الفرصة للتوجه للآخرين. وعندما تضمون هؤلاء الخمسة ملايين إلى الأحمدية، فتجدون حوالي عشرة ملايين من أقاربهم الذين يتطلب دعوتهم منكم بذل جهود كبيرة لمدة طويلة. فاتّبِعوا في الدعوة نفس الطريق الذي بينه القرآن الكريم في هذه الآية. وعندما تقومون بزيارة أقاربكم وتزيلون ما لديهم من سوء فهم عن الأحمدية فترون أن آلافًا من الأرواح السعيدة منهم ستُسارع إلى قبول الأحمدية، وإذا لم يقبلوها فلن يجرؤوا على الطعن في جماعتنا على الأقل.

لقد ذكرت لكم مرارًا أنني لما ذهبت إلى الحج ذهبتُ أولاً إلى مصر، ذلك إذ كنت أنوي أن أذهب أوّلاً إلى مصر لدراسة اللغة العربية ثم أؤدي فريضة الحجّ في السنة التالية. وتصادف أني وصلت إلى "بور سعيد" أوّلاً وأقمت هناك قبل أن أذهب إلى القاهرة. فرأيت في المنام في أول ليلة قضيتها هناك أن المسيح الموعود عليه السلام جاء وقال لي: إن كنتَ تريد الحج، فأَسرِعْ واركبْ أول سفينة تخرج بالحجاج. فاتصلتُ بمكتب السفن وحجزت مكاني، وركبت أول سفينة ذهبت بالحجاج بعد ثلاث أو أربعة أيام. ومن عجائب القدر أن الأوضاع تغيرت بعد ذلك فجأة، و لم يستطع الناس من مصر أن يذهبوا للحج لمدة سنتين.

وكان في السفينة التي ركبتها من الهند إلى "بور سعيد" مسلمانِ ومحامٍ هندوسي. فعلموا أني أحمدي، فأخذوا يناقشونني في الأحمدية، ولكنني لم أدَعهم يعرفون أني ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. فأخذوا يحتدّون في الحوار شيئًا فشيئًا ويوجهون مطاعن شنيعة، ومع ذلك ظللت هادئًا ورددت عليهم بالحجة والبرهان. وكنا قد استودعنا حقائبنا الثقيلة في مخزن الأمتعة على السفينة، فلما وصلنا إلى "بور سعيد" بعد أحد عشر يومًا ذهبت واستلمتُ حقيبتي من مكان

الحقائب. وكان شخص ما قد كتب على حقيبتي اسمي كالآتي: مرزا بشير الدين ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. وبينما أنا أنـــزل من درجات السفينة رأيت هؤلاء الثلاثة يجرون إليّ، فلما اقتربوا مني قلت لهم: ما الذي وراءكم؟ قالوا نرجو منك المعذرة، فإنا قد ارتكبنا حماقة كبيرة. قلت: ما الذي حدث؟ قالوا: لقد أسأنا إليك كثيرًا أثناء الحوار، ولو علمنا أنك ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية ما تكلمنا بهذا الأسلوب غير اللائق. فقلت: ترون قرابة الدم أهم، وأرى أن القرابة الروحانية هي الأهم. والحق أني أخفيت عنكم قرابتي من مؤسس الجماعة لتخرجوا كل ما في جعبتكم.

إذًا، فقد يصبّ المرء جام غضبه ويسبّ ويشتم أثناء الحوار الديني في أول الأمر، ولكن لو كان في قلبه خشية الله ﷻ لاعتذر في النهاية. لقد رأينا أن كثيرًا من الناس كانوا يسبّون جماعتنا في أول الأمر سبًّا فاحشًا، ثم دخلوا فيها فيما بعد وظلوا طوال حياتهم مخلصين في ولائهم ووفائهم. ورد في التاريخ أنه لما اقترب أجل عمرو بن العاص ؓ أخذ يبكي بكاء طويلاً، فقال له ابنه: يا أبتِ، لِمَ تحزن وقد وفّقك لخدمة عظيمة للإسلام وسيجزيك عليها خير الجزاء؟ فقال: يا بني، قد جاء في حياتي فترتان: لقد رأيتُني وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ وأُسرته مني، حتى لم أرفع عيني إلى وجهه قط نفورًا وكراهةً، ثم هداني الله ﷻ وألقى في قلبي من حب النبي ﷺ ما منعني من النظر إلى وجهه إجلالاً واحترامًا، ولو سُئلتُ اليوم أن أصفه ﷺ ما استطعت. ولكن بعد وفاته ﷺ قد حصلت منا أخطاء كثيرة، فأخاف أن يسألني الله ﷻ عنها. (مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله)

فترى أن هذا الإنسان العظيم كان يُبغض النبي ﷺ في أول أمره بغضًا شديدًا حتى لم يرفع بصره إليه، ولكنه أحبه فيما بعد حبًا منعه من النظر إلى وجه الرسول ﷺ من فرط حبه وعشقه، لقد رأى النبي ﷺ رؤية عابرة، ولكنه لم يجرؤ على رؤية وجهه بدقة. فلا تيأسوا من هداية القوم، وابدأوا الدعوة بين أقاربكم أوّلاً. فاذهبوا بالحريّ إلى عشيرتكم من إخوانكم وأخواتكم وأقارب زوجاتكم وغيرهم.

وأحسنوا إليهم ووسِّعوا نطاق علاقاتكم معهم، ثم انظروا كيف يبارك الله ﷻ في جهودكم التبليغية.

أتذكر أنني ذهبت لزيارة بعض قريباتي بمدينة "دلهي"، وكانت من أقاربي الأبعدين وكنت أناديها جدتي. فجاء لزيارتها أحد إخوتها من مدينة "حيدر آباد". فدعاني يومًا وقال: ما هو الاختلاف بينكم وبين غيركم من المسلمين؟ وكنت لا أعلم كثيرًا من المسائل العلمية إذ كنت صغير السن، فأجبتُه أننا نحن الأحمديين نقول إن عيسى عليه السلام قد تُوفي، بينما يقول المسلمون الآخرون أنه لم يمت بل لا يزال حيًّا. فقال: كيف تقولون بوفاته عليه السلام؟ فقرأت له قول الله ﷻ: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقلتُ له ألا ترى أن الله ﷻ يقول هنا لعيسى عليه السلام صراحة إنني سأتوفّاك ثم أرفعك، فالوفاة مذكورة قبل الرفع. فقال هذا العجوز البالغ من العمر قرابة سبعين سنة: إن ما تقوله كلام معقول، فلماذا يُعارضكم المشايخ؟ فسمعتْه أخته أعني جدّتي هذه، وكانت متعصبة جدًا فقالت له غاضبة: لماذا تُفسد عقل هذا الولد الخرب العقل سلفًا؟

فترى أن هذا الشيخ الهرم قد جاء لزيارة أخته من "حيدر آباد"، ورغم صغر سني فتَح معي الحوار كوني من أهلها ولو بقرابة بعيدة. فإذا كان الناس يسألون حتى الصغار مثل هذه الأسئلة الهامة، فكيف لا يسألون أقاربهم الكبار من زوج بنت وحم وحماة وعم وعمة وخال وخالة وما إلى ذلك؟ وعندما يسألونك هذه الأسئلة فسوف ينطبق عليهم المثل القائل: إني أترك البطانية ولكنها لا تتركني. يُقال أن رجلين كانا يمشيان على شاطئ قناة في برد قارس، فرأى أحدهما بطانية تسبح في القناة – ولم تكن هناك في الواقع بطانية بل دبٌّ – فقال لصاحبه: انتظر حتى أُخرج البطانية من القناة. فقفز في الماء وأراد أن يمسك البطانية، فأمسكه الدب. فبدأت بينهما معركة، فكان يحاول الرجل الإفلات من قبضة الدب الذي كان لا يتركه. فناداه صاحبه من الشاطئ: تعال اخرُجْ من الماء ولا تؤخرني، فإن أمامنا سفرًا

طويلاً، وإذا كنت لا تقدر على أن تمسك البطانية فاتركها واخرج. فقال الرجل: إني أترك البطانية، ولكنها لا تتركني.

وبالمثل إن هؤلاء القوم عندما سيبدأون بالسؤال عن معتقداتكم سيمهّدون لكم الطريق للدعوة بحيث لا يكون عليكم أي اعتراض شرعًا ولا قانونًا. فما داموا هم الذين قد بدأوا بسؤالكم فكيف يمنعهم شيوخهم من الحوار معكم؟ فمثلاً إذا كان أحد الأحمديين يحاور أمه، فمنعه شيخ من حوارها فتقول السيدة: إنه ابني وأنا أوجه إليه السؤال، فلماذا تقحم نفسك بيننا؟ وإذا كان يحاور حماه فسيقول حموه: هذا صهري، وأنا أسأله، فكيف تمنعني من سؤاله؟ ولأن الحق معكم فستكون النتيجة أن الله ﷻ سيشرح صدورهم في النهاية، ويجذبهم إلى الحق.

واعلموا أن الدعوة ليست بشيء عابر، بل إنها ستستمر إلى الأبد. يقول الله ﷻ في القرآن الكريم مخاطبًا المسيح عليه السلام: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.. وهذا يدل بكل وضوح أن الذين كفروا بالمسيح سيبقون إلى يوم القيامة. وما دام القرآن الكريم قد أكد ضرورة الإيمان بالمسيح، فإن الكافرين به سيكفرون بالقرآن الكريم أيضًا، فثبت من هنا أنه سيكون إلى يوم القيامة قوم لا يدخلون في الإسلام وبالتالي ستظل هناك حاجة لدعوتهم إلى الإسلام. هناك لعبة كانت البنات عندنا يلعبنها في الماضي وقد تلاشت الآن إذ لم أرَهن يلعبنها. فيقف فريق من خمس أو ست بنات في جانب ويقف فريق آخر في الجانب الآخر، ثم تذهب بنات أحد الفريقين إلى الآخر ويسألنهن شيئًا وربما يطلبن يدَ بنت منهن أو شيئًا كهذا، فترفض البنات الأخريات طلبهن، وعندها تبدأ اللعبة. فعندما تقول بنات الفريق الثاني: لن نعطي، تقول بنات الفريق الأول: سنأخذ حتمًا، وهكذا يستمر الجدال والصراخ بين الطرفين ولا ينتهي. كذلك يقول القرآن الكريم سيظل قوم مصرين على الإنكار إلى يوم القيامة، ويقولون: لن نؤمن، ومن واجبكم أن تقولوا لهم: لن نبرح حتى نقنعكم.

إذًا، فيجب أن يكون إيمانكم وحماسكم وغيرتكم أقوى من هذه البنات اللاعبات. فإن فريقًا منهن عندما يرفض، يظل الفريق الآخر مصرًّا على الطلب.

كذلك من واجبكم أن لا تلين قناتكم، بل إذا وجدتم قومًا مصرين على الإنكار فقولوا لهم باستمرار: كلا لن نبرح حتى نقنعكم.

لقد رأيت أن الناس عادة يقولون إن أقاربنا من إخوان أو بني إخوان أو غيرهم لا يستمعون لنا، ولا تنجع فيهم دعوتنا. ولا يفكر هؤلاء المتذرعون أنهم هم الآخرون كانوا في يوم من الأيام إخوانًا أو بني إخوان أو بني أخوات أو أحماء أو أزواج لبعض غير الأحمديين، ولكن الله ﷻ هداهم إلى الأحمدية، فكيف يقولون أن أقاربهم لا يهتدون أبدًا؟ الواقع أن أفراد جماعتنا لا يقومون بدعوة أقاربهم وأصدقائهم المقربين بطريق سليم، وإلا فمن المحال ألا يتأثروا بدعوتهم. الواقع أن لكل قريب حقًّا على أقاربه، ولكل صديق حقًّا على أصدقائه، ولكل أخ حقًّا على إخوته، ولكل زوج حقًّا على زوجته. ولن تجد في الدنيا امرأة تقول إذا كان زوجي سيدخل الجحيم فليدخل، فما لي وله؟ ولن تجد رجلاً يقول إذا كانت امرأتي ستدخل الجحيم فلتدخل، فما لي ولها. فالحقيقة أن الرجل إذا دعا امرأته إلى الحق، أو أن المرأة إذا دعت زوجها إلى الحق، فإنه لا يقوم بالتبليغ، بل إنه يؤدي واجبه تجاهه. وكذلك إذا دعا الأخ أخاه إلى الحق فإنه لا يقوم بالدعوة، بل يؤدي حق أخيه. وكذلك إذا دعا الصديق صديقه إلى الحق فإنه لا يقوم بالتبليغ، بل يؤدي ما عليه من حق؛ وإذا لم يؤدِّ واجبه هذا فإنه ليس صديقًا له بل عدوّا، ولن يعتبره صديقه ناصحًا له بل يعتبره عدوًّا حيث يحرمه من اتّباع الحق. فلو قام كل قريب وكل صديق بواجب التبليغ تجاه قريبه أو صديقه باعتباره حقًا واجبًا عليه فسوف يصل الحق إلى مئات الآلاف في فترة قصيرة.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.. أي يا محمد، عليك بالرفق والعطف على الذين يتبعونك ليزدادوا حُبًا للإسلام، وعليك بتربيتهم خاصة لتستغلّ طاقاتهم على أحسن وجه. الواقع أن الأمم كمثل الأنهار، فكما أن الأنهار تنبع وتجري، فتتضرر بعض الشعوب المهملة من فيضاناتها التي تغرق قراهم وتدمر أراضيهم، بدلاً من أن تنتفع من مياهها، وغاية ما ينتفعون منها أنهم يصيدون السمك منها. ولكن الأمم الذكية تشقّ من الأنهار قنوات، فتعمر بها أراضيهم

الجرداء وتكسب الملايين. كذلك لو تمّتْ تربية الأفراد ونُفخت فيهم روح التضحية، أمكن استغلال طاقاتهم على أحسن وجه، وتقدمت الشعوب بسرعة هائلة.

الحق أن مثل الجيل القديم كعين ينبع منها النهر، ومثل الجيل الناشئ كمثل جدول، والجيل التالي كنهر صغير، والجيل الذي بعده كنهر عظيم، والجيل الذي بعده كبحر عظيم. فإن المرء إذا أراد الماء من العين اضطر للمشي إليها، ولكن الجدول يجري قريبًا من البيوت وله خرير، ولا يكون المرء بحاجة للذهاب إليه. ثم عندما يتحول إلى نهر صغير فلا يجري قريبًا من البيوت فحسب، بل يتسع ويقترب من البيوت أكثر. وحينما يُصبح نهرًا كبيرًا فيجري قريبًا من البيوت أكثر، ولا يكون هناك خوف من أن يغور ماؤه في الأرض أو يختفي في الرمال، بل إنه يجري قافزًا من على الجبال والتلال والرمال باتجاه البحر. وعندما يتحول إلى بحر فتتصل به أطراف الأرض كلها، فلا يبقى طرف من أطرافها إلا ويكون متصلاً به. كذلك إذا تمّتْ تربية أفراد الجماعة على أُسس سليمة، ونُفخت في أجيالها الصاعدة روح التضحية والإيثار والفداء قدر الإمكان، أصبحوا وسيلة كبيرة لإرساء السلام في العالم. إذا كانت القنبلة الذرية المصنوعة من معدن "اليورانيوم" سلاحًا فتّاكًا مدمّرًا للعالم، فإن استغلال طاقات أفراد الجماعة بطريق سليم ونفخ روح التضحية في الناشئة وتربيتهم الصحيحة لوسيلةٌ يقينية لخلود الأمم، لأن كل فرد يشعر عندها أن جماعته بحاجة لجهوده الشخصية لفتح الدنيا وجعل الإسلام غالبًا على الأديان كلها. هذا هو الأمر الذي بيّنه الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حيث أمر نبيّه ﷺ باتباع طريقين: أحدهما بخصوص المعارضين، وثانيهما بخصوص الموافقين. فعليه بإنذار المعارضين بما فيهم عشيرته الذين يتبعون سبيل الخسران، كما عليه بتربية المؤمنين الذين كثير منهم ليسوا من أقاربك ومع ذلك يتبعونك ويطيعونك، فإن نجاة العالم منوطة الآن بتربيتهم الصحيحة. فقل للقوم: إن الذي لا يُطيعك من أقاربك ويعارضك سينال العقاب، وأن الذي يصدق بما تقول سينال الثواب وإن لم يكن من أقاربك. إن المنكر سيُعاقب وإن كانت بينك وبينه قرابة، وأن التابع سيُثاب وإن

لم يكن بينك وبينه قرابة. فاخفضْ جناحك بالرفق والرحمة للمؤمنين، سواء أكانوا من الأقارب أو الأباعد.

فكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ إن من واجبك أن تستمر في إنذار الأقارب لأنهم إذا لم يؤمنوا سيُعاقَبون، وعليك أن تعتني أكثر فأكثر بالذين آمنوا بك وإن لم يكونوا من أقاربك، فبعضهم من الروم، وبعضهم من فارس، وبعضهم من الحبشة، وبعضهم من الشام، وبعضهم من القبائل العربية غير قريش. ذلك لأنهم هم أقاربك الحقيقيون من الآن فصاعدًا. أما الذين كانوا من أقاربك ولم يؤمنوا بك، فإنهم لم يعودوا أقارب لك لعدم إيمانهم، إنما أقاربك الحقيقيون من آمنوا بك واتبعوك وأطاعوك في كل شيء.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. اعلم أن ضمير الجمع للغائب في قوله "عصوك" يرجع إلى الكافرين وليس إلى المؤمنين، والمعنى إن عصتْك عشيرتك رغم تحذيرك إياهم واستمروا في سبيل الغي، فقل: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.. أي عليك أن تقطع الصلة عنهم، وتعلن لهم أنك تتبرأ من أعمالهم وتكرهها، فلا يغترّوا بقرابتك فيظنوا أنهم سينالون النجاة وإن لم يتبعوك. لا شك أنهم أقاربك، ولكن النجاة لا تتوقف على القرابة، إنما سبيلها أن يتبعوك ويطيعوك، وإلا فإنهم سيُعاقبون رغم قرابتهم منك.

لقد علّم القرآن الكريم هنا أسلوبًا رائعًا للدعوة والتبليغ، ولو أن المسلمين عملوا به لحققوا نجاحًا كبيرًا. فحيثما ينتشر الإسلام علينا أن نوضح للمسلمين الجدد أن يذهبوا فورًا إلى أقاربهم وأصدقائهم، فيبلغوهم دعوة الإسلام ويُحسنوا معاملتهم، فإن لم يطيعوهم فليقطعوا صلتهم بهم إلى حد ما لكي يتندموا ولكي يظل المؤمنون في مأمن من تأثيرهم السيئ.

وهذا يُماثل قول المسيح للحواريين حين نصحهم قائلاً: "مَن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم، فاخرجوا خارجًا من ذلك البيت أو من تلك المدينة، وانفضوا غبار أرجلكم" (متى ١٠: ١٤).

أما فئة المؤمنين فقد أمر الله رسوله بصددهم: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وتعبيرُ خفضِ الجناح مأخوذ مما تفعل الطيور بأولادها، حيث نرى أن فراخها عندما تكون ضعيفة غير قادرة على الجري أو الطيران فإنها تغطيها بأجنحتها كي لا تخطفها الحدأة وغيرها من الطيور الجارحة. إن الإنسان يكسو أولاده الثياب، ولكن ليست عند الطيور ثياب تكسوها أولادها، فتسترها تحت أجنحتها. فمثلاً إذا حملتَ دجاجة ذاتَ فراخ من مكانها خرجتْ من تحتها العديد من فراخها. فقوله ﷻ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أن من واجبك يا محمد أن توجه عنايتك كلها للمؤمنين وتربيهم على أحسن وجه.

ومن البديهي أن عملية تربية المؤمنين والنهوض بهم إلى أعلى الدرجات لا تخلو من المشاكل والصعاب، ولذلك قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. علمًا أن الإنذار والتحذير أمر سهل إذ يتم باللسان، ولكن التربية والإصلاح يتطلب جهودًا كبيرة، ولا يملك المرء سلطة وخيارًا لتربية أحد. فإننا نرى أحيانًا أن الأب يريد أن يصبح ابنه قاضيًا، ولكنه لا يصبح حتى ساعي بريد، أو يريد أن يصبح ابنه عالم دين، ولكنه عندما يكبر يرغب عن علوم الدين كلية. كان الخليفة الأول رضي الله عنه يخُبرنا أنه كان هناك عالم متبحر في الصرف والنحو وكان شهيرًا في الهند كلها، ولكنه كان إنسانًا بسيطًا، ومن رآه لأول وهلة ظنه فلاحًا من القرية، وكان اسمه "المولوي خان ملك". وعندما سمع دعوى المسيح الموعود عليه السلام جاء إلى قاديان، وسمع كلامه وآمن به ورجع. وعندما وصل إلى لاهور أراد أن يزور أحد تلاميذه "المولوي غلام أحمد" الذي كان إذّاك مدرسًا في المسجد الملكي هناك، وكان عالمًا شهيرًا وميسور الحال كونَه يدرس مئات الطلاب في لاهور التي كان أهلها من أهل المال والثراء. فلما وصل "المولوي خان ملك" إلى المسجد الملكي ظن الطلاب أنه أحد العوام إذ كانوا لا يعرفونه ولا مكانته العلمية، فانخدعوا ببساطة مظهره وشخصيته. فسأله "المولوي غلام أحمد": من أين جئت؟ قال: مِن قاديان. فسأله في حيرة: مِن قاديان؟ قال: نعم، من قاديان. قال: لماذا

ذهبت هناك؟ قال: لأنضم إلى أتباع حضرة المرزا. قال: إنك عالم كبير، فماذا رأيت فيه حتى أصبحت من مريديه؟ فقال له باللغة البنجابية ما معناه: دَعْك مِن هذا، فإنك لم تتقن بعد "قال ويقول". فبما أن "المولوي غلام أحمد" هو الآخر كان من مشاهير العلماء، فاستشاط تلاميذه غضبًا وقالوا لِـــ "المولوي خان ملك": ماذا تقول أيها الشيخ الهرم؟! فمنَعهم أستاذهم وقال: اسكتوا، فإن ما يقوله كلام سليم. باختصار كان "المولوي خان ملك" عالمًا ذائع الصيت في الهند كلها في علم الصرف والنحو، حتى قيل أن كتبه تبدو وكأنها أُلّفتْ منذ أربعة أو خمسة قرون.

المهم أن الخليفة الأول ﷺ كان يقول: إن "المولوي خان ملك" شكا إليّ ابنه الأكبر "عبد الله" وقال: إن ابني هذا لا يهتم بالعلم، فانصحْه وقلْ له أنه إذا لم يتعلم اليوم فيخسر خسرانًا كبيرًا. فنصحت ابنه وقلت: إنك ابن عالم ذائع الصيت في الهند، فلماذا لا تتعلم؟ فقال: إنني أريد أن أتعلم ولكن أبي لا يعلّمني. قلت: لقد جاء أبوك يشكوك إلي أنك لا تتعلم، وأنت تقول إنه لا يعلّمك مع أنك تريد أن تتعلم؟ قال: إن أبي يريد أن أتعلم العربية، وأنا لا أريد ذلك، بل أريد أن أتعلم الإنجليزية. قال: لماذا؟ قال: الواقع أنه عندما جاء القطار في منطقتنا أول مرة خرجتُ مع أبي في سفر، ولم يعرف أبي الذي تقول عنه إنه عالم كبير جدًا أن هناك درجتين في القطار: فاقتحم عربة الدرجة الأولى حاملاً حزمة أمتعته، فوجد في العربة مفتش التذاكر الذي كان من الهنود المتَأَنْجلزين، فنهره قائلا: اخرُجْ، أيها العجوز، من هنا، فمالك ولهذه العربة؟ فخرج أبي من العربة وهرب من المحطة، فجريت وراءه ولكنه لم يتوقف إلا بعد قرابة ميل. فلحقته وقلت له: لماذا فررت؟ قال: لقد أخطأتُ فخفتُ أن يلقي المفتّش القبضَ عليّ. فمنذ ذلك الحادث قررتُ ألا أتعلم العربية أبدًا، بل سأتعلم الإنجليزية فقط، لأن المرء لو صار عالمًا كبيرًا في العربية ومع ذلك ظل جاهلاً لا يستطيع التمييز بين عربات الدرجة الأولى والدرجة الثانية، فما الفائدة من تعلُّم هذه اللغة؟ فإذا كان أبي يريد أن أتعلم فسأتعلم الإنجليزية فقط، ولن أتعلم العربية أبدًا.

فترى أن ابن عالم دين ذائع الصيت ظل محرومًا من علوم الدين رغم أمنية أبيه الشديدة. فالله ﷻ قد بين في قوله ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن التربية والإصلاح عمل جبّار يتطلب جهودًا مضنية، ولا يمكن إنجازه إلا إذا كان الذين يراد إصلاحهم وتربيتهم متصفين بالحماس والإخلاص والطاعة. ولذلك قال الله تعالى من ناحية بصدد المنكرين المعارضين: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ومن ناحية أخرى قال بصدد المؤمنين: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

الواقع أن عملية تربية المؤمنين التي أُمر بها النبي ﷺ ما كانت لتتحقق لو لم تتوفر له ثلاثة عناصر: أوّلُها تأييد الله ونصرته، وثانيها تحلِّي النبي ﷺ بحماس تام لتربيتهم، وثالثها تحلِّي القوم الذين يريد تربيتهم بروح الطاعة. وقد طمأنَ الله ﷻ نبيه ﷺ بتوفر هذه الأمور له فقال: أوّلاً: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.. أي عليك أن تبدأ هذا العمل متوكلاً على الله ﷻ فإنه ينصرك ويؤيدك حتمًا، وثانيًا: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾.. أي أنه يعلم جيدًا ما فيك من حماس شديد لتربيتهم، وثالثًا: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.. أي أنك تمشي بين قوم متحَمِّسين لطاعتك توّاقين لاتّباعك. كان النبي ﷺ يواجه ثلاث مشاكل في مهمته، فقال الله له: إن هذا العمل يتطلب تأييد الله ﷻ وأنا جاهز لتأييدك ونصرتك، وأنه يتطلب حماسًا لتربية المؤمنين وإصلاحهم، وأنت تتحلى بهذه العاطفة، وأنه يتطلب روح الطاعة والاتّباع في الذين تريد تربيتهم وإصلاحهم، وهم متحلون بهذه الصفة، إذًا، فإنجاز مهمتك ليس بمتعذر أبدًا.

وقد قال بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يعني أن آباء النبي ﷺ كلهم كانوا ساجدين أي مؤمنين (التفسير المظهري). ولكن هذا خطأ؛ فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال مرة لأصحابه عن أُمّه: "اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي." (مسند أحمد: مسند أبي هريرة)

فثبت أن نظرية المفسرين عن آباء الرسول ﷺ لا صحة فيها. لا شك أنه قد ورد عن جده ﷺ عبد المطلب أنه كان يحب التوحيد، ولكن يتضح أيضًا أنه كان في

حالة من التذبذب، فكان يميل إلى التوحيد حينًا وإلى الشرك حينًا آخر، فكونه قد نذر لدى بحثه عن بئر زمزم بأن الله ﷻ إذا أعطاه عشرة أولاد فشبّوا وترعرعوا أمام عينيه فسيضحي بأحدهم قربانًا لله ﷻ، وكونه قد اقترع أمام صنم "هُبل"، لَيشكّل دليلاً واضحًا على أنه لم يدرك عقيدة التوحيد إدراكًا صحيحًا (السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ذكر نذر عبد المطلب ذبح ولده). فمن الخطأ القول أن قول الله ﷻ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يدل على أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين حتمًا. إنما الحقيقة أن الله تعالى يثني هنا على الصحابة ويقول للنبي ﷺ إنك تعيش وتتنقل بين ظهراني قوم عابدين ساجدين لله ﷻ، لأن التقلب قد ورد هنا كما ورد في قوله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾(البقرة:١٤٥)، ومعنى التقلب تنقُّل الشيء من هنا إلى هناك. وأي شك في أن النبي ﷺ كان يتنقل دائمًا بين صحابته، فحينًا كان يتشاور في أمر حرب فيجتمع حوله لفيف من القادة، وحينًا آخر كان يفصل في معاملات الناس فيجتمع حوله جماعة من الفقهاء والقضاة، وتارة كان يتحدث عن أمور التصوف فيجتمع حوله جماعة من الصوفية، وتارة أخرى كان يتحدث عن الصدقة فيجتمع حوله أصحاب المال والسخاء. فكان يجتمع عنده ﷺ كل حين عباد مطيعون لله ﷻ من كل نوع. فكلما احتاج النبي ﷺ إلى أمر وجد حوله المؤهلين لذلك المجال الخاص، وليس هذا فحسب، بل كان هؤلاء يعبدون الله ﷻ ويسجدون له أيضًا، وكان النبي ﷺ يتنقل بينهم ليلاً ونهارًا، وهذا هو معنى التقلب في الساجدين. فالمراد من قوله ﷻ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أن الله ﷻ قد أعطى النبي ﷺ صحابة من الطراز الأول، فحيثما توجه وجد ساجدين تلو الساجدين، فإذا توجه إلى القادة وجد عنده قادة ساجدين، وإذا توجه إلى القضاة وجد عنده قضاة ساجدين، وإذا توجه إلى المعلمين وجد عنده معلمين ساجدين، وإذا توجه إلى الصوفية وجد عنده صوفية ساجدين، وإذا توجه إلى المستشارين الاقتصاديين والمدَنيين وجدهم أيضًا ساجدين. فكان يجد في كل مجال من مجالات الحياة أناسًا مؤهلين، وفي نفس الوقت عابدين لله تعالى ومطيعين له ﷺ. وإلى هذه المنة الإلهية قد أشار الله تعالى في هذه الآية حيث قال يا محمد إن كل من حولك موحدون،

وتتنقل بين هؤلاء الموحدين ليلاً ونهارًا. فكم هي عظيمة منّتنا عليك حيث خلقنا لك في أرض مكة المليئة بالشرك كثيرًا من المؤمنين الموحدين، وجعلنا بين أهلها الذين كانوا يعبدون مئات الأصنام ليلاً ونهارًا قومًا متمسكين بالتوحيد، فإذا توجهت إلى اليمين وجدت عبادًا موحدين، وإذا توجهت إلى اليسار وجدت عبادًا موحدين، وحيثما ذهبت لقيت عباد الله ﷻ الموحدين الساجدين.

ومما لا شك فيه أن كفر زوجات نبي أو أولاده لا ينال من مكانته شيئًا، إلا أننا نرى أن زوجات بعض الأنبياء لم يؤمنّ بهم، وأولاد بعض الأنبياء قد أنكروا نبوتهم، بيد أننا نجد أن زوجات النبي ﷺ كُنّ فداءَ الدين، كما كانت ذريته أيضًا فدائيين للدين، وكان أصحابه عشاقًا صادقين للإسلام، فكل من كان على صلة به ﷺ قد جعله الله ﷻ من "الساجدين"، وهذه خصوصية لم توجد في أحد سوى النبي ﷺ، ومن أجل ذلك قال الله تعالى له: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.. أي أنك حيثما تذهب تكن بين الموحدين الساجدين، ففي بيتك التوحيد، وعند أصدقائك التوحيد، وحيثما تذهب تغرس غراس التوحيد، حتى جعلت آلاف المشركين عابدين ساجدين لله ﷻ.

وأرى من الضروري هنا إلقاء الضوء على أحد أقوال المسيح الموعود عليه السلام بصدد هذا الموضوع. يقول حضرته ما تعريبه:

"يقول الله ﷻ في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ۝ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.. أي عليك أن تثق بالله الذي هو غالب وذو رحمة، والذي يراك حين تقوم للدعاء والدعوة، بل يراك منذ أن كنت تتنقل كبذرة في أصلاب الصالحين إلى أن استقررت في بطن والدتك العظيمة "آمنة"." (ترياق القلوب (أردو) الخزائن الروحانية المجلد ١٥ ص ٢٨١).

هذه الفقرة تبدو لأول وهلة متعارضةً للمعنى الذي ذكرته آنفًا، ولكن اعلمْ أن كلمة "الساجد" تعني حرفيًا الذي يطيع في كل شيء ولا يوجد فيه أثر للعصيان والنشوز. ولو تدبرتَ أكثر لوجدت أن كلمة "الساجد" يمكن أن تُستعمل بمفهومين: ساجد لله أو ساجد للمجتمع. والساجد لله مَن يتبع أوامر الله ﷻ ولا

يتعدى حدوده وقوانينه، والساجد للمجتمع مَن يطيع أوامر المجتمع ولا يتمرد على قوانينه.

والآن نتوجه إلى معنى هذه الآية. فاعلم أن النبي ﷺ قد قال إن للقرآن الكريم بطونًا عديدة، فمن هذه البطون أننا إذا أردنا تفسير آية فعلينا أن نفسرها آخذين في الحسبان سياق الآيات الأخرى لأن إهمال السياق قد يؤدي إلى الخطأ في التفسير. ومن بطون القرآن أيضًا أن نفسر الآية على ضوء مجموعة كبيرة من الآيات الواردة قبل الآية المُفسَّرة وبعدها. ومن بطون القرآن أن نفسر الآية على ضوء موضوع السورة كلها. ومن بطون القرآن الكريم أن نفسر الآية على ضوء عديد من السور التي قبلها وبعدها. ومن بطون القرآن الكريم أن نفسر الآية على ضوء القرآن الكريم كله. وهناك بطون أخرى للقرآن الكريم أيضًا، وهذا علمٌ قد فتحه الله عليّ خاصة بفضله العظيم، ذلك أن مواضيع بعض الآيات تكون وثيقة الصلة بالسور السابقة لها حينًا أو بالسور اللاحقة حينًا آخر، كما أن الآية الواحدة تؤدي بمفردها مفهومًا بينما تعطي مفهومًا آخر بالجمع مع غيرها من الآيات.

والآن نتدبر المعنى الذي بينه المسيح الموعود عليه السلام لهذه الآية لنعلم بحسب أي بطن فسرها. فلو تعمقنا في الأمر وجدنا أن المفهوم الذي ذكره حضرته عليه السلام لهذه الآية إنما بينه بالنظر إليها منفردةً وليس بالنظر إلى سياقها، إذ اقتبسها في معرض البيان أن رسل الله عليهم السلام ينتمون دائمًا إلى الأسر العريقة الشريفة بحيث لا يمكن أن يكرههم أحد بسبب أسرهم، إذ لو كانوا من أسر رذيلة عند أهل تلك المدينة أو المنطقة أو البلاد صعب عليهم تصديقهم. وإنه لمما يتنافى مع حكمة الله وتدبيره أن يبعث أنبياءه من أُسر وضيعة رذيلة فيحمِّل الناسَ ما لا يطيقون. فبما أن بعث نبي أو رسول من أسرة رذيلة يكون حجر عثرة لطبائع البشر وتحول دون إيمانهم بأنبيائهم، لذا فلم يزل الله تعالى يبعث الرسل والمأمورين من بيوت الشرفاء والوجهاء لكيلا تنشأ في قلوب الناس مشاعر الكراهية والاحتقار تجاههم من جراء أسرهم.

فثبت أن المسيح الموعود عليه السلام قد بيّن هذا المعنى نظرًا إلى الآية منفردة وليس نظرًا إلى سياقها، موضحًا أن آباء النبي ﷺ كانوا من الساجدين للمجتمع.. أي لم

يكونوا متمردين عليه بل كانوا من المواطنين الشرفاء الوجهاء، و لم يكونوا من الذين يعتبرهم القوم من الأراذل أو العصاة والغدّارين. وقد أخبر النبي ﷺ أن الأنبياء كلهم يُبعثون من أسر عريقة، وهكذا فإن هذا المعنى الذي يذكره المسيح الموعود عليه السلام لا ينطبق على النبي ﷺ وحده بل ينطبق على الأنبياء كلهم؛ وعليه فلا يمكن أن يكون الساجد هنا بمعنى الساجد لله سبحانه وتعالى، إذ من المعروف أن آباء بعض الأنبياء لم يكونوا ساجدين لله تعالى، فلا بد من التسليم أن الساجد هنا بمعنى الساجد للمجتمع الذي يطيع أهله ولا يتعدى قوانينه.

واعلم أن لكل مجتمع معياره الخاص للشرف والوجاهة، فمثلاً إذا شرب المسلم الخمر اعتُبر غير شريف في مجتمعه، ولكن أحد الإنجليز إذا شربها اعتُبر شريفًا في مجتمعه. فبرغم أن الفعل واحد إلا أننا إذا نظرنا إليه بحسب معيار مجتمع صار شرب الخمر إثمًا وشاربها آثمًا، بينما أصبح عند مجتمع آخر من الشرفاء والمطيعين. فثبت أن معيار الشرف يتغير من مجتمع إلى مجتمع نظرًا إلى أعرافه وقوانينه. ولا شك أن آباء الرسول ﷺ كانوا شرفاء في مجتمعهم، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أنهم لم يكونوا شرفاء صالحين بحسب معيار الإسلام، فثبت أن المعنى الذي ذكره المسيح الموعود عليه السلام إنما بيّنه نظرًا إلى هذه الآية منفردة وليس بالنظر إلى السياق كله، ولكنه مفهوم صحيح دونما شك طبقًا لأحد بطون القرآن الكريم، إذ قد قال الرسول ﷺ إن للقرآن سبعة بطون، فيمكن تفسير آية واحدة بمعان عديدة وكل واحد منها يمكن أن يكون صحيحًا. فهناك مفهوم لآية بالنظر إليها منفردةً، وهناك مفهوم لها بحسب سياق وتسلسل آيات عديدة، وهناك معنى لها وفق سياق السورة وموضوعها كلها، وهناك معنى لها بحسب سياق وتسلسل عدة سور، وهناك مفهوم لها على ضوء القرآن الكريم كله. وكل هذه المفاهيم تكون صحيحة. فالمعنى الذي ذكره المسيح الموعود عليه السلام إنما ذكره نظرًا إلى هذه الآية منفردةً، حيث أثبت أن آباء النبي ﷺ كانوا شرفاء محترمين في مجتمعهم وملتزمين بقوانينه. فكأنه عليه السلام يقول إن أسرة النبي ﷺ كانت عريقة جدًا بحسب المعايير التي وضعها المجتمع العربي للأسر الشريفة العريقة، وليس بحسب معايير الإسلام.

وقد سلّم القرآن الكريم أيضًا بهذا الفرق حيث أحلّ لنا أكل طعام أهل الكتاب بينما حرّم علينا طعام المشركين (المائدة:٦)، مع أن أهل الكتاب أيضًا كانوا يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنـــزير، بينما كان بين المشركين من لا يأكل لحمه أيضًا - علمًا أن المراد من المشرك هنا من لا يؤمن بكتاب، ولكن هذا لا يعني أن من يؤمن بكتاب لا يشرك أبدًا. لا شك أنه بحسب المعنى الدقيق للشرك فإن أهل الكتاب والملحدين أيضًا مشركون، ولكن للمشرك مفهوم بحسب اصطلاح القرآن الكريم ومفهوم آخر بحسب العرف العام حيث أطلق القرآن اسم أهل الكتاب على الذين يؤمنون بكتاب سماوي وإن لم يكونوا عاملين بأحكامه وقوانينه، وإنما إيمانهم به يكفي لتسميتهم أهل الكتاب، شأنهم شأن الكثير من المسلمين الذين لا يعملون بأحكام القرآن الكريم ولكنهم يُسمَّون مسلمين - باختصار إن الله ﷻ قد أحل لنا طعام أهل الكتاب لأنهم ملتزمون حتمًا ببعض الضوابط والأخلاق كونهم أهل كتاب، ويمكن أن نُحسن بهم الظن بأنهم لن يُطعمونا على سبيل الخداع ما هو حرام في ديننا لأن الخداع ليس جائزًا في أي كتاب سماوي. ولكن الذي يعلن بنفسه أنه ليس ملتزمًا بأي قانون سماوي فلا يمكن أن نحسن به الظن وإن كان من الشرفاء، بل سنقول: حيث إنه ليس ملتزمًا بأي قانون سماوي ولا يمنعه من خداعنا مانع، فقد يخدعنا فيُطعمنا ما حرّم علينا ديننا. إذًا، فإن القرآن الكريم إنما أحل لنا أكل ذبيحة أهل الكتاب لأنهم ملتزمون بقانون، وإن كانوا يأكلون لحم الخنـــزير أيضًا، وإنما نهانا عن أكل طعام المشركين لأنهم غير ملتزمين بقانون، فليس هناك مانع يمنعهم من الخداع. فيحل لنا أكل طعام كتابيٍّ وإن لم يكن ذا خُلق من الناحية المادية، ولا يحل لنا أكل طعام مشرك وإن كان ذا خُلق من الناحية الدنيوية؛ ذلك لأن أهل الكتاب ملتزمون بقانون، فاليهود يؤمنون بالتوراة، والنصارى يؤمنون بالإنجيل، والهندوس يؤمنون بالفيدا، وكل هذه الكتب تنهى عن الخداع، ولذلك فقد منحت شريعتنا الإسلامية أهل الكتاب حقوقًا أكثر من غيرهم.

قصارى القول إن آباء الرسول ﷺ كانوا مواطنين شرفاء ملتزمين بقوانين مجتمعهم فسُمّوا ساجدين، ولكنهم لم يكونوا ساجدين لله ﷻ بل ساجدين لقانون

مجتمعهم وبلدهم، وكانوا من أسرة عريقة. والأنبياء يُبعثون دائمًا من الأسر العريقة الشريفة لأنه لو بُعث نبي من قوم أراذل - خلافًا لسنة الله ﷻ - لم يصدقه الناس محتجين بأنه ليس من أسرة عريقة أو أنه من العبيد. فإنك ترى أنه برغم أن موسى ؑ لم يكن من العبيد، ومع ذلك عيره فرعون مصر بأنك عشت على خبز بيوتنا كونه قد تربى في بيته (الشعراء:١٩). كذلك تجد النصارى يطعنون في النبي ﷺ حتى اليوم بأنه من ذرية إحدى الإماء، ذلك أنهم يعتبرون هاجر - رضي الله عنها - أَمَةً (التكوين ١٦ :٢)، مع أنه يتضح من التوراة جليًا أن هاجر كانت من أقارب الملك المصري، وأنه قد أهداها إلى إبراهيم بكل حب وإخلاص. فكونها قد قُدّمت لإبراهيم ؑ هدية قد دفع النصارى ليعتبروها أَمَة. إذًا، فإن الأعداء ينظرون بمنظار التعصب دائمًا، ولذلك يبعث الله ﷻ رسله دومًا من الأسر العريقة الشريفة كي لا تنقبض قلوب الناس من تصديقهم. فترى أن هرقل قيصر الروم لما وجه بعض الأسئلة إلى أبي سفيان سأله عن نسب النبي ﷺ وقال: "كيف نسبُه فيكم"؟ فما كان لأبي سفيان إلا أن يعترف بأنه من أسرة عريقة وأنه من أقاربه. (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي)

إذًا، فإن المسيح الموعود ؑ لم يبين معنى هذه الآية نظرًا إلى سياقها، إنما أثبت بها أن كل نبي يكون من شرفاء قومه، وأن الأنبياء الذين بُعثوا في الدنيا كانوا كلهم من أسر عريقة شريفة، ومن أولاد مواطنين شرفاء ملتزمين بالقانون نافعين للمجتمع؛ فلم يستطع الناس أن يحتقروهم بسبب أسرهم، بل كانوا يحترمونهم ويبجلونهم من هذا المنظور.

قصارى القول، إن المفهوم الذي قد بيّنه المسيح الموعود ؑ إنما بينه نظرًا إلى هذه الآية منفردةً، وهناك مفهوم آخر بيّنتُه على ضوء سياق هذه الآية، وهناك مفهوم ثالث أيضًا بالنظر إلى موضوع السورة كلها وهو كالآتي:

تتحدث هذه السورة (الشعراء) أوّلاً عن موسى ؑ، ثم عن إبراهيم ونوح وصالح ولوط وشعيب - عليهم السلام - وفي النهاية عن النبي ﷺ. وهناك أنبياء كثر لم ترد أسماؤهم في القرآن الكريم، كما لم يعد تاريخهم محفوظًا. وقد بين القرآن

الكريم كقاعدة عامة أن جميع الأنبياء ظلوا ينبئون عن مجيء رسول الله محمد ﷺ، ولكن أنباء بعضهم محفوظة، وأنباء بعضهم غير محفوظة. فمثلاً لا تزال النبوءات التي أدلى بها إبراهيم وموسى وعيسى موجودة في التوراة والإنجيل، ولكن الأنبياء الذين لم يذكر القرآن أسماءهم وليس تاريخهم محفوظًا فنبوءاتهم عن بعثته ﷺ غير محفوظة. وبعد ذكر هؤلاء الأنبياء كلهم يقول الله ﷻ: كيف يقول المعارضون أن شيطانًا ينـــزل على محمد؟ فليأتوا بسلطان على زعمهم هذا. إن هؤلاء المنكرين بعضهم من اليهود وبعضهم من النصارى وبعضهم من العرب، وكل فئة منهم تؤمن بنبي أو آخر من هؤلاء الأنبياء، فالنصارى يؤمنون بالمسيح، واليهود يؤمنون بموسى ونوح وإبراهيم ولوط، والآخرون يؤمنون بهود وصالح. وقد كانت هناك نبوءات عن بعثة النبي ﷺ من قبل إبراهيم الجَدِّ الأكبر لأهل مكة، كما كانت هناك نبوءات عن مجيئه ﷺ من قبل موسى عليه السلام الجدِّ الأكبر للنصارى واليهود، فلذلك قال الله ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.. أي أن من أكبر الأدلة على صدقك أن رسل الله كافة ظلوا يخبرون عن مجيئك. وبما أن التقلب يعني التنقل من هنا إلى هناك وعليه فكأن الله ﷻ يقول: يا محمد، لقد ظهرتَ لموسى في حالة الكشف، وقد تجليت على إبراهيم ونوح وهود وصالح، وما دمت موجودًا أمام أعين هؤلاء الأنبياء الذين يؤمن بهم هؤلاء المعارضون فكيف يرفضونك ويتهمونك بالكذب؟ لقد رآك إبراهيم في حالة الكشف فأنبأ عن مجيئك، لقد رآك موسى في حالة الكشف فأخبر عن مجيئك، لقد رآك عيسى في حالة الكشف فأخبر عن بعثتك، لقد أخبر هؤلاء الأنبياء جميعهم أن نبيًا عظيمًا سيُبعث بعدهم. وما دام أجداد هؤلاء المنكرين قد تنبأوا عن بعثتك، يا محمد، معلنين لهم أن نبيًا عظيمًا سيُبعث بعدهم، فعليهم أن يؤمنوا به، فكيف ينكرونك الآن رافضين شهادة آبائهم وكبرائهم؟

إذًا، فكأن قوله ﷻ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يعني على ضوء موضوع هذه السورة كلها: "وتقلُّبك في الأنبياء".. بمعنى أنَ إبراهيم قد أشار إليك بإصبعه وقال إنه نبي صادق، وقد أشار إليك نوح وشهد بصدقك، وأشار إليك موسى بإصبعه وقال إنه رسول صادق، وأشار إليك عيسى بإصبعه وقال إنه نبي صادق، وقد أشار

إليك هود وصالح ولوط وشعيب بأصابعهم وقالوا إنه نبي صادق. فأيها المنكرون، ما دام جميع هؤلاء الأنبياء الذين هم أجدادكم قد شهدوا على صدق محمد ﷺ فكيف تكفرون به الآن؟

ثم يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.. أي أن الله الذي بعثك بالحق يستمع لدعاء العباد ويعلم حالاتهم.

لقد ثبت من هنا أيضًا أن الآية السابقة تتحدث عن الصلاة والدعاء، وليس عن أجداد الرسول ﷺ، ولذلك قال الله ﷻ بعدها إنه يستجيب دعاء العباد ويعلم أحوالهم، وكأنه تعالى يقول يا محمد، إن أدعيتك وأدعية أصحابك سوف تؤدي إلى نـــزول تعاليم الإسلام كاملةً، وإلى هذا قد أشير أيضًا في قوله ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه:١١٥). وبما أن هذا دعاء قرآني فما كان الرسول ﷺ وحده يقوم به، بل كان المسلمون كلهم يدعون به، وكان المراد من دعائه ﷺ يا ربّ، أَنـــزِلْ عليّ القرآن في أكمل وأشمل صورة، وكان المراد من دعاء الصحابة يا ربّ، أعطِنا بواسطة نبينا ﷺ أشمل شريعة وأكملها.

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢٢﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٣﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٤﴾

شرح الكلمات:

أَفّاك: الأفّاك: الذي يصدّ الناس عن الحق بباطله (الأقرب).

التفسير: لقد قال الله ﷻ من قبل إن هذا القرآن لم تنـــزل به الشياطين بل إنهم لا يقدرون على ذلك أصلاً، أما هنا فقد بين - للرد على اعتراض الكفار نفسه - علامات القوم الذين تتنـــزل عليهم الشياطين فقال: ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.. أي لا يكون للشيطان صلة إلا بالأفّاك الأثيم، لأن الشيطان نفسه كذاب، كما أن اسمه يدل على أنه آثم كبير، ولكن محمدًا ﷺ ليس بكاذب ولا آثم، فكيف يمكن أن

تنـــزل عليه الشياطين؟! بل كنتم تعترفون بصدق محمد ﷺ واستقامته. ورد في التاريخ أن النبي ﷺ لما أعلن دعواه اجتمع رؤساء مكة وقالوا إن مكة مركز العرب يجتمع فيه الناس للحج، فإذا جاؤوا هذه السنة للحج وسألونا عن الرسول (ﷺ) فسوف يعتبروننا مخطئين لو أجبناهم بأجوبة مختلفة، فيجب أن نتفق على شيء نقوله لهؤلاء الذين يأتون من الخارج. فقال أحدهم: سنقول لهم إنه كذاب. فقام أحد أعداء النبي ﷺ الألداء واسمه "النضر بن الحارث" وقال: كيف تقول هذا وقد كنا ندعوه صدوقًا أمينًا؟ لو قلنا للناس أنه يكذب فلن يصدقونا، بل سيتهموننا بالكذب قائلين: تقولون عنه الآن خلاف ما قلتم من قبل. (الشفاء للقاضي عياض، المجلد الأول ص ٧٩)

فالله يذكّر الكافرين بأنهم كانوا معترفين بصدق محمد من قبل، فكيف يقولون الآن أن الشيطان قد نـــزل عليه بوحيه. كلا، إنما ينـــزل الشيطان على الكاذبين الآثمين جدًّا، ولكن محمدًا ليس من الكاذبين، إذ عرفوا سيرته وأعماله خلال الأربعين سنة واعترفوا أنه كان أكثرهم صدقًا؛ أفليس من المستغرب أن يزعموا الآن نـــزول الشيطان على إنسان كان أكبر عدو للشيطان.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾.. أي أن الشياطين يتسمعون إلى السماء وأكثرهم كاذبون. ولإلقاء السمع إلى السماء مفهومان: أولهما أنهم يتمنون نـــزول الإلهام عليهم والاطلاع على أخبار الغيب، وتشتد بهم هذه الرغبة لدرجة أنهم بالفعل يتلقون إلهام الشيطان فَيَضلّون ويُضلّون. ولكن محمدًا ﷺ لا يطلب من الله ﷻ أن يوحي إليه، بل إنه ﷻ بنفسه يُنـــزل عليه وحيه، وإن محمدًا لا يطلب نـــزول كلام الله عليه جراء هوى النفس ليتفاخر أمام الناس، بل إذا أنـــزل الله بنفسه كلامه عليه فإنه يشكره عليه. أما الأفّاكون الآثمون فيتمنون بشدةٍ نـــزولَ الإلهام عليهم بطريق أو آخر، فيلجأون حينًا إلى المسمرية (Mesmerism)، وحينًا إلى التنويم المغناطيسي (Hypnotism)، وطورًا إلى الأذكار والأوراد، وتارةً إلى الاعتكافات والتأملات، ولا يهدفون من كل هذه الجهود إلا أن يعلموا شيئًا من أخبار الغيب. وكان المسيح الموعود عليه السلام يقول: لا تتمنوا أبدًا

نـــزول كلام الله عليكم، أما إذا أنـــزل الله بنفسه عليكم شيئًا من كلامه وإلهامه فهذا فضله. إذا أردتم أن تسألوا الله ﷻ شيئًا فاسألوه فضله. بيد أن المرء إذا استخار الله تعالى في شيء راجيًا منه أن يهديه بصدده فهذا شيء آخر، ولكن تمني المرء نـــزول إلهام الله عليه دليلٌ على أنه لا يريد أن يحظى بقرب الله ﷻ بل يريد أن ينال العزة بين الناس فقط. ومن أجل ذلك قد نهى المسيح الموعود ؑ أفراد جماعته بشدة عن أن يتمنوا نـــزول الوحي والإلهام عليهم. فقال ما تعريبه:

"لا تتمنوا بأنفسكم مكالمة الله ﷻ، لأن المرء إذا تمنى ذلك وجد الشيطان فرصة سانحة فيحاول إهلاكه، بل على المرء أن يهدف دائمًا إلى أن تتيسر له تزكية النفس والتقوى بحسب مرضاة الله ﷻ، وأن يُوفَّق لأعمال حسنة يرضى الله بها. فإذا رضي الله عنه شرّفه بنفسه بمكالماته إذا اقتضت حكمته ومصلحته ذلك. ولكن لا تجعلوا مكالمة الله هدفكم الأساس أبدًا، لأن هذا هو أصل الهلاك، بل يجب أن تكون غايتكم الحقيقية أن تُوفَّقوا للعمل بأحكام الله ﷻ طبقًا لتعاليم القرآن الكريم، وأن تتيسر لكم تزكية النفس، وتستولي محبة الله وعظمته على قلوبكم، وأن تكرهوا الإثم." (جريدة "الحَكَم" ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٧ ص ٧).

ويقول ؑ أيضًا:

"إن الذين لا تتيسر لهم تزكية النفس بشكل كامل ويرغبون في الرؤى والإلهامات فلا يتيسر لهم إلا حديث النفس وأضغاث الأحلام." (جريدة "بدر" ١٠ يناير/كانون الثاني ١٩٠٧م ص ١٦، خطاب حضرة مسيح موعود ؑ جلسه سالانه (أردو) ٢٦ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٦م)

عندما نـــزل وحي الله ﷻ على النبي ﷺ أول مرة رجع إلى بيته قلقًا وقال لخديجة رضي الله عنها: قد خشيتُ على نفسي، ولا أدري أأتحمل هذه المسؤولية أم لا (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان الوحي). أما الكاذبون الذين يتبعون الشياطين فيسعون ليل نهار لمعرفة أخبار الغيب بشتى الطرق من رمل وتنجيم وما

إلى ذلك، وليس هدفهم من وراء ذلك إلا أن يعترف الناس بصلاحهم ويعتبروهم ملجأ لهم ومأوى.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أن هؤلاء الشياطين من البشر يسعون لسماع كلام الله ﷻ وأكثرهم كاذبون. إنهم لا يستطيعون التخلي عن الكذب، فيدسّون أكاذيبهم فيما يسمعونه من كلام الله ﷻ فيُفتضحون. بمعنى أنهم عندما يسمعون من المسلمين القرآن الكريم يلبسونه بأكاذيبهم، ثم يشيعون هذا الكلام المشوه بين الناس زاعمين لهم كذبًا أن هذا ما ورد في كتاب المسلمين.

وليس معنى هذه الآية، كما زعم بعض المفسرين، أن الشياطين تصعد إلى السماء وتحاول الاطلاع على وحي الله ﷻ (الرازي). ذلك لأن هذا مستحيل بحق القرآن الكريم، حيث سبق أن قال الله ﷻ في هذه السورة نفسها: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(الآية:٢١٣)، كما قال الله ﷻ في مكان آخر: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾(الطور:٣٩). فثبت من هنا أن القرآن الكريم يُنكر قدرة أحد من الشياطين على الوصول إلى السماء ناهيك عن أن يسمعوا وحي السماء. إنما المعنى أنهم يسمعون من المؤمنين كلام الله ﷻ، فيدسّون فيه من أكاذيبهم، ثم يشيعون بين الناس هذا الكلام المدسوس لتشويه القرآن الكريم، ثم ينكشف تلبيسهم. فليس معنى هذه الآية أن الشيطان يصل إلى السماء ويسمع الحديث الذي يجري هناك بين الملأ الأعلى وجبريل والعرش، ثم ينـــزل به إلى الأرض، بل المراد أن أمثال الشيطان الذين يلبسون عباءة إبليس يعرضون على الناس وحي السماء بصورة مشوهة بهدف تضليلهم، فتقع فتنة بينهم ويقع كثير منهم في شراكهم. فثبت بذلك أنهم محرومون من سماع كلام الله ﷻ مباشرة. أما ما يسمعونه من الصحف السماوية من وحي سماوي فإنهم يدسّون فيه من أكاذيبهم إغواءً للناس.

وقد بين الله ﷻ هذه الحقيقة في آية أخرى فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ

غُرُورًا﴾(الأنعام:١١٣).. أي لقد حصل في زمن كل نبي محاولاتٌ لخداع الناس كمثل الذي يحصل اليوم، حيث منحنا شياطين الإنس والجن الحريةَ لذلك، فكان بعضهم يُسمع البعض أكاذيبهم ليخدع بعضهم بعضًا.

لقد تبين من هذه الآية أيضًا أن أعداء الأنبياء من كبار القوم وعوام الناس على السواء، لا يخبر بعضهم بعضًا أمور الغيب، إنما يتناقلون فيما بينهم أمورًا باطلة زائفة. وعلى سبيل المثال، قام علماء المسلمين بتفسير القرآن الكريم، كما قام به "ويري" وغيره من المستشرقين، ولكنك حين تقرأ تفاسيرهم تجد أن هؤلاء القسيسين المسيحيين لم يألوا جهدًا لتشويه سمعة الإسلام. فالحق أن المؤمنين والكافرين على السواء يُلقون السمع إلى أخبار السماء، ولكن هدف المؤمنين أن يسمعوا كلام الله ﷻ ويعملوا به، أما الكافرون فإنما يسمعون كلام الله ليدسّوا فيه الكذب ليُضلّوا الناس ويُبعدوهم عن الله ورسوله.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾. وهنا ينشأ سؤال وهو: قد قال الله ﷻ من قبل إن الشياطين ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.. أي على كل كذاب أثيم، ثم يقول بعد ذلك ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ مما يفيد أن كل واحد منهم لا يكون كاذبًا بالضرورة.

فليكن معلومًا أن قوله ﷻ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ إشارةٌ إلى أَتباع كل أفّاك أثيم، والمراد أن الذين يتبعون الأفّاك الأثيم أكثرهم كاذبون، إذ ليس ضروريًا أن يكون أتباع الأفّاك الأثيم كلهم كاذبين، بل يمكن أن يكون بعضهم مخدوعًا حيث يتبع زعيمه معتبرًا إياه صادقًا، وبالفعل نجد في الدنيا أناسًا يتّبعون الباطل ظانين أنه الحق؛ فلذلك لم يقل الله ﷻ هنا إن جميع أتباع الأفّاكين الآثمين كاذبون، بل قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾، إذ يكون بعضهم مخدوعًا.

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٧﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٨﴾

شرح الكلمات:

يَهيمون: هامَ على وجهه: ذهَب من العشق أو غيره لا يدري إلى أين يتوجه. (الأقرب)

انتصروا: انتصرَ منه: انتقمَ منه؛ وانتصرَ عليه: استظهر؛ وانتصر: امتنع مِن ظالمه. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة منه تعليقات الكافرين لدى سماعهم وحي الرسول ﷺ، فحينًا سمّوه مجنونًا (القلم:٥٢)، وحينًا آخر زعموا أنه يرى أضغاث أحلام مما دفعه إلى هذه الدعوى (الأنبياء:٦)، وتارة قالوا إنه ساحر (يونس:٣)، وأخرى قالوا إنه شخص طيب ولكن سحَره أحدٌ، أي أنه ليس بساحر بل هو مسحور (الفرقان:٩)؛ ومرةً قالوا إنه كاهن (الطور:٣٠، والحاقة:٤٣)، وأخرى قالوا بل قد علّمه بعض البشر هذا القرآن (النحل:١٠٤)، وحينًا قالوا إنه على صلة بالشيطان الذي يوحي إليه (الحجر:١٥)، وحينًا آخر قالوا إنه مفتر كذاب (ص:٥)، وحينًا ثالثًا قالوا إنه شاعر (الأنبياء:٦). لقد أشار الله ﷻ إلى بعض اعتراضاتهم فقال: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾(الأنبياء:٦).. أي أن كلامه ليس إلا كوابيس، بل الواقع أنه قد اختلقه من عنده كذبًا، بل الحقيقة أن طبعه ميال إلى الشعر وتخطر بباله صنوف الخيال، وكلامه فصيح بليغ ككلام فحول الشعراء الذين يتّسم شعرهم بالفصاحة والبلاغة وسموّ الخيال، إذًا فهو مجرد شاعر وليس بإنسان روحاني.

لقد أبطل الله ﷻ في هذه الآيات الاعتراض الأخير وردّ على الكافرين بأن ما يظنونه عن محمد ﷺ خطأ تمامًا بدليل أن الشعراء يتبعهم الذين لا تقوى فيهم ولا روحانية، حيث يتحدث الشعراء عادةً عن الحب المادي والعشق والجنس، فلا يتبعهم إلا الذين هم خلوٌ من الورع والتقوى؛ ولذلك تجد الشباب الطائشين يحفظون مئات من أبيات الشعراء، وتجد القينات يتغنين بشعرهم. وبما أن شعرهم يخلو من ذكر الله ورسوله تمامًا - حيث يثيرون عمومًا الغرائز الجنسية في الشباب، ويضحكون على الناس والوعاظ - فلا يحظون بالشعبية إلا بين الذين لا صلة لهم بالروحانية مطلقًا. أما الذين يتبعون محمدًا رسول الله ﷺ فيقدّمون نموذجًا منقطع النظير للصدق والأمانة والطهارة والعفّة، فيبيتون لياليهم قيامًا وسجودًا ويقضون نهارهم في ذكر الله ﷻ وإعلاء كلمة الإسلام؛ فكيف تقولون عن مثل هذا الإنسان المقدس، الذي صار أتباعه ببركة صحبته صالحين طاهرين، أنه مثل شعرائكم الفاسدين، ويجمع الناس حوله بإثارة عواطفهم؟ كلا، بل إن تحلّي جماعته بالطهارة والورع والتقوى بما لا مثيل له لدليلٌ على زيف ادعائكم، وعلى أنكم قد أخطأتم خطأً فادحًا في فهم مكانة محمد ﷺ.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.. أي أن الشعراء يجمعون في شعرهم كل رطب ويابس ليسرّوا الناس من ذوي الطبائع المختلفة، وليس لهم هدف أو غاية بل يقولون كل ما يخطر ببالهم. وبالفعل لو قرأتَ أي قصيدة لهم لوجدتها مثالاً لقوله ﷻ: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾. فمثلاً يقول أحدهم في بيت إني أموت حبًا لحبيبي الذي يُجافيني، وإني على وشك الهلاك جراء جفائه وفراقه، بينما يقول في البيت التالي إنه قد حظي بوصال حبيبه الذي قد أحياه ثانية. ويقول في بيت إنه يستعدّ للقاء حبيبه، بينما يقول في بيت آخر إنه على وشك الموت نتيجة هجرانه. وحينًا يقول إنه يموت عشقًا لحبيبه، مع أنه لا يزال حيًّا يُنشد شعره، ويقول في حين آخر إنه يهيم على وجهه صبابةً، مع أنه يقوم بأعماله على خير ما يرام. وتارة يقول إن حبيبه يعيش في قلبه كل حين، والحق أنه قول باطل تمامًا، وتارة أخرى يقول إنه يبكي دمًا لا دمعًا من أجل حبيبه، مع أنه يعيش بسلام

وراحة، و لم يمت و لم يبك أي دم على فراقه. فلن تجد أي صلة بين بيت وآخر في أية قصيدة من قصائدهم، ولن تجد أي ترابط في أبياتها، بل ستجد فيها تناقضًا على تناقض. ولا يستهدف هؤلاء من ذلك إلا إثارة عواطف الناس سواء أكان في هذه الإثارة خير أو شر. يحاولون إثارة عواطف الناس بأي طريق كان، فتارةً يتكلمون بما يبعث على الفرحة، وأخرى بما يبعث على الحزن. يريدون أن يفرح الجميع بشعرهم مهما كان محشوًا بالكذب وخلاف الحقيقة. يريدون أن يسرّوا الجميع العاشق والمعشوق، والقوي والفقير، والظالم والمظلوم، والغالب والمغلوب. ليس لهم هدف من قرض الشعر إلا أن يسرّوا به كل صغير وكبير. أحيانًا يمدحون بعض الأثرياء لا حبًّا وتعظيمًا له بل طمعًا في مال وعقار أو راتب ومعاش. يقال أن شخصًا جائعًا رأى مجموعة من الناس يذهبون إلى مكان وقد لبسوا حللاً جميلة، فظن أنهم ذاهبون إلى مأدبة طعام، فانضم إليهم ليأكل معهم. فوصل هؤلاء إلى بلاط الملك وأخذوا ينشدون قصائدهم في مدحه.. واحد بعد آخر. فعلِم الشخص الجائع أنهم شعراء وأن كل واحد منهم جاء لينشد شعره في مدح الملك. فوقع في ورطة وقال: ماذا سأفعل، فأنا لا أقدر على قرض الشعر. ولكنه كان شخصًا مازحًا، فلما انتهى الشعراء من إنشاد قصائدهم وأخذوا جوائزهم وذهبوا إلى بيوتهم، قال له الملك: هات ما نظمتَ؟ فقال: لستُ بشاعر. فقال الملك: فلماذا جئت مع الشعراء؟ قال: سيدي أنا من الذين ورد عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.. فهم شعراء وأنا أحد الغاوين. فسُرّ الملك وأمر له أيضًا بجائزة.

لا شك أنها مجرد طريفة، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أن الذين يتبعون الشعراء يكونون عادة من الغاوين. ذلك لأن الشعراء - كما بينت آنفًا - يقولون مرة شيئًا وأخرى ما يناقضه، ولا مبدأ لهم ولا موقف. تارة ينشدون أبياتًا هزلية ليضحكوا القوم، وأخرى ينظمون لهم حادث شهادة الإمام الحسين ﷺ ليبكوهم، وحينًا يمدحون الناس بقصائدهم وآخر يهجونهم بها. فهم في كل مكان وفي كل واد يهيمون. ليس لهم هدف معين وغاية محددة. أما محمد رسول الله ﷺ فقد بُعث

لنشر وحدانية الله في الدنيا، وهذا هو هدفه الوحيد المسيطر على أفكاره ليلَ نهار، ومن أجله يتحمل صنوف الأذى والتعذيب؛ فكيف تقولون أنه شاعر؟ لو كان شاعرًا لما كان له هدف ولا غاية مثل الشعراء الآخرين، بل مال إلى الأكثرية وحاول إرضاءها، لكنه قد تحدى العالم كله، ويسعى أن يأتي بكل إنسان إلى التوحيد، فكيف تقولون إنه شاعر؟

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾. إن عيوب الشعراء أن قولهم لا ينسجم مع فعلهم، ويقولون ما لا يفعلون. بمعنى أنك تجد أحدهم ينصح الناس بالخلق الحسن ولكنه يشرب الخمر. وإذا وعظ الناس بتقوى الله ﷻ فهو نفسه لا يصلي ولا يصوم. أما محمد ﷺ فعمله مثل قوله وما يعمل به فهو على لسانه أيضًا، فاتهامكم محمدًا بكونه شاعرًا لدليل على تعاميكم عن الحقائق، إذ إن التدبر سيكشف لكم أنه شتان بين محمد ﷺ والشعراء قولاً وعملاً ولا توجد أية مماثلة بينه وبينهم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿إلا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.. أي نستثني من هؤلاء القوم الشعراءَ المؤمنين الذين يعملون الصالحات، لأن شعرهم حق ولا يقولون فيه إلا ما يُطابق حياتهم العملية. ومثاله ما نظمه حسان بن ثابت رضي الله عنه من شعر عند وفاة النبي ﷺ، فقد قال معربًا عن حزنه العميق:

كنتَ السوادَ لناظري فعَمِيْ عَليَّ الناظرُ
مَن شاء بعدك فليمُتْ فعليك كنتُ أُحاذرُ

(ديوان حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ص ٣٠٨)

أي يا رسول الله، كنتَ حدقةَ عيني، وقد عميتْ عيني بموتك اليوم، فلا أُبالي الآن بموت أحد وإن كان أبي أو أمي أو زوجتي أو أخي أو ابني، لأنني كنت أخاف موتك أنت.

والحق أن حسان بن ثابت رضي الله عنه كان إنسانًا صالحًا وكانت أبياته هذه أيضًا تعبيرًا عن الحقيقة. فالشعراء كمثله ليسوا من زمرة الشعراء الذين سبق ذكرهم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.. أي أن الشعراء المؤمنين يذكرون الله كثيرًا، ولا يقولون بلسانهم فقط بأنهم سيضحون من أجل الحبيب بكل غال ورخيص كما يفعل غيرهم من الشعراء، بل إنهم بالفعل يكافحون وينتصرون عندما يُظلمون في سبيل الدين، وهكذا يؤكدون بأفعالهم ما أعلنوه في أشعارهم من فداء وتضحية للحبيب، بيد أنهم لا يظلمون العدو بل ينتقمون بقدر ظلم الظالم، ولا يعتدون على أحد.

لقد اشترط الله ﷻ في هذه الآية وفي آيات عديدة أخرى العملَ الصالح مع الإيمان. ذلك لأن المنافق أيضًا يدعي الإيمان بالله ﷻ وشريعته، وإن الناس أيضًا يعدّونه من المؤمنين بناء على ما يقول بلسانه، مع أن الواقع أنه لا يؤمن بالإسلام بقلبه كما أن الله ﷻ أيضًا لا يقبل إيمانه. قال الله ﷻ لرسوله الكريم في القرآن الكريم إن بعض الناس يأتونك ويحلفون لك بأنك رسول الله، واللهُ يعلم إنك لرسوله، ولكن الواقع أن هؤلاء يقولون هذا بأفواههم فقط، ولم تؤمن قلوبهم. (المنافقون:٢)

ثم هناك فئة من الناس الذين يظنون في أنفسهم أنهم يدركون حقيقة الإيمان والواقع أنهم لا يعلمون منها شيئًا، ومثلهم كمثل أن تشرح لصاحبك بالإشارة أمرًا فيظن أنه قد فهم إشارتك كما تظن أنت أيضًا كذلك، ولكن يتبين في النهاية أن كليكما لم يفهم قصد صاحبه. وهناك طريفة شهيرة أن أحد الصوفية الإيرانيين قدم إلى بلاط الملك المغولي "أكبر"، وطلب إليه أن يحضر العلماء ليوجه إليهم بعض الأسئلة. فدعا الملك علماءه، فأخذ الصوفي يشير بيده، فقال له الملك: ماذا تفعل؟ ينبغي أن تتكلم حتى نفهم قصدك. فقال الصوفي: الكلام يفهمه الجهلاء أيضًا، وأما الإشارات فلا يفهمها إلا العلماء، فإذا لم يفهم هؤلاء إشاراتي فليسوا بعلماء. فلما عجز العلماء عن فهم إشاراته، وأُعلن أنهم قد فشلوا في مناظرة الصوفي الإيراني، انبرى له "الملا أبو الحسن بن أبي المحاسن" الشهير بـــ"الملا دوبيازه"، وقال للملك: أنا أناظره. فأمر الملكُ الصوفيَّ أن يسأله ما يشاء. فأشار إليه الصوفي بإحدى أصابعه، فأراه "الملا دوبيازه" إصبعين في الجواب. ثم أشار إليه الصوفي بأصابعه

الخمسة، فأشار إليه "الملا دوبيازه" بقبضة يده. ثم خطّ الصوفي على الأرض دائرة، فتقدم "الملا دوبيازه" وجعل في وسط الدائرة نقطة. فقال الصوفي لا أريد أن أسأله المزيد لأنه عالم كبير. ولما انفضّ المجلس سأل الناسُ الصوفيَّ: ماذا قصدتَ حين أريته إصبعًا؟ قال: كنت أعني بها أن الله واحد، وقد أجاب عليه "الملا دوبيازه" إجابة صحيحة حيث قال: صحيح أن الله واحد، ولكن معه رسوله أيضًا. ثم لما أريته أصابعي الخمسة فكنتُ أعني أن بناء الإسلام على الخمسة المباركة،• فأراني "الملا دوبيازه" في الجواب قبضة يده ليقول: لا شك أن بناء الإسلام على الخمسة المباركة، ولكنهم في الواقع كشخص واحد. ثم خططتُ على الأرض دائرة لأقول إن الأرض كروية الشكل، فجعل "الملا دوبيازه" في وسط الدائرة نقطة ليقول إنها كروية الشكل، ولكنها تدور حول محورها. ثم قالوا "للملا دوبيازه": ماذا فهمت من إشارات الصوفي؟ قال إنه لما أراني إصبعه ظننت أنه يهددني بأنه سيفقأ عيني، فأريته إصبعين مهدِّدا إياه بأني سأفقأ عينيه الاثنتين. ثم إنه لما أراني يده مبسوطة ظننت أنه يهددني باللطم على وجهي، فأريته قبضة يدي لأقول له إني سأوجه إليه لكمة. ثم إنه خط على الأرض دائرة، ففهمت أنه يقول إن الإنسان لا بد له من الخبز، فوضعت في وسطها نقطة لأقول له إن الخبز وحده لا يكفي، بل لا بد من حبة بصل معه.

هذا هو حال المرء الذي يقول بلسانه إنه مؤمن ويظن أنه يعرف حقيقة الإيمان مع أنه لا يعرف منها شيئًا.

إذًا، فهناك من الإيمان ما يقرّ به المنافق بلسانه فقط ساخرًا بالناس، فيصدقونه ويعتبرونه مؤمنًا، ولكن الله ﷻ يعرف حقيقة إيمانه جيدًا. وهناك نوع آخر من

• ومراده من الخمسة المباركة ما أشار إليه بعض الشيعة في البيت التالي:

لي خمسةٌ أُطفي بها حَرَّ الوباء الحاطمةْ
المصطفى والمرتضى وابناهما والفاطمةْ

(المترجم)

الإيمان حيث يؤمن المرء ويظن أنه يعرف حقيقة الإيمان حق المعرفة مع أنه لا يعرف منها شيئًا. ثم هناك نوع ثالث من الإيمان حيث يدرك المؤمن حقيقة الإيمان جيدًا، ويقول الناس إنه مؤمن، ويقول الله ﷻ أيضًا إنه مؤمن فعلاً. ومثل الإيمان من النوع الأول كمثل شخص ينـــزع شجرة صغيرة من الأرض ويحملها في يده ولا تكون جذورها راسخة في الأرض. ومثل الإيمان من النوع الثاني كمثل شجرة تكون ثابتة في الأرض في بادئ الأمر، ولكن لا تكون جذورها متأصلة في الواقع، فتسقط إذا ما دفعها المرء دفعة بسيطة. ومثل الإيمان من النوع الثالث كمثل شجرة عظيمة أصلها ثابت في الأرض، فلا تقدر الرياح العاتية على زعزعتها. وهذا هو الإيمان الحقيقي الذي يتسبب في نجاة الإنسان، ولا بد معه من العمل الصالح أيضًا.

ولا يغيبنّ عن البال أن ما نسمّيه عادةً الأعمال الحسنة أو ما يقال بالإنجليزية Good Actions لا يعتبره القرآن أعمالاً صالحة، ولن تجد في القرآن الكريم كله لفظ الخير بمعنى العمل الحسن – إلا ما شذ وندر – بل تجد القرآن يستعمل له دائمًا كلمة "العمل الصالح"، ذلك لأن الحسنة عند القرآن الكريم هو العمل الذي يكون بحسب مقتضى الحال، وإذا لم يكن كذلك فلن يسمَّى عملاً صالحًا. فمثلاً لو سألت الناس عن الأعمال الحسنة قالوا: الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وما إلى ذلك، ولكن القرآن يخبرنا أن من الصلوات ما هو معصية وسيئة، وأن من الصيام والصدقة والزكاة ما يجلب لصاحبه غضب الله ﷻ بدلاً من أن يُكسِبه الثواب. فثبت أن الصلاة وحدها ليست بعمل حسن. لو كانت الصلاة في حد ذاتها عملاً حسنًا لما قال الله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّين﴾(الماعون:٥)، ولما لعَن المصلّين الذين يصلّون رياءً ليقول عنهم الناس أنهم من كبار الزهاد العابدين. وكذلك من صام يوم العيد فهو شيطان في الإسلام (البخاري: كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي). ومن حج بدون أن تتوفر فيه شروط الحج فلن يُعَدّ عمله عملاً صالحًا، ومن أخرج الزكاة بدون أن تكون فرضًا عليه فلن يُعَدّ عمله عملاً صالحًا. إنما العمل الصالح ما يكون بمقتضى الحال وملائمًا للموقف، ولذلك قال الله ﷻ في القرآن مرارًا في وصف المؤمنين: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. يظن الناس خطأ أن

الصلاة أو الصيام أو الحج أو الزكاة هي التي تتسبب في نجاة الإنسان، مع أنه لا يُنجي المرءَ إلا الصلاة التي يُصليها بمقتضى الحال. فمثلاً إذا كان المسلمون في قتال وكان الكفار يقتلونهم ويتقدمون، فأخذ المرء السجادة وشرع في الصلاة فسوف يقال أن لا صلاة له، إذ الوقت وقت الجهاد والقتال وليس وقت الجلوس على السجادة للتسبيح والتهليل. وبالمثل إذا لم يؤد المرء صلاته في وقتها بل قال إني ذاهبٌ للجهاد، فنقول إنه يتذرع بالجهاد فرارًا من الصلاة. فثبت أن الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج أو الجهاد ليس بحد ذاته سببًا لنجاة المرء، وإنما نجاته في عمل يقوم به بمقتضى الحال والظرف.

وثاني خصال المؤمنين المذكورة في هذه الآية هي قوله ﷻ: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. اعلم أن طبائع الناس مختلفة، فمنهم من يركّز على الذكر إذا كان منفردًا، ومنهم من إذا رأى الآخرين يذكرون الله ﷻ تحمس للذكر، ولذلك قد جمع الله ﷻ في الصلوات كلا النوعين من الذكر: الفردي والجماعي. ففي صلاتي الظهر والعصر يقوم كل واحد بذكر الله ﷻ منفردًا، فيقوم الإمام بالذكر في صمت ويقوم كل واحد من المصلين بالذكر في صمت. أما في صلوات المغرب والعشاء والفجر فقد أمر الله ﷻ المصلين أن يردّدوا الفاتحة وراء الإمام، ولكنه حين يقرأ بعدها شيئًا من القرآن الكريم فليستمعوا له صامتين. إذًا، قد جعل الله ﷻ المصلين تابعين للإمام تمامًا في بعض أجزاء الصلاة، فإذا كبّر كبّروا، وإذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، ولكن عندما لا يجهر الإمام بشيء في الصلاة فكل واحد منهم حرٌّ في أن يذكر الله كما يشاء، فيقوم الإمام بدعاء ويقوم المقتدي بدعاء آخر. وهكذا شفى الله ﷻ غليل جميع الناس ذوي الطبائع المختلفة، سواء الذين يتحمسون لذكر الله ﷻ إذا رأوا الآخرين يذكرونه، أو الذين يستمتعون بالذكر والعبادة على انفراد؛ ذلك لأن من الناس من لا تتولد فيه الرقة والبكاء مطلقًا إذا كان يدعو مع الآخرين، ومنهم من إذا سمع بكاء غيره استولت عليه الرقة فأخذ يبكي ويئنّ، مع أنه كان لا يجد أي حماس للبكاء من قبل. ولكن المؤمن الكامل من يذكر الله ﷻ على انفراد وأيضًا مع الآخرين، ولذلك قد حثّ الإسلام كثيرًا على الذِكر الفردي

وعلى الذكر في المجالس والاجتماعات أيضًا. فعندما يجتمع المسلمون للحج يذكرون الله ﷻ، وعندما يجتمعون للعيدين يذكرون الله ﷻ، وعندما يشتركون في حفلات الزواج يذكرون الله ﷻ، وعندما يشتركون في الجنازات يذكرون الله ﷻ أيضًا. فلكي تكون اجتماعاتنا ومجالسنا بكل أنواعها مباركة أمرنا الإسلام بذكر الله ﷻ فيها، كما ركّز على أهمية الذكر الفردي أيضًا مرارًا، فحثّنا على الدعاء حتى قبل الطعام وبعده، وعند الخروج للسفر والقفول منه، ووقت الفرح ووقت الترح، وعند دخول المسجد والخروج منه، وعند الصعود على مكان مرتفع وعند الهبوط منه، وعند رؤية المِرآة وعند تغيير الثياب، وعند رؤية الهلال، وحتى عند لقاء الزوجين. كما أمرَنا أن نبدأ كل عمل بالبسملة وإلا سيخلو من البركة. (الترمذي، أبواب الأطعمة، وأبواب الدعوات، وأبواب الصلاة، وأبواب اللباس، والبخاري: كتاب الدعوات، وكتاب الجهاد والسير، ومسند أحمد المجلد الأول ص ٤٠٣)

لا شك أن الإسلام قد أمرنا أن نقوم بعد كل صلاة بالتسبيح ثلاثًا وثلاثين مرة والتحميد ثلاثًا وثلاثين مرة وبالتكبير أربعًا وثلاثين مرة (الترمذي، أبواب الصلاة)، ولكنه أيضًا أوضح أن المؤمنين لا يكتفون بهذا العدد من التسبيح والتحميد والتكبير، بل يذكرون الله كثيرًا فيسبّحون الله ويحمدونه ويكبّرونه عند كل أمر.

والحق أن التدبر سيكشف لنا أن كلا الأمرين ضروري، لأن المرء يمر بحالتين في حبه: الحالة الأولى هي أن المحب إذا فرغ من مشاغله أخذ في الحديث مع حبيبه، والحالة الثانية هي أن قلبه يظل مشغولاً بحبيبه رغم مشاغله الأخرى. فالحب يفرض على المحب أن يتفرغ لحبيبه من مشاغله الأخرى في أوقات معينة، كما يفرض عليه أن يذكره دائمًا رغم مشاغله الأخرى. وبما أن كلا الأمرين ضروري فقد أمر الإسلام بالقيام بالتسبيح والتحميد والتكبير بعدد معين في بعض المناسبات، كما أوضح ألا يكتفي المؤمن بهذا فقط، بل عليه أن يذكر الله ﷻ قيامًا وقعودًا وأن يظل لسانه رطبًا بذكره ﷻ دائمًا. وهكذا يكتمل حب المؤمن، ولكنه لو قال في نفسه أنه سيذكر الله ﷻ في أوقات معينة ولا حاجة أن يذكره فيما سواها لكان معنى

ذلك أنه ليس مستعدًا لقضاء كل أوقاته في ذكر الله ﷻ، مع أن المؤمن الحقيقي من يذكر الله ﷻ في كل حين.

كان المسيح الموعود ؈ يقرأ علينا مقولة فارسية لأحد أولياء الله تعالى: "دلِ بكار ودَسْت بيار".. أي ينبغي أن تكون يد الإنسان مشغولة بالعمل بينما يظل قلبه مشغولاً بذكر الله ﷻ. وكذلك يُقال عن أحد أولياء الله ﷻ أن أحدًا سأله: كم مرة أذكر الله ﷻ؟ قال: تذكر حبيبك وتعدّ المرات؟! فالحق أن الذكر الحقيقي هو ما يكون بدون عدّ وحساب، ولكن من فوائد تحديد وقت معين لذكر الله أن الإنسان يتفرغ فيه كلية من مشاغله لذكر حبيبه. ولا بد من كلا الأمرين، لذا فالطريق السليم أن يقوم المرء بذكر الله ﷻ في أوقات محددة، وأيضًا في أوقات غير محددة، فيذكر الله ﷻ قيامًا وقعودًا ويذكر مننه وأفضاله كل حين.

والصفة الثالثة التي بيّنها الله ﷻ للمؤمنين هي قوله ﷻ: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.. أي أنهم لا يظلمون أحدًا ولكن إذا ظلمهم أحد فما وهنوا وما استكانوا، بل تصدّوا للظالم بكل شجاعة.

هذه السورة مكية حين لم يكن الإذن بالجهاد قد نزل بعد، فالواقع أن هذه الآية كانت بمثابة نبأ من الله ﷻ بألا يظن العدو أن تضحيات المسلمين الذين يتحملون ما يصب عليهم من ظلم واضطهاد ستذهب سدى، بل سيأتي يوم نسمح لعبادنا المقهورين المضطهدين بالتصدي للعدو، ولكنهم لن يعتدوا عندها على الظالم، بل سينتقمون منه بقدر ظلمه.

وأخيرًا، يذكر الله ﷻ أكبر دليل على صدق محمد ﷺ فيقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.. أي أن الظالمين سيرون عن قريب مصيرا تعيسًا، بمعنى أن الفرق بين عباد الشيطان وأنبياء الله ﷻ القدير على كل شيء أنه تعالى ينصر عباده، ولكن الشيطان لا يقدر على شيء، فسوف يأتي الله بنصره وسيرى الظالمون مصيرهم، وبالتالي سيعلم العالم أيّ الفريقين كان يتبع الشيطان: الظالمون أم المسلمون؟

سورة النمل

مكية وهي مع البسملة أربع وتسعون آية وسبعة ركوعات

زمن نزولها: هي سورة مكية عند ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما. وباقي علماء المسلمين أيضًا يؤيدون رأيهما. كما أن المستشرق "ويري" أيضًا يعتبرها مكية. (فتح البيان، وتفسير القرآن لويري)

الترابط: تكمن الصلة القريبة لهذه السورة بسورة "الشعراء" في أن الله ﷻ قد أخبر في آخر سورة "الشعراء" بغلبة المؤمنين وهلاك الكافرين، إلا أنها قد ركزت خاصة على بيان أن من سنة الله المستمرة إهلاك الكافرين دائمًا فكيف لا يُهلَكون الآن؟ أما هذه السورة فلا شك أنها قد تحدثت عند نهايتها عن هلاك الكافرين أيضًا، ولكنها ركزت خاصة على الجانب الآخر من هذه السنة الإلهية، أي أن الذين لبّوا نداء الله ﷻ، وخضعوا للعقائد والأخلاق والنظام التي وضعها الله ﷻ قد نالوا العز والغلبة دائمًا رغم ضعفهم. كما بين الله فيها أيضًا أن رُقي المسلمين لن يكون مؤقتًا بل سيستمر مدة طويلة، وأنهم لن يحكموا بلادهم فحسب، بل سيصبحون ملوكًا على البلاد الأخرى أيضًا.

وتكمن الصلة الأخرى لهذه السورة بسورة الشعراء في أن الله ﷻ قال في آخر الشعراء إن هؤلاء يتهمون هذا النبي بكونه شاعرًا، زاعمين أن الشيطان ينـــزل عليه، مع أن الشياطين ينـــزلون على كل أفّاك أثيم، ومن دأبهم أنهم يسمعون أحكام الله ﷻ ويقدمونها للناس في كلامهم ولكنهم كاذبون، بمعنى أنهم يدسّون في التعاليم السماوية كثيرًا من أكاذيبهم، فلا تكون تعاليمهم نافعة. أما الشعراء الذين يتبعون الشياطين فلا يتبعهم إلا الغاوون، إذ لا يكون وراء شعرهم هدف ولا غاية، إنما يريدون زخرفة الكلام. ألا ترى أنهم في كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون. أما في هذه السورة – النمل – فقد بين الله ﷻ أن آيات هذه السورة

آياتُ كتاب سيُقرَأ دائمًا، وهو يتناول كافة القضايا الدينية بشكل واضح مصحوب بالأدلة، ويهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم، ويبشّر العاملين به بالعاقبة الحسنى؛ فلذا لا يمكن أن تكون هذه التعاليم من قبل الشيطان، لأنه لا يهدي إلى الطريق المستقيم ولا يحظى من يتبعه برحمة الله وبركاته. وإنما المؤمنون بهذا الكتاب الذين يعبدون الله ﷻ ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالوحي القادم أو بالحياة القادمة؛ بمعنى أن تعليم الشيطان يكون مليئا بالكذب خاليًا من الهدى، والذين يتبعون أوامر الشيطان ينحرفون عن جادة الحق والهدى، أما هذا الكتاب فهو مليء بالهدى والحق، والذين يؤمنون به يعبدون الله ﷻ ويحسنون إلى الناس أيضًا، ويكونون مستعدين دائمًا لتصديق ما ينـــزل من عنده تعالى، كما تظل فكرة الحياة الآخرة مستولية على أفكارهم كل حين. إذًا، فمن المستحيل أن تنـــزل الشياطين على محمد رسول الله ﷺ الذي أتى بكتاب فيه هدًى وبشرى، كما لا يمكن أن يكون شاعرًا أيضًا لأن المؤمنين به يضربون أروع الأمثلة في حب الله ﷻ والعطف على الناس.

ملخص فحواها: لقد استهلّت هذه السورة بمقطع "طس" الذي قد ورد في بداية سورة الشعراء مضافًا إليه حرف الميم، إذًا فهذه السورة تسلسلٌ لنفس الموضوع الذي تعالجه سورة الشعراء. وحرف "الطاء" في "طس" اختزال لصفة الله "اللطيف"، وحرف "السين" لصفة "السميع".

ثم يقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.. أي أن آيات هذه السورة جزء من القرآن الكريم وأنها آيات من كتاب يذكر بنفسه أدلة صدقه، كما أنه هدي كامل؛ ذلك لأن لفظ ﴿هُدًى﴾ قد وردت هنا نكرة، والتنكير يفيد التعظيم أيضًا. (انظر كتاب العروس للسبكي، شرح مختصر المعاني الجزء الأول ص ٣٤٩) (الآيتان ١-٢).

ثم يقول الله ﷻ إن هذا الكتاب بشرى للمؤمنين الذين يتقدّمون أمام الله تعالى بعباداتهم الجسمانية دائمًا، ولا يقومون بعبادته منفردين، بل يدعون الآخرين أيضًا إلى عبادته ويصلّون جماعة - كما هو ظاهر من كلمة ﴿يُقِيمُونَ﴾، إذ إن الإقامة لا تقال إلا في صلاة الجماعة. والمؤمنون الذين يكون لهم القرآن بشرى ينفقون جزءًا

من أموالهم على الفقراء والمعدمين دائمًا، ولا ينفقونها من أجل السيادة والزعامة؛ بل ليرضى الله عنهم. وإنهم يوقنون بالآخرة، أي أنهم سيتبوأون ببركة طاعة الله الدرجات العلى ماديًا وروحانيًا. (الآيتان ٣-٤)

الذين لا يؤمنون بمآل أعمالهم سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة يرون أعمالهم جميلة، ويظلّون هائمين على وجوههم، وسينالون العقاب، ومصيرهم الفشل والخسران. (الآيتان ٥-٦)

إن القرآن الذي نـــزل عليك هو من عند الله الذي هو ذو حكمة وعلم، لذلك فهو مليء بكثير من البركات والحِكم والعلوم. (الآية ٧)

نقصّ عليك قصة موسى إذ قال لأهله إني أبصرتُ نارًا، فسأذهب إليها عسى أن آتيكم بمعلومات عن هذا البلد أو الطريق، أو آتيكم منها بجمر تستدفئون به. (الآية ٨)

فلما اقترب موسى عليه السلام من النار نُودي: مباركٌ الذي ترى تَجلِّيه في هذه النار، ومباركة أيضًا المنطقة حولها، أي أن الله رب العالمين الذي أراك تجلّيه في هذه النار منـــزه من كل عيب، وسينال الذين يؤمنون بهذا الوحي بركة عظيمة.◆ (الآية ٩)

وقال الله سبحانه وتعالى يا موسى الحق أنني أنا الله العزيز الحكيم.. أي أن المشهد الذي رأيته هو الجلال الإلهي، فألقِ عصاك. فلما ألقى موسى عصاه وجد أنها تهتز كالحيّة، فخاف وولّى مدبرًا، فأوحى الله إليه يا موسى لا تخف، إنما هم أعدائي الذين يخافونني وليس رسلي، إلا من ظلم بالخطأ ثم عاد إلى الخير فإنني ذو مغفرة ورحمة واسعتين. (الآيات ١٠-١٢)

وأدخِلْ يدك في جيبك وعندما تخرجها تجدها بيضاء أي تجدها ساطعة ولكن بدون أي عيب أو مرض. (الآية ١٣)

هذه الآية التي آتيناها موسى كانت ضمن تسع آيات أُرسلَ بها إلى فرعون وقومه لأنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن الطاعة. فلما ذهب موسى إلى فرعون وقومه

◆ هكذا ورد هنا، واقرأْ التفصيل لدى تفسير هذه الآية. (المترجم)

لم ينتفعوا بتلك الآيات التي كانت آيات واضحة بينة تهدي إلى الحق، وقالوا إن هذا إلا خداع مكشوف، فرفضوا الآيات بشدة مع أن قلوبهم كانت مستيقنة بصدقها. فالحق أنهم لم يكفروا بها إلا ظلمًا واستكبارًا، فانظر كيف كانت عاقبة مثل هؤلاء المفسدين. (الآيتان ١٤-١٥)

ثم بعد قصة موسى عليه السلام يذكر الله سبحانه وتعالى داود وسليمان، ويسجل قولهما بأن الله سبحانه وتعالى قد فضّلهما على كثير من عباده المؤمنين.. أي بالخلافة الروحانية والمادية. (الآية ١٦)

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه بعد وفاة داود تولى سليمان الحُكم، وقال إني عُلّمتُ منطق الطير.. أي لسان أولئك القوم الذين يحلّقون عاليًا.. أي لغة أنبياء الله سبحانه وتعالى، وأن الله قد أعطاه كل ما يحتاج إليه، ولا يتيسر هذا لأحد إلا بفضل خاص من عند الله سبحانه وتعالى. (الآية ١٧)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى أنه عُرض على سليمان ذات مرة جنوده من الجن والإنس والطيور، فاصطفّتْ أمامه في صفوف - وهذه الكلمات تدل على أنه كان يتجهز لمحاربة بعض البلاد. (الآية ١٨)

وبينما هو خارج مع جنوده مرّ على وادي قبيلة اسمها "النمل" - وقد ظن المفسرون خطأً أنه وادي حشرات النمل - فلما رأت ملكة قوم "النمل" سليمانَ وجنوده قالت لقومها يا قوم، ادخلوا كلكم في بيوتكم لكي لا يظن سليمان وجنوده أننا نريد محاربتهم فيدوسونا تحت أرجلهم. فتبسم سليمان من قول الملكة ضاحكًا، وحمد الله أنّه قد أذاع صيته الحسن في أقطار نائية من الأرض حتى يعرف أهلها أن سليمان ليس بظالم، بل يعامل الشعوب الضعيفة بالعدل. (الآيتان ١٩-٢٠)

فتفقَّدَ سليمان عندئذ جنوده، فوجد أن أحد قادته "الهُدْهُد" غائب، فأصابه القلق على غياب قائد كبير في ذلك الوقت الحرج، فقال: سأعاقبه عقابًا شديدًا أو سأقتله إلا أن يأتي ببرهان مبين عن سبب غيابه. (الآيتان ٢١-٢٢)

فما لبث أن رجع هذا القائد وأوضح لسليمان أنه لما رآه عازمًا على شن الغارة على مُلْك قوم سبأ، سبقه للتجسس عليهم، وها هو تقريره بهذا الصدد. إن هذا

القطر تحكمه امرأة بكل قوة، وهي تملك كل نوع من العدّة والعتاد وملكها عظيم. ولكن يوجد في أهل تلك البلاد عيب شنيع وهو أن الملكة وقومها يعبدون الشمس معرضين عن وحدانية الله تعالى. فعلم سليمان عليه السلام أن قائده لم يغِبْ إلا بنية حسنة، فقال: حسنًا، سنذهب هناك ونرى ما إذا كنت صادقًا أم لا؟ فاذهَبْ برسالتي هذه وضَعْها أمام الملكة وحاشيتها، ثم تأخَّرْ قليلاً وانتظِرْ جوابهم بأدب ولباقة. (الآيات ٢٣-٢٩)

فلما عرض "الهُدْهُد" رسالة سليمان على الملكة قالت لحاشيتها: إنه مكتوب كريم من قبل سليمان، وقد ورد فيه ألا تتمردوا عليّ وأْتوني منقادين. (الآيات ٣٠-٣٢)

ثم قالت ملكة سبأ لرؤساء قومها: ماذا تقترحون عليّ في هذه المعضلة العويصة؟ قالوا نحن قادة محنّكون أولو بأس شديد، ولكن القرار في يدك. قالت إن الملوك إذا دخلوا بلدًا بجنودهم عاثوا فيه فسادًا، وجعلوا أعزة أهله أذلّة مهانين، فأقترح أن أبعث إلى سليمان هدية وأنظر ما يرجع به رسلي من جواب. (الآيات ٣٣-٣٥)

فلما قُدمت الهدية لسليمان قال لقد أعطاني الله سبحانه وتعالى أفضل مما عندهم، وإن هذه الهدية التي بعثوها إلي كرشوة لن تثنيني عن عزيمتي. فارجِعْ يا "هدهد" إليهم وأَخبِرْهم أننا سنُغِير عليهم الآن بجنود لا قِبل لهم بها.

ثم قال سليمان عليه السلام لقادة جيوشه: مَن يأتني بعرش هذه الملكة قبل أن يأتيني قومها منقادين؟ فقال أحد القادة: سآتيك بعرشها قبل أن تشن عليهم الهجوم، وسأكون أمينًا في نقل هذه الثروة العظيمة إليك. فقال شخص آخر عنده علم الدين: إن هذا سيحضر إليك العرش بتأخير، ولكني سأُحضره بلمح البصر، أي سوف أصنع لك عرشًا جديدًا أفضل من عرشها وأحضره في بلاطك فورًا. فجيء بالعرش فلما رآه سليمان حمِد الله تعالى وقال لهم: اجعلوه أفضل ما يكون حتى يبدو عرش الملكة حقيرًا أمامه، لأرى ما إذا كانت تصرّ على كبريائها بعد رؤيته أم تعترف بفضلي. فنفّذوا أوامره. فلما جاءت الملكة قِيل لها: أهكذا عرشك؟ فبدلاً من أن تعترف بأن عرش سليمان أفضل من عرشها قالت كأنه هو. (الآيات ٣٦-٤٣)

ولكي يكشف سليمان للملكة حقيقةَ التوحيد وشناعة الشرك بمثال عَملي بنى قصرًا زجاجيًا يجري الماء تحته، فلما دخلت الملكة القصر الزجاجي ظنت أن الماء يجري على أرضيته، فرفعت ثوبها عن ساقها فزعًا، فقال لها سليمان: لقد أخطأتِ فإنه ليس ماءً، بل الماء تحت الزجاج. ففهمت الملكة بهذا الدليل صدق عقيدة التوحيد، فآمنت بسليمان متبرئةً من عقيدة الشرك. (الآيتان ٤٤-٤٥)

بعد واقعة سليمان ذكَر الله ﷻ قوم ثمود لأن بلادهم خضعتْ لحكم سليمان. لقد قال الله ﷻ إن نبيهم صالحًا دعاهم إلى التوحيد ولكنهم صاروا فريقين، فريق آمنَ وفريق كفر. عندما نصحهم نبيهم قالوا يا صالح إننا نتشاءم منك، فأجابهم أنا أيضًا أخاف عليكم مصيرًا تعيسًا لأنكم قد تركتم دين الحق. وكان في القوم تسعة رؤساء، فحرض بعضهم بعضًا وحلفوا أنهم سيُغيرون على صالح وأهله ليلاً ويقتلونه، وإذا سألهم أحد سيقولون لا نعلم شيئًا عن الحادث. ولكن مكر الله غلَب في نهاية المطاف. وبالفعل ترون ديار القوم خربة لا يسكنها أحد. (الآيات ٤٦- ٥٤)

ثم ذكر الله تعالى حادث لوط ؈، وأخبر أنه نهى قومه عن الشذوذ الجنسي فخالفوه، فقُلبت مدينتهم بالزلزال رأسًا على عقب ودُمّروا تدميرًا. (الآيات ٥٥- ٥٩)

بعد ذكر هؤلاء الأنبياء يقول الله ﷻ: آللهُ الذي يحمي عباده من الهلاك خيرٌ أم الآلهة الباطلة التي لم ينجح أحد ممن عبدوها قط؟ (الآية ٦٠)

ثم يقول الله تعالى: آللهُ الذي هو رب السماوات والأرض ويُنــزل من السحب ماءً فيُنبت به البساتين من شتى الثمرات خيرٌ أم الآلهة الباطلة التي هي بحاجة إلى هذه المياه والبساتين؟ ومن ذا الذي جعل الأرض صالحة للعيش والسكن، وفجّر فيها الأنهار وجعل بين الماء العذب والماء المالح حاجزًا؟ هل بوسع أحد أن يُقدم ندًّا وشريكًا لمثل هذا الإله المدبر؟ ثم من ذا الذي يستجيب دعاء المنكوبين عديمي الحيلة فيجعلهم ملوك العالم؟ هل يمكن أن يكون لمثل هذا الإله نِدّ وشريك؟ ولكن المؤسف أن الناس لا يتعظون رغم ذلك. (الآيات ٦١-٦٣)

ثم يقول الله من ذا الذي يهديكم في ظُلمات البر والبحر، ومن يأتيكم بالهواء العليل قبل نــزول المطر؟ هل هناك إله سوى الله ﷻ يمكن أن يفعل ذلك؟ وهل

هناك إله سوى هذا الإله القادر المطلق القدرة الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده. الحق أن الله وحده يعلم غيب السموات والأرض، أما آلهتكم الباطلة فهي لا تدري متى كانت بداية دينها الوثني في الدنيا. (الآيات ٦٤-٦٧)

إن الكافرين يقولون دائمًا كيف نعود إلى الحياة ثانية نحن وآباؤنا بعد أن مُتنا وصرنا ترابًا، إنْ هي إلا أساطير الأولين التي تُعاد اليوم؟ يقول الله تعالى إذا كانت هذه الأمور أساطير فحسب فلماذا تعرّض الذين أنكروها للعقاب في زمنهم؟ وما دام أولئك القوم قد عُوقبوا فلن ينجو معارضوك، يا محمد، من عقاب الله ﷻ بعد إنكارهم هذه الأمور. فلا تحزن على هلاكهم الذي سيحل بهم حتمًا، ولا يُصيبنكم القلق بسبب مكائدهم أيضًا لأنها كلها ستبوء بالفشل. إنهم يقولون لكم متى يأتي هذا العذاب إن كنتم صادقين؟ قلْ إن بعض هذا العذاب سيأتيهم عاجلاً وبعضه آجلاً، لأن الله ﷻ ذو فضل على العباد فيمهلهم بفضله رغم أنه يعلم نواياهم الخفية وأعمالهم الظاهرة. (الآيات ٦٨-٧٥)

إن الله ﷻ يعلم ما في السماوات والأرض من أمور خفية، ومن الأدلة على ذلك أنكم ترون أن القرآن الكريم يقول الحق دائمًا، أما الكتاب المقدس وغيره من الصحف السماوية فقد تسربت إليها أنواع الأخطاء بمرور الزمن. إن هذا القرآن هدى ورحمة للمؤمنين ولن يكشف الله ﷻ بالقرآن أن بني إسرائيل قد انحرفوا عن جادة الحق فحسب، بل سيفصل به بين الفئات الإسرائيلية كلها ويجعل الصادقين غالبين على الكاذبين. (الآيات ٧٦-٧٩)

إنما واجبك أن تتوكل على الله ﷻ. ولا شك أن تبليغ الرسالة واجبك، ولكن الذين ماتت قلوبهم لا يمكن إقناعهم، وإن الأخرس إذا ولّى مُعرضًا لم يفهم بالإشارة أيضًا، ولم يبقَ سبيل لهدايته، ونفس الحال بالنسبة للأعمى الذي لا يُريد أن يتبع البصير. إنما تستطيع أن تهدي إلى الحق من يؤمن بآيات الله ﷻ.(الآيات٨٠-٨٢)

عندما يحين هلاكهم يُخرج الله من الأرض دابة تكلّمهم، وسيعلم الناس أنهم قد نالوا هذا العقاب لأنهم لم يكونوا موقنين بقول الله ﷻ. (الآية ٨٣)

اذكر ذلك اليوم الذي سنُقيم من كل قوم يكفرون بآياتنا جماعةً كبيرة، ثم نجعل هذه الجماعات أحزابًا شتى، أي ستتكون في العالم اتحادات شتى، وتدعو فئة من كل قوم وشعب إلى الإلحاد على وجه خاص، وسيستمر هذا إلى أن يصدر قرار العقاب بحقهم من عند الله ﷻ، فلن يملكوا الكلام عندها. (الآيات ٨٤-٨٦)

إنهم لا يفكرون أننا أتينا عليهم بالليل- أي بالزمن الذي يكون بعيدًا عن زمن النبوة - ليتزودوا بكفاءات الرقي ثانية، ولكنهم قد أصبحوا فيه أكثر كسلاً، إذ لم ينتفعوا من النهار أي من النبوة. (الآية ٨٧)

سيأتي يوم يُنفَخ فيه الصور، أي سيأتي زمن تتناحر فيه الأمم فيما بينها تتحارب، ويُصاب كل مَن في السموات والأرض بالذعر، وبرغم أن هذا الدمار يكون شاملاً إلا أن باب الدعاء عند الله ﷻ سيظل مفتوحًا. (الآية ٨٨)

وترى الجبال وتظن أنها جامدة مع أنها تجري كما تجري السحب، بمعنى أن الأرض عندما تتحرك؛ تتحرك السحب معها أيضًا. هذه صنعة الله الذي أتقن كل شيء وهو أعلم بأعمالكم. (الآية ٨٩)

مَن عمل صالحًا يُجزى به، أما الذين يعملون السيئات فيُكبُّون في النار على وجوههم، إلا أن جزاء السيئة لن يكون أكثر منها. (الآيتان ٩٠-٩١)

يا محمد قُلْ للناس إن الله قد أمرني أن أعبد ربَّ هذه البلدة.. أي أن أتبع التجلي الرباني الذي ظهر في مكة بواسطة إبراهيم، وأن أكون نموذجًا عمليًّا حيًّا للطاعة، وأن أقرأ القرآن على الجميع. وأنا لا أمارس الإكراه على أحد إذ ليس عليّ إلا أن أُبلغ الناس رسالة الحق، فإن شاءوا آمنوا به وإن شاءوا رفضوا. ولكن هذا لا يعني أن الله ﷻ سيظل صامتًا على إنكارهم، بل إنه سينـــزل من السماء حتمًا ويُريهم الآيات بحيث يرونه ﷻ ماثلاً أمامهم. (الآيات ٩٢-٩٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

التفسير: لقد استهلّت هذه السورة أيضًا بمقطع "طس" كما استهلّت به السورة السابقة، وكما قلنا من قبل إن "الطاء" اختزال للطيف و"السين" للسميع. بيد أن هناك فرقًا وهو أنه قد ورد في مقطع السورة السابقة حرف الميم فقيل: ﴿طسم﴾ والميم اختزال للمجيد، وهذا يعني أن تلك السورة تركز على بيان صفة الله المجيد بوجه خاص، أما هذه السورة فمع أن موضوعها نفس السورة السابقة إلا أنها لا تركّز على بيان صفة الله ﷻ "المجيد" كالسورة السابقة. ومن الأدلة الظاهرة على هذا أن السورة السابقة تتحدث عن محمد رسول الله ﷺ أكثر، إذ قد ظهر مجد الله تعالى بواسطته ﷺ أكثر. أما هذه السورة فتتحدث عن موسى وداود وسليمان – عليهم السلام – الذين كانت حياتهم وحياة أتباعهم دليلاً على كون الله ﷻ عالمًا بالأسرار الروحانية وسميعًا للدعاء، ولكنها لم تدل على صفة الله "المجيد" بقدر ما دلت عليها حياة النبي ﷺ وأصحابه.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ...الخ﴾.. أي أن آيات هذه السورة آياتُ القرآن وآياتُ كتابٍ يُبين مضامينه بنفسه وهو هداية وبشارة للمؤمنين، ولكن ليس للمؤمنين الذين يُعلنون إيمانهم بأفواههم فقط، بل للمؤمنين الذين يُقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون.

الحق أن الله تعالى قد ذكر في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ ميزةً للقرآن الكريم لا تُوجد في سائر الصحف السماوية على الإطلاق، إذ لا توجد في الدنيا صحيفة

سماوية تُقرأ بالكثرة التي يُقرَأ بها القرآن الكريم. ولذلك قال الله ﷻ هنا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾.. أي إنها آياتُ تلك الصحيفة التي من أكبر خصوصياتها أنها "القرآن" أي أنها تُقرأ بكثرة بحيث لا يُباريها كتاب سماوي آخر في العالم.

الحق أنه كان لزامًا على الكتاب الذي كان أكثر نفعًا للدنيا أن يكون "قرآنًا".. أي أن يُقرأ بكثرة. ومن الغريب حقًّا أنه برغم توافر تراجم التوراة والإنجيل بكثرة إلا أن هذه الكتب لا تُقرأ بقدر ما يُقرأ القرآن الكريم، مع أنه باللغة العربية ويقرأه الناس بالعربية نفسها.

يقول المعارضون إن قراءة القرآن بكثرة راجعةٌ إلى التدابير الكثيرة التي اتُّخذت في هذا السبيل كقراءته في الصلوات مثلاً، فقراءته بكثرة أمر طبيعي.

والجواب أن قراءة القرآن الكريم بكثرة ليس بأمر طبيعي رغم اتخاذ هذه التدابير، وذلك للأسباب التالية:

أوّلاً: ليس ضروريًا أن يُؤمن الناس بكتاب يُؤمرون بقراءته في صلاتهم. ذلك لأن الكثرة أمر نسبي، إذ لا يمكن أن يُقرأ القرآن أكثر من الكتب الأخرى إلا إذا كان عدد المؤمنين به كثيرًا. وإقناع الناس بالإيمان به بكثرة ليس من الأمور الطبيعية. لا شك أن السيخ يقرأون كتابهم "غرانث"، ولكنه ليس "قرآنًا" أي لا يُقرَأ بكثرة، لأن عدد المؤمنين به محدود جدًا. فلا شك أن كثرة قرّاء القرآن كان نبأً من الله تعالى عن كثرة المؤمنين به.

وثانيًا: أن وُجود المؤمنين بكتاب بكثرة لا يعني بالضرورة أنهم سيعملون بما يأمر به، ولكنا نرى أن المسلمين يقرأون القرآن بكثرة كما أمرهم الله تعالى رغم أنه بلغة أجنبية للأكثرية منهم، فثبت أن ذلك ليس بأمر طبيعي أيضًا.

وثالثًا: ما دامت الكتب السماوية تنــزل من الله ﷻ، وما دام الله ﷻ هو عالم الغيب ولا يمكن أن تخفى عليه التدابير التي تُتخذ لقراءة القرآن بكثرة، فلماذا لم يتخذها من أجل الكتب الأخرى يا ترى؟ أو لماذا لا يتخذها الآن المؤمنون بتلك الكتب؟ فثبت جليًا أن الله ﷻ أراد لهذا الكتاب وحده أن يكون قرآنًا، وما دام الله

ﷻ الذي أنــزل الكتب كلها لم يتخذ إلا هذا الكتاب وحده ليصبح "قرآنًا" فثبت أنه أفضل الكتب حتمًا.

رابعًا: يقول البعض أن الناس يحفظون القرآن الكريم لأنه نــزل بصيغة تجعله أسهلَ حفظًا من الكتب الأخرى. ونحن نقول: لماذا لم تنــزل الكتب الأخرى بصيغة كهذه؟ ثم هل صياغة كتاب بهذا الأسلوب أمر سهل؟

وباختصار إن كون هذا الكتاب الكريم "قرآنًا" إنما هي ميزة فريدة له لا توجد في الصحف الأخرى. إن بعض "الآرية الهندوس" يقرأون آيات من القرآن الكريم أثناء المناظرات ثم يتباهون أمام المسلمين ويقولون: انظروا نحن نستطيع قراءة كتابكم، ولكنكم لا تستطيعون قراءة كتابنا! والحق أن قولهم هذا تأييد لدعوى القرآن الكريم، إذ يؤكدون بذلك أن القرآن سهل القراءة فعلاً حتى إن أعداءه أيضًا يستطيعون أن يتعلموه بلغته. بينما نجد أن المؤمنين بالكتاب الهندوسي "الفيدا" أنفسهم لا يقدرون على قراءته. فثبت أن الاسم الذي أُطلق على كتاب المسلمين في تلك الظروف غير المواتية كان اسمًا على مسمى، حيث إن العدو نفسه قد شهد بفعله على صدقه. فقول الهندوس هذا لا يقدح في القرآن الكريم في الحقيقة، بل هو تصديق لكتابنا الكريم.

ومما يسترعي الانتباه أن الله ﷻ قال في سورة "الحجر": ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾، بينما قال في هذه السورة: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾، حيث قدّم لفظ "الكتاب" على لفظ "القرآن" في موضع مضيفًا صفة "المبين" إلى القرآن، بينما قدّم في موضع آخر لفظَ "القرآن" على لفظ "الكتاب" مضيفًا صفة "المبين" إلى الكتاب. لماذا هذا الفرق يا ترى؟

فليكن معلومًا أنه في "سورة الحجر" قد ذكر الله ﷻ الكافرين بعد قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فقال: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، أما هنا في سورة النمل فذكر المؤمنين بعد قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ حيث قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ومن الواضح أن الكافرين لا يقومون بتلاوة القرآن الكريم، وإنما تتوقف معلوماتهم عنه على ما يسمعونه من المسلمين،

والسماع وثيق الصلة بلفظ "القرآن"، فالقرآن - أي القراءة - هو المبين بالنسبة للكفار. أما المؤمنون فإنهم يقرأون كلام الله ﷻ وقراءتهم أكثر من سماعهم، مثلاً إذا كان المؤمن يقرأ جزءًا واحدًا من القرآن الكريم فربما لا يسمع منه ربع ما يقرأ، فثبت أن علمهم ذو صلة بصفة "الكتاب"، فالكتاب هو المبين بالنسبة لهم، ومن أجل ذلك جاء لفظ "القرآن" مقرونًا بصفة "المبين" في "سورة الحجر"، بينما ورد لفظ "الكتاب" مقرونًا بصفة "المبين" في هذه السورة.

أما تقديم لفظ "الكتاب" في سورة وتقديم لفظ "القرآن" في سورة أخرى فالحكمة في ذلك أن الكافر يكون على صلة بهذا الوحي بصفته "قرآنًا".. أعني أنه يسمع كلماته من أحد، ثم إذا كان طيب القلب آمن به وأوجب على نفسه العمل به. أما المؤمن فهو يتوجه إلى قراءته بعد إيمانه به، فالصفة القرآنية التي كانت أولى بالكافرين ذكرها قريبًا منهم وما كانت أولى بالمؤمنين ذكرها قريبًا منهم.

وهناك حكمة أخرى عندي في تقديم لفظ "الكتاب" على "القرآن" في سورة الحِجر وتقديم لفظ "القرآن" على "الكتاب" في سورة النمل، وهي أن التركيز على صفة "الكتاب" أكثر منه على صفة "القرآن" في سورة الحِجر؛ حيث يُذكر الشيء الكبير قبل الشيء الصغير لبيان الدرجة والمقام. أما في سورة النمل فالتركيز فيها على صفة "الكتابة" أكثر منها على صفة "القراءة"، ولذلك قُدم لفظ "القرآن" على "الكتاب". وهذا يعني أن "القرآن" و"الكتاب" ليسا اسمين بل هما صفتان للوحي القرآني حيث قِيل إنه "كتاب" و"قرآن" أيضًا، فكان لفظ "الكتاب" نبأً بأنه سيُكتَب، وكان لفظ "القرآن" نبأً بأنه سيُقرَأ بكثرة. وهاتان الصفتان لا تتوفران معًا في أي كتاب سماوي سوى القرآن الكريم. أعني أنه موجود كتابةً، ويُتلى بكثرة لا يُتلى بها أي كتاب سماوي آخر في العالم. لا شك أن التوراة والإنجيل أيضًا يُقرَآن ولكنهما لا يُقرَآن بالكثرة التي يُتلى بها القرآن الكريم، هذا أولاً.

وثانيًا لقد هيأ الله ﷻ للقرآن الكريم عشّاقًا يحفظون كل كلمة منه ويتلونه بأنفسهم كما يقرأونه على الآخرين أيضًا آناء الليل وأطراف النهار. ولكن لا يوجد في الدنيا حافظ واحد للتوراة ولا للإنجيل، ولا يوجد فرد واحد يحفظ كل

كلمة من كتاب "الفيدا" الهندوسي، وهذا هو حال "الزند" و"الأفستا". إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يُقرأ كتابةً ويُحفَظ عن ظهر قلب أيضًا، ثم إنه يُتلى في الصلوات أيضًا. وبما أن سورة النمل تُركز على إبراز تأثير القرآن الكريم كتابةً أكثر منه تلاوةً فلذا قد قُدّم فيها لفظ "القرآن" على لفظ "الكتاب".

وهناك حكمة أخرى في هذا التقديم والتأخير، وهي أن سورة الحجر تتحدث عن الأنبياء الذين لم يكن في أممهم رواج للكتابة، بل كانوا يضبطون العلوم بحفظها عن ظهر قلب، مثل آدم وإبراهيم ولوط وشعيب وصالح وغيرهم — عليهم السلام. وبما أن الخطاب في سورة الحِجر موجه إلى شعوب هؤلاء الأنبياء فقد جاءت كلمة "القرآن" مقرونة بصفة "المبين"، وذلك للإشارة إلى أن هذا الوحي سينفع هذه الشعوب بصفته "قرآنًا" أكثر، ولكن الله ﷻ زاد هنا كلمة "الكتاب" أيضًا للإشارة إلى حفظه لهذا الوحي حفظًا تامًا. أما في سورة النمل فجاءت كلمة الكتاب مقرونة بصفة المبين لأن هذه السورة تُركز على بيان وقائع موسى وداود وسليمان– عليهم السلام – الذين كانوا من بني إسرائيل حيث كانوا يعتمدون على الكتابة أكثر من الحفظ، وبما أنه كان مقدرًا أن ينفع القرآن الكريم أمم هؤلاء الأنبياء بصفته كتابًا أكثر منه قرآنًا فلذلك قد تم التركيز هنا على "الكتاب" أكثر منه على "القرآن". بيد أن الله ﷻ قد ذكر هنا كلتا الصفتين "الكتاب" و"القرآن" للإشارة إلى أن هذا الوحي سيُكتب ويُحفظ أيضًا، إلا أن الأمم التي تعتمد على الكتابة ستنتفع من هذا الكتاب من خلال كتابته أكثر، وهذه السورة تُخاطب هذه الأمم نفسها. وكأن هذا الوحي "قرآن مبين" للأمم التي تعتمد على الحفظ عن ظهر قلب أكثر، وأنه "كتاب مبين" للأمم التي تعتمد على الكتابة أكثر.

ويتضح بالتدبر في القرآن الكريم أن كلمة "قرآن مبين" قد وردت فيه مرتين، بينما تكررت فيه كلمة "كتاب مبين" اثنتي عشرة مرة، وفي هذا إشارة إلى أن تأثير القرآن الكريم يكون أوسع نطاقًا من حيث كونه كتابًا، وأن أكثر الناس سينتفعون منه ككتاب، وهناك فئة منهم ستنتفع من بركاته بحفظه عن ظهر قلب. وهكذا قد

نبه الله تعالى المسلمين أن يهتموا بترويج التعليم أكثر لينتفع الناس من بركات القرآن أكثر فأكثر.

والميزة القرآنية الثانية التي قد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هي أنه كتاب.. أي أنه موجود بشكل مكتوب ومحفوظ، أما الصحف الأخرى فهي مكتوبة الآن ظاهريًا فقط، ولم تعُدْ مكتوبة في الحقيقة، وأن عباراتها نفسها تدل على أنها أصبحت مشوهة محرفة. كما أن لفظ "الكتاب" يعني الوجوب، وعليه فالمراد أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعمل به الناس الآن. وبالفعل لا يزال هناك ملايين الناس الذين يعملون بكل حكم من أحكام القرآن حتى اليوم، بينما لا يعمل الناس بالتوراة والإنجيل والزند والأفستا إلا قليلا. فثبت أن القرآن الكريم هو الكتاب سواء من حيث كونه قد كُتب وحيه أولاً بأول، وأنه محفوظ حتى اليوم تمامًا كما نـــزل على محمد رسول الله ﷺ، أو من حيث إنه الكتاب الوحيد الذي يُعمَل به في العالم. لا شك أن أتباع الديانات الأخرى يطبعون كتبهم السماوية ويؤمنون بأنها وحي الله تعالى، بل يتضايقون إذا اختلف أحد مع ما ورد فيها من تعاليم، ولكنهم يضربون بها عرض الحائط فيما يتعلق بالعمل بها. وهذان الأمران ثابتان بحيث لا غبار على ذلك.

يقول المستشرق الألماني نولدكه:

"Slight clerical errors there may have been, but the Koran of Othman contains none but genuine elements- though sometimes in a very strange order. All efforts of European scholars to prove the existence of later interpolations in the Koran have failed."

قد يوجد في القرآن أخطاء إملائية طفيفة، ولكن القرآن الذي قدّمه عثمان للعالم لا يحتوي إلا على المادة الأصلية (التي قدّمها محمد ﷺ)، وإن كان ترتيبه يبدو غريبًا جدًّا في بعض الأحيان. ولقد فشلت محاولات العلماء الأوروبيين تمامًا لإثبات وجود أي إضافات لاحقة أو تحريف في القرآن. (الموسوعة البريطانية، تحت: Koran)

ويقول السير وليام موير:

"We hold the Cur'an to be as surely Mahomet's word, as the Mahometans hold it to be the word of God."

أي نتوصل إلى نتيجة أن القرآن المتداول اليوم هو بكل يقين نفسُ كلام محمد الذي يؤمن المسلمون بأنه كلام الله. (Life Of Muhammed: by Sir William Muir p. 562-563)[٥]

وعلى النقيض نجد كبار القسيسين أنفسهم يعترفون أن التوراة والأناجيل قد أصبحت محرفة ومبدلة. إذًا لا تُوجد في عالم الأديان كله اليوم صحيفة سماوية يمكن أن تُسمى "كتابًا" بمعنى الكلمة سوى القرآن الكريم، الذي لا يزال كل لفظ من ألفاظه بل كل حركة من حركاته محفوظة كما نــزلت على محمد رسول الله ﷺ.

وفيما يتعلق بالعمل، فبرغم أن النصارى يتباهون بتعليم المسيح القائل: "لا تقاوموا الشر بل مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحوِّلْ له الآخرَ أيضًا" (متى ٥: ٣٩)، ولكن لا أحد يعمل بهذا التعليم في أي مكان في العالم. هناك كتاب واحد فقط يُعمل به في العالم وهو القرآن الكريم الذي يأمر أنكم إذا قبضتم على الجاني فعاقِبوه، ولكن إذا رأيتم أن العقاب سيُفسده أكثر وأن العفو عنه سيولد فيه الندامة، فيحاول إصلاح نفسه، فاعفوا عنه، لأن واجبكم هو إصلاح الناس، وليس أن تعاقبوا أحدًا بدون سبب أو تعفوا عنه بشكل غير مناسب.

---

[٥] ويقول أيضًا:

"What we have, though possibly created by himself, is still his own."

هذا الكتاب الذي بين أيدينا، بالرغم من أنه من الممكن أن يكون من اختراع محمد (ﷺ)، إلا أنه ما زال هو نفسه. (حياة محمد ص ٥٦٢)

ويضيف قائلا:

"We may upon the strongest presumption affirm that every verse in the Qur'an is genuine and unaltered composition of Muhammad himself."

أي أننا نستطيع الجزم - بناءً على قياسات قوية - بأن كل آية في القرآن الذي بين أيدينا هي آية أصلية غير محرفة، بل إنها هي هي كما أوردها محمد (ﷺ) بنفسه. (المرجع السابق)

وبعد قوله بأن ترتيب القرآن أمر غير مفهوم يستطرد قائلا:

"There is otherwise every security internal and external that we possess the text which Muhammad himself gave forth and used."

أي لدينا جميع البراهين القاطعة، الداخلية أو الخارجية، على أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو نفس الكتاب الذي قدّمه محمد واستعمله. (المرجع السابق ص ٥٦١) *(المترجم)*.

قُصارى القول إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يستحق بكل جدارة أن يُسمَّى "كتابًا" من حيث العمل به، أما سائر الكتب الأخرى فقد أصبحت معطلة من هذا المنظور.

ثم إن القرآن الكريم لا يزال "كتابًا" من حيث إن العمل به يجعل الإنسان مقربًا عند الله ﷻ. وذلك أن أئمة اللغة قد قالوا عن لفظ الكتاب: ما يُكتَب فيه؛ سُمِّيَ به لجمعه أبوابَه وفصولَه ومسائله. ومن معاني الكتاب أيضًا: الفرضُ، الحكمُ، القدر، المكتوب، وعلى ما يكتبه الشخص ويرسله. وكتَب السِّقاءَ: خَرَزَه بسيرين؛ وكتَب الناقة: ظأَرها فخزم منخريها بشيء لئلا تشمّ البوّ". (الأقرب)

فاتضح من هذه المعاني أن الكتاب يعني في الأصل الجمع. فيُسمّى الكتاب كتابًا لأنه يجمع بين دَفَّتَيْه مضامين شتى، وتُسمَّى الرسالة كتابًا لجمعها بين صديقين، ويُسمَّى الحكم والفرض كتابًا لأن العامل به ينال مطلبه، ويُطلق الكتاب على القضاء والقدر لأن المرء لا يقدر على الفرار منه، بل لا بد أن يلقاه؛ كذلك يُسمى وحي الله كتابًا لأنه وسيلة القرب والجمع بين الله وعبده. فالكتاب الذي يُوصل العبد بربه يستحق أن يُسمى كتابًا، أما الكتاب الذي يفشل في ذلك فلا يستحق أن يُسمى كتابًا في الواقع. وهذه الميزة لا تتحلى بها الآن أية صحيفة من الصحف السماوية إلا القرآن الكريم، فإن العمل به يوصل العبد بربه ويجعله مقربًا عند الله ﷻ. وقد ركز القرآن الكريم على هذا الأمر جدًا، حتى قال الله ﷻ في القرآن الكريم إنه قد أودع الفطرةَ الإنسانية حُبَّ الاتصال به ﷻ، حيث قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:٣). لا شك أن من معاني هذه الآية أن الله ﷻ قد خلق الإنسان وقام بتطويره حين كان متعلقًا برحم أمه، ولكن لهذه الآية مفهوم آخر أيضًا وإليك بيانه:

إذا قيل في العربية: "خُلِقَ فلان من كذا"، فيكون المعنى أنه مفطور عليه. فمثلاً قال الله ﷻ في آية: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السجدة:٨) ولا شك أن الله ﷻ خلقه من تراب، ولكنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾(الأنبياء:٣٨)، وهذا لا يعني أن الله ﷻ أخذ مادة اسمها العَجَل، فصاغها في

قالب وخلق الإنسان؛ إذ ليس هناك مادة اسمها العَجل، بل المراد أنه تعالى قد جعل العجلة في فطرة الإنسان. إذًا فقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني أن الله ﷻ قد خلق الإنسان وقام بتطويره حين كان متعلقًا برحم أمه. كما يعني أيضًا أن الإنسان مفطور على حب أحد والتعلق به، وأنه يُريد بفطرته أن يصير لأحد. كان المسيح الموعود عليه السلام يقرأ علينا بيت شعر باللغة البنجابية ومعناه: "إما أن تصبح لأحد، أو يصبح أحد لك".

إذًا، فمن معاني قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أن الله ﷻ جعل في فطرة الإنسان الحب والتعلق بأحد ما، أي أنه خلقه بحيث لا يجد راحة ولا قرارًا ما لم يصبح لأحد. فما لم يجد ضالته المنشودة هذه يحب زوجته حينًا، وأخته حينًا، وأمه حينًا وأباه حينًا وأصدقاءه حينًا، وهكذا يظل تائهًا هائمًا في حبه إلى أن يجد الطريق للوصول إلى الله ﷻ وعندها يصبح لله وحده.

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ وجد في وقعة بدر امرأةً قد فقدت ولدها، فكانت تبحث عنه في ساحة القتال، وكلما وجدت ولدًا احتضنته وقبّلته، وإذا علمتْ أنه ليس ولدها تركته باحثةً عن ولدها، حتى وجدتْه، فاحتضنتْه وجلستْ هادئة مطمئنة وأخذت تقبّله. فلما رأى النبي ﷺ هذا المشهد قال لأصحابه: هل رأيتم هذه المرأة كيف كانت قلقة بسبب ابنها، وعندما وجدته جلست هادئة مطمئنة، كذلك يظل الله قلقًا على عبده الذي ضل طريقه، وإذا تاب إلى الله ﷻ بصدق ووصل إليه فرح الله تعالى مثل هذه الأم.•

إذًا، فالقرآن الكريم أعلن أن الله ﷻ قد أودع فطرة كل إنسان عاطفةَ حب الله والتعلق به ﷻ، ثم بيّن القرآن الكريم طرق الوصال بالله أيضًا.

• نص الحديث كالآتي: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قدم على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي قد تحلُب ثديَها تسقي، إذا وجدتْ صبياً في السبي أخذتْه، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: للهُ أرحمُ بعباده مِن هذه بولدها". (البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله) (المترجم)

والواقع أن ما يُميز الدين الحق عن الأديان أو العقائد الأخرى هو التعلق بالله ﷻ، إذ من الممكن أن يكون المرء إنسانًا مجتهدًا، وتاجرًا ناجحًا، وصنّاعًا ماهرًا، وسخيًا كريمًا بدون أن يتبع دين الحق، ولكن من المحال أن يصل أحد إلى الله تعالى بدون اتباع دين الحق. هذا هو الشيء الوحيد الذي يُميز بين من يتبع دين الحق ومن لا يتبعه. والبديهي أن الواصل بالله تعالى من يتبع الطريق الذي يوصل إلى الله ﷻ، أما الذي لا يسير في ذلك الطريق فأنّى له أن يصل إليه تعالى. ومما لا شك فيه أن الله ﷻ ليس بشيء مادي ولا يقيم في مكان معين، بيد أن هناك طرقًا وسبلا للوصول إلى جميع الأشياء الروحانية والمعنوية. وعلى سبيل المثال إن التعلُّم ليس بشيء مادي، وإن معرفة اللغة أو الجغرافية أو التاريخ أو الحساب ليست بأمور مادية، ومع ذلك ثمة طرق محددة لتحقيق هذه الغايات، فما لم تتعلم اللغة لإتقانها، وما لم تدرس كتب علم الحساب لتحصيله، وما لم تُذاكر كتب الجغرافية من أجل علمها، وما لم تطالع كتب التاريخ من أجل معرفته، لن تصل إلى اللغة ولا إلى الحساب ولا إلى الجغرافية ولا إلى التاريخ. كذلك رغم أن الله ﷻ ليس شيئًا ماديًا إلا أن هناك طريقًا للوصول إليه، وقد أخبر الإسلام عنه فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾(آل عمران:٣٢).. أي يا محمد، بَشِّرِ الإنسانية وقُلْ إن كنتم تريدون أن تحظوا بقرب الله ﷻ فعليكم باتباعي، فسوف يُحبكم الله تعالى وتصبحوا من أحبّته.

ما أعظمَ هذه البشارةَ التي زُفّتْ إلى الدنيا! وكم تبثّ هذه الرسالة الأملَ والحياة في القلوب الميتة! والأمر الواقع أنه لا يوجد في الدنيا اليوم شخص واحد يمكنه أن يدعي أنه قد نال قرب الله ﷻ وتشرف بكلامه واطلع على أسرار الغيب من خلال العمل بالتوراة أو الإنجيل أو الفيدا أو الزند أو الأفستا، بينما كان ولا يزال بين المسلمين أناس أطهار حظوا بقرب الله ﷻ وتمتعوا بأنواره وبركاته. بل إن الإسلام يعد المسلمين وعدًا أبديًا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَــزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ

تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(فُصِّلتْ:٣١-٣٢)

لقد ثبت من هنا أن الإسلام يعلن أن باب قرب الله ﷻ مفتوح على مصراعيه لكل مؤمن، وأن الناس لو اتبعوا محمدًا رسول الله ﷺ بصدق لأدخلهم الله في أحبته وشرّفهم بإلهامه وكلامه، ونصرهم في المحن، وكتب لهم الانتصارات والبركات بشكل خارق. أما الصحف الأخرى فليس بينها كتاب واحد يقدر على أن يهب المؤمنين به واحدًا بالملايين من البركات التي يعِد بها القرآن الكريم المؤمنين به.

فثبت أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يستحق أن يُسمى كتابًا حقيقةً، أما الصحف الأخرى فهي كتبٌ بالاسم فقط لا حقيقةً، لأنها عاجزة عن إيصال العباد إلى ربهم.

ثم إن القرآن الكريم ليس بكتاب فحسب، بل هو كتاب مبين أيضًا، أي أنه لا يوصل العبد بربه فحسب، بل يبين بالتفصيل كل ما يتعلق بالتقرب إلى الله ﷻ، ولم يقصر في بيان أي شيء ضروري للعباد من أحكام وأخلاق فاضلة واعتقادات صحيحة.

الحقيقة أن الذي هو في الخفاء والحجاب لا يمكن أن نعرف عنه شيئًا إلا إذا نادانا وهدانا إليه بنفسه. لنفترض أن هناك غرفة مقفل بابها من الداخل، ولا ندري من فيها، فكيف، يا ترى، نعرف ما بداخلها؟ فلو حاولنا التخمين بناء على قياسنا وحده لكان مثلنا كمثل العُميان الأربعة. يُحكى أنه كان في مدينة أربعة عميان، وجاء فيل إلى المدينة، فذهب الناس لرؤيته، فطلب منهم العميان اصطحابهم. فأخذوهم ولكن أنى لهم أن يروا الفيل. فقالوا فيما بينهم تعالوا نتلمس الفيل بأيدينا لنعرف كيف هو. فوقعت يد أحدهم على ذنب الفيل، ويد الآخر على أذنه، ويد الثالث على بطنه، ويد الرابع على خرطومه. ولما رجعوا جلسوا يصفون الفيل، فقال الذي لَمس ذنَبه: إن الفيل شيء طويل في آخره شعر. فقال الذي لمس أذنه:

لا، بل هو كغربال كبير. فقال الثالث الذي لمس بطنه: لا، إنه كالطبل. فقال الرابع الذي لمس خرطومه: كلا؛ بل هو شيء طويل لين.

فترى أن هؤلاء العميان لم يختلفوا في وصف الفيل إلا لأنهم لم يروه، وإنما وصفوه بناء على قياسهم فحسب. كذلك فإن الشيء الذي يكون خفيًا وراء الحجاب لا يمكننا وصفه، ومن حاول وصفه بناء على قياسه ورجمًا بالغيب سيخطئ في وصفه كما حدث مع العميان الأربعة. ونفس الحال بالنسبة لمعرفة الله ﷻ وتعاليمه، فإن هذا العلم لا يتيسر إلا بكتاب الله ﷻ، ومن أراده بطريق آخر كان مصيره كمصير العميان الأربعة، الذين لمس أحدهم خرطوم الفيل فظنه فيلاً، ولمس ثانيهم ذنبه فظنه فيلاً، ولمس ثالثهم بطنه فظنه فيلاً، ولمس رابعهم أذنه فظنه فيلاً.

إن العلماء الجاهلين يدعون في هذا العصر أن بإمكانهم معرفة الله ﷻ من خلال عقولهم، وعلى النقيض يقول بعض المشايخ الأغبياء ألا علاقة للعقل بالدين. والحق أن كلا الفريقين على خطأ، فإننا لا نستطيع معرفة الله ﷻ بالعقل، كما لا يمكننا فهم الدين بدون العقل، بل لا بد لنا من استخدام العقل لفهمه مثلما نفهم أي شيء معقول بالعقل، حيث يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي يا محمد، قل للناس هذه سبيلي.. أي أني أدعو إلى الله ﷻ، وأنا وأتباعي على بصيرة فلا نقبل أي شيء إلا بالدليل والمنطق.

بيد أن هذا لا يعني أن بوسع المرء الوصول إلى الله ﷻ بناء على عقله فقط، كلا بل إن الدين هو هادينا إلى الله ﷻ، وأن العقل هو هادينا إلى الدين فليس لنا منه بُدّ، كما لا بد لنا من نبي لتوجيه العقل إلى الصراط المستقيم، ذلك لأن الذين حاولوا فهم الدين بمساعدة العقل وحده قد تعثروا دائمًا. هناك مثل باللغة البنجابية معناه: أنا الذي جئتُ من البيت فكيف تخبرني عن أحوال أهلي؟ ونفس الشيء ينطبق فيما يتعلق بالله ﷻ، فمن أراد لقاءه تعالى دلّه بنفسه على سبيل لقائه، ومن المحال أن يصل إليه بنفسه.

إذًا، فإن العلماء الذين يدّعون أنهم يقدرون على الوصول إلى الله ﷻ بمساعدة عقولهم فحسب لمجانين حقًا، إذ من المحال الوصول إلى الله ﷻ إلا بمساعدته هو، وإن أكبر وأنجع وسيلة للحصول على هدى الله وإرشاده بهذا الصدد هو أن يتدبر الإنسان كلام الله ﷻ ويفهمه ويسعى للعمل به.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.. وكلمة ﴿هدًى﴾ جاءت هنا نكرةً على سبيل التعظيم، والمراد أنه هُدًى عظيمٌ، بمعنى أنه ما من درجة من الهدى إلا ويوصل إليها القرآن الكريم. ذلك لأنه مما لا شك فيه أن كلاً من التوراة والإنجيل والزند والأفستا وغيرها من الصحف كان هدًى للناس في زمنه، ولكن الهدى الكامل الذي بلغ بالناس أوج الكمال والذي لا حاجة بعده إلى هدى آخر إلى يوم القيامة إنما هو القرآن الكريم. ولذلك ذكر الله ﷻ مدارج مختلفة للهدى في موضع آخر من القرآن فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾(محمد:١٨). أي أن الذين يبدأون السلوك في سبيل الهدى يزيدهم الله هدى على هدى، ذلك لأن الله ﷻ كما هو غير محدود كذلك فإن مدراج قربه بلا حدود. ومن كمال القرآن أنه يهدي السالك عند كل مرحلة في سيره الروحاني للتقرب إلى الله ﷻ، وليس هناك مقام يمكن أن يستغني فيه المرء عن الهدى القرآني، كلا بل هو محتاج إلى هديه في هذه الرحلة الروحانية من بدايتها إلى نهايتها، ولا يزال القرآن الكريم يرشده ويمدّه بأنواره وبركاته عند كل خطوة إلى أن يصل إلى الله ﷻ.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.. أي أن القرآن الكريم لا يهدي الإنسان إلى درجات غير متناهية من قرب الله ﷻ فحسب، بل إنه يؤيده بالآيات ويعطيه البِشارات أيضًا. ذلك لأن اهتداء المرء وتَقَرُّبَه من الله ﷻ أمرٌ روحاني لا يُرى بعيون مادية، فإذا لم تظهر لتأييد المؤمنين آيات من عند الله تعالى فيشك الناس فيما يدّعونه من قربه ﷻ. ودفعًا لهذا اللبس يؤيد الله المؤمنين بنصره دائمًا، ويُنـزل لهم آياته ليقوي بها إيمانهم ويقيم الحجة على أعدائهم، مما يكون دليلاً على أنهم من المهتدين فعلاً وأنهم من عباد الله المقربين. إن المفتري الكذاب يمكن أن يدعي بقرب الله ﷻ، ولكنه لا يقدر على إنـزال الآيات الإلهية لتأييده، ولكن إذا شملت نصرةُ

الله وتأييده أحد المدعين، ونـــزل عليه وحي الله وإلهامه، واستُجيبت أدعيته بشكل غير عادي، وفاز في مقاصده فوزًا بعد فوز، وفشل أعداؤه في مسعاهم، لكان هذا دليلاً على صدقه في دعوى القرب من الله ﷻ. ويعِد القرآن الكريم بتوافُر هاتين الميزتين في الذين يعملون بأحكامه، فإذا عملوا بهذا الهدى الأبدي ظلوا يتقربون عند الله ﷻ، كما سيَنـــزل الله ﷻ بنفسه من السماء لتأييدهم ويبشرهم عند اشتداد الخطوب والمحن، ويكتب لهم الغلبة على أعدائهم ويجعلهم فائزين في هدفهم الذي يقومون من أجله.

ثم يبين الله ﷻ أنه مما لا شك فيه أن القرآن هدى وبشرى، ولكن لا هداية فيه ولا بشرى للذين يدّعون الإيمان بأفواههم ولكن لا يعملون بحسبه، فلا يؤدون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يوقنون بالآخرة. فهؤلاء لا يهتدون بالقرآن، ولا يصحبهم تأييد الله ولا بركاته، إنما يتمتع بثمار هدي القرآن وبشاراته الذين يُصلّون مع الجماعة، ويخرجون الزكاة، ويوقنون بالآخرة.

الحق أن عبادة الله ﷻ هي أهم ركن من أركان الدين، والحق أنه بمثابة القلب والدماغ للدين. وإذا خلا الدين من عبادة الله ﷻ أصبح مجموعة من التقاليد والعادات فحسب، وبات الادعاء بوصال الله ﷻ كذبًا وزورًا، ولذلك قد أخبر الله تعالى هنا أن أول صفة للمؤمنين أنهم يقيمون الصلاة.

واعلم أن المراد من ﴿يُقِيمُونَ﴾ أنهم يصلّون جماعةً كما يحثّون الآخرين على أداء الصلاة.. أي أنهم يلتزمون بأداء الصلاة جماعة، إذ لو كان المراد أداء الصلاة بدون جماعة فقط، لقيل: "يصلّون"، ولكن الله ﷻ قال هنا: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾، وقال في مواضع أخرى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾، و﴿أَقَامَ الصَّلاَةَ﴾، والبديهي أن الإقامة إنما تكون في صلاة الجماعة فقط. إذًا، فمن أكبر علامات المؤمنين المذكورة هنا أنهم يواظبون على الصلاة بأنفسهم كما ينصحون الآخرين بأدائها.

لقد رأيت أن بعض الناس يواظبون على الصلاة، ولكنهم لا يهتمون بصلاة أهلهم وأولادهم، مع أنهم لو كانوا مخلصين حقًا لم يتغاضَ أحد منهم عن ابنه أو زوجته أو أخيه أو أخته إذا ترك الصلاة.

كان في جماعتنا أخ مخلص وقد تُوفي الآن، لقد شكاه ابنه إليّ ذات مرة وقال إن والده لا يرضى بأن يشترك في جريدة الجماعة "الفضل". فكتبت إلى أبيه: لماذا لا تحقق رغبة ابنك؟ قال: إني أريد أن يتمتع ابني بحرية تامة في دينه، فيتدبر في دينه بدون أي ضغط من أي طرف. فكتبتُ إليه: إنك تظن أن قراءته جريدة "الفضل" ستؤثر على أفكاره فلن يتمتع بالحرية الدينية، ولكن هل اتخذتَ أي تدبير كيلا يؤثر فيه أساتذته وكتبه وأصدقاؤه؟ وما دام كل هؤلاء يؤثرون فيه فهذا يعني أنك تريد لابنك أن يأكل السم، ولا تريده أن يتناول الترياق.

مجمل الكلام أن إقامة الصلاة ضرورية جدًا، ومن معاني "إقامة الصلاة" أداؤها مع الجماعة، وبإخلاص وخشوع وهدوء، ومع كل شروطها، كما يعني حثّ الآخرين عليها. ورد في الحديث أن الصلاة وسيلة للقاء العبد بربه، وهذا يعني أن الله ﷻ يريد بالصلاة أن يصطبغ المؤمنون بصبغة الله ﷻ التي يبعث أنبياءه من أجلها، ومن خلال الصلاة يصطبغ المؤمنون بصبغته تعالى.

لقد كان النبي ﷺ شديد الاهتمام بأداء الصلاة جماعةً. فذات مرة جاءه شخص كفيف وقال: يا رسول الله، إن بيتي بعيد عن المسجد وأُعاني كثيرًا في الوصول إلى المسجد من أجل الصلاة، فاسمَحْ لي بأدائها في البيت - علمًا أن البيوت في المدينة آنذاك كانت طينية، وكانت مياه الأمطار تضر جدران البيوت عند تدفقها في الشوارع، فكان الناس يضعون أحجارًا مع قواعد الجدران لتحميها من المياه كما يفعل أهل بلادنا أيضًا. والكفيف لا يستطيع أن يمشي في وسط الشارع بسهولة ولذلك يمشي ملتصقًا بجدران البيوت دائمًا، وهناك خطر أن يتعثر بتلك الأحجار ويسقط ويُجرَح، ولذلك قال الصحابي الكفيف هذا الكلام - فقال النبي ﷺ: حسنًا، فصلِّ في بيتك ما دمتَ تُعاني في طريقك إلى المسجد. فعاد الكفيف إلى بيته، ولكن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يدعوه، فلما رجع قال له: هل تسمع صوت الأذان في بيتك؟ قال: نعم. فقال النبي ﷺ: ما دام صوت الأذان يصل إلى بيتك فعليك أن تصلي في المسجد، وإن تعثرت وتجرحت في الطريق. (مسلم: كتاب المساجد، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء)

وكذلك قال النبي ﷺ مرة وددتُ أن آمر أحدًا ليؤمّ الناس صلاة العشاء أو الفجر نيابةً عني، وآمر رجالاً أن يحملوا الحطب، فأدور في المدينة وأحرق على الذين لا يحضرون صلاة الجماعة بيوتَهم.*

فبرغم أن النبي ﷺ لم يحرق أحدًا بالفعل، بيد أن قوله هذا يكشف أهمية صلاة الجماعة عنده ﷺ. والحق أن النبي ﷺ قد بين بهذا المثال أن الذين لا يؤدون الصلاة جماعةً يجعلون أنفسهم حطبًا لجهنم.

لا شك أن هناك حسنات أخرى كثيرة، ولكن الله ﷻ قد قدّم الصلاة على جميع الحسنات الأخرى، فلا بد للمرء من حضور المسجد في مواقيت الصلاة إلا لعذر أو لأمر طارئ. والمراد من الأمر الطارئ - على سبيل المثال - اندلاع حريق، فلا بد للمرء عندها أن يُطفئ النار أولاً ويصلي فيما بعد. أما الذي يُقصّر في أداء الصلاة مع الجماعة بدون عذر أو أمر استثنائي فإنه يرتكب جريمة كبيرة.

والأمر الثاني الذي تحثّ عليه هذه الآيات هو الزكاة. وضرورة الزكاة وأهميتها مرتبطة بالفقر. والحق أن الفقر لم ينفصل عن الناس أبدًا. يظن الناس عادة أن الزيادة في سكان العالم هي التي تؤدي إلى الفقر، ولكنه ظن خاطئ إذ نرى أن الفقر مستمر منذ القديم عندما كان عدد السكان قليلاً وأيضًا عندما كان عددهم كثيرًا. فرغم أن الناس كانوا قلة في زمن آدم عليه السلام إلا أن بعضهم كانوا فقراء بحسب القرآن الكريم حيث يقول الله ﷻ لآدم بصدد الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾(طه:١١٩-١٢٠). فما داموا يملكون وحدهم كل ما في الدنيا من الخيرات والثروات من ذهب وفضة وحديد ونحاس وأرض وثمر وزهر - إذ لم يسكن الأرض سواهم - فكيف، يا ترى، قيل لآدم لو عشتَ خاضعًا لهذا النظام فلن تعاني أنت ولا أصحابك الجوعَ والعطش والعُري؟

* نص الحديث كالآتي: عن أبي هريرة أن رسول ﷺ قال: "والذي نفسي بيده، لقد هممتُ أن آمُرَ بحطب فيُحطَب، ثم آمر بالصلاة، فيؤذَّن لها، ثم آمر رجلا فيؤمّ الناسَ، ثم أخالف إلى رجال فأُحرق عليهم بيوتَهم." (البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة) (المترجم)

لقد تبين من هنا أنه كانت هناك إمكانية أن يجوع بعضهم ويظمأ بعضهم ويعرى بعضهم رغم امتلاكهم ثروات الدنيا كلها. ذلك لأن الثروة في الدنيا نوعان: ثروة كامنة وثروة فعلية. والثروة الفعلية أيضًا نوعان: أوّلهما: النقود أو ما يحل محلها في شراء الحاجات، وثانيهما: الحبوب وغيرها من السلع المستهلكة. ثم إن هذا أيضًا ينقسم إلى قسمين: أحدهما ما يستهلكه الإنسان مباشرة بدون أن يجهزه، وثانيهما ما يحتاج إلى التجهيز والإعداد. أما الثروة الكامنة فتُسمى بالإنجليزية wealth، والمراد منه ما يوجد في البلد من مصادر الثروة الطبيعية مثل: معادن الذهب والفضة. فلو امتلك أهل بلد معادن الفضة والذهب أو الأراضي الخصبة، فلا يعني ذلك أنهم يملكون المال والثروة حقيقة، ذلك لأنه ما لم تصل هذه الفضة والذهب إلى أيدي الناس، أو ما لم يكن عندهم أدوات الزراعة لزرع القمح أو القطن في أراضيهم الخصبة، لتعرضوا للجوع والعطش والعري حتمًا. أو إذا كانوا يجهلون الصناعة والحرفة والزراعة فسوف يموتون جوعًا وفاقة، وإن ملكوا من معادن الذهب والفضة ما يساوي بلايين البلايين، وإن ملكوا من الأراضي الخصبة التي لو أُلقيتْ فيها حبة أصبحت ألف حبة. فثبت أنهم يملكون الثروة ولكنها ثروة جامدة. ولكن لو أُقيم في الدنيا نظام - سواءً عن طريق الوحي أو الإلقاء والإلهام- يعلّم الناس شتى الفنون والمهارات من زراعة ونسيج وغيرهما مما ينهض بهم مدَنيًا، فلا بد أن يزول جوعهم وعطشهم وعريهم. وقد ورد في الروايات الإسلامية - وإن كانت ضعيفة - أن آدم عليه السلام علّم الناس الزراعة وأن "شيثًا" عليه السلام علّمهم النسج. فسواء أن آدم أو شيثًا أو غيرهما هو الذي علم الناس هذه الفنون والمهارات إلا أنه مما لا شك فيه أن الإلهام الإلهي قد ساعدهم بشكل مباشر في هذه الأمور في البداية. فقد صرح القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى علّم الإنسان بإلهامه ووحيه اللسان في البداية، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣٢)، فكما أن الله تعالى علّمهم اللغة كان لزامًا عليه في البداية أن يعلّمهم بوحيه وإلهامه شتى الفنون والمهارات وإلا لعانوا أحقابًا طويلة. فمثلاً لو جاء الناس نبيٌّ ونصحهم بالحراثة والزراعة وغرس الأشجار والبساتين، فمن يعمل بنصحه يجد الخبز للأكل، وينج من

الجوع والفاقة، أما الذين لا يطيعونه ولا يقومون بأعمال الحراثة والزراعة وحفر الآبار والنسيج ولا يتعلمون اللغة فسوف يظلون جياعًا وعطاشى وعريًا وبكمًا. إن هذه الفنون والمهارات مهما كانت بدائية في البداية حتى ولو كانت منحصرة في طريقة ستر عوراتهم بالجلود أو العيش على تناول الثمار مثلاً، إلا أنه لا يسعنا الإنكار أن الذين سيخضعون لهذا النظام ينجون من الجوع والعطش والعري، ومع ذلك سيظل هناك قوم فقراء أيضًا إذ لا مناص للناس من الحوادث والآفات والكوارث التي لا يملكون أمامها حيلة. لنفترض أنه كان في الدنيا إنسان واحد في البداية، وكان يملك جبال "كشمير" وأراضي "هزاره" ووديان "كابول"، وكانت في حوزته ثمار الدنيا كلها من عنب وإجاص وتفّاح ومانجو وما إلى ذلك، ولكنه كان مبتور اليدين ومقطوع الرجلين، فماذا عسى أن تنفعه هذه الخيرات والثروات، يا ترى؟ كلا؛ بل من المحتم أن يموت جوعًا وعطشًا. فثبت أنه برغم أن الدنيا كانت في بدايتها مليئة بالثروات والخيرات إلا أن الناس ما كانوا لينتفعوا منها، إذ كانوا يجهلون الفنون والمهارات. وعندما جاء آدم عليه السلام وعلّمهم شتى المهارات زال جوعهم وعطشهم وعريهم، بيد أن طبقة من المعوقين كالعُرج وغيرهم لم تستطع الانتفاع من هذه النعم كما ينبغي. لنفترض أنه كان في الدنيا كلها عندئذ خمسة عشرة شخصًا، بينهم اثنان من العرج، فكيف يمكن أن يُزيل هذان جوعهما وعطشهما ما لم يكن بينهم نظام مسؤول عن الاعتناء بهما.

والحق أن نبوّة آدم عليه السلام كانت تحتوي - أساسًا - على التعاليم البدائية التي حوّلت البشر البدائي إنسانًا، حيث علّم الناسَ شتى الفنون ومبادئ التمدن، ودعاهم إلى العيش معًا ومساعدة الفقراء وذوي العاهات. والظاهر أنه إذا تشكل مثل هذا المجتمع فلن يظل أحد فيه جائعًا ولا ظامئًا ولا عاريًا، لأنه إذا وُجد فيه بعض العُرج فيساعده الآخرون، وإذا وُجد فيه جائع فيشبع بطنه بالاشتغال بأعمال الزراعة أو التعدين؛ وهكذا يكسب الجميع المال ويزيلون معاناتهم أيضًا.

فثبت أن قضية الفقر ليست وليدة هذا العصر، بل نشأت منذ مجيء الإنسان إلى الدنيا. لقد كان الفقر موجودًا عندما كانت بضعة أفراد من البشر يملكون الدنيا

كلها، فدعت الحاجة إلى قانون ونظام، فأتى آدم ﷺ إلى الناس برسالته ليلتزموا بالمبادئ والقواعد التي جاء بها فينجوا من معاناة الجوع والعطش. مما يعني أنه كانت هناك إمكانية في زمن آدم أيضًا لأن يعاني بعض الناس من الجوع والعطش والعري مع أن عدد سكان العالم لم يتجاوز عندها بضعة أفراد. أما بعد ذلك فقد ظلوا في ازدياد مستمر، فصاروا عشرين ثم مئة ثم ألفًا ثم عشرة آلاف ثم مئة ألف، حتى بلغ عددهم اليوم نحو مليارين ونصف المليار. إذًا، فكان من الممكن أن يوجد الفقر في الدنيا عندما كان فيها مئة شخص، وعندما كانوا ألفًا، وعندما كانوا مئة ألف أيضًا. ذلك أن الجوع والفاقة ليس أساسه المال. هناك فكرة خاطئة بين الناس أن الفقر راجع إلى كثرة سكان العالم. كلا، إنما الواقع أن الفقر أو الرخاء منوط بمدى استغلال الإنسان للخيرات التي أودعتها الطبيعة في الكون، وأيضًا على مدى عقله وذكائه في استعمالها. فمثلاً لو كانت الأرض مليئة بالذهب ولم توجد فيها الحبوب والغلال لم يسدّ الذهب جوع الناس، أو لو وجدوا الغلال ولكنهم لم يعرفوا طريق الخَبز لظلوا أيضًا جياعًا. فلا بد لهم في هذه الحالة من مساعدين، فيكسب بعضهم ويطبخ بعضهم وهلم جرًّا، ولأجل ذلك قد جعل الله ﷻ الرجل والمرأة زوجين. إذًا، فهناك أمور عديدة لا بد منها للإنسان وإلا فلا مناص له من الجوع والعري. وهذا الوضع مستمر منذ بداية الإنسانية. لقد أتى على الإنسان زمان كانت موارد رزقه كثيرة، وكانت نسبة المعانين قليلة، إذ الواقع أن عدد المعوقين في المجتمع أو غير القادرين على العمل لمرض أو كِبر سنّ لا يتجاوز الاثنين بالمئة، ولكن قد يصل عدد العاطلين عن العمل نتيجة البطالة تسعين بالمئة، ذلك لأنه إذا ازداد عدد السكان في بلد ولم تزدد موارد الدخل فيه أصبح تسعة من عشرة من سكانه عاطلين عن العمل أحيانًا، ولكن ليس لأنهم معوقون بل لأنهم لا يجدون عملاً. إذًا، فبعد زيادة عدد سكان العالم تغيّر الوضع، ولم تعُد القضية كيف يمكن استخراج ثروات الأرض واستغلالها، لأن كثيرًا من الناس يبذلون كل ما في وسعهم ومع ذلك لا يجدون عملاً، بل قد مسّت الحاجة الآن إلى إيجاد أعمال جديدة.

إذًا، فالفقر والرخاء صِنْوانِ منذ بداية الإنسانية، وقد حاول الناس إزالة معاناة الفقر والفاقة بطرق شتى. فقدَ جاءت فترة في التاريخ قرر فيها الناس بأن هناك طائفة من الناس تستحق الحياة وفئة منهم لا تستحقها، وذلك كما حصل في الهند حين أصبح "الشوادر"* أكثر عددًا، فقال "البراهمة و"الكَهْتريين" أن لا حق للشوادر في الحياة، فإذا كانوا يموتون فليموتوا.

فنهبوهم وحرموهم كل حق من حقوقهم الاجتماعية. ثم جاءت فترة أخرى أخذ فيها الناس يقولون إن علاج الفقر إخراج الصدقات، فمن كان عنده مال كثير فعليه أن يساعد به الفقراء.

وباختصار لقد اتخذ الناس تدابير مختلفة لمكافحة الفقر، ولكن لم يكن هناك تدبير شامل قادر على إزالة معاناة الفقراء والمحرومين. إنما هو الإسلام الذي قدم حلاً حقيقيًا لهذه المعضلة، فأعلن أن الصدقات وحدها ليست حلاً مناسبًا للفقر، بل يجب أن يكون هناك نظام متكامل لمساعدة الفقراء والنهوض بهم. فأقام نظام الزكاة والعُشْر حيث يُؤخذ المال من الأثرياء تحت نظام ثم يُنفَق على الفقراء. كما اتخذ الإسلام لرعايتهم تدابير محددة أخرى. لا شك أن الحكومات أيضًا كانت تأخذ الضرائب، ولكن مصارفها لم تكن محددة. أما الإسلام فإنه فرض على الأثرياء أداء نسبة محددة من أموالهم في كل حال، كما حدد المصارف لهذه الأموال التي تؤخذ منهم، وبالتالي وضع نظامًا ثابتًا للإنفاق على الفقراء. وهذا النظام المتكامل بصدد الدخل والإنفاق لم يوجد عند أية أمة قبل الإسلام. لا شك أن الزكاة كانت

* تقسم الديانة الهندوسية أتباعها إلى أربع طبقات: ١- البراهمة: وهم الذين خلَقهم الإله "براهما" من فمه بزعمهم: منهم المعلّم والكاهن والقاضي، وإليهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم. ٢- الكاشتر (أو "كَهْتري"): وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه: يتعلمون ويقدّمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع. ٣- الوَيش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذه: يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية. ٤- الشُودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم يشكّلون طبقة المنبوذين، وعملُهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة. (المترجم)

موجودة عند اليهود ولكنها كانت بصورة ناقصة (انظر الخروج ٢٣: ١٠-١١). أما الإسلام فقد أقام بسنِّ هذا القانونِ نظامًا رائعًا ينفع الإنسانية كنبراس في ساعات الظلام. ولكن الأسف أن المسلمين لم يُولوا هذا النظامَ الأهميةَ الكافية وأهملوه كليةً، فتلاشى كما يتلاشى ماء النهر القديم في الرمال. وذلك برغم أن أول عمل قام به النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة هو أنه جعل أصحاب المال والعقار والفقراءَ إخوةً، إذ كان الأنصار أصحاب مال وعقار، ولكن المهاجرين لم يملكوا شيئًا منها، فأقام النبي ﷺ بينهم المؤاخاة. فعمل به الأنصار إلى حد المبالغة والمغالاة، فلم يتقاسموا مع المهاجرين أموالهم وعقارهم فحسب، بل من كان عنده زوجتان عرض على أخيه المهاجر أنه مستعد أن يطلّق زوجته ليتزوجها (البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار). وهذا أول مثال للمساواة التي أقامها النبي ﷺ بين الناس بعد وصوله إلى المدينة فورًا، ذلك لأن أساس الحكومة الإسلامية لم يوضع إلا في المدينة. لم يكن عند النبي ﷺ في تلك الفترة أموال كثيرة، فكان الطريق الأمثل أن يختلط الغني بالفقير بحيث يجد كل إنسان في المجتمع شيئًا يأكله.

وقد عمل النبي ﷺ بهذه المساواة في إحدى الحروب أيضًا ولو بأسلوب آخر. ففي إحدى الغزوات علِم النبي ﷺ أن بعض المسلمين قد نفد زادهم، وأن بعضهم لا يزال عنده زاد كاف، فأمر النبي ﷺ الجميع أن يحضروا ما عندهم من الزاد، فجمعه في مكان وقد جعل لكل واحد منهم نصيبًا محددًا منه (البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو). فكانت هذه محاولة أخرى لإيجاد طعام لكل إنسان. فكان الجميع يأكلون منفردين ما استطاعوا ذلك، ولكن عندما تعذر هذا وكان هناك خطر أن يظل البعض جياعًا فقال النبي ﷺ لا أسمح لكم الآن أن تأكلوا فرادى، بل سوف أُطعم الجميع سويًّا. يقول الصحابة لقد عملنا بأمر النبي ﷺ بحذافيره، حتى إذا كان عند أحد منا تمرة واحدة رأينا أكلها خيانة كبرى، ولم نلبث حتى جئنا بها إلى مخزن الطعام. هذا نموذج ثانٍ للمساواة قدمه النبي ﷺ.

ثم جاءت الخيرات والثروات بكثرة حيث فتح الله ﷻ على نبيه ﷺ خزائنه، ولكن لم يرد الله ﷻ إقامة هذا النظام بكل تفاصيله إلا بعد النبي ﷺ لكي لا يقول الناس أنه كان خاصًّا بالنبي ﷺ، ولا يحق لأحد سواه إقامته.

على أية حال عندما أراد الله ﷻ إقامة نموذج مثالي للمساواة على يد النبي ﷺ قدّم الأنصار عقاراتهم وأراضيهم للمهاجرين، ولكنهم لم يرضوا بأخذها مجانًا، بل قالوا نقوم بزراعة أرضكم ونعطيكم نصيبكم من ريعها (البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار). لم يقصّر الأنصار في إعطاء إخوانهم ما عندهم، ولكن المهاجرين لم يقبلوا عرضهم شاكرين. ومثاله أن بعض الدول تقدّم لمواطنيها مساعدةً وفق نظام السلع المدعومة، ولكن بعضهم لا يقبلها، وهذا لا يعني أن الدولة مقصرة، بل الحق أنها قد أدت واجبها، ولكن الرجل لم يقبل عرضها. كذلك فإن الأنصار عرضوا على المهاجرين كل شيء، ولكن المهاجرين لم يأخذوا منهم شيئًا.

إذًا، فإن النبي ﷺ بدأ العمل بهذا النظام في حياته، حتى إنه لما دخل ملك البحرين في الإسلام أمره النبي ﷺ أن يعطي كل من ليس عنده أرضٌ مِن رعاياه أربعةَ دراهم وكسوةً كي لا يتعرض للجوع والعري.

أما بعد ذلك فأخذت الثروات تتدفق على المسلمين، وبما أنهم كانوا قليلي العدد مقارنة مع هذه الثروات، فلم تكن هناك حاجة إلى سنّ قانون جديد، لأن الهدف كان يتحقق على ما يرام، والقاعدة أن القوانين إنما تُسنّ عند الخطر، أما إذا لم يكن هناك خطر فالحكومة مخيرة في سنّ القانون أو عدمه. فلما توفي النبي ﷺ وانتشر المسلمون في شتى البلاد والأقطار، دخلت شعوب أخرى في الإسلام بكثرة. كان العرب يعيشون كشعب موحد محافظين على المساواة فيما بينهم، ولكن عند انتشار الإسلام في أقطار أخرى ودخول الشعوب المختلفة في الإسلام، أصبحت قضية تأمين الخبز لهم مشكلة كبيرة. فقام عمر رضي الله عنه بإحصاء السكان كلهم وأقام نظام التموين (Rationing) الذي استمر إلى عهد الحُكم الأموي. وإن المؤرخين الأوروبيين أيضًا يعترفون بأن أول إحصاء للسكان في التاريخ هو ما قام به عمر

ﷺ. كما يعترفون أيضًا أنه لم يقم بهذا الإحصاء ليسلب أموال الناس، بل لتأمين الطعام لهم. تقوم الدول بإحصاء السكان لإكراههم على أن يكونوا لها كبش الفداء ويقوموا لها بالخدمات العسكرية، أما عمر ﷺ فلم يقم بإحصائهم ليجعلهم كبش الفداء، بل ليؤمّن لهم الطعام. فبعد هذا الإحصاء أخذت رعيّته كلها يحصلون على الطعام بحسب نظام خاص، كما يتلقون مساعدة مالية لسد الحاجات الأخرى. (تاريخ اليعقوبي: المجلد الثاني ص ١٥٠، أيام عمر بن الخطاب ﷺ، والطبري المجلد الخامس ص ٢٠٣: حملُه الدرة وتدوينه الدواوين، والموسوعة الإسلامية: عمر بن الخطاب)

وكان عمر ﷺ شديد الحذر بهذا الشأن، فلما فُتحت بلاد الشام في عهده وجاء زيت الزيتون، فقال عمر ﷺ للناس مرة: إن استعمال زيت الزيتون يسبب لي الغازات في البطن، فاسمحوا لي أن آخذ من بيت المال من السمن ما يساوي نصيبي من الزيت. (سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي، الباب التاسع والثلاثون، في ذكر قوله وفعله في بيت المال)

فهذه أول خطوة اتُّخذت في الإسلام لسد حاجات الناس. والبديهي أنه لو قام هذا النظام لم يبق بعده حاجة لأي نظام آخر، لأن سد حاجات جميع المواطنين من طعام وشراب ولباس وتعليم وعلاج وسكن سيصبح من مسؤوليات الدولة الإسلامية. وإذا سُدت هذه الحاجات فلن تبقى هناك حاجة لأي تأمين (Insurance). ولكن الذين أتوا بعدهم أخذوا، لسوء الحظ، يقولون أن الملِك مخيَّر في أن يعطي أحدًا شيئًا أو لا يعطي. ذلك لأن تعاليم الإسلام لم تكن قد رسخت فيهم بشكل كامل، فعادوا إلى ما كان يفعله قيصر وكسرى. وإنه من فضل الله ﷻ أن ذلك النهر القديم الذي بات غائبًا في الرمال قد أجراه الله ﷻ في قلبي ثانية، فأنا أول شخص في هذا العصر عرض هذا التعليم القرآني أمام الناس. وكثيرًا ما يسألني المسلمون بمن فيهم أساتذة الجامعات والطلبة قائلين: إذا كان هذا ما يعلّم الإسلام فلماذا غاب هذا التعليم؟ فأجيبهم دائمًا أن غياب هذا التعليم نفسه دليل على أنه من عند الله ﷻ، إذ لو كان من اختلاق بشر لظل راسخًا في قلوب الناس، لأن العقول تكون جاهزة لتعاليم البشر لأنها تكون مواتية للأوضاع السائدة، فغياب هذا

التعليم دليل على أنه من عند الله ﷻ. إن التعليم الإلهي يبدأ كموجة مرتفعة ثم يصيبها الانحطاط. ومن المقدر أن ترتفع موجة هذا التعليم الإلهي الآن ثانية، وستكون هذه المرة أرفع من المرة السابقة، ذلك لأن هذا ما نشاهده في نواميس الطبيعة أيضًا. عندما كنت طفلاً صغيرًا و لم أكن قد رأيت جبلاً، كنت أتخيل أن الجبل كمنارة عالية وأن الناس يصعدون عليه بمساعدة الحبال. ولكني لما رأيت جبال "شِمْله" أول مرة وجدت أن هناك ربوة تلو ربوة ثم ثالثة، وكل واحدة منها أرفع من السابقة، ولكن هناك انخفاض بعد ربوة أيضًا، وعندما يتقدم المرء من قمة الربوة الأولى يظن أنه يمشي إلى أرض منخفضة، ولكن الواقع أنه يصعد إلى ربوة هي أعلى من السابقة، ثم يصل إلى الربوة الثانية ثم ينـــزل من قمّتها فيُخيل إليه مرة أخرى أنه ينـــزل إلى أرض منخفضة، ولكن الحقيقة أن كل خطوة يتخذها تذهب به عاليًا، وهكذا يمشي منخفضًا ومرتفعًا حتى يصل إلى قمة الجبل. وهذا هو نفس المشهد الذي نراه في نواميس الطبيعة ونجده في ارتقاء العقول الإنسانية أيضًا. لقد عمل الناس بهذا التعليم الرباني لأنهم تلقّوه من النبي ﷺ مباشرة، ولكن بما أن ارتقاء العقول الإنسانية يكون كالموجات التي ترتفع تارة وتنخفض أخرى، فقد حصل الانحطاط بعد الموجة الأولى، ولكن قد ارتفعت الآن الموجة الثانية بواسطة المسيح الموعود عليه السلام وستكون أعلى من الأولى طبقًا لنواميس الطبيعة.

باختصار، إن بعد كل موجة انخفاضًا، فينسى الناس التعليم الحق. ولكن ما دام هذا النظام الإسلامي قائمًا فلا يبقى هناك حاجة لأي تأمين. ما هو التأمين يا ترى؟ إنما هدفه أن يمدّ أهلك وأولادك بالطعام واللباس والسكن بعد موتك. وما دامت الدولة مسؤولة عن سد حاجات جميع المواطنين بكل أنواعها، فما الحاجة إلى التأمين إذن؟ فالجميع سيجد غذاء وسكنًا وكساءً وتعليمًا وعلاجًا. وهذه هي المصارف الاجتماعية التي من أجلها أقام الإسلام هذا النظام الواسع للزكاة والصدقات والتبرعات. وقد بيّن الإسلام أن من علامة المؤمنين أنهم يعطون الزكاة، فيحظون بحب الخالق بخدمة خَلْقه. والحق أن أنجع وسيلة لكسب حب أحد في الدنيا إنما هو أن تحب بعض أحبته، ويمكننا رؤية صدق هذا القول يوميًا في أسفارنا

بالقطار. فإنك إذا قمتَ بمداعبة طفل لبعض الجالسين معك أو أعطيته قطعة حلوى فإن أباه يأخذ بالحديث معك بعد قليل وكأنه صديق قديم. ونفس الطريق متّبَع في العالم الروحاني أيضًا، فعندما ينفق المرء على عباد الله سدًا لجوعهم وإفلاسهم فإن الله ﷻ يقول إن عبدي هذا يقوم بخدمة أحبتي، فلندخله في زمرة المحبوبين. ورد في الحديث أن الله ﷻ سيقول لبعض الناس يوم القيامة: كنتُ مريضًا فلم تعُدْني، وكنتُ جائعًا فلم تُطعِمْني، وكنت عاريًا فلم تَكْسُني؟ فيقول العبد: يا رب، كيف يمكن أن تمرض أو تجوع أو تعرى، فإنك منـــزه عن النقائص كلها؟ فيقول ﷻ: كان بعض عبادي مريضًا، وبعضهم جائعًا، وبعضهم عاريًا، فلم تعُدْه ولم تُطعِمه ولم تُلبِسه، فكأنك لم تعُدْني ولم تُطعِمني ولم تُلبِسني. (مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض)

إذًا فإن الزكاة ركن مهم من أركان الإسلام، ومَن أهملها فقد أسخط الله ﷻ، إذ أهمل حقوق عباد الله الفقراء.

ثم يذكر الله ﷻ علامة أخرى للمؤمنين فيقول: ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.. أي أنهم يقدمون التضحيات باستمرار غير مبالين بما إذا كانوا ينالون جزاءها في الدنيا أم لا، لأنهم يوقنون بالحياة الآخرة، وهذا اليقين ينفخ فيهم من الشجاعة التي تدفعهم للقفز في نيران التضحيات بلا تردد. فعندما يُقاتل أحد الجنود في الدنيا فهل يقاتل لمنفعة شخصية؟ كلا، إن كل واحد منهم يعرف أنه سيُقتَل في الحرب، وكثيرًا ما يُقتَل بالفعل ولكن قومه ينتفعون من تضحيته. كذلك فإن الأم عندما ترضع ولدها فهل ترجو وراء ذلك أي فائدة؟ والواقع أن لبنها إنما هو من دمها، فكل جرعة يمتصها ولدها إنما هو دمها الذي يمتصه. ولو أن أمك رفضت إرضاعك وقالت: لماذا أُرضعه دمي، لما كنتَ حيًّا اليوم. إن أمّك أرضعتْك دمها فأنت حيٌّ اليوم، فمن واجبك الآن أن تُريق دمك ليحيا أولادك وقومك ووطنك. هل فكرتَ: ما هي الراحة التي نالها في الدنيا الصحابةُ الذين استُشهدوا في غزوة بدر. لقد تركوا آباءهم وأمهاتهم وأقاربهم وأصدقاءهم، وبعد أن ظلوا عرضة لأشد الاضطهاد طيلة ثلاث عشرة سنة، تركوا وطنهم مكة بقلوب متقطعة وجروح

دامية، علّهم يعودون سالمين إليها في يوم من الأيام. ولكن لم تمض على هجرهم سنة ونصف إلا وفصلتْ سيوف الكافرين رؤوسهم عن أجسادهم، فسقطوا مضرجين بدمائهم في رمال محرقة في البرية بعيدًا عن وطنهم القديم ووطنهم الجديد أيضًا. ولو أن هؤلاء لم يقدموا هذه التضحية قائلين: ما هي الفائدة التي نجنيها، إذ إن غيرنا هم الذين سيجنون ثمار تضحياتنا، لما نال الإسلام القوة والعظمة التي نالها فيما بعد.

فمن وقائع غزوة أُحد أن النبي ﷺ بعث أُبيّ بن كعب ليبحث عن الجرحى ويتفقد حالهم. فوصل أُبيّ إلى سعد بن الربيع الذي كان قد أصيب بجراح بالغة وكان يلفظ آخر أنفاسه، فقال له: هل عندك رسالة تريد أن أبلّغها أقاربك؟ فتبسمَ سعد وقال: كنت أنتظر أن يأتيني مسلم لأحمله رسالتي، ولكني أرجوك أولاً أن تضع يدك في يدي وتعدني بتبليغ رسالتي إلى أهلها، ثم قال: أرجوك أن تبلغ إخواني المسلمين سلامي، وتقول لقومي وأهلي: إن رسول الله ﷺ أمانة ربانية عندنا، وقد دافعْنا عنه بمُهَجنا وأرواحنا، وها نحن نرحل الآن من الدنيا واضعين هذه الأمانة في أيديكم، فلا تقصّرُنّ في حفظها. (السيرة الحلبية: المجلد الثاني، غزوة أحد)

عندما يحين أجل المرء تخطر بباله أفكار شتى عن أهله وأولاده، فيقول: ماذا ستفعل زوجتي بعدي، ومَن سيرعى أولادي، ولكنك ترى أن ذلك الصحابي لم يترك أي رسالة كهذه، وإنما قال: يا قوم، ها نحن نغادر الدنيا مدافعين عن رسول الله ﷺ، فسيِروا وراءنا على نفس الطريق. والحق أن هذه القوة الإيمانية في هؤلاء القوم هي التي جعلتهم يقلبون العالم رأسًا على عقب، ويطيحون بعروش قيصر وكسرى. كان قيصر الروم وكسرى الفرس مذهولين من أمر هؤلاء القوم، حتى كتب كسرى إلى قائده وقال: إذا كنت لا تستطيع أن تهزم هؤلاء العرب فارجعْ واجلسْ في بيتك كالنساء. ألا تقدر على صدّ هؤلاء القوم الذين يأكلون الضب؟ فأجابه قائده: إنهم ليسوا أناسًا بل هم عفاريت حيث يتقدمون قافزين على حدّ السيوف وأسِنّة الرماح.

ولم تكن هذه الشجاعة منحصرة في الرجال فحسب، بل تحيّرني دائمًا التضحية التي قدمتْها إحدى الأمهات. لما وقعت معركة القادسية في العراق ضد الفُرس في عهد عمر ﷺ، أتى كسرى بالفيلة في الحرب، فأخذت إبل المسلمين تنفر منها، فلحقت بهم أضرار جسيمة فادحة، وقُتل الكثير منهم. فقرر المسلمون ذات يوم ألاّ ينسحبوا من ساحة القتال ما لم يهزموا العدو. وجمعت الصحابية الخنساء – رضي الله عنها – أبناءها الأربعة وقالت لهم: يا بَنيّ، لقد أهلكَ أبوكم كل ما كان يملك من مال وعقار، وألجأني للذهاب إلى أخي ليعطيني مما عنده، فذهبت إليه، فأكرمني وأعطاني نصف ما يملك من المال، فأخذته ورجعت إلى أبيكم، وقلت له: خُذ هذا المال وعِشْ براحة. ولكنه أضاعه أيضًا، فاضطرني للذهاب إلى أخي ثانية، فذهبت فأعزَّني وأكرمني وأعطاني نصف ما بقي عنده من المال. فرجعتُ به، ولكن أباكم ضيّعه أيضًا، فاضطررت إلى العودة إلى أخي مرة ثالثة، فأعطاني نصف ما بقي عنده من المال، ولكن أباكم ضيّعه أيضًا، فمات بدون أن يترك وراءه شيئًا. وكنت لا أزال في شبابي، ولو أصبحتُ بغيّةً بحسب تقاليد المجتمع العربي لما كان عليّ من لوم، إذ لم يحسن إلي أبوكم في حياته ولم يترك لي بعده مالاً، لكني حافظتُ على عفافي من أجلكم. فإن لي حقوقًا كثيرة عليكم، وسيقع غدًا بين الكفر والإسلام قتال مرير حاسم، فإذا رجعتم من القتال غير منتصرين فسأقول لربي إن أبنائي لم يؤدوا لي حقوقي وأنا لا أتنازل عنها. وبعد تحريض أبنائها على القتال، خرجت إلى البرية قلقةً وخرّت أمام الله ﷻ في انفراد ساجدةً باكية وقالت: رب، قد أرسلتُ أبنائي الأربعة ليموتوا في سبيل دينك، ولكنك قادر أن تعود بهم أحياء. فاستجاب الله دعاءها، وكتب الله بفضله الفتح للمسلمين ورجع أبناؤها كلهم أحياء. (الطبري، والاستيعاب: باب النساء وكُناهن، باب الخاء: خنساء بنت عمرو السلمية)

لم تكن هذه الشجاعة والبسالة إلا نتيجة الإيمان بالآخرة. لقد كانوا موقنين أن نجاة العالم منوط بالإسلام، فكانوا يقولون: إذا متنا فلا حرج ولا ضير، لأن الدنيا ستحيا بموتنا، ولأن الإسلام سيصبح غالبًا بتضحياتنا.

لا شك أنه يحق لقائل أن يعترض اليوم: لم يعُد الإسلام غالبًا اليوم. ولكن الواقع أن المسلمين لا يزالون يتمتعون بالعظمة رغم انحطاطهم اليوم، حيث إن العالم كله يذكر دينهم باحترام بسبب كثرتهم. ما هو سبب هذا الرعب، يا ترى؟ إنما سببه تلك التضحيات التي قدّمها المسلمون الأوائل الذين كانوا في بعض الأحيان يبيتون جياعًا ويصبحون جياعًا، وإذا بليت عمامة أحدهم لم يجد عمامة أخرى، وإذا انكسر حذاؤه لم يجد حذاء آخر. إن هذا الرعب ليس إلا نتيجة تضحيات آبائكم هؤلاء الأولين. يُقال إن الصيت الحسن أعظم من العمل، وهذا صدق وحق، إذ لا شك أن أعمال المسلمين اليوم ليست عظيمة، ولكن العالم كله يهاب اسمهم. كان المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا أن لصًّا دخل في بيت "رُستُمْ"◈ فقبض عليه "رستم"، فبدأ الاثنان يتصارعان، وكان اللص لا يعلم أن الذي يُصارعه هو "رستم" نفسه، بل ظن أنه يُصارع خادمه. فألقى اللص "رستم" على الأرض وجلس على صدره وهمَّ بضرب عنقه، فصاح "رستم" من تحته وقال: ها قد جاء "رستم". فنـــزل اللص من على صدره وهرب.

فترى أن اللص تصارع مع "رستم" وصرعه، ولكنه لم يستطع أن يصرع اسمه لما كان لاسم "رستم" من هيبة في القلوب. فالذين يقدمون التضحيات يتركون وراءهم اسمًا حسنًا. لا شك أنهم يموتون إلا أن صيتهم الحسن يُدافع عن أولادهم، أما في الآخرة فيعطيهم الله جزاءً خالدًا يفوق التصور.

إذًا، فالله سبحانه وتعالى قد بين في قوله: ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أن من صفات المؤمنين أنهم يمضون قدمًا في مجال التضحيات غير مكترثين بسبب إيمانهم بوعد الله سبحانه وتعالى، موقنين أن تضحياتهم ستُعِزّ قومهم وتُكسبهم رضوان الله سبحانه وتعالى. مما يعني أنهم يكونون موقنين تمامًا بالفتوحات العظيمة التي ستظهر في المستقبل، فيقدمون في سبيلها كل غال ورخيص بلا تردد.

◈ هو أحد أبطال الفرس. (المترجم)

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

يَعمَهون: عمِه يعمَه عَمَهًا وعموهيَّة وعَمَهانًا: تردَّدَ في الضلال؛ وتحيَّرَ في منازعة أو طريق. وعن الزمخشري (في "الكشاف"): العمه كالعمى غير أن العمى عام في البصر والبصيرة، والعمه خاص بالبصيرة فلا يقال: أعمهُ العينِ (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله هنا أن السبب الأساس لكفر الكافرين وسوء أعمالهم هو إنكارهم الآخرة. إنهم لا يؤمنون بأي جزاء ولا عقاب فلا يفكّرون فيما يفعلون، ولا يشعرون بضرورة التدبر في الحق الذي جاءهم وإصلاحِ أعمالهم وتغيير سلوكهم. ولو كان عندهم يقين بأنهم ماثلون أمام الله ﷻ في يوم من الأيام ليحاسبهم على أعمالهم ويعاقبهم على سيئاتهم، لغيّروا سلوكهم وأصبحوا أكثر جدية فيما يفعلون، ولكنهم قد فقدوا كل إحساس بالمؤاخذة والحساب، فأصبحوا أغبياء جاهلين بحيث إنهم يجدون المتعة في أعمالهم السيئة أيضًا، ويتفاخرون بها عوضًا عن استنكارها. لماذا لا يُدخل المرء يده في جُحر الحية؟ ولماذا لا يقفز في النيران الملتهبة؟ ولماذا لا يقتحم عرين الأسد؟ ولماذا لا يشرب كأس السم؟ إنما سببه إدراكه أنه لو أدخل يده في جُحر الحية لـــهلك حتمًا، ولو قفز في النيران لاحترق يقينًا، ولو اقتحم عرين الأسد لافترسه، ولو شرب كأس السم لقتله. فلو كان عند المرء مثل هذا الإيمان بالآخرة فكيف يتجاسر على ارتكاب إثم؟ إن أكبر سبب لجرأة الناس على الذنوب وإنكار الأنبياء أن قلوبهم لا توقن بالآخرة، بل يقول الواحد منهم بكل جسارة كما يُقال بلغتنا البنجابية ما معناه: دعونا نتمتع بهذه الدنيا، فمن ذا الذي رأى الآخرة حتى نترك من أجلها متع الدنيا.

فالحق أن القيام بالحسنات أو ارتكاب السيئات وثيق الصلة بالإيمان بالجزاء والعقاب، ولذلك أوضح الله ﷻ هنا أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستحسنون أعمالهم السيئة، أي لا يرون فرقًا بين الخير والشر. وذلك لأنه إذا لم يكن هناك أي نتيجة.. أي لم يكن ثمة ثواب على العمل الحسن ولا عقاب على العمل السيئ، فلا جدوى من القول إن هذه حسنة وتلك سيئة.

وهذه الآية تدل أيضًا على أن الأعمال بالنيّات، ذلك لأن الكافر أيضًا يأتي أعمالاً تشبه أعمال المؤمنين، ولكن بما أن أعمالهم تخلو تمامًا من نية أن ينالوا بها رضا الله ﷻ، فلا يستحقون على أعمالهم أي جزاء من عند الله ﷻ. أما المؤمن فإن عمله يأتي بنتيجة رائعة لأنه يكون مصحوبًا بنية حسنة، إذ يبتغي به مرضاة الله ﷻ.

يعترض البعض على قول الله ﷻ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ ويقول: ما دام الله ﷻ هو الذي يُزين للكافرين أعمالهم فما ذنبهم في ذلك؟ (الكشاف)

فليكن معلومًا أن الله ﷻ لا يُشير هنا إلى تقدير خاص بل يُشير إلى إحدى النواميس الطبيعية التي يكمن فيها سرّ الرقي الإنساني، وهي أن المرء إذا مارس عملاً معينًا فترة طويلة أصبح ملائمًا لطبعه وموافقًا لمزاجه فيستحسنه. فقد بين الله ﷻ هنا أن الذين يسلكون الطريق الخاطئ بدلاً من سواء السبيل يرون سوء أعمالهم حسنة في نهاية المطاف لأن من فطرة الإنسان أنه إذا قام بعمل ما فترة طويلة أحبّه واستحسنه. وبما أن الله ﷻ هو خالق فطرة الإنسان فلذلك نسب أعمال هؤلاء إلى نفسه وقال: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ وإلا فليس المراد أن الله ﷻ يُريهم سيئاتهم حسنات، وإنما المعنى أنهم يُسيئون استعمال هذا القانون الطبيعي الرائع حتى إنهم يستحسنون أعمالهم السيئة أيضًا. ومثال ذلك أن الله ﷻ قد خلق النار لنطهو بها الطعام ونستدفئ بها في البرد، ولكن المرء إذا أساء استخدام النار وأحرق بها نفسه، فهذا ذنبه هو، وليس ذنب الله الذي خلق النار. كذلك قد جعل الله ﷻ لرقي الإنسان قانونًا رائعًا بأنه إذا مارس عملاً ما واعتاد عليه استحسنه ومال إليه بطبعه؛ أما إذا أساء البعض استعمال هذا القانون الرائع وانغمس في المعاصي، فرأى سيئاته حسنات وفقًا لهذا القانون، فهذا ذنبه هو، ولا اعتراض على خالق الفطرة ﷻ.

لقد قال النبي ﷺ إن المرء إذا عمل عملاً حسنًا وضعت ملائكة الله على قلبه نقطة بيضاء، وإذا عمل حسنة أخرى وضعت الملائكة على قلبه نقطة بيضاء أخرى، إلى أن يصبح قلبه كله نورانيًا، ويتطهر من كل سوء. وعلى النقيض إذا أتى المرء عملاً سيئًا وضعت الملائكة على قلبه نقطة سوداء، وإذا ارتكب سيئة أخرى وضعت الملائكة عليه نقطة سوداء أخرى، حتى تغطي البقع السوداء قلبه كله فيصبح كله أسود مظلمًا، وتحترق حسناته كلها.•

والحق أن هذا الحديث أيضًا إشارةٌ إلى هذه الحقيقة نفسها وشرحٌ لهذا القانون الفطري نفسه بأن المرء إذا داوم على الحسنات أصبحت جزءًا من نفسه، وإذا داوم على السيئات أصبحت جزءًا من نفسه؛ والقاعدة أن ما يصبح جزءًا من نفس الإنسان يبدو له حسنًا لا سيئًا. ولولا أن الله ﷻ أودع هذا القانون الرائع في الفطرة الإنسانية رحمةً بالعباد، لصعب عليهم القيام بالحسنات أو الدوامُ على أي عمل، إلا أن هذا القانون سهّل على الإنسان رحلته إلى الحسنات، فيبدو له كل عمل أسهل من التالي. هل تعرف كيف يصبح المرء ماهرًا في فنه حتى يمدحه الناس؟ إنما سببه أنه مارس عمله باستمرار حتى أصبح ملائمًا لطبعه فسبق الآخرين في فنه. ولولا أن الله ﷻ أودع هذه الملكة في فطرة الإنسان – أي أنه إذا مارس عملاً فترة

• أقرب رواية بهذا المعنى هي: عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنّا عِنْدَ عُمَرَ. فَقَالَ: أَيّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللّه ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصّلاَةُ وَالصّيَامُ وَالصّدَقَةُ. وَلَكِنْ أَيّكُمْ سَمِعَ النّبِيّ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ. فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ، للهِ أَبُوكَ قال حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودا عُودا. فَأَيّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصّفَا، فَلاَ تَضُرّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؛ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادا كَالْكُوزِ مُجَخّيا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرا، إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ." (مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا) (المترجم)

طويلة أصبح ملائمًا لطبعه ومزاجه - لم يتقدم أي إنسان في مجال فنه وحرفته. ونفس القانون الفطري هو ساري المفعول في مجال الحسنات والسيئات أيضًا. فإن الإنسان عندما يعمل حسنة ما أول مرة تشقّ على نفسه، ولكنه حين يواظب عليها تسري إلى كيانه تدريجيًا حتى يستحيل عليه تركها. كذلك عندما يقترف أحد السيئة للمرة الأولى يصيبه القلق والخوف، ولكنها تصبح فيما بعد بمنـــزلة الغذاء له شيئًا فشيئًا حتى يصعب عليه اجتنابها.

باختصار إن الله ﷻ قد أشار هنا إلى هذا القانون الفطري، وبين أن إنكار هؤلاء قد جعلهم لا يخافون حسابًا ولا عقابًا، فأصبحوا متجاسرين على ارتكاب المعاصي، واستمرارهم فيه قد ران على قلوبهم بحيث يرون الآن أعمالهم السيئة حسنة. والحق أن حالهم يماثل حال اللص الذي جاء مرةً إلى الخليفة الأول ﷺ (للمسيح الموعود ؑ) للعلاج، فأراد ﷺ نصحه وقال: إن الله ﷻ لم يعطك هذه الأيدي والأرجل لتأكل بها الحرام، وإنما أعطاك إياها لتكسب بها الرزق الحلال. لِمَ لا تمتنع عن السرقة وتكسب الرزق الحلال؟ فاحمرت عينا اللص غيظًا وقال: حضرة الشيخ، إذا كان ما أكسبه حرامًا فما هو الكسب الحلال إذن؟ فعندما تستمتعون بنوم هادئ عميق نخرج أنا وأصحابي واضعين أرواحنا على أكفنا، إذ لو علم بوجودنا أحد لقتلنا بالرصاص، فما دمنا نقوم بالسرقة معرّضين حياتنا للخطر فمن ذا الذي يمكن أن يكون أكثر منا كسبًا للحلال؟ فأدرك حضرته ﷺ أن هذا اللص قد اعتاد السرقة بحيث إن فطرته قد أصحبت ممسوخة مشوهة، فلم يعُد يرَى السرقة عملاً سيئًا، فلن ينفعه الوعظ بالنقاش والجدال. ويقول حضرته ﷺ: فغيّرت مجرى الحديث لأستدرجه بعد أن يكون قد نسي ما قلت له. وبعد برهة من الزمان قلت له: هَلا تخبرني كيف تقومون بالسرقة؟ فقال: الحق أن شخصًا واحدًا لا يستطيع السرقة، بل نكون سبعة أشخاص، فأحدنا يتجسس على البيت ويكون عادةً من السقاة أو الكناسين في البيوت، لأن السرقة لا تتم إلا بعد التجسس، فهو الذي يُخبرنا عن الغرف والأبواب وخزينة المال والمجوهرات في البيت الذي نريد أن نسرق منه. ثم بعد ذلك نحتاج إلى شخص ماهر لاختراق الجدار بحيث لا يُحدث

صوتًا يوقظ أهل البيت. ثم نحتاج إلى شخص ثالث خبير في فتح أقفال الصناديق والخزائن ويبدأ عمله بعد خرق الجدار. ثم هناك شخص رابع عالي الخبرة في أن يمشي مشية لا تُحدث صوتًا، والشخص الثالث يُخرج الأموال من الصناديق والخزائن ويناوله إياها. وهناك شخص خامس يقف على رأس الشارع ليحذّرنا بالإشارة كالتصفير مثلاً إذا ما رأى هنالك شخصًا. ونحن الخمسة نلبس سراويل قصيرة ضيقة، وإذا رأى الناس أحدًا منا أيقنوا بأنه سارق، ولذلك يكون في عصابتنا شخص سادس يمشي هنا وهناك بعيدًا عنا في ثياب الشرفاء حتى لا يشك فيه أحد، فنوصل النقود والمجوهرات إليه. فيذهب بها بكل هدوء إلى شخص سابع، وهذا الشخص يكون أحد الصاغة الذي يصفي الذهب والجواهر والآلئ من الشوائب ويُذيب الذهب، ثم يبيعها، فنتقاسم جميعًا الأموال. يقول الخليفة الأول ﷺ: وعندها قلت للص لو أن الصائغ احتال عليكم، وأكل هذه الأموال التي كسبتموها بشق الأنفس فماذا تفعلون إذن؟ فلم يتمالك اللص نفسه حتى قال: هل يكون أحد خائنًا بحيث يأكل أموال الآخرين؟! فقلت له: الآن فهمتَ الأمر. لقد ثبت من قولك أن فطرتك أيضًا تسلّم بأن أكل أموال الآخرين حرام، ولكن بسبب اعتيادك على السرقة قد أصبحت فطرتك مشوهة حتى ظننت أن مال السرقة رزق حلال.

بيد أن الله ﷻ إذ جعل قانونًا بأن المرء إذا مارس عملاً فترة طويلة بدا له عمله حسنًا بمرور الوقت، فإنه ﷻ قد جعل إزاءه قانونًا آخر بأن مآل العمل السيئ لا يكون حسنًا، ولذلك قد بين ﷻ هنا أن هؤلاء الكافرين الذين يستمتعون بأعمالهم السيئة ويستحسنونها لن ينجوا من عواقبها الوخيمة، بل سيتعرضون بسببها للخزي والهوان في الدنيا، وفي الآخرة هم من الأخسرين.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

تُلقَّى: تَلقَّى الشيءَ منه: تلقَّنه، إذا أخَذه مِن فيك مشافهةً. (الأقرب، المصباح المنير).

التفسير: يقول الله ﷻ هنا لرسوله الكريم أنه مهما أنكرَك المنكرون وسَبَّك السابّون ولامَك اللائمون فإن الله ﷻ الحكيم العليم يريد تنفيذ خطته في العالم، ولن تستطيع قوة في الدنيا أن تحول دون تحقيق الخطة الإلهية، فليس للحاسدين الآن إلا أن يموتوا كمدًا، إذ لن يستطيعوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم أو يمنعوا الإسلام من التقدم بسيوفهم وسنانهم، لأن الحكيم العليم قد علّمك هذه الأحكام شفاهًا، ومن المستحيل أن ترفض الدنيا تعليمًا يكون من الحكيم العليم، أو تقدر على محوه.

هناك شبهة تنشأ في قلوب البعض فيقولون: قال الله ﷻ في السورة السابقة: ﴿نَــزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ﴾(الشعراء:١٩٤-١٩٥) بينما يقول هنا إنه ﷻ نفسه قد أنــزل القرآن عليك مباشرة، فلِمَ هذا الاختلاف؟

لقد بيّنتُ من قبل أيضًا أن نــزول الروح الأمين على الرسول ﷺ يعني أن الملاك أوصل وحي الله تعالى إلى نبيه ﷺ تمامًا كما أعطاه الله إياه، فلم يبقَ هناك إمكانية للنسيان أو الخطأ فيه. والكلام الذي يكون مبرأ من الخطأ والنسيان ويصل إلى صاحبه لفظًا لفظًا وحرفًا حرفًا وحركةً حركةً فهو كمثل الكلام الذي يَتمّ مشافهةً، لأن الهدف من الكلام الشفوي أن لا يحصل فيه خطأٌ أو لا ينسى الرسول الذي ينــزل به شيئًا منه، فما دامت كل حيطة قد اتُّخذت بالنسبة للرسول الذي ينــزل بهذا الكلام حتى لا ينسى منه شيئًا ولا يُخطئ في نقله، وبالنسبة إلى المرسل إليه أيضًا كي لا ينسى شيئًا منه أو يخطئ فيه، فقد أصبح مثل الكلام الشفوي تمامًا.

فثبت أن قوله ﷻ في هذه السورة: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ لا يتعارض مع قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿نَــزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ۝ عَلَى قَلْبِكَ﴾، بل هو بمثابة شرح وتوضيح له.

الحقيقة أن الله تعالى قد ردّ في هذه الآية على اعتراض يثيره المسيحيون بأن الله تعالى قد كلّم موسى شفاهةً، وأما محمد (ﷺ) فقد نــزل عليه جبريل فقط. لقد

بين الله ﷻ هنا أنه قد كلّم محمدًا ﷺ أيضًا شفاهةً، أما كون الروح الأمين واسطة بينهما فليس إلا على سبيل التمثل، إذ لا غبار على كلام الله مع النبي ﷺ مباشرة على الإطلاق.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

آنستُ: آنس الشيءَ: أبصرَه؛ وآنسَ الصوتَ: سمعه وأحسَّ به. (الأقرب)

شهاب: الشهاب: شعلةٌ من نار ساطعة؛ أو كلُّ مضيء متولد من نار. (الأقرب)

قبس: القَبَس: شعلةُ نار تؤخذ من معظم النار. (الأقرب)

تصطلون: اصطلى بالنار اصطلاءً: استدفأَ بها. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله ﷻ هنا قصة موسى عليه السلام كدليل على كونه تعالى لطيفًا وسميعًا، حيث يقول اذكروا لما أبصر موسى نارًا أثناء عودته مع أهله من مَدْين إلى مصر، فقال لأهله امكثوا هنا فإني ذاهب إلى هذه النار، لكي آتيكم بخبر منها أو آتيكم بجمرة منها لتستدفئوا بها.

واعلم أن لفظ ﴿قبس﴾ بدلٌ من لفظ ﴿شهاب﴾ كأن موسى عليه السلام قال: أعني بالشهاب قبسًا.

وبما أن الله تعالى قد استعمل هنا كلمة ﴿نار﴾ لا "النار"، فثبت أن هذا المشهد الذي رآه موسى عليه السلام كان مشهدًا روحانيًا لا ماديًا، لأن الذي يرى النار بالعين المادية لا يقول إني رأيت نارًا، بل يقول إني رأيت النار. كما أن النار المادية لا يراها شخص واحد بل يراها الجميع، ولكن موسى عليه السلام يقول هنا إني أبصرتُ نارًا مما يعني أن أهله لم يروها. إذًا، فإن الآية تعني أن موسى عليه السلام قال لأهله إني رأيت نارًا في الكشف وأرى أن الله تعالى يريد أن أذهب إليها، وها إني ذاهب إليها. وبما أن تلك النار كانت مشهدًا من الكشف، وبما أن رؤية النار في الرؤيا تعني الهدى

(تعطير الأنام)، وبما أن الهداية إما أن تكون خاصةً بالرائي أو تكون لكل القوم، وبما أن موسى عليه السلام كان لا يعلم ما إذا كان الأمر الذي سينكشف عليه خاصا به أم أنه لأهله وقومه كلهم، فلذلك قال لأهله لو كان هذا الهدى خاصًا بي فسآتيكم بخبره، ولو كان مما ينبغي تبليغه إلى الآخرين فسآتيكم منه بقبس لتستدفئوا به، أي سأقرأ عليكم من تلك الأحكام ما يزول به بردكم الروحاني.

واعلم أن كلمة ﴿قبس﴾ وما شابه من الكلمات الواردة هنا لا تدل على نار مادية كما قلت آنفًا، ذلك لأنهم إذا شبهوا شيئًا بشيء وصفوا المشبه بصفات المشبه به. مثلاً إذا شبهتَ أحدًا بالأسد فلن تقول إنه يتكلم كالأسد، بل تقول: إنه يزأر كالأسد. فبما أن التجلي الإلهي قد سُمي هنا ﴿نارًا﴾، فأُطلقتْ على توابعه أيضًا صفات النار.

باختصار إن المراد من النار والقبس هنا ذلك النور الإلهي الذي رآه موسى عليه السلام، وبما أن هذه كانت بداية الوحي عليه، فلم يستطع أن يفهم ما إذا كان النور الذي رآه خاصًا له فقط أم أنه لأهله وقومه أيضًا، بمعنى أنه لم يعرف ما إذا كان ما رآه هو تجلّي النبوة أم تجلّي الولاية، ولذلك قال لأهله إني ذاهب إلى النار فآتيكم منها بخبر، أي إذا كان هذا تجلّي الولاية فسأخبركم بأن الله تعالى قد تفضل علي بكذا وكذا؛ وإذا كان ذلك النور الإلهي لأهلي وقومي.. أي إذا كان تجلّي النبوة لا تجلّي الولاية وكنت مأمورًا بتبليغ هذه التعاليم الآخرين أيضًا فسوف آتي بأحكام ينتفع بها أهلي وقومي ويجدون فيها دفئًا روحانيًا.

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾

التفسير: لما وصل موسى إلى مكان التجلي بعد إخبار أهله عنه أوحى الله ﷻ إليه وقال: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.. أي أن الإنسان الذي يكون في هذه النار يبارَك، والذي يكون حولها فهو الآخر يبارَك.

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية إن الذي كان في تلك النار هو الله تعالى (الرازي). وقد قدمت التوراة أيضًا نفس النظرية حيث ورد فيها:

"وظهَر له ملاكُ الرب بلهيبِ نارٍ مِن وسط عُلَّيْقة. فنظَر وإذ العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى: أميلُ الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الربُّ أنه مالَ لينظر ناداه اللهُ مِن وسط العليقة وقال: موسى موسى. فقال: ها أنا ذا. فقال: لا تقترب إلى ههنا. اخلَعْ حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرضٌ مقدسة." (الخروج ٣: ٢-٥)

ولكن القرآن لا يقبل هذه النظرية، إذ يُخبر أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، والبديهي أن الله هو يهب البركة للآخرين، ولا أحد يهبه البركة. وبتعبير آخر يمكننا أن نقول: تباركَ الله، ولكن لا يجوز لنا أن نقول: بُورِكَ الله. إذًا، فلا يصح القول أن المشار إليه في قوله تعالى: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ هو الله ﷻ.

وتفاديًا لهذه المشكلة قال البعض أن حرف "في" في قوله ﷻ ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ هو بمعنى "وراء"، والمعنى أنه بُورك من أتى وراء هذه النار أي باحثًا عنها.

ولكن هذا المعنى خلاف للأسلوب العربي. لا شك أن حرف "في" يفيد معنى "وراء"، ولكن بشرط أن يكون المذكور بعده شيئًا روحانيًا أو معنويًا، وليس إنسانًا أو شيئًا ماديًا. وبما أن المفسرين يعتبرون النار هنا مادية فلا يمكن أن يُفيد حرف "في" هنا معنى "وراء". فلا يجوز هذا التأويل أيضًا.

ثم إن البعض قد فسر "في" بمعنى القرب، وقال إن المعنى أنه بورك من هو قريب من النار، ويستدلون على صحة موقفهم بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (القرطبي).

ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ نفسه يُبطل موقفهم، لأنه بمعنى القرب، ولا يمكن أن يكون للتعبيرينِ مفهوم واحد. إذًا، فهذا المعنى أيضًا باطل.

وقد قال البعض أنه مما لا شك فيه أن حرف "مَن" يُستعمل للعقلاء عادة، ولكنه قد ورد هنا لغير ذوي العقول، والمعنى أن الخشب الذي في هذه النار والمكان الذي حولها مباركانِ بسبب التجلي الإلهي. (البحر المحيط)

ولكن كل هذه المعاني باطلة عندي، وقد وقع المفسرون في هذه المشكلة لأنهم اعتبروا أن النار هنا مادية. ولكن كما أثبتُ من قبل أن لفظ ﴿نارًا﴾ يدل على أن هذا المنظر لم يكن نارًا مادية بل روحانية. ولو سلّمنا بأن تلك النار كانت روحانية وأن المراد منها هو حب الله ﷻ لم يصعب علينا فهم هذه الآية أبدًا؛ ذلك أن رؤية النار في الكشف أو الرؤيا يعني حب الله دائمًا.

إذًا، فالضمير في ﴿بورك﴾ لا يعود إلى الله ﷻ لأنه تعالى منــزه عن الجسم، ثم إنه تعالى لا يُباركه أحد. كما لا يرجع الضمير في ﴿بورك﴾ إلى موسى عليه السلام أيضًا، بل إن الله ﷻ قد بين هنا قانونًا سماويًا عامًا ألا وهو أن كل من يلتاع بنار حب الله تعالى يُبارَك. وبهذا المعنى لا نضطر لتأويل كلمات ﴿بُورِك﴾، ولا ﴿مَنْ﴾ ولا ﴿في﴾، ويتضح مفهوم الآية كل الوضوح، وهو أن الذي يحترق بنار حب الله ﷻ يُصبح مباركًا، وليس هذا فحسب بل إن كل من في صحبته ينال هذه البركة أيضًا.

والحق أن الحب يشبَّه بالنار في جميع لغات العالم، وأن علم تعبير المنام والرؤى أيضًا يُبين لنا أن من رأى في الرؤيا أو الكشف أنه يحترق في النار فإنه سيحظى بالعشق الإلهي. إذًا، فقوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ إنما يعني أن الذي يدخل في هذه النار يصبح مباركًا، أما الذي لا يدخل فيها بل يقف قريبًا منها سينال من هذه البركة أيضًا.

هنا سؤال يطرح نفسه: لو كان موسى عليه السلام هو المراد من قوله ﷻ: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ فمن ذا الذي أُريد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؟ إذ كان موسى عليه السلام وحيدًا عندها، ولم يكن معه أحد. فثبت أن هذه الآية لا تتحدث عن شخص معين بل تبين قانونًا إلهيًا عامًا بأن الذي يقع في هذه النار ينال البركة، وأن الذي لا

يدخل فيها بل يقترب منها ليستدفئ بها فهو الآخر ينال من هذه البركة. وقد ورد الفعل الماضي ﴿بُورِكَ﴾ هنا بمعنى المضارع.

كان في "دلهي" في قديم الزمان أحد أولياء الله تعالى، فحضر إليه أحد المريدين مرة وقال إنا نؤمن بأن حضرة "كرشنا" وحضرة "رام شندر" نبيّان بُعثا في الهند، ولكني أرى أننا مخطئون في هذه العقيدة، إذ رأيت في الرؤيا نارًا ورأيت أن "كرشنا" فيها، وأن "رام شندر" واقفٌ حولها. فقال له الولي: لقد أخطأتَ في فهم تأويل رؤياك، لأن النار هنا نار حب الله ﷻ، والمراد أن "كرشنا" أشدُّ حبًا لله من "رام شندر"، إذ رأيت الأول داخل النار ورأيت الثاني حولها. (ملفوظات (أردو) المجلد الخامس ص ٤٥٩)

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. أي أن الله رب العالمين منـــزه عن كل نقص وعيب، بمعنى أن الذين قالوا إن الله نفسه كان في النار - كما قال أصحاب التوراة - مخطئون كلهم، لأن الله ﷻ بريء من التجسد بأي نوع كان.

كما أن قول الله ﷻ: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى أن الذين يبارك الله فيهم تتجلى بواسطتهم سبوحية الله في الدنيا، فيعملون على تنـــزيه الله ﷻ عن كل ما يُنسب إليه من عيب، فترى الدنيا وجه الله الجميل بكل جماله وعظمته ثانية.

يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠﴾ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

تهتزّ: اهتزّت الإبلُ: تحرّكتْ في سيرها لِحُداء الحادي. واهتزّ الماء في جريانه: تطلّق. واهتزّ الكوكب في انقضاضه: أسرعَ. (الأقرب)

جانٌّ: الجانُّ حيّةٌ بيضاءُ كَحْلاءُ العينِ لا تؤذي. (الأقرب)

التفسير: ليس المراد من قول الله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنه تعالى كان في النار حين نادى موسى بهذا الكلام، إذ لا يظهر من أي كلمة من القرآن الكريم بأن هذا الصوت جاء من داخل النار، وإنما يخبرنا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام سمع صوتًا أيًا كان مصدره.

الحق أن هذه الآية توضيح لقوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.. أي أن قوله تعالى: ﴿أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دليلٌ على أن الذي يلتاع بمحبة الله سبحانه وتعالى ينال البركة.. بمعنى أن الذي يلتاع في حبه تعالى يصبح غالبًا، لا بقوة العصا بل بالأدلة والبراهين إذ يُعطَى حِكمًا عظيمة، مثلما أصبح النبي ﷺ وغيره من الأنبياء غالبين على العالم بالأدلة والبراهين.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فكان مشهدًا من الكشف رآه موسى عليه السلام كما سبق أن بيّنّا في تفسير سورة "الشعراء"، وكان المراد من العصا جماعته، حيث يقال باللغة العربية: "فلانٌ شقَّ العصا" أي ترك الجماعة وشتّتَ شملها (المفردات). وقد أخبر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بهذا المشهد أن جماعته ستكون نافعة مثل العصا ما دام يجمع أفرادها على يده ويرعاهم، ولكنهم إذا خرجوا عن طاعته الكاملة وانفصلوا عن كيانه الروحاني أصبحوا حيّةً. ولذلك نجد أن موسى عليه السلام حين ألقى عصاه تحولت حية، فكأنه رأى ما سيكون عليه قومه في غيابه.

فلما ولّى موسى عليه السلام مُدْبرًا برؤية هذا المشهد أوحى الله إليه: ﴿يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.. أي لماذا تخاف فإن الرسل يحضروننا لنيل الجزاء، لا للعقاب. ولم نُرِك هذا المشهد لنخوّفك به، وإنما لكي نخبرك بالواقع ولنحثّك على العناية بقومك وتربيتهم.

أما قول الله تعالى: ﴿إلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيثير البعض شبهةً حوله قائلاً: يبدو من هذا أن بعض الرسل يكون من الظالمين. والحق أن هذا الاعتراض ناتج عن جهل أصحابه بقواعد النحو، لأن من الاستثناء ما يكون متصلاً ومنه ما يكون منقطعًا، بمعنى أن الحديث بعد "إلا" لا يستمر بالضرورة عن الفئة المذكورة من قبل، بل في بعض الأحيان يبدأ الحديث بعده عن فئة أخرى. وعليه فالمراد من هذه الآية أن من يرتكب ظلمًا - وهو ليس بالطبع من فئة الأنبياء - ثم يتوب ويعمل الحسنات قد يشكّ فيما إذا كانت توبته قُبلت أم لا، فليعلمْ أني كثير المغفرة وكثير الرحمة، فلا داعي له - دَعْك عن الأنبياء - أن يخاف.

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

استيقنتْ: استيقنَ الأمرَ: مثلُ تيقّنه، وتيقَّنَ الأمرَ: علمه وتحقَّقَه. (الأقرب)

التفسير: والمراد من قوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أن يدك تكون بيضاء ناصعة نورانية كآية من الله ﷻ وليس بسبب مرض.

والحق أن قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ جاء ردًّا على تلك التهمة الشنيعة التي ألصقتها التوراة بموسى عليه السلام حيث ورد فيها: "فأدخلَ يدَه في عُبِّه ثم أخرجَها فإذا يده مصابة بالجُذام◈ مثل الثلج." (الخروج ٤: ٦)

وهذا يعني أن كُتّاب التوراة اعتبروا بياض يد موسى عليه السلام مرض الجُذام، ولكن القرآن الكريم - الذي نزل بعد موسى بألفي عام والذي لم يدّخر اليهود والنصارى وسعًا في إنكاره ومخالفته - يبرّئ ساحة نبيهم من هذه التهمة، فيخبر أن بياض يده لم يكن نتيجة الجذام بل كان آية ربانية عظيمة.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فأخبر الله به موسى عليه السلام أن الكلام الذي أنزله عليه هو لقومه، فعليه أن يذهب إليهم ويلصقهم بنفسه، أي يدخلهم في كنفه ويربيهم تربية حسنة، فيخرج منهم رجال من الطراز الأول يكونون مُبرَّئين من العيوب، طاهري القلوب، مرضيين عند الله أو من المقبولين، وسيضيئون العالم بأنوارهم. ولكنهم إذا انفصلوا عنه أي إذا ألقوا تعليمه الروحاني وراء ظهورهم أخلدوا إلى الأرض، وأصبحوا ديدانًا أرضية مثل الحية التي تأكل التراب.

وبالفعل ترى أن أتباع موسى عليه السلام كانوا يقومون بأعمال البناء البسيطة والمتواضعة، و لم يملكوا قوة وحيلة حتى يصبحوا غالبين، ولكن الله سبحانه وتعالى منحهم الهمة والقوة من خلال تربية موسى عليه السلام فأصبحوا غالبين على قوم العمالقة (الخروج ١٧: ٨-١٥). والحق أن غلبتهم على العمالقة كانت كغلبة الفأر على القط، إذ كان العمالقة يحكمون على أراضي الشام وكنعان، وكانوا ذوي قوة ومنعة، أما أصحاب موسى فكانوا يعيشون عبيدًا ويقومون بالأعمال المتواضعة، لا خبرة لهم بالحكم والسياسة، ولكن الله سبحانه وتعالى وعد بأنه سيجعل هؤلاء العبيد الذين ظلوا يرزحون تحت قيود العبودية لمئات السنين والجاهلين البسطاء وارثين لأرض

◈ هكذا ورد في الطبعة الأردية للكتاب المقدس، بينما ورد في الطبعة العربية: "بَرْصَاء مثل الثلج". (المترجم)

العمالقة، وسيجعل هذه الأمة العديمة الخبرة بالضرب والقتال غالبة على العمالقة الذين هم خبراء في فنون الضرب والحرب ويملكون كل نوع من العدة والعتاد. وهذا ما حدث فعلاً، وجعل الله تعالى بني إسرائيل غالبين عليهم في نهاية المطاف. لا جرم أنهم قد قالوا لموسى عليه السلام في البداية بسبب جهلهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥)، ولكن الله سبحانه وتعالى غيّرهم تمامًا بدعاء موسى وتربيته، فألقوا أنفسهم في نيران التضحيات غير خائفين، فانفتحت أمامهم أبواب أرض كنعان، وأصبح هؤلاء العبيد ملوك العالم. ولم يعطهم الله سبحانه وتعالى المُلك المادي فحسب، بل قد خرج منهم نتيجة عملهم بتعاليم موسى عليه السلام كبار الربانيين والأحبار، بل الأنبياء العظام الذين ظلوا منارات الهداية للإنسانية طيلة أربعة عشر قرنًا. كان هؤلاء الأطهار دليلاً عَمليًا على صدق قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾.

كما أن هؤلاء الربانيين كلهم كانوا معصومين من كل عيب وإثم بحسب قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾. لقد اتهم كُتّاب الكتاب المقدس هؤلاء الأنبياء الذين بعثوا لهداية بني إسرائيل بتهم شتى، فقالوا أن فلانًا منهم مالَ إلى الآلهة الباطلة، وأن فلانًا منهم أمر بقتل إنسان ثم أخذ زوجته، وأن فلانًا كان يكذب. ولكن القرآن الكريم برّأ هؤلاء الأنبياء من هذه التهم، وبين أن الله سبحانه وتعالى كان قد أخبر موسى سلفًا أنه سيُخرج من قومه ببركة تربيته قومًا نورانيين مبرَّئين من كل عيب ومعصومين من كل ذنب.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى أن هاتين الآيتين كانتا ضمن الآيات التسع التي أراد أن يبعث بها موسى إلى فرعون وقومه، لأنهم كانوا قومًا خارجين عن الطاعة.

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى هنا من تلك الآيات التسع اثنتين وهما آيتا العصا واليد البيضاء، بينما ذكَر آيتين أُخريين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٣١).. أي عاقَبْنا آلَ فرعون بعذاب القحط وموت الأولاد ليعودوا إلى الصواب. أما باقي الآيات الخمس فهي مذكورة في قول

الله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾(الأعراف:١٣٤).

وكل هذه الأنواع من عذابهم مذكورة في سفر الخروج في الكتاب المقدس. والمراد من عذاب الطوفان ما وقع في البحر الأحمر حين أُغرق فرعون وجنوده. كما أيد الله تعالى موسى الطَّيِّلا بإنزال عذاب الجراد على فرعون وقومه، فكثرت الجراد في البلاد ودمرت الزروع، وأخذ الناس يموتون جوعًا. كما أنـــزل الله تعالى عليهم عذاب القمل حيث اشتد البرد وصعب على الناس الاستحمام، فكثرت القمل في رؤوسهم. ثم عاقبهم الله تعالى بعذاب الضفادع.. أي كثرت الأمطار، فتولدت الضفادع في كل مكان. ثم كان هناك عذاب الدم.. وقد يكون المراد منه أنهم أصيبوا بأمراض الدم فخرجت البثور والدمامل بكثرة على أبدانهم، أو أصابهم مرض الرعاف أو البواسير الدموية، أو تفشى فيهم مرض الطاعون الذي يسبب النـــزيف من الأنف والفم ومع الغائط، وأحيانًا يسبب النـــزيف الذي يظل تحت الجلد فتظهر بقع سوداء على الجسد كله، ويموت ما بين سبعين إلى ثمانين بالمئة من المصابين به. (الخروج ١٤: ٢٥-٣١، و١٠: ١٢-١٥، و٩: ١٨-٢٠، و٧: ١٧-٢٢، و٨: ٢-٧ و٨: ١٦-١٨)

إذًا، فقد أنـــزل الله عليهم العذاب تلو العذاب تحذيرًا لهم، وكان في كل عذاب من المزدجر ما يفتح عيونهم ويعيدهم إلى الصواب، ولكنهم ظلوا يقولون في كل مرة إنْ هو إلا خداع.. أي لا شك أن كل هذه الأمور تبدو في ظاهرها آيات من عند الله تعالى ولكنها مجرد مصادفات في الواقع، فأنكروا هذا الآيات الربانية مع أن قلوبهم كانت موقنة أنها ليست مجرد صدفة بل إنها عقاب على سوء أعمالهم. فأنكروها ظلمًا واستكبارًا فحسب، ولم يريدوا الاعتراف بالحق عنادًا وكبرًا. ولكن انظُرْ كيف كان عاقبة هؤلاء المفسدين. وما دام فرعون وأصحابه قد أُهلكوا فكيف يمكن، يا محمد، ألا يلقى معارضوك مصيرًا سيئًا مثلهم؟ إذ يسلكون مسلك فرعون وقومه، فينكرون آيات الله كما أنكروها.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

منطق الطير: المنطق: الكلام. (الأقرب)

التفسير: بعد قصة موسى تحدث الله تعالى هنا عن داود وسليمان، إذ يُعتبر داود ابنًا خاصًا لموسى - عليهم السلام.

ثم ذكر الله ﷻ قول داود وسليمان وهو: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثيرٍ منْ عبَاده الْمُؤْمنينَ﴾.. والمعنى أنه جعلهم حاكمين على المؤمنين من خلال الخلافة روحانيًّا وماديًّا.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾.. أي عندما تُوفِّي داود خلَفه سليمان عليهما السلام.

وأما قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فاعلم أن ضمير الجمع للمتكلم هنا عائد إلى سليمان وحده دون داود - عليهما السلام - إذ الكلام بصيغة الجمع هو من أساليب الملوك للدلالة على قوتهم وعظمتهم.

وقد قال المفسرون عن قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أنه كان يفهم لغة الطيور من حمام وسمان وحجل وعصافير وغيرها كما يفهم الإنسان كلام إنسان آخر. وقالوا أن سليمان عليه السلام رأى ذات يوم بلبلاً على غصن يغرد ويحرك رأسه وذنبه، فقال لمن حوله: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال إنه يقول: أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العَفاء. ثم ناحت حمامة، فقال سليمان إنها تقول: ليت هذه الخلائق لم تُخلق.

ويقول المفسرون أيضًا أن سليمان كان يقول إن الحمام يقول: لِدُوا للموت وابنُوا للخراب، ويقول الطاووس: مهما تفعل تُجزَ به. ويقول الهدهد: من يرحم الناس يرحمه الله تعالى. وتقول الأبابيل من العصافير: قدِّموا الأعمال الصالحة تجدوها عند الله. وتقول الحمامة: سبحان ربي الأعلى ملْءَ سمائه وأرضه. وتقول القطة: من يسكت يسلم. وتقول الببغاء: ويل لمن الدنيا همُّه. ويقول الديك: أيها الغافل اذكر الله. ويقول الضفدع: سبحان ربي القدوس. ويقول العصفور: استغفروا أيها الآثمون. وتقول الحدأة: كل شيء هالك إلا وجهه. (القرطبي)

إذًا، فقد بذل المفسرون جهدهم ليثبتوا أن سليمان كان يفهم منطق الطير جيدًا، وقد ضموا الضفدع إلى الطيور أثناء محاولتهم هذه. والحق أنهم قد وقعوا في هذا الخطأ لعدم فهمهم هذا الكلام الذي هو من قبيل الاستعارة والمجاز، مع أنه يماثل قول الله : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾(البقرة:١٨٨).. أي أن وقت السحور في ليالي رمضان ينتهي عندما يتضح الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ولكن بعض الفلاحين البسطاء من بلادنا "البنجاب" يضعون عندهم في ليالي رمضان خيطًا أبيض وخيطًا أسود، وبما أن الخيط لا يُرى إلا في الضوء الكافي، فلا يبرحون يأكلون بعد طلوع الفجر أيضًا في انتظار أن يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود. كذلك حال هؤلاء القوم الذين لا يفهمون التشبيه والاستعارة، فإذا قرأوا في القرآن أن لله يدًا يقولون – والعياذ بالله – إن يده أيضًا من اللحم والدم مثل أيدينا. وإذا قيل لهم إن المراد من يد الله قوته وقدرته قالوا لا يحق لكم التأويل فإن الله نفسه قال إن له يدًا. وإذا قرأوا قول الله عن نفسه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(الأعراف:٥٥) فلا يبرحون حتى يقولوا أن الله جالس على عرش من الرخام. وذلك برغم أن التشبيه أو الاستعارة موجود في جميع لغات العالم. فيُقال عندنا مثلاً ما يعني حرفيًا: عينُه جلستْ، ولكنهم لا يفهمون منه أن للعين أرجلاً وأنها تجلس على كرسي أو سرير، بل كل واحد يفهم منه أن عينه فُقئت وضاعت. وهناك استعارات كثيرة من هذا القبيل في لغتنا ولا يعترض عليها أحد بل يعتبرونها

من كمال اللغة ومحاسنها. وكما تكثر الاستعارة والمجاز في كل لغة من لغات العالم كذلك ترد الاستعارات في الصحف السماوية أيضًا، ولكن الذين لا يفهمون الحقيقة يتمسكون بظاهر الكلمات فيَضلّون ويُضلّون.

وهذا هو حال قول سليمان ؈: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾، فلما رأى المفسرون كلمة ﴿الطير﴾ هنا ظنوا أن من خصوصيات سليمان أن الله ﷻ علّمه لغة السمان والحجل وغيرها من الطيور.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: ما الفائدة من تعليم منطق الطيور؟ فهل تعلَم الطيور معارف وعلومًا عظيمة حتى نقول أن سليمان ؈ عُلّم منطقها لكي لا يظل محرومًا من معارفها وعلومها. كلا، بل الواقع أن الطيور لا تملك من العقل ما يملكه أغبى وأجهل إنسان في العالم، فماذا عسى أن يتعلم منها نبي الله سليمان ؈؟ وإذا كانت الطيور تبلغ من العقل والذكاء بحيث إن نبيًا عظيمًا كسليمان كان بحاجة ليتعلم منها العلوم والمعارف فلماذا أحلّ الشرع ذبحها؟ فتحريم ذبح الإنسان وإباحة ذبح الطيور والحيوانات يشكّل دليلاً بيّنًا على أن الله تعالى قد جعل هذا الفرق بسبب فارق العقل إذ لا يبلغ دماغ الطيور والحيوانات نصف الدماغ الإنساني. فلأي حكمة عُلّم سليمان منطق الطير إذًا؟

ثم إن المفسرين لم يكتفوا بقولهم أن سليمان ؈ عُلّم منطق الطيور كلها فحسب، بل قالوا أن طير الهدهد قد بلغ من الذكاء والفطنة أنه فهم كلام ملكة قوم "سبأ" وكلام حاشيتها وكلام سليمان ؈، بينما لم يستطع أحد فهم كلام الهدهد إلا سليمان (الرازي). وهذا يعني أن هذا الطير كان أكثر ذكاءً من جميع الأمراء والوزراء والعلماء والحكماء الذين كانوا في بلاط سليمان، إذ كان يفهم كلامهم ولكنهم كانوا لا يفهمون كلامه، وكان هناك شخص واحد يفهم كلامه وهو سليمان، وكأن سليمان وحده كان يساوي طير الهدهد هذا عقلاً وذكاءً. إنها فكرة لا يرضى بها أي إنسان عاقل، لأن التسليم بها يعني أن الطيور أفضل من الإنسان فلا يجوز ذبحها، بل يجب ذبح الإنسان مكانها لأنه أقل منها عقلاً – والعياذ بالله. فثبت أن هذه فكرة فوضوية لا يمكن أن يقبلها كل ذي عقل سليم.

الحق أن قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ هو من قبيل الاستعارة والمجاز كما بينتُ من قبل، ولكن هؤلاء القوم لم يفهموه فوقعوا في نقاش لا طائل وراءه. الواقع أن الطير في العربية هو كل ما يطير، ويُطلق استعارةً على عباد الله المختارين المقربين الذين يحلّقون عاليًا في أجواء السماء الروحانية. وهناك إلهام باللغة الأردية تلقاه سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يسلط الضوء على معنى الطير وهو:

"هزاروں آدمی تیرے پروں کے نیچے ہیں"

(تذكرة (أردو) ص ٧٠٣، تاريخ الإلهام: ٩ مارس ١٩٠٧)

أي أن آلاف الناس تحت أجنحتك.

ومن البديهي أن الأجنحة تكون للطيور فقط، والطيور هي التي تجلس تحت أجنحة الطير. إذًا، فإن الله تعالى قد سمى المسيح الموعود عليه السلام في هذا الوحي طيرًا وأخبره أن الذين يستفيدون من صحبته هم أيضًا طيور العالم الروحاني. فهذا الوحي قد شرح هذه الآية القرآنية وبين أن الطير لا يعني هنا طيورًا مادية، بل يعني عباد الله الذين يطيرون إليه سبحانه وتعالى. وسبب إطلاق ﴿الطير﴾ عليهم استعارة هو أن الطيور تطير في جو السماء، والعلوم الروحانية أيضًا تنـزل من السماء، ومن الواضح أن الشيء الذي ينـزل من فوق سيتلقاه أوّلاً مَن يطير إلى فوق؛ فسُمي عباد الله الذين يطيرون في أجواء العالم الروحاني ﴿طيرًا﴾ لأنهم يتلقون علوم السماء وأسرار الغيب النازلة من عند الله سبحانه وتعالى عبر الوحي والرؤى والكشوف، وهم الذين يُنعم الله سبحانه وتعالى عليهم بفيوضه قبل غيرهم، ثم يتمتع بها الذين هم في صحبتهم.. كُلٌّ بقدر إخلاصه ودرجته.

إذًا، فالمراد من قول سليمان عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أنه قد عُلِّمَ اللغة التي يُعلّمها الذين يطيرون في سماء الروحانية عاليًا، أي أنه قد أُعطي المعارف والحقائق التي تُعطى للأنبياء.

وقد أكد القرآن الكريم هذا الأمر لأن اليهود والنصارى لا يعتبرون سليمان الَيْلاً نبيًا وإنما يعدّونه مَلكًا دنيويًا فقط، ومن أجل ذلك تجد الكتاب المقدس لا يذكره أبدًا كنبي بل يعتبره أحد الفلاسفة والعلماء فحسب، حيث ورد فيها:

"وأعطى الله سليمانَ حكمةً وفهمًا كثيرًا جدًا ورحبةَ قلبٍ كالرمل الذي على شاطئ البحر. وفاقت حكمةُ سليمان حكمةَ جميع بني المشرق وكلَّ حكمةِ مصر." (الملوك الأول ٤: ٢٩-٣٠)

وكذلك ورد فيها عن سليمان الَيْلاً:

"وتكلَّمَ بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفًا وخمسًا. وتكلَّمَ عن الأشجار من الأَرْز الذي في لبنان إلى الزُوْفَا النابت في الحائط. وتكلّمَ عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمةَ سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته." (المرجع السابق: ٣٢-٣٤)

وليس هذا فحسب بل إن الكتاب المقدس يتهم سليمان الَيْلاً فيقول:

"وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراءَ آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه." (الملوك الأول ١١: ٤)

إذًا، فإن الله تعالى قد فنّد بهذه الآية القرآنية موقفَ اليهود والنصارى من سليمان الَيْلاً، وبيّن أنه كان نبيًا وأن الله تعالى قد أعطاه نفس العلوم والمعارف التي قد أعطاها لعباده المختارين الذين يطيرون إليه ويتبوأون من قربه درجة عالية.

ثم يقول سليمان الَيْلاً: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾. واعلم أن هذا لا يعني أنه أُوتي كل شيء في العالم، بل المراد أن الله أعطاه كل ما كان بحاجة إليه؛ ذلك أن القرآن الكريم قد نقل في هذه السورة قول الهدهد عن ملكة "سبأ" أيضًا: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الآية:٢٤).. مع أنها لم تكن تحكم إلا على منطقة صغيرة جدًا. فلو كان المراد من قول سليمان أنه قد أُعطي كل شيء في العالم لكان معنى ذلك أنه أُعطي ملك ملكة "سبأ" وعرشها أيضًا، ولكان المراد من قول الهدهد أن ملكة "سبأ" كانت تحكم على سليمان وتملك جنوده أيضًا؛ مع أن كلا الأمرين باطل بالبداهة.

الحق أن كلمة ﴿كل﴾ في العربية لا تعني بالضرورة جميع أفراد جنس ما، بل يُراد بها فقط كل ما هو ضروري. فمثلاً يقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٤٥).. أي أن الذين خلوا من قبلكم لما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب الرقي بكل أنواعها، ثم أنـــزلنا عليهم العذاب. وهنا أيضًا لا يُراد من لفظ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أهم أُعطوا نعم الدنيا كلها، بل المراد أهم أُعطوا نصيبًا من النعم العظيمة المتوافرة في عصرهم وبلادهم.

كذلك يقول الله تعالى عن أهل مكة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾(القصص:٥٨). وليس المراد من كلمة ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثمرات العالم كلها، بل المراد كثيرًا من الثمرات التي هي ضرورية لأهل مكة.

ثم يقول الله تعالى للنحل: ﴿كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾(النحل:٧٠)، مع أنها لا تأكل من كافة ثمرات العالم، بل من بعضها فقط.

إذًا، فليس المراد من قول سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنه أُعطي كل شيء في الدنيا، بل أُعطي كل ما كان بحاجة إليه، أي أن الله تعالى سدّ له عليه السلام كل حاجة كما هيأ لملكة سبأ كل ما كانت بحاجة إليه في زمنها، ولذلك يقول سليمان عليه السلام بعد هذه الدعوى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.. أي أن حاجات الإنسان لا تُسد إلا بفضل خاص من عند الله تعالى.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

يُوزَعون: وزَعه: كَفَّه ومنَعه وحبَسه. ووزَع الجيشَ: حبَس أوّلَهم على آخرهم، ويُقال: رأيتُه يزَعُ الجيشَ: يرتّبهم ويسوّيهم ويصُفّهم للحرب. (الأقرب)

التفسير: يبدو من هذه الآية أن سليمان ﷺ كان يتأهب عندئذ لمحاربة بعض البلاد، فجُمع له جنوده كلهم بمن فيهم جند الجن وجند الإنس وجند الطيور.

إن المفسرين بمجرد أن يقرأوا لفظ "الجن" هنا يظنون أن الجن كائنات غير مرئية كانت تحت إمرة سليمان ﷺ. مع أنهم لو تدبروا القرآن الكريم لم يلجأوا إلى هذا التأويل الذي لا طائل منه.

ولفهم حقيقة الجن علينا أن نرى أوّلاً وقبل كل شيء ما إذا كان القرآن يذكر أن الجن كانوا يحضرون إلى سليمان فقط، أم أنه ذكر أنهم حضروا إلى غيره من الأنبياء الآخرين أيضًا. وعندما نفحص القرآن نقرأ فيه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(الأحقاف:٣٠-٣٢).. أي اذكُرْ، يا محمد، حين أتيناك بنفرٍ من الجن راغبين في سماع القرآن الكريم، فلما حضروا مجلسك قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمع صوته جيدًا. فلما انتهت تلاوة القرآن الكريم رجعوا إلى قومهم منذرين وقالوا: يا قومنا إنّا سمعنا تلاوة كتاب أُنــزل من بعد موسى، وهو يصدق كل الصحف السابقة له، ويدعو إلى الحق ويهدي إلى طريق مستقيم. يا قومَنا، لَبُّوا نداء منادي الله تعالى وآمِنوا به، يغفر لكم الله ذنوبكم وينجكم من عذاب أليم.

لقد ثبت من هنا أن الجن قد آمنوا بما نــزل على موسى ﷺ من التوراة وما نــزل على النبي ﷺ. وعليه فلم يكن سليمان ﷺ هو النبي الوحيد الذي آمن به الجن، بل قد آمنوا بموسى ﷺ وآمنوا بالنبي ﷺ بحسب القرآن الكريم. ولكن المؤسف أن المفسرين يذكرون قصصًا غريبة عن الجن الذين كانوا تحت قبضة سليمان ﷺ. فيقولون مثلاً أنه كان يجلس على بساط، فكان الجن يمسكون بأطرافه ويطيرون به إلى السماوات. أما الجن الذين آمنوا بالنبي ﷺ في زمنه فلا

يذكر المفسرون – ولو برواية ضعيفة جدًا – أنهم قدموا مثل هذه المساعدة له ﷺ أيضًا، مع أن النبي ﷺ وأصحابه قد تكبدوا عناء السفر مرارًا إذ لم يجدوا ما يركبون، ففي مرات كثيرة أتوه يبكون ويسألونه أن يعطيهم ما يركبونه ليخرجوا معه، ولكنه لم يجد لهم ما يركبون. فخرجوا معه ﷺ مرات كثيرة حُفاةً في أسفار طويلة شاقة (التوبة:٩٢، والبخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع)، ولكن هؤلاء الجن لم تلن قلوبهم القاسية رغم رؤية ما تعرض له النبي ﷺ وصحابته من آلام. كانوا يحملون سليمان عليه السلام وجنوده من مكان إلى مكان، ولكن الغريب أنهم لم يحملوا ولو عشرين من فقراء المهاجرين إلى ساحة القتال!

يقول البعض أن الجن كائنات من غير جنس الإنسان، وقد آمن هؤلاء بنبينا وبموسى وسليمان – عليهم السلام (الدر المنثور). ولكن علينا أن نرى ما إذا كان القرآن يصدق هذا المعنى أم لا؟ إذا كان الكلام عن الجن استعارة فلا بد أن القرآن الكريم قد بيّن مراده منها، وإذا لم نعتبر هذا الكلام من قبيل الاستعارة وقع التناقض بين آيتين من القرآن الكريم وحصل فيه الاختلاف. فعلينا أن نرى ما إذا كان اعتبار هذا الكلام استعارة يؤدي إلى الاختلاف في القرآن الكريم أم العكس هو الذي يؤدي إلى الاختلاف فيه؟

وليكن معلومًا أن الذين لا يعتبرون هذه الآية استعارة ويقولون أن الجن كائنات غير مرئية مثل الشيطان، وكما أن الشيطان كائن منفصل عن الإنس فالجن أيضًا كائنات غير الإنس (الرازي).

والجواب أن هناك إجماعًا لدى المفسرين على أن الشياطين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ هم اليهود ورؤساؤهم (القرطبي)؛ فإذا كان الإنس يمكن أن يسمَّوا شياطين فلماذا لا يسمَّون جنًّا أيضًا؟

كذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(الأنعام:١١٣).. أي قد جعلنا لكل نبي أعداء من شياطين الإنس ومن شياطين الجن الذين يحرّضون الناس على النبي وجماعته. لقد صرح الله هنا أن الشياطين يكونون من الناس أيضًا. فإذا أمكن أن

يكون هناك شياطين الإنس فكيف لا يكون هناك جنّ الإنس؟ بمعنى أنه كما يمكن أن يولد من الناس من يسمون شياطين فكيف لا يمكن أن لا يكون من الناس من يسمّون جنًّا؟

لقد ثبت مما سبق بيانه أن الجن لم يكونوا في قبضة سليمان فحسب بل لقد آمنوا بموسى وبنبيّنا ﷺ أيضًا.

والآن نرى إلى من بُعث النبي ﷺ؟

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾(النساء:٨٠). فلو كانت كائنات خفية تسمى جنًّا قد آمنت بالنبي ﷺ فكان من المفروض أن يُقال: "وأرسلناك للناس والجن رسولاً" بدلاً من أن يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾. وإذا كان النبي ﷺ مبعوثًا إلى الناس فثبت أن الجن الذين قِيل هنا إنهم آمنوا به ﷺ إنما كانوا من جن الإنس، وليس كائنات غريبة خفية يتصورها الناس.

كذلك ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله ؓ أن النبي ﷺ قال: أُعطيتُ خمسَ خصال لم يُعْطَهَا نبي قبلي، وإحداهن: "كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة." (البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جُعلتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا)

لقد صرح النبي ﷺ هنا بشكل حاسم أنه لم يوجد بين الأنبياء السابقين نبي واحد بُعث إلى أحد سوى قومه. ولكن هؤلاء المفسرين يقولون أن سليمان ؑ قد بُعث إلى الجن والطيور والنمل أيضًا. ولو كان هذا صحيحًا لصار سليمان أفضل من النبي ﷺ - والعياذ بالله - إذ كان مبعوثًا إلى الإنس وغيرهم أيضًا، بينما كان نبينا ﷺ مبعوثًا إلى الإنس فقط.

ثم إذا كان هؤلاء الجن من غير الإنس فكيف قال الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾(الأنعام:١٢٩).

لقد تعبنا بحثًا عن هؤلاء الجن الذين يتحدث عنهم الناس ولا نجدهم، ومع ذلك يعلن القرآن الكريم هنا أن الجن قد جعلوا معظم الناس في قبضتهم. الواقع أن المؤمنين بمثل هؤلاء الجن يرهقون أنفسهم بكثرة الاعتكافات والتأملات والأوراد،

فيصابون في عقلهم حتى يتخيلون أصواتًا، فيقولون: ها قد جاءنا الجن. والواقع أنه لا يأتيهم أي من الجن، وإنما يفقدون حواسهم ويصابون بنوع من الجنون. أما الإنسان الذي يكون عقله متوازنًا فلا يأتيه الجن أبدًا.

على أية حال، سيقول الله تعالى للجن يوم الحشر أنهم جعلوا كثيرًا من الناس تحت قبضتهم واستغلوهم كثيرًا، ومن ناحية أخرى نقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾(الأنعام:١٢٩).. أي سيقول أصدقاؤهم من الناس لربهم ربنا انتفعَ بعضنا ببعض. ولكن الأمر الواقع أنك إذا سألتَ أهل قريتك ما إذا كان خمسون بالمئة منهم جلبوا أي نفع من الجن، فلن تجد ولا واحدًا منهم يقول إنه قد انتفع من الجن وأنه على صلة بهم. فثبت أنه ليس المراد من الجن هنا أي كائنات غريبة دون الإنسان، بل المراد من الجن بعض من الناس أنفسهم. وبالفعل ترى بين جنّ الإنس صداقات كثيرة.

ثم هناك دليل أكبر مما سبق وهو قول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾(الأنعام:١٣١). فترى أن الله تعالى يقول من جهة أن بعض الجن قد آمنوا بمحمد ﷺ، ويعلن هنا من جهة أخرى أن رسولنا هذا أيضًا منهم، فثبت من ذلك جليًا أن أولئك الجن كانوا من الناس، ولم يكونوا كائنات غريبة غير إنسانية.

وليس هذا فحسب، بل يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾. مما يعني أن موسى وسليمان ونبينا - عليهم السلام - كانوا يحذّرون الجن أيضًا، ويذكّروهم بلقاء الله ويوم الآخرة. فثبت من ذلك بوضوح أن هؤلاء الجن كانوا جن الإنس لا كائنات غريبة، فكما يكون ثمة شياطين الإنس كذلك يكون هناك جن الإنس.

واسمَعْ الآن دليلاً آخر واضحًا جدًا، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾(الفتح:٩-١٠).. أي لقد أرسلنا هذا الرسول إليكم لتؤمنوا به وتنصروه وتعزّروه. فما دام الجن قد آمنوا بالرسول ﷺ فهل بوسع أحد من الشيوخ أن يُثبِت لنا أن هؤلاء الجن المؤمنين قد

نصروا النبي ﷺ ولو في موطن واحد. إن الجن، بحسب زعمهم، يجلبون لشيخ بسيط منهم عناقيد العنب، ولكنهم لم يُحضروا للنبي ﷺ كسرة خبز، مع أنه ﷺ كان يبيت جائعًا في أحيان كثيرة. فذات مرة وجد الصحابة أثر الضعف على وجه نبينا ﷺ فعلموا أنه جائع جدًا، فذهب أحدهم وذبح ماعزًا وأطعمه وأصحابه (البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق)، ولكن هؤلاء الجن لم ينصروه في هذه الشدائد والمحن ولو مرة واحدة. وعندي أن هؤلاء الجن كانوا عديمي الحياء جدًا، إذ يُحضرون للمشايخ أطيب الفواكه من تفاح وعنب وما إلى ذلك، ولم يحضروا للنبي ﷺ الذي آمنوا به حتى خبز شعير! فكيف عُدّوا من المؤمنين به يا ترى؟

فمن الخطأ تمامًا الظن أن هؤلاء الجن كائنات غير مرئية غريبة عن الإنسان. كلا بل إن الجن الذين آمنوا بالنبي ﷺ كانوا أيضًا أُناسًا، وقد نصروه كما نصره غيرهم من الناس. أما إذا اعتبرناهم كائنات غير إنسانية فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا والذي يجب أن يجيب عليه القائلون بالجن هو: لماذا لم ينصر هؤلاء الجن رسولنا ﷺ رغم إيمانهم به، ورغم أن الله تعالى أمر بنصرته ﷺ؟

ثم هناك دليل أقوى مما سبق، وهو قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٣).. أي لقد عرضنا أمانة الشريعة والوحي على مخلوقات السماء وقلنا لهم: هل فيكم من يؤمن ويعمل به؟ فقالت مخلوقات السماء كلها بصوت واحد: لا نستطيع حملها. ثم عرضناها على مخلوقات الأرض وقلنا: تعالوا واحملوا هذا العبء ولكنهم أيضًا رفضوا وقالوا: لا نستطيع حمله. فعرضنا هذه الأمانة على الجبال فرفضتها وخافت من حملها - مع أن الشائع أن الجن يسكنون في الجبال - ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾.. أي أن الإنسان تقدم وقال: أعطني يا رب أمانة شريعتك، فأنا أحملها وأعمل بها. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾.. أي أن الإنسان كان شديد الظلم لنفسه، إذ لم يُبال في نشوة حبنا وعشقنا بثقل هذه الأمانة، بل حملها بشوق ولهفة غير مكترث للعواقب.

فترى هنا أن الله تعالى يقول هنا صراحة أن الإنسان وحده حمَل الشريعة، وليس هناك مِن أحد سواه مكلَّف بالشرع. وما دام الإنسان وحده قد حُمّل عبْء الشرع، فكيف تقدم الجن - وهم كائنات غير إنسانية حسب زعمهم - فآمنوا بالرسول ﷺ والقرآن الكريم؟ لو سلّمنا بكون الجن كائنات غير إنسانية لأصبح كلام الله لغوًا باطلاً، لأنه تعالى يصرح أن جميع المخلوقات رفضت العمل بالشرع ما عدا الإنسان. وحيث إن القرآن الكريم يعلن أن الجن آمنوا بالرسول ﷺ فتبين أن هؤلاء الجن كانوا أناسًا، و لم يكونوا كائنات غير إنسانية.

فالمراد من الجن هنا أيضًا جن الإنس وليس كائنات سوى الإنسان. كما أنني لا أؤمن بالجن الذين يأتون الناس ويتلبسونهم.

أتذكر أن أحد الإخوة كتَب مرة إلى المسيح الموعود عليه السلام بأن الجن يأتون إلى أخته ويتلبسونها، وأنهم مستعدّون للإيمان بحضرته عليه السلام. فكتب له المسيح الموعود عليه السلام في الجواب أن يُبلغ رسالته لهؤلاء الجن كالآتي: ما الفائدة من مضايقة امرأة مسكينة؟ إذا كانوا يريدون مضايقة أحد فليذهبوا بالحريّ إلى الشيخ "محمد حسين البطالوي" أو الشيخ "ثناء الله الأمرتسري"[•] ويضايقوهما.

إذًا، فليس هناك شيء من قبيل أولئك الجن الذين يؤمن بهم الناس عادة. لا شك أن بعض الناس من ذوي الثقافة الإنجليزية لا يؤمنون بالجن، ولكن المؤمن لا ينظر إلى ما يمليه عليه العقل بل ينظر إلى ما يقوله القرآن الكريم. إذا كان القرآن يقول بوجود الجن فنقول: آمنا وصدقنا، وإذا ثبت من القرآن الكريم أنه ليس ثمة مخلوق اسمه الجن سوى الناس فلا بد أن نؤمن بما يقول القرآن الكريم.

الأمر الواقع أن فئة من الناس يكونون في غاية الإباء والتمرد فلا ينقادون لأحد، ولكنهم عندما يأتون الأنبياءَ يتغير حالهم رأسًا على عقب فجأة. وخير مثال على ذلك هو عمر رضي الله عنه، فكان في البداية لا يتحمل سماع كلمة عن الإسلام حتى

[•] كان هذان الشيخان من أشد الناس معارضةً للمسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

استشاط غضبًا ذات مرة، فامتشق حسامه وخرج بنية قتل النبي ﷺ. ولكنه لما أتاه أخذ يرتعد هيبةً له ﷺ. (السيرة الحلبية: المجلد الثاني، باب الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة)

فثبت من هنا أن هناك أناسًا من ذوي الطبائع النارية، ولكنهم عندما يأتون الأنبياءَ تخمد نارهم وتهدأ حدّتهم، وهؤلاء أيضًا يسمَّون في اللغة العربية جنًّا.

كما يراد بالجن عِليةُ القوم الذين يقيمون في القصور وراء حراسة شديدة فلا يصل أحد إلى أبوابهم بسهولة، فقد ورد في القواميس: جِنُّ الناس: معظمهم.

وكان من عادة الملوك العظام في القديم أن يقوموا بتعبئة أناس من قبائل عريقة ليكونوا من حرسهم الخاص ويحاربوا معهم في مواطن صعبة. فمثلاً كان عند الملك الألماني "ولهيلم" فرقة من الحرس الخاص. وكانت عند نابليون أيضًا فرقة خاصة كهذه. وكان عند الملك المغولي بالهند "أكبر" كتيبة خاصة من سادات "الباهرة"، وعندما أغار "أكبر" على قلعة "شتور" لم يستطع فتحها في البداية، فأمر هذه الكتيبة بشن الهجوم، فظلوا يُقطَعون بسيوف الأعداء واحدًا تلو الآخر إلى أن تمكنوا من إحداث ثغرة في جدار القلعة. وكان عند الملك "جنكيز خان" كتيبة خاصة قوامها رجال من قبيلة معينة (تارتاريوں كى يلغار (أردو) ص ٧٠، عام ١٢٠٦م)، فكان يكرمهم إكرامًا خاصًا وكان يخصّ قادتها بمكان الصدارة في بلاطه. وهناك قصة غريبة عن الفرقة الخاصة التي كانت تقوم بحراسة نابليون، وهي أن نابليون عندما لقي الهزيمة في موقعة "ووترلو" لم تنسحب كتيبته هذه عن ساحة القتال. كانت جيوش اللورد "ويلينغتون" يمطرونهم بالقنابل، ولكنهم كانوا يموتون الواحد تلو الآخر بدون أن يتركوا مكانهم. وكان نابليون قد بعث أحد قادته في مهمة، فمرّ عند عودته بقائد تلك الكتيبة واسمه الجنرال "ني"، وقال له: لقد نفذ عتادنا والعدو يتقدم، وأنت لا تزال واقفًا هنا، تعال ننسحب لننقذ الملك ونجمع شملنا لنعيد الكَرّة على الأعداء ثانية. فنظر إليه الجنرال "نِي" مستغربًا وقال بمنتهى البساطة: ولكن ماذا أفعل، فإن نابليون لم يعلّمني الانسحاب!

إذًا، فكلمة الجن في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قد أُطلقت على فرقة خاصة لسليمان الْكَيْلاً، إذ كان رجالها

من أسر عريقة، وكانوا معتادين على الإقامة في القصور وراء حراسة مشددة، وبالتالي استحقوا أن يُسمَّوا جنًّا أي الذين لا يراهم الناس عادة كونهم يعيشون بعيدًا عن أنظار القوم. فقد ورد في القاموس أن الجن يُطلق على "كل ما استتر عن الحواس" (الأقرب).. أي هم القوم الذين لا تسمع آذان الناس أصواتهم ولا ترى عيونهم أشخاصهم وكأنهم يعيشون منعزلين عن العالم، وبتعبير آخر، هم عِلية القوم وأمراؤهم؛ وقد ورد هذا المعنى أيضًا في القواميس بكل وضوح.

إذًا، كان قوام جنود سليمان عليه السلام فرقًا ثلاثًا: فرقة الحرس الخاص من عِلية القوم، وفرقة عامة الناس، وفرقة الرجال الروحانيين. وكان عليه السلام يصفّ كل فرقة على حدة، كما يقال أن الملك "تيمورلنك" كان يأمر كل فرقة من جنوده أن تصطف منفصلة عن غيرها، وكان يجعل فرقة المشايخ في مؤخرة الجيش وكان يقول: إن هؤلاء سيهربون قبل غيرهم من ساحة القتال فالأفضل أن يكونوا في مؤخرة الجيش (أمير تيمور (أردو) تعليقات: ص ٣٤٠). وإننا لا نستطيع أن نقول أن فرقة العلماء في جيش سليمان عليه السلام كانوا كمثل فرقة المشايخ في جيش تيمورلنك، إلا أننا نستطيع أن نقول بكل جزم إن العلماء في عهد الرسول ﷺ لم يكونوا هكذا. فقد روى علي رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كان أشجع الصحابة، وعندما أُعدّتْ عريشة للنبي ﷺ يوم بدر وتساءل القوم: من الذي يقوم على حراسة النبي ﷺ في هذا الوقت الحرج، امتشق أبو بكر رضي الله عنه سيفه وقال: أنا سأقوم بهذا الواجب بإذن الله. (تاريخ الخلفاء للسيوطي، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فصل في شجاعته)

كذلك ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال مرة: "أنا مدينة العِلم وعليٌّ بابُها". (الجامع الصغير، المجلد الثاني ص ١٦١، رقم الحديث ٢٧٠٥)

فالنبي ﷺ قد عدَّ عليًا رضي الله عنه من العلماء، لكن في غزوة خيبر عندما كان المسلمون في موقف حرج جدًا ناول النبي ﷺ عليًا الراية (الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب علي رضي الله عنه)، مما يدل أن العلماء في عهده ﷺ لم يكونوا جبناء بل كانوا أشجع الشجعان. بيد أن الشعراء يكونون ضعيفي القلب، حيث ورد عن حسان بن ثابت أنه كان ضعيف القلب. (البداية والنهاية، غزوة الخندق)

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ
ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ١٩ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ
أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ
صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٠

شرح الكلمات:

لا يَحطمنّكم: حطَمه: كسَره. (الأقرب)

أَوزِعْني: أوزَعَ الله فلانًا: أَلْهمَه الشكرَ. (المفردات)

التفسير: إن المفسرين - كما بالغوا في تفسيرهم عن الجن والطير- قد بالغوا أيضًا حول وادي النمل، وقالوا أنه كان واديًا للنمل - هذه الحشرات المعروفة - وأن سليمان لما خرج بجنوده مر بهذا الوادي، فتكلمت نملة، ففهم سليمان قولها حيث كان يعلم منطق الطير. (تفسير حسيني (أردو))

ولكن كيف علِم المفسرين أن النمل من جنس الطير يا ترى؟ يقول الله تعالى إنه علّم سليمان منطق الطير، ولكنهم يقولون أنه عُلّم منطق النمل أيضًا!

ويقولون أن المطر انقطع مرة في عهد سليمان عليه السلام فقال للناس تعالوا نخرج من البلد ونصلّ صلاة الاستسقاء. فلما خرج بهم رأى نملةً تدعو الله تعالى رافعةً رجليها ووجهها إلى السماء وتقول: رب، نحن أيضًا مِن خلقك، فلا تحرمنا من المطر! فلما سمعها سليمان قال للناس: تعالوا نرجع، لا حاجة الآن لصلاة الاستسقاء لأن دعاء النملة يكفينا، ولسوف ينـــزل المطر بدعائها! (ابن كثير)

ولم يكتف المفسرون بهذا القدر من الغوص في التفاصيل، بل قالوا أن النمل تكون شعوبًا وقبائل كما عند الناس قبائل من مغول وراجبوت وأفغان وغيرها.

وقد ذكروا لفائدتنا أن اسم إحدى قبائلها "بنو الشيصان"، وأن النملة التي تكلمت كانت تنتمي إلى هذه القبيلة. وقد تمكن المفسرون بعد بحث مضن من معرفة اسم تلك النملة أيضًا، وإن لم يتفقوا على اسم واحد لها للأسف. فمن أسمائها التي ذكروها: منذرة، وطافية، ولافية، وخومي. ثم علموا أنها كانت عرجاء. كما ذكروا قامتها أيضًا فقال بعضهم أنها كانت بقدر الديك، وقال بعضهم أنها كانت بقدر الضأن، وبعضهم قال أنها كانت بقدر الذئب. كما اكتشفوا أنه كانت مع هذه النملة أربعون ألف نملة من النقباء، ومع كل نقيب أربعون ألف نملة من المحاربين. (ابن كثير وتفسير حسيني)

والحق أن النملة هنا لا تعني الحشرة المعروفة، وأول دليل على ذلك هو أن الله تعالى يخبر هنا أن سليمان عليه السلام عُلِّم منطق الطير، بينما يقدم المفسرون أول دليل على معرفته بمنطق الطير أنه فهم كلام النملة مع صاحباتها! مع أن المفروض أن يقدموا على صدق هذه الدعوى مثال طير لا نملة، إذ لو كان المراد من النملة هنا الحشرة المعروفة أصبح الدليل غير معقول تمامًا، لأن القرآن الكريم يقول إن سليمان عُلّم منطق الطير وكان يفهم لغتها، ولكنهم يقولون أن سليمان فهم كلام النملة مع صاحباتها. لذا فينبغي أن نفهم المراد من النملة هنا أوّلاً.

والأمر الثاني الذي يستلفت النظر هنا هو قوله تعالى: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾. وإن المفسرين عادةً يفسرون قول النملة ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بأن لا يدوسَنَّكم سليمان وجنوده تحت أقدامهم. وتفسير الحطم بهذا المعنى ليس صحيحًا، بل يعني الحطم الكسر والهجوم على أحد من شدة الغضب، فقد سُمّيتْ نار جهنم ﴿الْحُطَمَة﴾(الهُمَزة:٥) لأنها تحرق، ولا يقول أحد أن لجهنم أرجلاً تدوس بها الناس؛ كما يُسمى القحط حاطومًا إذ يكسر قوة أهل الأرض (الأقرب). إذًا، فالمراد من قوله تعالى: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.. لا يكسرنّكم سليمان وجنوده، أو لا يهاجمنّكم غاضبين ويدمرونكم.

ثم هناك سؤال يفرض نفسه هنا وهو: كيف يُتوقع من نبي عظيم كسليمان عليه السلام الذي كان يملك جنودًا من الجن والإنس والطير أن يستشيط غضبًا على النمل

ويحاول الهجوم على تلك الحشرات المسكينة؟ لو أخذنا بالمعنى الحقيقي للفظ "الحطم" لكان معنى الآية أن نملة قالت لصاحباتها: ادخلْنَ مساكنكن مخافة أن يأتي سليمان وجنوده بالمعاول والفؤوس ويحفروا مساكننا ويخرجوا منها الغلال وبالتالي يكسروا قوتنا! فهل من عاقل يرضى بهذا المعنى؟

والدليل الثالث الذي هو في منتهى الوضوح هو أن الصيغ التي استعملها الله تعالى هنا هي كلها لذوي العقول، مثل ﴿ادْخُلُوا﴾ و﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، مع أنه لو كان الحديث عن حشرات النمل لقيل "ادْخُلْنَ" و "لا يَحطِمنّكُنَّ". فثبت أن الكلام هنا ليس عن حشرات النمل وإنما عن البشر.

ثم إن قول النملة: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أيضًا يبين أنها لم تكن حشرات النمل لأنها يمكن أن تُداس تحت قدم نبي دَعْك عن أقدام جنود. لو كانت النملة هنا بمعنى تلك الحشرة المعروفة لأصبح قول الله ﷻ: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لغوًا وعبثًا، فمتى ورد في أي كتاب سماوي - سواء في الإسلام أو قبله- أن الأنبياء كانوا يمشون ناظرين إلى الأرض كيلا تداس النمل تحت أقدامهم؟

الحق أن وادي النمل ليس واديًا للحشرة المعروفة، بل هو واد كان يُقيم فيه البشر، حيث ورد في القاموس الشهير "تاج العروس" أن واد النمل يقع بين جِبْرين وعسقلان. أما عسقلان فهي مدينة كبيرة ساحلية تقع في فلسطين على مسافة اثني عشر ميلاً بين ميناء غزة في المنطقة المجاورة لسيناء وجِبْرين. أما "جِبْرين" فهي مدينة شمالية في ولاية دمشق. (معجم البلدان لياقوت الحموي، باب الباء والياء وما يليه)

إذًا، فوادي النمل واد حقيقي يقع إلى جنوب من دمشق بحوالي مئة ميل على البحر المتوسط إزاء بيت المقدس أو قريبًا من ذلك، على الطريق المؤدي من دمشق إلى الحجاز. وكانت كثير من قبائل مدين وغيرها من القبائل العربية مقيمة بهذا الوادي إلى زمن سليمان عليه السلام. (انظر خريطة فلسطين والشام في العهد القديم والجديد في كتاب Nilson Encyclopaedia المجلد السابع عشر، تحت: Palestine)

أما لفظ النملة فقد ورد عنه: "والأَبْرَقةُ مِن مياه نَمْلة." (القاموس المحيط: كلمة البرق)

إذًا، فقد وجدنا بمساعدة القاموس وكتب الجغرافيا قومًا باسم نملة وواديًا باسم النمل، كما علمنا أن هذه المنطقة كانت في الشام قريبًا من مملكة سليمان .

والغريب أن مثل هذه الأسماء كانت متداولة بكثرة في الزمن القديم. ففي جنوب أمريكا قبائل أسماؤها "الذئب" و"الحية" و"العقرب" و"أم الأربعين" وغيرها. بل يوجد في بلادنا أيضًا قوم اسمهم "كادها" أي النمل، وكان هناك في لاهور شخص شهير اسمه نور الدين "كادها" أي النملة. وهناك قوم باسم "كيري" أي الديدان، وقوم آخرون باسم "مكوري" أي الحشرات. وفي كشمير قبيلة اسمها "هابت" أي الدب (تواريخ أقوام كشمير (أردو) ص ٣٠٠). وهذه هي حقيقة نمل سليمان أيضًا، فإنه لما خرج للهجوم على ملكة "سبأ" باليمن مرَّ على واد لقبيلة اسمها النمل، ولكن المفسرين ظنوا أنه مَرَّ بواد لحشرات النمل. ثم قال القرآن إن سليمان لما بلغ هذا الوادي قالت "نملة" أي ملكةُ قبيلة النمل: أيها الناس ادخلوا في مساكنكم مخافة أن يظن سليمان وجنوده أنكم تريدون حربهم فيحطموكم. فأيقن المفسرون من هذا أنه كلام النملة الحشرة، مع أن تعبير "الحطم" تعبير واضح حيث يراد به إغارة قوم على قوم وإلحاق هزيمة نكراء بهم، ولكن المفسرين لم ينتبهوا لذلك. ولو أنهم راجعوا القواميس لوجدوا أن الحطم يعني الكسر. وعليه فالمراد من هذه الفقرة القرآنية أن ملكة قوم النمل قالت لهم: ادخلوا مساكنكم كي لا يكسر سليمان وجنوده قوتكم وشوكتكم.

ثم يقول الله : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾، وهنا أيضًا قد جاء المفسرون بالعجب العُجاب، فمع أن الله يعلن أنه علّم سليمان منطق الطير، إلا أن المفسرين يقولون أنه كان يعلم منطق النمل أيضًا! حيث فهم قول ملكة النمل فورًا، فتبسم ضاحكًا بأن حشرات النمل أيضًا تعلم بأني إنسان عادل ولا يمكن أن أدوسها تحت قدمي إلا خطأً ولكن لن أدوسها عمدًا (الطبرسي). والحق أن كل إنسان شريف - دعك عن نبي - لا يدوس حشرات النمل عمدًا، فقد رأينا كثيرًا من الشرفاء أنهم يمشون على الأرض بحذر عندما تخرج النمل بكثرة في موسم الأمطار كيلا يدوسوها. فثبت أن هذا المعنى باطل.

كل ما في الأمر هو أن سليمان عليه السلام لما علِم أن ملكة قوم النمل قد أمرتهم بدخول بيوتهم وعدم مقاومة جنوده بأي طريق - مخافة أن يثوروا ويهجموا عليهم دون أن يدروا أنها قد أمرتهم بالاستسلام والانقياد - تبسّمَ ضاحكًا بأن الله سبحانه وتعالى قد أذاع صيته الحسن، فالناس يعرفون أنه ليس من الملوك الظالمين بل إنه يعامل أضعف الشعوب أيضًا بالعدل والإنصاف.

الحق أن ملكة النمل قد أمرت قومها بدخول البيوت وإغلاق الأبواب عليهم طبقًا للعادة القديمة خلال الحروب إذ كان المراد منه قبول الهزيمة والاستسلام، فمثلاً قد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا يوم فتح مكة أن من يدخل بيته ويغلق بابه فهو آمن (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للسير إلى مكة وذكر فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان). ووفقًا لهذه العادة قالت ملكة قوم النمل أيضًا بأن يدخلوا مساكنهم ويغلقوا أبوابهم كي يعلم سليمان أنهم لا يريدون حربه، أما إذا بقوا خارج بيوتهم فربما يُغير عليهم. فلما بلغ سليمانَ عليه السلام إعلانُها تبسّمَ ضاحكًا، وشكر الله سبحانه وتعالى بأنه قد أشاع خبر صلاحه وورعه في الأقطار البعيدة، حيث علم هؤلاء القوم أيضًا أن سليمان لا يحارب أحدًا ظلمًا وأنهم إذا أغلقوا أبوابهم فلن يتعرض لهم، مع أن من عادة الشعوب الغازية السلب والنهب أثناء الحرب. فدعا ربه وقال: يا رب إن هذا الصيت الحسن ما هو إلا بفضلك، فوَفِّقْني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل على الدوام أعمالاً صالحة ترضاها.. أي كما قد اعترفتْ ملكة قوم النمل بأن سليمان وجنوده قد يضرون قومها خطأً ولكن لن يضروهم ظلمًا واعتداءً، فوفِّقْني وجنودي في المستقبل أيضًا أن نتحلى بالأخلاق الفاضلة حتى يشهد الناس أن هؤلاء القوم لا يعتدون على أحد عمدًا، وأدخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين.

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢١﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

التفسير: أمر سليمان عليه السلام قادته وجنوده بالمثول أمامه، فلما تفقّدَهم وجد أحد قادة كتيبة العلماء غائبًا وكان اسمه "الهُدهُد". فثار سليمان غضبًا لغياب قائده في ذلك الوقت الحرج الذي كان يتأهب فيه لمحاربة بلد آخر. فظن أن هناك مؤامرة تحاك ضده، فقال: ما لي لا أرى الهدهد أم أنه قد غاب وهرب؟ فإني سأعاقبه عقابًا شديدًا أو سأقتله إلا إذا أتاني بعذر واضح يبرر غيابه.

يظن المفسرون أنه كانت في جيش سليمان عليه السلام كتائب طيور حقيقية، وكان الهدهد – هذا الطير الذي يصيده الأطفال بالنبلة – أحد القادة. وبهذا الجيش القوي خرج سليمان لفتح بلاد اليمن (معالم التنــزيل، والطبري)

فأولاً: كل إنسان عاقل يدرك أن ما يقوله المفسرون لا يدل على كون الهدهد قائدًا، بل يؤكد غباء سليمان – والعياذ بالله – مع أن أنبياء الله تعالى لا يكونون أغبياء. فمن المستحيل أن يخرج إنسان عاقل لفتح بلاد اليمن بجيش من الحمائم والزغاليل والعصافير والهداهد والسمان والحجل. والحق أن التغلب على مثل هذا الجيش لا يتطلب جيشًا بل عند وصول خبره إلى البلدة سيخرج الأطفال بالنبال إلى الشوارع، ويجعلون اليوم يوم عيد لأهلها كلهم إذ يهيئون لهم شواءً لذيذًا من لحوم الطيور. أفستكون هذه حربًا أم مسابقةً لصيد العصافير والطيور؟ بقراءة هذه القصص الخرافية التي ذكرها المفسرون في تفاسيرهم يضطر المرء لتصديق ما قاله تيمورلنك بأن فرقة العلماء ينبغي وضعها في مؤخرة الجيش، إذ يستهينون بالحرب بهذا الشكل المخزي.

والأغرب من ذلك أن سليمان عليه السلام - الذي قالوا عنه أنه لم يرضَ أن يدوس نملة واحدة تحت قدمه عمدًا - يمتلئ غيظًا ليهدّد الهدهد الذي لا عقل له وحجمُه بحجم العصفور: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾. فمن المحال أن يتوقع نبي من الطيور ما يتوقعه المرء من أذكياء الناس. إن القرآن الكريم بين أيدينا، فمتى ورد فيه أن الطيور تبلغ من الذكاء والعقل بحيث إن بعضها إذا ارتكب خطأً فعلى المرء أن يستلّ سيفه ويقول له: سأضرب عنقك أو لتأتيني بعذر مقبول؟ أو هل رأيتَ أحدًا من جيرانك قابضًا على الهدهد وهو يضربه بالعصا ويقول له: لماذا أكلتَ غلالي؟ وإذا رأيت شخصًا كهذا أتعدّه من العقلاء أم من المجانين؟ فثبت أن المفسرين الذين قالوا أن سليمان قال هذا الكلام لطير الهدهد إنما نسبوا الغباء إلى سليمان عليه السلام، إذ يقول هنا صراحة ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، وهذا يعني أن طير الهدهد هذا كان يعرف الأدلة والبراهين مثل سقراط وأبيقراط وأفلاطون، ولذلك توقع منه سليمان أن يقدم أدلته على براءته.

ثانيًا: يخبرنا القرآن الكريم أن سليمان كان يملك جنود الجن والإنس والطيور، ولكن الغريب أنه لا يفكر إلا في الهدهد من بين كل الجيش، فيقول: ما لي لا أرى الهدهد؟ إن الدول في الدنيا لا تقبل عند التعبئة أي إنسان قامته أقل من خمسة أقدام، ولكن سليمان عليه السلام يقوم بتعبئة عجيبة حيث يقبل طير الهدهد في جيوشه! والأغرب من ذلك أنه لم تكن في جيشه أي كتيبة خاصة بالهداهد بل فيه هدهد واحد فقط! فما الحكمة من اصطحابه؟ وما هو العمل الذي سينجزه؟

وثالثًا: يعلن القرآن الكريم أن الهدهد قال كذا وكذا، مع أنه يتحدث هنا عن معرفة سليمان منطق الطير، فكان المفروض أن تُذكر هنا معجزة سليمان عليه السلام، ولكنهم يذكرون هنا معجزة الهدهد التي هي في الحقيقة أكبر من معجزته عليه السلام.

ورابعًا: أن الهدهد ليس من الطيور السريعة الطيران حتى يقال أنه طار كل تلك المسافة الطويلة، بل الحق أنه عادةً يموت في المنطقة التي يولد فيها. بينما يتضح من القرآن أن الهدهد طار من الشام إلى مُلك "سبأ" لأكثر من ثمانمئة ميل دون انقطاع،

ثم عاد إلى سليمان بخبرهم. وهذا يعني أنه كان أسرع من الطائرات، وأن المعجزة هي للهدهد لا لسليمان، مع أن المفسرين يريدون هنا بيان معجزة سليمان عليه السلام.

خامسًا: وقد أرى الهدهد معجزة أخرى حيث كان يعلم من دقائق الشرك والتوحيد ما لا يعلمه اليوم المشايخ أيضًا. فانظر كيف يبين أسرار التوحيد العالي إذ يقول ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾.

ثم إن مشايخ اليوم يرون جيرانهم يأتون أعمالاً وثنية ولا ينهونهم، ولكن انظر إلى غيرة الهدهد الدينية حيث يطير في كل حدب وصوب ليخبر سليمان بما يأتيه الناس من أعمال الشرك وعبادة الأصنام.

سادسًا: ثم إن الهدهد خبير بالأمور السياسية أيضًا حيث يقول لسليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. أي أن عند ملكة "سبأ" كل ما يحتاج إليه الملك. وهذا يعني أن الهدهد قام بفحص خزائنها ومؤسساتها، فلذلك ذكر في تقريره أنها تملك كل ما هو ضروري للحكم.

سابعًا: ثم إن الهدهد يعلم جيدًا الشيطان ومكائده إذ يقول من كان الشيطان وليه نشأت في قلبه أفكار سيئة. بل الحق أن الهدهد يعلم النتائج الوخيمة للأفكار السيئة أيضًا حيث يقول: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.. أي أن الشيطان قد صدّهم وأبعدهم عن سبل قرب الله سبحانه وتعالى من جراء أفكارهم السيئة. إذًا، فإن الهدهد لم يكن مجرد طير بل كان عالمًا كبيرًا. يا ليتنا نجد هدهدًا واحدًا مثله لنطرد جميع المشايخ من وظائفهم ونعينه مفتيًا للبلاد.

ثامنًا: إن الهدهد كان يعلم جيدًا كيف يجب أن يكون عرش الملوك حيث يقول لسليمان عليه السلام: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.. أي أن ملكة سبأ تملك عرشًا عظيمًا ولكنك لا تملك مثله. وكأنه يُغريه بذلك بالهجوم على الملكة.

إن هذه الأمور كلها تدل دلالة واضحة على أن هذا الهدهد لم يكن طيرًا، بل كان إنسانًا. ذلك لأن القرآن يعلن صراحة أن أمانة الشرع لم تحملها الملائكة ولا السماوات ولا الأرض، إنما حملها الإنسان وحده (الأحزاب:٧٣)، وأنه وحده الذي

يعلم أسرار شريعة الله تعالى. إن الملائكة تعلم جانبًا واحدًا من الأشياء وهو جانب الخير، أما الإنسان فيعلم الجانبين، جانب الخير والشر، وينظر إلى الأمور كلها. وما دام هذا الهدهد واقفًا على أسرار الشريعة فثبت أنه كان إنسانًا لا طيرًا، لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ حيث بين تعالى صراحة أن لا أحد من الخلائق يحمل أسرار الشرع سوى الإنسان.

ومن الناس من يقول: إذا كان الهدهد إنسانًا لا طيرًا، فلماذا قال سليمان عليه السلام لأذبحنه؟

فاعلم أن الذبح في العربية يعني القتل والفتك أيضًا (تاج العروس). كما قال الله تعالى في القرآن الكريم عن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾(القصص:٥).. أي أنه كان يقتل أبناء بني إسرائيل. فلو جاز للمفسرين اعتبار الهدهد طيرًا لورود لفظ الذبح في حقه، فلم لا يجوز اعتبار أبناء بني إسرائيل طيورًا لورود الذبح في حقهم أيضًا؟

ثم اعلم أنهم إذا أطلقوا اسم شيء على شيء لمشابهة بينهما وصفوا المشبَّه بكلمات تناسب المشبَّه به، وهو مما يفضي على الكلام جمالاً وبهاءً. فمثلاً إذا شبّهتَ إنسانًا بالأسد، فتقول إنه يزأر كالأسد، ولا تقول إنه يغنّي كالأسد. وبالمثل لما استعمل القرآن الكريم لفظ الهدهد لهذا الإنسان استعمل له كلمة الذبح أيضًا تزيينًا للكلام، وإن كان هذا قائد جيش.

وهناك سؤال آخر يثار هنا: لماذا سمى القرآن الكريم هذا الشخص هدهدًا؟

لقد سبق أن أجبتُ على هذا السؤال من قبل من الناحية العقلية، إلا أنني أبين المراد منه. عندما نتصفح كتب بني إسرائيل لمعرفة ماهية الهدهد ولنرى ما إذا كان فيهم إنسان بهذا الاسم، نكتشف أنه كان في اليهود في زمن سليمان عليه السلام أناس كثيرون اسمهم "هُدَد". والحق أن الاسم العبراني "هُدَد" تحوَّلَ إلى الهدهد في العربية شأنه شأن أبرهام الذي صار إبراهيم، ويسوع الذي صار عيسى، وموشي الذي صار موسى في العربية. ولا غرابة في ذلك مطلقًا، خذوا مثلاً مدينة "لكهنؤ" الهندية، فإن أحد العرب عندما ينطقها سينطقها: "لاكهناءو". وبالمثل إن القرآن الذي نــــزل بالعربية عندما ذكر اسم "هُدَد" العبري جعله الهدهد.

والتاريخ يبين لنا أن "هُدَد" كان اسم العديد من الملوك الأدوميين، ومعناه: الجلبة الكبيرة. والهدُّ في اللغة العربية أيضًا يعني الصوت الغليظ (الأقرب). ويبدو أن بني إسرائيل كانوا يسمون الطفل الغليظ الصوت هُدَدًا أو هُدهُدًا. وقد أُطلق اسم "هُدَد" على الملك الأدومي الثالث الذي ألحقَ الهزيمة بقوم مَدْين، وأيضًا على الملك الأدومي الأخير (الموسوعة اليهودية، تحت: Hadad). وكان الهدهد اسم أحد أبناء إسماعيل عليه السلام أيضًا*.

وقد ذكر الكتاب المقدس (في الملوك الأول ١١: ١٤) أحد أمراء الأسرة الأدومية وكان اسمه هُدَد، وكان قد فرّ إلى مصر خوفًا من القتل العام الذي أمر به يوآب.

وورد في الموسوعة اليهودية أن لفظ "هُدَد" إذا ورد في العهد القديم خاليًا من أي صفة أو فعلٍ فيعني أحد أفراد الأسرة الأدومية. (تحت كلمة: Hadad)

باختصار، إن الهدهد تعريب للكلمة العبرية "هُدَد".

الحق أن ولوع المفسرين بجعل تفاسيرهم شيقة قد دفعهم لنسج هذه الخرافات. فمثلاً هناك حيوان معروف باسم الضب، ولكنه اسم لرئيس قبيلة عربية أيضًا – كما يُسمَّى عندنا بعض الهندوس "ببغاء" – وهذا الرئيس العربي حضر مجلس النبيّ ﷺ مرة وأنشد قصيدة في مدحه ﷺ. ثم تحول هذا الحادث الحقيقي فيما بعد إلى خرافة في كتب الوعاظ، حيث ورد فيها أن النبي ﷺ كان يمشي في مكان، فخرج ضب من جحره وألقى قصيدة في مدحه ﷺ. فالذين جعلوا هذه الحقيقة الواقعة خرافة فليس صعبًا عليهم أن يحولوا إنسانًا اسمه الهدهد إلى طير اسمه الهدهد.

ثم يقول المفسرون أن ما دل سليمان عليه السلام على غياب الهدهد هو أنه كان في سفر في برية لا ماء فيها، فحان وقت الصلاة، فأراد الوضوء فلم يجد ماء، فقال لأصحابه: أين الهدهد؟ اطلبوا منه أن يبحث عن الماء. ذلك لأن الهدهد هو الذي كان يدلهم على الماء كلما احتاجوا إليه. فبحثوا عن الهدهد و لم يجدوه. فاستشاط

---

* لم نعثر على هذا الاسم. (المترجم)

سليمان الطَّيْلا غضبًا وقال: حينما يأتي الهدهد ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾. (روح المعاني)

ولكن البعض الآخر قد اختلف مع هؤلاء المفسرين وقال إن الواقع أن سليمان الطَّيْلا كلما سافر أظلته أسراب الطيور، وفي أحد الأيام وصلت الشمس إليه من خلال ثغرة كانت في هذا الظل، فرفع بصره وعلم سبب الثغرة وهو أن الهدهد كان قد ترك مكانه. (القرطبي)

إذًا، فمن عادة المفسرين نقل حكايات خرافية في تفاسيرهم. مع أن كل ما في الأمر هو أن لفظ الهدهد الوارد في القرآن الكريم تعريب لاسم "هُدَد" العبري، والمراد منه أحد أمراء الأسرة الأدومية الذي كان قائدًا في جيش سليمان الطَّيْلا. كانت الأسرة الأدومية من أعداء سليمان وكانت تعيش خاضعة لمُلكه، فلما فقد سليمان قائده الهدهد ظن أنه ربما خانه وذهب إلى الأعداء للتآمر عليه، فأعرب سليمان الطَّيْلا عن قلقه وغضبه.

وقد يكون الهدهد رئيس قبيلة عربية، إذ يخبرنا الكتاب المقدس أن أحد أبناء إسماعيل الطَّيْلا كان يسمى الهدهد. ومن الثابت تاريخيًا أن القبائل العربية كانت مقيمة في الطريق المؤدي من فلسطين إلى اليمن. وكان العرب واليهود يعادون بعضهم بعضًا، ورغم أن العرب خضعوا لملك سليمان إلا أن العداء لم يزُل من القلوب، فلما وجد سليمان الطَّيْلا أحد الرؤساء العرب غائبًا أوجس منه خيفة فثار وغضب. وبما أن منطقة اليمن التي كان سليمان الطَّيْلا قد خرج بنيّة الهجوم عليها كانت بلدًا عربيًا فالأقرب إلى القياس أن الهدهد كان أحد الرؤساء العرب.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ
مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ

مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

الخَبْء: الخبء: ما خُبِئَ وغابَ. وخَبْءُ الأرض نباتُها، وخَبْءُ السماء: مطرُها. (الأقرب)

التفسير: أي لم يمكث سليمان عليه السلام في ذلك المكان طويلاً حتى رجع إليه ذلك الرئيس العربي الغائب، وقال له: كنتَ تريد الإغارة على مُلك "سبأ" الذي هو منطقة من بلادي، فسبقتُك إليه للاستطلاع، إذ لم تكن هذه المهمة صعبة علي لكوني من العرب وأعرف لغتهم. لقد علمتُ علم اليقين أن امرأة تحكم تلك البلاد حُكمًا رائعًا، وهي تملك كل نوع من الأسباب، وملكها عظيم. علمًا أن قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يعني أن ملكة "سبأ" أُعطيتْ نعم الدنيا كلها، إذ لو كان الأمر كذلك لما قال سليمان عندما أرسلتْ إليه هدية: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾. فقوله هذا دليل على أن الملكة إنما أُوتيت كل ما كان ضروريًا لحُكمها، وأنها حاكمة يقِظة.

وربما أراد الهدهد بقوله هذا تخويف سليمان عليه السلام كي لا يستولي على بلاد قومه، ولكن ما قاله بعد ذلك دفع سليمان أكثر للهجوم على تلك البلاد، وهو

قوله إن هؤلاء يعبدون الشمس من دون الله، وأن الشيطان قد زيّن لهم أعمالهم وأضلَّهم عن سبيل التوحيد، وأنهم مصرّون على ألا يسجدوا لله الذي يعلم أسرار السموات والأرض كلها، والذي لم يجعل الشمس والقمر إلا كخادمين له، والذي وهب أنبياءه العلوم المادية والروحانية، والذي هو رب عباده الموحدين، والذي مُلكه أعظم من مُلك هذه الملِكة، وسيكون مُلكه غالبًا على كل مُلك آخر.

وهكذا حاول الهدهد استرضاء سليمان الطَّيْلا، وبيّن له أنه لم يغِبْ بدون سبب بل رأى هذا الاستطلاع ضروريًا لمصلحة البلاد.

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾

التفسير: فقال سليمان الطَّيْلا سنذهب إلى هناك ونرى ما إذا كنت صادقًا في ما قلت أم كنت من الكاذبين. اذهبْ بكتابي هذا إلى هؤلاء القوم وضَعْه أمامهم، ثم تأخر قليلا في انتظار الجواب.

انظرْ هنا أيضًا ما ينصح به سليمان الطَّيْلا طيرًا من الطيور! إننا نعرف أن الناس يعلقون في عنق الحمام رسالة، ولكن المفسرين قد جعلوا الهدهد ساعي بريد فعلاً. ثم انظر إلى الأدب واللباقة التي يعلّمها سليمان الطَّيْلا طيرًا لا عقل له، حيث يقول: لا تضع هذه الرسالة في يد الملكة مباشرة لأنه يُعَدّ من سوء الأدب، بل ضعْها أمام حاشيتها ليعرضوها عليها بأنفسهم، فهذا من الآداب السلطانية. ثم لا تتسرع في طلب الجواب - وهذا يعني أن سليمان الطَّيْلا لم يكن وحده يعلم منطق الطير بل كانت ملكة "سبأ" أيضًا تعلمه - وانتظِرْ حتى يعطوك الجواب، ثم ارجعْ به إلي.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُۥ مِن
سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣١﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ
وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

الملأ: الأشراف، قيل: سُمّوا بذلك لمَلاءَتهم بما يُلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأي، أو لأنهم يملأون العيون أُبّهةً والصدورَ هيبةً. (الأقرب)

التفسير: لقد تبين من هنا أن سليمان عليه السلام لم يتوجه إلى بلدهم لمحاربتهم بدون مبرر، بل كان هؤلاء قد تمرّدوا عليه، فذهب لإخماد ثورهم، حيث يقول: ﴿أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمينَ﴾.. أي إذا جئتموني منقادين فسأعفو عما سلف منكم.

وليكن معلومًا أن أعداء الإسلام قد طعنوا فيه بناءً على ورود البسملة في بداية رسالة سليمان عليه السلام، فقالوا أن البسملة التي تستهل بها كل سورة من سور القرآن لم يأت بها القرآن الكريم أول مرة بل كان الأولون على علم بها، وقد سرقها من الكتب السابقة. فقال رودويل (Rodwell) أن البسملة يهودية الأصل. وقال "ويري" (Wherry) إنه لمن المؤكد أن محمدًا قد استعار هذه الكلمة من اليهود والصابئين إذ كان الصابئون يستفتحون كتاباتهم بقولهم: "بنامِ يزدانِ بخشائش گرِ دادار." (تفسير "ويري" للقرآن الكريم، المجلد الأول ص ٢٨٩).

وقال القسيس سينت كلير تسدل (William St. Clair Tisdall) أن هذه العبارة زرادتشية الأصل إذ تبدأ صحيفة كل نبي في كتاب "الدساتير"◈ بالجملة التالية: "بنامِ إيزد بخشائش گر مهربان دادگر." (ينابيع الإسلام (ترجمة أردية) ص ١٢٧)

◈ هو كتاب الديانة الزرادشتية. (المترجم)

والغريب أن ثلاثة من الكُتّاب المسيحيين يذكرون للبسملة ثلاثة مصادر مختلفة في محاولتهم إثبات كونها مسروقة، فأحدهم يذكر مصدرًا يهوديًا، والآخر مصدرًا صابئيًا، والثالث مصدرًا زرادشتيًا. والحق أن جهودهم المضنية هذه تشكل بحد ذاتها دليلاً على أن البسملة بحرٌ زاخر من المعارف والحقائق، وإلا فكان يكفيهم أن يقولوا أنها لا تحتوي على معنىً خاص.

ثم السؤال الذي يفرض نفسه هو: أيّ من هذه المصادر الثلاثة صحيح؟ إذ من المحال أن تكون كل واحدة من هذه الملل الثلاث قد اخترعت البسملة. لذا فمن واجب هؤلاء المسيحيين أو تلاميذهم أن يفصلوا أوّلاً فيما بينهم ما إذا كان اليهود قد سرقوها من الصابئين أو من الزرادشتيين، أم ماذا؟

ومن الجدير بالذكر أيضًا أن هؤلاء الكُتّاب المسيحيين لم يذكروا العبارة اليهودية التي قد وردت فيها البسملة بحسب زعمهم، بل لم يسموا المصدر اليهودي المزعوم أصلاً، مع أن ديانتهم المسيحية فرع من اليهودية، والصحف اليهودية هي صحفهم أيضًا، وإنما اكتفوا بنقل بعض العبارات من المصادر الزرادشتية والصابئية، مما يدل على أنهم قد انبهروا من جمال هذه الآية وذُهلوا، فراحوا يبذلون كل ما في وسعهم لإثبات أن البسملة موجودة في صحفهم.

وفيما يتعلق بصحف الصابئين والزرادشتيّين فهي غير محفوظة. لا شك أن أجزاء من الصحف الزرادشتية توجد حتى اليوم، ولكن الزرادشتيّين أنفسهم يعترفون بأنها ليست على أصالتها. فليس من المستبعد أن يكونوا قد قاموا بتأليف بعض هذه الأجزاء من عند أنفسهم بعد ظهور الإسلام.

غير أننا لو سلّمنا بصحة صحفهم فلا يقدح هذا في القرآن الكريم أيضًا، إذ هو لا يدّعي أن البسملة نزلت فيه أول مرة، بل إنه يُقر بوجودها قبله حيث أخبر أن سليمان عليه السلام قال في رسالته إلى ملكة سبأ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾. فلو ثبت وجود البسملة عند اليهود أو الزرادشتيين أو الصابئين أو أية أمة أخرى فلا اعتراض على القرآن الكريم ما دام هو يقر بأن سليمان عليه السلام كان يعرفها؛ وإذا كان يعرفها هو فلا بد أن يعرفها أتباعه أيضًا. وقد

يعرفها أنبياء الأمم الأخرى أيضًا، والفرق الوحيد أن مفهوم هذه الآية نزل في القرآن الكريم باللغة العربية، بينما قد وُجدتْ في الأمم الأخرى بلغتهم.

بيد أن ورود هذه الآية في مستهل كل سورة من القرآن الكريم على هذا المنوال لا يمكن أن يُعتبر نقلاً، لأنه في الواقع تحقيق لإحدى النبوءات السابقة. وكل كلام يُعاد بهدف جديد ولمصلحة معينة لا يسمى نقلاً أو سرقةً.

والنبوءة المشار إليها آنفًا قد وردت في العهد القديم، وملخصها أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام أن يأمر بني إسرائيل أن يطهّروا أنفسهم وثيابهم، ثم يأتي بهم إلى أسفل جبل سيناء لسماع كلام الرب معه. عليهم أن يقفوا قريبًا من الجبل أولاً، وعندما يسمعون صوت البوق يقتربون من الجبل أكثر. فلما ذهب موسى إلى الجبل نزل عليه وحي الله تعالى وقد تزامنَه برق ورعد ودخان، فخاف الناس وارتعدوا وابتعدوا. فلما رجع إليهم موسى عليه السلام قالوا له: "تكلَّمْ أنت معنا فنسمع، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. فقال موسى للشعب: لا تخافوا لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافتُه أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا. فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الله." (الخروج: الإصحاح ١٩ والإصحاح ٢٠: ١٩-٢١)

فرجع موسى إلى ربه وقال رب إن قومي يخافون الاقتراب منك، فأوحى الله إليه: "يقيم لك الربُّ إلهُك نبيًا مِن وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون. حَسَبَ كلِّ ما طلبتَ من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلاً: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا لئلا أموت، قال لي الرب: قد أحسَنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يُطغي فيتكلم باسمي كلاما لم أُوصِه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي." (التثنية ١٨: ١٥-٢٠)

لقد أخبر الله تعالى هنا:

أولاً: أنه سيبعث نبيًا في إخوة بني إسرائيل أي في بني إسماعيل.

ثانيًا: أن النبي الموعود يكون مثيلاً لموسى فيُعطى مثلَه شريعة.

ثالثًا: أنه كلما نزل عليه شيء جديد من وحي الله تعالى قال للناس قبل عرضه عليهم: أبدأ هذا الكلام باسم الله.

رابعًا: أن كل إنسان يحاول تطبيق هذه النبوءة على نفسه كذبًا سيُهلك.

خامسًا: أن من يكفر بالنبي الذي يكون مصداقًا لهذه النبوءة أيضًا سيُهلك.

وقد وضع الله تعالى البسملة في بداية كل سورة من القرآن الكريم وفقًا لهذه النبوءة، فقدم سبحانه وتعالى دليلاً على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في مستهل كل سورة قرآنية أمام اليهود والنصارى، كما أقام الحجة عليهم جميعًا بأنهم لِمَ لا يؤمنون بهذا النبي الموعود الذي كلما أراد أن يقرأ على الناس كلام الله تعالى فإنه وفقًا لنبوءة موسى يقول أقرأ عليكم هذا الوحي بسم الله. إذًا، فقد حذر اليهود والنصارى بهذا الأسلوب بأن محمدًا إذا لم يكن نبيًا موعودًا مثيلاً لموسى فسيُعاقب لأن المدعي الكذاب لن ينجو من العقاب الإلهي بحسب هذه النبوءة، أما إذا كان محمد هو النبي الموعود، وإذا كان يقرأ عليهم كلام الله تعالى بالفعل قائلاً بسم الله تحقيقًا لتلك النبوءة فلن يُفلتوا من عقاب الله تعالى بل سيحاسبهم حتمًا.

إذًا، فبرغم رواج البسملة في أمم الأنبياء السابقين فإن ورودها في القرآن الكريم لا يمكن أن يُعتبر سرقة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: قد أقرّ القرآن الكريم بوجود البسملة في الذين خلوا من قبل.

ثانيًا: قد وردت البسملة في القرآن تحقيقًا لنبوءة موسى عليه السلام؛ إذ لو لم تبدأ كل سورة قرآنية بالبسملة لبطلت نبوءته عليه السلام.

فهل يمكن لأحد أن يُثبت أن كَتَبة "الدساتير" كانوا من بني إسرائيل، أو أنهم أتوا بشريعة كموسى، أو أن كل وحي جديد لهم كان يستهلّ بالبسملة؟ كلا بل إن الدساتير كتاب تاريخي يذكر أحوال الأنبياء فحسب. بينما تقول نبوءة موسى عليه السلام: "ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه." مما يعني أن هذه الكلمات تفرض على النبي الموعود أن يقرأ وحي الله تعالى على الناس قائلاً: بسم الله.

فما دامت البسملة قد وردت في مستهل كل سورة من القرآن الكريم وفقًا لهذه النبوءة، فلا يليق بأحد اتهام القرآن الكريم بالسرقة لا سيما الذين هم من أتباع موسى عليه السلام.

قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٣﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

قاطعة: قطَع فلان في القول: جزَم. (الأقرب)

التفسير: قالت الملكة أيها الرؤساء، أشيروا عليّ في هذه المعضلة، فإني لا أبُتُّ في أمر إلا بعد أن تحضروني وتقدموا مشورتكم.

وهذا يدل أن الديموقراطية كانت سائدة في ذلك الزمن أيضًا، وكانت حقوق الملوك محدودة.

فقال الرؤساء للملكة - وقد رأوا أن أحد قادة جيش سليمان هو طير بقدر عصفور! - أيتها الملكة، إنّا قوم بواسل خبراء بالحرب، فماذا عسى أن يضرنا جيش من الطيور؟ سيصيدها أولادنا في دقائق ويأكلونها. بيد أن القرار في يدك على أية حال، ونحن تحت أمرك. فإن قررتِ أن يخرج قادة جيشك وراء هذه العصافير والطيور على متون خيولهم فسوف ننفذ أمرك، وإن قررت صيد هذا الجيش من العصافير والطيور لنعمل منها شواءً لذيذًا فعلى الرأس والعين!

فقالت الملكة: إن الملوك إذا دخلوا بجيوشهم قرية عاثوا فيها الفساد وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون دائمًا.

والواقع أنك لو تصفحتَ تاريخ العالم لوجدت أن كل قوم قاموا بغزو بلد صبّوا على أهله المهزومين أبشع المظالم مغرورين بانتصارهم وخوفًا من تمردهم عليهم ثانية إذا لم يقوموا بقمعهم إذ لا تطمئن قلوبهم من قِبَلهم. فمثلاً عندما احتلت إيطاليا بلاد الحبشة صبّت عليهم أنواع الفظائع التي يتحدث العرب عنها بكثرة، حيث قاموا بإبادة آلاف الأحباش دونما سبب، وأحيانًا أعدموا الناس على أبواب بيوتهم بدون جريمة ليبثّوا الرعب بين القوم (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة: Abyssinia)

إن تاريخ العالم محفوظ منذ آلاف السنين، وستجد في هذا التاريخ كله أن كل شعب منتصر قد ارتكب الفظائع البشعة على الشعب المهزوم إلا محمد ﷺ وأتباعه، وواحد أو اثنان من الملوك الآخرين.

فمثلاً لو قرأت الكتاب المقدس وجدته يأمر أتباعه تجاه أعدائهم المهزومين أنه متى "دفَعهم الربُّ إلهُك أمامَك وضربتَهم، فإنك تحرّمهم. لا تقطَعْ لهم عهدًا، ولا تشفق عليهم..... تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار." (التثنية ٧: ٢-٥)

وكذلك ورد فيه: "وإذا دفَعها الربُّ إلهُك إلى يدك، فاضربْ جميعَ ذكورها بحد السيف... وأما مُدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربُّ إلهُك نصيبًا، فلا تستبقِ منها نسمةً ما." (التثنية ٢٠: ١٣-١٦)

ولما احتل الإنجليز الهند صبّوا على أهلها الفظائع والويلات، ولم يبرحوا حتى هدأ غضبهم. وإن الجرائم التي ارتكبوها في أيام الثورة* ترتعد لذكرها الفرائص، وقد سمعت بعضها من شهود عيان. كانت جدتي (والدة أمي) تحكي لنا أن أباها كان طريح الفراش بمرض شديد في أيام الثورة، فدهمَ الجنود الإنجليز بيته وقال أحدهم

* أي ثورة ١٨٥٧م. (المترجم)

مشيرًا إليه: لقد رأيت هذا الرجل أيضًا يُحاربنا. فهَبَّ المسكين من سريره فزِعًا، فأطلقوا عليه الرصاص فمات في سريره.

فثبت أن جميع الغزاة عبر التاريخ إذا دخلوا قرية أفسدوها، وإلى هذه الحقيقة نفسها تُشير ملكة سبأ وتقول: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾.. أي أن القاعدة المستمرة منذ القدم أنه كلما احتل ملك بلدًا آخر جعل عِلية القوم فيه أذلاء مهانين. هذه هي سنة الملوك المستمرة، إلا إذا لم يكن الفاتح ملكًا ماديًّا مثل رسولنا ﷺ أو خلفائه، إذ كانوا ملوكًا روحانيين لا ملوكًا ماديين. وهناك ثلاثة أو أربعة آخرون أيضًا من ملوك العالم الذين هم استثناء من هذه القاعدة العامة، إذ لم يكونوا ملوكًا ماديين في الواقع بل كانوا عباد الله الصالحين رغم كونهم ملوكًا. وهناك في كل التاريخ الغربي مثال واحد فقط حيث عامل القائد المنتصر أعداءه بالعفو، ولكن أعداءه لم يكونوا من شعب آخر بل كانوا قومه هو، وهذا المثال هو إبراهام لنكولن الذي كان أحد الرؤساء الأمريكان. فقد حصلت ثورة في عهده في الولايات الأمريكية حيث تمردت ولايات الجنوب على ولايات الشمال، فكانت الغلبة للشمال. فلما أراد إبراهام لنكولن أن يدخل المدينة التي بها قائد الثوار أعدّ قادة لنكولن عُدّهم لاحتفال كبير بالنصر، وأرادوا أن يدخلوا المدينة عازفين الموسيقى العسكرية، ولكن لنكولن لما رأى استعدادات الاحتفال زجر قادته وقال: أيليق بنا أن نفرح على قتل الأمريكان للأمريكان؟ لقد خضنا هذه الحرب مضطرين وإلا فإن سفك دماء رجال قومنا ليس بأمر مستحسن. ثم قال لقادته: ابقوا بأماكنكم، سأدخل المدينة وحدي. ثم دخلها وحده، ولما دخل في مكتب قائد الثوار جلس أمامه مطأطئًا رأسه على طاولته، ثم قام بعد قليل وقد اغرورقت عيناه بالدموع نتيجة اشتغاله بالدعاء.

هذا هو المثال الوحيد في كل التاريخ الغربي حيث لم يسعَ الغالب لإذلال المغلوب. أما نبينا محمد ﷺ فحياته مليئة بمثل هذه الأحداث. فلما فتح مكة قال لأهلها: لا تثريب عليكم اليوم، فاذهبوا، وذلك برغم أن أهلها الكافرين قد آذوه وأصحابه بشتى أنواع التعذيب سنوات طويلة.

ولم يقتصر عفو النبي ﷺ على هذا فقط، بل لقد أوصى أصحابه مرة قائلاً إن الله تعالى سيعطيكم أرض مصر، فإذا دخلتموها منتصرين فلا تنسوا أن أُمّكم هاجر - رضي الله عنها - كانت من مصر (السيرة النبوية لابن هشام، سياقة النسب من وُلد إسماعيل). هناك فارق زمني كبير بين هاجر والصحابة، ومع ذلك يُذكّر النبي ﷺ أصحابَه بجَدّتهم هاجر - رضي الله عنها - التي مضت قبل ألفين ومئتي سنة، ويوصيهم بمعاملة أهل مصر برفق وإحسان من أجلها. ولا غرو أن مثل هذا النموذج المثالي لا يأتي به إلا الأنبياء فقط، لأن القاعدة العامة أن الملوك الماديين إذا دخلوا بلدًا منتصرين صبوا على أهله أبشع المظالم وقتلوهم بلا هوادة.

إذًا، فإن ملكة "سبأ" لما استشارت أكابر قومها بعد استلام رسالة سليمان عليه السلام قالوا إنا مستعدون للتضحية في سبيل بلادنا فَأْمُرينا بما تريدين. فقالت لهم ما الجدوى من موتنا إذا لم ينفع وطننا؟ ليست القضية ما إذا كنا مستعدين للحرب أم لا، إنما القضية هي: ما إذا كان موتنا ينفع بلادنا أم لا. ينبغي أن نرى ما إذا كانت حياتنا وخضوعنا لملك سليمان أنفعَ لنا أم أن نحاربه ونموت ليخلو الملك له. إذ ليس أمامنا إلا خياران: إما أن يبقى الملك بأيدينا وتكون العظمة والمجد لسليمان الذي ندفع له الجزية، أو نهلك في الحرب ليأخذ سليمان ملكنا. وقالت لهم الملكة بعد مداولة الرأي: واعلموا أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلّةً.

واعلم أن قولها هذا لا يعني ما يُفهَم منه عادة بأنه كلما تأتي في البلاد حكومة جديدة تجعل كبار القوم أصاغرهم وأصاغرهم أكابرهم، ذلك لأن البلاد لا تتضرر في هذه الحالة وإن صار الصغار كبارًا والكبار صغارًا، إنما يتحدث القرآن هنا عن الضرر الذي يلحق بالبلاد عندما يحتلّها ملكٌ أجنبي، حيث يجعل الملك الجديد الغريب كبار أهلها أذلة، ويجعل أذلّتها أكثر ذلاً وهوانًا. بتعبير آخر إن الشعب الأجنبي الغالب يعيّن على البلاد حكّامًا جددًا ورؤساء جددًا، فتفرض عليها قوانينها ونظامها ومسؤوليها وحكامها. فمثلاً لما احتلّ الإنجليز الهند جعلوا الحكام والمسؤولين من قومهم، ولما جاء إليها المغول عملوا على النهوض بأفراد قومهم، ولما استولى عليها الأفغان وضعوا على المناصب القيادية أفراد قومهم، ولما حكَمها الآرية

رفعوا قومهم وجعلوا الشعوب المعززة الأخرى مثل "غوند" و"بهيل" من الأذلّين الأراذل. إذًا، فكل قوة أجنبية تُحدث في البلاد تغييرًا جذريًا وتقيم نظامًا جديدًا بالقضاء على النظام القديم كي لا يتمكن أهلها من التمرد عليهم ثانية.

أتذكر جيدًا أنني ذهبت مرة إلى مدينة دلهي، فأشاروا إلى رجل وقالوا لي: إنه أحد أمراء الأسرة المغولية. وكان هذا الأمير يمشي في ميدان "شاندني شوك" وأمام "لال قلعة" حاملاً نرجيلة كان يعرضها على الناس للتدخين، فكان بعض المدمنين يدخنونها ويعطونه قرشًا أو قرشين. لقد ألجأت عزة النفس هذا الأمير إلى هذه الحيلة بدلاً من سؤال الناس. إذًا، فإن تاريخ العالم أيضًا يشهد على أنه كلما استولت على بلد دولةٌ أجنبية جعلتْ أعزّةَ أهله أذلّةً، وألقت أفراد الأسرة الحاكمة في الحضيض بعيدًا عن السياسة والحكم، ووضعت زمام الحكم في أيدي قوم يُبغضون الحكومة السابقة، وذلك كي لا تبقى هناك فرصة لصعودهم إلى سدّة الحُكم ثانية. انظروا إلى الإنجليز كيف جعلوا الراجات والمهراجات أعزةً في الهند وجعلوا أفراد الأسرة الملكية المغولية أذلةً بحيث لا نجد لهم اليوم أثرًا.

وقول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ لا يعني أنهم يُهينون أعزة البلاد فحسب، بل له مفهوم آخر أيضًا: وهو أن اللئام إذا استولوا على الحكم وظلموا الفقراء والضعفاء وعديمي الحيلة معتبرين أنفسهم أعزّةً، ثارت الغيرة الإلهية ضدهم نتيجة سوء أعمالهم، فيرحم الله الضعفاء الفقراء، ويسلط على هؤلاء اللئام الظالمين من يقضي على عزتهم الزائفة ويذيقهم أنواع الخزي والهوان، وهكذا يجعل الله الظالمين مغلوبين والمظلومين غالبين. فمثلاً لما توفي سليمان عليه السلام وتربع ابنه على العرش لم يعامل الرعية برفق وإحسان، فثارت عليه عشر من قبائل بني إسرائيل، وتقلصت مملكة سليمان العظيمة إلى ولاية صغيرة في عهد ابنه. الحق أن بعضًا من هذه القبائل حاولت في زمن سليمان عليه السلام أيضًا إضعاف ملكه بإعلان التمرد عليه، ولكنه قمع ثورتهم بتأييد من الله تعالى، ولكن لما خلفه ابنه تشاورت عشر من قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة وقالوا فيما بينهم: تعالوا نذهب إلى الملك ونطالبه بأن لا يُعاملنا بقسوة. لقد ظنوا أن الملك سيُصاب بالرعب بسبب اتحادهم، فيرضى ببعض

مطالبهم. والواقع أنهم لو ذهبوا إلى سليمان في حياته بشكواهم ومطالبهم فربما لم يرض بها، ولكن لا بد أن يكرمهم ويعزهم على الأقل، ويخبرهم بلطف أن ما يفعله إنما هو لمصلحتهم. أما ابنه هذا فلم يكن من أهل التقوى والورع ولا مؤيَّدًا من الله تعالى، فلما سمع بما دار بين القبائل العشر استشاط غضبًا، واستشار أمراءه ووزراءه وأصحابه الذين كانوا يفكرون بطريقته، فقالوا له: عليك أن تلقي الرعب في قلوبهم من أول يوم. فلما حضره رؤساء القبائل وقالوا له أيها الملك، كنا خادمين مطيعين لآبائك، ولكنا نرى أننا نُعامَل بقسوة بصدد بعض القضايا، فنرجو أن ترفق بنا. فقال الملك في كبريائه وغروره: إذا كنتم تخدمون آبائي وتنصاعون لهم فلم تمنّوا عليّ بشيء، وإذا كانوا قد قهروكم على طاعتهم، فلا تظنوا أني سأخاف مما تثيرون الآن من ضجة وجلبة، بل سأعاملكم بأشد مما عاملوكم به، فانسوا هذه المطالب، وإلا سوف أقتلع ألسنتكم. فلما سمعوا جوابه القاسي تمردوا أكثر واجتمعوا في ناحية من بلاط الملك للتشاور وقرروا أنه ليس أمامهم الخيار إلا إعلان الثورة. فنصب ممثلو القبائل العشر هؤلاء واحدًا منهم ملكًا عليهم ورجعوا إلى ابن سليمان وقالوا له: ها نحن نعلن الثورة على حكمك. وهكذا انفصلت القبائل العشر واستمر حكمهم عدة قرون، أما حكم ابن سليمان فأصبح منحصرًا في ولاية صغيرة. (أخبار الأيام الثاني ٩: ٣١، و١٠: ١-١٩، و١١: ٥-١٢)

هذا مثال أولئك القوم الظالمين الذين يحكمون الناس بقوة العصا، ويظنون أنهم أعزة القوم. ولكن عندما يبلغ سيل ظلمهم الزبى تثور الغيرة الإلهية، وتقع الثورة في البلاد فيصبح أعزتها أذلة وينالون العقاب على سوء أعمالهم.

لا شك أن قول ملكة "سبأ" هذا قد جاء في سياق الحديث عن السياسة، ولكنه يمثل أيضًا الإشارة إلى ذلك القانون الروحاني الذي يعمل عند بعثة نبي في الدنيا؛ فكما أن الملوك الماديين يأتون بانقلاب في البلاد كذلك يحدث عند مجيء الأنبياء الذين هم ملوك المملكة الروحانية، فيتحقق قول الله تعالى ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ حيث يصبح كثير من الأعزة في زمنهم أذلةً وكثير من الأذلة أعزة، وتنال كثير من الأمم المحتقرة الذليلة العزة ببركة إيمانها بنبي الله، وتصير كثير من الأمم

القوية ذليلة محتقرة جراء إنكار النبي. بل الحق أن التاريخ الطويل للعالم يكشف أن الحقائق السماوية تزدهر عادة في المناطق التي يُعتبر أهلها جاهلين همجيين بقوة أكثر وعلى نطاق أوسع، إذ لم ينتشر تعليم نبي من الأنبياء إلا بين أمة كانت تُعتبر أكثر الأمم تخلفًا وانحطاطًا، ولكنها ببركة تلبيتها لنداء الله تعالى أصبحت فاتحة للعالم وحاكمة على الدنيا.

الواقع أن الله تعالى قد جعل فطرة الإنسان - مهما كان جاهلاً - تستنتج بعض النتائج تلقائيًا مما يحدث حوله. والحق أن هذا الأمر لا يتوقف على الإنسان فحسب، بل نرى هذه الظاهرة في الحيوانات والأشجار أيضًا؛ إذ الثابت علميًا أن بعض المخلوقات تكتسب ألوان الأشجار التي تعيش فيها. خذوا مثلاً الفراَشة التي هي حشرة صغيرة لا عظم فيها ولا لحم، ومع ذلك حين نراها تطير بين الأزهار تصيبنا بألوانها الجميلة بالذهول والدهشة. ومن ذا الذي يمكنه أن ينكر أن ألوانها الجميلة الزاهية إنما هي بسبب الأوراق والأزهار التي تعيش فيها؛ إذ ليس ألوانها إلا انعكاسًا لألوان الأوراق والأزهار؛ ومن ذلك تجد أن ألوانها ليست دائمة ثابتة خلافًا لألوان المخلوقات الأخرى. فمثلاً لو حاولت إزالة لون الببغاء الأخضر لم تنجح في ذلك، أو لو حاولت محو لون الحمامة البني لم تستطع أيضًا، ولكنك لو أخذت جناح الفراشة بين أناملك وفركته لتلونت يدك بلونه، مما يدل على أن لون الفراشة ليس إلا انعكاسًا للأشعة المنبعثة من الأزهار والأوراق التي تعيش فيها. وعندما تنعكس هذه الأشعة على الفراشة فترة طويلة تكتسب هذا اللون بشكل دائم. وبالمثل فإن الحيوانات التي تعيش في رمال الصحراء تكتسب لون الرمال بحيث إنك لا تنتبه أحيانًا لها مع أنها تكون رابضة أمامك. ففي بعض الأحيان يكون الغزال بل قطيع من الغزلان رابض أمامك في التلال الرملية ومع ذلك لا تنتبه لها، وإنما الصائد الماهر ينتبه لذلك. وليس ذلك إلا لأن الغزلان قد اكتسبت لون الرمال شيئًا فشيئًا بحكم عيشها فيها فترة طويلة. والحال نفسه بالنسبة للأشجار التي تكتسب ألوانها من ألوان بيئتها، وكذلك بالنسبة للناس الذين يتأثرون من البيئة التي يعيشون فيها. يمكنك أن تسميهم همجيين جاهلين بعيدين عن التمدن والحضارة،

ولكن هل تظن أن عقولهم لا تعمل بقدر ما يعمل عقل ببغاء أو فراشة أو غزال؟ كلا، كل ما يمكننا قوله هو أن الببغاء والفراشة والغزال كما لا تقدر أن تعبّر عن تأثير البيئة فيها كذلك لا يعبّر هؤلاء الجاهلون الهمجيون عن تأثير بيئتهم فيهم، ولكن لا يسعنا الإنكار أنهم يتأثرون من بيئتهم حتمًا ويتأقلمون بحسبها. فمثلاً لو سألت أحدهم ما إذا كان قد تأثر من البيئة التي يعيش فيها لقال لك: لا، بينما الحقيقة أنه قد تأثر منها حتمًا، ولكنه لا يدري ذلك كما لا تدري الفراشة أنها تتأثر من ألوان الأزهار، ولا يدري الغزال أنه يتلون بلون الرمال، ولا تدري النحلة ما العسل وما هي فوائده، ومع ذلك فهي تمتص رحيق الأزهار وتحوّلها في بطنها عسلاً، ثم تُخرج قطراته من فمها شاءت أم أبت. وكذلك فإن الشعوب التي أهملتها الدنيا هي تتأثر من أوضاعها وبيئتها، وبرغم أنها لا تدري في الظاهر أن ظروفها تصوغها في قالب معين، إلا أنه لا يزال في قلوب أفرادها إحساس ضئيل بأن الله تعالى كان قد خلقها للانتفاع من نعم الدنيا، وقد أخذت الشعوب الأخرى نصيبها منها، ولكنهم لم يشتركوا بعد في هذا السباق بل قد أهملتهم شعوب الدنيا وطردتهم بعيدًا وحرمتهم من الانتفاع منها. إن هؤلاء لا يزالون يتمتعون بخيرات الدنيا منذ أجيال وأجيال، ولكنهم لم يعطونا الفرصة للتمتع بها. إن هذا الإحساس يظل موجودًا في قلوب الشعوب المقهورة المحرومة ولكن بشكل غير ملموس. وعندما يرفع نبي من عند الله تعالى نداءه أنه قد جاء ليأخذ بالشعوب المهملة المقهورة إلى قمة الرقي والازدهار تلتهب الحسرة في قلوب تلك الشعوب وتنم تصرفاتهم عن كربهم، فيقولون: ها قد جاء يوم تحقق آمالنا وزوال نحوستنا، تعالوا نؤمن بهذا النبي فنحكم العالم ونبذل كل ما في وسعنا لاسترداد حقوقنا.

مما لا شك فيه أن الأرض المزروعة منذ زمن طويل تُخرج صنوف الخضار والثمار والأزهار، وتسرّ خضرتها العين وتغذّي ثمارها الناس وتسد أوراقها جوع الحيوانات، ولكن لا غرو أيضًا أن تلك الأرض تفقد طاقتها وقدرتها نتيجة طول الاستعمال. أما الأرض المجاورة لها التي لم تُزرَع بعد فتكون أقدر على الإنتاج إذا ما تم حرثها وزراعتها. والفلاح الذكي يرغب دائمًا في الأرض المهملة المتروكة بدون

حراثة منذ قرون ولا يرغب في الأرض التي تُحرث من آلاف السنين، إذ يعلم أنها لن تدرّ عليه بنفع كبير، بل إن الأرض التي تبدو جرداء خربة غير معمورة ستكون أكثر ريعًا وإن تطلبت منه جهودًا أكثر. إن الجهال من الناس يشترون الأراضي الغالية الثمن التي تكون قريبة من القرى، ولكن المزارعين الأذكياء يشترون الأراضي الخالية غير المحروثة، والنتيجة أن الناس الذين يشترون الأراضي المجاورة للقرى يملك بعضهم أحيانًا مئة أو مئتي فدان، ولكنه يعيش في فقر حيث تجد إزاره رثًا باليًا ولا يغطي جسمه تمامًا، بينما تجد الشخص الذي يملك - مثلاً - خمسة وعشرين فدانًا من الأرض غير المحروثة من قبل، فيعيش في رخاء ويلبس أفضل ثياب ويأكل أطيب طعام، ويُعَدّ من كبار المزارعين، مع أنه لا يملك إلا ثُمن ما يملكه المزارع الآخر من الأرض. لماذا يعيش من يملك أرضًا أكثر في فقر، ويعيش من يملك أقلّ في رخاء، يا ترى؟ إنما سببه أن الأخير اشترى بذكائه أرضًا لم تُستهلك طاقتها، وأما الأول ففضّل شراء أرض فقدت كل طاقتها، فخسر رغم أنه أنفق أكثر، وربح الآخر رغم أنه أنفق أقل. لا شك أن الأرض القريبة من القرى والمدن أيضًا مفيدة من الناحية العمرانية إذ يمكن أن تُباع بأسعار غالية من أجل البناء والعمارة، ولكن فيما يتعلق بالإنتاج الزراعي فإن الأرض الخالية هي الأكثر ريعًا، إذ من القواعد الزراعية أيضًا ألا تُزرَع الأرض فترة من الزمن إذا أرادوا إنتاجًا أكثر.

مما لا شك فيه أن بعثة النبي ﷺ بين العرب لم تكن إلا فضلاً من الله تعالى وتحقيقًا للأنباء الإلهية السابقة، ولا شك أيضًا أن أفعال الله سبحانه وتعالى لا تخلو من حكمة ولذلك يسمى حكيمًا، وما دام الله تعالى لا يفعل شيئًا إلا لحكمة ما فلا بد لنا من الاعتراف بأن بعثة النبي ﷺ بين العرب أيضًا كانت تنطوي على حكمة عظيمة، وهي أن بلاد العرب ظلت محرومة من العز والمجد منذ آلاف السنين. لا شك أن العرب قاموا بمعارضة النبي ﷺ في أول الأمر حيث كفروه وكذبوه وشتموه، ولم يألوا جهدًا في محاولة القضاء عليه، ومع ذلك فإنهم لما سمعوا قول النبي ﷺ: أيها العرب، لقد جئت لأجعلكم ملوك العالم، أخذتْ قلوبهم تخفق بسرعة وقالوا: ما هذا الصوت الذي تسمعه آذاننا؟ ثم فكروا أكثر وقالوا في أنفسهم: إنه نفس

الصوت الذي كان آباؤنا ينتظرون سماعه منذ مئات السنين. فلما نسوا المعارضة فيما بعد وزالت العداوة من قلوبهم أحدث هذا الصوت ثورة في نفوسهم وبدأوا يندفعون إلى النبي ﷺ كالمجانين قائلين: لبيك يا رسول الله، لبيك يا رسول الله، إذ أدركوا أن زمن غلبتهم قد جاء. فثارت عواطفهم الدفينة وهاجت أمانيهم القديمة، فكسروا كل حاجز واجتمعوا حول هذا المنادي ﷺ. يقول المؤرخون إن النبي ﷺ لما رفع هذا الصوت بدا وكأن الصحراء العربية الخالية من الماء قد تحولت إلى بحر زاخر وأخذت أمواجه ترتفع وتصطدم بالبلاد المجاورة، ثم إلى البلاد التي بعدها، حتى اكتسحت كل تلك البلاد والأقطار. الحق أن ذلك الإحساس الدفين في قلوب العرب بأنهم ظلوا محرومين من فرصة للرقي والتقدم هو الذي جعلهم كالمجانين، إذ قالوا في أنفسهم: كيف يمكن أن يأخذ العالم كله نصيبه من الرقي والتقدم ونظل محرومين منه؟ فخرجوا على إبلهم مندفعين كالمجانين حتى أطاحوا بعرش كسرى وقيصر، وبسطوا حكمهم إلى أطراف الأرض. هذا هو التدبير الذي اتخذه الله تعالى لرقي النبي ﷺ وعظمته، إذ بعثه في بلد كان في قلوب أهله مشاعر مكبوتة منذ قرون، إذ قالوا في أنفسهم: لقد أخذ سائر العالم نصيبه من الدنيا ولكننا لا نزال محرومين منه. فتشابه حالهم مع حال الأعمى الذي أراد الأكل مع رجل بصير؛ فيحكى أن أعمى وبصيرًا جلسا للأكل معًا في طبق واحد، ففكر الأعمى أن صاحبه يأكل أكثر منه لأنه يبصر، فأخذ يسرع في الأكل. ثم فكر أن صاحبه قد تنبه إلى ما فعل، ولا بد أنه أيضًا بدأ يأكل بسرعة، فأخذ الأعمى يأكل بكلتي يديه. ثم فكر أن صاحبه أيضًا يفعل مثله، فأخذ الطبق في يده وقال لصاحبه: لقد أكلت نصيبك وما بقي هو نصيبي أنا. مع أن الواقع أن صاحبه البصير لم يكن قد أكل حتى لقمة واحدة، وإنما ظل يضحك على ما فعله الأعمى. وهذا ما فعل العرب أيضًا، حيث حملوا من أمام باقي العالم طبق المُلك والحُكم قائلين: لقد أخذتم نصيبكم وما بقي هو نصيبنا نحن.

باختصار هذا هو التدبير الذي اتخذه الله تعالى من أجل غلبة النبي ﷺ، إذ بعثه في أمة كانت محرومة من الرقي والغلبة منذ مدة طويلة، وكانت في قلوبهم مشاعر

مكبوتة وأمانٍ دفينة عبر القرون، وكانوا ينتظرون فقط نداء منادٍ ليهيج مشاعرهم ويجعلهم ملوكَ العالم. كانت قلوبهم مليئة بالغضب والثورة بأن الشعوب الأخرى لا تزال تتمتع بنعم الدنيا ولا تعطيهم منها شيئًا. ومن المعلوم أن المرء إذا كظم غيظه على أحد سنةً أو سنتين ثم وجد فرصة لصب جام غضبه عليه حطَمه وكسره، فما بالك بقوم كان غيظهم مكبوتًا منذ قرون طويلة؟

كان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا قصة للمهراجا "رنجيت سنغ" بأن أحد الطباخين وضع مرةً في طعامه ملحًا أكثر من اللازم خطأً، فعاقبه المهراجا على ذلك بمئة جلدة. وكان للمهراجا وزيرٌ مسلم طيب القلب اسمه عزيز الدين، فقال له: لا يليق بجلالة الملك أن يضرب الطباخ مئة جلدة على جريمة زيادة الملح في الطعام! فقال المهراجا: أيها الوزير لا تظن أنني عاقبته بسبب الملح الزائد، بل الحق أنه قد أكل مئة خروف لي أثناء فترة خدمته، وقد ضربته سوطًا على كل خروف؛ أما الملح الزائد فهو مجرد عذر لعقابه على جرائمه السابقة.

إذًا، لو كبت المرء مشاعره لسنة أو سنتين أصبح كالمجنون من فورة غضبه، فما بالك بالقوم الذين ظلوا يكبتون مشاعرهم قرونًا طويلة، إذ كانوا يرون أن العالم قد أخذ نصيبه من الدنيا ولم يعطهم نصيبهم منها؟ والحق أن مثل هذه المشاعر الدفينة تلعب دورًا كبيرًا في رقي الشعوب. لا شك أنها تتأثر من أوضاعها، ولكن مشاعرها لا تكون واضحة المعالم لها أيضًا شأن الفراشة التي لا تدري أنها تكتسب ألوان الأزهار، ومثل الحمامة التي لا تعلم أنها تكتسب لونًا رماديًا، ومثل الببغاء التي لا تعلم أنها تكتسب لونًا أخضر، ومثل الغزال الذي لا يعلم أنه يكتسب لونًا رمليًا. ولو كان للغزال لسان وسألته هل تكتسب لون الرمال، لم يستطع أن يقول: نعم، إلا أن رغبته في الاختفاء في رمال الصحراء تُكسبه ذلك اللون تلقائيًا من حيث لا يدري. ولو كان للفراشة التي تعيش بين الأزهار الحمراء لسان تنطق به لم تستطع أيضًا أن تقول إنها تكتسب لونًا أحمر، إلا أن رغبتها في الاختفاء بين الأزهار الحمراء مثلاً تُكسب أجنحتها لونًا أحمر من حيث لا تدري. ولو كان للببغاء الخضراء لسان تنطق به لما استطاعت أن تقول إنها تكتسب لونًا أخضر من

الأشجار، ولكن رغبتها في الاختفاء بين الأوراق الخضراء تُكسبها لونًا أخضر من حيث لا تدري. كذلك حال الشعوب المتخلفة الهمجية المنعزلة عن باقي العالم المتحضر والمحرومة من الحُكم ومن الانتفاع من متع الدنيا، فإن أمانيها المكبوتة تؤثر على نفسها تأثيرًا معينًا، وإن لم تستطع هذه الشعوب أن تقول بلسانها إنها تتأثر من ظروفها وبيئتها. إنها تفكر أنها تعيش منذ قرون وأجيال ولكن الدنيا لم تمنحها أي حق، بل سلبت حقوقها وثرواتها وخيراتها، وحرمتها من التعلم والثقافة، فحان الأوان لتثور على العالم وتستولي عليه وتسترد منه كل حق. هذه هي المشاعر التي تتولد في الأمم المحرومة بحكم الأوضاع التي تعيش فيها، وهذه هي المشاعر التي تجعلها غالبة على الآخرين. لقد بُعث عيسى عليه السلام في أمة متحضرة مثقفة قد أخذت نصيبها من الرقي المادي، ولذلك استغرق كفاحه هو وحوارييه من أجل الرقي ثلاثة قرون. أما موسى عليه السلام فقد بُعث في أمة مقهورة محرومة من الرقي وكانت ترى أن الأمم الأخرى قد سبقتها في سباق التقدم والرقي وأنها لا تزال في الخلف، فاجتمعت حول موسى عليه السلام فورًا عندما رفع نداءه، إذ كانت فطرة هؤلاء القوم تصرخ من داخلها أنه قد حان الآن وقت رقيهم، ولما اجتمع صوت فطرتهم مع النداء الإلهي أصبحوا غالبين على الناس واستردّوا منهم حقوقهم بالقوة.

هذه السنة الأزلية التي قد أشار الله تعالى إليها في هذه الآية مبيّنًا أنه تعالى عندما يحدث الثورة الروحانية على يد الأنبياء يشاهد العالم عندها أيضًا صدق قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾.. حيث يصبح كثير من الكبراء وأهل الدهاء أذلّةً صاغرين، وينال الكثير من الأمم والأفراد العزَّ والإكرام بعد أن كانوا يُعَدّون مهانين أذلّين. كان أبو جهل يحظى باحترام كبير حتى اعتبره قومه داهيةً وسمّوه أبا الحكم، ولكنه لما عادى النبي ﷺ أصبح من الأذلّين حتى سُمّي أبا جهل. وعلى النقيض كان عليٌّ رضي الله عنه لا يزال طفلاً في الحادية عشرة من عمره فقط حين قام لنصرة الدين، فأعزّه الله وأكرمه حتى جعله خليفة لنبيه ﷺ، ثم جعل نسله أيضًا من الصلحاء الأتقياء حتى كان في ذريته اثنا عشر إمامًا على التوالي. ولكن الذين كانوا يرون

عندها أنهم رؤساء مكة وأنهم ذوو سؤدد وشرف فلا تجد اليوم أحدًا يذكر اسمهم بخير أو ينظر إليهم باحترام.

إذًا، فكما أن القانون الإلهي ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ جارٍ في المُلك المادي فإنه جار في العالم الروحاني أيضًا، حيث يجعل الله تعالى عند بعثة كل نبي كثيرًا من الكبار صغارًا وكثيرًا من الصغار كبارًا ويكتب لهم العزة والشرف.

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٧﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

قِبَلَ: القِبَلُ: الطاقة، يقال: ما لي به قِبل. (الأقرب)

صاغرون: الصاغر: المُهان والراضي بالذل والضيم. (الأقرب)

التفسير: لما فرغ حاشية ملكة "سبأ" من تقديم مشورتهم لها قالت: لقد ارتأيتُ بعد دراسة الأمور كلها أن أُرسل إلى سليمان هدية وأنتظر الجواب الذي يردّ به على رجالي. فسلّمت الهديةَ إلى الهدهد. فلما رأى سليمان عليه السلام هديتها قال إن هؤلاء القوم يريدون أن يمدّوني بمال.

ويمكن للقراء الأفاضل تصوُّر الهدية الكريمة التي حملها طير الهدهد في منقاره. فإن الهدهد ربما لم يستطع أن يأخذ في منقاره عُشر الجنيه الواحد، فكيف، يا تُرى، أيقن برؤية هذه الهدية الحقيرة أن الملكة قد ﴿أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟

على أية حال، فلما وضعها أمام سليمان ﷺ قال ما هذا الشيء الحقير الذي جئت به؟ فإن ما آتاني الله خير مما عندهم. ولا يمكن أن يفرح بهذه الهدية إلا أُناس أذلاء مثلهم! ثم قال للهدهد ارجِعْ إليهم، فالآن سنأتيهم بجنود لا طاقة لهم بمواجهتها - ولا تنس أن هذا الجيش قوامه الهداهد والعصافير الصغيرة منها والكبيرة - وسأطرد أهل سبأ من بلدهم مهانين صاغرين، وسيعيشون تحت سيطرة هذا الجيش في خزي طويل. علمًا أن ﴿صاغرون﴾ اسم فاعل وفيه معنى الدوام.

لقد غضب سليمان ﷺ لأن الملوك كانوا يسترضون الملوك الأقوياء بتقديم الهدايا والأموال لهم كرشوة. فلما وصلت هدايا الملكة "بِلقيس" إلى سليمان ظن أنها تعتبره من الملوك الفاسدين المرتشين، فاستنكر فعلتها.

والحق أن ما فعلته ملكة سبأ يُماثل ما فعل كسرى مع المسلمين، إذ ورد في التاريخ أن المسلمين لما هاجموا بلاده قال كسرى لحاشيته: لا أُصدق أن العرب يمكن أن يشنوا الغارة على مُلكي، فإنهم أحقر شأنًا من ذلك؟ ابعثوا إلى قائدهم أن يأتي لزيارتي. فذهب رسوله برسالته إلى قائد المسلمين، فبعث إليه القائدُ المسلم أحد الصحابة مع كتيبة صغيرة. ودخل هؤلاء الصحابة في بلاطه متكئين على الرماح فوق السجادات الغالية المفروشة، فازداد الملك غضبًا وقال للصحابي: كيف تجاسرتم على الهجوم على بلدي، وأنتم أمة ذليلة حقيرة تأكلون الضب وتنكحون الأمهات؟ وها إني أعطي كلَّ ضابط منكم دينارين وكل جندي دينارًا، فخذوها وارجعوا أدراجكم، ولا تفكروا في الهجوم على مملكتي ثانية. فأجابه الصحابي: أيها الملك، قد صدقتَ فيما قلت، كنا قومًا يأكلون الضب وينكحون الأمهات، أما الآن فقد تغير الوضع، فإن الله تعالى قد بعث فينا رسوله الذي غيّرنا رأسًا على عقب، وبيّن لنا الحلال والحرام. واعلم أيها الملك، أنه قد ولّى الزمان الذي كان الناس يعطوننا بعض الأموال رشوة ليُملوا علينا أوامرهم، فإننا لن نبرح حتى نفتح بلادك. فقال الملك: سأعاقبك على جرأتك هذه. ثم أمر بعض جنوده بإحضار عِدلٍ مليء بالتراب، فلما أتى به قال الملك للقائد المسلم: تعال واخفِضْ رأسك. ففعل، فوضع الملك العِدْل على ظهره وقال: اخرُجْ الآن من

عندي فلن أعطيك أكثر من ذلك. فحمل الصحابي التراب وخرج بسرعة من بلاطه وركب حصانه قائلاً لأصحابه: تعالوا نرجع الآن، فإن ملك الفُرس قد سلّم إلينا بيده أرض بلده. ثم ركبوا جيادهم وطاروا عليها إلى الجيش المسلم. وبما أن المشرك يتوهم كثيرًا، فإن الملك لما بلغه قول القائد المسلم أمر رجاله بالخروج وراءهم بسرعة واسترداد عِدل التراب منه إذ من الشؤم الكبير أن يضع الملك بيده تراب أرضه بيد العدو. فخرجوا وراء الوفد المسلم، ولكنهم كانوا قد ذهبوا بعيدًا. (البداية والنهاية: المجلد السابع غزوة القادسية)

كذلك حاولت ملكة سبأ استرضاء سليمان عليه السلام بالهدايا لتَثنيه عن الهجوم، ولكنه رفض هداياها إذ لم تكن إلا نوعًا من الرشوة.

قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

عِفريت: العفريت: النافذ في الأمر المُبالِغُ فيه مع دهاء؛ الخبيث المنكر. (الأقرب)

التفسير: ثم قال سليمان الطَيْكِلاَ لرجاله يا أيها الملأ مَن منكم يأتيني بعرش الملكة قبل أن يأتوني مطيعين؟ فقال رئيس من فرقة الحرس الخاص: سآتيك بعرشها قبل أن تخرج للهجوم عليهم. لقد كان أحد قادة الجيش فكان يعلم المدة التي سيقيم فيها الجيش في ذلك المكان، ففكر في نفسه أنه سيرعب الملكة ويأتي بعرشها في تلك المدة، وأضاف أنه ذو قوة ولا يقدر جيش الملكة الصغير على مقاومته. ثم إنه مطيع له فلن يخون عند نقل هذه الثروة إليه.

فنهض شخص آخر عنده عِلمُ الدين وقال لسليمان: سآتيك بعرشها ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. وكان الخليفة الأول ﷺ يقول إن من معاني الطرف الخراج، أما أنا فلم أعثر على هذا المعنى حتى الآن؛ فلذا ما لم أجده سأفسر هذه الجملة بمعناها المعروف وهو: السرعة، حيث يقول الرجل إذا أراد التعبير عن فعل شيء بسرعة: سأقوم به بلمح البصر. وعليه فالمراد أن ذلك العالم اليهودي وعد سليمان الطَيْكِلاَ بإحضار عرش الملكة قبل أن يُحضره الشخص الآخر الذي كان رئيسًا يهوديًا أو أدوميًا أو عربيًا.. وكان يعني أنه سيصنع عرشًا جديدًا فخمًا مثل عرش الملكة ويُحضره إلى سليمان الطَيْكِلاَ بسرعة. ذلك لأن البلد بلد اليهود، فكان هذا العالم اليهودي موقنًا أنه سيصنع العرش بسرعة بمساعدة الحِرفيين اليهود، فوعد بإحضاره قبل أن يُحضره هذا العفريت. فلما جيء سليمان الطَيْكِلاَ بالعرش ورآه قال: إن هذا من فضل ربي.. أي أنه تعالى أعطاني مسؤولين نشيطين أذكياء وحقق لي كل ما أتمناه، لينظر أأكون عبدًا شاكرًا له أم ناكرًا لنعمه؟ وحيث أعلن القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾(الآية١٠٣)، موضحًا أن سليمان الطَيْكِلاَ أصبح بهذه النعم عبدًا شاكرًا لله تعالى لا كافرًا به.

ثم قال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.. أي أن الشكر ينفع الإنسان نفسه وأن الكفر لا يضر الله شيئًا لأنه تعالى كامل في ذاته ولا يحتاج إلى أحد.

وبعد أن أعرب سليمان عليه السلام عن مشاعر شكره لله تعالى عاد إلى الموضوع الأساس وقال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾.. أي لا بأس بهذا العرش، ولكني أريد أن يكون أروع من هذا أيضًا حتى يبدو عرش الملكة أمامه نكرةً أي حقيرًا، لأني أريد أن أرى ما إذا كانت تعترف بأن الله تعالى أكثر نعمةً عليّ أم أنها تظل مغرورة بما عندها.

فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٤﴾

التفسير: لما جاءت الملكة قيل لها أعرشك كمثل عرش ملكنا؟ فأخذتها العزة فلم تعترف بفضله بل قالت: كأنه مثل عرشي. ثم قالت ولا داعي لمثل هذه الأمور فإننا قد سمعنا عن دين سليمان وعلمنا أنه على الحق وقد دخلنا في طاعته.

وعندها أراد سليمان أن يمنعها من عبادة ما سوى الله تعالى، فقام بوعظها إذ كانت من قوم كافرين.

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

الصرح: القصر؛ كلُّ بناء عالٍ. (الأقرب)

لُجّة: اللجّة: معظمُ الماء؛ المِرآةُ؛ الفضّةُ. (الأقرب)

مُمرَّد: مرَّد البناءَ: ملَّسَه وسوَّاه. (الأقرب)

قوارير: جمعُ قارورة: الزجاج. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى: ﴿مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ مصنوع من الزجاج.

التفسير: يقول المفسرون أن سليمان عليه السلام كان يريد الزواج من الملكة بلقيس، ولكن الجن أخبروه أن ساقها مغطاة بالشعر كالماعز، فأراد تحري الأمر، فبنى قصرًا في فنائه حوضٌ كبيرٌ مفروشٌ سطحه بالزجاج يجري فيه الماء فينخدع الرائي ويظن أن الماء يجري في أرضية الفناء. فدعا الملكةَ للإقامة في القصر، فلما مرّت في الفناء ظنت أن فيه ماءً يجري، فرفعت ثيابها فزعًا، فانكشفت ساقها، فعلم سليمان عليه السلام أنها مغطاة بالشعر فعلاً، فأمر بإعداد النورة لإزالة شعرها. (ابن كثير)

ويقول البعض أن سليمان عليه السلام لم يبنِ القصر الممرد بالقوارير ليرى شعر ساقها، وإنما الواقع أنه وجد في إحضار عرشها إساءةً له، فأمر ببناء القصر إظهارًا لعظمته.

ولكن هل من عاقل في الدنيا يقول أن هذه الأمور تبلغ من الأهمية بحيث يذكرها الله تعالى في وحيه الذي هو آخر شريعة للإنسانية. الحق أن هذه الأفعال التافهة لا تمتّ إلى الدين ولا إلى المعرفة بصلة، كما أن أنبياء الله تعالى لا يأتونها. كل ما في الأمر أن ملكة سبأ كانت مشركة تعبد الشمس، وأراد سليمان عليه السلام منعها من الشرك، فقام بنصحها بالكلام أولاً، ثم أراد كشف خطأ عقيدتها عليها بشكل عملي، فأمر بإقامتها في قصر أرضيته زجاجية يجري تحتها الماء، فلما همت بالمرور عليها ظنتها ماءً فرفعت ثيابها عن ساقيها بسرعة، أو المعنى أنها خافت خوفًا شديدًا- لأن الكشف عن الساق يعطي كلا المفهومين - فهدّأ سليمان عليه السلام من روعها وقال: لا تنخدعي فإن ما تظنينه ماءً إنما هو أرضية زجاجية يجري من تحتها الماء. لقد كشف عليها سليمان بطلان الشرك بالأدلة من قبل، فأوضح لها الآن حقيقته بمثال عملي وبيّن أنها كما رأت الماء من خلال الزجاج وظنته ماءً كذلك فإن نور الله هو الذي يتجلى في الأجرام السماوية. فاقتنعت بهذا الدليل وقالت من

فورها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. أي يا رب لقد ظلمت نفسي بالشرك، وها إني أؤمن مع سليمان، أي بحسب دينه، بالله الذي هو رب العالمين، والذي تستفيض الشمس والقمر من فيوضه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

اطَّيَّرْنا: تطيّرَ بالشيء ومنه: تَشاءمَ، ويقال: اطَّيَّرَ أيضًا بالقلب والإدغام (الأقرب)

طائركم: كل ذي جناح من الحيوان. وبما أن العرب كانوا يتشاءمون فأطلقوا الطير على ما تيمّنوا به، فيقولون: "سِرْ على الطائر الميمون" دعاء للمسافر. ويقولون أيضًا: "هو ميمون الطائر" أي مباركُ الطلعة. والطائر أيضًا: عمل الإنسان الذي قُلِّدَه وطار عنه من خير أو شر. الطائر أيضًا: كوكب إذ كانوا يتشاءمون أو يتيامنون به. (الأقرب)

تُفْتَنون: فُتِنَ الرجل في دينه: مالَ عنه، وفُتِنَ فلان: أصابته فتنةٌ فذهب ماله أو عقله. (الأقرب)

التفسير: بعد ذكر واقعة سليمان عليه السلام تحدث الله هنا عن ثمود. كان هؤلاء القوم قد خلوا قبل موسى عليه السلام بزمن قريب، ولكن الله تعالى قد ذكرهم بعد ذكر سليمان مباشرة لأن الكثير من بلادهم خضعت لحكمه عليه السلام. علمًا أن القرآن

الكريم ليس مصدرًا تاريخيًا حتى يذكر الأحداث بحسب التاريخ، إنما هو كتاب الدين والحضارة، فيذكر أحداث الأمم من هذا المنظور. وقد ذكر ثمود بعد ذكر سليمان عليه السلام مع أنهم قد خلوا قبل زمنه لأن الأمة اليهودية قد أثرت فيهم ولأن بلادهم خضعت لسليمان ودخل أهلها في طاعته. والحق أن الجن المذكورين في قصة سليمان عليه السلام هم من نسل ثمود، وقد سُمّوا جنًا لكونهم أجانب، وقد ذكرهم الله تعالى هنا بعد اليهود لكونهم ذوي صلة باليهود ولخضوعهم لحكمهم.

يخبر الله تعالى هنا أن نبيه صالحًا عليه السلام دعا قومه ثمود إلى التوحيد، فأخذوا يجادلونه مثيرين الفتنة، بدلاً من أن يلبوا نداءه، إذ صاروا فريقين: فريق آمن به وفريق كفر.

الواقع أن ثمود خلفوا عادًا (الأعراف:٧٥). لقد أتى هؤلاء من جنوب الجزيرة العربية وانتشروا في جميع مناطقها الشمالية، فصارت لهم صلات بالأمم المؤمنة بالتوحيد. فقد كتب أبو إسماعيل مؤلف "فتوح الشام" أن ثمود كانوا منتشرين من بُصرى - وهي مدينة سورية - إلى "عدن" التي كانت عاصمتهم. لما اضطروا للهجرة في زمن قوة قوم حِميَر وقوم "سبأ" خرجوا من جنوب الجزيرة إلى شمالها، فأتوا أوّلاً إلى الحجاز ثم تِهامة ثم الحِجر (أرض القرآن ص ١٨٨). فمن كان منهم متأثرًا بعقيدة التوحيد آمن بصالح عليه السلام، أما الذين كانوا بعيدين عن عقيدة التوحيد فعارضوه معارضة شديدة. فلما نصحهم صالح عليه السلام لم يتعظوا بل قالوا يا صالح إننا نتشاءم منك، ونرى أن هذه الفُرقة الحاصلة بين القوم بسبب تعاليمك ستؤدي بنا إلى الدمار. لم يدرك هؤلاء الجاهلون أن صالحًا إنما جاء ليُحييهم وليُخرجهم من الحضيض إلى القمة، بل لما رأى المعارضون أن تعليم صالح قد جعل القوم مختلفين، وأن بعضهم قد بدأ يشعر بالفعل أنهم يسلكون طريقًا خاطئًا ولا بد لهم من إصلاح أحوالهم والانتهاء عن سوء أعمالهم، فأخذوا يقولون له لم يحدث هذا الخلاف والفرقة بين القوم إلا بسبب نحوستك، فلولاك لم يتشتت شملنا. مع أن الواقع أن الموتى لا يقدرون على إحداث أي انقلاب في الدنيا وإن كانوا مئات الآلاف، إنما تقع الثورة بواسطة الأحياء مهما كان عددهم قليلاً. كان قوم ثمود أمواتًا قبل بعثة

صالح عليه السلام فأراد الله تعالى إصلاحهم على يد نبيه، ولكنهم عوضًا عن أن يشكروا الله تعالى على ذلك أخذوا يقولون لنبيهم: ويلك قد فرّقتَ شمل القوم وقضيت على وحدهم. وذلك كما حصل مع النبي ﷺ أيضًا، حيث بعثه الله تعالى لإقامة وحدانيته في العالم ولكن الكافرين اتهموه بأنه قد شتت شمل القوم وقضى على وحدهم. بل إن الكافرين قد جاؤوا أبا طالب مرة وطالبوه بنصح ابن أخيه لكي يمتنع عن نشر عقيدة التوحيد. كذلك فعل المعارضون في زمن صالح، فلما رأوه يدعو القوم إلى التوحيد تميزوا من الغيظ واعتبروه نحسًا وشؤمًا عليهم، ولكن صالحًا عليه السلام لم يمتنع عن تبليغ رسالة الإله الواحد بسبب قولهم، كما أن النبي ﷺ لم ينته عن نشر عقيدة التوحيد؛ فعادت الحياة إلى العرب الذين كانوا أمواتًا روحانيًا (السيرة النبوية: مباداة رسول الله ﷺ قومه). ما هو الفرق بين الحي والميت، يا ترى؟ إنما هو أن الميت يفقد الحس والشعور؛ فلو سبَّ المرء أعزَّ أعزّته أو قتله لم يحرك ساكنًا للدفاع عنه، بل لم يشعر بهذا الظلم مطلقًا. ولكن الإنسان الحي يعرف نفعه من ضره، ويسعى للدفاع عن حقوق الآخرين أيضًا. ونفس الحال بالنسبة للذين يموتون روحانيًا، فيرتكب الناس أمامهم الفظائع والمنكرات، فيكذبون ويخدعون ويغشّون ويظلمون، ولكن هؤلاء لا يبالون بهذه المنكرات. وعندما يأتي نبي من عند الله سبحانه وتعالى يقول للناس إذا رأيتم أحدًا يكذب فامنعوه من الكذب، وإذا رأيتم أحدًا يظلم صاحبه فانهوه عن الظلم. بل لقد قال نبينا ﷺ أن من علامة المؤمن أنه إذا رأى منكرًا غيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، أي يستنكره في قلبه (مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان). ولكن الموتى الروحانيين لا يتصفون بأي من هذه الخصال، إذ يرون الناس يقعون في الظلم والكذب أمام أعينهم ولكنهم لا يزيلونه بيدهم ولا بلسانهم ولا بقلوبهم. لا شك أنهم يستنكرون هذه المنكرات بلسانهم أحيانًا ولكنهم يفعلون ذلك رياءً بدون أن تظهر على وجوههم أية آثار للغيرة الإيمانية. أما علامة الإنسان الحي فهي أنه يتحلى بإحدى هذه الخصال الثلاث حتمًا، فإما أنه يزيل المنكر بيده أو بلسانه أو يستنكره في قلبه على الأقل.

وإن أفضل مثال لذلك هو ما فعل عثمان بن مظعون ﷺ الذي كان قد أسلم وهو في مقتبل شبابه. ولما أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى بلاد الحبشة، أراد عثمان الهجرة، فقال له رئيس من مكة: كان أبوك صديقًا لي وكان يعتبرني أخًا له، فإذا كنت تهاجر خوفًا من أذى الناس فها إني أعلن بين أهل مكة أني أجير عثمان في جواري من اليوم، فلن يتعرض لك أحد بأذى. فرضي عثمان ﷺ بعرضه، وأعلن الرئيس بحسب عادة العرب بأن عثمان في ذمته. فامتنع الناس عن إيذائه، فأخذ يمشي بين الناس بحرية تامة. ولكنه لما رأى إخوانه المسلمين الآخرين لا يزالون هدفًا للتعذيب بيد أهل مكة ثارت غيرته الإيمانية فقال لنفسه: كيف تمشي بين الناس في حرية وإخوانك في الإسلام عرضة لإيذائهم؟ فذهب ﷺ إلى ذلك الرئيس وقال له: خُذْ ذمتك عني فإني لا أرضى بأن أمشي بين الناس بحرية وإخواني لا يزالون هدفًا لتعذيب القوم. فقال له الرئيس لا ترد عليّ جواري، ولكنه لم يرضَ بذمته، فأعلن الرئيس مضطرًا بأن عثمان لم يعُدْ في ذمته منذ اليوم. وبعد أيام قامت سوق عكاظ، وحضر عثمان مجلسًا كان الشاعر الشهير لبيد يُنشد فيه شعره بين أعيان مكة ورؤسائها الذين كانوا يكيلون له المدح والثناء. وبينما هم في ذلك إذ أنشد لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ

أي أن كل شيء باطل وفان سوى الله تعالى. فلما سمعه عثمان بن مظعون ﷺ قال بصوتٍ عال: قد صدقتَ وأصبتَ، إذ كل شيء فان إلا الله فعلاً. وكان عثمان أصغر سنًا من لَبيد بكثير إذ كان عمر لبيد عندها ثمانين سنة وقد مات بعد أن تجاوز مئة وعشرين سنة، وكان يعتبر نفسه من فحول الشعراء العرب، فتحرّجَ من شاب عمره ثمانية عشر سنة يُثني على شعره، فتوجه إلى رؤساء مكة قائلا: لماذا يثني عليّ هذا الولد؟ متى حدث فيكم هذا فلا تحترمون شعراءكم؟ فأخذ الناس يلومون عثمان بن مظعون ويقولون: لا تتكلم في حضرة الكبار، اسمع الشعر صامتًا. فاستأنف لبيد إنشاد الشعر وقرأ الشطر الثاني من البيت وقال:

وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائلُ

فلم يتمالك عثمان ﷺ نفسه وقال: هذا كلام فاسد وباطل، إذ لا زوال لنعيم الجنة. فلم يتحمل لبيد نقده خاصة وأنه كان متضايقًا من قبل أيضًا، فقال: لن أنشد شعري بعد اليوم في قوم أمثالكم. فثار القوم ولَكَمَ أحدهم عثمان بقوة وفقَأ عينه. وكان الرئيس الذي منح عثمانَ الأمان من قبل حاضرًا في المجلس، ولكنه لم يستطع الدفاع عن عثمان علنًا خوفًا من رؤساء القوم، فأخذ يلومه كما تلوم الخادمة ولدها إذا ما تشاجر مع ابن سيدها، فقال له غاضبًا: ألم أقل لك أن لا تخرج عن ذمتي، هل رأيت نتيجة ذلك؟ فأجابه عثمان بن مظعون: إذا كانت إحدى عيني قد ضاعت فلا ضير، فوالله إن عيني الأخرى أيضًا لتتلهف أن تُفقأ في سبيل الله تعالى.*

هذه هي الحياة التي نفخها الرسول ﷺ في صحابته، فجعلهم من الخالدين.

وعلى النقيض كان أبو جهل يرى الناس يرتكبون أمامه أنواع المنكرات ولكنه كان يسكت عليها ويضحك. ولم يسكت أبو جهل على المنكرات إلا لأنه كان ميتًا، ولم يستنكر الصحابة تلك المعاصي إلا لأنهم كانوا أحياءً.

ومن البراهين الدالة على الحياة التي نفخها النبي ﷺ في صحابته أنه برغم أن مكة قد وُضع أساسها منذ قديم الزمان على يد إبراهيم عليه السلام، إلا أن أهلها لم يخرجوا عن الجزيرة العربية شأن ثور الرحى الذي لا يبرح يدور حولها فقط. ولكن عندما نفخ النبي ﷺ في الصحابة - الذين كانوا أولاد ذلك القوم الذين لم يستطيعوا منذ زمن إبراهيم إلى زمن الرسول ﷺ، أي ما يقارب خمس مئة وألفي سنة، إحراز أي تقدم ولا رقي، بل ظلوا يطوفون في الجزيرة العربية كثور الرحى - روحًا جديدة، حيث خرجوا من الجزيرة العربية، ووصلوا إلى الصين وإسبانيا وصقلية وإيطاليا وإفريقيا وحتى حدود روسيا، ولم يمض نصف قرن حتى سيطروا على العالم كله. هذه هي الحياة التي نالوها ببركة النبي ﷺ، وهذه هي الحياة التي أتى الأنبياء كلهم

* لقد ورد هذا الحادث في السيرة النبوية لابن هشام مع بعض الاختلاف. (المترجم)

حاملين كؤوسها ليشربها الموتى الروحانيون منذ عشرات القرون، فيحيوا بها ثانية. ولكن بما أن الأنبياء يأتون بنظام جديد، وكل نظام يكون مصحوبًا بانقلاب، فإن أعداء الحياة الروحانية ينبرون لمعارضتهم معتبرين إياهم سبب كل شؤم ونحس. وقد رأينا ذلك في هذا العصر أيضًا، وذلك أنه عندما أخذ الناس يموتون بكثرة نتيجة مرض الطاعون والزلازل بحسب ما أنبأ به مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام، فلا شك أن فريقًا منهم اهتدى بسببها، ولكن فريقًا منهم أخذوا يقولون إن كل هذه الأوبئة والبلايا والكوارث إنما هي بسبب نحس المرزا وشؤمه! فلو لم يدّعِ النبوة بعد محمد ﷺ لما نزل هذا العذاب على الدنيا.

وهذا ما فعل أعداء صالح عليه السلام أيضًا إذ قالوا له: إن كل البلايا إنما تنـــزل بسبب شؤمك ونحسك. فأجابهم صالح عليه السلام: إنما نحسكم وشؤمكم بيد الله تعالى، وإذا تحديتم عذابه فسيعاقبكم به حتمًا، أما إذا سألتم فضله فسيُنـــزله عليكم أيضًا. ولكني أخاف عليكم عذابه لأنكم قد تركتم الدين الحق.

وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ
﴿٥٠﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٢﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٣﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٤﴾

شرح الكلمات:

رَهْط: الرهط: قومُ الرجل وقبيلته؛ وعددٌ يجمع من الثلاثة إلى العشرة وليس فيهم امرأة. (الأقرب)

لَنُبيِّتَنَّه: بيَّت الأمرَ: عمِله أو دبّره ليلاً. (الأقرب)

دمَّرنا: دمّرهم وعليهم: أهلكَهم. (الأقرب)

خاوية: خَوَتِ الدارُ: سقَطتْ وتهدّمتْ. وخَوِيت الدارُ: خلَتْ مِن أهلها. (الأقرب)

التفسير: وكان في المدينة التي بعث الله فيها صالحًا عليه السلام تسعةٌ من أئمة الكفر، وكانوا يفسدون في الأرض ليلاً ونهارًا جاهدين لكي يُفشلوا صالحًا عليه السلام في إشاعة توحيد الله تعالى. ولو أنهم استغلّوا مكانتهم المرموقة في أعمال الخير وهداية الناس لازدادوا عزًّا وشرفًا، ولكنهم سلكوا طريق الهلاك والدمار. فتشاوروا فيما بينهم وقالوا تعالوا نحلف بالله أنّا سنُغير على صالح وأهله بالليل ونقتلهم جميعًا، وإذا جاء ورثته يطالبون بدمه نقول لهم لم نشهد قتلهم وإنا لصادقون. يقول الله تعالى: لقد نسجوا هذا الخطة لقتل صالح عليه السلام ولكنهم نسوا أن هناك إلهًا في السماء يحفظ نبيَّه. فمكروا مكرهم، ومكر الله مكرًا ضدهم دون أن ينتبهوا لمكرنا، فظنوا مغترّين بمكرهم أنهم سينجحون في قتل صالح، ولم يدروا أن ملك السماء غالب على مكرهم. وبالفعل ترون أنّا أهلكنا أولئك التسعة وقومهم صغارًا وكبارًا كلهم، سواءً الذين كانوا متورطين في مؤامرة قتله أو الذين كانوا متعاطفين معهم، وجعلناهم هدفًا للعذاب ودمرناهم أجمعين، فترون ديارهم خربة وبيوتهم متهدمة لا يسكنها أحد، بل أصبحت عبرة لمن يعتبر، وآية عظيمة لقوم يعقلون. أما الذين

آمنوا بصالح وعاشوا بالصلاح والورع فأنجيناهم من العذاب وأمددناهم بأسباب الرقي والتقدم.

أما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ هنا فهو تحذير بأن التسعة من ثمود كما خططوا لقتل صالح، كذلك سيتآمر تسعة من أئمة الكفر على محمد ﷺ أيضًا، فيقرّرون أن يقتله فتيان من جميع القبائل معًا. ولكن الله تعالى كما خيّب أعداء صالح في خطّتهم كذلك سيُحبط خطة أئمة الكفر ضد محمد ﷺ. وكما أنه تعالى نجّى صالحًا عليه السلام والذين آمنوا معه من العذاب، وأخذهم إلى مكان محفوظ، كذلك سيُخرج اللهُ النبي ﷺ وأصحابه من بين الأعداء ويذهب بهم إلى المدينة حيث يفتح عليهم أبواب النجاح والانتصار.

وكل من هو مُلمّ بالتاريخ يعلم جيدًا كيف تحققت هذه النبوءة القرآنية حرفيًا. فكما كان في زمن صالح عليه السلام تسعة هم رأس الفساد، كذلك كان في زمن النبي ﷺ تسعة من أئمة الكفر وهم: أبو جهل الذي كان أهل مكة يسمونه أبا الحكم وكان رأس المفسدين المعاندين، وأبو لهب، وأمية بن خلف، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعتبة، وشيبة. فأما أبو جهل وأمية وعقبة بن أبي معيط وعتبة وشيبة فكل هؤلاء الخمسة قُتلوا يوم بدر. وأما النضر بن الحارث فأُسر يوم بدر ثم قُتل على جرائمه. وأما الوليد بن المغيرة فأصابه سهم في قدمه فهلك به بعد الهجرة بثلاثة أشهر. أما العاص بن وائل فمات بعد الهجرة بشهرين بعد أن انتفخت رجله فجأة. وأما أبو لهب فمرض بعد غزوة بدر بقليل ومات. (البخاري: كتاب المغازي، باب دعاء النبي ﷺ على كفار قريش، والسيرة لابن هشام: غزوة بدر الكبرى، وكفاية الله أمر المستهزئين، وذكر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب)

لم يدّخر هؤلاء الرؤساء التسعة من قريش وسعًا في إيذاء النبي ﷺ وإفشاله في مهمته. وليس هذا فحسب بل اجتمعوا في دار الندوة وأشاروا على القوم بوضع خطة للقضاء على الإسلام إلى الأبد. فاقترح أبو جهل أن تختار كل قبيلة فتى منها فيذهب هؤلاء الفتيان بسيوفهم ويقتلوا محمدًا بالليل، إذ لن يتجاسر بنو عبد مناف على حرب كل القبائل التي يشارك فتيانها في قتله، وإذا طالبوا بالدية نعطيهم إياها.

ففرح الجميع بهذا الاقتراح وظنوا أن نجاحهم مضمون، ولكن الله الذي قد حفظ صالحًا ﷺ وأتباعه المخلصين من مكر أعدائه، قد كاد كيدًا لنجاة محمد ﷺ من مؤامرتهم. فما إن خرجوا من ندوتهم بعد حبك المؤامرة حتى أخبر الله تعالى بها نبيه، وأذن له بالهجرة (السيرة لابن هشام: هجرة الرسول ﷺ). والحق أن الهجرة كانت أساسًا لغلبة الإسلام، حيث أدت إلى نـــزول ذلك العذاب الحاسم على أهل مكة الذي قصم ظهورهم؛ أعني حرب بدر.

ثم نـــزل عليهم العذاب الثاني لدى فتح مكة حين دخلها النبي ﷺ مع عشرة آلاف من الأبرار. الحق أن العذاب الذي حل بأهل مكة كان مؤلمًا جدًا، ذلك أن رؤساءها كانوا يحظون بعزة واحترام كبيرين حتى هاب الناس الحديث معهم. كما كانت لهم أيادٍ ومنن كثيرة على الناس؛ فما كانوا يرفعون بصرهم إليهم، والحادث التالي خير شاهد على ذلك:

عند صلح الحديبية بعث أهل مكة أحد رؤسائهم للتفاوض مع النبي ﷺ، وبينما هو يحاوره لمس لحيته ﷺ، فأبعد صحابي بقبضة سيفه يد الرئيس عن لحيته قائلا: لا تلمس بيدك النجسة لحيته المباركة. فرفع بصره ليرى الذي ضرب يده بقبضة سيفه، فلم يرَ منه إلا عينه إذ كان الصحابة لابسين دروعهم، فبعد أن صوّب بصره في وجه الصحابي قال: أأنت فلان؟ قال: نعم. قال: أنسيت إذ نجيتك وأهلك من محنة كيت، وأحسنت إليك في مناسبة كيت؟ لا شك أن نكران الجميل ظاهرة شائعة في هذا العصر بحيث لو أحسنت إلى أحد في الصباح نسيه في المساء، ولو أحسنت إليه في المساء نسيه في الصباح، ولقال لك: هل تريد أن أصبح عبدًا لك طوال الحياة لأنك قد أحسنتَ إلي؟ فينسى صنيعك الذي فعلت به البارحة، دعك أن يتذكر أياديك التي أسديتها إليه طول الحياة. ولكن العرب كانوا شديدي الشكر لمن يحسن إليهم، فلما ذكّر الرئيس ذلك الصحابيَّ بأياديه عليه خجل وانسحب إلى الوراء رغم خطورة الموقف. فاستأنف الرئيس حديثه مع النبي ﷺ ثانية وقال: إني أبو العرب وأرجوك أن ترضى بما يقول قومك من قريش، أما هؤلاء الذين اجتمعوا حولك فإنما هم أحابيش وسيخذلونك عند المصيبة ولن ينفعك إلا قومك، فلا

تُذلّهم. ثم لمس لحية النبي ﷺ مرة أخرى متوسلاً إليه. فلم يملك الصحابة أنفسهم إذ رأوا فيه نوعًا من الاحتقار، فضرب أحدهم على يد الرئيس وقال: لا تمدّ يدك النجسة إلى لحيته المباركة. فرفع بصره ليرى الذي يمنعه. فلما عرفه خفض بصره وقال: فأنت أبو بكر، وليس لي منة في عنقك. (البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، والسيرة لابن هشام: أمر الحديبية)

إذًا فكان لهؤلاء الرؤساء أياد كثيرة عند الناس، إذ كان لهذا الرئيس أيادٍ في عنق كل أنصاري ومهاجر إلا أبا بكر، ولذلك لم يجرؤ أحد سواه على إبعاد يده عن النبي ﷺ. ولكن الوضع قد انقلب بعد ذلك تمامًا، فإن كل هؤلاء الرؤساء ذوي العزة والهيبة والمنن والأيادي عند الناس عُرضوا أمام النبي ﷺ يوم الفتح مطأطئي الرؤوس نادمين، فسألهم: هل تعرفون ما أنا فاعل بكم؟ فقالوا: نرجو أن تفعل بنا ما فعل يوسف بإخوته. (السيرة لابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للمسير)

إذًا فكما كانت هجرة صالح عليه السلام مباركة له ولأصحابه كذلك كانت الهجرة التي اضطر لها النبي ﷺ وأصحابه فاتحة خير عظيم وفتوحات كبيرة، حيث خرج الإسلام من مكة وانتشر بين الجزيرة العربية كلها ثم في العالم كله. بينما انقرض مشركو مكة و لم يبقَ لهم أثر.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ
﴿٥٥﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿٥٦﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟
أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٧﴾

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

الغابرين: الغابر: الباقي. والغِبْر: الحقد. (الأقرب)

التفسير: بعد الحديث عن هلاك ثمود يذكر الله تعالى قصة قوم لوط. والواقع أن لوطًا قد خلا قبل زمن سليمان بمدة طويلة، إذ كان سليمان من نسل موسى الذي كان من نسل إبراهيم الذي كان لوط ابن عمه - عليهم السلام.

وقد ذكر الله هنا واقعة لوط عليه السلام لأنها تشبه واقعة صالح عليه السلام، فكما خطط قوم صالح لاغتياله ليلاً، كذلك جاء قوم لوط أيضا ليلاً ليخرجوه من بيته ويهينوه أمام ضيوفه.

والحق أن القرآن الكريم لم يذكر هذه الأحداث إلا كنبوءة بأن هذا سيحدث بالنبي ﷺ. وبالفعل قد تعرض ﷺ لحادث مماثل لحادث لوط عليه السلام؛ فكما أن قوم لوط أرادوا طرده من بينهم كذلك قرر قوم النبي ﷺ طرده من بينهم. ثم إن التهمة الموجهة إليهما كانت واحدة وإن كانت الأسباب مختلفة، وهي: إنهم أناس يتطهرون.. أي أنهم يظنون أنهم أكثر منا طهارة وعفافًا.

ثم نجّى الله تعالى لوطًا عليه السلام وأهله من العذاب إلا امرأته إذ كانت تعارضه وتستنكر تعاليمه، كذلك أنقذ الله نبيه ﷺ وأبا بكر أيضًا. وعليه فكان أبو بكر من أهل النبي ﷺ حتمًا بحسب هذه الآية.

بيد أن هناك فرقًا وهو أن زوجة لوط عليه السلام أصبحت من الذين تخلّفوا وهلكوا، ولكن حيث إن النبي ﷺ أعظم من لوط عليه السلام فلم تتخلف عنه أيّ من نسائه وقت الهجرة بالمعنى الذي أصبحت زوجة لوط من المتخلفين، إذ لم تتخلف عنه أي منهن برغبتها أو بشكل دائم أو بهلاكها بالعذاب؛ بل قد هاجرت سودة وعائشة — رضي الله عنهما - إلى المدينة بعد هجرته ﷺ بأيام قلائل، إذ أعطى النبي ﷺ زيدًا

جمَلين وخمس مئة درهم وبعثه إلى مكة ليأتي ببناته وأزواجه ﷺ فجاء بفاطمة وسودة؛ أما عائشة فهاجرت إلى المدينة مع أخيها عبد الله (الطبقات الكبرى: باب ذكر خروج رسول الله ﷺ وأبي بكر). وهكذا فكل نساء النبي ﷺ تمتعن معه بما خوّله الله تعالى من النعم.

لما بلّغ لوط عليه السلام قومه رسالة الله ونهاهم عن الظلم والفساد والشذوذ الجنسي، لم يرتدعوا و لم يصلحوا حالهم، بل قالوا عن أتباعه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.. أي أنهم ليسوا من أهل الطهارة حقًا ولكنهم يتكبرون علينا بالطعن فيما نفعل، أو أنهم يتظاهرون بالصلاح والعفاف رياءً وليسوا من أهل الصلاح والورع حقًا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾.. أي أمطرنا عليهم مطرًا مدمرًا بسبب جرائمهم، ومن صدر قرارنا بهلاكه يكون المطر النازل عليه مخيفًا ومدمرًا جدًا.

الواقع أنهم أُمطروا بالحجارة نتيجة زلزال عنيف، حيث انشقت الأرض وتطايرت ملايين الأطنان من التراب ثم سقطت عليهم.

أما النبي ﷺ فقد أنــزل الله على أعدائه عذاب المطر الظاهري أيضًا، وذلك يوم بدر. كما نــزل عليهم مطر الرمال والحجارة أيضًا حين أخذ النبي ﷺ حفنة من الحصباء ورماها تجاههم بعد الدعاء، فأصبحت هذه الرمية بمثابة إشارة إلى قوى السماء، حيث هبّت بعد ذلك عاصفة من وراء المسلمين فأثارت عاصفة من الرمال والحجارة وأعمت عيون الكفار، وصدّت سهامهم التي كانوا يطلقونها على المسلمين، فلم تُصبهم بأذى بل سقطت في الطريق. وهكذا نــزل على الكافرين ذلك العذاب الذي كان لزامًا أن ينــزل بهم لتتم المشابهة بين النبي ﷺ ولوط عليه السلام وليتحقق به دعاءٌ لأبي جهل قال فيه: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(الأنفال:٣٣). ثم أخذهم الله تعالى بعذاب كان أشد إيلامًا إذ أهلك خيرة قادتهم في وقعة بدر نفسها، فقضى بذلك على عزهم وجاههم، وجلّى صدق نبيه ﷺ كالشمس في كبد السماء.

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير: أي يا محمد، قلْ للقوم إن الله وحده يستحق كل نوع من الحمد إذ بعث أنبياءه لهداية الناس في كل عصر. فبعث موسى لهداية الناس في عصره، وبعث داود وسليمان في زمنهما، وأرسل صالحًا في عصره، ولوطًا في عصر آخر. ثم إنه تعالى لم يحرم أحدًا من هؤلاء المصطفين الأخيار من نصرته وتأييده بل شملهم بالسلام دائمًا وسيشملهم إلى الأبد. فأخبِروني الآن أيها الناس، آلله الذي حمى عباده وكتب لهم النصر والغلبة وأنــزل وحيه لهداية الناس خيرٌ أم الآلهة الباطلة التي يهلَك عَبَدَتُها دائمًا والتي لم تبعث قط رسولاً أعلن للناس أني قد أُرسلتُ لهدايتكم من قِبل هُبُل أو اللات أو مناة، وأني سأكون غالبًا على أعدائي.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ يبين أن الله تعالى يشمل عباده المصطفين الأخيار بالسلام دائمًا، ومن أجل ذلك أمرنا أيضًا أن نقول "عليه السلام" عند ذكر اسم أحد الأنبياء.

ولكن الذين يجهلون الحقائق يعترضون على مثل هذه الأدعية قائلين: لماذا أُمرنا أن ندعو لنــزول السلام على الأنبياء مع أهم يعيشون في ظل رحمة الله تعالى حتمًا؟ ولا يدري هؤلاء المعترضون أنه مما لا شك فيه أن الأنبياء يعيشون في ظل رحمة الله تعالى بعد وفاقم، إلا أن ثمة أمرًا هامًا يُحتّم علينا الدعاء بنــزول السلام عليهم دائمًا بعد وفاقم أيضًا، وهو أهم يخلفون وراءهم ثروة روحانية كبيرة جدًا. والثروة المادية التي يتركها المرء وراءه لو وقعت في أيدي أناس غير مؤهّلين وضاعت فيكون الضرر محدودًا جدًا، ولكن الثروة الروحانية التي يتركها الأنبياء وراءهم لو وقعت في أيدي أناس غير أكفاء فاتّخذوها سببًا للضلال، فلا يزال الناس يضلّون قرونًا وأحقابًا؛ ولذلك كان لزامًا أن يتم الدعاء لهم على الدوام. لقد تركوا هذه

الثروة ليستنير بها الناس ويهتدوا، ولكن الذين يخلفونهم لا ينالون من ثروتهم نورًا وهدىً، بل يَضلّون بها ويُضلّون الآخرين.

فمثلاً ترى أن بني إسرائيل يتهمون موسى وداود وسليمان ولوط - عليهم السلام - بأنواع الذنوب والمعاصي (الملوك الأول ١١: ٣، صموئيل ١١: ٢-٢٧، تكوين ١٢: ١٣-١٩، تكوين ١٩: ٣١-٣٥). وقراءة هذه الأمور تؤثر سلبيًا على أصحاب الطبائع الضعيفة، حيث يقولون ما دام الأنبياء قد ارتكبوا الآثام والمعاصي فما الحرج إذا فعلنا مثلهم؟

أما المسيحيون فلا شك أنهم يدّعون بأفواههم عصمة عيسى عليه السلام عن الإثم، ولكنهم لا يتورعون عن اتهامه أيضًا بالإثم في الأمور الجزئية؛ فقالوا مثلاً أنه عليه السلام أخذ حمارًا وظلّ يسير عليه هنا وهناك بدون إذن صاحبه (مرقس ١١ ومتى ٢١)، وأنه كان يسبّ الناس ويشتمهم ويسميهم كلابًا وخنازير (متى ٧: ٦، ومتى ٢٥: ٢٦، ومتى ١٢: ٣٩)، وأنه صار - والعياذ بالله - ملعونًا بموته على الصليب حاملاً ذنوب الناس، وأنه مكث في الجحيم ثلاثة أيام (رسالة بطرس الأولى ٣: ١٨-٢٠)، وأنه أهلك قطعان الخنازير بدون أن يدفع ثمنها لأصحابها (متى ٨: ٢٨-٣٢، ومرقس ٥).

أما الهندوس فبرغم أنهم يعتبرون "كرشنا" و"رام شندر" من أنبيائهم، لكنهم ينسبون بدون خجل إلى "رام شندر" معاملة غير إنسانية مع زوجته "سيتا" مما يستحيل أن يصدقه المرء بالنظر إلى صلاح هذا الإنسان العظيم وورعه. وأما "كرشنا" فيقولون أنه كان يسرق الزبدة من بيوت الآخرين ويأكلها، ومع ذلك كان نبي الله تعالى! (رامائن اتركاند (أردو)، الحصة ٧ ص ٩٧٩-٩٨٠ سرك ٥٣-٥٤: سيتا جي كي جلا وطني)

إذًا فبرغم أن الأنبياء هم وسيلة انتشار النور والهداية في العالم إلا أن أشياع الشيطان يجعلونهم سببًا لشيوع الغي والضلال في الدنيا، ولذلك قد ركز الله تعالى في القرآن الكريم على نـــزول السلام على أنبيائه خاصة، حتى إذا مر الناس على ذكرهم دعوا الله تعالى بهلاك أصحاب الفتنة الذين ينشرون الضلال باسم الأنبياء، فتفشل محاولاتهم الخبيثة.

ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال في مرض الموت في ساعاته الأخيرة وهو يتقلب يمينًا وشمالاً في كرب شديد: "لعَن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور)، ذلك لأن الناس لو بدأوا السجود لقبور الأنبياء لم يبق التوحيد في العالم، بل انتشر الشرك بكل قوة. إذًا، فهذه هي الحكمة وراء دعاء نـــزول السلام على الأنبياء.. أي أن ينشر الله أنوارهم وبركاتهم على نطاق أوسع ويدمر أصحاب الفتنة الذين يدمرون ثروهم الروحانية.

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

حدائق: جمعُ حديقة، وهي البستان يكون عليه حائط. (الأقرب)

بهجة: البهجة: الحُسن، ويُقال: هو حسنُ لون الشيء، وقيل: هو في النبات النضارةُ، وفي الإنسان ضحكُ أساريرِ الوجه أو ظهور الفرَح البتّةَ. (الأقرب)

التفسير: أي يمكنكم أن تجيلوا النظر في نظام الكون لتروا من ذا الذي خلق السماوات والأرض، ومن ذا الذي يُنـــزل الماء من الغيوم، فيُنبت به حدائق شتى في حين أنكم لا تقدرون على أن تُنبتوا شجرة واحدة منها؟ ثم فكِّروا فيما إذا كان الله الذي خلق نظام الكون خيرًا أم آلهتكم الزائفة التي بنفسها بحاجة إلى البساتين والمياه والسماء والأرض؟ أبوسعكم أن تدلّوا على إله مثل الله تعالى؟ كلا لن تقدروا على ذلك أبدًا. ومن المؤسف أنكم لا تعملون عقولكم وتتخذون شركاء مع الله بلا دليل ولا برهان.

علمًا أنه قد ورد ضمير المفرد للغائب ﴿خلق﴾ و ﴿وأنــزل﴾ في بداية الآية، بينما ورد ضمير الجمع للمتكلم ﴿أنبتنا﴾ في آخرها. والحق أن من أكبر فضائل القرآن وكمالاته أنه يشير أحيانًا بكلمة وجيزة إلى مفاهيم عظيمة، وهنا أيضًا لم ينتقل القرآن من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم بدون حكمة، إنما لفت بذلك الأنظارَ إلى أمر عظيم، وهو: أن المرء إذا أعمل فكره في خلق السماوات والأرض وظاهرة نــزول المطر من السماء وخروج أنواع الخضار والزروع والبساتين به، تجلّتْ له قدرة الله وجلاله وجبروته، فلا يعتبر الله تعالى غائبًا عنه بل يراه ماثلاً أمامه، وقد أدى القرآن الكريم هذا المفهوم العظيم بنقل ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم: ﴿أنبتنا﴾، وكأن الله تعالى يتجلى على عبده عيانًا ويعدّد عليه مننه وأياديه ماثلاً أمامه. فثبت أن انتقال ضمير الغائب إلى المتكلم ليس خطأً بل هو يدل على إحدى مزايا القرآن ومحاسنه.

هذا، وإن الله تعالى قد أشار هنا إلى الخَلق الروحاني من خلال ذِكر خلق العالم المادي، مبيّنًا أنه يوجد في العالم الروحاني نظام مماثل لنظام خلق السماوات والأرض ونــزول الأمطار من السحب في العالم المادي، فإن بعثة الأنبياء تماثل المطر المادي؛ فكما أن المطر المادي يهطل من السحب عند الحاجة أي حين يكون الناس في كرب عظيم من شدة القيظ واحتباس الهواء، ويتلهف كل إنسان وحيوان للماء البارد العذب الفرات، وتحنّ الزروع إلى قطرات الماء لتخرج خضرتها ونباتها، وعندما يرى الناس المطر يبتهجون جدًّا بأنه قد حان الأوان لتتحقق آمالهم ولتصبح زروعهم مخضرة نضرة. كذلك يظهر الأنبياء في الدنيا عند الحاجة حين تشتد المعاناة وتطول جراء الظلمة الروحانية، فيشفون غليل العالم العطشان بأنفاسهم القدسية ويُجرون أنهار العلوم والمعارف التي تُنبت بساتين روحانية عظيمة تسرّ العيون وتجلب السكينة إلى القلوب. بيد أن المطر الذي هو فضلٌ إلهي كبيرٌ؛ إذ لولاه لهلكت الزروع وجفت الآبار، يكون مصحوبًا ببعض الأذى والمعاناة أيضًا؛ فمثلاً في حالة نــزول المطر إذا أراد المرء حضور المسجد أو إحضار شيء من السوق فلا بد له أن يعاني من الوحل الذي يسببه المطر في الطريق، أو إذا كان أحد لم يقم

بترميم سقف بيته قبل نـــزول المطر فسوف يتأذى حين يتقطر سقفه بالماء، وإذا لم تكن عند فلاح حظيرةٌ للدواب فسيضطر ليربطها داخل البيت عند نـــزول المطر في الشتاء وقايةً لها من البرد، فيعاني من عفونة بولها وروثها. ثم إن المطر يكون مصحوبًا بالظلام، وأحيانًا بالرعد الشديد الذي ترتجف له قلوب الأطفال وضعيفي القلوب من الكبار، بل يقتُلهم أحيانًا. كما يلمع البرق في السحب ويسقط أحيانًا على بعض الناس والدواب ويقتلهم. وكل هذه جوانب سلبية للمطر رغم أنه فضل كبير من عند الله تعالى. ولكن بالرغم من كل هذه الأشكال العديدة من المعاناة التي يكتنفها المطر، فإن الناس لا يُبالون بها مطلقًا، إذ يعرف الجميع أنه إذا نـــزل المطر فلا بد من الوحل أيضًا. فهل في الدنيا فلاح يظن أن لن يكون عند نـــزول المطر بلل على الأرض ولا وحل ولا رعد ولا برق. كلا بل إن الجميع يعرف هذه الأمور السلبية في المطر ومع ذلك يدعون الله تعالى بنـــزوله. فلماذا يدعون له يا ترى؟ إنما ذلك لأنهم يعلمون أن نفع المطر أكبر من ضرره، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾(البقرة:٢٠).. أي أن في المطر الذي ينـــزل من السحب منافع وبركات كثيرة، كما يكون فيه بعض المعاناة والضرر والرعد والبرق أيضًا.

والحال نفسه بالنسبة لبعثة الأنبياء، إذ تكون فيها بركات كثيرة كما يصحبها بعض المعاناة أيضًا، وكما أن الناس لا يستغنون عن المطر رغم ما فيه من عناء وضرر، كذلك لا يمكن الاستهانة ببعثة الأنبياء خوفًا مما فيها من المعاناة، لأن الناس سيعرفون منافع تلك المعاناة يوم القيامة التي تظهر فيها النتائج، مثلما يعرف الفلاح فائدة المعاناة التي تكون في المطر من ظلمات ورعد وبرق، إذ لولاها لما جنى الفلاح من زرعه يوم حصاده إلا حبوبًا قليلةً ناقصة النمو. ولكن إذا نـــزل المطر ونضج الزرع عرف الفلاح نفع الظلمة والرعد والبرق، إذ تصبح كل حبة بذرها سبعين أو ثمانين أو مئة حبة، فيأتي إلى بيته بغلال كثيرة، فيشتري بها الثياب ويغطي بها نفقات أخرى من أكل وشرب وتزويج أولاد وبنات. إذًا، فبرغم أن المطر يكون مصحوبًا بظلمات ورعد وبرق إلا أن الناس يدعون لهطوله، ولا يبالون بما فيه من ضرر

ومعاناة نظرًا لفوائده الجمة. والحق أن الله تعالى لو أعلن أنه لن ينـــزل المطر هذه السنة إلا إذا انـــزلقت قدم كل فلاح فيه عشر مرات لرأيت أن كل فلاح ينـــزلق عشرين مرة لينـــزل المطر. أو لو أن الله تعالى جعل قانونًا بأن المطر لن ينـــزل إلا إذا دوّى فيه الرعد عشرين مرة لقال الفلاحون: رب أَنـــزل المطر ولو دوّى فيه الرعد ثلاثين مرة.

وبالمثل تكون بعثة الأنبياء مصحوبة ببعض الأذى والمعاناة أيضًا، ولكن الذي يقدر هذه النعمة رغم ما فيها من معاناة فيصبح كالفلاح الذي قد يسقي المطر زرعه. باختصار لقد نبهنا الله تعالى بتشبيه بعثة الأنبياء إلى أن على المؤمن تحمُّل المعاناة التي تُصاحب بعثة الأنبياء بشجاعة. فإذا آمن بدين مرة باعتباره الدين الحق فلا يُبدي ضعفًا واستكانة مهما أُوذي ولو مُزِّقَ إربًا، بل عليه أن يظل مستمسكًا بدينه كما تستمسك النملة بالشيء ولا تنفصل عنه بأي حال. كان هناك شخص اسمه "ميانجان محمد الكشميري"، وكان جدي قد عيّنه إمامًا في المسجد الأقصى بقاديان، فكان يؤم الناس في الصلاة كما كان يقوم ببعض الأعمال في بيتنا أيضًا. وذات مرة بعث بعض الإخوة إلى المسيح الموعود عليه السلام هدية سمك، فأخذ "ميانجان محمد" السمك وبدأ ينظفه على طاولة كبيرة موضوعة خارج بيتنا. فذهبت مع بعض الأولاد نتفرج عليه، وكانت في يدي قطعة حلوى آكلها. وبينما أنا في ذلك وقعت يدي على الطاولة بدون أن أدري، فالتصقت نملة كبيرة بالحلوى، فلما وضعتها في فمي قرصت النملة شفتي، فحاولت التخلص منها حتى جذبتها بيدي، ولكنها لم تنفصل عن شفتي، فأخذ "ميانجان محمد" السكين وقطعها بها. هذا هو حال المؤمن الحق، فعلى المرء أن يتمسك بدينه كما تتمسك النملة بالشيء، ولا ينفصم عنها وإن قُطع إربًا. ذلك لأن زرع الإيمان لا يكون جاهزًا للحصاد إلا بعد موت الإنسان، ولو مات في هذا الكفاح فلا ضير، إذ يعني ذلك أن زرعه قد أينعَ قبل زروع الآخرين، وسيأتي بالغلال إلى بيته قبلهم.

وقد شُبهت بعثة الأنبياء بالمطر لسبب آخر أيضًا، وهو أن هطول المطر يؤدي إلى ظهور الخضرة بكل أنواعها، فيتسبب في نمو الثمار الحلوة والثمار المُرّة أيضًا مع أنه

مطر واحد. فمثلاً ترى أن قطرة المطر التي تُحلّي حبة العنب والمانجو وغيرهما من الثمار الحلوة، هي ذاتها تُمرِّر الثمار المُرّة، وتحمّض الثمار الحامضة، وتنمّي اللحم في جسم الإنسان وتعيد إليه النمو والنشاط، وتخضّر أنواع الكلأ، وتُنبت آلاف الأعشاب في البراري والغابات ووديان الجبال مما نعرف أسماءها ولا نعرف. وهذا بالضبط يحصل عند بعثة الأنبياء أيضًا، أعني أن هطول المطر الروحاني من السماء يؤدي إلى ظهور الخضرة بنوعيها، حيث يعيد الخضرة والنضارة إلى زرع الإيمان من ناحية، ويوقظ الكفر من سباته من ناحية أخرى فتقع صحوة بين أعداء الإيمان من جديد. فمثلاً كان رؤساء أهل مكة الذين كفروا بالنبي ﷺ هم نفس العرب الذين كانوا قبل بعثته ﷺ، ولكن لم يكن عندهم قبل ذلك نظام، أما بعد ذلك فبدأوا بمعارضته تحت نظام، حيث اتحدوا كلهم ضده باذلين كل ما في وسعهم ليحولوا دون انتشار دينه بل ليقضوا عليه. فما هو السبب وراء ذلك؟ إنما هو أن المطر الروحاني إذا نــــزل من السماء اخضرّت النباتات بكل أنواعها، ورفع الكفر أيضًا رأسه. ولكنا نرى أيضًا أن الناس لا يستشعرون من المتنبئين أي خطر، إذ لا يخاف الماعز من الماعز، إنما يخاف الماعز من الأسد. ولكن إذا ظهر النبي الحق هبّ الكافرون من سباتهم واستشعروا منه خطرًا شديدًا، ورأوا التصدي له ضروريًا؛ ولذلك ترى أن المعارضة المنظمة التي واجهها النبي ﷺ في زمنه أو المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر لم يواجهها أي متنبئ كذاب. لا شكّ أن فتنًا قد وقعت في زمن "الباب" أيضًا، ولكنها لم تكن إلا رد فعل على تصرفات "البابيين"، إذ بدأوا بقتل الناس، فعاقبتهم الحكومة على ذلك، بينما ظل عامة الناس صامتين و لم يتصدوا للبابيين (Baha'u'llah And The New Era: p. 32-33). ولكن عند ظهور المسيح الموعود عليه السلام ثارت كل الأمم والطوائف ضده وبذل كل واحد جهده لقمع الأحمدية. وهذا الشيء لا يشاهد عند ظهور مدّع كذّاب في العالم. فمثلا يعلن البهائيون نسخ شريعة النبي ﷺ (الكواكب الدرية: الجزء الأول ص ٢٢٠)، ومع ذلك يمشي بعض المسلمين واضعين أيديهم في أيدي البهائيين، ويقولون تعالوا ننسَ الخلافات بيننا، فأنتم ونحن كلانا على الحق، فلنتّحد ضد الأحمدية.

فثبت من هنا أن ماء المطر المادي كما يساعد على خروج الخضرة بجميع أنواعها، كذلك فإن نــزول المطر الروحاني ينضّر الإيمان كما يوقظ الكفر أيضًا من رقاده. فمثلاً عندما بُعث المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر قامت جماعة مؤمنة مخلصة متحلية بالتقوى، فيها صحوة وطموح، ومن ناحية أخرى تجد صحوة في صفوف الكفر أيضًا. والله تعالى لا يتوقع من جماعات الأنبياء أن تنمو وتنهض كما تنمو الأعشاب المُرّة الضارّة من تلقائها عند نــزول المطر المادي، بل ينبغي أن ينموا بسرعة أكثر منها ويُبرزوا جمالهم الروحاني بكل ما في وسعهم حتى يتضاءل أمامهم ما يدعيه الشيطان من حسن وجمال.

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

رواسي: الرواسي: الجبالُ الثوابت الرواسخ. (الأقرب).

حاجزًا: حجَزه حَجزًا وحِجازةً: منَعه وكفَّه ودفَعه، والحاجز: البرزخ. (الأقرب).

التفسير: أي مَن ذا الذي جعل الأرض صالحةً للسكنى وأجرى خلالها الأنهار؟ وجعل الجبال كي لا تضيع مياه الأنهار؟ ثم جعل في الأرض بحارًا وجعل بين مياهها المالحة وبين مياه الأنهار العذبة حاجزًا.. بمعنى أنه تعالى جعل مياه البحار في انخفاض فلا تُفسد مياه الأنهار العذبة، كما جعل مياه الأنهار العذبة أقل من مياه البحار كثيرًا فإذا انصبت فيها لم تغير طعمها المالح؛ فكأنه تعالى قد جعل هناك حاجزًا دائمًا بين الماء العذب والماء المالح. هل يمكن أن يكون لمثل هذا الإله المدبر الحكيم شريك؟

كلا ولكن أكثر المشركين جاهلون فلا ينتفعون برؤية هذه الآيات العظيمة ويهيمون هنا وهناك كالعميان.

لقد نبه الله تعالى الناس بذكر نظام الكون هذا إلى أنه تعالى ما دام قد هيّأ لفوائدهم المادية كل هذه الأسباب العظيمة فكيف يمكن أن يُهمِل حاجاتهم الروحانية؟ ألا يعلمون أنه تعالى لو لم يجعل التضاريس والانخفاضات التي تجري فيها ماء الأنهار منكمشًا لغطّى ماؤها اليابسةَ كلها، فلم تصلح الأرض للعيش؟ كذلك لولا الجبال التي تدّخر الثلوج وتُمدّ الأنهار بالماء طوال السنة لما استطاع الإنسان العيش على مياه الآبار والغُدران والحِياض وحدها. والحال نفسه في العالم الروحاني أيضًا، فإن التدابير الإنسانية لهداية الناس هي بمثابة الآبار والحياض، فلا تساعد الناس إلا لزمن محدود ونطاق محدود، أما الهداية الدائمة التي تُشبه مطر السماء فتنــــزل من عند الله تعالى وحده، وهي التي تقدر على شفاء غليلهم الروحاني. وكما أن الجبال تحتفظ بذخائر كبيرة للخشب والعقاقير والأزهار والثمار التي لا بد للإنسان منها، كذلك لا بد لسد حاجاته الروحانية من وحي فيه ذخائر الهداية والرحمة الأبدية. وكما أن الله تعالى قد جعل حاجزًا بين الماء المالح والماء العذب فقد جعل بين الكفر والإيمان حاجزًا من الأدلة والبراهين أيضًا، فيُعرف الماء الروحاني العذب بعذوبته فورًا والماء الروحاني المالح بملوحته. إذًا، فلا يتخذ شريكًا مع هذا الإله المحسن ويتركه ويسجد أمام الأصنام إلا الخالي من العقل والفهم كلية.

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾

التفسير: أي يجب أن تفكروا أيضًا من ذا الذي يستجيب لدعاء الذين تحيط بهم المصائب فيدفعها عنهم، ومن ذا الذي يجعلكم ورثة الأرض؟ هل تجدون ندًّا لمثل هذا الإله المتصف بهذه الصفات الحسنة؟ كلا، ولكنكم للأسف لا تتعظون.

والمضطر هو من تحيط به المصائب من كل الجوانب، فلا يرى مخلِّصًا ولا يجد منقذًا إلا الله تعالى. وليس المضطر من يكون قلقًا ومضطربًا فقط، ذلك لأن القلق يدفع الإنسان أحيانًا للاندفاع إلى أي جهة بدون أن يعلم يقينًا أنه سيجد هناك أمانًا، بل قد يدفعه القلق للجري إلى مكان الخطر نفسه فلا ينجو منه. فاضطراب القلب وقلقه ليس من الاضطرار في شيء، وإنما الاضطرار أن ييأس المرء من كل مأمن ومن كل معين إلا طرفًا واحدًا. وكأن الاضطرار ليس أن يرى المرء النار في كل جهة فحسب، بل أن يرى أيضًا سبيلاً للخلاص منها في جهة ما موقنًا بأنه مكان محفوظ من النار.

لقد تبين من هنا أن الدعاء لا يُستجاب إلا إذا دعا به العبد ماثلاً أمام الله تعالى وموقنًا بأنه لا ملاذ له الآن إلا الله تعالى. وقد بيّن الرسول ﷺ حالة الاضطرار هذه نفسها في دعائه: "لا ملجأَ ولا مَنْجَا منك إلا إليك" (البخاري: كتاب الوضوء، باب النوم على الشق الأيمن).. أي يا رب لا ملاذ من العذاب أو من البلايا التي تأتي من عندك إلا أن آتي إليك يائسًا من كل واحد. هذه هي حالة الاضطرار، والمراد من قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أن الذي يدعوه تعالى موقنًا أن لا ملجأ له ولا مأوى إلا عند الله تعالى، فدعاؤه مُجاب حتمًا.

والحق أن هذا الشرط لم يوضع بدون سبب، إذ الواقع أنه برغم أن الله تعالى هو وحده علاج كل مضطر، إلا أن بعض عباده أيضًا يقدرون على إزالة اضطرار المضطرين بما أعطاهم الله من نعم. فمثلاً هناك شخص فقير يبلى ثوبه وليس عنده ما يشتري به ثوبًا جديدًا، فيراه أحد الأثرياء - وقد يكون هندوسيًا أو سيخيًّا أو مجوسيًّا أو جَيْنِيًّا° - فيقول له: تعال أشترِ لك ثوبًا جديدًا فقد بلي ثوبك. لا شك أننا نؤمن بأن الله تعالى هو الذي ألقى في روع الثري أن يشتري للفقير ثوبًا جديدًا، ولكن الذي لا يكون إيمانه كاملاً يقول إن فلانًا ساعدني في اضطراري بدلاً من أن يقول إن الله تعالى أعانني. ولكن هذا الشخص الفقير لو أصيب بمرض شديد حتى

° الجَيْنِيّ: هو أحد أتباع الفرقة الهندوسية الجينية التي تحرّم أكل لحم أي حيوان. (المترجم)

لم يقدر على الأكل والشرب والحركة من شدة الضعف، فلن يساعده الثري في هذه الحالة، بل سيساعده طبيب حاذق يترحم عليه برؤية حاله، فيقول: ليس عندك مال للعلاج، فتعال عندي فسأتولى علاجك ودواءك وسكنك أيضًا مجانًا.

فترى أن هذا الفقير إذا اضطر إلى شراء الثياب ساعده الشخص الثري، ولكنه حين اضطر إلى العلاج والدواء لم يستطع الثري مساعدته بل ساعده الطبيب.

وأحيانًا يؤخذ المرء في قضية مزورة يرفعها ضده بعض أعدائه الأقوياء حقدًا، فيجرّه إلى المحكمة دونما جريرة، ولكنه لا يملك مالاً لدفع أجرة المحامي، كما لا يقدر على الدفاع عن نفسه بنفسه، فيقع في ورطة من أمره، فيتقدم محامٍ رحيم ويقول له: أنا أتولى الدفاع عنك مجانًا.

فترى أنه لم يغن عنه هذه المرة ثري ولا طبيب، وإنما ساعده محامٍ.

وقد يكون عند المرء متاع كثير، فيمشي حاملاً إياه، ولكنه يرهقه إرهاقًا شديدًا، فيضعه على الأرض ثم لا يستطيع حمله ثانية، فيمرّ به فلاح قوي فيسأله عن سبب جلوسه في الطريق هكذا، فيقول: لا أقدر على حمل متاعي، فيحمل الفلاح متاعه. فترى أنه كان مضطرًا، ولكن لم يستطع أن يغني عنه هذه المرة ثري ولا طبيب ولا محامٍ بل ساعده أحد الفلاحين.

فثبت أنه يمكن أن تأتي على الإنسان حالات اضطرار مختلفة، فيساعده فيها أشخاص دون أشخاص. ولكن الله تعالى يقول هنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾.. أي أنا الوحيد الذي يسد حاجة كل مضطرٍ سواء كان جائعًا أو عاريًا أو ظامئًا أو مريضًا أو حامل ثقلٍ. إذا بلي ثوب أحد فيمكن أن يساعده ثري، ولن يغني عنه طبيب، وإذا مرض أحد فيغني عنه طبيب ولن يغني عنه محام، وإذا أُخذ أحد في قضية بدون ذنب فيغني عنه محام ولن يغني عنه ثري ولا طبيب. وإذا كان لا يقدر أحد على حمل متاعه فيغني عنه فلاح قوي، ولن يغني عنه ثري ولا طبيب ولا محام. أما الله تعالى فيقدر على سد كل حاجة لكل إنسان، وعلى مساعدة كل مضطر في أي ظرف. يمر المرء بحالات شتى من الاضطرار، فأنّى لبشر أن يساعده في كل هذه الحالات؟ بل لن يغني عنه عندها أحد الملوك أيضًا. فمثلاً لو مرض إنسان مرضًا

شديدًا فلن يغني عنه قربُ الملِك ولا خزائنه ولا جنوده، إنما يغني عنه الله وحده الذي هو قادر على شفائه من كل مرض. أو لو كان المرء يسافر منفردًا في برية، فيهاجمه ذئب أو أسد أو نمر مثلاً، فلن يغني عنه الملِك مهما كان مقرَّبًا إليه ولو كان ابنًا له، كما لن يغني عنه الطبيب ولا الثري ولا المحامي وإنما يغني عنه الله تعالى وحده.

فثبت أن المرء لن يُعَدّ مضطرًّا ما لم يكن موقنًا بأن الله تعالى وحده قادر على أن يُغني عنه عند كل اضطرار، فإذا دعا الله تعالى مضطرًا أتاه بالفعل مهرولاً ونجّاه من كل أذى ومصيبة. بينما نجد في الدنيا أن المرء إذا أراد أن يستغيث بالملِك ضد بعض الولاة والمسؤولين فإن الوالي أو المسؤول يهدده بنـــزع لسانه من جذوره لو رفع الشكوى ضده إلى الملِك، فيتراجع عن عزمه خوفًا من أن يلقيه المسؤول في مشاكل أخرى. أما الله تعالى فيمكن أن يستغيث به المرء وهو يتأوّه في سريره ملتفًا بلحافه في ظلمة الليل بدون أن يعلم أحد من البشر ما يفعل وما يقول، فلا يخاف تهديدًا من مسؤول ولا منعًا من حاكم، بل يرفع صوته في بلاط الله تعالى من داخل لحافه مستلقيًا على سريره قائلاً: رب لقد ظلمني فلان، فانتقِمْ منه من أجلي. فلا يعرف الظالم أن الشكوى ضده قد وصلت إلى الملك، إذ لا يراه ولا يسمعه ولا يخطر بباله ذلك، فتصل دعوة المظلوم إلى العرش وتهزّه هزًّا.

فهذا هو السبب وراء قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.. أي من ذا الذي يأتي لنصرة العبد حين يتوسل إلى الله تعالى مضطرًّا حين لا يجد عنده مغيثًا ولا معينًا؟ إن الدنيا تكون غافلة عن هذا العبد، ولكن الله تعالى لا يكون غافلاً عنه، بل يأتي إليه هرولةً ويقول: ها قد جئت لنصرتك يا عبدي، فيعامله بلطف وحب وينجيه من كل أذى وكرب.

ثم يوضح الله تعالى أنه لا يُنعم على عباده بقدر محدود ولا يزيل كرب المضطر استجابةً لدعائه فحسب، بل ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.. أي إنه يُهلك الظالمين المستبدّين ويجعل الضعفاء المظلومين خلفاءهم. ما يعني أن الله تعالى يُزيل مشاكل العباد بشكل فردي، كما أنه يُغيثهم بشكل قومي أيضًا حيث يأخذ الشعوب

المقهورة الضعيفة من الحضيض ويرفعها إلى أوج الرقي والرفعة، فيُصبح الطغاة المستبدّون صيدًا لآهات المقهورين. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة في موضع آخر من القرآن الكريم أيضًا حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(يونس:١٤-١٥). والمراد من قوله تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: لننظر كيف تعملون في الدنيا وما إذا كنتم تُحافظون على الصلاح والورع في زمن حكمكم وقوتكم كما كنتم متحلين به حين كنتم ضعفاء مغلوبين.

لا شك أن دعاء المضطرّ يجعله مستحقًا لنعم الله تعالى، ولكن بقاءها واستمرارها يتطلب منه المزيد من الجهد والكفاح؛ فإذا قصّرتْ أمة في هذا الأمر وتساهلتْ حُرمتْ من تلك النعم.

الحق أن الله تعالى قد ذكر في هذه الآية نوعين من النعم: الفردية والقومية، وبيَّن أن الفرد إذا دعاه مضطرًا استجاب دعاءه وأزال كربه، بينما يقضي، بحسب قانونه الخاص بالأمم، على الشعوب الظالمة فيجعل الشعوب المقهورة خلفاءً لها. والتاريخ زاخرٌ بأمثلة ذلك. ويستشهد الله تعالى هنا بذكر هذه الأحداث والوقائع على وجوده تعالى ويقول: ترون، أيها الناس، أن يد الله تعالى هي التي تعمل وراء هذه الأحداث، ومع ذلك لا تتعظون للأسف، بل تسجدون أمام الأصنام معرضين عن أعتابه تعالى.

كما يتبيّن من هذه الآية أيضًا أن باب استجابة الدعاء مفتوح على مصراعيه لأهل كل ملة وطائفة على سواء، لكي يجعلهم يوقنون بوجوده ويدلهم على نفسه ويجذبهم إليه، بمعنى أن كل إنسان - أيًا كان دينه - إذا دعا الله تعالى مضطرًا استجاب الله لدعائه وفتح عليه سبيلاً وأزال كربه وأنزل السكينة على قلبه.

أتذكر أن هندوسيًا جاء إلى قاديان مرة وقال لي: لقد بعثني سيدي إليك لأسألك ما إذا كان هناك سبيل لجلب النور؟ ولم يخبرني الهندوسي عن سيده ومكان إقامته شيئًا، بل حاول إخفاء ذلك، فلما ناقشته عن هذه الأمور بإصرار أخبر أن سيده

مقاول كبير في بناء المباني وحفر القنوات وأنه يملك مصنعًا كبيرًا في الهند. فعلمت بعد أسئلة كثيرة أنه يقصد والد "سردار بلديو سنغ" وزيرِ الدفاع بالهند، حيث كان للرجل مصنع كبير بالقرب من مدينة "تاتا نغر". فقلت له: إن سيدك سيخي وأنت هندوسي، فما الذي يجمع بينكما؟ قال: لقد درسنا معًا في الطفولة، ونحن صديقان حميمان، وقد جعلني مسؤولاً في أحد مكاتبه، ويناقشني أحيانًا في مسائل الدين، وقد أمرني أن آتيك وأسألك ما إذا كان ثمة سبيل لجلب النور الآن؟ فقد ذهبنا إلى أولياء المسلمين ونسّاك الهندوس وكبار السيخ و لم نجد نورًا في أي مكان.

فقلت له: إن تعبير "جلب النور" ليس مصطلحًا إسلاميًا، وإنما يستعمله السيخ، إلا أنهم يعنون بالنور على ما يسمى عندنا الهدى، وإني مستعد لأَنْ أدلّه على سبيل الهدى؛ ومع أني لست مسيحيًا إلا أنني أؤمن بنبوة المسيح عليه السلام وصلاحه، وإنه يقول: "إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسرُ من أن يدخل غني إلى ملكوت الله" (متى ١٩: ٢٤). لقد أخبرتني أن سيدك مليونير، لذا فبرغم أني سأدلّك على طريق النور إلا أن سيدك لن يقبل هذا النور. فقال لي الهندوسي: كيف يمكن أن تسنح للمرء فرصة لجلب النور فلا يغتنمها؟ قلت: هكذا قال المسيح عليه السلام، ولذا فإني أرى أن سيدك لن يسعى لقبول النور رغم رؤيته. قال: عليك أن تدل على طريق النور وإني على يقين أن سيدي سيقبله. فدعوتُ سكرتيري الخاص وقلت: إن هذا الرجل لا يعرف اللغة العربية فاكتبْ له ترجمة بنجابية لقول الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فكتبها له. فقلت للهندوسي: قُلْ لسيدك أن يقرأ هذا الدعاء قبل النوم يوميًا، ولكن قبل الدعاء عليه أن يُعاهد الله تعالى بصدق القلب ويقول: يا رب سأقبل الهدى حيثما وجدته، لأنه إذا لم يعاهد الله و لم يحسن النية قبل الدعاء فلن يُريه نوره، لأن الله تعالى ليس كالمهرجين بل إنه لا يُري أي شيء عبثًا. عليه أن يكون صادق القلب عند الدعاء، أما إذا حصل منه شيء من التقصير عند العمل بما أراه الله تعالى من جراء الجبن وضعف الإيمان، فهذا أمر آخر؛ ذلك لأن السارق أيضًا يتوب أحيانًا عن السرقة بصدق القلب فيقبل الله تعالى توبته مع أنه يعلم أنه سينقض

توبته بعد أيام أو ربما في اليوم التالي ويعود إلى السرقة ثانية. كذلك سينظر الله تعالى إلى نيتك وقت الدعاء وإذا رأى أنك مستعد لقبول الهدى حيثما كان فسيريك النور ولن يُبالي لو صدر عنك أي ضعف أو تقصير فيما بعد.

فذهب الهندوسي وبعد اثنين أو ثلاثة أسابيع جاءت رسالة من عنده قال فيها: لقد تحقق ما قلت، فإن سيدي قد رأى نور الله تعالى فعلاً، كما تحقق قولك الآخر أيضًا إذ لا يجد في نفسه الشجاعة لقبول النور الذي رآه.

يبدو أن الله تعالى قد كشف على هذا الثري صدق الإسلام، ولكنه خاف أنه لو قبل الإسلام فإن ابنه يفقد الوزارة ويُدمَّر مصنعه، فما الفائدة من قبوله؟

باختصار إن الله تعالى قد جعل طريق الدعاء مفتوحًا لأهل كل دين وطائفة وعصر. فكل من يدعو الله تعالى بصدق في حالة الاضطرار - أيًا كان دينه ومذهبه- فإنه تعالى سيستجيب لدعائه حتمًا، ولكن المؤسف أن الناس لا ينتفعون من هذا الأمر، فلا يزالون سائرين في الطريق الخاطئ بدلاً من أن يسلكوا الطريق المستقيم.

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير: واعلم أن المراد من ﴿الْبَرّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني الشعوب التي لا يوجد عندها شيء من وحي الله تعالى، والبحر هنا يعني الشعوب التي يوجد عندها الوحي الإلهي ولكنه قد أصبح كماء البحر أجاجًا نتيجة عبث الناس به. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر في آية أخرى حيث وصف الله تعالى زمن بعثة الرسول ﷺ بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ﴾(الروم:٤٢).. أي لقد مسّت الحاجة إلى بعثة محمد رسول الله ﷺ لأن الأمم التي ليس عندها ماء الوحي وتسنّ لها القوانين بعقلها قد فسدتْ، كما فسدت أيضًا الأمم التي عندها ماء الوحي إذ أصبح أُجاجًا مثل ماء البحر فلم يعد صالحًا للاستعمال.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه﴾.. أي من ذا الذي يرسل الرياح النَدِّية قبل السحب؟ هل هناك إله سوى الله يُرسلها؟ فثبت أن الله تعالى أسمى وأرفع مما يحمله الوثنيون من أفكار تافهة.

مما لا شك فيه أن الرياح المادية أيضًا دليلٌ على وجود البارئ تعالى، ولكن الحديث هنا عن الرياح الروحانية، والمراد من الرحمة هو بعثة الأنبياء، والمعنى أن الله تعالى ينفخ الحماس في قلوب الناس لقبول أنبيائه قبل بعثتهم، حيث يشعر القوم بضرورة مجيء نبي لإصلاحهم وإلا لا سبيل لإصلاحهم دون ذلك، فيكون هذا دليلاً على صدق المدعي المبعوث من عند الله تعالى. وبما أن أحدًا لا يُبعَث لإصلاح الناس مِن قبل الأصنام، هكذا يقوم النبي بدحض الشرك وإرساء التوحيد، مما يهيئ للناس دليلاً على أن الله ﷻ أحد وأنه متعال عن الشرك والوثنية.

لقد رأينا في هذا العصر أيضًا أنه قبل بعثة المسيح الموعود ؑ قد جعل الله تعالى كافة الناس - أيًا كان دينهم ومذهبهم - يعترفون بأن هذا الزمان بحاجة إلى المهدي والمسيح. فقد كتب الخواجة حسن نظامي بعد قيامه بسياحة الممالك الإسلامية وقال:

لقد وجدت كل المشايخ والعلماء الذين قابلتهم خلال رحلتي في البلاد الإسلامية ينتظرون الإمام المهدي بفارغ الصبر." (جريدة "أهل الحديث" عدد ٢٦ يناير/كانون الثاني ١٩١٢م)

وقام أحد المفكرين الأوربيين اسمه "مارس إندس" بزيارة البلاد الإسلامية وسجل انطباعاته كالآتي:

"إن دمشق وبيروت وبغداد ومكة وطهران والقاهرة وكذلك لندن وواشنطن كلها تنتظر نبيًا يأتي حاملاً لواء الإصلاح الاجتماعي." (مجلة "نگار" عدد يناير وفبراير/كانون الثاني وشباط ١٩٥١)

أما البروفيسور الأوروبي "مكينـــزي" فقال في كتابه في معرض الحديث عن أن المجتمع لا يبلغ أوج الكمال بدون الكُمّل من الناس:

"إننا بحاجة إلى مسيحٍ من أجل رقينا." (Introduction to Socialogy نقلاً عن كتاب مكاتيب إقبال ص ٤٦٢-٤٦٣)

وكذلك كتب "نواب صديق حسن خان" بكل حسرة وكرب:

"كان من المفروض وفق الحساب أن يظهر المهدي في بداية القرن الثالث عشر الهجري، ولكن القرن كله انقضى ولم يظهر المهدي، وقد حلّ علينا القرن الرابع عشر، فلعل الله يشملنا بفضله، فيظهر المهدي خلال أربعة أو ستة أعوام." (اقتراب الساعة ص ٢٢١)

وقد عبّر الشاعر الشهير "إقبال" عن هذه الحقيقة نفسها في شعره فقال:

"إن هذا العصر يبحث عن إبراهيم، إذ قد أصبح العالم معبدًا للأصنام، ولا إله إلا الله." (كليات إقبال (أردو) ص ٥٢٧)

حتى إن الشيخ المودودي نفسه يعترف قائلاً:

"إن معظم الناس يبحثون، لقيادة حركة دينية، عن رجل كامل يكون تجسيدا لكل الكمالات التي يمكن أن يتصورها كل واحد منهم، ويكون قويًا من جميع النواحي، ولا يوجد فيه أي نوع من الضعف. وبتعبير آخر إنهم يبحثون عن نبي في الواقع، وإن كانوا يُقرّون بختم النبوة بأفواههم، ولو تفوّهَ أحد ببقاء النبوة لنـــزعوا لسانه من جذره. فالحق أنهم ينتظرون نبيًا وليسوا براضين بأقل من ذلك." (مجلة "ترجمان القرآن" عدد ديسمبر ويناير/كانون الأول وكانون الثاني ١٩٤٢-١٩٤٣ ص ٤٠٦ - وجريدة "مسلمان" الصادرة في سوهدره بالهند عدد ٢٨ فبراير ١٩٤٣م نقلا عن جريدة "الفضل" الصادرة في قاديان عدد ٦ مارس ١٩٤٣م)

إذًا فإن الله تعالى قد جعل العالَمَ كله ينتظر مجيء المسيح والمهدي بفارغ الصبر قبل مجيء المسيح الموعود ، وكانت هذه الرياح النَدِّية دليلاً على أنه قد حان الأوان لأن تغيم السماء بسحاب لينـــزل منه مطر غزير إرواءً للأرواح الظامئة وشفاءً لغليلها. ومن أجل ذلك قال المسيح الموعود ما تعريبه:

"يا عباد الله، تعلمون أن المطر إذا انقطع فترة طويلة أخذت مياه الآبار تغور وتغيب. فكما أن نـــزول ماء السماء يُؤدي إلى جيشان في مياه الأرض في العالم المادي كذلك يُنضّر ماء السماء - أي وحي الله - عقول أهل الأرض في العالم الروحاني. وكان هذا الزمن أيضًا بحاجة إلى الماء الروحاني.

وأرى لزامًا عليّ أن أبين للناس بصدد دعواي أنني قد أُرسلت من عند الله تعالى عند الحاجة تمامًا لأن الكثيرين في هذا العصر قد حذوا حذوَ اليهود، ولم يتخلوا عن التقوى والورع فحسب، بل أصبحوا أعداءً للحق كما كان اليهود في زمن عيسى، ومن أجل ذلك قد سماني الله المسيح إزاءهم. فلا أدعو أهل هذا الزمان إليّ فحسب، بل إن الزمان نفسه يدعوني." (براهين أحمدية (أردو): الجزء الخامس، الخزائن الروحانية المجلد ٢١ ص ٤٢٨)

إذًا فإن أهل هذا الزمن أيضًا قد شكلوا بتصرفاتهم دليلاً قويًا على صدق مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام بحسب قول الله تعالى: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، فمن أراد فلينتفع من هذا الدليل.

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٥﴾

التفسير: أي أخبِروني مَن الذي يخلقكم أول مرة ثم لا يزال يُعيد عملية الخلق هذه باستمرار، أو مَن الذي يرزقكم من السماء والأرض؟ هل هناك إله يستطيع أن يفعل هذا سوى الله القادر المطلق؟ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

اعلمْ أن قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس إشارة إلى بداية خلق الكون حين خُلقت الأرض وطبقاتها وما إلى ذلك، إذ لا أحد من البشر قد شاهد ذلك الخلق ولا يمكن أن يُقدَّم ذلك الخَلق دليلاً على وحدانية الله تعالى، وإنما المراد

من بدء الخلق هنا غلبةُ الأمم ومن إعادة الخلق إحياؤها ونفخُ الصحوة فيها بعد زوالها. فكأن الله تعالى يقول هنا: لو أمعنتم النظر في تاريخ رُقي الأمم وزوالها لعلمتم أنه لم تحرز أمة الرقي والتقدم إلا بتأييد الله ونصرته، ولم تحيَ أمة بعد انحطاطها ثانية من تلقاء نفسها بل بالتدابير الإلهية.

لقد ذكر الله تعالى هنا غلبة الأمم بعد أن كانت في الحضيض ثم إحياءها ثانية بعد الزوال لينبّه المسلمين أهم لن ينالوا الغلبة على الدنيا إلا بفضل الله تعالى، فعليهم أن لا يعزوا رقيهم إلى قوهم أبدًا، وإلا ستذهب ريحهم ولن ينالوا الغلبة مرة أخرى بدون تدبير من الله تعالى. ومن المؤسف أن المسلمين نسوا هذا الدرس العظيم، فأصابهم الانحطاط وأصبحوا أُضحوكة عند الأغيار.

لا جرم أن الأفراد يولدون في الدنيا ويموتون أيضًا إذ لم يعش إنسان للأبد، ولكن فيما يتعلق بالأمم فبوسعها أن تعيش إلى الأبد لو أرادت. ومن أجل ذلك قال المسيح الناصري عليه السلام: "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد." (يوحنا ١٤: ١٦).. أي لا شك أن الموت مصير كل إنسان وبالتالي سأغادركم في يوم من الأيام، ولكنكم لو أردتم الخلود فاسألوا الله من فضله، فتكونون من الخالدين.

إذًا فليس بوسع الإنسان أن يخلد ولو أراد ذلك، أما الشعوب فإذا أرادت الخلود خلدت، وإذا لم تُرده ماتت. ولقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أيضًا وهو يحثّ جماعته على هذه الحياة الخالدة فقال ما تعريبه:

"لا بد لكم من أن تروا القدرة الثانية أيضًا، وإن مجيئها خير لكم، لأنها دائمة ولن تنقطع إلى يوم القيامة. ولا يمكن أن تأتيكم تلك القدرة الثانية ما لم أغادر، ولكن عندما أرحل سوف يرسل الله لكم القدرةَ الثانية، التي سوف تبقى معكم إلى الأبد." (وصيت (أردو)، الخزائن الروحانية ج ٢٠ ص ٣٠٥)

والحق أن قوله عليه السلام "إلى الأبد" إنما يعني أن "القدرة الثانية" ستبقى معكم ما شئتم بقاءها، وستنالون الحياة الأبدية نتيجة القدرة الثانية. والمراد من "القدرة الثانية" صنوف التأييد الإلهي الذي يكون حليفًا للمؤمنين. كما تعني نظامَ الخلافة

التي يقيمها الله تعالى بنفسه ليمتد نور النبوة. فبوسع القوم أن يحظوا بالتأييدات الإلهية دائمًا لو أرادوها وجعلوا أنفسهم أهلاً لها، كذلك بإمكانهم أن يتمتعوا بنعمة الخلافة لو أرادوا ذلك وجعلوا أنفسهم أهلاً لها.

والحق أن الفساد إنما ينشأ نتيجة العقلية الممسوخة دائمًا، إذ من المحال أن يتخلى الله عن قوم وطريقة تفكيرهم سليمة، لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١٢).. أي أن الله تعالى لا يغيّر سلوكه مع قوم إلا إذا فسدت قلوبهم. وهذا أمر لا يصعب فهمه على أي إنسان، ولكن الغريب أن الأمم تنسى هذا الأمر البسيط دائمًا فتهلك. لا شك أن الإنسان عرضة للموت، ولا لوم عليه لو مات، ولكن الشعوب لا تموت بالضرورة، بل بوسعها أن تحيا للأبد إذا أرادت، ولكنها تنسى مبادئ الحياة الخالدة وتلقى حتفها بنفسها. والحق أن الله تعالى كان قد أعطى المسلمين منهجًا عظيمًا بواسطة النبي ﷺ، ولو ظلوا عاملين به لعاشوا إلى الأبد، ولكنهم تركوا العمل به فماتوا. إن الدنيا تتساءل دائمًا وقد سُئلتُ أنا أيضًا مرارًا: لقد أعطى الله الصحابة تعليمًا عظيمًا فيه حلول لكافة القضايا والمشاكل الاجتماعية، كما قدم النبي ﷺ أسوته الحسنة عاملاً بهذا المنهج العظيم، فأين ذهب هذا التعليم، ولماذا تلاشى بعد ثلاثة وثلاثين عامًا؟ لقد كانت عند المسيحيين خلافة لا تساوي شيئًا إزاء خلافة المسلمين، ولكن الخلافة المسيحية لا تزال قائمة في شكل البابوات، أما المسلمون فقضوا على خلافتهم في ثلاث وثلاثين عامًا فقط. لا شك أن فئة من المسيحيين متمردة على البابوية، ولكن أكثريتهم تابعة للبابا، وقد انتفعوا بهذا النظام كثيرًا، ولكن الخلافة في المسلمين استمرت لثلاث وثلاثين سنة فقط ثم تلاشت وانتهت. لماذا؟

إنما سببه ذلك الفساد الذي تطرق إلى عقلية المسلمين وطريقة تفكيرهم. لو ظل تفكيرهم سليمًا لما فقدوا هذه النعمة. لقد انكشفت هذه الحقيقة عليّ من خلال إحدى الرؤى، حيث رأيت مرة أوراقًا قد كتب فيها بعض المصنفين أو المؤرخين ملاحظات باللغة الإنجليزية، ورأيت أنها مكتوبة بقلم الرصاص أو بالحبر الأخضر، ولكنها لا تُقرأ بوضوح. وقد تبين لي مما استطعت قراءته أنها تتحدث عن سبب

فساد المسلمين بعد الرسول ﷺ بتلك السرعة. لقد أنعم الله عليهم نعمًا عظيمةً وأعطاهم منهجًا ساميًا في الاجتماع والاقتصاد، ثم أراهم النبي ﷺ بأسوته كيف يعملون به، ومع ذلك فسدوا وسقطوا إلى الحضيض. برغم أن الملاحظات مكتوبة بالإنجليزية إلا أن الغريب أنها مكتوبة من اليمين إلى الشمال خلافًا للمعتاد، ومع ذلك تمكنتُ من قراءتها. وكانت إحدى الفقرات فيها كالآتي على الأغلب:

There were two reasons for it. There temperament becoming morbid and anarchical.

أي لقد فسد المسلمون لأنهم أصيبوا بمرضينِ: أوّلهما أنهم أصبحوا غير طبيعيين، وثانيهما: أنهم أُصيبوا بنـــزعة العصيان والتمرد.

ولما فكرتُ في الأمر وجدت أن كلا الأمرين صحيح. فالدليل على أنهم أصبحوا غير طبيعيين هو أنهم أخذوا يعزون رقيهم إلى كفاءاتهم الشخصية مع أنهم إنما نالوا الغلبة والرقي ببركة الإسلام والرسول ﷺ، ولم يكن لكفاءاتهم الذاتية دخل فيها. ويكفيك لمعرفة حالة أهل مكة قبل النبي ﷺ أن تعلم أن العرب كانوا يكنّون لهم الاحترام لسبب واحد فقط وهو سدانة الكعبة، ولم تكن فيهم ميزة أخرى تدعو الناس إلى إعزازهم وتكريمهم. ولم تكن الشعوب الأخرى أيضًا تحترمهم لكونهم حكامًا بل لكونهم سدنة البيت أو لكونهم تجارًا. وكانوا ضئيلي الشأن عند الشعوب الأخرى لدرجة أن الحكومات الأجنبية كانت ترى أنها قادرة على سحقهم في أي وقت تشاء. ومثاله هجوم والي اليمن على مكة لهدم بيت الله وقد ورد ذكره في القرآن الكريم باسم أصحاب الفيل. أما النبي ﷺ فلم يؤمن به خلال ثلاث عشرة سنة إلا قليل من الناس، ولكن في السنة الثامنة بعد الهجرة خضع العرب كلهم لنظامه، وقد أصبح الإسلام قوة كبيرة تحسب لها الدول الكبرى الحساب. كان العالم عندئذ منقسمًا إلى إمبراطوريتين عظيمتين: الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. وكانت الأولى تحكم شرق أوروبا كلها وتركيا والحبشة واليونان ومصر والشام والأناضول، بينما كانت الأخرى تحكم إيران والعراق وأفغانستان وعدة مناطق روسية وبعض مناطق الهند والسند. وكان العرب

ضئيلي الشأن إزاء هاتين الإمبراطوريتين، ولكن بعد السنة الثامنة من الهجرة خضع العرب كلهم للرسول ﷺ. ثم بدأت أخبار اعتداء القبائل المسيحية الخاضعة للرومان المقيمة على تخوم الشام تصل إلى النبي ﷺ، فخرج بنفسه للقائهم، ولكنه علم أنهم لم يخرجوا لمحاربته، فرجع بدون أي حرب بعدما عقد معاهدات مع بعض القبائل. ولكنه ﷺ علم بعد فترة أن تلك القبائل قد بدأت تثير الفتن مرة أخرى، فبعث جيشًا تحت إمرة أسامة بن زيد ﷺ لقمع فتنتهم، فقام الجيش المسلم بعقاب بعض القبائل وعقد معاهدات كثيرة مع القبائل الأخرى (تاريخ الخميس: غزوة تبوك، والموطن الحادي عشر: سرية أسامة بن زيد). ولم تمضِ بعد وفاته ﷺ سنتان ونصف السنة حتى أخذ حكم العرب يمتد إلى المناطق المجاورة للجزيرة العربية، وبعد خمسة أعوام من فتح مكة اصطدم المسلمون بالإمبراطورية الفارسية واحتلوا بعض مناطقها، وخلال بضعة أعوام قضوا على الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية كلتيهما قضاء مبرمًا. ولا يوجد مثال واحد لمثل هذا الانتصار العظيم والانقلاب المذهل في تاريخ العالم كله. فمثلاً يذكر التاريخ نابليون، ولكنه لم يواجه أية قوة كانت أكثر منه عددًا وعتادًا، إذ كانت ألمانيا حينها مشتتة القوة تمامًا حيث كانت منقسمة إلى أربع عشرة ولاية صغيرة. لقد سئل أحد الرؤساء الأمريكان عندئذ عن رأيه في أوروبا فقال: هناك أسد وثلاثة ثعالب وبضعة فئران. وكان يقصد من الأسد روسيا، ومن الثعالب الحكومات الأوروبية الأخرى، ومن الفئران الولايات الألمانية المشتتة الشمل. إذًا، فكانت هناك قوة واحدة فقط وهي روسيا، ولكن نابليون لما اصطدم بها مُني بالفشل الذريع، كذلك لم يستطع غزو إنجلترا بل كان مصيره الأسر. وكان هناك شخصيتان قويتان أخريان: هتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا، ولا شك أن كليهما قد حققا الرقي، ولكن كان مصيرهما الهزيمة. أما الملوك المسلمون فقد نال تيمورلنك من بينهم مُلكًا كبيرًا بسرعة، ولكن كان مصيره أيضًا مثل هؤلاء الأولين. لا شك أنه بلغ إلى شتى أنحاء العالم غازيًا منتصرًا، ولكنه فشل في هدفه لفتح العالم كله. فمثلا لم يستطع إخضاع بلاد السند كما أراد، ولما حانت منيّته قال: تتراءى لي تلال من جماجم البشر وتلومني.

إذًا فإن نبينا ﷺ هو المثال النادر الوحيد في كل التاريخ البشري منذ زمن آدم إلى اليوم حيث كان في البداية فردًا وحيدًا ثم لم يزل يحرز الرقي تلو الرقي حتى أخضع العرب كلهم في فترة وجيزة. أما بعد وفاته ﷺ فقد قضى أحد خلفائه على إمبراطورية كبيرة قضاء نهائيًا، بينما فتح خليفته الآخر باقي المناطق.

لم يحدث هذا الانقلاب العظيم إلا بنصرة الله تعالى، ولم يكن لعمل إنسان دخلٌ فيه. عندما توفي النبي ﷺ واختير أبو بكر خليفة له بلغ خبر وفاته ﷺ إلى مكة. وكان أبو قحافة والدُ أبي بكر حاضرًا في المجلس الذي جاء الرسول فيه بنعيه ﷺ. فأصيب الناس بصدمة كبيرة، وظنوا بسبب الأوضاع السائدة أن شمل الإسلام سيتفرق الآن حتمًا. فسأل والدُ أبي بكر الرسولَ: فماذا سيحدث الآن؟ فقال الرسول: لقد قامت الحكومة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ مرة أخرى حيث اختار المسلمون خليفة له. فقال: من ذا الذي اختاروه خليفة؟ قال أبو بكر. فقال أبو قحافة في حيرة: ومن يكون أبو بكر؟ ذلك لأنه كان يعرف مكانة أسرته جيدًا، فما كان ليتصور أن العرب كلهم سيرضون بابنه ملكًا. فأجاب الرسول: أبو بكر الذي هو من القبيلة الفلانية. قال أبو قحافة: ومن أَي أسرة هو؟ قال: من الأسرة الفلانية. قال: ومن يكون أبوه؟ قال: أبو قحافة. فلمْ يملك أبو قحافة نفسه وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأضاف: اليوم أيقنت أن محمدًا ﷺ كان من عند الله تعالى. كان أبو قحافة من قبل مسلمًا بالاسم فقط، فأيقن قلبه بصدقه ﷺ في ذلك اليوم، إذ لم يكن أبو بكر من عائلة مرموقة حتى ترضى به العرب كلهم حاكمًا عليهم. فثبت أن الإسلام دين حق من عند الله تعالى.

ولكن عقلية المسلمين فسدت فيما بعد، فظنوا أنهم قد حققوا هذه الانتصارات بقوتهم، وأخذ بعضهم يقول: إن بني أمية هم مصدر قوة العرب، فالخلافة حقهم. وقال بعضهم: إن بني هاشم هم قوة العرب في الحقيقة، وقال بعضهم: إن بني المطلب هم قوة العرب، وقال بعضهم: إن الأنصار هم أحق بالخلافة إذ آووا النبي ﷺ في ديارهم. وهذا يعني أن المسلمين أصبحوا غير طبيعيين في سنوات قلائل

وزاغت طريقة تفكيرهم، وحاولت كل قبيلة منهم انتزاع الخلافة بالقوة، فأضاعوها.

وكان السبب الآخر لفساد المسلمين نـــزوعهم إلى التمرد والعصيان. كان الإسلام قد نفخ فيهم روح المساواة، ولكنهم لم يدروا أن المساواة تعني النظام، إذ لا مساواة بدون نظام عادل. ولكن لم تمضِ إلا سنوات قلائل حتى أخذت تغزو المسلمين فكرة أن الخزائن والأموال هي مِلكٌ لهم. فلما منعهم الحكام من ذلك بدأوا في قتلهم. هذه النـــزعة قد أفسدت المسلمين. كان عليهم أن يدركوا أن هذه حكومة إلهية وأن الله تعالى هو الذي أقامها، فالأفضل لهم أن يتركوها في يد الله تعالى. ذلك لأن الله تعالى قد صرح في سورة "النور" أنه بنفسه يقيم الخلفاء، ولكن المسلمين بدأوا يظنون أنهم هم الذين يقيمون الخلفاء. فقال الله لهم: حسنًا، إذا كنتم أنتم تقيمون الخلفاء، فإني أخرج من القضية وأرى كيف تقيمونهم الآن. فظلوا لمدّة يأكلون من الصيد الذي تصيّدَه الأوائل مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضوان الله عليهم. ولكن الصيد المذبوح لا يدوم طويلاً، فمثلاً إذا كان عندك كبش حي أو شاة حية أو دجاجة حية فستمدّك باللحم والبيض دائمًا، ولكن الدجاجة أو الشاة المذبوحة لن تدوم طويلاً، بل ستفسد بعد أيام. كان المسلمون في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي يأكلون لحمًا طريًا من الصيد، ولكنهم لما قضوا على الخلافة التي كانت روح حياتهم أخذوا يأكلون ما صاده آباؤهم بدلاً من أن يقوموا بصيد جديد طري، ولكن إلى متى يمكن أن ينفعهم الصيد القديم، إذ إن لحم الشاة المذبوحة ينتهي بعد أيام ولو كان عشرين كيلو غراما أو أكثر. هذا ما حدث مع المسلمين بالضبط، إذ انتهى ما كان عندهم من صيد قديم، فأصبحوا كالذي قيل فيه: رجَع بخُفَّي حُنين. لقد ذلوا وهانوا وضُربوا في كل مكان، وذهبت ريحهم وفقدوا مجدهم. إن المسيحيين لا يزالون يحافظون على خلافتهم الميتة حتى اليوم، ولكن المسلمين وأدوا خلافتهم الحية بأيديهم من جراء اتباع الهوى وثوائرهم النفسية العابرة وحبّ الدنيا وزخرفها.

لقد أقام الله تعالى اليوم بفضله الخلافة الراشدة في الجماعة الإسلامية الأحمدية بواسطة المسيح الموعود ؑ إحياءً للمسلمين مرة أخرى، فأوصي جماعتي وأقول: عليكم بالتمسك بالخلافة دائمًا، وتقديم التضحيات من أجل استمرارها، ولو فعلتم ذلك استمرت الخلافة فيكم إلى الأبد. إن الله تعالى لم يضَعْ الخلافة في أيديكم إلا ليقول: كنتُ وضعتُها في أيديكم، ولو أردتم دوامها لدامت فيكم. كان الله تعالى قادرًا على إقامة الخلافة بطريق مباشر من خلال الوحي والإلهام، ولكنه لم يفعل ذلك بل قال: سأقيم الخلافة بينكم لو أردتم أنتم دوامها، وكأنه تعالى يريد أن تقولوا بأفواهكم إنكم تريدون الخلافة أو لا تريدونها. فالآن لو سكتم أو لم تختاروا عند الانتخاب من هو أهل للخلافة، فستزول نعمة الخلافة من بينكم. فينبغي عليكم أن تتدبروا في أسباب دمار المسلمين دائمًا وأنقذوا أنفسكم من الموت. يجب أن تكون عقولكم متّقدة وهِممكم عالية، ولا تكونوا كصخرة تحول دون جريان النهر وتغيّر مجراه، بل كونوا كالقناة التي تمرّر الماء بسهولة. كونوا كالنفق Tunnel الذي تتدفق منه الفيوض الإلهية التي وصلتنا بواسطة الرسول ﷺ وتجري إلى الأمام. فكونوا أُمة لا تموت أبدًا إذا أردتم النجاح. وإذا وقفتم كصخرة في طريق الفيوض الإلهية وصددتموها من الجريان، فاعلموا أن هلاككم قد حان، ولن يطول عمر أمتكم، بل ستهلكون كما هلكت الأمم السابقة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾.. أي عليكم أن تفكروا مَن ذا الذي يرزقكم من السماء والأرض؟ هل هناك إله مع الله تعالى يمدّكم بالرزق؟

لقد بين الله هنا أن الأمم لا تزدهر ماديًا أيضًا إلا بفضل الله تعالى، ذلك لأن الأمة التي لا تجتهد لا تحرز رقيًا، والأمة التي لا تصدق القول لا تزدهر أيضًا، وأي شك في أن الله تعالى هو الذي يوفّق أفراد قوم لبذل المجهود وقول الصدق. إذًا، فإن ازدهار أُمة ماديًّا أيضًا لا يمكن أن يعزى إلى أحد سوى الله تعالى، وليس بوسع أحد تقديم دليل خلاف هذا، ولو حاول ذلك لرفضه التاريخ نفسه.

ثم إن الله تعالى قد لفت هنا أنظار البشر إلى حقيقة أخرى، وهي أنه تعالى ما دام يمدّكم بالرزق من أجل حياتكم المادية، فكيف يمكن أن لا يدبر نظام الرزق لحياتكم الروحانية التي هي غاية خلقكم؟ فإمداده إياكم بالرزق لحفظ أبدانكم واستمرار حياتكم يشكّل دليلا على أنه قد هيأ الأسباب لإصلاح أرواحكم ونمائها، وإن وجود الأنبياء والمصلحين ثبوت واضح للرزق الروحاني. فإذا كان المشركون صادقين في دعواهم أن أصنامهم تتمتع بقدرات إلهية فلم لا يعرضون للناس مبعوثين من عند أصنامهم كالأنبياء الذين بعثهم الله تعالى؟ وإذا كانوا لا يستطيعون تقديم أي مدّعٍ كهذا فثبت أن إشراكهم إياها بالله تعالى لا يستند إلى دليل بل هو هراء.

قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٦﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكٍّ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٧﴾

شرح الكلمات:

ادّارَكَ: أصلُه تَدارَكَ، وتدارَكَ القومُ: تلاحقوا أي لَحِقَ آخرُهم أوّلَهم. (الأقرب)

عَمُونَ: العمون جمعُ العَمِي، وهو: ذو العَمى. (الأقرب)

التفسير: أي لا يعلم أحد في السموات والأرض الغيبَ سوى الله تعالى، بمعنى أن علم الغيب المطلق ليس إلا عند الله تعالى. أما هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أو يدّعون معرفة أخبار الغيب بالنظر في النجوم وغيرها فلا يستطيعون حتى أن يخبروا متى يزدهر قومهم. يهلكون باستمرار ولا يعرفون متى ينجون من الدمار. أما محمد رسول الله ﷺ فكان في البداية فردًا وحيدًا وقد أصبح اليوم سيدًا للملايين. لو كانت آلهتهم تملك شيئًا من القوة أو لو كان هؤلاء يعلمون الغيب بالتنجيم فلِم لا

يخبرون عن زمن رقيهم؟ ولِم لا يقدرون على إيقاف ازدهار محمد رسول الله ﷺ الذي ينكر معرفة علم الغيب مما سوى الله تعالى. وحيث إنهم لا يستطيعون الإخبار حتى عن زمن رُقيهم فأي غيب يمكن أن يخبروا عنه؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾.. أي أنهم لا يعلمون مصيرهم، بل الحق أنهم يشكّون في رقيهم، وإنما يتخبطون خبط عشواء. فكما أن الأعمى يتحسس بيده هنا وهناك، فتقع يده على خشب تارةً، وعلى حديد تارة أخرى، ويجد الطريق المستقيم حينًا، ويسقط في حفرة حينًا آخر؛ كذلك فإن هؤلاء القوم يقولون ما هو صحيح رجمًا بالغيب حينًا، ويعتبرون الباطل حقًا في أحيان كثيرة، والفرق الواضح بينهم وبين أنبياء الله تعالى أن الوحي الذي ينــزل على الأنبياء يكشف غيب السماوات والأرض، أما أتباع الآلهة الباطلة فلا يوجد بينهم من يكشف غيب السماوات والأرض. ثم إن النبي ينبئ عن زمن ازدهار قومه، بينما لا يقدر أيٌّ من ممثّلي الآلهة الباطلة أن يخبر متى تُعاد آلهتُه إلى الحياة ثانية، أي متى يقوم دينهم الوثني في الدنيا. لقد نفد علمهم بهذا الصدد، بل الحق أنهم أصبحوا يشكّون في رقيهم، إنما يتكلمون رجمًا بالغيب، بل الحق أنهم عميان بهذا الشأن، ولا يعرفون شيئًا عن مستقبلهم. بينما لا يزال نبي الله تعالى ينبئ عن انتشار وحدانية الله تعالى ويؤكد غلبتها، وبالفعل يحدث في الدنيا انقلاب عظيم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا
لَمُخۡرَجُونَ ٦٨ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ
إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٧٠

شرح الكلمات:

أساطير: الأساطير مفردُ الإسطار الذي مفرده سطر. وقال المبرَّد: الأساطير مفردها أُسطورة وهي ما يُسطَر أي يُكتَب (الأقرب)

التفسير: أي يقول الكافرون أإذا متنا نحن وآباؤنا وأصبحنا ترابًا فهل نُعاد للحياة مرة أخرى؟ لقد وُعدنا نحن وآباؤنا بهذا من قبل، ولكن هذا لن يحدث أبدًا، بل الحق أن كل هذه الضجة عن الحشر والنشر مجرد هراء وتقليد لأقوال السابقين.

يقول الله تعالى للكافرين في الجواب: سيروا في الأرض لتروا كيف كان مآل المجرمين. لِم لا تدركون أن الله الذي يُري المجرمين في الدنيا مشهدًا كيوم القيامة بعقابهم على جرائمهم، لا يُعجزه أن يُريهم مشهد القيامة في الآخرة؟ إن أكبر اعتراضهم هو أن الناس يتحدثون منذ آلاف السنين عن مجيء القيامة، ومع ذلك لم تأت القيامة حتى اليوم، وهذا دليل على أن كل هذه الضجة عن القيامة باطلة. عليهم أن يفكّروا فيما إذا كان الله قادرًا على إقامة القيامة أم لا. وإذا كان قادرًا على ذلك حيث يرون مشاهد كثيرة كمثل القيامة في الدنيا، فكيف يقولون لماذا لم تقم القيامة؟ فثبت أن قولهم مجرد هراء مثير للضحك. ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.. أي ألم تروا المجرمين على مر العصور كيف نالوا العقاب دائمًا، إذًا، فكيف ظننتم أنكم ستنجون من العقاب؟ وكما أن عقاب المجرمين وهلاكهم في الماضي وفي هذه الدنيا كان دليلاً على القيامة في الآخرة، كذلك عندما يحل بكم العذاب في الدنيا سيكون دليلاً لكم على قيامتكم في الآخرة.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧١﴾

التفسير: لقد أخبر الله من قبل أن الذين يعادون محمدًا رسول الله ﷺ لن ينجوا من العقاب، بل سيحل بهم حتمًا كما حلّ بالذين خلوا من قبلهم. وهذا الخبر قد أحزن النبي ﷺ كثيرًا إذ لم يُرد هلاك قومه ولا أن يكونوا هدفًا لغضب الله تعالى؛

ولذلك قد طمأن الله رسولَه هنا وقال: يا محمد، لا تحزن على هلاكهم إذ سيحلّ بهم لا محالة، ولكنهم لا يُهلَكون كلية بل سيتأخر هلاكهم التام بعض الوقت، وسيستمرون في نسج المؤامرات ضدك حتى ذلك الحين، ولن يألوا جهدًا للقضاء عليك، فلا تنـزعج من مكائدهم إذ لن ينجحوا فيها أبدًا بل ستبُوء كلها بالفشل الذريع.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧٢﴾ قُلْ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ
﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

تُكِنُّ: كَنَّ الشيءَ وأَكَنَّه: ستَره في كِنّه وغطّاه وأخفاه. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء الكافرين قد بلغوا من التمرد غايته إذ لا ينتفعون من المهلة الممنوحة لهم ولا يصلحون أنفسهم عاملين بأحكام الله تعالى، وإنما يسألون بكل جسارة: متى يتحقق وعد العذاب هذا إن كنتم صادقين؟ فقل لهم: قد يكون بعض العذاب الذي تستعجلون به قادمًا وراءكم.. أي أن ساعة هلاككم التام ستتأخر بعض الوقت ولكن لا بد أن تتعرضوا قبله لصنوف العذاب البسيط، فكُفّوا عن جسارتكم إذ لا قِبل لأحد بعذاب الله تعالى. أما سؤالكم: لماذا يتأخر العذاب الأكبر عنكم، فجوابه: أن الله تعالى لذو فضل على عباده، ويريد بهذه المهلة إنقاذ الذين يمكن إنقاذهم، ولكن المؤسف أن الناس لا يشكرونه بل يزدادون بسبب

المهلة كبرًا وشرًا، ولا يدرون أن ربك يعلم ما يخفون من نواياهم وما يعلنون من أعمالهم، ويرى أنهم يستحقون عليها العقاب، ومع ذلك يُمهِلهم رحمةً منه وفضلاً.

وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾
إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٩﴾ فَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٨٠﴾

شرح الكلمات:

غائبة: من الغيب الذي استُعمل في كلّ غائب عن الحاسة وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب. (المفردات)

التفسير: أي ما من شيء خفي في السماء والأرض إلا وهو محفوظ في علم الله تعالى حفظًا تامًا. والدليل على ذلك هو أن القرآن الكريم يبين أكثر الأمور التي يختلف فيها بنو إسرائيل، ويكشف الحقَّ للناس وإن كان مغطى تحت آلاف الحجب؛ فلا يملك العاقل أمامه إلا الاعتراف بصحة موقف القرآن وخطأ موقف الكتاب المقدس. فمثلاً ورد في الكتاب المقدس أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى الطور لرؤية التجلي الإلهي انضم هارون في غيابه إلى المشركين، فصنع لهم عجلاً من الذهب وأخذ في عبادته. (الخروج ٣٢: ١-٦)، ولكن القرآن الكريم يعلن أن هارون عليه السلام لم يشرك أبدًا، وإنما هي تهمة شنيعة نجسة أُلصقت به، بل الحق أنه قد نهى بني إسرائيل عن عبادة العجل بكل شدة وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾(طه:٩١).. أي يا قوم إنما أُلقيتم في الاختبار

بسبب هذا العجل وإن ربكم الرحمن الذي لا يزال يعينكم حتى قبل ولادتكم، وقد أنعم عليكم بنعم كثيرة، أما العجل فلن ينفعكم شيئًا، فلماذا تخرّون أمامه ساجدين؟

ثم بيَّن القرآن الكريم أن هذا العجل إنما صنعه شخص خال من الروحانية واسمه السامري.

لقد نـــزل القرآن الكريم بعد موسى بألفي سنة، بينما دُوّنت التوراة في زمنه بحسب المؤمنين بها، أفليس غريبًا أن الكتاب من زمن موسى يتهم هارون - عليهما السلام - والكتاب الذي نـــزل بعده بألفي سنة يُبرئ ساحته؟

ثم لو فحصنا هذا الأمر على ضوء علم النفس لوجدنا موقف القرآن الكريم هو الصحيح. ذلك أن التوراة تعترف بنـــزول وحي الله على هارون عليه السلام، فما دام هو من عباد الله المختارين فكيف يمكن أن يشكّ في وجود الله تعالى الذي يُنـــزل عليه الوحي؟ إذ لا يمكن أن يعبد العجل إلا الذي يشك في وجود البارئ تعالى، أما الذي يتلقى الوحي من الله تعالى فكيف يشك في وجوده تعالى؟ فثبت أن التهمة التي ألصقتها التوراة بهارون عليه السلام باطلة تمامًا بحسب علم النفس أيضًا، وهو أمر لا بد لكل عاقل من الاعتراف به.

وإن كبار علماء الإنجليز الذين أعدّوا الموسوعة البريطانية أيضًا قد تناولوا هذا الموضوع واعترفوا ببطلان قصة وقوع هارون في الشرك، بل استدلّوا من هذه القصة على إضافات كثيرة دُسّتْ إلى التوراة الأصلية فيما بعد. (الموسوعة البريطانية المجلد ٤ تحت: the golden calf، والمجلد ١٥ تحت: Moses)

كذلك تزعم التوراة أن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر كان عددهم مئات الآلاف (الخروج ١٢: ٣٧)، ولكن القرآن الكريم قال عن عددهم: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ (البقرة:٢٤٤).. والتاريخ وكذلك الأحداث المفصلة من التوراة نفسها تؤكد أنهم لم يكونوا مئات الآلاف بل كانوا عدة آلاف، إذ من المستحيل أن يجتمع مئات الآلاف من الناس من مختلف أنحاء مصر ويصلوا إلى بحر قلزم في فترة وجيزة، كما لا يمكن أن تتيسر الدواب لحمل هذا العدد الهائل من الناس. فإننا نعيش اليوم في

عصر الأجهزة والآلات، ولو أردنا نقل أربعين ألف شخص من مكان إلى آخر في وقت قصير بالباصات والقطارات لم نتمكن من ذلك، فما بالك بجمع ونقل مئات الآلاف على متن الخيول والثيران والحمير مسافة تبلغ مئات الأميال؟!

كذلك يقول القرآن الكريم والتوراة أيضًا إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، ولكن يتبين لنا عند الخوض في التفاصيل أن حُكم الذبح الوارد في التوراة يبدو بلا حكمة، بينما يبدو حُكم الذبح في القرآن الكريم أمرًا حكيمًا جدًّا. لا شك أن هناك اختلافًا بين المصدرين حول الابن الذبيح إذ ترى التوراة أنه إسحاق، بينما يقول القرآن الكريم إنه إسماعيل (الصافات:١٠٣)، ولكن هذا لا يغيّر من الأمر الواقع كثيرًا ألا وهو أن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ابنه فرضي بذلك. ولكن فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي لهذه الواقعة فإن بيان القرآن الكريم يبدو معقولاً جدًا، بينما يبدو بيان التوراة بلا حكمة، حيث ورد فيها:

"إن الله تعالى امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم؟ فقال: ها أنا ذا. فقال: خُذْ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق، واذهب إلى أرض المُرِيّا وأَصعِدْه هناك مُحرَقةً على أحد الجبال الذي أقول لك." (التكوين ٢٢: ١-٢)

وتقول التوراة أن إبراهيم عليه السلام عمل بأمر الله تعالى، فربط إسحاق ووضعه على المذبح فوق الحطب، وأخذ السكين ليذبح ابنه، "فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم، إبراهيم؟ فقال: ها أنا ذا. فقال: لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئًا، لأني الآن علمتُ أنك خائفٌ اللهَ، فلم تمسِكْ ابنك وحيدك عني. فرفَع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه مُمسَكًا في الغابة بقرنَيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش، وأصعده مُحرَقةً عوضًا عن ابنه." (المرجع السابق: ٩- ١٣)

وهذا يعني أن إسحاق عليه السلام لم يُذبح - بحسب التوراة - ماديًا ولا معنويًا. وهكذا تبدو القصة الواردة في التوراة - والعياذ بالله - أضحوكة مع إبراهيم من قبل الله تعالى، إذ ما الجدوى في أن يأمر الله تعالى إبراهيم بذبح إسحاق أوّلاً ثم يمنعه فيما بعد؟ إذا كان الله تعالى يريد أن يكتشف إيمان إبراهيم فقط، فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: ألم يكن الله تعالى يعلم من قبل أنه إنسان بار صادق

الإيمان، وأنه يطيع أوامره دونما تردد؟ فما دام الله تعالى علم ذلك سلفًا فأمرُه بالذبح ثم نهيه عنه يصبح أمرًا عبثًا خاليًا من الحكمة.

ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن ذبح إسماعيل الذي أمر الله تعالى به إبراهيم إنما كان ذبحًا مجازيًا، إذ لم يرد أن يذبح ابنه بالسكين، بل كان المراد من ذبحه أن يُسكنه - لإعلاء كلمة الله - في مكان قفر لا يوجد فيه طعام ولا شراب. فيخبرنا القرآن أن الله تعالى قد منع إبراهيم من ذبح إسماعيل، ولكن لم يمنعه من العمل بالتأويل الحقيقي لمنامه وهو ترك إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، بل قد أمره الله تعالى بالعمل بحسب هذا التأويل، ونتيجة لعمله به تجد مكة حتى اليوم عامرة بذرية إسماعيل ويُعبَد الله وحده فيها ويُدعى الناس إليه سبحانه. إذًا، لم يكن قربان إسماعيل عليه السلام عملاً ظالمًا وحشيًا بل كان عملاً حكيمًا نافعًا للدنيا حتى اليوم، حيث يُرفع اسم الله تعالى من خلال ذرية إسماعيل عليه السلام في ذلك الوادي الخالي من الزرع، ويجتمع فيه مئات الآلاف من الناس في موسم الحج، وكل واحد منهم ينادي: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك".. أي اللهم إني حاضر لديك كما حضر إبراهيم، لا شريك لك ولا معبود سواك، ها إني حاضر لنشر وحدانيتك.

إذًا، فلا مقارنة بين القصة التي تحكيها التوراة وبين ما ذكره القرآن الكريم، إذ يبدو ما ورد في التوراة حُكمًا همجيًّا خاليًا من أي حكمة، فماذا عسى أن ينفع الدنيا ذبحُ إسحاق بالسكين؟ أما إقامة إسماعيل في مكة فنفعته هو والدنيا أيضًا، إذ أصبح إسماعيل معلّمًا عظيمًا للتوحيد، كما تمكنت الدنيا بواسطته من عبادة الله الأحد. فلو حذفتَ مكةَ من خريطة العالم لم يبقَ في الدنيا كلها مركز واحد لوحدانية الله تعالى، ولو محوتَ قربان إسماعيل من التاريخ لما كان هناك سبيلٌ لخلق الحماس في الناس لينذروا حياتهم لإعلاء كلمة الله تعالى.

إذًا، فإن القرآن الكريم يزيل غبار التحريف المتراكم على بيان التوراة للأحداث على مرّ القرون، ويعرضها على الدنيا بشكلها الحقيقي، وبالتالي يقدّم الدليل على

صدق قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.. أي أن أخفى خفايا السماوات والأرض لمحفوظة في علم الله تعالى.

ثم إن القرآن الكريم لا يسلّط الضوء على الحقائق التي يختلف فيها المسلمون وبنو إسرائيل فحسب، بل يكشف للعالم حقيقة الأمور التي يختلف فيها اليهود والنصارى. فمثلاً يقول اليهود بالإجماع أن المسيح (عليه السلام) وُلد - معاذ الله - ولادة غير شرعية، حيث يقول بعضهم أنه وُلد من نطفة يوسف النجار من دون زواج. (الموسوعة البريطانية مجلد ٥ ص ١٠٢ تحت: Celsus)، ويقول بعضهم أنه وُلد نتيجة علاقات غير شرعية بين مريم وجندي رومي اسمه بانسيرا؟ (الموسوعة اليهودية مجلد ٥ ص ١٧٠ تحت: Jesus). بينما يقول الإنجيل عن ولادة المسيح عليه السلام: "أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمُّه مخطوبةً ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدتْ حُبْلى من الروح القدس." (متى ١: ١٨)

إذًا، فهناك اختلاف كبير بين اليهود والنصارى حول ولادة المسيح، فجاء القرآن الكريم وفصل بين الفريقين بكلمات صريحة واضحة: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:٩٢).. أي أن مريم قد حافظتْ على كل منافذها من الوقوع في الإثم، فاتهامها بالفاحشة افتراءٌ شنيع لأنها حملتْ في الواقع بروح طاهرة نفخناها فيها. ثم هناك دعوى عيسى عليه السلام بأنه هو المسيح، ولكن اليهود ينكرون رسالته أصلاً، أما المسيحيون فبدلاً من أن يعتبروه رسول الله اتخذوه ابن الله، ولكن الإسلام عرض على العالم نظريةً صحيحة تتنافى مع موقف اليهود والنصارى كلهم، فبين أن اليهود مخطئون حيث كفروا بالمسيح كليةً، وأن النصارى أيضًا مخطئون إذ اعتبروه إلهًا، إنما الأمر الحق أن المسيح لم يكن إلا رسولاً إلى بني إسرائيل. (آل عمران: ٥٠)

وقال اليهود أن المسيح أصبح ملعونًا بموته على الصليب (تثنية ٢٣: ٢١، وغلاطية ١٣: ٣)، وقال النصارى أنه بعد موته على الصليب مكث في الجحيم ثلاثة أيام فداءً عن آثام الآثمين، ثم عاد إلى الحياة وصعد وجلس على يمين الله (رسالة بطرس الأولى ٣: ١٨، والموسوعة البريطانية تحت: Creed). ولكن القرآن الكريم أعلن أن كلا الفريقين

على الخطأ، فلم يمت المسيح على الصليب بل أُغمي عليه وهو على الصليب، فظن الناس أنه قد مات، والحق أنه قد أُنـــزل من على الصليب حيًا (النساء: ١٥٨)، وأنه لم يصعد إلى السماء بعد نجاته من الموت على الصليب، بل ذهب الله به إلى بلاد كشمير (المؤمنون: ٥١)، وأنه قد نشر دينه هناك مدة طويلة.

إذًا، فالقرآن الكريم يفصل بين اليهود والنصارى فيما اختلفوا فيه، كما يسلّط الضوء على ما يختلف فيه المسلمون وبنو إسرائيل، وهكذا يصير هدى ورحمة للناس.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.. أي أنه تعالى لن يرفع بالقرآن الكريم الخلافَ الموجود بين بني إسرائيل فحسب، بل سيقضي بحُكمه بين شتى طوائفهم وفرقهم، ويجعل الصادقين غالبين والكاذبين مغلوبين، لكونه تعالى: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾. وبالفعل أصبح المسيحيون بعد نـــزول هذه الآية غالبين في كل مكان، بينما صار اليهود الكافرين بالمسيح عليه السلام مغلوبين. ولكن لما كانت غلبة المسيحية تمثّل خطرًا دائمًا على الإسلام وكانت مسؤوليات جسام ستلقى على المسلمين لنشر الإسلام، فقال تعالى إثر خبر غلبة المسيحية: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾.. أي عليك أن تستمر في إشاعة دينك متوكلاً على الله تعالى، لأن المسيحية وإنْ كانت على الحق في اختلافها مع اليهودية، إلا أن الحق المبين هو عند الإسلام فقط. فاتخذْ كل تدبير لنشر الإسلام موقنًا أن الله تعالى سيجعلك من الناجحين، وستصبح راية الإسلام في الدنيا أعلى من كل راية.

ولكن المؤسف أن المسلمين في هذا العصر قد فهموا التوكل فهمًا خاطئًا تمامًا، فظنوا أن التوكل هو أن لا يتخذ المرء أي تدبير لإنجاز أمور دينه بل يتركه لله لينجزها بنفسه. والغريب أهم يُبدون هذا النوع من التوكل في أمور دينهم لا في أمور دنياهم. فمثلاً إذا أصيب قريب لهم بمرض بادروا إلى المستشفى للدواء والعلاج، ولم يجلسوا في البيت عاطلين محتجين بأن الله تعالى نفسه سيشفيه، وإذا مرض أحد منهم فلا يقول: لن يضرني مرض الملاريا أو الطاعون أو الكوليرا، بل

يهرع إلى العلاج فورًا، ويدفع أجرة الأطباء والدواء متخذًا كل تدبير ممكن بدلاً من الجلوس تواكلاً على الله تعالى. كذلك لن تجد أحد الطلاب يقول لا حاجة بي للالتحاق بالمدرسة وشراء الكتب أو الدراسة، فإني قد توكلتُ على الله حق التوكل، وسيجعلني من الفائزين. كذلك لو احتاج أحد منهم إلى بناء بيت فلن يقول، ليس بي حاجة لأن أشتري مواد البناء من لبن وطوب أو آتي بالمعماريين والعمال، فإن الله تعالى نفسه سيبني لي بيتًا. أو لو رجع أحدهم إلى البيت جائعًا فوجد زوجته لم تهيئ له شيئًا، فلما سألها الطعام قالت: لا حاجة بي لإعداده لأن الله تعالى سيمدّنا به إذ قد وعد أن يرزق كل حيوان وإنسان؛ أفتظن أنه سيفرح بأن زوجته متوكلة على الله حقًّا، أم يتميز غيظًا؟ ولربما يضربها بالعصا إذا كان من الهمجيين غير المهذبين. فبرغم هذه الحقائق كلها في أمور دنياهم يلجأ الناس إلى التوكل الزائف في أمور دينهم. حينما يتعلق الأمر بشؤون دنيانا من طعام وبيت ووظيفة وما إلى ذلك لا نلجأ أبدًا إلى هذا التوكل الزائف، بل نتخذ كل سبب خلقه الله لذلك. فمثلا برغم علمنا أن الله تعالى قد أعلن أن بيده الموت والحياة، والذلة والعزة، والضيق والرخاء، إلا أننا نسعى جاهدين لأن نتخذ كل تدبير ممكن ضروري لإنجاز أمور دنيانا فنتخذ كل سبب للحياة لنتجنب الموت، ونتخذ كل تدبير للعزة لنتجنب الهوان، ولا ندخر وسعًا لجلب المال لنتجنب الفقر، ولكن عندما يتعلق الأمر بالدين نقول بدون حياء: سينجز الله تعالى بنفسه أمور دينه ولا داعي للقلق.

كنت ذات مرة قادمًا بالقطار من لاهور في عهد الخليفة الأول ﷺ، فركب معي في العربة أحد المتصوفين المشهورين، وكان يريد مني أن أشفع له عند بعض أفراد جماعتنا. فأخرج أثناء الحديث منديلاً فيه زبيب، فوضع المنديل أمامي وقال: تفضل وكُلْ. وكان هذا المتصوف قد نشر فتوى ضد جماعتنا بأن التعامل والحديث مع الأحمديين حرام قطعًا، ومن فعل ذلك أو اشترك في اجتماعاتهم فسخ زواجه وحل الطلاق من زوجته. وأتذكر جيدًا أنه بعد نشر هذا الرجل فتواه ذهب سيدنا المسيح الموعود عليه السلام إلى سيالكوت وألقى هناك محاضرة. ولما وصلنا قريبًا من مكان

المحاضرة رأيت كبار المشائخ واقفين في الطريق حاملين فتوى هذا المتصوف وكانوا ينهون الناس عن حضور الاجتماع مهددين إياهم بفسخ النكاح، قائلين أن من ذهب لسماع محاضرة هذا الرجل أصبحت زوجته مطلقة، ومن زار الأحمديين أصبحت زوجته مطلقة، ومن سلّم عليهم أصبحت زوجته مطلقة! ورأيت أن بعض الناس كان يتضايق من قولهم ويقول: فليفسخ نكاحي فإني سأعقد القران ثانية بإعطاء روبية واحدة ورُبْعها لبعض المشائخ، أما حضرة المرزا فلن يأتي هنا كل يوم ولا بد أن أسمع خطابه، ثم يدخل مكان الاجتماع. لقد مدّ هذا المتصوف منديله أمامي ودعاني لتناول الزبيب بالرغم من أنه كان صاحب تلك الفتوى ضد الأحمديين، وبرغم أنه كان يعلم أني ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. لقد كرهت أن آكل منه شيئًا بسبب فتواه، إلا أن الله تعالى قد أوجد لي عذرًا بفضله، وهو أنني كنت مصابًا يومئذ بالزكام والسعال، وأكل الزبيب يزيد هذا المرض. فاعتذرت إليه قائلاً: أرجوك أن تعذرني من أكل الزبيب لأني مصاب بالزكام. فقال: كلا لن يضرك أبدًا، ويمكنك أن تجرب. فرفضتُ وقلت: إني أعلم بالخبرة أن أكله سيضرني حتمًا. قال: كل هذا كلام فارغ، فإن الأمر كله بيد الله، ولا يكون إلا ما يشاء الله. قلت: لقد تأخرتَ كثيرًا في إعلامي بذلك، إذ لو أخبرتَني بذلك عندما كنا في لاهور لتجنبتَ أنت وأنا من الخسارة. قال: كيف؟ قلت: لقد أخطأنا نحن الاثنين حين اشترينا تذاكر القطار - كان قادمًا إلى "أمرتسر" وأنا إلى "بتالا"- لو علمنا هذه المسألة عندها لم نستأجر عربة حصان أو لم نشتر تذاكر قطار، لأن الله تعالى كان سيوصلك إلى أمرتسر ويوصلني إلى قاديان لأنه هو الذي يفعل كل شيء! قال: ولكن لا بد للإنسان من تدبير. قلت: وأنا أيضًا أتخذ التدبير، فلا آكل الزبيب في مرض الزكام.

إذًا، فإن الإنسان يتذكر اتخاذ التدبير ما دام الأمر يخصه، ولكن حين يخص الأمر دين الله تعالى فيقول بدون تردد: لا حاجة بي لاتخاذ أي تدبير لأن الله تعالى سينجزه بنفسه! لا جرم أن الله تعالى هو الذي سينجز شؤون دينه كلها، كما أنه هو نفسه ينجز شؤون دنيانا أيضًا في الواقع، إذ لا ننجح في شتى أمور الدنيا إلا

بفضله تعالى، وليس بمحض جهودنا، وإلا فيجب أن ننجح في كل أمر دائمًا، ولكنا ننجح في بعضها ونفشل في بعضها. فمثلاً هناك آلاف الطلاب الذين يجتهدون ويفوزون في الامتحانات، وهناك آلاف آخرون يجتهدون فيفشلون. وهناك آلاف الناس الذين يجتهدون وينالون العزة، وهناك آلاف آخرون يبذلون كل ما في وسعهم لينالوا العزة فيصبحون أكثر ذلاً وهوانًا من ذي قبل. فثبت أن الله تعالى هو الذي ينجز كل شيء، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أن الأمر لو كان يتطلب من المؤمن اتخاذ تدبير و لم يتخذه، حلّ عليه عقاب الله وصار هدفًا لبطشه وعذابه.

لقد بين الله تعالى في القرآن الكريم مثالاً واضحًا لذلك فيما حصل بقوم موسى عليه السلام، فقد وعدهم الله تعالى بأنه سيعطيهم أرض كنعان، كما وعدنا الله تعالى أنه يجعلنا ملوك الدنيا، ولكن الله تعالى أخبرهم أيضًا أن سبيله أن يذهبوا ويقاتلوا أهل كنعان، فيفتحها الله على أيديهم. فلما أمرهم موسى عليه السلام بذلك قالوا له: لقد وعدنا الله تعالى بأرض كنعان، فعليه أن يفي لنا بوعده بنفسه، لماذا يدفعنا نحن إلى الهلاك؟ ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٢-٢٧).. أي اذهبْ أنت مع ربك وقاتِلا الأعداء فإذا فتحتَها أخبِرْنا فسوف ندخلها حتمًا!

وهل تعرف نتيجة قولهم هذا؟ لقد حرّم الله عليهم أرض كنعان أربعين سنة رغم وعده بإعطائهم إياها، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، حتى مات كل أولئك القوم المعترضين على موسى تائهين في البراري، ثم أنجز الله تعالى وعده على أيدي ذرياتهم.

فثبت أن الأمور التي تتطلب اتخاذ التدابير من قِبل العباد لا تنـزل نصرة الله بشأنها - رغم وعد الله وقراره ومشيئته وإرادته - ما لم تستعدّ الأمة كلها لتقديم التضحية في سبيلها، أما إذا ترددت في تقديم التضحية فلن ينفعها التوكل الزائف ولن يحالفها النجاح.

ورد في الحديث أن شخصًا سأل الرسول ﷺ مرة: يا رسول الله، أأعقِلُ ظلف بعيري أوّلاً ثم أتوكل، أم أتركه هكذا متوكلاً على الله؟ فقال النبي ﷺ: "اعقِلْها وتوَكَّلْ." (الترمذي: أبواب صفة القيامة).. أي عليك أن تقوم بالعمل أوّلاً ثم تترك

نتيجته لله تعالى. ومن أجل ذلك نجد الصحابة يعملون ليل نهار، وكان الرسول ﷺ نفسه يعبد الله تعالى حتى تتورم قدماه من طول القيام. فقالت له عائشة - رضي الله عنها - مرة: لماذا تعبد الله طويلاً وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: أفلا أكون عبدًا شكورًا لله تعالى؟ (البخاري: كتاب التهجد، باب ما قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه)

فلو كان التوكل يعني أن يجلس المرء عاطلاً لكان النبي ﷺ أولى بذلك إذ كان أكبر المتوكلين، ولكن الواقع أنه ﷺ كان أكثر الناس عملاً. ولو كان هذا هو معنى التوكل وجب أن يكون أهل الجنة عاطلين، ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن أهلها سيكونون مشغولين بأعمال كثيرة حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾(يس:٥٦). ما دام الله تعالى يهيئ للمؤمنين كل شيء في الجنة كان المفروض أن يجلسوا فيها عاطلين كل الوقت، ولكن الله تعالى يقول عنهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ ولفظ ﴿شُغُلٍ﴾ نكرةٌ ويراد به التعظيم، والمراد أنهم سيكونون مشغولين بعمل عظيم. والفرق الوحيد أن الإنسان لن يصاب في الجنة بالسأم والملل والنصب من العمل بل يفرح بقيامه ويشعر بالبشاشة والانبساط.

باختصار، إن المسلمين في هذا العصر يفهمون التوكل فهمًا خاطئًا تمامًا، فإذا كان الشيء بحسب رغبتهم قاموا به، وإذا لم يرغبوا فيه قالوا: نتوكل على الله. مع أنه لو كان هذا هو التوكل على الله لما كانت ثمة حاجة إلى صلاة وصوم وحج وزكاة وغيرها من الأحكام، بل كان يكفي المرء أن يقّر بالإيمان بلسانه فقط. فالمفهوم الصحيح للتوكل أن يأخذ المرء بالأسباب التي خلقها الله تعالى لإنجاز شيء، ثم يُنيب إلى الله تعالى ويقول: ربِّ، قد فعلتُ كل ما كان بوسعي، فإذا كان هناك تقصير في عملي فعوّضْ عنه بفضلك، وأْتِ بالنتيجة الطيبة لعملي متغاضيًا عن تقصيري وخطئي. ولو فعل ذلك حالفته نصرة الله تعالى، ونجح في كل شيء. أما الذي لا يحرك ساكنًا ويزعم أنه متوكل على الله تعالى فهو يسخر من التوكل ويجلب عليه سخط الله تعالى.

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨١﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾

التفسير: لقد قال الله تعالى من قبل لرسوله ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، أما الآن فيبين أن من الناس من ينكر الحق مهما كان واضحًا بينًا، فكون هذا القرآن ﴿الحق المبين﴾ لا يعني بالضرورة أن الجميع سيقبلونه. ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾.. أي لن تستطيع أن تُسمع الذين قد ماتت قلوبهم وخلت من خشية الله ومحبته. ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.. ولن تستطيع أن تُسمع الذين لا يقدرون على سماع شيء، ولا سبيل لهدايتهم خاصةً إذا ما ولّوا مدبرين عمن يكلّمهم، إذ لا يعودون قادرين على فهم إشارته أيضًا. ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾.. أي لا تستطيع أن تنقذ من الضلال من هو أعمى ولا يريد أن يتبع البصيرة، إنما تستطيع أن تُسمع الحق وتشرحه لمن يؤمن بآيات الله، فهؤلاء هم الذين يدخلون في الإسلام في نهاية المطاف.

وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

تُكلِّمهم: كلّمه: حدّثه؛ وجرّحه. (الأقرب)

التفسير: أي عندما يصدر من السماء القرار بعقاب هؤلاء الموتى والصمّ والعمي روحانيًا، سيُخرج الله من الأرض دودة تجرحهم، وسننـــزل عليهم هذا العذاب لأنهم لم يوقنوا بآياتنا.

واعلم أن نبأ خروج دابة الأرض هذا قد أوضحه النبي ﷺ في أحاديث أخرى، وأخبر أن خروجها سيكون في آخر الزمان الذي هو زمن ظهور المسيح والمهدي (تفسير ابن كثير). كما بين النبي ﷺ أيضًا أنه عندما تشتد المعارضة ضد المسيح الموعود "فيرسل الله عليهم النغف في رقاهم." (مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال).. أي أن معارضي المسيح الموعود سيصابون بمرض الدمامل في رقاهم بأمر الله تعالى فيهلكون بها.

وعندما ندرس هاتين الروايتين معًا يتضح لنا جليًا أن دابة الأرض التي أخبر القرآن عن ظهورها هنا هي في الواقع مرض الطاعون الذي قد تفشى في زمن المسيح الموعود عليه السلام وأهلكَ مئات الآلاف من الناس.

وسبب هذا المرض دودةٌ تدخل في جسم الإنسان من الأرض، فيظهر دمّلٌ خطير في عنقه أو عند أصل الفخذ، ولذلك سمى النبي ﷺ هذه الدودة دابة الأرض وأيضًا النغَف. وبما أن النبي ﷺ قد اعتبر خروج دابة الأرض من علامات الزمن الأخير، فثبت أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إنما يشير إلى أولئك القوم الذين يكذّبون المسيح الموعود عليه السلام، ولن يروا آيات السماء لمرضهم الروحاني، ولن يسمعوا كلام الله تعالى جرّاء صممهم الروحاني، ولن يفعلوا الخيرات لحرماهم من الحياة الروحانية. وسيبطش الله تعالى بهم من جراء معاصيهم فيسلّط عليهم الله دودة أرضية لتُهلكهم. لقد تردوا وأصبحوا ديدانًا أرضية بكفرهم بآيات الله، فيسلّط الله عليهم دودة من الأرض كعقاب.

فهذه نبوءة عظيمة قد تحققت في عهد المسيح الموعود عليه السلام. وقد أشارت إليها أنباؤه عليه السلام أيضًا بكل وضوح وجلاء. وبيان ذلك أنه لما وقع خسوف القمر بحسب نبوءة النبي ﷺ في الليلة الثالثة عشرة من رمضان وكسوف الشمس في اليوم الثامن والعشرين من رمضان نفسه أخبر الله المسيح الموعود عليه السلام أن الناس إذا لم ينتفعوا من هذه الآية و لم يؤمنوا به عليه السلام فسينـــزل عليهم عذاب شديد. فقد كتب عليه السلام بصدد هذه الآية ما نصه:

"وحاصل الكلام أن الخسوف والكسوف آيتان مخوّفتان، وإذا اجتمعا فهو تهديد شديد من الرحمن، وإشارة إلى أن العذاب قد تقرر وأُكّد من الله لأهل العدوان."
(نور الحق الجزء الثاني، الخزائن الروحانية ص ٢٣٢)

وتحقيقًا لهذا النبأ ألقى الله في روع المسيح الموعود عليه السلام أن يدعو لنـــزول وباء عام حيث قال عليه السلام عام ١٨٩٤م في قصيدة عربية:

فلما طغى الفسقُ المـــبيدُ بسيلهِ تمنيتُ لو كان الوباءُ المتبِّـــرُ
فإنّ هلاك الناس عند أُولي النهى أحَبُّ وأَولَى مِن ضلال يُخسِّرُ

(حمامة البشرى، الخزائن الروحانية المجلد ٧ ص ٣٢٦)

ثم في عام ١٨٩٧م كتب حضرته عليه السلام ما تعريبه:

لقد تلقيت إلهامًا من الله تعالى: "يا مسيحَ الخلق عَدْوانا".. أي يا مسيح الخلق اهتمّ بمرضنا.

وأضاف بعد ذلك قائلاً:

"فلا ندري بأي وقت تتعلق هذه الأخبار ومتى تتحقق. فترون أنهم يموتون بالدعاء تارة ويحيون بالدعاء تارة أخرى." (سراج منير، الخزائن الروحانية المجلد ١٢ ص ٧٠-٧١)

عندما أُشيعتْ هذه النبوءة الأخيرة كان الطاعون قد تفشى في مدينة مومباي فقط، وكان انتشارها فيها قد توقف بعد سنة، فكان الناس فرحين أن الأطباء قد تمكنوا من إيقافه، ولكن أنباء الله تعالى كانت خلاف ذلك. فبينما كان الناس يعتبرون هجمة الطاعون هجمة عابرة، إذ كان قد خف واختفى من منطقة مومبي وكانت منطقة بنجاب محفوظة منه ما عدا قرية أو قريتين، نشر المسيح الموعود عليه السلام إعلانًا آخر قال فيه ما تعريبه:

"هناك أمر هام آخر أجدني مندفعًا لذكره هنا بدافع الشفقة على الإنسانية. وبرغم أني أعلم جيدًا بأن المحرومين من الروحانية سيضحكون علي بسببه ويستهزئون، إلا أني أرى كشفه للناس واجبًا عليّ شفقةً على الإنسانية، وهذا الأمر هو: أني رأيت في المنام اليوم ٦ فبراير/شباط ١٨٩٨م يوم الأحد أن ملائكة الله يغرسون في شتى مناطق البنجاب أشجارًا سوداء كريهة الشكل مخيفة المظهر

وقصيرة الطول، فسألت بعض هؤلاء الزارعين: ما هذه الأشجار؟ فقالوا: إنها أشجار الطاعون الذي سيتفشى في البلاد عن قريب. لقد اشتبه عليّ الأمر فيما إذا قالوا إن هذا المرض سيتفشى في فصل الشتاء القادم أم في الذي بعده، ولكن ما رأيته كان منظرًا مخيفًا جدًا. وقد تلقيتُ قبله إلهامًا عن الطاعون وهو: "إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، إنه آوى القرية".. أي لن يزول هذا الوباء الظاهر ما لم يزُلْ وباء المعصية من القلوب." (أيام الصلح، الخزائن الروحانية المجلد ١٤ ص ٣٦٠-٣٦١)

وقد سجل حضرته العَلَيْكِلاً في آخر هذا الإعلان أبياتًا فارسية وهي فيما يلي:

گر آن چیزے که مے بینم عزیزان نیز دیدندے
ز دنیا توبه کردندے بچشم زار وخوں بارے
خورِ تاباں سیه گشت است از بدکاریٔ مردم
زمیں طاعوں همے آرد پۓ تخویف وانذارے
به تشویشِ قیامت ماند ایں تشویش گر بینی
علاجے نیست بهرِ دفع آن جُز حسنِ کردارے
من از همدردی ات گفتم تو خود هم فکر کن بارے
خرد از بهرِ ایں روز است اے دانا وهوشیارے

(المرجع السابق ص ٣٦٣)

أي لو رأى أصدقائي ما أراه لتابوا عن حب الدنيا باكين. قد اسودت الشمس المضيئة من جراء سيئات العباد، كما أخرجت الأرض الطاعون تحذيرًا للناس. لو أمعنتم النظر لوجدتم أن هذه المصيبة هي كمصيبة القيامة، ولا علاج لها إلا صالح الأعمال. لقد ذكرتُ هذا الأمر بدافع الشفقة، فتدبر في الأمر أيها الإنسان العاقل الذكي إذ قد أُعطيت العقل لمثل هذا اليوم.

لقد تبين من هنا أن سيدنا المسيح الموعود عليه السلام قد تنبأ قبل عام ١٨٩٤م بنـــزول عذاب شديد، ثم أنبأ صراحة عن تفشي الطاعون، ثم قبل تفشّيه في الهند أخبر عن الدمار الذي سيخلفه الطاعون في منطقة البنجاب خاصة، واعتبره نموذجًا للقيامة، وأخبر أنه لن يختفي إلا إذا أصلح الناس قلوبهم.

وأما ما حدث بعد ذلك فلا يمكن وصفه بالكلمات. لقد بدأ الطاعون من مومباي، وكان الأقرب إلى القياس أنه سيكون شديد الوطء هناك، ولكنه ترك مومباي وخيّم في منطقة البنجاب، وكان شديد الوطء جدًا، حتى مات في بعض المرات ثلاثون ألف شخص في أسبوع واحد، ومات مئات الآلاف في سنة واحدة. لقد عُيّن مئات الأطباء لمكافحته، واختُرعتْ عشرات الطرق لعلاجه، ولكن بدون جدوى حيث صار الطاعون كلَّ سنة أشدَّ فتكًا من ذي قبل، ووقفت الدولة عاجزة حياله. وأدرك كثير من الناس أن هذا العذاب إنما نـــزل بسبب تكذيب المسيح الموعود عليه السلام، وبرؤية هذه الآية القاهرة قبِل مئاتُ الآلاف الحقَّ وآمنوا بالمأمور المبعوث من عند الله تعالى. ولم تخفّ وطأة الطاعون إلا بعد أن أوحى الله تعالى إلى المسيح الموعود عليه السلام ما تعريبه:

"ذهب الطاعون ولكن بقيت الحمى" (تذكرة: الطبعة الثالثة ص ٥١٢ الهامش، تاريخ الإلهام: ٢٨ إبريل/نيسان ١٩٠٤). وبعدها أخذ الطاعون يخفّ ويختفي باستمرار.

إن هذه الآية تبلغ من الوضوح والجلاء بحيث لا يسع المؤمن والكافر إلا تصديقها، ولو أنكرها أحد عنادًا ومكابرة فلا شك أنه يستحق الرثاء. أما الذي عنده عين مبصرة فيمكن أن يرى بجلاء ما يلي:

أولاً: لقد تم الإخبار عن الطاعون قبل تفشّيه بمدة طويلة، مع أنه ليست هناك وسيلة طبية للإنباء عن الأمراض قبل تفشيها بهذه المدة الطويلة.

ثانيًا: لقد تم الإعلان قبل ظهور الطاعون أنه لن يكون مؤقتًا هذه المرة، بل سيظل يصول ويهاجم سنوات متتالية.

ثالثًا: لقد قيل قبل تفشّيه أيضًا أنه سيشتد في منطقة البنجاب خاصة. وهذا ما أكدته الأحداث فيما بعد إذ تفشّى في البنجاب خاصة وكان أكثر فتكًا بأهلها مقارنة بالمناطق الأخرى.

رابعًا: لقد أعلن الأطباء بالتكرار أنهم قد سيطروا على هذا المرض، ولكن المسيح الموعود ﷺ أخبر الناس أنهم مهما فعلوا فإن وطأة الطاعون لن تخفّ ما لم يتم علاجه من عند الله تعالى. وهذا ما حصل بالفعل، إذ ظل الطاعون يشتد ويشتد طيلة تسع سنوات على التوالي.

خامسًا: وفي النهاية رحم الله العباد ووعد بكسر حدة الطاعون فأخبر المسيح الموعود ﷺ: "ذهب الطاعون ولكن بقيت الحمى". وبالفعل بعد هذا الوحي الإلهي أخذ الطاعون يخفّ، وتفشّى مرض الحمى واشتد في منطقة البنجاب التي لم يخلُ منها بيت واحد، حتى اعترفت الحكومة في تقاريرها الرسمية بأنها حمى غير عادية.

باختصار لقد أخبر الله في هذه الآية أنه بعد إقامة الحجة على الناس بالآيات السماوية والأدلة العقلية سيرسل لعقاب الموتى والصم والعمي الروحانيين دابة من الأرض تكلّمهم وتجرحهم إذ لم يؤمنوا بآيات الله.

لقد صرح المسيح الموعود ﷺ في كتبه أيضًا أن الله تعالى قد ألقى في روعه أن دابة الأرض هي الطاعون، وقد أثبت حضرته ذلك بشتى الأدلة والقرائن. (نزول المسيح، الخزائن الروحانية المجلد ١٨ ص ٤١٥-٤٢١)

وجدير بالذكر أن نبأ خروج دابة الأرض لا يُنبئ عن الطاعون فحسب، بل تُنبئ عن اختراع المجهر أيضًا، إذ كان من المستحيل بدونه أن يُعرف أن دابة تسبب هذا المرض، إذ كان الناس قبل اختراع المجهر يُرجعون كل مرض إلى أربعة مواد في البدن الإنساني وهي: البلغم، والصفراء، والسوداء، والدم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٦﴾﴾

التفسير: أي اذكروا ذلك اليوم الذي سنقيم فيه جماعة كبيرة من كل قوم يكفرون بآياتنا، ثم نوزعها في شتى الفرق.. بمعنى أن الإلحاد سيغزو في الزمن الأخير أتباعَ كل دين وستميل طائفة من كل قوم إلى الإلحاد واللادينية، كما نرى في هذا العصر، وستستمر هذه الظاهرة إلى أن يصدر القرار بعقابهم ويُبلَّغوا من عند الله تعالى بأنهم قد كفروا بآياته دون أن يتدبروها حق التدبر ويختبروا أدلة صدقها حق الاختبار. وإذا كان هذا غير صحيح فماذا كانوا يفعلون إذًا؟

لقد بين الله هنا أنه تعالى عندما يكشف صدق الإسلام على يد مأموره في الزمن الأخير ستهبّ شتى الأمم لنشر الإلحاد في الدنيا باسم العلم والثقافة، وستنقسم إلى فئات مختلفة، أي ستتشكل شتى المؤسسات والجامعات والاتحادات التي ستقوم بإنكار الدين الحق. مما لا شك فيه أن منكري الدين قد وُجدوا في العصور الماضية أيًضا، ولكنا لا نجد في الماضي أحزابًا ونقابات ومؤسسات للمعارضة المنظمة. أما في هذا العصر فتجد نقابات لكل فئة من التجار والصنّاع والعمال والمستثمرين وغيرهم حتى تجد عصابات منظمة للصوص الذين يختطفون النساء والأولاد. كما أن الكفر أيضًا يهاجم الإسلام اليوم هجومًا منظمًا. ولكن إذا كان الشيطان يعمل على تنظيم جنوده فإن ملائكة السماء ليسوا صامتين على ذلك، بل يتأهبون للقضاء على جنوده، ولذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿ووَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾.. أي سيحل العذاب بديارهم ويتحقق ما أخبر الله به.. أي سيصبح الإسلام غالبًا، وسيتم القضاء على الكفر للأبد، فتصاب ألسنتهم بالعي

والحصر، وسيصلّي على محمد ﷺ ويسلّم عليه من كانوا يسبّونه ويشتمونه من قبل، أو سيُهلكون ويُبادون.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾﴾

التفسير: أي ألم يفكر المسلمون أننا لم نأت عليهم بالليل - المراد من الليل فترة البُعد عن عهد النبوة - إلا ليستعيدوا قواهم فيُشعلوا القناديل في كل مكان لتبديد الظلام، ولكنهم لم يستغلّوا هذه الفرصة العظيمة للثواب؛ فالآن سنضيء عليهم النهار من جديد.. أي سنبعث مأمورًا من عندنا، وسيَطلع عليهم هذا النهار ليميزوا بين الحق والباطل، ولكن لن ينتفع منه إلا المؤمنون، أما الذين قد ماتت قلوبهم فيظلون في ظلماتهم يعمهون.

لقد نبّه الله تعالى بذكر ظاهرة تناوب الليل والنهار هنا إلى أن الإنسان لا يستطيع بفطرته أن يعمل بدون انقطاع، ولو أُجبر على العمل باستمرار لانهار وسقط مغشيًا عليه بعد فترة. والحق أن الله تعالى قد جعل الليل ليغطي به ضعف الإنسان، حيث يستعيد في الليل القوة والنشاط فيصلح لاستئناف عمله ثانيةً.

ونفس الحال بالنسبة للرقي الروحاني، إذ يأتي على المرء أوقات من القبض الروحاني وأوقات من البسط الروحاني.. أي يأتي على المؤمن العادي أيضًا وقت يشعر فيه أنه قد وصل إلى الله تعالى وأنه ماثل أمام ربه الذي يتجلى عليه بكل عظمته وجلاله وجبروته، ثم يأتي عليه وقت آخر يحاول فيه إقامة صلاته التي قد انهارت، فيحاول إقامتها ثانية، فتنهار مرة أخرى، فيقيمها ثالثة وهلمّ جرًّا. وهذا الأمر ليس خاصًا بالمؤمن العادي فحسب، بل يمرّ بهذه الحالة كبار المؤمنين وصغارهم كلٌّ بحسب درجته، فتأتي عليهم حالات القبض والبسط روحانيًا كالليل والنهار. ولو ظل المؤمن في حالة القبض باستمرار بدون البسط لمات قلبه وخلا من

الروحانية، ولو ظل في حالة البسط دائمًا لقام بالعبادة عادةً وتقليدًا فحسب، وخلت حسناته من النية والإرادة والعزيمة؛ فلكي لا يفقد الإنسان مقامه الحقيقي ويقوم بالحسنات عن إرادة وعزيمة ونية، ولا يفقد التركيز في العبادة، تأتي على المؤمنين كلهم صغارًا وكبارًا موجاتٌ من الروحانية مرتفعة ومنخفضة كما يتناوب علينا الليل والنهار، فيرتفع كل واحد منهم عن مقامه مرةً وينخفض أخرى، ولكنه لا يزال يزداد رفعةً عند كل ارتفاع وعند كل انخفاضٍ، فظاهرة القبض والبسط هذه تنهض به إلى أعلى دائمًا لا إلى أسفل.

وإن ظاهرة الارتفاع والانخفاض هذه لا تختص بالأفراد فحسب، بل تأتي على الأمم أيضًا، فحينًا تخيّم عليهم ظلمات البلايا، وحينًا يهطل عليهم مطر رحمة الله، وتارة تطلع عليهم شمس النجاح، وأخرى يُخيّم عليهم ليل الفشل، ومرةً تجد فيهم حماسًا للارتقاء والازدهار، وأخرى يركنون إلى الكسل. ولكن لا تُصاب الأمة بالتردي والانحطاط ما دام انخفاضها وارتفاعها ضمن حد مناسب، لأن حالة القبض والبسط تأتي على كل فرد وقوم. إنما يصاب إنسان أو شعب بالخراب والفساد عندما يسقط مقامه. وهذا هو الأمر الذي قد نبهنا الله تعالى إليه بذكر ظاهرة الليل والنهار، فبيّن أن من واجبنا أن ننتفع بالليل والنهار كليهما، فإذا أتى علينا القبض فيجب أن يزيدنا رقيًا، وإذا أتى علينا البسط فيجب أن يزيدنا أيضًا رفعة.

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٨﴾

شرح الكلمات:

فزِع: خاف وذعر. (الأقرب)

داخرين: دخَر ودخِر دخُورًا ودَخَرًا: ذلَّ وصغُر. (الأقرب)

التفسير: لما كان الصُوْرَ يُنفَخ فيه لجمع الجيوش فيبدو أن نفخ الصور هنا جاء على سبيل المجاز، حيث بين الله تعالى أنه يوشك أن يأتي على الناس يوم تقف فيه الشعوب وجهًا لوجه، فيفزع كل من في السماوات والأرض. ويبدو أن هذه الآية تتحدث عن الطائرات الحربية والقنابل الذرية حيث تحلق الطائرات في جوّ السماء، وتلقي القنابل الذرية التي تنفجر على الأرض، فتنشر الدمار بين أهلها، بينما تتصاعد موادها النارية في جوّ السماء.

أما قوله تعالى: ﴿إلا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ فبين الله تعالى فيه بأن هذا الدمار سيكون شاملا ولا شك، إلا أن باب الدعاء سيظل مفتوحًا، وأن الذي يُرضي ربه سيُحفظ من هذا الدمار.

لا جرم أن العلماء قد اكتشفوا سلاح الموت هذا بجهودهم ومكائدهم، ولكن الله الذي أقام دين الإسلام يملك الموت والحياة أيضًا. إن هؤلاء القوم يظنون أنهم بامتلاكهم سلاح الموت قد أصبحوا حاكمين على الدنيا، ولكن الحاكم الحقيقي هو من يملك الموت والحياة كليهما، والذي أخبر الناسَ سلفًا أنهم لو ظلوا يدعونه تعالى فسوف يخلق الأسباب التي تحميهم من ويلات هذا السلاح الفتاك. لا شك أن القنبلة الذرية تبدو وكأنها من آثار القيامة، ولكن الله تعالى لم يجعل القيامة بيد روسيا أو أمريكا، بل جعلها بيده هو ﷻ. فقبل بضعة سنوات قابلني عالم روسي كان مديرًا لمعهد أبحاث القنبلة الذرية، فقلت له: تدّعون أنكم تعملون لخير الإنسانية، ولكن ما فائدة القنبلة الذرية التي اخترعتموها. فلو ألقتها روسيا على أمريكا لدُمّرت، ولو ألقتْها أمريكا على روسيا لهلكت، وماذا عسى أن ينفع الناس دمارُ أمريكا أو روسيا؟ عليكم أن تُعملوا فكركم فيما ينفع الناس وتكتشفوا شيئًا مضادًّا للقنبلة الذرية لحماية العالم من دمارها. فقال: لم نستطع اكتشاف هذا الشيء المضاد ولا يخطر ببالنا.

الحق أن الشيء المضاد للقنبلة الذرية قد جعله الله بيده، وعندما يريد إنقاذ الناس من دمارها سيمكّن الناس من اكتشاف سلاح مضاد لها. وتوجد في مجموعة

الإلهامات المنشورة لسيدنا مؤسس الجماعة الإسلامية عليه السلام أعدادٌ وبجنبها أشكال (تذكرة: الطبعة الثالثة ص ١٩٥)، ويرى بعض العلماء (Scientists) من جماعتنا أنها أشكال مشابهة لتصميم القنبلة الهيدروجينية. وهذا يعني أن الله تعالى قد نبه المسيح الموعود عليه السلام قبل اختراع هذه القنابل المدمرة بحوالي ستين سنة بأن شيئًا كهذا سيُخترع عن قريب، ثم مكّن عزّ وجلّ العباد من اختراعه فعلاً، وما دام الأمر كذلك فإن الله تعالى قادر على أن يُهيئ أسباب نجاة الناس من دمارها أيضًا.

وقد تلقيتُ ذات مرة نبأً عن اختراع غاز معين. فقد رأيت في الرؤيا أنني جالس في غرفة، فألقى فيها أحدٌ غازًا، فلما شممته قلت: فيه رائحة الكلورين، فجريت إلى الخارج، فزال أثر الغاز عني وعن الناس الآخرين.

ولما قصصت رؤياي هذه لبعض العلماء أخبروني أن الغاز الذي يسبب الغشيان يُصنَع من الكلورين، ولكن الغاز الذي رأيتُه في المنام كان يسبب إغماء مؤقتًا.

وأفهم من هذه الرؤيا أيضًا أن الله تعالى سيهيئ بفضله من الأسباب ما يمكن من الانتصار على العدو بدون أن ينشر دمارًا عامًا، ولكن ليس سبيله إلا التوجه إلى الله تعالى والاستعانة به بالدعاء والابتهال.

عندما ذهبت إلى أوروبا للعلاج أقامت جماعتنا بلندن مأدبة طعام على شرفي اشترك فيها شخصيات مرموقة كعمدة لندن والسفير الباكستاني وأعضاء من البرلمان البريطاني. فقلت للأوروبيين في كلمتي إن القنبلة الذرية قد بثّت الذعر في قلوب الناس، ويتساءلون ما السبيل إلى سلام العالم الآن؟ عليهم أن يعلموا أنه لم يكن عند الناس قبل عشرين سنة أي علم بالقنبلة الذرية، و لم يعرفوا أن اكتشاف اختراع كهذا ممكن، ولكن العلوم تتطورت وأدّت إلى اختراع القنبلة الذرية؛ فإذا كان الله تعالى هو الذي قد وهب عباده علم اختراع القنبلة الذرية، فكيف يستحيل عليه أن يرشدهم إلى اكتشاف شيء مضادّ لها؟ لقد قلتُ لهم إنني رجل دين، ولو سُئلت ما إذا كان اكتشاف شيء مضاد للقنبلة الذرية ممكن أم لا، لقلت: نعم، لأن الله تعالى نفسه وهب للعباد علم القنبلة الذرية، وليس بمستبعد عن فضله تعالى أن يهب لهم الآن علم اكتشاف مضاد لها، ولكن السبيل لجلب فضل الله تعالى أن

يتوجه الناس إلى ربهم ويدعوه موقنين بأن الذي قد وهب لعباده علم القنبلة الذرية سيُمدّهم بعلم اكتشاف مضاد لها وسيحمي الناس من ويلاتها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ فبين فيه أن جميع الناس سيحضرون الله تعالى مُذعنين منقادين، الكافرون نتيجة العقاب والمؤمنون نتيجة الإيمان واليقين.

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٩﴾

التفسير: ليس المراد من قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أن الجبال تمر منفصلة عن الأرض، بل المعنى أنها تتحرك مع حركة الأرض كما يتحرك السحاب مع حركتها.

مما لا شك فيه أن هذه الآية تدل بظاهرها على حركة الجبال حيث شُبّهتْ حركتها بحركة السحب، ولكنها تنطوي على نبأ هلاك الدول الكبيرة أيضًا، حيث أخبر الله المسلمين أنهم سيرون حولهم حكومات قويةً جدًا وسيظنون أنها لن تهلك لقرون طويلة، ولكن الله تعالى سينسفها لتوطيد عظمة الإسلام نسفًا فلا يبقى لها أثرٌ. وللتأكيد على ذلك قد نبه الله تعالى إلى ما تفعله الرياح بالسحب، وبين أن الرياح كما تُزجي السحب كذلك إذا هبّت رياح تأييد الإسلام من عنده تعالى فستطير دول الكفر والشرك الكبيرة فلن يُرى لها أثر. ولكن هذا لن يتم بتدابير البشر، بل سيتم بيده تعالى إظهارًا لقدرته وعظمته.

ثم قال الله تعالى في الأخير: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.. أي أن هذا الانقلاب العظيم لن يحدث إلا إذا أحدثتم أيها المسلمون في أنفسكم انقلابًا، أما إذا لم تغيّروا ما بأنفسكم، وكنتم في عداد الظالمين عند الله تعالى، فلماذا يأتي بظالم ليحل محل ظالم؟ إنما ينسف الله تعالى هذه الجبال إذا عملتم بأحكام الإسلام وحاولتم الفوز بحبه تعالى ورضاه.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٩٠ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩١

شرح الكلمات:

كُبَّتْ: كَبَّ الإناءَ كَبًّا: قلبه على رأسه، وكَبَّ زيدًا على وجهه ولوجهه: صرَعه. (الأقرب)

التفسير: تتناول هذه الآية قضيةً هامةً من تعاليم الإسلام. ذلك لأن نظرية النجاة التي تقدمها الديانة الهندوسية الآرية هي أن الله تعالى عندما يجزي العباد على أعمالهم يستبقي شيئًا من ذنوبهم ليعاقبهم عليها فيما بعد. بمعنى أنه تعالى يهب الروح الإنسانية النجاة أوّلاً ويُدخلها الجنة، ولكنه بعد فترة يُخرجها من الجنة بسبب بعض ذنوبها التي لم يعاقبها عليها، فيعاقبها بإلقائها في سلسلة من الولادات المختلفة التي لا نهاية لها (موسوعة الأديان: تحت: Transmigration). وكأن الله تعالى - والعياذ به - يعامل عباده كالمرابين الهندوس الذين عندما يستردّون من الناس أموالهم مع الربا يتركون عندهم جزءًا منها لكي يتراكم عليه الربا فيأخذوه منهم أضعافًا مضاعفة مرة أخرى. فالهندوس يظنون أن الله تعالى أيضًا يجزيهم على حسناتهم أوّلاً، ثم يُرجعهم إلى الدنيا ثانية بسبب بعض أعمالهم السيئة التي لم يعاقبهم عليها من قبل ليمرّوا بولادات مختلفة لا نهاية لها. ولكن القرآن الكريم يرفض هذه العقيدة رفضًا باتًا، ويعلن أن الله الذي هو خالق الأرواح والمادة قادر أن يخلق منها ما يشاء بمجرد أن يقول ﴿كُنْ﴾، وأنه تعالى ليس بحاجة إلى التلاعب مع الأرواح كما يقترح الآريون الهندوس.

كما يُبين الإسلام أن حسنات المرء محدودة بلا شك، ولكن نيته لفعل الخير ليست محدودة، ولذلك سيجزيه الله تعالى أكثر من عمله بكثير، وأنه سيهيئ

للمؤمنين الأمان يوم الجزاء - سواءً في الدنيا أو في الآخرة - فلن ينظر إلى قلة بضاعتهم بل سيكتب لهم النجاة الأبدية بفضله. أما الذين يعملون السيئات فسيُلقون على وجوههم في النار ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.. أي أن جزاء السيئة يكون مثلها لا أكثر منها. وقد زاد الله هذا الأمر إيضاحًا في آية أخرى فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٧). فإن أسوأ الناس عملاً وأشدّهم عداءً للحق أيضًا يستحق رحمة الله بحسب هذه الآية، وستُفتح عليه أبواب الجنة في النهاية.

لقد بينتُ هذا المعنى نظرًا إلى الحياة الآخرة، أما من منظور الحياة الدنيا فالمراد أن الذين يضحّون لإحياء الإسلام سينالون جزاءً محيرًا تتضاءل أمامه تضحياتهم. لا غرو أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي - رضوان الله عليهم أجمعين - قد قدّموا في سبيل الإسلام تضحيات جسيمة عظيمة، ولكني أرى أنهم لو رجعوا إلى الدنيا اليوم لاعتبروا تضحياتهم أحقر وأضألَ مما أعطاهم الله من العزة والصيت الخالدين، ولقالوا إنهم لم يقدموا أي تضحية في الحقيقة، لأنهم لو عادوا إلى الحياة اليوم ومرّوا بالشوارع لسمعوا الناس يقولون: قال أبو بكر كذا، وقال عمر كذا، وقال عثمان كذا، وقال علي كذا، كما رأوا أن مجموعةً من الناس يحملون العصي والهراوات وقد احمرت عيونهم وإذا ما سُئلوا عن سبب غضبهم قالوا: إننا غاضبون لأن فلانًا قد سبّ أبا بكر، أو أساء إلى عمر، أو شتم عثمان، أو أهان عليًا - رضوان الله عليهم أجمعين.

ورد في الحديث أن صحابيًا استُشهد في غزوة، فوجد النبيُّ ﷺ ابنَه يمشي منكسر النفس مطأطئ الرأس حزنًا، فسأله النبي ﷺ: ما بك؟ قال: يا رسول الله، لقد استُشهد أبي وترك أولادًا صغارًا وقد أهمَّني شأنهم. فقال ﷺ: لو علمتَ ما أعطى الله أباك من الجزاء لما حزنتَ. لقد أحضرَ الله روح أبيك وقال له: قد رضيتُ عنك يا عبدي، فاسأل ما بدا لك، فسوف أحقق لك اليوم كل ما تتمناه. فقال أبوك: رب، ليس لي أُمنية إلا أن تُحييني وتُرجعني إلى الدنيا ثانية لأُقتَل في سبيل الإسلام. فقال الله تعالى: أُقسم بنفسي بأنه لولا كلمةٌ سبقتْ مني بأني لن أُرجع أحدًا إلى

الدنيا بعد الموت لحققتُ أمنيتك. (الترمذي: أبواب التفسير، قوله تعالى: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا)

إذًا، فإن الإنسان يرى تضحياته قبل ظهور نتائجها شاقّةً ثقيلةً عليه، ولكنها عند ظهور نتائجها تبدو له ضئيلة حقيرة الشأن. ألم تر أن كل طالب يعتبر الذهاب إلى المدرسة مصيبةً، ولكنك لن تجد طالبًا يتأسف على ما بذله من جهود في دراسته، بل عندما تظهر نتيجة جهوده ويتقلد مناصب مرموقة يعتبر جهوده حقيرة جدًا.

هذا هو المعنى الذي بينه الله تعالى في هذه الآية حيث أخبر أن مَن عمل صالحًا جزاه الله على حسناته جزاءً يفوق تضحياته آلاف المرات، ولكن الذي يقف عقبةً في سبيل هذه الخطة الإلهية سيُلقَى على وجهه، وستحرقه نار جهنم المتمثلة في فشله الذريع، وسيصبح مع ذريته محرومًا من بركات الله تعالى.

إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىۡءٍۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٢﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِى لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٣﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه قد اتخذ شتى الأماكن مركزًا لتجلياته على مر العصور، فتارةً تجلّى بالجودي بواسطة نوح، وأخرى تجلّى بمكة المكرمة بواسطة إبراهيم، وحينًا ظهر بسيناء بواسطة موسى، وحينًا آخر ظهر بجبل الزيتون بواسطة عيسى، أما أنت يا محمد (ﷺ) فقل: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾.. أي أنني مأمور بأن أتّبع التجلي الإلهي الذي ظهر بواسطة إبراهيم في مكة التي شرفها الله وحماها، وأن أُعلن أن كل شيء بيد الله، وأنني أُمرت أن لا

أكتفي بالكلام وثرثرة اللسان فقط، بل أُمرت ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.. أي أن أُقدّم نموذجًا عمليًا للطاعة والاستسلام.

والجدير بالذكر هنا أن الإسلام اسم لذلك الدين الذي جاءنا به نبينا ﷺ، ولا يُطلَق اسم "المسلمون" إلا على الذين آمنوا بالدين الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ واعتبروه سيدًا وإمامًا لهم. بيد أن القرآن الكريم قد أطلق اصطلاح "المسلمون" على الأنبياء الآخرين وأتباعهم الصادقين أيضًا (آل عمران ٦٨، يوسف ١٠٢، البقرة ١٢٩و١٣٣). والظاهر أن هؤلاء القوم لا يُسمَّون مسلمين بسبب إيمانهم برسولنا ﷺ إذ لم يكن الشرع الكامل أي القرآن الكريم قد نـــزل في زمنهم، كما لم يكن النبي ﷺ قد بُعث عندئذ. فإطلاق القرآن على هؤلاء القوم مصطلح "المسلمون" يدل صراحةً على أن للإسلام مفهومين: أحدهما أن المسلم من يؤمن بالرسول ﷺ، وثانيهما أن المسلم من يطيع وينقاد؛ وبحسب المفهوم الثاني، فكل من كان مطيعًا ومنقادًا سواءً لآدم أو لنوح أو لإبراهيم أو لموسى وعيسى - عليهم السلام - كان مسلمًا. أما نحن المسلمين فإنا مسلمون من جهتين: أوّلاً لأن الله تعالى قد سمى أتباع نبينا ﷺ مسلمين، وثانيًا: لكون أتباعه ﷺ متميزين عن أتباع كل نبي في الدنيا في التحلي بروح الطاعة والانقياد. إذًا، إن أتباع النبي ﷺ يفضُلون على أمم الأنبياء الآخرين من حيث إنهم مسلمون مزدوجون؛ فإنهم مسلمون لأنهم مطيعون كجماعات الأنبياء الآخرين، بيد أن الله تعالى قد سماهم المسلمين على وجه الخصوص أيضًا (الحج: ٧٩).

والحق أن الله تعالى لا يسمي أحدًا باسم على سبيل التفاؤل كما يسمي الناس أولادهم بأسماء جيدة تفاؤلاً، بل إن ذلك الإله القادر القوي لا يسمي قومًا باسم خاص إلا إذا كانوا متصفين بتلك الصفات حقًّا. إذًا، فإطلاق اسم "المسلمين" علينا من قِبل الله تعالى لا يتطلب منّا السعي للتحلي بالصفات التي يدل عليها هذا الاسم فحسب، بل فيه تأكيد بأن أتباع محمد ﷺ كلما سعوا للتقدم ماديًا وروحانيًا متحلين بأعلى مستوى من الطاعة والانقياد أعطاهم الله الدرجات العلى. إذًا، فإنما الإسلام الحقيقي أن نتحلى بروح الطاعة والإذعان بحيث يستحيل علينا اتخاذ أي

خطوة خلاف مشيئة الله تعالى ورضاه حتى لا نكون مسلمين بالاسم فقط، بل يشهد عملنا وسلوكنا على أننا نستحق هذا الاسم بجدارة، وأن قيامنا وقعودنا وحركتنا وسكوننا تجسيد لهذا الاسم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.. أي قل لقد أُمرت أيضًا أن أقرأ القرآن على الجميع لأضمهم إلى الإسلام، فمن اهتدى فإنما ينفع نفسه، ومن ضلّ فإنما أُمرت أن أعلن أنني لن أُكره أحدًا على الإيمان، بل سأقوم بتبليغ رسالة الله، وكل واحد حرٌ بعد ذلك في أن يؤمن أو يكفر.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

التفسير: أي قُلْ إني مأمور من عند الله تعالى بأن أقول أن الحمد كله لله.. بمعنى أن الإله الذي يقدمه الإسلام إله حي قوي، فقد أرى آياته في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وصالح ولوط وعيسى، ولم يزل يري آياته لما بعث محمدًا ﷺ تأييدًا له، والآن لما جاء زمن انحطاط المسلمين بعث المسيح الموعود عليه السلام لإحياء الإسلام ثانية، وبدأ يُظهر آيات قدرته وجلاله من جديد. فالحق أن الله وحده يستحق الحمد كله الذي قد دلّل في كل عصر على أنه حيٌّ، وأرى وجهه في كل زمان من خلال آياته. لو أن الله تعالى امتنع عن إراءة آيات قدرته بعد زمن آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو داود أو سليمان أو عيسى فكيف يمكننا أن نقول الحمد لله؟ إنما يصح قولنا الحمد لله إذا رأينا آيات الله البينات في أنفسنا وتجلت قدرته في كل عصر وزمان، ولذلك قال الله تعالى: قل للعالم إن الإسلام يقدم للناس إلهًا حيًا، وإذا أنشأتم الصلة معه سيريكم آيات ترون بها وجهه سبحانه وتعالى بعيونكم الروحانية.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.. أي أنه تعالى يعلم أنكم تائهون في الظلمات، ومقرنون بأصفاد التقاليد والعادات، فسوف ينـــزل بنفسه من السماء لتحريركم، ويُريكم آياته التي ترونه بها ماثلاً أمامكم.

سورة القصص

مكية وهي مع البسملة تسع وثمانون آية وتسعة ركوعات

زمن نـــزولها: إنها مكية عند الحسن وعكرمة (البحر المحيط). ولكن مقاتلا يرى أن أربع آيات منها مدَنية وهي قول الله تعالى: ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. (الآيات ٥٣-٥٦)

ويرى البعض أن هذه الآيات ليست مدَنية بل نـــزلت بين مكة وجُحفة. بينما يرى ابن عباس أنها لم تنـــزل بين مكة وجُحفة بل نـــزلت في جُحفة بالتحديد في أثناء هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. ولكن ابن سلام يقول لم ينـــزل في جحفة أثناء الهجرة إلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾، أما باقي السورة فكلها مكية. (البحر المحيط)

بينما يرى عمر بن محمد أن هذه السورة نـــزلت في أثناء هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة (القرطبي ومعالم التنـــزيل). ولو سلمنا بصحة هذا القول فأيضًا ستعتبر هذه السورة مكية لأن الهجرة لم تكن قد انتهت عندها.

أما القسيس ريفرند ويري فهو أيضًا اعتبر هذه السورة مكيةً، وقال إن عمر بن محمد قد اعتبرها مكية بسبب الآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.. أي أن الله تعالى سيعود به (ﷺ) إلى مكة ثانية (تفسير القرآن لويري). ولكن استدلال القسيس ويري ضعيف جدًّا، لأن الصحابة كانوا يذكرون زمن نـــزول آيات القرآن بناء على شهادات تاريخية عادةً. وبما أن القسيس ويري لا يؤمن بوجود أية أنباء صادقة في القرآن الكريم، فينحت بحسب عقيدته سببًا للنـــزول، مع أن الكتاب الذي يحتوي على النبوءات ينبئ أحيانًا عن أخبار ستقع بعد قرون. فمثلاً قد قال الله تعالى في هذه السورة نفسها إنه سيجعل أتباع محمد ﷺ غالبين

على مكة كما جعل اليهود غالبين على فرعون (الآية ٦). وقد تحققت هذه النبوءة في أواخر الهجرة. فلو صحَّ ما استدله القسيس "ويري" من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾، للزم أن نقول إن هذه السورة نزلت عند فتح مكة لأنها تتحدث عن فتحها، ولكنه استدلال خطأ كاستدلال القسيس. إنما الحق أن كلتا الآيتين كانتا نبوءتين قد أدلى بهما الله عالم الغيب في مكة قبل وقوعهما بسنوات عديدة. إذًا، فمن الخطأ تحديد زمن نزول الآيات اعتمادًا على مضامينها. وكما سبق أن بيّنتُ مرارًا أن الصحابة كانوا عادة يحدّدون زمن نزول الآيات بناءً على شهادة من التاريخ، وليس نظرًا إلى مضامينها.

أما نحن فنقول: إن ورود قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ في سورة هي مكية بالإجماع لهو دليلٌ على أن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ بوقوع الهجرة وفتح مكة وهو لا يزال مقيمًا فيها. فإن كلمة ﴿لَرَادُّكَ﴾ تنبئ عن هجرته من مكة، وكلمة ﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ تخبر عن عودته إليها ثانية. إذًا، فهذه الآية دليلٌ بيِّنٌ على صدق القرآن الكريم.

الترتيب والترابط: يقول العلامة ابن حيان إن الرابط بين سورتي النمل والقصص هو أن الله تعالى قد أمر رسوله في آخر سورة النمل بحمد الله تعالى، ثم قال تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ - والمراد من ﴿آيَاتِهِ﴾ معجزات الرسول ﷺ، وقد نسبها الله تعالى إلى نفسه لأنه هو الذي يُريها على أيدي أنبيائه في الواقع - فتحقيقًا لوعده بإراءة الآيات أنزل الله تعالى سورة القصص التي قال في بدايتها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.. أي أنها آيات الكتاب الذي هو مدعوم بأدلة صدقه، فقدّم الله تعالى كونَ القرآن كتابًا مبينًا للتدليل على إنجازه وعدَه للكافرين بإراءة الآيات، لأن القرآن هو أكبر معجزات الرسول ﷺ. (البحر المحيط)

بيد أني أختلف مع العلامة ابن حيان قليلاً؛ فإني أتفق معه في أن الله تعالى قد وعد في سورة النمل بإراءة الآيات، ولكني لا أتفق معه في قوله بأنه تعالى قد قدم إعجاز القرآن كدليل على إنجازه لهذا الوعد؛ بل الحق أنه تعالى قد ذكر في سورة

القصص بعضًا من آياته التي وعده بها في السورة السابقة، ومن هذه الآيات مثلاً أن الله تعالى قد أنبأ في سورة القصص أن النبي ﷺ سيهاجر من مكة نتيجة اضطهاد أهلها إياه، كما أخبر أنه ﷺ سيعود في النهاية إلى هذه البلدة التي أُخرج منها فاتحًا منتصرًا؛ وهكذا قد أنجز الله في سورة القصص ما وعد به في سورة النمل، حيث ذكر فيها الآيات التي سيُتم بها الحجة على الكافرين.

أما العلاقة الثانية فهي أن الله تعالى أمر نبيّه ﷺ في آخر سورة النمل أن يعلن للناس أني مأمور بأن ﴿أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.. أي أنني إنما بُعثت لأنذر الناس ولم أُبعث لأكرههم على الإسلام؛ وتحقيقًا لما أمر الله به رسوله هناك أنـزلَ سورة القصص التي استهلها بقوله ﴿طسم﴾.. أي أن الله اللطيف السميع المجيد قد أنـزل هذه السورة تحقيقًا لوعده في سورة النمل، وأعطى الناس كتابًا يبين مضامينه تبيانًا لكي يُقرَأ هذا الكتاب في كل مكان من العالم، ولتنتفع الإنسانية من هديه إلى يوم القيامة.

ملخص محتواها: لقد استهل الله هذه الآية بمقطع ﴿طسم﴾ الذي هو اختزال لصفات الله اللطيف والسميع والمالك أو المجيد، وكدليل على كونه تعالى لطيفًا وسميعًا ذكَر قصة موسى وفرعون، موضحًا أن ما سيسرده من قصة موسى هو الحق إذ إن الأحداث الواردة في التوراة هي غير موثوق بها. (الآيات ١-٤)

ثم بيّن الله تعالى أن فرعون تكبّر وتجبّر، وأوقع الفتنة والخلاف بين رعيته، إذ كان يقتل أبناء بني إسرائيل ويستحيي بناهم قمعًا لهم. ولكنا أردنا أن نجعل هؤلاء المستضعَفين في الأرض أئمةً للناس، ونجعلهم وارثين نِعَمًا كتلك التي كان يتمتع بها فرعون، وأن نُري فرعون وهامان المصير التعيس الذي كانا يخافانه. (الآيات ٥-٧)

ثم سرد الله تعالى قصّة ولادة موسى عليه السلام بأنه تعالى أوحى إلى أُمّه أن ترضعه وعندما تخاف على حياته تطرحه في نهر النيل. فنفذت أُمُّه أوامر الله تعالى ووضعتْه في سلّة وطرحتها في النهر، فوصلت السلة إلى قصور فرعون، فالتقطها بعض

أسرته، فتوسلت إليه امرأة من عائلته ألا يقتل الولد عسى أن ينفعهم عندما يكبر أو يتخذوه ولدًا. (الآيات ٨-١٠)

أما أُمّ موسى فلما ألقته في البحر أصبح قلبها فارغًا من الهم والحزن، ولولا أن ربط الله على قلبها لكشفت هذا السر. ثم دعتْ أختَه وأمرتها أن تنظر إلى السلة عن بُعد، ففعلت ولم تزل تبصرها بحيث لم يفطن لها أحد من قوم فرعون. ولما وصل موسى الطفل إلى القصور الملكية تساءلوا عمن ترضعه؟ فلما حاولوا إرضاعه جعله الله تعالى يرفض أن يرضع أي امرأة. فتقدمت أخته التي جاءت وراءه وقالت لعائلة فرعون: هل أدلّكم على أهل بيت يقومون بإرضاعه وتربيته بكل سرور. وهكذا رجع موسى إلى حضن أمّه بتدبير إلهي، فقرّت عينًا. (الآيات ١١-١٤)

ولما بلغ موسى عليه السلام سن البلوغ الروحاني وهبه الله علوم السماء والقدرة على اتخاذ القرار الصائب. وفي إحدى الليالي كان موسى يمشي في المدينة، فرأى شخصين يقتتلان أحدهما من قومه والآخر من أعدائه، فاستغاثه الذي من قومه، فتقدم موسى ووجّه إلى عدو قومه لكمةً، فسقط ميتًا في مكانه. فدعا موسى ربه وقال: رب، لقد أردت نصرة المظلوم من قومي فمات بيدي شخص من أعدائنا خطأً، فاستُرْ خطئي، ونَجِّني من نتائجه الوخيمة. فشمله الله برحمته حيث لم يره أحد من المسؤولين، وظل الأمر في طيّ الخفاء. وفي الصباح التالي خرج موسى في المدينة، فوجد الشخصَ الذي استغاثه البارحة يتشاجر مع شخص آخر ويناديه للنصرة. فعلم موسى أنه شخص عصبي المزاج، فأخذ يلومه بأنه كثير الشجار والقتال. ثم تقدم موسى وهمَّ أن يبطش بالذي هو من أعدائه، فظن الذي هو من قومه أنه يريد ضربه هو، فصاح: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلتَ شخصًا البارحة؟ فعلم الناس أن موسى هو الذي قتل الرجلَ أمسِ. فشاع هذا الخبر في المدينة بسرعة إذ كان القتيل من قوم فرعون. (الآيات ١٥-٢٠)

وبينما هم في ذلك إذ جاء إلى موسى شخصٌ يجري من الناحية الأخرى من المدينة، وقال: إن رؤساء القوم يأتمرون بقتلك، فاهربْ من هنا فورًا. فهرب موسى

إلى مدين، وكان يلتفت يمينًا وشمالاً مِن شدة حذره، ويدعو الله تعالى أن ينجيه من شر القوم الظالمين. (الآيتان ٢١-٢٢)

ووصل موسى أخيرًا إلى بئر لقوم مدين، فوجد عندها قومًا يسقون غنمهم، ووجد على ناحية منهم امرأتين تحبسان غنمهما عن باقي الرعاة. فقال لهما موسى: ما شأنكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يفرغ الرعاة من سقي مواشيهم ويذهبوا، لأنا لا نريد الاختلاط بهؤلاء الأوباش، وإن أبانا شيخ كبير لا يقدر على سقي الغنم فنأتي بها ونسقيها. فتقدم موسى وسقى لهما، ثم ذهب وجلس تحت شجرة وقال: رب إني لما أنــــزلت إلي من خير فقيرٌ. (الآيات ٢٣-٢٥)

وبعد برهة من الزمن جاءته إحدى الفتاتين تمشي في خجل وحياء وقالت: إن أبي يدعوك ليجزيك على صنيعك معنا. فلما أتاه موسى عليه السلام وقصّ عليه قصته طمأنه الرجل وقال: لا تخزنْ، قد نجوت من القوم الظالمين. فقالت إحدى ابنتيه: يا أَبَتِ استأجِرْه فإنه رجل قوي وأمين أيضًا. وكان الرجل قد اقتنع سلفًا بأمانته لما سمع عنه من ابنتيه، فاقترح عليه أن يخدمه ثماني سنوات فيزوّجه إحدى ابنتيه؛ أما لو خدمه عشر سنوات بدل الثماني فهذا منّةٌ منه. وقبِل موسى عليه السلام اقتراحه وقال: أيّما الأجلين قضيتُ فلا اعتراض علي. (الآيات ٢٦- ٢٩)

وغادر موسى عليه السلام حماه مع أهله بعد قضاء مدة الخدمة، فرأى في طريقه شعلة نار في ناحية من جبل الطور. فقال لأهله: قد رأيت هناك نارًا وسأذهب لآتيكم منها بخبر أو آتيكم منها بقبس تستدفئون به. (الآية ٣٠)

فلما أتى موسى النارَ نودي من الناحية اليمنى من تلك البقعة المباركة من الشجرة يا موسى إني أنا الله رب العالمين، وأن ألقِ عصاك. فلما ألقاها رآها تهتزّ بسرعة كأنها حيّة صغيرة، فخافها موسى وولّى مُدْبِرًا، فقال الله تعالى يا موسى لا تخف، فإنك من الآمنين. ثم قال الله تعالى له أدخِلْ يدك في جيبك وضُمَّها إليك خوفًا، فهاتان آيتان أعطيتُكهما لتذهب بهما إلى فرعون ورؤساء قومه. (الآيات ٣١-٣٣)

فقال موسى: ربِّ، لقد قُتل شخص منهم بيدي، فأخاف أن يقتلوني قبل أن أقوم بتبليغ رسالتك، فابعثْ معي هارون أخي مساعدًا لي، فإنه أفصح مني لسانًا.

فاستجاب الله دعاءه وقال: سنشدّ يدك بهارون وسنكتب لكما غلبة واضحة على فرعون، فلن يستطيع أن يضركما شيئًا. (الآيات ٣٤-٣٦)

فلما ذهب موسى إلى فرعون وحاشيته وبلّغهم رسالة الله عارضوه بشدة واعتبروا رسالته مؤامرة وقالوا: ما سمعنا بهذه الأمور من آباءنا الأولين. ثم قال فرعون: يا هامانُ ابنِ لي صرحًا عاليًا شامخًا لأصعد عليه وأرى إله موسى. وتكبر فرعون وجنوده، فأغرقناه معهم في اليم وألقينا عليهم اللعنة في الدنيا، وسيكونون في الآخرة أيضًا من الأذلين الصاغرين. (الآيات ٣٧-٤٣)

لقد آتينا موسى الكتاب المشتمل على البصيرة الروحانية والهدى والرحمة، ولكنهم لم ينتفعوا منه كما لا ينتفع منها الآن اليهود المعاصرون لمحمد ﷺ.

ثم أشار الله تعالى إلى نبوءات التوراة عن بعثة محمد رسول الله ﷺ وقال لنبيه: يا محمد، لم تكن مع موسى بالجانب الغربي من الطور إذ بعثناه برسالتنا، كما لم تكن بين أهل مدين إذ أنبأناه بمجيئك. لو كنت معه عندها كانت هناك إمكانية أن يظن الناس أن كليهما قاما بحبك مؤامرة، ولكن موسى قد خلا قبلك بألفي سنة، فوجود تلك الأنباء في كتابه دليل ساطع على صدقك. (الآيات ٤٤-٤٧)

ثم بيّن الله تعالى أن بعثة الأنبياء ضرورية لإقامة الحجة على الناس، إذ لو لم يبعث الله رسله لقالوا: ربنا كيف تعذّبنا و لم تبعث إلينا من ينصحنا؟ أما وقد بعث الله الآن نبيه لإصلاحهم فإنهم يقولون لِم لم ينــزل عليه الكتاب دفعة واحدة كما نــزل على موسى؟ فردّ الله عليهم بأنه إذا كان ما يطالبون به دليلاً على صدق المدعي فلماذا رفض الناس موسى، إذ قالوا ليس موسى وهارون إلا ساحران يساند أحدهما الآخر. لقد كفروا بالتوراة من قبل، وقد كفروا الآن بالقرآن أيضًا، وكانت حجتهم عند كفرهم من قبل: لماذا نــزلت التوراة دفعة واحدة، بينما يرفضون الآن القرآن قائلين: لِم لم ينــزل دفعة واحدة؟ فليأتوا الآن بكتاب نــزل بطريق آخر وكان أهدى من هذين الكتابين إن كانوا صادقين، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك أبدًا. (الآيات ٤٨-٥٠)

إن مطاعنهم هذه دليل على أنهم لا يبحثون عن الحق، بل يقدمون هذه المعاذير من جراء أهوائهم وأفكارهم السخيفة. ومن يتبع أهواء نفسه وأفكاره الفاسدة فلا يفلح أبدًا. (الآية ٥١)

لقد أنـــزلنا هذا الوحي نـــزولاً مترابطًا، إذ يوجد في القرآن الكريم كله ترتيب محكم رائع. وإن الذين آتيناهم الكتاب من قبل والذين هم أهل الكتاب حقًا يؤمنون بالتوراة ويصدقون القرآن الكريم أيضًا، وأولئك الذين ينالون أجرًا مضاعفًا. (الآيات ٥٢-٥٥)

ثم بيّن الله تعالى علامات هؤلاء المؤمنين بأنهم يقاومون السيئة بالحسنة وينفقون في سبيل الله تعالى كل ما عندهم من قوة وكفاءة، ويعرضون عن كل ما هو لغو، ويريدون السلام للذين يعادونهم أيضًا. (الآيات ٥٥-٥٦)

ثم أخبر الله تعالى أن الهدى موقوف على فضل الله تعالى، فلا بد للمرء أن يكون طاهر القلب حتى تجذبه يد الفضل الإلهي إلى الهدى. (الآية ٥٧)

يقول هؤلاء لو دخلنا في الإسلام لأكلتنا الأمم التي حولنا. ألا يفكّرون أن الله هو الذي جعل مكة حرمًا آمنًا منذ زمن إبراهيم، ثم لم يزل يمد أهلَ هذا الوادي الذي لا ماء فيه ولا زرع بثمار الدنيا وخيراتها، فكيف يتعذر عليه حماية عباده الذين يقبلون الهدى في هذا العصر؟ وكيف يمكن أن يتركهم بلا معين ولا نصير؟ الحق أنهم لا يؤمنون بالله تعالى، بل قد غرّتْهم قوّتهم. إنهم يرون بأم أعينهم القرى التي دمرناها بالعذاب ثم لا يتّعظون. والحق أنه لم يحل بها الدمار إلا لكفر أهلها برسلنا. لا شك أن متاع الدنيا شيء جيد، ولكن الرقي الذي يمنحه الله تعالى خيرٌ من متاعها ومالها وذهبها، إن هؤلاء الأغبياء لا يفهمون هذا الأمر البسيط. (الآيات ٥٨-٦١)

ثم أخبر الله تعالى أنه لا يستوي أصحاب الثراء المادي والذين قد وعدهم الله تعالى ببركات روحانية دائمة، لأن الخير الحقيقي ما تكون عاقبته خيرًا، أما هؤلاء فليس مصيرهم إلا أنهم سيُحشَرون إلى الله تعالى للحساب يوم القيامة. (الآية ٦٢)

ولن يكون عندها جواب أئمة الكفر الذين كانوا يغوون الناس إلا قولهم: ربنا لم نعلّمهم إلا ما رأيناه حقًا، والحق أنه لم يكن لنا عليهم سلطان، وإنما اتبعونا لأن قلوبهم كانت راغبة في ذلك، فلم يتبعونا بل اتبعوا أهواء أنفسهم. (الآيات ٦٣-٦٤)

ولكي يكشف الله تعالى للناس عجز الآلهة الباطلة سيأمر عَبَدتَها أن يدعوها حتى تنجيهم من العذاب، فينادونها فلن يستجيب لهم أي منها، فيقول الغاوون في حسرة: ليتنا اتبعنا الهدى و لم ننحرف عن الصراط المستقيم. (الآية ٦٥)

ثم يسألهم الله تعالى ماذا كان جوابكم لرسلنا الذين أرسلناهم إليكم؟ فيصيبهم الذعر والهلع فينسون كل العقائد التي كانوا يتبعونها ولن يقدروا على التساؤل فيما بينهم أيضًا. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأولئك هم الفائزون. (الآيات ٦٦-٦٨)

ثم بيّن الله تعالى أن كل تغيّرٍ بيد الله تعالى الذي يُحدث ما يشاء من انقلاب، ولكن الكافرين لا يقدرون على ذلك شيئًا. إن الله يرى ظاهرهم ويعلم أسرارهم أيضًا، وهو الأحد لا شريك له، وبيده البداية والنهاية، وهو الذي يستحق الحمد في كل ما يفعله. (الآيات ٦٩-٧١)

إنهم يشركون بالله تعالى، ولكنهم لا يتفكرون في أن الله تعالى لو مدّ الليل إلى يوم القيامة فمن يأتيهم بضياء من دونه تعالى؟ أو أنه تعالى لو مد النهار إلى يوم القيامة فمن يأتيهم بالليل من دونه تعالى؟ هو الله الذي يجعل الشمس تطلع وتغيب، وقد جعل الليل والنهار لتسكنوا بالليل وتعملوا بالنهار ابتغاء فضله، وتكونوا من عباده الشاكرين. إن المشركين يشركون بالله آلهتهم المزعومة، ولكن لا يوجد بينهم أحد يؤمن بأن الشمس تطلع أو تغيب بأمرٍ من بعض آلهتهم أو أصنامهم. (الآيات ٧٢ - ٧٤)

سيأتي حتمًا يوم يقال فيه للمشركين أين شركاؤكم المزعومون؟ لِم لا ينصرونكم اليوم؟ أين براهينكم على عقيدتكم الوثنية إن كانت عندكم أية براهين؟ يومئذ سينكشف على المشركين زيف أصنامهم، فيقولون: إن ما قال الله هو الحق، وينسون كل ما ادعوه من قبل كذبًا وافتراءً. (الآيتان ٧٥ – ٧٦)

ثم ضرب الله لأعداء الحق مَثل قارون وأخبر أنه كان يعامل قومه بقسوة مزهوًا بثرائه، إذ كان بحوزته من الكنوز ما كانت مفاتيحه لتثقل على عصبة من الناس. ولقد نهاه قومه عن الكِبر والتعالي وقالوا إن الله تعالى لا يحب المتكبرين، فقال لم أُوتَ هذا الثراء من فراغ وإنما أوتيته بسبب علمي؛ ولم يتفكر أنه كم من أمة دمرها الله تعالى وكانت أقوى منه. فخرج ذات يوم في أُبّهته أمام قومه، فأخذ بعض منهم يغبطونه، فقال أصحاب البصيرة الروحانية منهم إن ما يملكه لا يليق بالغبطة، وإنما الحريّ بالغبطة ما يناله المؤمنون عند الله من أجر، ولن يناله إلا الذين يصبرون عند المحن والشدائد. فلما حانت ساعة نـزول العقاب على قارون جعلناه وأهله كلهم من الأذلين، فلم يخرج لنصرته حزبٌ ولم يستطع هو أن ينصر نفسه. فاعترف القوم أن هذا هو مصير الكافرين بنعمة الله. (الآيات ٧٧- ٨٣)

ثم بيّن الله تعالى أن الذين لا يسعون للسيطرة على البلاد بغير حق ولا يفسدون في الأرض فأولئك الذين يكتب لهم الله الغلبة والتقدم. (الآية ٨٤)

ثم بيّن الله تعالى سنّته بصدد جزاء الحسنة والسيئة، وأخبر أنه يجزي على الحسنة أكثر من حجمها، ولكن لا يعاقب على السيئة إلا بقدرها.

ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ سيخرجك قومك من مكة في يوم من الأيام، ولكن الله الذي أنـزل عليك القرآن يعدك حالفًا بنفسه أنه سيعود بك إلى مكة ثانية، ويجعلك غالبًا عليهم. فهو الذي يعلم مَن على الهدى ومن هو في الضلال، فكيف يمكن أن يفشل أهل الهدى وينتصر أهل الضلال؟ (الآيتان ٨٥-٨٦)

فيا أيها الإنسان الذي يخاطبه القرآن مِن واجبك بعد رؤية هذه الآية العظيمة ألا تكون ظهيرًا للكافرين وتتجنب الشرك والوثنية، وأن لا تعبد مع الله أحدًا فإنه لا إله إلا الله. إن كل ما في الكون بما فيه الآلهة المزعومة هالكٌ ولن ينجو إلا من شملته عناية الله، فإنه هو صاحب الحق وهو الذي سيُعرض عليه الخَلق كلهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

طسم ﴿٢﴾

التفسير: لقد استهلت هذه الآية بمقطع ﴿طسم﴾ الذي هو اختزال للطيف والسميع والمالك أو المجيد.. والمعنى أن الله لطيف فيعامل الناس بلطف ورفق ولا يمارس عليهم الشدة والجبر. ثم إنه تعالى سميع.. أي أنه أنــزل هذا القرآن لهداية الناس حين انحرفوا عن سبيل الهدى وانطلقت الصرخات من قلوبهم. ثم إنه مالكُ الخَلق، فما كان لائقًا به أن يترك عباده بدون هدى. أو أن الميم في ﴿طسَم﴾ اختزال للمجيد، والمراد أن الله ذو مجد فما كان له أن يترك عباده الضعفاء بدون هدى ولا يتفقد أحوالهم.

وبما أن هذه الصفات الإلهية قد وردت في مستهلّ سورة الشعراء أيضًا فموضوع هاتين السورتين متماثل في الواقع.

يظن بعض الناس لعدم تدبُّرهم في القرآن الكريم أن آياته وسوره مبعثرة لا ترتيب فيها ولا يربطها رابط. والحق أن المرء يكتشف بأدنى التدبر أن هناك حكمة بالغة في ترتيب سور القرآن الكريم، كما أن آياته وثيقة الصلة بعضها ببعض. خذوا مثلاً سورتي الشعراء والقصص، فقد استهلت كل واحدة منها بقوله تعالى ﴿طسم﴾، ثم بعد مقطع ﴿طسم﴾ قال الله تعالى في سورة الشعراء ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين﴾، كذلك قال تعالى في هذه السورة أيضًا ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين﴾، مما يدل دلالة واضحة أن هذه المقاطع قد وُضعت في مستهل السور لهدف خاص وأن المقاطع المماثلة تدل على موضوع واحد.

وقد سبق أن بيّنّا لدى تفسير سورة النمل أن الله تعالى قد استهلّها بقوله ﴿طس﴾، خلافًا لسورة الشعراء التي استهلها بقوله تعالى ﴿طسم﴾؛ وذلك لأن مجد الله وجلاله قد انكشف بواسطة النبي ﷺ – الذي ورد ذكره في سورة الشعراء–

أكثر مما انكشف من خلال موسى وسليمان – عليهما السلام – الوارد ذكرهما في سورة النمل. أما سورة القصص فقد استهلها الله تعالى بمقطع ﴿طسم﴾ مرة أخرى مضيفًا "الميم" إلى ﴿طس﴾، وذلك لأن هذه السورة أيضًا تركز على ذكر النبي ﷺ وخاصة على فتح مكة الذي قد تجلّى به مجد الله وجلاله أيما جلاء.

تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٣﴾

التفسير: أي أن آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين.. بمعنى أنه الكتاب الذي يبين مضامينه تبيانًا، وبتعبير آخر يبيّنها مدعمة بأدلتها.

والحق أن هذه الآية تمثل ردًّا على سؤال نشأ على قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾، وهذا السؤال هو: لماذا بُعث محمد منذرًا فقط ولم يُسمَح له بالجبر والإكراه؟ فأجاب الله بأن الكتاب الذي نــزل على محمد يذكر جميع المواضيع والقضايا مصحوبة بأدلتها، ومن أتى بكتاب مدعم بالأدلة والبراهين على كل ما فيه من دعاوي، فليس له حاجة للجوء إلى الجبر والإكراه، لأن الذي يتدبر في كلامه بصدق سينال الهدى، أما الذي لا يُعمل فكره فيه فلا فائدة في إكراهه، لأن الذي لم ينفعه الدليل والبرهان لن ينفعه الجبر والإكراه أيضًا.

نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾

التفسير: أي يا محمد، نسرد عليك قصة موسى كمثال على أن الله سميع ولطيف، واعلم أن ما نسرده هو الحق.. أي قد تسربت إلى قصة موسى الواردة في التوراة كثير من أفكار البشر، ولكننا نسردها لك على حقيقتها منــزهةً عما شابها من أفكار الناس.

وإن ما كتبه القسيس "ويري" في ملاحظاته التفسيرية على هذه الآية يؤكد صدق ما أعلنه القرآن هنا، إذ يقول "ويري" إن محمدًا لم يذكر هنا كل أحوال موسى، مما يدل على أن أحوال اليهود وصلت إليه بصورة ناقصة. (تفسير القرآن لويري)

ولكن الله تعالى قد أخبر نبيه ﷺ في القرآن الكريم من قبل نظرًا إلى اعتراض القس ويري وأمثاله أن القصة الحقيقية هي ما نسرده عليك في القرآن الكريم، أما ما يصل إليك من أخبار موسى من مصادر أخرى فلا تصدقه لأنه خلاف الحقيقة.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٥﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٦﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

شِيَعًا: الشيع جمعُ الشيعة، وشيعةُ الرجل: أتباعُه وأنصاره، والشيعةُ: الفِرقة. (الأقرب)

يحذَرون: حذِر يحذَر حِذْرًا وحَذَرًا ومحذورةً: تحرَّزَ منه. (الأقرب)

التفسير: أي أن قصة موسى الحقيقية هي أن فرعون تكبر وتجبر مغترًّا بحكمه وقوته، وأخذ في العدوان على الناس وظلمهم، ولم يعدل مع رعيته، ولم يهتم برقيهم، بل كان يحرّض بعض الفئات ضد بعض، فكان ينحاز لبعض الفئات ضد

غيرها التي كان يحتقرها ولم يكن يعتبر حكومته مسؤولة عن حمايتها. لقد سعى لإضعاف طائفة من الناس، إذ قتل الذكور من أولادهم واستبقى بناتهم على قيد الحياة. ولا شك أنه عاث في الأرض الفساد، فقررنا عندها - كما قررنا الآن أيضًا - أن نمنّ على الذين يُستضعفون في الأرض ونجعلهم الوارثين في الأرض ونجعلهم الأقوياء في البلاد ونعطيهم النعم التي كان يتمتع بها فرعون وأقاربه. كما قررنا أن نُري فرعون ومساعدَه هامانَ وجنودهما مصيرًا كانوا يخافونه.. إذ كانوا يحذرون من أن تتقوى بعض الشعوب في البلاد فتشكل عليهم خطرًا.

ويتضح من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أن فرعون كان يعمل بحسب الخطة المعروفة: "فَرِّقْ تَسُدْ"، فكان يدفع مختلف فئات المجتمع إلى التناحر فيما بينها كي يظل الناس مشتتي الشمل ولا ينتبهوا إلى ما يرتكبه من مظالم وفظائع ضد المجتمع. وكما أن الجبابرة ينصرون بعض القبائل ويهينون الأخرى لتظل نيران التباغض والتناحر مضطرمة بينها بشكل دائم، فكذلك سعى فرعون أن يظل الإسرائيليون وغيرهم في خصام دائم صرفًا لأنظار القوم عن فظائع ترتكبها حكومته. والقرآن الكريم يشجب هذه الخطة الخبيثة بشدة ويعتبرها أساسًا للفساد في الأرض، داعيًا إلى ضرورة سيادة القانون على الجميع بدون تمييز بين الفقير والثري والعالم والجاهل. والحق أن من المحال أن تنجح دولة في إرساء السلام في الدنيا إلا إذا امتنعت كليةً عن التمييز بين شتى فئات المجتمع ولم يدفعها الاختلاف القومي أو العرقي أو الوطني أو الديني إلى القضاء على مقتضيات العدل والإنصاف.

كان فرعون يريد إضعاف بني إسرائيل فأراد القضاء على نسل بني إسرائيل مستعينًا بالقابلات، لكنه فشل في خطته لأن القابلات لم يقتلن مواليدهم رحمة بهم. فأمر بقتل الذكور من أولاد الإسرائيليين غرقًا في النهر وباستبقاء إناثهم على قيد الحياة، وقد جاء تفصيل ذلك في التوراة كالآتي: "وكلّم ملكُ مصر قابلتَي العبرانيات اللتين اسم إحداهما شِفرَةُ واسم الأخرى فُوعَةُ، وقال حينما تُولِّدان العبرانياتِ وتنظُراهن على الكراسي إن كان ابنًا فاقتلاه وإن كان بنتًا فتحيا. ولكن القابلتَين خافتا الله ولم تفعلا كما كلّمهما ملكُ مصر، بل استحيتا الأولاد. فدعا

ملك مصر القابلتَين وقال لهما: لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد؟ فقالت القابلتان لفرعون إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات، فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. فأحسن الله إلى القابلتين. ونما الشعب وكثُر جدًا. وكان إذ خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتًا. ثم أمر فرعون جميعَ شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها." (الخروج ١: ١٥- ٢٢)

أما قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فقد ظن البعض خطأً أن فرعون كان يقتل أولادهم خنقًا، ولكنه كلام غير سليم، لأن الذبح يعني القتل أيضًا (تاج العروس)، وعليه فالمراد من قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أن فرعون كان يقتل أولاد بني إسرائيل سواء أكان هذا القتل غرقًا أو بأي طريقة أخرى. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر في موضع آخر فقال إن المصريين كانوا: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾(الأعراف: ١٤٢)

علمًا أنه عند الحديث عن قتل أولادهم في سورة البقرة قد قال القرآن الكريم: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾(الآية:٥٠) بدلاً من "يَذْبَحون"، وذلك لأن باب التفعيل يفيد الشدة والمبالغة، فلو قال "يَذبَحون" لكان معناه أنه كان يقتلهم، ولكنه قال ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ ليشير إلى شدة حقد قوم فرعون تجاه الإسرائيليين، وليبين أنهم كانوا يبحثون عن كل مولود جديد لهم ويقتلونه.

أما قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، فلفظ ﴿نريد﴾ هو صيغة المضارع الذي يفيد الحال والاستقبال أيضًا، فكأن الله تعالى قد أشار بذلك أنه لم يُرد في زمن موسى فحسب، بل يريد الآن في زمن محمد أيضًا أن يهب القوة للذين تريد بلادهم إضعافهم عدوانًا لأنهم من المظلومين. لا شك أن محمدًا ﷺ لم يُسمح له بالإكراه، ولكن الله تعالى كما دمّر فرعون وملأه بتدبير من السماء ونصر القوم الذين كانوا عرضة لفظائعه وجعلهم غالبين، كذلك سيدمر الله تعالى أهل مكة بتدبير من السماء ويجعل أتباع محمد ﷺ هم الغالبين. أما التدبير الذي يتخذه الله تعالى لتنفيذ مشيئته هذه فهو مذكور في مستهل هذه السورة، حيث بين تعالى أن الكلام الذي

نـــزل على محمد مليء بالحكمة ومدعم بالأدلة، وسيفتح الله بتأثير هذا الكلام قلوب الناس. وكأن الله تعالى يعلن هنا أنه سيُظهر لمحمد نفس النتيجة التي أظهرها في زمن موسى ﷺ، ولكن هناك فرق هو أن موسى قد اضطر لممارسة نوع من الجبر والقسوة على قومه ليعملوا بأحكام الله تعالى، كما لم يؤمن بموسى قومه كلهم وإنما انضم إليه معظمهم من أجل المصالح السياسية كما هو ظاهر من التوراة، حيث ظلوا يعترضون عليه في شتى المناسبات زمنًا طويلا. أما محمد ﷺ فإن الكلام الذي نـــزل عليه مليء بالحكمة ومدعم بالدليل، فسيؤمن به قومه من الصميم وسينالون من العز والشرف أكثر مما ناله قوم موسى. لقد ورث بنو إسرائيل جزءًا مما تمتع به فرعون من القوة والشوكة، أما قوم محمد ﷺ فسينالون عزة وغلبة أكبر لأن معهم الكتاب المبين.

وقد بين الله تعالى هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان: ٥٣).. أي يا محمد، ستضطر للخوض في الحروب المادية، ولكن ليست الحروب غاية حياتك بل هي جزء ضئيل من منجزاتك، إنما غايتك أن تحارب قومك بالقرآن الكريم، وهذه هي الحرب الكبرى التي لا تضاهيها الحرب بالسيف والسنان أبدًا.

وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية بشكل مذهل. لا شك أن مسلمي مكة قد اضطروا لمحاربة بعض القبائل العربية، ولكنها كانت قبائل صغيرة وكانت نتيجة تلك الحروب أيضًا صغيرة، أما الحرب بالقرآن الكريم فقد خاضها النبي ﷺ ضد العرب وضد الفرس ثم ضد العالم كله، وهي مستمرة حتى اليوم، وعندما تظهر نتائجها الأخيرة ستُفتح قلوب العالم كله للإسلام، لتمتد مملكة محمد رسول الله ﷺ إلى كل أنحاء العالم قافزةً من فوق السهول والجبال. أما الحروب المادية فنتائجها أقل بكثير من نتائج هذه الحرب الروحانية، ولكن الغريب أنه برغم وجود هذه الآيات البينة في القرآن الكريم لا يزال الغرب يعترض بأن محمدًا (ﷺ) قد أخضع العدو بالحروب. مع أن انتصارات النبي ﷺ لو كانت متوقفة على الحروب المادية لما اعتبر القرآن الكريم الجهاد بالقرآن أكبر من الحرب المادية، ولما قال الله لنبيه ﷺ:

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.. أي أن الحرب الحقيقة التي تخوضها إنما تتم بسلاح القرآن الكريم، فحارِب به العدو لأن هذه هي الحرب الكبرى.

ومن المستغرب أن هذه الآية - التي تتحدث عن نوعين من الجهاد: جهاد صغير وهو الذي يكون بالسيف، وجهاد كبير وهو الذي يكون بالأدلة والبراهين - مكيةٌ، وهذا يعني أن الله تعالى قد أخبر نبيه ﷺ وهو في مكة حين لم يكن عنده جيش ولا مُلك بأنه سيضطر لخوض الحروب ضد أعدائه بعضها بالسيف والسنان وبعضها بالدلائل والبراهين، وأن الحرب بالدلائل هي أكبر من الحرب بالسيف. وقد بين النبي ﷺ بنفسه الفرق بين هاتين الحربين حين رجع مرة بعد قتال العدو بالسيف فقال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" (ردُّ المحتار على الدرّ المختار: كتاب الجهاد).. أي رجعنا من حرب صغرى لنخوض الآن حربًا كبرى وهي حرب الدلائل والبراهين وإشاعة القرآن الكريم. إذًا، فإن النبي ﷺ أيضًا قد اعتبر حرب الأدلة والبراهين حربًا أكبر من حرب السيف والسنان.

هذا، وقد اعترض المستشرق سيل (Sale) في ترجمته الإنجليزية للقرآن الكريم على شخصية هامان المذكور هنا، وقال إن القرآن الكريم قد اعتبر هامان معاصرًا لفرعون مع أنه كان وزيرًا للملِك الفارسي أَحَشْوِيرُوش الذي خلا قبل موسى بزمن طويل. وأضاف "سيل" وقال إن إقناع أحدٍ من المسلمين بهذا الخطأ الواضح صعب جدًا إذا لم يكن محالاً. (ترجمة "سيل" للقرآن ص ٣٧٨)

وقد أعاد القسيس ريفرند ويري هذا الاعتراض في تفسيره للقرآن الكريم كما فعل عديد من المستشرقين الآخرين أيضًا فقال: لم يكن هامان وزيرًا أو مسؤولاً كبيرًا عند فرعون بل كان وزيرًا لملك فارسي كان في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد وضع هامان في عهد الملك أَحَشْوِيرُوش خطّةً لإبادة اليهود بشكل شامل، ولكن الملك سخط عليه وقتله صلبًا. (تفسير القرآن لويري)

وقد أسس المستشرقون الأوروبيون اعتراضهم هذا على ما ورد في التوراة كالآتي:

"عظّم الملكُ أَحَشْوِيرُوش هامانَ بنَ هَمَداثَا الأَجاجيَّ ورقَّاهُ وجعَل كرسيَّه فوق جميع الرؤساء الذين معه. فكان كلُّ عبيد الملك الذين بباب الملك يجثُون ويسجدون لهامان لأنه هكذا أوصى به المَلِكُ، وأمَّا مُرْدَخايُ فلم يَجْثُ و لم يسجد. فقالَ عبيدُ المَلِك الذين بباب الملك لمُرْدخاي: لماذا تتعدى أمرَ الملك؟ وإذ كانوا يُكلِّمونه يومًا فيومًا و لم يكن يسمَع لهم أخبروا هامانَ ليروا هل يقومُ كَلامُ مُردخَاي لأنهُ أخبرَهم بأنه يهوديٌّ. ولما رأى هامانُ أن مُردَخاي لا يجثو ولا يسجد له امتلأَ هامانُ غضبًا وازْدُرِيَ في عينيه أن يمدّ يده إلى مُرْدَخايَ وحده لأنهم أخبروه عن شعب مُرْدَخايَ، فطلب هامان أن يُهلك جميعَ اليهود الذين في كل مملكة أَحَشْوِيرُوش شعبَ مُرْدَخايَ." (أَسْتِير ٣: ١- ٦)

ثم تقول التوراة إن هامان فشل في مكيدته لأن الملكة "أَسْتِير" اليهودية حرّضت الملكَ ضد هامان، فأمر بقتله.

وبناءً على هذه الرواية في سِفر أَسْتِير أنكر المستشرقون وجود شخص معاصر لفرعون باسم هامان. ولكن الغريب أن الكتاب الذي يبنون عليه اعتراضهم ضد القرآن الكريم مشكوك فيه وغير قابل للثقة به عند الباحثين المسيحيين أنفسهم، حيث لا يصدّقون ما ورد فيه من أحداث. فقد صرّح مارتن لوثر وغيره من العلماء المسيحيين أن قصة أَسْتِير هذه مجردُ خرافة مليئة بالمبالغات. بل قالوا: لم يوجد في القرن الخامس قبل الميلاد أيُّ ملك فارسي كان له وزير باسم هامان، كما لم تكن عند الملك أَحَشْوِيرُوش ملكة اسمها أَسْتِير، ولا يصدق التاريخ كل هذه القصص الخرافية التي جُمعت في هذا السفر.

(Black's Bible Dictionary: p.174 Under: Esther. والموسوعة التوراتية: تحت كلمة: Esther)

فما دام الكتاب الذي بنوا عليه اعتراضهم هو موضع طعن وشك من قبل المسيحيين أنفسهم حيث لا يعتبرونه مصدرًا تاريخيًا موثوقًا به؛ فكيف يصحّ الطعن في القرآن الكريم بناءً على مصدر مشكوك فيه؟

لقد ذكر القرآن الكريم عن هامان الأمور التالية:

الأول: كان هامان يتمتع بقوة عسكرية في مصر، إذ كان عنده جنود كما كانت عند فرعون حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾(القصص:٩)، كما صرح تعالى في الآية قيد التفسير أيضًا فقال: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

والثاني: يتضح من القرآن الكريم أن هامان كان عمله الإشراف على بناء العمارات الشاهقة والقلاع وغيرها، حيث قال الله تعالى حكاية عن فرعون ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(القصص: ٣٩). علمًا أن قول فرعون ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني أن هذا لا يعني أني قد اقتنعتُ بصدق موسى، كلا، بل أعتبره كاذبًا، بيد أن تصرفي هذا سيُقنع الآخرين أيضًا بكذبه وافترائه.

والآن لو عثرنا في تاريخ مصر القديم على شخصية معاصرة لفرعون موسى وكانت تتمتع بقوة عسكرية، وكان عملها الإشراف على بناء المباني الشاهقة والقلاع لثبت صدق القرآن بكل جلاء.

تكشف لنا دراسة التاريخ أن المصريين القدماء كانوا يعبدون آلهة كثيرة، وكان كل واحد منهم ينتمي إلى إله معين أو آلهة عديدة، وكان سكان العاصمة المصرية "طيبة" (Thebos) يدْعون إلههم "آمان" أو "آمون"، وكان يسمى في القديم "آمانا"، ثم اشتهر باسم "آمان" و"آمون". ولما كان "آمان" هو إله سكان العاصمة المصرية، وحيث إن العاصمة هي أشد تأثيرًا على المناطق الأخرى من البلاد، فكان لزامًا أن يتفوق الإله "آمان" على الآلهة الأخرى بالتدريج، وهذا ما حدث فعلاً، حيث أصبح هذا الاسم مقدسًا جدًا، فبدأ الناس يُكثرون من استعمال لفظ "آمان" كاسم أو لقب، شأن المسلمين الذين يضيفون اسم الله تعالى إلى أسماء أولادهم. (تاريخ مصر لجيمس هنري بريستد ص ٦٠٤)

فلما ازداد الإله "آمان" شعبيةً أصبح كاهنُ "آمان" رئيسًا للكهنة كلهم، فازداد نفوذه حتى أصبحت في قبضته كلُّ الأملاك والعقارات والمعابد التي كانت وقفًا للإله "آمان." (تاريخ الملل القديمة لسنيوجس، ترجمة سيد محمود أعظم فهمي ص ٣٩)

ويقول جيمس هنري بريستد في كتابه "تاريخ مصر":

لقد ظهرت في العصر الجديد لحكومة مصر - بالإضافة إلى القوة العسكرية - حركة مؤثرة وقوية جديدة كانت مبنية على نظام الكِهانة. والحق أنه كنتيجة طبيعية لثروة المعابد الهائلة أخذت الكِهانة صورة مهنة معينة. وبقدر ما ارتفع عدد الكهان ازدادوا كقوة سياسية. وكلما زادت ثروة المعابد نشأت معها جماعة كبيرة للموظفين في المعابد أيضا، وكانت مسؤوليتهم أن يشرفوا عليها، رغم أنه لم يكن لهم وجود في الأيام الخالية. وفي نهاية المطاف اتحد نظام كافة المعابد للآلهة المختلفة في البلاد تحت منظمة عظيمة ومقدسة. وكان الكاهن الأعظم في معبد آمان في العاصمة "طيبة" رئيسها الأعلى. وهكذا تضاعفت قوة الكاهن الأعظم في معبد الإله "آمان" أضعافا مضاعفة مقارنة بما كانت عليه من قبل. وعندما حاز فراعنة مصر الثروة من بلاد مفتوحة حُوِّل النصيبُ الأكبر منها إلى المعابد، وبالتالي تحولت المعابد إلى قصور واسعة وعظيمة يسكنها جماعات عديدة من الكهان. كان الكاهنُ الأعظم في معبد "آمان" الرئيسَ الأعلى لهذه المنظمة الدينية المقدسة، وكان يُعتبر أميرا مقدسا، وكانت زوجته تُلقَّب "جارية الله العليا"، وكانت حائزة على مرتبة الملكة." (تاريخ مصر، لـــ جيمس هنري بريستد ص٢٤٧- ٢٤٨)

وكانت لكاهن الإله "آمان" ألقاب عديدة، غير أنه كان يسمى عادة "هَمْ آمَان"، مثلما كانوا يطلقون اسم "هَمْ رَعْ" على الكاهن الأعظم للإله "رَعْ"، واسم "هَمْ كَا" على الكاهن الأعظم للإله "كَا".

(The Dwellers on the Nile by sir E A Wallis Budge KT. P. 148- 163- 173)

وكلمة "هَمْ" تعني حرفيًا الخادم أو العبد، فالمراد من "هَمْ آمان" خادم أو عبد الإله آمان، ولكنها تعني مصطلحًا الكاهن الأعظم.

علمًا أن فرعون الذي تربى موسى عليه السلام في بيته هو "رعمسيس الثاني"، أما فرعون الذي هلك بسبب عدائه لموسى عليه السلام فهو "مِنْفتَاح". وقد تم انتخاب الكاهن الأعظم للإله "آمان" أول مرة في عهد "رعمسيس الثاني"، وفي عهده أيضًا

اعتُبر هذا الكاهن عضوًا مرموقًا في الحكومة. فقد كتب "ألكسندر موريت" في كتابه "النيل والحضارة المصرية":

لقد عيّن رعمسيسُ الثاني في العام الأول من حكمه شخصا اسمه "نَيْبُنِف" (Nebunnef) ككاهن أعظم لآمان. كان الملك قد قرر من قبل بتعيينه كاهنا أعظم للإله "هاتور" ولجميع آلهة مصر، ولكنه (أي الملك) لم يعلِن تعيينه بصورة رسمية إلا بعد أن عرض على إلـهه "آمان" في معبد "كرنك" أسماء جميع المسؤولين والكهان والزعماء في البلاط لهذا المنصب، ولكن إله "آمان" لم يرض إلا باسم نَيْبُنِف. وعندما تمت عملية الانتخاب قال الملك مخاطبا نَيْبُنِف: منذ الآن تكون أنت الكاهن الأعظم في آمان. وإن كنـزَيْ معبد آمان ومستودعات الغلال تكون تحت خاتَمك، وإن معبد الإله "هاتور" سيكون من الآن تحت عصا حكومة ابنك، ويحتل ابنك المنصب نفسه الذي كان خاصا بك. فقام جميع أركان البلاط وقُضاته الثلاثة بتهنئة الملك والكاهن الأعظم على هذا الانتخاب. ثم وهب الملكُ خاتمين ذهبيين خاصين به والعصا الملكية الذهبية لـ نَيْبُنِفَ وعيّنه على منصبه وخلع عليه الألقاب التالية:

١- الكاهن الأعظم لآمان

٢- مدير أعلى للكنوز والمستودعات

٣- مدير عام لجيوش مصر

٤- مدير أعلى لجميع الصنّاع وأصحاب الحِرف في العاصمة "طيبة".

(The Nile and Egyptian civilization by Alexender Moret p.334)

لقد تبين من ذلك أن الكاهن الأعظم للإله "آمان" كان أكثر الناس قوةً في مصر بعد فرعون في عصر موسى ، وكان له نفوذ في الجيش، كما كان يشرف على بناء المعابد.

ويقول جيمس هنري بريستد عن "هَمْ آمان": إنه (أي رعمسيس الثاني) قسم الجنود في أربع كتائب، وسمى كل كتيبة باسم آلهته الكبيرة: "آمان" و "رَعْ" و" فِتَاح" و"ستِيخ"، وتولى بنفسه قيادة كتيبة الإله "آمان." (ص ٢٤٥)

لقد ثبت مما سبق أن كاهن الإله "آمان" كان الرجل الثاني في مصر بعد فرعون في زمن موسى . وحيث إن "آمان" كان يُعتبر سيد الآلهة فقد اعتُبر كاهنه أيضًا الرئيس الأعلى للنظام الديني، كما كان المشرفَ الأعلى على الكنوز والخزائن والمستودعات للمعابد، وكان يتقلد منصب القائد الأعلى للجيش، وكان ذا سلطة ونفوذ حتى سُمّيت إحدى كتائب فرعون باسمه. كما سُمِّي الرئيس الأعلى للصنّاع والمعماريين أيضًا لكونه المشرف الأعلى على بناء المعابد كلها، إذ يتضح من التاريخ أن المصريين كانوا يبنون معابد فخمة ومقابر وقصورًا وتماثيل كبيرة للآلهة في كل مكان، وكان كاهن الإله "آمان" يشرف على هذه الأعمال كلها. (الموسوعة البريطانية: تحت كلمة Egypt)

إذًا، فالشخصية التي سماها القرآن الكريم "هامان" ليست شخصية خرافية، بل هي شخصية تاريخية كبيرة، وكانت تسمى في مصر القديمة "هَمْ آمان" و "هَمْ آمون".

لا شك أن التوراة لم تذكر هامان في معرض الحديث عن وقائع موسى وفرعون، ولكن الشواهد التاريخية قد دلّتنا على شخصية كانت تُعتبر في مصر ثاني شخصية كبيرة بعد فرعون، وكان هناك كتيبة عظيمة باسمه، وكان مشرفًا على أعمال بناء المعابد كلها. إذًا، فإذا كانت التوراة قد أهملت ذكر هذه الشخصية الكبيرة فهذا ليس دليلاً على وقوع القرآن الكريم في خطأ تاريخي، إنما هو دليل على أن التوراة هي التي قد ارتكبت خطأ تاريخيًا، مع أنها قد كُتبت في عهد موسى وتدّعي أنها تسرد وقائع عصره سردًا صحيحًا. أما القرآن الكريم الذي نزل بعد التوراة بألفي سنة فقد نبّه إلى خطئها متحديًا أن بيانه هو الصحيح، وأن ما ذكرته التوراة فهو خطأ، ومن أجل ذلك فقد أعلن القرآن الكريم في بداية هذه السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.. أي أن هذه آيات الكتاب الذي يبين الحقائق كلها

ويكشف الأسرار بأسرها. كما أعلن أيضًا: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.. أي أننا لا نكرر ما ورد في التوراة من قصص وأحداث، بل نسرد لك الوقائع الحقيقية من زمن موسى وفرعون، ولكن لن ينتفع منها إلا الذين يوقنون بها، أما الذين لا عمل لهم إلا الاعتراض فلن ينتفعوا منها. وبالفعل ترى أن سيل وويري لم ينتفعا من هذه الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم، بل زعما أن محمدًا (ﷺ) قد ارتكب هنا خطأ تاريخيًا، إذ اعتبر هامان معاصرًا لموسى عليه السلام مع أنه كان وزيرًا لملك فارسي خلا قبل موسى بخمسة قرون. ولكن المصادر التاريخية قد أكدت أن اعتراضهما باطل وأن الحق مع القرآن الكريم.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

اليَمّ: هو البحر. (الأقرب)

فالتقطه: التقطه: عثَر عليه من غير قصد ولا طلب. (الأقرب)

التفسير: المراد من قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أن أم موسى ألقته في النهر كما أمرها الله تعالى، ولكن عين حمايته تعالى كانت تكلؤه، فلم يغرق بل أخذه شخص من عائلة فرعون. والمراد من قوله تعالى:

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أن موسى أصبح في نهاية المطاف عدوًا لهم وسبب لهم همًا وحزنًا حيث إن اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ للعاقبة.

وقد صرح القرآن الكريم في سورة "طه" أن الله تعالى أمر أُمَّ موسى عليه السلام أن تضعه في التابوت ثم تضع التابوت في النهر، وليس أن تُلقيه في النهر هكذا، حيث ورد هناك: ﴿اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾(طه: ٤٠).

وإن التوراة أيضًا تسلّم بذلك إذ ورد فيها أن أمّ موسى صنعتْ سلّةً من البَرْدِيّ وطلَتْه بالحُمَر والزِّفْت، ووضعت فيه الولد، ووضعته بين الحَلْفاء على حافة النهر (الخروج ٢: ٣). وسلّة البَردي والتابوت شيء واحد في الحقيقة، إذ ليس ضروريًا أن يكون التابوت مصنوعًا من الخشب، بيد أنه كان ضروريًا أن يوضع موسى في شيء لا يتسرب إليه الماء، ولذلك تخبرنا التوراة أن أُمّه طلت السلّة بالحُمَر والزِّفت لتسدّ ثقوبها، فلم تعد بعد ذلك سلةً بل صارت شيئًا كالتابوت.

قال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أن آسية امرأة فرعون هي التي التقطت موسى من النهر، إذ ذهبت إلى النهر للغسل في ذلك اليوم، فرأت تابوتًا صغيرًا يطفو على الماء، فحملته وفتحته، فوجدت فيه ولدًا جميلاً، فأشفقت عليه وأخذته إلى البيت وقامت بتربيته (الطبري). ولكن التوراة تخبرنا أن ابنة فرعون هي التي كانت تغتسل في النهر، فرأت سلة بين الحَلْفَاء على حافة النهر، فبعثتْ بعض زميلاتها لتحمل السلة إليها، فلما فتحتها وجدت فيها ولدًا جميلاً، فأشفقت عليه وأخذت تربّيه. (الخروج ١: ١٦)

وبما أن القرآن الكريم قد صرح هنا ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ مما يدل أن أحدًا من عائلة فرعون وقبيلته أخذه. فالمراد من ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾ ابنته لا زوجته.

وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠﴾

التفسير: لما أخذت ابنة فرعون الولدَ إلى البيت قالت زوجة فرعون له سيكون هذا الولد قرة عين لي ولك، فلا تقتله عسى أن ينفعنا كخادم أو يكون ذكيًا فنتخذه ولدًا. وكانوا لا يشعرون بما كان يخفيه لهم القدر وماذا سيحدث في المستقبل.

لا شك أن ابنة فرعون هي التي التقطت موسى من الماء وهي التي أخذته إلى البيت، ولكن لا تطرح أيُّ أمّ ولدها في النهر إلا إذا خافت على حياته خوفًا شديدًا. ولما كان بنو إسرائيل هم الذين يخافون على حياة مواليدهم لأن فرعون كان قد أمر القابلات بقتلهم (الخروج ١: ١٦)، فلما أخذت ابنته موسى إلى البيت أدرك أنه ولد إسرائيلي فأراد قتله، ولكن زوجته شفعت له وقالت لفرعون دَعِ البنت تفعل ما تشاء ولا تقتل الوليد من أجلي، عسى أن ينفعنا إذا كبر أو نتخذه ولدًا إذا كان ذكيًا. ولكن فرعون وأهله لم يعلموا ما كان القدر يخفيه لهم.

وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ

نَـٰصِحُونَ ﴿١٣﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

فؤاد: الفؤاد: القلب لِتوقُّده، لأنه مِن فَأَدَ اللحمَ في النار: شواه، وقيل لتحرُّكه لأن أصل الفَأْد الحركةُ. (الأقرب)

التفسير: لمـاَ تلقّتْ أمّ موسى عليه السلام هذا الوحي أدركت أن الله تعالى سيتولى حفظ ولدها ولن يقدر فرعون على قتله، فخلا قلبها من الهم وغمرها الفرح حتى كادت تبوح بهذا السر لولا أن جعل الله تعالى قلبها قويًا لتكون من المؤمنين.

يقول المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ أن أمه لم تبرح تفكّر فيه كل حين بعد طرحه في النهر (الرازي)، ولكن هذا المعنى باطل، وإنما المفهوم السليم هو أن الله تعالى لما بشّرها أن فرعون لن يضر موسى شيئًا زال حزنها واطمأن قلبها وغمرتها هذه البشارة فرحةً وسرورًا حتى كادت تخبر الناس أن الولد لها وأن الله تعالى قد وعدها بحمايته؛ ذلك لأن ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ قد يعود إلى موسى فيكون المعنى أن أمه كادت أن تبوح بالسر وتخبر الناس أن الولد لها، وقد يعود هذا الضمير إلى الوحي الذي تلقته فيكون المراد أنها كادت أن تبدي للناس بأنها قد تلقّت من الله وحيًا كذا وكذا، وألقت وليدها في اليم طبقًا لوحي الله تعالى. أما لو كانت أمه لا تزال تخاف عليه وتفكر فيه كل حين فما كانت لتبوح بهذا السر، إنما يمكن أن تفكر في البوح بسرّ ابنها إذا كانت فرحة ومطمئنة على حياته.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِه قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِه عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.. أي أن أمه أمرت أخته أن تتبعه في النهر وتراقبه عن بعد لا مِن قربٍ حتى لا ينتبه لها أحد من قوم فرعون.

أما قول الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ..الخ﴾.. فيعني أنهم لم يجدوا له مرضعًا ترضعه، أو يعني أن موسى عليه السلام رفض أن يرضع أيًا من المراضع. فتقدمت أخته وقالت لأهل فرعون هل أدلكم على أهل بيت يقومون لكم برضاعته ويكونون له ناصحين؟ وهكذا رجع الله بموسى إلى أمه كي تقر عينها ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الأمور لغبائهم.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

أَشُدَّه: بلَغ فلان أشُدَّه أي قُوّته، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة. (الأقرب)

التفسير: أي لما بلغ موسى شبابه واستوى بقوة على الخُلق الأسمى وهبنا له الحُكم والعلم وكذلك نجزي المحسنين. لا شك أن الأشُدّ هو ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين، ولكن هذا لا يعني أن هناك عمرًا معينًا يبعث فيه أحد نبيًا، إذ يتضح لنا من دراسة التاريخ أن الأنبياء بُعثوا في سن متفاوتة، فقد بُعث النبي ﷺ مثلاً في سن الأربعين (البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ)، وبُعث عيسى عليه السلام وعمره ثلاثون سنة بحسب إجماع النصارى والمسلمين. (البداية والنهاية: بيان نزول الكتب الأربعة، لوقا ٣: ٢٣)، وبُعث يحيى عليه السلام وهو دون الثلاثين (الخازن: قوله تعالى: وآتيناه الحكم صبيًا). وعليه فيمكننا القول بناء على التاريخ أن الأنبياء يُبعثون في سن متفاوت وفقًا لأوضاع عصورهم، ولا يمكن تحديد بلوغ الأَشُدّ لغويًا ولا تاريخيًا.

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا
رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ
مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ
لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾

وَكَزَه: دفَعه. ووَكَزَ فلانًا: ضرَبه بجمع الكفّ. وقال الكسائي: وكَزه: لكَمه. (الأقرب)

ظهيرًا: الظهير: المُعين. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا حادثًا هامًا من حياة موسى عليه السلام أدّى إلى بعثته نبيًا، وهو أنه دخل المدينة مرة على حين غفلة من الناس أي وقتَ الليل، فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من قومه والآخر من أعدائه. ويبدو أن هذا الشخص الأول كان يتكلم بالعبرانية فعلِم موسى أنه من قومه، فرأى مساعدته واجبًا عليه.

لقد قال الله تعالى هنا: ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ ولم يقل: "وهذا من أعدائه"، وذلك لأن لفظ ﴿عدوه﴾ إشارة إلى قوم فرعون، ووصفُ "القوم" بصيغة المفرد جائز في اللغة، فالمعنى أن الآخر كان من القوم الذي هو عدوّه.

فلما استغاثه الذي من قومه ضد الذي كان من قوم فرعون رأى موسى عليه السلام أنه إذا لم ينصر أخاه الإسرائيلي فإن الرجل سيقتله، فتقدم موسى ووجّه إلى الرجل لكمةً، فإما أنه لكَمه بقوة لأن الموقف كان حرجًا، أو أن الرجل كان ضعيف

القلب أو الكبد، فأصابت اللكمة قلبه أو كبده، فمات في مكانه. فقال موسى في نفسه: هذا من عمل الشيطان.. أي أن ما حدث إنما هو نتيجة الغضب، إذ إن الشيطان مشتق من شطن أو شاط، فيقال: "شاط الشيءُ: احترق، واستشاط الرجل غضبًا.. أي غضِب غضبًا شديدًا (الأقرب)؛ فثبت أن الشيطان هنا بمعنى الغضب.

أما قول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ فمعناه أن الغضب عدو كبير للإنسان حيث يُنسيه طريق الصواب، إذ يقال: "ضَلَّ الناسي: أي غاب عنه حفظُ الشيء" (الأقرب).

ففكر موسى عليه السلام أن فرعون وقومه سيعادونه الآن، فدعا ربه وقال ربّ، لقد ألقيت نفسي في العناء حين تقدمت لمساعدة رجل من قومي حين رأيته في محنة، فاسترْ لي مصيبتي، علمًا أن الغفر يعني الستر سواء أكان ستر المصيبة أو ستر الذنب، فيقال: "غفَر الشيء غفرًا: ستَره" (الأقرب)، فقوله فاغفر لي يعني استُرْ مصيبتي. فستر الله مصيبته حيث لم يره أحد من مسؤولي الحكومة، ثم فشلت الحكومة حين أرادت قتله. ولا شك أن الله يستر عباده في مصائبهم ويرحمهم كثيرًا.

ثم دعا موسى وقال ربِّ قد مننتَ عليّ كثيرًا فلن أنصر المجرمين بعد ذلك. والواقع أن الشخص الذي أغاثه موسى عليه السلام لم يبدُ مجرمًا بظاهره، وإنما اعتبره موسى مجرمًا بناءً على فراسته، إذ فكّر أنه قد أغاثه بحسن النية فقُتل رجل من قوم فرعون مما ألقاه في بلاء شديد؛ فيبدو أن هذا الشخص مجرم عند الله تعالى.

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا

قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

يترقب: ترقَّبَه: انتظرَه (الأقرب). وترقَّبَ: احترزَ راقبًا. (المفردات)

يستصرخه: استصرخَه: استغاثه. (الأقرب)

التفسير: وفي الصباح خرج موسى عليه السلام إلى المدينة وهو يلتفت يمينًا وشمالاً ليرى ما إذا كان أحد يتتبّعه أم لا، فوجد أن الشخص الذي استغاثه بالأمس يناديه للمساعدة. وبما أن موسى عليه السلام كان قد أدرك بفراسته أن هذا الرجل من قومه كان على خطأ في شجاره مع الرجل الذي قُتل أمس، فقال في نفسه أنه شخص عصبي يُسخط الناس وإلا فلمَ يتشاجر الجميع معه، فقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾.. أي لا شك أنك مفسد. علمًا أن "الغويّ" صفة مشبهة باسم الفاعل من غوَى يغوي ومن معانيه المفسد. ثم رأى موسى عليه السلام أن الشخص الآخر يبدو معتديًا فهمّ أن يبطش به، فظنَّ الإسرائيلي أنه يريد ضربه إذ لامه من قبل، فصرخ على موسى بدون تفكير وقال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ إنك لا تريد الإصلاح وإنما تريد أن تظلم الضعفاء وتتكبر في الأرض. علمًا أن الجبّار صفة من صفات الله تعالى وهو الذي يسدّ حاجات الناس، ولكن إذا وُصف بها غير الله تعالى فتعني كل عات متمرد لا يبالي بأي قانون وحدود (الأقرب). فعلِم الناس بصراخه أن موسى هو الذي قتل المصري البارحة. ولأن القتيل كان من قوم فرعون وكان المعتدي اليوم من قوم فرعون، فانتشر هذا الخبر في المدينة انتشار النار في الهشيم وثار قوم فرعون.

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ

ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ خَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

التفسير: فجاء رجل من الناحية الأخرى من المدينة فقال لموسى إن رؤساء القوم يأتمرون بقتلك فاهرب من هنا فورًا، فإني لك من الناصحين. فهرب موسى عليه السلام من المدينة فورًا وهو يلتفت يمينًا وشمالاً ليرى ما إذا كان أحد يطارده أم لا، وكان يدعو الله تعالى ربِّ إن قوم فرعون ظالمون معتدون، إذ رأيتُ بأم عيني مرتين أنهم حاولوا قتل إسرائيلي، فنَجِّني من هؤلاء الظالمين. ثم توجّهَ موسى إلى أرض مَدْيَن.

وكان مدين أحد أبناء إبراهيم عليه السلام من زوجته قطورة، وقد جاء ذكره في التوراة كالآتي:

"وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ، فَوَلَدَتْ لَهُ زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا." (التكوين ٢٥ :١-٢)

وكان الناس في القديم يُدعون بأسماء آبائهم، فدُعِيَ نسلُ مدين أيضًا باسمه. ثم إن هؤلاء القوم سمّوا عاصمتهم أيضًا مدين. وكانت هذه المدينة تقع قريبًا من البحر على خليج العقبة ناحية الجزيرة العربية - علمًا أن البحر الأحمر يصبح فرعين في الشمال: فرع في ناحية مصر وفرع في ناحية الجزيرة العربية، والفرع الذي يتاخم الجزيرة العربية يُدعى خليج العقبة - وكانت القوافل التجارية العربية تمر بمدين في طريقها إلى مصر. الواقع أن مدينة مدين قد اندرست الآن إلا أنه لا تزال هناك قرىً صغيرة حتى اليوم. (أطلس القرآن ص ٩٢-٩٣، وتاريخ أرض القرآن (أردو) المجلد الثاني ص ١١٠-١١١)

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ

مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٥﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

تذُودان: ذادَه يذود ذَودًا وذِيادًا: طرَده ودفَعه. (الأقرب)

خَطْبُكما: الخطب: الأمر العظيم الذي يكثُر فيه التخاطب. (المفردات)

يُصدِر: أصدر فلانًا: ذهب به. (الأقرب)

الرِّعاء: مفردُه الراعي، ومن معاني الراعي أيضًا: كلُّ من ولِي أمرَ قومٍ. (الأقرب)

التفسير: فكما أن يعقوب عليه السلام قال إني ﴿لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾(يوسف: ٩٥).. أي لو لم تتهموني بالجنون حيث لا أزال أذكر يوسف كل حين فإني أخبركم بأن لقائي بيوسف وشيك، فيبدو أن موسى عليه السلام أيضًا قد شمّ ريح السكينة والطمأنية لما توجه إلى مدين، قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.. أي حان أن يوصلني ربي إلى حيث قدَر لي الخير والبركة. فاستجاب الله دعاءه حيث إنه لما بلغ ماء مدين وجد عليه قومًا يسقون مواشيهم، ووجد من دونهم امرأتين تمنعان أغنامهما كيلا تختلط وتضيع بين مواشي القوم. فتقدم موسى

إليهما وقال: ﴿ما خَطْبُكما﴾.. أي ما الذي يهمّكما – علمًا أن من معاني الخطب: الشأن، وأيضًا الأمرُ صغر أو كبر (الأقرب) – فقالتا لا نسقي غنمنا إلا بعد أن يذهب هؤلاء الرعاة بمواشيهم لأنّا لا نريد الاختلاط بهم. ثم فكّرتا أنه شخص غريب وربما يُسيء بأهلهما الظن إذ أرسلوا بناهم ولم يأتوا بأنفسهم ليسقوا مواشيهم، فقالتا إن أبانا هو الرجل الوحيد في أهلنا ولكنه شيخ كبير لا يقدر على القيام بهذا العمل. فأشفق موسى عليه السلام على البنتين فسقى لهما أغنامهما، ودون أن يفكر في أجرة أو شكر من قبلهما، ثم ذهب وجلس في ظل شجرة، ودعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنــزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.. أي ربّ، إنني مسافر غريب وحيد في هذا البلد، ولا أملك شيئًا فإني محتاج إلى أي خير تؤتيني إياه. ولم يمض عليه وقت طويل حتى جاءت إليه إحدى البنتين في خجل وحياء وقالت: إن أبي يدعوك ليعطيك أجرَ ما سقيتَ لنا.

ثم يخبر الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.. لما جاء موسى أبا الفتاتين وقص عليه قصته كلها أثناء الحديث، طمأنه الرجل وقال لا تخف الآن فقد نجوت من القوم الظالمين.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ
ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ
هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ
عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

حجج: جمعُ حِجّة، والحِجّة السَنة. (الأقرب)

التفسير: حيث إن البنتين تذهبان إلى الماء يوميًا فيعاكسهما الرعاة الأوباش ويُسمعونهما كلامًا بذيئًا، فاقترحت إحداهن على أبيها أن يستأجر موسى لهذا العمل تخلّصا من هذه المعاناة، وقالت: يا أبانا استأجِرْه لأن أفضل الأجراء من يكون قويًا وأمينًا. يبدو أن موسى عليه السلام لما سقى الغنم دفَع الرعاة بقوة وشجاعة فعلمت الفتاتان أنه قوي، ولما توجه إلى الظل غاضَّ البصر عن الفتاتين فأيقنتا أنه أمين، أما أبوهما فكان قد علم ذلك سلفًا عندما سمع منهما قصته؛ ولكنه كان لا يملك من المال إلا تلك المواشي، فلم يلبث أن اقترح على موسى عليه السلام أن يزوّجه إحدى ابنتيه شريطة أن يخدمه ثمانية أعوام، ثم قال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.. أي أطلب منك الخدمة ثمانية أعوام ولن أُصر على أن تكمل عشر سنوات، أما إذا زدت على الثماني سنتين من عندك فتكون منة عظيمة منك عليّ، ولن أكون قاسيًا عليك بل ستجدني إن شاء الله حسنَ المعاملة. فقال موسى عليه السلام حسنٌ لقد تمت هذه المعاهدة بيني وبينك وأنا مخير في أن أقضي أيَّ الأجلين شئتُ، ولا تتوقع مني أن أكمل عشر سنين. وحيث إن هذه المعاملات بحاجة إلى الشهود فأُشهدُ الله على ما قد تمّ بيني وبينك.

وبناءً على هذه الآيات أقول لمن يستشيرني في مقدار المَهر عند الزواج إن مقداره ما يكسبه المرء في ستة أشهر إلى سنة، وذلك لسببين: أوّلاهما أن سيدنا المسيح الموعود عليه السلام قد اشترط بأمر الله عز وجل على كل من يريد الانخراط في "نظام الوصية" أن يدفع عُشر دخله.. وهذا يعني أنه عليه السلام قد اعتبرها تضحية كبيرة، ولذلك أرى أن دفع المرء عُشر دخله مهرًا لزوجته - بالإضافة إلى ما عليه من نفقات شتى-

لتضحيةٌ كبيرة بحيث إن صاحب مثل هذه التضحية قد وُعد عليها بالجنة في نظام "الوصية"، ولذلك أرى أن ما يكسبه المرء في السنة - وهو عُشر ما سيكسبه في عشر سنوات - لمبلغٌ كافٍ كمهر لزوجته، بل أرى أنه أقصى حد للمهر. وثانيهما: أن هذه الآيات أيضًا تدعم موقفي كما بيّنتُ من قبل، إذ ورد فيها أن حما موسى عليه السلام قد طلب منه خدمة ثماني سنوات كمهر للزواج، أما أن يزيد عليها سنتين فهو مخير في ذلك، وهذا يعني أن الله تعالى قد اعتبر ثُمن دخل موسى بل عُشره أيضًا أقصى حد للتضحية؛ ذلك لأن من البديهي أن موسى عليه السلام كان لا يأكل ولا يشرب في هذه السنين الثماني أو العشر من ماله الخاص، بل كان حموه هو الذي ينفق عليه وعلى زوجته أيضًا، ونظرًا إلى هذه النفقات يمكن القول إن عُشر كل الأجرة التي قد استحقها موسى فعلاً كان يبقى عند حميه باعتباره مهرًا لابنته.

أما حمو موسى عليه السلام فتخبرنا التوراة في مكان أن اسمه "يثرون" (الخروج ٣: ١)، بينما يقول في مكان آخر إن اسمه "رَعُوئيل" (الخروج ٢: ١٨). أما القرآن الكريم فلم يذكر اسمه، بيد أن المفسرين قالوا أن حماه هو شعيب عليه السلام الذي بُعث إلى قوم مدين (ابن كثير). ولكنه خطأ عندي، إذ يتضح من القرآن الكريم أن موسى عليه السلام بُعث بعد هلاك قوم شعيب عليه السلام، حيث قال الله تعالى بعد ذكر هلاكهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾(الأعراف:١٠٤). فما دام القرآن قد صرح أن موسى بُعث بعد دمار قوم شعيب - عليهما السلام - فكيف يقال أن شعيبًا هو حمو موسى؟ ثم يورد القرآن الكريم في مكان آخر قول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾(هود:٩٠). ويتضح من هذا أنه بُعث بعد لوط - عليهما السلام - بزمن قريب. إذًا، فاعتبار شعيب معاصرًا وحمًا لموسى قول غير سليم بحسب هذه الآيات. وسواءً كان اسم حميه "يثرون" أو "رعوئيل" أو غيره إلا أنه كان شخصًا غير شعيب عليه السلام، إذ كان قوم شعيب قد هلكوا قبل

موسى بزمن طويل، ولم يبق في عصر موسى إلا آثار من ذريتهم، وكانوا قد فقدوا عزهم ومجدهم.

لقد أوضح القرآن الكريم في مستهل هذه السورة أن ما يذكره من وقائع موسى قبل بعثته ليس نقلاً لما ورد في التوراة، بل إنها هي الوقائع الصحيحة من حياة موسى عليه السلام، كما أوضح القرآن الكريم أنه لم يسردها كقصة فحسب، بل إن فيها آيات عظيمة لقوم مؤمنين.. أي على المؤمنين أن يوقنوا بأن الله تعالى كما نصر موسى وجعل بواسطته شعبه المستضعَف المقهور ملوكًا في الدنيا، كذلك فبرغم أن الذين آمنوا بمحمد ﷺ سيُضربون ويهانون كبني إسرائيل، وسيضحون بأنفسهم وأموالهم وأجيالهم في سبيل الله تعالى، إلا أنه تعالى سيعاقب الملوك الجبابرة – مثل فرعون – الذين لا ينصاعون لأحكامه تعالى، ويمزق ملكهم كل ممزق كما مزّق مُلك فرعون من قبل وجعل بني إسرائيل وارثين للنعم التي كان يتمتع بها هو وقومه. والحق أن كل صفحة من تاريخ الإسلام شاهدة على صدق هذه النبوءة وتمثّل دليلاً بينًا على صدق النبي ﷺ.

ثمة اختلافات بين ما ورد في القرآن الكريم و التوراة حول هذه الأحداث، وإليك بيانها:

الأول: لم تذكر التوراة أن الله تعالى هو الذي أمر أمّ موسى عليه السلام بالوحي بأن تطرحه في النهر إذا خافت على حياته، بل تقول التوراة أن أمه اتخذت هذا التدبير من عند نفسها، بينما يبين القرآن الكريم أن فكرة إلقائه في النهر لم تخطر ببالها من تلقائها، بل إن الله تعالى هو الذي أمرها بذلك بوحيه. والحق أنه لو كان هذا التصرف فعلاً شخصيًا لأم موسى ولم يكن مصحوبًا بتأييد الله ونصرته لما تبعتْه الأحداث التي تتعلق بتربيته في القصر الملكي. فهذه الأحداث دليل على أن كل ما حدث قد تمّ بحسب مشيئة الله وتدبيره.

والثاني: تقول التوراة إن أمّ موسى "أخذت له سَفَطًا من البَرْديِّ وطلتْه بالحُمَر والزِّفت، ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحَلْفاء على حافة النهر" (الخروج ٢: ٣).

وهذا يعني أن أمّه لم تجرؤ، بحسب التوراة، على إلقائه بيدها في ماء النهر ليأخذه الماء، بل غاية ما فعلته أنها خبّأته بين الحَلْفاء على حافة النهر. ثم تذكر التوراة أن ابنة فرعون ذهبت للاغتسال على النهر فرأت سلّة بين الحَلْفاء، فأرسلت صديقاتها ليأتين بها، حيث ورد:

"فنـــزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر. فرأت السفط بين الحلفاء، فأرسلتْ أَمَتَها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي. فرقّت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كَبُر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابنًا ودعتْ اسمه موسى، وقالت: إني انتشلتُه من الماء." (الخروج ٢: ٥-١٠)

ولكن الغريب أن التوراة تقول من جهة أن أمّ موسى خبأته بين الحلفاء وأن ابنة فرعون أخذته من بين الحلفاء، ومن جهة أخرى تقول أن بنت فرعون سمّتْه موسى حيث بيّنْت سبب تسميته بأنها انتشلته من الماء. فما دامت أمّ موسى عليه السلام لم تُلْقِه في الماء بل خبّأته بين الحلفاء على حافة النهر، وحيث إن ابنة فرعون لم تنتشله من الماء بل أخذته من بين الحلفاء، فكيف ادعت أنها سمّتْه موسى لأنها انتشلته من الماء؟ فثبت أن أمّه لم تلقه في ماء النهر أصلاً بحسب التوراة، بينما يعلن القرآن الكريم أن أمه لم تخبئه بين الحلفاء بل وضعته في التابوت وألقته في ماء النهر فجرى به.

الثالث: تتهم التوراة موسى عليه السلام بقتل المصري عمدًا ثم إخفائه في الرمال حيث ورد:

"وحدث في تلك الأيام لما كَبُر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلاً مصريًا يضرب رجلاً عبرانيًا من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحدٌ، فقتَل المصريَّ وطمَره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان

عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال: مَن جعلك رئيسًا وقاضيًا علينا؟ أمفتكرٌ أنت بقتلي كما قتلتَ المصري؟ فخاف موسى وقال: حقًّا قد عُرف الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر، فطلب أن يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون، وسكن في أرض مِدْيان." (الخروج ٢: ١١-١٥)

وهنا أيضًا نجد اختلافًا في بيان القرآن الكريم وبيان التوراة، وكل عاقل إذا تدبر الأمر وجد أن بيان القرآن الكريم هو الأقرب إلى المنطق والصواب. فمثلاً تزعم التوراة أن موسى عليه السلام لما رأى فردًا من قومه يتشاجر مع المصري التفت يمينًا وشمالاً ليطمئن بعدم وجود شرطي هناك، ثم تقدَّم وقتل المصري وأخفاه في الرمال. وهذا يعني أن التوراة تتهم موسى بالقتل عمدًا، حيث كان ينوي قتل المصري عن عمد مع سبق الإصرار والترصد ولذلك نظر يمينًا وشمالاً، وحين اطمأن أنه لا يراه أحدٌ قتَله وأخفاه في الرمال، ولكن القرآن الكريم يعلن أن موسى عليه السلام لم يتقدم لمساعدة العبراني لما رآه يتقاتل مع المصري بل العبراني نفسه استنجد به، فتقدم لمساعدته بدون أن يلتفت يمينًا وشمالاً، ولكَم المصري بدون أي إرادة لقتله، ولكن اللكمة، لسوء الحظ، أصابت المصري في مكان حساس فمات. فالقرآن الكريم يُبرئ ساحة موسى عليه السلام من القتل العمد، ولكن التوراة تعتبر موسى نبيًا من جهة، ومن جهة أخرى تتهمه بكل جسارة بقتل المصري عمدًا.

ثم إن القرآن الكريم يختلف مع التوراة في حادث اليوم التالي ويعلن أن نفس العبراني كان يتشاجر مع مصري آخر، ولكن التوراة تقول أن الشجار كان بين اثنين من العبرانيين هذه المرة. والواقع أن الخصام لو كان بين عبرانيين فما كان لموسى أن يتدخل بينهما، إن تدخله يؤكد أن هذا الشجار أصبح قضية قومية دفعته للتدخل.

ثم تقول التوراة: "فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبَك."

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كان المتخاصمان كلاهما من قوم موسى عليه السلام فكيف عرف موسى المذنبَ منهما، ولأي سبب أخذ يعنّفه؟ فثبت من ذلك أن التوراة قد أخطأت في قولها أن المتخاصمين هذه المرة كانا عبرانيين، بل الحق ما

ذكره القرآن الكريم؛ أي أن أحدهما كان مصريًا والآخر عبرانيًا. وحيث إن التوراة قد أصبحت عرضة للتحريف بأيدي البشر فقالت أن الشجار وقع بين اثنين من العبرانيين.

ثم إن العهد الجديد أيضًا لم يذكر الحادث الحقيقي بل اعتبر موسى مجرمًا، إذ ورد فيه:

"وفي اليوم الثاني ظهر لهم وهم يتخاصمون، فساقهم إلى السلامة قائلاً: أيها الرجال أنتم إخوة لماذا تظلمون بعضكم بعضًا؟ فالذي كان يظلم قريبَه دفَعه قائلاً: مَن أقامك رئيسًا وقاضيًا علينا؟ أتريد أن تقتلني كما قتلتَ المصريَّ بالأمس؟ فهرب موسى بسبب هذه الكلمة، وصار غريبًا في أرض مَدْيان حيث ولَد ابنَين." (أعمال الرسل ٧: ٢٦ — ٢٩)

ولكن هذا خطأ كما أسلفت، والواقع أن أحد المتخاصمين في اليوم التالي كان مصريًا والآخر عبرانيًا، والمتشاجر العبراني هذه المرة أيضًا كان نفس الذي كان البارحة، ولذلك قال لموسى: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ لو كان عبرانيًا آخر فكيف علِم، يا ترى، بما حصل بالأمس وأن موسى هو قاتلُ المصريِّ؟ الحق أن هذه الكلمات من العهد القديم والجديد نفسها تمثّل شهادة داخلية منهما على أن المتخاصم العبراني في الصباح لم يكن شخصًا جديدًا، بل كان نفس العبراني الذي كان يتخاصم بالأمس.

فمن المستغرب أيضًا أن الكتاب المقدس يقول من جهة أن موسى خبّأ القتيل المصري في الرمال.. أي أن أمر قتله ظلّ سرًّا مكتومًا، ولكنه يعود فيقول أن عبرانيًا آخر قال لموسى في الصباح أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ أي أن الحادث كان قد أصبح مشهورًا بين القوم. مع أن القتيل إذا كان قد دُفن في الرمال دون أن يراه أحد فلا يمكن أن يعلم قاتلَه إلا شخص واحد وهو العبراني المتشاجر البارحة. فثبت أن هذه الجملة لا يمكن أن يتفوه بها أحد إلا الذي شهد حادث القتل بالأمس، خصوصًا وأن الكتاب المقدس يخبر أن القتيل كان قد خُبِّئ في الرمال ولم يعلم أحد بما حدث معه.

والرابع: تقول التوراة أن موسى عليه السلام لما هرب ووصل إلى مدين:

"جلس عند البئر، وكان لكاهن مِدْيان سبعُ بنات، فأتين واستقين وملأن الأجرانَ ليسقين غنم أبيهن. فأتى الرعاة وطردوهن، فنهضً موسى وأنجدهن وسقى غنمهن." (الخروج ٢: ١٥ – ١٧)

وهنا عدة أمور جديرة بالانتباه وهي:

أ: تقول التوراة أن سبعة بنات لكاهن مديان جئن إلى البئر، بينما يقول القرآن الكريم إن ابنتين جاءتا إلى البئر لسقي الغنم. ذلك لأن القرآن الكريم اكتفى بذكر الكبيرتين منهن إذ كان أمر الزواج سيُناقَش فيما بعد، بينما ذكرت التوراة بناته كلهن الصغيرات منهن والكبيرات.

ب: يخبرنا القرآن الكريم أن الابنتين لم تتقدما لسقي غنمهما خجلاً وحياءً من الرعاة، بل دفعتا غنمهما عن البئر حتى يفرغ الرعاة ويذهبوا. ولكن الكتاب المقدس يخبر أن البنات كن يسقين، فجاء الرعاة ومنعوهن، مع أنهن لو كنّ قد وصلن إلى البئر وكنَّ يسقين قبلهم، فلا يُعقل أن يمنعوهن.

ج: يبدو من بيان الكتاب المقدس أن الرعاة حين طردوا البنات تقدم موسى عليه السلام وساعدهن، وهذا يعني أنه تشاجر معهم، ولكن القرآن الكريم يخبر أن موسى عليه السلام لم يتشاجر مع الرعاة، بل انحصرت مساعدته للبنتين في أنه أخذ غنمهما وسقاها. والعقل أيضًا يؤيد بيان القرآن الكريم إذ كان موسى عليه السلام غريبًا عديم الحيلة لا نصير له ولا معين هناك، فكيف يمكن أن يدفع نفسه إلى الشجار والقتال؟ إنما قام بمساعدة البنتين وسقي غنمهما بعاطفة الخدمة والشفقة فقط.

ثم يخبر الكتاب المقدس أن البنات لما حكين القصة لأبيهن قال لهن: "لماذا تركتن الرجل؟ ادعونه ليأكل طعامًا" (الخروج ٢: ٢٠)، ولكنه لا يخبر عن عدد البنات اللواتي ذهبن لدعوة موسى عليه السلام. بينما يخبر القرآن الكريم أن بنتًا واحدةً فقط ذهبت إلى موسى في خجل وحياء وبلّغته رسالة أبيها.

ثم إن الكتاب المقدس لا يتحدث عن المعاهدة التي أُبرمت بين موسى عليه السلام وحميه، وإنما اكتفى بقوله: "فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل" (الخروج ٢: ٢١)، مع أنه كان لزامًا عليه أن يذكر أن حما موسى رضي بإسكانه عنده، أما بالنسبة إلى موسى فإن موافقته على الإقامة مسألة بديهية؛ إذ كان يبحث عن ذلك. أما القرآن الكريم فيخبر صراحة عن عقد معاهدة بينهما وأن موسى رضي بخدمة حميه ثماني سنين أو عشرا.

وبرغم أن الكتاب المقدس لا يذكر شيئًا عن هذه المعاهدة إلا أنه يعترف "أما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مِدْيان" (الخروج ٣: ١)، وهذا يؤكد أن موسى عليه السلام كان يعمل عند حميه بحسب المعاهدة التي ذكرها القرآن الكريم.

إذًا، فمن فضائل القرآن الكريم أنه قد قام بسرد الوقائع الصحيحة من حياة موسى عليه السلام رغم نـــزوله بعده بألفي سنة، أما التوراة فرغم أنها تُدعى كتاب موسى إلا أنها أهملت ذكر عدة أحداث هامة، كما أخطأت في بيان وقائع أخرى، ولذلك قد صرح القرآن الكريم في مستهل هذه السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.. أي أنها آيات الكتاب الذي يبين كل أمر ضروري.. أي مما لا شك فيه أن التوراة أيضًا كتاب، ولكنها أصبحت غير صالحة للانتفاع منها إذ قد تعرضت للعبث والتحريف على أيدي البشر، إنما الكتاب المبين الذي يكشف الأسرار المكتومة كلها ويذكر الأحكام الضرورية كلها مقرونةً بأدلتها فإنما هو القرآن الكريم فقط، وهو الكتاب الوحيد الذي إذا اتبعه البشر نالوا النجاة.

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا

نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ
ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣١﴾ وَأَنۡ
أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ
يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣٢﴾ ٱسۡلُكۡ
يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ
فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٤﴾ وَأَخِي
هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ
إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٥﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ
وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ
ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

آنس: آنسَ الشيءَ: أبصرَه؛ وآنسَ الصوتَ: سمِعه وأحسّ به. (الأقرب)

جذوة: الجذوة: الجمرة الملتهبة. (الأقرب)

تصطلون: اصطلى بالنار اصطلاءً: استدفأَ بها. (الأقرب)

شاطئ: شاطئ الوادي: جانبُه. (المفردات)

تهتزُّ: اهتزّت الإبلُ: تحركت في سيرها؛ واهتزّ الماء في جريانه: تطلَّقَ. (الأقرب)

جانٌّ: اسمُ فاعل مِن جَنَّ؛ واسمُ جمع للجنّ؛ وحيّةٌ بيضاء كحلاء العين لا تؤذي. (الأقرب)

رِدْءًا: الرِّدء: العون؛ الناصر. (الأقرب)

التفسير: اعلم أن قول الله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لا يعني أن الشجرة صاحت قائلة: إنني أنا الله رب العالمين، بل المراد أن الله تعالى أوحى عندها إلى موسى فكان يسمع صوت الوحي كأنه منطلق من الشجرة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فالمراد من الجناح بنو إسرائيل، والمعنى أن ابتعادهم عن نفسك يا موسى سيكون مدمرًا، فعليك أن تضمهم إلى نفسك دائمًا وتقوم بتربيتهم جيدًا حتى لا يغفلوا عن الدين.

وهنا أيضًا نجد بعض الاختلافات بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم، وإليك بيانها:

أولاً: يقول الكتاب المقدس أن موسى عليه السلام خرج ذات يوم بغنم حميه أثناء إقامته في مدين ووصل إلى جبل حُوريب، "وظهر له ملاك الرب بلهيب نارٍ مِن وسط عُلَّيقة" (الخروج ٣: ١-٢)، فأمره الله تعالى هناك بالذهاب إلى فرعون. ثم ورد في الكتاب المقدس نفسه أن موسى عليه السلام "رجع إلى يثرون حميه وقال له أنا أذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعدُ أحياء. فقال يثرون لموسى: اذهب بسلام. وقال الرب لموسى في مديان: اذهب ارجعْ إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك. فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير، ورجع إلى أرض مصر" (الخروج ٤: ١٨-٢٠).

ولكن القرآن الكريم يخبر أن موسى عليه السلام لم يذهب إلى الجبل لرعي الغنم، بل مر بالجبل وهو مسافر مع أهله إلى جهة ما بعد قضاء سنوات خدمته عند حميه، فأوحى الله إليه عندها وجعله رسولاً وأمره بالذهاب إلى فرعون.

ثانيًا: يقول الكتاب المقدس أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون رفض الذهاب إليه مرارًا حيث ورد "فقال موسى لله: مَن أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أُخرج بني إسرائيل من مصر" (الخروج ٣: ١١)، بل قال أيضًا "استمعْ أيها السيد، أرسِلْ بيَد مَن تُرسل" (الخروج ٤: ١٣). وتخبر التوراة أن موسى عليه السلام لما رفض مرارًا وتكرارًا "فحمي غضب الرب على موسى." (الخروج ٤: ١٤)

وهذا يعني أن التوراة تعلن أن موسى عليه السلام أصبح - والعياذ بالله - أول هدف لغضب الله الذي لا ينـــزل إلا على أعدائه وأعداء رسله، ولكن القرآن الكريم يبرئ ساحة موسى عليه السلام من هذه التهم معلنًا أن الله تعالى قال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾.. أي يا موسى لا خطر عليك، بل أنت من الذين يشملهم السلام من عندَ الله تعالى. ثم إنه تعالى لم يعد موسى وهارون بغلبتهما فحسب، بل بشّرهما بغلبة المؤمنين بهما أيضًا. وباختصار إن الكتاب المقدس يعتبر موسى عليه السلام عرضةً لسخط الله وغضبه، ولكن القرآن الكريم يعلن أنه كان موردًا لنعم الله وبركاته.

ثالثًا: تقول التوراة "ثم قال له الرب أيضًا أدخِلْ يدك في عُبّك. فأدخلَ يده في عُبّه ثم أخرجها، وإذا يده برصاءُ مثل الثلج." (الخروج ٤: ٦)

ولكن القرآن الكريم يخبر أن الله تعالى قال لموسى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.. أي ستبدو يدك بيضاء نورانية كآية من الله تعالى، وليس بسبب مرض الجذام كما تزعم التوراة.

رابعًا: تقول التوراة أنه لما حمي غضب الله على موسى قال له: "أليس هارونُ اللاويُّ أخاك؟ أنا أعلم أنه هو يتكلم. وأيضًا ها هو خارجٌ لاستقبالك. فحينما يراك يفرح بقلبه. فتكلِّمه وتضع الكلمات في فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه،

وأعلّمكما ماذا تصنعان. وهو يكلّم الشعبَ عنك، وهو يكون لك فمًا، وأنت تكون له إلهًا." (الخروج ٤: ١٤- ١٦)

لقد ثبت من هذه العبارة أن الله تعالى إنما بعث هارون رسولاً مع موسى إظهارًا لغضبه عليه، ولكن القرآن الكريم يدحض هذا الزعم ويوضح أن موسى عليه السلام نفسه توسل إلى الله تعالى أن يبعث هارون ليؤازره وينصره، حيث ورد في القرآن الكريم قول موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، فاستجاب الله دعاءه وبعث معه هارون نبيًا. إذًا، فإن القرآن الكريم يعتبر بعثة هارون نبيًّا مع موسى نتيجةً لدعائه ومنّةً إلهية عليه، ولكن التوراة تزعم أن الله تعالى غضب على موسى فأمره أن يأخذ معه هارون أيضًا.

خامسًا: تقول التوراة أن الله تعالى اعتبر هارون أخًا لموسى كونه من قبيلة بني لاوي فقط، وليس لأنه كان شقيقًا له أو أخًا من أمّه، ولكن القرآن الكريم يعتبر هارون شقيقًا لموسى أو أخًا من أمه على الأقل، حيث أخبر الله تعالى أن هارون قال لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾(طه:٩٥).. علمًا أن كلمة ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ أصلها: يَا ابْنَ أُمِّي.

إذًا، فإن ما أعلنه الله تعالى في مستهل هذه السورة بقوله: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قد تجلى صدقه تمامًا من خلال الاختلاف الموجود بين القرآن الكريم والتوراة حول هذه الوقائع.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ
لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٨﴾

التفسير: أي لما جاء موسى فرعونَ وملأه بآياتنا البينات اعتبروها سحرًا عوضًا عن أن ينتفعوا منها. علمًا أن السحر يطلق في اللغة على "كلّ ما دقَّ ولطُف مأخذُه، وعلى إخراج الباطل في صورة الحق، وعلى الغش والخداع، يقال سحره: خدَعه (الأقرب). فالمراد من قول فرعون: ﴿مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ أن ما يقول لكم موسى إنما هو خداع عظيم، أو أنه باطل يُقدَّم في صورة الحق، أو أنه مكر يمكره لإغوائكم.

ولما كان من الوارد أن يتساءل القوم: مِن أين تعلم موسى هذا المكر، فقال فرعون: ﴿سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾.. أي قد اختلق موسى هذا السحر من عنده، فادعاؤه أن هذه آيات من عند الله مجرد فرية اختلقها ليضل الناس عن دينهم.

ثم استعمل فرعون سلاحًا آخر لإثارة القوم ضد موسى فقال: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾.. أي لقد كان آباؤنا أذكياء وحكماء ولكن هذا يظن أنه أذكى من آبائنا الذين ضربوا أروع الأمثلة لحكمتهم وذكائهم، ويريد أن يوجهنا إلى طريق غير طريق أسلافنا، وإذا كان ما يدعونا إليه حقًا لعُدَّ آباؤنا أغبياء جهلاء إذ لم يستطيعوا أن يروا النور الذي رآه موسى. وقد استعمل فرعون لإثارة الناس ضد موسى نفس السلاح الذي لم يزل أعداء الحق على مر العصور يستعملونه لإثارة القوم ضد أنبيائهم.

وانظر إلى روعة جواب موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.. لقد اتهمتموني بالافتراء على الله تعالى، مع أنه حري بكم أن تفكروا بأني أدعي مرة بعد أخرى بأني من عند الله تعالى، أفليس الله بكاف أن يُعاقبني على افترائي؟ ترون أن الحكومات الدنيوية أيضًا لا تسكت على الافتراء والتزوير، فمثلاً إذا خدع أحد الناسَ بادعائه زورًا بأنه موظف حكومي ألقت الحكومة القبض عليه وزجّته في السجن، فكيف يمكن أن يتركني الله تعالى بدون عقاب وهو يعلم أنني أفتري عليه؟ كلا، بل إن الله أعلم بمن جاء بالهدى من عنده وهو الأعلم من يكون له الفتح والغلبة في نهاية

المطاف. فاتركوا أمري في يد الله ليحكم بنفسه ولا تتهموني بالكذب والافتراء عليه تعالى، فلو كنت مفتريًا عليه فسيقطع بيده عنقي فأرى مصيرًا كمصير جميع المفترين في العصور كلها. أما إذا كنت من عند الله تعالى الذي قد بشرني بالنجاح والغلبة، فيمكن أن تقدروا زخم الجريمة التي ترتكبونها باتهامي بالافتراء..

والحق أن ما قاله موسى عليه السلام هنا يماثل ما قاله المسيح الموعود عليه السلام مخاطبًا المعارضين حيث كتب ما تعريبه:

"الدنيا لا تعرفني، ولكن الذي بعثني يعرفني. إنه لخطؤهم الفاحش وشقاوتهم الشديدة أنهم يريدون إبادتي. إنني ذلك الغراس الذي غرسه المالك الحقيقي بيده. فمن يريد قطعي فإنما يريد أن ينال نصيبًا من مصير قارون ويهوذا الأسخريوطي وأبي جهل." (ضميمة تحفة جولروية (أردو)، الخزائن الروحانية ج ١٧ ص ٣٩٩-٤٠٠)

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.. أي أن الدليل على صدقي أن الله تعالى سيكتب لي النجاح والغلبة، وأما أنتم فسيحل بكم العذاب من جراء الظلم الذي ارتكبتموه باتهامي بأني أفتري على الله تعالى.

ويراد بلفظ ﴿الظالمون﴾ من يفتري على الله تعالى، كما يراد به أيضًا من يُكذِّب المدعي الصادق المبعوث من عند الله تعالى، حيث قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾(العنكبوت:٦٩).. أي أن أظلم الناس شخصان: أحدهما من يفتري على الله تعالى، وثانيهما من يُكذِّب النبي الصادق. إذًا، فإن موسى عليه السلام قد حذر فرعون بقوله : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي إذا كان الافتراء جريمةً لا تُغتفر، فإن تكذيب المدعي الصادق أيضًا ظلم عظيم، فلا تفرحوا بكيل السباب والشتائم لي، بل فكِّروا في مصيركم، فلربما قد أصبحتم بتكذيب نبي صادق من الظالمين.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا
لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٣٩﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟
أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ
فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

صرحًا: الصرح: القصرُ؛ وكلُّ بناء عال. (الأقرب)

التفسير: وحيث إن موسى عليه السلام كان يقدم لفرعون وجود الله تعالى دليلاً على صدقه، ويقول له مرة بعد أخرى إن ربه يعلم أنه من عنده وأنه يبشره بحسن العاقبة والنجاح، كما أن آيات الله وتأييداته شاهدة على صدقه، فتوجَّه فرعون إلى حاشيته وقال لا أرى لكم إلهًا غيري، فلا أدري من هذا الإله الذي يتحدث عنه موسى مرة بعد أخرى. ثم دعا فرعون من فورة حماسه وقال لهامان اعمَل اللِّبن وابنِ مبنى عاليًا لأصعده: ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾. ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.. أي لا يظنن أحدكم أني قد أمرت ببناء صرح عالٍ مقتنعًا بوجود إله يذكره موسى، إنما أريد أن أكشف للناس زيف ادعائه حيث ترى الدنيا أني قد بنيت هذا الصرح الشامخ وصعدت عليه لأرى هل هناك من أثر لإله يذكره موسى، ولكني لم أر شيئًا.

الواقع أن الشعوب القديمة كان لديها اعتقاد راسخ أن الأرواح السماوية تنـزل على الأبراج العالية، بل كانوا يتصورون أن الله نفسه ينـزل عليها، والدليل على ذلك ما ورد في الكتاب المقدس كالآتي:

"وكانت الأرض كلُّها لسانًا واحدًا ولغةً واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة في أرض شِنْعَار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلمّ نصنعْ لبنًا ونشويه شيًّا. فكان لهم اللِّبْن مكانَ الحجر وكان لهم الحُمَر مكان الطين، وقالوا: هلم نبني لأنفسنا مدينةً وبرجًا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسمًا لئَلاَّ نتبدد على وجه كل الأرض. فنـزل الرب لينظر المدينةَ والبرج اللذين كانا بنو آدم يبنوهما." (التكوين ١١: ١-٥).

إذًا، إن نـزول الله تعالى على الأبراج العالية اعتقاد قديم، فأمر فرعون ببناء قصرٍ عالٍ ليثبت للناس كذب موسى ويقول أيها القوم هل هناك دليل أكبر على كذبه من هذا؟ فإني بنيت قصرًا شامخًا ومع ذلك لم ينـزل عليه إلهه؟!

باختصار إن فرعون وجنوده أيضًا تكبَّروا وتجبَّروا بدلاً من أن يؤمنوا بما أتاهم به موسى من الهدى والتعليم، وظنوا أنهم لن يحضروا عند الله تعالى للحساب، ولكنا أخذناه مع جنوده في نهاية المطاف عقابًا على بغيهم وتمردهم. فالذي كان يحلم أن يرانا على قمة برج شامخ أريناه تجلِّينا في قعر البحر، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. لقد سبق أن حذرهم موسى من هذا المصير حين قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾، ولكنهم لم يأبهوا بإنذاره مغرورين بقوتهم ومُلكهم، وقالوا من ذا الذي يستطيع أن يضرنا ويهلكنا؟ ولكن وقع المحذور الذي أنذرهم منه موسى، فأصبح موسى من الناجحين، بينما رأى فرعون بأم عينيه مصيره التعيس.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾﴾

شرح الكلمات:

المقبوحين: قبَحه الله عن الخير قَبْحًا: نحّاه عنه. (الأقرب)

التفسير: أي أننا جعلنا هؤلاء القوم زعماء لقومهم وهداة لهم، ولكنهم أخذوا يدعونهم إلى الدمار، فحُرموا من نصرة الله في الدنيا، ولن يكون لهم نصير ولا معين يوم القيامة أيضًا. لقد ساقوا قومهم إلى الدمار في الدنيا فلعنّاهم في الدنيا، أما في يوم القيامة فسيكونون من البائسين. وبالفعل ترى أنه برغم انقضاء أكثر من ثلاثة آلاف سنة على زمن موسى لا يزال الناس يصلّون عليه عليه السلام، وسيظلون كذلك إلى يوم القيامة. أما فرعون فكل شعب في الدنيا يلعنه، وستنـزل عليه اللعنة يوم القيامة أيضًا.

الواقع أن الله تعالى إذا لعن قومًا في زمن فلا تتوقف اللعنة عندها بل تستمر. ومثاله أن النبي ﷺ خرج في إحدى الغزوات ونـزل في طريقه بديار أصحاب الحِجر بعض الوقت، فأخرج الصحابة الدقيق وأخذوا يعجنونه ليعدّوا الطعام، فلما رآهم النبي عليه السلام أصابه القلق، فأمرهم أن يطرحوا العجين ويخرجوا من ذلك المكان لأنه مكان قد حل به غضب الله تعالى على قوم (البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: وإلى ثمود أخاهم صالحًا). فترى أن أصحاب الحِجر الذين غضب الله عليهم قد ماتوا وبادوا، وكانت مدينتهم المغضوب عليها قد خربت واندرست منذ أحقاب وقرون، ولكن الرسول ﷺ رأى أن عذاب الله تعالى لا يزال ينـزل عليها، فلم يأمر أصحابه بالرحيل من ديارهم فحسب، بل أمرهم ألا يأخذوا معهم مالهم؛

أعني العجين الذي أعدّوه للخبز، وقال لا يحل لكم أكل العجين الذين أعددتموه بماء هذا المكان.

أتذكر حادثًا مماثلا وقع مع الخليفة الأول ﷺ، وبيانه أن حضرته كان يحب عبد الحكيم البتيالوي كثيرًا قبل ارتداده عن الأحمدية، وكان هو الآخر يُكنّ لحضرته حبًا جمًا حتى إنه كتب إلى المسيح الموعود ﷺ عندما ارتد وبدأ في المعارضة: ليس في جماعتك إلا المولوي نور الدين الذي هو نموذج للصحابة، ولا ريب أنه مفخرة لهذه الجماعة. وكان هذا الرجل قد قام بتفسير القرآن أيضًا وكتب معظمه مستعينًا بالخليفة الأول ﷺ، ولكنه لما أعلن ارتداده رأيت أنا بأمّ عيني أن الخليفة الأول أصيب بذعر شديد، فدعا بعض تلاميذه وأمره بإخراج تفسير عبد الحكيم من مكتبته كي لا ينـــزل عليه أيضًا سخط الله تعالى بسبب وجود تفسيره عنده. فبرغم أن الكتاب هو تفسير القرآن الكريم وقد كتب الرجل معظمه بمساعدة الخليفة الأول ﷺ، إلا أن حضرته ﷺ أمر بإخراج تفسيره من مكتبته، لأن الرجل صار موردًا لغضب الله تعالى.

كذلك حصل بفرعون الذي كان يعتبر نفسه إله المصريين، وكان يقول في زهوه وغروره: "لا أدري ما هذا الإله الذي يدعو إليه موسى"، فلا تزال لعنة الله تعالى تنـــزل عليه حتى اليوم رغم مرور ثلاثة آلاف سنة، فكل من يذكر اسمه أو يرى مومياءه المحفوظة في القاهرة كآية من الله تعالى، لا تتولد في قلبه مشاعر الاحترام تجاهه، بل يكرهه ويحتقره.

لقد ذكر الله تعالى هذه الوقائع أمام أهل مكة ليبين لهم أن فرعون كما حارب موسى كذلك يحرض أبو جهل أهل مكة على محمد ﷺ، ولكن عليهم أن يتذكروا أن كل من ينبري لحرب محمد ﷺ سيُدمر وستلعنه الأجيال إلى يوم القيامة كما هلك فرعون مع جنوده ولا تزال الدنيا تلعنه حتى اليوم. وبالفعل ترى أن الناس يلعنون إلى اليوم أبا جهل وغيره من رؤساء مكة الذين آذوا النبي ﷺ أذى شديدًا، بل إن ذرياتهم لا تريد الانتماء إليهم خوفًا من الفضيحة، أما محمد ﷺ فيثني عليه

الناس ويحمدونه في كل مكان في العالم، إذ لا يوجد قطر ولا بلد في الدنيا إلا ويوجد فيه قوم يصلّون ويسلّمون على محمد ﷺ ويَفدُونه بمُهَجِهم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا
ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى
ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا
فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَا كُنتَ
بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

ثاويًا: الثواء: الإقامةُ مع الاستقرار (المفردات). وثوى بالمكان: أقام. (الأقرب)

التفسير: أي بعد هلاك الأمم الأولى كانت الدنيا بحاجة إلى شريعة جديدة وكانت محرومة من جميع أسباب الخير والبركة، فأنــزلنا على موسى كتابًا يهب للناس بصيرة روحانية وهداية ورحمة، وقد أُعطوه لكي يحدثوا في أنفسهم انقلابًا طيبًا متعظين بهديه ومستنيرين بنوره.

لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أن الغاية من نــزول التوراة لم تنحصر في أن ينتفع الناس من تعاليمها وينالوا بها البصيرة الروحانية التي تمكّنهم من التمييز بين

الخير والشر والتغلب على العدو، بل كان فيها رسالة هداية ورحمة أيضًا.. بمعنى أنها كانت تنطوي على نبوءات عن بعثة الرسول الكريم ﷺ أيضًا، لكي لا يُحرَم أهل الكتاب من تصديق النبي الموعود عند بعثته؛ ومن أجل ذلك ترى أن الله تعالى قد أشار إلى تلك الأنباء في الآيات التالية فقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.. أي يا محمد لم تكن مع موسى بالجانب الغربي حين أمرناه بتبليغ رسالات الله، ولم تكن شاهد عيان على تلك الواقعة.

لقد بين الله تعالى هنا أن المكان الذي رأى فيه موسى عليه السلام التجلي الإلهي على شكل نار لأول مرة كان في الجانب الغربي. وقد يراد منه الجانب الغربي من برية سيناء التي يوجد فيها جبل حوريب بحسب اعتقاد اليهود كما ورد في التوراة (الخروج١٩: ١-٣)؛ حيث تقول أن موسى عليه السلام خرج ذات مرة بالغنم، فساقها إلى "وراء البرية، وجاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عُلِّيقة" (الخروج ٣: ١-٢). ويرى علماء التوراة أن المراد من "وراء البرية" هو الجانب الغربي من برية سيناء. (Through The Bible p.12).

إذًا، فقد يراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أن المكان الذي نـزلت فيه أنوار الله على موسى عليه السلام كان في الجانب الغربي من صحراء سيناء، وقد يراد به أنه كان في الجانب الغربي من الجزيرة العربية.

وجدير بالذكر أن كلمة ﴿الأمر﴾ قد وردت في القرآن الكريم بعدة معان، منها: الخَلق بإذن الله تعالى، وقضاؤه، ووحيه، وقد وردت هنا في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ بمعنى وحي الله وكلامه.. والمعنى: حين كلّفنا موسى بتبليغ وحي الله ورسالته. وقد ورد لفظ ﴿الأمر﴾ بهذا المفهوم في آيات أخرى أيضًا كقوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾(الجاثية:١٨).. أي آتيناهم بينات من الوحي، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾(الحج:٦٨).. أي يجب ألا يخاصموك في كلام الله تعالى لأن فيه هداهم ولكنهم يجهلون حقيقة وحي الله تعالى، فاستمرّ في دعوتهم إليه تعالى.

فالله تعالى يقول في الآية قيد التفسير - مشيرًا إلى النبوءات الواردة عن بعثة رسوله ﷺ -لم تكن، يا محمد، مع موسى حين عهدنا إليه مهمة تبليغ رسالتنا. إذ لو كان موسى معاصرًا لك لقيل أن كليهما قاما بهذه المؤامرة، فمن المحال أن يقال أن موسى قد ادعى الرسالة تنفيذًا لهذه المؤامرة، إذ لم تكن موجودًا في الدنيا حين كلّفنا موسى برسالتنا بل قد خلا قبلك بقرون بل بألفي سنة، فما دام الوحي الذي نــزل عليه يكشف صدقك فثبت أنك مرسل صادق من عند الله تعالى، إذ كيف يمكن أن تتآمر مع موسى الذي كان قبلك بألفي سنة وتقول له أن يدعي النبوة ويدلي بهذه الأنباء ليصدقك الناس بسببها؟! إن موسى ما ادعى النبوة إلا لأن الله تعالى بعثه رسولاً، فإنكار النبوءات الواردة في وحيه عن بعثتك ليس إنكارًا لك فحسب، بل هو إنكار لموسى أيضًا الذي بعثه الله رسولاً.

ثم يبين الله تعالى أن الناس نسوا هذه الأنباء لأننا: ﴿أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾.. أي خلقنا بعد موسى أجيالاً كثيرة ومضت عليها فترة طويلة حتى نسيتْ تاريخها ولم تتذكر أين تجلّينا على موسى، وما هي الأخبار الغيبية التي كشفناها عليه لدى هذا التجلي.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. هذه الآية إشارة إلى الأحداث التي وقعت لموسى وبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر. لقد بين الله تعالى هنا أن موسى عليه السلام لما خرج بهم من مصر أتى إلى أهل مدين ثانية وأقام عندهم، وظل يزيد إيمانهم بإراءة آيات الله فترة طويلة.

تكشف لنا دراسة التوراة أيضًا أن موسى عليه السلام أقام في براري موآب ومدين نفسها بعدما خرج ببني إسرائيل، فخرج حموه للقائه وقدّم له اقتراحات كثيرة لتنظيم بني إسرائيل (الخروج ١٨)، ولكن نساء مدين أملن قلوبهم إلى أعمال وثنية، فأغار عليهم موسى وأباد القوم عن بكرة أبيهم (العدد ٢٥: ٢ والعدد ٣١: ١-٢). كما يتضح من التاريخ أنه بعد دمار مدين أتى حمو موسى إليه ليقيم عنده فأعطاه

أرضًا للإقامة عنده. (قدامة اليهود الكتاب الخامس الباب الثاني نقلاً عن أرض القرآن المجلد الثاني ص ١٩)

إذًا، فهذه الآية: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ تتحدث عن تلك الفترة التي جاء فيها موسى عليه السلام إلى مدين مرة ثانية، وأقام فيها فترة طويلة قضاها في تربية قومه وتنظيمهم.

بيد أنه من الممكن أن تكون هذه الآية تتحدث عن فترة إقامة موسى عليه السلام في مدين أول مرة، حيث أخبر الله تعالى أنه بدأ يُنـــزِل وحيه على موسى وهو لا يزال في مدين، وهنالك تنبأ موسى عن بعثة رسول يأتي من بعده. وقد تكون النبوءة المتعلقة بظهور النبي ﷺ قد نـــزلت على موسى عليه السلام مرتين: مرة أثناء إقامته بمدين، ومرة أخرى على جبل الطور، وذلك كما نـــزلت بعض سور القرآن الكريم مرتين: مرة في مكة المكرمة ومرة في المدينة المنورة. ومهما يكن، فمن المؤكد أن هذه الآية لا تتحدث عن أي نبي سوى موسى؛ إذ إن الحديث كله من أوله إلى آخره عن موسى عليه السلام، فقد ذكر الله تعالى هنا واقعة أخرى لموسى عليه السلام كدليل آخر على صدق محمد ﷺ حين ذهب موسى إلى مدين، حيث نبه الله تعالى أن محمدًا لم يكن مع موسى في مدين حين أدلى بهذه النبوءة عن ظهوره، وإن ما حدث مع موسى في مدين سيحصل مثله مع محمد، فكما أن موسى أصبح مظفرًا منصورًا كذلك سيكون محمد من المنصورين. كما نبّأ الله بذكر إقامة موسى في مدين أن موسى هرب من اضطهاد المصريين ولاذ بمدين، ففتح له رجل صالح من أهلها أبواب بيته، فأقام عنده ثماني سنين أو عشرا، كذلك فإن قوم محمد سيُخرجونه من مكة، فيذهب الله به إلى المدينة، فيقوم قوم من أهلها لنصرته فيفتحون له أبوابهم ويضحون لأجله بالنفس والنفيس. وكما أن موسى مكث في مدين ثماني سنين أو عشرا، كذلك سيقيم محمد (ﷺ) في المدينة ثماني سنين أو عشرا. وبالفعل قد حقق الله هذه المماثلة بين النبيين حيث فتح النبي ﷺ مكة في السنة الهجرية الثامنة ومكث في المدينة عشر سنين.

بيد أن النبي ﷺ يفضل على موسى في هذه المماثلة أيضًا حيث تزوج موسى عليه السلام بعد الهجرة، بينما تزوج النبي ﷺ خديجة قبل الهجرة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.. أي لم تكن يا محمد عند جبل الطور إذ أوحينا إلى موسى وأخبرناه ببعثتك، ولا شك أن هذا الخبر كان رحمة عظيمة من ربك لتنذر قومًا لم يُبعَث إليهم قبلك من نذير ولكي يتعظوا.

لا شك أن أهل مكة كانوا من أولاد إبراهيم عليه السلام، ولكنهم كانوا قد نسوا تعاليمه بحكم مرور قرون طويلة ووقعوا في الشرك والوثنية.

والنبوءة العظيمة التي تلقاها موسى عليه السلام عند جبل الطور بسيناء والمشار إليها في هذه الآية قد وردت في التوراة كالآتي:

"أقيم لهم نبيًا مِن وسط إخوتهم مثلَك، وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلامًا لم أُوصِه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهةٍ أخرى، فيموت ذلك النبي." (التثنية ١٨: ١٨-٢٠).

واعلم أن التوراة تذكر أن موسى عليه السلام قد تلقى هذه النبوءة على جبل الطور بعد خروجه من مصر. إذًا، فهذه هي تلك النبوءة العظيمة التي تشير إليها هذه الآية القرآنية حيث نبه الله تعالى منكري محمد ﷺ وقال: لم يكن محمد موجودًا عند الطور لما تنبأ موسى عن بعثته ﷺ، أم ترون أن موسى قد قام بهذه النبوءة بالتآمر مع محمد؟ فما دامت هذه النبوءة من عند الله خالق السماوات والأرض، وما دامت قد تحققت حرفيًا أمام أعينكم بعد مرور ألفي سنة، فكان حريًا بكم أن تسارعوا إلى الإيمان بهذا النبي الموعود وتذعنوا له لتنالوا نصيبًا من رحمة الله وبركاته التي هي منوطة بالإيمان به، ولكنكم لم تبالوا بهذه النبوءة العظيمة لموسى أيضًا، بل لما ظهر ذلك الموعود الذي كنتم تنتظرونه منذ ألفي سنة أصبحتم أول الكافرين به، ولم تألوا جهدًا في معارضته.

إن تفاصيل هذه النبوءة من سفر التثنية ١٨ غاية في الأهمية، وكلما تدبر فيها الإنسان انكشف عليه صدق النبي ﷺ بصورة أجلى، إذ تخبر هذه النبوءة ما يلي:

أولاً- أن هذا النبي الموعود لن يكون من بني إسرائيل، بل سيكون من إخوتهم.. أي مِن بني إسماعيل.

وثانيًا: أن هذا النبي الموعود سيأتي بشريعة مثل موسى، وأن وقائع حياته ستكون مماثلة لوقائع حياة موسى، إذ ورد فيها: "أقيم لهم نبيًا مِن وسط إخوتهم مثلَك". والبديهي أن النبي الموعود لا يمكن أن يُعتبر مثل موسى إلا إذا كان صاحب شريعة مثله، وكانت هناك مماثلة في وقائع حياتهما.

ثالثًا: قال الله تعالى "وأجعل كلامي في فمه".. أي أن الوحي الذي سينـزل عليه سيكون بكلمات إلهيةً محددة، وليس أنه يبين أحكام الله تعالى بكلماته هو.

رابعًا: ورد في النبوءة: "فيكلّمهم بكل ما أوصيه به".. أي أنه سيلقى المعارضة الشديدة ويواجه أنواع الأخطار في سبيل تبليغ رسالة الله، ولكنه سيظل يبلغها كبطل مغوار غير خائف ولا هيّاب.

خامسًا: ورد في النبوءة أن النبي الموعود سيعرض على الناس تعاليمه باسم الله تعالى. ومن مفاهيم هذه الفقرة أن وحيه سيدحض الشرك دحضًا كاملاً.

سادسًا: أن الذين يكفرون بتعاليمه سيصبحون عرضة لعذاب الله تعالى.

سابعًا: أن الذي اعتبر نفسه مصداقًا لهذه النبوءة على سبيل الافتراء سيُقتل.

لا شك أن ما ورد في التراجم الأردية للتوراة هو: "سيُقتل"، ولكن هذه الترجمة ليست صحيحة، إنما الصحيح ما ورد في التراجم الإنجليزية وهو: (he shall die) .. أي أنه سيهلك.

والتدبر في كل هذه الجزئيات المختلفة لهذه النبوءة يكشف جليًا أن لا أحد كان مصداقًا لها إلا محمد ﷺ، وذلك للأسباب التالية:

أ: إن محمدًا ﷺ هو النبي الموعود الذي وُلد من بين إخوة بني إسحاق أي من بين بني إسماعيل.

ب: إن محمدًا ﷺ هو النبي الموعود الذي أعلن أنه مثيل لموسى والذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾(المزمل:١٦). فكما أُعطي موسى عليه السلام التوراة التي هي كتاب شريعة، كذلك قد أُعطي محمد ﷺ القرآن الكريم الذي هو شريعة كاملة. ثم إن وقائع حياته ﷺ تشبه وقائع حياة موسى عليه السلام. ثم كما بُعث الأنبياء والمجددون بعد موسى باستمرار لإصلاح أمته وتجديد دينه، حتى بُعث أخيرًا المسيح الناصري كخليفة ونائب له بعد ثلاثة عشر قرنًا، كذلك قد أخبر محمد ﷺ بظهور المجددين في أمته في كل قرن (أبو داود: كتاب الملاحم باب ما يذكر في قرن المئة)، ثم بظهور المسيح الموعود في الأخير الذي تتم على يده غلبة الإسلام ونشأته الثانية، حيث قال النبي ﷺ: "لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء" (البخاري: كتاب التفسير، سورة الجمعة).. والمراد من "رجل من هؤلاء".. أي رجل فارسي الأصل.

ت: ثم إن محمدًا رسول الله ﷺ هو النبي الموعود الذي وُضع في فمه كلام الله تعالى حتى قال تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(النجم:٤-٥).. أي أن محمدًا ﷺ لا يبين مشيئة الله بكلماته، بل يعرض على الدنيا ما نـــزل عليه من كلام الله فحسب؛ ولذلك قد سُمي القرآن الكريم أيضًا كلام الله (البقرة:٧٦)، وذلك لأنه من أوله إلى آخره ليس إلا كلام الله، أما صحف الأنبياء الآخرين فإن كلام الله فيها أقل من كلام البشر.

ث: ثم إن محمدًا ﷺ هو النبي الموعود الذي بلّغ الناس كلام الله تعالى بلا نقص ولا زيادة، رغم تعرُّضه لمعارضة شديدة. فلما نـــزل في أثناء حجة الوداع قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(المائدة:٤) قام النبي ﷺ بتذكير المسلمين بواجباتهم مرة أخرى، ثم قال في الأخير: "اللهم هل بلّغتُ"، فقال المسلمون كلهم بصوت رجل واحد: نُشهد الله أنك بلّغتنا جميعًا رسالة الله. (السيرة النبوية لابن هشام: خطبة الرسول ﷺ في حجّة الوداع)

ج: ثم إن محمدًا ﷺ هو النبي الموعود الذي يفتتح كل باب من كتابه بقول الله:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وكأن كل مسلم عندما يبدأ تلاوة سورة من سور القرآن الكريم تتراءى أمامه نبوءة موسى عليه السلام هذه بأن النبي الموعود سيعرض على الناس ما نــزل عليه من كلام الله بقوله: ﴿بسم الله﴾.

ح: ثم ورد في هذه النبوءة أن الذين يكفرون بتعاليم هذا النبي الموعود لن ينجوا من عقاب الله تعالى. وقد تحققت هذه الجزئية من النبوءة أيضًا بشكل جليّ، فإن جميع أولئك الذين قاموا لمعارضة النبي ﷺ هلكوا وبادوا، حتى إن جيوش كسرى وقيصر لما اصطدمت بالمسلمين مزّق الله مُلكهما كل ممزّق.

خ: وتقول هذه النبوءة إن الذي يعتبر نفسه مصداقًا لها كذبًا وافتراءً سيُهلكه الله ويخيّبه. وهذه الجزئية أيضًا تكشف صدق النبي ﷺ بجلاء، إذ يشهد التاريخ أن الأعداء لم يدّخروا وسعًا لقتله متّبعين كل طريق؛ مشروعا كان أم غير مشروع، ولكن الله تعالى أيده بنصره و لم يستطع العدو أن يضره شيئًا.

باختصار، يقول الله تعالى هنا لنبيه ﷺ: يا محمد متى كنتَ مع موسى عند جبل الطور حين أخبرناه بمجيئك؟ أأنت قلت له أن يدلي بهذه النبوءة؟ كلا، إنما هو فعل الله الذي هو عالم الغيب والذي أنبأ ببعثتك قبل ألفي سنة. فما لهؤلاء القوم لا ينتفعون من هذه النبوءات مطلقًا ويصرّون على إنكارك؟ إن الله تعالى لم يُدْلِ بهذه الأنباء قبل مدة طويلة إلا ليؤمن الناس بهذا النبي الموعود فينالوا نصيبًا من رحمة الله، وأيضًا لكي توقظ يا محمد من الرقاد قومًا: ﴿مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾.. أي تقوم بإنذار أهل مكة. لا شك أن أهل مكة كانوا من نسل إبراهيم عليه السلام، ولكنه قد خلا قبلهم بقرون كثيرة، وكذلك لما بُعث إسماعيل في الجزيرة العربية لم يكن نسله قد انتشر فيها بعد، فكان لزامًا أن يُبعث إليهم نبي جديد يدعوهم إلى الله تعالى ويثبّتهم على التوحيد الحقيقي.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٨﴾

التفسير: أي لولا أنه إذا حل بهم العذاب جراء سيئاتهم قالوا ربنا لِمَ لم تبعث إلينا رسولاً فنتبع أحكامك ونكون من المؤمنين بدلاً من أن نذلّ ونخزى، لعذّبناهم دون أن نرسل إليهم رسولا. علمًا أن جملة "لعذّبناهم دون أن نرسل إليهم رسولا" محذوفةٌ هنا، وهنا أمثلة كثيرة كهذه في القرآن الكريم حيث يُحذف جواب الجملة السابقة.

لقد بين الله تعالى هنا أنه لو لم يبعث الأنبياء إلى الناس لم تقم الحجة عليهم ولقالوا: ربنا إننا لم نهتد لأنك لم تبعث إلينا رسولاً، ولو أرسلت إلينا رسولاً لاتبعنا أحكامك وفزنا برضاك. وحيث إنه عذر معقول لذلك يبعث الله أنبياءه، وقد أرسل محمدًا ﷺ الآن لإصلاح العالم بحسب سنته المستمرة هذه. ولو أن هؤلاء سلكوا سبيل الظلم والبغي بدلاً من العمل بآيات الله فلا بد أن يحل بهم العذاب بحسب نبوءة موسى، ولن ينفعهم عندها الصراخ والعويل.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٩﴾

التفسير: لقد أخبر الله ﷻ هنا أنه لما بعث محمدًا أثار قومه اعتراضًا جديدًا بدلاً من الإيمان به والعمل بتعاليمه فيرثوا أفضال الله. لقد قالوا: لِمَ لم ينـــزل عليه

الوحي كما نــزل على موسى.. أي لِمَ لم ينــزل عليه الكتاب دفعة واحدة كما نــزل على موسى؟ وقد فصّلت آية أخرى من القرآن الكريم هذا الاعتراض حيث قال الكافرون: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(الفرقان:٣٣). والحق أن التوراة أيضًا لم تنــزل على موسى الطَّيْلاً مرة واحدة، بل نــزلت في فترة أطول مما نــزل فيها القرآن على محمد ﷺ. إذ تذكر التوراة أنه لم ينــزل على موسى في أول الأمر إلا عشرة أحكام فقط، أما باقي التوراة فقد اكتمل نــزولها في سنين عديدة وفي أماكن مختلفة في برية سيناء. فثبت أن من الخطأ القول أن التوراة نــزلت دفعة واحدة.

بيد أن الله تعالى يبين هنا أنه لو سلّمنا جدلاً أن التوراة نــزلت دفعة واحدة فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: متى آمن الناس بالتوراة التي نــزلت دفعة واحدة بحسب زعمهم؟! كلا بل قالوا عندها: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾.. أي أن موسى وهارون ساحران كبيران يدعم أحدهما الآخر، ونحن نكفر بالاثنين وإن كان كتابهما قد نــزل دفعة واحدة. فثبت أنه حتى لو نــزل القرآن الكريم على محمد مرة واحدة فما كنتم لتؤمنوا به، بل كان لا بد أن تستمروا في الاعتراض.

وقد يكون قول الكفار: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ إشارة إلى موسى ومحمد - عليهما السلام - والمراد أنهم عندما يتم الرد على جميع مطاعنهم كلها بشكل مفحم وينكشف ضعف موقفهم يقولون منــزعجين: لن نؤمن بموسى ولن نؤمن بك أيضًا فكلاكما مفترٍ. إنك تذكر موسى مرة بعد أخرى لتستدل على صدقك بما أدلى به في كتابه من أنباء، وكلاكما مفترٍ ويدعم أحدكما الآخر.

الواقع أن الإنسان إذا أنكر حقيقة اضطر لإنكار الحقائق الأخرى حتمًا، فهؤلاء القوم لما كفروا بمحمد كفروا بموسى أيضًا إذ كان كتابه يتضمن أنباءً عن مجيئه ﷺ، فقالوا إن كل هذا الكلام كذب وخداع ولا نرى فيه شيئًا من الحق.

قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٥٠﴾

التفسير: أي يا محمد قُلْ لأعدائك، لقد رُفضت التوراة لأنها نـزلت دفعة واحدة، وقد رُفض القرآن لأنه لم ينـزل جملة واحدة، فدُلُّوني الآن على كتاب نـزل بطريق ثالث وكان أكثر نشرًا للهدى من هذين الكتابين، ولكنكم لن تستطيعوا ذلك لأنكم كاذبون. أما أنا فإني مستعد لقبول كل ما هو حق وصدق، فاعرضوا عليّ حقيقة من الحقائق فسترون أني سأصدقها بلا تردد.

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

التفسير: أي إذا لم يستجيبوا لاقتراحك، فاعلم أنهم لا يبحثون عن الحق بل يُبدون لك كل ما يختلج في قلوبهم من أفكار وأهواء فاسدة، ومن اتبع أفكاره الفاسدة وأهواء نفسه فهو جدُّ ظالم، والله لا يهدي القوم الظالمين طريق الفلاح.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾

التفسير: ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ مفهومان: أحدهما أننا أرسلنا لهم رسلنا واحدًا تلو الآخر، أو أنـزلنا لهم وحينا مرة بعد أخرى؛ والثاني أننا أنـزلنا هذا القول أي القرآن الكريم نـزولاً مترابطًا.. أي أننا أنزلنا القرآن كله بترتيب محكم رائع، لكي يتعظوا به.

ونظرًا إلى المفهوم الأول سيعني قول الله تعالى هذا نفس الموضوع الذي بينه الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥)، وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾(المؤمنون:٤٥).. أي لم يزل الله تعالى يبعث رسله لهداية العالم، فليس في الدنيا أمة إلا وبعث الله فيهم هاديًا يدعوهم إلى الصلاح والورع. والبحث يؤكد لنا أن كل الأمم متفقة على أن الله تعالى قد بعث فيهم هاديًا ومصلحًا. فعندما نسأل الهندوس يقولون لقد جاءنا "كرشنا" و "رام تشندر" برسالة الله، وعندما نسأل النصارى يذكرون لنا عيسى عليه السلام، وحينما نسأل اليهود يذكرون لنا موسى وهارون، وحين نسأل الفرس يسمون لنا زرادشت، وعندما نسأل الصينيين يسمون لنا كنفوشيوس، وعندما نسأل اليونان يذكرون لنا سقراط. فليس في الدنيا أمة إلا وأمدّهم الله تعالى بأسباب الهدى، ذلك لأنه تعالى كما هو رب العرب فهو رب أهل الهند والصين والشام ومصر وإيران واليونان أيضًا. وحيث إن الله تعالى قد سدّ الحاجات الجسمانية لكل الإنسانية فكيف يمكن أن يهمل سد حاجاتها الروحانية، خاصة وإن وقاية الروح أهم من وقاية الجسم؟ فيلفت الله تعالى أنظار القوم إلى منّته هذه، ويبين أنه لم يزل يهيئ للناس الهدى رحمة منه، ويبعث إليهم رسله واحدًا تلو الآخر وينـزل لهم الوحي مرة بعد أخرى كي لا يهلك أحد نتيجة جهله بالحقيقة.

أما بالنظر إلى المفهوم الثاني فسيعني قول الله هذا أننا جعلنا هذا القول أي القرآن الكريم مرصعة آياته ومرتبة مواضيعه كلها. ولكن المؤسف أن المسلمين قد أهملوا قضية ترتيب القرآن الكريم تمامًا، وأخذوا يقولون أن لا ترتيب فيه - والعياذ بالله - وكأنهم يقولون إننا نؤمن بأنه كلام الله تعالى ولكنه عارٍ عن ميزة الترتيب والترابط التي توجد حتى في كلام البشر! فتجد المفسرين القدامى لم يولوا موضوع ترتيب القرآن الكريم أدنى اهتمام إلا ابن حيان - رحمه الله - مع أن الله تعالى يبين هنا أن من فضائل القرآن الكريم أنه مرتب ترتيبًا رائعًا ليتدبر فيه الناس ويتعظوا.

ولكن لا يغيبنّ عن البال أن ترتيب الصحف السماوية مختلف عن ترتيب الكتب الأخرى. فمثلاً تتناول كتب البشر مسائل الوضوء أولاً ثم مسائل العبادة ثم النكاح

ثم الطلاق والخُلع، ولكن ترتيب الكتب السماوية يكون مختلفًا عن ترتيب كتب البشر تمامًا، فيظن الجاهل ألا ترتيب فيها.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا تختلف الأسفار السماوية في ترتيبها عن كتب أهل الدنيا؟ والجواب أن في ذلك عدة حِكم منها:

ا: يهدف هذا الترتيب إلى ترغيب القارئ في الكتاب كله. وعلى سبيل المثال لو كان ترتيب الكتاب السماوي كترتيب كتاب "الهداية" الذي يوجد فيه باب خاص لمسائل الوضوء وباب لمسائل النكاح مثلاً لاهتم عامة الناس بالجزء الذي يتفق مع مزاجهم وعملوا به مهملين باقي القرآن الكريم، ولكن الله تعالى قد وزع هذه المسائل والقضايا كلها في القرآن الكريم كله بحيث لا يتيسر للمرء علم كامل بهذه المسائل إلا إذا قرأ القرآن كله.

ب: والحكمة الثانية في هذا الترتيب أن يعتاد الناس على التدبر وإعمال الفكر في الكتاب. ولو أنه تعالى بين هذه المسائل بأسلوب كتب أهل الدنيا لم يدرك الناس أن هذه المسائل تنطوي على دقائق الحِكم والمفاهيم، فمرّوا بها بنظرة سطحية وحُرموا من التدبر فيها، ولكن الله تعالى قام بتوزيع هذه المسائل في كتابه كله وجعلها متداخلة بعضها ببعض بحيث يضطر الإنسان للتدبر فيه، فيكشف له التدبر أن هذا الكتاب بحر زاخر بالمعارف.

ج: يهدف هذا الترتيب الخاص في كتاب الله تعالى إلى إنشاء خشية الله في القلوب. فمثلاً لو بين الله تعالى في القرآن الكريم مسائل الوضوء وطريقة المضمضة وأسلوب العبادة وعدد الركعات كما وردت في الكتب الأخرى مثل "القدوري" و "الهداية" لما تولدت خشية الله في القلوب. متى تتولد خشية الله في القلوب بقراءة "القدوري" و"الهداية" مع أن كل هذه المسائل عن العبادات وغيرها مذكورة فيها. ولكن المرء حين يقرأ نفس المسائل في القرآن الكريم فإن خشية الله تغمر قلبه، ذلك لأن القرآن الكريم يبين هذه المسائل بحيث يجعلها جزءًا من خشية الله. إذ ليست غاية الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من الأحكام إلا خلق تقوى الله

وخشيته في القلوب، فالقرآن يقدّم التقوى على كل شيء حتى إذا أمر الإنسانَ بالوضوء يكون مستعدًا له سلفًا، وإذا أمره بالصلاة يكون جاهزًا لها من قبل. ولكنه لو تناول الصلاة في باب منفصل لما تولدت خشية الله في القلوب.

باختصار إن الكتاب السماوي يقدّم إصلاح النفوس على كل شيء آخر، فلا يتبع الترتيب العام السطحي، بل يتبع ترتيبًا جديدًا هو ترتيب عاطفي، بمعنى أنه يستفيض في الحديث وفقًا لما يتولد في قلب الإنسان من مشاعر وتغيرات. فمثلاً إنه لا يتناول مسائل الصلاة بعد ذكر الوضوء فورًا، بل يوجه انتباه الإنسان بذكر الوضوء إلى الطهارة والروحانية وقرب الله تعالى، لأن الوضوء يولد مشاعر الطهارة. ثم عند ذكر موضوع الصلاة لا يبدأ الله تعالى في بيان مسائلها بل يستغلّ المشاعر التي تختلج في قلب الإنسان بذكر الركوع والسجود، فيوجهه إلى الله تعالى حتى يزداد قربًا منه تعالى مغتنمًا هذه المشاعر.

باختصار، إن ترتيب القرآن الكريم لا يتأسس على الظاهر، إنما أساسه على موجات العواطف التي تتولد في القلوب، والتي تختلف من شخص إلى شخص. وأضرب لبيانها المثال التالي:

يقال أن شيخًا بدأ يصلّي بالناس، فخطر بباله أن الذين يصلّون وراءه اليوم هم من الأثرياء، فقال في نفسه لو أعطاني هؤلاء هدايا فسيكون عندي مال كثير أستثمره في التجارة، فأذهب بالبضائع إلى "دلهي" مرة وإلى "كولكتا" مرة أخرى، فلم يزل يجول بأفكاره هنا وهناك حتى خطط للرحلات التجارية في الخارج حتى وصل إلى بخارى. وكان من بين المصلين رجل من الصالحين، فكشف الله ﷻ عليه حال الشيخ وأخبره بكل ما يجول في رأسه من أفكار، فقطع صلاته وراء الشيخ وأخذ يصلي على حدة. فلما انتهى الشيخ من الصلاة أخذ يلوم الرجل الصالح، وقال: ألم تعلم أن قطع الصلاة بدون مبرر ممنوع؟ فقال الرجل الصالح: إني أعلم هذه المسألة، ولكن صحتي ليست على ما يرام، لقد سافرتُ معك في الصلاة إلى دلهي ثم إلى بخارى، ثم تعبتُ وانفصلت عنك، لأني لا أقدر على هذا السفر الطويل. فأصيب الشيخ بخجل شديد.

فترى أن الشيخ كان يقوم بالركوع والسجود في الظاهر ولكن أفكاره سارت به من بلد إلى آخر. لا شك أنها أفكار فاسدة ولكنك ترى أنها نشأت في قلبه وفقًا لترتيب مشاعره وعواطفه. ونفس الحال بالنسبة للأفكار الصالحة، فإنها أيضًا تتولد تبعًا للمشاعر والعواطف. فمثلاً إذا كنتَ تصلي بحضور القلب والخشوع وسجدتَ وقلت "سبحان ربي الأعلى"، فإن سبوحية الله ستتراءى أمام عينيك، وستظل مستولية على مشاعرك، فرغم أنك تردِّد بلسانك "سبحان ربي الأعلى" للمرة الثانية أو الثالثة، إلا أن قلبك سيظل يستمتع بالتسبيحة الأولى ولن يريد الخروج منها. أو إذا قلت مثلاً "الحمد لله" بحضور القلب والخشوع تراءت أيادي الله ونِعمه أمام عينيك، فتظل مستغرقًا فيها؛ وإذا كنت تصلي حينئذ وراء إمام، فيظل حمد الله مستوليًا على قلبك مع أنك تكون قد تقدمت مع الإمام إلى الركوع والسجود وتردد بلسانك "سبحان ربي العظيم". فثبت أن كيفيات روحانية معينة تستولي على القلوب في أثناء الصلاة، والحق أن تلك الكيفيات هي الصلاة بعينها. لا شك أن المرء يردد بلسانه كلمات مختلفة، ولكن مشاعره الروحانية تجري على نمط معين. والواقع أن ترتيب القرآن الكريم يتأسس على تلك الكيفيات الواردة على قلب الإنسان. إن الله تعالى لا يتناول في القرآن الكريم موضوع الصوم بعد الصلاة مثلاً لأنه يعلم المشاعر والأفكار التي قد تولدت في قلب القارئ بقراءة آيات الصلاة، بل يتحدث بحسب الأفكار الناتجة في قلبه.

إذًا، فإن ترتيب القرآن الكريم مبني على المشاعر التي تتولد في قلب المرء عند القراءة، لأن الله عالم الغيب ويعلم الأفكار التي يمكن أن تختلج في قلوب المؤمنين بقراءة آية معينة أو حكم معين من القرآن الكريم، فرتّبه بحسب تلك المشاعر والأفكار عوضًا عن الترتيب العادي السطحي.

بيد أن من نتائج هذا الترتيب أن الذين لا يقرأون القرآن الكريم بمحبة وإخلاص يبدو لهم هذا الكتاب مملاً. فيقولون مثلاً كان الحديث فيه عن موسى ثم تحول إلى نوح فجأة، ثم بدأ القرآن يقص حالات شعيب - عليهم السلام - أو يقولون كان القرآن يتحدث عن الربا ولكنه تناول موضوع الصلاة فجأة. فتبدو لهم هذه الأمور

بلا ترتيب بحيث يتعذر عليهم أن يدركوا ما يصل بعضها ببعض، ولكن هذه الأمور نفسها عندما يقرأها أحد العلماء يتمتع بها فيرقص قلبه فرحًا.

أما إذا سألت ما السبيل لفهم هذه الصلات بين الآيات، فالجواب كالآتي:

أولاً: على المرء أن يقرأ كلام الله تعالى كله ويقرأه مرة بعد أخرى، وليس أن يختار عبارة معينة منه للقراءة.

ثانيًا: أما الذين تظل عاطفة حبهم للقرآن الكريم كاملة في كل حين فيكفيهم أن يحدّدوا وقتًا لقراءة القرآن الكريم في الصباح أو المساء، ولكن الذين لم تبلغ محبتهم هذه الدرجة فعليهم أن يقوموا بتلاوة القرآن - علاوة على تلاوته صباحًا أو مساءً- حين تكون عاطفة المحبة جياشة في قلوبهم سواءً وقت الظهر أو أي وقت.

ثالثًا: على المرء أن يقرأ القرآن موقنًا أنه كنــز لا ينفد. ذلك لأن الذين يظنون أن معارف القرآن منحصرة فيما ذكره لهم العلماء أو ما ورد في التفاسير فإن هذا الكتاب يظل مغلقًا بالنسبة إليهم، أما الذي يوقن بأن القرآن كنوز المعارف والعلوم التي لا نهاية لها يجد هذا الكتاب بحرًا من المعرفة لا شاطئ له. ومثاله أنك إذا مررتَ بغابة وجدت فيها آلاف الأشجار ولكنك ستمر بها دون التأمل فيها، أما إذا مر بها أحد مسؤولي مصلحة الغابات ليتفقدها فسيجد فيها عشرات الأمور الجديدة. كذلك فمن قرأ القرآن الكريم موقنًا بأنه كنــز لا ينفد وأنه مرتب ترتيبًا محكمًا رائعًا، فلا بد أن ينتفع منه كثيرًا، أما الذي لا يقرأه بهذا الإيمان واليقين يظل محرومًا من الانتفاع منه.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا

صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

يدرؤون: دَرَأَه دَرْءًا ودَرْءةً: دفَعه؛ وقيل: دفَعه شديدًا. (الأقرب)

التفسير: أي أن الذين أوتوا الكتاب قبل القرآن الكريم ويؤمنون به حقًّا وليس بالاسم فقط، فهم يؤمنون بالقرآن أيضًا بصدق القلب، إذ يتضمن كتابهم نبوءات عن نـــزوله، فإذا قُرئ عليهم القرآن قالوا قد آمنّا به، فإنه كتاب حق من عند ربنا، وقد كنا مطيعين لأوامر الله من قبل ونحن مطيعون لها الآن أيضًا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾.. أي أن الذين يقدّمون هذه الأسوة الحسنة من أهل الكتاب ويصبرون على أنواع الأذى والتعذيب الذي يتعرضون له من قِبل قومهم بسبب إيمانهم بالقرآن، فأولئك يُعطون أجرًا مضاعفًا من عند الله تعالى؛ سينالون أجرًا لأنهم ظلوا متمسكين بالتوراة، وينالون أجرًا آخر لأنهم آمنوا بالقرآن الكريم أيضًا، أو المعنى أنهم ينالون أجرًا في الدنيا وأجرًا في الآخرة.

واعلم أن للصبر في العربية ثلاثة معان: الأول: الإمساك عن الإثم، والثاني: الثبات على أعمال الخير، والثالث: عدم الشكوى والجزع عند حلول الشدائد (الأقرب). وعليه فقد بين الله تعالى في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾.. أنهم يُعطَون الأجر المضاعف لأنهم (أوّلاً): تجنبوا الذنوب دائمًا، فوفّقهم الله تعالى لتلبية نداء هذا المنادي، (وثانيًا): أنهم ظلوا متمسكين بالحسنات فأعجب الله فعلُهم هذا ووفّقهم لحسنة أخرى فآمنوا بمحمد ﷺ، (وثالثًا): أنهم تعرضوا لأذى المعارضين بسبب إيمانهم بالتوراة مِن قبل، وقد تعرضوا الآن أيضًا لمطاعن قومهم بسبب إيمانهم

بالقرآن الكريم، فلم يشتكوا بل رضوا برضا الله دائمًا. وهذه حسنات لا تضيَّع أبدًا، لذلك سيجزيهم الله عليها في هذه الدنيا، كما يُنعم عليهم برضوانه في الآخرة.

ثم بين الله تعالى أن أهل الكتاب هؤلاء يتحلون بسمات حسنة أخرى أيضًا منها:

السمة الأولى: أنهم ﴿يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾. ولهذه الجملة عدة معان أوّلها: أنهم يقدمون أسوهم الحسنة درءًا للسيئة ، وهكذا يبينون للناس أن تجنُّب السيئات ليس بأمر مستحيل. وكأنهم يقولون بلسان حالهم ما دمنا قد تركنا السيئات فكيف يصعب على الآخرين التغلب عليها. وثانيها: أنهم يقومون بالوعظ والنصح لنشر الخير ليتم القضاء على السيئات في أذهان الناس وتتولد في قلوبهم الكراهية تجاهها. وثالثها: أنهم يتخذون للقضاء على السيئة موقفًا يأتي بنتيجة طيبة، بمعنى أنهم إذا رأوا إصلاح المجرم في العفو عفوا عنه، وإذا رأوا إصلاحه في عقابه عاقبوه. فهم لا يسعون للانتقام دائمًا كما تأمر التوراة، ولا يعفون عن المجرم دائمًا كما يأمر الإنجيل، بل يدفعون السيئة بحسب مقتضى الموقف والظرف وبما يكون مآله حسنًا.

والسمة الثانية: أنهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.. أي أنهم لا ينفقون أموالهم على الفقراء فحسب، بل ينفقون نصيبًا من كل ما أعطاهم الله من النعم من أجل الإنسانية. علمًا أن الرزق في العربية يُطلق على "كل ما يُنتفع به" (الأقرب)، فهو يشمل المال والعلم والقوة والغلال والوقت وما إلى ذلك من عطايا الله تعالى مما ينفع الإنسان بشكل أو بآخر. فقد نبّهنا الله تعالى بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أن على المرء أن ينفق لنفع الإنسانية من كل ما أعطاه الله تعالى؛ فمثلا إذا كان عند شخص مهارة ما ولكنه لا يملك مالاً، فعلينا أن نساعده بالمال لينتفع بمهارته، وإذا لم يكن عند شخص ما يأكله فعلينا أن نطعمه، وإذا لم يكن عند شخص ما يشربه فعلينا أن نسقيه، وإذا لم يكن عند أحد ما يلبسه فعلينا أن نعطيه الثياب.

وكان الخليفة الأول ﷺ يحكي لنا أن أحد الصلحاء كان أثناء تلاوة القرآن بلسانه يمرر إصبعه أيضًا على كلمات المصحف بناءً على هذا الحكم الرباني، فسئل عن سبب ذلك؟ فأجاب: إن لساني وعيني وإصبعي كلها هبة من الله تعالى، فأشرك هذه الثلاثة في قراءة القرآن في وقت واحد، لأني أخاف أني لو اكتفيت بتلاوة القرآن باللسان فقط فيقول الله لي لِمَ لم تشرك يدك وعينك في قراءته، ولو قرأته باللسان واليد فقط يقول الله لي: لِمَ لم تشرك عيونك في قراءته، وإذا قرأته بالعيون فقط فيقول الله لي: لِمَ لم تشرك لسانك ويدك في قراءته؟

فالله تعالى يبين هنا أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يحبون الإنسانية حبًا عميقًا، فينفقون نصيبًا من كل نعمة أعطاهم الله إياها للنهوض بالناس. فمثلاً إذا أنفقوا المال لخير الناس فلا يظنون أنهم قد أدوا حق خدمتهم بل يُشركون الآخرين في كل ما أعطاهم الله من خير ونعمة للنهوض بهم.

لقد رأيت أن زوجة عمي - رغم بلوغها سن الثمانين أو الخامسة والثمانين - كانت تغزل القطن طوال السنة، ثم تبعثها إلى الحائكين، ثم تصنع الألحفة وأغلفتها، ثم توزعها على الفقراء. وكانت تقوم بمعظم هذا العمل بيدها. وإذا قيل لها: لماذا ترهقين نفسك ولا تستعينين بالآخرين؟ قالت: لا أجد متعة إلا إذا قمت بهذا العمل بنفسي.

إذًا، فلا بد للمرء أن ينفق في سبيل الله تعالى من كل ما أعطاه. إن الذين يعطون الفقراء شيئًا من أموالهم ويظنون أنهم قد أدوا الواجب لمخطئون. إن الذي ينفق على الفقراء شيئًا من ماله ولكن لا يقوم بالدعوة إلى الله بلسانه فلا يحق له أن يدعي أنه قد أدى واجبه. والذي يقوم بالدعوة إلى الله ولكن لا يهتم بخدمة الأرامل واليتامى فلا يحق له أيضًا أن يدعي أنه قد أدى واجبه كما ينبغي. كذلك لا بد للمرء أن يضحي بعواطفه ومشاعره أيضًا في سبيل الله تعالى، فإذا غضب على أحد كظَم غيظه وعفا عنه لوجهه تعالى. إن حُكم الإنفاق في سبيل الله يشمل كل الأعمال التي تتعلق بخدمة الخلق، وعلى شبابنا أن يهتموا بهذا المجال بشكل خاص،

فيخدموا الإنسانية كلها بدون تمييز بين دين وملة طبقًا لمستوى المسلم الأحمدي ليحظوا برضوان الله تعالى.

السمة الثالثة: ثم يقول الله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.. أي إذا سمعوا كلامًا سخيفًا من قبل الذين يكفرون بالله الأحد أعرضوا عنهم وقالوا: لماذا تعادوننا؟ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا نريد لكم إلا خيرًا وسلامًا، ولكن لا نحب صحبة الجاهلين العصبيين.

لقد بين الله تعالى هنا ميزة أخرى للذين أسلموا من أهل الكتاب بأنهم يُعرضون عن اللغو. ولكن المؤسف أن المسلمين الذين كتابهم القرآن - سواءً منهم القدامى أو الجُدد من الأوربيين والأمريكان الذين جاءوا من أهل الكتاب تتحدث عنهم هذه الآية - يشاهدون السينما والمسرح، ويحبون اللغو بدلاً من أن يعرضوا عنه، مع أن النبي ﷺ قد نهى عن اختلاط الرجال والنساء، وليست الأفلام إلا نتاج الاختلاط بين الرجال والنساء، إذ إن إخراج الفيلم مستحيل بدون أن يختلطوا ويرقصوا معًا؛ وهذا غير جائز في الإسلام. ولكن المؤسف أن المسلم اليوم يندفع شوقًا إلى هذا اللغو، كما أن المسلم الحديث من أوروبا وأمريكا أيضًا منهمك في هذا السخف. ليتهم يتعظون ويسعون للتحلي بهذه المحاسن التي بيّنها الله هنا.

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾

التفسير: أي يا محمد إنك تحب الخير للإنسانية جمعاء وتريد أن تهدي الخلق كلهم، ولكن أمنيتك هذه لن تتحقق لأن من سنة الله تعالى أنه لا يهدي إلا الذين يريدون أن يهتدوا.

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

نُتَخطَّفْ: تخطَّفَه: انتزعَه؛ واجتذبَه؛ واسترقَه؛ واستلبَه؛ ومَرَّ به سريعًا. (الأقرب)

يُجبى: جبَى الخَراج يجبوه جَبْوةً وجَباوةً يجبي جِبايةً، وجبا المالَ والخَراجَ: جمَعه؛ والجابية: الحوض الذي يُجبى فيه الماءُ للإبل. (الأقرب)

التفسير: أي يقول المعارضون لمحمد ﷺ لو دخلنا في الإسلام معك سيتخطفنا الناس.. أي أنك تعلِّم السِّلم، لو اتبعنا طريق السِّلم فإن الأمم حولنا ستدمرنا وتستعبدنا، فيرد الله عليهم: أوَلم نُسْكِنهم في الحرم الذي هو مكان أمن وسلام، ويؤتى إليه بأنواع الثمرات من كل مكان رزقًا وعطاءً من عندنا؟ ومع ذلك فإن معظمهم لا يفهمون ولا يدرون أن الله الذي جعل مكة حرمًا منذ زمن إبراهيم وحماها دائمًا - حيث دمر جيشَ أبرهة حمايةً لبيته، وما زال يجلب إلى هذا الوادي الذي لا يوجد فيه زرع ولا ماء صنوفَ الثمار والغلال من كل أنحاء العالم - لا يمكن أن يتخلى عن حمايتهم لو آمنوا بالهدي الذي نــزل في هذا العصر. أليس من الغباء أنهم يرون هذه الآية الإلهية العظيمة بأم أعينهم ومع ذلك لا يدخلون في الإسلام بناء على خوفهم - الذي لا أساس له - بأن الأمم التي حولهم ستخطفهم وتأكلهم، ولا يدركون أن الله تعالى لا يضيع أبدًا من يضحي في سبيله، ولو أنهم آمنوا لحماهم وجعلهم غالبين على أعدائهم مثلما أيد إبراهيم بنصره وأمدّه بنعمه في ذلك الوادي الذي لم يوجد فيه زرع ولا ماء ولا كسرة خبز.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

بطِرَت: بطِر يبطَر بطرًا: أخذتْه دهشة وحيرة عند هجوم النعمة عن القيام بحقّها؛ أو طغى بالنعمة أو عندها؛ وبطِر الشيءَ: كرِهه من غير أن يستحق الكراهةَ؛ وبطِر الحقَّ: تكبَّرَ عنه فلم يقبَله؛ وعند بعضهم: لم يره حقًّا فتكبَّرَ عن قبوله؛ وبطِر فلان النعمةَ: استخفّها فكفَرها؛ وأبطَره المالُ: جعله بَطِرًا. (الأقرب)

التفسير: ينبغي أن لا يصاب أهل مكة بالكبرياء نتيجة العزة والمنعة التي تيسرت لهم بسبب دعاء إبراهيم. فكم من قرية أصابها رخاؤها بالغرور، والنتيجة أنكم ترون بأم أعينكم مساكنهم خربة لا يسكنها أحد بعدهم وأصبحنا نحن الوارثين لها.. أي أن ذريتهم هلكوا وبادوا فأصبحت ديارهم خرابًا يبابًا. فلِم لا يعتبر أهل مكة بذلك؟ ولِم أصيبوا بالزهو والغرور نتيجة كثرة الرزق الذي هو هبة ربانية؟ ولِم لا يقبلون الحق الذي هو الأساس؟

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية قاعدة هامة بأنه لا يُنــزل العذاب على بلد إلا بعد أن يبعث رسولاً في البلدة التي هي مركزه الديني عنده تعالى، ليذكّر الناس بأحكامه تعالى، كما أن الله تعالى لا يهلك بلدًا ما دام أهله عادلين غير ظالمين، إنما ينــزل العذاب بقوم إذا أصبحوا ظالمين أو كافرين بنبيهم. وقد بين الله

تعالى هذا الموضوع في موضع آخر فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾(طه:١٣٥).. أي لو أننا أهلكناهم بالعذاب قبل بعثة رسول لاعترضوا علينا قائلين: ربنا لقد رأيتنا ظالمين وبحاجة إلى الهدى، فلم لم تبعث إلينا رسولاً لهدايتنا حتى نتبع أوامرك من قبل أن نذل ونخزى؟ فترى أن الله تعالى لم يرفض اعتراضهم هذا بل أقرّ بصحّته. والحق أن القرآن الكريم قد تناول هذا الموضوع في أماكن متعددة مؤكدًا أهمية هذا الاعتراض، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۞ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾(الأنعام:١٣١-١٣٢).

لقد تبين من هنا أن إصدار الفتوى بهلاك قوم بدون إنذارهم ظلمٌ.. وبتعبير آخر إن من الظلم أن يكون قوم بحاجة إلى الهدى فلا يرسل الله إليهم هاديًا، ويعذبهم يوم القيامة قائلاً: لِمَ لم تتبعوا أوامري؟ والله تعالى لا يفعل هكذا لأنه ليس ظالمًا.

وباختصار من سنة الله أنه لا يُنــزل عذابًا عالميًا على الدنيا ما لم يبعث إلى أهلها رسولاً من عنده ليذكرهم ويحذرهم. فالحق أن نزول أنواع الكوارث والعذاب على الدنيا في هذا العصر بما لا نظير له في الماضي، لدليل على صدق المسيح الموعود عليه السلام الذي بعثه الله رسولاً لهداية الدنيا، والذي حذر العالم قبل حلول هذه البلايا والكوارث قائلاً ما تعريبه: "لقد جاء نذير إلى الدنيا فلم تقبله، ولكن الله تعالى سيقبله ويُظهر صدقه بهجمات قوية." (براهين أحمدية (أردو) الأجزاء الأربعة، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٦٥)

وبعد إعلان هذا الوحي وقعت من عند الله تعالى هجمات قوية على شكل زلازل وحروب وأوبئة وفيضانات مما أودى بالملايين، ورأى الناس في الدنيا مشهدًا كيوم القيامة؛ ولكن المؤسف أن قلوب بعض الناس قست برؤية هذا الدمار الشديد أيضًا، فقالوا بكل جسارة: ما الغريب في وقوع الزلازل والحروب والأمراض والفيضانات فإنها ظواهر طبيعية تقع في الدنيا دائمًا؟ وبما أن مثل هؤلاء القوم قد

مضوا أيضًا في الأمم الخالية التي تفوهت بمثل هذه الأقوال ضد أنبيائها احتقارًا لآياتهم، فقد سجل الله تعالى اعتراضهم أيضًا في القرآن الكريم فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(الأعراف:٩٥-٩٦). والمراد من قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أنهم تقدموا وازدهروا وأخذوا يقولون قد أتى العسر واليسر على آبائنا أيضًا، فليس في هذه البلايا والكوارث دليل على صدق الأنبياء.

فالواقع أن هذه الفكرة الخطيرة لا توجد إلا في قلوب الذين قد ابتعدوا عن الحق، وإنما الأمر الواقع أن العذاب العالمي لا يأتي إلا بعد أن يبعث الله رسولاً حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٦). إذًا، فهذا العذاب ليس مما يستهان به، إنما هو دليل على أن رسولاً قد بُعث من عند الله تعالى في هذا العصر.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

التفسير: أي أن الناس يرون لغبائهم أن متاع الحياة الدنيا من مال وعز ونفوذ دليلٌ على رقيهم ونجاحهم، فيصابون بالزهو والغرور، والحق أن ملذات الدنيا تجلب لهم الراحة والمتعة لفترة قصيرة جدًا، أما الرقي الذي يكتبه الله تعالى لقوم فليس كتجارة صغيرة أو كحفنة من الذهب والفضة، بل هو أكبر منها وأبقى بكثير، ألا وهو الغلبة والحكم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.. أي أليس عندكم عقل حتى تدركوا هذا الأمر وتسعوا للرقي القومي بالإيمان بمحمد (ﷺ) بدلاً من الرقي الفردي؟

أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

التفسير: لقد بين الله هنا أن من أُعطي ثراء الدنيا لا يساوي من وعده الله تعالى بالبركات الروحانية في المستقبل. وبما أن ما يملكه الشخص الأول مال مادي وما يوعد به هذا المؤمن شيء روحاني، فمن علامة إيمانه أن يعتبر ما وُعد به أفضل من الحاضر الموجود عند الشخص الأول، ذلك لأنه إذا كان مؤمنًا حقًا فلن يعتبر وعد الله أقل من الحاضر الموجود.

علمًا أن الوعد يعني في بعض الأحيان الوعيد أيضًا أي وعد العذاب كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(الأعراف:٤٥)، ولذلك قال الله هنا: ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ ليوضح أن الوعد هنا يعني ما وُعد به المؤمنون من رقي وجزاء روحاني في الآخرة.

ثم قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ فبيّن أن الخير ما تكون عاقبته خيرًا، ولكن الذي نال متاع الدنيا ثم أُحضر يوم القيامة للحساب فلن يستوي هو والذي وعده الله بالحسنى.

واعلم أن من مزايا القرآن الكريم أنه يبين معاني واسعة بتغيير بسيط في الكلمة في بعض الأحيان، فمثلاً قد استعمل الله هنا صيغة المجهول فقال: ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾.. ليبين أن هذا لن يحضر بنفسه بل سيؤخذ ويُجَرُّ كما يؤخذ المجرمون إلى المحكمة مقرّنين في الأصفاد ليصدر الحكم بشأنهم.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ

أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٥﴾

التفسير: أي اذكُروا ذلك اليوم الذي ينادي الله فيه ويقول أين القوم الذين كنتم تتخذونهم شركائي مع أنهم لم يكونوا لي شركاء أبدًا. فيقول الشركاء المزعومون – الذين نكون قد أصدرنا القرار بعذابهم- ربنا هؤلاء هم القوم الذين أضللناهم، ولكنا لم نضلّهم بسوء نية وإنما لأننا كنّا بأنفسنا ضالين، وها نحن نتبرأ منهم أمامك إذ لم يكونوا يعبدوننا، بل كانوا يعبدون أهواءهم في الواقع.

إن محتوى هاتين الآيتين يبين أن الحديث هنا ليس عن أي كائنات غير مرئية إنما هو عن كبراء القوم من أئمة الكفر الذين يتخذهم الناس كالآلهة والذين يُضلّونهم بمكرهم وشرورهم. كما ليس المراد من كلمة ﴿شركائي﴾ أن الناس كانوا بالفعل يعتبرونهم آلهة، ذلك لأن الأمر الواقع أن الذين يعتبرهم الناس آلهة ليسوا ضالين بأنفسهم ولا يُضلّون غيرهم، بل الحق أنهم لا يدّعون ما يعتقد عنهم الناس من عقائد باطلة. فمثلاً يخبر الله تعالى في القرآن الكريم أن الله تعالى عندما يسأل المسيح عليه السلام يوم القيامة: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يقول المسيح في الجواب: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(المائدة:١١٨). لقد تبين من هنا أن المسيح وأمه اللذين اتخذهما النصارى إلهين لا يعلمان شيئًا عما يعتقد هؤلاء فيهما، بينما يخبر الله تعالى هنا أن هؤلاء الشركاء يقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾. فثبت أن الشركاء المذكورين هنا هم أئمة الكفر الذين يستغلّون مكانتهم ونفوذهم لإضلال الناس، وهؤلاء سيقولون يوم القيامة ربنا قد

علّمناهم ما رأيناه حقًا و لم يُطعِنا هؤلاء إلا لأنهم كانوا يرغبون في ذلك إذ لم نمارس عليهم جبرًا أو إكراهًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ...الخ﴾ فالحديث هنا عن الشركاء من نوع آخر.. أي الذين يعبدهم الناس في الواقع، فيقول الله تعالى للذين كانوا يعبدونهم ادعوا شركاءكم الآن ليُنجوكم من العذاب، فيدعونهم فلن يستجيب لهم شركاؤهم، وسيجدون عندها أمارات العذاب بادية لهم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.. أي أنهم يقولون ليتهم اتبعوا سبيل الهدى و لم يشركوا فلا يكونوا عرضة لعذاب الله تعالى.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

عميت: عمِي: ذهَب بصرُه كله مِن عينيه كلتيهما؛ وعمِي فلان: ذهَب بصرُ قلبه وجَهِلَ؛ وعمِي عليه الأمرُ: التبسَ واشتبهَ، ومنه ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ وعميت الأخبار عن فلان: خفِيتْ. (الأقرب)

التفسير: أي اذكروا ذلك الوقت الذي سيُحضرهم الله فيه عنده ويسألهم ماذا أجبتم الرسل الذين بعثتهم لهدايتكم؟ فلن يستطيعوا الجواب إذ يصيبهم الذعر برؤية جهنم أمامهم وينسون ما كانوا يحملونه من قبل من أفكار ويأتونه من أعمال، بل لن يقدروا أن يسائل بعضهم بعضًا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾. واعلم أن كلمة ﴿عسى﴾ تفيد الرجاء والأمل عادة، ولكنها إذا

استعُملت مِن قِبل الله تعالى فتفيد القطعية واليقين (القرطبي)؛ وعليه فالمراد هنا أنهم سيكونون من الفائزين حتمًا.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

الخِيَرة: خَار الرجلَ على غيره: فضَّله؛ وخارَ الشيءَ: انتقاه؛ وخارَ فلانًا بين الأمرين: فوَّض إليه الخيارَ. (الأقرب)

تُكِن: أكنَّ الشيءَ: ستَره في كِنّه وغطّاه وأخفاه؛ والكِنّ: وِقاءُ كلّ شيء وستِرُه. (الأقرب)

التفسير: أي أن ربك يُحدث ما يشاء من انقلاب، ويبعث من يشاء لهداية الدنيا، ولكن شركاء الكفار فليس بيدهم خيار لأي تغيير وتبديل في الدنيا، وهذا دليل على أن الله منــزه عن كل ضعف ونقص، وأنه أسمى من عقائدهم الوثنية وأفكارهم الفاسدة.

كما ردَّ الله تعالى بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ على الذين يؤمنون بأزلية الروح والمادة ولا يؤمنون بأن الله خالقهما، وإنما يعتقدون بأن الله تعالى يجمع بين الروح والمادة الموجودتين معه منذ الأزل ويخلق صورًا جديدةً منهما.

كما أن الله تعالى قد ردَّ بذلك على الطبيعيين الذين يظنون أن الله تعالى قد تخلى عن الخلائق بعد أن خلقهم ولا صلة له بهم الآن. فكأن الله تعالى مجرّدُ بنَّاء عندهم- والعياذ بالله - فكما أن البنَّاء يتخلى عن العمارة بعد بنائها كذلك قد تخلى الله عن الكون واعتزل بعد خلقه.

باختصار إن قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ تفنيد للطائفتين حيث بين أنه هو خالقُ كل شيء، ولم يتخلَّ عن الإنسان بعد خلقه، بل لا يزال يشمله بعنايته عند كل خطوة في سبيل رقيّه. فكلما يكون الخَلق عطاشى للهدى يبعث الله إليهم رسولاً من عنده بمقتضى صفة ربوبيته، فيحدث رسوله في الدنيا انقلابًا جديدًا مرة أخرى. فهلا يخبر المشركون ماذا يعمل شركاؤهم المزعومون في الدنيا، وماذا يحدثون فيها من انقلاب وتغيير، فإذا لم يستطيعوا أن يقدموا مثالاً واحدًا على ذلك الانقلاب، فما المبرر لأن يشركوا بالله سواه؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.. أي عليهم أن يعلموا أن خططهم لن تنفعهم شيئًا وأن مكائدهم لن تُنجحهم، لأن رب السماوات والأرض قد أراد نشر وحدانيته في العالم والقضاء على الشرك، فلن ينفعهم الآن ما يبذلون لتأييد الشرك والوثنية من مكر مكشوف وكيد خفي.

وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧١﴾

التفسير: بعد إبطال عقيدة الشرك يوضّح الله تعالى هنا للناس مكانة التوحيد الحقيقي ويقول إنه لا إله إلا هو، وهو الذي كان له الحمد في البداية ويكون له في الآخرة أيضًا، وبيده المُلك كله، وإليه ترجعون في نهاية المطاف.. أي أن منه ﷻ البداية والعاقبة، وحمده يتأكد حيثما تتجلى يده تعمل، وكل الأشياء تفنى في النهاية ولا بقاء إلا لذات البارئ تعالى، مما يشكّل دليلاً على وحدانيته.

والحق أن قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ يومئ إلى صفتَي الله الرحمن والرحيم، ذلك لأن الرحمانية تتعلق بالبداية والرحيمية تتعلق بالعاقبة. إن الرحمانية هي التي تلعب الدور الأول في جميع شؤون العباد سواءً ما يتعلق منها بالله وما يتعلق ببني جنسهم، وكلما تدبر المرء في ذلك تجلى له حمد الله تعالى أكثر

فأكثر. فترى مثلاً أن الأُمّ هي التي تحسن إلى ولدها في الظاهر حيث تحمله في بطنها أو تسقيه لبنها، ولكن لو فكرتَ فيمن خلَق في بطنها أسباب نموّ الوليد ومَن خلَق في ثديها اللبن تبينَ لك أن الحمد لله في الواقع. كذلك يُعتبر الأب محسنًا إلى ولده حيث يتولى كفالته والإنفاق عليه، ولكن الواقع أنه لم يخلق القدرات والأسباب التي يكسب بها المال بل إن الله تعالى هو الذي زوده بها. فثبت أن الحمد لله أوّلاً وإليه يرجع الحمد أخيرًا. وترى الدنيا تثني على أهل الحسن والجمال، ولكن هل يقدر أحد منا على أن يخلق صورته بنفسه؟ وتشيد الدنيا بالعلم، ولكن أليس حقًّا أن الأسباب التي يُنال بها العلم بما فيها الذاكرة التي تحفظ العلم كلها مما خلقه الله تعالى؟ وتمدح الدنيا أهل الذكاء والعقل، ولكنهما أيضًا هبة ربانية وليسا مما يُكتسب. فثبت أن الله صاحب الحمد في الواقع إذ خلق هذه الأسباب كلها. عندما تحمد الدنيا الخَلْقَ يظن الشخص الجاهل أنها تثني عليهم، ولكن الإنسان البصير يعلم أنه مخدوع، إذ إنها تحمد الله في الواقع وأنه تعالى هو صاحب الحمد في الحقيقة.

ثم أخبر الله تعالى أن له الحمد في الآخرة أيضًا.. أي أنه ليس رحمانًا فحسب، بل رحيم أيضًا. والرحيم من يرحم مرة بعد أخرى، ولا يمكن استمرار رحمة الله على العبد إلا إذا نال حياةً أبديةً، وأيضًا إذا دخل كل إنسان - مهما كان آثمًا - في كنف رحمته تعالى في النهاية بعد أن تُغفر له ذنوبه. تعلن المسيحية للعالم أن الجحيم أبدي، ولكن رحيمية الله تفنّد هذه العقيدة، ذلك لأن سيئات كل جهنمي ستظل على حالها، بينما تستمر حسناته في الازدياد نتيجة رحمة الله المتكررة، وبالتالي تزداد حسناته على سيئاته في النهاية، وإذا زادت حسناته على سيئاته فلا يجوز إبقاؤه في الجحيم، بل سيُدخل في الجنة حتمًا. وهكذا سيثبت في الآخرة أيضًا أن الحمد كله لله الذي زاد حسنات أهل النار أيضًا نتيجة رحيميته، وأنــزل رحمته عليهم مرة

بعد أخرى حتى استحقوا فضل الله في نهاية المطاف. وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في حديثه: "يأتي على جهنم زمانٌ ليس فيها أحد ونسيمُ الصبا تحرّك أبوابها". ⭘

ومن أجل ذلك يقول الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس:١١).. أي أن الله تعالى وحده يستحق الحمد كله إذ زاد حسناتنا حتى جزانا على كل حسنة عشرة أضعاف، وزاد حسنات أصحاب النار أيضًا حتى دخلوا الجنة في النهاية وفازوا برضوانه تعالى.

وباختصار قد أخبر الله تعالى في قوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ أنه كما يثبُت أن الله تعالى هو صاحب الحمد في بداية كل عمل إذ يهيئ الأسباب التي لولاها ما استطاع الإنسان إنجاز شيء، كذلك يثبُت في النهاية أيضًا أنه تعالى هو صاحب الحمد كله حيث يأتي بنتائج الأعمال. ثم إن رحيميته تتقبل القليل من الحسنات أيضًا كبذرة ثم تنميها باستمرار حتى إن أولئك الذين كفروا بأنبيائهم ونالوا العقاب على سيئاتهم سيسترهم الله تعالى برداء مغفرته ويخرجهم من الجحيم. فثبت أن الله هو الأول والآخر، وكما أن الحجاج يطوفون حول الحجر الأسود في الحج فيبدأون به طوافهم ويُنهونه عنده أيضًا، كذلك يطوف المؤمن بالله تعالى؛ فبه يبدأ طوافه، وأمامه يسقط في النهاية أيضًا. وكما أن القنوات التي تتفرع عن الأنهار ثم تصبّ فيها، أو كما أن الناعورة تخرج من البئر مليئةً من جهة وتغوص فيها من جهة أخرى، كذلك فإن المؤمن يخرج من عند الله تعالى ويعود إليه ثانية، ويجري حمده وثناؤه على لسانه في كل حال.

كما أن في قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ نبأً بأن الحمد يكون لله تعالى في أوائل الإسلام ويكون الحمد له في الزمن الأخير أيضًا عند خروج يأجوج ومأجوج، فيُرسي الله حمده ومُلكه في العالم كله بالقضاء عليهم.

⭘ لم نعثر على رواية بهذه الكلمات، بيد أن صاحب "معالم التنـــزيل" قد نقل رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه تقول: "ليأتين على جهنم زمانٌ ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا." (تفسير سورة هود: قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾) (المترجم)

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

سَرْمَدًا: السرمد: الدائمُ؛ الطويلُ من الليالي يقال: ليلٌ سرمد؛ والسرمديّ: ما لا أوّلَ له ولا آخرَ. (الأقرب)

التفسير: أي يا محمد قل للمشركين إن الليل شيء نافع بلا ريب، ولكن لو مدّه الله تعالى إلى يوم القيامة فمن ذا الذي يأتيكم بالشمس من دونه تعالى؟ فإن آلهتكم لا تقدر على تغيير ظلمة الليل إلى ضياء النهار ولو كان بعضها لبعض ظهيرًا. هذا ما أكده الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام حين قال للملك في أثناء المناظرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾(البقرة:٢٥٩)؛ إذ ليس هناك مشرك يؤمن أن أحدًا من آلهته يأتي بالشمس، فلو أن الملِك قال لإبراهيم عليه السلام: لا يأتي إلهك بالشمس من المشرق بل أنا آتي بها، لثار عليه قومه الذين كانوا يعبدون الشمس والنجوم ولقالوا له: كيف تعتبر نفسك أكبر من إله الشمس حتى تدعي بهذا؟ ولذلك فلم يكن أمامه خيار إلا أن يسكت.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٣﴾

التفسير: هذا الدليل أيضًا يقيم الحجة على المشركين إذ لا يرون أن صنمًا من أصنامهم أو إلهًا من آلهتهم الباطلة يجعل الشمس تغيب.

وجدير بالذكر هنا أن الله تعالى قال في آخر الآية السابقة عند ذكر الليل ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ بينما قال هنا عند ذكر النهار ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾، والحكمة في ذلك أن الإنسان يعمل بالآذان بالليل أكثر من العيون، أما في النهار فيعمل بالعيون أكثر من الآذان.

وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٤﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أنه قد جعل الليل والنهار برحمته العظيمة لتناموا بالليل من أجل الراحة والسكينة ولتجلبوا بالنهار فضله باكتساب المال. كما جعل ظاهرة الليل والنهار لتشكروه دائمًا، فتمتلئ قلوبكم بعواطف الشكر لله تعالى بحلول الليل ويجري ذكره على ألسنتكم عند طلوع النهار.

واعلم أن الله تعالى كما جعل في العالم المادي ظاهرة تناوب الليل والنهار، كذلك يأتي على الإنسان في العالم الروحاني أيضًا أوقات القبض والبسط. والحق أن ظاهرة القبض والبسط هذه ضرورية للإنسان من أجل رقيه الروحاني مثل الليل والنهار، فلو لم يأت عليه الليل الروحاني لتوقف رقيّه وانحطّ من مقامه. ورد في الحديث أن أحد الصحابة جاء النبي ﷺ وقال يا رسول الله، قد أصبحتُ منافقًا. فقال: كيف عرفت ذلك؟ قال: يا رسول الله، عندما أكون في مجلسكم أشعر كأن الجنة على يميني والجحيم على شمالي، وعندما أغادر مجلسكم لا أبقى على هذه الحالة. فقال النبي ﷺ: لو كنتم في حالة واحدة لَمِتُّم.◈

◈ نص الحديث كالآتي: "عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّٰه صلى الله عليه وسلم - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللّٰه مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰه ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ

فكما أن الله تعالى قد جعل الليل لجلب الراحة والنهارَ لكسب المعيشة، فالعاقل مَن ينتفع بالليل والنهار أيضًا، فينام بالليل ليستعيد قواه ويجدد نشاطه، ويعملُ بالنهار ليحرز المزيد من الرقي؛ كذلك قد جعل الله تعالى ظاهرة القبض والبسط أيضًا من أجل رقي الإنسان روحانيًا، ليزداد رفعة لدى تحليقه في السماء الروحانية بعد كل حالة قبض، ويزداد شكرًا على نعم الله وأياديه.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٦﴾

التفسير: أي اذكروا ذلك الوقت الذي يقول الله فيه للمشركين أين شركائي الذين اتخذتموهم بزعمكم؟ سنقيم من كل أمة شهيدًا يومئذ ونقول لهم هاتوا برهانكم، فيعلم المشركون عندها أن ما قال الله تعالى هو الحق، وينسون افتراءاتهم كلها.

وَالضّيْعَات، فَنَسينَا كَثيراً. قَالَ أَبُو بَكْر: فَوَاللّه إِنّا لَنَلْقَى مثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْر، حَتّىَ دَخَلْنَا عَلَىَ رَسُولَ اللّه ﷺ. قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. يَا رَسُولَ اللّه. فَقَالَ رَسُولُ اللّه: "وَمَا ذَاكَ؟" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهَ نَكُونُ عنْدَك، تُذَكّرُنَا بالنّار وَالْجَنّة حَتّىَ كَأَنّا رَأْيُ عَيْن، فَإِذَا خَرَجْنَا منْ عنْدكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضّيْعَات، نَسينَا كَثيراً. فَقَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: "وَالّذي نَفْسي بيَده إنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىَ مَا تَكُونُونَ عنْدي، وَفي الذّكْر، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئكَةُ عَلَىَ فُرُشكُمْ وَفي طُرُقكُمْ. وَلَكنْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعةً وَسَاعةً." (مسلم: كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر) (المترجم)

لقد استعمل الله تعالى هنا صيغ الجمع فقال: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ و ﴿فَقُلْنَا﴾، وهذا الأسلوب يسمى "كلام الملوك"، حيث يتكلم الملوك بصيغ الجمع إظهارًا لقوتهم، لأن الملك حين يصدر حكمًا ينضم إليه الآخرون لتنفيذه.

أما قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ فالشهيد هنا نبيُّ كل قوم، كقول المسيح عليه السلام لله تعالى يوم القيامة: ﴿كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾(المائدة:١١٨)، وقوله تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾(المزمل:١٦)؛ ذلك لأن الشهيد يعني الشاهد والرقيب أيضًا. إذًا، فيخبرنا الله تعالى هنا أنه سيأتي بنبي كل قوم شاهدًا عليهم يوم القيامة ليُخزي المشركين بعرض نموذج نبيهم عليهم فيقول: انظروا كيف انحرفتم عن تعاليم نبيكم. لقد نهاكم عن الشرك ليلاً ونهارًا، فتناسيتم هديه وخررتم أمام الأصنام تاركين أعتاب الله تعالى.

الواقع أن الله تعالى قد جعل لكل شيء في الدنيا نموذجًا، ولا يمكننا النجاح ما لم نعمل بحسب ذلك النموذج. فمثلاً يتنازع الناس في بلادنا كل يوم في المعاملات، فيقول أحدهم لغيره مثلاً: خُذْ مني مئة روبية وابعثْ لي هذا النوع من الحنطة التي عندك، وعندما تصل إليه الحنطة يرجع إلى صاحب المحل شاكيًا أنه قد بعث إليه الحنطة من النوع الرديء، مع أنه قد طلب منه نوعًا أفضل. ومنعًا لمثل هذه النـــزاعات تحتفظ الشعوب الأوروبية عندها بنماذج من كل شيء، فتجد عندها قوارير كبيرة فيها نماذج من النوع الجيد من الحنطة والأرز والدُخن والقطن وما إلى ذلك، وقد كتبوا على كل قارورة اسم كل نوع من هذه السلع مع مواصفاتها؛ وإذا أرادوا شراء نوع من الحبوب بعثوا نموذجه إلى البائع طالبين منه أن يبعث لهم ذلك النوع من الحنطة أو الأرز؛ وعندما يُبعث إليهم هذه الغلال يقارنها الخبراء مع النموذج الذي بعثوه، فإذا لم تكن السلعة بحسب طلبهم رفضوها.

فثبت أنه لا بد لنا من وجود نموذج، لنعرف ما إذا كان الشيء جيدًا أم لا، وما إذا كان حسب طلبنا أم لا. وكما تمسّ الحاجة إلى نماذج الأشياء المادية في الدنيا، كذلك لا بد من نموذج في مجال الأخلاق والروحانية، ويبعث الله تعالى هذا النموذج إلى الدنيا على شكل الأنبياء دائمًا. فمن جعل نفسه وفقًا لهذا النموذج

حظي بالقبول عند الله تعالى، ومن لم يجعل نفسه طبقًا للنموذج رفضه الله تعالى. فبعث الله تعالى آدم إلى الناس تارة، وأعلن أن من يكون مثل آدم عليه السلام يصبح من المقبولين، ومن لم يكن مثله يصبح من المرفوضين. وتارة أخرى بعث الله تعالى نوحًا عليه السلام كنموذج للناس، وحينًا إبراهيم عليه السلام كنموذج مثالي للناس، وحينًا آخر بعث كرشنا ورام شندر نموذجًا للناس، ومرة بعث زرادشت نموذجًا للناس، وأخرى بعث أيوب نموذجًا للناس، وبعث داود وسليمان كنموذج للناس في عصرهما، وبعث المسيح الناصري عليه السلام نموذجًا للناس في زمنه، وأخيرًا بعث الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا معلنًا أنه الأسوة للناس إلى يوم القيامة، فإذا تأسيتم بأسوته صلى الله عليه وسلم قبِلتُكم وإلا أصبحتم من المرفوضين.

هذا ما نبّه الله إليه هنا فبيّن أنّا سنأتي كلَّ قوم بنبيّهم الذي جعلناه أسوة لهم ونقول لقد بعثناه إليكم كنموذج، وتريدون الآن أن تدخلوا الجنة، ولكن لا بد أن نرى أوّلاً مدى سعيكم للتأسي بأسوته.

أما قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فبيّن فيه أنه ستغيب عنهم يوم القيامة دعاواهم العريضة التي كانوا يقومون بها في الدنيا، بمعنى أنهم ينسون عندها افتراءاتهم التي كانوا يختلقونها على ذات البارئ تعالى. والمعنى الآخر أن أعمالهم التي كان أساسها الافتراء ستذهب كلها سدًى يوم القيامة، فلن تنفعهم عباداتهم ومجاهداتهم التي كانوا يقومون بها ابتغاء مرضاة أصنامهم وآلهتهم.

إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

الكنوز: جمع الكنـز: وهو المال المدفون في الأرض؛ وقيل: اسمٌ للمال إذا أُحرِزَ في وِعاء؛ الذهبُ والفضة؛ ما يُحرَز فيه المال كالمخزن والصندوق. (الأقرب)

مَفاتح: قد يكون جمع مِفتَحٍ ومِفتاحٍ وهو آلة الفتح، أو جمعُ مَفتَحٍ: وهو الخزانةُ؛ الكنـــزُ؛ المخزنُ. (الأقرب)

تَنُوءُ: ناءَ الرجلُ: نَهَض بجَهدٍ ومشقّة؛ وناءَ بالحِمل: نَهَض به مُثقَلاً؛ وناءَ به الحِملُ: أثقلَه وأمالَه. (الأقرب)

العُصبة: العصبة والعصابة: الجماعة من الرجال؛ وقيل: العشرةُ؛ وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. (الأقرب، وفتح البيان)

التفسير: اسم قارون في التوراة هو: قُورَح، حيث ورد فيها أنه تآمر مع بعض الناس وأثار فتنة كبيرة ضد موسى عليه السلام حيث بدأ هؤلاء يعارضون موسى مع أناس من بني إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوّين للاجتماع ذوي اسم، فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما: كفاكما، إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب؟ فلما سمع موسى سقط على وجهه، ثم كلّم قورحَ وجميعَ قومه قائلا: غدًا يعلن الرب مَن هو له ومَن المقدس حتى يقرّبه إليه، فالذي يختاره يقرّبه إليه. افعلوا هذا: خُذوا لكم مَجامِرَ، قورحُ وكلُّ جماعته، واجعلوا فيها نارًا وضعوا عليها بخورا أمام الرب غدًا، فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس. كفاكم يا بني لاوي. قال موسى لقورح: اسمعوا يا بني لاوي، أقليلٌ عليكم أن إله إسرائيل أفرزَكم من جماعة إسرائيل ليقرّبكم إليه لكي تعملوا خدمةَ مسكن الرب وتقِفوا قُدّامَ الجماعة لخدمتها. فقرَّبك وجميعَ إخوتك بني لاوي معك، وتطلبون أيضا كهنوتًا. إذن أنت وكل جماعتك متفقون على الرب. وأما هارون فما هو حتى تتذمّروا عليه؟

فأرسل موسى ليدعو داثانَ وأبيرامَ ابنَي اليآب، فقالا: لا نصعَد، أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنًا وعسلاً لتُميتنا في البرية حتى تترأس علينا ترؤُّسًا؟ كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض لبنا وعسلا، ولا أعطيتَنا نصيب حقول وكروم؟

هل تقلع أعين هؤلاء القوم. لا نصعد. فاغتاظ موسى جدًّا وقال للرب: لا تلتفتْ إلى تَقْدمتهما، حمارًا واحدا لم آخذ منهم، ولا أسأتُ إلى أحد منهم. وقال موسى لقورح: كنْ أنت وكلُّ جماعتك أمام الرب أنت وهم وهارون غدًا، خُذوا كل واحد مجمرتَه واجعلوا فيها بخورا، وقدِّموا أمام الرب كلٌّ واحد مجمرتَه. مئتين وخمسين مجمرة. وأنت وهارون كلٌّ واحد مجمرتَه. فأخذوا كلٌّ واحد مجمرته وجعلوا فيها نارا ووضعوا عليها بخورا ووقفوا لدى باب خيمة الاجتماع مع موسى وهارون، وجمَع عليهما قورحُ كلَّ الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع. فتراءى مجدُ الرب لكل الجماعة وكلَّم الربُّ موسى وهارونَ قائلا: افْتَرِزا من بين هذه الجماعة، فإني أُفنيهم في لحظة. فخرّا على وجهيهما وقالا: اللهمّ إلهَ أرواح جميع البشر، هل يخطئ رجل واحد فتسخط على كل الجماعة؟ فكلّم الرب موسى قائلا: كَلِّم الجماعة قائلا: اطلَعوا مِن حوالي مسكن قورح وداثان وأبيرام. فقام موسى وذهب إلى داثان وأبيرام، وذهب وراءه شيوخ إسرائيل، فكلَّم الجماعةَ قائلا: اعتزِلوا عن خيام هؤلاء القوم البُغاة، ولا تمسّوا شيئًا مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم. فطلَعوا مِن حوالي مسكن قورح وداثان وأبيرام، وخرج داثان وأبيرام ووقفا في باب خيمتيهما مع نسائهما وبنيهما وأطفالهما. فقال موسى: بهذا تعلمون أن الرب قد أرسلني لأعمل كل هذه الأعمال وأنها ليست من نفسي: إن مات هؤلاء كموت كل إنسان وأصابتهم مصيبةُ كل إنسان، فليس الرب قد أرسلني، ولكن إن ابتدع الرب بدعةً وفتحت الأرضُ فاها وابتلعتْهم وكلَّ ما لهم فهبطوا أحياءً إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدرَوا بالرب. فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكلَّ من كان لقورح مع كل الأموال. فنـــزلوا هُمْ وكلُّ ما كان لهم أحياءً إلى الهاوية، وانطبقت عليهم الأرض، فبادوا من بين الجماعة، وكلُّ إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا: لعل الأرض تبتلعنا. وخرجت نار من عند الرب، وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قرّبوا البخورَ." (العدد ١٦: ٢ — ٣٥)

لقد اتضح مما ورد في التوراة عن هذا الحادث أن قارون وبعض أصحابه أثاروا فتنة عظيمة ضد موسى ﷺ في برية سيناء بعد هلاك فرعون مصر، فقد رموه بمطاعن شتّى وأخذوا يقولون: كيف يحق لموسى أن يعتبر نفسه أفضل منا ويتحكم فينا، مع أن كل فرد من هذه الجماعة مقدس؟ وقالوا إن موسى قد أخرجنا من بلد فيه أنهار من لبن وعسل، وألقانا في هذه البرية، وكان وعدنا بأرض كنعان ولكنه أخلف وعده. وتخبرنا التوراة أن مئتين وخمسين شخصًا انضم إلى قارون في إثارة هذه الفتنة، ففرّق موسى بين الفئتين ودعا على قارون وأصحابه، فانشقت الأرض وابتلعت قارون وحزبه. وإذا كان بيان التوراة صحيحًا فهذا يعني أن موسى ﷺ قد دخل في المباهلة مع قارون، فهلك الأخير.

ولكن القرآن الكريم يذكر قارون وفرعون وهامان معًا (العنكبوت:٤٠)، مما يدل أن هذه الواقعة لم تقع بعد هجرتهم من مصر بل قبلها، وأن قارون كان من بني إسرائيل، وكان يتقلد منصب وزير المالية عند فرعون وكان شخصًا ثريًا، فأخذ يقسو على قومه مزهوًا بثرائه، فظن أنه سيزداد حظوة عند فرعون كلما صبّ على قومه سوط العذاب.

لقد قلتُ كان قارون وزير المالية عند فرعون، لأن القرآن الكريم يخبرنا أنه أخذ يظلم قومه الإسرائيليين، والحق أن ثراء المرء وحده لا يدفعه لاضطهاد قومه، إلا أن منصبه في الحكومة قد يدفعه إلى ظلم قومه، ولاسيّما أن قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ يبين أن هذه الكنوز لم تكن مِلكًا له بل كانت مِلكًا للحكومة وكان مشرفًا عليها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾. واعلم أن الأقفال في الزمن القديم كانت تصنع من الخشب، بل كانت تُستعمل في مكة قبل أربعين سنة أيضًا. ولو سلّمنا أن الناس في زمن فرعون كانوا يستعملون أقفال الحديد فلا بد أن تكون هذه الصناعة في مراحلها البدائية حيث كانت الأقفال ومفاتيحها كبيرة جدًا، وكان الملِك إذا خرج في سفر أخذ معه المال في صناديق كثيرة لدفع أجرة العمال وشراء المؤن للجيش؛ فكان صعبًا على الجماعة

القوية حمل تلك المفاتيح الكثيرة الضخمة التي بلغ وزنها آلاف الكيلوغرامات، خاصة لو كان السفر طويلاً.

ويُحتمل أنهم كانوا يضعون المفاتيح في الصناديق التي كانت تحملها الجِمال، لأن القرآن الكريم لم يصرح أن الناس كانوا يحملون تلك المفاتيح بل قال لو حملتها جماعة قوية من الناس لشقّ عليهم حملها.. أي لم يستطع أن يحملها إلا عشرة أو اثنا عشر من الرجال الأقوياء.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. لما كان قارون مصابًا بالكبر لكونه وزيرَ المالية وثريًا أخذ يظلم قومه إرضاءً لفرعون، فقال له قومه لا تتكبر فإن الله تعالى لا يحب المتكبرين.

وَٱبۡتَ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡ ٱلۡ َسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُ ۡسِدِينَ ﴿٧٨﴾

التفسير: لقد قال له قومه أن يجعل بيته في الآخرة أحسن بإنفاق ماله الذي أعطاه الله إياه، دون أن يهمل نصيبه من الدنيا، لأن الدين الحق يعلّم المرء سلوك الطريق الوسط ولا يريد أن يهمل دنياه كليةً، وإنما يأمره أن يكسب دنياه ويساهم في أمور الدين أيضًا.

كان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يقول: يعجبني كثيرًا قول بعض الصوفية وهو:

"دست در کار ودل با یار"

أي أن الطريقة المثلى أن يباشر المرء أعمال الدنيا بيده وقلبه مشغول بذكر الله.

لقد ظن البعض في الماضي أن على المرء أن لا يشتغل بأمور دنياه فأضاعوا أعمارهم، بينما ظن البعض الآخر أن على المرء أن يقوم بمشاغل الدنيا ولا داعي

لذكر الله تعالى. وهكذا صار هناك فئتان: فئة اعتبرت الدين عبثًا، وفئة أخرى اعتبرت الدنيا عبثًا، مع أن الحق بين الاثنين؛ فالحق أن يهتم الإنسان بدنياه وبدينه معًا دون أن يُعرض عن الدنيا كليةً، ولكن ما حصل أن فريقًا اهتم بالدنيا فقط، وفريقًا اهتم بالدين فقط، ولم يتفكروا في أنه لو أراد الله تعالى منا الاهتمام بالدين فقط لما قال: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(آل عمران:٩٨)، ولما قال أيضًا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(التوبة:١٠٣)، ولما قال أيضًا: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾(النساء:٢١)، إذ لو كان اقتناء المال ممنوعًا، فكيف يذهب المرء للحج، وكيف يؤدي الزكاة، وكيف يعطي زوجته قنطارًا من الذهب؟ لا جرم أن الله تعالى قد جعل بعض الناس نموذجًا للآخرين، فقد سمعت من المسيح الموعود عليه السلام أن شخصًا سأل بعض الصلحاء عن نصاب زكاة المال؟ فقال: إن نصابها بالنسبة لك هو أن تخرج دينارًا واحدًا على كل أربعين دينارًا. فقال: ماذا تعني بقولك "بالنسبة لك"؟ هل يتغير نصاب الزكاة من شخص إلى آخر؟ فقال الرجل الصالح: نعم، أما أنت فتدفع دينارًا على أربعين دينارًا، أما أنا فلو اجتمعت عندي أربعون دينارًا فعلي أن أدفع واحدًا وأربعين دينارًا، ذلك لأن الله تعالى أمرك بأن تكسب وتأكل، أما أنا فقد تولى الله حاجاتي؛ فإذا اجتمعت عندي أربعون دينارًا بسبب غبائي فعليّ أن أدفع أربعين دينارًا، بالإضافة إلى دينار آخر كغرامة.

إذًا، فهناك أناس من واجبهم أن يكرسوا حياتهم لخدمة الدين فقط، فعليهم بذكر الله وترديد الأوراد والوظائف وأداء صلاة التهجد والاستغفار والدعاء، أما باقي الناس فمن واجبهم أن يكسبوا الدنيا وينفقوا نصيبًا مناسبًا من مالهم ووقتهم في خدمة الدين والعبادة. وهذا نصح به بعض صلحاء قوم قارون فقالوا: نحن لا نقول لك أن تنفق كل ثروتك في سبيل الله تعالى، وإنما ننصحك أن تجعل أول غايتك الدار الآخرة لدى إنفاق أموالك، ولا بأس في أن تنفق من أجل رقيك وازدهار عائلتك فتخصص لهم جزءًا من أموالك، فهذا جائز، وإنما المحظور أن تنسى الله كلية وأن تجعل الدنيا غاية همِّك.

ثم قالوا لقارون: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.. أي عامِلِ الناس بالحسنى وساعِدْهم بمالك وعلمك ونفوذك، لأن الله تعالى قد أحسن إليك.. بمعنى أن القوى والطاقات التي اكتسبتَ بها المال والعز والنفوذ كلها مما خلقه الله تعالى ووهبك إياه إحسانًا منه؛ فمن واجبك الآن أن تحسن إلى الناس ولا تفسد في الأرض، ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ ذلك لأن الله تعالى خالقُ المخلوقات وربُّها، ومن سعى لِيُفسد خلقه ويدفعهم إلى التناحر والتحارب فلن يحبه الله تعالى. فمثلاً إذا كره المرء ولدًا فلن تحبه أمه. وهناك حكاية إنجليزية أن أحدًا عشق أرملة وأراد الزواج منها، ومن عادة الأوربيين أن أحدهم إذا أراد الزواج من امرأة فلا يطلب يدها من أهلها فقط، بل يحاول استمالتها أوّلاً، لأن الزواج عندهم يتم بعد الصداقة بين الفتى والفتاة، فحاول هذا العاشق استمالة الأرملة، فلم ينجح، فذكر ذلك لبعض أصدقائه، فسأله: أعندها ولد؟ قال: نعم. قال: إذًا، قد حُلّت المشكلة. عليك أن تداعب ولدها وتحتضنه، فترغب فيك تلقائيًا.

فثبت أن المرء إذا كره حبيب أحد فلن يحظى بحبه أبدًا، ولذلك قال المسيح الموعود ؑ في بيت شعر له بالفارسية:

"خاكم نثار كوچهٔ آل محمد است"

(در ثمين (فارسي) ص ٨٩)

أي ليتني كنتُ غبارًا في طرق ديار آل محمد ﷺ.

لقد كان في آل محمد ﷺ كبار الصالحين، بينما لم يَعُد بعض آله صالحين، ولكن حضرته ؑ يبين هنا أن من أراد حب النبي ﷺ فليحب عائلته ﷺ لأنهم أقاربه، أما إذا ظن أحد أنه سيحظى بحبه ﷺ وإن لم يحب آله فهو مخطئ.

باختصار قد نبه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أنك إذا أفسدت في الأرض فلن يحبك الله لأنه يحب عباده، ومن لم يُحبِبْهم ولم ينصح لهم فلن يحظى بحبه تعالى.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾

التفسير: لما سمع قارون وعظ قومه أصابه الغرور، فقال: أتظنون أني قد حصلت على هذا المال من فراغ؟ إنما كسبته بعلمي وذكائي وجهدي. لم يفكر هذا الغبي أن العقل الذي يفكر به لم يخلقه هو، بل الله تعالى خلقه، وأن الوسائل التي يكسب بها المال لم يخلقها هو بل الله خلقها. كان تفكير قارون كتفكير إنسان هذا العصر الذي يتباهى ويقول بكل غرور إنه قد اخترع دواءً كذا واكتشف حقنة كذا، وينسى أن العناصر التي صُنع منها هذا الدواء أو الحقنة إنما هي من خلق الله تعالى. فمثلاً يتباهى باكتشافه حقنة الزُّهري، وينسى أن الفوسفور والزرنيخ اللذين يُستعملان في هذه الحقنة هما من خلق الله تعالى. ثم إن القار المستعمَل في صنع نصف الأدوية الكيماوية اليوم هو من خلق الله تعالى. وهذا يعني أنه تعالى يحسن إلى الإنسان، ولكنه يعزو كل فضل إلى نفسه. وبدلاً من أن يقدر صنيعه تعالى نراه يقول: أنا فعلت كذا بذكائي وأنا عملت كذا بجهدي؛ مع أن الله تعالى هو الذي يهيئ الوسائل والأسباب لإنجاز أي عمل، وليس هذا فحسب بل هو الذي يأتي بنتيجته أيضًا. فكم من شخص يبذل جهده طوال سنة ليتعلم الحدادة مثلاً فلا يتعلمها، وكم من إنسان يجيد حرفة ولكن لا يجد عملاً، وكم من رجل يكسب مالاً كثيرًا فيسلبه منه الصعاليك. وقد يرجع المرء إلى بيته بمال كثير، فيصاب في بطنه بوجع شديد يقتله، أو يأتي بثوب جميل ولكن يصاب جلده بمرض يمنعه من لبسه. فثبت أن كل شيء يقوم به المرء إنما يتم بفضل الله تعالى فقط، فإذا اكتسب الرزق بجهده فإنما هو هبة من الله تعالى في الواقع، فمن واجبه إذًا أن يزداد تواضعًا لله تعالى كلما نال رفعة. ألا يرى أنه كلما يوضع عليه حمل ثقيل أصبح أكثر

انحناءً؟ إذًا، فمن وجد مالاً فمثله كمن وُضع على رأسه حمل ثقيل، فعليه أن يزداد حلمًا وتواضعًا بدلاً من أن يتكبر ويحتقر الآخرين. وكل من اعتبر ماله وثراءه وعزته هبةً ربانية ازداد تواضعًا للآخرين، ومن عزاها إلى ذكائه وجهده أصابه الكبر والغرور، وابتعد عن الله تعالى في نهاية المطاف. ومن أجل ذلك لا يمنعنا الإسلام من السعي للرقي والتقدم، وإنما يقول ابذلوا ما شئتم من الجهود للتقدم، ولكن يجب أن تكونوا أكثر تواضعًا كلما أحرزتم رقيًا. أما إذا أصابكم الرقي بالزهو والغرور فلن يرضى الله عنكم بل يسخط عليكم، ولن يكون رقيكم رحمةً، بل يصبح لكم ابتلاءً وفتنة، وتُحرمون من أنوار السماء في المستقبل.

ورد في الحديث أن شخصًا جاء النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إنني في ضيق شديد، فادعُ الله تعالى أن يبسط عليّ الرزق. فدعا له النبي ﷺ، فأصبح ببركة دعائه من الأثرياء الكبار فكانت مواشيه تملأ الوادي - إن أهل المدن يصعب عليهم تربية جاموس أو بقرة واحدة أيضًا، فمن الصعب عليهم أن يصدقوا أن شخصًا واحدًا يمكن أن يملك هذا القدر من المواشي، ولكن الذين يعيشون في القرى يعرفون أن الرجل الواحد يملك الكثير منها. فذات مرة ذهبت لزيارة ضيعات جماعتنا بالسند، فرأيت هناك قطيعًا كبيرًا يضم ما بين ثلاث مئة وأربع مئة من الأنعام، فسألت: هل هذه المواشي لأهل هذه القرية؟ فقال مدير ضيعتنا متبسمًا: إن هذا القطيع لشخص واحد - فأرسل النبي ﷺ بعض صحابته إلى هذا الشخص الثري ليأخذ منه زكاة مواشيه، فلما طلب الرسول منه زكاتها أجاب: ما هذا؟ ليس عندنا ما نطعم به المواشي وإن هؤلاء لا يفكرون في مشاكلنا وهمومنا، بل لا همَّ لهم إلا جمع التبرعات. فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ قال: لن نقبل منه الزكاة أبدًا. فقيل للرجل: أيها الشقي لقد أصبحت ثريًا ببركة دعاء النبي ﷺ، وقد رفضت أداء الزكاة له؟ فندم وجاء النبي ﷺ بمال الزكاة، فقال ﷺ: لن نقبل منك الزكاة الآن. فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه، ثم عاد إلى النبي ﷺ في السنة التالية بالزكاة، ولكن النبي ﷺ رفض أن يأخذ ماله. ولم يزل الرجل يأتي النبي ﷺ بمال الزكاة كل سنة، وكان ﷺ يرفض ماله كل مرة حتى توفي ﷺ. فأتى أبا بكر ؓ بصدقته، فقال له: لم

يقبلها رسول الله ﷺ وأقبَلُها؟ يبدو أن الرجل كان في قلبه شيء من الصلاح فكان يأتي بالزكاة كل سنة، ولكن لم تُقبل منه. (مجمع البيان للهيثمي، كتاب التفسير، ســورة البراءة)

ومن الناس مَن إذا تقدم لامتحان كتب إلينا طالبًا الدعاء لينجح فيه ويتقلد منصبًا مرموقًا، وإذا حصلت له بُغيته أخذ يبتعد عن إخوانه الأحمديين، فتارة يقول إن المجتمع الأحمدي ليس مجتمعًا راقيًا، وتارة أخرى يقول ليس عند الأحمديين مال، وتارة ثالثة يقول ليست بيوتهم أنيقة، وينسى أنه كان يطلب منا الدعاء في يوم من الأيام. إن هذا التصرف يدل أن قلوب هؤلاء خالية من الإيمان إذ لو كانوا مؤمنين حقًّا لخدموا الدين وأهله وجماعته و لم يصابوا بالكِبر والغرور.

لقد رأيت أن الفقراء هم أكثر تواضعًا وانكسارًا، ولذلك يدخل الفقراء في جماعة الأنبياء عادة، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى يريد أن يظل هؤلاء فقراء دائمًا، وإنما يوفق الفقراء لخدمة دينه لأنهم بريئون من الطمع والجشع وهم أكثر شكرًا لله تعالى. لا شك أنه يوجد في جماعتنا أثرياء؛ بعضهم مخلصون، وبعضهم يرضون بما نقول إذا ضغطنا عليهم، ولكن بعضهم يهربون من أداء التبرعات، وإذا جلسوا في مجلس قالوا: ما هذه المصيبة؟ لماذا تطالبنا الجماعة بالتبرعات دائمًا؟ أما الفقير الذي دخله خمس وعشرون روبية شهريًا فقط فيدفع التبرعات، وتأخذه الحيرة من الثري الذي لا يدفع التبرعات مع أن دخله ألفان ونصف الألف شهريًا!

إنما السبيل للتخلص من هذه النقائص أن يقدر المرء نعم الله تعالى ويذكر أياديه دائمًا. أما الذي يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾، أو الذي يهرب من أداء التبرعات قائلاً إننا في ضيق من قبل فكيف ننفق في سبيل الدين، أو الذي يقول متضايقًا: لماذا نطالَب بالتبرعات دائمًا، فهؤلاء يُحرمون من بركات الله تعالى. إنما ينال نصيبًا من بركات الله تعالى من اعتبر كل ما يكسبه وكل زيادة تحدث في دخله فضلاً من الله تعالى، سواءً كان دخله روبية أو عشرين أو مئة أو ألفًا. ومثل هذا الإنسان إذا طولب بالإنفاق في سبيل الدين فلن يعتبره مصيبة لأنه يعلم أن كل ما عنده ليس مِلكًا له، إنما هو عطية من الله تعالى. إذا ترك المرء عندك أمانة، ثم

جاءك يطلبها، فهل تعتبر ردّ أمانته له مصيبة؟ كذلك لو أيقنتَ في قلبك أن كل ما عندك من مال إنما أعطاك الله بفضله، فلن تتردد في إنفاقه في سبيله تعالى أبدًا، لأنك ستؤمن بأنه ليس مِلكًا لك بل هو لله تعالى. ومثاله ما يفعله أهل بلادنا، فإن أحدًا منهم إذا أراد أن يخرج في سفر لبضعة أيام ترك بقرته عند جاره قائلا: اشربْ لبنها في غيابي وسآخذها عندما أعود من السفر. وكل إنسان شريف يردّ البقرة لصاحبها عند عودته شاكرًا إياه بأنه قد انتفع منها كثيرًا، ولئيمٌ من يقول في نفسه: لماذا يسترد مني الآن بقرته، ولماذا لا يدَعها عندي؟

بيد أن هناك فرقًا كبيرًا، وهو أن الناس إذا تركوا أمانة عند أحد استردّوها كاملةً، أما الله تعالى فلا يسترد أمانته كلها بل يأخذ جزءًا منها. إذًا، فإن الله تعالى مؤتمِن فريد من نوعه، ولا شك أن الذي يتضايق عند سؤال الله تعالى إياه فهو لئيم حقير، إذ انتفع بنعم الله تعالى ليلَ نهارَ وإذا طلب الله منه شيئًا أخذ يصرخ ويصيح بأن الله ظلمني! الحق أن كل هذه الأمور إنما هي نتيجة لنكران نِعم الله تعالى وأفضاله، ولذلك قد نبهنا الله تعالى مرارًا بأن نتذكّر أفضاله ونشكره على نعمه دائمًا، ذلك لأن الإنسان إذا اعتبر كل ما عنده عطاء من الله تعالى وقدَّر نعمه اكتمل إيمانه.

وردّ الله ﷻ على قول قارون هذا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾. وهذا دليل على أن ثروة قارون لم تكن ثروة شخصية وإلا لقال الله تعالى كم من ثري كبير دمرناه قبله، ولكنه تعالى يذكر هنا الأمم الثرية القوية التي دمرها، مما يدل أن الثروة التي حازها قارون كانت ثروة قومية.. أعني أنه كان مسؤولاً كبيرًا في الحكومة المصرية وليس الحديث هنا عن ثروته الشخصية.

أما قول الله تعالى: ﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فبيّن فيه أن المجرم يُعرف بأعماله ولا تكون ثمة حاجة لسؤاله، ذلك أن العقاب الذي ينـــزل من عند الله تعالى يكون عقابًا طبيعيًا يدل بنفسه على أن المجرم قد استحقه فعلاً. مثلاً لو فقد أحد بصره لعدم استعماله عيونه، أو صار مشلول الأيدي والأرجل لعدم استعماله

إياها، أو فقد قوة التدبر والتفكر لعدم استعماله عقله، أو صار محرومًا من الهدى لإنكاره التعاليم الحقة، لعلِم الجميع أن عقابه بحسب أعماله ولن يعترضوا على عقابه.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ
عَظِيمٍ ﴿٨٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ
خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا
ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨١﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ
لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ
يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

وَيْكَأَنَّ: وَيْ كلمةُ تعجُّب، يقال: وَيْ لزيد، أي أعجب به، ويكنى بها عن الويل، تقول: وَيْكَ اسمعْ قولي، وتدخل على كان المخففة والمشددة. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ يعني أن قارون خرج يومًا في أُهبته بين الحاشية والحراس ليتباهى أمام قومه بما يتمتع به من سلطة وعزة ونفوذ، لِيُريهم كيف يسعى الناس ليؤدوا له مراسم التبجيل والاحترام حتى يحظوا بقربه. وقد فعل ذلك لِيُهين قومه ويؤكد لهم أن النجاح في طاعة فرعون.

كان فرعون عدوًا لدودًا لبني إسرائيل وأراد القضاء عليهم نهائيًا، ومن الطرق التي اتخذها لتحقيق هدفه أنه جعل أحدًا منهم - وهو قارون - مسؤولاً في حكومته، وكان في ذلك غرضان: أحدهما أن يتظاهر أنه يقدّر أهل الكفاءة من بني إسرائيل، وثانيهما أن لا يُنسب إليه الظلم الذي يصبّه قارون على قومه، وإنما يقول الناس لم يظلمهم إلا واحد منهم، فما ذنب فرعون في ذلك؟ وهي نفس الإستراتيجية التي اتبعها الإنجليز إبان حكمهم على الهند، إذ وضعوا الهنود أنفسهم في بعض المناصب الصغيرة، فظلموا قومهم أكثر من الإنجليز الحاكمين لِيُرضوهم. وكان قارون أيضًا من قبيل المسؤولين الظالمين إذ كان يطمح دائمًا لإهانة قومه بني إسرائيل بغية إرضاء فرعون، فخرج يومًا في موكب مع حاشيته وعماله، وأمر بني إسرائيل بالاجتماع في مكان ليروا موكبه ويبكوا على هوانهم وقلة حيلتهم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. اعلم أن كل قوم يوجد بينهم بعض الضعفاء الذين يحبون عزة الدنيا وثروتها ويؤثرونها على الدين والورع والتقوى. فلما رأى الضعفاء من بني إسرائيل موكب قارون غبطوه، وأخذوا يقولون: ليتنا كنا مثل قارون، إنه لذو حظ عظيم إذ نال النفوذ والسلطة لهذه الدرجة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.. أي لما أثنى الضعفاء على قارون، بل تحسّروا على حرمانهم مما عند قارون من عزة ومنعة نصَحهم أولو العلم منهم.. أي العلماء الربانيون منهم.. وقالوا لماذا تموتون حسرةً من أجل هذه الحياة التي هي أيام معدودة وستنتهي لا محالة، إنما الحياة الأبدية التي تبدأ بعد الموت والتي سينال فيها المؤمنون الذين يعملون

بحسب إيمانهم جزاءً لا تساوي أمامه مُتع الدنيا وزينتها شيئًا. ماذا ينفعكم لو عشتم في الدنيا عيشة رخاء مئة سنة ولم يكن لكم شيء من الراحة في الحياة الآخرة غير المحدودة؟ فاسعوا لنيل الراحة الأبدية، ولا تركنوا إلى الدنيا ومُتعها.

أما قوله تعالى: ﴿وَلا يُلَقَّاهَا إلا الصَّابِرُونَ﴾ فبيّن فيه أن ثواب الآخرة كما هو عظيم فهو يتطلب من المرء تضحية عظيمة، ولا يُلَقّاها إلا الصابرون. والصبر لا يعني ترك الجزع والفزع عند حلول بليّة فحسب، بل يعني أيضًا مقاومة الأفكار السيئة والثبات على الخير (الأقرب). إذًا، فقد نصحهم الربانيون منهم بإيثار الدين على الدنيا محذرين إياهم أنهم لن يتبوأوا هذا المقام إلا إذا قاوموا التأثير السيئ الذي تولد في قلوبهم برؤية ما يتمتع به قارون وأمثاله من مجد مادي، وتجنبوا دائمًا السيئات ولم يسلكوا طريق الظلم كقارون، وثابروا على الحسنات، وعندها ستتفتح عيونهم الروحانية فيدركون أن الدنيا حقيرة ذليلة إزاء الحياة الآخرة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾.. أي لما تجاوزت مظالم قارون الحد حلّ به العذاب. كان مصدر اضطهاده لبني إسرائيل تلك العزة والمنعة التي كان يتمتع بها بسبب رضا فرعون عنه، ولكن الله تعالى لما أراد إهلاكه صار فجأةً ذليلاً مهانًا مع عائلته. ورد في التوراة أن الأرض انشقت وابتلعت قارون وجنوده (عدد ١٦: ٣١-٣٢)، هذا يعني أنه هلك نتيجة زلزال. علمًا أن الخسف يعني الدفن في الأرض، ويعني أيضًا الخزي والإهانة حيث يقال: "خسَف فلانًا: أذلّه وحمّله ما يكرهه" (الأقرب)، وهذا هو المراد هنا بقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾.. أي ضربنا عليه وعلى عائلته الذلة في الدنيا.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ﴾ فالمراد أنه أصبح ذليلاً صاغرًا في البلاد بحيث لم يرد أحد ذكر اسمه ولم يخرج أحد لنصرته.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ فاعلم أن الانتصار هو الامتناع من العدو (الأقرب)، وعليه فالمراد أنه لم يستطع الخلاص من الخزي والهوان باتخاذ تدبير خارجي، كما لم يستطع إنقاذ نفسه من الدمار بعِلمه الذي كان يزهو به.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.. أي لما حل عذاب الله بقارون انفتحت عيون القوم الذين كانوا يغبطونه قائلين ليت لنا مثل ما لقارون من مكانة مرموقة، واعترفوا بأن الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويضيّقه على من يشاء، ولولا أن الله تعالى أحسن إلينا وعفا عنا خطيئة الاغتباط بقارون لشمَلنا العذاب الذي حل به و لم يبق لنا أثر.

وقد تبين من ذلك أن من قام بنصرة المجرمين ومساندهم أو الدفاع عن جرائمهم أو مخالفة الذين يرفعون الصوت ضدهم استوجب العذاب، ولو لم يتب ويستغفر ويغيّر سلوكه ظل في خطر أن يشمله العذاب أيضًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فبيّن فيه أن معارضي الأنبياء يحرزون نجاحًا مؤقتًا في الدنيا، ولكن الفلاح - الذي يعني إصابة الهدف - لا يكون حليفهم أبدًا، بل يهلكون حتمًا.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٤﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه قد جعل نِعم الحياة الآخرة خالصةً للذين لا يريدون أن يتكبروا في الأرض بإهانة الناس ولا يرغبون في الفتنة والفساد. ولا شك أن الناس يظنون في البداية أن النجاح والعز محال باتباع سبيل السلام، وإنما سبيله إسقاط الآخرين وإثارة الفتنة في البلاد. ولكن لا ينال العز في نهاية المطاف إلا المتقون، ولا تكون العاقبة إلا لأهل الصلاح الذين يحبون السلام. أما الذين يثيرون الفتنة والفساد في الأرض فقد يحرزون النجاح المؤقت إلى حد ما، ولكن عاقبتهم تكون وخيمة، ويعاقَبون على أعمالهم في الدنيا، ثم يكونون في الآخرة من الصاغرين المهانين.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٥﴾

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا قانونه عن جزاء الحسنة والسيئة، فبين أن الذي يعمل حسنة يجزى بأكثر مما عمل، وأن الذي يعمل سيئة فلن يجزى إلا بقدرها.

والحق أن الحسنات التي يعملها الإنسان إنما يعملها مستعينًا بما وهبه الله تعالى من قوى وكفاءات، فلو لم يُعطَ على حسناته أي جزاء لم يكن هناك محل للاعتراض، إذ إن الأسباب التي استعان بها في فعل الخير إنما هي من خلق الله تعالى. فهو -مثلاً- لم يخلق يده التي يعمل بها عملاً حسنًا، بل الله خلَقها، كما لم يخلق القوة الكامنة في يده لإنجاز أي شيء، إنما هي من خلق الله تعالى. فإذا سقى بعضَ العطاشى مثلاً، فإن الماء الذي سقاه هو من خلق الله، والكوب الذي سقى به هو مصنوع بمادة خلقها الله أيضًا، ثم إن العقل الذي دفعه إلى هذا الخير أيضًا من خلق الله. فما دام كل شيء هو من خلق الله تعالى، وما دامت القوى التي يعمل بها المرء عملاً حسنًا هي هبة ربانية، فلا يستحق على أعماله أي جزاء في الواقع حتى ولو ضحى بحياته في سبيله تعالى، لأن الله هو خالق الإنسان ومالكُ كل الأشياء التي يملكها. ونعم ما قال الشاعر "غالب" بهذا المعنى في قوله باللغة الأردية:

جان دی، دی ہوئی اسی کی تھی

حق تو یہ ہے کہ حق ادا نہ ہوا

(شرح ديوان غالب ص ٨٣)

أي لو ضحى المرء بحياته في سبيل الله تعالى فأيضًا لا يمكن أن يسمى فعلُه تضحيةً لأنه تعالى هو الذي وهبه الحياة، ومَثلُه في الحقيقة كشخص ردَّ الشيءَ لصاحبه بعد أن استعمله سنوات طويلة. إذًا، فلا بد للإنسان من أن يشكر الله تعالى في هذه الحالة أيضًا، ولا يحق له الادعاء بأنه قد قام بتضحية.

وبرغم أن المرء لا يقوم بأي حسنة إلا بفضل ما أعطاه الله من قوى ولو لم يُجْزَ عليها لما كان ثمة حرج، إلا أن الله تعالى لا يمارس مالكِيّتَه لهذه القوى والأشياء بحيث يحرم الإنسان من جزاء أعماله، بل يعامله كأنه قد قام بها بقوة ذاتية أو بأسباب أوجدها بنفسه، ثم لا يجزيه الله على حسناته جزاء مساويًا لها بل يزيد في الجزاء كثيرًا. أما الذي يعمل السيئة فإن الله تعالى يقبل توبته ويعفو عنه، وإذا لم يتب فيجزيه بقدر معصيته فقط. وكأن الله تعالى يعامل الأبرار بإحسان، ويعامل الآثمين بإنصاف حيث يجزيهم بقدر آثامهم لا أكثر منها.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٦﴾

التفسير: يذكر الله تعالى الآن أهم حدث في حياة الرسول ﷺ كنبوءةٍ بأن معارضي الأنبياء سيهلكون حتمًا مهما بلغوا من القوة، وأن المؤمنين سينتصرون لا محالة، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.. أي أن الله الذي أنــزل عليك القرآن وفرض على الناس طاعته يحلف بنفسه أنه لا بد أن يعود بك إلى المكان الذي يعود إليه الناس مرة بعد أخرى. وما هو ذلك المكان الذي يعود إليه الناس مرارًا؟ إنه ذلك المكان الذي جعلناه: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾(البقرة:١٢٦).

واعلم أن الله تعالى لو قال هنا: "لرادُّك إلى مَثابة" بدلاً من قوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ لم يبق هناك خفاء في الأمر، ولكنه تعالى استعمل لفظ ﴿مَعَادٍ﴾ وهو مرادف لمثابةٍ، وهكذا أدلى بالنبوءة بدون أن يزول منها عنصر الخفاء أيضًا.

فالله تعالى يقول هنا لنبيه ﷺ حالفًا بذاته بأني سأعود بك ثانية إلى هذا المقام الذي يأتي إليه الناس بنية الحج والثواب.. أي إلى مكة المكرمة. والبديهي أنه لا يعاد بالمرء إلى مكان إلا إذا كان قد غادره، أما الذي لم يغادره فكيف يعاد به إليه؟

فثبت أن هذه الآية تتضمن نبوءتين عظيمتين: أولاهما: أن النبي ﷺ سيضطر للهجرة من مكة، وثانيتهما: أنه سيرجع إليها بعد الهجرة فاتحًا منتصرًا.

كانت هذه الآية تُعتبر بالغة الأهمية في القرون الأولى للإسلام حتى وقع بعض الحمقى بسببها في خدعة كبيرة، حيث إن عبد الله بن سبأ - الذي أثار فتنة كبيرة في الإسلام وقاد الحركة المعادية لعثمان والتي قتلته وحاربت عليًا، رضي الله عنهما- كان يستنتج من هذه الآية أن الإسلام يقول بالتناسخ، فكان يزعم أن المراد من ﴿مَعَادٍ﴾ هنا هو الدنيا وأن هذه الآية تعني أن الله تعالى سيعود بنبيه إلى الدنيا ثانية. (الطبري: سنة ٣٥)

لا شك أن الذين يكونون أمثال الأنبياء وأظلالهم يُبعَثون إلى الدنيا دائمًا كونهم أحق بذلك من غيرهم. فإذا كان المثل الإنجليزي history repeats itself - التاريخ يعيد نفسه - حقًّا فلا شك أن الأنبياء يظهرون في الدنيا مرة بعد أخرى ظهورًا مجازيًا وسيظهرون هكذا في المستقبل، إذ لو كان هناك شيء جدير بالإعادة فهو الشيء النافع، بيد أن هذه الآية لا تقول بالتناسخ أبدًا، كما أن كلمة ﴿مَعَادٍ﴾ أيضًا لا تعني هذه الدنيا، بل إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إنما هو نبوءة بأن محمدًا ﷺ سيهاجر من مكة - التي جُعلت مركزًا للعبادة والتي يأتي الناس إليها مرة بعد أخرى للحج والعمرة - ثم يعود إليها ثانية.

وهذا يعني أن الله تعالى قد أخبر نبيه ﷺ وهو لا يزال في مكة أن الكافرين سيُخرجونه من وطنه في يوم من الأيام، ولكن الله الذي أنــزل عليه القرآن وفرضه على الناس يُقسم بنفسه أنه سيعود بنبيّه إلى وطنه بعد أن يخرجه العدو منه.

انظرْ إلى روعة إخبار الله تعالى نبيَّه بالهجرة، فبدلاً من أن يخبره أنه سيضطر للهجرة في يوم من الأيام فيصيب قلبه ﷺ بالصدمة؛ بشّره بالعودة إلى هذا المكان ثانية، وحيث إن عودة المرء إلى مكان يعني أنه قد خرج منه أولاً، فكان في بشارة عودته إلى مكة نبأٌ بأنه سيهاجر منها في يوم من الأيام، وهكذا تتحقق مماثلته ﷺ بموسى عليه السلام.

لا شك أن علماء المسلمين متفقون على أن سورة القصص هذه مكية، ولكن المستشرقين المسيحيين أيضًا يعتبرونها مكية (تفسير القرآن لويري)؛ وهكذا قد شهد هؤلاء الأعداء بأنفسهم على صدق محمد ﷺ، وبيان ذلك أنه إذا كانت هذه السورة مكية فكيف علِم محمد ﷺ مسبقًا أنه سيهاجر من مكة ثم يدخلها فاتحًا منتصرًا؟ فما دام النبي ﷺ يجهل ما يخفيه له المستقبل، ثم يدلي بهذه النبوءة التي تحققت فعلاً، فلا شك أنها دليل ساطع على صدقه. فالحق أن هؤلاء المستشرقين المسيحيين قد وقعوا في المأزق باعتبار هذه السورة مكية، إذ أكدوا بذلك على صدق النبي ﷺ. ولو أنهم قالوا إنها سورة مدَنية لقال قائل إن محمدًا ﷺ أدلى بهذه النبوءة بعد أن نال القوة في المدينة، ولكن المستشرقين قد اعتبروا هذه السورة مكية وبالتالي قد أكدوا بأنفسهم على صدقه ﷺ.

والغريب أن بعض المفسرين المسلمين اعتبر بعض آيات هذه السورة مدَنية، ولكن المستشرقين يعتبرونها كلها مكية، وبالتالي يؤكدون صدق الإسلام. إن بعضًا منهم يتباهون عادة بأنهم يعرفون بأسلوب السورة ما إذا كانت مكية أو مدنية، وإذا كان ادعاؤهم هذا صحيحًا أفليس مما يدل على فضل القرآن الكريم أن الله تعالى قد أنـــزل فيه هذه السورة التي تضمنت نبأ الهجرة بأسلوب جعَل هؤلاء المستشرقين المسيحيين يعتبرونها مكية، فكان هذا اعترافًا منهم بصحة نبوءة الهجرة والفتح التي نـــزلت في القرآن الكريم في الفترة المكية. إذ لو كان هذا الكتاب افتراءَ بشرٍ فكيف علِم أنه سيأتي المستشرقون من أمثال ويري ونولدكه بعد القرآن بقرونٍ، فيعتبرونَ سُوره مكيةً أو مدنيةً بالنظر إلى أسلوبها، فيجب أن يؤلف هذه السورة بأسلوب يجعلهم يعتبرونها مكية بدون تردد.

ثم أليس عجيبًا أن الذي أنـــزل القرآن الكريم في زمن محمد ﷺ كان يعلم الاعتراضات التي سيثيرها المستشرقون النصارى في القرن العشرين، بينما لم يعرف هؤلاء النصارى أنفسهم كيف سيقومون بتفسير هذه الآيات. إنهم يطعنون في آية ما، فنفسرها بما يدحض طعنهم تمامًا، فينكشف فضل القرآن الكريم وصدق الرسول ﷺ على العالم، مما يشكل دليلاً أن القرآن الكريم ليس من تأليف بشر، بل

قد أنــزله عالم الغيب، وأنه مليء بأخبار الغيب بحيث تنطوي كل آية منه على خبر من الغيب. وكما يقال بلغتنا: "تحت كل حجر شيء"، كذلك إذا أخذت أي آية من القرآن الكريم وجدت تحتها معجزة، وهكذا سيتأكد لك أن القرآن الكريم زاخر بالمعجزات.

واعلم أن نبأ هجرة النبي ﷺ لم يرد في هذه الآية وحدها، بل هناك آيات أخرى في السور المكية قد أنبأت عن هجرته بكل وضوح. فمثلاً قال الله تعالى لنبيه ﷺ في سورة البلد وهي مكية ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۞ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾(البلد:٢-٣).. أي أُقدّم بلدة مكة دليلاً على بطلان دعاوى الكافرين، وأُعلن أنك يا محمد ستحل في هذه البلدة في يوم من الأيام مظفرًا منصورًا.

وهناك آية أخرى تنبأت عن هجرته ﷺ وعودته إلى مكة المكرمة منتصرًا وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾(الإسراء:٨١).. أي يا رب، اجعَلْ عودتي إلى مكة ناجحة مباركة وآية باقية، واجعل خروجي منها أيضًا ناجحًا مباركًا وآية باقية، واكتب لي الغلبة من عندك، واجعل أعدائي من المغلوبين.

يثير البعض هنا اعتراضًا ويقول: لماذا ذكر القرآن الكريم الدخولَ أوّلاً مع أن محمدًا ﷺ خرج من مكة أوّلاً ثم دخلها؟ كان المفروض أن يقال "رب أخرِجْني مُخرَجَ صدق وأدخلْني مُدخَلَ صدقٍ" عوضًا عن يقال: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

والجواب أن من سنة الله ﷻ أنه لا يخوّف أنبياءه بل يضيء لهم بارقة الأمل واليقين دائمًا. فلو قال الله تعالى هنا "رب أخرِجْني مُخرَجَ صدقٍ" لأصيب نبيه ﷺ بالصدمة والقلق ولقال في نفسه: لا أدري ما إذا كان خروجي من مكة مؤقتًا أم للأبد؛ ولذلك بشّره الله تعالى بدخوله فيها قبل خروجه ليطمئن قلبه ويعلم أن خروجه مؤقت إذ يريد الله تعالى أن يعود به إليها ثانية.

أما قوله تعالى: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، فاعلم أن الصدق إذا نُسب إلى شيء دلّ على عظمته وروعته. فكأن الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ هنا أن يدعو:

رب اجعل خروجي من مكة ودخولي فيها حدثًا تذكاريًا تذكره الدنيا إلى يوم القيامة. وما أروع ما حقق الله به دعاء رسوله ﷺ! وكم كان خروجه رائعًا، وكم كان دخوله عظيمًا. فعندما خرج النبي ﷺ من بيته كان الكفار يحاصرونه، ولكنه خرج أمام أعينهم بكل شجاعة حتى رأوه وهو يمر من بينهم ولكن لم يخطر بباهم أنه محمد بل ظنوه شخصًا آخر، وظلوا يطلّون مِن خلال الباب داخل بيته طوال الليل. وكان علي ؓ نائمًا في سريره ﷺ، فلم يخطر بباهم أنه قد خرج بل ظنوا أنه نائم في سريره. وفي الصباح نهض من السرير علي ؓ بدل محمد ﷺ، فكانت آية عظيمة.

ثم ذهب النبي ﷺ واختفى في غار ثور الواقع على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال من مكة. وقد ذهبت إلى جبل ثور بنية أن أرى ذلك الغار، ولكن في قلبي شيء من الضعف يمنعني من صعود الجبل، وقد حاولت الصعود فعلاً، ولكن لم أقدر على ذلك بعد حوالي مئة قدم. فقلت لبعض زملائي أن يصعد ويرى المغارة ويصفها لي. فمما حكى لي أنها مغارة كبيرة تسع عدة أقدام، وأنها واسعة من مدخلها أيضًا وكأنها غرفة تبلغ عدة أقدام طولاً وعرضًا.

المهم أن النبي ﷺ خرج مع أبي بكر بالليل واختبأ في تلك المغارة. وفي الصباح علم أهل مكة بغيابه، فقرروا بعد التشاور ملاحقته، وجعلوا لمن يأتي بمحمد مكافأة قدرها مئة من الإبل، ثم خرجوا على آثارهما مع قصّاص الأثر. فتتبع قصّاص الأثر أثرهما وذهب بهم إلى مدخل غار ثور، وقال إن محمدًا إما مختبئ هنا أو صعد إلى السماء. وبرغم أن أهل مكة كانوا يثِقون بقصّاصي الأثر كثيرًا، إلا أنهم لم يصدّقوه، فلم يتجاسروا على أن يتقدموا وينظروا في المغارة مع أنها كانت تسع عدة أقدام طولاً وعرضًا، وكان مدخلها واسعًا.

فما أعظمَها من آية أظهرها الله تعالى! إذ لم يصدّقوا قول قصّاص الأثر، بل ضحكوا عليه واعتبروا قوله ضربًا من الهذيان. لقد كانوا قريبين جدًا من النبي ﷺ حتى أحس أبو بكر بالخطر وهمس في أذن النبي ﷺ معربًا عن قلقه، فقال له النبي ﷺ: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾.. أي إذا كان هؤلاء قد أتوا ووقفوا على رؤوسنا فإن

الله معنا، فلن يرونا أبدًا؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إني لا أخاف على نفسي لأني إنسان عادي، ولئن قتلوني سيهلك شخص واحد، ولكنهم لو أصابوك بأذى فإن العالم كله سيهلك. فظل الكفار يتكلمون عند مدخل المغارة بعض الوقت، ثم عادوا أدراجهم إلى مكة. وفي اليوم الثالث خرج النبي ﷺ وغادر إلى المدينة. (السيرة النبوية، البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين)

فكم كان خروج النبي ﷺ من مكة رائعًا! والحق أن كل ذلك قد تم ببركة الدعاء الذي علّمه الله تعالى بقوله: ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.. أي إذا أخرجتَني يا رب من مكة فأخرِجْني بحيث يصبح خروجي منها حدثًا رائعًا يذكره الناس إلى يوم القيامة. هل يمكن أن ينسى المرء هذا الحادث؟ لقد جاءوا لاغتيال محمد ﷺ في بيته وضربوا الحصار حول بيته، ولكنه خرج من بينهم يشق صفوفهم دون أن يفطنوا له. ثم خرجوا على آثاره مع قصّاص الأثر، فيقول لهم بكل ثقة إما أن محمدًا موجود في المغارة أو صعد إلى السماء. ولكنهم لا يصدقونه رغم ثقتهم به، ولا يبحثون عنه في المغارة، بل يرجعون أدراجهم مستهزئين بقصاص الأثر ضاحكين على عقله.

ثم إن دعاء النبي ﷺ: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أيضًا قد تحقق بشكل رائع. كان أهل مكة ذوي قوة ومنعة، ولكن الله تعالى كسر شوكتهم تمامًا وأدخل محمدًا ﷺ في مكة فاتحًا منتصرًا بحيث إن ألد أعدائه أصبحوا خاضعين منقادين له. كانت هند تعادي الإسلام عداءً شديدًا حتى إنها مثلت بحمزة رضي الله عنه حيث بقرت بطنه وأخرجت كبده وقطّعته، وكان النبي ﷺ قد أمر بقتلها، ولكنها اختفت ثم جاءت متنكرة بين النساء اللواتي جئن للبيعة يوم الفتح. فلما قال لهن النبي ﷺ في أثناء البيعة: قلن لن نشرك بالله، لم تملك هند نفسها وقالت: يا رسول الله، هل نشرك بالله تعالى بعد كل هذا؟ كنا ذوي مال وكنتَ فقيرًا، وكنا ذوي أنصار وكنت وحيدًا، لو كانت أصنامنا تملك شيئًا لما انتصرت علينا. فغلبتك علينا رغم ما كنا

نتمتع به من مال وقوة وأنصار ونفوذ، لدليلٌ واضح على أن أصنامنا لا تملك شيئًا.*

هذه هي الآية العظيمة التي ظهرت على يد النبي ﷺ يوم فتح مكة، والتي أنبأ الله عنها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

هذا، وعندما نفحص الصحف السابقة نجدها أيضًا تنبئ بأن محمدًا رسول الله ﷺ سيضطر للهجرة من وطنه مكة، ثم يعود ويدخل فيها فاتحًا منتصرًا وفي رفقته عشرة آلاف قدوسي. وقد وردت هذه النبوءة في سفر إشعياء كالآتي: "وحيٌ من جهة بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب تَبيتينَ يا قوافلَ الددانيين. هاتُوا ماءً لملاقاة العطشان، يا سكانَ أرضِ تَيْماءَ، وافُوا الهاربَ بخُبزٍ؛ فإنهم مِن أمام السيوف قد هربوا. مِن أمام السيف المسلول ومِن أمام القوس المشدودة ومِن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد: في مُدّة سنة كسنة الأجير يفنى كلُّ مجد قِيدار. وبقيةُ عددِ قِسيِّ أبطالِ بني قِيدار تقلُّ، لأن الربَّ إلهَ إسرائيل قد تكلَّمَ." (إشعياء ٢١: ١٣- ١٧)

تخاطب هذه النبوءة قافلةَ الددانيّين سكّانَ أرض تَيماء بأن يخرجوا بالخبز والماء لاستقبال القوم الذين ظلوا عرضة للاضطهاد تحت السيوف المسلولة والأقواس المشدودة من قبل معارضيهم فترة طويلة، وقد هربوا الآن لاجئين إلى بلادهم.

و"ددان" اسم أحد أحفاد إبراهيم عليه السلام الذي كان من ابنه "يَقْشان" المولود من زوجته الثالثة "قَطُورة" (التكوين ٢٥: ١-٢). وأما تَيماء فهو الابن التاسع لإسماعيل عليه السلام ، وأما قِيدار فهو ابنه الثاني (أخبار الأيام الأول ١ : ٢٩-٣٠). ويتضح من التوراة أن بني إسماعيل وبني قَطورة سكنوا في الشرق.. أي في الجزيرة العربية (التكوين ٢٥: ٦). وبالفعل قد سكن أولاد "ددان" أوّلاً في اليمن، ثم انتشرت قبائلهم في مختلف أنحاء الجزيرة العربية وكان منهم قبيلتا الأوس والخزرج. وكذلك سكن أولاد تَيماء

* هناك رواية تنسب هذا المعنى إلى زوج هند أبي سفيان حيث ورد أن الزبير بن العوّام قال لأبي سفيان يوم الفتح حين كُسر صنمُ هُبَل: "يا أبا سفيان، قد كُسر هُبَل! أما إنك قد كنتَ منه يومَ أُحُد في غرور، حين تزعم أنه قد أنعمَ! فقال أبو سفيان: دَعْ هذا عنك يا ابنَ العوّام، فقد أَرَى لو كان مع إلهِ محمّدٍ غيرُه لكان غيرَ ما كان." (كتاب المغازي للواقدي: شأن غزوة الفتح ج ٢ ص ٨٣٢) (المترجم)

في المدينة وضواحيها. أما أولاد قِيدار فسكنوا في مكة وضواحيها، وقريش من نسلهم. (البداية والنهاية: ذكر أخبار العرب، وتاريخ ابن خلدون: الجزء الثاني، الخبر عن بني عدنان وأنسابهم)

لقد قال النبي إشعياء في هذه النبوءة لذرية ددان وتيماء المقيمة في المدينة وما حولها أنه سيأتي زمان يهاجر فيه محمد رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة هروبًا من اضطهاد قريش، فمن واجبكم أن تستقبلوه بحفاوة وتعينوه بالخبز والماء.. أي أن تفتحوا بيوتكم لهم وتعتبروا خدمتهم بركةً ورحمة. وطبقًا لهذه النبوءة خرج النبي ﷺ مع أبي بكر من مكة تحت ظلال السيوف المسلولة في أيدي الأعداء الذين حاصروا بيته بنيّة قتله، ولكن الله تعالى أظهر آية قدرته فأخرج نبيه من بينهم من حيث لا يدرون.

كما تنبئ هذه النبوءة بوقوع حرب بين النبي ﷺ وأعدائه بعد الهجرة بسنة، فيُهزم فيها العدو وتدمّر قوة قريش كلها. وبالفعل وبعد سنة واحدة من هجرة النبي ﷺ تمامًا وقعت غزوة بدر التي انتصر فيها الإسلام انتصارًا ساحقًا، وفرّت قريش من ساحة القتال تاركة وراءها جثث قادها وأبطالها. (البخاري: كتاب المغازي، باب دعاء النبي ﷺ على كفار قريش)

هذه النبوءة تتحدث عن الهجرة، أما نبوءة فتح مكة فقد أدلى بها موسى عليه السلام بالكلمات التالية: "فقال: جاء الرب مِن سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ مِن جبل فاران، وأتى مع عشرة آلاف قديس* وعن يمينه نار شريعة لهم." (التثنية ٣٣: ١-٢)

والنبي الموعود الذي سيظهر من جبال فاران بحسب هذه النبوءة التوراتية هو محمد رسول الله ﷺ نفسه، حيث تصرح هذه النبوءة أن محمدًا ﷺ سيدخل مكة مع جيش قوامه عشرة آلاف من صحابته، وفي يده نار شريعة. والمراد من نار شريعة أنها تطهّر القلوب، كما يمكن أن يراد بنار شريعة السيف بالنظر إلى مناسبة فتح

---

* الكلمات التي تحتها الخط هي بحسب ما ورد في الطبعة الأردية، إذ قد قد حرّفوها في بعض الطبعات الحديثة خاصة العربية منها. (المترجم)

مكة؛ والمعنى أن أهل مكة عندما يرفضون الخضوع لحكومة القرآن الكريم التي هي رسالة رحمة، وسيحاولون القضاء عليها، فإن الله تعالى سيناول محمدًا ﷺ سيفًا، فيخضع أهل مكة رؤوسهم أمام هذا السيف أخيرًا.

وكان علماء اليهود أيضًا على علم بهذه النبوءة التوراتية عن هجرة النبي ﷺ، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ لما خاف عند نزول أول وحي عليه، وذكر لزوجته خديجة - رضي الله عنها - ما وقع معه، ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ليخبره بالواقع، إذ كان الرجل خبيرًا بصحف الأنبياء السابقين. فلما قص عليه النبي ﷺ قصة نزول الوحي عليه قال: ليتني كنتُ شابًّا حتى أساعدك إذ يُخرجك قومك. ولما سمع النبي ﷺ قوله أخذته الحيرة إذ لم يكن قد أعلن دعواه بعد، وكانت قريش كلها تعتبره صدوقًا أمينًا وتُكرمه. فقال لورقةَ بن نوفل في حيرة: أوَ مُخرجيَّ هم؟ أي أقومي يخرجونني من بينهم؟ قال: نعم بكل تأكيد (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي). مما يدل أن أذهان أهل الكتاب كانت قد تبادرت إلى هذه النبوءات الواردة في صحفهم، وكانوا على علم بأن نبيًا عظيمًا مثل موسى سيبعث بين العرب، وأن قومه سيُخرجونه من مدينته، وأنه سيفر إلى مكان آخر، وسينال هناك القوة، وسيفتح مكة ثانية.

فلما حان ظهور هذه النبوءة أخبر الله نبيَّه ﷺ وهو لا يزال بمكة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.. أي قد اقترب وقت هجرتك، وسيخرجك العدو من مكة فرحًا بأنه قد حقق غايته، ولكن ربك يبشّرك حتى قبل الهجرة أنه سيعود بك إلى هذه المدينة مرةً أخرى ليقضي على الفرحة الزائفة التي يبتهج بها العدو.

ثم يقول الله تعالى لنبيه: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فكيف يمكن أن يفشل مَن يأتي بالهدى وينجح أهل الضلال؟ كلا، بل إن القرار النهائي بيد الله تعالى، فلا بد أن ينجح من يأتي بالهدى ويهلك أعداؤه.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٨﴾

التفسير: أي يا محمد، لقد كان من المستحيل أن يخطر ببالك أن ينـزل عليك كتاب كامل من عند الله تعالى، وإنما هي رحمة ربك التي قضت أن يُنـزل عليك، بحسب نبوءة موسى، كتابًا فيه علاج لكل ما تعانيه الإنسانية وهدى لبني نوع الإنسان كلهم إلى يوم القيامة. أما وقد أنـزلنا هذا الكتاب الكامل، فمن واجبك، يا من تدعي باتّباع محمد، ألا تكون معينًا للكافرين.

لقد فسرتُ ﴿الكتاب﴾ بمعنى الكتاب الكامل لأن اللام في العربية يفيد الكمال أيضًا، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾.. أي أن الحمد الكامل مختص بالله تعالى. إذًا، فالمراد من الكتاب هنا أنه الكتاب الكامل الذي يلبي كل حاجة روحانية للناس.

لا شك أن الخطاب هنا موجه إلى محمد ﷺ، ولكن من أساليب القرآن الكريم أنه يخاطب الرسولَ ﷺ في آيات كثيرة وهو يقصد أفراد أمته، وهنا أيضًا قال الله تعالى: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ وهو يقصد أفراد أمته، ذلك لأن الله تعالى قد سبق أن قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٣-١٦٤). فما دامت عبادة النبي ﷺ وحياته وتضحياته كلها لله تعالى، وما دام ﷺ قد أعلن أنه أول المسلمين، وما دام لم يشرك قبل النبوة ولا بعدها، فكيف يُتصور أن يكون ظهيرًا للكافرين؟! فثبت أن الخطاب هنا موجه إلى أمته ﷺ حيث نبّههم الله تعالى أنه قد أنـزل الكتاب الكامل وهيأ أسباب الخير والبركة للإنسانية جمعاء، فلم تبق هناك حاجة إلى شريعة أخرى إلى يوم القيامة، فلا ينبغي لهم الآن أن يغفلوا عن معارف

هذا الكتاب ويتقاعسوا عن العمل به وإلا سيتسببون في انتشار الغي والضلال في الدنيا ويساعدون الكفار بأعمالهم. ذلك لأن المؤمن والكافر يسلكان طريقين مختلفين، حيث يخرج المؤمن ممسكًا بهذا الكتاب ويسعى لنشره، بينما يحاول الكافر محو هذا الكتاب والقضاء عليه. أما إذا ألقى المؤمن بهذا الكتاب وراء ظهره رغم ادعائه بالإيمان لأصبح مساعدًا للكافر. ولذلك يقول الله تعالى أيها المسلمون أمسكوا بهذا الكتاب بقوة دائمًا ولا تكونوا مساعدين للكفار في نواياهم الخبيثة، حيث يريدون محو اسم الله ورسوله من العالم، بل ثابروا على نشر تعليمه دائمًا.

ثم يوجه الله تعالى نصيحة أخرى للمسلمين فيقول: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾.. أي لا شك أنه كتاب كامل ولا شريعة بعده، ولكن هذا لا يعني أن الآيات الإلهية أيضًا قد انقطع نزولها بعد القرآن الكريم، كلا بل سيستمر نزولها في كل زمن بأشكال مختلفة؛ فحينًا على شكل المجددين، وحينًا آخر بصورة المبعوثين، وحينًا ثالثًا على شكل المعجزات والآيات والتأييدات السماوية. فكلما نزلت عليكم آيات الله.. أي كلما أرى اللهُ تعالى وجهه في مرآة آياته المختلفة للنهوض بكم فلا يصدّنّكم شيء عن الإيمان بها. وهذا يماثل أمر النبي ﷺ للمسلمين بأنه إذا ظهر المسيح الموعود في الزمن الأخير وبلغ نداؤه آذانكم، فعليكم أن تلبّوا نداءه فورًا، وسارِعوا إليه ولو حبوًا على الثلج. (ابن ماجة: كتاب الفتن، باب خروج المهدي)

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾.. أي من واجبكم بعد الإيمان أن تشركوا الناس في هذه النعمة وتدعوهم للإيمان بهذا المبعوث الإلهي، وتقوموا بالدعوة والتبليغ على أوسع نطاق.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وهذا الكلام أيضًا ليس موجهًا إلى النبي ﷺ بل إلى أمته، إذ لم يُشرك ﷺ قبل النبوة ولا بعدها قط.

إذًا، فالله تعالى قد حذر أمة النبي ﷺ أن إنكار آيات الله تعالى والتقصير في الدعوة هو نوع من الشرك، إذ لا ينكر آيات الله تعالى إلا الذي يسيطر على ذهنه أنه لو أعلن إيمانه عارضه الناس، كما لا يقصّر في الدعوة إلا الذي يخاف معارضة

الناس وإيذاءهم؛ وكلا الأمرين نوع من الشرك؛ ولذلك يوصينا الله تعالى أن لا نكون من المشركين، بل نؤمن بآيات الله بشجاعة، ثم نسعى لنشرها في العالم ببسالة، ونتطلع دائمًا إلى السماء غير خائفين من أهل الأرض لأن هذا أيضًا نوع من الشرك الخفي.

وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٩﴾

التفسير: لقد نصح الله تعالى هنا المسلمين بأمر آخر بأن لا يدعوا مع الله شيئًا آخر باعتباره إلهًا إذ لا معبود سواه. لما كانت الآيات السابقة تنبه المسلمين إلى أهمية نشر الإسلام وكانت المسيحية هي الديانة التي ستتم المواجهة بينها وبين الإسلام بشدة ولفترة أطول، فقد ركز القرآن الكريم على تفنيد العقائد المسيحية الباطلة خاصة، ونبه المسلمين مرارًا أن خصمهم الأكبر هو المسيحيون الذين يؤمنون بآلهة ثلاثة، فمن واجبهم أن يتصدوا للمسيحية ولا يتخلوا عن وحدانية الله تعالى أبدًا؛ إذ لا إله إلا الله، وإنه أحد في ذاته وغير منقسم، فلا يحتاج إلى ابن ولا إلى روح القدس.

أتذكر أن الخليفة الأول ﷺ كان مريضًا ذات مرة وكنا جلوسًا عنده، ففتح عينيه فجأة وقال: لقد عُلّمت حالاً معنى قول الله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إلا اللهُ﴾ حيث قيل لي إن الله تعالى وحده مفرد، أما ما سواه من الأشياء فكلها مركبة؛ فنظريةُ أزليةِ الروح والمادة باطلة لأن الروح والمادة ليستا مفردتين بل كلتاهما مركبتان، ويستحيل قياس ذات البارئ تعالى عليهما؛ ومن أجل ذلك فإن الله تعالى وحده أسمى من الفناء، إذ إن المفرد لا يفنى وإنما يأتي الفناء على الشيء المركب. لأن المراد من الفناء تفكُّك الأجزاء المركبة، والمفرد ليست له أجزاء، فلا إمكانية لتفكُّكه أبدًا. وهذا هو الدليل الذي يقدمه الله تعالى في الجزء التالي من الآية فيقول: ﴿كُلُّ

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾.. أي كل شيء بما فيه جميع الآلهة المزعومة هالكٌ وهذا يدل على أن ليس ثمة شيء هو قائم بذاته بل هناك من يسانده على قيامه.

وترد هذه الآية ضمنيًا على أصحاب عقيدة وحدة الوجود الذين يقولون ليس في الدنيا سوى الله تعالى، وكل ما نراه إنما هو تجلٍّ لله تعالى. فيرد الله على هؤلاء قائلا: ألم يروا أن كل ما هو مخلوق عرضة للفناء، ولو كان كل شيء هو الله تعالى لما رأينا تغيُّرًا في أي شيء في الدنيا، فتغيُّر الأشياء دليل على أنها ليست جزءًا من الله تعالى، لأنه إذا كان بعض الشيء متغيرًا فلا بد من التسليم بتغيُّر الشيء كله.

أما قوله تعالى: ﴿إِلا وَجْهَهُ﴾ فبين فيه أنه لن ينجو من الفناء مَن توجَّهَ الله إليه. وقد أتى الله بهذا الاستثناء لأن البعض قد يخطئ فهم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ فيظن أن الفناء سيشمل الجنة أيضًا، أو أن العلوم الروحانية التي أنـزلها الله تعالى للدنيا في القرآن الكريم أيضًا ستتعرض للفناء، أو أن عباد الله المقربين أيضًا سيفنون للأبد، فدفعًا لهذا اللبس أضاف الله تعالى هنا قوله: ﴿إِلا وَجْهَهُ﴾ ليبين أن يد الفناء لن تنال بعض الأشياء، بل ستبقى محفوظة وهي التي تحظى بالعناية الإلهية. إن كل شيء سوى الله تعالى عرضة للفناء، ولا أحد من البشر في منجاة منه إلا الذين يتفانون في حب وجه الله تعالى وينالون حياة جديدة. لا شك أنهم لن ينجوا من الموت المادي، لكن أرواحهم ستنال الخلود الأبدي، لأنها اتصلت بالله تعالى، فصاروا أناسًا ينعكس وجه الله تعالى في وجودهم. وذلك كما ورد في الحديث القدسي: لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أكون يده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولسانه الذي يتكلم به، ومن حاربه فإنما حارب الله تعالى، ومن أعزّه فإنما أعز الله تعالى (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع). وهذه هي المكانة الروحانية التي قد أشار إليها المسيح الموعود عليه السلام في بيت شعر له بالأردية فقال:

سر سے میرے پاؤں تک وہ یار مجھ میں ہے نہاں

اے مرے بدخواہ کرنا ہوش کر کے مجھ پہ وار

(براهين أحمدية (أردو) الجزء الخامس، الخزائن الروحانية المجلد ٢١ ص ١٣٣)

أي عندما ترونني تقولون في أنفسكم أنه مرزا غلام أحمد ولا بأس في شن الحرب عليه، مع أنكم لا تحاربون مرزا غلام أحمد بل تحاربون الله، لأن الله تعالى قد حل بكيانى من أخمص قدمي إلى قمة رأسي؛ فحذارِ أن تهاجمني.

كان الملوك في قديم الزمان يطلقون فحلاً ليرعى في البلاد بحرية مطلقة، وكان التعرض له بسوء يُعَدّ هجومًا على الملك. فكان الفحل يتجول ويرعى في البلاد حرًا، ولم يكن أحد يتجاسر على التعرض له، ولو قُتل الفحل في أرض قوم أغار عليهم الملك بجنوده. وبالمثل إن من عباد الله تعالى مَن يدخلون في أحبائه فيعتبر الهجوم عليهم هجومًا عليه (نور الدين بجواب ترك إسلام (أردو) ص ١٦٤). ومثاله قصة صالح عليه السلام في القرآن الكريم، حيث حذر صالح قومه من التعرض لناقته وإلا سيحل بهم عذاب من عند الله تعالى. وكان صالح عليه السلام يقصد في الواقع أنه كما صار هو لله تعالى فقد صار الله له أيضًا، وأن الله تعالى كما لا يتجلى على الدنيا بغير صالح كذلك لا يستطيع صالح أداء واجب الدعوة إلى الله بدون ناقته، فمن قتلها فلا يقتلها في الواقع وإنما يريد منع صالح من الدعوة، ومن قتل صالحًا فلا يقتله باعتباره شخصًا كباقي البشر، بل لأن وجه الله تعالى يتجلى من خلاله على الدنيا؛ إذًا، فالذين هجموا على ناقة صالح عليه السلام لم يهجموا عليها في حقيقة الأمر، وإنما هجموا عليه، ولذلك أنـــزل الله غضبه عليهم قائلاً: لقد قتلتم صالحًا حين قتلتم ناقته، وإذا قتلتم صالحًا فكأنما حاولتم قتلي.

فالحق أن هؤلاء القوم الروحانيين كأنما يتّحدون بوجود الله تعالى، ولذلك استثناهم الله تعالى هنا في قوله: ﴿إلا وَجْهَهُ﴾، معتبرًا إياهم وارثين للحياة الخالدة.

ومن معاني قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾ أن كل شيء فانٍ إلا الذي يتجلى فيه وجه الله دائمًا.. أي الذي يحقق غاية خلقه. لقد ثبت من ذلك أن كل ما في الكون يدل على وجود البارئ تعالى ويتراءى فيه وجهه. فبعض الأشياء تكشف رحمته، وبعضها تجلّي غضبه، وبعضها تُظهر ربوبيته، وبعضها حفظه، وبعضها قضاءه وقدره، وبعضها إنصافه.

ولو قيل: هل يتجلى وجه الله تعالى في الأشياء النجسة؟ فالجواب أن المراد من وجه الله تعالى ظهور صفاته إذ ليس لله تعالى وجه بالمعنى الحرفي. وأي شك في أن صفات الله تعالى تنكشف من خلال كل الأشياء، النجسة منها والطاهرة. لا شك أن الإنسان لا يقدر على أن يُظهر في وقت واحد إلا صفة واحدة أو بعضًا من صفاته، ولكن الله تعالى يتجلى بجميع صفاته في وقت واحد من غضب ورحمة وما إلى ذلك. فلا غرابة في تجلي وجه الله تعالى بآثار وصفات مختلفة في وقت واحد.

ثم يقول الله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.. أي أين تذهبون معرضين عن الله تعالى مع أن المُلك بيده وأنكم كلكم ماثلون أمامه بعد الموت. وبما أن كل شيء هالكٌ سوى الله تعالى، وما دام المرء عرضة للفناء، ولن يبقى إلا الذي حظي بوجه الله وعنايته، وما دام المُلك كله بيده تعالى، فَلِمَ يخاف الإنسان من المشركين؟ ولِمَ لا يوطد صلته بالله الذي يهبه حياةً خالدة وراحةً أبدية بعد الموت؟

سورة العنكبوت

وهي مع البسملة سبعون آية وسبعة ركوعات

زمن نـــزولها: إن هذه السورة كلها مكية عند ابن عباس وابن الزبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. ويرى يحيى بن سلام أنها مكية إلا اثنتي عشرة آية من أوائلها فهي مدنية. ويرى قتادة أن هذه السورة مدنية. أما عليّ ﵁ فيرى أنها نـــزلت بين مكة والمدينة (فتح البيان، والبحر المحيط). وأما المستشرقون فإن "نولدكه" و"ويري" يعتبرانها مكية بيد أنهما يريان أن الآيات العشر الأوائل وكذلك الآية الخامسة والعشرين منها مدنية. (تفسير القرآن لويري)

الترابط: قال الله تعالى عند نهاية سورة القصص ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾.. أي يا أتباع محمد أمسكوا بوحدانية الله دائمًا وانشروها في العالم ولا تخافوا أن البلاد هي للمشركين الذين سيعادونكم، فإن كل شيء فانٍ سوى الله تعالى، ولن يبقى إلا الذي شملته العناية الإلهية، فما الفائدة من خوفكم من المشركين؟ عليكم أن تُقوّوا صلتكم مع الله تعالى وتبتغوا مرضاته. أما سورة العنكبوت فهي استمرار لنفس الموضوع، حيث بين الله تعالى للمسلمين أنكم محاصرون بين المشركين كاللسان بين الأسنان، ولكن اعلموا أن عظمة إيمان المرء إنما تنكشف حين يبلغ عداء المعادين ذروته. إذا كنتم تظنون أن طريقكم إلى النجاح مفروش بالورود فأنتم على خطأ. لا شك أنكم قد أقررتم بالإيمان بلسانكم، ولكن الله تعالى يريد أن يشهد عَملكم على إيمانكم، وأن تسجلوا هذا الإقرار بدمائكم حتى يكون هذا شهادة عملية للأجيال القادمة إلى يوم القيامة. ولا تظنوا أن هذه التضحية قد طُلبت منكم وحدكم، بل قد طالبنا بها الذين خلوا من قبلكم أيضًا، لأن من سنة الله تعالى أنه لا يعتبر قومًا أهلاً لنعمه

لمجرد إقرارهم بالإيمان باللسان، بل إنه تعالى يلقيهم في بوتقة الشدائد والاختبارات ويمررهم في المصائب المروعة لينكشف على الناس صدقهم أو كذبهم في إيمانهم، وليعرف الناس نوعية الإيمان الذي يحظى بالقبول عند الله تعالى.

ملخص محتواها: يقول الله تعالى أحسب الناس أن يتركهم الله تعالى لمجرد قولهم بأفواههم أنهم مؤمنون، وأنه لن يختبرهم حتى يكشف حقيقة إيمانهم للناس. (الآية ٣)

وليعلم المؤمنون أن الله تعالى قد اختبر الذين كانوا قبلهم ولا بد أن يميز المؤمنين في هذا العصر ويكشف للعالم ما إذا كانوا صادقين في إيمانهم أم كاذبين. (الآية ٤)

أيظن الذين يعملون السيئات أننا لن نعاقبهم أو أنهم سينجون من عقابنا بطريق أو بآخر؟ إنه لظنٌّ باطل. إنما السبيل للنجاة من عقابنا أن يتوب المرء ويعود إلينا. (الآية ٥)

إن موعد لقاء الله آت حتمًا، ولكن على المرء أن يتذكر أنه إذا عمل الخير فلن ينفع إلا نفسه ولا فائدةً فيه لله تعالى. فمن عمل صالحًا فإنما يعمل لصالحه، ومن عمل سيئة فلن يضر بها إلا نفسه، والله غني عن عمل الإنسان. (الآيتان ٦ -٧)

بيد أن الله يفرّق بين السيئة والحسنة وقت الجزاء. إنه رحيم وكريم فيجزي على العمل الصالح أفضل الجزاء، كما أنه يستر على أخطاء المخطئين. (الآية ٨)

لقد أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه، ولكن لو أمراه بخلاف وحدانية الله تعالى فعليه ألا يطيعهما لأنه سيحاسَب من قِبل الله وليس من قِبل والديه، فما هو خاص بالله تعالى فليفوضه إلى الله. (الآية ٩)

ثم أخبر الله تعالى أن المؤمنين سينالون بعد الموت درجات عُلا، وسيُدخلهم الله تعالى في زمرة الصالحين. (الآية ١٠)

عاد الحديث هنا إلى موضوع الآية الأولى من هذه السورة حيث أخبر الله تعالى أن من الناس من إذا أوذي من قبل أهل الدنيا بسبب إيمانه اعتبر أذاهم كعذاب الله، فيرجع عن باب رحمة الله بعد أن يكون قد اقترب منه. على المؤمن أن لا يكون مثله، بل ينبغي أن يظل ثابتًا على الحق بقوة وشجاعة.

ثم أخبر الله تعالى أن الجبن قد أفضى بأصحابه إلى النفاق، فإذا أصاب المسلمين

نصر من الله قالوا لهم إنّا معكم. إن هؤلاء لا يفكّرون أن الله هو الذي يجزي على الإيمان وليس محمد ﷺ، وأن الله يعلم ما في الصدور ولكن محمدًا لا يعلمه، فما الجدوى من ادعائهم بالإيمان وقت الراحة والرقي؟ كلا بل لا بد أن يختبر الله تعالى الناس ليميز المؤمنين من المنافقين، وليتحول علمه القديم إلى العلم الواقعي وليجزي الناس بحسب هذا العلم، فلا يبقى لأحد فرصة للاعتراض. (الآيتان ١١-١٢)

ثم بين الله تعالى أن الكفر يصيب قلوب أصحابه بالصدأ، فيتكلمون بكلام غير معقول، حتى إنهم يقولون للناس لو اتبعتمونا لحملنا ذنوبكم، مع أن الجميع يعلم أنه أمر مستحيل. الحق أنهم سيحملون حملهم وحملاً زائدًا أيضًا؛ إذ خدعوا الناس وارتكبوا إثمًا زائدًا. (الآيتان ١٣ – ١٤)

بعد ذلك بدأ الحديث عن نوح الذي كان من أتباعه إبراهيم الذي كان موسى من أتباعه. يقول الله تعالى إن نوحًا ظل يدعو الناس فترة طويلة ولكنهم لم يصدقوه حتى أهلكهم الله تعالى بطوفان، ونجّى منه نوحًا وأصحابه وجعلهم آية للذين أتوا بعدهم. (الآيتان ١٥ – ١٦)

ثم تحدث الله عن إبراهيم عليه السلام وأخبر أن الناس في زمنه لم يأخذوا العبرة من واقعة نوح عليه السلام، بل وقعوا في أعمال الشرك والوثنية، فقال لهم إبراهيم اعبدوا الله واتقوه، واعلموا أن العمل بنصحي خير لكم إن كنتم تعلمون. إنكم تتركون الله تعالى وتعبدون الأصنام مفترين على الله تعالى بشأنها، ولا تتفكرون في أن آلهتكم لا تمدّكم بالرزق الذي تحتاجون إليه لاستمرار حياتكم، إنما يرزقكم الله الذي ينزل الماء من السماء، ويُخرج الغلال من الأرض، فتوجهوا إلى الله الذي يرزقكم واعبدوه وحده، لأنكم سترجعون إليه في نهاية المطاف. وإذا لم تعملوا بأحكامه فتعلمون أن الأمم السابقة أيضًا قد أشركت بالله فكيف كان مآلهم؟ إنما أنا رسول وليس عليّ إلا البلاغ، وليست مهمتي إكراه الناسِ على الإيمان قسرًا. (١٧ -١٩)

ثم بين الله تعالى أن الكافرين لا يتفكرون في أنه حتى النظام الذي يقيمه الله تعالى في الدنيا هو أيضًا يتغير بعد فترة من الزمن بسبب تغيُّر الناس، فكيف يظنون أن نظامهم الذي يفرضون على الناس قهرًا سيدوم؟ فما الفائدة إذن من أن يفرضوا

على الناس عقيدة لا بدّ أن تتغير في يوم من الأيام. (الآيتان ٢٠-٢١)

ثم بين الله ﷻ أن عذابه لا ينـــزل إلا على القوم الذين يستوجبونه بحسب مشيئة الله، وأن رحمته أيضًا لا تنـــزل إلا على الذين يستحقونها بحسب مشيئته تعالى. (الآية ٢٢)

ثم بين الله تعالى أن البشر لا يستطيعون مقاومة مشيئة الله تعالى، فإذا أراد أن يرفع قومًا فلا بد أن ينالوا الرفعة، وإذا أراد أن يضع قومًا فلا بدّ لهم من السقوط. (الآية ٢٣)

ثم بين الله تعالى أن أكبر سبب وراء إنكار الناس لآيات الله ولقائه هو قنوطهم من رحمة الله، وهذا القنوط نفسه يشجّعهم على ارتكاب معاص كبيرة. فمثلاً لما نصح إبراهيم عليه السلام أهل عصره بالتوجه إلى الله تعالى والوصال به ﷻ قالوا اقتلوه أو حرقوه، ذلك لأنهم كانوا قد أصبحوا متجاسرين على المعاصي جرّاء قنوطهم من لقاء الله تعالى، ولكن الله تعالى نجّى إبراهيم من الناس بمعجزة. (٢٤-٢٥)

ثم بين الله تعالى أن العقيدة الوثنية لا تستند إلى دليل، وإنما يعبد هؤلاء الأصنام ليجمعوا أهل عقيدتهم على مركز واحد ويؤسّسوا حزبًا موحّدًا، ولكن مثل هذه الصلات والصداقات تبقى محصورة في نطاق الحياة الدنيا، إذ يلعن بعضهم بعضا في الآخرة، كما لن تنصرهم آلهتهم شيئًا. (الآية ٢٦)

ثم بين الله تعالى أن لوطًا كان من أتباع إبراهيم. وكان قوم إبراهيم يعادونه عداءً شديدًا، فأعلن أنه سيهاجر من بلدهم. وحيث إنه ترك وطنه وأقاربه لوجه الله تعالى، فتقبَّل الله إخلاصه ووهب له إسحق ويعقوب وجعلهما نبيين، وليس ذلك فحسب بل قرر بعثة محمد رسول الله ﷺ من ذريته؛ وهكذا أعطاه الله في الدنيا أجرًا عظيمًا وسيعطيه في الآخرة أيضًا الدرجات العلى. (الآيتان ٢٧ - ٢٨)

ثم تحدث الله تعالى عن لوط عليه السلام الذي كان رسولاً إلى قوم كانوا يأتون أفعالاً شنيعة تتنافى مع الفطرة الإنسانية، وكانوا يقطعون الطريق ولا يتورعون عن ارتكاب الفواحش في الأماكن العامة. فلما نصحهم لوط قالوا ائتنا بالعذاب الذي تخوفنا منه إن كنت من الصادقين. فدعا لوط ربه وقال رب انصرني على القوم

المفسدين. (الآيات ٢٩ - ٣١)

فاستجاب الله دعاءه وقرّر هلاك قومه وأرسل بعض الصالحين من منطقته بخبر عذابهم. فجاء هؤلاء إلى إبراهيم أوّلاً فبشروه بولادة إسحاق ويعقوب عنده، ثم أخبروه بأن الله يريد إنزال عذابه على قوم لوط. فحزن إبراهيم بالخبر وقال إن لوطًا مقيم في قريتهم وهو من عباد الله الأخيار. فقالوا سينجو لوط وجميع أقاربه من العذاب إلا زوجته التي حكَم الله بعذابها. (الآيتان ٣٢ -٣٣)

ثم جاء هؤلاء الصلحاء إلى لوط. وكان قومه قد نهوه بشدة عن الاتصال بالأجانب واستضافتهم وإقامتهم عنده، فضاق ذرعًا بمجيء هؤلاء الناس خوفًا من مضايقة قومه، ولكن هؤلاء الصلحاء هدّؤوا من روعه وقالوا لا حاجة للقلق، فإن الله تعالى قد قرر إهلاك قومه، فجاء العذاب وهلك القوم، فصاروا عبرة لمن بعدهم. (الآيتان ٣٤-٣٥)

ثم أرسلنا شعيبًا إلى قوم مدين، ولكنهم اتبعوا سبيل قوم لوط وكفروا بنبيهم، فأخذهم عذاب مخيف ارتجفت منه القلوب. ثم هلكت عاد وثمود، ودُمِّر قارون وفرعون وهامان لمعارضتهم موسى. ولم يهلك أي من هذه الأقوام إلا من جراء معاصيهم، ولم يظلمهم الله شيئًا. (الآيات ٣٦-٤١)

ثم بين الله تعالى أن المشركين يعتبرون آلهتهم الباطلة ملاذًا لهم، ولكن ملاذهم هذا أضعف من بيت العنكبوت وسيمزَّق كل ممزَّق. ليتهم يعلمون هذه الحقيقة. (الآية ٤٢)

إن الله يعلم الذين يتآمر معهم المشركون ويستعينون بهم لإلحاق الضرر بالإسلام، ولكنهم لن ينجحوا في مكائدهم لأن الله غالب حكيم. (الآية ٤٣)

لقد بيّنّا هذه الأحداث والأمثال ليتعظ بها الناس، وما يتذكر إلا الذين يخشون الله. (الآية ٤٤)

كان حريًّا بهم أن يتفكروا في خلق السماوات والأرض فيعلموا أن الله تعالى قد خلقها لغاية عظمى. وإن في خلقها آية عظيمة للمؤمنين.. أي أنهم يعلمون أن السماوات والأرض كما هي ضرورية في العالم المادي كذلك لا بد من الوحي مع

العقل في العالم الروحاني. (الآية ٤٥)

يا محمد، إنما السبيل لإصلاح الناس أن تقرأ عليهم القرآن الكريم، وتعمل على إقامة الصلاة جماعةً في العالم، فإن هذا سيقضي على المساوئ والمنكرات كلها، بل إن من أكبر منافعه أنه سيتيح للناس فرصة ذكر الله الذي هو بحد ذاته أعظم المقاصد. وإذا جادلتم أهل الكتاب فجادِلوهم على ضوء الأدلة القرآنية لا جزافًا من عند أنفسكم. أما الأشرار الظالمون منهم فيجوز لكم الرد عليهم بما يسكّتهم ويبكّتهم. عليكم أن تذكّروا أهل الكتاب بأن لا جدوى من الجدال فيما بيننا، فإنكم موحدون ونحن أيضًا موحدون، تعالوا نتحد ونعمل على نشر وحدانية الله ومحو الوثنية من العالم. (الآيتان ٤٦-٤٧)

ثم قال الله تعالى لنبيه لقد نــزل عليك القرآن الكريم الآن كما نــزلت التوراة على موسى من قبل، وإن المسلمين يؤمنون بصدق القرآن، بل إن السعداء من اليهود أيضًا يؤمنون به، ولكن الذين يصرّون على كفران النعمة يكفرون بما ورد في القرآن من قضايا وأحكام زاعمين أنه يعيد قصص التوراة والإنجيل. والحق أن محمدًا لم يكن يتلو أي صحيفة سماوية قبل نــزول القرآن، بل لم يكن قادرًا على نسخها، فكيف يقال أنه ينقل أساطير الأولين؟ إنها ليست أساطير بل هي آيات بينات والدليل على ذلك أن الذين قد أوتوا علم القرآن تزخر صدورهم بالمعارف والعلوم. ولكن الظالمين يصرّون على الإنكار ويقولون لِمَ لم تنــزل على محمد آيات من السماء؟ فيرد الله عليهم بأنكم لا تعنون من الآيات إلا نــزول العذاب في الواقع، فاعلموا أن الله تعالى سينــزل العذاب حتمًا. ولكن ألا يكفيهم آيةً أنه قد أنــزل عليك كتابًا كاملا فيه حلٌّ شامل لجميع العيوب والمفاسد، ورسالةُ رحمة لشعوب العالم كلها، وموعظة كبيرة للمؤمنين؟ (الآيات ٤٨-٥٢)

فإذا لم يقتنعوا بهذا الدليل فقل لهم أفوض الأمر إلى الله تعالى الآن، فإنه يعلم أسرار السماوات والأرض. من المحال أن يفشل الصادق وينجح الكاذب. لن يحيط الهلاك إلا بالذين يؤمنون بالأكاذيب ويكفرون بالله ورسله. (الآية ٥٣)

إنهم يريدون أن تتحقق أنباء هلاكهم التي تلقّيتَها فورًا، ولكن الله بطيء في غضبه

ويريد أن يمهلهم قليلاً. وليعلموا أن العذاب كلما أتاهم في الدنيا فسيأتيهم بغتة. ثم هناك عذاب آخر سيصيب الذين يكفرون بالإسلام جميعًا ويحيطهم من فوقهم ومن تحتهم، فلن ينفع الزعماءُ جماهيرَهم ولا الجماهير زعماءَهم، فيقال لهم ذوقوا الآن ما كنتم تعملون. (الآيات ٥٤ — ٥٦)

أيها المؤمنون إذا كان الكافرون يضطهدونكم فاخرجوا إلى بلاد أخرى، وأقيموا عبادتي في الدنيا، ولا تخافوا أنكم إذا خرجتم من وطنكم سيصيبكم الموت، إذ لا مناص لأحد من الموت، واعلموا أنكم لو متم في سبيل الله فسترجعون إليه في نهاية المطاف، فيعطيكم أفضل جزاء، ويُسكنكم في مساكن عالية تجري من تحتها الأنهار. (الآيات ٥٧-٥٩)

ثم أوضح الله تعالى أنه لا بد من الصبر والتوكل في هذا السبيل، فلا تظنوا أنكم إذا نذرتم حياتكم في سبيل الله تعالى فلن تجدوا ما تأكلون؛ ألا ترون أن الدواب لا تحمل معها رزقها، ومع ذلك يرزقها الله ويسدّ حاجاتها ليلاً ونهارًا؟ فاعلموا أنكم لو صرتم لله تعالى لرزقكم، لأنه يستجيب الدعاء ويعلم أحوال عباده جيدًا. (الآيتان ٦٠ -٦١)

وإذا خرجتم في الأرض لنشر وحدانية الله تعالى فاسألوا الوثنيين أثناء الجدال: مَن الذي خلق السماوات والأرض؟ ومن الذي سخر الشمس والقمر لخدمة الناس بدون أجرة؟ أهذا فعلُ بعض آلهتكم المزعومة؟ فلن يكون جوابهم إلا أن يقولوا إن كل هذا مِن خلق الله وفعله. فانظروا كيف يؤفكون بعد هذا الاعتراض أيضًا.

إن ظاهرة بسط الرزق وضيقه أيضًا تابعة لناموس وضعه الله تعالى، ولا دخل فيها لغيره، فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء. وإن في ضيق الرزق وبسطه حكمًا عظيمة جعَلها الرب العليم. (الآيتان ٦٢- ٦٣)

ثم اسألوا هؤلاء الوثنيين: من الذي أنـــزل من السماء ماءً وأحيا به الأرض بعد موتها؟ هل يقدر على ذلك أحد من آلهتكم؟ فلن يكون جوابهم إلا أن يقولوا إن هذا مِن فعل الله تعالى وحده. فقل: قد ثبت من هنا أن الله هو صاحب الحمد كله. وما دام الحمد كله لله تعالى فمن أين أتيتم بالآلهة الباطلة التي تتحدثون عنها. (الآية

٦٤)

لقد تمت الحجة عليهم من الناحية العلمية، ولكنهم مصرون على عقائدهم الخاطئة، وذلك لأن الإيمان بالله وحده يتطلب منهم ترك الدنيا وهم لا يريدون تركها. الحق أن الحياة الدنيا ليست إلا لهوًا ولعبًا، وإنما الحياة الحقيقية في الآخرة. فترى أهم إذا كانوا في سفينة يحيط بها الطوفان ينسون آلهتهم كلها، ويدعون الله تعالى بحرقة وبكاء مخلصين له الدين، وعندما تصل السفينة إلى بر الأمان يكفرون بنعمة الله. ولكن سيأتي يوم حتمًا يرون فيه بأم أعينهم جزاء أعمالهم ويدركون أنهم قد ارتكبوا خطأً فادحًا بإنكار وحدانية الله. (الآيات ٦٥-٦٧)

ألم يروا أننا جعلنا مكة قرية آمنة لا يتعرض لأهلها أحد بسوء، بينما يكثر القتل وسفك الدماء والفساد في المناطق حولها. فلِمَ يرغبون في الباطل رغم رؤية هذه المنة الإلهية العظيمة ويكفرون بنعمة الله التي أعطاهم في شكل محمد ﷺ؟

عليهم أن يعلموا أن أكبر الظالمين في الدنيا شخصان: الأول من يفتري على الله، والثاني من يُكذّب رسولاً يبعثه الله تعالى، ومن المحال أن يفلح أي من الشخصين أبدًا. أما الذين يرغبون في قربنا ويسعون لذلك سعيًا حثيثًا بالتضحية والإيثار فسنـــزيدهم في قربنا الذي لا نهاية له حتى يدخلوا في كنفنا. وهكذا سنعامل المؤمنين الآن أيضًا، فيتشرف المحسنون بقرب الله ومعيّته، وسيظل الكافرون يحترقون في نيران خيبة الأمل. (الآيات ٦٨-٧٠)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿٢﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤﴾

التفسير: لقد قلنا من قبل لدى تفسير سورة البقرة أن ﴿الم﴾ هي من الحروف المقطعة، حيث إن الألف اختزال لـ "أنا"، واللام لـ "الله" والميم لـ "أعلم"، والمعنى "أنا الله أعلم". وقد بيّنّا من قبل أيضًا أن حروف المقطعات تومئ في الواقع إلى مضمون السورة التي تستهل بها، حيث قال الله تعالى بعد ﴿الم﴾ في هذه السورة: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾. وتبدو هذه الآية متعارضة مع مفهوم ﴿الم﴾ حيث يقول الله فيها إن الإيمان باللسان وحده لا يكفي ولذا لا بد أن نلقي المؤمنين في صنوف الاختبار لنعلم حقيقة إيمانهم؛ وكأن الله تعالى بحاجة لاختبار الناس حتى يعلم حقيقة إيمانهم بشكل صحيح. ولكن التدبر يكشف لنا أنه ليس ثمة تعارض في الواقع، ذلك لأنه برغم أن الله تعالى أعلم من الجميع، إلا أنه لا يوقن بهذه الحقيقة الكافر ولا المؤمن الضعيف. وسبب ذلك هو أن الله تعالى وراء الوراء وأن علمه أيضًا وراء الوراء، فلا يوقن الناس بكونه تعالى هو الأعلم إلا إذا كانت هناك آثار ظاهرة دالة على ذلك. وهذا ما تؤكده هذه الآية حيث أخبر الله تعالى أننا نعلم كل شيء بلا ريب، ولكن نريد أن يعلم الناس أيضًا من يؤمن ومن لا يؤمن في الواقع؛ لذلك لا نرضى بادعاء المرء بالإيمان بلسانه بل نختبره مرة بعد أخرى حتى يعلم الجميع أن هؤلاء المؤمنين الذين اختارهم الله تعالى هم مؤمنون حقًّا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾. أي لم نبدأ اختبار إيمان الناس اليوم، بل ما زلنا نلقيهم منذ قديم الزمان في شتى الابتلاءات، لأننا نريد أن نكشف حقيقة إيمانهم للآخرين.

واعلم أن الله تعالى قد قال هنا: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾، ومعناه الحرفي أن الله تعالى سيعلم المؤمن من المنافق من خلال اختبار الناس. وهنا ينشأ السؤال: إن علم الله أزلي ويعلم كل حدث سواء ما وقع في زمن آدم أو سيقع إلى يوم القيامة، فكيف قيل هنا إن الله تعالى سيعلم مَن المؤمن ومن المنافق من خلال اختبار الناس؟

فالجواب أن علم الله نوعان: علمه بالحادث قبل وقوعه، وعلمه به بعد وقوعه. ولا شك أنه يعلم الحادث قبل وقوعه، ولكن لو عوقب المجرم أو كوفئ المحسن بناء على هذا العلم الإلهي فلن يطمئن أي منهما بهذا العقاب أو الجزاء بل سيظل يشك في ذلك. أما بعد وقوع الشيء فلا يسع أحدًا إنكاره، ولا يجد بدًا من الإقرار بصحة عقابه وجزائه. فالمراد من قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أنه سيبدّل علمه الأزلي في العلم الواقعي.. أي سيمرّر المؤمنين بظروف تكشف عليهم وعلى زملائهم أنهم صادقون في الإيمان، ولن يدع الكافرين ليقولوا أن هؤلاء قد نالوا ذلك الجزاء بدون جدارة. إذًا، فقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ يعني في الحقيقة: لَيكشفنَّ.. أي يبدل الله علمه الأزلي إلى العلم الواقعي بكشف صدق المؤمنين الصادقين حيث يظلون ثابتين في الاختبار؛ ذلك لأن الله تعالى يعلم بعلمه الأزلي أن هذا واقع لا محالة، ولكن عباده لا يعلمون ذلك إلا عند وقوعه. فمثلاً إن الله يعلم منذ الأزل أن زيدًا سيموت في شهر كذا ويوم كذا، ولكن الناس لا يعلمون ذلك، كما لا يطمئنون به بناءً على علم الله الأزلي الخفي فقط؛ ولكنه تعالى عندما يكشف علمه الأزلي في شكل الواقع ويموت زيد في الموعد المحدد يوقن الناس أنه قد مات فعلاً. وهذا ما أكده الله تعالى هنا بقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾، فبيّن أنه يعلم منذ الأزل مَن المؤمن ومَن المنافق، ولكن الناس لا يعلمون ذلك، ويظلون في شك إلى أن يتحول ما هو في علم الله الأزلي إلى الأمر الواقع. فيلقي الله تعالى المؤمنين في أنواع الاختبار، فالذين يتثبتون على إيمانهم يوقن الناس بأنهم مؤمنون صادقون، أما الذين تزلّ قدمهم أثناء الاختبار فيتحول ما هو في علم الله الأزلي

بأنهم كاذبون في دعوى الإيمان إلى الأمر الواقع، فيوقن الناس بضعف إيمانهم؛ فلا يبقى هناك مجال للاعتراض على معاملة الله مع العباد.

لقد بين الله تعالى في هذه الآيات قاعدة كلية وهي أن دعوى الإيمان والاختبار أمران متلازمان، إذ من المستحيل أن يُعَدّ المؤمنون كاملين في إيمانهم بادعائهم به بدون أن يُلقَوا في بوتقة الاختبار والمحن. لم يحدث هذا قط ولن يحدث أبدًا. إن الذين آمنوا بالدين الحق في أي زمن لم تُفتَح عليهم أبواب الراحة واليسر فورًا، بل حُرموا مما في أيديهم في أول الأمر؛ فإذا كانت لهم بيوت طينية لم يحصلوا على القصور الفخمة نتيجة الإيمان، بل حُرموا من بيوتهم الطينية أيضًا؛ وإذا كانوا معززين في قومهم فلم يزدادوا عزًا ولم يصبحوا حكامًا وملوكًا بسبب قبول الدين الحق، بل تخلَّوا عن عزهم أيضًا؛ وإذا كانوا من أهل الثراء فلم يزدادوا ثراءً نتيجة الإيمان، بل حرموا من أموالهم؛ وإذا كانوا يتمتعون بالنفوذ والعلاقات، فلم يزدادوا نفوذًا نتيجة قبول الدين الحق، بل انقطعت علاقاتهم السابقة أيضًا. وباختصار فقدوا نتيجة الإيمان ما كانوا يتمتعون به من راحة ويسر وعز ومال وقوة ونفوذ، وتعرضوا للأذى والتعذيب حتى تركوا أوطانهم لوجه الله تعالى بدلاً من أن ينالوا راحة فور إيمانهم. كان إبراهيم عليه السلام يسكن العراق، ولكنه اضطر لترك وطنه إلى فلسطين نتيجة المعارضة. ولما بعث نوح عليه السلام اضطُر لترك وطنه أيضًا. ولما جاء موسى عليه السلام اضطُر لمغادرة دياره. وعندما جاء عيسى عليه السلام علقوه على الصليب وبعد أن نجا من الموت على الصليب هاجر إلى كشمير بحسب عقيدتنا، وصعد إلى السماء بحسب غيرنا من المسلمين. ثم تعرضت جماعته للاضطهاد الشديد، فهاجروا إلى جزيرة قبرص، ولما اضطُهدوا هناك ذهبوا إلى روما، ثم هربوا من هناك إلى مصر، ولما صُب عليهم الظلم في مصر عادوا إلى روما مرة أخرى، ثم تعرضوا للمظالم في روما فغادروها إلى صقلية؛ وهكذا ظلت جماعته تغير مركزها من مكان إلى مكان طيلة ثلاثة قرون. كذلك تعرَّض بنو إسرائيل عند هجوم "نبوخذنصّر" البابلي لدمار شديد، فخُرّبت جميع أماكنهم المقدسة، وهُدم معبدهم، ودُمرت مدنهم وأُحرقت، وأصبحت فلسطين والشام خرابًا، وأُسر القوم كلهم وأُخذوا عبيدًا ولم يبق أحد

منهم حرًّا، وتمّ جلاؤهم من بلادهم. كم كان هذا الابتلاء شديدًا، ومع ذلك ظل هؤلاء مجتهدين مثابرين؛ وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحادث أيضًا (سورة البقرة:٢٦٠) حيث بيّن أن نبيًا منهم مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال أنَّى يحيي الله هذه بعد موتها، فكشف الله تعالى في رؤيا كشف أحداث مئة السنة القادمة وأخبره أنه تعالى سيُعيد عمرانها بعد مئة سنة. ثم قال الله تعالى له: انظُرْ إلى حمارك الذي لا يزال حيًا وطعامِك الذي لم يفسد، وذلك لكي لا يظن أنه ظل نائمًا مئة سنة فعلاً ويدرك أن ما رآه هو مجرد مشهد من مشاهد الكشف. ثم بعد مئة سنة تمامًا وقع ما أخبره الله تعالى به في الرؤيا حيث شنَّ ملكُ فارس وميديا - واسمه "قورش Siros" - الهجومَ على بابل. وحيث كان صعبًا عليه الوصول إلى القلاع الموجودة داخل المملكة البابلية بعث إلى اليهود أن يساعدوه من الداخل. فسمح لهم أنبياؤهم بمساعدة الملك الفارسي، وقد ذكر الله تعالى هذا الحادث أيضًا في القرآن الكريم حيث بين أن اليهود أسسوا في ذلك الزمن منظمات سرية بإذن أنبيائهم لم يكن أعضاؤها إلا الذكور (انظر سورة البقرة: ١٠٣). فلما شن الملك الفارسي الهجوم على بابل ثار اليهود من الداخل، فانتصر الملك الفارسي بمساعدتهم. فسمح لليهود بالعودة إلى بلادهم وإعادة بناء معابدهم وأماكنهم المقدسة، بل أعلن مساعدتهم بالمال من الخزينة الحكومية لبناء معابدهم (The Historian History of the world مجلد ٢ ص ١٢٦). وهذا هو نفس الحادث الذي يتحدث عنه الجزء الثاني من الآية القرآنية: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾(البقرة:١٠٣). بينما بيّن الله تعالى في الجزء الأول منها أن اليهود يقومون الآن بأعمال سرية ضد محمد ﷺ، ظنًّا منهم أنهم سينجحون في القضاء على محمد ﷺ بالتآمر مع كسرى إيران كما قضوا على مملكة نينوى البابلية من قبل بالتآمر مع الملك الفارسي. لقد شكلوا المنظمات السرية مرتين، مرة في عهد سليمان ﵇، ومرة أخرى في زمن النبيين حجّي أو زكريا. وقد أوضح الله لهم أنهم قد أقاموا المنظمات السرية أول مرة ضد أحد أنبياء الله تعالى، أما في المرة الثانية فأقاموها بمساعدة اثنين من أنبيائهم وهما هاروت وماروت - علمًا أن هاروت وماروت صفتان للنبيين اللذين أمرهما الله

تعالى في زمن السبي بأن يأخذوا بني إسرائيل إلى أرضهم. ولفظ هاروت مشتق مِن هرَت ومعناه شَقَّ، ولفظ ماروت مشتق من مرَت ومعناه مزَّق وكسَر (تاج العروس)، وقد سُمِّيا بهذين الاسمين لأن الله تعالى قد عهد إليهما شقّ الحكومة البابلية وتمزيق القوى الطاغوتية - فالله تعالى قد حذر اليهود بهذين المثالين أنهم عندما قاموا لمحاربة نبي هُزموا، وعندما ثاروا بمساعدة بعض أنبيائهم نجحوا في خططهم السرية، فليفكروا الآن ما إذا كان نبي الله ضدهم أو معهم في هذه المرة؟ فإذا كان نبي الله ضدهم فليعلموا أن دسائسهم تشبه دسائسهم التي قاموا بها ضد سليمان عليه السلام، وإذا كان نبي الله معهم فلا جرم أن أعمالهم تشبه ما فعلوه في زمن هاروت وماروت حين حمل قورش على المملكة البابلية. وبما أنهم يحاربون نبي الله هذه المرة فليعلموا أنهم سيلقون نفس المصير الذي لقوه في عهد سليمان عليه السلام. وهذا ما حدث بالضبط، حيث دُمر اليهود بسبب عدائهم للنبي ﷺ تدميرًا.

باختصار قد حل ببني إسرائيل في ذلك الوقت دمار شديد حتى قال أنبياؤهم كيف يحيي الله أُمّتهم ثانية كما ورد عن النبي حزقيال. فأخبره الله تعالى أنه سيُحييها ثانية بعد مئة سنة.

إذًا، إن جماعات الأنبياء تمر بظروف صعبة جدًّا مما يدل على صدق إيمانها وجودة معدنها. فقد مر صحابة الرسول ﷺ أيضًا بالمحن الشديدة جدًا سنوات عديدة. فذات مرة بعث النبي ﷺ عشرة من أصحابه إلى بعض القبائل، ولكن أهلها غدروا وهجموا على الصحابة، فلاذوا بجبل وصعدوا عليه، ولما رأى الكافرون أن هؤلاء سيحاربونهم حتى الموت حلفوا لهم بالله أنهم لن يتعرضوا لهم بأذى إذا نـــزلوا. ولكن أمير وفد المسلمين قال لأصحابه إني لا أثق بهؤلاء الكذابين المخادعين ولا اعتبار لأيمانهم، فلم يزل يقاتلهم حتى استُشهد، أما باقي المسلمين فنـــزلوا من الجبل منخدعين بأيمانهم ووعودهم وما إن نـــزلوا حتى أوثقوهم بالحبال وأخذوا يجرونهم، فحاولوا مقاومتهم ولكن بدون جدوى. فقتلهم الكافرون إلا اثنين منهم حيث باعوهما في مكة إلى بعض القوم الذين قُتل أقاربهم في حرب بأيدي المسلمين. ولما أراد أهل مكة قتل أحد منهما قالوا له: ألا تحب أن يكون محمد مكانك وتكون

جالسًا مطمئنًا بين أهلك وأولادك؟ فقال لهم: "والله ما أحبُّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وإني جالسٌ في أهلي." (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، والسيرة النبوية لابن هشام: ذكر يوم الرجيع في سنة ثلاث)

وإحدى المرات جاء رئيس قبيلة إلى النبي ﷺ وقال إن قومي يريدون اعتناق الإسلام، فابعث معي بعضًا من أصحابك لتعليمهم. وكان الرئيس صادقًا في قوله وقد آمن فيما بعد، ولكن قومه غدروا بالمسلمين. لقد بعث النبي ﷺ إليهم سبعين من حفظة القرآن الكريم بينهم عبدٌ لأبي بكر كان رافَق النبي ﷺ في الهجرة. فلما أتوا ديار القبيلة أبلغوا ابنَ أخي رئيسها بمجيئهم. فدعا أمير الوفد المسلم وأخذ يحدثه، ثم أومأ إلى شخص، فطعن الصحابيَّ في عنقه بالرمح فسقط في مكانه وهو يهتف كما ورد في التاريخ: "فُزتُ وربِّ الكعبة". ثم حملوا على باقي الصحابة حملةَ رجل واحد، وكان طبيعيًا أن يُستشهد الجميع حيث حمل عليهم آلاف الناس. ولكن لم يستسلم أحد من الصحابة السلاح، بل ظل يسقط الواحد تلو الآخر صريعًا، وكلما أصيب أحد منهم بطعنة خنجر أو ضربة سيف رفَع الهتاف نفسه: "فُزتُ وربِّ الكعبة". ويقول رجل من تلك القبيلة أنه كان لا يعرف عن الإسلام شيئًا، وكان في سفر، فلما رجع وجد قومه في قتال مع هؤلاء المسلمين، فانضم إلى صفوف قومه. ويضيف هذا قائلاً: والشيء الغريب الذي لاحظت في المسلمين أن كل واحد منهم كان يموت وهو يهتف: "فُزتُ وربِّ الكعبة" بدلاً من الصراخ والعويل! فكنت أقول في نفسي: متى كان الموت فوزًا حتى يهتف هؤلاء: "فُزتُ وربِّ الكعبة"؟ فسألت البعض عن ذلك، فقال: إنك لا تعرف المسلمين، إنهم مجانين إذ يرون أن من يقتل في سبيل الله تعالى يفوز فوزًا عظيمًا. وكان في قلب الرجل خير، فقال في نفسه لا بد أن هناك سببًا وراء هذا القول، فبدأ يبحث في الإسلام حتى آمن بالنبي ﷺ. (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع)

وباختصار، قُتل هؤلاء الحفاظ كلهم الواحد تلو الآخر ورأوا فوزهم كله في الموت. الأمر الذي جعلهم غالبين على العالم في فترة وجيزة جدًا بحيث لم يسبق لهم مثيل في الشعوب كلها.

ثم تلاحظ أن هذه المحن والمصائب لم تنته بسرعة، بل استمرت مدة طويلة. فعندما قامت الخلافة استُشهد عمر ثم عثمان ثم علي – رضوان الله عليهم أجمعين. بينما استُشهدت عائلة النبي ﷺ كلها تقريبًا في ميدان كربلاء. فمن الخطأ الظن أن الاختبارات تكون في البداية فقط وتنتهي في زمن الغلبة والرقي. الواقع أن ازدهار جماعات الأنبياء وظاهرة الابتلاء أمران متلازمان لا ينفصلان. فتقع المحن في الفترة الأولى كما تقع عندما تكون الغلبة في ذروتها، وهكذا تستمر سلسلة الاختبار من البداية إلى النهاية. تحل المحن عندما يكون النبي فردًا واحدًا لم يؤمن به إلا شخص أو شخصان، كما تأتي المحن عندما تبلغ جماعته ذروة رقيها وازدهارها. لقد مر النبي ﷺ بالمحن والمصاعب في أول يوم من دعوته وقد تعرض هو والمؤمنون لأنواع الاختبار، ثم لما جاء زمن الغلبة والرقي لم تنقطع هذه المحن والبلايا بل استمرت. لم ينم النبي ﷺ في يوم من أيام حياته مطمئنًا بأنه قد تجاوز العقبات كلها، وأن جميع المشاكل التي تتعلق برقي المسلمين قد زالت. كما لم يخطر هذا ببال أبي بكر ولا عمر ولا عثمان قط، ويجب ألا تخطر هذه الفكرة ببال جماعتنا أبدًا. إن الاختبارات منوطة بالجماعات الإلهية، ولا يمكن أن تزدهر أي جماعة روحانية بدونها. لقد بين الله تعالى نوعية هذه التضحيات في آية أخرى فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة:١٥٦). ويعني قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾: أيها الرسول بشِّر الذين لا يحيدون عن طريقهم عند الاختبار ويضحون في سبيل دينهم بشجاعة بأن الله تعالى يعِدهم النجاح في هدفهم.

باختصار، من المحال أن يحيا قوم ما لم يقبلوا الموت، لأن الحياة لا تُنال بدون الموت. فكما أن النبات لا يخرج من البذرة ما لم تُدفن في التراب، ولا يولد المولود ما لم يمكث في ظلمات رحم أمه، كذلك لا يمكن أن يزدهر قوم ما لم يَقبلوا الموت. لقد استُشهد بعض أفراد جماعتنا في كابول، واضطر بعضهم لترك أوطانهم، وكل واحد منهم تعرض لنوع من العذاب وأقلّه تخويف الناس إياهم بفتاوى التكفير، ولكنهم لم يُخفوا الحق.

إذًا، فمن سُنّة الله المستمرة أن يلقي عباده في نيران الاختبار أولاً، ثم يشرّفهم بقربه. إن الجبناء والمنافقين هم الذين يخافون عند حلول الخطوب، إذ صرح القرآن الكريم في بداية سورة البقرة أن من علامات المنافقين أنهم إذا ما رأوا مصيبة قاموا، وإذا زالت مشوا، أما المؤمن فيزداد إيمانًا وقوة عند الشدائد (البقرة:٢١). يخبر الله تعالى في القرآن الكريم أن المسلمين عندما قيل لهم عند غزوة الأحزاب إن الناس قد اجتمعوا لحربكم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ (الأحزاب:٢٣).. أي هذا هو الجيش الذي وعد الله ورسوله به، فكيف يمكن أن يتزعزع إيماننا، فازدادوا إيمانًا على إيمانهم. فعلى المؤمنين أن يدركوا عند حلول الخطوب أن الله تعالى يريد أن يرفع بها مكانتهم. كل نفس ذائقة الموت، ويقول الله تعالى لنا: هناك موت طبيعي، وموت آخر في سبيل الله يهب الخلود لصاحبه، فلا تقولوا لمن يقتل في سبيله أنهم أموات بل إنهم أحياء عند ربهم يُرزَقون.. أي أن الله تعالى يرفع درجاتهم باستمرار. لا شك أن العدو يريد أن يحزن المؤمنين ويمحو أثرهم، ولكنه يصاب بخيبة الأمل حين يرى أنهم كلما ضُربوا ازدادوا إيمانًا وشجاعة وقالوا إنما يريد الله بهذا غلبتنا وازدهارنا.

ذهب المسيح الموعود عليه السلام إلى سيالكوت مرة، فأصدر المشائخ فتوى ضده بأن من يذهب لزيارته أو يسمع خطابه يفسخ زواجه، لأنه كافر دجال، وسماع كلامه وقراءة كتبه حرام، وقتله ثواب. ولأن المسلمين الأحمديين من سيالكوت وما حولها من القرى كانوا قد اجتمعوا فلم يجرؤ المشايخ على إثارة الفتنة ضده أثناء مكوثه عليه السلام هناك، بل قرروا إحداث الفساد بعد مغادرته. وكنت عندها في رفقته عليه السلام، فلما ركب حضرته القطار رأيت أن الناس حاملين بأيديهم حجارة على مدى البصر، وعندما تحرك القطار حاولوا رشق المسيح الموعود عليه السلام وأنى لهم ذلك والقطار متحرك. فكلما حاولوا رَشْقَنا بالحجارة أصيب أحد من غيرنا، ففشلت مكيدتهم. ولما ذهب المسيح الموعود عليه السلام بالقطار تفرق الإخوة الأحمديون الذين جاؤوا من القرى المجاورة، ولم يبق في المحطة إلا قليل من الأحمديين المحليين وبعض الضيوف من الجماعات الأخرى؛ فهجم عليهم المعارضون، وكان من بين هؤلاء

الأحمديين المولوي برهان الدين، فرشقه المعارضون وضربوه ثم ألقوه في محل وأتوا بالروث ليدخلوه في فمه. ويقول شهود عيان إنهم لما حاولوا فتح فمه لم يصرخ ولم يشتمهم، بل قال بكل اطمئنان وبشاشة: "سبحان الله! إن هذا اليوم المبارك لا يراه إلا ذو حظ عظيم. إن هذا اليوم المبارك لا يراه أحد إلا عند بعثة نبي من عند الله تعالى. والحمد لله الذي أراني هذا اليوم المبارك". فتركوه خجلين نادمين.

فالحق أن العدو عندما يجد خصمه يخاف الموت يتشجع أكثر ويقول بعضهم لبعض: هلمّ نخوفه، كما يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾. إذًا، فإذا خاف أحد الموت قال هؤلاء إنه من أولياء الشيطان هلمّ نخوّفه، ولكنه إذا لم يخف هجومهم وأذاهم بل قال لقد منّ الله علي إذ منحني هذا الشرف العظيم حيث أُضرب في سبيله، فإن الأعداء يهابونه، ويندمون في قلوبهم ويخجلون.

لقد أوضح الله تعالى للمسيح الموعود عليه السلام مرة بعد أخرى أنه لا بد لجماعته من التضحيات كما قدمتها جماعة الأنبياء في الماضي. وقد قال حضرته عليه السلام إني رأيت مرة في الرؤيا أني دخلت في بيت "نظام الدين". والمراد من هذه الرؤيا أن جماعته ستصبح نظامًا للدين في نهاية المطاف، وتكون غالبة على نُظم العالم كلها. أما وكيف ستتم هذه الغلبة؟ فقد بين حضرته عليه السلام في هذه الرؤيا: سندخل في هذا البيت على طريقة الحسن طورًا وعلى طريقة الحسين طورًا آخر (تذكرة: الطبعة الثالثة ص ٧٩٢). والمعروف أن النجاح الذي حققه الحسن إنما حققه بالصلح، والنجاح الذي حققه الحسين إنما حققه بالشهادة في سبيل الله. إذًا، قد أخبر الله المسيح الموعود عليه السلام أن جماعته ستصل مقام نظام الدين، ولكن بشيء من الصلح والمحبة وبشيء من الشهادات والتضحيات. وإذا كان بعضنا يظن أن جماعتنا ستزدهر بغير الصلح والمحبة والوئام فهو مخطئ، وإذا كان بعضنا يظن أن جماعتنا ستزدهر بدون التضحيات والشهادات فهو مخطئ أيضًا. لا بد لنا من اتباع طريق الصلح والسلام تارة، وتارة أخرى لا بد لنا من اتباع طريق الحسين.. أي لا بد لنا من أن نتصدى للعدو ونموت في سبيل الحق ولا نرضى بقوله. فكلا الطريقين مقدر لنا، ومن المحال

أن نتبع طريق المسيحية وحدها أو طريق المهدوية وحدها، بل لا مناص لنا من اتباع طريق وسط بينهما. ستتم لنا غلبة بالصلح والمحبة والوئام، وستتم لنا غلبة أخرى بتقديم التضحيات، وعندها تدخل جماعتنا في بيت نظام الدين ويكون النجاح حليفنا.

وهذه هي الرسالة التي أعطانا المسيح الموعود ؑ في كتابه "أنوار الإسلام"، حيث قال ما تعريبه:

"بعزّة الله تعالى وجلاله أنه ليس شيء في الدنيا ولا الآخرة أحبَّ إلي مِن أن تتجلى عظمة دينه ويلمع جلاله ويعلو اسمه. إني بفضله تعالى لا أخاف الابتلاء ولو حل بي ملايين المرات. لقد أُعطيتُ قوةً لشقّ براري الابتلاء وفلوات الآلام. لستُ ذلك الذي تراه يولي دبره يوم القتال، بل أنا ذلك الذي ترى رأسه مضرجًا بالدماء.

فإذا كان منكم مَن لا يريد السير معي فلينفصل عني. إني لا أدري كم سأقطع من الغابات المخيفة والبراري الشائكة، فلِمَ يُرهق ذوو الأقدام الناعمة أنفسهم معي عبثًا؟ إن الذين هم مني فلن يخذلوني أبدًا بسبب المصائب وسباب الناس والمحن والبلايا السماوية. أما الذين ليسوا مني فهم يدّعون بصداقتي عبثًا، لأنهم سيُفصَلون عني عن قريب، وسيكون مآلهم أسوأ من حالهم." (أنوار الإسلام (أردو)، الخزائن الروحانية المجلد ٩ ص ٢٣-٢٤)

إذًا، هناك سبيل واحد للرقي القومي وهو قبول الموت وتقديم كل تضحية بلا تردد في سبيل الله تعالى.

والآن أبين الحكمة وراء الابتلاء والاختبار. اعلم أن أول هدف للابتلاء أن يتقوى إيمان المرء، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى لا يعلم نوعية إيمان الإنسان، وإنما الإنسان نفسه لا يعلم حقيقة إيمانه. وهناك حكاية تقول: كانت هناك امرأة اسمها "ميستي"، فمرضت ابنة لها مرضًا شديدًا، فكانت "ميستي" تدعو الله تعالى كل يوم: ربِّ، فلتصبني بهذا المرض وأَمِتْني مكان ابنتي. وكانت عند "ميستي" بقرة، وفي إحدى الليالي أدخلت البقرة رأسها في إناء ضيق، فحاولت إخراجه منه ولكن بدون

جدوى، فأخذت تتخبط في فناء البيت خبط عشواء، فاستيقظت المرأة ورأت أمامها مخلوقًا مخيفًا، فظنت أنه مَلَك الموت الذي جاء ليقبض روحها استجابةً لدعائها. فلم تلبث أن قالت: يا مَلَكَ الموت، لستُ أنا "ميستي"، بل أنا عجوز فقيرة أعمل جاهدة طوال النهار؛ ثم أشارت إلى سرير ابنتها وقالت: ها هي "ميستي" مستلقية على سريرها، فاقبضْ روحها.

فترى أن هذه المرأة كانت تظن أنها تحب ابنتها حبًّا جمًّا، ولكنها لما رأت "مَلَك الموت" علمت أنها لا تحب ابنتها حتى تكون فَدًى لها.

إنها مجرد حكاية، ولكن هذا هو الأمر الواقع في كثير من الحالات، حيث لا يعرف الإنسان حقيقة أفكاره، وعندما يقع في الاختبار يدرك مدى صدقه في حبه لشيء أو كراهيته له.

والحكمة الثانية في إلقاء المرء في الاختبار أن يعلم الناس مدى إيمانه، إذ ليس هناك سبيل آخر ليعرفوا ما إذا كان قويًا في إيمانه أو ضعيفًا. ولذلك قال الرسول ﷺ: كلما كان المرء عظيمًا عظُم اختباره، وأن الأنبياء أكثر الناس اختبارًا. كما قال المسيح الموعود عليه السلام عن نفسه في بيت شعر له بالفارسية:

کربلایست سیر هر آنم
صد حسین است در گریبانم

(در ثمين (فارسي) ص ٢٤٨)

أي أجول في ميدان كربلاء كل حين، وأن في قلبي مئة حُسين.

يعترض بعض الناس على هذا البيت بأنه يمثّل إساءة إلى الإمام الحسين رضي الله عنه. ولكن هؤلاء لا يفكرون أنه عليه السلام قد قال هذا في معرض الحديث عن الشدائد والمحن، فبين أن الإمام الحسين رضي الله عنه قُتل مرة واحدة، ولكن العدو يسعى لقتلي في كل حين ويؤذيني دائمًا، وأرى مشهدًا ككربلاء كل آن. وأي شك في أن الموت على الصليب مرة واحدة ليس أشد من عيش المرء دائمًا في المحن والابتلاءات. يقول المسيحيون لقد مات المسيح على الصليب فآمِنوا بأنه ابن الله، ونحن نقول إذا كان

هذا صحيحًا فماذا ستقولون عن الذين يعيشون في الشدائد دائمًا كأنهم معلقون على الصليب كل حين؟ الحق أن هذه هي حالة الأنبياء كلهم، وتعرضُّهم للأذى باستمرار يكشف للناس قوة إيمانهم. يقال: "الاستقامة فوق الكرامة". والواقع أن أكبر استقامة ما يشهد بها العدو ولا يسعه إنكارها.

إذًا، فلا مناص من الابتلاء والصبر عليه برضا لتقوية الروحانية وتهذيب الأخلاق وتكميل الإيمان.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥﴾

التفسير: يقول الله تعالى هنا متسائلاً: أيظن الذين يعملون أعمالاً سيئة أنهم ينجون من عقابنا بطريق أو بآخر؟ كلا، إذ ليس بوسع أحد أن يخدع الله تعالى ويفر من عقابه.

توضح هذه الآية أن المرء ليس بوسعه أن يتخذ قرارًا صائبًا عن مصيره هو، ناهيك عن مصير الآخرين. فكم من امرئ يظن أنه من أهل الصلاح والإيمان وسينجو من عذاب الله تعالى، ولكن عندما يأخذه العذاب يدرك أنه كان مخطئًا في ظنه. الحق أن الخواص من المؤمنين فقط يعلمون سلفًا عن صدق إيمانهم حيث قال الله تعالى في القرآن الكريم عنهم: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾(الأحزاب:٢٤). أي أن من الصحابة من قد أثبت صحة دعوى إيمانه، بينما ينتظر بعضهم ليثبت ذلك. ورد في الحديث أن الصحابي مالك بن أنس♦ الأنصاري

♦ لقد وقع هنا سهو إذ هو أنس بن النضر، وليس مالك بن أنس، بحسب جميع المصادر منها: البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...الخ﴾، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، والإصابة: القسم الأول مَن ذُكر له صحبة، باب الألف بعدها نون) (المترجم)

ﷺ لم يستطع أن يشارك في غزوة بدر، ولما سمع عن بطولات الصحابة الذين شهدوا بدرًا ثار حماسه فأخذ يمشي هنا وهناك وقال: لو أتاح الله لي الفرصة سأريكم كيف يضحي المؤمن. فشهد غزوة أحد، وعندما لم تثبت أقدام المسلمين في ميدان القتال لشدة هجوم الكافرين وابتعدوا عن النبي ﷺ، فانفرد وأُصيب بحجر وسقط على الأرض مغشيًا عليه وسقط عليه الجرحى الآخرون واختفى تحتهم، فأشيع أنه قد استشهد، فجرى البعض إلى المدينة التي كانت قريبة من أُحد وبلّغ أهلها باستشهاده ﷺ. وقد سقط هذا الخبر كالصاعقة على المسلمين الذين كانوا بعيدين عن النبي ﷺ وكان من بينهم عمر ﷺ: فأخذ يبكي جالسًا على صخرة. وكان مالك بن أنس يأكل التمر حين مرَّ بعمر، وكان لا يعرف ما حصل بعد الفتح الأول، فقال لعمر مستغربًا: لماذا تبكي وقد أعطانا الله الفتح؟ هذا وقت البكاء أم الفرحة؟ فنظر إليه عمر وقال: يبدو أنك لا تعلم أن الوضع قد انقلب بعد الفتح عندما أعاد العدو الكرّة من وراء الجبل وتشتت جيش المسلمين من شدة هجومه واستُشهد النبي ﷺ. وكان في يد مالك بن أنس آخر تمرة، فرماها على الأرض وقال: كيف تحول هذه التمرة بيني وبين حبيبي؟ ثم قال لعمر: إذا كان ما تقوله حقًا فلماذا تبكي هنا؟ علينا أن نلحق بحبيبنا ﷺ. ثم امتشق سيفه وصال على جموع العدو، ولكن إلى متى يقاوم شخص واحد مئات المحاربين، فتقطع جسمه إربًا في ثوان. وعندما كتب الله الفتح للمسلمين ثانية أمر النبي ﷺ بالبحث عن مالك بن أنس، فخرج الناس يبحثون عنه ثم عادوا وقالوا: لم نجد له أثرًا، فأعاد النبي ﷺ قوله. وكانت أخته قد وصلت من المدينة إلى ساحة المعركة بسماع خبر استشهاد النبي ﷺ، فرأت قطعًا من جثة أخيها فعرفته من إصبعه، فدلّت النبي ﷺ على جثته.

يقول المفسرون إن قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ نزل في أنس بن مالك. ورغم أني لا أهتم بأسباب النـــزول كثيرًا بيد أنه مما لا شك فيه أن حادثة مالك بن أنس قد وردت في التاريخ والحديث بتكرار وتبلغ كلمات القرآن الكريم من الوضوح والصراحة بحيث لا يسع المرء إلا الاعتراف بصحة سبب نـــزول هذه الآية.

إذًا، فكما أن بعض الكافرين لا يبرحون يظنون حتى النهاية أنهم سينجون من العذاب لأنهم يعملون الصالحات في زعمهم، وحين ينـــزل العقاب يدركون أنهم كانوا يعملون السيئات، كذلك يوقن بعض المؤمنين أنهم صادقون في إيمانهم فتؤكد الأحداث أيضًا - كما تؤكد الواقعة المذكورة آنفًا - أنهم بالفعل كانوا مصيبين في رأيهم. وقد أُشير إلى أمثال هؤلاء في الآية التالية أيضًا.

مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦

التفسير: أي من كان يرجو لقاء الله تعالى فليعلم أن لقاءه حق ولا بد أن يتحقق، وأن الله يستجيب الدعاء ويعلم كل شيء. لقد تحدثت الآياتُ السابقة عن موضوع الاختبار الذي تمر به جماعات الأنبياء، وعليه فالمراد من لقاء الله هنا تأييده ونصرته، حيث نبه تعالى المؤمنين ألا ييأسوا برؤية تفاقم فتنة الأعداء ولا يظنوا أبدًا أن الله تعالى سيخذلهم وأن العدو سيهلكهم؛ كلا، إنما يريد الله تعالى بهذه الفتن اختبارهم، وإلا فإنه معهم وإن ملائكته تعمل على تأييدهم. فمهما بلغ إيذاء العدو ومضايقته فعليهم أن يظلوا موقنين تمامًا أن الله سينجز وعده عند رقيهم حتمًا، وسيأتي لنصرتهم مسرعًا. فلو أنهم صبروا على الأذى والابتلاء و لم يُسيئوا بالله الظن بل أيقنوا أنه سينـــزل من السماء ويكسر أعناق الأعداء، فلا بد أن يعاملهم الله هكذا، ويبدي لهم غيرة لن يجدوا لها مثيلاً في أي مكان.

إن أكبر سبب لانحطاط المسلمين في هذا العصر أنهم لم يعودوا مؤمنين بإله حي، وظنوا أن زمن المعجزات والخوارق قد ولى وانتهى، فلا يقدر الله الآن - والعياذ به- على إراءة الآيات. وكانت نتيجة هذا الظن أنهم فقدوا الحماس لوصال الله تعالى واستولى عليهم القنوط. ولكن الإسلام يرفض هذه النظرية بشدة ويقول إن الذين يوقنون بلقاء حبيبهم ﷻ، أي بنصرته وتأييده، فإنه ينـــزل لنصرتهم من

السماء ويؤيدهم كما أيد جماعات الأنبياء من قبل. ولكن علينا أن نعلم أن لكل شيء أجلاً. هناك موعد للمصائب والبلايا، ووقت للانتصارات والفتوحات. وإنما المؤمن الكامل من يظل متوكلاً على الله تعالى أيام المصائب والبلايا، وعندما يبلغ يقينه منتهاه يسمع نداء الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾، فيهلك الله عدوه. وقد أشير إلى المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.. أي أن الله تعالى يسمع دعاء المؤمنين ويعلم أحوالهم جيدًا، فكيف لا يستجيب دعاءهم ولا يعاقب العدو ليمنعه من سلوكه الغاشم؟

يحكى أن الملِك الروسي "بيتر" دخل في مقصورته في الطابق الثاني في إحدى المرات ليقوم بعمل مهم في هدوء وتركيز، وأمر أحد حراسه ألا يسمح لأحد - كائنا من كان - بالدخول عليه. و لم تكن هناك أبواب للغرف في الزمن القديم، بل كانوا يعلقون الستائر مكان الباب، ويتضح لنا بمطالعة الكتب العربية أنه لم تكن لغرف المسلمين أيضًا أبواب، ولذلك أمر الإسلام بالاستئذان قبل الدخول على أحد. المهم أن الملِك أمر حارسه "تولستاي" أن يجلس في الخارج ولا يسمح لأحد بالدخول عليه لأنه يريد أن يعمل بتركيز. وتصادف أن أحد أبناء الملك جاء ليدخل عليه مقصورته، وكان من القانون الملكي أن أحدًا لا يستطيع منع أحد الأمراء من الدخول على الملك، بل هم أحرار في زيارته متى شاؤوا دونما استئذان. وكان القانون لا يبيح أيضًا لأحد من غير الجيش أن يضرب رجلاً من الجيش، ولا يبيح لأحد من الضباط الصغار أن يضرب ضابطًا هو أكبر منه رتبة، أو لغير اللورد أن يضرب لوردًا. فأراد الأمير أن يدخل غرفة الملك، ولكن الحارس "تولستاي" تقدم وقال له: لقد أمرني الملك بعدم السماح لأحد بالدخول عليه. فقال الأمير: ألا تعلم أني أمير ومسموح لي الدخول على الملك بدون استئذان؟ فقال: نعم، إني أعلم ذلك. فاستشاط الأمير غضبًا وضربه بالسوط، قائلا: كيف تتجاسر على منعي من الدخول؟ وظن الأمير أن الحارس يكون قد عاد إلى صوابه بعد أن ضُرب بالسوط ثلاث أو أربع مرات، فهَمَّ بالدخول مرة أخرى، ولكن الحارس منعه وقال: حضرة الأمير، لقد منع الملِك الجميعَ من الدخول عليه. فضربه الأمير أكثر من ذي قبل

وظن أنه قد تلقن الدرس، وهمَّ بالدخول مرة ثالثة. فمدَّ "تولستاي" يديه ومنعه من الدخول وقال: حضرة الأمير لقد قال الملك: يجب أن لا يدخُلنَّ عليه أحد. فضربه الأمير للمرة الثالثة. وكان طبيعيًا أن ينتبه الملك إلى ما يجري في الخارج نتيجة ارتفاع أصوات الأمير والحارس عند الشجار، فظل يشاهد شجارهما جالسًا في مقصورته. فلما ضرب الأمير الحارس للمرة الثالثة نادى الملك حارسه متظاهرًا بالغضب وقال: "تولستاي"، تعال هنا. فدخل على الملك ودخل معه الأمير الغضبان أيضًا، وأراد أن يشكوه إلى الملك. فقال الملك لتولستاي: ما هذه الضجة التي كنت تثيرها؟ قال: مولاي، جاء الأمير وأراد الدخول عليك، فلم أسمح له لأنك أمرتني بذلك. فلما حاول الدخول عليك بقوة منعتُه. فقال الملك: فماذا حدث بعد ذلك؟ قال: فضربني الأمير. فتوجه الملك إلى ابنه وقال: أصحيح ما يقول "تولستاي"؟ قال: نعم. ولكن القانون الروسي لا يسمح بمنع الأمير من الدخول على الملك. فقال الملك: صحيح أن القانون الروسي لا يسمح بذلك، ولكن ألا تعلم أن للملك مسؤوليات كثيرة تجاه بلده، وأنه يحتاج أحيانًا إلى الهدوء والتركيز للقيام بأعماله، لأن الانفراد في هدوء ضروريٌّ من أجل التركيز والتدبر. فهل تريد أن يتم العمل بالقانون حرفيًا فقط، وإن لم يستطع الملك أداء واجباته تجاه البلاد. أمامي مهمة عظيمة للغاية، وأود الجلوس منفردًا في هدوء وأفكر في وضع خطة تُخرج البلاد من الخطر. ألا يحق لي، والحال هذه، أن أمنع أي شخص من الدخول عليّ حتى لا يشتّت عليّ أفكاري. لقد عمل "تولستاي" بذكاء واحترام وأطاع أوامري، أما أنت فعصيت أوامري مع أنك ابني، ثم لم تضربه على جرم ارتكبه بل ضربته على طاعته لي. ثم أعطى الملكُ "تولستاي" السوطَ وقال: قُمْ واجلِد الأمير بالسوط. فما كان من الأمير إلا أن قال: إن القانون الروسي لا يسمح بضَرب رجل من الجيش بيد شخص ليس في الجيش، وأنا من الجيش وهذا ليس من الجيش. فقال الملك لتولستاي: ها إني أعطيك منصبًا في الجيش، فاضرب الأمير. وكأن الملك قال لابنه: إذا كان القانون الروسي لا يسمح لأحد من غير الجيش أن يضرب رجلاً من الجيش فإن منح المنصب في الجيش بيدي، وإني أمنح تولستاي منصبًا في الجيش.

فعاد الأمير وقال: إني ضابط في الجيش ولا يحق لأحد أن يضربني إلا إذا كان برتبتي. فقال الملك لتولستاي: ها إني أجعلك ضابطا. فقال الأمير: ولكن القانون الروسي ينص على أنه لا يجوز لغير اللورد إنــزال العقاب بلورد. فقال الملك: إن خلع لقب لورد على أحد أيضًا بيدي، ثم توجه إلى تولستاي وقال: أيها اللورد تولستاي آمرك بعقاب الأمير. وهكذا قام الملك بتفنيد كل عذر قدّمه الأمير وجعله يُضرب بيد تولستاي الذي تعرّض للضرب من أجل الملك.

كذلك فإن الذي يتعرض للضرب بسبب إيمانه بالله تعالى وتلبية ندائه فلا يدَع الله ضارِبَه، صغيرًا كان أم كبيرًا، بدون عقاب، إذ لا يقاوم سوطُ أحد سوطَ الله. إن الناس يتباهون بكثرتهم وأحزابهم وحُكمهم، ولكن حكومة ربنا أكبر من كل حكومة ودولة. لقد قال الأنبياء عن نبينا ﷺ إنه حجر الزاوية، "ومَن سقَط على هذا الحجر يترضض، ومَن سقَط هو عليه يسحَقه"(متى ٢١ :٤٢-٤٤).. أي سواء حمل هو على أحد أو حمل عليه أحد فإن عدوه يعاقَب حتمًا في كل حال. والحق أن المسلمين أيضًا أحجار الزاوية باعتبارهم أتباعًا للنبي ﷺ، فمن توكل على الله منهم لم يترك الله عدوه بدون عقاب.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧

التفسير: لقد نبّه الله تعالى هنا المؤمنين أن كل ما يقومون به من عمل صالح إنما ينفعهم هم ولا ينفع الله شيئًا، لأنه تعالى غني عن عبادات الناس وتضحياتهم. فلا تظنوا أنكم تمنون على الله ورسوله بهذه التضحيات. إنما الواقع أن الله تعالى ليس بحاجة إلى تضحياتكم، بل أنتم بحاجة إلى فضله. وإذا وُفقتم لخير فليس في ذلك أيّ منّة على الله أو على جماعة المؤمنين، وإنما أحسنتم إلى أنفسكم. والذين لا يدركون هذه الحقيقة يعملون الحسنات حتى يصلوا إلى باب الجنة، ولكن زهوهم وكِبرهم

يسدّ طريقهم ويُسقطهم في الجحيم. فعلى المرء ألا يصاب بالكِبر والعُجب بعد عمل الصالحات أبدًا، بل عليه أن يشكر الله تعالى دائمًا إذ وفّقه للإيمان وثبّت قدمه عند المصائب والمحن.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

لنكفرن: كفّر الله له الذنبَ: محاه. (الأقرب)

وكفّر: أدّى الفدية، قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾. والتكفير: سَتْرُه وتغطيتُه حتى يصير بمنـــزلة ما لم يُعمَلْ، ويصحّ أن يكون أصله إزالةَ الكفرِ والكفرانِ نحوَ التمريض في كونه إزالةً للمرض وتقذيةِ العين في إزالة القذى عنه. (المفردات)

لقد تبين مما سبق أن الكفارة تعني المحو؛ كأن تُمحى من القلب رغبة الإثم وعادته، ثانيًا: محو عقاب الإثم ونتيجته ومحو شهرة الإثم وفضيحته. كما أن الكفارة تعني أداء الفدية وإزالة الإثم.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا نظرية الإسلام عن جزاء الحسنة. حيث أخبر أن المرء إذا تاب توبةً نصوحًا غفر الله تعالى له ذنبه بل جعل ذنبه طي النسيان، بمعنى أنه يقلّل أثر ذنبه في ذاكرته، أو يمحوه من ذهنه ومن أذهان الآخرين أيضًا كليةً؛ حتى لا يشعر بالندم والخجل، وتظل عاطفة الخير غالبة عليه. ولذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿وَالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. والمراد من التكفير هنا محو أثر الإثم من الأذهان كلية إرساءً لعزتهم وصيانةً لشرفهم، ذلك لأن الحديث هنا عن الذين يعملون الصالحات والكاملين في الإيمان. إذًا، فلا يمكن أن يعني التكفير ترك الإثم فقط إذ إنهم يعملون

الصالحات سلفًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فبين فيه أنه تعالى عندما يجزي الإنسان فلا يجزيه بناءً على أعماله الضعيفة بل على أفضل أعماله، بينما نرى في الدنيا العكس؛ حيث إن الناس إذا أرادوا جزاء أحد على أعماله وضعوا في الاعتبار تقصيراته أيضًا.. أي يجزونه بحسب الأعمال الصادرة عنه عمومًا؛ فيما يسمونه "القاعدة الوسطى". والحق أن كل جزاء في الدنيا يكون مبنيًا على هذه القاعدة، حتى إن الحكومات تمنح معاش التقاعد أيضًا بحسب هذه القاعدة، حيث تنظر عند تحديد معاش الموظف إلى معدل دخله في السنوات الثلاث الأخيرة. فمثلاً إذا كان دخله قبل التقاعد بثلاث سنوات ثلاثَ مئة جنيه، وقبل سنتين من التقاعد أربع مئة جنيه، وفي السنة الأخيرة خمس مئة جنيه، فستعطيه الحكومة مئتي جنيه التي هي نصف أربع مئة جنيه، ولن تعطيه مئتي جنيه وخمسين التي هي نصف راتبه الشهري في السنة الأخيرة. ولكن الله تعالى هو مالك يوم الدين، وكلما جزى المرءَ جزاه بناءً على مالكيته تعالى، فلا يكون في عطائه هضم لحقوق الآخرين، لذلك تختلف القاعدة التي وضعها الله تعالى لإعطاء الجزاء الحسن عن قاعدة أهل الدنيا، وهي أنه تعالى لا يعطي المرء جزاء أعماله الحسنة بحسب مستوى أعماله عند الموت، بل يجزيه بحسب أفضل عمل قام به في حياته كلها في أي وقت. لنفترض أن للحسنة عشر درجات، وأن شخصًا كان في الدرجة السابعة عند موته، ولكنه كان في الدرجة الثامنة أو التاسعة قبل الموت بأربع سنين، ثم سقط عن هذه الدرجة ولم يستطع خدمة الدين كما استطاع من قبل نتيجة ضعفٍ في جسمه أو في عقله، فإن الله تعالى لن يمنحه الدرجة التي كان عليها عند الموت، بل يهب له تلك الدرجة الأسمى التي كان عليها من قبل.

باختصار عندما يجزي الله الإنسان على أعماله الحسنة فينظر إلى أسمى درجة بلغها في حياته ويجزيه بحسبها متغاضيًا عن التغيرات والتقصيرات التي حصلت في حياته فيما بعد.

وهناك آيات عديدة في القرآن الكريم بهذا الصدد وإحداها الآيةُ قيد التفسير.

فمن الواضح أنها لا تعني أبدًا أن الله تعالى يجزي الإنسان على أفضل أعماله ولا يجزيه على الأعمال الحسنة التي تكون دونه، لأن هذا لا ينفع العبد بل يضره، إذ إنه سيزداد جزاءً إذا أُضيف جزاء الأعمال الصغيرة إلى جزاء الأعمال الكبيرة الرفيعة ولا ينقصه؛ أما إذا جُوزِيَ على الأعمال الكبيرة بدون الأعمال الصغيرة صار جزاؤه أقل قوة؛ وعلى سبيل المثال إن عدد ١٠ أكبر من ٦ و٧، ولكنه ليس أكبر من ١٠+٦+٧، ولو طرحت من عدد العشرة الستةَ والسبعةَ صار أقل قوة. فليس المراد من قول الله تعالى هذا أنه يجزي المرء على أفضل أعماله فقط؛ ولا يجزيه على ما دونها من أعماله الحسنة. فثبت من ذلك أن الله تعالى لا يتحدث هنا عن الجزاء العام بل يتحدث عن الجزاء الخاص، إذ من المعروف أنه تعالى لن يضيع عند الجزاء العام أي عمل حسن مهما كان ضئيلاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزال:٨)، أما الجزاء الذي يذكره الله تعالى هنا فينتفع فيه الإنسان إذا ما فُصل أفضل عمل قام به، أما إذا قُرنت إليه أعماله الحسنة الأخرى قلّ جزاؤه. شأنه شأن أفضل لوحة يرسمها رسّام. لا شك أن الرسام يرسم في حياته آلاف اللوحات، ولا شك أنها لا تكون على مستوى واحد من الإبداع، بل تتفاوت درجة، فبعضها تكون أروع وبعضها متوسطة وبعضها أدنى. وليس ضروريًا أن يكون قد رسم أفضل لوحاته التي هي ذروة عمله والتي تسمى بالإنجليزية (master piece) في آخر حياته، بل قد يرسمها في أوائل أيام عمله أو في وسطها أو في آخرها. ولو أُعيد هذا الرسام إلى الحياة مرة أخرى وأُعطي مهارة فن الرسم بحسب معدل إبداع لوحاته التي رسمها طوال حياته أو التي رسمها في أواخر حياته، فلا شك أن مهارته تكون أقل درجة، أما إذا أُعطي في حياته الثانية مهارة الرسم بحسب أروع لوحاته لكانت درجة مهارته أعلى يقينًا. ذلك لأن الإنسان تأتي عليه ساعات من القبض والبسط، ولا شك أن معدل هذه الساعات كلها أعلى من ساعات القبض، ولكنه أدنى من ساعات البسط. وهذا هو الأمر الذي قد أشار الله تعالى إليه في هذه الآية، فبين أن قوة العمل التي ستوهب للإنسان في الحياة الأخرى لن تكون بحسب معدل ترقياته وإنجازاته في الحياة الأولى، بل ستكون بحسب مستوى الرقي الذي بلغ فيه الذروة

والكمال في حياته الأولى؛ فيبلغ الدرجات العلى بسرعة فائقة. وبحسب هذا المعنى يصبح جزاء الإنسان طبقًا لأفضل عمل له إنعامًا عظيمًا يرقص له قلبه. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

التفسير: والمراد من قوله تعالى: ﴿فَلا تُطِعْهُمَا﴾.. أي حيث إن الله تعالى هو الذي أمر المؤمن بالإحسان إلى والديه فكيف يمكن أن يسيء معاملته مع الله تعالى الذي هو أكثر إحسانًا من والديه، فيطيعهما إذا أمراه بخلاف مشيئة الله تعالى؟

إذًا، فمن واجب الإنسان أن يعامل والديه بالحسنى دائمًا ولا يعصيهما أبدًا إلا في هذه الحالة الاستثنائية. ولكن المؤسف أن كثيرًا من الشباب في هذا العصر لا يحترمون والديهم كما ينبغي، ولا يؤدون حقوقهم، بل إذا تقلد بعضهم منصبًا مرموقًا خجل من لقاء والديه الفقيرين. كان المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا أن هندوسيًا علّم ابنه بصرف مال كثير رغم فقره الشديد، حتى حصل على شهادة الماجستير، وتقلد منصب حاكم محافظة. وهذا المنصب كان يُعتبر في الماضي مرموقًا جدًا، وإن كان لا يُعتبر كذلك الآن. ففرح أبوه وخرج يومًا لمقابلته في مكتبه. فلما وصل إلى المكتب وجد ابنه جالسًا مع كبار الرجال من المحامين وغيرهم، فدخل في مكتبه بثيابه الرثة البالية فجلس معهم. فتضايق أحدهم من جلوس شخصٍ رثِّ الثياب معه وسأل الابنَ: من هذا الذي جاء وجلس معنا؟ فخجل ابنه وأراد إخفاء الحقيقة فقال: هذا بعضُ خدمنا. فثار أبوه غيظًا وهبّ من مكانه وقال: لا، لستُ مِن خدمه، وإنما أنا خادم أُمّه. فلما علموا أنه أبوه لاموه كثيرًا وقالوا: لِمَ لم تخبرنا

حتى نبدي لأبيك الاحترام الواجب، ونعطيه مكانًا يليق به؟

ونرى مثل هذه المشاهد يوميًا حيث يفر الناس من أقاربهم الفقراء خوفًا من تعيير الناس بهم. وهكذا يسيئ هؤلاء إلى آبائهم بدلاً من أن يكونوا فخرًا لهم. وباستثناء الذين يبدون لوالديهم الإجلال والاحترام لأن الله تعالى أمرهم بذلك، يوجد بين أهل الدنيا عدد قليل جدًّا ممن يكرمون والديهم حق الإكرام. وهذا العيب موجود بين المثقفين وغير المثقفين على حد سواء.

ثم هناك شباب لا يعتنون بأمهاتهم، وإذا سئلوا قالوا: إن أمي عصبية المزاج، وليست على وئام مع زوجتي. وشتان بين الأم والزوجة! فما هي التضحية التي قدمتها زوجته من أجله؟ إنها تخدمه وهو شاب، ولكن أمّه قد أرضعته من ثديها وهو طفل صغير. فأمّه التي أرضعته دمها لبنًا وقامت بتربيته وتعليمه بمشقة وعناء فإنه يُعرض عنها زاعمًا أن أمه عصبية وأن زوجته لا تتحملها. فمن واجبكم أن تقضوا على هذا العيب الخطير، واخدموا والديكم، وإلا ستُحرَمون من الجنة التي قد جُعلت تحت أقدامهما.

وقال الله تعالى في آخر الآية: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.. أي أن مصيركم إلى الله تعالى في نهاية المطاف، وهو الذي سيأتي بنتائج أعمالكم، فمن واجبكم ألا تطيعوا والديكم إذا أمروكم بالإشراك بالله تعالى؛ أما فيما سواه من معاملات الدنيا فعاملوهما بالحسنى وأطيعوهما طاعة كاملة.

ورد في الحديث أن بنتًا لأبي بكر ﷺ - وكانت أختًا لإحدى أزواج الرسول ﷺ - جاءتها أمُّها، فقالت: يا رسول الله، لقد جاءتني أمي ولكنها كافرة، فهل أُحسن إليها؟ فقال النبي ﷺ: نعم، لا حرج في ذلك، إذ إنه أمر يتعلق بالدنيا لا بالدين.◈

وورد في الحديث أيضًا أن النبي ﷺ أهدى عمرَ ﷺ حُلّةً من حرير، فقال: يا

◈ نص الحديث كالآتي: "عن أسماء قالت: قدمتْ أُمّي وهي مشركة، في عهد قريش ومُدّتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ، مع أبيها، فاستفتيتُ النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمتْ وهي راغبة؟ قال: نعم، صِلي أُمَّك". (البخاري: كتاب الأدب، باب صلة المرأة أُمَّها ولها زوج) (المترجم)

رسول الله، لقد أهديتُك مرة عباءةَ حرير فلم تحب ذلك، والآن تُهديني عباءة حرير، فهل ألبسها؟ فقال ﷺ: إني لم أُعطِكها لتلبسها بل تبيعها أو تهديها لأحد. فبعث بها عمر ؓ إلى أخ له كافرٍ في مكة. (البخاري: كتاب الأدب، باب صلة الأخ المشرك)

وهذا يبين أن الاختلاف في الدين لا يعني قطع الصلات عن الأقارب كلية، بل من واجب المؤمن أن يحترم والديه وأقاربه ويحسن إليهم دائمًا.

وجدير بالذكر هنا أن الله تعالى قد وصّى بالإحسان إلى الآباء في معرض الحديث عن الاختبار والابتلاء، وذلك لأن الشباب يقبلون الحق عادةً عند بعثة الأنبياء كونهم متحررين في أفكارهم، ولكن آباءهم لا يرضون بترك عقائدهم البالية. والاختلاف في العقيدة يُحدث شرخًا واسعًا بين الآباء والأولاد، فيعامل الآباء أولادهم بقسوة أحيانًا، فيطردونهم من بيوتهم ويحرمونهم من عقاراتهم؛ ولذلك نبه الله المؤمنين هنا أنه مما لا شك فيه أن قبولكم الحق حسنة كبيرة، ولكن هذا لا يعني أن تمتنعوا عن الإحسان إلى والديكم نتيجة معاملتهم القاسية، وإنما واجبكم أن تحسنوا إليهم دائمًا وتعاملوهم بالحب والرفق في أمور الدنيا، أما إذا حاولوا إبعادكم عن الله ورسوله فقولوا لهم فورًا لن نطيعكم في هذا أبدًا.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الذين يؤمنون بمحمد بصدق القلب ثم يعملون أعمالاً صالحة بحسب إيمانهم، سيدخلهم الله في الصالحين.. أي في أولئك الصالحين الصادقين الذين قد وعد لهم الله في الزبور بأنهم يرثون أرض فلسطين (المزامير ٣٧: ٢٩). وهذا يعني أن الوعد الذي قُطع لبني إسرائيل كان قد انتقل إلى المسلمين الآن نتيجة إيمانهم وصالح أعمالهم. وبالفعل قد ظلت فلسطين بأيدي المسلمين ما داموا

صالحين، ولكنهم لما فسدوا فقدوا فلسطين. إلا أن حرمانهم منها مؤقت كما هو واضح من آيات أخرى من القرآن الكريم، وسيأتي بهم الله إلى فلسطين ثانية ويبدّل هزيمتهم فتحًا إن شاء.

إن الشعب الأمريكي شعب ذكي جدًا، ولكنه قد أخطأ هذه المرة خطأً فادحًا حيث قام لمساندة شعب مُدان من قبل التوراة والقرآن الكريم أيضًا. فإذا كان اليهود يريدون البقاء في فلسطين فهناك سبيل واحد لذلك، وهو أن ينضموا إلى ﴿الصالحين﴾. إذ ليس بينهم وبين الله تعالى عداء شخصي. إنهم من أولاد إبراهيم عليه السلام، وإذا أصبحوا صالحين بقوا في هذه البلاد. ولكن القرآن الكريم قد قام بشرح عن هؤلاء ﴿الصالحين﴾، فبيّن أن الذين يطيعون محمدًا رسول الله ﷺ هم الذين ينالون درجة الصالحين والشهداء والصديقين، فلا بد للمرء من طاعة محمد ﷺ بصدق ليُعدّ من الصالحين. فلو آمن اليهود بمحمد ﷺ لأبقاهم الله تعالى في هذه البلاد، وأصبحوا إخوة للمسلمين كما كان إسحاق أخًا لإسماعيل - عليهما السلام. فليس هناك مانع من أن يتشجعوا وينتفعوا من هذا القانون الرباني.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١٢﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن من الناس من يرى الكفاية في إعلانه بالإيمان باللسان فقط، وإذا تعرض للعذاب في سبيل الله تعالى جعل إيذاء الناس كعذاب الله تعالى، وإذا جاءك نصر من ربك حاول كتمان الحقيقة وأتى المسلمين قائلاً: إني معكم، مع أنه كان معهم باللسان فقط لا بالقلب. على المؤمنين أن يتجنبوا هذا

السلوك الدال على الجبن ويتمسكوا بالصدق بقوة دائمًا.

إن أكبر عائق في سبيل انتشار الحق في هذا العصر أن الناس لا يستطيعون مقاومة قومهم وتقاليد بلادهم. هناك مئات الآلاف من الأوروبيين الذين قد أيقنت قلوبهم بصدق الإسلام، ولكنهم مصفّدون بتقاليد قومهم ويخافون أهل بلادهم وجيرانهم. ولو أنهم تشجعوا لما قبلوا الحق بأنفسهم فحسب، بل قبِله آلاف مثلهم ولانتشر الحق في أيام بما لم ينتشر في قرون. ذلك لأن هذا العصر يتميز بسمة بارزة رغم كل ما فيه من مفاسد وعيوب، وهذه السمة البارزة هي أن كنوز العلم قد خرجت فيه إلى النور، فتوجد في كل مجال من العلم كتب كثيرة بحيث أصبحت العلوم في متناول الإنسان. وهذا لم يكن ميسرًا للذين خلوا من قبل. فطوبى لمن يغتنم هذه الفرصة ويساعد على إقامة الدين الحق بتقديم مثاله الحسن. ولا شك أن الله تعالى سيمطر عليه فضله وستدعو له الأجيال في المستقبل. وإننا في انتظار أولئك القوم من أوروبا وأمريكا الذين سيتبوءون هذه المكانة العظيمة.

أما قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾، فيوضح أن هناك فرقًا واضحًا بين الابتلاء والعذاب، ولكن الناس لا يلاحظون هذا الفرق جراء جهلهم، فيعتبرون المصائب التي يواجهونها في سبيل الله تعالى سببًا لهلاكهم، مع أنها سبب لرقيهم وغلبتهم. وفيما يلي الفروق البارزة بين الابتلاء والعذاب:

الأول: إن العذاب يهلك ويدمر، ولكن الابتلاء لا يدمر، وإن كان لا بد من المعاناة في كلتا الحالتين. خذوا مثلاً الرسول ﷺ، فكم من موطن حاصرَه فيه الأعداء وهو وحيد، ولكن الله تعالى أنقذه في كل مرة. أما أبو جهل فأُخذ مرة واحدة مع جنوده وهلَك.

الثاني: إن العذاب يزيد المرء خسرانًا، أما الابتلاء فيزيده خيرًا. ومثال الابتلاء ككرة مطاطية كلما رميت بها الأرض بقوة أكثر ارتدت أعلى من ذي قبل، ولكن العذاب إذا ضرب بالإنسان فلا يقوى على النهوض مرة أخرى.

الثالث: إن العذاب يملأ قلب الإنسان يأسًا وحزنًا، أما الابتلاء فيبعثه على

الاطمئنان والسكينة. عندما ينـــزل العذاب على الشخص المغضوب عليه يدعو الويل والثبور، أو يزداد كبرًا وزهوًا إذا لم يُصبه الحزن عند نزول العذاب ويقول في كبرياء: من ذا الذي يقدر على أن يُهلكني؟ أما إذا جاء الابتلاء فيقول المرء: لا ضير، لأن ربي قوي وإن كنتُ ضعيفًا وعديم الحيلة ، فيزداد يقينًا بالله تعالى ويحسن به الظن أكثر من ذي قبل.

الرابع: عندما يحاول الإنسان دفع العذاب عنه يتخبط خبط عشواء، ولكن الذي يأتي عليه الابتلاء يزداد ذكاءً وصوابًا. فانظرْ كيف تتبّع الكافرون آثار النبي ﷺ ووصلوا إلى مدخل غار ثور الذي كان مختفيًا فيه، حتى قال لهم قصّاص الأثر إما أن محمدًا قد صعد إلى السماء أو أنه مختفٍ في هذه المغارة. ورغم أنهم كانوا يثقون بقصّاصي الأثر كثيرًا وكانت حياة النبي ﷺ مهددة بالخطر الشديد، إلا أنه ﷺ ظل رابط الجأش لم يصبه قلق ولا خوف، بل لقد هدّأ من روع أبي بكر قائلا له: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠). وفي إحدى المرات كان النبي ﷺ نائمًا، فجاء كافر واستلّ سيفه وأراد قتله، ولكنه ﷺ لم يخفه. وعندما سأله الكافر: من ينقذك مني الآن؟ قال له بكل هدوء: الله. فانبهر الكافر بهذه السكينة النادرة وسقط السيف من يده. (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع)

الخامس: لا يحس صاحب الابتلاء بالبلاء ولا يبالي بالتعذيب، بل يجد فيه لذة موقنًا أنه يضحي بالأدنى من أجل الأعلى. فمثلاً إذا ضاع ماله قال: لقد ذهب في سبيل الله تعالى، فما الداعي للحزن؟ وإذا مات ابنه قال: كان هبةً من الله تعالى، فلماذا أحزن إذا استدعاه؟ كان المسيح الموعود عليه السلام يحب ابنه "مبارك أحمد" حبًا شديدًا، وقد اعتنى به في مرضه عناية بالغة حتى ظن الخليفةُ الأول رضي الله عنه أن وفاة "مبارك أحمد" ستصيب المسيح الموعود عليه السلام بصدمة شديدة. كان الخليفة الأول يجس نبض "مبارك أحمد" في آخر لحظات حياته، فوجد أن نبضه أخذ يتوقف، فطلب إلى المسيح الموعود عليه السلام أن يُحضر المسك، ثم سقط على الأرض خوفًا على المسيح الموعود عليه السلام من صدمة موت ابنه. ولكن المسيح الموعود عليه السلام لما علِم

بوفاة ابنه، جلس لتوّه يكتب الرسائل لأصحابه صابرًا محتسبًا، وقال: لقد توفي مبارك أحمد ولكنا لا نحزن بل نرضى بمشيئة الله صابرين. ثم خرج وبدأ يتكلم مع أصحابه مبتسمًا ويقول: لقد تحقق وحي الله تعالى الذي تلقيته عن ابني مبارك أحمد. ومما قاله الطَّيْكِلاَ في رثائه:

بلانے والا ہے سب سے پیارا

اسی پہ اے دل تو جاں فدا کر

أي يا قلب، إن الذي دعاه هو أحبُّ الأحبّة، فكن أنت أيضًا فداءً له ﷻ.

باختصار، إن الابتلاء لا يصيب الإنسان بصدمة يفقد بها الهمة لعلمه أنه يضحي بالأدنى من أجل الأعلى. لا شك أن العذاب الشديد أيضًا يُفقد المرءَ الإحساس بالألم أحيانًا، ولكن سببه اختلال الحواس. لقد مرّ الخليفة الأول ﷺ مرة بامرأة وسألها: كيف فلان من أقاربك؟ فضحكت وقالت: لقد مات. فسألها: عن بعض أقاربها الآخرين، فكانت تضحك في كل مرة وتقول: لقد ماتوا. لم تكن هذه المرأة تضحك لإيمانها بأن الجميع راجعون إلى الله، بل كانت مصابة في عقلها، فلم تعد تحس بالغم.

السادس: إن العذاب يقلل روحانية الإنسان إذ يُبعده عن الله تعالى. أما الابتلاء فيزيد الإنسان تقرّبًا إلى الله تعالى.

هذه هي أهم الفروق بين الابتلاء والعذاب والتي يجب تذكرها.

أما قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾، فبيّن فيه أن الجبناء يخذلون المؤمنين وقت الشدائد ويأتون إليهم عندما تزول المصيبة ويأتي الفتح قائلين إنا معكم ليشركوهم في الجزاء والنعم. أوَ لا يعلم هؤلاء الجبناء أن الله تعالى هو الذي يعطي الجزاء وليس المؤمنون؟ فماذا ينفعهم المال أو المنصب لو حصلوا عليه عن طريق الخداع، لأن الله الذي يعطي الإنعام الحقيقي يعلم خداعهم جيدًا، فلن ينفعهم احتيالهم، بل سيهزّهم الله تعالى بمزيد من الابتلاءات التي تفضح نفاقهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.. أي أن الله

تعالى لن يبرح يبتلي الناس ويختبرهم ليكشف للعالم من المؤمن ومن المنافق، وستنكشف للمنافقين أنفسهم حقيقة ادعائهم بالإيمان.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٤﴾

التفسير: هذا ما يقول الكافرون للمؤمنين عند غلبة اليأس. مما يكشف أن الكفر يسلب عقل صاحبه حيث يقول كبار الحكماء من الكافرين ما يُضحك الطفل أيضًا. فمثلاً لو قارنتَ بين ما بيّنتْه الآيات السابقة من طريق طبيعي للنجاة من الإثم وهو أن يتوب المرء ويسعى للقاء الله تعالى ويجاهد في سبيله، وبين ما يصفه الكافرون من طريق غير طبيعي للنجاة لتبينَ لك أن ما يقوله القرآن الكريم هو الحق والصدق، وأن ما يقوله المعارضون مجرد هراء. فادعاؤهم بأن المؤمنين لو اتبعوهم لحملوا عنهم خطاياهم منافٍ للعقل تمامًا، إذ لا أحد يقدر على حمل خطايا غيره، فلا يحمل المؤمن خطايا الكافر، ولا الكافر خطايا المؤمن؛ وإنما يرفع الله عن المرء خطاياه بالعفو عنه. وهذا هو الطريق الطبيعي الحق الذي يُسمى "توبة".

باختصار إن الإسلام الذي هو دين الفطرة يفتح للآثم باب التوبة ويؤمّله في لقاء الله تعالى، ولكن الأديان الأخرى تعلّم خلاف هذا الطريق الفطري. فمثلاً تقول المسيحية أن الناس لو آمنوا بيسوع المسيح غُفرت خطاياهم لمجرد إيمانهم. إذ تقول المسيحية أن الشيطان أغوى آدم وزوجته حواء، وجعلهما آثمين، وكل إنسان يولد في الدنيا حاملاً خطيئتهما بالوراثة؛ وبما أن الله تعالى عادل ويقتضي عدله أن يعاقب كل آثم، فيستوجب كل إنسان العقاب نتيجة خطيئة آدم وحواء؛ ولكن رحمة الله

تقتضي العفو عن الخطاة، فأوجد الله حل هذه المعضلة بأن أرسل ابنه الوحيد إلى الدنيا ليموت على الصليب مع أنه بلا خطيئة، ويُدعى كاذبًا مع أنه صادق. فظهر ابن الله في الدنيا في صورة المسيح، فصلبه اليهود بدون ذنب، فحمل ذنوب جميع المؤمنين به ونجاهم. (التكوين ٣ والرومية ٣: ٩، والرومية ٥: ٩-٢١)

وتتعارض هذه النظرية مع العقل كل التعارض وكلما تدبر فيها الإنسان أخذته الحيرة وتساءل: ما هذا الطريق العجيب الغريب لغفران الذنوب؟ إذا كان العفو عن الخاطئ منافيًا للعدل فإن عقاب البريء أيضًا مخالف للعدل، فكيف حمل ابن الله تعالى خطايا الآخرين، وكيف عاقب الله البريءَ؟

ثم إنه لمما يتنافى مع العقل كل المنافاة أن يرث الابن كل ما يفعله أبوه. لو كان هذا صحيحًا لكان أولاد الآباء الجاهلين جهالاً دائمًا، وأولاد العلماء علماء دائمًا، وأولاد المسلولين مسلولين دائمًا، وأولاد المجذومين مجذومين دائمًا. الواقع أن الإرث يكون في أشياء ولا يكون في أشياء أخرى. ثم إن الأمور التي يمكن انتقالها إلى الأولاد وراثيًا قد جعل الله تعالى هناك ما يمكن أن يجنّبهم منها أيضًا، لولا ذلك لصار التعليم والدعوة والتبليغ أمرًا عبثًا. إن إيمان أولاد الكافرين دليل أن الله تعالى لم يجعل أمور الإيمان خاضعة لقانون الوراثة. لو كان قانون الوراثة يعمل في أمور الدين والإيمان لصارت بعثة المسيح نفسها عبثًا. يقول الإسلام إن الله تعالى قد خلق الناس مزوَّدين بالقدرة على إحراز الحسنة، فمنهم من يطور هذه الكفاءات ويفلح، ومنهم من يضيعها ويفشل. لا شك أن قانون الشريعة كله صالح للعمل، إلا أن النجاة ليس أساسها العمل، وإنما أساسها الإيمان الذي يجذب فضل الله تعالى، أما العمل فهو وسيلة لتكميل الإيمان. ولا شك أن العمل ضروري جدًا، إلا أنه مجرد وسيلة في كل حال، ونقصان الوسيلة لا يعني فقدان الشيء. إن الشجرة تنبت من البذرة ولكنها تنمو بالماء، ومثل الإيمان كالبذرة ومثل العمل كالماء الذي ينميه؛ ومن المحال أن تنبت الشجرة بمجرد الماء، ولكن لو كانت البذرة ناقصة والماء قليلاً فأيضًا يمكن أن تنبت الشجرة ولو كانت ضعيفة. إن الفلاحين يخطئون دائمًا في سقي زرعهم، ولكن هذا لا يُهلك الزرع كله إلا إذا كان الخطأ فادحًا جدًا. إن

عمل الإنسان يُنضّر الإيمان، ونقصان العمل يؤدي إلى النقصان في الإيمان، ولكن لو ظل النقصان في العمل دون حدود الشر والبغي لم يدمر زرع الإيمان. أما إذا بلغ نقصان العمل حد الشر والبغي فإن عدل الله تعالى لا يحول دون التوبة؛ إذ ليس العدل أن يُعاقَب المجرم بالضرورة، وإنما العدل ألا يُعاقَب البريء. فعفوُ الله عن العاصي رحمةً به لا يتنافى مع عدله، بل هو مطابق له تمامًا. لو كان المراد من العدل إعطاء الجزاء على كل عمل بقدره فما معنى الغفران والنجاة إذًا؟ لأن العدل يعني المساواة. لو كان قولهم صحيحًا فيجب ألا يُمنح المرء النجاة إلا بقدر أيام عمره وبقدر أعماله فقط؛ ولكن لا أحد يقبل هذا. فلا أدري كيف يحددون رحمة الله تعالى بحجة العدل؟ يقول الإسلام إن الله تعالى مالكٌ، والمالك ليس مجبورًا أن ينعم أو يغفر بحدود معينة. لا شك أنه يزن أعمال الناس، ولكنه يزنها كي لا يعطى أحد أقلَّ مما يستحق، وليس لكيلا يُمنح أحد أكثر مما يستحق. لا شك أن المسيح عليه السلام كان إنسانًا معصومًا عن الخطأ وكان رسولاً من عند الله تعالى، ولكن من الخطأ القول أنه سيحمل ذنوب الآخرين. كلا، بل سيحمل كل إنسان صليبه بنفسه يوم القيامة، إلا أن يضع الله عنه حمله ويعفو عنه بفضله.

والحق أن المسيح عليه السلام أيضًا قد قدّم نفس النظرية في الإنجيل حيث قال: "ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقّني." (متى ١٠: ٣٨). إن قوله عليه السلام هذا يبطل زعم المسيحيين أن المسيح قد حمل خطايا الآثمين. كلا، بل إن كل إنسان سيحمل صليبه بنفسه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٥﴾

التفسير: لقد ذكر الله هنا نوحًا عليه السلام مع أن الله تعالى لم يتحدث عن قومه في الآيات السابقة، إنما ذكَر المسلمين فقط، فقال أيحسبون أنهم لن يُلقَوا في أي فتنة

ويُتركون بدون اختبار؟ فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا ذُكر نوح عليه السلام بعد ذكر المسلمين هنا؟

والجواب لقد ذُكر هنا قوم نوح لأن الله تعالى قد بين من قبل أن سنة اختبار الناس مستمرة منذ القديم، وكان نوح عليه السلام أول أو ثاني نبي مشرع على الأقل بعد آدم، فكان في ذكر أحداث بعض الأنبياء منذ ذلك الزمن تأكيدٌ لسنة الله المستمرة بصدد اختبار المؤمنين. إذًا فجاء ذكر نوح عليه السلام هنا كحلقة من سلسلة اختبار المؤمنين.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فلا يعني أن نوحًا بلغ من العمر تسع مئة وخمسين عامًا، إنما هذا إشارة إلى عمره الروحاني.. أي أن شريعته بقيت في قومه تلك المدة، ثم اندرست.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

التفسير: لقد ذكر الله هنا الابتلاءات التي تعرضت لها جماعة نوح عليه السلام، حيث بين أن الناس آذوا نوحًا وأتباعه أذًى شديدًا حتى اضطر هؤلاء كلهم للهجرة من وطنهم في سفينة أصبحت آيةً من الله للأجيال التالية. وبالفعل لا تزال هذه السفينة موضع نقاش عند الناس حتى اليوم، فيرى العلماء آثارها في أرمينيا تارة وفي روسيا تارة أخرى، مع أنه من المحتمل تمامًا أن يكون أعداء أكثر من رسول قد تعرضوا لعذاب مماثل لعذاب قوم نوح وأن يكون هؤلاء الأنبياء قد نجوا بالسفينة في زمنهم؛ فمن الممكن أن تكون هناك سفن عديدة - لا سفينة واحدة - قد جُعلت في شتى العصور آية من عند الله تعالى. ذلك لأن كل رسول يحل محل رسول آخر وقد حصلت مع العديد منهم أحداث مماثلة، فمثلاً قد نجا يونس عليه السلام بالسفينة أيضًا، وقد اضطر موسى للهجرة من مصر واضطر محمد ﷺ للهجرة من مكة. فيبدو من ذلك أن عذابًا كعذاب زمن نوح قد أتى على شعوب شتى وبلاد مختلفة، ولكن الناس قد أخطأوا واعتبروا كل هذه الأحداث حدثًا واحدًا.

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

التفسير: لقد ذكر الله هنا إبراهيم عليه السلام بعد نوح - عليهما السلام - وذلك لأنه كان من أمة نوح، لقوله تعالى في موضع آخر ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤).. أي كان إبراهيم من أتباع نوح.

وقد تبين من ذلك أن زمن نوح عليه السلام كان ممتدًا إلى زمن إبراهيم، وبالتالي فلا يعني قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أن نوحًا عاش في قومه هذه المدة بجسده، بل المراد أن شريعته ظلت نبراسًا للناس في تلك الفترة التي تمتد إلى زمن إبراهيم وموسى؛ وهكذا كان عمره الروحاني تسع مئة وخمسين عامًا.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾

التفسير: لقد بُعث إبراهيم عليه السلام في عصر قد تفشى فيه الشرك والوثنية، فقام بجهاد كبير للقضاء عليه. لا شك أن الشرك كان موجودًا في زمن نوح أيضًا، ولكن معرفة الناس بصفات الله تعالى كانت عندها في مراحلها الأولى؛ وبالتالي كان الشرك أيضًا في شكله البسيط.. أعني أن بعض الناس عبدوا تماثيل الصالحين، وبعضهم اتبعوا طرقًا بسيطة أخرى للشرك. أما في زمن إبراهيم فكان الشرك قد تحول إلى موضوع فلسفي حيث أخذت الفلسفة تغزو العقول من ناحية، ومن

ناحية أخرى اطلع الناس على دقائق توحيد البارئ أيضًا التي كان العمل بها أصعب من العمل بمسائل التوحيد البسيطة. فمثلا لو قلت اليوم للوثنيين: لماذا تعبدون الأوثان؟ يقولون: نحن لا نعبدها وإنما نضعها أمامنا من أجل التركيز، وهذا يعني أن الشرك موجود الآن كما كان في الماضي، ولكنه قد اصطبغ اليوم بصبغة جديدة. كذلك كان الناس في زمن إبراهيم عليه السلام قد صبغوا الشرك صبغة جديدة، ولذلك لم يكتف إبراهيم عليه السلام بنصح قومه بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، بل أضاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فنبّههم هنا إلى خمسة أمور أوّلها: أن ظنهم عن آلهتهم التي يعبدونها أنها تقدر على سدّ حاجة أو دفع ضرر لظنٌّ باطل، إذ لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا. وثانيها: أن الرزق بكل أنواعه بيد الله تعالى، فعليهم أن يسألوا الله الذي بيده كل خير وبركة وخزائن النعم كلها. وثالثها: عليهم أن يعبدوا الله وحده ولا يعبدوا أحدًا سواه. ورابعًا: عليهم أن يشكروا الله تعالى على ما منّ به عليهم من النعم ويقدروها. خامسًا: أنهم سيُحضرون عند الله بعد البعث من الموت، فليعملوا أعمالاً ينالون بها رضا الله تعالى.

لقد تبين من ذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يمنعهم عن عبادة الأوثان فحسب، بل ردّ على الفلسفة التي كانت وراء الوثنية حينذاك. فنبّههم أن هذه الأحجار التي هي جماد محض ولا حياة فيها لن تمنحهم شيئًا، إذا كانوا يريدون شيئًا فليسألوا الله الذي يملك القدرة كلها.

ثم لم يكتف إبراهيم عليه السلام بنصيحة قومه بقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾، بل قدّم أسوته الحسنة في هذا الصدد. فلما أمره الله تعالى أن يأخذ ابنه إسماعيل وأُمّه هاجر ويتركهما في واد غير ذي زرع لم يفكر من أين يأكلان وكيف يبيتان في تلك البرية، بل تركهما هناك، موقنًا بأن الله الذي يرزقهما في البيت سيرزقهما في البرية أيضًا.

أما قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ فقد حثّ به إبراهيمُ عليه السلام قومه على اغتنام الوسائل المتاحة لهم من قبل الله تعالى لسدّ حاجاتهم.

الحق أن الثروة نوعان: نوع يكسبه الإنسان بجهده، ونوع آخر وهبه الله تعالى بدون أي جهد منه. والثروة التي يكسبها الإنسان في الدنيا تتفاوت من شخص إلى آخر؛ فمثلاً إن الأرض أيضًا ثروة، ولكن ليس كل الناس من أصحاب الضيعات، بل بعضهم يملكون أراضي شاسعة وبعضهم يملكون القليل منها، وبعضهم لا يملكون منها شيئًا. ونفس الحال بالنسبة للتجارات والأعمال، فتجد تاجرًا يتجول في الشوارع حاملاً بضائعه على رأسه، بينما تجد شخصًا آخر يملك مصانع كبيرة. ونفس الحال بالنسبة للنقود، فهناك شخص مثلاً يملك خمس مئة روبية أو سبعا فقط، ويظن أنه من أهل الثراء، بينما تجد شخصًا آخر يملك الملايين ومع ذلك يريد المزيد جاهدًا. وهناك في أمريكا من الأثرياء الذين يبلغ دخلهم السنوي ملايين الدولارات، بينما تجد في البلاد الفقيرة أن شخصًا إذا ملك مئة أو مئتين روبية اعتبره الناس من الأغنياء. فالناس ليسوا سواسية فيما يتعلق بامتلاك الثروة الظاهرة، ذلك لأنها تُكتسب بالجهد والكفاح، ولذلك نجد بين الناس تفاوتًا كبيرًا بصددها، ويخضع هذا التفاوت حينًا للقانون القائل: مَن جَدَّ وجد، وحينًا يرجع إلى استثناء حيث يرث الابن من والديه ثروة كبيرة. بيد أن هناك ثروة من نوع آخر، ولكن المؤسف أن الإنسان لا يقدرها مع أنها ثروة غالية جدًا، بل هي الثروة الحقيقية في الواقع، وتُوزَّع من عند الله على الناس على السواء، ألا وهي ثروة الذاكرة والفكر والذكاء والعقل والتدبر، وينالها كل إنسان إلا المجانين والمعتوهين. وهذا الاستثناء شاذ جدًا، فكل إنسان يولد في الدنيا يعطى هذا الكنز العظيم من عند الله تعالى، إذ يوهب مع ولادته قوة الذاكرة والذكاء والفكر والتدبر، ولكنه إذا لم يُقدّر هذه القوى حق قدرها ضاعت كليًا أو جزئيًا. فمثلاً إذا لم يستعمل عيونه ضاع بصره، وإذا لم يمش شُلّت رجلاه، وإذا لم يعمل بيديه شُلّت يداه، وكذلك إذا لم يستعمل أعضاءه الأخرى ضاعت قواها الجسمانية. أما الذي يقدرها فتزداد قوة إلى قوة، فمثلاً إذا اجتهد الطالب وذاكرَ دروسه أصبحت ذاكرته قوية؛ وإذا لم يجتهد ولم يذاكر أصبح ضعيف الذاكرة. ومن حاول تفهُّم الأمور أصبح قوي الاستنباط، أما الذي لا يسعى لذلك يفقد قوة الاستنباط. والذين يفكرون فيما حولهم تزداد قوة

الفكر عندهم، أما الذين ليسوا معتادين على التفكير في الأشياء تضعف قوة الفكر عندهم. والذين يحاولون ضبط عواطفهم في حدودها يزدادون عقلاً، ومن لم يفعل أصبح ضعيف العقل. والذين يسعون دائمًا لاستعمال ما أعطاهم الله من نعم أو أسباب في محلها وبحدها المناسب تزداد عندهم ملَكة التدبير، أما الذين لا يقومون بهذا التخطيط فيفقدون هذه الموهبة. فكل الناس يُخلقون بهذه القوى سواسية تقريبًا، أما أن لا يُقدّرها أحد ويضيعها فهذا أمر آخر. وتتفاوت هذه الملكات من شخص لآخر وفقًا لمعاملة والديه معه؛ فمثلاً إذا لم يقم الوالدان برعاية الطفل في صغره، أو لم تأخذ أمه الحيطة المناسبة أيام الحمل، فقد تضعف هذه القوى فيه، ولكنه أمر استثنائي؛ أما لو نظرنا إلى الناس ككل، بغض النظر عن هذا الاستثناء، نجد ملايين الملايين يتمتعون بهذه الثروة الموهوبة من عند الله تعالى. ولكن ليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالثروة الظاهرة، ولو نظرنا للناس جميعًا من هذا المنظور لم نجد عدد الأثرياء في الدنيا كلها أكثر من مليونين ونصف المليون تقريبًا. فلو كان عدد أصحاب الثروة الظاهرة مليونين ونصف مليون، ولو كان عدد سكان العالم كلهم مئة وخمسين مليونًا، لكان بين كل عشرة ملايين شخص مئةُ ألف ثري. لقد بلغ عدد سكان العالم الآن مليارين ونصف مليار، وهذا يعني أنه يوجد ثري واحد بين كل ١٧٠٠ شخص تقريبًا. أما فيما يتعلق بثروة الذكاء والذاكرة والفكر والتدبر فتجد بين كل ١٧٠٠ شخص ١٦٨٠ شخصًا يملك هذه الثروة، وسيكون هناك عشرون شخصًا فقط هم محرومون منها، وإن كان من الممكن أن تكون هذه الثروة قد نقصت عند البعض نتيجة إهماله إياها، شأنه شأن السكّين التي تُلقى في المطر فيصيبها الصدأ، فإذا حملها الإنسان وصقلها عادت إلى حالتها الأصلية. ومن المستغرب أن الناس أكثرُ كفرانًا بهذه الثروة التي قد وهبها الله للجميع. فإذا سألت بعضهم: كم عندك من المال؟ قال: نعم، عندي كذا من الأرض والديار والبقر والخيل، ولكنه لن يذكر هذه الثروة التي هي أكبر الثروات.. أعني لن يذكر الهواء والماء مثلاً اللذين إذا حُرمهما مات. فمثلاً لو ضاعت بقره وخيله لم يمت، ولو ضاعت ثيابه لم يمت وتحمل قسوة الطقس، ولكن لو لم يجد الهواء لمات في دقائق،

ولو لم يجد الماء لمات في يوم أو بضعة أيام، ومع ذلك لا يذكر - كما قلتُ - الثروةَ التي هي أكبر الثروات، والتي يستحيل بقاؤه بدونها. ثم إنه لن يذكر لك العين والأنف والأذن واللسان عند هذا السؤال، بل يقول في الجواب مثلاً: عندي السكر بهذا المقدار، ولكنه لا يفكر أن السكر لن ينفعه إذا لم يكن عنده اللسان؛ إذ لولا قدرة اللسان على التذوق لاستوى عنده السكّر حلوًا كان أو غير حلو. أو يقول مثلاً: عندي زوجة جميلة وأبناء وُسَماء، ولكنه لا يتفكر في أنه لو لم تكن لديه عينان لما أدرك جمالهم. فثبت أن الإنسان لا يقدر كنوز الثروة الحقيقية، بل يجري دائمًا وراء الثروة الأدنى أو التي ينالها بواسطة أشياء أخرى. خذوا مثلاً الثوب، فإنه ذو قيمة لي إذا وجده جسمي ناعم الملمس، ولكن إذا لم يحس جسمي بنعومته فلا قيمة له بالنسبة إلي. ثم إنه ذو قيمة لأنه يعجب أحبابي ويسرّهم، ولكن إذا لم يكن عند أحبابي عيون أو إذا فقدتُ أنا الحس فماذا عسى أن ينفعني سواء أكان غالي الثمن أو رخيصًا جدًا. ونفس الحال بالنسبة للسان والمعدة، فإنهما يجعلان معًا الطعام ذا قيمة، ولكن إذا حُرم المرء اللسانَ مثلاً فلن يجد متعة في شرب الحليب وأكل الزبدة أو الأرز وغيرها من الأطعمة والأشربة. إذًا فثيابنا وطعامنا وشرابنا تصبح ذات قيمة لنا بواسطة هذه النعم الأخرى التي وهبنا الله إياها، إذ لو فقدتَ العين أو الحس المادي لم يعد عندك فرق بين الثوب الرديء والجميل مهما كان غالي الثمن.

باختصار إن ما أعطانا الله تعالى من هذه الثروة لغال جدًا، ولكن الأسف أن الناس لا ينتفعون منها حق الانتفاع. وهذا ما يلفت إليه إبراهيم عليه السلام أنظار قومه وينهاهم عن إهدار طاقاتهم، فينصحهم أن يُقدّروا نعم الله تعالى وينتفعوا بها ويسعوا لكسب الرزق بحسب القانون الإلهي؛ وعليه فإن لعبارة ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ نفس المدلول الذي هو لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(النور:١٤). وكأن إبراهيم عليه السلام يقول لقومه: لِم تسجدون للأصنام؟ عليكم أن تنتفعوا بما آتاكم الله تعالى من قوى

وملكات من أيد وأرجل وما إلى ذلك، واسعوا لكسب الرزق بحسب هذا القانون الإلهي، إذ لن تنفعكم هذه الأفعال المثيرة للضحك.

وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٩﴾

التفسير: لقد تبين من هذه الآية أنه كان بين إبراهيم ونوح أنبياء كثيرون. وقد أُوذي كل واحد منهم في عصره على أيدي الكافرين من قومه، ولكنهم تحملوا ببسالة كلَّ أذى، فكتب الله لهم النجاح في نهاية المطاف.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ فقد بيّن فيه أن الدعوة والتبليغ هي السنّة القديمة للرسل لا استخدام السيف، وقد اتبع إبراهيم أيضًا هذه السنة نفسها؛ كما قال الله تعالى لأهل عصره أيضًا ليس على رسولنا إلا تبليغ رسالتنا لا إكراه الناس على قبولها بحد السيف. والحق أن هذا هو ملخص القرآن كله.. أي ليس على أهل دين إلا إقناع الناس بالدليل، أما إكراههم بالقوة فلا يجوز لهم أبدًا. ولكن المؤسف أن الدنيا لم تعِ هذا الأمر حتى اليوم، مع أن الواقع أن كل إنسان يعتبر عقيدته حقًا بغض النظر عما إذا كانت حقًا في الواقع أم لا، شأن المسلم الذي يعتبر دينه حقًّا. لا شك أن المسيحية ديانة باطلة، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف ينظر معظم المسيحيين إلى المسيحية؟ لا جرم أنهم يعتبرونها دينًا حقًّا. كذلك لا غرو أن الهندوسية دين باطل، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف ينظر إليها أكثرية الهندوس؟ لا شك أنهم يعتبرونها دينًا حقًا. ولا شك أن الديانة اليهودية باطلة، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: ماذا يعتبرها معظم اليهود؟ والجواب أنهم يعتبرونها دينًا حقًّا. فإذا جاز قتل مسيحي بناءً على رأي مسلِم بأن دينه حق ودين المسيحي باطل، فلماذا لا يُمنح المسيحي حق قتل مسلم بناء على المنطق نفسه؟ ولماذا لا يجوز للهندوسي أن يُدخل الآخرين في ديانته

قهرًا أو يقتلهم؟ ولماذا لا يُمنح أتباع الديانة الكونفوشيوسية الموجودة في الصين حق إكراه الآخرين على اعتناقها؟ ولماذا لا يحق للمسيحيين في الفلبين التي يوجد فيها اليوم نحو عشرين ألف مسلم أن يقوموا بتنصيرهم جبرًا؟ ولماذا لا يحق لأمريكا أن تُدخل مواطنيها المسلمين في المسيحية بالقوة؟ ولماذا لا يحق لروسيا أن يجعلوا المسلمين كلهم بالإكراه مسيحيين أو اشتراكيين؟ إذا كان يحق للمسلمين إكراه الآخرين على قبول عقيدتهم فيجب أن يتمتع الآخرون أيضًا بهذا الحق عقلاً ومنطقًا. ولكن هل يمكن أن تنعم الدنيا بالسلام إذا مُنح هذا الحق للجميع؟! هل تستطيع أن تقول لابنك أو لزوجتك بأنه يحق للمسيحيين أن يُنصّروا المسلمين قهرًا، ويحق للمسلمين أن يُدخلوا المسيحيين في الإسلام قسرًا، ويحق للإيرانيين أن يدخلوا الأحناف كلهم في الشيعة بالقوة، ويحق للأحناف أن يُدخلوا الشيعة في أهل السنة قسرًا؟! فثبت أن هذا الأمر مناف للعقل والمنطق بحيث لن يقبله أي إنسان أبدًا.

كلما رفض أقوام الأنبياء هداية الله في الماضي قالوا لهم: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٩). أي إذا كنتم لا تريدون أن تهتدوا عن طيب نفس فلن نُكرهكم على الهدى قسرًا. ولكن المؤسف أنه يوجد في هذا العصر بين المسلمين من يُنكر هذا المبدأ. والحق أن الدنيا لو فهمتْ هذه القضية لانتهت عمليات الاضطهاد الديني والسياسي، ولم يفرض الناس عقيدتهم على الآخرين قسرًا ولم تفرض الدول نظامها السياسي على الدول الأخرى بالقوة.

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٣٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾

التفسير: لقد برهن الله تعالى هنا على صدق قوله من قبل: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾، حيث تساءل: ألم ير هؤلاء كيف أقام تعالى على يد كل نبي جماعةً روحانية في الماضي، وعندما زال أثره أقام جماعة روحانية أخرى على يد نبي آخر، وهذا الأمر على الله تعالى سهلٌ يسير. فيمكنهم أن يسيروا في الأرض ويروا كيف بُعث في الدنيا نبي تلو نبي، وقامت جماعة بعد جماعة. كذلك سيُقيم الله الآن جماعة على يد محمد ﷺ والله تعالى قادر كلَّ القدرة على ذلك ولن تحول مكائدهم دون مشيئته هذه.

ويظن البعض أن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يتعلق بالحياة الآخرة، والحق أن الحديث هنا ليس عن الآخرة بل عن هذه الدنيا. وحيث إن الموتى لا يعودون إلى الحياة في هذه الدنيا فالمراد من بدء الخلق هنا تمكين الأمم في الدنيا، والمراد من إعادة الخَلق النهوض بالأمم الغالبة ثانية بعد زوالها. بيد أن قولنا لا يعني إنكار أية حياة أخروية، بل نقصد بذلك أن هذه الآية: ﴿يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ تتحدث عن صعود الأمم وزوالها في الدنيا كما تدل على ذلك كلمات ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ وكلمات ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ حيث يدعو الله تعالى إلى التدبر في الكون.

كما أن الله تعالى قد تناول في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ موضوع بدء الكون الذي يسمى في المصطلح ethnology.. أي علم بداية خلق الكون.. والمعنى أنكم إذا سرتم في الأرض ورأيتم أحوال الناس عرفتم كيف كانت بداية العالم، أي إذا أردتم معرفة تاريخ العالم معرفة صحيحة فلن تستطيعوا ذلك بمعرفة أحوال بلد واحد، بل ستعرفونه برؤية أحوال شتى البلاد؛ إذ قامت في عصور مختلفة حضارات مختلفة، حيث ازدهرت الحضارة في الهند مرة، وفي إيران مرة أخرى، وفي روما تارة، وفي الجزيرة العربية تارة أخرى، وفي الشام حينًا، وفي مصر حينًا آخر. فلا بد لكم من السير في شتى بلاد العالم والنظر في آثار مختلف الشعوب، وعندها ستتوصلون إلى النتيجة الصحيحة في معرفة تاريخ العالم.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾

التفسير: ليس المراد من هذه الآية أن الله تعالى يرحم أو يعذب بشكل عشوائي، إذ قد صرح الله تعالى في مواضع أخرى من القرآن الكريم أنه لا يشمل برحمته إلا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤدون الصلاة جماعةً ويعطون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، حيث قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٧١)، وقال تعالى أيضًا: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٥٧). لقد تبين من هنا أن الله تعالى لا يرحم بشكل عشوائي أو بدون حكمة، بل تشمل رحمته من يستحقها بعمله.

وقد بيّن الله تعالى سنّته عن العذاب أيضًا حيث صرح أنه لا يعذب أحدًا بطريقة عشوائية، بل يعذب من يستحق العذاب نتيجة كفره بالله ورسوله، حيث قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(النساء:١٧٤)، وأيضًا قال لرسوله ﷺ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ۞ إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۞ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾(الغاشية:٢٣-٢٥)، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هود:١٠٧-١٠٩)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾(الفرقان:٢٨-٢٩).

فما دام القرآن الكريم قد أخبر بوضوح عن الذين سيرحمهم الله تعالى، وصرح أيضًا عن الذين سيعذّبهم، فباطلٌ الزعم أنه تعالى يرحم أو يعذب بشكل عشوائي.

ثم إن عقاب أحد بشكل عشوائي ظلمٌ، وقد أخبر الله تعالى في القرآن الكريم صراحة أنه لا يظلم أحدًا حيث قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(الأنبياء:٤٨)، وقال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف:٩-١٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾(النساء:٤١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(يونس:٤٥).

ثم إن هذا الزعم باطل حيث إن القرآن الكريم قد صرح أن كل إنسان سيُعامَل بحسب عمله، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾(النجم:٤٠-٤٢)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨-٩)، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:١٠-١١).. أي من طهّر نفسه نال بغيته، ومن دسّها في الرغام خاب وخسر.

فلا يبقى بعد هذا التصريح مجال لأن يعذب الله تعالى أحدًا أو يرحمه بطريق عشوائي، وإنما يعني قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أنه يعامل الناس طبقًا لسلوكهم، فيرحم الذين يستحقون رحمته بالتفاني في محبته، ويعذّب الذين يدنّسون نفوسهم بالمعاصي.

أما السؤال: لماذا قال الله تعالى هنا: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، بدلاً من أن يقول إنه سيرحم من كان صالحًا ويعذب من كان سيئًا؟ فالجواب أن مشيئة الله ومقتضى العدل والإنصاف شيء واحد في الحقيقة. وبما أن الحقائق حاكمة على الإنسان فلا تُقدَّر أعماله بالنظر إلى نفسه، بل تُقدَّر وفقًا للحقائق. أما الله تعالى فهو منبع جميع الحقائق، فلا يقال أنه سيعمل طبقًا للحقائق، بل يقال إنه يعمل بحسب مشيئته كونَها منبع الحقائق كلها. إنه معدن الحسن، وإن كل حقيقة إنما هي انعكاس لمشيئته وصورة لإرادته وتجلٍّ لحسنه وجماله. فالقول بأن مشيئته تابعة للحقائق يماثل

القولَ أن الابن أبٌ لأبيه. وإنها لحكمة بالغة يمكن بها حل جميع الآيات الصعبة كهذه.

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٣﴾

التفسير: لقد تحدى الله هنا الكافرين أنهم لن يحولوا دون انتصار محمد ﷺ وغلبته مهما اتخذوا من تدابير أرضية أو سماوية.. أي مهما عارضوا الإسلام بالتدابير المادية ومهما دعوا الله تعالى لينالوا مددًا من السماء، ذلك لأن أسباب الأرض ونصرة السماء كلتيهما تعملان على نصرته وتأييده ﷺ، فلن يدمّروا بمعارضتهم إياه ﷺ إلا أنفسهم، ولن يكون لهم ولي ولا نصير من دون الله.

لقد تحدى الله تعالى هنا الكافرين أن يتخذوا التدابير الأرضية والسماوية كلتيهما لأنه تعالى قد أمر المؤمنين أيضًا باتخاذ التدابير بنوعيها من أجل إشاعة الإسلام، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(الأنعام: ٣٦).. أي يا محمد، أو يا قارئ القرآن، إذا كان إعراض المعارضين شاقًّا عليك وتظن أن عداءهم قد تجاوز الحد حتى بات إصلاحهم محالاً، فيجب أن تنفض هذه الفكرة من ذهنك.. أي لا تيأس أبدًا من إصلاح المعارضين نتيجة إنكارهم ومعارضتهم، بل إن استطعتَ فعليك أن تشقّ نفقًا في الأرض أو تصعد بسلّم في السماء لتأتيهم بآية.

واعلم أن من أراد فتح قلعة للعدو، فإما أن ينسف جدرانها أو يدخل فيها صاعدًا على السلالم. وكلا الأمرين ممكن وليس محالاً، ولذلك يذكّر الله تعالى هنا المؤمنين بهاتين الطريقتين اللتين لا يزال الناس يتبعونهما منذ القديم في حروبهم المادية ضد العدو، ويخبرهم الله تعالى أنه قد جعل هاتين الطريقتين كلتيهما لفتحهم الروحاني

أيضًا. فإذا رأوا أن معارضة العدو قد بلغت ذروتها، فعليهم أن يتخذوا لهدايته كل التدابير المادية المتاحة من ناحية، ومن ناحية أخرى عليهم أن يسعوا للصعود إلى السماء بالسُّلم.. أي بسُلّم الدعاء كما هو مفهوم لكل عاقل متدبر.

إذًا، فالله تعالى يوصي المؤمنين هنا أن يسعوا لفتح القلاع الروحانية باتخاذ نفس الطرق التي تُفتح بها القلاع المادية في الدنيا، فإما أن ينسفوا جدرانها أو يقفزوا إلى داخلها بالسلالم، لأن هاتين هما الطريقتان للنجاح في الحرب الروحانية أيضًا.. أي عليهم أن يعملوا جاهدين لنصح القوم ووعظهم من ناحية، ومن ناحية أخرى عليهم أن يدعوا الله تعالى لهدايتهم. فمن كان فيه شيء من الجدّية ستأخذ عمارة كفره في الانهيار.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.. أي لا تنسَ أن الله تعالى قادر على هدايتهم، فلا داعي لليأس. ذلك أن الإنسان إنما ييأس إذا رأى خللاً وقصورًا في جهوده، ولكنه لو أيقن أن الله تعالى قادر على أن يهدي الجميع، وليس شخصًا واحدًا، فلا ييأس أبدًا. إذًا، فالله تعالى ينبّهنا أن لا ننسى أن قدرته لا تعرف الحدود، فهو قادر على أن يهدي العالم كله وليس شخصًا واحدًا فحسب.

فكما أن الله تعالى قد أوصى المؤمنين في الآية المذكورة أعلاه ببذل كل ما في وسعهم من تدبير حين تبلغ معارضة العدو ذروتها، وأن تكون تدابيرهم من نوعين: فعليهم بنسف قلوب الأعداء من خلال الدعوة المكثفة من جهة، ومن جهة أخرى عليهم أن يصعدوا إلى السماء بالسلالم.. أي أن يُكثروا من الدعاء ويستعينوا بالله تعالى، فقد تحدى الله تعالى الآن الكافرين في الآية قيد التفسير بأن يتبعوا الطريقتين لمعارضة المؤمنين أيضًا، وليعلموا أنهم لن ينجحوا أبدًا سواءً اتخذوا التدابير المادية أو لجأوا إلى الدعاء والبكاء أمام الله تعالى، بل إن الفشل مصيرهم في كل حال، لأنه تعالى قد قرر انتصار محمد ﷺ والذين معه وهزيمة أعدائهم الذين يلجأون إلى الجبر والإكراه، وليس في الدنيا قوة تقدر على تغيير هذا القرار الإلهي.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

التفسير: أي أن الذين ينكرون آيات الله ولا يرجون لقاءه إنما سببه أهم يصبحون يائسين من رحمة الله وموقنين بعقابه؛ فيسعون للنجاة من الهلاك ويريدون أن يدفعوا هذا الموت إلى النبي وأتباعه حتى لا يسمعوا منهم الحديث عن البعث بعد الموت ولا يصابوا بالذعر. فيبدأ هؤلاء في الهجوم على الأنبياء وجماعتهم ليقضوا عليهم، فيقعون تحت بطش الله تعالى. وحيث إهم يصبّون على الأنبياء وجماعتهم صنوف الأذى والتعذيب، فيعذّهم الله عذابًا أليمًا.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾

التفسير: أي لما نصح إبراهيم عليه السلام أهل عصره أن يتركوا عبادة الأصنام ويعبدوا الله وحده، حرّض بعضهم بعضًا ضد إبراهيم، فقالوا تعالوا نقتله أو نحرقه في النار، ولكن الله تعالى نجاه منها.

لقد بين الله تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم كيف نجا إبراهيم من النار فقال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(الأنبياء:٧٠).. أي قلنا للنار المادية ستُلقى فيك الآن نار روحانية، فكُوني باردةً إزاءها. إن نار محبّتي مضطرمة في قلب إبراهيم، ولا يقدر شيء في الدنيا على مقاومة نار محبتي، شأن الشمس التي تتغلب على أضواء الشموع، وشأن الجمرة الملتهبة التي يجد المرء حرارتها أشد من أي حرارة أخرى؛ فكوني، أيتها النار، باردة على إبراهيم، إذ لا مقارنة بينك وبين نار حبي المشتعلة في قلبه.

هذا، وقد تلقى المسيح الموعود عليه السلام أيضًا إلهامًا مماثلاً باللغة الأردية وهو:

آگ سے ہمیں مت ڈرا، آگ ہماری غلام بلکہ غلاموں کی غلام ہے۔

(ملفوظات (أردو) المجلد ٤ ص ٢)

أي لا تُخوّفنا من النار، لأن النار عبدٌ لنا بل عبدٌ لغِلماننا. والمراد أن نار عشق الله تعالى مشتعلة في قلوبنا، فلا تساوي النارُ المادية إزاءها شيئًا، إذ بوسع اللوحة الحديدية الحامية أن تحرق يد الإنسان ولكنها لا تقدر على إحراق الجمرة المشتعلة؛ كذلك من المحال أن تحرق النار إنسانًا تضطرم في قلبه نار حب الله تعالى.

فما حدث مع إبراهيم عليه السلام هو أن الله تعالى أرسل سحابًا، فأمطر وأبرد النار على إبراهيم. فآمن به بعض الناس من قومه برؤية هذه المعجزة ونجوا من عذاب النار.

كان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول في تفسير هذه الآية في أول أمره إن النار هنا نار المعارضة التي أبردها الله تعالى. وأتذكر أن شخصًا باسم عبد الغفور ارتد عن الإسلام عام ١٩٠٣ الميلادي واعتنق الهندوسية، واختار لنفسه اسم "دهرمبال"، ثم كتب كتابًا بعنوان "ترك الإسلام". فقام الخليفة الأول رضي الله عنه بالرد عليه، وقد نُشر كتابه بعنوان "نور الدين". كانت مسودة كتابه تُقرأ على مسامع المسيح الموعود عليه السلام يوميًا. ومن الاعتراضات التي أثارها "دهرمبال" في كتابه قوله بأن النار إذا كانت قد بردت على إبراهيم فعلاً، فلم لا تبرد على الآخرين؟ فردّ عليه الخليفة الأول رضي الله عنه بأن النار هنا ليست مادية، وإنما هي نار المعارضة. فقال له المسيح الموعود عليه السلام: ما الداعي لهذا التأويل؟ فقد سماني الله تعالى أيضًا في وحيه "إبراهيم"، فإذا كان الناس لا يفهمون كيف أصبحت النار بردًا على إبراهيم عليه السلام فيمكنهم أن يُلقوني في النار ليروا كيف أخرج منها سالمًا. وبناءً على قول المسيح الموعود عليه السلام هذا قام الخليفة الأول بتعديل الجواب وكتب ما تعريبه:

يمكنكم أن تُلقوا إمامنا في النار، وسيحفظه الله منها يقينًا بحسب وعده كما حفظ إبراهيم عليه السلام. (نور الدين ص ١٨٧)

وبناء على ما قاله المسيح الموعود عليه السلام للخليفة الأول فإني كلما قمت بتفسير هذه الآية لم أقل أن النار التي أخمدها الله على إبراهيم عليه السلام إنما هي نار المعارضة، بل قلت إن المعارضين قد ألقوا إبراهيم في النار فعلاً، ولكنها بردت عليه. وحيث إن الله تعالى يسخّر الأسباب المادية لأفعاله في الدنيا، فمن الممكن أن يكون السحاب قد جاء فأمطر وأخمد النار. المهم أننا نؤمن بأن الأعداء قد أشعلوا النار فعلاً ضد إبراهيم عليه السلام، ولكن الله تعالى خلق من الأسباب ما أحبط كيدهم ونجّاه من النار.

لقد بيّن المسيح الموعود عليه السلام هذا الموضوع في كتبه ويومياته أيضًا. فذات مرة عُرضت عليه رسالة بعثها بعض أفراد جماعته قال فيها: أكانت النار التي صارت بردًا على إبراهيم نارًا مادية في الحقيقة، أم نار الفتنة والمعارضة؟ فكتب إليه المسيح الموعود عليه السلام في الجواب ما تعريبه:

"فيما يتعلق بنار الفتنة والفساد فإنها تُضرم ضد كل نبي، وهي التي تتخذ دائمًا منحى بحيث يُظهر الله تعالى إزاءها قدرته المعجزة تأييدًا لنبيه. أما إخماد النار المادية على إبراهيم عليه السلام فليس بأمر عسير على الله تعالى، بل إن مثل هذه الأحداث تقع دائمًا في الدنيا. ولا حاجة بنا إلى كثير من البحث والتدقيق فيما حصل مع إبراهيم عليه السلام إذ قد مضى عليه آلاف السنين، فإننا لا نـــزال نرى ونجرب بأنفسنا مثل هذه الأحداث في هذا الزمن أيضًا. فذات مرة كنتُ في مدينة سيالكوت، وكان المطر ينـــزل، فسقطت الصاعقة ودخلت في الغرفة التي كنت جالسًا فيها، فامتلأت الغرفة بالدخان وبرائحة كرائحة الكبريت، ولكنها لم تصبنا بضرر. وقد سقطت نفس الصاعقة وفي نفس الوقت على معبد هندوسي شهير باسم معبد "تيجاسنغ"، وكان "تيجاسنغ" جالسًا في المعبد وسط عدة جدران ملتوية على شكل حلزوني حيث يطوف بها الهندوس بحسب عادتهم، فدخلت الصاعقة في المعبد ومرت بكل هذه الطرق الملتوية ووصلت إلى تيجاسنغ، فأحرقته حتى صار أسود اللون كالفحم. فترى أن نار الصاعقة نفسها قد أحرقته وقتلته، ولكنها لم تصبنا بضرر لأن الله تعالى حفظنا.

وهناك حادث آخر وقع معي في سيالكوت أيضًا. فكنتُ ذات ليلة نائمًا في الطابق الثاني من بيت، وكان ينام في الغرفة نفسها حوالي ستة عشر شخصًا. فسمعتُ صوتًا غريبًا ينبعث من العمود الخشبي الذي يحمل السقف، فأيقظتُ أصحابي وقلت يبدو أن العمود على وشك أن ينكسر، فلنخرج من هنا فورًا. فقالوا: ربما هناك فأرٌ يُحدث هذا الصوت، فلا داعي للقلق، وعادوا لسباتهم. وسمعت نفس الصوت بعد وقت قصير، فأيقظتهم، ولكنهم لم يكترثوا لقولي. ثم سمعت الصوت للمرة الثالثة، فأيقظتهم قسرًا وأخرجتهم من الغرفة. وخرجت منها بعدهم، وما إن وضعت قدمي على الدرج الثاني حتى سقط السقف وانهار معه سقف الطابق الأول أيضًا وكسر الأسرّة كليةً، ولكن نجا الجميع. هذه هي حماية الله المعجزة، حيث لم يسقط العمود إلا بعد خروجنا من الغرفة.

كذلك عثرنا مرةً على عقرب ميت على سريري داخل لحافي. وفي مرة أخرى عثروا على عقرب حي يمشي داخل لحافي، ولكن الله تعالى نجاني من ضرره في كلتا المرتين.

وذات مرة أصابت النار ثوبي دون أن أدري، فأخبرني شخص آخر، فأُطفئت النار.

فليس عند الله تعالى طريق واحد لإنقاذ الناس، بل عنده طرق كثيرة. وثمة أسباب كثيرة وراء خاصية الحرارة والإحراق في النار أيضًا، بعض هذه الأسباب لا تزال خفية لم يطلع عليها الناس، كما لم يكشف الله تعالى على الدنيا بعدُ الأسباب التي تزيل صفة الإحراق من النار؛ فلا غرابة في أن تكون النار قد بردت على إبراهيم فعلاً." (جريدة "الحَكَم" عدد ١٠ يونيو ١٩٠٧ ص ٣)

وكذلك كتب حضرته عليه السلام في كتابه "البراهين الأحمدية" ما تعريبه:

"إنه لمن الخطأ الفادح الذي ارتكبه "برهموسماج" أنهم يريدون تحديد قدرة الله وربوبيته التي لا نهاية لها في نطاق تجاربهم القليلة الضيقة، ولا يفهمون أن الأمور التي انحصرت في قانون معلوم مقرر لا بد أن تُعتبر محدودةً، أما الحِكم والقدرات التي توجد في ذات غير محدودة فلا بد أن تكون غير محدودة. فهل بوسع عاقل أن يقول

أن ذات الله التي تملك القدرة المطلقة تعلم خلق الأشياء إلى هذا الحد ولا تعلم أكثر من ذلك؟ هل يمكن قياس قدراته ﷻ غير المتناهية بمقياس الإنسان؟ أو هل من الممكن أن تصبح حِكمه القادرة غير المتناهية عاجزة عن التصرف في العالم في وقت ما؟ لا شك أن يده القوية قابضة على كل ذرة من الكون، وليس ثمة مخلوق هو قائم بسبب قوته الذاتية، بل هو قائم لأن الله تعالى يقيمه ويسانده. وهناك ميادين كثيرة واسعة لإظهار قدراته الربانية، ولا نهاية لها لا في داخل الأشياء ولا في خارجها. فكما أنه من الممكن أن يخلق الله لإطفاء نار مشتعلة أسبابًا خارجية، كذلك من الممكن تمامًا أن يخلق من داخل النار المضطرمة ما يزيل خاصية الإحراق فيها، لأن حِكمه تعالى غير متناهية، ولا شيء هو مستحيل أمام قدرته. وما دمنا قد اعترفنا بأن حِكمه وقدراته غير متناهية فلزِم علينا أن نعترف أيضًا بأنه من المحال علينا أن نحيط بجميع حِكمه وقدراته علمًا. إذًا، فلا نستطيع أن نضع قانونًا لحِكمه وقدراته التي لا نهاية لها؛ إذ إننا عاجزون عن قياس الشيء الذي لا نعرف حدوده. إن عالَمنا، نحن بني آدم، صغير وضيّق جدًا، ثم ليس لدينا علم كامل بهذا العالَم أيضًا؛ فمن السفاهة وسوء الأدب أن نحاول، والحال هذه، قياسَ حِكم الله وقدراته غير المحدودة بقياسنا الناقص المحدود جدًا." (براهين أحمدية الجزء الرابع، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٤٨٢-٤٨٨ الهامش ١١)

كما بين حضرته عليه السلام هذا الموضوع في كتاب آخر فقال ما تعريبه:

"وثمة أمر جدير بالذكر، وهو أن الخوارق التي تظهر على يد الأولياء أحيانًا حيث لا يُغرقهم الماء أو لا تضرهم النار، إنما السر وراءها أن الحكيم المطلَق - الذي لا يستطيع الإنسان الإحاطةَ بأسراره غير المتناهية - يُري في بعض الأحيان قدرةً خارقة عند توجُّه أحبّته ومقرّبيه إليه تعالى بالدعاء بحيث إن توجُّههم يتصرف في هذا العالم. ذلك أن الأسباب الخفية التي من شأنها إزالة خاصية الإحراق من النار مثلاً - سواء أكانت تلك الأسباب من قبيل تأثيرات الأجرام الفلكية، أو من قبيل الخواص الكامنة في النار نفسها، أو من قبيل الخواص الخفية في بدن ذلك الإنسان نفسه، أم كانت مجموعةَ كل هذه الأمور معًا - تتحرك وتتيسر نتيجة توجّه ذلك

الإنسان ودعائه، فيظهر الأمر الخارق. بيد أن وقوع هذه الخوارق لا يعني أنه لم يبق لخواص الأشياء وحقائقها اعتبار، أو أن العلوم قد ضاعت، بل إنها في حد ذاتها علمٌ من العلوم الإلهية؛ حيث تبقى الخوارق في محلها، وتبقى خواص الأشياء - كخاصية إحراق النار مثلاً - في محلها أيضًا؛ وبتعبير آخر إنها أسباب روحانية تُبدي أثرها بالتغلب على النار، وهي مختصة بوقتها ومحلها.

إن عقل الدنيا المادية لا يقدر على استيعاب هذه الحقيقة بأن الإنسان الكامل يكون مهبطًا لتَجَلِّي الروح الإلهية، وعندما يكون الإنسان الكامل خاضعًا لتجلي الروح الإلهية في ذلك الوقت الخاص، فكل شيء يخافه كخوفه من الله تعالى، فلو ألقيتموه عندها أمام وحش كاسر أو في النار فلن يصاب بضرر، لأن روح الله تعالى تكون عليه في ذلك الوقت، وكل شيء قد عاهد الله على أن يخافه ﷻ. إن هذا آخر أسرار المعرفة الإلهية الذي لا يمكن استيعابه بدون صحبة الكاملين. وحيث إنها ظاهرة دقيقة المأخذ ونادرة الوقوع فليس بوسع كل عقل أن يدرك هذه الحكمة. ولكن تذكّروا أن كل شيء يلبي نداء الله تعالى، وأن كل شيء تحت تصرف الله تعالى، وأن كل الخيوط لكل شيء بيد الله تعالى. إن حكمته لا تعرف الحدود، وتصل إلى جذر كل ذرة، وإن خواص كل شيء هي بقدر قدرات الله تعالى. ومن لم يؤمن بذلك فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(الأنعام:٩٢). وحيث إن الإنسان الكامل يكون أَتَمَّ مَظْهَرٍ للعالم كله، فإن العالم كله ينجذب إليه من حين إلى آخر. إنه عنكبوت العالم الروحاني، وكل العالم هو خيوطه. وهذا هو سرُّ الخوارق." (بركات الدعاء، الخزائن الروحانية المجلد ٦ ص الحاشية ص ٢٩-٣١)

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن قوم إبراهيم ألقوه في النار، فنجاه الله منها بطريق معجز. وبما أنه عليه السلام كان عاشقًا لوحدانية الله تعالى، فأخذ في وعظهم ثانية بعد نجاته من النار فورًا، وقال إنما اتخذتم هذه الأصنام آلهةً لتزيدكم حبًّا في الدنيا.. أي لكي تكون سببًا لوحدتكم ويقول بعضكم لبعض: كلنا من عبدة هذه الأصنام وكلنا إخوة. ولكن اعلموا أن هذه الأصنام لن تنفعكم في الآخرة، بل سيكفر العَبَدة بأصنامهم والأصنام بعَبَدتها، ويلعن بعضهم بعضًا، فيُدخَل الكافرون في النار، ولن يقدر أحد على نصرهم.

لقد بين الله تعالى هنا أن الشرك ليس أساسه على الدليل والبرهان، وإنما يقع فيه الناس ليرضى عنهم القوم ويثنوا عليهم؛ أما الدين الحق فيتأسس على الدليل والمنطق دائمًا، ويفضّل أتباعُه رضا الله على رضا الناس؛ وهذا يعني أن المشرك يؤثر الدنيا على الدين، ولكن المؤمن يؤثر الدين على الدنيا. إن المشرك يخاف الناس ويسعى لاسترضائهم، ولكن المؤمن لا يخاف إلا الله ويسعى أن يحظى برضوانه دائمًا.

أما قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾، فبيّن فيه أن صداقة الكفر لا تدوم؛ فإن الذين من أجلهم يعادي المرء اللهَ ورسولَه يخذلونه في نهاية المطاف في الدنيا، كما لن تنفعه صداقتهم يوم القيامة أيضًا.

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ

ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٨﴾

التفسير: عندما رأى الناس معجزة خروج إبراهيم عليه السلام من النار حيًّا آمن به بعضهم، وكان من بينهم لوط عليه السلام، وكان ابنَ أخيه حارانَ. (التكوين١٢: ٥)

ثم أعلن إبراهيم أمام الناس عن هجرته، وقال سأترك الآن وطني لوجه الله تعالى، وإني على يقين أن ربي الذي هو غالب ولا تخلو أفعاله كلها من الحِكم سيكتب لي الغلبة، ولن يضيّع هجرتي بل سيكلّلها بنتائج طيبة.

لما ترك إبراهيم عليه السلام لوجه الله تعالى وطنَه وأقاربه وأعزّته جزاه الله على إخلاصه كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

واعلم أنه لمن الثابت من التاريخ والتوراة أيضًا أن الرسل قد جاؤوا من غير ذرية إبراهيم أيضًا، وعليه فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ لا يعني أن الله تعالى لم يبعث الرسل من أمم أخرى، إنما المراد أن الأنبياء ظلوا يُبعثون من ذرية إبراهيم و لم تنقطع بعثتهم من نسله؛ إذ صرح الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد:٨).. أي قد جاء الأنبياء والهداة من كل قوم و لم يخص الله تعالى بعثتهم بزمن معين. فليس المراد أن الله تعالى خص ذرية إبراهيم فقط بالنبوة والكتاب، و لم يبعث نبيًا في أمة أخرى، بل المراد أنه تعالى لما رأى إخلاص إبراهيم عليه السلام قرر أن يبعث في ذريته ذلك النبي الموعود على لسان موسى، والذي كان عليه أن يأتي بشريعة نارية*. وحيث إن النبوة التامة المستقلة قد انتهت بعد النبي صلى الله عليه وسلم وليس بعده إلا النبوة الظلية والبروزية، فقد انحصرت النبوة بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم في أسرة إبراهيم عليه السلام فقط إلى يوم

* من معاني "الشريعة النارية" أنها تأكل الآثام كما تأكل النار الحطب. (المترجم)

القيامة من الناحيتين المادية والروحانية كلتيهما، فليس بوسع أحد الآن أن يصل إلى العتبة الإلهية بدون الاستنارة من الشمس المضيئة أي محمد ﷺ الذي كان من نسل إبراهيم عليه السلام.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فيعني أن إبراهيم سيكون في الآخرة صالحًا لنيل الدرجات العلى ومن بين جماعة المنعم عليها.

ومن معانيه أيضًا أن كثيرًا من الناس سيعترفون بصلاح إبراهيم عليه السلام في الزمن الأخير. وبالفعل ترى أن جميع الأمم القائمة في هذا الزمن الأخير.. أعني المسلمين واليهود والنصارى.. كلهم يؤمنون بإبراهيم عليه السلام.

ومن معانيه أيضًا أن الرجل الذي سيُبعث كظلٍّ لإبراهيم عليه السلام في الأيام الأخيرة، سيكون صالحًا لهذه المهمة عند الله تعالى، وأن الذين يطعنون فيه سيكونون على الخطأ.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾

التفسير: ويبدو من قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ أن الحضارة كانت مزدهرة في زمن لوط عليه السلام، وكان قومه متجاسرين على ارتكاب الفواحش

في المجالس غير مستنكرين إياها، شأن أهل أوروبا وأمريكا الذين قد انتشرت فيهم الخلاعة والمجون على نطاق واسع، فلا يرون عيبًا في عناق النساء وتقبيلهن في الأماكن العامة وارتكاب الزنا في الحدائق العامة.

لم يرتدع قوم لوط عليه السلام عن تصرفاتهم رغم نصحه، بل تحدّوه وقالوا: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين. فلم يجد لوط بدًا من أن يدعو الله تعالى ويقول ربِّ انصرْني على هؤلاء القوم المفسدين.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾

التفسير: قال المفسرون إن المراد من ﴿رُسُلُنَا﴾ هم الملائكة (الرازي)، ولكنهم في رأيي بعض صلحاء تلك المنطقة الذين تلقوا وحيًا من الله بقرب عذاب قوم لوط، فحضروا بالخبر إلى إبراهيم أوّلاً ثم إلى لوط - عليهما السلام.

والدليل على أن الرسل كانوا بشرًا أنهم لما جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام لم يلبث أن دخل إلى بيته وذبح لهم عجلاً (هود: ٧٠). فلو كانوا ملائكة عند إبراهيم لما أعدّ لهم الطعام.

ثم إنهم عندما لم يمدّوا أيديهم إلى الطعام وظن إبراهيم عليه السلام أنه ربما قصّر في ضيافتهم قالوا له: لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط.. أي اهدأْ بالاً، فإنا نشكرك على الضيافة، ولكنا ذاهبون بخبر العذاب إلى لوط، فاعذرْنا من تناول الطعام. إن

جواهم هذا أيضًا دليل على أنهم لم يكونوا ملائكة وإلا لقالوا بكل بساطة: إنّا ملائكة لا نأكل الطعام، فلا نستطيع أن نأكل عندك أيضًا.

ثم إن هؤلاء لما جاؤوا إلى لوط عليه السلام لم يقل عند رؤيتهم إنهم ملائكة الله الذين جاءوني، بل قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾(الحِجر:٦٣). مما يدل أنه لم يفكر أنهم ملائكة بل اعتبرهم بشرًا.

ومما يدل على أنهم كانوا بشرًا أن الله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٦). لقد تبين من هنا أن الملائكة إنما تأتي كرسل إلى الأبرار فقط لا إلى الأشرار. ولكن هذا الحادث يؤكد أن أهل قرية "سدوم" كلهم قد رأوا هؤلاء الرسل، ولاموا لوطًا عليه السلام على حضورهم عنده. فظهور هؤلاء الرسل أمام القوم الذين قد قرر الله عذابهم ظهورًا ماديًّا يتنافى مع هذه الآية. فثبت أن هؤلاء الرسل لم يكونوا ملائكة بل كانوا بعض الصلحاء من المنطقة المجاورة لسدوم الذين أخبرهم الله تعالى باقتراب عذاب قوم لوط، وأرسلهم إليه لكي لا يجد نفسه وقت العذاب بلا ناصر ولا معين، بل يأخذوه إلى مكان محفوظ.

ثم إن التوراة - وهي مليئة بكل رطب ويابس - تعتبر هؤلاء الرسل بشرًا مرة وملائكة مرة أخرى. فقد ورد فيها في مكان عن إبراهيم عليه السلام: "وهو جالس في باب الخيمة وقتَ حَرِّ النهار، فرفَع عينيه ونظَر وإذا ثلاثةُ رجال" (تكوين ١٨: ١-٢)؛ وورد في موضع آخر منها: "ثم قامَ الرجال مِن هناك وتَطلَّعوا نحوَ سَدُومَ" (تكوين ١٨: ١٦). ولكن ورد في موضع آخر منها: "فجاء الملاكَان إلى سَدُومَ مساءً، وكان لُوطٌ جالسًا في باب سَدُومَ" (تكوين ١٩: ١). ومع أن التوراة تقول هنا إن القادمين كانا ملاكَين إلا أنها تقول أيضًا إن لوطًا "صنَع لهما ضيافةً وخَبَزَ فطيرًا، فأكَلا." (تكوين ١٩: ٣). مع أنهما لو كانا ملَكَين فمن المحال أن يتناولا الطعام. فثبت أن هؤلاء الرسل لم يكونوا ملائكة، بل كانوا بعض الصالحين الذين أُرسلوا إلى لوط عليه السلام.

أما السؤال لم ذهب الرسل إلى إبراهيم أوّلاً، ولم يذهبوا إلى لوط مباشرة؟ فالجواب أن لوطًا الكليلا كان من أتباع إبراهيم الكليلا، وهكذا كان نبيًا تابعًا له كما كان إسحاق وإسماعيل نبيين تابعين له، أو كما كان هارون نبيًا تابعًا لموسى، وإن لم يكن أحد منهم نبيًا أُمّتيًّا أي كانت النبوة عندها توهب مباشرة وليس عن طريق الاستفاضة من فيوض نبي سابق، فبما أن لوطًا الكليلا كان قبل بعثته قد آمن بإبراهيم الكليلا كما هاجر معه إلى الشام، فلذا أخبر إبراهيمَ أوّلاً بهلاك قوم لوط، كما زفّ إليه قبل خبر العذاب خبرًا سارًّا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾، وهو البشارة بولادة إسحاق عنده المذكورة في القرآن الكريم في سورة هود آية ٧٢ وسورة الحجر آية ٥٤ وسورة الذاريات آية ٢٩. وقد قال العلامة أبو حيان أن المراد من البشرى هنا خبر ولادة ابنه إسحاق وحفيده يعقوب. (البحر المحيط)، وهذا يعني أن الله تعالى قد بشّر إبراهيم أوّلاً بذرية طيبة قبل أن يخبره بهلاك قوم لوط، وذلك تخفيفًا لصدمته بخبر العذاب.

أما السؤال: لِم لم يوح الله تعالى إلى لوط الكليلا بخبر هلاك قومه، بدلاً من أن يخبر هؤلاء البشر ليذهبوا إليه ويخبروه به؟ فالجواب: أن لوطًا كان ابن أخي إبراهيم الكليلا بحسب التوراة، وكان من قرية "أُوْر" الواقعة في العراق، وقد هاجر معه إلى أرض كنعان أي فلسطين، ثم ارتحل من عنده ليقيم في قرية سدوم. (تكوين ١٢: ٤-٥)

وورد في التلمود - وهو كتاب روايات اليهود وتاريخهم - أن أهل سدوم وعمورة كانوا يقطعون السبيل على المسافرين (الموسوعة اليهودية تحت: Sodom)، كما أشير إليه في القرآن الكريم هنا بقوله تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾. ومن الطبيعي أن الذين يؤذون جيرانهم يعيشون خائفين منهم أن يُلحقوا بهم الضرر. وبالفعل كان أهل سدوم وجيرانهم في حرب، بل تُخبر التوراة أن ملوك هذه القرى المجاورة قد شنوا الهجوم على سدوم وعمورة، وسلبوا كل ما عندهم من أموال وغلال، وأخذوهم أسرى بمن فيهم لوط، فعلِم إبراهيم الكليلا بذلك، فخرج وراءهم في جيش قوامه ثلاث مئة وثمانية عشر مقاتلاً، وقام بتحرير لوط وغيره من رجال

ونساء سدوم وعمورة، كما استرد من العدو أموالهم. واستقبل ملِكُ سدوم إبراهيمَ الطَّيْلا عند قفوله من هذه المهمة منتصرًا، أما "ملِك صِدْق" الذي كان ملِكًا على "سالم" فأقام مأدبة لإبراهيم الطَّيْلا بهذه المناسبة. وقال ملِكُ سدوم لإبراهيم: خُذ الأموال ورُدَّ لي الرجال، فقال له إبراهيم: لن آخذ من هذه الأموال حتى شِراكَ نعلٍ، وردَّ له كل شيء (التكوين: ١٤).

فلم يكن لوط الطَّيْلا على معرفة تامة بالمنطقة، وكان فيها أعداء سدوم أيضًا، فلو أخبره مباشرة بقرب حلول العذاب على قومه، فخرج من قريته لم يعرف أين يذهب، فدبّر الله له الأمر حيث أوحى إلى بعض صلحاء تلك المنطقة أن يذهبوا إلى لوط ويخبروه بقرب نـــزول العذاب ويأخذوه إلى مكان محفوظ لأنه ليس ملِمًّا بالمنطقة جيدًا.

وهناك سؤال آخر: هل ثمة مثال في الماضي حيث لم يعلم النبي بهلاك قومه، بينما علم به الآخرون؟

والجواب أن هذا السؤال ناشئ عن قلة التدبر، إذ الواقع أن لوطًا الطَّيْلا كان قد أنذر قومه بالعذاب من قبل، حيث ورد في القرآن الكريم قول الرسل للوط: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾(الحجر:٦٤).. أي جئناك بخبر العذاب الذي كانوا يشكّون فيه. فهؤلاء الرسل أيضًا يؤكدون أن لوطًا الطَّيْلا كان قد أنذر قومه بالعذاب، ولكن لما اقترب العذاب جدًا أوحى الله إلى بعض صلحاء تلك المنطقة وأرسلهم إلى لوط ليذهبوا به إلى مكان آمن. ولولا أن دبّر الله هذا الأمر بحكمته لكان لوط الطَّيْلا في عناء كبير ولقال في نفسه: أين أذهب الآن وقد أوشك نزول العذاب بالمدينة؟ فإني لا أعرف أحدًا في المنطقة، وجيران سدوم يعادون أهلها.

هذا، وهناك أمثلة لذلك في الإسلام أيضًا، حيث أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بمسائل هامة من خلال وحيه إلى المسلمين. مثلاً لقد علّم الله تعالى عبدَ الله بن زيد رضي الله عنه الأذانَ في الرؤيا، وبناءً على رؤيا هذا الصحابي سنَّ النبي ﷺ الأذان للصلاة في الإسلام، ثم صدّق الله رؤياه بوحيه في القرآن الكريم أيضًا. ويروي عمر رضي الله عنه أن الله تعالى علّمه نفس الأذان بالوحي، ولكنه ظل صامتًا عشرين يومًا لأن صحابيًا كان

قد أخبر النبي ﷺ برؤياه بهذا الصدد (أبو داود: كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، وابن ماجة: أبواب الأذان، باب بدء الأذان).

وهناك حديث للرسول ﷺ يؤكد هذه الظاهرة حيث قال ﷺ: "المؤمن يَرى ويُرى له" (السنة لابن أبي عاصم الجزء الأول ص ٢١٤).. أي أن المؤمن يتلقى الخبر مباشرةً حينًا، وحينًا آخر بطريق غير مباشر. إذًا، فلا اعتراض على تلقي لوط عليه السلام خبر اقتراب العذاب بواسطة بعض الصلحاء.

أما قول الرسل: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فلا يعني أنهم كانوا يتمتعون بقدرة خارقة لإهلاكهم، إنما المراد أنهم قد أُرسلوا من عند الله إلى لوط بخبر هلاك القرية لأن أهلها ظالمون. ولو سلّمنا جدلاً أن الرسل كانوا ملائكة فإن الملائكة أيضًا لا تعذّب أحدًا من عند نفسها وإنما تأتي بخبر العذاب من عند الله تعالى. فقوله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ إنما يعني مجرد الإخبار باقتراب العذاب لا إنــزاله.

أما إبراهيم عليه السلام فلما سمع خبر نــزول العذاب على القرية ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾، فأجابه هؤلاء الصلحاء: نحن أعلم بمن فيها، وسننجيه وأهله من العذاب إلا زوجته التي هي من الغابرين.. أي سنأخذ لوطًا إلى مكان آمن، إذ أُرسلنا إليه لهذا الغرض نفسه.

وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ

يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

التفسير: أي لما وصلت رسلنا هؤلاء إلى لوط تضايقَ برؤيتهم لأن قومه كانوا قد نهوه عن استضافة الغرباء، حيث ورد في القرآن الكريم في مكان آخر قول معارضي لوط: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحجر:٧١).. أي ألم نمنعك من إحضار المسافرين الغرباء إلى بيتك؟ ذلك أن المدن في ذلك الزمن كانت صغيرة وبعيدة بعضها عن بعض، وكان الناس يخافون إحضار المسافرين الأجانب مخافة أن يتآمروا عليهم فينهبوهم. وحيث إن أهل سدوم كانوا قُطاع طرق وكانوا يرون أن الآخرين أيضًا صعاليك مثلهم، فكانوا لا يسمحون للمسافرين الغرباء بالإقامة بينهم، خشية أن يفتحوا المدينة ليلاً فيُفاجئهم العدو بالهجوم. وكان لوط عليه السلام إنسانًا مضيافًا، فكان يأتي بالمسافرين إلى بيته مخافة أن يتعرضوا للنهب إذا باتوا في الخارج، وكان قومه ينهونه عن ذلك؛ فلما جاء بالرسل ثار قومه غضبًا وأتوه مسرعين، فتأذى لوط بسبب ضيوفه وخاف أن يُخزيه قومه أمامهم، فقال له الرسل: ﴿لا تَخَفْ﴾.. أي لا داعي للخوف الآن لأن الله تعالى قد قرر هلاكهم. ولكن كان طبيعيًا أن يحزن لوط عليه السلام بهلاك قومه، فطمأنوه وقالوا له: ﴿وَلا تَحْزَنْ﴾.. أي لا حاجة للقلق على هلاكهم لأن الله تعالى لن يضيع بذرة الخير، بل سينجيك وأهلك جميعًا من العذاب إلا امرأتك، وبالتالي ستنمو هذه البذرة وسيخضَرّ زرع الخير والصلاح في الدنيا.

وقد نسب الرسل إنقاذ لوط عليه السلام من العذاب إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وذلك لأنهم كانوا قد أُرسلوا إلى لوط من عند الله تعالى ليأخذوه وأهله إلى مكان آمن من العذاب.

ثم نسبوا إهلاك قوم لوط أيضًا إلى أنفسهم، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وقولهم هذا يماثل قولَ الملاك لمريم:

﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾(مريم:٢٠)؛ مع أن الجميع يعرف أن الله تعالى هو الذي يهب الأولادَ لا الملائكةُ. فكما أن قول الملاك لمريم: ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾ يعني مجرد إخبارها بولادة الابن عندها وليس إعطاء الابن، كذلك فإن قول الرسل لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، أو قولهم للوط:﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أو قولهم في مكان آخر: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۞ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾(الذاريات: ٣٣-٣٥) لا يعني أنهم سيُنــزلون العذاب، وإنما يعني إخبارهم بخبر العذاب بناءً على وحي الله تعالى وبأن لوطًا ومعظم أهل بيته سينجون من العذاب، بينما يهلك أعداؤه. أما العذاب فلم يُنــزله عليهم إلا الله تعالى كما صرح في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾(هود:٨٣-٨٤)، كما نسب تعالى هذا العذاب إلى نفسه في هذه السورة فقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الآية:٣٦). فهذه الآية صريحة في أن الله تعالى هو الذي أنــزل عليهم العذاب، أما الرسل فلم يُنــزلوا العذاب وإنما جاؤوا ليخبروا لوطًا بقرب نــزول العذاب على قومه. لو كان الرسل هم الذين أنــزلوا العذاب لما قال الله تعالى إنا تركنا من خلال هذا العذاب آية بينة لقوم يعقلون، لأن الرسل لو كانوا أنــزلوا العذاب فهم الذين تركوا هذه الآية وليس الله تعالى. فثبت أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وما شابهه من الآيات لا يعني أن الرسل أنــزلوا العذاب، بل المراد أنهم أتوا بخبر العذاب على أهل تلك القرية، أما العذاب فلم يُنــزله إلا الله تعالى.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٧﴾

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٨﴾

التفسير: أي بعد زمن لوط أرسلنا إلى قوم "مَدْيَن" أخاهم شعيبًا، فقال يا قوم اعبدوا الله وآمنوا باليوم الآخر ولا تفسدوا في الأرض.

ويبدو من قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أن القوم كانوا معتادين على أعمال السلب والنهب وسفك الدماء. كانت عاصمتهم أي "مدين" التي بُعث إليها شعيب عليه السلام تقع على الطريق المؤدي إلى الشام ومصر والجزيرة العربية، وكانت القوافل تمر بالقرب منها، فكانوا ينهبونها. ومما يؤيد هذا أنه كانت على مقربة من "مدين" غابةٌ كبيرة كثيفة، وقد سمى القرآن الكريم أهلها أصحاب الأيكة، وكان شعيب عليه السلام مبعوثًا إلى هؤلاء أيضًا (معجم البلدان للحموي: تحت كلمة: مدين). ومعروف أن الغابة تهيئ كمينًا سهلاً. إذًا، فكان هؤلاء القوم يفسدون في الأرض بالقتل والسلب والنهب ونقصان الوزن والكيل، فنصحهم شعيب عليه السلام، فلم ينصاعوا لنصحه وكذّبوه، فضربهم زلزال عنيف، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

لقد بُعث شعيب قبل موسى، وهكذا فإن الله تعالى قد قام إلى هنا بتغطية تاريخ الاختبارات التي مر بها الأنبياء وأتباعهم بدءًا من نوح إلى موسى - عليهم السلام.

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٩﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن في قوم عاد وثمود آيات عظيمة، لأن هذين الشعبين زمنَ ازدهارهم كانوا أساتذة الدنيا، وكانت لهم يد طُولى في فن البناء

والعمارة، حيث نجد هودًا عليه السلام ينصح قومه عادًا ويقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(الشعراء:١٢٩-١٣٠).. أي أتقيمون على كل مكان عال تذكارًا وتبنون قصورًا فخمة ظانين أن هذا يكتب لكم الخلود؟

وقد رأيت بأُمِّ عيني بالقرب من مدينة عدن أنقاض مبان قديمة، وهي من آثار أمة عاد الأولى بحسب الروايات المحلية.

أما ثمود الذين كانوا فرعًا من عاد فقد قال القرآن الكريم عنهم: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾(الأعراف:٧٥). فلما عارضوا أنبياءهم واستحسنوا سيئاتهم دمّرهم الله تدميرًا، فلا توجد اليوم من قوتهم ومجدهم إلا أطلال تُرى في الجزيرة العربية.

أما قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ فيوضح أنهم كانوا يقومون بأعمال شيطانية، ولكنهم استحسنوها بسبب اعتيادهم عليها دهرًا طويلاً، ورأوا جُذامهم الروحاني جمالاً؛ وكأنهم فقدوا البصيرة والإحساس، فلم يعودوا يرون شناعة أعمالهم، و لم يشعروا بمضرّتها.

أما قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيتضح منه أنهم كانوا على علم أن عاقبة أعمالهم ستكون وخيمة، ولكنهم اغترّوا بقوتهم، فكان مآلهم ما ترونه بأعينكم، إذ لم يبق منهم إلا آثار قلاع خربة ومبان متهدمة خالية من سكانها، مما يمثّل عبرة لمن اعتبر.

كما نبه الله تعالى بقوله: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ إلى أن الإنسان لا يُعَدّ معذورًا إذا أغواه الشيطان، لأنه تعالى قد ترك طريق الوصول إلى الحقيقة مفتوحًا أمام الإنسان، كما صرح في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(البلد:٩-١١).. أي قد كشف الله على الإنسان طريق الهدى وطريق الضلال جيدًا، فمن سلك بعد ذلك طريق الضلال فهذا ذنبه، لأنه تعالى قد أعطاه لرؤية الحق عينًا مادية وعينًا باطنة؛ وإذا لم يتمكن من رؤية الحق بعينه المادية

ولا بعينه الباطنة فبوسعه أن يستعين بلسانه وشفتيه فيسأل العلماء درءًا لشبهاته، أما إذا لم يتبع سبيل الهدى رغم تيسُّر هذه الوسائل كلها فهو مسؤول عن هلاكه.

وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٤٠﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾

التفسير: الحق أن قارون وفرعون وهامان قد جاءوا بعد عاد بفترة طويلة، ولكن لما كان ثمود – وهم فرع من عاد – مستوطنين في مدين في عصر فرعون موسى، ولذلك قد تحدث الله هنا بعد ذكر عاد وثمود عن فرعون وهامان أيضًا، ومن أجل هذا نجد أن موسى لما فرّ من مصر جاء إلى مدين إذ كان بها العرب. كما ذكر الله هنا قارون أيضًا لكونه من قوم موسى عليه السلام.

فيخبرنا الله تعالى أن موسى لما جاء بآياتنا فرعونَ وهامان وقارون تكبّروا وتجبّروا في الأرض وكفروا به، فلم ينفعهم كبرهم شيئًا لما جاءهم عذابنا ولم ينجوا منه.

ولقد أخذنا كل واحد من الشعوب المذكورة آنفًا جراء معاصيهم، فمنهم من أمطرنا عليه الحجارة كما حصل مع قوم لوط الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾(القمر:٣٥).. أي أرسلنا عليهم عاصفة من الحجارة، فدمرهم جميعًا إلا آل لوط؛ وكذلك قال الله فيهم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ

سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾(هود:٨٣).. أي وقع زلزال عنيف، فتشققت الأرض وتطايرت الأحجار في الجو ثم سقطت عليهم فدُفنوا تحتها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾.. أي قد هلكت بعض هذه الشعوب نتيجة زلزال كقوم ثمود الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾(القمر:٣٢).. أي أنــزلنا عليهم العذاب دفعة واحدة، فأصبحوا كحطام يخلّفه مَن يقطع أوراق الشجر لتهذيبها؛ وقال تعالى أيضًا فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(هود:٦٨).. أي سقطت عليهم بيوتهم نتيجة زلزال، فماتوا تحتها ملتصقين بالأرض.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾.. أي جعلنا بعض هذه الشعوب أذلة صاغرين في الأرض، كقارون الذي قال الله فيه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ (القصص:٨٢).. أي أنــزلنا عليه وعلى قبيلته أنواع البلايا وجعلناهم أذلة صاغرين.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾، ومثاله قوم نوح الذين أُغرقوا في مياه الطوفان، ومثاله الآخر فرعون الذي أُغرق في البحر.

أما قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ فبيّن فيه أنه لم يُهلك أيًّا من هذه الأمم ظلمًا، بل يشهد التاريخ على أن كل أمة منها هلكت نتيجة معاصيها، ولم يظلمها الله أبدًا.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا

يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٣﴾
وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٤﴾

التفسير: بعد ذكر هلاك هذه الأمم الخالية بيّن الله تعالى سبب هلاكهم، فأخبر أنهم لم يهلكوا إلا لأنهم اتخذوا ملاذًا من دون الله تعالى، فمنهم من قال إن هامان ذو عزة ونفوذ إذ يحكم على مئات الآلاف من البشر، فلو كسبت رضاه لكنت من الفائزين. ومنهم من قال إن قارون ذو ثراء، فعلي أن أسعى للحظوة عنده وإلا سأموت جوعًا. ومنهم من قال في نفسه لا شك أن هامان وقارون من علية القوم، ولكن فرعون مصدر القوة كلها، فعلي أن أكون من خدامه المطيعين؛ لأنه لو رضي عني فرعون لم يجرؤ هامان وقارون على إيذائي. وهذا ما حصل في زمن عاد وثمود أيضًا؛ إذ لم يجد قوم عاد مع هود عليه السلام مالاً ولا ثراءً ولا قوةً ولا رجالاً، فقالوا في أنفسهم: ماذا عسى أن ينفعنا الإيمان به وطاعته؟ علينا أن نتقرب إلى ملوك عاد لنرفع مستوى حياتنا، وننجو من المعاناة والبلاء. ثم إن قوم ثمود أيضًا سلكوا نفس المسلك ضد صالح عليه السلام، فاتخذوا صناديد قومهم ملاذًا لهم. وباختصار إن كلاً من هؤلاء الأمم تركوا الله تعالى واتخذوا ملاذًا خياليًا، ولكن ما يدريهم أن ملاذهم هذا أضعف من بيت العنكبوت وسيتمزق عند الاختبار، فلن يغني عنهم فرعون ولن ينجيهم هامان ولا قارون من عذاب الله. وبالفعل عندما غرق فرعون مع جنوده لم يغن عنهم إلههم الزائف هذا، ولم ينقذ جنوده من الغرق. وأنى له أن ينقذ أحدًا وقد غرق بنفسه مع القوم الذين اتخذوه ملاذًا لهم؟ فتبيّن للدنيا أن الذين يتخذون ملاذًا من دون الله تعالى إنما يقتربون من الهلاك شأن العنكبوت الذي يظن وهو جالس في بيته أنه في مأمن من نوائب الدهر.

لقد نبه القرآن الكريم المسلمين مرارًا إلى هذا الأمر البالغ الأهمية فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾.. أي اتخذوا الله وقايةً لكم ووسيلة لنجاتكم. لا بأس في اتخاذ الأسباب والتدابير، لأن الله تعالى هو الذي خلقها وأمركم باتخاذها، ولكن لا تظنوا أبدًا أنها

هي كل شيء، إنما النصر من عند الله تعالى، ولولاه لما نفعت الأسباب أيضًا. هل كان عند عاد وثمود قلة في الوسائل والأسباب؟ هل كان عند قارون وفرعون وهامان نقص في القوة والمنعة؟ وهل أنقذهم أسبابهم وقوتهم من عذاب الله؟ فمن الغباء الشديد أن يعتمد المرء على الأسباب ويعتبرها وحدها وسيلة لنجاته. إن المقام اللائق بالمؤمن هو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥).. أي عليه أن يعبد الله وحده بصدق القلب ويستعين به هو، لأن الاحتياج إلى الله عبادة والاحتياج إلى العباد ذلة؛ أما إذا أغلق المرء في وجهه هذا الباب الوحيد للنجاح حلّق الهلاك على رأسه، ورأى خيبة آماله بمنتهى الحسرة.

وبذكر مثال بيت العنكبوت قد لفت الله أنظارنا إلى أمر آخر أيضًا، وهو أنه كما لا ينفع العنكبوتَ مجردُ إطلاق "البيت" على بيته، كذلك لن ينجي المرءَ دينُه إذا لبسَ عباءته دون العمل به، وإنما يؤدي الدين إلى نجاته إذا تولّدت فيه تلك الروح التي يريد الدين خَلْقَها فيه. أما إذا اطمأن المرء بانتمائه إلى الدين في الظاهر دون أن تتولد هذه الروح بل رغب عن الله تعالى إلى ما سواه عمليًا فلا شك في غبائه كالعنكبوت الذي يعتبر بيته بيتًا.

الحق أن هناك آلاف الأديان في العالم، وأتباع كل دين يختلفون مع غيرهم اختلافًا شديدًا، ولكنهم، رغم مئات الاختلافات بينهم، متفقون جميعًا على أن الغاية الحقيقية للدين هو التقرب إلى الله تعالى. وإذا كان هو الهدف الأساس من الدين، فمن واجب كل إنسان أمين أن يفحص أعماله ويحاسب نفسه كل حين، ليرى مدى ما اقتطفه من الثمار التي ينبغي اقتطافها بالعمل بتعاليم الدين الحق. وقد أشار المسيح الناصري عليه السلام إلى هذا الأمر الهام حين قال إن الشجرة تُعرف بثمارها (لوقا ٦: ٤٤). بيد أن قوله عليه السلام هذا لا يعني أن الشجرة التي ليس عليها ثمر لا يمكن معرفتها. ذلك أن الفلاح العادي الذي ليس بستانيًا أيضًا يعرف الشجرة وإن لم يكن بها ثمر، لأن أوراق كل شجرة تختلف عن الأخرى في أوراقها وأغصانها، فمثلا إن ورقة المانجو مختلفة عن ورقة الرمان، وورقة التوت مختلفة عن ورقة اللوز، وورقة البرتقال مختلفة عن ورقة التفاح. صحيح أن أحد سكان البنجاب قد لا يعرف

أشجار أفغانستان وكشمير، ولكنه يعرف عامة الأشجار التي تنبت في منطقته وإن لم يكن عليها ثمر. إذًا، فقول المسيح عليه السلام هذا لا يعني أن الشجرة لا يمكن معرفتها ما لم يكن عليها ثمر، وإنما يعني أن قيمة الشجرة وجودها إنما تُعرف إذا أثمرت. فمثلاً إن بعض شجر المانجو تحمل ثمرًا رديئًا لا يؤكل بل يصنع منه المخلل فقط، وبعضها تحمل ثمرًا أردأ من أن يصنع منه المخلل أيضًا، بينما تحمل بعضها ثمرًا عالي الجودة غالي الثمن. فمع أن كل هذه الأشجار تسمى أشجار المانجو، ولكن بعضها ينتج ثمرًا غالي الثمن، وبعضها ثمرًا رديئا جدًّا، فيقطعها البستاني ويزرع مكانها شجرة أخرى.

كذلك الدين، فهو أيضًا يحمل ثمرًا، فإذا اجتنى المرء منه هذه الثمار أمكن القول إنه تابع الدين الحق، أما إذا لم يجنها فلن ينال النجاة بانتمائه إلى الدين باللسان فقط. لقد كان هناك حواريي للمسيح عليه السلام قد باعه بسبع أو ثماني روبيات. لقد قلتُ إنه باع المسيحَ عليه السلام، ذلك لأن الشرطة كانت تبحث عنه عليه السلام، ولكنه كان لا يقع في يدها، لأنه كلما علِم بمجيء الشرطة تنكر واختفى. لقد قام المسيح بالدعوة العلنية بين القوم عدة سنوات، وكان الناس يحضرون خطبه، فلا يصح القول أن الشرطة لم تعرفه. كانت تعرفه ولكن المسيح عليه السلام كان يعيش متنكرًا متخفيًا بحيث لم يعلم الناس بمكان إقامته. وذلك كما فعل الرسول ﷺ أثناء الهجرة حيث خرج من مكة متنكرًا ملتفًا بردائه كي لا يعرفه أحد. وورد في الروايات أن شخصًا سأل أبا بكر أثناء الهجرة مشيرًا إلى النبي ﷺ: من هذا الرجل الذي معك؟ فقال هاد. ولفظ الهادي يمكن أن يفسَّر بمعنى السيد أو الدليل الذي يدل على الطريق؛ فظنّ السائل أن أبا بكر يعني أنه الدليل الذي يهديه الطريق المادي، فسكت، وهكذا أخفى أبو بكر على الرجل حقيقة الأمر بدون أن يكذب (تاريخ الخميس: المجلد الأول ص ٣٣٥، قصة الغوسجة). كذلك يبدو أن المسيح عليه السلام كان ينتقل من مكان إلى مكان متنكرًا في ثياب مختلفة كي لا يُعرف، فارتأى رجال الشرطة أن يستعينوا ببعض حوارييه، فأعطوا يهوذا الأسخريوطي ثلاثين درهمًا كرشوة وضمّوه إلى صفّهم. فقال لهم إن الذي سأقبّله في المجلس هو المسيح. فجاء إلى

مجلس المسيح ، وقال أيها الأستاذ، ثم قبّل يده، فألقت الشرطة القبض عليه . (متى ٢٦: ١٤-١٦ ومتى ٢٥: ٤٧-٥٠)

فترى أن يهوذا كان مؤمنًا في الظاهر وكان يعتبر نفسه واحدًا من حواري المسيح ، ولكنه سلّمه إلى الشرطة من جراء شقاوته. وكان يأكل الطعام مع المسيح قبل تسليمه للشرطة، فقال بناءً على وحي الله تعالى إن الذي يأكل معي في هذه الصحفة هو يسلّمني، فأدرك يهوذا الأسخريوطي أنه يشير إليه، فقال: أيها الأستاذ كيف يمكن ذلك؟ قال : هذا قدر الله الذي لا بد أن يقع. وهذا ما حصل بالفعل، حيث باع يهوذا المسيحَ بسبع روبيات ونصف، مع أن أرذل الصعاليك أيضًا لا يدلّون على زملائهم رغم إغراء كبير لهم من قبل الحكومات. أما هذا الحواري فسلّم هاديه نظير هذا المبلغ الزهيد.

إذًا، فلبسُ المرء عباءة الدين أو فرحه بدينه وحده لا ينفعه شيئًا. فكما أن بيت العنكبوت أيضًا يسمى بيتًا في الظاهر، ولكنه عار عن مواصفات البيت عند الجميع، كذلك فإن مجرد انتماء المرء إلى الدين الحق لا يضمن له النجاة، بل لا بد له أن يتبتل إلى الله تعالى عما سواه، ويقيم صلته به وحده حتى ينال النجاة، وإلا فإنه يخفي رأسه في بيت العنكبوت.

الحق أن التدبر يكشف لنا أن الدين - الذي يولع به معظم الناس - ليس فيه إلا غاية واحدة فقط، وهي أن يتم الوصال بين الله والعبد. ذلك أنه توجد في الناس حسنات كثيرة، وسيقومون بها ويأمرون الآخرين بها وإن لم يكن هناك دين. خذوا مثلاً حُبّ الوالدين، فإن الملحد يحب والديه كما يحب الفلسفي والديه، وإن الشخص الجشع الذي يريد أن يملأ بيته ولو بسلب أموال الآخرين تلمع عيناه أيضًا برؤية والديه؛ وإن الصعاليك السفاكين أيضًا يحبون والديهم، بل بعضهم لا يكون متعطشًا للدماء وقاطعًا للطرق إلا انتقامًا من البعض الذي قد ظلم أبويه أو أخاه أو أخته أو قريبه الآخر. وإن الدين أيضًا يعلّمنا حب الوالدين واحترامهم. ثم إن الدين يأمر الزوجين بالحب والاحترام المتبادلين، ولكن الواقع أنهما سيتبادلان الحب والاحترام وإن لم يكن هناك دين. ثم إن الدين ينهى عن الكذب، والحق أن الناس

سيعافون الكذب ولو لم يكن هناك دين، فإنك تجد أن القبائل الأفريقية القديمة التي لا دين لها ولا تؤمن بالله ولا برسول أو كتاب تعلن أن الإنسان الشريف يتجنب الكذب. ولا شك أن الدين ينهى عن السرقة، ولكن هذا ليس خاصًا بالدين، لأن الذين لا دين لهم أيضًا يستنكرون السرقة. ثم إن الدين ينهى عن القتال والفساد والغيبة والتباغض والحقد، ولكن الواقع أن الإنسان الشريف سيتجنب هذه المساوئ وإن لم يكن هناك أي دين. فكل هذه الأمور توجد عند أهل الدين وأيضًا عند الذين لا دين لهم. والشيء الوحيد الذي يوجد عند أهل الدين ولا يوجد عند من لا دين لهم هو فكرة ضرورة الوصال بالله تعالى. إن الذي لا يؤمن بدين لا يفكر في الوصال بالله تعالى، سيقول ما الداعي للوصال بالله؟ أو سيُنكر وجود الله تعالى أصلاً، بينما يرى المؤمن بأي دين ضرورة الوصال بالله تعالى.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: كم من الناس يتحلون بهذه الميزة الفريدة في الدين؟ كم منهم يوجد عنده الإحساس بضرورة التعلق بالله تعالى كما ينبغي؟ ستجد أن ٩٩ بالمئة بل ٩٩٩ بالألف بل ٩٩٩٩٩ بمئة الألف أو أقل من ذلك أيضًا يؤمنون بدين، ولكن لا يوجد عندهم حب الله تعالى، وليس هذا فحسب بل ليس عندهم الإحساس بضرورة حبه تعالى. إذًا، فكيف يمكن القول إنهم آمنوا بالدين - أيا كان - بصدق؟ فلو كتبتَ على قارورة ماء "كعب الثعلب" اسم "روح كيورا"◈ فلن يتحول ما بداخلها إلى "روح كيورا"، ولو كتبت على قارورة ماء عادي "ماء الورد" فلن ينفعك شيئًا، إنما تقوم بالغش والخداع شأن العطارين الغشاشين، فعندما يتفشّى الملاريا وغيره من الأمراض عندنا يصف أطباء الأعشاب للمريض ماء "عنب الثعلب" أو ماء "كعب الثعلب" مثلاً، فيذهب أهله إلى العطارين، فيقول الأمناء منهم: لا توجد هذه المياه عندنا حاليًا، ولكن الغشاشين منهم يقولون: عندنا كل ماء: فعندنا ماء "كعب الثعلب" و"عنب الثعلب" و"الهندباء" و"الورد"، ثم يعطون قارورة مليئة بالماء العادي. كذلك لو سمّيتَ التراب

◈ عطر نباتي هندي يوضع في الطعام. (المترجم)

ذهبًا فلن ينفعك هذا الذهب، ولو سمّيتَ التهافت على الدنيا دِينًا فلن ينفعك هذا الدين، وإنما ينفعك الدين إذا نشأت بينك وبين الله تعالى علاقة وطيدة. ومن لم يتيسر له التعلق بالله تعالى باعتناق دين ومع ذلك ظن أنه قد صار في مأمن فهو غبي كالذي يعتبر بيت العنكبوت بيتًا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.. أي أنه تعالى يعلم جيدًا حقيقة ما يثق به هؤلاء القوم من دون الله تعالى. إنهم يتخذون أناسًا ضعفاء فانين ملاذًا لهم، بل يسجدون حينًا للأصنام المنحوتة من الحجر التي هي مجرد جماد، ويدعون أصحاب القبور مستعينين بهم حينًا آخر، ولكن الله تعالى يعلم جيدًا حقيقة الأشياء كلها. إن أكبر وأقوى ملوك العالم أيضًا لا يساوي أمام الله تعالى جناح بعوضة، فلو كان المرء صديقًا لأكبر ملِك في العالم ومات بسكتة قلبية فلن يستطيع صديقه الملِك إحياءه ولو أنفق خزائن الأرض كلها. ولو سقطت الصاعقة على أحد، أو غرق في النهر أو احترق بالنار، أو مات في حادث طائرة أو قطار أو سيارة، فمن ذا الذي ينجيه من الموت؟ لا شك أن الأطباء في الدنيا يملكون مهارة عالية في علاج الأمراض، ولكن إذا جاء نفسًا أجلُها من عند الله تعالى تخرج الروح من الجسد وهؤلاء الأطباء الكبار يقفون منبهرين عاجزين. فمن الغباء الشديد أن يثق المرء بملاذ زائف ويمدّ يده إلى ما سوى الله تعالى معرضًا عنه.

أما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ فبيّن فيه أن المرء لن ينجح إلا إذا كان على صلة بالذي هو غالب، كما قال بعض شعراء الفارسية:

"یارِ غالب شَو که تا غالب شوی"

أي كُنْ صديقًا لمن هو غالب تكن غالبًا. ولا شك أن لا غالبَ إلا الله تعالى، إلا أن الغلبة وحدها قد تؤدي إلى ظلم الآخرين، ولذلك قد أوضح الله تعالى هنا أنه ليس عزيزًا فحسب، بل هو حكيم أيضًا.. أي أن أفعاله وأحكامه كلها مليئة بالحكم، فلا إمكانية لأن يظلم ﷻ أحدًا أو يهضم حق أحد. فإنما سلامة الإنسان في أن يترك كل ملاذ خيالي هو كبيْت العنكبوت، ويقيم صلته مع الله العزيز الحكيم.

وقال الله تعالى في آخر هذه الآية: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾، فبيّن أنه قد قام بسرد وقائع قارون وفرعون وهامان وغيرهم، ولكن لن ينتفع منها إلا مَن عنده خشية الله، أما الآخرون فيستمرون في إنكار الأنبياء متبعين خطوات فرعون وهامان وقارون وأمثالهم.

واعلم أنه ليس المراد من ﴿العالمون﴾ هنا علماء العلوم المادية، بل العلماء الذين يخشون الله تعالى، والذين قد صرّح عنهم في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٩).. أي لا يخشى اللهَ من عبادهِ إلا الذين عندهم إدراكٌ بصفات الله تعالى.

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٥﴾

التفسير: لقد قدّم الله تعالى هنا خلق السموات والأرض كدليل على كونه عزيزًا وحكيمًا؛ فكأنه قال: أيها الناس إذا كنتم لا ترون في دمار الشعوب الجبّارة دليلاً على كوني عزيزًا حكيمًا ففكِّروا في خلق السموات والأرض، فستجدون أني قد خلقتها بحسب قانون محكم لا تبديل له.. أي أن الله تعالى قد سنّ في الكون نواميس ثابتة لا يقدر أحد على تبديلها. فبوسع الملحد أن ينكر الله بلسانه، ولكنه لا يستطيع أن يغير ما وضعه الله العزيز للسانه ولآذانه من قوانين، فمثلاً لو أراد أن يتكلم بالآذان ويسمع باللسان، أو أن لا تحرق النار جسده، أو أن لا يبرّد الماء البارد جسده، أو أن يُحدث تغييرًا في أفعال الشمس والنجوم، فلن يستطيع ذلك أبدًا. وإذا أكل الفلفل الحار جدًا فإن قانون الإله العزيز سيعمل عمله حتمًا ويعاقبه بإصابته بالدوسنتاريا، وإذا أراد علاجه بعد ذلك فأيضًا لا بد أن يخضع لقانون آخر وضعه الله تعالى لإبطال تأثير الفلفل. فثبت أن قانون الله غالب عليه في كل حال. كما أن خلق السماوات والأرض دليل على أن الله حكيم أيضًا، لأن جميع العلوم

تتأسس على ما يوجد في الأشياء من خواص غير متبدلة للأشياء وعلى النواميس الطبيعية التي لا تبديل لها. فمثلاً لو أحرقت النار مرة ولم تُحرق مرة أخرى، أو لو أزال الماء ظمأ المرء مرة وأضرم النار في بطنه مرة أخرى، لما ازدهر العلم أبدًا.

إذًا، فكما أن هلاك أعداء الأنبياء دليل على كون الله تعالى غالبًا وحكيمًا، كذلك فإن النواميس غير المتبدلة في السموات والأرض أيضًا دليل على أن الله تعالى غالب على كل شيء.

هذا، وقد لفت الله تعالى بذكر خلق السموات والأرض نظر الناس إلى أنهم لو تفكروا في هذا الكون الهائل لأدركوا أن الله تعالى لم يخلقه عبثًا. لو كانت غاية هذا النظام الهائل أن يقضي الإنسان في الدنيا أيامًا في الملذات ثم يفنى للأبد لعُدّ هذا النظام كله عبثًا. فثبت أن خلق السموات والأرض في حد ذاته دليل على أن الإنسان قد خُلق لغاية عظيمة، وأن الموت ليس إلا اسمًا لانفصال الروح عن الجسم، وإلا فإن الحياة غير محدودة وأن أعمال كل إنسان ستحدد له طريق الرقي أو الانحطاط في المستقبل.

كما نبّه الله تعالى بذكر خلق السموات والأرض أعداءَ الأنبياء إلى أن الأرض لا تقدر على كشف قدراتها وطاقاتها بدون السماء، كذلك فإن الذين يظنون أنهم ليست بهم حاجة إلى هدي السماء بل سيحرزون الرقي باستخدام عقولهم فإنهم يُهلِكون أنفسهم بأيديهم. إن الأرض لا تعمل إلا إذا كانت فوقها السماء؛ كذلك فإن أي عقل إنساني لا يكفي للهداية ما لم ينـــزل عليه ماء الوحي والإلهام من السماء؛ فلو قطع الناس صلتهم عن ماء الروحانية لحُرموا من كل نفع كالأرض الميتة.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فبين فيه أن خلق السموات والأرض آية عظيمة بلا ريب، ولكن لا ينتفع منها إلا المؤمنون. ذلك أن التدبر في الكون يكشف للمرء أن مَثل كوكب الأرض إزاء النظام الشمسي كحبة برتقال أو

بندق في بستان كبير مثل "شاليمار"* أو هي أصغر من ذلك. أما النظام الشمسي مع كواكبه كلها فلا يساوي إزاء نظام النجم القطبي حبةَ بندق في بستان كبير. ثم إن نظام النجم القطبي لا يساوي إزاء الكون المعلوم حشرة ذبابة إزاء مدينة كبيرة. فلو أعمل الإنسان فكره وأدرك قيمة ذبابة إزاء الكون كله، ثم فكّر لماذا أراد الله تعالى أن يخلق الإنسان الذي لا يساوي إلا ذرةً غير مرئية إلا بالمجهر إزاء هذا الكون الهائل، بل هو أقل شأنًا منها ببلايين البلايين من المرات.. لاقتنع بحاجته إلى إنشاء صلة مع الله تعالى، ولأدرك مدى ضعفه وشدة حمقه إذ يصاب بالزهو والكبرياء! والحق أن الذي يقول لغيره مغترًّا بقوته: سأكسر أسنانك بلكمة واحدة، إنما مثله إزاء الملائكة كمثل قَدم النملة التي تقول - لو كان لها لسان - سأُدمر أمريكا بركلة واحدة، بل هو أضعف. فالإنسان لا يساوي شيئًا أمام الكون، حتى إن الطاغية الذي يبثّ الرعب في الرعية بإعلاناته المرعبة عندما يدخل في جسمه جرثومة لا ترى إلا بالمجهر لمرض السل أو الكوليرا فإنه يتقلب على فراشه في كرب وعذاب ويتوسل إلى الطبيب باكيًا بأن يعالجه بسرعة لأنه في ألم شديد. فترى أن هذا الملِك الذي لا يــأبه بأي إنسان في الدنيا يتوسل أمام هذا الطبيب الذي دخله لا يتعدى مئتين أو أربع مئة روبية، والذي لو أراد لقاءه في أيام صحته لما سمح له بالدخول عليه.

فعلى المرء أن يفكر في غاية خلقه، إذ لا بد أن هناك غاية ما من خلقه. يعلن القرآن الكريم أن الله تعالى لم يخلق شيئًا عبثًا وبدون فائدة، وإذا كان الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يفكّر في غاية خلقه ويرى لماذا خلقه الله تعالى. ومن لا يفكر في ذلك فلا شك أنه يضيع حياته.

* "شاليمار" متنــزّه عظيم في مدينة لاهور بباكستان بناه الملوك المغول، ولكنه قد فقد الآن الكثير من جماله وروعته. (المترجم)

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

التفسير: أي أن في خلق السموات آية عظيمة للمؤمنين، ولكن الكافرين لا يعرفون هذه الحقيقة، فاقْرأْ عليهم القرآن ليفهموا به الحقيقة وليهتمّوا بإقامة الصلة بالله تعالى.

الواقع أن مدار حياة المسلمين كلها على القرآن الكريم، و لم يصبهم الانحطاط إلا لأنهم اتخذوا القرآن مهجورًا، فتراهم لا يعملون به ولا يدْعون غيرهم إلى العمل به، مع أن حياتهم كلها في القرآن الكريم. إن القرآن الكريم غذاء روحاني أعدّه الله لنا، وكما أن الغذاء المادي أشكال وألوان، إذ نصنع من الدقيق فطائر حينًا، وأرغفةً رقيقة ناعمة حينًا آخر، وأرغفة سميكةً تُنُورية حينًا ثالثًا، كذلك قد اتخذ الغذاء القرآني أشكالاً عديدة، فتارة يقدّم لنا هذا الغذاء في صورة الصلاة، وتارة أخرى في صورة الصوم، ومرةً في شكل الحج، وأخرى في شكل الزكاة. وكأن هذا الغذاء الروحاني أصبح مرة فطيرًا وأخرى خليطًا من المكسرات، وتارة حلوى. إلا أن وجود هذا الغذاء وحده لا يغنينا شيئًا ما لم نتناوله ونمضغه ونبلعه ونهضمه بمساعدة المعدة والأمعاء. ولذلك قد اخترعتُ مصطلحَ "الاجترار الذهني".. أي لن نهضم هذا الغذاء الروحاني ما لم نقم بالاجترار الذهني. إنك ترى الحيوان يأكل طعامه بسرعة لأنه لا يستطيع أن يرعى في الغاب في كل حين، ولكن ليس في معدته نظام لهضم الطعام كما ينبغي، فيجلس بعد الطعام ويقوم بالاجترار حيث يُخرج لقمة من المعدة ويمضغها، ثم يخرج لقمة أخرى، ولا يزال يعيد هذه العملية باستمرار حتى يهضم طعامه. هذا هو مثال الاجترار الذهني أو الروحاني أيضًا. الواقع أن المرء يقرأ القرآن الكريم أو يقوم بتلاوته ولا يستطيع هضمه فورًا، إنما مثاله كالحيوان الذي

يرعى الكلأ بسرعة، أو كالإنسان الذي يضع في فمه لقمة تلو لقمة، ويبتلعها فورًا دون أن يمضغه، فيصاب بالتهاب الأمعاء والإسهال أو القيء الذي يخرج الطعام من جسمه. فالذين لا يقومون بالاجترار الذهني لا ينتفعون من هذا الغذاء الروحاني، ومن أجل ذلك قد شبه القرآن الكريم اليهودَ بحمار يحمل أسفارًا (الجمعة:٦). إن الذين لا يقومون "بالاجترار الذهني" فإنهم يقرأون هذا الكتاب ولكن لا ينتفعون منه لعدم تدبّرهم فيه. فلكي ينتفع المرء من القرآن الكريم لا بد له أن يمرر هذا الغذاء الروحاني بالمراحل التي تساعده على هضم مضامينه، وإلا لن يهضم هذا الغذاء. فبالإضافة إلى تلاوة القرآن الكريم لا بد من التدبر فيه ثم العمل به، فإذا فعلتم ذلك أصبحتم أمة تتمتع بالحياة والنشاط وستنبهر الدنيا برؤيتها. انظروا إلى الحديد كيف يصنع منه الأوروبيون أجهزة ومخترعات غالية الثمن، أما في بلادنا فلا يصنعون من الحديد إلا المطارق أو المقصّات أو ما إلى ذلك فقط. أما الذهب فكانت النساء في القديم يلبسن أقراطًا ثقيلة من الذهب فكانت آذانهن تتدلى وتتشوه وهن يظننَّ أنهن ثريات جدًا، ولكن البلاد الأوروبية قد صنعت من الذهب شتى الحلي الجميلة وباعتها للبلاد الأخرى وجلبت منها أموالاً طائلة. فثبت أن وجود شيء وحده لا يغني المرء شيئًا؛ فلا تفخروا بوجود القرآن بينكم، لأن السؤال الذي يفرض نفسه هو: إذا كان القرآن موجودًا عندكم فماذا انتفعتم منه؟ واعلموا أنكم إذا كنتم تنتفعون من قراءة القرآن فليس في الدنيا قوم أكثر سعادة منكم، أما إذا كنتم لا تنتفعون منه فليس في الدنيا قوم أشقى منكم، لأن جيوبكم مليئة بالذهب ولكنكم لا تنتفعون منه.

لقد جاء إليّ مرة طالبانِ من مدرسة "ديوبند" الشهيرة، وكانا قد سمعا من البعض أني لستُ خريج أي مدرسة. فجلسا في مجلس كان يضم بعض الأحباب، فسألني أحدهما الذي كان يبدو أكثر حماسًا: ما هو مستوى تعليمك؟ فأدركتُ أنه قليل الأدب، فقلت له: لم أدرس أيَّ شيء. فقال: أخبِرْني عن المدرسة التي تخرجت فيها؟ قلتُ: لو كنت خريج مدرسة لأخبرتك. قال: ألم تتخرج في أي مدرسة في الهند أو البنجاب؟ قلت: لقد أوضحتُ لك أن ما تراه تعليمًا فإني لم أحصّله من أي مكان.

فغمز على رجله صديقُه – الذي كان يبدو أذكى منه – ليمنعَه من هذا السؤال، ولكنه كان متحمسًا فلم يسكت وقال: هذا يعني أنك لست عالمًا؟ فقلت: لقد أجبتك بحسب سؤالك، حيث سألتَني عن المدرسة التي تخرجتُ فيها والمنهج الدراسي الذي أكملتُه، فأخبرتُك أني لستُ خريج أي مدرسة و لم أكمل أي منهج دراسي، وإنما تعلمتُ من الكتاب الذي أُعطيَه محمد ﷺ والذي علّمه أتباعه وهو القرآن الكريم؛ فيمكنك أن تحكم الآن ما إذا كان محمد ﷺ عالمًا أم كان يجهل العلوم كلها. الحق أن النبي ﷺ قد جعل الناس علماء، ولا شك أنني لا أبلغ شأوَ النبي ﷺ، إلا أنني قد درست نفس الكتاب الذي درسه. فسكت هذا الطالب.

إذًا، فإن الناس يظنون أن المرء لا يُعَدّ عالمًا ما لم يدرس "سُلّم الشمس البازغة" و"الشروح الكافية" و"الشروح الشافية" و"الهداية" وغيرها من الكتب، مع أن هذه العلوم من منطق وفلسفة وغيرهما لم توجد في عصر النبي ﷺ، إنما كان هناك القرآن الكريم فقط. إن هؤلاء يريدون أن نترك الله تعالى ونتّجه إلى العباد، فإني عندما أقول لهم قد درستُ كتابًا مؤلِّفه اللهُ ﷻ فلا يطمئنون أبدًا، ولكني لو قلت لهم إني قد درست كتابًا قد كتبه "البيضاوي" فيطمئنون تمامًا؛ وهذا يعني أن لا قيمةَ عندهم للكتاب الذي مؤلِّفه الله ﷻ، مع أن القرآن الكريم هو وحده منبع العلوم والمعارف كلها.

ثم إن الله تعالى لم يحثّنا بقوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ على تلاوة القرآن والعمل به فقط، بل أمَرنا أيضًا أن نعرض هدي القرآن على أتباع الأديان كلها لنضمّهم إلى الإسلام. وكأن الله تعالى يوصينا أن لا نركز على الأشياء الأخرى عند دعوة الإسلام، بل نقوم بالدعوة بالقرآن نفسه.

لقد أهمل المسلمون هذا الأمر الرباني أيضًا كل الإهمال، مع أن الله تعالى يأمرهم: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(آل عمران:١٠٥). والأُمّة هي جماعة لها نظام وهدف موحد. إذًا، فالله تعالى قد أمر المسلمين هنا أمرًا أبديًا أن يوجد بينهم دائمًا قوم ليس هدفهم طوال العمر إلا نشر دعوة الإسلام تحت نظام. والحق أن من الأخطاء الفادحة التي ارتكبها المسلمون في

تاريخهم الماضي أنهم اعتبروا الدعوة والتبليغ فريضة فردية. لا شك في وجود دعاة ومبلغين بينهم، بل قد كان فيهم دعاة حتى في الماضي القريب أيضًا، ولكن الدعوة المنظمة كجماعة قد انتهت فور وفاة النبي ﷺ تقريبًا، لأن الحروب ضد المسيحيين والزرادشتيين شغلت الخلفاء الراشدين بحيث اعتُبر الجهاد والدعوة شيئين منفصلين، ثم أدى الجمود الذي أصاب المسلمين بعد الخلفاء الراشدين إلى توقُّف مدّ انتشار دعوة الإسلام، واعتبر المسلمون العزة الدنيوية والتقدم المادي منتهى غايتهم، وشغلتهم العلوم الأخرى فاتخذوا القرآن مهجورًا، فحُرموا من حماس الدعوة ونتائجها. فأدى ذلك إلى غلبة المسيحيين الذين كانوا منهمكين في التبشير وضعفِ المسلمين الذين كان قد شغلتهم فكرة الجهاد عن الدعوة والتبليغ. مع أن الله تعالى يقول في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان:٥٣).. أي أيها المسلم جاهِد الكافرين بالقرآنِ جهادًا كبيرًا. فالحق أن الجهاد الكبير إنما هو جهاد القرآن الكريم وجهاد التبليغ والدعوة الذي قام به المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر، حيث أثبت - من خلال كتبه - فضل الإسلام بعرض محاسن القرآن الكريم على العالم.

إذًا، لقد أمر الله تعالى هنا كل مسلم أن يأخذ القرآن بيده ويخرج للجهاد في العالم، وأن يتلو القرآن بنفسه ويعمل به كما يقرأه على الآخرين ويدعوهم للعمل به، وينشر من خلال القرآن أنوار الإسلام وبركاته بين القوم الذين لا علم لهم بمحاسن الإسلام ومزاياه، وأن يسعى جاهدًا ليقوم حكم القرآن وحكم الإسلام وحكم محمد ﷺ في كل مكان.

وعندي أن نــزول القرآن الكريم باللغة العربية كان اختبارًا كبيرًا للمسلمين، لأن الله تعالى أراد بذلك أن يرى ما إذا كانوا يشيعونه في كل مكان أم لا. ولكنهم أخذوا يقولون من سوء حظهم أن ترجمة معاني القرآن الكريم كفر، وبتعبير آخر إن نشر القرآن الكريم في كل مكان كفرٌ. ولكن الله تعالى قد علّمَنا بواسطة المسيح الموعود عليه السلام أن ترجمة معاني القرآن الكريم ليس كفرًا، بل هو ضروري جدًّا، إذ كيف يفهم الناس ما أمرهم الله به بدون ترجمة للقرآن؟ توجد اليوم في الدنيا ألف

وثلاث مئة لغة، ولا بد من ترجمة معاني القرآن الكريم إلى هذه اللغات كلها، لأن القرآن قد نـــزل للناس جميعًا. وليس هناك فرد واحد لا يخاطبه القرآن، إذًا، فينبغي ألا يبقى في الدنيا فرد واحد لم نترجم معاني القرآن الكريم إلى لغته، حتى لا يقول أحد لله تعالى: ربّ، قد خلقتَني بين قوم لا يتكلمون العربية، والقرآن بالعربية، فأنى لي أن أتعلمه؟

بعد أن نصح الله المسلمين بتعلُّم القرآن وتعليمه وسماع القرآن وتلاوته على الآخرين وإرشاد الإنسانية كلها إلى الحق بالقرآن الكريم، قال الله تعالى الآن: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾.. أي أن قراءة القرآن على الآخرين لا تكفي وحدها، بل لا بد أن تكونوا أسوة حسنة للناس وتقوموا بالدعاء لهم، فأقيموا الصلاة في الدنيا وادعوا للمؤمنين وغيرهم في صلاتكم بأن يفتح الله عيونهم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.. أي أنها تنهى عن المساوئ التي تتعلق بذات الإنسان، وعن التي تُسيء إلى المجتمع أيضًا. ذلك أن الصلاة بالجماعة فرض على المسلمين خمس مرات يوميًا، ولو أقاموها لاستغرقت إقامتها كثيرًا من وقتهم الذي يتجنبون فيه الفواحش والسيئات؛ كذلك لو ظلّوا يدْعون الله تعالى في الصلاة لأنفسهم ولغيرهم لنـــزل عليهم فضل الله تعالى، مما يؤدي إلى إصلاح أنفسهم وإصلاح الآخرين والنهوض بهم. كما أن تلاوة آيات القرآن والتسبيح والتحميد الذي يتم في الصلاة بكثرة تؤثر على قلب المصلي بحيث يكره السيئات ويتنفَّر منها.

كما أن في التركيز على الصلاة بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ إثرَ وصيته تعالى بتلاوة القرآن على الناس لإشارةً إلى أن الطهارة لا تتيسر بدون الدعاء. تستطيعون تغيير أفكار الناس بتلاوة القرآن عليهم، ولكن طهارة قلوب الناس مستحيلة من دون فضل الله تعالى، وهذا الفضل إنما يتأتى بالدعاء. فأقيموا الصلاة وأكثِروا من الدعاء لتحقيق الغاية التي أقامكم الله تعالى من أجلها.

لقد قال المسيح عليه السلام أيضًا في الإنجيل: "هذا الجنس لا يمكن أن يخرُج بشيء إلا بالصلاة والصوم" (مرقس ٩: ٢٩). غير أن هذا لا يعني أن الديانة المسيحية حق، فإذا وُجد في الإنجيل حكم جيد واحد، فإن جميع أحكام القرآن الكريم جيدة.

الحق أن هدف العبادة التعبير عن مشاعر الشكر لله تعالى، لأن الإنسان بفطرته يشكر من أحسن إليه، كما ورد في الحديث "جُبلت القلوبُ على حُبِّ مَن أحسنَ إليها" (الجامع الصغير للسيوطي: باب حرف الجيم حديث رقم ٣٥٨٠). إذًا، فإن أكبر أهداف الصلاة أن يُقرّ الإنسان بلسانه بنعم الله ماثلاً أمامه سبحانه وتعالى. بيد أن هناك هدفًا آخر من الصلاة وهو أنها تُطهّر الإنسان من الذنوب والمعاصي كما ورد في هذه الآية. ذلك أن الله تعالى ليس بحاجة إلى أن يعبده الناس، بل إن الهدف الأساس في كل ما أمر الله تعالى من أحكام هو تطهير قلب الإنسان، لأن الله قدوس ولا يمكن أن يكون على صلة مع إنسان نجس. فجميع العبادات تهدف إلى تطهير النفس البشرية من السيئات، وشحن الإنسان بقوة تساعده على التخلي عن أهواء النفس بكل أنواعها، فتتوثق صلته مع الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى تصبح معاملاته مع خلقه على ما يرام. لقد بين الإسلام أنّ هدف الدين هو أنْ يقوّي صلة العبد بربه تعالى ويسوِّي صلته مع خَلْقه. وإذا عجز أي دين عن تحقيق هذين الهدفين فلا يحق له أن يسمى دينًا إذ لا يحقق الغاية وراء الدين. فالهدف الأساس للعبادات كلها تقريب العبد إلى الله تعالى وشحنه بطاقة تجنّبه الذنوب والمعاصي. والعبادات التي تحقق هاتين الغايتين هي التي تُعتبر نافعة، وإلا فهي مضيعة للوقت. وقد بيّن القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. إذًا، فالصلاة ليست إقرارًا بعبودية الله تعالى فحسب، بل إنها تجلو قلب العبد وتساعده على تجنب الآثام، وتجعله نافعًا لبني جنسه. ولما ثبت أن الغرض الأساس من الصلاة هو إنشاء الصلة بالله تعالى وشكره وإصلاح النفس، فالعبادة التي تحقق هذين الهدفين هي العبادة الحقيقية، وبالتالي فإن الدين الذي يعلّم هذا النوع من العبادة هو الدين الحق.

إن الوسائل التي وضعها الإسلام في العبادة الإسلامية لتحقيق الغرض من العبادة لا توجد في عبادة أي دين آخر، وبإمكان كل إنسان أن يدرك بأدنى تدبر أن هذه هي الوسائل التي تضمن تحقق غاية العبادة. وإليك بيانها:

الأول: اعلم أن هناك صلة وثيقة بين جسد الإنسان وروحه بحيث يؤثّر أحدهما على الآخر. فمثلاً إذا سمع الإنسان خبرًا محزنًا تأثر بدنه وبدت فيه أمارات الهم والحزن. كذلك إذا أُصيب جسده بأذى أصبحت نفسه حزينة مكتئبة؛ وهكذا تمامًا تتفاعل روحه وجسده في حالة الفرح أيضًا. فلكي يتوجه قلب العابد إلى الله تعالى لا بد أن يكون جسده أيضًا أثناء العبادة في حالة تواضع وتذلل لتتفاعل به روحه فتلين وتذوب فيتوجه الإنسان إلى الله تعالى بلهفة وشوق. وفي الدنيا أشكال شتى لإظهار منتهى التذلل والتواضع، فبعض الشعوب ينحنون، وبعضهم يقفون مربوطي الأيدي، وبعضهم يخرّون على الركب سجدًا؛ ولما كان الإسلام من عند خالق الفطرة الإنسانية فقد جمع في الصلاة كل هذه الطرق للتذلل مراعاة لشتى عادات الناس وطبائعهم؛ فيجد كل مصلّ في الصلاة حالة للتذلل تتلاءم مع مزاجه ومذاقه. والواقع أن هذه الصور المختلفة الدالة على منتهى التذلل تترك وقعًا عميقًا على قلب الإنسان، فيمتلئ حماسًا وشوقًا لله تعالى؛ فيخضع أمامه تمام الخضوع. وإنه لمشهد رائع وجدير بالرؤية حين يكون المسلم ماثلاً أمام الله رب العالمين، فحينًا يربط أيديه قائمًا، وحينًا يخضع أمامه راكعًا، وحينًا يرسل أيديه واقفًا، وحينًا يخرّ أمامه ساجدًا، وحينًا يقعد على ركبتيه جالسًا، فيغمر قلبَه ذلك الحبُّ الذي يمكن أن يكون بين الخالق والمخلوق، فيُقرّ بلسان حاله قائلاً: ربّ، ها إني أقرّ أمامك بعبوديتي لك، من خلال جميع الطرق والأشكال التي تعبّر بها مختلف الشعوب عن عبوديتها لك. وإن هذا المشهد لا يؤثّر في قلب المصلي فقط، بل يؤثّر في قلب المشاهد أيضًا، فيجذبه هو الآخر نحو الله تعالى.

الثاني: والطريق الثاني الذي وضعه الإسلام لتحقيق هدف الصلاة أنه اعتبر الدعاء لُبَّ الصلاة، حيث ورد في الحديث: "الدعاء مُخُّ العبادة" (الترمذي: أبواب الدعوات،

باب فضل الدعاء). والحق أن في الدعاء تأثيرًا مغناطيسيًا يجذب العبد نحو الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى يهيئ له الأسباب التي تسهّل عليه تجنُّبَ المعاصي. ذلك أن الوالدين والحكّام ما داموا يقبلون التماسنا ورجاءنا فكيف يُتصور أن الله الذي هو أرحم الراحمين سيرفض دعاء عباده؟ ما هي الصلاة؟ إنما هي مجموعة أدعية. إنها تولّد في قلب الإنسان حب الله تعالى من ناحية، ومن جهة أخرى تحظى بها أدعية الإنسان بالقبول عنده تعالى، فتزيده هدى وتساعده في فعل الخيرات.

الثالث: والطريق الثالث الذي علّمه الإسلام في سبيل تحقيق غاية العبادة هو التدبر في قدرة الله تعالى. ذلك لأن الإنسان إذا لم يتيسر له علم كامل بشيء لم تتوثق صلته به، فمثلاً إذا لم يدرك الإنسان أهمية العلم لم يجتهد لتحصيله، أو إذا جهل تأثير السمّ لم يخَفْ من تناوُله.

إذًا، فإن الإنسان في حاجة ماسة إلى معرفة تامة بالله تعالى حتى تتوثق صلته به ﷻ، ويتجنب السيئات؛ ولذلك قد فرض الإسلام على المصلي قراءة عبارات معينة تكشف عليه جلال الله ومحبته، فيخرّ له ساجدًا ويمتلئ قلبه بخوف الله وحبّه. ذلك لأنه عندما يُذكَّر المصلّي في وقت واحد بنعم الله وبنتائج عصيانه والإعراضِ عنه، تستولي عليه حالة من التبتل إلى الله فيتقرب إليه تلقائيًا. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحالة فأخبر أن أدنى درجة في الصلاة أن تعبد الله كأنه يراك، وأن أفضل درجة فيها أن تعبد الله كأنك تراه بعينك.°

لقد ثبت من هنا أن الصلاة ليست في حد ذاتها غاية، وإنما الغرض منها أن تنهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر.. أي يمتنع الإنسان عن السيئات في حياته العملية، أما الغرض الروحاني من الصلاة فهو أن يتراءى الله تعالى للمصلي حتى يشعر أنه يرى الله تعالى.

° نص الحديث هو: "الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ." (البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل) (المترجم)

وهناك سؤال يطرح نفسه حول قول النبي ﷺ: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، وهو: حيث إن الله تعالى يرى الإنسان في كل حال، فهل يعني هذا أن الإسلام يقول أن الله تعالى يرى المسلم ولا يرى المسيحي أو الهندوسي أو السيخي؟ أو أنه تعالى يرى زيدًا الذي يصلي ولا يرى بكرًا الذي لا يصلي؟ ولو صح أن الله تعالى يرى العبد وهو يصلي فقط لاعتبر كثير من ضعفاء الناس ترك الصلاة أفضل لهم قائلين: لا نصلي حتى لا يرانا الله تعالى.

أما لو فُسّر قول النبي ﷺ هذا بأن الله تعالى لا يرى الإنسان في الواقع، ولكنه ﷺ أمرَنا أن نظن أن الله يرانا، لكان هذا كذبًا إذ نخدع أنفسنا ونتصور في أذهاننا تصورًا باطلاً.

فثبت أن كلا المعنيين باطل، فلا يمكن أن نفسر قول النبي ﷺ هذا بأن الله تعالى لا يرانا عادة ولكنه يرانا حين نصلي، كما لا يمكن أن نفسره بأن الله لا يرانا حقيقة ولكن علينا أن نظن أنه يرانا.

إذًا، علينا تفسير قوله ﷺ بما يتفق مع تعاليم القرآن الكريم، وهذا المفهوم هو أن نعتبر قوله ﷺ "كأنك" بمعنى "أن توقن".. أي عليك أن تعلم يقينًا بأن الله تعالى يراك. وشتان بين علم اليقين وبين الخيال والوهم. وإذا تصور أحد في صلاته أن الله يراه، بينما أيقن الآخر في صلاته بأن الله يراه، فبرغم أن كل واحد منهما يرى بأن الله يراه، إلا أن رؤية أحدهما مبنية على الوهم والباطل، أما رؤية الآخر فَمَبنية على أسس متينة من اليقين؛ إذ يمكن زعزعة الشخص الأول من تصوره بكل سهولة، ولكن الشخص الثاني الموقن تمامًا في صلاته بأن الله يراه فلا تقدر قوة في الدنيا على زعزعته.

فثبت من هنا أن النبي ﷺ لا يعني بقوله هذا أن عليك أن تتصور في صلاتك أنك ترى الله تعالى وإن لم يكن الأمر كذلك، وإنما المراد من قوله ﷺ أن أدنى درجة يجب أن ينالها المؤمن في صلاته هي أن يوقن يقينًا كاملاً أن الله يراه، ذلك لأن الرؤية لا تعني هنا معناها المعروف بل لها معنى خاص، والدليل على ذلك أن الله يرى المؤمن والكافر والمسيحي والهندوسي على سواء، ويرى المصلي وغير المصلي

أيضًا؛ فإذا أيقن المصلي أن الله يراه فلن يكون له أي خصوصية، لأن الله كما يراه فإنه يرى الكافر والمنافق أيضًا، وإنما يمتاز المصلي بالخصوصية إذا فُسرت رؤية الله تعالى هنا بمعنى خاص، وهو رؤيةُ حفاظة ونصرة؛ ومثاله قول الله تعالى لرسوله في القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (الطور:٤٩).. أي أنك أمام أعيننا، فسبِّحْ بحمدنا حين تقوم للصلاة. فكون النبي ﷺ أمام أعين ربه لا يعني أن عدوه ﷺ لم يكن أمام أعينه تعالى، إنما المعنى أنك يا محمد قد بلغت درجة من قربنا بحيث سنرعاك رعاية خاصة فلن يستطيع أحد أن يهاجمك فيؤذيك ويهينك. فكما أن الحارس لا يقف مكتوف اليدين إذا أراد أحد الهجوم على من وُكّلت إليه حراسته، كذلك قد نزلتَ منا منـــزلة بحيث لن نسكت إذا حاول أحد الهجوم عليك. وذلك كما نرى في الدنيا أن المرء إذا لم يُرد الدفاع عن شخص غضّ الطرف عنه، ولكنه لو أراد الدفاع عنه قال للناس: إنه يراه.

باختصار إن قول النبي ﷺ أن أدنى درجة في الصلاة هي "كأنه يراك" يعني أن يصلي المرء موقنًا يقينًا كاملاً بأن صلاته قد بلغت من الكمال بحيث إذا أراد به أحد سُوءًا فلن يسكت الله عليه؛ وذلك كما قال الله تعالى للمسيح الموعود عليه السلام في وحيه: "إني مُعِينٌ من أراد إعانتك، وإني مُهينٌ من أراد إهانتك" (آئينه كمالات إسلام (أردو)، الخزائن الروحانية المجلد ٥ ص ١١). وكأن العبد إذا بلغ هذا المقام فلا يترك الله تعالى من أحسن إليه بدون أجر، ولا يترك من أساء إليه بدون عقاب؛ فمن أحسن إليه جزاه الله تعالى أفضل مما أحسن، ومن أساء إليه عاقبه بأشد عقاب. وهذه أدنى درجة يجب أن يتبوأها كل مؤمن بحسب قول الرسول ﷺ.

أما الدرجة العليا منها فقد حثّ عليها النبي ﷺ بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه". وهذا أيضًا لا يعني أن يفترض المصلي أنه يرى الله تعالى، لأنه كذب ووهم، وكيف يوقن بالكذب والوهم؟ هذا أولاً، وثانيًا إذا كان المصلي ضعيف الإيمان لدرجة أنه يكون بحاجة إلى إقناع قلبه بأنه يرى الله تعالى، فما الفائدة من هذه المحاولة؟ فالحق أن قول النبي ﷺ "كأنك تراه" يعني أنه بعد بلوغ الدرجة الأولى في صلاته يصل المؤمن حيث تنكشف عليه حقيقة آيات الله، فيرى رحمة الله وفضله وإحسانه بعينيه

أيضًا. إذًا، فإن أعلى درجة في الصلاة هي أن يكون المصلي على يقين كامل أنه يرى الله تعالى. ولكن ليس المراد من رؤيته ربَّه ﷻ أن يفكر في صلاته أنه ماثل أمام تمثال وهو الله - كما يفعل الهندوس - لأن الإسلام لا يُعلّم الوهم ولا يريد أن يخلق في ذهن الإنسان تصورًا زائفًا، إنما يعلّمه أنه إذا قام في الصلاة فيجب أن يكون على يقين بأن الله تعالى يحسن إلى من يحسن إليه ويعاقب من يسيء إليه. فإذا تيسرتْ لك هذه الرؤية وأحسستَ أن الله تعالى يحسن إلى من يحسن إليك ويعاقب من يسيء إليك، أصبح حبك لله تعالى كاملاً وبلغت صلاتُك درجة الكمال.

إذًا، فإن الإسلام لا يعلّمنا الأوهام، بل يريد أن يأخذنا إلى درجة المعرفة واليقين. إنه يطالبنا أن نحسّن صلواتنا ونجعلها رائعة بحيث يحبنا الله حبًّا يُشعرنا أنه تعالى يحسن إلى من يحسن إلينا ويعاقب من يسيء إلينا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرزق عيوننا من البصيرة وقلوبنا من النور بحيث نرى أن الله تعالى يُظهر آياته لتأييدنا. ومن بلغ هذا المقام نجا من الشكوك والشبهات كلها، وظهرت له آيات الله البينات وأيقن أن الله لن يضيعه أبدًا، وأن الدنيا يمكن أن تتركه؛ ولكن الله تعالى لن يخذله؛ إذ يرى آياته ويشاهد نعمه بأم عينيه. إن الجاهل لا يفهم هذا الأمر، ولكن الذي يرى الله تعالى بعينيه يقف على صخرة عظيمة من اليقين بحيث لا تقدر قوة في الدنيا على زعزعة عزيمته.

إنه لمما يبعث على الأسف أن فئة من المسلمين في هذا العصر لا يصلون، ليس لأنهم لا يؤمنون بضرورة الصلاة، بل لأنهم يظنون أن الله رحمن ورحيم وسيتغمدنا بمغفرته إذ ليست مغفرته إلا للخطاة والآثمين، وإذا لم يوجد هناك آثمون مثلنا فمن ذا الذي يغفر الله له الذنوب؟ وإنني لن أناقش هنا صحة هذا الاعتقاد أو خطأه إلا أن هذا ما يجيب به أصحاب هذه الفئة.

بينما توجد بينهم فئة أخرى تعتقد بأن الله تعالى قد أمر بهذه الأحكام في الماضي لإصلاح العرب فقط، إذ كانوا قومًا همجيين لا يهتمّون بالنظافة والطهارة، فأمرهم النبي ﷺ بنظافة ثيابهم وطهارة أبدانهم، وكانوا أمة مشتتة لم يوجد عندها نظام

فأمرهم الإسلام بحضور المسجد خمس مرات يوميًا. لقد أُمروا بحضور المسجد لأداء الصلاة في الظاهر، إلا أن الغرض الحقيقي أنهم إذا حضروا المسجد خوفًا من الله تعالى اطلعوا على أخبار قومهم وأحوال بلدهم، مما سيولد فيهم صحوة سياسية، فيسعون للتغلب على العالم.

أتذكر جيدًا أنني قرأت في طفولتي مقالاً بهذا المعنى نُشر في جريدة. كان هناك مسلم كبير وكان يُعتبر داعية، فقام بزيارة اليابان وأمريكا بقصد الدعوة والتبليغ، ولما رجع ألقى محاضرة في جامعة "علي غرة"، فنُشرت محاضرته في الجرائد وهي التي قرأتها. فمما قال في محاضرته إن الذين يقولون إن الصلاة حكم ضروري جدًا ولا بد من أدائها بالجماعة في المسجد خمس مرات يوميًا، لا يتدبرون في حقيقة الأمر، فلا يدرون أن الإسلام دين عالمي، وكان لأحكامه في الزمن القديم صبغة وقد اكتسبت أحكامه في هذا العصر صبغة أخرى. لا شك أن الأحكام ستبقى على حالها، ولكن أشكالها ستتغير بتغير الظروف. لقد كان العرب أمة جاهلة يعيشون حفاة ولم تتيسر لهم ثياب كافية، فأُمروا بالركوع والسجود على الأرض، أما في هذا العصر فقد تغير الوضع، فلو قام المرء بالركوع والسجود على الأرض لفسد كيُّ بنطلونه؛ ولو كان محمد ﷺ في هذا العصر لعدّل هذا الحكم حتمًا ولقال: لا حاجة بكم للركوع والسجود، بل يكفيكم أن تُحنوا رؤوسكم قليلاً جالسين على المقاعد. والحال نفسه بالنسبة للصوم، إذ كان العرب قومًا وحشيين يأكلون الطعام أكلاً لَمًّا، فكانوا يصابون بالتخمة، فلذلك أمرهم الإسلام بالصوم، أما هذا العصر فهو عصر الحضارة ولا يفسد فيه الناس معدتهم بكثرة الأكل، فإذا تناول المرء الفطور صباحًا وأكل الكعك والبسكويت مساءً ولم يأكل وقت الظهيرة شيئًا، فيكفيه هذا صومًا. باختصار يوجد بين المسلمين اليوم قوم يعتبرون هذه العبادات غير صالحة لهذا العصر ولا حاجة لها اليوم عندهم.

بينما توجد بين المسلمين فئة ثالثة تقول إنما الصلاة هي صلاة القلب، ولا داعي لهذه الحركات الظاهرة؟ ولكن الحقيقة أن الصلاة هي صلاة الظاهر وصلاة الباطن أيضًا، والجمع بين الأمرين هو الذي يجلب البركة للإنسان. فلو قمنا بذكر الله تعالى

في القلب فقط و لم نؤد الصلاة الظاهرة لصار ذكر الله تعالى في القلب مجرد كذب وخداع؛ ذلك لأن المحب لمن يحبّ مطيع ولا يعصي أمره أبدًا. أفليس غريبًا أن نبدي لله حبًّا باللسان فقط من دون أن نقدم دليلاً عمليًا على حبّنا له؟ حيث نؤمن بأنه قد أمرنا بالسجود له ولكنا نرفض أن نسجد له!

بيد أن المرء إذا أدى الصلاة بالظاهر فقط بدون خشوع وحضور قلب فإنه لم يصلّ، وإنما قام بتمارين جسدية، ومثل هذه التمارين يمكن أن تقوّي جسمه كما تقوي جسم الجندي، ولكنها لن تعمر قلبه بنور الإيمان.

قبل فترة ذهبتُ إلى السند، فجاء أحد الهندوس لمقابلتي، وكان لم يهاجر إلى الهند عند انفصال باكستان حيث كانت له صلات حميمة مع المسلمين. فقلتُ له: لك صلات قديمة حميمة مع المسلمين، فهل تدبرتَ في دينهم مرة؟ فقال: كل دين يعلّم الخير، ودينكم جيد وديننا جيد أيضًا. فقلت: ما دامت كل ديانة تتضمن أحكامًا طيبة مماثلة فلماذا لا تنضم إلى المسلمين إذن؟ لا بد أن يكون هناك فرق مما جعلك هندوسيًا وجعلنا مسلمين. لو كانت في الديانتين أمور مماثلة لدخلتَ في الإسلام أو دخلنا في الهندوسية. فلا بد أن يكون هناك فرق مما جعلنا نحافظ على كياننا المنفصل. ثم قلت له: هل قمتَ بالمقارنة بين العبادات الإسلامية من صلاة وغيرها وبين عبادات ديانتك، لترى أيتهما أفضل؟ فقال: إن الكعبة والدير كلاهما في القلب، فما الحاجة من صلاة ظاهرة؟ فقلتُ له: أمتزوج أنت؟ قال: نعم. قلت: ألك أولاد؟ قال: نعم. قلت: أتُدلِّل زوجتك وتداعب أولادك؟ قال: نعم. قلت: إن الحب في القلب، فلماذا تُظهر لهم الحب؟ إنما تبدي لهم الحب لأنك ترى ضرورة إبداء علامة ظاهرة لهذا الحب. فإذا كنتَ ترى أن الحب الذي تكنّه في قلبك لزوجتك وأولادك لا يكفي وحده، بل لا بد من تقبيلهم ومداعبتهم، فلماذا تقول عن حب الله تعالى أن الكعبة والدير في القلب ولا حاجة لأي عبادة ظاهرة؟!

فالحق أن ظاهر العمل وباطنه كلاهما يجعل الإنسان كاملاً، ولا تأتي النتيجة المرضية بدون اجتماعهما. فمثلاً إذا حاولت أخذ أطيب طعام في إناء وسخ اتسخ الطعام أيضًا، وإذا حاولت أخذ الطعام بدون إناء سقط الطعام وضاع، فثبت أنه لا

بد من إناء، ولا بد من أن يكون نظيفًا، ثم لا بد أن يكون فيه شيء ما. هذا هو مثال كل العبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة. فقد أمرنا الله تعالى بتقديم الأضاحي والقرابين، ولكنه تعالى أوضح لنا أيضًا وقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٨). فبرغم هذا التصريح لم ينهنا الله تعالى عن تقديم القرابين، بل أمرنا أن نقدمها آخذين بعين الاعتبار أننا نقدمها عملاً بأمر حبيبنا وتحقيقًا للأهداف التي سنّ الله القرابين من أجلها، ومن هذه الأهداف مثلاً أن الفقراء الذين يعانون الجوع والفاقة أو الذين لا يجدون اللحم طوال السنة سيجدون لحمًا للأكل. وهذا يعني أن القرابين تُطهر قلب أصحابها وتخلق فيها مشاعر الحب والعطف على الفقراء والجيران ، كما توفقهم للعمل بحكم الله تعالى.

إذًا، فإن أهم واجب على المسلمين أن يواظبوا على الصلاة بالجماعة، لأن الذي ينسى حبيبه ولا يجدّد في قلبه ذكراه لا يحق له الادعاء بحبه. إن الحب الصادق لا يخلو من آثار ظاهرة أبدًا، ومن أكبر آثار الحب أن المحب يذكر حبيبه كل حين، ولا يزال يجدد ذكراه في قلبه. عندما يذكر المرء حبيبه يتجدد حبه في القلب وتتراءى صورته أمام عينيه، ومن أجل ذلك قيل: "المكتوب نصف الملاقاة".. أي إذا كتب المرء رسالة لبعض أصدقائه وأقاربه فكأنه قد قام بنصف لقائه. فعندما يكتب له: السلام عليكم ويبين له أحواله ويسأله عن حاله، فكأنهما يجلسان وجهًا لوجه ويجددان حبهما. فثبت أن الرسالة توثّق صلة المرء بحبيبه وقريبه كما يوثّقها اللقاء بينهما، فتنوب عن اللقاء. إن الصلاة أيضًا وسيلة للقاء الله تعالى، ولذلك قد فرض الإسلام على المرء أن يقف للصلاة على فترات قصيرة لذكر الله تعالى. لقد فرض الإسلام على المسلمين أداء الصلاة في وقتها حتى في حرب طاحنة دامية تنطلق فيها النيران من الطرفين، عليهم أن يخضعوا أمام الله تعالى فورًا في ذلك الوقت الحرج إن أمكن ذلك - علمًا أن الله أمر في حالة الهجوم الخطير من قبل العدو بجمع الصلوات التي لا يجوز جمعها في الظروف العادية، وقد جمع الرسول ﷺ نفسه أربع صلوات في إحدى المرات (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق) - لا شك أن الشكل الظاهر للصلاة سيتغير في حالة الحرب، ولكن لا يجوز ترك الصلاة.

ومن العيوب الكثيرة التي أصابت المسلمين في هذا العصر أهم لا يصلّون إذا كانوا على سفر في القطار مثلاً، وإذا سئلوا قالوا لا نصلي لأننا لا نثق بطهارة ثيابنا في السفر. وعندي أنه لو كانت ثياب المرء كلها نجسة بالبول مثلاً - ليس حالة السفر فحسب، بل حال إقامته أيضا - و لم يكن عنده ثياب أخرى، وحان وقت الصلاة فعليه أن يصلي في الثياب النجسة أيضًا، أو إذا كان هناك سِترٌ فيمكن أن ينـزع ثيابه كلها ويصلي بجسم عارٍ، وليس عليه أن يبالي بنجاسة ثوبه أو بعريه. ذلك لأن الهدف من الصلاة إنما هو أن يذكر الإنسان ربه بعد كل فترة قصيرة، ويجدّد ذكراه في قلبه. وكما أن العطشان يرتشف في القيظ جرعة أو جرعتين بعد كل فترة إطفاءً لظمئه، كذلك قد جعل الله تعالى الصلاة على فترات ليروي روح الإنسان بطراوة الإيمان وحلاوته، لكي لا يلفح حرُّ الكفر روحه، فتضمحلّ قواه الروحانية. إن ذكر الله تعالى يجدّد حبه في قلب المرء، ويقرّب منه الملائكة، ويبعد عنه الشيطان. لا شك أن الله تعالى قد أمرنا بطهارة الثياب، ولكن إذا لم يكن عند المرء ثياب أخرى فلا يجوز له ترك الصلاة، وإنما يقال له: عليك أن تصلي حتى بالثياب النجسة. فمثلاً إذا كان عند المرء سروال واحد فأصابته نجاسة، فلا يسمح له الشرع بترك الصلاة وإنما الحكم فيه أن يصلي بالسروال النجس، لأن طهارة القلب مقدَّمة على طهارة الثياب، ولكن الناس عندنا يهتمون بطهارة الثياب ولا يهتمون بطهارة القلب. إن ترك الصلاة بسبب نجاسة الثياب يعني أننا نهتم بطهارة الثياب ولا نهتم بطهارة القلب. وهذا حمق وغباء، إذ يجوز للمرء في هذه الحالة أداء الصلاة في أي ثوب متيسر، ولكن لا يجوز له أن ينجّس قلبه بترك الصلاة بحجة نجاسة الثياب.

إن الصلاة وسيلة لإصلاح الكيان الروحاني. وكما أن الجسم المريض لا ينجو من الموت بحجة أنه مريض فلا يستطيع تناول الطعام، كذلك فإن الجسم الروحاني لا يمكن أن ينجو من الموت بحجة أنه مريض فلا يستطيع أداء الصلاة. إذا لم يستطع المرء تناول الطعام نتيجة مرض كأن يكون في حلقه ورمٌ، أو يكون في فكّه وجعٌ، أو أنه يتناول الطعام لكن معدته لا تهضمه نتيجة سرطان أو غدة سامة فيها، فلا تقبل الغذاء بل تمجّه بطريق القيء أو تدفعه إلى الأمعاء فيخرج إسهالاً، أو بأمعائه

مرض فلا تمسك الغذاء أو لا تهضمه، فلن ينجو من الموت، لأن الجسم البشري يموت بدون الغذاء. كذلك فإن الذي يترك الصلاة فلا بد أن يموت روحانيًا وإن تركها لعذر. إن بعض الناس يظنون لعدم بصيرتهم أنه إذا كان العذر مقبولاً فلن تظهر أي نتيجة، ولكنه ظن باطل. كلا ستظهر النتيجة سواء أكان العذر مقبولاً أو غير مقبول. فإنك إذا دهنت رأسك بالزيت سواءً اشتريته بمال الحلال أو مال الحرام فلا بد أن يصبح شعرك دهنيا، وليس أنك إذا دهنتَه بزيت اشتريته بمال الحلال فيصبح دهنيا، وإذا دهنته بزيت اشتريته بمال الحرام فيظل جافًّا. كما أنه ليس ممكنًا للثوب الذي اشتريته بمال الحلال أن يستر بدنك، بينما الثوب الذي اشتريته بمال السرقة لا يستره. كلا، بل سيستر الثوب الجسم سواء اشتريته بمال السرقة أو بكسبك الحلال، وتكون النتيجة واحدة.

والحق أن المرء يمكن أن يترك الطعام المادي قائلا: لا بأس لو مِتُّ جوعًا فإن جميع الناس يموتون وإني سأنال حياة الآخرة بعد الموت، ولكنه لو مات موتًا روحانيًا فماذا يفعل إذ لا تعويض للموت الروحاني.

فعليكم أن تواظبوا على الصلاة بالجماعة، واجعلوا أولادكم مواظبين عليها؛ إذ أرى أنه ليس هناك شيء هو أدعى لإصلاح أخلاق الأولاد وعاداتِهم من الصلاة جماعةً. لقد سنحت لي الفرصة لمقابلة كثير من الناس وفحصِ أحوالهم، ثم إن الله تعالى قد جعلني مرهف الحس جدًا بحيث لا يحسّ الذين قد مرّوا بالتجارب لقرن من الزمان ما أستطيع أن أحسه من حلو الدنيا ومُرّها. وها إني أقول بناءً على خبرتي أنه ليس هناك شيء أدعى إلى الصلاح من الصلاة بالجماعة. قد لا أستطيع تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ كما ينبغي، إلا أني أقول إن الذي يواظب على الصلاة بالجماعة مهما بلغ في الذنوب والمعاصي حتى ولو سبق إبليس في الشر، فلا تزال هناك فرصة لإصلاحه. وها إني أقول ثانية إني لا أشك مثقال ذرة في أن من يواظب على الصلاة بالجماعة فستبقى فرصة الإصلاح متاحة له دائمًا مهما بلغ في السيئات. إني موقن بتأثير الصلاة بصدد جعل الإنسان صالحًا لدرجة أني أستطيع أن أحلف بالله تعالى أن المواظب على الصلاة بالجماعة

مهما صار سيء الأعمال فإن إصلاحه ممكن حتمًا، ولا يمكن أن يضيع. وإني أقول على وجه البصيرة أن فرصة إصلاحه متاحة حتى آخر لحظة شريطة أن يكون مواظبًا على الصلاة بحيث يجد فيها لذةً وسرورًا.

أتذكر واقعة حدثت معي في صغري، وهي أن المسيح الموعود عليه السلام مرِض مرة ولم يستطع حضور المسجد لصلاة الجمعة. ولم أكن قد بلغتُ سن البلوغ حتى تسري عليّ أحكام البالغين، فخرجتُ إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، فرأيت في الطريق شخصًا يرجع من المسجد. لم أكن قد بلغت من العمر بحيث أتذكر صورة هذا الرجل إلا أنها لم تغب عني نتيجة تأثير هذا الحادث في قلبي، واسم هذا الشخص محمد بخش، فسألته: لماذا ترجع، هل انتهت الصلاة؟ قال: لا، ولكن المسجد ملآن بالمصلين ولم أجد فيه مكانًا فرجعتُ. فلما سمعتُ قوله رجعت أنا أيضًا وصليت في البيت. فلما رآني المسيح الموعود عليه السلام قال: لِمَ لم تذهب إلى المسجد للصلاة؟ وإنه من فضل الله علي أني كنت منذ طفولتي أكنّ احترامًا عظيمًا للمسيح الموعود عليه السلام بصفته نبيَّ الله تعالى. فوجدت في نبرته شدة، وفي وجهه آثار الغضب، فكان لسؤاله وقع كبير في قلبي، فأجبتُه: لقد ذهبت ولكنني رجعت لأن المسجد كان ملآنًا بالناس ولم يوجد فيه مكان. فسكت المسيح الموعود عليه السلام. ولكن بعد صلاة الجمعة لما جاء المولوي عبد الكريم رضي الله عنه لعيادة المسيح الموعود عليه السلام فإن ما سأله حضرته عليه السلام هو: هل حضر الناس المسجد بكثرة اليوم؟ فخفت خوفًا شديدًا لأني لم أذهب إلى المسجد بنفسي، وكنت لا أدري ما إذا كان الرجل الذي أخبرني قد أخطأ أو أكون قد أخطأت أنا في فهم قوله؛ ولو لم يكن المسجد ملآن فسيقال وفي كلتا الصورتين أني قد كذبتُ. ولكن المولوي عبد الكريم قال في الجواب للمسيح الموعود عليه السلام: نعم يا مولاي، بالفعل قد حضر الناس اليوم بكثرة. وأنا لا أعلم حتى اليوم الأمر الواقع، إلا أن الله تعالى قد برّأ ساحتي بشهادة من المولوي عبد الكريم. على أية حال، لقد ترك هذا الحادث أثرًا عميقًا في قلبي لا أزال أحس به حتى اليوم، وهو يبين لنا مدى اهتمام المسيح الموعود عليه السلام بالصلاة بالجماعة.

إن الذي لا يصلي بالجماعة رغم بلوغه سن الرشد فهو منافق، أما الذين لا يعوّدون أولادهم على الصلاة بالجماعة فهم القَتَلة السفّاكون لدمائهم. لو أن الوالدين ربّوا أولادهم على الصلاة بالجماعة فلن يأتي عليهم وقت يقال فيه أن إصلاحهم مستحيل ولا علاج لهم.

لا شك أن المسلمين اليوم يصلون في المساجد، ثم لا يتورعون أيضًا عن كثير من المعاصي بعد خروجهم من المساجد، فيكذبون ويرتشون ويخدعون ويغشّون ويخونون في المعاملات والتجارات؛ ولكن سبب ذلك أنهم لا يؤدون الصلاة بشروطها التي وضعها الإسلام، ولو صلّوا بشروطها لتطهرت قلوبهم وزالت أدران معاصيهم ونجوا من شتى الذنوب والآثام، لأن الذي يحسن أداء الصلاة مراعيًا شروطها التي وضعها الله يجد في نفسه تغييرًا سريعًا، ولا تمضي أيام كثيرة حتى يكتسب ملَكةً خاصة تمكّنه من معرفة السيئات، فيطّلع بها على دقائق المعاصي والآثام التي لا يطّلع عليها الآخرون، وتحذّره الملائكة من كل إثم وتنبهه عند كل شرّ، وينال القوة لمحاربة الشيطان. ذلك لأن المصلي يقوم بتسبيح الله وتحميده، والله لا يترك أي عمل بدون جزاء، بل يجزي العبد على أعماله أفضل جزاء. عندما ينيب العبد إلى الله تعالى في صلاته بكمال التذلل والخشوع والخضوع متخذًا جميع الأشكال التي تتبعها مختلف الشعوب لإظهار عبوديتهم لله تعالى فإنه تعالى يرفعه عاليًا. فإذا سبّح الله تعالى قال الله تعالى لملائكته: إن عبدي قد سبّحني من كل عيب ونـــزّهني من كل منقصة، فطهِّروه من العيوب، وإن عبدي حمدني فانشروا حمده في الدنيا، وإن عبدي تذلل وتواضع لي فاكتبوا له العزة والرفعة. فكلما واظب المرء على الصلاة وأقرّ بسبوحية الله وحمده وعظمته جعل الله كفّة حسناته ثقيلة ورفعه باستمرار. وحيث إن الإثم ليس إلا نتيجة تعلُّق الإنسان بالأشياء المادية، فكلما ترفّع المصلي عن العالم المادي ضعفت علاقته بالأشياء المادية وصار محفوظًا منه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾.. أي أن ترك الفحشاء والمنكر غاية عظيمة، ولكن ذكر الله تعالى في الصلاة أكبر من ذلك.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، فكلما تذكرونه يذكركم ويشرفكم بقربه وإلهامه ويهيئ الأسباب لإصلاحكم وإصلاح قومكم. لقد أمر الرسول ﷺ بقراءة قوله تعالى "اذكُروا الله يذكركم" أثناء الخطبة الثانية للجمعة، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:١٥٣).. أي اذكروني أشرّفكم بقربي وأدفع عنكم كل أذى ومصيبة. والظاهر أن الذي يحظى بقرب الله تعالى سيتخلص من كثير من المعاصي، وسيخصّه الله تعالى بحبه ووداده. ومن أجل ذلك قد حثّ الإسلام كثيرًا على ذكر الله والعبادة في جميع الاجتماعات والمجالس. فعندما نذهب إلى الحج نقوم بذكر الله، وعندما نخرج للعيدين نقوم بذكر الله، وعندما يكون هناك زواج وعرس نؤمر بذكر الله، وعندما نخرج في جنازة نؤمر بذكر الله. وكأن النبي ﷺ قد وصف لجميع اجتماعاتنا كثرة ذكر الله والعبادة حتى تكون مباركة، ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ ما من مجلس يذكر فيه الله تعالى إلا ونـــزلت فيه الملائكة. فمن واجب المؤمن أن يقضي أوقاته بحيث يجري ذكر الله على لسانه ويزداد رغبة في الصلوات. إن ذكر الله تعالى هو بمثابة ضغط زر الإضاءة، فإذا ضغطت عليه أضاءت الغرفة، وإذا لم تضغطه ظل الظلام مخيّمًا عليها. كذلك إذا لم تقم بذكر الله تعالى لن تضيء نفسك. فعوِّدوا أنفسكم على ذكر الله دائمًا لتزدادوا صلة بالله تعالى، وتتقوى عزيمتكم، وليكون في نظراتكم تأثير ويُلقى رعبكم في قلب العدو حتى يعترف الأعداء أيضًا أن هؤلاء أمة روحانية فعلاً.

وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ
وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٧﴾

التفسير: إن أول من وجه إليهم القرآن الكريم دعوته هم اليهود والنصارى، ولذلك ذكر الله هنا أهل الكتاب على وجه الخصوص بعد قوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، فأوضح أنكم عندما تتلون القرآن الكريم على أهل الكتاب فلا بد أن يتطرق الحديث إلى المقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل ويبدأ النقاش والجدال بين الطرفين؛ فنوصيكم ألا تقدّموا أثناء نقاشهم إلا أقوى الأدلة وأحسنها لأن عندهم كتابًا سماويًا أيضًا؛ لا شك أنه قد أصبح محرفًا إلا أنه لا يزال فيه شيء من كلام الله تعالى. فعليكم أن تضعوا القرآن الكريم بالحسبان دائمًا لدى نقاشهم لأن الأدلة القرآنية تبلغ من القوة بحيث لا يمكن أن تُباريها الأدلة الإنجيلية. فقوله تعالى: ﴿إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إشارة إلى الأدلة القرآنية بدليل قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾(الزمر:٢٤).. أي أننا نسنّ هذا القانون ولكن لا نفرضه على الناس بالجبر إظهارًا لقوّتنا وسلطاننا، بل هو مجموعة أفضل ما يمكن قوله دينًا ودنيا وعقلاً ونقلاً وروايةً ودرايةً، مما يحتاجه الصغار والكبار والذكور والإناث، ولن يُلغَى هذا القانون إلى يوم القيامة. تسنّ الحكومات في الدنيا قوانينها بعد دراسة طويلة عميقة، ولكن تلغيها بنفسها بعد فترة، ومثاله ما حصل في أمريكا حين حاولت الحكومة جاهدةً منع الناس من شرب الخمر بسن قانون، ولكنها اضطرت في الأخير إلى إلغاء هذا القانون ورفع الحظر. بينما يعلن الله تعالى هنا أن القانون الذي نسنّه هو أحسن الحديث.. أي أنه مشتمل على ما هو خير وأفضل، وأنه منزه عن كل نقص وعيب، ويسدّ حاجات الناس كلها، ثم إنه ليس مما يُنسَخ أو يُبدَّل بعد قرن أو عشرة قرون، بل هو قانون دائم أبدي.

باختصار إن قوله تعالى: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني الأدلة القرآنية.. حيث يأمرنا الله تعالى أن نحاور أهل الكتاب بناء على هذه الأدلة، لا جزافًا بغير هدى.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.. أي أنه يوصينا أساسًا ألا نلجأ إلى القسوة في الحوار بل ينبغي أن ينحصر حديثنا في الأدلة والبراهين، ولكن يوجد في الدنيا بعض الظالمين الذين لا يتورعون عن الإساءة إلى أنبياء الآخرين وصلحائهم، فإذا كان الخصم سيئ الأدب بذيء اللسان فيمكن تبكيته بجواب قاسٍ. ومثاله ما فعله المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر مع القساوسة المسيحيين، فإنهم لما أثاروا مطاعن شنيعة نجسةً ضد النبي ﷺ وجرّحوا قلوب ملايين المسلمين بسهام بذاءتهم، واعتبروا النبي ﷺ - والعياذ بالله - دجالاً وكذابًا، وتجاوزوا الحدود كلها في بغضهم وحقدهم تجاه الإسلام ومؤسسه ﷺ وقاموا بتأليف كتب وسخةً وقحةً مثل كتاب "أمهات المؤمنين"، تصدى لهم المسيح الموعود عليه السلام وقام بإفحامهم وتبكيتهم بأجوبة قاسية. فلكي يكشف عليهم زيف دعاواهم بيّن لهم أن يسوع الذي يعتبرونه إلهًا لا يبدو طاهرًا ولا ذا خُلق بحسب أناجيلهم.

وكان طبيعيًا أن يرفع المسيحيون عقيرتهم لدى سماع هذا الجواب القاسي، ولكن المؤسف أن بعض المسلمين أيضًا لم يدركوا الحكمة وراء جوابه عليه السلام، وأخذوا يقولون أنه - والعياذ بالله - قد أساء إلى المسيح الناصري عليه السلام. مع أن حضرته عليه السلام قد قام بتبكيت هؤلاء القسس المعتدين بجوابه القاسي عملاً بهذه الآية القرآنية، حيث استثنى الله تعالى هنا المعارضين بذيئي اللسان المعتدين، وقال للمسلمين ينبغي أن تقدّموا أدلّتكم بالرفق والمحبة، ولكن إذا لجأ الخصم إلى السباب والبذاءة وأخذ يهاجم الإسلام وشخصياته المقدسة فيجوز لكم إفحامه وتبكيته بجواب قاسٍ مناسب. ومن أجل ذلك ترى أن القرآن الكريم أيضًا قد اتبع النبرة القاسية في بعض الأماكن، فمثلاً قد ورد في القرآن صراحة أن المعارضين لما اعترضوا على النبي ﷺ قائلين: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾(الفرقان:٨)، قام القرآن بتبكيتهم وقال إن الرسل السابقين أيضًا كانوا يأكلون ويشربون وكان لهم زوجات وأولاد. كما أن الأسلاف أيضًا قد اتبعوا الأسلوب القاسي في القرون الماضية. فهناك واقعة تاريخية شهيرة بأن ملك الروم كتب مرة إلى سلطان المسلمين بأن يبعث إليه أحدًا من علماء المسلمين لأنه يريد البحث في الإسلام. فأرسل

السلطان أحد العلماء. وكان النصارى قد دبروا خطة ليفضحوا العالم المسلم. فلما اجتمع الناس في بلاط الملك قام أحد القسس وقال: أيها الشيخ، لقد تعرضت عائشة زوجة رسولكم للتهمة، وكان المتهمون من قومكم أيضًا، فيبدو أن في تهمتهم وزنًا وقوة. وكان العالم المسلم ذكيًا، وربما هو الإمام ابن تيمية أو أحد أصحابه، فقال: جناب القس، هناك في التاريخ امرأتان متهمتان، إحداهما ذات بعل لقد اتهمها الخبيثون ولكنها لم تضع أي ولد، أما المرأة الأخرى كانت بدون زوج فاتهمها أعداؤها ووضعت ابنًا! فهلا أخبرتني الآن أيتهما قد اتُّهمت بتهمة حقيقية؟ فندم القس جدًا وبُهت، وقال: حضرة الشيخ، إنك تقسو في الجواب، مع أني لم أقصد الإساءة إلى أحد فيما قلت.

وقد وقعت معي أيضًا واقعة مماثلة. فذات مرة جاءني أحد الإنجليز وقال: أريد أن أناقشك عن الإسلام شريطة أن لا تجيبني جوابًا تقصد به إفحامي وتبكيتي فقط. فقلتُ: إذا لم تهاجم الإسلام لن أجيبك بما يبكّتك. فبدأ الحوار، ولكنه بعد قليل بدأ يهاجم النبي ﷺ، فهاجمتُ يسوعَ في الرد عليه، فاحمرّ وجهه وقال: لا أطيق سماع شيء ضد المسيح عليه السلام. فقلت: لقد وعدتُك أني لن أهاجم المسيح إذا لم تهاجم محمدًا ﷺ، فوفيت وعدي و لم أتكلم ضد المسيح بشيء، ولكنك أخلفتَ وعدك وهجمت على محمد ﷺ؛ فإذا كنت تغار لكرامة المسيح عليه السلام فهل تظنني عديم الغيرة بحيث أسكت على هجومك على الإسلام وكرامة محمد ﷺ؟ إذا هجمت على محمد ﷺ مرة من أجل المسيح فإني سأهاجم المسيح عشرين مرة تأييدًا لمحمد رسول الله ﷺ. فخرج من عندي قائلاً: لا أطيق سماع قول يسيء إلى المسيح عليه السلام.

إذًا، فلا يصحُّ الاعتراض على تبكيت المسيح الموعود عليه السلام للنصارى بجواب قاسٍ. كما أن كلماته القاسية ليست موجهة إلى كل واحد من صلحاء الطوائف وشرفائها المهذبين، وإنما خاطب بها أولئك القوم الذين أساؤوا الأدب وطعنوا في الإسلام بوقاحة. وقد صرح حضرته عليه السلام بنفسه ما نصُّه:

"نعوذ بالله من هتك العلماء الصالحين، وقدحِ الشرفاء المهذّبين، سواء أكانوا من المسلمين أو المسيحيين أو الآرية، بل لا نذكر من سفهاء هذه الأقوام إلا الذين

اشتهروا في فضول الهذر والإعلان بالسيئة. والذي كان هو نقيّ العرض عفيف اللسان، فلا نذكره إلا بالخير ونُكرمه ونُعزّه ونحبّه كالإخوان". (لُجّة النور، الخزائن الروحانية المجلد ١٦ ص ٤٠٩).

ثم يقول عليه السلام ما تعريبه:

"ليس كلامنا في هذا الكتاب وفي كتيب "فرياد درد" موجهًا إلى القسيسين الشرفاء وغيرهم من المسيحيين الذين يتجنبون لمروءهم الشخصية فضولَ الكلام وبذاءة اللسان ولا يؤذوننا بالكلمات الجارحة، ولا يسيئون إلى نبينا ﷺ، وليست كتبهم مليئة بالكلام القاسي المسيء. كلا، بل إننا نُعزّهم ونكرمهم بلا ريب، وكلامنا القاسي ليس موجهًا إليهم أبدًا، وإنما كلامنا موجه إلى الذين قد تعدّوا حد الاعتدال سواء أكانوا ممن هم مسلمون باللسان أو من المسيحيين، والذين يوجهون إلينا مطاعن شخصية سخيفة، أو يستخدمون في حديثهم أو كتبهم كلمات بذيئة مسيئة إلى كرامة نبينا ﷺ. فليس كلامنا موجهًا إلى الشرفاء الذين لا يتبعون طريق البذاءة واللؤم، لا في هذا الكتاب ولا في غيره من الكتب، لا صراحةً ولا تلميحًا." (أيام الصلح صفحة الغلاف الداخلية، الخزائن الروحانية المجلد ١٤ ص ٢٢٨).

ونظرًا إلى الشرح الوارد أعلاه يُعتبر الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناءً متصلاً، وهذا هو رأي المفسرين أيضًا؛ ولكن يمكن اعتباره استثناءً منقطعًا كما عند العلامة أبي البقاء.. أي يكون الكلام من هنا جملة جديدة، والمعنى لا تخاصموا الظالمين منهم وقولوا لهم تؤمنون بكتاب الله ونؤمن أيضًا بكتاب الله، وإلهنا وإلهكم واحد، ولا نريد جدالكم، إذ ما الفائدة من الجدال؟ أي أنهم إذا مالوا إلى السباب والبذاءة فلا داعي أن تقسوا عليهم في الجواب، بل الإعراض والصفح عنهم هو الطريق الأمثل.

ثم يوصينا الله تعالى أنه عند مناظرة أهل الكتاب: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.. أي نؤمن بالوحي الذي أُنزل إلينا كما نؤمن مبدئيًا بالوحي الذي أُنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مطيعون، فما الفائدة من الجدال فيما بيننا؟ تعالوا نعمل معًا على

نشر رسالة الإله الواحد. وقد أوضح الله تعالى هذا الأمر في موضع آخر من القرآن الكريم فأمرنا أن نقول لهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٥).

لا شك أنها آية وجيزة، ولكن التدبر يكشف لنا أنها دليل ساطع على أن الإسلام يرضى بالحق دائمًا. ويعلم الذين قد درسوا الإسلام أن الله تعالى قد عدَّ اليهود في القرآن الكريم ألدّ أعداء المسلمين في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾(المائدة:٨٣). وبالفعل نجد أن اليهود قد عارضوا النبي ﷺ بمنتهى الوقاحة وبطرق شتى، رغم معاملته الكريمة معهم. فإن معظم الحروب قد نشبت بتحريض من اليهود، بل هم الذين قد أغروا كسرى إيران على قتل النبي ﷺ دالّين على خبث باطنهم، بيد أن الله تعالى قد سوّد وجوههم وخيّب آمالهم. وهم الذين لعبوا دورًا قياديًا في غزوة الأحزاب أيضًا، إذ لم يجتمع العرب كلهم ضد المسلمين من قبل. الواقع أنه لم يكن عند قريش مكة نظام قوي حتى يحشدوا هذه القوى، وإنما تمّ ذلك بتدبير من قبل القبائل اليهودية المنفية من المدينة، فجمع هؤلاء قريشًا وغطفان وبني سليم وبني أسد وبني سعد وغيرها من القبائل العربية القوية، وجاءوا بها على أبواب المدينة. لا شك أن الله تعالى قد سوّد وجوه اليهود عندها أيضًا إلا أنهم لم يألوا جهدًا في عداء المسلمين. لقد كان أهل مكة هم الأعداء الحقيقيون للرسول ﷺ، ولكنهم لم يسعوا قط لقتله خداعًا. بل عندما فقَد النبي ﷺ كل حقوقه المدَنية بحسب قانون مكة بخروجه إلى الطائف، واضطر للعودة إلى مكة ثانية، خرج أحد رؤساء مكة لمساعدته رغم كونه عدوًا شديدًا له، فأعلن أنه يمنح محمدًا - ﷺ - الأمان. فدخل بالنبي ﷺ مكة مع أبنائه الخمسة قائلا لهم: لا شك أن محمدًا عدو لنا، ولكن المروءة العربية تفرض علينا أن نُجيره ما دام قد طلب منا الجوار، وإلا لن تبقى لنا عزة ولا كرامة. فموتوا دون محمد لو حاول أحد الهجوم عليه. هذا هو العدو العربي الشريف. بينما نجد اليهود الأشقياء - الذين اعتبرهم القرآن الكريم أكبر عدو للمسلمين - قد دعَوا نبينا ﷺ في ديارهم بحجة التصالح

معه، وحاولوا قتله بإلقاء حجر الرحى عليه مِن على السطح، ولكن الله تعالى أخبره بمكيدتهم، فخرج من عندهم بسلام. كذلك دعته امرأة يهودية إلى طعام دسّت فيه السم، فأنقذه الله تعالى هذه المرة أيضًا. وهكذا أخرج الله أضغان الشعب اليهودي (البداية والنهاية: في ذهابه ﷺ إلى أهل الطائف، والسيرة الحلبية: المجلد الثاني ص ٦٢٨، غزوة الخندق، والسيرة النبوية لابن هشام: غزوة الخندق- وأمر إجلاء بني النضير، وبقية أمر خيبر).

ومن الواضح أنه لا سبيل للتعاون مع هذا العدو اللدود، ورغم هذا الخلاف الشديد يدعو القرآن الكريم اليهود إلى الاتحاد، فيقول هنا لنبيه ﷺ: قل لليهود الذين يعادونك هذا العداء الشديد، وقل للنصارى الذين يرمونك بالكذب والافتراء، إنكم تعتبرونني مفتريًا كذّابًا، ولكنكم تؤمنون بربي، فتعالوا نعمل معًا على إرساء وحدانية هذا الإله الواحد في العالم. وإذا لم يتحدوا معك رغم هذه الدعوة للاتحاد فقل سنطيع أمر الله تعالى في كل حال.

والآيات قيد التفسير أيضًا ترشد إلى الأمر نفسه؛ حيث بيّن الله تعالى أنه إذا لم يكن لكم بدٌّ من مناظرة أهل الكتاب فجادِلوهم بالأدلة القرآنية، وإن كان الأفضل أن تقولوا لهم: ما الجدوى من النقاش عبثًا؟ فإننا موحدون وأنتم أيضًا موحدون، ونؤمن بكلام الله كما تؤمنون بكلامه، بل نحن أشد إيمانًا بما نزل عليكم وعلينا من الوحي، فلماذا نضيع الوقت في المناظرات. تعالوا ننشر وحدانية الله تعالى بين الشعوب التي لا تؤمن بالله الأحد.

إنه لمن المؤسف أنه قد مضى على نزول هذا التعليم في القرآن الكريم ثلاثة عشر قرنًا إلا أن اليهود والنصارى لم يقبلوا هذه الدعوة قط. عندما سافرت إلى أوروبا للعلاج عام ١٩٥٥م دُعيت لإلقاء محاضرة في إحدى الكليات، وقد حضرها كثير من المثقفين. لقد أصرّوا علي أن ألقي كلمتي باللغة الإنجليزية فرضيت بذلك بسبب إلحاحهم وإن كنت لست معتادًا على ذلك. وكان الطلبة من بلاد مختلفة كألمانيا وفرنسا وسويسرا وأستراليا، وكان بعضهم من اليهود. وكانت هناك ترتيبات لترجمة خطابي إلى شتى اللغات ترجمة فورية، فكان صوتي يصل عبر المذياع إلى غرف الترجمة وكان هناك علماء يقومون بترجمتها الفورية إلى لغات مختلفة،

وكان أهل تلك اللغات يسمعونها بالسماعات. وقد وجهوا إلي إثر المحاضرة أسئلة كثيرة. فسألني بعضهم: إن ما بيّنتَ من تعاليم الإسلام هو نفسه ما تقدّمه اليهودية والمسيحية، فلماذا هذا النـزاع إذاً؟ ولماذا نرى المسلمين والنصارى واليهود يتبادلون السباب والشتائم فيما بينهم؟ إن هذا النـزاع يعني أن الدنيا لا تؤمن بإله موسى ولا بإله عيسى ولا بإله محمد! لماذا لا يُنهون هذا النـزاع و لم لا يقولون تعالوا نؤمن بإله واحد ونعبده بصدق متمسكين بديننا؟

فقلت: لقد سرّني سؤالك، لأن الله تعالى قد أخبر محمدًا رسول الله ﷺ قبل ثلاثة عشر قرنًا بنفس الحل للقضاء على هذه النـزاعات، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾(آل عمران:٦٥). لقد اقترح محمد ﷺ هذا الحل قبل ثلاثة عشر قرنًا ودعا إليه أهل الكتاب كلهم، ولكن آباءكم رفضوا دعوته. فبدلاً من أن توجهوا إلينا هذا السؤال اسألوا آباءكم وكباركم لماذا رفضوا هذا الاقتراح الرائع الذي عرضه عليهم محمد ﷺ؟ فمسؤولية عدم الاتحاد لا تقع علينا وإنما تقع على آبائكم، إذ إن هذه الدعوة موجودة في القرآن الكريم منذ ثلاثة عشر قرنًا. فيجب أن توجهوا شكواكم إلى آبائكم لا إلينا.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

التفسير: أي أنـزلنا عليك هذا الكتاب الآن كما أنـزلنا التوراة على موسى من قبل. فكأن شخصك كجبل الطور حيث يكلّم الله تعالى في هذا الزمن. فالسعداء الذين أعطيناهم هذا الكتاب.. أي أتباع محمد.. يوقنون بصدق كل كلمة من هذا الكتاب، ويفدونه بأرواحهم، بل إن بعضًا من أهل الكتاب – علمًا

أن ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ تبعيضية - يعتبرون القرآن الكريم مصداقًا لنبوءات موسى ويؤمنون به، مثل عبد الله بن سلام ﷺ الذي كان أحد أحبار اليهود (البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم). بينما يوجد في أهل الكتاب من يكفرون بالقرآن تعصبًا وعنادًا وهم يعلمون أنه حق، وإن هؤلاء هم في الحقيقة أول الجاحدين بنعمة الله تعالى إذ رأوا بأم أعينهم أن هذا الكتاب أحدث في الدنيا ثورة عظيمة، وأعاد الحياة إلى الأرض الميتة، ولكنهم لا يجدون الشجاعة للإيمان به رغم رؤية هذه الآية العظيمة. فثبت أنهم يكفرون بنعمة الله، والحق أن أمثالهم هم الذين يكذبون بآيات الله البينات.

وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٩﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

التفسير: واعلم أن النفي هنا ليس لمجرد التلاوة، بل شرح لقوله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة:٣).. حيث بين الله تعالى أن من أدلة صدق محمد ﷺ أنه لم يكن قادرًا على قراءة كتاب أو كتابة شيء بيده.. أي كان أُمِّيًا لم يحصل على العلوم المادية مطلقًا، ولولا ذلك لاشتبه أمره على المنكرين وقالوا: لعله نال هذه العلوم من الصحف الأخرى، ولكن لم يبق في هذه الحالة مجال لأي شبهة.

واعلم أن التلاوة نوعان: أولهما قراءة في كتاب، وثانيهما ترديد كلام وراء شخص آخر وإن كان الذي يُردده أعمى أو أُمِّيًا. فمثلاً لو قرأ شخص أُمِّيٌّ ما حفظ من القرآن عن ظهر قلب فهذا أيضًا تلاوة، وكذلك لو قرأ أعمى ما حفظه من القرآن عن ظهر قلب فهو أيضًا تلاوة. فما يتلوه الإمام في الصلاة من القرآن الكريم لا يتلوه بالنظر إلى المصحف بل يقوم به عن ظهر قلب. وعليه فقوله تعالى:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِه مِنْ كِتَابٍ﴾ نفي للتلاوة بنوعيها، تلاوة قراءة وتلاوة عن ظهر قلب.

واعلم أن لفظ ﴿الكتاب﴾ قد ورد في القرآن الكريم دائمًا بمعنى الكتب المنزلة من الله تعالى وليس بمعنى الكتب المادية، اللهم إلا في مكان واحد فقط حيث ورد بمعنى المكتوب. وعليه فالمراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِه مِنْ كِتَاب﴾ أنك لم تتلُ أي كتاب من الكتب السماوية قط. وقد أكد الله تعالى هذا الأمر لأن معارضي النبي ﷺ كانوا يتهمونه بأنه يقرأ عليهم ما ورد في التوراة والإنجيل زاعمًا أنه قد أوحي إليه؛ بل لا يزال المسيحيون يرددون هذا الاعتراض حتى اليوم. لقد تناول الله تعالى هذا الاعتراض في مكان آخر من القرآن الكريم حيث سجل قول الكافرين: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصيلاً﴾(الفرقان:٦).. أي أن أناسًا يقرأون على محمد (ﷺ) آيات التوراة صباحًا ومساءً فيعيدها علينا.. أي أنه يسرق هذه الأمور من كتبنا مدعيًا أن هذا وحي أوحي إليه. فيرد الله عليهم ويقول أليس غريبًا أن رسولنا يعيش ويتكلم مع الأمّيين طوال النهار، من دون أن يذكر شيئًا من التوراة والإنجيل، وفي الصباح يذكر لهم الأحداث التي وردت في تلك الكتب بحيث يصحح ما ارتكبته من أخطاء في بيانها، وينبه إلى الأمور التي أغفلتها في سردها؟ وهذا يعني أنه لا ينقل عن هذه الأسفار فحسب، بل يتدارك أخطاءها، ويزيل غبار التحريف الذي تراكم فيها على وجوه الأنبياء الكرام بأيدي اليهود والنصارى على مر الأيام.

ثم هناك مسائل من التوراة كان اليهود قد أهملوها في ذلك الوقت. فمثلاً ورد في الحديث أن يهود المدينة جاؤوا النبي ﷺ مرة بزان، فقال لهم: ما هي عقوبة الزاني في التوراة؟ قالوا: ليس عندنا أي عقوبة للزاني. فأمرهم أن يأتوا بالتوراة. فلما فتحوها خرجت بالمصادفة نفس الصفحة التي ورد فيها أن عقوبة الزاني الرجم. فوضع أحد اليهود يده على هذه العبارة، ففطن لفعله الصحابي عبد الله بن سلام ، فقال له: ارفع يدك. فرفعها فوجدوا هناك حكم الرجم للزاني (مسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود). فإذا كان معظم اليهود يجهلون مثل هذه المسائل الكبيرة

فما بالك بالمسائل الدقيقة؟ وكيف يقال أن النبي ﷺ كان يتلقن منهم هذه العلوم؟ وليس هذا فحسب، بل ورد في الحديث أن عمر رضي الله عنه قرأ التوراة أمام الرسول ﷺ فسخط عليه سخطًا شديدًا (المشكاة: كتاب العلم، باب الاعتصام بالكتاب والسنة). فكيف يتصور والحال هذه أن النبي ﷺ كان يتلقن مسائل التوراة من علماء اليهود؟

باختصار إن الله تعالى قد ردّ هنا على المعارضين بأنهم يتهمون محمدًا بأنه قد علم هذه المسائل بقراءة التوراة والإنجيل، مع أن قراءته هذه الأسفار مستحيلة؛ فهو أُمّي لا يعلم القراءة والكتابة. ولو سلّمنا جدلاً أنه كان يقرأها فعلاً فكان ضروريًا أن يذكر للآخرين أيضًا ما ورد فيها من أحداث ومسائل، لأن المرء إذا أراد أن يتعلم علمًا فلا يلمّ بجميع مسائله في يومين أو ثلاثة، بل يتطلب هذا أن يدرس دراسة متعمقة لسنة أو سنتين، وأن يناقش ما يتعلّمه مع الآخرين، ولكنكم تعلمون أن رسولنا لم يناقش أحدًا في هذه المسائل قط، فكيف أخذ يتحدث عنها الآن فجأة؟ فثبت أن مصدر معلوماته ذاتٌ عليا هي أعلم من جميع علماء الدنيا، وإلا فإن رسولنا لا يستطيع قراءة كتاب بلغته الأم، فكيف يقرأ كتابًا بلغة أخرى؟

وباختصار إن قول الله تعالى هنا: ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني الأسفار السماوية، حيث نبّه الله تعالى هنا أعداء الإسلام أن رسولنا هذا يعيش بينكم، فهل سمعتموه من قبل وهو يتحدث عما ورد في التوراة والإنجيل؟ فكيف تمكن في ليلة واحدة من معرفة ما ورد في هذه الأسفار؟ وكيف تعلم لغتها وحفظ محتوياتها في ليلة واحدة؟ وإذا كان قد حصل هذا فعلاً، فهو في حد ذاته معجزة. ولكن الواقع أنه كان يجهل كل هذه الأمور من قبل، ولم يناقشها مع أحد من قبل، فالسؤال الذي يفرض نفسه: من ذا الذي يمكن أن يُعلّمه التوراة؟ إذ لم يكن في مكة إلا شخص واحد كان ينقل أجزاء من التوراة من العبرية إلى العربية وهو ورقة بن نوفل، ومع ذلك كان لا يعرف كل ما ورد في التوراة أيضًا.

ثم إن النبي ﷺ لما رأى بعد بعثته بعض المسلمين يقرأون التوراة منعهم من ذلك لكي لا تختلط مسائلها بمسائل القرآن.. كأن تكون هناك مسألة في التوراة فيظن الناس أنها في القرآن، أو يحدث العكس. كما نهى ﷺ أصحابه عن كتابة أحاديثه

مخافة أن تختلط أحاديثه بوحي القرآن الذي كان ينــزل عليه (مسند أحمد: مسند أبي سعيد الخدري: الحديث رقم ١١١٠١).

أما قوله تعالى: ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾، فهذا النفي عام أيضًا.. والمعنى أن محمدًا لم يكتب أيضًا أيًّا من الكتب السماوية قط. وكان هذا النفي ضروريًا إذ قد يظن البعض أن محمدًا (ﷺ) كان يؤلف القرآن الكريم مما ترجمه ورقة بن نوفل من التوراة (البخاري: كتاب بدء الوحي). ذلك أن المرء لا يفهم أحيانًا عبارة ما، ولكنه يستطيع نقلها ونسخها، شأن الناسخين عندنا الذين لا يفهمون معنى العبارة التي ينسخونها؛ ومن واظب على نسخ كلام غريب هكذا تمكن من فهم بعض الكلمات أيضًا. فمثلاً أنا لا أفهم اللغة العبرانية، ولكنني أفهم بعض كلماتها المشابهة للغة العربية، كقول المسيح عليه السلام: "إيلي إيلي لِما شبقتَني" (متى ٢٧: ٤٦)، إذ توجد بين هذه الكلمات العبرية والكلمات العربية مشابهة فإنها تعني بالعربية: "إلهي إلهي لماذا سبقتني وتركتني وراءك. إذًا، فيقول الله تعالى هنا لرسوله الكريم ﷺ إنك لم تكن قادرًا على نسخ هذه الكتب أيضًا حتى تعرف شيئًا مما فيها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ﴾.. أي أن هذا القرآن يشتمل على التعاليم التي عندما يسمعها أصحاب العلم السماوي يشعرون في قلوبهم فورًا أنها كلام الله تعالى فعلاً، ولا يكفر بها إلا الظالمون.. أي إذا لم يكن هذا الكلام من عند الله تعالى فكيف تفجرت من خلال القرآن عيون العلم والعرفان من صدور القوم الذين يخشون الله تعالى؟ إن هذا لا يتأتّى إلا بتأييد رباني، ولا يحظى بالتأييد الرباني إلا الكلام الذي ينــزل من عنده.

وبالجملة إن هذه الآيات تفند الاعتراض الذي يثيره أعداء الإسلام عادة أن محمدًا ﷺ قد ذكر هذه القضايا في القرآن بناء على ما قرأه في التوراة والإنجيل وسمعه من الناس، حيث بين الله تعالى أن القرآن يحتوي على علوم ومعارف لا أثر لها في الأسفار السابقة، فكيف يصحّ اعتراض النسخ والنقل؟ فمن واجبهم أن يُثبتوا أوّلاً أن هذه المعارف والحقائق موجودة في كتبهم. فما دامت كتبهم خالية من المعارف

القرآنية فكيف يصح قول اليهود والنصارى أن محمدًا (ﷺ) قد سرقها من كتبهم؟ فقولهم يماثل القول أن الشمس تستمد ضوءها من السراج.

وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

التفسير: أي يقول لك الظالمون لِمَ لا تنـزل على هذا الرسول آيات من ربه؟ فقل لهم يا محمد، لا تعنون من الآية إلا آية العذاب، واعلموا أن مثل هذه الآيات أيضًا عند الله، أما أنا فليس عليّ إلا الإنذار. ثم ألا يكفيهم آيةً أننا أنـزلنا عليك كتابًا كاملاً فيه رحمة وهداية لهم؟ فهل بقيت هناك حاجة ليتوجهوا إلى جهة أخرى وقد أعطيناهم ما لا نظير له.. أي أنـزلنا لهم كتابًا كاملاً يتلى عليهم. إن الناس يذهبون إلى النهر، ولكن قد جاءهم النهر بنفسه، ويذهبون إلى الأساتذة ملتمسين منهم أن يعلّموهم، ولكن الله تعالى قد أرسل إليهم أستاذًا وأمَره: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(المائدة:٦٨).. أي اذهبْ بنفسك إلى الناس وبلّغهم هذه الأمور كلها، واعلم أنك إذا قصّرت في تبليغ شيء مما نـزل عليك فسنقول لك إنك لم تبلغ شيئًا من رسالتنا. وهذا يعني أن أستاذنا ومولانا يأتينا في بيوتنا لتعليمنا.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً﴾.. أي أن التدبر سيكشف لكم أن ما أمرنا به رسولنا لمنّةٌ عظيمة عليكم؛ ولذلك ترى أن نبينا ﷺ قد سُمّي في القرآن الكريم ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٨). والحق أنه ينطبق على هذه المنة الإلهية مثلٌ شهير في لغتنا البنجابية ما معناه: "تُعطَى الخبز فطيرًا ورغيفين". فالله تعالى قد

أعطانا كتابًا كاملاً من كل النواحي وهو منقطع النظير بين جميع الأسفار السماوية، وليس هذا فحسب، بل أمر رسولَنا ﷺ أن يأتينا في بيوتنا ليعلّمنا إياه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.. أي أن المنّة الثانية أن الذين يؤمنون بهذا الكتاب سيجعل الله لهم العز والشرف في الدنيا. علمًا أن بعض المفسرين قالوا إن المراد من قوله تعالى ﴿ذِكْرَى﴾ أن القرآن الكريم نصيحة عظيمة، ولا اعتراض على هذا المعنى عندي، ولكن كلمة ﴿ذِكْرَى﴾ تعني أيضًا أن الذين يؤمنون بهذا الكتاب بصدق سيجعل الله لهم ذكرًا حسنًا في الدنيا، فسيذكر الناس خدماتهم ومنجزاتهم. وهذا يعني أن هذا الكتاب ليس ذو شرف وعظمة من حيث كمالاته أو محاسنه الذاتية فحسب، بل إن المؤمنين الصادقين به أيضًا سينالون العزة والكرامة في الدنيا.

ولما كان من المحتمل أن يقال كيف يمكن أن يكفي القرآن الكريم الناسَ إلى يوم القيامة، مع أن لكل عصر جديد حاجاته الجديدة وتطوراته الجديدة، فقام رسولنا ﷺ بدفع هذه الشبهة بقوله: إن للقرآن سبعة بطون◈.

والحق أن معظم الناس لم يفهموا معنى هذا القول النبوي كما ينبغي، إذ إن من معانيه أن معارف آيات القرآن الكريم ستتجدد وفقًا لمستجدات كل زمان، ومن أجل ذلك نجد أنه لم ينكشف على السابقين من مفاهيم الآيات الكثيرة ما انكشف على الذين جاءوا في العصور الأخرى. فمثلاً قد أتى المسيح الموعود عليه السلام بمعارف كثيرة جديدة لآيات من القرآن الكريم. فمع أن الآيات القرآنية هي هي، إلا أن الله تعالى قد كشف على حضرته عليه السلام بطونها الجديدة نظرًا إلى مستجدات هذا العصر. ذلك أن الظروف تتغير من زمن إلى آخر، وحيث إن هذا العصر عصر صُلح وسِلْم بالنسبة للدين، فاستخرج المسيح الموعود عليه السلام من القرآن الكريم نفسه

◈ حدثني عبيد الله بن عبد الله: أن ابن عباس رضي الله عنهما حدثه أن رسول الله ﷺ قال: أقرأني جبريلُ على حرف، فراجعتُه، فلم أزل أستزيده ويزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف. (البخاري: فضائل القرآن، باب أُنزلَ القرآن على سبعة أحرف) (المترجم)

أحكام الصلح والسِّلْم وعرَضها على الناس، فأوضح لهم أن الله تعالى قد قال لرسوله ﷺ بكلمات صريحة: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢٣).. أي لم نبعثك لتكره الناس على دينك؛ بل إن من أعرض وكفر فعقابه بيد الله لا بيدك، لأنه تعالى وحده يعلم ما في الصدور. فكان هذا بطنًا آخر للقرآن الكريم كشفه الله ﷻ على المسيح الموعود عليه السلام نظرًا إلى أوضاع هذا العصر، فمنَع من رفع السيف لنصرة الإسلام.

إذًا، فإن من معاني قول النبي ﷺ: إن للقرآن الكريم سبعة بطون أنه ستقع في الدنيا سبعة انقلابات عظيمة، وعند كل انقلاب تتغير أذهان الناس، فيكشف الله تعالى عندها من معاني القرآن الكريم ما يشفي صدور الناس ويُطمئن أذهانهم. وبالفعل قد برزت في هذا العصر عشرات المسائل على شكل لم تبرز به من قبل، ومنها قضية النسخ في القرآن الكريم. لم تكن لقضية النسخ في القرآن الكريم أهمية عند الناس في الماضي، لأن أسوة الرسول ﷺ كانت أمامهم. فرغم وجود عقيدة النسخ لم يصعب عليهم معرفة صدق القرآن الكريم، ولكن عندما ابتعد المسلمون عن زمن النبي ﷺ ولم يستطيعوا تفسير القرآن الكريم بما يتماشى مع التطورات العلمية والعقلية أخذوا يقولون أن كيت وكيت من الآيات منسوخة، فأقام الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام، فأثبت أنه ليس في القرآن الكريم آية لا يمكن العمل بها؛ وفسّر الآيات التي كانت تُعتبر منسوخة بمعانٍ تقبلها العقول بسهولة. فكان هذا بطنًا آخر لتلك الآيات كشفه الله تعالى على المسيح الموعود عليه السلام.

إذًا، فكون القرآن ذا سبعة بطون قد تكون إشارة إلى سبعة تطوّرات عقلية وعلمية، فأخبر الرسول ﷺ أن القرآن سيبقى ثابتًا شامخًا عند كل تطوُّر علمي، ولن يكون بوسع أحد أن يقول أن القرآن عجز عن سدّ حاجات هذا العصر. لا شك أن الأسفار السماوية الأخرى عجزت عن أداء معنى جديد يتفق مع العقول كلما تغيّر الزمن وتطور العقل، وذلك لأن تلك الأسفار لم تعد صالحة للعمل، أما القرآن الكريم فيعلن الله تعالى عنه أنه كلما تغيّر الزمن وتطور العقل وقرأ الناس القرآن

وجدوا فيه من المفاهيم التي تسدّ حاجات ذلك العصر، ويعترف الناس أن القــرآن كاف لهذا العصر ككتاب، وأن محمدًا ﷺ يكفي لهذا الزمن كرسول.

واعلم أن قول الرسول ﷺ إن للقرآن سبعة بطون لا يعني بالــضرورة أن هــذه البطون سبعةٌ حصرًا، كلا بل قد تبلغ هذه البطون المئات والآلاف، ذلك أن عــدد السبع في اللغة العربية يدل على الكثرة، كما هو الحال بالنسبة لقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾(البقرة:٣٠) حيث يعني أنه تعالى قد جعل آلاف الدرجات لرقي الإنسان. فالرسول ﷺ يخبرنا هنا أن الله تعالى قد جعل القرآن الكريم بحيث يكفي أهل كــل عصر، ويغطي أفكار كل زمن، فإذا كانت أفكارهم خاطئة دحضها وإذا كانــت صحيحة دعمها.

إن من أكبر محاسن القرآن الكريم أنه إذا تناول قضية ما جَمَع فيها كل المواضيع المتعلقة بها جمعًا متراكمًا؛ كالأرض التي تنطوي على طبقات عديدة حيث إن تراب كل طبقة يختلف عن الأخرى. فعندما نرى قطعة أرض نعلم ما إذا كان ترابها ناعمًا جيدًا للزراعة ويأتي بريع جيد، أم أنها أرض حجرية لا تصلح للزراعة، كما يمكــن لنا أن نرى ما إذا كانت تصلح للبناء والعمارة، وما إذا كانت القواعد ستُحفر فيها حفرًا عميقًا، وما إذا كانت تتحمل ثقل عدة طوابق أم لا. ولكن أحــد علمــاء طبقات الأرض عندما يحفر تلك القطعة من الأرض سيقول بعد حفر عدة أمتار أنه كان بها ماء قبل ألف سنة مثلاً، وقد عاش بها كذا وكذا مــن الحيوانــات. ثم إذا حفرها عدة أمتار أخرى استنتج من نوعية ترابها بأنها قد تعرضت لكذا وكذا مــن التغيرات نتيجة النار والحرارة أو نتيجة ذوبان المعادن. وكلما حفر تلــك الأرض أكثر وأكثر أخبرَنا بالمراحل التي مرت بها عبر مختلف العصور. فترى أنه يبين لنــا برؤية تربة تلك الأرض أحداث آلاف السنين. والحق أن كــل تلــك الأحــداث والأشياء كانت مختفية تحت الأرض نفسها. ونفس الحال بالنسبة للقرآن الكــريم، فإن مطالبه الكثيرة أيضًا مخفية بين طيّاته.

ولو أن الإنسان أخرج كل ما يختفي في باطن الأرض من أشياء ونشرها علــى سطحها لتعذّر عليه السير على الأرض والعيش فيها. وحيث إن الله تعالى قد جعل

هذه الخفايا كلها في باطن الأرض، فإن الإنسان تمكّنَ من السير والعيش عليها. فعندما نحفر الأرض نجد في باطنها صخورًا كلسية، ولو أُخرجت هذه الصخور من باطن الأرض ونُشرت على سطحها فهل تظن أنها ستبقى صالحة للعيش عليها؟ كلا، بل لملأتها الصخور بدلاً من الناس. كذلك تمامًا لو أُخرجت جميع مطالب القرآن المخفية في طيات كلماته وسُجّلت في كلمات ظاهرة لأصبح القرآن كبير الحجم جدًّا فلم يستطع أحد قراءته، ولم يعُدْ كتابًا بل تحوّل إلى مكتبة ضخمة فيها آلاف الكتب، ولقال جيلٌ من البشر لقد قرأنا منه خمس مئة صفحة، وقال جيل آخر: لقد قرأنا منه ألف صفحة. ولكن القرآن الموجود بين أيدينا كتاب صغير وهو يحتوي في أحد طياته - كالأرض - موضوعًا وفي ثانيها موضوعًا آخر وفي ثالثها موضوعًا ثالثًا؛ وهكذا تحتوي كلماته القليلة آلاف القضايا والمفاهيم، وفي نفس الوقت يحفظه الحفّاظ بسهولة، ويقرأه القرّاء بسرعة. وقد أشار الله تعالى إلى نفس المعنى بقوله في القرآن الكريم: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾(البينة:٤).. أي لم يَفُتْه حُكْم أبدي واحد، بل هو مشتمل على جميع الأحكام التي يمكن أن تنفع الإنسانية إلى يوم القيامة. وللإشارة إلى هذه الميزة القرآنية نفسها قد سمى الله تعالى هذا الكتاب قرآنا مجيدًا في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾(البروج:٢٢)، وأعلن للناس: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾(لقمان:٢٨).. أي لو قُطعت كل أشجار الأرض وجُعلت أقلامًا وتحولت مياه البحار كلها حبرًا وأُضيفت إليها سبعة أبحر أخرى، وكُتبت بهذه الأقلام والحبر كلماتُ الله، وانتهت الأقلام وجفّت بحار الحبر، لم تنته معارف القرآن وظل بحر علومه زاخرًا، ذلك لأن الله تعالى كما هو مجيد فإن القرآن أيضًا مجيد. إنه كلام ذو شأن عظيم، ومن المحال أن يأتي على الدنيا زمان يعجز فيه القرآن عن إرشاد أهلها. إنه يقف في كل عصر شامخًا بشأن جديد، ويبهر بلمعانه عيون أعداء الإسلام. إنه ليس كتابًا ميتًا كالتوراة و"الزندافستا" أو "الفيدا" فيعجز عن تقديم حلول المعضلات في أي عصر، بل هو كتاب حي يجد فيه أهل كل عصر أسبابًا جديدة للحياة. إنه كنز لا ينفد من الحقائق والمعارف. ولم يقع المسلمون اليوم فيما

وقعوا فيه من المفاسد – لسوء حظّهم – إلا لأنهم قد غضّوا الطرف عن جمال القرآن، وأخذوا يقولون أن القول بأكثر مما ورد في "البيضاوي" و"الجلالين" وغيرهما من التفاسير حرام، و لم يدروا أن الربّ الذي هو بنفسه مجيد هو الذي أنزل هذا الكلام المجيد، وكما أن الثروات الطبيعية لا تنفد أبدًا، كذلك فإن خزائن كلام الله لا تنفد أبدًا. إننا نرى أنه لم يأت على الدنيا زمان توقفت فيه ظاهرة الاختراع والاكتشاف؛ فمثلاً عندما اختُرع القطار وكانت سرعته حوالي خمسة عشر ميلاً في الساعة قال الناس: ماذا عسى أن يُخترع أفضل من ذلك؟ ولكن اختُرع بعده قطار سرعته ثلاثون ميلاً في الساعة، ثم أربعون ميلاً، حتى بلغت سرعته الآن خمسة وسبعين ميلاً. ثم اختُرعت سيارة موتور، فقال الناس إن القطار يجري على السكة الحديدية بقوة البخار الناتج عن غليان الماء بإحراق الفحم، فكيف تجري هذه؟ ولكنها جرت بسرعة، فقال الناس: ما الذي يمكن أن يُخترع أفضل من ذلك؟ ولكن اختُرعت بعدها السيارة، فقضى الناس العجبَ من اختراعها أيضًا. وكانت السيارة في البداية مرتفعة ورديئة التصميم، وكانت تحدث ضجّة كبيرة وهزّةً شديدة، و لم يكن السفر بها مريحًا. فأُدخلت عليها تعديلات، فصارت بالتدريج منخفضة وقليلة الاهتزاز، ورُكّبت فيها أسطوانات كبيرة فخفّ صوتها حتى لو مرّت بك اليوم سيارة لم تنتبه لها ولن تسمع لها صوتًا. فقال الناس عند اختراع السيارة: ماذا يمكن أن يُخترع أفضل منها؟ ولكن بعد فترة اختُرعت الطائرة، وكانت في البداية لا تطير أكثر من خمسين أو ستين ميلاً، ثم اختُرعت طائرات بلغ طيرانها مئة وخمسون ميلاً. وفي الحرب العالمية الماضية كان الناس يتعجبون من الطائرات التي تبلغ سرعتها مئة وخمسين ميلاً في الساعة، أما اليوم فتبلغ سرعتها ست مئة ميل، وبعضها تقطع مسافة ستة آلاف ميل دون توقف. وكانت البندقية في البداية تطلق رصاصة واحدة، ثم اختُرعت بندقية تطلق سبع طلقات أو عشرًا، ثم اختُرع المدفع الرشّاش باسم "Tommy Gun"، وكان يطلق مئة إلى مئتي طلقة بدون توقف. ثم اختُرع المدفع الرشّاش باسم"Bren Gun" ، وكان يطلق حوالي أربع مئة طلقة في دقيقة واحدة، وتصيب الهدف على بعد ثلاثة أميال.

ثم اختُرعت مضادّات الطائرات والدبابات، ثم اختُرعت القنابل التي لم تكن تصل إلى الأهداف البعيدة، فاختُرعت المدافع التي ترمي القنابل بعيدًا. ثم اختُرعت القنبلة الذرية التي هي رغم صغر حجمها أشدّ فتكًا وأشمل دمارًا من القنابل الأخرى. وقد اختُرعت الآن القنبلة الهيدروجينية و"القنبلة الكوبالتية". في البداية كان بوسع الإنسان حماية نفسه من تأثير القنابل باختفائه في الخنادق، ولكنهم قد اخترعوا الآن القنابل التي لا يزول تأثيرها وإشعاعها سنوات طويلة، فإذا خرج المرء من مخبئه أو خندقه هلك.

باختصار، ما دام الإنسان يكتشف كل يوم مخترعات جديدة في الدنيا، فكيف يعجز كلام الله عن الإتيان بمعارف جديدة؟ لقد جاء المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر وأخبر الناس أن خزائن كلام الله لم تنفد، بل كما أنه لا نفاد لخزائن الثروات الطبيعية كذلك لا نهاية لكلام الله تعالى. ومن الحماقة الشديدة الظن أنه ليس بوسع أحد أن يأتي بمعارف جديدة لكلام الله تعالى.

الحق أن معاني القرآن الكريم تتجدد دائمًا بحسب حاجة كل عصر، لأن الله المجيد قد أنزل هذا الوحي الذي هو مصداق لقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(الرحمن: ٣٠). فإذا انكشف على أحد معنى جديدٌ لآية من القرآن وأيّدته آياته الأخرى وصدّقته الفطرة الإنسانية ولم تعارضه اللغة العربية فلا شك أنه معنى صحيح. ولو اعتبرنا مثل هذا المعنى غلطًا لكنا مثل ذلك الأحمق الجبان الذي جُرح في الحرب، فرغم أنه رأى الدم ينـزف إلا أنه ظن أنه لم يصب بجرح، وأخذ يجري ويقول: ربّ اجعل ما أراه حلمًا. لقد أخبرنا القرآن الكريم سلفًا منذ أربعة عشر قرنًا أن مطالب آيات القرآن الكريم ستتجدد طبقًا لحاجات كل عصر. فإذا دعمتْ لغة العرب هذه المعاني الجديدة وصدّقتها الآيات القرآنية الأخرى، أو لم ترفضها على الأقل، فكيف تُعتبر معاني خاطئة؟ علينا أن نرى فيما إذا كانت هذه المعاني الجديدة تتفق مع المعيار الموضوع لمعرفة المعنى الصحيح أم لا. فمثلاً يجب أن لا تخالف هذه المعاني العقل والمنطق، لأن الله تعالى هو خالق العقل ولا يمكن أن يوجد تعارُض في شيئين نابعين من مصدر واحد. ثم يجب أن لا تكون هذه المعاني مخالفة للآيات القرآنية الأخرى، إذ من المحال أن يوجد اختلاف في كلام الله تعالى. ثم

يجب أن تكون اللغة العربية مؤيِّدة لهذه المعاني، لأن القرآن الكريم قد أعلن بنفسه أنه نزل بلسان عربي. فإذا صحَّت هذه المعاني بحسب هذه المعايير فلن تكون باطلة. أما إذا لم يلاحظ المرء هذه المعايير وفسَّر القرآن بقياسه ورأيه لهلَك الناس. فمثلاً عندما أثبت المسيح الموعود عليه السلام في كتابه "منن الرحمن" أن العربية هي أُمّ الألسنة (الخزائن الروحانية المجلد ٩ ص ١٢٩)، جعَل بعض البسطاء منا يحاول أن يُثبت أن كل كلمة يتحدث بها الناس موجودة في القرآن الكريم. فمثلاً سُئل بعضهم: أين وردت كلمة "مرچ"* في القرآن الكريم؟ فلم يلبث أن قال: ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾(الرحمن:٢٣)؟ فالمرجان هو "مرچ".

وفي أيام الحرب الدائرة في جنوب أفريقيا سُئل أحدهم: هل في القرآن إشارة إلى هذه الحرب؟ فقال: نعم، في قول الله تعالى: ﴿قَومًا بُورًا﴾(الفرقان:١٩)، إذ المراد من ﴿بُورًا﴾ سكان جنوب إفريقيا الذين يُسمَّون "بؤر". إن هذا الأسلوب للتفسير باطل ومدمر، أما المفاهيم التي تتوافق مع اللغة العربية ويدعمها العقل الإنساني ولا تعارضها الآيات القرآنية الأخرى فهي صحيحة تمامًا سواء أظهرت هذه المفاهيم القرآنية اليوم أو بعد قرن أو خمسة قرون. بل نقول إن آية واحدة لو فسِّرت بمئة أو مئتين من مثل هذه المعاني فكلها تُعتبر صحيحة لأن الله تعالى قد أعطانا تلك العلوم والمعارف في شكل القرآن الكريم، وجعله دليلاً على مجده وعظمته سبحانه وتعالى.

إن "البهائيين" وحدهم الذين يدّعون في هذا العصر نسخ شريعة القرآن، ولكن ادعاءهم لن يُعَدَّ صحيحًا إلا إذا أخرجوا لنا من القرآن الكريم أحكامًا لا يمكن العمل بها الآن، أو أخرجوا لنا من تعاليم "البهائية" ما لا يوجد في القرآن الكريم وهو أفضل مما في القرآن الكريم. ولكنهم لم يأتونا بمثال واحد حتى اليوم. فالحق أن القرآن الكريم لم يفشل في الماضي ولن يفشل في المستقبل، بل لن يفشل إلى يوم القيامة. يمكن أن تُبدَّل السماوات والأرض، ويأخذ قوم مكان قوم، وتحل حكومة

---

* "مرچ" هو الفلفل في اللغة الأردية. (المترجم)

محل أخرى، وتندرس اللغات وتنمحي، ولكن من المستحيل أن يفشل القرآن الكريم. إنه الشرع الأخير الذي أنزله الله تعالى وسيبقى إلى الأبد. ومن قال أن القرآن قد فشل فقد كذب. وها نحن نتحدى هؤلاء البهائيين اليوم أيضًا أن يُخرجوا لنا من القرآن الكريم أحكامًا غير صالحة للعمل عندهم، أو يقدّموا لنا من شرعهم المزعوم تعاليم سامية نافعة لا توجد في القرآن الكريم. نشر أحد البهائيين ذات مرة كتابًا من مدينة "رنغون" ادعى فيه أن البهائية أتت بتعاليم رائعة، فإنها تدعو إلى حسن معاشرة النساء وتعليم البنات، وتنهى عن الظلم والسرقة والكذب. فكتبتُ له في الجواب: اذكُرْ لي أي دين في العالم ينهى عن حسن معاشرة النساء وتعليم البنات ويأمر بالظلم والسرقة والكذب. لا يوجد في الدنيا دين واحد كهذا أبدًا.

الواقع أن البهائيين قد أخذوا بعض أحكام القرآن الكريم وعزوها إلى البهائية، وإلا فإن القرآن الكريم مشتمل على الحقائق كلها. أما هؤلاء فإن زعيمهم عباس "أفندي" كتَب بعد أن عاد من أمريكا أن أول عمل قام به بعد عودته من هناك أنه ذهب إلى قبر "بهاء الله" وصلى هناك وسجد. لقد وقعوا في الشرك والوثنية إلى هذه الدرجة، ومع ذلك يزعمون أن القرآن الكريم قد فشل ونُسخ، وقد حلّت محله البهائية! والحق أن القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذي قد قضى على الشرك من الدنيا، أما البهائيون فقد بدأوا الشرك والوثنية مرة أخرى. أيوجد في الدنيا عاقل يصدِّق أن السجود على تراب القبر ينفع أحدًا شيئًا؟ وهل يمكن أن يقف مثل هذا الدين أمام الإسلام الذي قضى على الوثنية في الجزيرة العربية تمامًا، والذي قال مؤسسه ﷺ في مرض الموت مرة بعد أخرى: "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ" (البخاري، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور). أليس من الغباء الشديد أن يتهم البهائيون هذا الدين العظيم بالفشل؟

قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٣﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا لرسوله أن آية رحمة عظيمة قد ظهرت للكافرين على شكل القرآن الكريم، ولكنهم إذا أصرّوا على رؤية آية العذاب فقل لهم يكفي الله ﷻ شاهدًا بيني وبينكم، وسيُريكم آية العذاب أيضًا، فيهلك الكاذب وينتصر الصادق. والآية المميِّزة التي تظهر من عند الله تعالى لا تكون باطلة أبدًا، لأنه تعالى يعلم كل ما في السماوات والأرض؛ فلن يهلك بعذابه إلا الذين يؤمنون بالباطل ويكفرون بآياته.

وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٤﴾

التفسير: أي يطالبك هؤلاء بنزول العذاب فورًا، ولكن الله تعالى بطيء في العذاب، ولولا أنه قد جعل للعذاب أجلاً مسمى لحل هم العذاب فورًا. فليعلموا أن العذاب سيأتيهم ولكنه سيأتي بغتة من حيث لا يشعرون. ومثاله فتح مكة، حيث وصل النبي ﷺ بجيشه على أبواها وهم لا يشعرون. ورد في التاريخ أن جيش المسلمين لما بلغ قريبًا من مكة ليلاً أشعل كل مسلم النار لإعداد الطعام بأمر من النبي ﷺ. وكان أبو سفيان يقوم بحراسة مكة مع بعض أصحابه، فلما رأى هذه النيران المشتعلة عن بُعد خاف وقال لأصحابه: من هؤلاء القوم؟ فقيل له: لعلهم بنو خزاعة الذين جاؤوا للانتقام؟ فقال: لا تبلغ خزاعة عُشر هؤلاء القوم. فذُكرتْ له قبيلة أخرى، فقال: إنها أقل عددًا من هؤلاء. فلم يزل أصحابه يذكرون له أسماء

مختلف القبائل فكان يرفض رأيهم في كل مرة، حتى قالوا: إنه محمد (ﷺ) مع جيشه. فقال: كلا، فإني تركتهم في المدينة جالسين مطمئنين غير متأهبين للقتال. وبينما هم في ذلك حتى اقترب منهم بعض المسلمين الذين كانوا يحرسون الجيش المسلم، وسمعوا صوت أبي سفيان. وكان من بينهم العباس رضي الله عنه عمّ الرسول ﷺ والصديق الحميم لأبي سفيان، وكان العباس على بغلة الرسول ﷺ. فلما سمع صوته ناداه قائلاً: أبا سفيان؟ فقال: أين أنت يا عباس؟ قال: إن محمدًا رسول الله ﷺ قد جاء بجيش قوامه عشرة آلاف جندي، فاركبْ ورائي لتذهب إليه ﷺ وتناشِده الله تعالى أن يعفو عنك وقومك وإلا لحلّ بكم الدمار. ثم جذبه وأركبه وراءه على البغلة وأتى به الرسولَ ﷺ. (تاريخ الخميس: غزوة فتح مكة، والسيرة النبوية لابن هشام: قصة إسلام أبي سفيان على يد العباس)

إذًا، فقد فتحت مكة بغتةً بحيث لم يشعر الكافرون بما حدث، حتى نزل بساحتهم جيش المسلمين.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٥﴾

التفسير: أي يطالبك هؤلاء القوم بنزول العذاب بدون تأخير، ولكنهم لا يدرون أن العذاب إذا جاء فسوف يحيط بكل من يكفر بالإسلام.

لقد ذكر القرآن هنا مطالبتينِ بالعذاب من قِبل الكفار، مما يدلّ بوضوح أن المطالبة الأولى تتعلق بالعذاب في الدنيا، والمطالبة الثانية تتعلق بالعذاب في الآخرة. فقالوا أوّلاً لماذا لا ينزل بنا العذاب في الدنيا كما حذرتنا؟ ثم قالوا: لماذا لا نهلك لندخل الجحيم نتيجة معارضتنا إياك؟ ومن أجل ذلك تجد ذكر جهنم في هذه الآية، ولا تجد ذكرها في الآية السابقة.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٦﴾

التفسير: المراد من غشيان العذاب إياهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم أن رؤساء مكة سيتخلّون عن أهلها، ومثاله ما فعله عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، كما أن عامة الناس سيتركون رؤساءهم، فيقال لهم ذوقوا الآن جزاء أعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ فَوقِهِمْ﴾ يشير إلى كل عذاب من السماء أو هجوم من الخارج، أو كل عقاب من قبل الحكومة أو سخط من قبل المسؤولين وزعماء الدين، ووقوع أكابر العائلات في شتى المصائب والآلام. وأما قوله تعالى: ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فيشمل كل عذاب من الأرض سواء كان من قِبل الخدم والموظفين أو المرؤوسين، كما يندرج فيه اندلاع الفتن والفساد وفشل التدابير.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۝٥٧ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٨﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن العذاب نازل على الكافرين لا محالة، ولكنهم مغرورون حاليًا بقوهم وحزهم ظانين أهم قادرون على قمع المسلمين. فيا أيها المسلمون، إذا كان أهل بلدكم لا يريدون أن يدَعوكم تعيشون في أمان، فاخرجوا إلى بلاد أخرى، واذهبوا إلى كل مكان وأقيموا عبادة الله الأحد فيه. وإذا رأيتم أهل قرية يعيقون طريق الدعوة فلا تخافوا لأن أرض الله واسعة، فاخرجوا إلى المناطق الأخرى لنشر الدعوة، ولا تخشوْا معاداة الدنيا إذا قمتم بالدعوة، حتى ولو أصبحت حياتكم وأموالكم في خطر. فإلى متى ستَسلمون من الموت؟ فكل نفس ستذوق الموت وترجع إلى الله تعالى. فما الجدوى من موتكم جالسين عاطلين في بيوتكم؟ فاخرجوا وانتشروا في أنحاء العالم وانشروا فيه دعوة الإسلام والقرآن،

لأنكم إن متم أثناء هذا الجهاد يكون موتكم مباركًا جدًا وتنالون مرتبة الشهادة وترثون جنة الله.

الحق أن جميع الشعوب الفاتحة في تاريخ العالم قد تركت أوطانها أوّلاً، ثم حققت الانتصار. لقد ترك العرب وطنهم، وترك الأتراك أرضهم، وهاجر اليهود من ديارهم، وغادر الآريون بلادهم وانتشروا في أراض بعيدة، ولو لم يتركوا أوطانهم لم يحرزوا تلك الانتصارات والفتوحات و لم يرثوا بلادًا جديدة. فلا غرابة لو اضطر المسلمون لهجرة أوطانهم لنشر دين الله تعالى.

ولكن لا يغيبنّ عن البال أن الهجرة نوعان: قومية وفردية. لا شك أن هجرة بعض الأفراد ترفع مستوى القوم، ولكن الحياة القومية لا تُنال إلا إذا استعدّ كل فرد من القوم لترك وطنه إلى ديار أخرى في سبيل الله تعالى. وهذا ما تؤكد عليه الآية قيد التفسير، وهي نفس الحقيقة التي أُريتها في الرؤيا مرة. لقد رأيت أني قد خرجت من البيت بحثًا عن بيت آخر، فرأيت الأستاذ محمد إبراهيم الجموني واقفًا في الخارج ويأتيه الناس باحثين عن بيوت لهم. ويخيّل إليّ أن بعض الناس الذين عندهم بيوت خالية قد سلّموه مفاتيحها ليؤجّرها للآخرين. فقلت له: أنا أيضًا بحاجة إلى بيت لنفسي. فأراني بيتًا فيه غرف صغيرة بدون سقف. ورأيت قطع قماش صغيرة معلّقة على جدران الغرف، فقلت له: ما هذه القطع؟ قال: إن الغرف بدون سقف فتوضع هذه القطع القماشية فوقها اتقاءَ الشمس. فأقول في نفسي لا شك أنها غرف صغيرة، ولكن غرف بيتنا أصغر منها. فأتذكر عندها البيوت الطينية التي كنا نقيم فيها في مدينة "ربوة" في أوائل عمرانها، ولكني أقول إن تلك الغرف كانت مضيئة أكثر. ثم أقول في نفسي: لقد كانت أكثر ضوءًا لأنها كانت مدهونة بالدهان الأحمر من الخارج وبالدهان الأبيض من الداخل. فسوف تصبح هذه الغرف أيضًا مضيئة عندما نقوم بدهانها. ثم سمعت مناديًا يقول:

"إن الأمة التي تكون مستعدّة للهجرة وتوّاقةً للاستيطان في الأراضي الأخرى لا تهلك أبدًا."

فلما سمعت قوله قلت في نفسي: ليس المراد من كونهم مستعدين للهجرة أنهم يفرحون بالهجرة أو أنهم يرغبون فيها. فخطر ببالي في الرؤيا أن الصحابة - رضوان الله عليهم - أيضًا هاجروا، ولكن قد ورد في الحديث أن بعضهم كانوا يذكرون مكة ويبكون بعد مجيئهم إلى المدينة (البخاري: كتاب المرضى، باب عيادة النساء الرجالَ). فأقول في الرؤيا جوابًا للمنادي:

"إنهم يهاجرون مضطرين، ولكنهم يرضون بقضاء الله بعد الهجرة، مما يدلّ أنهم كانوا مستعدين لها. فليس المراد من كونهم مستعدين أنهم يرغبون في الهجرة، بل المعنى أنهم إذا اضطروا للهجرة يرضون بقضاء الله ويسعون جاهدين للاستيطان في الأرض الجديدة".

انظر إلى النحل كيف أنها لا تبرح تنتِج العسل مع أن الإنسان لا يسمح لها بأكله. إنه يطرد النحل من خليتها بالدخان أو الماء الساخن أو بطريقة أخرى، ثم يجمع العسل الذي أنتجته في حوالي ستة أشهر. فلا تلبث النحل بعد هجرتها من خليتها أن تجد مكانًا آخر وتنهمك في صنع الخلية. ولو رأيتها بعد ساعة لوجدتها تعمل جاهدة لصنع العسل هناك مرة أخرى. وتتعرض النحل لهذا الطرد والنهب سنوات متتالية في بعض الأحيان كما يحصل مع نحل المزارع حيث يأخذ النحّال كل العسل الذي تنتجه في كل مرة دون أن تأكل منه شيئًا. فإذا كانت النحل لا تزال تنتِج العسل الذي يأخذه الناس لشفاء أمراضهم لقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾(النحل:٧٠)، ومع ذلك لا تتوقف عن إنتاجه؛ فهل الإنسان ضعيف لدرجة أنه ييأس بسرعة؟ فالذي يفقد الهمة إذا ما فشل في جهده فهو ليس بإنسان، بل هو أدنى من النحل.

إن فتح العالم ليس بشيء هيّن. إنه يتطلب تضحيات جسيمة. وهذا ما فعل الرسول ﷺ أيضًا، فإنه لما رأى أن عيش المسلمين في مكة أصبح مستحيلاً جمَع أصحابه وأمرهم بالهجرة إلى بلد آخر لا يُضطهدون فيه بسبب دينهم ويذكرون اسم الله تعالى بأمان. فقال الصحابة: يا رسول الله، ما هو ذلك البلد؟ فأشار إلى

الحبشة وقال: هناك ملِكٌ مسيحي، فاذهبوا إلى بلده حيث لن تتعرضوا للتعذيب بسبب دينكم. (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة)

فمن واجب المؤمنين أن يظلّوا مستعدّين لترك أوطانهم دائمًا في سبيل الله تعالى، ثم يعملوا بعد الهجرة جاهدين لعمران الأراضي الجديدة روحانيًا ليصبحوا أُمّة، فلا يُدخِلوا شخصًا أو شخصين بل يدخِلوا أُمّة كاملة في الإسلام وفي غلمان محمد ﷺ.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٩﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الذين يؤمنون بمحمد ﷺ بصدق القلب ويعملون أعمالاً صالحة لنشر الإسلام - أي أنهم يتركون أوطانهم أو يضحّون بأنفسهم في سبيل الله تعالى إذا اقتضى الأمر - نقسم بذاتنا أننا سنرفع درجاتهم في الدنيا والآخرة مثلما حاولوا إعلاء كلمة الإسلام والقرآن، ونبوّئهم أطيب المساكن. ولن تكون هذه العزة التي نكتبها لهم مؤقتةً فانية كالعزة الدنيوية، بل ستبقى لمدة غير معلومة. ولا جرم أن الذين يضحّون في سبيل الله تعالى لا يَضيعون أبدًا.

لقد أخبر الله هنا أن أهل الجنة يعطَون غرفًا تجري من تحتها الأنهار، بينما وصف الجنة نفسها بقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾(البقرة:٢٦).. أي أن الأنهار ستجري تحت بساتينها، وفي موضع ثالث وصف المؤمنين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾(الأعراف:٤٤). والسؤال الذي يفرض نفسه هنا ما هذه الأنهار التي تجري تحت البساتين وتحت الغرف وتحت الناس أيضًا؟ والظاهر أنها ليست أنهاراً معروفة، وإنما يراد بها شيء آخر أُطلق عليه لفظ "النهر" استعارة.

وعندما نتدبر القرآن الكريم لمعرفة خصوصيات الماء نعلم أنه قد ذكر له ميزتين: أولاهما: أنه يطهر الجسم من الوسخ والنجاسة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ (الفرقان:٤٩)؛ وثانيتهما: أنه سبب الحياة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣١). وعليه فالمراد من قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أن أهل الجنة سيجدون فيها أسباب الطهارة والحياة الخالدة بكثرة، لأن الله تعالى لم يذكر هنا الماء فقط، بل استعمل لفظ ﴿الأنهار﴾.

والغريب أن القرآن الكريم قد وصف الحياة في الجنة بميزتين بارزتين أيضًا، أولاهما: الحياة الخالدة التي ستوهب لأهلها وبساتينها وغرفها أيضًا؛ فقال الله تعالى عن خلود أهل الجنة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾(النساء:١٢٣)؛ وقال عن دوام بساتين الجنة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾(الرعد:٢٤)، وقال أيضًا: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾(الرعد:٣٦)؛ وقال عن دوام غرف الجنة: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾(الزمر:٢١). ذلك لأن لفظ ﴿مَبْنِيَّةٌ﴾ يمكن أن يُفسَّر بمعنى دائمة، وإلا فكل غرفة تكون مبنية، ومثاله قولهم الشجرة متأصّلة بالأرض.. أي ثابتة قوية مع أن أصول كل شجرة تكون في الأرض. إذًا، فإن القرآن الكريم قد بيّن أن هذه الأشياء الثلاثة تكون ثابتة دائمة، فلن تتهدم مساكن الجنة ولن تخرّب بساتينها ولن يهلك سكانها. ومن ناحية أخرى أخبر أن الأنهار ستجري تحت هذه الأشياء الثلاثة، ومعناه - على ضوء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ - أن الله تعالى سيهيئ أسبابا كثيرة تحول دون خراب بساتين الجنة وانهدام مساكنها وهلاك سكانها.

والخصوصية الثانية للماء أنه يزيل الوسخ والدرن، وقد وُصفت الجنة أيضًا بهذا الوصف حيث قال الله تعالى إن المؤمنين: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيمًا ۝ إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾(الواقعة:٢٦-٢٧).. أي يصونهم الله تعالى من كل دنس روحاني. كذلك ورد في الحديث أن النبي ﷺ سُئل إذا كان الإنسان سيأكل في الجنة أفلا يبول ويتغوّط؟ فقال ﷺ: سيتحول طعامه وشرابه ريحًا كريح المسك (البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب خلق آدم). والبديهي أن بساتين الجنة ما دامت محفوظة من

الخراب وخالية من البول والبراز فلا بد أن تبقى نظيفة طاهرة، وكذلك غرفها لأن الساكنين فيها ما داموا طاهرين فلا بد من طهارة الغرف أيضًا.

إذًا، فثبت من القرآن الكريم معنى الطهارة والدوام للماء، وهذا هو المعنى لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أيضًا، وإلا فلا معنى لجريان الأنهار تحت الناس والغرف، إلا أن نقول أن المراد أن هذه الأنهار تكون تحت قبضتهم وتصرفهم؛ ولكن في هذه الحالة ما كان هناك داع لوصف هذه الأشياء الثلاثة بجريان الأنهار تحتها وصفًا منفصلاً؟

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.. أي أنهم ينالون هذا الجزاء الحسن لأنهم، رغم تعرُّضهم لأنواع المصائب وعداء الأعداء، ظلّوا متمسّكين بعقائدهم بقوة متوكلين على ربهم بصدق.

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

التفسير: ومن الأمور التي تزلزل قدم الإنسان الضعيف وتمنعه عن القفز في نيران التضحيات الخوف من المشاكل المالية. إنه يرى الدنيا، من جهة، ماثلةً أمامه بكل جمالها وزخارفها، ومن جهة أخرى يناديه الدين للنصرة. إنه ينظر إلى الدنيا فيراها متبرجة بزينتها وبهائها ومالها وثرائها، وعندما يلتفت إلى الدين لا يسمع من قِبله شيئًا من خشخشة الدنانير، فيصاب قلبه بالهول ويقول كيف أنذر حياتي في سبيل الله تعالى؟ لو نذرتها في سبيله سنموت جوعًا، فمن أين يأكل أهلي وأولادي، وكيف سنحافظ على مستوى معيشتنا؟ فإذا صرعه هذا الطمع حُرم من خدمة دين الله تعالى.

ولذلك يقول الله تعالى للناس هنا كيف تسيئون الظن برب السماوات والأرض وقد جعلكم أشرف المخلوقات؟ أأنتم ترزقون دواب الأرض ووحوش الغاب

وطيور الجو أم الله يرزقها؟ لو فكرتم في نظام الرزق لبلايين البلايين من الحيوانات والدواب والحشرات في الكون لأصابتكم الدهشة والذهول وانفتح عليكم باب جديد للعلم والمعرفة. لقد أحرز الإنسان تقدمًا علميًا هائلا، ولكنه لم يعرف حتى الآن كيف يتيسر الرزق لهذه الحيوانات التي لا تُعد ولا تحصى؟ هناك نظام ظاهري لرزقها حيث يخلق الله في الزرع غلالاً للإنسان ويخلق معها تبنًا للحيوانات؛ وإذا كانت الإبل تعيش على الأشجار والأعشاب الشائكة فإن الأغنام قد تأكل النجاسة؛ ولكن من ذا الذي يرزق بلايين البلايين من الحيوانات التي تعيش في أعماق البحار ومياه الأنهار وظلام المغارات وفي قمم الأشجار وأجواء السماء؟ ومن يمدّ بالرزق تلك الجراثيم التي توجد في كل قطرة من الدم والتي لا تُرى إلا بالمجهر؟ هل هناك مؤسسة أو لجنة أو حكومة تحدد لرزقها ميزانية وتوزع عليها النقود؟ إنما الله الذي يدير هذا النظام الهائل لرزق هذه الحيوانات التي تبلغ بلايين البلايين. فما أشد الإنسان غباءً حيث يقول إذا دُعي لتكريس حياته لخدمة دين الله تعالى: أريد أن أكرس حياتي ولكنني إذا وقفت حياتي فمن أين آكل؟ فيقول الله له: ما دمتُ أرزق هذا الكم الهائل من المخلوقات في الكون، فهل أدَعك تموت جوعًا إذا لبّيت ندائي؟ فلا تظن بي ظن السوء، فإن ربك سميع عليم. لو دعوتَه بصدق القلب لاستجاب لدعائك ولأخرجك من كل مأزق لأنه يعلم أحوالك. فلا تعِشْ في الوساوس، بل تَقدَّمْ لخدمة دينه غير خائف ولا هيّاب.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾

التفسير: بعد الحديث عن العقبات التي تعترض طريق إشاعة الإسلام عاد الكلام ثانيةً إلى المناظرات الدينية التي سبق ذكرها في الآيات السابقة، حيث أخبر الله تعالى المسلمين أنكم حين تخرجون من أوطانكم إلى بلاد أخرى لإشاعة الإسلام والقرآن في الدنيا باذلين أنفسكم وأموالكم بصبر وثبات متوكلين على الله تعالى

فستواجهون أولاً الشعوب التي تنكر وحدانية الله تعالى بطريق أو بآخر، فاسألوهم خلال المناظرات: من خلق السماوات والأرض، ومن سخّر الشمس والقمر لخدمة الإنسان بدون مقابل؟ فلن يكون جوابهم إلا قولهم: إن الله خالقُ الكون والمتصرفُ فيه. فقولوا لهم: ما دام الله تعالى هو خالق هذا الكون الهائل والمتصرفُ في كل ما فيه، فلماذا تتركون الله تعالى وتتوجهون إلى الآلهة الباطلة على غير هدى؟

كما بين في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أنكم عندما تبلغون رسالة الإسلام والقرآن إلى الأمم التي تنكر وحدانية الله تعالى فسوف تزدريكم مغرورة بقوتها وكثرة وسائلها وتقول لكم: لن تتغلبوا علينا، إنما تحلمون بالمستحيل مثل الملِك "كينيوت" (Canute) الذي أراد دفع البحر إلى الوراء. كان كينيوت أحد الملوك الإنجليز، وقد كتب الله له العظمة والغلبة. كان ذات يوم جالسًا على شاطئ البحر، فقال له حاشيته على سبيل التملق: البر والبحر كلاهما تابعان لحُكمك. وكان كينيوت ملكًا حكيمًا، فقرّب كرسيه من البحر وجلس عليه؛ وكان الوقت وقت المدّ حين يصعد ماء البحر ويغطي اليابسة مسافة ميل أحيانًا، فأخذت الأمواج ترتفع حول كرسيه. فتظاهر بالغضب وأمر الأمواج بالتراجع متظاهرًا بالغضب، ولكن الماء لم يزل يتصاعد حتى خاف حاشيته على أنفسهم، فقام الملك من كرسيه وخرج إلى البر وقال لهم: انظروا كم أنتم كذابون![◈] فكما أن البحر كان لا ينسحب بأمر الملِك كينيوت رغم غلبته واقتداره، كذلك سيبدو لكم تحويل الأوروبيين إلى مسلمين كمسلمي آسيا أمرًا مستحيلاً، ولكن الله تعالى يأمركم أن تسألوهم: من خلق السماوات والأرض؟ ومن سخّر الشمس والقمر والنجوم بحيث إنها لا تزال تعمل باستمرار منذ ملايين السنين دون أن يحدث في نظام السماوات والأرض خللٌ أو عطل؟ فلن يكون جوابهم إلا قولهم إن الله هو الذي خلقها وسخّرها؟ فقولوا لهم: إن الله الذي ثبّت هذه النجوم والكواكب الهائلة في السماء بدون أي أعمدة ظاهرة ليس بحاجة إلى أسباب مادية إذا

[◈] (http://www.viking.no/e/people/e-knud.htm , http://www.zyra.org.uk/canute.htm) (المترجم)

أراد أن يجعل قومًا غالبين في العالم، بل إنه يجعل الغالب مغلوبًا والمفتوح فاتحًا من خلال أسباب خفية لا تراها عيون البشر. لا شك أن الإسلام اليوم في حالة مماثلة حيث يبدو سقفه بدون أعمدة وأرضه قاحلة جرداء، ولكن العاقل الذي يتفكر في خلق السماوات والأرض لا يمكن أن يفوته أن القوة كلها بيد الله، وأنه يجعل من يشاء غالبًا بدون أسباب مادية أيضًا. يُعتبر "تاين بي" اليوم أكبر مؤرخ، بل يرى البعض أنه بدرجة المؤرخ "غبن" أو هو أفضل منه وأنه لم يكن في الدنيا مؤرخ مثله من قبل. وقد كتب "تاين بي" في تاريخه أن الانقلاب الذي يحصل في الدنيا إنما يحصل نتيجة المبادئ الأخلاقية. والذين يظنون أن الانقلاب يحصل نتيجة امتلاك القوة فهم على خطأ. ويضيف هذا المؤرخ ويقول: ستتم الآن المواجهة بين المسيحية والإسلام كما تدل عليه الآثار، وأرى أن الأحمديين من بين المسلمين هم القادرون على خوض الحرب القادمة بين الديانتين. ونتيجة الصدام بينهما ستقرِّر ما إذا كانت الحضارة في القرون القادمة ستتأسس على مبادئ الإسلام أم على مبادئ المسيحية. ثم يضرب هذا المؤرخ مثالاً فيقول: إننا أمة مغرمة بسباق الخيل وتقام عندنا هذه السباقات بكثرة ونعلَم أن الحصان الذي يكون في الخلف يفوز بقصب السباق في أحيان كثيرة. فلا تغترّوا بضعف الأحمديين الآن، فلربما سبَق الحصان الذي يكون في الوراء غيرَه. تجدونهم اليوم ضعفاء، ولكني أرى فيهم قوة كامنة للتقدم والغلبة، مما يدل أنهم سيصطدمون بالمسيحية في يوم من الأيام ولربما يكون الفوز حليفهم.

فترى أن هذا الشخص الكبير الذي يقال عنه أكبر مؤرخ في العالم لم يجد بدًّا من الاعتراف بأن في الأحمدية قوة كامنة، وهي التي ستصطدم بالمسيحية، وقد تكون هي الغالبة. قد استعمل تعبير "وقد تكون هي الغالبة" لأنه من معارضي الإسلام، فما كان ليقول: "ستكون هي الغالبة حتمًا". ولكن الله تعالى يخبر أن غلبة الإسلام على المسيحية أمرٌ أكيد، وسيبدّل الله السماء والأرض بغيرهما، ويقيم في العالم نظامًا روحانيًا جديدًا.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٣﴾

التفسير: لقد حذّر الله هنا أعداء الإسلام بألا يفرحوا بمتاع الدنيا ومُلكها، فإن كل ما أحرزوا من رقي وتقدم هو في قبضة الله القادر على جعل الضعفاء أقوياء والفقراء أثرياء والملوك متسولين. لا شك أنهم يجدون الإسلام اليوم دينًا ضعيفًا فيزدرون أتباعه ويحتقرونهم، ولكن الله تعالى سينزع منهم هذه النعم ويهبها لأتباع محمد ﷺ، وهكذا يضيّق عليهم رزقهم ويبسطه على المسلمين ليبدّل ضيقهم رخاءً. لقد حصل هذا في الماضي وسيحصل اليوم أيضًا. سيحيا الإسلام، وسيتقدم أتباع محمد ﷺ، وستُهزم أوروبا وأمريكا رغم تقدُّمها ورقيّها.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبيّن فيه أنه يعلَم أن المسلمين مزودون بطاقات الحياة وأن الكفر يلتقط أنفاسه الأخيرة، وما دامت أمارات الرقي بادية في فريق وآثار الانحطاط ظاهرة في آخر، فكيف لا يكون المسلمون غالبين والكافرون مغلوبين؟

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٤﴾

التفسير: لقد بين الله هنا للمسلمين أن الأمم التي ستتم المواجهة بينها وبينكم ستكون منكرة للوحي والإلهام، فاسألوهم من الذي يُنزل من السماء ماء ويحيي به الأرض؟ فيجيبون: الله. فقولوا: الحمد لله الذي أحيا الأرض بماء السماء دائمًا، والذي قد لبى الآن نداء الإنسانية فأرسل محمدًا لخلاصها. أفليس مما يوجب الشكر

أن الله تعالى أتى بشمس جديدة لتُشرق الأرض بضيائها، وأرسل سحابًا عظيمًا من رحمته لإحياء الدنيا ثانية، فأمطر مطرًا غزيرًا حتى ارتوى العالم العطشان، وأخذت الأرض تخرِج خضرتها؟ لقد كان حريًّا بهم عند رؤية هذه المنة الإلهية العظيمة أن يسارعوا إلى محمد ﷺ ويصدقوه وينتفعوا من هذا المطر السماوي ويملأوا به بِركهم وحياضهم. ولكنهم لم يعملوا بتعقّل حيث تهافتوا على جيفة الدنيا وأعرضوا عن هذه الثروة الروحانية مغترّين بمتع الدنيا وأموالها، فكان مثلهم كمثل الذي يحتفظ بالأحجار الرديئة ويرمي بالجواهر الغالية.

كما قد نبه الله تعالى الكافرين بمثال نزول المطر من السماء أنه إذا نزل المطر أخرجت الأرض نباتها، ولكن هذا النبات لا يكون من نوع واحد، بل منه عشب وكلأ لا يطول أكثر من نصف بوصة أو بوصة، ومنه ما ينمو وينمو حتى يصبح دوحة كبيرة فيستريح مئات الناس بظلها. ومنه ما يهيج ويخضرّ شهرًا أو شهرين ثم يصفرّ ويذبل ويموت. ومنه ما يكون شجرة صغيرة في أول الأمر ثم يصبح شجرة كبيرة تعيش قرونًا، ومنه ما يكون زهرة تذبل وتجف بعد يوم أو يومين، ومنه أيضًا شجرة العنب التي تعيش ألف سنة أيضًا، ومنها شجرة تين البنغال التي تعيش مئات السنين. فبرغم أن هذه النباتات تستوي في بدايتها تمامًا إلا أن نهايتها تكون مختلفة تمامًا. وبالمثل إذا نزل المطر الروحاني من السماء تُخرج أرض الكفر نباتها كما تخرج أرض الإيمان نباتها، ولكن نبات الكفر يبقى مخضرًا نضرًا أيامًا معدودة ثم يذبل ويجفّ ليصبح حطامًا، أما نبات الإيمان فيصبح شجرة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

فالله تعالى قد نبه الكافرين هنا أن الصحوة غير العادية التي حصلت فيهم وفيمن لفّ لفيفهم لدى دعوى محمد إنما هي نتيجة لذلك المطر الروحاني الذي أنزلناه من عندنا، ذلك لأن المطر كما يؤدي إلى نماء الثمار المفيدة كالعنب والمانجو كذلك يؤدي إلى نماء الأعشاب الرديئة كالحنظل والعلقم، فلا تظنوا أنكم ستنجحون في مسعاكم ضد محمد؛ لأن مثلكم كمثل الكلأ والعشب الذي يخضر ثم يصفر وينتن حتى يتغير لونه تمامًا ويتسبب في تفشي كثير من الأمراض والأوبئة. ففكِّروا في هذه

الظاهرة الطبيعية وسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ لتكونوا أشجارًا مثمرة تنفع الإنسانية، بدلاً من أن تكونوا أشجار رديئة كالزقّوم والحنظل والعلقم.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾﴾

التفسير: لقد عقد الله تعالى هنا مقارنة بين حياة الدنيا وحياة الآخرة لينبّه منكري الإسلام أن التدبر سيكشف لهم أن هذه الدنيا ليست إلا لهوًا ولعبًا.. أي أنه لو تم تقسيم مشاغل الحياة الدنيا لعُدَّ بعضها لهوًا وبعضها لعبًا. والمراد من ﴿لَهْو﴾ ما يؤدي إلى الغفلة، والمراد من ﴿لعِب﴾ ما يؤدي إلى الحركة والنشاط. والحقيقة أن الحياة الإنسانية عبارة عن هذين الأمرين.. أي أنها حركة وسكون يتناوب بعضه بعضًا، وكلاهما ضروري لإنعاش طاقات الإنسان واستمرار قدراته. وكأن اللعب هو فترة الحركة التي يعمل فيها الإنسان مستغلا ما فيه من قوة وطاقة، واللهو هو الفترة التي يركن فيها الإنسان للاستراحة والسكينة. وكل إنسان بحاجة إلى الحالتين لو كان ممن بلغ قمة الروحانية؛ ذلك لأن الحياة الإنسانية، من ناحية، قائمةٌ بالحركة سواءً بالمشي والسير أو الاشتغال بمختلف شؤون الحياة؛ ومن ناحية أخرى ليس للإنسان - أيًّا كان - غنى عن الراحة والسكينة، لأنه إذا لم يأخذ دماغه وأعصابه قسطًا من الراحة من خلال النوم والتمتع بالمناظر الخلابة والجو الجميل لم تستمر حياته أبدًا. باختصار إن حياة الإنسان في الدنيا قائمة باللهو واللعب، ولو أُخرِج هذان العنصران من حياته انتهت فورًا.

بيد أن الله تعالى أوضح أن الهدف من هذا اللهو واللعب أن نسعى من خلالهما لكسب حب الله ورضاه؛ وبعبارة أخرى علينا أن ندرك أن حياتنا في الدنيا إنما هي كاللهو واللعب مقارنةً بهدفها الذي هو الحياة الآخرة، فكما أن اللعب ضروري للطالب كذلك لا بد لكم من مشاغل الحياة الدنيا، لأن الإسلام لا يعلِّم أتباعه -

كالديانة البوذية – أن يتركوا مشاغل الدنيا ويعبدوا الله تعالى ليل نهار منعزلين عن الدنيا (Buddhism: p.40)، بل يرى الإسلام أن اللهو واللعب ضروري للإنسان لأنه لو استولى عليه خوف الآخرة في كل حين لهلَك. إلا أن انشغال الإنسان باللهو واللعب في كل وقت أيضًا يدمِّر غاية خلقه شأن الطالب الذي يقضي كل وقته في اللعب واللهو فيفشل في دراسته، ولا يستحسن فعله أحد. إذًا، فإن الإسلام يبيح لنا الاستمتاع بمتع الدنيا، ولكنه لا يريد أن نستغرق في مشاغل الدنيا ولذاتها و نهمل الآخرة.

باختصار، قد نبه الله تعالى معارضي الإسلام بقوله: ﴿وَمَا هَذه الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أنه قد جعل حياة الدنيا سلّمًا لحياة الآخرة، وأراد أن تكون حياة الدنيا بالنسبة لكم كاللعب للطالب، ولكنكم جعلتموها منتهى إربكم نتيجة غبائكم، فكرّستم جهودكم كلها من أجل متعها وملذاتها، مع أن ﴿الدَّارَ الآخرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾.. أي أنها هي الحياة الحقيقية. علمًا أن لفظ ﴿الحَيَوان﴾ قد ورد هنا بمعنى الحياة على سبيل المبالغة كقولهم زيدٌ عدلٌ.. أي أنه شديد التمسك بالعدل بحيث يجوز القول إنه عدل مجسد. فالله تعالى يقول لا شك أن لكم حياةً في هذه الدنيا إلا أن الإنسان سينال الحياة الحقيقية في الدار الآخرة، لذا فلو قلنا إن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية فهو الصواب بعينه.

يظن البعض أن هذه الآية جاءت ذمًّا وانتقاصًا للحياة الدنيا، ولكنه ظن خاطئ، ذلك لأن الله بنفسه قد خلق هذه الحياة الدنيا ووهبها للأنبياء والأولياء والصلحاء كلهم، فكيف تكون عبثًا وبلا جدوى؟ لقد قال الله تعالى في القرآن الكريم مرة بعد أخرى أتظنون أننا خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرجَعون؟ كما بين أنه خلق السماوات والأرض لحكَم عظيمة، فكيف يكون خلق الإنسان الذي هو جزء من خلق الكون نفسه عبثًا بلا فائدة؟ لو كانت هذه الحياة عبثًا لما عدّد الله على الإنسان نعمه مرة بعد أخرى، ولما قال له: ﴿وَأَمَّا بِنعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١٢).. أي عليك أن تتحدث عن نعم الله وتشكره عليها. فثبت أن الله تعالى لا يقصد بقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ ذَمَّ الحياة الدنيا، بل

اعتبرها جزءًا هامًا من الحياة الأخرى ودرجةً أولى من السُّلّم الذي إذا لم يضع عليه الإنسان قدمه لم تنشأ في روحه تلك القوى التي سيعيش بها في الحياة الآخرة.

كما أن الله تعالى قد لقّن المؤمنين درسًا رائعًا للتوكل حين اعتبر الحياة الدنيا لعبًا ولهوًا، فبيّن لهم أن هذه الحياة الدنيا ومتعها إنما هي مجرد لعبة وتفرُّج، فلو أصبح المرء ملكًا أو فقيرًا أثناء لعبة لم يؤثر هذا في قلبه شيئًا، فلا يتكبر لأنه ملك ولا يبكي لأنه فقير، كذلك يرى المؤمن أن حياته الحقيقية إنما هي في الدار الآخرة عند الله، أما حياته في الدنيا فإنما هي مجرد لعبة، وبسبب هذه الرؤية لا يستحوذ على المؤمن حبُّ المال ولو اقتنى الملايين، ولا يشكو ربَّه ولو تعرض للجوع والفاقة. أما الكافر فيعتبر الدنيا منتهى غايته، فلو وجد الملايين أصبح دودة للدنيا، ولو حُرِمها مات كمدًا، ولا يبرح يشكو الله تعالى، وهذا يعني أنه لا يرضى برضا الله في أي حال. عندما ينال مالاً أو عقارًا يعتبره نتيجة جهده وذكائه بدلاً من أن يرتفع بصره إلى الله تعالى شكرًا وامتنانًا، ولو حُرِم من مال أخذ في شكوى الله تعالى واعتبره ظالمًا والعياذ بالله. باختصار إن الكافر لا يطمئن في حال أبدًا، أما المؤمن فيتمتع بسكينة القلب في كل حال، ويرضى بقضاء الله دائمًا. وحيث إن الله تعالى قد خاطب الكفار في الآيات السابقة، فنبّههم في هذه الآية أنهم لو فهموا أن الله تعالى قد جعل حياة الدنيا تمهيدًا لحياة الآخرة، وأنها مجرّد لهو ولعب، لأعرضوا عن الدنيا ودخلوا في طاعة محمد، مدرِكين أن الرقي المادي لا يساوي شيئًا أمام الرقي الروحاني، ولكنهم قد آثروا الحياة الدنيا على الحياة الآخرة، ورفضوا الثروة السماوية نظير دراهم معدودة زائفة.

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٦ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ
وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٧﴾

التفسير:

لقد بين الله تعالى هنا أن الناس ينغمسون في متع الدنيا وملذاتها، ولكن تحدث في حياتهم أحداث ووقائع تدفعهم إلى التوجه إلى الله تعالى، ولكن الإنسان السيئ الحظ ينسى الله تعالى دائمًا بعد أن ينجيه من هذه المصائب، وتتكرر هذه العملية هكذا.

الواقع أننا لو تعمقنا في الأمر أدركنا أن الإنسان يتمكن أحيانًا من سدّ حاجاته كلها بنفسه، فينصبّ اهتمامه على قوته وقدرته فقط، فيصيبه الغرور بجهوده. ولكنه في بعض الأحيان لا يقدر على سد حاجته بنفسه، بل يحتاج إلى أقاربه وأعزّته الذين يساعدونه، فيقول في نفسه إن القرابة شيء نافع. ثم يأتي عليه وقت لا يغني عنه أهله وأقاربه فينظر إلى أصدقائه ومعارفه، فيأتون لمساعدته، فيدرك أهمية الأحباب والأصدقاء في الوقت الحرج. ثم يأتي عليه وقت لا يغني عنه أصدقاؤه أيضًا، بل يساعده الحزب أو الجماعة أو النظام الذي ينتمي إليه، فيدرك أهمية النظام والحزب والجماعة، فيزداد تمسكًا به. ثم يأتي عليه وقت لا يغني عنه أهله ولا أقاربه ولا أحبابه ولا حزبه ولا جماعته، فيتوجه إلى الحكومة التي تساعده، فيدرك أهمية الحكومة ومنافعها. ثم يأتي عليه وقت لا تقدر الحكومة أيضًا على مساعدته، بل تتقدم الإنسانية العامة لمواساته، فينظر إلى الإنسانية جمعاء ويقول في نفسه ما أروع هذه العلاقة التي خلقها الله تعالى بين الناس جميعًا. ولكن يأتي عليه وقت حرج آخر حين لا ينفعه أهل ولا أصدقاء ولا أحباب، ولا قبيلة ولا نظام ولا حكومة ولا الإنسانية كلها؛ فإذا تخلص من مأزقه ونجح في مرامه أيقن أن في نجاحه يدًا إلهية

وتأييدا ربانيًّا أيضًا، فيعزو نجاحه إلى الله تعالى بقدر إيمانه بتدخل يد الغيب في نجاحه. ولكن الحقيقة أن كل ما أنجزه بنفسه أو بمساعدة أقاربه وأصدقائه أو حزبه ونظامه أو قومه وحكومته أو الإنسانية العامة، إنما أنجزه الله له. ولكن حيث إن الأسباب الظاهرة لعبت دورها في شتى نجاحاته فلم ينظر عندها إلى الله تعالى، وإنما فكّر في تأييد الله تعالى له عندما أيقن بتدخل يد الغيب في نجاحه.

باختصار يأتي في حياة الإنسان أوقات حين تبوء تدابيره كلها بالفشل الذريع فلا يجد أمامه إلا الله تعالى، وهذا هو المعنى الذي أكّده تعالى في الآية قيد التفسير، فبيّن أنه عندما يأتي الوقت الحرج فإن المشرك والملحد أيضًا يتوجهان إلى الله تعالى. وضرب لذلك مثالاً وقال حينما يحاصر الطوفان السفينةَ يستصرخ المشرك أيضًا اللهَ تعالى، موقنًا من كل قلبه ومشاعره ألا أحد يقدر على إنقاذه إلا الله تعالى.

كان في الكلية الطبية بلاهور طالب ملحد، وكان يناقش زملاءه دائمًا حول وجود البارئ تعالى. فلما وقع الزلزال الشهير عام ١٩٠٥م بحسب النبوءة التي أدلى بها المسيح الموعود عليه السلام، وأحسّ هذا الطالب الملحد بأن السقف على وشك السقوط هرب من الغرفة قائلاً: "رام رام".. أي الله الله. فقال له زملاؤه في اليوم التالي: لماذا جريت من الغرفة قائلا: "رام رام"؟ فقال: لا أدري، يبدو أنني فقدت عقلي عندها.

والواقع أنه عاد إلى صوابه عندها. لقد اختفت عن أنظاره الأسباب المادية التي يمكن أن تنقذه فلم يجد أمامه منقذًا إلا ذات البارئ تعالى. الحق أن الأسباب المادية البادية تشغل الإنسان عن الله تعالى، ولكن عندما لا يرى أي سبب ظاهر عندها فقط يرتفع بصره إلى الله. في عام ١٩١٨م استجمعت ألمانيا كل قواها وشنت هجومًا مكثفًا على الحلفاء. فجاء على القوات الإنجليزية وقت لم يعد هناك سبيل لنجاتها. لقد شقَّ الألمان صفوف الإنجليز على جبهة تبلغ سبعة أميال، فصارت القوات الإنجليزية جزئين، وكان بإمكان الألمان أن يتقدموا بهذه الثغرة ويحاصروا القوى الإنجليزية من ورائها ويدمروها تدميرًا. فأبلغ القائد الإنجليزي رئيسَ القوات بخطورة الموقف وقال ليس عندي جنود لسد هذه الثغرة. لقد كان الموقف خطيرًا

لدرجة أنهم خافوا أن يدمَّر جنودهم كلهم فلا يبقى هناك أثر لإنجلترا ولا فرنسا. فأرسل قائد الجيش الإنجليزي برقيةً إلى حكومته وأخبرها بتقوّض صفوفهم وبأن الدمار وشيك. وكان رئيس الوزراء في جلسة مع وزرائه عندما وصلته البرقية، فأدرك هذا الرجل - الذي كان مزهوًا بقوته ومنعته، وكان زعيمًا لأقوى وأكبر دولة مادية في أوروبا عابدةِ المادة الغافلة عن الله تعالى كليًّا - أنه ليس هناك الآن قوة ظاهرة في الدنيا تنجيه من هذا المأزِق، فنظر إلى أصحابه وقال: تعالوا نبتهل إلى الله تعالى أن ينصرنا. فركع الجميع على ركبهم ودعوا الله تعالى، فاستجاب الله دعاءهم، ودبّر من الأسباب ما جعل جيش الألمان لا يعرفون أن صفوف عدوهم قد تقوّضت. فدعا قائد الجيش الإنجليزي أحد الضباط وقال له: إن الموقف حرج ولا أرى أحدًا سواك يقدر على احتوائه، فاذهب لمواجهة العدو بدون أن توجه إلي أي سؤال. وكان بوسع هذا الضابط أن يقول للقائد الأعلى: تأمرني بالتصدي للعدو ولا تعطيني أي جنود، ولكنه أدرك أنه من المستحيل الآن أن يؤتيه أي جنود، فركب سيارته وذهب إلى المكان الذي يعمل فيه الطهاة والغسالون والحذاؤون والخياطون، وقال لهم: لا شك أن في قلوبكم حسرة دائمة بأن تجدوا فرصة للقتال دفاعًا عن وطنكم. وها قد سنحت لكم هذه الفرصة. إن العدو قد شق صفوفنا، والوطن ينظر إليكم لتتقدموا وتسدّوا هذه الثغرة في الصفوف. فأخذ كل واحد منهم ما وقع في يده، ووصلوا إلى جبهة القتال وسدّوا الثغرة حيث بدا للرائي أنهم جنود. وظل هؤلاء متصدّين للعدو هناك أربعًا وعشرين ساعة حتى وصل المدد من المناطق الأخرى.

هذا المشهد مثال لما يفعله الملحدون الذين يعبدون المادة. فإنهم إذا لم يجدوا وليًا ولا نصيرًا سوى الله تعالى آمنوا به، ولكنهم ينسون الله تعالى عند زوال المصيبة، ويعزون نجاحهم إلى جهدهم وحنكتهم أو إلى آلهتهم. ويقول الله تعالى إلى متى سيفعلون هكذا؟ إننا نمهلهم ليتوبوا، فيزدادون انغماسًا في ملذات الدنيا. ولكن سيأتي يوم يُحرَمون فيه من هذه الفرص أيضًا، فلن ينصرهم أي إله زائف، ولن يجدوا من موجات العذاب العارمة مخلصًا.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ٦٨﴾

التفسير: لقد قدّم الله تعالى من قبل شهادة الفطرة الإنسانية على وحدانيته، وبيّن أن المشركين يكفرون بالله تعالى ولكن عندما تحل بهم مصيبة تزول حُجب الجهل أو التعصب القومي عن عقولهم، فيخرون على عتبة الله تعالى، ويدعونه مخلصين له الدين. إن نداء فطرتهم هذا دليل أن قلوبهم تشعر بعظمة الله وكبريائه، وإلا لماذا تدفعهم فطرتهم عند حلول مصيبة إلى الاعتراف بوحدانية الله علنًا؟ أما الآن فقدم الله تعالى الكعبة المشرفة دليلاً على وحدانيته، وقال: ألم يرَ هؤلاء أن الناس من كل أنحاء الجزيرة العربية يتعرضون للنهب والسلب والقتل، ولا ضمان لحياتهم وكرامتهم وشرفهم، بينما لا يجرؤ أحد على أن يشير بالبنان إلى أهل مكة بسبب جوارهم لبيت الله الحرام؟ لماذا يتمتع أهل مكة بهذه النعمة العظيمة؟ أهذا راجع إلى كفاءتهم الشخصية، أم أنهم نالوا هذا الشرف نتيجة الأدعية التي قام بها إبراهيم عليه السلام عند رفع قواعد البيت الحرام حيث توسل إلى الله تعالى في تواضع وخشوع: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(البقرة:١٢٧). وحيث إنهم قد نالوا هذا الأمان وهذا الرزق وهذه العزة والصيت بسبب دعاء إبراهيم، فعليهم أن يفكروا فيما إذا كان إبراهيم قد عمرَ بيت الله ليوضَع فيه ثلاث مئة وستون صنمًا أم ليُعبَد الله فيه وحده؟ هل عمرَه ليخرّ الناس أمام الأصنام المنحوتة من الحجر أم ليضعوا جباههم على أعتاب رب العالمين تحقيقًا لأمر الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(البقرة:١٢٦). وحيث إن هذا البيت لم يُعمَر إلا ليكون مركزًا لعبادة الإله الأحد، ولم يتمتع أهل مكة بهذا الشرف العظيم بين العرب كلهم إلا نتيجة دعاء إبراهيم ولكونهم سدنة بيت الله، أفليس من المؤسف المخجل أن يضعوا نواصيهم الخاطئة أمام آلهة باطلة ويؤكدوا بأعمالهم على أسوأ أنواع نكران الجميل، مع أنهم

يرون بأُمّ أعينهم هذه الآية الإلهية العظيمة، ومع أن كل حجر في البيت الحرام يوجّههم إلى عبادة الله وحده.

لقد بيّنتُ هذا المعنى نظرًا إلى أهل مكة، ولكن لو نظرنا إلى هذه الآية من منظور آخر لوجدنا أن الله تعالى قد اعتبر البيت الحرام الذي هو مركز التوحيد وسيلةً عظيمة لإرساء السلام في العالم، فبين أن الدنيا لن تتمتع بالسلام الحقيقي إلا إذا ارتبطت بمركز وحدانية الله.

يوجد اليوم في الدنيا أديان كثيرة جدًا، ويوجد في أحكامها اختلاف كبير، ثم يوجد في أفكار أتباع هذه الديانات اختلاف كبير بحيث يبدو اتحادهم واتفاقهم ضربًا من المستحيل. هناك شيء واحد يمكن أن تتحد عليه الأديان كلها وهو وحدانية الله تعالى. فكما أن اختلاف الإخوة الأشقّاء فيما بينهم ممكن ولكن اختلافهم على أبيهم محال، كذلك مهما اختلفت الأديان فيما بينها إلا أنه لا يمكن أن يختلف أي منها في وحدانية الله تعالى، وهذه العقيدة هي الوسيلة الوحيدة القوية التي تؤدي إلى المؤاخاة الحقيقية بين البشر. فما لم يفكر الجميع أن الإنسانية كلها من خلق ربه، وأن الله الذي خلقني هو الذي خلقهم لن تزول مشاعر الاحتقار والعداء من القلوب. وهذا هو الأمر الذي قد ركز عليه الإسلام قبل كل شيء آخر لإرساء السلام العالمي، فأقام توحيد البارئ تعالى في العالم ورسّخ في القلوب أن رب الإسلام هو رب العالمين.. أي أنه رب المسلمين تمامًا كما هو رب الهندوس والنصارى واليهود والزرادشتيين وغيرهم. ولو فكر المسلم الصادق أن المسيحي أو اليهودي أيضًا عبد لربي كأي مسلم لما حمل في قلبه بغضًا نحو هندوسي أو مسيحي أو يهودي أو زرادشتي، بل اعتبر الجميع إخوانًا له، ومدَّ إليهم يد المحبة كما يمدها إلى أخيه المسلم.

إذًا، لقد علّم الإسلام درس التوحيد لإرساء السلام العالمي، ثم ربط المسلمين ببيت الله تعالى ليبقى هذا الدرس راسخًا في أذهانهم دائمًا. ذلك لأن القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾(آل عمران:٩٧).. أي أن أول بيت بُنِيَ لفائدة الإنسانية جمعاء هو ذلك الذي بمكة. ومن البديهي أن الأديان التي لم

تتجاوز نظرتها وراء الحدود القومية كان محالاً عليها بناء بيت يكون نقطة مركزية لاتحاد الإنسانية كلها، إنما كان بناء مثل هذا البيت ممكنًا فقط بناءً على وحي الله تعالى ومشيئته، فوضع الله تعالى أساس الكعبة المشرفة لجمع الإنسانية كلها على مركز واحد، وتمّ تجديد بناء هذا البيت على يد إبراهيم عليه السلام الذي أعلن في الدنيا لأول مرة أن هذا البيت المقدس قد بُني ليزوره الناس ويطوفوا به ويعبدوا الله فيه ويذكروه، وينذروا حياتهم لخدمة الدين.

إلى هذه المنة العظيمة قد لفت الله تعالى الأنظار في الآية قيد التفسير، فقال ألا يفكّر الناس كيف دبّرنا لإرساء السلام العالمي من خلال هذا البيت تدبيرًا رائعًا، وكيف جمعنا العربي والأعجمي، والشرقي والغربي، والأبيض والأسود، والأحمر والأصفر كلهم على مركز واحد؟ وكيف أعطينا للذين ينتمون لهذا البيت منهجًا داعيًا إلى السلام، فمن عمل به لم يُحرَم السلام هو ولا من هو على صلة به. وليس هذا فحسب بل لا ينتمي إلى هذا البيت حقًّا عند الإسلام إلا من سلِم الناس كلهم من شرّ يده ولسانه. وهذا يعني أن الله تعالى لم يفتح من خلال بيت الله مدرسة للسلام فحسب، بل كل أولئك الذين يتعلمون فيها يصبحون دعاة السلام العالمي؛ إذ لا يظلمون أحدًا، ولا يغضبون على أحد بغير حق، ولا يصرعهم الجشع، لأن هذه هي المساوئ التي تدمر السلام العالمي. ثم إنهم ينعمون باطمئنان القلب نتيجة تعلُّقهم الصادق بالله تعالى، بينما تحترق باقي الدنيا في نيران الطمع والجشع، فلا يجدون السكينة في قلوبهم، ولا يحظى بها من له صلة بهم أيضًا. وقد أشير إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.. أي أن الذين ينتمون إلى بيت الله ينعمون بالسلام نتيجة العمل بتعليم الله الأحد، ولكن الشعوب التي تعيش حولهم محرومة من السلام لكفرها بأحكام الإسلام؛ حيث تندلع بينهم الحروب، وتقع فيهم صنوف النزاع والفساد وتتعرض أموالهم للسلب والنهب. باختصار لا يتمتع بالسلام إلا الذين آمنوا بالله الأحد وارتبطوا ببيته الحرام بصدق، أما سائر الدنيا فهي عرضة للفوضى، وكل قلب فريسة للقلق والاضطراب. فالله تعالى يقدم هذا الفارق الواضح بين الفريقين ويقول: ما دام هذا الانقلاب العظيم قد حصل

فعلاً من خلال بيت الله، فهل لا يزالون موقنين بنجاح خططهم الباطلة ناكرين للنعمة الإلهية العظيمة التي أنزلها الله من السماء لدفع قلقهم واضطرابهم. إذا كانوا يريدون إرساء السلام في العالم فعلاً فإنما سبيله أن يؤمنوا بالله الأحد وينضموا إلى جماعة الذين ينتمون إلى بيت الله، إذ إن إرساء السلام الحقيقي في العالم بدون إصلاح الروحانية محال.

تسعى الدنيا لإرساء السلام في العالم من خلال السلاح والقانون أو العقل، ولكن هذه الثلاثة غير كافية لإرساء السلام وإن كان كل واحد ضروريًا في حد ذاته. هذه العناصر الثلاثة غير قادرة على إرساء السلام العالمي إلا إذا كانت معها الروحانية. إن إرساء السلام في العالم بالسلاح محال لأن هذا يؤدي إلى سباق التسلح، حيث تعقد الشعوب الهدنة بعد الهدنة فيما بينها من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تزال تجمع الأسلحة. فكما أن الشخص الثري لا يمكن أن يسافر بدون أن تكون محفظته مليئة بينما يخرج الفقير للسفر بدون أية نقود، كذلك لا تزال الشعوب المتعطشة إلى الأسلحة منهمكة في جمعها رغم عدم حاجتها إليها، لأنها تخاف جيرانها فلا تطمئن إلا إذا جمعت عندها أسلحة كثيرة. ويفشل القانون في إرساء السلام أيضًا لأنه يحكم على الظاهر فقط دون الباطن. ويفشل العقل في إرساء السلام لأنه غير تابع للأخلاق. فإن الذي يفكر بالعقل فقط يعمل ما فيه مصلحته ومصلحة صاحبه، دون أن يفكر أن من الفوائد الظاهرة ما يؤدي إلى الضرر الروحاني أيضًا، وأن صداقة القريب قد تضر بالبعيد. ولكن الروحانية توجّه الإنسان إلى الخير دائمًا، لأنها اسم لصياغة المشاعر والعواطف في قالب الأخلاق، وإذا صيغت المشاعر في الأخلاق صحبها العقل أيضًا؛ فلا يزال المرء متمسكًا بالخير دائمًا، فلا يثنيه عنه طمع ولا إغراء ولا خوف.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٩﴾

التفسير: لقد زاد الله تعالى هنا لفظ ﴿كذبًا﴾ لأن من المفترين على الله من ينسب إليه تعالى ما يكون موجودًا في كتابه تعالى وإن لم يُوحِ به إليه هو، ومنهم من ينسب إلى الله تعالى ما لا أساس له مطلقًا في أي كتاب سماوي، فهذا الشخص يفتري ويكون أساس افترائه الكذب تمامًا.

لقد نبه الله تعالى في هذه الآية منكري الإسلام أن فيهم عيبين خطيرين جدًا، **أولهما** أنهم يفترون على الله تعالى ما ليس له أساس في أي وحي بل هو كذب صريح. فمثلاً يقولون: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾(الكهف:٥)، وهذا افتراء صريح أساسه الكذب؛ ومن أجل ذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم مشيرًا إلى عقيدتهم هذه: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِباً﴾(الكهف:٦)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:٢٩)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾(الأنعام:١٠١).. أي أنهم وصفوا لله شركاء من الجن مع أنه تعالى هو الذي خلقهم، واقترحوا له بنين وبناتٍ بدون علم مع أن الله تعالى منزه عن جميع هذه العيوب والنقائص وأسمى مما ينسبون إليه.

والعيب الثاني فيهم أنهم ينكرون هدى الله الذي يعرض عليهم. فيحذرهم الله تعالى أنهم إذا كانوا لا يخجلون من الافتراء على الله كذبًا ولا يقبلون الحق أيضًا، ومع ذلك يظنون أنهم سينجحون فلا شك أنهم مصابون بالوهم. إنما السبيل إلى النجاح إقامةُ صلة صادقة مع الله تعالى وقبول الهدي النازل منه. وحيث إن

المسلمين يتحلّون بهاتين الميزتين فسيصدر الله تعالى قراره في حق المسلمين وليس مصير الكفر إلا الفشل.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٠﴾﴾

التفسير: بعد أن نبّأ الله تعالى عن فشل الكافرين وهلاك الكفر والشرك، أخبر الآن عن حسن عاقبة الذين صبروا في كل اختبار ولم تزلّ قدمهم بعد ثبوتها وظلوا يضحّون في سبيل الله ورسوله، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.. أي الذين يسعون جاهدين ويخرّون على أعتابنا دائمًا متفانين في حبنا للتقرب إلينا، سنكتب لهم النجاح تلو النجاح، ونهديهم إلى طرق لا نهاية لها من الرقي والعروج. وهذا يعني أن العدو إذا أغلق عليهم بابًا للرقي فتح الله عليهم مئة باب، وهكذا فإنهم لا يحققون أهدافهم المادية فحسب، بل يزدادون قربًا من الله تعالى باستمرار، وكل خطوة يتخذونها تزيدهم حظًا من بركات الله وأنواره.

لقد أعطى الله تعالى هنا الإنسانيةَ رسالة أمل تبعث الحياة في القلوب الميتة، وتحملهم من الفرش إلى العرش. الواقع أن فشل الإنسان راجع في كثير من الأحيان إلى قنوطه، حيث يظن أن لا فرصة له الآن للرقي، ولكن الله تعالى يعلن أن هذا خطأ، فإن الذين يجتهدون من أجل حبنا ووصالنا ندلهم دائمًا على طرق توصلهم إلينا؛ شريطة أن يجتهدوا بحسب الطرق التي وضعناها لذلك وليس بحسب المعايير التي اخترعوها من أنفسهم؛ وقد أُشير إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فِينَا﴾.

كما أن هذه الآية لا تحمل في طياتها بشرى عظيمة للمسلمين فحسب، بل فيها رسالة حياة عظيمة لغيرهم أيضًا بمن فيهم الملحدون أيضًا؛ فهي توضح للملحدين أن رب الإسلام هو رب العالمين، وقد فتح أبواب محبته للناس جميعًا، فلا داعي ليأسهم. فإذا كانوا يبحثون عن الحق بصدق القلب، وإذا كانوا يريدون أن يعرفوا خالق هذا الكون - إن كان له خالق - ويتخلصوا من الوساوس والشبهات،

فسبيله أن يدعوا بصدق القلب قائلين: أيها الإله، إن كنت موجودًا وإن كنت ذا قدرة مطلقة كما يقول المؤمنون بك، فارحمنا واهدنا إليك، واعمر قلوبنا بالإيمان واليقين بك لكي لا نُحرَم من حبك. فلو قام الملحد بهذا الدعاء أربعين يومًا على الأقل بلا انقطاع، فلا بد أن يهديه الله رب العالمين إلى سبيله، أيًا كان بلده ومهما كان قلبه محجوبًا تحت الظلمات، وسيرى بدون انتظار كثير أن الله تعالى سيتجلى عليه بحيث تتبدد ظلمة الشكوك والشبهات عن قلبه كلية، وتخر روحه ساجدة على أعتاب الله تعالى.

ثم إن هذه الآية تحمل بشرى لأتباع الأديان الأخرى أيضًا، لأنهم إذا كانوا يبحثون عن الدين الحق فعلاً برؤية اختلاف الأديان فيما بينها، فعليهم بالدعاء والابتهال أمام الله تعالى، فسيهديهم يقينًا ويكشف عليهم سبيل الحق بطريق أو بآخر.

أتلقى الرسائل من غير الأحمديين في كل سنة بمعدل ثمانية أو عشرة رسائل سنويًا يقولون فيها: كنا من أشد معارضي الأحمدية، ولكن الله تعالى قد أخبرنا بالرؤية أن الأحمدية على الحق، فها نحن نتوب وننضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية. إذًا، فالذي يرجع إلى الله تعالى بصدق فلا بد أن يهديه إلى الحق بطريق أو آخر، شريطة أن يكون جادًّا ولا يكون هدفه إلا الفوز برضا الله تعالى.

وكما قلت من قبل إن هذه الآية بشارة عظيمة للمؤمنين أيضًا أنهم لو اجتهدوا للتقرب إلى الله تعالى باستمرار وبصدق القلب فلا بد أن يهديهم إلى طرق لا تعد ولا تحصى من قربه، وسيعطيهم بغيتهم ويشرفهم بإلهامه وكلامه. وهناك رؤيا لي تشير إلى الأمر نفسه. لقد رأيت في المنام قبل فترة أن كثيرًا من الناس جالسون في مكان فأخاطبهم قائلا: سأبين لكم تصوُّر الإله كما تقدمه شتى الديانات. فألقيت خطابًا بينت فيه لهم تصور الديانة البوذية عن الله تعالى. ولما تدبرت في هذه الرؤيا في الصباح علمت أنني استخدمت ألفاظ "تصوُّر اللهِ" على سبيل الاختصار وإلا كان قصدي "تصوُّر وصالِ الله تعالى". وما قلت في خطابي أمامهم هو كالآتي:

"انظروا إلى السمكة فإنها تعيش في الماء ولكن أشعة الشمس التي تنعكس من الماء أو ذرات رمال النهر تؤثر في جسمها تأثيرًا حتى تؤدي إلى نشوء الحراشف فيه - وبالفعل ليست هذه الحراشف إلا نتيجة تأثير أشعة الشمس التي تنعكس عليها من الماء والرمال، فيصبح جسمها لامعًا، فلو كان الرمل ذهبيًا كانت الحراشف أيضًا ذهبيةً، وقد رأيت بنفسي أسماكًا ذات حراشف ذهبية؛ بل تكون بعضها ذات سبعة أو ثمانية ألوان، وبعضها تكون زرقاء تمامًا كأنها فيروزةٌ - ثم أقول في المنام لهؤلاء الجالسين: إذا كان الجسم الكثيف يقبل تأثير الأشياء الأخرى نتيجة اتصاله بها، فكيف لا تقبل الروح تأثيرها وهي شيء لطيف للغاية؟ ثم أبين لهم فضل الإسلام على الأديان الأخرى وأقول: خذوا مثلاً الديانة البوذية، فإنها تخبر أن وصال الله ممكن، ولكنها لا تدل على الطريق لذلك، أما الطريق الذي يذكره البوذيون فطويل جدًا ولا يمكن العمل به. يقولون أن بوذا ظل جالسًا تحت شجرة خيزران ستين سنة للتقرب إلى الله تعالى، واستغرق في عبادة الله وذكره لدرجة أن خيزرانة جديدة نبتت من تحته حتى بلغت قمة رأسه دون أن يشعر بذلك. ولا شك أنها خرافة لا يقبلها العقل. ولكن الإسلام لم يخبر أن وصال الله ممكن فحسب، بل دل أيضًا على طريقة إذا سلكها الإنسان وصل إلى الله تعالى. إن الديانة البوذية لا تركز على قبولية الدعاء مثلاً، بل تركز على "النروانا" فقط (Buddhism: p.40).. أي أن ينفض الإنسان من قلبه كل رغبة وأمنية.. مع أن حب قرب الله تعالى أيضًا رغبة، فإذا طرد المرء من قلبه كل رغبة فكيف تبقى فيه رغبة حب الله تعالى؟ فثبت أن الديانة البوذية تقول كلامًا متعارضًا. أما الإسلام فيعلن أن الإنسان ليس بحاجة إلى مجاهدات طويلة للوصال بالله تعالى، بل إذا كان يحب ربه فليدعُ ربه في ابتهال وخشوع بأن يرزقه قربه ويفتح عليه أبواب بركته، فسوف يشرفه الله تعالى بقربه يقينًا لأنه قد أعلن في القرآن الكريم: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة:١٨٧). فشتان بين هذه الطريقة البسيطة بأن يدعو الإنسان ربه وسيحظى بقربه فورًا وبين ما ينسب إلى بوذا بأنه جلس تحت خيزرانة ستين عامًا حتى نبتت من تحته خيزرانة أخرى ووصلت إلى قمة رأسه.

باختصار قد جعل الله تعالى طريق وصاله سهلاً جدًا في الإسلام، ولو كان في قلب المرء شيء من حب الله لتشرف بوصاله يقينًا.

كذلك رأيت مرة في الرؤيا أني في مدينة "لكناء"، وجاء بعض رؤسائها للقائي وجلسوا في غرفة مفروشة بالسجاد. فسألني أحدهم: ما السبيل لبقاء الروح حيًّا؟ فقلت له في الجواب: هناك شيئان ينبضان بالحياة: الجسم والروح. عندما يكون الطفل صغيرًا لا يقدر على المشي ولا العمل بنفسه، فما هو الطريق الذي جعله الله لاستمرار حياته؟ إنما هو قوة البكاء التي خلقها الله فيه. ذلك أن أُمّه لا تبقى معه دائمًا، بل تظل مشغولة؛ حينًا في الطهي، وحينًا في غسل الأواني والثياب، وحينًا في الحديث مع صديقاتها، وحينًا تداعب زوجها؛ فإذا جاع الولد أو مرض أو أحسّ بخطر أخذ في البكاء والصراخ عاليًا فتأتي إليه أمه مسرعة. هذا هو الطريق الذي جعله الله تعالى لاستمرار حياة الجسم. وقد جعل الله تعالى طريقًا مماثلاً لاستمرار حياة الروح أيضًا. فعندما تصاب روح الإنسان بالضعف والكسل يخرّ ساجدًا أمام الله تعالى ويدعوه باكيًا كطفل صغير، فيأتي الله إليه مسرعًا ويسدّ حاجته. وبينما أقول ذلك أتحمس في خطابي فيرتفع صوتي وأرفع إصبعي ثم أضعه على السجاد وأقول: هكذا يضع طفل الروح الإنسانية رأسه على السجاد باكيًا، وتسقط دموعه عليه، فيأتيه الله لدفع أذاه هرولةً كما تهرول الأم إلى ولدها.

وباختصار إن البكاء والدمع هما اللذان يُنقذان جسم الإنسان، وهما اللذان ينقذان روحه أيضًا. وقد بين الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أنه يجري إلى عبده ليجيب على حبه بحب كما تجري الأم الرءوم إلى ولدها عند سماع بكائه، وإذا حصل فتور في علاقة المحبة هذه فإنما يحصل من قِبَل العبد، أما الله تعالى فيريد أن يشمل عباده بحب أشد من حب الأم الرءوم. إنه تعالى يريد أن يعامل عبده بالحب واللطف، ويحمله في حضن محبته ويسلّيه، ولكن المشكلة أن العبد الضعيف الذي هو عرضة للمصائب ويرزح تحت الآلام والذي هو بحاجة إلى نصر الله وعونه دائمًا لينجيه من الآلام ويلهمه السكينة، أقول إن هذا العبد

الضعيف نفسه يُبدي استغناءً عن الله تعالى، أما الله المستغني فيضطرب على عرشه من أجل عبده لكي يأتي إليه ليشرِّفه بقربه.

كما أن هذه الآية إشارة إلى قبولية الدعاء أيضًا، حيث بيّن الله تعالى أن الذين يجتهدون لتحقيق مقاصدهم وفق مشيئتنا داعين إيانا مستعينين بنا، لا بد أن نفتح عليهم طرقًا لتحقيق أهدافهم، وسنمكّنهم مما يبدو مستحيلاً.

حُكي أن أحد الصلحاء أتاه بلاغ بأن قضية قد رُفعت ضده من قبل بعض الناس، وأن عليه المثول أمام الملِك. فأخذته الحيرة لأنه كان يقضي كل وقته في ذكر الله تعالى، ولكن البلاغ كان من قبل الملك فخرج على حصانه للمثول أمام الملك. وبعد أن قطع مسافة عدة أميال جاءت عاصفة وأظلمت الأرض وغيّمت السماء، ونـــزل المطر غزيرًا. وكان عندها يمرّ في غابة لا يوجد فيها آثار العمران على مدى البصر إلا بضعة أكواخ، فذهب إلى كوخ ونادى للاستئذان. فسمع من داخل الكوخ صوتًا يقول: تفضل. فربط الحصان ودخل في الكوخ، فوجد فيه شخصًا معوقًا مستلقيًا على السرير. فرحب به صاحب الكوخ بحفاوة ودعاه للجلوس بجنبه وسأله عن اسمه وقصده. فأخبره الرجل الصالح أنه فلان ابن فلان وأنه ذاهب للمثول أمام الملك بعد أن تلقى منه بلاغًا، وأنه في حيرة من هذا البلاغ لأنه يعيش بعيدًا عن نـــزاعات الناس دائمًا. فلما سمع قصته قال: لا تخف، إذ لم يأتك البلاغ إلا لأن الله أراد أن تزورنا. إنني رجل معوق لا أقدر على الحراك وأظل مستلقيًا على السرير ليل نهار، وقد سمعت من أصدقائي عن صلاحك وحسن سيرتك، وكنت أدعو الله تعالى دائمًا قائلا: رب إن ذوي الحظ يزورون هذا الرجل الصالح، ولكني إنسان مسكين عاجز فكيف أصل إليه؟ فارزقني رؤيته كيفما شئت. وأرى أن الله تعالى أتى بك إلي من خلال هذا البلاغ. فلم يلبثا حتى سمعا من الخارج صوت إنسان يقول: المطر غزير، أمسموح لي دخول الكوخ؟ ثم دخل شخص وكان ساعي بريد ملَكي، فسألاه عن قصده فقال: لقد أمرني الملك بالذهاب إلى فلان من الصالحين لأبلغه أن الملك قد استدعاه إلى محكمته خطأ؛ الحق أن البلاغ كان موجهًا إلى شخص آخر ولكنه صدر باسمه لأن اسمهما واحد، فلا حاجة له

بالمثول أمام المحكمة. فتبسم صاحب الكوخ وقال للرجل الصالح: ألم أقل لك إن الله تعالى قد أتى بك هنا من أجلي فقط، أما البلاغ فهو مجرد وسيلة لمجيئك هنا.

فهذا ما يؤكده الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

ثم إن هذا القول الرباني إشارة إلى أنه لا يكفي المرءَ قبول الإسلام وقوله باللسان إني مؤمن، بل إن سبل العلم والعرفان والقرب الإلهي لا تُفتح إلا على الذين في قلوبهم لوعة عارمة ورغبة صادقة، ويجتهدون للتقرب إليه بوَله وتفان؛ من أجل ذلك قد صرح الله تعالى هنا أنه يساعد الذين يسعون للتقرب إليه جاهدين، ولم يقل أبدًا أن الذين يفرّون منه فيأتي بهم إليه قسرًا، والذين يعرضون عنه فيؤيدهم بنصره، والذين يفضلون الجلوس نكرههم على القيام، والذين يريدون أن يسقطوا نرفعهم قسرًا، والذين يريدون أن يكفروا ندخلهم في المؤمنين جبرًا. كلا، بل يوضح الله تعالى في القرآن الكريم أن الذين يؤثرون الكفر نجعلهم كافرين، والذين يحبون الإيمان نجعلهم مؤمنين. وباختصار إن حياة الإنسان إنما تتلخص في أن يعقد العزم على التمسك بالخير بقوة كما يمسك الكلب المدرب صيده بأسنانه بقوة، حيث يمكن أن تنكسر أسنانه ولكن من المحال أن ينفلت منه صيده. عندما يسلك الإنسان طريق الحق بهذه النية والعزيمة ويتمسك بالخير بقوة فيمضي في الخيرات قدمًا، لأن كل حسنة ستدفعه إلى حسنات أخرى. فمن أخرج الصدقة بصدق القلب فلا بد أن يوفَّق للصلاة أيضًا، ومن أدّى الزكاة بصدق فلا بد أن يوفَّق للصوم أيضًا، ومن صام بإخلاص فلا بد أن يوفَّق للصلاة والزكاة والحج أيضًا؛ ذلك لأن كل حسنة توجّه الإنسان إلى حسنة أخرى، إذ كيف يمكن أن يواسي المرء الفقراء عطفًا عليهم ويطعمهم لوجه الله خالصًا وليس لمنفعة مادية، فيضع عنده بعض الفقراء ماله أمانةً، فيخون فيها؟ كلا إنه محال تمامًا. إن الذي يعطف على الآخرين لهذه الدرجة ويكون مستعدًا لتقديم أي تضحية لهم على الدوام كيف يمكن أن يخون أماناتهم؟ لو أن الناس كلهم قالوا إنه أكل مال الآخرين فنقول إنهم كاذبون، لأن الذي يحب أن يضحي بماله من أجل الآخرين لا يمكن أن يأكل مالهم أبدًا. كذلك كيف نصدق أن إنسانًا يصوم ويجوع لوجه الله تعالى ولكنه لا يريد

أن يصلّي من أجله؟ قد يترك الصلاة يومًا أو يومين أو ثلاثة أيام، ولكن ستلومه نفسه في النهاية بأنه إنسان أحمق حيث يجوع لوجه الله تعالى ولا يريد أن يعبده، فسوف يصلي في النهاية، وإذا بدأ الصلاة فلن يتركها أبدًا ولو أكرهه أحد على تركها. لو أُلقي في السجن فسيصلي في السجن أيضًا، ولو رُبط بسريره فسيصلي مستلقيًا، لأن الحسنة توفّق صاحبها للقيام بحسنة أخرى.

إذًا، فإن سرّ الرقي أن المرء إذا وجد الخير استمسك به بقوة. عليه أن يصمم في قلبه أولاً أنه سيختار الخير أينما كان ولن يتخلى عنه أبدًا، وبعد هذا القرار حيثما وجد الخير أخذه بقوة مصممًا على أنه لن يتركه مهما حدث. وإذا بلغ الإنسان هذا المقام استعد لأن يتعلم من أي شيء في الدنيا، فيتعلم من الطفل الصغير والشيخ الكبير ومن المجنون أيضًا. سئل الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - ذات مرة: إنك إنسان عظيم ويتعلم منك الناس كلهم، فهل تلقّنت من أحد درسًا لم تَنْسَه؟ فقال: مرارًا، وإن أكبر درس تلقّنتُه في حياتي كان على يد طفل صغير. قيل: كيف؟ قال: كنت ذات يوم أمشي في المطر، فمرّ بي طفل مسرعًا عمره قرابة ثماني سنوات، فقلت له: أيها الطفل، امش بحذر كي لا تنــزلق في الوحل. فنظر إلي وقال: أيها الإمام، لا تهتم بزلة قدمي وإنما عليك أن تهتم بنفسك لأنه لو زلّت قدمي فلن أسقط إلا أنا فقط، أما إذا زلّت قدمك لزلّت قدم العالم كله، لأن الإمام إذا أخطأ أخطأ الذين يتّبعونه أيضًا. ثم ذهب الطفل لسبيله، ولكني استمتعتُ بوعظه طويلاً. والحق أنني لم أسمع من أحد قط نصيحة أبلغ من هذه. (تذكرة الأولياء: الإمام أبو حنيفة ص ١٤٧)

فالواقع أن من أراد أن يتعلم فيتعلمُ من الطفل أيضًا، بل لو أراد أن يتعلم فعلاً واعتاد على التفكر والتدبر لأصبحت له أحجار الأرض وأشجار الجبال وأعشاب الغاب تفسيرًا للقرآن وشرحًا للحديث. وأما من لم يرد أن يفهم فلن ينفع مثلَ هذا الشقيّ القرآنُ ولا الحديثُ ولا محمدٌ رسول الله ﷺ.

ثم إن قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وصفةٌ رائعة لاطمئنان القلب الذي تتلهف له اليوم الدنيا كلها، حيث تجد كل إنسان يقول: ما السبيل إلى السكينة والطمأنينة؟ الحق أن اطمئنان القلب لا يتيسر إلا بطريقين اثنين:

فإما أن يتحقق للمرء كل ما يتمناه، أو أن ينمحي من قلبه كل رغبة وأمنية تافهة، فتبقى فيه الأماني الجيدة التي يمكن تحقيقها أيضًا، ومن بلغ هذا المقام نعِم باطمئنان القلب. لقد أخبر الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم أنه لم يخلق الإنسان إلا أن يحاول الاتصاف بصفاته تعالى (البقرة:١٣٩)، وقد قال الله تعالى هنا أن الذين يجاهدون من أجل هذه الغاية بصدق النية نضمن لهم تحقيقها؛ وهذا يعني أن القرآن الكريم كفيل باطمئنان قلب الإنسان. فقد أمر الله تعالى في الآية الأولى أن يتذكر الإنسان دائمًا أنه قد خُلق في الدنيا لغاية عليا، وهي أن يحاول التحلي بصفات الله تعالى.. وبتعبير آخر أن يسعى ليكون مرآة ينعكس فيها وجه الله تعالى؛ أما في الآية الثانية التي هي قيد التفسير فوعد الله تعالى فيها أن مَن يسعى بصدق لتحقيق غاية خلقه لنجعلنّه من الفائزين. ذلك أن المرء لو أدرك أنه ليس بفانٍ كليةً بل إن جسمه فقط فانٍ أما روحه فهي باقية غير فانية، فتمتَّعَ بالأشياء المادية الفانية بحد معقول فقط لبقاءً جسمه، وركّز اهتمامه على التحلي بالأخلاق التي هي غير فانية لبقاء روحه؛ حقق غاية خلقه بعون الله تعالى ونال اطمئنان القلب لأن رغبته وغايته قد تحققت. أما إذا ظل المرء يقفز كالقرد هنا وهناك باحثًا عن الملذات الفانية لإشباع أهواء جسمه الفاني متناسيًا روحه التي لا فناء لها، لتولدت فيه رغبات وأهواء كثيرة لن يقدر على تحقيقها كما لن يتيسر له عون الله تعالى في سبيل تحقيقها، فيزداد فشلاً في حياته وحرمانًا من سكينة القلب. لا جرم أن بعض الناس ينالون نصيبًا لا بأس به من التركيز الذهني (Concentration of mind)؛ حيث يضعون أمامهم هدفًا سياسيًا أو تعليميًا أو اجتماعيًا، ويحرزون شيئًا من النجاح أيضًا نتيجة جهودهم المضنية، وينالون اطمئنان القلب في الظاهر أيضًا، ولكن اطمئنانهم يماثل اطمئنان طفل تعطيه لعبةً لتلهيه بها، وليس سبب اطمئنانهم أنهم قد حققوا الغايات العليا بل لأنهم قد نسوها. إنهم يصابون بإدمان الأفيون الفكري. يتعاطى عقلهم الأفيون الفكري، فلا يحسّون بالألم رغم وجوده.

هذا، ويثير البعض اعتراضًا حول قوله تعالى: ﴿سُبُلَنا﴾ ويقول: لقد قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِه﴾(الأنعام:١٥٤)، وهذا يعني أن سبيل الله واحدة وأما الشيطان فله سبله الكثيرة، فكيف قال الله تعالى هنا ﴿سُبُلَنا﴾.. أي أن له ﷻ سبلاً كثيرة؟

فليكن معلومًا أنه ليس ثمة اختلاف حقيقي بين الآيتين، وإنما المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ أنه لا حاجة بالناس أن يتوجهوا إلى الأديان الأخرى الآن من أجل الوصول إلى الله تعالى، إنما الإسلام هو الدين الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى ربه الآن. أما قوله تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فيعني أن سبل الرقي الروحاني ومنازله لا تعد ولا تحصى، فبعد كل سبيل هناك سبيل أخرى، عندما يسلك المؤمنون سبيلاً توصلهم إلى الله تعالى يكشف تعالى لهم سبيلا أخرى من قربه، وعندما يسلكونها أيضًا يهيئ الله لهم فرصًا أخرى للرقي الروحاني، وهكذا يمضون قدمًا في مجال الخير والعرفان.

يقوم البعض باستدلال خاطئ من هذه الآية مفاده أن الإيمان بالرسول ﷺ والعمل بأحكامه ليس ضروريًا - والعياذ بالله - بل بوسع الهندوسي أو السيخي أو الزرادشتي وغيره أن ينال النجاة متبعًا دينه. وهذا خطأ، لأن الله تعالى قد صرح في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(آل عمران:٣٢).. أي يا محمد، قل للناس إن كنتم تريدون أن تحظوا بحب الله تعالى ورضاه فاتّبعوني، فيحبّكم الله تعالى أيضًا. فليس صحيحًا أبدًا أن الإنسان يمكن أن يحظى بقرب الله تعالى الآن بدون اتباع النبي ﷺ، وإنما تعني هذه الآية أن الإنسان إذا بحث عن الحق بصدق القلب دلّه الله تعالى على طريق الهدى، فيكشف عليه صدق الإسلام من خلال الرؤى والكشوف، أو يشرح صدره لحب الإسلام ومحمد ﷺ، فيؤمن به ويعمل بأحكامه وبالتالي يحظى بحب الله تعالى، أما بدون طاعة الرسول ﷺ وبدون العمل بأحكام الإسلام فالنجاة مستحيلة.

وقال الله تعالى في الأخير: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فأشار بذلك مرة أخرى إلى الاختبارات والصعاب التي لا تزال هذه السورة تتحدث عنها منذ البداية، فأوضح تعالى أنكم لن تطبخوا الطعام بأنفاس، ولن تحفروا الجبل بغُصن، ولن تعبروا

النهر بقشّة، فإذا كنتم تريدون حب الله تعالى حقًّا فلا بدّ لكم من أن تظلوا ثابتين في كل اختبار، وتقفزوا في نيران التضحيات مرة بعد أخرى، وعندها سيكتب الله لكم الفوز في كل موطن، وسيُظهر لكم غيرةً تفوق غيرة الأُمّ لولدها. فلا بد لكم أن تؤمنوا بالله بصدق ولا تترددوا في تقديم أي تضحية في سبيل دينه.

والمحسن في العربية من يطيع الأمر بجميع شروطه. إذًا، فقد نبهنا الله بقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أن الذين يطيعون أوامرنا حق الطاعة.. أي يقومون بالجهاد كما ينبغي، ويسعون لنيل رضوان الله حق السعي، سنكون معهم ونكتب لهم النجاح في كل موطن.

وهذا يعني أن الذين يسعون لنيل رضا الله تعالى ولكن لا تأتي مساعيهم بالنتيجة المرجوة، فعليهم أن يعرفوا أن هناك خللاً ما في أعمالهم يحول دون فوزهم بقرب الله ونصرته. فعليهم أن يهتموا بإصلاح أنفسهم لأنهم لا يقومون بأعمال المحسنين، بدلاً من أن يتّهموا الله تعالى بعدم العناية بهم، إذ إن الله تعالى صادق الوعد لا يكذب ولا يخلف وعده أبدًا، لكنهم هم الذين يكذبون حيث يدّعون حبَّ الله تعالى بدون أن يُحدثوا في أنفسهم تغيرًا طيبًا بحسب دعواهم.

ورد في الحديث أن شخصًا جاء النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن أخي مصاب بالإسهال. وبما أن الله تعالى قال في وصف العسل في القرآن الكريم: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾(النحل: ٧٠)، فأمره النبي ﷺ أن يطعم أخاه العسل، مع أن العسل مُسهِل وليس مُمسكًا بحسب التجارب الطبية. فذهب الرجل وأطعم أخاه العسل، فازداد مرضه. فرجع السائل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن مرض أخي قد ازداد؟ فقال النبي ﷺ: ارجعْ وأطعمْه العسل. فرجع وأطعمه المزيد من العسل، فازداد مرضه. فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره، فقال النبي ﷺ: إن بطن أخيك يكذب والله لا يكذب. اذهبْ وأطعمْه العسل، فذهب وأطعمه العسل. فازداد إسهاله وخرجتْ من بطنه سُدّةٌ وتوقَّفَ إسهاله. (البخاري: كتاب الطب، الدواء بالعسل)

فإذا لم تأت جهودنا بالنتيجة المنشودة فعلينا أن نتهم أنفسنا ونقول لم نعمل نحن بحسب الشروط التي وضعها الله تعالى لقربه، وإلا فإن الله صادق في وعده. لو

عملنا بحسب الشروط التي وضعها الله تعالى و لم نبرح ثابتين على الإيمان بقوة رغم عواصف الابتلاء والاختبار ضاربين أروع أمثلة الإخلاص والفداء ببذل النفس والنفيس لنــزل الله تعالى من السماء لنصرتنا، وحملنا في حضنه كطفل حبيب مدلل.

ملحقات

وَضَعَ الأصلَ الأردو: الأستاذ سيد عبد الحي شاه
ناظر التصنيف بالجماعة

(١)

فهرس المواضيع

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

ذات الله هي النقطة المركزية للدين ٨
تصوُّر الإله في الأقوام القديمة ٥٨٦
لا يمكن معرفة الله بمجرد العقل ٣٨٨
البراهين على وجود الله تعالى ٢٠٠
تحقق سلام العالم محال دون الاعتراف بذات عليا ٦٧
تخصيص الله أماكن مختلفة لتجلّيه ٥٣٥
استخدم الله لنفسه أسلوب الملوك للخطاب ٦٢٣
الإله الذي يقدّمه الإسلام ٥٣٧
تميُّز القرآن في بيان ذات الله وصفاته ٦٤
دليل على كون الله حيًّا لا يموت ١٩٥
سنة الله في إظهار الغيب على الرسل ٣٧

وحدانية الله

حقيقة وحدانية الله تعالى ٦٥١
أهمية وحدانية الله ٧٩٤
إثبات وحدانية الله ٦١٧
شهادة الفطرة الإنسانية على وحدانية الله ٧٩١
مكانة التوحيد الحقيقي ٦١٧
خمس نكات لدعم التوحيد ٦٩٥
وجود الكعبة دليل على وحدانية البارئ ٧٩٣
استقرار السلام بدون التوحيد الكامل محال ٧١
إمكانية اتحاد الأديان على وحدانية الله ٧٩٤
بيت الله الحرام مركز التوحيد ٧٩٤
ضرورة تأسيس الحوار مع أتباع الأديان الأخرى على التوحيد ٧٨٣
نشر التوحيد كان الغاية من بعثة إبراهيم ٢١٧
كان إبراهيم موحِّدا بطبعه ١٨٦
تآخي المسلمون بسبب وحدانية الله تعالى ٧٢
دحض نظرية وحدة الوجود ٦٥٢

لقاؤه ووصاله عَزَّوَجَلَّ

نار محبة الله ٧٠٧
يتميز الدين الحق بإيصال الإنسان بالله ٣٨٦
الطريق لوصال الله ١٢ ، ٢٢٣، ٨٠١
وسيلة التقرب إلى الله ونيل هداه ٣٨٨
لقاء الله يعني تأييده ونصرته ٦٧٦
المراد من سبيل الله ٨٠٦
الطريق المؤدي إلى قرب الله ١٢
مدارج قرب الله غير متناهية ٢٢٠
علامات المقربين ٣٩٠
معاملة الله مع من يسعى لإقامة الصلة معه ٧٩٨
ضرورة إحراز العبد نوعا من المماثلة مع الله للقائه ١٣
وصال الله محال دون طاعة الرسول ﷺ ٣٨٦، ٨٠٦
من الذين تُفتَح عليهم أبواب قرب الله ٨٠٣
حث الإسلام على جعل الأعمال تابعة لمرضاة الله ٢١٠
على المرء أن يقدر نعم الله تعالى ويذكرها دائماً ٦٣٣
أهمية ذكر الله ٧٥٢
نزول الملائكة على مجالس يُذكر فيها الله ٧٥٣
ثقة إبراهيم بكون الله رزاقا ٦٩٥
معارف بيَّـنها المفسر ؓ بصدد وصال الله ٨٠١

أمور متفرقة

إسلام بعض الصحابة بسبب عجز الأصنام ١٩٢
دفاع اللهِ عن النبي وأتباعه ١٩٦
استحالة تحديد قدرات الله ٧٠٩
جميع التغيرات في الكون بيد الله ٥٤٦
خلقُ الليل والنهار وحكمته ٦٢١
نظام الماء المدهشُ ٤٨٩
نظام الرزق المدهشُ في الكون ٧٨٢
الثروة الموهوبة للإنسان من الله ٦٩٧
معنى اضطراب الله للرجل الضال ٣٨٥

تأثير لعنة الله ٥٨٧
علامات أهل الله الصادقين ٤٣

الآخرة (راجِع أيضًا الحياة)

أهمية الإيمان بالآخرة وفوائده ٤٠١
إنما الموت باب للخروج من الدنيا إلى الآخرة ٢٠٩
وإنما الحياة الحقيقية في الآخرة ٦٦٢
جعل الله حياة الدنيا سلّمًا لحياة الآخرة ٧٨٨
إنكارالآخرة أساس الكفر وسوء العمل ٤٠٥
دليل على وجود الآخرة ٥٠٩
تظل فكرة الآخرة مستولية على أفكار المؤمنين ٣٧٠
شجاعة المؤمن نتيجة لإيمانه بالآخرة ٤٠٣
معنى رائع لقوله تعالى ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ٤١٠
معنى كون الحمد لله في الآخرة ٦١٨
ثواب الآخرة يتطلب تضحية عظيمة ٦٣٧
تلاعُنُ المشركين فيما بينهم في الآخرة ٦٥٨

الآريا (فرقة هندوسية) ٥٣٢

نظريتها عن النجاة ٥٣٣
دحض عقيدتها بأزلية الروح والمادة ٦١٦
دحض عقيدتها بتقمُّص الأرواح ٥٣٣

الآية (راجِع المعجزة)

الابتلاء/ الاختبار

الهدف من اختبار المؤمنين ٦٦٤، ٦٧٢
الفرق بين العذاب والابتلاء ٦٨٧
إظهار الإيمان يستلزم الاختبار ٦٦٥
تعرُّض جماعات الأنبياء للابتلاء إبان ازدهارها ٦٦٩
ابتلاء نوح عليه السلام وقومه ٦٩٣
ابتلاء المسيح الموعود عليه السلام وزوجته ٦٨٨
كونوا مستعدين للابتلاءات دومًا (المفسر) ٦٧٢

إتمام الحجة (راجِع الحجة)

الإثم (راجِع الذنب)

الاجتماع (راجع التمدن والحضارة)

الأحمدية

لا نسخ في القرآن عند الأحمدية ٩٧
لا تؤمن بالجن بالمفهوم التقليدي ٥٨
سبب تأكيد مؤسسها على وفاة المسيح في زعم طبيب شهير ١٣٣
خيبة آمال زائفة للمسلمين بمجيء مؤسس الأحمدية ٩٥
رسالة المسيح الموعود عليه السلام إلى أفراد جماعته ٦٧٢
تحلِّي جماعتنا بالتقوى والإخلاص ٤٨٩
جواب المفسر لأحمدي زعم أننا لم نحرز المكانة الروحانية العالية ٤٢
أغلبية أفراد الجماعة مزارعون ٢٣٠
توجيه رباني للكثيرين إلى الأحمدية بالرؤى ٧٩٩
اتهام المعارضين مؤسس الجماعة بأن الإنجليز أقاموه ٢٧٥
فتاوى المشايخ ضد الجماعة ٥١٧
اعتراض شيخ على معجزات مؤسس الجماعة ٩٠
ردود فعل الناس عند حلول الأوبئة والكوارث بحسب نبوءة مؤسس الجماعة ٤٧٥
الخوف يمنع البعض من الانضمام إلى الأحمدية ١٨٦
كل من ينضم إليها يواجه المعارضة ٦٦٩
حماسُ أعدائها للقضاء عليها دليل على صدقها ٤٨٨
قصة المفسر مع عدو لدود لجماعتنا ٤٠
قصة المفسر مع متصوف أفتى بكفر جماعتنا ٥١٧
تأييد رباني مدهش للأحمديين في المناظرات ١٠٧
معجزة مؤسس الجماعة ظهرت في قضية مسجد للأحمدية ٣٦

اصطدام الأحمدية بالمسيحية سيكون حاسما
(تائين بي) ٧٨٤
حوار شيق بين الخليفة الأول وأخته غير الأحمدية ٢٤٩
رؤيا للمسيح الموعود عليه السلام عن الجماعة ٦٢١
سبيل ازدهار جماعتنا ٦٦٩
لا بد لنا من تقديم التضحيات كجماعات الأنبياء ٦٧١
السبيل الوحيد لتقدُّم الجماعة أن يتناسى المرء
نفسه لوجه الله ٦٧٢
تزدهر جماعتنا طورا بالسير على درب الحسن وتارةً
على درب الحسين (وحي للمسيح الموعود) ٦٧١
استشهاد بعض أفراد الجماعة في كابول ٦٦٩
صمود عبد اللطيف الشهيد رضي الله عنه وشجاعته ١٧٠
لا تظنوا أبدًا أن المحن قد انتهت ٦٦٩
وضعُ المعارضين الروثَ في فم برهان الدين
الجهلمي ٦٧٠
إشارة إلى هجرة الجماعة في المستقبل ٧٧٧
ضرورة إسكان الأحمديين في المناطق غير المأهولة
في العالم ٢٣٣
إخواننا مقصرون في مجال الدعوة بين
الأقارب (المفسر) ٣٣٦
أهمية تربية أفراد الجماعة ٣٤٢
قصة أحمدي مخلص حول تربية الأولاد ٣٩١
تعوَّدوا الصلاة بالجماعة وعوِّدوا عليها أولادكم ٧٥٠
تمسكوا بالخلافة غير مترددين في تقديم التضحيات
من أجلها (المفسر) ٥٠٦
انتخِبوا الخليفة بناء على الكفاءة
والجدارة (المفسر) ٥٠٦
اخدموا خلق الله بغض النظر عن أي اعتبار ٦٠٨
علينا الاتصاف بالصفات الإبراهيمية (المفسر) ٢٣٣
تصرُّف بعض ضعفاء الأحمديين ٦٣٣
رد فعل الخليفة الأول تجاه شخص ارتدد عن
الأحمدية ٥٨٨

الأخلاق

السبيل لمعرفة الأخلاق الحسنة ٢٠
الأخلاق الحسنة مبنية على صفات الله ١٥
خُلق الإنسان للتخلُّق بأخلاق الله تعالى ٣
ضرورة التخلّق بأخلاق الله للتقرب إليه ١٣
العقل وحده يفشل في إرساء السلام لأنه غير تابع
للأخلاق ٧٩٦
أمر هامّ جدًّا لإصلاح الأخلاق ٢٧٨
تحيا الأمم بالأخلاق والروحانية ٦
الثورات في العالم تترتب على المبادئ الأخلاقية
(تائين بي) ٧٨٤
ظهور الكمال الخلقي من لوط عليه السلام ٢٧٩
تعويدُ الأولاد على صلاة الجماعة أدعى لإصلاح
أخلاقهم ٧٥٠
المسيح الموعود مثيل للمسيح الناصري لتخلُّقه بمثل
أخلاقه ١١٢
ضرورة نموذج وأسوة في الأخلاق والروحانية ٦٢٣
لابد من الابتلاء والصبر عليه لتهذيب الأخلاق ٦٧٤
تواضع الأنبياء ١١٤

الارتداد

دحض عقيدة قتل المرتد ٦٩٩
تأليف المرتد "دهرمبال" كتابًا بذيئًا ضد
الرسول صلى الله عليه وسلم ٧٠٧
فتاوى المشايخ بارتداد المسيح الموعود عليه السلام ٩٧

الأرض

الأرض متحركة حركة دائرية ٣٧٦
كيف اكتشف المسلمون أن الأرض كروية الشكل ٢٦٢
استنتاج كولومبوس من كون الأرض كروية الشكل ٢٦٢
تسخير الله الأرض لخدمة الإنسان ٢١

الأرض الخالية أكثر ريعًا من الأرض المحروثة ٤٥٩
انشقاق الأرض أثناء الزلزلة يسبب مطرا من الحجارة ٤٨٠، ٧٢٥
الأرض لا تعمل إلا بدون السماء ٧٣٣
تنطوي الأرض على طبقات عديدة ٧٦٨
الأرض ثروة ٦٩٦
لو أخرج كل ما في باطن الأرض ونشر عليها لصعب للإنسان المشي عليها ٧٦٨- ٧٦٩
يحيي الله الأرض بماء من السماء ٧٨٥
ادخر الله تعالى الماء في طبقات الأرض ١٩٩
إذا أحب الله عبدًا أمر الملائكة بوضع قبوله في الأرض ١٣
مطالب القرآن متراكمة في طيات كلماته كطبقات الأرض ٧٦٨
خلقُ السماء والأرض الجديدتين ٧٨٤
تلقى البذرة في الأرض وهي ضئيلة الشأن، ثم تصبح دوحة كبيرة ١٢٢
أورث الله أصحاب موسى أرض العمالقة ٤١٨
نبوءة إعطاء الله مسلمين أرض مصر ٤٥٤
وعد الله لقوم موسى بإعطائهم أرض كنعان ٥١٨
تراءت لعمر رضي الله عنه أرض العراق في الكشف ١٤٠
نبأ عذاب دابة الأرض في الزمن الأخير ٥٢١، ٥٢٦
دابة الأرض هي الطاعون ٥٢٥
جميع الشعوب الفاتحة تركت أراضيها وأوطانها ٧٧٧
ضرورة اتخاذ الوسائل الأرضية والسماوية لنشر الإسلام ٧٠٤

الإرهاص

المجددون في الهند جاءوا إرهاصا للمسيح الموعود عليه السلام ٢٣٨

الاستشهاد

رغبة الصحابة في الشهادة ٤٠٣، ٦٧٥
استشهاد سبعين من الحفّاظ ٦٦٧
استشهاد الصحابة في معركة اليرموك ٦٠
معاملة الله مع صحابي استُشهد ٥٣٤
استشهاد بعض الأحمديين في كابول ٦٦٩
صمود عبد اللطيف الشهيد رضي الله عنه ١٧٠
دعاء عبد اللطيف لقومه عند استشهاده ١٧١

الاستغفار (راجع المغفرة)

الاستقامة (راجِع أيضًا الابتلاء)

"الاستقامة فوق الكرامة" ٦٧٤
من ينـــزل عليه كلام الله يوهَب الاستقامةَ ٣١٧

الإسلام

مفهومان للإسلام ٥٣٦
الإسلام دين الفطرة ٧٢، ٦٩٠
الإسلام إكمال الدين ٥٩٥
لا ضرورة لشريعة أخرى بعد الإسلام ٦٤٩
تميُّز الإسلام في بيان صفات الله ٨
الإسلام وسلام العالم ٦٤
جميع عبادات الإسلام تستهدف التقوى ٦٠١
حب الإسلام للحق ٧٤٤
استمرار فيوض الله في الإسلام ٢٣٧
المحافظون على قوة الإحياء للإسلام ٢٣٦

ماضي الإسلام وحاله ومستقبله

انتصارات إسلامية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في بضع سنين ٥٠٣
وضع الإسلام الراهنُ ٧٨٤
مستقبل الإسلام ٧٨٤
نبوءة غلبة الإسلام في الزمن الأخير ٥٢٧

غلبة المسيحية خطر دائم على الإسلام ٥١٦
انتصار الإسلام على المسيحية بجهود الجماعة ٧٨٤
بعثة المسيح الموعود عليه السلام لإحياء الإسلام ٥٣٧
دحض ادعاء البهائيين بفشل الإسلام الآن ٧٧٢

تعاليمه

النظرية الإسلامية عن الله ١١، ٥٣٧
واحدانية الله سبب تآخي المسلمين ٧٢
أسلوب الوصول إلى الله في الإسلام ٣٨٦
الإنسان يولد على الفطرة عند الإسلام ٦١
حقيقة النجاة حسب الإسلام ٥٣٣
النجاة بالإيمان لا بالأعمال عند الإسلام ٦٩١
لا نجاة دون طاعة النبي ﷺ والعمل بتعاليم الإسلام ٨٠٦
تعريف الحسنة والسيئة عند الإسلام ١٥
الحسنة هي الاتصاف بصفات الله عند الإسلام ٢٠
يأمر الإسلام بجعل الأعمال تابعة لمرضاة الله ٢١٠
أهمية وحدانية الله لاستقرار سلام العالم ٧٩٤
الحد الذي وضعه الإسلام للتمتع بمتع الدنيا ٧٨٨
لمن السلام الذي يحققه الإسلام؟ ٦٩
يأمر الإسلام تطبيق القانون على الغني والفقير ٥٥١
الرد على عقيدة قتل المرتد ٦٩٩
أهمية خدمة الخلق في الإسلام ٤٠١
تأكيد فريضة الصلاة الإسلامية ٧٤٨
الإسلام يعلّم العدلَ حتى للعدو ٢٧٨
حكمة إعطاء الإسلام أهلَ الكتاب حقوقًا أكثر من سائر غير المسلمين ٣٥١
أمر الإسلام بالبر بالوالدين ٦٥٦
الحكمة في قراءة "البسملة" قبل الطعام ٢٠٢
إعلان عظيم قام به الإسلام ٣٨

نظام الاقتصاد في الإسلام

الإسلام يضمن كافة حاجات المجتمع ٣٩٦
تأمين الحاجات الضرورية للرعية ٣٩٩
حلول يقدمها الإسلام لمشاكل الفقر ٣٩٦
المؤاخاة كان أساسًا لنظام الاقتصاد الإسلامي ٣٩٧
لا ضرورة للتأمين في النظام الإسلامي ٣٩٩

انتشاره

بدأ بالمسيح الموعود عليه السلام عهدُ النشأة الثانية للإسلام ٢٩٨
القرآن يأمر بإنشاء جماعة منظمة للدعوة ٧٣٧
ضرورة اتخاذ الوسائل الأرضية والسماوية لنشر الإسلام ٧٠٤
تأمين الرزق لمن ينذر حياته لخدمة الإسلام ٧٨٢
لا حاجة لرفع السيف لنشر الإسلام ٧٦٧
أكبر عائق في طريق إسلام أوروبا وأمريكا ٦٨٧
الفرق بين الإسلام والأديان الأخرى ٢٥٩
مقارنة بين الإسلام والمسيحية بصدد السلام ٧٤
إسلام بعض الصحابة بسبب عجز الأوثان ١٩٢

المسلمون

المعنى العام والخاص للمسلم ٥٣٦
علامة المسلم الكامل ١٧٥
وجود أناس مقربين بين المسلمين في كل زمن ٣٨٦
وجود ملايين المسلمين في كل القارات ١٢١
سبب تضحية المسلمين بأرواحهم ٢٥٨
سبب تفوقهم في كل العلوم في القرون الأولى ٢٨٠
تطوُّر علوم الجغرافيا والطبيعة في المسلمين ٢٦٢
عَلِم كولومبوس من المسلمين أن الأرض كروية الشكل ٢٦٢
خروج فلسطين من أيدي المسلمين مؤقت ٦٨٦
أسباب زوالهم وتخلفهم ٥٠٥
تسرُّب الفساد إليهم بعد وفاة النبي ﷺ ٥٠١

انتشار أمراض روحانية بينهم بعد وفاة النبي ﷺ بسنوات ٥٠٥

أكبر سبب لتخلفهم في هذا العصر ٢٦٠، ٦٧٦

سببُ تخلُّفهم تركُهم القرآن ٧٣٥

لقد تركوا الصلاة ٧٤٥

انتشار فكرة خاطئة للتوكل بينهم ٥١٦

أفكارهم الخاطئة وخلافاتهم الداخلية ٩٥

حسبوا نشر الإسلام واجبا فرديا ٧٣٨

تشابُههم باليهود ٤٩٩

مقارنة بينهم والمسيحيين بصدد الخلافة ٥٠١

نصائح لهم

عليهم العمل بمقتضى اسم المسلم ٥٣٦

يمكنهم الازدهار فترة أطول من غيرهم بالعمل بالفاتحة ٣٠٠

فليجعلوا الله جُنَّةً ٧٢٦

حثُّهم على الصلاة بالجماعة ٧٤٨

أُمروا بنشر القرآن ٧٣٧

حاجتهم إلى مقاومة المسيحية بقوة ٦٥١

الافتراء (راجِع أيضًا الكذب والنبوة والوحي)

نوعان من المفترين على الله ٧٩٧

المفتري على الله أظلم إنسان ٧٩٧

المفتري لا يقدر على إنـزال الآيات الإلهية لتأييده ٣٨٩

الاقتصاد (راجِع أيضًا المال والرزق)

ركائز الفقر والغنى ٣٩٣

لا علاقة بين الفقر وارتفاع عدد السكان ٣٩٢

طريقة القضاء على الفقر من العالم ٣٩٦

النبي ﷺ يأمر حاكم البحرين لسد حاجات الرعية ٣٩٨

تأسيس النبي ﷺ نظام التموين ٣٩٧

نظام التموين وإحصاء السكان زمن عمر ﷺ ٣٩٨

لا ضرورة للتأمين في نظام الاقتصاد للإسلام ٣٩٩

تعليم الله تعالى للمفسر ﷺ نظامَ الاقتصاد ٣٩٩

الإكراه في الدين (راجِع الدين)

الإلحاد (راجِع أيضًا الله تعالى)

الملحد لا يقدر على تغيير قوانين الله وإن أنكر وجوده تعالى ٧٣٢

من لا يؤمن بدين سوف ينكر بوجود الله ٧٣٠

الملحد والمشرك يتجه إلى الله في وقت حرج ٧٩٢

قصة طالب ملحد عند وقوع زلزال ٧٩٢

لو دعا اللهَ ملحدٌ بصدقٍ أربعين يوما لهداه ٧٩٩

ضرورة تقديم الأدلة على وجود الله لمن ينكر ٢٠

نبوءة عن انتشار الإلحاد في الزمن الأخير ٥٢٧

الإلهام (راجِع الوحي)

الأم

عاطفة الأمومة هي مِن خَلق الله ٢٠٠

معاناة الأم لطفلها ٢٠٠-٢٠٦

الأم تخدم ولدها دون أن ترجو أي مقابل ٤٠١

شتان بين درجة الأمّ والزوجة ٦٨٤

نكاح العرب بالأمهات في الجاهلية ٤٦٥

يفرح الله بتوبة عبده كفرحة أُم تجد ولدها المفقود ٣٨٥

نحن مطالبون بمحبة تجاه النبي ﷺ كمحبة بين الأُم وولدها ٢٨٥

النبي ﷺ بمنـزلة الأمّ للبشرية ٣٠٦

تفسير رؤية المفسر مريم في الرؤيا في شكل الأم ١٠٠

الإمام

حكمةُ جعل الله المصلين غير تابعين للإمام فيما لا يجهر ٣٦٦

قصة إمام وصل في صلاته إلى بخارى ٦٠٢

كيفيات تطرأ على المصلي وراء الإمام ٦٠٣

الأمانة (راجِع أيضًا الخيانة)
أمانة الصحابة ٣٩٧
الإنسان وحده حمل أمانة الشريعة ٤٣١

الإمبراطورية الرومانية
وضعُها السياسي وحدودها وقتَ وفاة النبي ﷺ ٥٠٢
احتقارها للعرب ٣٠٩

الإمبراطورية الفارسية
وضعها وقتَ وفاة النبي ﷺ واتساعها ٥٠٢
احتقارها للعرب ٣٠٩

الأمة المحمدية (راجِع أيضًا الإسلام)
مماثلة قوية بينها وبين أمة موسى الَّيْكِلا ٥٩٤
وصية ربانية هامة للأمة المحمدية ٦٥٠
وعد رباني باستمرار الوحي في الأمة دائمًا٢٣٧، ٣٨٧
نزول الإلهام على الأولياء ١٤١
وجود فئة في كل عصر نالوا قرب الله ٣٨٦
رجال من الأمة رأى العالم من خلالهم الإلهَ الحيّ ٢٣٦
معظم الأولياء هم من نسل علي رضي الله عنه ٣٣
بعثة رجل فارسي الأصل في الأمة ٥٩٥
نبوءة ظهور مجدد على رأس كل قرن وظهور المهدي أخيرا ٥٩٥
تحقُّق دعاء إبراهيم من خلال الأمة المحمدية ٢٢٥
تأكيد الرسول ﷺ على الإيمان بالمسيح الموعود ٦٥٠
علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل (الحديث) ٣٢٣
إمكانية ظهور أنبياء غير مشرعين في الأمة ٣٢٣
لو كان في الأمة نبي فسيكون تابعا للنبي ﷺ ٧١٣
كثيرًا ما يخاطب القرآن الرسولَ ﷺ ويعني أمته ٦٤٩

الأمن (راجِع السلام)

الإنجيل (راجع أيضا القرآن والكتاب المقدس)
تأكيد الإنجيل أن الله وحده يعلم الغيب ٣٣١
الإنجيل ينفي كون المسيح قد حمل خطايا الآثمين ٦٩٢
شهادة الإنجيل عن ولادة يسوع ومآله ٥١٥- ٥١٦
نبوءة فيه عن محمد ﷺ ١٢٤
الإنجيل لا يبين صفات الله بما يكفي ٦٢
الإنجيل لا يتضمن وعدا ربانيًا بحفظه ٣٢٠
تعليم إنجيلي غير صالح للعمل ٣٨٤
لا يعفو المسيحيون كما يأمرهم الإنجيل ٦٠٦
تفسير مثال ورد في الإنجيل ١٧١
لا تُقرأ الأناجيل بقدر ما يُقرأ القرآن ٣٧٨
لا يبدو يسوع الإنجيلي ذا خلق حسن ٧٥٥
مقارنة بين النبي ﷺ والمسيح الإنجيلي ٨٥
اتهام المعارضين النبي ﷺ بالسرقة من التوراة والإنجيل ٧٦٢

الإنسان

خَلقه والغاية منه
خَلقه المادي والروحي ١٢
النظام الداخلي للإنسان آية عظيمة ٢٦
على الإنسان أن يفكر في غاية خلقه ١٩٦، ٧٣٤
الهدف من خلقه ٣١٠، ٨٠٥
خُلق للعبادة فقط ٥٧
الإنسان وحده مكلف بالشرع ٤٣١
وُهب القدرة ليكون مظهرا لصفات الله ١٩
إطلاق الإله مجازا على من يتصف بصفاته تعالى ١٢
أسلوب تطوير المواهب ٦٩٦

فطرته
يولَد الإنسانُ بفطرة صحيحة ٥٧
الإسلام يدحض فكرة خلق الإنسان مذنبا ٦٩٠

الإنسان مفطور على التعلق بالله ٣٨٥
مساعدة الإلهام الإنسانَ البدائي على التعلم ٣٩٣
فطرة الإنسان تنطمس بتأثير المحيط ١٨
من فطرة الإنسان التجدد والتجديد ٤٦

حقيقته

الإنسانُ بحاجة إلى كتاب مبين لإدراك حقيقته ٧٧
الإنس مَن فِطرتهم الطاعة والجن مَن فِطرتهم التمرد ٥٧
الجن أيضا أناس ٤٣٠

أمور متفرقة عنه

الحكمة في حالة القبض والبسط الروحانيين ٥٢٨
علامات الإنسان الميِّت روحيًّا ٤٧٢
الإنسان غير معذور إذا أضلّه الشيطان ٧٢٣
إتاحة الفرصة للإنسان للبحث عن قرب الله ٣
يمرض الإنسان بسوء استعمال نعَم الله ٢٠٢
هل القلب مركز الروح أم الدماغُ؟ ١١٣
استئثار الله بعلم الغيب منةٌ ربانية على الإنسان ٢٩
سنة الله في عدم إعادة إنسان ميِّت ٥٣٤
رسالة الأمل والرجاء لبني آدم ٧٩٨
ذعر الناس من القنبلة الذرية وعلاجه ٢١١

الإنفاق في سبيل الله (راجِع المال)

أهل الكتاب (راجِع أيضًا اليهودية والمسيحية)

أهل الكتاب الصادقون يؤمنون بالقرآن والتوراة كليهما ٥٤٥
علامات أهل الكتاب الصادقين ٥٤٥، ٦٠٥-٦٠٦
طريق مجادلة أهل الكتاب ٧٥٤
طريق مجادلة الظالمين من أهل الكتاب ٧٥٥
دعوة القرآن لأهل الكتاب إلى مشاركة المسلمين في كلمة سواء بينهم ٧٥٨

أهل الله (راجِع الله تعالى)

الأولاد (راجع أيضًا الأم)

الله يهب الأولادَ لا الملائكةُ ٧٢١
المرأة مفطورة على حب أولادها ٢٠٠
اضطراب أمّ كانت تبحث عن ولدها في غزوة بدر ٢٠٦، ٣٨٥
وجود مشابهة كبيرة بين الوالدين والأولاد ٢٨٦
كفر زوجات بعض الأنبياء وأولادهم ٣٤٨
نحن مطالبون بمحبة تجاه النبي ﷺ كمحبة بين الأُم وولدها ٢٨٥
أهمية تربية الأولاد ٣٤٢
ثلاثة أمور أساسية للتربية ٣٤٦
مهمة التربية تتطلب جهدًا كبيرًا ٣٤٦
أفضلُ وسيلة لإصلاح الأولاد تعويدُهم صلاةَ جماعةً ٧٥٠
الذين لا يعوّدون أولادهم الصلاةَ بالجماعة هم قَتَلةٌ لهم ٧٥٠

الإيثار

إيثار نادر لعكرمة رضي الله عنه في معركة اليرموك ٦٠

الإيمان

مثال الإيمان الصادق ٣٦٤
الإيمان المبني على البصيرة ٢٥٩
ضرورة الأعمال الصالحة مع الإيمان ٣٦٣
علاقة الإيمان بالعمل ٦٩١
النجاة تتوقف على الإيمان لا على العمل ٦٩١
الإيمان يتطلب الكفاح والتضحية ٨٩
اقتران الإيمان بالاختبار والمحن ٦٦٥
ضرورة الصبر والرضا لاكتمال الإيمان ٦٧٤
يمر المؤمن بالابتلاء ليزداد إيمانًا ٦٧٣
يزداد المؤمن إيمانا برؤية تحقق النبوءات ٣٦
النهيُ عن المنكَر من علامات الإيمان ٤٧٢

الإيمان يجعل صاحبه شجاعًا ١٧٢
الإيمان بالآخرة يبعث على التضحية ٤٠١
التفكر في الكون وحده لا يهب الإيمان الكامل ٧٦
الإيمان يزيد وينقص ٢٢١

خصائص المؤمن ومزاياه

علامات المؤمن ٣٦٥، ٣٩٠، ٦١٣
اليقين بالآخرة من علامات المؤمنين ٤٠١
لا بد من ابتلاء المؤمن ٦٥٧، ٦٦٣
من يتوكل على الله في المصائب هو المؤمن الكامل٦٧٦
المقام الحقيقي للمؤمن ٧٢٧
معيار حب المؤمن للنبي ﷺ ٢٨٤
مثال المؤمن الحقيقي ٢٦٥
دليل على صدق المؤمن ٧، ٤٨٧
السبيل لفلاح المؤمن ٧٠٥
على المؤمن ألا يتوقف بأي درجة ٢٢١
ضرورة الثبات على الحق بشجاعة ٦٥٦
على المؤمن ألا يكون جشعًا ٤٣
المستوى المطلوب من المؤمن في التضحية ٨٧- ٨٨

البابية (راجِع أيضًا البهائية)

سبب مخالفة الشعب لأهلها ٤٨٨

البحر ١٩٨، ٣٤٢، ٣٧٤،

غرق فرعون في البحرالأحمر١٣٦، ٤٢٠، ٥٨٦، ٧٢٥
ضرب موسى البحر فانفلاقه ٥١٤
تفصيل معجزة انفلاق البحر ١٨١
قصص عن انفلاق البحر ١٨١
قول الصحابة للنبي ﷺ: لو أمرتَنا أن نخوض هذا البحر لخضناه ١٦١
المِلك "كينيوت" الذي أراد دفع البحر ٧٨٣
البحر بمعنى الشعوب التي عندها الوحي ولكنه صار أجاجًا ٤٩٦
تجفّ البحار ولا يجفّ بحر معارف القرآن ٧٦٩

البراهين الأحمدية (كتاب)

تقريظه ١٣٣

البعث بعد الموت (راجِع الحياة)

البهائية

ردُّ البهائية ٧٧٢
خطأ البهائية في فهم مدلول الوحي ٣١٧
دحض ادعاء البهائية بنسخ القرآن ٧٧٢
سجود عباس أفندي على قبر بهاء الله ٧٧٣
لقاء سيدة بهائية مع المفسر ﷺ بقاديان ١٥١
نشر أحد البهائيين كتابا من "رنغون" ٧٧٣

البوذية

البوذبة لا تبين طريق الوصال إلى الله ٨٠٠
لا تركّز على استجابة الدعاء ٨٠٠
"النِرفانا" في البوذية ٨٠٠
قصة خرافية عن بوذا ٨٠٠

البيئة

تأثير البيئة في النبات والحيوان ٤٥٨، ٤٦٢
فطرة الإنسان تُشوَّه بتأثير البيئة أحيانًا ١٨

بيت الله/ الكعبة

بيت الله هو أوّل بيت بُنِيَ لفائدة بني الإنسان ٧٩٤
تمّ تجديده على يد إبراهيم الطَّيْلا ٧٩٥
دعاء إبراهيم عند بناء الكعبة ٢٣٥
وضع الله أساسه لجمع البشرية على مركز واحد ٧٩٥
الكعبة دليل على وحدانية الله ٧٩٣
فتح الله من خلالها مدرسة للسلام ٦٨، ٧٩٥
قصة هداية شخص مستهتر ذهب لحج البيت ٢٧٠
هجوم أبرهة على مكة لهدم بيت الله ١٢٨، ٥٠٢

كان تأويل ذبح إسماعيل تركه عند بيت الله ٥١٤
تمتُّع قريش بالأمن لجوارهم بيت الله ٧٩٣
محاولة الكفار قتل النبي ﷺ خنقًا في الكعبة ٦٨
إيذاء الكفارللنبي ﷺ وهو يصلي في الكعبة ٨٢
كان النبي ﷺ الغاية الحقيقية وراء بناء الكعبة ١٢٨
قول صحابي قبل الشهادة: "فُزتُ وربِّ الكعبة"
٣٧، ٢٥٨، ٦٦٨

البيعة

وضع النبي ﷺ إحدى يديه على الأخرى لتنوب عن بيعة عثمان ٣٢
بيعة هند يوم فتح مكة ٦٤٦

التأمين (راجِع المال)

التأويل (راجِع الرؤيا)

التبليغ والتبشير (راجِع الدعوة)

التجارة (راجِع أيضًا المال والاقتصاد والأمانة)

أمانة الصحابة في التجارة ٢٩٥
الطريق لمنع الخيانة في التجارة ٢٩٤
الربح غير الشرعي ٢٩٥
خيانة قوم شعيب في التجارة ٢٨٩
التجارة الخارجية لمصر في عهد الفراعنة ٣١٠
خسارة الكشميريين في التجارة نتيجة الخيانة ٢٩٣

التسبيح

التسبيح والتحميد يؤثر في قلب المصلي فيتنفَّر من السيئات ٧٣٩
يقول الله للملائكة إن عبدي سبّحني من كل عيب فطهِّروه من العيوب ٧٥٢
أحيانًا يتمُّع قلب المصلي بالتسبيح طويلاً ٦٠٣
المؤمنون لا يكتفون بالتسبيح بعد الصلاة بل يسبحون دائمًا ٣٦٧
وقت القتال ليس وقت الجلوس للتسبيح والتهليل ٣٦٦

التصوف

"عبد الله" أفضلُ أسماء النبي ﷺ عند الصوفية ٢٢٠
جماعة الصوفية حول النبي ﷺ ٣٤٧
حديث صحيح رواه الصوفية ٣٠٦
مزاعم بعض المتصوفين ٤٢
قول لبعض الصوفية أعجبَ المسيحَ الموعود عليه السلام ٦٢٨
زعم بعض المتصوفة أنهم في غنى عن الصوم والصلاة ٢٢٢
قصة الخليفة الأول مع شيخ للمتصوفين ١٨٧
قصة متصوف زائف كانت أخت الخليفة الأول تابعة له ٢٤٩
قصة المفسر مع متصوف زائف ٢٢٢
قصة متصوف مع المفسر أفتى ضد جماعتنا ٥١٧
حوارُ صوفي مع "الملا دوبيارزه" في بلاط "أكبر" ٣٦٣

التفسير (راجِع أيضًا القرآن)

تلقّي المفسر علم التفسير من الله تعالى ٣٤٩
المفسر رضي الله عنه لا يعتقد كثيرًا بأسباب النزول ٦٧٥
حقيقة هاروت وماروت ٦٦٦
سبب ورود القصص الخرافية في التفاسير ٤٤٥
القصة الخرافية عن ناقة صالح عليه السلام ٢٧٦
قصص عن انفلاق البحر ١٨١
قصص عن سليمان وملكة سبأ ٤٦٩
خرافات عن جِنّ سليمان ٤٢٧
قصة سليمان مع النمل ٤٣٥
قصص عن سليمان والهدهد ٤٤٠
دحض زعم نزول وحي الشيطان على النبي ﷺ ٣٢٨
خطأ المفسرين في وصف شعيب حمًا لموسى ٥٧٢

التقوى
حقيقة التقوى ١٠٤
الفرق بين الصلاح والتقوى ١٠٣
أهم هدف بعثة الأنبياء زرعُ التقوى ١٠٣
التقوى غايةُ أركان الإسلام الأساسية ٦٠١
ضرورة التحلي بالتقوى ٧٢٦
التقوى تتعلق بالقلب لا بالدماغ ١٠٣
قربان أحد ابني آدم رُفض لخلوّه من التقوى ١٧٦
إنما ينمو ويزدهر التقوى في أرض طاهرة ٢٤٥

التكبر (راجِع الكِبر)

التمدن (راجِع الحضارة)

التناسخ/تقمُّص الأرواح (راجِع الروح والهندوسية)

التنويم المغناطيسي ١٤٨
إخفاق هندوسي خبير بالتنويم في التأثير على المسيح الموعود عليه السلام ١٤٥
الأفّاكون الآثمون يلجأون إلى التنويم المغناطيسي ٣٥٥

التهجد (راجِع الصلاة)

التواضع (راجِع الأخلاق)

التوبة
الإسلام يفتح للمذنب باب التوبة ٦٩٠
بالتوبة تُغفر الذنوب ٦٤٠
التوبة الطريق الوحيد لتفادي عقوبة الذنوب ٦٥٦
التوبة تخلِّص من عقوبة الذنوب ٦٥٦، ٦٤٠
إذا تاب المرء توبةً نصوحًا غفر الله له ذنوبه ٦٨٠
يفرح الله بتوبة عبده كفرحة أم تجد ولدها المفقود ٣٨٥
عدل الله تعالى لا يحول دون التوبة ٦٩٢
نزول العذاب بالكافرين منوط بعدم توبتهم ٩٧- ٩٨

التوحيد/ وحدانية الله (راجِع الله تعالى)

التوراة (الكتاب المقدس)
نزلت على موسى خلال مدة طويلة ٥٩٨
المراد من وجود الرحمة والهدى في التوراة ٥٤٤، ٥٨٩
اعتراض المخالفين على نزول التوراة جملة واحدة ٥٤٤
مقارنة التوراة بالقرآن ٤٩، ٦١
في التوراة أنباء عن بعثة النبي ﷺ ٥٩٠
محمد ﷺ مصداقٌ لنبوءة سِفر التثنية ١٠٢، ٥٩٣
ترجمة ورقة ابن نوفل نُتفًا من التوراة إلى العربية ٧٦٣
دُسَّت أفكار إنسانية في التوراة ٥٤٩
عتاب الرسول ﷺ على عمر رضي الله عنه لقراءته التوراة ٧٦٣

التوكل
المعنى الصحيح للتوكل: اِعْقَل ثم توكَّلْ ٥١٩، ٥٢٠
جزاء المتوكل ٧٨١
مقارنة بين الرسول ﷺ وموسى في التوكل ١٧٩
أسوة موسى الرائعة في التوكل ١٧٨
لا يدَع الله أعداء المتوكلين دون عقاب ٦٧٩
التوكل الخاطئ الشائع بين المسلمين ٥١٦

الثواب (راجع الجزاء)

الجبل
الجبال تتحرك ٥٣٢
منافع الجبال ٤٨٩
نسفُ الجبالِ بمعنى دمار الدول القوية ٥٣٢

الجريمة (راجِع الجزاء والعقاب)

الجزاء والعقاب
الجزاء والعقاب أساسه الغيب ٣٠
لو كان الثواب أو العقاب ظاهرًا بيّنًا لآمن كل واحد ٣١، ٨٩

القيام بالحسنةِ أو السيئة وثيق الصلة بالإيمان بالجزاء والعقاب ٤٠٦
سنة الله في جزاء الحسنة والسيئة ١١، ٦٣٩
الجزاء أو العقاب منوطان بإخضاع الأعمال لمشيئة الله أو عدمه ٢١٠
إنكار الكافرين بالجزاء والعقاب وتداعياته ٤٠٥
ضرورة العفو أو العقاب حسب مقتضى الحال ٣٨٣- ٣٨٤
عقاب الناس بشكل عشوائي ظلمٌ ٧٠٣
مقارنة بين القرآن والكتاب المقدس في العفو والعقاب ٦٠٥
فكرة مسيحية عن عقاب البشرية بخطأ آدم ٦٩٠
ليس العدل أن يُعاقَب المجرم بالضرورة، وإنما العدل ألا يُعاقَب البريء ٦٩٢
عقوبة الزاني في التوراة ٧٦٢
مبادئ الدينونة ٦٥٦، ٦٨٠، ٧٠٢، ٧٠٣
التوبة تخلّص من عقوبة الذنوب ٦٥٦، ٦٨٠
كل جزاء في الدنيا يكون مبنيًا على "القاعدة الوسطى" ٦٨١
الله يجزي بحسب أفضل عمل قام به الإنسان في حياته ٦٨١، ٧٥٢
الذين يضحّون لإحياء الإسلام سينالون جزاءً محيرًا ٥٣٤
جزاء الشهيد عند الله تعالى ٥٣٤
من صال على المقربين عند الله تعالى لا ينجو من العقاب ٤٨
الجزاء الإلهي إنما يُنال بتقديم التضحيات ٨٩
فتوى المشايخ أن قتل المسيح الموعود ثواب ٦٧٠

الجماعة (راجعِ أيضًا الحضارة)

الجماعة الإسلامية الأحمدية (راجعِ الأحمدية)

الجمعة (راجعِ أيضا الصلاة)

مكاشفة عمر ﷺ أثناء خطبة الجمعة وقوله: يا سارية الجبل ١٤٠
تعنيف المسيح الموعود عليه السلام المفسرَ على عدم حضوره المسجد لصلاة الجمعة في صغره ٧٥١

الجنّ

حقيقة الجِنّ ٥٧، ٤٢٧- ٤٣٢، ٤٧٠
الجن من جنس الإنسان ٤٣٠
الجن هم أناس ذوو طبائع نارية ٥٧
الإنس مَن فطرتهم الطاعة، والجن من فطرتهم الهياج والتمرد ٥٧
الجن أناس تختفي فطرتهم الصحيحة وراء الحجب ٥٨
القرآن يذكر إيمان الجن بالتوراة وموسى وسليمان ومحمد ﷺ ٤٢٧
أُطلِق اسم الجنّ أحيانا على من أصبحت فطرته محجوبة في الظلمات ٥٨
حرية الجن والإنس ٣٥٨
زعم المفسرين أنه كان لسليمان جنود من الجن ٤٣٦
كان جن سليمان أجانب من قوم ثمود ٤٧١
من يأتيه الجن في زعمه يكون مصابًا بنوع من الجنون ٤٢٩
قول طريف للمسيح الموعود عليه السلام عن الجن ٤٣٢

الجَنّة

حقيقة أنهار الجنة ٧٧٩
خلود الجنة ونعمائها ٢٢٣، ٧٨٠
انشغال أهل الجنة في شُغل ٢٥٠، ٥١٩
ميزتان بارزتان للحياة في الجنة ٧٨٠
المؤمنون يقفزون في نيران التضحيات فتصبح لهم جنة ٢٤٨
نبوءة إزلاف الجنة في الزمن الأخير ٢٤٨

المراد من تقريب الجنة إلى المتقين ٢٤٦
قصة قول عثمان بن مظعون بعدم زوال نعيم الجنة ٤٧٣
فرحة أهل الجنة لدى وفاة النبي ﷺ بسبب لقائهم به ٢٠٩

الجنون

قول علماء النفس عن المجنون ١٣١
كبت المشاعر يؤدي إلى حالة من الجنون ٤٦٢
لن يدخل المجنون النار ٢٥٦
الذين يأتيهم الجن في زعمهم مصابون بنوع من الجنون ٤٢٩
سبب اتهام الأنبياء بالجنون ١٣١، ١٧٦
اتهام فرعون موسى بالجنون ١٣١،١٣٥
نعَت الكافرون النبيَ ﷺ بالمجنون ٤٧، ٨٧، ٩٤، ١٣٢، ٣٥٩
تسمية المعارضين المسيح الموعود عليه السلام مجنونا ١٣٥
بعض الشعراء تلاميذ ليلى ومجنونها ٧٨- ٧٩
شتّان بين حب مجنون ليلى وحب النبي ﷺ للبشرية ٧٩
قصة امرأة مجنونة كانت تضحك دائمًا ٦٨٩
قصة امرأة مجنونة مع الخليفة الأول ١٣١

الجهاد (راجِع أيضًا الحرب)

نبوءات عن الجهاد والنبي ﷺ في مكة ٣٦٨
الجهاد الصغير والجهاد الكبير ٥٥٤
رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (الحديث) ٥٥٤
حكم الجهاد الكبير بالقرآن ١٥٤، ٥٥٣
نظرية المسيح الموعود عليه السلام عن الجهاد ١٣٥

جهنم/ الجحيم ٢٤٦

من أسمائها الْحُطَمَةُ ٤٣٦
أربعة لن يدخلوا جهنم (الحديث) ٢٥٦
عقيدتنا عن خلود جهنم ٦١٩
رحيمية الله تدحض فكرة دوام جهنم ٦١٨
يأتي على جهنم زمان ليس فيها أحد ونسيم الصبا تحرِّك أبوابها ٦١٩
زعم النصارى أن المسيح دخل جهنم ثلاثة أيام ٥٣
الذين لا يصلون جماعةً يجعلون أنفسهم حطب جهنم ٣٩٢

الجحيم (راجِع جهنم)

الحج

قصة هداية شخص مستهتر ذهب للحج ٢٧٠
قصة عمر بعد الحج مع أبناء الرؤساء والعبيد ٢٥٢
قصة المؤلف أثناء سفره للحج ٣٣٧

الحجة/ البرهان

الغاية من بعثة النبي هي إتمام الحجة ٥٩٧
القرآن يعتبر عدم المعرفة بشيء عذرا مقبولا ٢٣٥
لن يدخل النار من لم تُقَم عليه الحجة ٢٥٦
من هم الذين لم تقُمْ عليهم الحجة ٢٣٥
تستهل كل سورة قرآنية بالبسملة إقامةً للحجة على اليهود والنصارى ٤٥١
نبأ عذاب دابة الأرض في الزمن الأخير بعد إقامة الحجة ٥٢٦

الحديث

سبب نهي النبي ﷺ عن كتابة أحاديثه ٧٦٣

أحاديث وردت في هذا المجلد

إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم ٥٦
اسكتْ يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما ١٧٩
اعقلْها وتوكل ٥٢٥
أفلا أكون عبدا شكورا ٢٢٤
ألا ترضى أن تكون مني بمنـــزلة هارون من موسى ٣٣
ألا إن في الجسد مضغة... ٢٤٤
اللهم فقِّهْه في الدين ٢٥٨
اللهم هل بلَّغتُ ٥٩٥

اللهم الرفيقَ الأعلى ٣١٥
أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ٤٣٤
بُعثت إلى الأسود والأبيض ٣١٠
تلك أيام الهرج ٢١٤
جُبلت القلوب على حُب مَن أحسن إليها ٧٤٠
الحرب خدعة ٣٠
الدعاء مُخُّ العبادة ٧٤١
رُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسمَ على الله لأبرَّه ٢٧١
رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ٥٥٤
الصبي صبي ولو كان نبيا ٣٠٤
علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ٣٢٣
بُعثتُ إلى الناس عامَّة ٤٢٩
لا فضل لعربي على أعجمي ٣١١
اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ٨٦
لا تتمنّوا لقاء العدوّ ١٩٦
لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد
٨١، ٣١٥، ٤٨٤
لولاك لما خلقتُ الأفلاكَ ٢٧، ١٠٦، ٣٠٥، ٣٠٦
من قتَل قتيلا فله سلبه ٢٦٥
المؤمن يرى أو يُرى له ٧١٩
من اجتهد فأخطأ فله أجر ٢٥٦
من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده... ٤٧٢
نُصرتَ نُصرتَ نُصرتَ ١٤٠
وَلَكِنْ، يَا حَنْظَلَةُ، سَاعةً وَسَاعةً ٦٢١
يأتي على جهنم زمان ليس فيها أحد ٦١٩
إذا أحب الله عبدًا أمر الملائكة بوضع قبوله في الأرض
١٣
لن يبقى في الدنيا قبل القيامة إلا شرار الناس ٣٠٠
وصفُ النبي ﷺ العسل لصحابي ٨٠٧
ثلاثة انغلقت عليهم المغارة ٤٠
أتقتلون رجلاً يقول ربي الله ٨٩

الحرب (راجع أيضًا الجهاد)

الحرب الحقيقية عند الإسلام ٥٥٣
ضرورة الحرب لإقامة السلام ٧٣
ضرورة إغاثة المشرك المستغيث ٣١٩
أهمية الخفاء في الحرب ٣٠
حرب اليرموك ٦٢
شجاعة عكرمة وتضحيته ٦٠
قصة من معركة "ووتر لو" ٤٣٣
الحرب العالمية الأولى ٧٧٠
توجه الاتحاديين إلى الله في الساعة الحرجة في الحـــرب العالمية ٧٩٢

حرية الضمير (راجِع الإكراه في الدين)

الحسنة (راجع أيضًا الجزاء)

البرّ هو الاتصاف بصفات الله ١٩
تعريف جديد للحسنة والسيئة ١٥
الحسنة تقود إلى حسنات أخرى ٨٠٤
الطريق لتسهيل الحسنة ٢٤٦
جزاء الحسنة يكون بحسب النية ٢٩٠

الحضارة

الحث على معرفة الحضارات المختلفة ٧٠١
آثار الحضارة الآرية والرومية والفارسية على العالم
٢٦٦
تأثير الحضارة البابلية في حضارة العالم ٢٦٦
كانت حالة قوم لوط تشبه حالة مدن أوروبا وأمريكا ٧١٥
الحضارة المستقبلية ستتأسس على الإسلام (تائن بي) ٧٨٤

الحكومة

لا تقدر على إرساء السلام إلا الحكومة العادلة ٥٥١
خطتان لرقي البلاد ٢٢٨
الديمقراطية والدكتاتورية ١٨٢

خطط الحكومات الجائرة ٥٥١
وعد الله بتعزيز القوم الذين يُضعِّفهم الظالمون ٥٥٢
مظالم الحكومة تؤدي إلى الثورات ٤٥٧
أضرار الاحتلال ٤٥٥
صلاحيات محدودة للملك في عهد سليمان ٤٩٢

الحورايون

تعرُّض الحواريين للأذى ٩٤
قول للمسيح للحواريين ٣٤٣
استغرق كفاح الحواريين ثلاثة قرون ٤٦٢
قول المسيح لحواريه توما: يا "توما"، هذه أمك ٣١٤
حواري يسلِّم المسيح ﷺ مقابل ثمن بخس ٧٢٨
قول المسيح ليهوذا إنه سيسلّمه للشرطة ٧٢٩

الحياة (راجِع أيضًا الآخرة)

جعل الله القلبَ مركز الحياة لا الدماغَ ١٠٣، ٢٢١
الله حيّ بمعنى أنه يحيا على الدوام ويهب الحياة للآخرين ١٠
الإسلام لم يشجب الحياة الدنيوية ٧٨٨
حياة الإنسان كلها تعتمد على السعي والاجتهاد ٢٩
البكاء هو السبيل لاستمرار حياة الجسم وحياة الروح ٨٠١
لا تُنال الحياة بدون الموت ٦٦٩
لا تُنال الحياة القومية إلا إذا استعدّ كل فرد لترك وطنه ٦٦٩، ٧٧٧
ضمان توفير الرزق لمن ينذر حياته للإسلام ٧٨٢
لكل نبي حياتان: حياة جسم وحياة فيوض ٢٣٦
مدار حياة المسلمين على القرآن الكريم ٧٣٥
ميزتان بارزتان للحياة في الجنة ٧٨٠
مقارنة بين حياة الدنيا وحياة الآخرة ٧٨٧

الحيوان

تأثير البيئة في النبات والحيوان ٤٥٨، ٤٦٢
أحد الفروق بين الحيوان والإنسان ١٧٣
حب المرء للحيوانات التي يربيها أمر طبيعي ١٩٣
اجترار الحيوان والاجترار الذهني للإنسان ٧٣٥، ٧٣٦
نظام الرزق في الحيوانات ٧٨٢
الفرق بين رؤية الإنسان ورؤية الحيوان ٢٥٤
بعض الحيوانات تكتسب ألوان أشجار تعيش فيها ٤٥٧

خدمة الخلق

الحث على خدمة الخلق ٤٠٠

خشية الله

القرآن يولّد في القلب خشية الله ١٥٥
للقرآن ترتيب خاص يستهدف إنشاء خشية الله ٣٣
لن تسطيع أن تُسمع قومًا خلت قلوبهم من خشية الله ٥٢١
إنما يخشى اللهَ من عبادِه الذين عندهم إدراكٌ بصفات الله ٧٣٢
قلوب الكافرين تخلو من خشية الله ١٦٣
قصة قوم كانت فيهم خشية الله فخافوا سهام الليل ٣٩
العدو اللدود الذي عنده خشية الله ﷺ يعتذر في النهاية ٣٣٨

الخُطبة (راجِع الجمعة)

الخلافة

يقيم الله الخلافة لتمديد نور النبوة ٥٠١
بوسع الشعب أن يتمتع بنعمة الخلافة إلى الأبد ٥٠١
معارضة الخلفاء في التاريخ ١٦٤
المسلمون دفنوا بأيديهم خلافتهم الحيَّة ٥٠٥
المسيحيون لا زالوا محافظين على خلافتهم الميتة ٥٠٥
الخلافة في الأحمدية بعد وفاة المسيح الموعود ﷺ ٥٠٦
المراد من القدرة الثانية في كتيِّب "الوصية" ٥٠٠

الخَلق (راجع الكون أيضًا)

خلقُ الكون برهان على أن لحياة المرء غايةً ٧٣٣
خلق العالم المادي دليل على وجود العالم الروحاني ٤٨٥
على المرء التفكر في غاية خلقه ١٩٩
الحكمة في خلق الليل والنهار ٦٢١
الخلق الروحاني والمادي للإنسان ١٢
المراد من الخلق الأول والخلق الآخر ٧٠١

الخُلق (راجِع الأخلاق)

الخمر

شارب الخمر يُعتبر في أوروبا شريفًا ٢٤٤، ٣٥٠
أهل الكتاب أيضًا كانوا يشربون الخمر ٣٥١
فشل أمريكا في فرض الحظر على تعاطي الخمر ٢٤٧، ٧٥٤
قصة توبة شريب للخمر ٢٧٠

الخوف (راجع أيضًا خشية الله والابتلاء)

الخوف يمنع البعض من الانضمام إلى الأحمدية ١٨٦
هلع الناس من دمار القنبلة الذرية وعلاجه ٢١١
يصاب المرء بالقلق والخوف عند اقترافه الإثم أول مرة ٤٠٨
الخوف من الضيق المالي يمنع المرء من التضحيات ٧٨٢

الدجال

اتهام القساوسة النبي ﷺ بأنه دجال وكذاب ٧٥٥
اتهام الناس المسيح الموعود عليه السلام بأنه كافر ودجال ١٠٩، ٦٧٠

الدعاء

الدعاء مُخُّ العبادة ٧٤١
الدعاء أقوى أعمال الإنسان تأثيرا ٣٨
التأكيد على الدعاء ٣٧
تأكيد المسيح الناصري عليه السلام على الدعاء والصيام ٧٤٠
الدعاء هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الله ٨٠٠
لا تتيسر الطهارة بدون الدعاء ٧٣٩
ضرورة الدعاء لمعرفة الدين الحق ٧٩٩
استجابة الدعاء مشروط بالدوام عليه ١٤١
مدلول الدعاء يتغير بحسب مكانة الداعي ٢١٩
باب الدعاء مفتوح لجميع الملل والنحل ٤٩٦
أهمية دعاء سورة الفاتحة ٣٠٠
نصيحة المفسر لأحد السيخ بقراءة الفاتحة لمعرفة الحق ٤٩٥
ضرورة دعاء السلام في حق الأنبياء ٤٨٢
استجابة الدعاء ٨٠٢
تأثير الدعاء ٧١٠
بشارة استجابة الدعوات ٨٠٢
حديث بصدد استجابة الدعاء ٤٠
دعاء المضطرّ مجاب ٤٩١
البوذية لم تركِّز على الدعاء ٨٠٠
باب الدعاء سيبقى مفتوحًا رغم الدمار العام في الزمن الأخير ٣٧٦

أدعية الأنبياء والصلحاء

دعاء نوح عليه السلام ٢٦٤
أدعية موسى عليه السلام ٤٥، ٥٤٣، ٥٦٦، ٥٦٩، ٥٧٠
أدعية إبراهيم عليه السلام ٢١٥، ٢١٦
دعاء إبراهيم عند رفع قواعد البيت ٢٣٥
دعاء إبراهيم لأهل مكة ١٠١
ثمار دعاء إبراهيم عليه السلام ٧٩٣
بركة دعاء إبراهيم عليه السلام ٢٣٩
تحقُّق دعاء إبراهيم بشكل أمة محمد ﷺ ٢٢٥
حقيقة دعاءٍ لإبراهيم عليه السلام ٢١٨
درس عظيم في دعاءٍ لإبراهيم ٢٢١

دعاء إبراهيم لمغفرة عمه ٢٣٤
دعاء لوط عليه السلام على قومه ٦٥٨

أدعية المصطفى ﷺ

لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ٤٩١
دعاؤه ﷺ على الكفار في معركة أحد ٨٦
دعاء علّمه الله واستجابته الخارقة ٦٤٣
كان ﷺ إذا سُرّ بأحد دعا له بالتفقه في الدين ٢٥٧، ٢٥٨
دعاؤه ﷺ لصحابي بسعة الرزق ٦٣٢
عكرمة يطلب الدعاءَ من النبي ﷺ ٥٩

أمور متفرقة عن الدعاء

دعاء لزيادة العلم ٣٥٤
دعاء النجاة من القوم الظالمين ٥٦٨
دعاء لتقدم القوم وتفادي انحطاطه ٢٩٨
دعاء أبي جهل في ميدان بدر ٤٨١
أهمية الدعاء لنشر الإسلام ٧٠٥
حكاية حول حقيقة استجابة الدعاء ٤٤
قصة استجابة دعاء رجل صالح ٨٠٢
قصة قوم خافوا سهام الليل أي الدعاء ٣٩
لجوء الأوروبيين إلى الدعاء في الوقت الحرج ٧٩٢
تأثير دعاء قام به المفسر رضي الله عنه ١٥١
دعاء صاحبزاده عبد اللطيف رضي الله عنه لقومه عند استشهاده رجما ١٧١

الدعوة/ التبليغ

أهميته

الأمر بالجهاد الكبير بالقرآن ٧٣٨
أمر رباني بإنشاء جماعة منظمة للدعوة ٧٣٧
أجر الذين ينشرون الدين ٧٧٩، ٧٨١
ضرورة اتخاذ التدابير السماوية والأرضية لنشر الإسلام ٧٠٤
ضرورة الهجرة لنشر الدين ٧٧٧
الأمر بأداء حق التبليغ ٧٠٥
الأمر بتبشير الأقارب ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٨
التبليغ خدمة للخلق ٦٠٧
التقاعس عن الدعوة شِرك ٦٥٠
ضرورة الدعوة بدلاً من حمل السيف ٦٩٩

الدعوة سنة الأنبياء

الرحلات التبشيرية لصالح عليه السلام ٦٥٣
دعوة النبي ﷺ أخوين يونانيين ٣١٢
تفاني الصحابة في الدعوة ٣٣٦
دعوة المسيح الموعود عليه السلام الملكةَ فكتوريا ١٤٣

أسلوب الدعوة

ضرورة اتباع الأسلوب الإبراهيمي في الدعوة ٢٣٣
أهمية الدعاء لنشر الإسلام ٧٠٥
لا تيأسوا من عدم قبول الناس ٣٣٨
ضرورة الصبر على الكلام القاسي خلال الدعوة ٣٣٧
طريقة فتح الحوار الديني ٧٨٣
أسلوب الحوار مع أهل الكتاب ٧٥٣
جواز القسوة في الرد على البعض ٧٥٦
سيواجه الإسلام شعوبا منكرة للوحي ٧٨٥
جعلُ أوروبا مسلمةً على شاكلة مسلمي آسيا سيبدو صعبًا ٧٨٣

الدين

ذات البارئ تعالى هي النقطة المركزية للدين ٨
الغرض الحقيقي للدين ٧٢٧
الدين لا ينفع الإنسان ما لم يحظَ بقرب الله ٣٨٥
عبادة الله أهم أركان الدين ٣٩٠
معرفة الدين الحق ٧٢٨

ضرورة الدعاء لمعرفة الدين الحق ٧٩٩
مجرد الانضمام إلى الدين الحق لا يضمن النجاة ٧٢٩
التدبر والتفكر يُكسبان الدينَ قوةً ٢٥٩
تنتشر الحقائق الربانية عادة في أناس يعتبرهم الآخـــرون جهالا ٤٥٨
لا يمكن اتحاد الأديان إلا على وحدانية الله ٧٩٥
ميول الناس إلى الدين في أوروبا ٢٤٨
غلبة الجماعات الإلهية تنطوي على بعض المخاطر ٢١٥
الإسلام دين الفطرة ٦٩٠
إطلاق القرآن اسم "المسلمين" على أتبـــاع صـــادقين للأديان الأخرى ٥٣٦
طريقة الحوار الديني ٧٨٣

لا الإكراه في الدين

العقل لا يدعم الإكراهَ ٦٥٧
الذي لا يقتنع بالدليل لا يستقيم بالإكراه ٥٤٩
الحكمة في عدم الإكراه في الإيمان ٨٩
دحض فكرة الإكراه في الدين ٧٠٠
الإكراه ليس من مهام رجال الدين ٦٩٩
لم يؤذَن للرسول ﷺ أن يُكره ٥٤٩، ٧٦٧
دحض عقيدة قتل المرتد ٦٩٩
السلام مع فكرة تغيير دين الناس جبرا محال ٧٠٠
خطط الحكام الجبابرة ٥٥١
مسألة الإكراه والقدر ٩٠

ذكر الله (راجِع الصلاة والعبادة)

الذنب (راجع النجاة أيضًا)

الذنب عملٌ ينافي صفات الله ١٩
الذنب نتيجة لحب المرء الماديةَ ٧٥٢
يجرؤ المرء على الذنب لعدم يقينه بالآخرة ٤٠٥
طريقة اجتناب الذنوب ٦٩٠
المسيحية تقترح أسلوبا غير طبعي لتجنب الذنوب ٦٩٠
دحض نظرية المسيحية للخطيئة الموروثة ٦٩٠

الرؤيا/ الكشف

النار في الرؤيا تعني حب الله ٤١٤
تأويل الاحتراق بالنار ٤١٤
اليد في الرؤيا ١٤٨
تأويل الثعبان في الرؤيا ١٤٦
المؤمن يرى ويُرى له ٧١٩
التعبير الصحيح لرؤيا إبراهيم ٥١٣
عُلّم عبد الله ابن زيد وعمر الأذانَ في الرؤيا ٧١٨
سقوط القمر في حجر صفية في الرؤيا ١٣٧
النبي ﷺ يغضب على هارون الرشيد في الرؤيا ٣٣
عالَم الكشف يبطل عقيدة تناسخ الأرواح ١٣٨، ١٣٩
أحيانا يشارك الآخرون في الكشف ١٤١
رؤيا المسيح الموعود عليه السلام عن جماعته ٦٧١
اهتداء معارضين كثيرين إلى الأحمدية بالرؤيا ٧٩٩
كثرة المكاشفات على المسيح الموعود عليه السلام خلال صيام ستة أشهر ١٥٠
بيان المسيح الموعود عليه السلام لأسرار عالَم الكشف ١٣٨

كشوف الأنبياء والصالحين

رؤية موسى عليه السلام للنار كانت كشفا ٤١١
ظهور عصا موسى كثعبان وبياض يده كان كشفا ١٣٦، ١٤٣، ١٤٦، ٤١٦
كشف حزقيال أن قومه يتحررون بعد قرن ٦٦٧
شق صدر النبي ﷺ في طفولته كان كشفا ١٣٩
كشفه ﷺ أثناء السفر إلى الطائف ٨٦
معجزة شق القمر كان كشفا واسع النطاق ١٣٨
رؤية أبي جهل في الكشف جملين هائجين ١٤٤
مشاركة الصحابة في بعض كشوف النبي ﷺ ١٣٩
رؤية الصحابة جبريلَ في الكشف ١٣٩

رؤية الصحابة والكفار الملائكةَ في بدر ١٣٩
كشف عمر رضي الله عنه شاركه فيه سارية وجيشه ١٤٠
انكشاف حالة إمام الصلاة على أحد الصلحاء ٦٠٢

رؤى وكشوف للمسيح الموعود عليه السلام

زيارته النبيَّ صلى الله عليه وسلم في الرؤيا ١٥٠
رؤياه عن الجماعة وتأويلها ٦٧١
رؤيا أخرى له عليه السلام ١٥٠
اشتراك صحابي في كشف القطرات الحمراء للمسيح الموعود ١٤٢
رؤية المسيح الموعود عليه السلام أنوارًا تتسرب إلى صدر النبي صلى الله عليه وسلم ١٥٠
بدعاء المسيح الموعود يمكن زيارة المسيح كشفًا ١٤٣
رأى صحابي عمودًا نورانيًا يخرج من رأس المسيح الموعود ١٤٩
رؤية هندوسي أسدًا يحمي المسيح الموعود ١٤٤

رؤى للمفسر رضي الله عنه

رؤياه عن غاية حياة الإنسان ١٤
خطابه في الرؤيا حول وجود البارئ تعالى ٧٩٩
انكشاف أسباب زوال المسلمين على المفسر في الرؤيا ٥٠١
رؤيا رآها في طفولته ١٠٠
ردُّه رضي الله عنه في الرؤيا على أسئلة مسلم ألمانيٍّ ٩
رؤيا رآها في أثناء السفر للحج ٣٣٧
رؤيا له تشير إلى الهجرة في المستقبل ٧٧٧
شمُّه غازًا معيَّنًا في الرؤيا ٥٣١

الدليل والبرهان (راجع الحجة)

الدماغ

منبع روح الإنسان القلب أو الدماغ؟ ١٠٣
ليس المراد من القلب الدماغُ ٢٤٥
طهارة الأفكار تتحقق بطهارة الدماغ ١٠٤

الدنيا (راجِع الكون أيضًا)

عمر الدنيا ٣٠٠
ضرورة كسب الدنيا إلى جانب الدين ٦٢٨
المراد من كون الدنيا لهوا ولعبا ٧٨٧
القرآن الكريم لم يشجب الحياة الدنيا ٧٨٨
موضوع بدء الكون ٧٠١

الديمقراطية (راجِع الحكومة)

ذِكر الله (راجِع الله تعالى)

الرجم

قصة إخفاء اليهود عقوبة الرجم في التوراة ٧٦٣

الرحمة

الرحمة في بمعنى بعثة الأنبياء ٤٩٧
إن أسوأ الناس أيضًا يستحق رحمة الله ٥٣٤
عفوُ الله عن العاصي رحمةً به لا يتنافى مع عدله ٦٩٢
سبب إنكار الناس لآيات الله ولقائه قنوطهم من رحمته ٦٥٨
استمرار رحمة الله على العبد محال بدون أن ينال حياةً أبديةً ٦١٨
إذا أصابكم الرقي بالزهو فلن يكون رقيكم رحمةً ٦٣٢
حكومة القرآن الكريم رسالة رحمة ٦٤٨
جاء النبي صلى الله عليه وسلم بأحكام هي ذخيرة رحمة لكل إنسان ٦٩
الرحمانية هي التي تلعب الدور الأول في جميع شؤون العباد ٦١٧
رحيمية الله تدحض فكرة دوام جهنم ٦١٨

الرزق(راجع المال أيضا)

تعريف شامل للرزق ٦٠٦
نظام الرزق المدهشُ في الكون ٧٨٢

نظام الرزق المادي دليل على الرزق الروحاني ٥٠٧
الثروة الموهوبة للإنسان من الله ٦٩٧
ضمان توفير الرزق لمن ينذر حياته للإسلام ٧٨٢
دعاؤه ﷺ لصحابي بسعة الرزق ٦٣٢

الرسالة/ الرسول (راجع النبوة)

الرقّ /العبودية

وصية الرسول ﷺ بحسن معاملة الأرقّاء ٣١٤

الرقص

لا يخلو فيلم هذا اليوم من الاختلاط والرقص ٦٠٨
انكباب الناس على الرقص والغناء لفقدانهم طمأنينة القلب ٢٤٤
قصة نظام الدين أولياء مع الملك المغولي المنغمس في الرقص والغناء ٤٨

الروح

هل القلب منبع روح الإنسان أم الدماغ؟ ١٠٤
دحض عقيدة كون الروح والمادة أزليتين ٦١٦، ٦٥١
دحض عقيدتها بتقمُّص الأرواح ٥٣٣
اعتقاد عبد الله ابن سبأ بتقمص الأرواح ٦٤١
عالَم الكشف يقضي على فكرة تقمص الأرواح ١٣٩
لا نؤمن بتناسخ الأرواح أبدًا ١١٢، ١١٦
خَلق الإنسان الماديُّ والروحيُ ١٢
تحيا الأمم بالأخلاق والروحانية ٦
إن الروحانية كلها في انكشاف الغيب ٣٧
والعلوم الروحانية تنـزل من السماء ٤٢٤
نظام الرزق المادي دليل على الرزق الروحاني ٥٥، ٥٠٧
القرابة الروحانية أهم من قرابة الدم ٣٣٨
البكاء هو السبيل لاستمرار حياة الجسم وحياة الروح ٨٠١
العالم المادي دليل على وجود العالم الروحاني ٤٨٥
لا بد من نموذجٍ في مجال الأخلاق والروحانية ٦٢٣
علامات الإنسان الميِّت روحيًّا ٤٧٢
الزندأفستا ساكت عن الأمور الروحانية الأساسية ٦٤
الحكمة في حالة القبض والبسط الروحانيين ٥٢٨
انتشار أمراض روحانية بين المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ بسنوات ٥٠٥

روح القدس

نزول روح القدس لا يخص المسيح وحده ٣١٥
الفرق بين روح القدس وروح الأمين ٣١٦

الزرادشتية

الزندأفستا ساكت عن الأمور الروحانية الأساسية ٦٤

الزكاة

ضرورة الزكاة وأهميتها ٣٩٢
نظام الزكاة والعُشر يقضي على الفقر ٣٩٦
نظام الزكاة يستهدف تأمين المرافق العامة ٣٩٩
قصة صحابي رفض دفع الزكاة ٦٣٢
نصاب الزكاة للمقربين إلى الله ٦٢٩

الزندأفستا (كتاب الزرادشتية)

الزندأفستا ساكت عن الأمور الروحانية الأساسية ٦٤

الزنى

على الذين يرمون المحصنات الإتيان بأربعة شهداء ٦٩٨

الزواج (راجِع أيضًا المرأة والنبات)

اتهام البعض المسيح بكونه من نطفة يوسف النجار من دون زواج ٥٢، ٥١٥
فتوى المشايخ بفسخ زواج من يسمع خطاب المسيح الموعود ٥١٧، ٦٧٠
حكاية إنجليزي أراد الزواج من أرملة ٦٣٠
مقدار المَهر عند الزواج في رأي المفسر ٥٧١

زواج والدَي النبي ﷺ قد تم بإنفاق بسيط ٤٥
كل شيء زوجان ٩٩
الساعة (راجع القيامة)
السجود
حقيقة سجود الملائكة لآدم ١٢
لا يجوز السجود لغير الله ١٣
سجود عباس آفندي على قبر بهاء الله ٧٧٣
زعم بعض المتصوفة أنهم يمكّنون أتباعهم من السجود على العرش ٤٢
السلام
الإسلام وسلام العالم ٦٥
جاء محمد ﷺ برسالة السلام للعالم ٧٠
سلام العالم منوط بعقيدة وحدانية الله ٦٧، ٧١، ٧٩٤
الكعبة وسيلة عظيمة لتحقيق السلام ٦٨
طرق تحقيق السلام العالمي ٧١
الجهود غير الإسلامية لتحقيق السلام العالمي ناقصة ٧٩٦
تحقيق السلام قد يتطلب حربًا ٧٣
السلام مع فكرة تغيير دين الناس جبرا محال ٧٠٠
تعاليم المسيحية عاجزة عن تحقيق السلام ٧٤
أهل مكة محظوظون بسلام لإقامتهم بالحرم ٧٩٣
السورة
سورة الشعراء
خلاصة محتواها ٣
تأكيدها أن الله عالِم الأسرار ومحسن عظيم وسميع الدعاء وصاحب الجبروت ٤٨
سبب تغيُّر مقطعها ٣
سورة طه
إنها مكية يقينا ٢
سورة العنكبوت
زمن نزولها ٦٥٥
خلاصة مضامينها ٦٥٦
علاقتها بسورة القصص ٦٥٥
سورة الفاتحة
أهميتها ٣٠٠
اندهاش المستشرقين من معارف البسملة ٤٤٩
زعمهم أن البسملة يهودية الأصل ٤٤٨
الفاتحة تتضمن مبادئ تقدُّم الشعوب وانحطاطها ٢٩٧
سورة القصص
إنها مكية باتفاق العلماء المسلمين والمسيحيين ٦٤٢
ملخص فحواها ٥٤١
علاقتها بسورة النمل ٥٤٠
سورة مريم
إنها مكية يقينا ١
سورة النمل
خلاصة محتواها ٣٧٠
علاقتها بسورة الشعراء ٣٦٩
علاقتها بسورة القصص ٥٤٠
السيئة (راجِع الذنب)
السيخية/ السيخ
نصيحة المفسر لأحد السيخ بقراءة الفاتحة لمعرفة الحق ٤٩٥
السينما والفيلم
ضرورة تجنُّب السينما والمسرح ٦٠٨

الشِّرك

المعنى الشائع للمشرك ٣٥١
المشرك في مصطلح القرآن ٣٥١
أنواع مختلفة للشرك ٦٥٠
اتخذ الشرك في زمن إبراهيم صبغة فلسفية ٦٩٤
الرد على الشرك ٥٤٦
تفنيد إبراهيم فلسفةَ الشرك ٦٩٥
إتمام الحجة على المشركين ٦٦١
الشرك وعبادة الأوثان ليس أساسها على الدليل والبرهان ٦٥٨، ٧١٢
اعتراف "هند" بهزيمة الشرك وقت البيعة ٦٤٥
يلجأ المشركون والملحدون إلى الله وحده في الوقت الحرج ٧٩١
ملاجئ الآلهة الباطلة أوهنُ من بيت العنكبوت ٦٥٩
مفاسد الأقوام المشركة ٧٩٧
شركاء الله بمعنى أئمة الكفر ٦١٤
لم يشرك الرسول ﷺ قط قبل بعثته أيضًا ٦٤٩
وصيته ﷺ لأمته وقت الوفاة بتجنب الشرك ٨١، ٣١٥، ٧٧٣
لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ (الحديث) ٨١
ضرورة طاعة الوالدين في كل أمر عدا الشرك ٦٨٣
شِرك البهائيين ٧٧٣

الشريعة

الإنسان وحده مكلف بالشرع ٤٣١
نوح عليه السلام أوّل نبي مشرَّع ٦٩٣
وحي الأنبياء غير المشرعين ٣٢٠
الفرق بين الوحي التشريعي وغير التشريعي٥١٧، ٣١٨
الملهَم لا ينسى الوحي التشريعي ٣١٩
القرآن شرع غير قابل للنسخ ٧٦٧، ٧٧٣
لا بد من العمل بالشريعة وطاعة النبي ﷺ أيضًا ٢٥١
وصف موسى القرآنَ بشريعة نارية ٦٤٧
لا شرع بعده إلى يوم القيامة ٦٥٠
إمكانية ظهور أنبياء غير مشرعين في الأمة ٣٢٣

الشعر

خصائص الشعراء ٣٦٠
التناقض في قول الشعراء وفعلهم ٣٦١
أتباع الشعراء٧
صفات الشعراء المؤمنين ٣٦٢

الشعور

الفرق بين العلم والشعور ٢٥٤

الشكر

ضرورة شكر الله على مننه ٢٣، ٢٥
الطريق لإيجاد الدوافع إلى الشكر لله ٢٠١
شكر الرسول ﷺ على منن الله تعالى ٢٧

الشهادة

على الذين يرمون المحصنات الإتيان بأربعة شهداء ٦٩٨

الشهادة (راجِع الاستشهاد)

الشيطان

علامات الذين يتنــزل عليهم الشيطان ٣٥٤
من معاني الشيطانِ الغضبُ ٥٦٦
المراد من إسلام الشيطان ١٠٤
الإنسان غير معذور إذا أضلّه الشيطان ٧٢٣
دحض فكرة نزول الوحي الشيطاني على الرسول ﷺ ٣٢٨

الشيعة

الخمسة المباركة عند الشيعة ٣٦٤

الصبر (راجع أيضًا الظلم)
معنى الصبر ٦٠٥
حقيقة الصبر وجزاؤه ٦٣٧
لا بد من الصبر والقناعة لاكتمال الإيمان ٦٧٤
صبر المسيح الموعود عليه السلام عند وفاة نجله ٦٨٩

الصحابة رضي الله عنهم
مدحُ القرآن الكريم الصحابةَ ٣٤٧
نبوءة موسى عن فتح النبي ﷺ مكة مع عشرة آلاف قدوسي ٦٤٧
أكد الصحابة إيمانهم بعملهم ٦٧٤
سبب فضل الصحابة علميا ٢٥٨
مكانة الصحابة الذين آمنوا في أوائل الإسلام ٢٥٣
انقلاب عظيم في حياتهم بواسطة النبي ﷺ ٤٧٤

صفاتهم
تضحياتهم وفداؤهم ٦٦٧
تعليق وليام ميور على تضحية الصحابة بأرواحهم ١٦٢
قولهم: "فزتُ وربِّ الكعبة" ٣٧، ٢٥٨
رغبتهم في الشهادة وحبهم للنبي ﷺ ٤٠٣، ٦٦٨، ٦٧٥
مشاهد حب الأنصار للنبي ﷺ في غزوة بدر ١٦١
استشهاد سبعين من الحفّاظ ٦٦٧
تضحية الصحابة في بدر وأُحد ٤٠٢
استشهاد الصحابة في معركة اليرموك ٦٠
معاملة الله مع صحابي استُشهد ٥٣٤
حماسهم للتضحية ٦٦٨
كان أبو بكر أشجع الصحابة ٤٣٤
عِلمه كان سبب بسالته ٢٥٨
غيرتهم الإيمانية ونيلهم الخلود ٤٧٤
إيمانهم القوي في غزوة الأحزاب ٦٧٠
نموذج منقطع النظير لطهارة الصحابة ٣٦٠
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٣٩٨
إيثار الأنصار عند المؤاخاة ٣٩٨
تفانيهم في الدعوة إلى الإسلام ٣٣٦
فراسة الصحابة الأوائل ٢٥٨
أمانتهم في التجارة ٢٩٥

بعض وقائعهم
اضطهاد الكفار للصحابة ٩٤
أمر النبي ﷺ إياهم بالهجرة إلى الحبشة ٧٧٨
الرسول ﷺ منع الصحابة من التوقف في الحِجر ٥٨٧
بكاؤهم في المدينة حنينًا لمكة ٧٧٨
حث النبي ﷺ الصحابةَ على التفكر والتفهم ٢٥٩
عَرضُ كسرى الرشوة عليهم ٤٦٥
مقارنة صحابة النبي ﷺ بأصحاب موسى عليه السلام ١٦٠

الصحبة
لا يتمتع الإنسان بالمعرفة دون صحبة الكُمَّل ٧٧١

الصلاة (راجع أيضًا العبادة)
الصلاة الحقيقية ٦٠٣
مكانتها السامية ٧٤٤
هي العبادة الشاملة ٧٤١
هي مجموعة الأذكار ٣٦٦
رؤية الله في الصلاة والمراد منها ٧٤٣

فرضيتها وأهميتها
الصلاة فرض في كل حال ٧٤٨
أهمية الصلاة الظاهرة ٧٤٦
إقامة الصلاة تعني الصلاة بالجماعة ٣٩٠
أهمية الصلاة بالجماعة ٣٧٠، ٣٩١، ٧٥٠
أُمِر المسلمون بالصلاة بالجماعة ٧٤٨، ٧٨٩
أمِر النبي ﷺ بتعويد المسلمين على صلاة الجماعة ٦٦٠
قصة صحابي طلب الإذن للصلاة في بيته ٣٩٢

عتاب النبي ﷺ على تاركي الفجر والعشاء ٣٩٢
اهتمام المسيح الموعود ﷺ بالصلاة بالجماعة ٧٥١
الصلاة أدعى للحسنات ٧٥٠
الصلاة بالجماعة أدعى إلى تربية الأولاد ٧٥٠
الذين لا يعوِّدون أولادهم على الصلاة جماعةً قتلةٌ لهم ٧٥٢
من يواظب على صلاة الجماعة إصلاحه ممكن دائمًا ٧٥١

غايتها

غاية الصلاة ٧٤٠، ٧٤٩
الهدف من الصلاة جهرًا وسرًّا ٣٦٦
الصلاة وسيلة إصلاح الجسم الروحاني ٧٤٩
ليست الصلاة مجرد الاعتراف بالعبودية بل إنها تجلو القلب ٧٤٠
معنى إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ٧٣٩

أمور متفرقة عنها

أداء الصلاة في ظروف مشبوهة ٧٤٩
مقال أحد دعاة الإسلام ضد فرضية الصلاة ٧٤٦
قصة امتناع سليمان عليه السلام عن صلاة الاستسقاء بسماع دعاء نملة ٤٣٥

الصلاة على النبي ﷺ

حقيقة الصلاة على النبي ﷺ ٢٢٥

الصلاح

تعريف الصالح ٦٨٥
لا بد للمرء من اتباع النبي ﷺ ليكون صالحًا ٦٨٦
مدارج مختلفة للصلاح ٢١٩

صلح الحديبية

جسارة كفار مكة ٤٧٨
شرف عثمان رضي الله عنه في بيعة الرضوان ٣١

الصيام ٢٢

من صام بإخلاص وُفّق لحسنات أخرى ٨٠٤
من صام يوم العيد فهو شيطان ٣٦٥
صوم المسيح الموعود عليه السلام بأمر الله ﷻ ستة أشهر متتالية ١٤٩

الطاعون ٣٩، ٣٢٠، ٥١٧

آية الدم التي ظهرت على يد موسى كان نوعًا من الطاعون ٤٢٠
دابة الأرض التي أخبر عنها القرآن هي الطاعون ٥٢٢
تفشي الطاعون طبقًا لنبوءة المسيح الموعود ٤٧٥
قصة الحمى التي ظنها المفسر طاعونًا ١٥١

الطبّ

سببُ الأمراض سوءُ استعمال نعم الله ٢٠٢
الطب في بغداد في العهد العباسي ٢٩٢
يأتي على المرء حين لا ينفعه فيه الطبيب ٢٤٩
تصريح المسيح الموعود عليه السلام عن علم الطب ٢٠٥
وصف النبي ﷺ العسل لمصاب في البطن ٨٠٧
العسل يسبب الإسهال ٨٠٧
الزبيب يزيد الزكام ٥١٨
الفلفل الحادّ يسبّب الدوسنطاريا ٧٣٢
يُستخدم القار في نصف الأدوية الكيماوية ٦٣١
العلاج بالسمّ ٢٠٤
علاج الزهري بالفوسفور والزرنيخ والزئبق ٦٣١
منافع الأفيون وجوز القيء والزرنيخ ٢٠٤
عطّارون غشاشون ٢٩٢، ٧٣٠

الظلم/ الاضطهاد

أظلمُ الناسِ المفتري على الله ومكذبُ النبيِّ الصادقِ ٥٨٤، ٦٦٢، ٧٩٧
احتجاج شرفاء مكة ضد الظلم بالنبي ﷺ ٨٣

المؤمنون ينتقمون بقدر ظلم الظالم ولا يعتدون ٣٦٣
لا يهلك الله قومًا بدون إنذار لأن هذا ظلمٌ ٦٦١
تعرُّض جماعات الأنبياء للاضطهاد ٦٦٥
طريق الحوار مع الظالمين من أهل الكتاب ٧٥٥

العبادة (راجع أيضًا الصلاة)

العبادة أهم أركان الدين ٣٩٨
الغاية من خلق الإنسان هي العبادة ٥٧
الهدف من العبادة ٧٤٠
وسائل تحقيق أهداف العبادة ٧٤١
لا بد للأنبياء أيضا من العبادة ٢٢٢
أهمية ذكر الله ٣٦٧
ضرورة الاعتناء بظاهر العبادة ومغزاها ٧٤٦
الدعاء مُخُّ العبادة ٧٤١
نظريات بعض المسلمين عن العبادات الإسلامية ٧٤٥

العبودية (راجِع الرقّ)

العدل/ الإنصاف

ليس العدل أن يُعاقَب المجرم بالضرورة، وإنما العدل ألا يُعاقَب البريء ٦٩٢
لا تناقُض بين العدل والرحم ٦٩٢
كان الملك الفارسي "أنو شيروان" شهيرا بعدله ٢٠٨
حث القرآن على العدل حتى مع العدو ٢٧٨
ضرورة العدل لإرساء السلام العالمي ٥٥١

العذاب (راجع أيضًا الجزاء والطاعون)

الهدف من العذاب ٦١٠
الفرق بين العذاب والابتلاء ٦٨٧
مبادئ نزول عذاب الله ٧٠٢
ينـــزل العذاب نتيجة ظلم الناس أو رفضهم لنبيٍّ ٦١٠
لا ينـــزل العذاب على قوم إلا بعد ظهور نبي ٣٢٧، ٦١٠
لا ينـــزل الله عذابه إلا بعد إرسال رسوله في موضـــع مركزي ٦١١
ضرورة بعثة رسول قبل العذاب العالمي ٦١١
سبب تأخير العذاب ٥١٠
عذاب الله ينـــزل فجأةً ٧٧٤
معنى نزول العذاب من فوق ومن تحت ٧٧٦
نزول العذاب على جيش الكفار في بدر ٤٧٧
إنذار المسيح الموعود عليه السلام من العذاب ٥٢٣

العربية اللغة

هي غنية بالمفردات للتعبير عن المشاعر ٣٢١
عدد السَّبع في العربية يدل على الكثرة ٧٦٨
أحيانا يطلق اسمٌ على مسمىً نظرا لحالته المستقبلية ٢٦٥
أحيانا يكون المبتدأ في صيغة الجمع ويأتي خبره في صيغة المفرد ١٩٤
لفظ "الكل" لا يشمل جميع أفراد الجنس بالضرورة ٤٢٦
اسم الفاعل يدل على الدوام ٤٦٥
قاعدة صرفية ١١٩
الاستثناء المتصل والمنقطع ٤١٧
قلب النسبة ١٩٤
"ال" يدل على الكمال ٦٤٩
تنوين الاسم يقصَد به أحيانا التعظيم ٣٨٩
التنكير يفيد التعظيم أيضًا ٣٧٠
تعريب الكلمات العبرية ٤٤٣
إطلاق الأب على العمّ ٢٤٣
حروف "ع، ر، ب" تدلّ أصلاً على الإعراب عما في الضمير ٣٢٢
الفرق بين القُرْبة والقُرْب والقُرْبى ٢٨٦
ميزة الكلمات على وزن فَعِيل ١٨٣
إضافة كلمة إلى "صِدْق" تفيد الدوام والحسن ظـاهرًا وباطنًا ٢٢٤، ٦٤٣

ذهاب المفسر لدراسة العربية في مصر ٣٣٧

العرش

المراد من عرش الله ٤٢٢
دعوة المظلوم تهزّ العرش هزًّا ٤٩٣
زعم بعض المتصوفة أنهم يمكّنون أتباعهم من السجود على العرش ٤٢
اعتقاد البعض أن الشيطان يسمع ما يجري على العرش ٣٣٠ ، ٣٥٧
قصة إحضار عرش ملكة سبأ ٣٧٣، ٤٦٧

العسل

فيه شفاء للناس ٧٧٨
وصف النبي ﷺ العسل لمبطونٍ ٨٠٨
مثل هجرة الجماعات الإلهية كمثل هجرة النحل ٧٧٨

العشق

العشق والعقل ٧٩

العفو والصفح (راجِع العذاب أيضًا)

ميل التوراة والإنجيل إلى الإفراط والتفريط في العفو ٦٠٦
عفو النبي ﷺ يوم فتح مكة ٥٩، ١٧٥، ٣٠٦، ٤٥٤

العقاب (راجِع الجزاء والعذاب)

العقل

تعريف العقل ٢٥٤
العقل وحده لا يكفي بدون ماء الوحي ٧٣٣
لا بد من الأنبياء لتوجيه العقل ٣٨٨
لا يمكن إدراك الله بمقاييس العقل كما لا يمكن فهم الدين بدون العقل ٣٨٨
سيطرة الفلسفة في زمن إبراهيم عليه السلام ٦٩٤
الكفر يحجب العقل ٦٩٠
مجرد العقل لم يُكتَب له الخلود قط وإنما العشق حقق الخلود ٧٨

العلم

العلم الحقيقي ٧٣٧
تعريف العالِم الحقيقي ٧٣٢
الفرق بين الشعور والعلم ٢٥٤
تطوُّر العلوم يتوقف على الغيب ٣٠، ٣٣
بدأ علم النفس بالقرآن والرسول ﷺ ٥٦
قول علماء النفس عن المجنون ١٣١
أنواع الجنون ١٣١
سِرُّ المعرفة ٧١٠
قسمان للعلم الإلهي ٦٦٤
باب جديد للمعرفة ٧٨٢
مخترعات هذا الزمن ٧٧٠

العمل

سيعامَل كل إنسان وفق عمله ٧٠٣
الفرق بين الحسنة والعمل الصالح ٣٦٥
لا بد من العمل بالشريعة وطاعة النبي ﷺ أيضًا ٢٥١
ضرورة العمل الصالح مع الإيمان ٣٦٣، ٦٩٢
أهمية النية إلى جانب العمل ٤٠٦
العمل الصالح يجعل الأعمال القادمة سهلةً ٤٠٦
مبدأ جزاء الأعمال الحسنة ٦٨١
الدوام على السيئات يزيِّنها لصاحبها ٤٠٦، ٤٠٨
ضرورة كراهية الأعمال السيئة لا صاحِبَها ٢٧٨
الاستعاذة من العمل السيء أهم من الاستعاذة من العذاب الظاهري ٢٧٨

العنكبوت

حقيقة مثل بيت العنكبوت ٧٢٦، ٧٢٧

العهد (راجع أيضًا صلح الحديبية)
معاهدة بين موسى عليه السلام وحميه ٥٧٢، ٥٧٨
معاهدة الأنصار مع النبي ﷺ ١٦١
نقض قريش لمعاهدة الحديبية ١٤٠

الغذاء (راجِع أيضًا الرزق)
نظام هضم الغذاء ٢٦، ٧٥٠
الغذاء والكساء والسكن والتعليم والعلاج مضمونة في الدولة الإسلامية ٤٠٠
السيئة تصبح بمنـــزلة الغذاء للمسيء ٤٠٨
القرآن الكريم غذاء روحاني أعده الله لنا ٧٣٥

غزوات النبي ﷺ

غزوة أحد
الضغط الشديد على المسلمين فيها ٦٧٥
إصابة النبي ﷺ فيها بجروح بالغة ٨٦
تضحيات جسيمة للصحابة وقوة إيمانهم فيها ٤٠٢
رغبة عارمة لصحابي في الشهادة ٦٧٥
دعاء النبي ﷺ للكافرين حين جرحوه ٨٦

غزوة الأحزاب
ازدياد الصحابة إيمانًا فيها ٦٧٠
استغراب السير وليام ميور من فداء الصحابة فيها ١٦٢
اليهود قادوا الكفار فيها ٧٥٨

غزوة بدر ٤٠١، ٦٧٥
خَلْفيتها ١٦٠
رؤية الصحابة الملائكةَ في الكشف ١٣٩
معجزة مطر الحصى على الكفار ١٥٩، ٤٨١
قتل خمسة من التسعة من زعماء الكفار ٤٧٧
قتل أبي جهل ١٢٥
أسر أبي العاص ٣٥
ثبت في بدر أن أبا بكر رضي الله عنه أشجع الصحابة ٤٣٤
تحقُّق نبوءة أشعياء يوم بدر ٦٤٧

غزوة خيبر
الرسول ﷺ يعطي عليًّا اللواء ٤٣٤

الغناء (راجع أيضًا اللغو) ٢١١
قصة توبة قوم منغمسين في الغناء ٣٩
انغماس الأوروبيين في الغناء ٢٤٤

الغيب
استئثار الله بعلم الغيب منّةٌ على البشر ٢٩
يظهر الله الغيبَ عن طريق الأنبياء ٣٧، ٥٠٨
تأكيد الإنجيل أن الله وحده يعلم الغيب ٣٣١
الجزاء والعقاب أساسه الغيب ٣٠
تطوُّر العلوم يتوقف على الغيب ٣٠، ٣٣

الفطرة (راجِع أيضًا الإنسان)
كل إنسان يولَد بفطرة صحيحة ٥٧
الإنسان مفطور على التعلق بالله ٣٨٥
شهادة الفطرة الإنسانية على وحدانية الله ٧٩١
علاقة الوحي بالفطرة السليمة ٧٧
من معاني "كتاب مكنون" الفطرةُ النقية والضمير ٧٥، ٣١٨
فطرة النبي ﷺ النقيّة ٧٦

الفقر (راجع المال)

الفقه
أساس الاختلافات الفقهية ٩٦
كان النبي ﷺ إذا سُرّ بأحد دعا له بالتفقه في الدين ٢٥٧

الفناء (راجع أيضًا الموت)
كل مركب فانٍ لا محالة ٥٥١
المراد من قوله تعالى "كل شيء هالك إلا وجهه" ٦٥٢

كيف يمكن تجنب الفناء ٦٥٤

الفيدا

الفيدا ساكت عن الأمور الروحانية الأساسية ٦٣
مقارنته بالقرآن الكريم ٤٢

الفيلم السينمائي (راجع السينما)

القرآن الكريم (راجِع أيضًا التفسير)

نبوءات سابقة عن نزوله

وصف موسى القرآنَ بشريعة نارية ٦٤٧
نبوءة إشعياء عن القرآن الكريم ٣٢٢
نبوءة التثنية عن ورود البسملة في مستهل كل سورة قرآنية ١٠٢
سبب ورود البسملة في مستهل كل سورة ٤٥٠
كثير من سور القرآن نزلت مرتين ٥٩٢
دحض اعتراض على عدم نزول القرآن دفعة واحدة ٥٩٨
كان الصحابة يربطون شهادتهم على زمن نُزوله بحادث تاريخي ٥٣٩

ترتيبه

في القرآن الكريم ترتيب رائع ٥٤٥
سوره وآياته تتّسم بترتيب حسن ٥٤٨
ترتيب القرآن عاطفي ٦٠٣
فلسفة ترتيب الكتب السماوية ٦٠٠
لماذا لم يرتَّب القرآن مثل كتب الفقه ٦٠١

فضائله

فضائل القرآن ١٥٦، ٧٦٩
القرآن أكبر معجزات النبي ﷺ ٥٤٠
نزول القرآن بلسان عربي مبينٍ إعجازٌ ٣٢١
القرآن كلام الله بكل تأكيد ٥٩٥
نزل القرآن بكلمات محددة ٣١٩
هو القانون الرباني الأبدي ٧٥٤
من فضائل القرآن ترتيبه الرائع ٦٠٠
القرآن رحمة وذكر للمؤمنين ٧٦٥
القرآن كتاب جامع كامل مفصل ٦٣
هو كنـــز العلوم التي لا نهاية لها ٧٦٩
يذكر صفات الله مفصلا ٦٢
يسدّد جميع حاجات الإنسان الطبعية والروحية ١٥٦
نزل لهداية كافة البشر ٣٠٧
يكفي لمتطلبات كل زمن ٧٦٧
هو كتاب محفوظ أي أنه يُكتَب ويُحفَظ ٣٨١
هو غني عن الأدلة الخارجية لإثبات صدقه ٦٢
هو كتاب مكنون ٣١٨
من فضائله نبوءات عن نزوله في الصحف السابقة ٣٢١
ميزته أنه أُودِع الفطرة السليمة ٧٧
يهيئ أساسا للوحدة العالمية ٤٩، ٣٠٤
القرآن يعتبر جميع الأنبياء أبرياء ٥٤
سبب دحضه العقائد المسيحية الفاسدة ٦٥١
يستخدم الأسماء العجمية معرَّبةً ٢٤٣

حفاظته من التحريف

وعد الله بحفظه زمن النـــزول وبعده ٣١٦
اعتراف المستشرقين بكونه مصونًا من التحريف ٣٨٢

لا نسخ في القرآن

القرآن شرع غير قابل للنسخ ٧٦٧، ٧٧٣
دحضُ المسيح الموعود عليه السلام عقيدة النسخ ٩٧، ٧٦٧
إبطال زعم البهائيين بنسخ القرآن ٧٧٣

خصائصه

المراد من كونه "قرآنًا" ٣٨٠
إنه كتاب الدين والحضارة معًا ٤٧١
الجهاد الكبير مرتبط بالقرآن ٥٥٣، ٥٥٤
القرآن وحده يهب الهداية الكاملة ٣٨٩
القرآن يتضمن الهداية للناس إلى القيامة ٦٤٩

من أكبر كمالات القرآن الكريم ٤٨٥
يحفظه الكثيرون عن ظهر قلب ٣٨١
يبين مطالب كثيرة بتغيير بسيط في الصيغة ٦١٣
بدأ علم النفس على يد القرآنِ والنبي ﷺ ٥٦
اعتراف كاتب مسيحي بكونه جامعا لعلوم التاريخ ٢٦٨
الدليل على كونه كتابا مبينا ٦٤، ٣٨١
وُصف بكونه "مبينًا" دون سائر الصحف ٤٩
الدليل على كونه آيات بينات ٦٦٠
فيض القرآن الكريم ١٥٤
وعدٌ بالعزة للمؤمنين الصادقين بالقرآن ٧٦٦
انقلاب روحي حصل بواسطته ١٥٨
لا شرع بعد القرآن أما الأنبياء غير المشرعين فبعثتهم ممكن ٣٢٣
كان النبي ﷺ تفسيرًا عمليًا للقرآن ٦٨
لا بد من طاعة النبي ﷺ مع اتّباع القرآن ٢٥١
إبطال فكرة نزول الوحي الشيطاني في القرآن ٣٢٨

صدقه

صدق القرآن الكريم ٣٢٤، ٦٤٢
البرهان على كونه كلام الله ١٦٨، ٣١٥
إنه دليل على كون الله ربَّ العالمين ٣٠٨
من أدلة صدقه ذكرُه كون جثة فرعون محفوظة ٦٢

بطونه

للقرآن الكريم سبعة بطون ٧٦٧
المراد من البطون السبعة ٧٦٧
انكشاف بطون للقرآن على المسيح الموعود ٧٦٧
مطالب القرآن متراكمة في كلماته كطبقات الأرض ٧٦٨
معايير لمعرفة صحة معاني آياته ٧٧١
المراد من الكتاب المكنون الفطرةُ الصحيحة ٧٥
في زمن انقطاع سلسلة النبوة يتوارى الكتاب المكنون أكثر ٧٦

تعاليمه

يأمر القرآن بتوظيف العقل والتفقه ٢٥٨
يعدّ القرآن عدم معرفة المرء بالأمر عذرا مقبولا ٢٣٥
طريقة اجتناب الذنوب كما بينه القرآن ٦٩٠
حُكمه بالإحسان إلى الوالدين ٦٥٦
معاني الأمر في القرآن الكريم ٥٩٠
أحيانًا يخاطب النبيَّ ﷺ ويريد به أتباعه ٦٤٩
ذكر الجنّ فيه وحقيقتهم ٤٢٧
ردُّ القرآن على الآريا والطبعيين ٦١٦

نبوءاته

تحقق نبوءة في بدر ١٢٥
نبوءة نزول عذاب مفاجئ على أهل مكة ٣٢٦
أنبأ بكون جثة فرعون محفوظة ٦٢

تميُّزه عن الصحف الأخرى

دحض اعتراض سرقة القرآن من الكتاب المقدس ٧٦٢
فضيلته على سائر الصحف ٤٩، ٥٦، ٦١، ٦٣، ٣٠٨، ٧٦
كونه صالحا للعمل إلى الأبد ٣٨٢
فضله على الكتاب المقدس ٥٥٩، ٥٧٨
تصحيحه لبيانات الكتاب المقدس ٥١١
القرآن حَكَمٌ لتسوية الخلاف بين اليهود والنصارى ٥١٥
القرآن الكريم يقص أحداثا من حياة موسى بدقة ٥٤٩
تفاصيل في القرآن عن هامان ٥٥٤

مقارنته مع الصحف الأخرى

المقارنة بينه وبين عصا موسى بوصفهما إعجازا ١٥٦

حسبنا أولاً أن الفرقان هو عصا موسى ثم إذا أمعنا النظر وجدنا كل كلمته تحمل صفات المسيح (المسيح الموعود) ١٥٨
مقارنته مع الكتاب المقدس في بيان صفات الله ٨
مقارنته مع الكتاب المقدس في حادث ذبح إبراهيم ابنه ٥١٣
مقارنته مع الكتاب المقدس في سرد الحقائق التاريخية ٥٠، ١١٩، ٢٤١
اختلافه مع الكتاب المقدس في بيان عدد بني إسرائيل وقت خروجهم من مصر ٥١٢
اختلافه مع الكتاب المقدس في سرد الأحداث من حياة موسى ٥٧٣، ٥٨٠، ٤١٣
بيان القرآن عن موسى أصحّ عقلا ٥٧٥
مقارنة القرآن الكريم بالكتاب المقدس والفيدا ٤٢

تبرئته ساحة الأنبياء من التهم

تبرئته للوط عليه السلام ٢٧٩
تبرئته لموسى عليه السلام ٥٧٥، ٥٨٦، ٤١٨
تبرئته لهارون عليه السلام من تهمة الشرك ٥٢، ٢٤٢
تبرئته لسليمان عليه السلام ٥١
تبرئته للمسيح عليه السلام من ميتة لعينة ٥٣

قراءته ونشره

فضيلة قراءة القرآن الكريم بكثرة ٣٧٨
الأسلوب الصحيح لقراءة القرآن الكريم ٦٠٤، ٧٣٥
من ينتفع من هدْيِ القرآن الكريم؟ ٣٩٠
خدمة القرآن تمكِّن الإنسانَ من قربِ الله ٢٢٣
الحكم بنشر القرآن الكريم ٧٣٧
نقل معاني القرآن إلى لغات أخرى ليس كفرا ٧٣٨
تخلّفَ المسلمون لاتخاذهم القرآن مهجورا ٧٣٥

المقطعات القرآنية

المقطعات المماثلة تتضمن مفاهيم مماثلة ٥٤٨
المقطعات تشير إلى مضمون السورة التي تستهل بها ٦٦٣
سبب تغيُّر المقطعات في سورة الشعراء ٣
معاني بعض المقطعات ٦٦٣
ألم ٦٦٣
طس ٣٧٧
طسم ٨، ٥٤١، ٥٤٨

أمور متفرقة

اندهاش المستشرقين من معارف البسملة ٤٤٩
زعمهم أن البسملة يهودية الأصل ٤٤٨
مثال بيت العنكبوت في القرآن ٧٢٧

القرآنيون/ أهل القرآن

دحض إحدى عقائد "أهل القرآن" ٢٥١

القربان

قربان أحد ابنَي آدم رُفض لخلوّه من التقوى ١٧٦
أهمية قربان إسماعيل عليه السلام ٥١٤

القصص والوقائع الواردة في هذا المجلد

قصة إلقاء أم موسى إياه في ماء النهر ٥٦١
قصة امرأتين متهمتين في التاريخ ٧٥٦
امرأة يهودية تسمم طعام النبي ﷺ ٧٥٦
قصة في الحديث عن خدمة الوالدين ٤١
قصة خرافية عن بوذا ٨٠٠
قصة انخداع ملكة سبأ بالماء الجاري تحت الزجاج ٣٧٤، ٤٦٩
القصة الخرافية عن ناقة صالح عليه السلام ٢٧٦
قصص عن انفلاق البحر ١٨١
قصص عن سليمان وملكة سبأ ٤٦٩
قصة سليمان مع النمل ٤٣٥
قصص عن سليمان والهدهد ٤٤٠

قصة شخص رفض دفع الزكاة للنبي ﷺ ٦٣٢
قصة من معركة "ووتر لو" ٤٣٣
قصة إمام وصل في صلاته إلى بخارى ٦٠٢
قصة الملك الإنجليزي كينيوت ٧٨٣
قصة قوم كانت فيهم خشية الله فخافوا سهام الليل ٣٩
قصة هداية شخص مستهتر ٢٧٠
قصة الخليفة الأول مع شيخ للمتصوفين ١٨٧
قصة متصوف زائف كانت أخت الخليفة الأول تابعة له ٢٤٩
حكاية حول حقيقة استجابة الدعاء ٤٤
قصة استجابة دعاء رجل صالح ٨٠٢
قصة المفسر مع عدو لدود لجماعتنا ٤٠
قصة أحمدي مخلص حول تربية الأولاد ٣٩١
قصة المفسر مع متصوف أصدر فتوى الكفر ضد جماعتنا ٥١٧
قصة الحمى التي ظنها المفسر طاعونًا ١٥١
قصة امرأة مجنونة مع الخليفة الأول ١٣٢

القلب

التقوى مصدرها القلب لا الدماغ ١٠٣
خلوص الأعمال يتعلق بالقلب لا بالدماغ ٢٤٥
هل القلب منبع روح الإنسان أو الدماغُ؟ ١٠٣
المراد من القلب هو القلبُ لا الدماغ ٢٤٥
أخيلة القلب ليست وحيًا ٣١٧
القلب النجس لا يكون مهبطًا للتجليات الإلهية ٢٤٥
الصلاة تجلو قلب الإنسان ٧٤٠
إذا صلح القلب صلح الجسد كله ٢٤٤
أحيانا تطرأ على القلوب حالات روحانية في الصلاة ٦٠٣
جُبِلت القلوب على حُبّ مَن أحسن إليها(الحديث) ٧٤٠
وسيلة اطمئنان القلب ٨٠٤
لا يوهب القلب السليم إلا لمن يقيم الصلة مع الله ٢٤٤
لن يُكتب الخلود إلا للتقوى ٢٦٩
إنما العزة في تقوى الله ٢٧٤
عدم التزام المرء بالعدل يُسقطه من مقام التقوى ٢٧٨
يتبع الشعراءَ من لا تقوى فيه ولا روحانية ٣٦٠
الكثيرون اليوم قد حذوا حذوَ اليهود، وتخلوا عن التقوى (المسيح الموعود) ٤٩٩
القرآن يقدّم التقوى على كل شيء ٦٠٢

القمر

سبب خسوف القمر ٢٦٢
خسوف القمرين في رمضان ٥٢٢
حقيقة معجزة انشقاق القمر ١٣٨
تفسير المسيح الموعود ؑ لمعجزة انشقاق القمر ١٣٨
معجزة انشقاق القمر كانت كشفا واسع النطاق ١٣٦
سقوط القمر في حجر صفية رضي الله عنها في الرؤيا ١٣٧

القناعة

ضرورة القناعة والشكر ٢٣
قصة امرأة قانعة ٢٣

القنبلة الذرية

هلع الناس من دمار القنبلة الذرية وعلاجه ٢١١
الأمل في ابتكار جهاز مضاد للقنبلة الذرية ٥٣١

القنوط (راجِع اليأس)

القوم/الأقوام (الحضارة أيضًا)

إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ٥٠١
أرسل الله مصلحا إلى كل قوم ٦٠٠
لا يعذِّب الله قوما عادلين ٦١٠
تعليم النبي ﷺ لا يخصّ قوما دون قوم ٣١٠

نفسية الأقوام المتخلفة ٤٦٣
الأقوام المتخلفة في الظاهر أكثر قبولا للحق ٤٥٨
يهلَك الجبابرة بآهات المظلومين ٤٩٣، ٤٩٤

تقدمها

تقدُّم الشعوب وتخلُّفها ٥٠٠، ٥٢٩، ٧٠١
الفاتحة تذكر مبادئ تقدم الشعوب وتخلفها ٢٩٨

عروجها وانحطاطها

سرٌّ وحيد للرقي القومي ٦٧٢
أسلوب التفوق على الأمم الأخرى ٢٥٩
أمثلة تنفخ الحياة في الأمم ١٧١
الحياة القومية منوطة باستعداد كل فرد هجرة وطنه في سبيل الله ٧٧٩
أكبر سبب في تخلف الأمم وهلاكها ٢٢١
أسباب هلاك الأقوام الخالية ٧٢٥
لا بدّ من الدعاء المستمر تجنبًا للانحطاط ٣٠١
إذا قال المرء هلك القوم فهو أهلكَهم (الحديث) ٥٦
لا يستعيد قوم حياةً ما لم يستعدّوا للموت ٦٧٢
الأمم التي ترفع الهتافات فقط لا تنجز شيئا ٢٦٣
سنة الله في الأمم الجاهلة والمظلومة معًا ٤٦٣

القيامة (راجِع أيضًا الآخرة)

أحد الأدلة على القيامة ٥٠٩
لا يقدر أحد على تحديد وقت القيامة ٣٠٠
لن يبقى في الدنيا قبل القيامة إلا شرار الناس ٣٠٠
لا شرع بعد القرآن إلى يوم القيامة ٦٥٠
الساعة بمعنى غلبة الأنبياء ١٣٧

الكبر

الإسلام يشجب الكبر جدًّا ٦٣١
أعداء الأنبياء يتكبرون في البداية ويضطرون للاعتذار في النهاية ٥
الكبر يلقي صاحبه في الجحيم بعد وصوله إلى باب الجنة ٦٨٠
المغضوب عليه يزداد كبرًا عند نزول العذاب ٦٨٨
مثل الشخص المصاب بالكبرياء ٧٣٤
كبرياء أبي جهل ١٢٥
استكبار المشايخ ضد المسيح الموعود فرحين بعلمهم ١٣٤

الكتاب المقدس (راجِع أيضًا القرآن والتوراة)

سبب احترامنا للكتاب المقدس ٢٤٢
هو كتاب مشكوك فيه عند المحققين ٥٥٥
اعتبر "مارتين لوثر" سِفر أستير خرافة ٥٥٥
الكتاب المقدس يصف العرب بالوحشي ٣٢٢
تفصيل معجزة انفلاق البحر فيه ١٨١
فيه تعاليم قاسية ضد الشعوب المهزومة ٤٥٣
تصحيح التلمود للكتاب المقدس ٢٤٣

نبوءاته

أنباء عن هجرة النبي ﷺ وغزوة بدر وفتح مكة ٦٤٦، ٦٤٧
نبوءة عن بعثة النبي ﷺ ١٠٢، ٥٩٢، ٤٥٠
نبوءة عن نزول "البسملة" ٤٥١
نبوءة إشعياء عن بعثة الرسول ﷺ ونزول القرآن ٣٢٢
نبوءة إشعياء عن هجرة الرسول ﷺ ٦٤٦

تعرُّضه للتحريف

الكتاب المقدس محرف ٢٤٢، ٥٧٦
اعتراف القساوسة بتحريف فيه ٣٨٣
تفنيد مؤلفي الموسوعة البريطانية بيانَ الكتاب المقدس عن هارون ٥١٢
مقارنته بالقرآن الكريم والاختلاف بينهما ٩، ٥١، ٢٤١
القرآن الكريم يصحح الكتاب المقدس ٥١٢

خلافه مع القرآن في بيان قصة معينة ١١٩
مقارنة الكتاب المقدس بالقرآن الكريم بخصوص ذبح إبراهيم ابنه ٥١٣
وصفُه للرسل الذين جاءوا إلى لوط أناسا تارة وملائكة أخرى ٧١٦
بيانه المخالف للواقع عن امرأة لوط ٢٨٠
القرآن يعارض الكتابَ المقدس في بيانه حول موسى ٥٧٣
ارتكاب الكتاب المقدس خطأ تاريخيا بصدد هامان ٥٥٩
خطؤه في بيان عدد بني إسرائيل عند خروجهم من مصر ٥٠، ٥١٢
اختلافه مع القرآن في سرد المعلومات عن الطُّور ٥٨٠
لا يعتبر هارون أخًا لموسى ٥٨٢
لا يعترف بنبوة سليمان ٤٢٥

عيوبه ونقائصه

يعرض الكتاب المقدس رب الإسرائيليين لا رب العالمين ٣٠٨
لم يتحدث عن الأمور الروحانية الأساسية ٦١
ليس أهلا للثقة به في سرد التاريخ ٢٤٢
لم يذكر وحي الله إلى أم موسى ٥٧٣
لم يذكر حِفظ جثة فرعون ٦٢
خطؤه في بيان قصة ١٥٣

اتهام الكتاب المقدس الأنبياءَ ٤١٩

تهم موجهة فيه إلى لوط عليه السلام ٢٧٩
اتهامه موسى عليه السلام بأن الله غضب عليه ٥٨١
اعتبر معجزة اليد البيضاء مرض البرص ١٥٢، ٥٨١، ٤١٨
اتهم موسى عليه السلام بقتل المصري عمدًا ٥٧٤
اتهم هارونَ عليه السلام بالشرك ٥٢
اتهم سليمان عليه السلام بالشرك ٥١، ٤٢٥

الكتاب المكنون (راجع القرآن)

الكذب (راجع الافتراء أيضًا)

أظلمُ الناسِ المفتري على الله والمكذبُ بالنبي الصادق ٥٨٤، ٦٦٢، ٧٩٧
لم يخف محمد ﷺ من تكذيب القوم له إنما من تكذيبهم آيات الله ١٠٥
لا يتورع الناس عن الكذب من أجل أصدقائهم ٢٥٠
قصة كذب العطارين ٢٩٢
الكذاب يدعي ولا يأتي بدليل على صدقه ٣٢١
كيف يفتري على الله من لم يكذب على الناس قط ٣٢٥
عجز بعض رؤساء مكة من تسمية النبي ﷺ كذابا ٣٥٥
الشياطين من البشر الذين يلقون السمع أكثرهم كاذبون ٣٥٧
تعليم الشيطان يكون مليئًا بالكذب ٣٧٠
الكتاب المقدس يتهم بعض الأبرار بالكذب ٤١٩
إذا رأيتم أحدًا يكذب فامنعوه ٤٧٢
تهمةُ كذب وافتراء ضد موسى عليه السلام ٥٨٤
الافتراء جريمة لا تُغتفر، وتكذيب الصادق ظلم ٥٨٤
الدين ينهى عن الكذب ٧٣٠
لا يكون للشيطان صلة إلا بالأفّاك الأثيم ٣٥٤
يمكن للكذاب إدعاء قرب الله ولكنه يعجز عن إنزال الآيات الإلهية ٣٨٩

الكشف (راجِع الرؤيا)

الكعبة المشرفة (راجِع بيت الله)

الكفّارة (راجِع أيضًا المسيحية)

ثلاثة معاني الكفّارة ٦٨٠

الكفر

أكبر سبب للكفر بآيات الله ولقائه ٦٥٨
هياج الكفر عند بعثة الرسل ٤٨٨
عيبان بارزان لمنكري الإسلام ٧٩٧
الكفر يحجب عقل الإنسان ٦٩٠
عقلية الكفار ١٦٣
سماح النبي ﷺ للكفار بالإقامة في مكة ٥٩
الإحسان إلى أم كافرة وأخ كافر ٦٨٤

كلام الله (راجع الوحي)

الكون (راجع أيضًا الدنيا والأرض)

الكون كله متحرك ٢٢١
لم يخلق الله الكون عبثًا ٧٣٣
سبب خسوف القمر ٢٦٢
خلق السماء والأرض الجديدتين ٧٨٤
حثّ القرآن على التفكر في خلق الكون ٤٨٤، ٧٣٢
الأرض لا تعمل بدون مساعدة السماء ٧٣٣
في خلق الكون وسعته آية للمؤمنين ٧٣٣
"لولاك لما خلقتُ الأفلاك (حديث قدسي) ٣٠٥

الكونفوشيوسية ٥٥، ٧٠٠

اللغو

السينما والمسرح من اللغو ٦١٠
اندفاع المسلمين إلى هذا اللغو مؤسف ٦١٠

الماء

خصائص الماء ٧٨٠
نظام مدهش للماء في العالم ٤٨٩
نعمة الماء العظيمة ٢٨، ١٩٩
شكر النبي ﷺ عند نزول ماء المطر ٢٨
مشابهة الماء بالوحي ٧٥
مشابهة الأنبياء بالمطر ٤٨٥، ٤٨٧
قصة إلقاء أم موسى إياه في ماء النهر ٥٦١
قصة انخداع بلقيس بالماء الجاري تحت الزجاج ٣٧٤ ، ٤٦٩
زعم البعض أن الهدهد كان يدل سليمان على مكان الماء ٤٤٤
المراد من جعل الحاجز بين الماء العذب والمالح ٤٨٦
ماء السماء (الوحي) ينضّر العقولَ ٤٩٩
مثل الإيمان كالبذرة ومثل العمل كالماء الذي ينميه ٦٩١
السر في عدم إغراق الماء للأولياء أحيانًا ٧١٠

المال/ الثراء (راجِع أيضًا الرزق) ٦٠٦، ٦٠٧

نوعان للثروة مكتسبة وموهوبة ٦٩٦
الإنسان لا يقدر أكبر الثروات مثل الهواء والماء ٦٩٧
كيف يوفَّق المرء للإنفاق في سبيل الله ٦٣٣

المثيل (راجِع أيضًا محمد المصطفى ﷺ)

مثيل لموسى عليه السلام ومثيل لعيسى عليه السلام ٤
المسيح الموعود عليه السلام مثيل المسيح عليه السلام ١١٢

المجتمع (راجع الحضارة والحياة)

المجدد

نبوءة بعث مجدد على رأس كل قرن ٥٩٥
تعريف المجدد ٢٣٨
ليس ضروريًا إعلان المجدد بتلقي الوحي ٢٣٨
إمكانية وجود أكثر من مجدد في بلدان مختلفة في زمن واحد ٢٣٧
أهمية مجددين بُعِثوا في الهند ٢٣٨

المرأة

وصية النبي ﷺ عند وفاته بحسن معاشرة النساء ٣١٤
المرأة مفطورة على حب أولادها ٢٠٠

حادث أمّ بحثتْ عن ولدها باضطراب في بدر ٢٠٦، ٣٨٥
مسح امرأة قدم المسيح بشعرِ رأسها ٨٤
قول المسيح الطّيْلا لامرأة: "ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب" ٨٥
قصة امرأتين متهمتين في التاريخ ٧٥٦
امرأة يهودية تسمم الطعام للنبي ﷺ ٧٥٦
قصة امرأة مجنونة كانت تضحك دائمًا ٦٨٩
قصة امرأة مجنونة مع الخليفة الأول ١٣٢

المرض (راجِع الطب)

المساواة

إقامة النبي ﷺ المساواة بين المسلمين ٣٩٧-٣٩٨

المسجد

أمر الإسلام بأداء الصلوات الخمس في المسجد ٧٤٨
حِكَمٌ في حضور المسجد للصلاة ٧٤٨
قصة صحابي طلب الإذن للصلاة في بيته بدلاً من المسجد ٣٩٢
تعنيف المسيح الموعود الطّيْلا المفسرَ على عدم حضوره المسجد لصلاة الجمعة في صغره ٧٥١
معجزة مؤسس الجماعة ظهرت في قضية مسجد أحمدي ٣٦
لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (الحديث) ٨١

المسلم (راجع الإسلام)

المسمرية (راجِع التنويم المغناطيسي)

المسيحية

تغيير أوائل المسيحيين مركزهم طيلة ثلاثة قرون بسبب الاضطهاد ٦٦٥
المسيحية انتفعت كثيرا من نظام البابوية ٥٠١
اختلاف المسيحية مع اليهود حول ولادة المسيح ودعواه وحادثة الصلب ٥٧٥
سبب إبطال القرآن للمعتقدات المسيحية الفاسدة ٦٥١
بولص يعتبر المسيح الطّيْلا لعينا ٥٣
تهم ألصقها المسيحيون بالمسيح ٥٢- ٥٣
وشاية حواريٍّ بالمسيح نظير دراهم معدودة ٧٢٨
لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (الحديث) ٨١
غلبة المسيحية خطر دائم على الإسلام ٥٧٦
كتب نجسة للقسس ضد الإسلام والنبي ﷺ ٧٥٥

تعاليم المسيحية

تعاليم الإنجيل غير صالحة للعمل ٣٨٣
اعتبرت الفطرةَ الإنسانية آثمة ٥٦
نظريتها عن الخطيئة الموروثة وطريق تفاديها ٦٩١
طرحها غير الفطري للعفو عن الذنوب ٦٩١
صعوبة أهلها في مقاومة الذنب ٥٧
عقيدتها عن خلود جهنم ٦١٩
تعاليم المسيحية قاصرة عن إقامة السلام ٧٤

مستقبلها

انتصار الإسلام على المسيحية أمر مؤكد ٧٨٤
الأحمدية قادرة على اصطدام حاسم مع المسيحية (تائن بي) ٧٨٤
سبب رد المسيح الموعود على القساوسة بقسوة ٧٥٥

المعاهدة (راجِع العهد)

المعجزة

حقيقة المعجزات والخوارق ٧٠٩
عنصر الإخفاء في الآيات الإلهية والخوارق ٩٠
تدليل الأنبياء على وجوده ﷻ بالمعجزات ٢٣٩

معجزة نجاة إبراهيم عليه السلام من النار ٧٠٨، ٦٥٨
معجزات عصا موسى ويده البيضاء وانفلاق البحر ٥٨٠، ٤١٨
يعتبر الكتاب المقدس معجزة اليد البيضاء مرض الجذام ٤١٨
القرآن الكريم أكبر معجزة النبي ﷺ ٥٤٠
وُهب النبي ﷺ القرآنَ مقابل عصا لموسى ١٥٤
تسع آيات لتأييد موسى عليه السلام ٤١٩
حقيقة اليد البيضاء لموسى عليه السلام ١٤٨
ظهور آيات عديدة أثناء هجرة النبي ﷺ ٦٤٤
معجزة انشقاق القمر كانت كشفا ١٣٨
معجزة مطر الحصى على الكفار ببدر ١٥٩، ٤٨١
مقارنة معجزة موسى بمعجزات الرسول ﷺ ١٥٩
استمرار نزول الآيات الإلهية في الأمة المحمدية ٦٥٠
ظهور معجزات على يد أولياء الأمة ٣٣
سبب انتشار الخرافات بين المسلمين نسيانُهم سنة الله في المعجزات ٩٠
إفحام المسيح الموعود للقُسس لما طالبوه بشفاء المرضى ١١١
معجزتان للمسيح الموعود في سيالكوت ٧٠٨

المعرفة (راجِع العلم)

المغفرة

حقيقة المغفرة ٢١٣
المغفرة لا تتنافى مع عدل الله ٦٩٢
إذا تاب المرء توبةً نصوحًا غفر الله له ذنوبه ٦٨٠
حقيقة استغفار الأنبياء ٢١٥
دعاء لمغفرة الوالدين ٢٣٥
النهي عن الاستغفار للمشركين ٢٣٤
استغفار إبراهيم لعمِّه ٢٣٤
سبب استغفار إبراهيم لعمِّه المشرك ٢٣٥
مَنع اللهُ النبيَّ ﷺ من الاستغفار لأمه ٣٤٦

المقطعات القرآنية (راجع القرآن الكريم)

الملائكة

كل ملاك يكون مقدسًا وأمينا ٣١٦
أمانة الشرع لم تحملها الملائكة ٤٤٢
الملائكة لا تعلم الغيب ٣٣١
الله يهب الأولادَ لا الملائكةُ ٧٢١
أناس يفوقون الملائكة ٢٠٩
تمثُّلهم كبشر ٣٢٠
نزول الروح الأمين على الرسول ﷺ ٤١٠، ٥٨٠
ظهور ملاك الرب لموسى بلهيبِ نارٍ ٤١٣
ملاك الرب يمنع إبراهيم من ذبح ابنه ٥١٣
نزول الملائكة على مجالس ذكر الله ٧٥٣
إذا أحب الله عبدًا أمر الملائكة بوضع قبوله في الأرض ١٣
يقول الله للملائكة إن عبدي سبّحني من كل عيب فطهِّروه من العيوب ٧٥٢
رؤية الصحابة والكفار الملائكةَ في بدر ١٣٩
الرسل في آية "ولما جاء جاءت رسلنا إبراهيم" هم أناس لا ملائكة ٧١٧
وصفُ التوراة للرسل الذين جاءوا إلى لوط أناسا تارة وملائكة أخرى ٧١٦
إخبار ملاك المفسرَ عن إلهام تلقاه المسيح الموعود ١٤٢
القرآن يبشر الصالحين بنزول الملائكة عليهم في الدنيا والآخرة ٣٨٧
إذا عمل المرء حسنة وضعت الملائكة على قلبه نقطة بيضاء ٤٠٧
ذكرُ الله تعالى يقرّب منه الملائكةَ ٧٤٩
من أدى الصلاة بشروطها حذرته الملائكة من كل إثم ٧٥٢

رؤية المسيح الموعود ملائكة يغرسون أشجارًا سوداء كريهة الشكل في البنجاب ٥٢٣

المؤمن (راجع الإيمان)

المنافق (راجع النفاق)

المهدي (راجع أيضًا مرزا غلام أحمد في فهرس الأسماء)

انتظار المهدي في العالم الإسلامي كله ٤٩٧

قدَّر نواب صديق حسن خان أن المهدي سيظهر في السنوات الخمس أو الست الأولى من القرن الرابع عشر الهجري ٤٩٨

المَهر

مقدار المهر عند المفسر ﷺ ٥٧١

الموت (راجع أيضًا الحياة والفناء)

ليس الموت إلا باب للخروج من الدنيا إلى الآخرة ٢٠٩

لا تُنال الحياة بدون الموت ٦٦٩

النار (راجع جهنم أيضًا)

السر في عدم إحراق النار للأولياء أحيانًا ٧١٠

حقيقة النار التي بردت على إبراهيم ﷺ ٧٠٧

معجزة نجاة إبراهيم ﷺ من النار ٧٠٨، ٦٥٨

لا تخوِّفنا مِن النار فإنها عبدٌ لنا بل لغِلماننا (وحي للمسيح الموعود) ٧٠٧

النار في الرؤيا تعني حب الله ٤١٤

تأويل الاحتراق بالنار في الرؤيا ٤١٤

المؤمنون يقفزون في نيران التضحيات لوجه الله ﷻ فتصبح لهم جنة ٢٤٨

الناسخ والمنسوخ (راجع القرآن)

النبات ٢٩٢، ٧٣٠

النبات زوجان ٩٩

دور النحل في إثمار الأشجار ٩٩

شجرة الكرم قد يطول عمرها إلى ألف عام ٧٨٦

النبوءات

نبوءات الأنبياء عن بعثة النبي ﷺ

نبوءة بعثة النبي ﷺ تلقاها موسى على الطُّور ٢١٠، ٥٩٢، ٤٥٠

نبوءة موسى ﷺ عن نزول "البسملة" ٤٥١

نبوءة موسى ﷺ عن فتح مكة ٦٤٧

نبوءة إشعياء ﷺ عن بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن ٣٢٢

نبوءة إشعياء عن هجرة الرسول ﷺ ٦٤٦

نبوءات قرآنية

نبوءة عن دين عالمي في ﴿ربِّ العالمين﴾ ١٩٧

في قصة لوط نبوءة عن النبي ﷺ ٤٨٠

في حادثة ثمود نبوءة عن النبي ﷺ ٤٧٧

نبوءة هجرة النبي ﷺ من مكة وعودته إليها ٥٤٧، ٦٤٣

نبوءة نزول عذاب مفاجئ على أهل مكة ٣٢٦

نبوءة غلبة أتباع النبي ﷺ ٥٣٩، ٥٤٠

نبوءة الغزوات والنبي ﷺ في مكة ٣٦٨

تحقُّق نبوءة قرآنية في بدر ١٢٥

نبوءات عن المسيح والمهدي والزمن الأخير

نبوءة خروج دابة الأرض ٥٢٢

حسوف القمرين في رمضان ٥٢٢

نبوءة إزلاف الجنة ٢٤٨

نبوءة ظهور منظمات شتى وانتشار الإلحاد ٥٢٧

نبوءة عن اختراع القنبلة الذرية ٥٣١
نبوءة في أفريقيا الغربية عن انتشار الإسلام عند مجـــيء داعية أبيض ٢١٩

نبوءات المسيح الموعود عليه السلام

نبوءة هجمات قوية على العالم ٦١١
نبوءة تفشي الطاعون في الهند ٥٢٥
نبوءة حدوث زلزال عام ١٩٠٥ ٧٩١
نبوءة عن القسيس آتهم ١٤٥

النبوة

في كل أمة جاء الأنبياء والرسل ٦٠٠، ٧١٣
إنكار رسول واحد يُعَدُّ إنكارًا لجميع الرسل ٢٦٥
سبب مجيء رسل العذاب على قوم لوط إلى إبـــراهيم أولاً ٧١٧
الرسل في آية "ولما جاء جاءت رسلنا إبراهيم" هم أناس لا ملائكة ٧١٧

غاية بعثة الأنبياء

ضرورة بعثة الأنبياء ٥٤٤
الغرض من بعثة النبوة ٥٩٧
نشرُ التقوى هو أهم هدف لبعثة الأنبياء ١٠٣
العقل بحاجة لتوجيه نبي ٣٨٨
عند ظهور نبي يُصغَّر الكبار ويكبَّر الصغار ٤٥٧، ٤٦٤

صدق الأنبياء

الأنبياء والرسل يغلبون دائمًا ١٨٤
أحد معايير صدق الأنبياء نجاحُهم ٥٨٤
غلبة الرسل على العالم بالبراهين ٤١٦
من أدلة صدق الأنبياء حياتهم الطاهرة قبـــل الـــدعوى ٣٢٥

يتربى الأنبياء في كنف الأعداء ١٢٨
لا يدَع الله المفتريَ يفوز ٥٨٤
يظهر الله الغيبَ عن طريق الأنبياء ٣٧، ٥٠٨
تميُّز النبي ﷺ عن باقي الأنبياء بإيمان قومه كلهم ٣٠٣

مكانة الأنبياء ٢٢١

درجات الأنبياء مختلفة ٢٢٠
يُبعث الأنبياء أسوةً ٣٥٠
النبي يكون من عائلة عريقة دائمًا ٣٥٢
حِكمه قولنا "عليهم السلام" دعاءً للأنبياء ٤٨٢
كل نبي ينوب عن جميع الأنبياء ٢٦٥
مشابهة الأنبياء بالمطر ٤٨٥، ٤٨٧
وجود الأنبياء دليل على صفة الله "الرزاق" ٥٠٧
الأنبياء حائزون على النجاة قبل دعواهم ٢١٨
يعتبر القرآن جميع الأنبياء معصومين أبرياء ٥٤
يوهب صاحب الوحي الاستقامةَ والطهارة
حقيقة استغفار الأنبياء ٢١٥

خصائص الأنبياء

ليس لبعث الأنبياء سنّ معين ٥٦٤
ليس ضروريًا أن يبعث نبي في مدينة كبيرة ١١٢
كل نبي يخاف تواضعًا عند أول وحيه ١١٤
الفرق بين طبع النبي وغيره ١٦٦
ظاهرة انبعاث الأشعة من الأنبياء والأولياء ١٥٢
حياتان للنبي: جسمانية وفيضانية ٢٣٦
لا بد للأنبياء من العبادة ٢٢١
سبب بعثة النبي إلى قوم قبل نزول العذاب عليهم ٣٢٧، ٦١١
لا يُقتَل النبيان الأول والأخير في أي سلسلة نبوة ١١٧
بعثة أشباه الأنبياء وأمثالهم في العالم ٦٤١
اقتران البركات والآلام ببعثة الأنبياء ٤٨٦

جماعات الأنبياء

كل قوم انتظروا بعثة نبي قبل بعثته ٤٩٧
جماعات الأنبياء تكون قليلة العدد في البدء ١٧٦
لا بد من طاعة النبي إلى جانب العمل بشريعته ٢٥١
تعرُّض جماعات الأنبياء للمحن ١٧١
معيار الحب للأنبياء ٢٨٤

أنواعها

النبوة التشريعية وغير التشريعية

نوح ﷺ أوّل نبي مشرَّع ٦٩٣
وحي الأنبياء غير المشرعين ٣٢٠
كان إبراهيم من أتباع نوح ٦٩٤
قد خلا بين نوح وإبراهيم أنبياء كثيرون ٦٩٩
كان لوط تابعا لإبراهيم ٧١٧
أنبياء تابعون ٧١٧
بعض أتباع موسى نالوا النبوة ٤١٩
الفرق بين نبي أمتي أي كونه أحد من الأمة ٧١٧
كانت النبوة قبل محمد ﷺ توهب مباشرة دون اتباع نبي سابق ٧١٧
ليس بعد محمد ﷺ نبوة مستقلة بل نبوة ظلية ٧١٣
لم يُبعث قبل الإسلام نبي إلى غير قومه ٣١٥، ٤٢٩
نبي مختص القوم ١٢١، ٣١١
إمكانية مجيء أنبياء غير مشرعين في الأمة ٣٢٣
الناس يبحثون اليوم عن رجل كامل بل نبي (المودودي) ٤٩٨

معارضة الأنبياء

معارضة الأنبياء والخلفاء والأولياء ١٦٤
يواجه الأنبياء الأذى المستمر ٦٧٤
سبب معارضة الأنبياء ٩٤
سبب إنكار الأنبياء ٤٠٥
الكفر يتنشط عند بعثة نبي صادق بينما لا يخاف الناسُ المتنبئين ٤٨٩
إنكار نبي واحد إنكار لجميع الأنبياء ٢٦٥
إنكار أعداء الأنبياء وغرورهم ١٧٤، ١٨٣
كفر زوجات بعض الأنبياء وأولادهم ٣٤٨
كل نبيّ اتُّهم بكونه عميلا ٢٢٥
سبب اتهام الأنبياء بالجنون ١٣١
أعداء الأنبياء لا يفوزون وإن أحرزوا نجاحا مؤقتا ٦٣٨

النبي (راجع النبوة)

النجاة

نظرية الإسلام حول النجاة ٦٩٠
نظرية البوذية عن النجاة ٨٠٠
دحض النظرية الهندوسية عن النجاة ٥٣٣
دحض النظرية المسيحية عن النجاة ٦٩٠
حقيقة النجاة عند المسيح ﷺ ٦٩٠
متى يصير الدين سبب النجاة ٧٢٧
لا نجاة دون اتّباع النبي ﷺ ٨٠٦
على المرء أن يتوب إلى الله بقطع العلاقات عن غيره ٧٢٩
اعتناق الدينَ الحق وحده لا يضمن النجاة ٧٢٩

النصيحة (راجع أيضًا الدعوة)

ضرورة الوعظ والنصح ٢٧١
ضرورة وعظ المسلمين ٢٧٠

النفاق

الجبنُ سبب النفاق ٦٥٦
المنافق يرى التضحية انتحارا ٨٧
المنافقون ينشقّون وقت المصيبة ٦٧٠
الابتلاءات تفضح المنافقين ٦٨٩
المنافقون يرون التضحيات جحيمًا ٢٤٨

الوالِدان (راجع أيضًا الأُمّ) ٦١٨
حدود طاعة الوالدَين المشركَينِ ٦٨٣
كيف يعاشر المرء والديه عند الاختلاف في الدين ٦٨٤
يأمر الإسلام بالإحسان إلى أمّ كافرة ٦٨٤
قصة في الحديث عن خدمة الوالدين ٤١
وجود تشابة كبير بين الوالدين والأولاد ٢٨٦
الله أشد حبًّا وغيرة للعباد من الأم الرءوم ٨٠١، ٨٠٧
إلقاء أم موسى إياه في النهر ٥٤١، ٥٦٠-٥٧٤

الوحي

لا فرق بين الوحي والإلهام ٣١٧
نزول الوحي وأقسامه ٣١٧
مراتب الوحي ٣٢٠
تعليم الإنسان البدائي بالوحي ٣٩٣
عُلِّم الإنسان اللغة في البدء إلهاما ٣٩٣
لا بد من ماء السماء مع العقل للهداية ٧٣٣
وحي الأنبياء غير المشرعين ٣٢٠
كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ ٣١٩
القرآن محفوظ بكلماته كما نزل على النبي ﷺ ٤١٠
دحض فكرة نزول الوحي الشيطاني على الرسول ﷺ ٣٢٨
نزول الوحي على أم موسى عليه السلام ٥٤١
وحي لإبراهيم عليه السلام ١٨٩
استمرار الوحي في الأمة المحمدية ٢٣٧
الفرق بين الوحي التشريعي وغير التشريعي ٣١٨، ٥١٧
الملهَم لا ينسى الوحي التشريعي ٣١٩
الفرق بين الوحي والخواطر ٣١٨
صفات من يتلقى كلام الله ٣١٧
نزول الإلهام على أولياء الله ١٤١
صوت الإلهام قد يسمعه الآخرون ١٤١
نزول الإلهام وفق حالة قلب المرء ٢٣١
العلاقة بين الإلهام والفطرة الصحيحية ٧٦
الوحي والكتاب المبين ٧٦
فلسفة ترتيب الصحف السماوية ٦٠١
أول وحي نزل على موسى عليه السلام ٥٤٣
عِلم عيسى عليه السلام الوحي أن يهوذا سيسلّمه ٧٢٩
وعد رباني بإكرام المسلمين بالوحي دائمًا ٣٨٧
لا تتمنوا نزول الوحي عليكم (المسيح الموعود) ٣٥٦
مصير الذين يتمنون الرؤى والإلهام ٣٥٦
تمنّي الأفاك والأثيم انكشافَ الغيب عليه ٣٥٦
خطأ البهائيين في فهم تعريف الوحي ٣١٨
نبأ مواجهةٍ بين الإسلامِ والشعوب المنكرة للوحي ٧٨٤
رأي لبعضٍ علماء عن إلهام سيدنا أحمد عليه السلام عن العدد ٥٣١

إلهامات للمسيح الموعود عليه السلام

إني مع الأفواج آتيك بغتة ١٤٢
إني مُعينٌ من أراد إعانتك وإني مُهينٌ من أراد إهانتك ٧٤٤
لولاك لما خلقت الأفلاك ٣٠٦
يا مسيحَ الخَلق عَدْوانا ٥٢٣
لا تخوِّفْنا مِن النار، فإنها عبدٌ لنا بل لغِلماننا ٧٠٧
آلاف العباد تحت أجنحتك ٤٢٤
وحي المسيح الموعود عليه السلام حول تفشي الطاعون ٥٢٥
إلهام للمسيح الموعود عليه السلام عن مجيء نذير إلى الدنيا ٦١١
إخبار الله للمفسر بأن المسيح الموعود تلقى الليلة وحيًا كذا ١٤٢

فترة انقطاع الوحي

حكمة انقطاع الوحي عن العرب فترة طويلة ٢٣٨، ٢٣٩
نبي في العرب في هذه الفترة ٢٣٩

نبوءة إشعياء بنـــزول شريعة لقوم يعيشون تلك الفترة ٣٢٢
كيفية إتمام الحجة على الناس في هذه الفترة ٢٣٥
سيُبعَث نبي يوم القيامة إلى الذين خلوا أثناء هذه الفترة ٢٤٠
فترة انقطاع الوحي عن الأمة المحمدية ٢٤٠

الوطن

على المؤمنين أن يكونوا مستعدين لترك أوطانهم ٧٧٩

وقف الحياة (راجِع الحياة)

الهجرة

الهجرة الشخصية والهجرة القومية ٧٧٧
يُجبَر الأنبياء على الهجرة ٦٦٥
أُمِر المؤمنون بالهجرة في ظروف معيَّنة ٦٦١
على المؤمنين أن يكونوا مستعدين لترك أوطانهم ٧٧٩
أمر النبي ﷺ صحابته بالهجرة إلى الحبشة ٧٧٨
نبوءة إشعياء عن هجرة النبي ﷺ ٦٤٦
نبوءات القرآن عن هجرة النبي ﷺ ٤٦٣
الهجرة كانت أساس غلبة الإسلام ٤٧٨
مقارنة هجرة موسى عليه السلام بهجرة النبي ﷺ ١٧٩

الهداية

العقل الإنساني وحده لا يكفي للهداية ٧٣٣
الله يهدي من تاب إليه صدقا ٧٩٩
يهدي الله من يشاء في لمح البصر ٦١
يستحيل إنشاء الصلة بالله بدون طاعة من يبعثه لهدايـــة الناس ٢٥١
الهداية تتوقف على فضل الله ٥٤٥
الفرق بين التدابير الإنسانية لهداية الناس وهدي الله ٤٩٠
بُعث النبي ﷺ لهداية العالم كله ١١٦
لا هداية في القرآن لمن يدّعي الإيمان بلسانه فقط ٣٩٠
لم تقدّم الأديان الأخرى أي هدى بصدد السلام العالمي ٧٤
لا تيأسوا من هداية أقاربكم (المفسر) ٣٣٨
رؤية النار في الرؤيا تعني الهدى ٤١٢

الهندوسية

تعاليم الهندوسية ضيقةُ الآفاق ٥٦
زعمها باستحالة تطهُّر الإنسان ٥٦
دحض نظريتها عن النجاة ٥٣٣
دحض عقيدتها عن أزلية الروح والمادة ٦٥١
حرب مستمرة بين الإلهين "براهما" و"شِو" ٢١٢
همٌّ وجّهها الهندوس إلى كرشنا ورام تشندر ٥٣، ٥٤، ٤٨٣
خطأ فادح لــ"براهموسماج"الهندوسية ٧٠٩
حرمان طبقة "الشودر" في الهندوسية ٣٩٦

الوثنية (راجِع الشِّرك)

وحدانية الله (راجِع الله تعالى)

يأجوج مأجوج

خروجهما في آخر الزمن ٤٠٥

اليأس

نتائج اليأس من رحمة الله ٦٥٨

اليهودية

سورة "مريم" مليئة بذكر المسيحية واليهودية ١
تعاليم يهودية ظالمة تجاه الشعب المفتوح ٤٥٣
الزكاة عند اليهود ٣٩٦، ٣٩٧
اليهود لا يعتبرون سليمان عليه السلام نبيًا ٤٢٥
يهود كثيرون باسم "هُدَد" في زمن سليمان ٤٤٣
معاداة العرب واليهود ٤٤٥

عالم يهودي يعد سليمان عليه السلام بإحضار عرش الملكة ٤٦٧
وضعُ هامان الفارسي خطّةً لإبادة اليهود ٥٥٤
أسباب انحطاط اليهود ٥٤٤
لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ ٨١، ٣١٥، ٤٨٤
اعتبروا ولادة المسيح غير شرعية ٥٢- ٥٣، ٥١٥
احتقارهم للمسيح عليه السلام ٥٢- ٥٣، ١٢٢، ٥١٥
حُكم القرآن فيما اختلفوا فيه مع المسيحية ٥١٥
تدمير نبوخذنصر بيتَ المقدس ١٧١
تفاصيل حياة إبراهيم في كتب الربيين الفلسطينيين ١٩٠
مؤامرة قتل اليهود في إيران في القرن الخامس قبل الميلاد ٥٥٤
منظمات يهودية سرّيّة بأمر من الأنبياء ٦٦٦
كشفٌ لحزقيال عن إحياء اليهود ٦٦٦
مؤامرة اليهود لقتل سليمان ٦٦٦
كان علماء اليهود قبل بعثة النبي ﷺ يترقبون تحقق نبوءات الكتاب المقدس ٦٤٨
أمريكا ترتكب خطأً فادحا بدعم اليهود في قضية فلسطين ٦٨٦
عداؤهم القديم للعرب ٤٤٥
هم ألدُّ أعداء الإسلام ٧٥٨
محاولتهم إخفاء أحكام التوراة بحضور النبي ﷺ ٧٦٢
مؤامراتهم ضد النبي ﷺ والإسلام ٤٦، ٧٥٨
تآمرهم مع كسرى ضد النبي ﷺ ٤٦
أَمَر كسرى باعتقاله ﷺ بتحريض اليهود ٦٦٦
محاولاتهم لقتل النبي ﷺ ٧٥٩
كانت قيادة الكفار بيد اليهود في غزوة الخندق ٧٥٨
فشل اليهودية في إرساء السلام عملاً بتعاليمهما ٧٤
رؤيا صفية - رضي الله عنها - وردّ فعل أبيها اليهودي ١٣٧
اليهود أكثر مالاً من المسلمين، فلماذا تركهم الله وخذلهم؟ ٢٩٥

(٢)

فهرس الأعلام

شعوب وشخصيات

آتم القس عبد الله ١١٠
هزيمته في المناظرة مع المسيح الموعود عليه السلام ١١٠- ١١١
رؤيته مشاهد مرعبة في المنام ١٤٥
آدم عليه السلام ١٣، ١٠٦، ١٨٣، ١٩٥، ٦٩٣
حوتْ نبوتُه تعليما جعل الإنسان إنسانا حقيقيا ٣٩٤
كان كأستاذ الملائكة ٢٠٩
هو علَّم الناس الزراعة ٣٩٣
حكمة سرد قصة آدم والشيطان ٢٧٤
حقيقة سجود الملائكة لآدم ١٢
معارضته ٩٤
تُقُبِّل قربان أحد ابنيه ١٧٦
كان في زمنه أيضا الغني والفقر ٣٩٢
آديسون ٢٦٣
آزر ٢٤١- ٢٤٣
هو والد إبراهيم عليه السلام عند جوزيفوس ٢٤٢
آسيه زوجة فرعون ٥٦١
آل غالب فرع من قريش ٣٣٤
آل قصيّ فرع من قريش ٣٣٤
آل كلاب فرع من قريش ٣٣٤
آل لؤي ٣٣٤
آل مرّة فرع من قريش ٣٣٤
آمون
آمن، آمان أو آمون، أحد آلهة المصريين ٥٥٦
إبراهيم عليه السلام ٥، ٢١٦، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٥٠، ٢٨١، ٣١١، ٣٢٦، ٣٥٣، ٥٤٥، ٦٠٩، ٦٢٠، ٦٢٤، ٦٤٦
طفولته وشبابه ١٨٥
نظريات مختلفة حول اسم أبيه ٢٤١
اختلاف القرآن الكريم مع الكتاب المقدس حوله ٢٤١
كان من أتباع شريعة نوح عليه السلام ٢٥٦، ٦٥٧، ٦٩٤
هاجر من العراق إلى فلسطين ٦٥٧، ٦٦٥
أفضال الله عليه بعد الهجرة ٧١٣
أهدى له المِلك المصري هاجَرَ ٣٥٢
ولادة ابنيه إسماعيل وإسحاق في الشيخوخة ٢٣٥
مقارنة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس بخصوص ذبح الابن ٥١٨
أيهما كان ذبيح الله؟ ٥١٣، ٥١٤
تَرَكَ هاجرَ و إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع ٦٩٥
تلقيه البشارة بولادة إسحاقٍ ويعقوب ٧١٧
كان بطبعه ميّالاً إلى التوحيد ١٨٥
كان يعشق التوحيد ٧١٢
يقينه بكون الله رزّاقا ٦٩٥
يقينه المُحكم بالله تعالى ١٩٦-١٩٧
حلمه ومواساته ٢٣٤
ظهور التجلي الإلهي في مكة بواسطته ٥٣٥
كان هدف بعثته نشر التوحيد ٢١٧
اتخذ خطة طويلة المدى لنشر الدين ٢٢٨
معارضته ٩٤
حواره مع المشركين ٦٢٢
حواره مع نمرود ١٩٠
حقيقة كون النار بردا وسلاما عليه ٧٠٦، ٦٥٨
تعاليمه ٦٥٧
تأكيده على صفتي الله المحيي والمميت ٢١٣
تفنيده لفلسفة الشرك ٦٩٥
بعض إلهاماته ١٨٩
نصحه لقومه ١٩٧
معنى تخصيص النبوة والكتاب بذريته ٧١٣

وُهِب أجرًا عظيمًا ٦٥٨
حكمة ورود اسمه في الصلاة على النبي ٢٢٥
جعل الله مكة حرمًا منذ زمنه ٥٤٥
أُمِر بتطهير بيت الله ٧٩٣
كانت عظمته راسخة في قلوب أهل مكة ١٩١
كان العرب قد نسوا تعاليمه ٥٩١
حقيقة دعائه ٢١٨- ٢٢١
نتائج دعائه ٢٣٩، ٧٩٣
دعاؤه يتضمن درسًا عظيمًا ٢٢١
دعاؤه عند رفع قواعد البيت ٢٣٥
استُجيب دعاؤه في شكل أُمَّة محمدية ٢٢٥
دعاؤه لأهل مكة ١٠١
استغفاره لعمِّه ٢٣٤
حقيقة استغفاره ٢٣٤
كان لوط من أتباعه ٧١٧
الرسل الذين أتوه كانوا أناسًا لا ملائكة ٧١٥
بعثة موعود يكون ظِلاً له في الزمن الأخير ٧١٣

إبراهيم بن محمد ﷺ ٣٥

إبراهيم لنكولن ٤٥٤
عفوه عن أهل الولايات الجنوبية ٤٥٤

أبرهة
هجومه على بيت الله وهلاكه ٦٠٩
مساعدة بني ثقيف لأبرهة ١٢٨

ابن أبي ليلى رضي الله عنه
كان قاضيًا بارعًا زمن عمر رضي الله عنه ٢٦٠
قراره المنقطع النظير ٢٦٠
عُيِّن حاكم الكوفة في سن ١٩ ٢٦١

ابن تيمية رحمه الله ٧٥٦

ابن حجر رحمه الله
تأويله لرواية نزول وحيٍ شيطانيٍ على النبي ﷺ ٣٢٨

ابن حيّان، صاحب البحر المحيط ٤٦٠
لم يهتم مفسر غيره ببيان الترتيب في القرآن ٦٠٠

ابن الزبير رضي الله عنه ٣٦٩، ٦٥٥

ابن عباس رضي الله عنه ٣٦٩، ٦٥٥
دعا النبي ﷺ له أن يفقهه الله في الدين ٢٥٨

أبو إسماعيل (مصنف فتوح الشام) ٤٧١

أبو الأعلى المودودي
اعترافه بأن العصر الحاضر بحاجة إلى رجل كامل بل إلى نبيٍّ ٤٩٨

أبو البقاء العلامة ٧٥٧

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ٣٥، ١٦٤، ٥٠٤، ٥٣٤، ٦٤٥، ٦٤٧، ٦٦٨
آمن بالنبي ﷺ فورَ سماعه دعواه ٢٥٣، ٣٣٥
أنقذ النبي ﷺ من كفار مكة ٨٢
غيرته للنبي ﷺ ٤٧٨
كان أشجع الصحابة ٤٣٤
كان من أهل النبي ﷺ ٤٨٠
تشرَّف برفقته ﷺ أثناء الهجرة ٦٤٤
جوابه لسائل عن النبيّ ﷺ أثناء الهجرة أنه هادٍ ٧٢
شجاعته في غار ثور نتيجة القوة القدسية للنبي ﷺ ٦٤٤، ٦٨٨
قول النبي ﷺ له "اُسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما" ١٧٩
خطابه في سقيفة بني ساعدة إثر وفاة النبي ﷺ ١١٦
انتُخِب أول خليفة للنبي ﷺ ٥٠٤
تمرُّد العرب ضد الإسلام في عهده ١٦٤

لم يقبل مال الزكاة من شخص لم يقبل منه النبي ﷺ ٦٣٢
سماح النبي ﷺ لابنته بالإحسان إلى أمها الكافرة ٦٨٤
شهادة أحد عبيده ٦٦٨
أبو جهل ٣٥، ٥٨، ٨٢، ١٧٤
سماه المسلمون أبا جهل ٤٦٣
كان ألدَّ أعداء النبي ﷺ ٤٧٧
كان بمنـــزلة فرعون في زمنه ٥٨٨
لطم النبيَّ ﷺ مرة ٨٢
رأى في الكشف جملا هائجًا بجانب النبي ﷺ ١٤٣
دعاؤه في ميدان بدر ٤٨١
قتَله طفلان إنصاريان ببدر ١٢٥
هلاكه المثير للعبرة ٥٨٨، ٦٨٧
سيظل ملعونا إلى يوم القيامة ٥٨٨
أبو الحسن ٣٦٣
أبو حنيفة الإمام رحمه الله ٨٠٤
تَلقِّيه درسًا من طفل ٨٠٩
أبو حيان (مصنف "البحر المحيط") ٧١٧
أبو سفيان
سؤال هرقل إياه عن النبي ﷺ ٣٥٢
قدومه مع القافلة من قِبل الشام ١٦٠
فوجئ بجيش المسلمين يوم الفتح ٧٧٤
أبو طالب ١٨٩
كان يكرس جميع أوقاته في خدمة القوم ٣٣٣
تربيته للنبي ﷺ ٢٣٤
مطالبة وفد الكفار إياه بمنع النبي ﷺ من الدعوة ١٩٠، ٣٣٣، ٤٧٢
عزمه لحماية النبي ﷺ رغم حبه لقومه ١٨٩
وفاته بشعب أبي طالب ٨٣
أبو العاص رضي الله عنه
أُسِر في بدر وافتدته زوجته زينب بعِقد لها ٣٥
أبو عبيدة رضي الله عنه
قاد الجيش الإسلامي في يرموك ٦٠
أبو قحافة رضي الله عنه
استغرابه من انتخاب ابنه أبي بكر خليفةً ٥٠٤
أبو لهب
عدوٌ لدود للنبي ﷺ ٤٧٧
تفريقه شمل بني عبد المطلب ٣٢
قوله للنبي ﷺ "تبًّا لك سائر الأيام، ألهذا جمعتنا؟" ٣٣٥
تهديده للنبيّ ﷺ ٨٦
أبو هريرة رضي الله عنه ٢٢٤، ٢٧٣
أبيرام بن الياب
أحد الإسرائيليين المعارضين لموسى عليه السلام ٦٢٥
أبيّ بن كعب رضي الله عنه ٤٠٢
أبيقراط ٤٤٣
أجاجي ٥٥٥
أحمد البريلوي الشهيد رحمه الله
كان مجددا في الهند فقط ٢٣٨
استُشهِد في ٦ أيار ١٨٣١م ٢٤٠
أحمد السرهندي رحمه الله
سجنه الملك جهانغير في غواليار ١٦٤
أخسويرس ملك فارسي ٥٥٥
أرسطو ٢، ٧٨

أسامة ابن زيد رضي الله عنه
أمَّره النبي ﷺ على الجيش وعمره ١٨ عاما ٥٠٣
أستير اسم سيدة يهودية ٥٥٥
إسحاق عليه السلام ٢٣٤، ٥١٣، ٦٥٨، ٧١٣،
بشارة ولادته ٧١٧
ولد في شيخوخة إبراهيم ٢٣٥
أسد الله خان غالب (انظرْ غالب) ٦٣٩
إسماعيل عليه السلام ٢٣٤، ٥١٣
ولد في شيخوخة إبراهيم ٢٣٥
تركه إبراهيم له في وادٍ غير ذي زرع ٦٩٥
غاية إسكانه في وادٍ غير ذي زرع ٢٣٠
وصفَه الكتابُ المقدس بالوحشي ٣٢١
أُمِر بتطهير بيت الله الكعبة ٧٩٣
حقيقة القربان الإسماعيلي ٧٦، ٥١٤
تيماء وقيدار هما ابناه ٦٤٦
الأسود العنسي المتنبئ ١٦٤
أشوك (ملك هندي) ٢٣١
أصحاب الأيكة
هم قوم شعيب عليه السلام وسُكّان مدين ٧٢٢
كفرهم بشعيب ٦، ٢٨١
أصحاب الفيل ٥٠٢
أفلاطون ٧٨
أكبر، جلال الدين المغولي ٣٦٣، ٤٣٣
أكمل (انظرْ ظهور الدين القاضي) ٤٢
الإسكندر مارت ٥٥٧
الله دِين الحكيم البهيروي ١٣٣
الياب
ابناه عارضا موسى عليه السلام ٦٢٥
إمام الدين ٤٢
أمة النصير بيغم
قصتها الممتعة ٣٠٨
أم كلثوم بنت محمد ﷺ ٣٥
أميّة ابن خلف ٤٧٧
الإنجليز ٣١٠، ٣٤٥، ٣٦٥، ٥١٢، ٥٩٤، ٦٤١، ٦٨٢
أمانتهم التجارية ٢٩٢
قصة الملك الإنجليزي كينيوت ٧٨٣
احتلالهم الهندَ ومظالمهم ٣٦٣، ٤٥٣
ظلمهم بأهلها في مفسدة عام ١٨٥٧م ٤٥٣
تذليلهم أعزّةَ الهند ٤٥٥
عيَّنوا الهنود مسؤولين توطيدًا لحكمهم ٦٣٦
دعاء رئيس الوزراء الإنجليزي في حرب ١٩١٨م ٧٩٦
شارب الخمر يُعتبر عندهم شريفًا ٣٥٠
ردُّ المفسر بقسوة على إنجليزي تَهجَّمَ على النبي ﷺ ٧٥٦
ظن أوروبي أن المفسر ذهب إلى إنجلترا للتآمر على الإنجليز ٧٥
أنس بن النضر
استُشهد بأُحُد وعرفته أخته ببنانه ٦٧٥
شهادته كانت سببًا في نزول آية في القرآن ٦٧٥
أورنغ زيب عالمغير المغولي
كان من المجددين ٢٣٨

الأوس
كانوا من ذرية ددان بن إبراهيم ٦٤٦
أيّوب عليه السلام ٦٢٤
الباب علي محمد مؤسس الحركة البابية ٤٨٨
بخت نصر (راجع نبوخذنصر)
بختيار الكعكي قطب الدين رحمه الله ١٦٤
براهما إله هندوسي ٢١١
قصة حرب بينه وبين الإله "شِو" ٢١١
برهان الدين الجهلمي رضي الله عنه
تعرُّضه للاعتداء في سيالكوت ٦٧١
برتن ٢٨٢
بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه صاحب هذا التفسير
تلقّيه العلومَ من الله
رؤياه عن غاية خلق الإنسان ١٠
وُهب من الله علمًا خاصًا لتفسير القرآن ٣٤٩
علّمه الله أُسُسَ نظام الاقتصاد في الإسلام ٣٩٩
كُشفت عليه العلوم الطبيعية بالرؤيا ٥٣١
إخبار الله إياه أن المسيح الموعود تلقى الليلة وحيًا كذا ١٤٢
تمثُّل نور الله له ١٥٠
إلقاؤه الخطاب في الرؤيا حول وجود الله تعالى ٧٩٩
رؤياه عن أسباب تخلُّف المسلمين ٥٠١
رَدُّه في الرؤيا على أسئلة مسلم ألماني ١٠
المسيح الموعود يأمره في الرؤيا بالذهاب للحج بسرعة ٣٣٧
رؤياه عن الهجرة في المستقبل ٧٧٧
رؤيا رآها في طفولته ١٠٠
وقائع من حياته تتجلى فيها قدرة الله ٣٩-٤٠
اطلاعه على ما في قلوب زوّاره ١٥١
حواراته العلمية والتبشيرية
حواره التبشيري في طفولته ٣٣٩
مقابلته مع خبير ماليّ إنجليزي ٢٤٦
حواره مع عالم نووي روسي ٥٣١
حديثه مع مهندس باخرة ٧٥
ردُّه على سؤال السيخي بلديو سنغ ٤٩٥
سفره إلى أوروبا للعلاج ٧٥٩
إلقاؤه محاضرة حول الإسلام في لندن ٥٣١
محاضرته في لندن حول الدمار الذري ٥٣١
دحضُه دليل الشيخ الأمرتسري ١٧٣- ١٧٤
حواره مع شيخ ١١٣
حواره مع طالبينِ من معهد ديوبند ٧٣٦
ردُّه على تساؤل أحد المتصوفين ٢٢٢
حواره مع شيخ حول ضرورة اتخاذ الأسباب ٥١٧
حواره مع القس زويمر ١١١
قصه إفحامه قسًا إنجليزيًا بردٍّ قاسٍ ٧٥٦
نقاشه مع سيدة بهائية ١٥١
حديثه مع هندوسي ٧٤٧
وجهة نظره الخاصة
مذهبه في أداء الصلاة في الظروف المشتبهة ٧٤٩
رأيه في قدر المَهر ٥٧٢
لا يركز كثيرًا على أسباب النــزول ٦٧٥
رحلاته
كان مع المسيح الموعود عليه السلام في سفره إلى سيالكوت ٦٧٠
رحلته إلى الحجاز للحج ٣٣٧
وصوله إلى غار ثور ٦٤٤

ذهابه إلى مصر لتعلُّم العربية ٣٣٧
زيارته لمباني قوم عاد في عدن ٧٢٣
شاهد جثة فرعون في متحف القاهرة ٦٢
رحلته إلى كشمير ٢٩٣
لقاؤه مع أحد أفراد العائلة الملكية المغولية في دلهي ٣٤

أمور متفرقة

حماسه لرفع اسم الله ٢٣٢
تألمه لحادث حدث مع النبي ﷺ في طفولته ٣٠٤
توبيخ المسيح الموعود عليه السلام إياه على ترك الجمعة ٧٥١
بعض أحداث طفولته ٢٢، ٢٠٣، ٤٨٧
اعتناق زوجة عمه الأحمدية في عهده ١٢٧
حماس زوجة عمه لخدمة الخلق ٦٠٧
قراءته العميقة لتاريخ العرب ١٦٨
قتل الإنجليزُ جدّ أمه في مفسدة ١٨٥٧م ٤٥٣

بعْل

إله الكسديين والكلدانيين ١٩١

بكرماجيت ٢٣١

بلال رضي الله عنه ٣١٢

أذّن بعد وفاة النبي ﷺ بطلب من عمر رضي الله عنه ٣١٢
وفاته في حب النبي ﷺ ٣١٣

بلديو سنغ ٤٩٥

بلقيس ٤٢٣- ٤٢٦

هديّتها لسليمان عليه السلام ٤٦٤
قصص المفسرين عن ملكة سبأ ٤٦٩

بن عمى

ابن لوط عليه السلام ٢٧٩

بنو أسد ٧٥٨

مشاركتهم في غزوة الاخندق ٧٥٨

بنو أميَّة ٥٠٤، ٧٥٨

بنو إسرائيل ٣٧٥

لم يؤمنْ كلهم بموسى عليه السلام ٥٥٣
خطة فرعون للقضاء عليهم ١٣٠، ٥٥١
تذليل فرعون إياهم عن طريق قارون ٦٣٦
شُقّت رؤوس بعضهم بالمناشير بسبب إيمانهم ٩٤
عددهم عند الخروج من مصر ٥٠، ٢٤٢
إقامتهم في مدين بعد الخروج ٥٩٢
عصيانهم موسى عليه السلام ١٦٠
رفضوا القتال لفتح كنعان ٥١٩
شعب جبان أغمضوا العيون عن الآيات ١٠٦
تدمير نبوخذنصر إياهم ٦٦٥
كانوا أكثر تقدمًا من العرب ٣٠٩
تعصُّبهم ضد بني إسماعيل أي العرب ٣٢٢
نبوءة بعثة مثيل لموسى من بين إخوتهم ١٠٢
وصَفهم المسيح بأولاد الأفاعي ١٠٦
القرآن الكريم يفصل فيما هم يختلفون ٥١١

بنو إسماعيل ٥٩٣

إقامتهم في بلاد العرب ٦٤٦
بعثة نبي مثل موسى من بينهم وفق نبأ التوراة ١٠٢

بنو سعد

مشاركتهم في غزوة الاخندق ٧٥٨

بنو سليم ٧٥٨

مشاركتهم في غزوة الخندق ٧٥٨

بنو الشيصان

اسم قبيلةٍ للنمل عند المفسرين ٤٣٨

بنو عبد المطلب

دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الإسلام ٣٢

بنو غالب ٣٣٤
بنو قطوره (أولاد الزوجة الثالثة لإبراهيم)
إقامتهم في بلاد العرب ٦٤٦
بنو لاوي ٦٢٥
بنو لؤي ٣٣٤
بنو مرّة ٣٣٤
بنو مطلب ٣٢، ٥٠٤
بنو هاشم ٥٠٤
مقاطعه أهل مكة لبني هاشم ٣٣٤
بنو خزاعة ٧٧٤
بهاء الله (مؤسس البهائية)
أنكر نزول الوحي عليه في الكلمات ٣١٨
سجود عباس أفندي على قبره ٧٧٣
بوذا غوتم ٨٠٠
بتاح (أحد آلهة المصريين) ٥٥٦
بنثيرا (جندي رومي) ٥٢
اتهام اليهود مريم الزنى معه ٥٢، ٥١٥
بولص
عقيدته بأن المسيح صار ملعونا من أجل الناس ٥٣
بيتر زار روسيا ٦٧٧
قصته المثيرة مع تولستوي ٦٧٧
بِيرا (أحد خدام المسيح الموعود عليه السلام) ١٠٧
بكّت الشيخَ البطالوي رغم بساطته ١٠٩
تائن بي المؤرخ
يرى مستقبل الأحمدية مشرقا ٧٨٤

تارح عمُّ إبراهيم عليه السلام ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩، ٢٤١
تغلق غياث الدين الملِك
قصته مع الخواجا نظام الدين أولياء ٤٧
توما
حواري المسيح الذي سلم إليه أمه مريم ٣١٤
تيجا سنغ
معبد هندوسي لتيجا سنغ في سيالكوت ٧٠٨
تيما أحد أبناء إسماعيل ٦٤٦
تيمور ١٩٨، ٤٤٠
كان يجعل العلماء في مؤخر الجيش لجبنهم ٤٣٤
انتصاراته وعاقبته ٥٠٣
تولستوي
قصته المثيرة مع زار روسيا بيتر ٦٧٧- ٦٧٩
كلير تسدل (Clair Tisdall)
القسّ، مؤلف كتاب ينابيع الإسلام ٤٤٨
ثقيف
تربى النبي ﷺ بينهم ١٢٨
ساعدوا أبرهة في هجومه على الكعبة ١٢٨
ثمود ٦، ٢٧٣، ٢٧٤، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٠، ٤٧٧، ٦٥٩، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٦
خلفوا قوم عاد ٢٦٧، ٢٧٣، ٤٧١
كانوا يسكنون ما بين الشام وعدن ٢٧٤، ٤٧١
هجرتهم إلى الحجاز وتهامة والحِجر ٤٧٢
كانوا متمكنين من فن العمارة ٧٢٢
هلاكهم نتيجة كفرهم بصالح عليه السلام ٦، ٣٧٤
سبب ذكرهم بعد ذكر سليمان عليه السلام ٤٧٠
في قصة ثمود نبوءة عن النبي ﷺ ٤٧٧

ثناء الله الأمرتسري الشيخ ٤٣٢
نقاشه مع المفسر ﷺ ١٧٤
جابر بن زيد ﷺ ٦٥٥
جابر ابن عبد الله ﷺ ٤٢٩، ٦٥٥
جان محمد الكشميري
كان يؤم الصلاة في المسجد الأقصى بقاديان ٤٨٧
جبريل ﷺ ١٣٩، ٤١٠
تمثل للنبي ﷺ ورآه الصحابة أيضا ١٣٩
جرجي زيدان ٢٦٨
جرهم
سكنت مع السيدة هاجر في وادي مكة ٢٣٠
جلال الدين أكبر الإمبراطور المغولي
تعيينه الحراس من سادات "باهره" ٣٦٣، ٤٣٣
جنغيز خان ٤٣٣
جنيد البغدادي ٢٣٦
جهانغير الإمبراطور المغولي ١٦٤
سجَن أحمد السرهندي في قلعة غواليار ١٦٤
جوزيفس المؤرخ اليهودي ٢٤٢
ذكر أن اسم والد إبراهيم هو آذرَ ٢٤٢
جيمس هنري بريستد
٥٥٦، ٥٥٧
حاران
أخو إبراهيم ووالد لوط ٧١٣
حِجّي
أحد أنبياء بني إسرائيل زمنَ أسرهم ببابل ٦٦٦
حزقيال ﷺ
كشفه عن النهضة الثانية لبني إسرائيل ٦٦٧
حسان ابن ثابت ﷺ
قصيدته المشهورة في رثاء النبي ﷺ ١٢٥، ٣٦٢
كان ضعيف القلب ٤٣٤
الحسن البصري ﷺ ٢٣٦، ٥٣٩، ٦٥٥
الحسن بن علي ﷺ ٣٥، ٢٥٠
على الأحمدية أن تسلك مسلكه (المفسر ﷺ) ٦٧١
حسن نظامي خواجه
قال علماء العالم الإسلامي ينتظرون المهدي ٤٩٧
الحسين بن علي ﷺ ٣٥
بيت شعر المسيح الموعود ﷺ عنه ٦٧٣
على الأحمدية أن تسلك مسلكه (المفسر ﷺ) ٦٧١
حليمة السعدية
قصة شق صدر النبي ﷺ أثناء إقامته عندها ١٣٩
حمزة ﷺ
غيرته للنبي ﷺ في أيام كفره ٨٥
مثّلت به "هند" في غزوة أحد ٦٤٥
حِميَر ٤٧١
حوّاء ٥٨
حيرت مرزا الدهلوي
حاول تخويف المسيح الموعود ﷺ في زيّ المفتش ٣٠
خالد بن سنان ٢١، ٤٠
خالد بن الوليد ﷺ ٣٣٥، ٧٧٦
خان ملك المولوي
نحوي هندي شهير دخل في الأحمدية ٣٤٤- ٣٤٥

خديجة رضي الله عنها ٣٤-٣٥
آمنت في أول يوم ٣٥
قول الرسول ﷺ لها "خشيتُ على نفسي" ٣٣٥
ذهابها به ﷺ إلى ورقة بن نوفل ٦٤٨
تعرُّضها للأذى بسبب إسلامها ٣٤
أولاد النبي ﷺ منها ٣٥
وفاتها في شعب أبي طالب ٨٣

الخزرج
كانوا من نسل ددان بن إبراهيم عليه السلام ٦٤٦

الخضر ٣٩

الخنساء رضي الله عنها
تضحيتها وشجاعتها ٤٠٣

داثان ابن الياب
أحد أعداء موسى من بني إسرائيل ٦٢٥

داود عليه السلام ٣٧٢، ٣٧٧، ٣٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٥٣٧
مكانته المرموقة في اليهود ٤٢١

ددان بن لقيان ٦٤٦
أحد أحفاد ابراهيم عليه السلام ٦٤٦

دهرم بال المرتد ٧٠٧
ردّ الخليفة الأول رضي الله عنه على كتابه "ترك الإسلام" ٧٠٧

ذو القرنين (انظر في قورش) ٦٦٦

رام تشندر ٥٤، ٣١١، ٦٢٤
اتهام الهندوس إياه بتهم شتى ٤٨٣

رحمت الله شيخ المحامي
رؤيا له أدت إلى دخوله في الأحمدية ١٤٩

رُستم
قصته مع سارق ٤٠٤

رشيد الدين خليفة الدكتور
بكّت القسَّ زويمر ١١١

رَعْ
أحد آلهة المصريين ٥٥٧

رعمسيس الثاني (راجع أيضًا فرعون)
جعل بني إسرائيل عبيدا أول الأمر ١٣٠
تربى موسى عليه السلام في بيته ٥٥٧
عيَّن رئيس الكهنة في مصر ٥٥٧
سمى جزءا من الجيش باسم آمان ٥٥٩

رعوئيل
حمو موسى عليه السلام بحسب الكتاب المقدس ٥٧٢-٥٧٣

رقية بنت محمد ﷺ ٣٥

رنجيت سنغ
قصة عقابه لأحد الطبّاخين ٤٦٢
تأبين الشعب له عند وفاته ٢٠٧

رودويل مستشرق قام بتفسير القرآن ٤٤٨

روك فيلر ٩٥

زارا
اسم والد إبراهيم عليه السلام بحسب التلمود ٢٤٢

الزبير رضي الله عنه ١٩٩

زرادشت عليه السلام ٥٥، ٦٢٤

زكريا عليه السلام
نبي إسرائيلي زمن أسر بني إسرائيل في بابل ٦٦٦

الزمخشري صاحب الكشاف ٤٠٥
زويمر القسّ
قصته مع الدكتور خليفة رشيد الدين ١١١
حواره مع حضرة المفسر رضي الله عنه ١١١
زيد رضي الله عنه
كان من أوائل المؤمنين ٢٥٣، ٣٣٥
رافق النبي صلى الله عليه وسلم في سفره إلى الطائف ٨٣
أتى بفاطمة من مكة إلى المدينة ٤٨١
زينب بنت محمد صلى الله عليه وسلم
قدمت عقدها فديةً لتحرير أبي العاص ٣٥
سارة
هل كانت شقيقة إبراهيم عليه السلام؟ ٢٤٣
ساره بيغم (حرم حضرة المفسر رضي الله عنه)
قصةٌ لابنتها ٣٠٥
سارية رضي الله عنه
قصة قول عمر رضي الله عنه يا سارية الجبل ١٤٠
السامري
كان مجردًا عن الروحانية ٥١٢
ستيخ أحد آلهة المصريين ٥٥٧
سجاح المتنبئة ١٦٤
سراقة بن مالك رضي الله عنه ١٨٠
سعد بن الربيع رضي الله عنه
نصيحته لأهله قبيل وفاته في أُحد ٤٠٢
شفرة (القابلة العبرانية) ٥٥١
سقراط ٦٠٠
كان يدعي بأن الله يكلّمه ٥٥
سليمان عليه السلام ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٧، ٣٨١، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٨٣، ٤٧١، ٤٦٧، ٥٣٧، ٦٦٦
كان عبدا شكورا ٤٦٧
الكتاب المقدس لا يعترف بنبوته ٤٢٤
الكتاب المقدس يتهمه بالشرك ٤٢٥
منظمة سرية يهودية مضادة له ٦٦٦
تمرد بني إسرائيل في عهد ابنه ٤٥٦
تقرير الهدهد عن ملكة سبأ ٣٧٢، ٤٤٦
ردُّه هدايا الملكةِ ٣٦٥
عرش بلقيس وعرش سليمان ٤٦٧
بشَّرها بالتوحيد ٤٦٨
جنُّ سليمان ٤٢٧
المراد من جنه أتباعه من قوم ثمود ٤٧١
كان جيشه ثلاث كتائب ٤٣٤
عُلِّم منطق الطير ٣٧٢، ٤٢١
حقيقة منطق الطير ٤٢١
قوله إني علمت منطق الطير أي لغة أنبياء الله ٣٧٢
مرور سليمان بوادي النمل ٣٧٢، ٤٣٥
حقيقة نمل سليمان ٤٣٥
يعتبره البعض نبيًا ٢٣٩
سمعان أخ للمسيح عليه السلام ١٢٢
سهيل الرومي رضي الله عنه ٣١١
سودة رضي الله عنها ٤٨٠-٤٨١
هجرتها إلى المدينة ٤٨٠
سيتا (زوجة رام تشندر)
اتهام الهندوس رام تشندر بمعاملة سيئة معها ٤٨٣

سيل (Sale) المستشرق
اعتراضه على القرآن الكريم بصدد هامان ٥٦٠
شدّاد ٣٨
شعيب عليه السلام ٦، ١٣٣، ٢٨٢، ٢٨٩، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٨١، ٥٧٢، ٦٥٩
كان من العرب ومن سكان مديَن ٢٨٢
بعثته إلى أهل مدين ٢٨٢، ٦٥٩
معلومات عن أرض قومه ٢٨٢
كان عصره متقاربا لعصر لوط ٥٧٢
خيانة قومه في التجارة ١٣٣، ٢٨٩
نصحه قومه بالأمانة في التجارة ١٣٣، ٢٨٩، ٢٩٦
اتُّهِم باستعانة الأجانب ٣٠٢
اتُّهِم بالجنون ١٣٣
تفاصيل هلاك قومه ٣٠٢
زعم البعض أنه حمو موسى ٥٧٢
شهاب الدين السهروردي رحمه الله ٢٣٦
"شِوْ" (أحد آلهة الهندوس)
قصة الحرب بين "شِو" و"راما" ٢١١-٢١٢
شيبة
أحد رؤساء مكة المعارضين للنبي ﷺ ٧٩، ١٠٦، ٢٥٣، ٤٧٧
شيث عليه السلام
علَّم الناسَ عمل النسج ٣٩٤
شِيرويَه كسرى إيران
قتل أباه وألغى أمره باعتقال النبي ﷺ ٤٧
صالح عليه السلام ٦، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٤، ٢٧٧، ٣٥٣، ٣٨١، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٨٢، ٥٣٧، ٧٢٦
نصيحته لثمود ٢٧٣
مؤامرة تسعةٍ من علية القوم ضده ٤٧٦
اتُّهم بأخذ الرشوة من الأجانب ٢٧٥
كفرُ قومه به ٢٧٤
خرافات المفسرين حول ناقته وحقيقتها ٢٧٦
نجاحه عليه السلام ٢٧٧
صدق سالم
قصته مع إبراهيم عليه السلام ٦١٨
صديق حسن خان نواب
قال في "اقتراب الساعة" بقرب ظهور المهدي ٤٩٨
صفيَّة رضي الله عنها
رؤياها عن وقوع القمر في حجرها ١٣٧
الضبّ ٤٤٤
رئيس عربي مدح النبي ﷺ بقصيدة ٤٤٤
خرافات المفسرين حوله ٤٤٦
طلحة رضي الله عنه ١٩٩
ظهور الدين أكمل رضي الله عنه ٤٢
عائشة الصديقة رضي الله عنها ٧٥٦
هاجرت إلى المدينة برفقة أخيها عبد الله ٤٨١
قولها للنبي ﷺ لا تشق على نفسك بكثرة العبادة ٢٢٤، ٥٢٠
وصفُها حالة النبي ﷺ قبل الوفاة ٣١٣
عاد
هم قوم هود عليه السلام ٦، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٢، ٦٥٩، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٦
كان زمنهم بعد قوم نوح مباشرة ٢٦٨
إنكار الأوروبيين وجودَ شعب باسم عاد ٢٦٨
أسسوا الحضارة البابلية ٢٦٩

آثار قوم عاد ٢٦٦-٢٦٧
تمكُّنهم من فن البناء ٢٦٦، ٧٢٢
هلكوا نتيجة إنكارهم هود عليه السلام ٦، ٢٦٩، ٢٧٢
العاص بن وائل ٤٧٧
عباس أفندي
سجوده على قبر "بهاء الله" ٧٧٣
عبد الحكيم البتيالوي المرتد ٥٧٧
أخرج الخليفة الأول رضي الله عنه تفسيره من مكتبه ٥٧٧
عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
سؤاله عمرَ رضي الله عنه عن قوله "يا سارية الجبل" ١٤٠
ترك مالاً كثيرًا ٢٩٥
العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه
جاء النبيَّ صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان يوم الفتح ليبايعه ٧٧٥
عبد الرحيم بهائي رضي الله عنه ٣٩
عبد الرحيم نيّر رضي الله عنه ٢١٩
عبد العزيز مغل ميان رضي الله عنه
روى قصة هندوسي حاول المسمرية على المسيح الموعود عليه السلام ١٤٤
عبد الغفور المرتد (انظرْ دهرم بال) ٧٠٧
عبد القادر الجيلاني رحمه الله ٢٣٦
كراماته الشهيرة في عامة الناس ٩٠
عبد الكريم الشيخ السرحدي
مصيره المثير للعبرة ٣٠-٣١
عبد اللطيف الصاحبزاده الشهيد رضي الله عنه ١٧٠-١٧١
استقامته وشجاعته ١٧٠
دعا الله لهداية قومه حتى لحظة الرجم ١٧٠
عبد الكريم المولوي رضي الله عنه ٣٠، ٧٥١
عبد الله آتهم القس (راجع آتم)
عبد الله بن زيد رضي الله عنه ٧١٨
عُلِّم الأذان في الرؤيا ٧١٨
عبد الله بن سبأ
حاك مؤامرة ضد الإسلام زمن عثمان رضي الله عنه ١٦٤، ٦٤١
هو المسؤول عن قتل عثمان رضي الله عنه ٦٤١
عبد الله بن سلام رضي الله عنه
حِبر يهودي أسلم في المدينة ٧٦١
فضحُه يهوديًا أخفى عقوبة الزنى في التوراة ٧٦٢
عبد الله السنوري رضي الله عنه
رأى قطرات الحبر الأحمر في الكشف مع المسيح الموعود عليه السلام ١٤٢
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه
بيانه لمقتل أبي جهل ببدر ١٢٥
عبد الله بن المولوي خان ملك ٣٤٤
عبد المطلب
نذره بذبح ابنه لدى بحثه عن بئر زمزم ٣٤٧
عتبة
أحد زعماء قريش ٧٩، ١٠٦، ٢٥٣، ٤٧٧
عثمان بن عفان رضي الله عنه ٣١، ١٦٤، ٢٣٦، ٣٨٢، ٥٠٥، ٥٣٤، ٦٤١
مثّل المسلمين في صلح الحديبية ٣١-٣٢
فتنة عبد الله بن سبا في عهده ١٦٤، ٦٤١

عثمان ابن مظعون رضي الله عنه ٤٧٣، ٥٠٤
غيرته الإيمانية ٤٧٦-٤٧٧

العرب
سبب تسميتهم ٣٢١
تأثير انقطاع النبوة عنهم وحِكمة ذلك ٤٦٠
الكتاب المقدس يصفهم بالوحشي ٣٢١
بلغت صفة الإحسان عند العرب ذروتها ٤٧٧
شعور التفوق القومي عندهم ٣٠٩، ٤٧٨
عداء اليهود للعرب ٤٤٥
احتقار الفُرس لهم ٤٦٥
اعترفوا بحكم الروم والفرس سياسيا مع رؤيتهم أنهم أفضل منهما ٣٠٩

العُزَّى إحدى آلهة العرب ٩٣، ١٣٢

عزيز الدين فقير
حواره مع المهاراجا رنجيت سنغ حين عاقب الطبّاخ ٤٦٢

عطاء ٦٥٥

عُقبة بن أبي مُعيط
أحد أعداء النبي ﷺ ٤٧٧

عكرمة رضي الله عنه (بن أبي جهل) ٥٩، ٦٥٥
فرّ من مكة عند فتحها ٦٠
تغيرت حياته بعد إسلامه ٦٠
شجاعته وإيثاره في معركة اليرموك ٦٠

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ٣٢، ٣٣، ١٦٤، ٢٣٦، ٢٥٣، ٤٣٤، ٥٠٤، ٥٣٤، ٥٣٩، ٦٤٤، ٦٥٥
أسلمَ وهو طفل ٣٢
آمن بالرسول ﷺ في أول يوم الدعوة ٢٥٣، ٣٣٥
كان من سلالته اثنا عشر إماما ٤٦٣
أغلبية أولياء الأمة والصوفية من نسله ٣٣
نام على سرير النبي ﷺ ليلة هجرته ٦٤٤
قول النبي ﷺ له ألا ترضى أن تكون مني بمنــزلة هارون من موسى ٣٣
قول النبي ﷺ في حقه أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ٤٣٤
تسليم النبي ﷺ الراية له في غزوة خيبر ٤٣٤
اعترافه بشجاعة أبي بكر رضي الله عنه ٤٣٤
تمرُّد الخوارج عليه ١٦٤
معارك عبد الله بن سبا معه ٦٤١

العمالقة
شعب كان يحكم كنعان قبل بني إسرائيل ٤١٨

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٣١، ٥٨، ١١٦، ١٤٠، ١٦٤، ٢٣٦، ٣١٢، ٥٠٤، ٥٣٤، ٦٦٩، ٦٧٥، ٦٨٥، ٧١٨
خروجه بإرادة قتل النبي ﷺ ٤٣٣
واقعة إسلامه ٣١
تغيرت حياته بعد إسلامه ٥٨
حالته لدى سماع خبر وفاة النبي ﷺ في أُحد ٦٧٥
إحسانه إلى أخيه الكافر ٦٨٥
أذَّن بلال بطلب منه في دمشق ٣١٢
عُلِّم الأذان في الرؤيا ٧١٨
كشفه "يا سارية الجبل" ١٤٠
اعترافه بفضل أبي بكر رضي الله عنه ١١٦
تفضيله العبيد المسلمين على أولاد رؤساء مكة ٢٥٢
حرب القادسية ٤٠٣
نظام إحصاء السكان والتموين في عهده ٣٩٨
بدَّل حاكم الكوفة مرارا ٢٦٠
فراسة قاضيه ابن أبي ليلى ٢٦٠
عتاب النبي ﷺ عليه لقراءته التوراةَ ٧٦٣
مؤامرات بعض الناس قبيل وفاته ١٦٤

عمرو بن العاص رضي الله عنه ٣٣٥، ٧٧٦

قلقه عند الوفاة ٣٣٨

عمر بن عبد العزيز ؓ ٢٣٦

عمر بن محمد ؓ ٥٣٩

عمرو بن كلثوم شاعر جاهلي

قصة غيرتِه وقتلِه لعَمر بن هند ١١٦

عمرو بن هند

قصته مع عمرو بن كلثوم ١١٦

عياض القاضي

رفض الأحاديث القائلة بنزول وحي الشيطان على النبي ﷺ ٣٢٨

عيسى بن مريم ؑ ٤، ٥٣، ٨٤، ١٠٦، ١٢٢، ١٢٨، ٢١٦، ٣١١، ٣١٤، ٣٤٠، ٥٠٠، ٥٣٧، ٥٩٥، ٦٧٣، ٦٩٠، ٧٢٧، ٧٥٥، ٧٦٤

وقائع حياته

ولادته ٥١٥

أسماء إخوانه الأربعة ١٢٢

تربى في ظل السلطنة الرومانية ١٢٨

غسلُ امرأةٍ قدميه بدموعها ٨٤

لقد نجا من الموت على الصليب ٦٦٥

مشاعره وهو معلق على الصليب ٣١٤

القرآن يعلن نجاته من الميتة اللعينة ٥٣

اضطر للهجرة إلى كشمير نتيجة إيذاء الناس ٦٦٥

بعثته ومكانته

بُعث بعد موسى بثلاثة عشر قرنا ٥٩٥

بُعث في سن الثلاثين بحسب المسلمين والنصارى ٥٦٤

كان رسولا إلى بني إسرائيل فقط ٣١٠

اعترافه بكونه شهيدًا على قومه ٦٢٣

سؤال الله إياه عن وثنية قومه يوم القيامة ٦١٤

روح القدس ليس خاصًا به وحده ٣١٥-٣١٦

ذكَر غير بني إسرائيل بكلمات قاسية ٣١١

مقارنة بينه وبين محمد ﷺ ٨٤-٨٥

أقواله وتعاليمه

سأطلب من الأب أن يهبكم نصيرا آخر يلازمكم إلى الأبد ٥٠٠

الشجرة تُعرف بأثمارها ٧٢٧

ايلي ايلي لما سبقتاني ٧٦٤

أحد أقواله ٤٩٥

حقيقة النجاة عنده ٦٩٢

حثُّه على الدعاء والصيام ٧٤٠

نصيحته للحواريين ٣٤٣

لم يترفع عن نظرية القومية المحدودة ٣١٠

مؤيدوه ومعارضوه

اعتداء اليهود عليه واحتقارهم إياه ٩٣

القرآن يفنِّد التُّهم التي أُلصقت به ٥٢

سيتواجد الكافرون به إلى يوم القيامة ٣٤٠

مقارنة بين قومه وقوم موسى ٤٦٣

أحد حوارييه وشى به أعداءَه مقابل مبلغ زهيد ٧٢٨

تُهم يوجهها إليه المسيحيون ٥٣

خلافات اليهود والنصارى في كونه المسيح ٥٢١، ٥٢٢

وفاته

مسألة وفاة المسيح ؑ ٣٣٩

اعترافه بوفاته ٦١٤

عقيدة حياته تدعم المسيحية ٢٤١

بعثته الثانية ٣٣١

أخبر عن علامات بعثته الثانية ٣٣١

عيسى ومثيله ٤

غالب أسد الله، (انظر في أسد الله غالب)

غاندي

كان يعدّ أفكاره إلهاما ٣١٨

غِبن (Gibbon) المؤرخ ٧٨٤

غطفان

مشاركتهم في غزوة الخندق ٧٥٨

غلام أحمد القادياني المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام ٢٥، ٣٦، ٤٢، ٩٧، ١٠٧، ١٠٨، ١٣٢، ١٤٣، ١٤٩، ٢٤٠، ٢٩٩، ٤٠٠، ٤٨٩، ٥٢٢، ٥٧٧، ٦٥٠، ٦٨٩، ٧٠٨، ٧٦٦، ٧٩١

وقائع حياته

بدايته ونهايته ١٢٦

رغبته عن الدنيا في شبابه ١٢٦

بدأ كتابة المقالات دفاعًا عن الإسلام في ١٨٧٢م ٢٤٠

بدأ نزول الوحي عليه في ١٨٦٤م ٢٤٠

صبره عند وفاة ابنه مبارك أحمد ٦٨٩

طريقة تناوله الطعام ٢٥

وبخ المفسرَ رضي الله عنه في صغره على تركه صلاة الجمعة ٧٥١

حثُّه المفسرَ في الرؤيا على الخروج للحج فورًا ٣٣٧

نبوءة بعثته

نبأ الرسول ﷺ ببعثة مجدد على رأس كل قرن ٥٩٥

حثُّ النبي ﷺ على بيعة المسيح الموعود ٦٥٠

سبب لقبه بالمسيح ٤٩٩

كان المجددون السابقون إرهاصا لحضرته ٢٤٠

جميع الديانات كانت تنتظر المبعوث من الله ٤٩٧-٤٩٨

غاية بعثته

غاية بعثته إحياءُ الإسلام واستعادة الإيمان ٥٣٧، ٥٩٥

غرضُ مجيئه القضاءُ على المسيحية ١٢٨

أرسله الله تعالى في حكومة الإنجليز رغم بعثته للقضاء على المسيحية ١٢٨

دعا عليه السلام الملكةَ فكتوريا إلى الإسلام ١٤٣

تأسيس نظام الخلافة بواسطته ثانية ٥٠٦

تشكّلتْ جماعة مخلصة بظهوره ٤٨٩

قيام نظام الاقتصاد في الإسلام على يديه ٤٠٠

تبدأ النشأة الثانية للإسلام بالمسيح الموعود عليه السلام ٢٩٩

دلائل صدقه

تفشِّي الطاعون تأييدا له ٥٢٢، ٥٢٦

حماية مسكنه في سيالكوت من الصاعقة ٧٠٨

خروجه من البيت قُبيل انهياره ٧٠٨

ظهور آية بصدد قضية مسجدنا في كبورتهله ٣٦

أعلن أنه ببركة دعائه يمكن للمرء زيارة المسيح الناصري ١٤٣

رؤية شخص تصاعد أعمدة نورانية من رأسه ١٤٩

محاولة هندوسي ممارسة المسمرية ضده ١٤٤

إلهاماته ورؤاه وكشوفه

"إني معينٌ مَن أراد إعانتك وإني مُهين من أراد إهانتك" ٧٤٤

"ألوف الرجال تحت جناحك" ٤٢٤

لا تخوِّفوني من النار فإن النار غلام لنا بل هي غلام غلماننا ٧٠٨

"يا مسيحَ الخلق عدوانا" ٥٢٣

صام ستة أشهر متتالية وحظي بألطف المكاشفات ١٤٩

كشف قطرات الحبر الأحمر ١٤٢

رؤيته في الكشف أنوارا تتسرب إلى صدر النبي ﷺ ١٥٠

رؤياه عن الجماعة وتعبيرها ٦٧١

رأي بعض العلماء الأحمديين حول إلهامه المتعلق بالأعداد ٥٣١

أخبره الله تعالى أنه لا بد لجماعته من التضحيات كجماعات الأنبياء السابقين ٦٧٢

نبوءاته

تنبأ بتفشي الطاعون في البلاد ٥٢٣-٥٢٤

نبوءته عن القس عبد الله آتهم ١٤٥

حدوث زلزال ١٩٠٥م تحقيقًا لنبوءته ٧٩١

معارفه القرآنية وغيرها

قال إن القرآن الكريم هو السلاح الوحيد لفتح العالم ١٥٥

أثبت عدم وجود أية آية منسوخة في القرآن ٩٧، ٧٦٧

دعا إلى ضرورة ترجمة معاني القرآن ٧٣٨

انكشاف بطون ومعارف قرآنية جديدة عليه ٧٦٦

نكتة لطيفة بيَّنها حول دعاء الفاتحة ٢٩٩-٣٠٠

تفسيره لقوله تعالى ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ ٣٤٨

بيانه أسرار عالَم الكشف ١٣٨

بيانه حقيقة نار إبراهيم عليه السلام ٧٠٨

تفسيره لمعجزة انشقاق القمر ١٣٨

بيانه اللطيف عن الجنّ ٤٣٢

توضيحه لنظرية الجهاد ١٣٥

أثبت أن العربية أُمُّ الألسنة ٧٧٢

أقواله المختلفة

لقد أُرسِلت من الله عند الحاجة ٤٩٩

لقد توظفت عند من كنت سأتوظَّف عنده ١٢٦

أنا ذلك الغراس الذي غرسه المالك الحقيقي بيده ٥٨٤

فليختبر المخالفون بإلقائي في النار هل أخرج منها سليما أم لا ٧٠٧

نبوءته عن الخلافة بعده ٥٠٠

لا تتمنوا نزول كلام الله عليكم أبدا ٣٥٦-٣٥٧

إعجابه بالقول ينبغي أن تبقى اليد مشغولة بالعمل، والقلب بذكر الله عز وجل ٦٢٨

كان يردد كثيرا القول إما أن تكون لأحد أو يكون أحد لك ٣٨٥

أحد أقواله عن علم الطب ٢٠٥

رسالة مهمة وجهها إلى أفراد الجماعة ٦٧٢

الحد الأدنى للانضمام إلى "نظام الوصية" عنده ٥٧١

إفحامه القسَّ عبد الله آتهم في الحوار ١١٠

اعتبر القائلين بحياة المسيح الناصري قبل حضرته صالحين ٢٤١

اعتبر الملكَ المغولي أورنغ زيب مجددا ٢٣٨

بعض أبياته

لُفاظات الموائد كان أُكلي وصرتُ اليوم مِطعامَ الأهالي ١٢٧

إذا كانت رؤوس العشاق تقطع في ديارك فأكون أول من يعلن عشقه (ترجمة) ١٧٤

إنني فداء لتراب أزقة آل محمد (ترجمة) ٦٣٠

ثمة مائة حسين في جيبي (ترجمة) ٦٧٣

يكمن ذاك الحبيب في نفسي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، فحذارِ أن تهاجمني (ترجمة) ٦٥٢

كنا نظن أن "الفرقان" هو عصا موسى...(ترجمة) ١٥٨

إن الله الذي دعاه إليه (أي توفّى ابني) هو الأحبّ، فكُنْ فداء له يا قلبي (ترجمة) ٦٨٩

بيانه للأحداث والوقائع

بيانه قصة سجن الإمام موسى الرضا ٣٣

بيانه قصة صوفي حول المسائل الخاصة لأهل الله ٦٢٨

ذكره قصة عاقّ لوالديه ٦٧٣

ذكره قصة رستم البطل ٤٠٥

سرده قصتين لمهاراجه رنجيت سنج ٤٦٢

معارضته

أسباب مخالفته ٩٤

معارضته المنظمة دليل على صدقه ٤٨٨

معارضة الناس له في سيالكوت ٥١٧، ٦٧٠
مخالفة عبد الحكيم البتيالوي لحضرته ٥٧٧
محاولة مرزا حيرت الدهلوي لتخويفه ٣٠
تشاؤُم المعارضين به ٤٧٥
اتهام المخالفين إياه بالجنون ١٣٣
اتهام المخالفين بأن الإنجليز أقاموه ٢٧٥
سبب استخدامه كلمات قاسية ضد المعارضين
٧٥٥، ٧٥٧
حكمة جوابه القاسي ضد المسيحيين ٧٥٥، ٧٥٧

غلام أحمد المولوي

شيخ شهير كان يلقي الدرس في الجامع الملكي بلاهور٣٤٤

غلام مرتضى مرزا (والد المسيح الموعود عليه السلام)

انزعاجه من زهد المسيح الموعود عليه السلام عن الدنيا ١٢٦
صرَّح بأن ابنه غلام أحمد لا يكذب ١٢٦

غياث الدين تغلق

مصير معارضته للصوفي نظام الدين أولياء ٤٧

فاطمة الزهراء رضي الله عنها ٢٧، ٣٥

هاجرت إلى المدينة برفقة زيد رضي الله عنه ٤٨١

الفرَّاء النحوي ١٩٤

فرعون ٤، ٥، ٣٨، ٦١، ٩٤، ١٠١، ١٠٣، ١٣٠، ١٣١، ١٦٣، ١٦٩، ١٧٧، ٣٧١، ٤١٩، ٥٥١، ٥٨٦، ٥٨٨، ٥٨٥، ٦٣٦

منفتاح ١٣٠، ٥٥٧
رعمسيس الثاني ١٣٠، ٥٥٧
لماذا بلغ موسى دعوته لفرعون مع أنه لم يكن من أمته
١٠٢-١٠٣
اضطهاد فرعون لبني إسرائيل ٥٥١
عمِل بسياسة "فرِّقْ تسُدْ" ٥٥١
سبب استعماله مسؤولين إسرائيليين رغم عدائه لهم ٦٣٦
تفاصيل اضطهاده ٥٥١
أراد القضاء على بني إسرائيل نهائيًا ٥٥١
احتقاره لموسى عليه السلام ١٢٢
حواره مع موسى ١٣١
موقف فرعون ضد موسى ٥٨٣
مكابرته رغم رؤية المعجزات ١٦٣
غضبه على السحرة ١٦٩
أمره هامان ببناء قصر عالٍ ٥٨٥
اغتراره بكثرة أعوانه ١٧٧
تأويل تحوُّل عصا موسى ثعبانًا النظر إلى فرعون ١٤٦
هلاكه بسبب كفره ٥، ٥٨٦
غرق في البحر الأحمر ١٣٦، ١٨١، ٥٨٦، ٧٢٦
سيبقى ملعونا إلى يوم القيامة ٥٨٧
نبوءة قرآنية عن حفظ جثته ٦٢
جثته ما زالت محفوظة في متحف القاهرة ٥٨٨
التفكير المؤسف لقوم فرعون ١٦٤
نزول أنواع العذاب على آل فرعون ٤١٩

فريد الدين غنج شكر رحمه الله ١٦٤

الفضل ابن عباس رضي الله عنهما

تضحيته في معركة اليرموك ٦٠

فضل الدين البهيروي

قصته مع الحكيم الله دين ١٣٣

فكتوريا الملكة

دعاها المسيح الموعود عليه السلام إلى الإسلام
١٤٣**فُوعة**

قابلة عبرية في زمن فرعون ٥٥١

قارون ٧٢٤، ٧٢٦، ٧٣٢

اسمه في الكتاب المقدس "قورح" ٦٢٥
كان من بني إسرائيل ومعارضًا لموسى ٦٢٥
رأي المفسر عليه السلام عن ثراء قارون ٦٢٧
نصيحة قومه له ٦٢٩
غطرسته وعاقبته ٥٤٧
هلك بعذاب الله ٦٣٧

قتادة رضي الله عنه ٦٥٥

قطورة
الزوجة الثالثة لإبراهيم ٢٨٢، ٦٤٦

قريش
قريش من سلالة قيدار بن إسماعيل ٦٤٦
النبي ﷺ يدعو قريشًا إلى الإسلام أول مرة ٣٣٤
مشاركتهم في معركة الأحزاب ٧٥٨

قطب الدين بختيار الكعكي رحمه الله
تعرُّضه للمعارضة ١٦٤

قورح (راجعْ قارون) ٦٢٥

قورش
ملك فارسي وهو ذو القرنين ٦٦٧
حرر بني إسرائيل بالهجوم على بابل ٦٦٧

قيدار
هو الابن الثاني لإسماعيل عليه السلام ٦٤٦

قيصر الرومي ٣٩٩

الكسديون
هم قبيلة إبراهيم عليه السلام ١٩١

كسرى ٣٩٩
أمر باعتقال النبي ﷺ بإثارة اليهود ٤٦
تآمر اليهود مع كسرى ضد النبي ﷺ ٦٦٦

كرشنا عليه السلام ٥٤، ٣١١، ٦٢٤
كان نبيا في الهند ٤٨٣
حبه لله ٤١٥
اتهمه الهندوس بتهم شتى ٥٣، ٤٨٣

كونفوشيوس عليه السلام
كان نبي الله ٥٥، ٦٠٠

كولومبوس
علم بكروية الأرض من المسلمين ٢٦٢

كونوس والد نمرود ١٩٠

كينيوت (Canute) (ملِك إنجليزي)
قصّته مع حاشيته ٧٨٣

اللات أحد آلهة العرب ٩٨، ١٣٢، ٣٢٨

لاوي قبيلة إسرائيلية ٦٢٥

لبيد رضي الله عنه شاعر عربي مخضرمي
قصة انتقاد عثمان ابن مظعون شعرَه ٤٧٣

لقيان
ابن إبراهيم عليه السلام من زوجته قطورة ٦٤٦

لوثر مارتين مؤسس المسيحية البروتستانتية
اعتبر سِفر "أستير" من نسج الخيال ٥٥٥

لوط عليه السلام ٦، ٢١٩، ٢٥٣، ٢٧٧، ٢٧٩، ٣٧٤، ٤٨٢، ٤٨٣، ٥٣٧، ٦٥٨، ٧١٣، ٧١٧، ٧١٩، ٧٢٠،
كان لوط ابن حارانَ وأخًا لإبراهيم ٤٨٠، ٧١٣
آمن بإبراهيم إثر رؤية المعجزات ٦٥٨، ٧١٣
كان نبيا تابعا لإبراهيم ٧١٧
معنى قوله تعالى ﴿كذّبتْ قومُ لوط المرسَلين﴾ ٢٧٧
تحليه بالأخلاق الفاضلة ٢٧٩

تفشي الفاحشة في قومه ٣٧٤
معارضة قومه وهلاكهم ٣٧٤
هل الرسل الذين أتوه كانوا ملائكة؟ ٧١٦
لماذا لم يُخبَر مباشرة عن هلاك قومه ٧١٧
دعا على قومه فاستجيب له ٦٥٨
نزول العذاب على قومه ٤٨٠- ٤٨١
اتهمه الكتاب المقدس بالسوء ٢٧٩
قصته تتضمن زجرًا لكفار مكة ٢٨١

ليلى ٧٨، ٧٩

مارتين لوثر (انظرْ لوثر) ٥٥٥

مارس إندس (مفكر أوروبي)
صرَّح بأن العالم ينتظر نبيا في الوقت الحاضر ٤٩٧

مارية القبطية أم المؤمنين رضي الله عنها ٣٥
ولدت الابنَ الذكَر الوحيد للرسول ﷺ ٣٥

ماهان
قائد الجيش المسيحي في معركة اليرموك ٦٠

مبارك أحمد مرزا
صبرُ المسيح الموعود عليه السلام عند وفاته ٦٨٩

المبرَّد إمام لغوي ٥٠٩

محمد خاتم النبيين ﷺ ٣، ٢٧، ٣٣، ٤٥، ٦٩، ٧٦، ٨٥، ٨٦، ١١٦، ١٢٣، ١٢٨، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٦، ٢٠٨، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣٤، ٣٠٣، ٣١٣، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٧٥، ٣٨٧، ٤٠٠، ٥٣٧، ٦٤٧، ٧٢٨، ٧٥٥، ٧٦١، ٧٨٥

حياته

وُلِد ﷺ فقيرًا ١٢٣، ٤٥١
تربى بين بني ثقيف ١٢٨
كفله عمّه أبو طالب ٢٣٤
يُتْمه وطفولته الحساسة ٣٠٣-٣٠٤
هل كان جميع آبائه مؤمنين؟ ٣٤٦
قوله ﷺ لخديجة عند أول وحي "لقد خشيت على نفسي" ٣٥٦
قوله ﷺ لورقة بن نوفل "أَوَ مُخْرِجيَّ هُمْ؟" ٦٤٧
ردُّه التاريخي على عمه أبي طالب ١٨٦
إيواء زعيم مكي له ﷺ عند عودته من الطائف ٧٥٨
إشادة وليام موير بسفره ﷺ إلى الطائف ٨٥
هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة ٣٣، ٦٤٤
أوامر كسرى باعتقاله ﷺ ٤٦
لم يكن ﷺ يعرف القراءة والكتابة ٧٦١
كابد الآلام ساعة وفاته ٣١٣
أثارت وفاته ضجة في المدينة ٢٠٨

مكانته

"لولاك لما خلقت الأفلاك" ٢٧، ٣٠٥، ٣٠٦
فطرته المباركة ٧١
رؤيا المسيح الموعود عليه السلام أن الأنوار تسري في صدره ﷺ ١٥٠
يدُه ﷺ يدُ الله تعالى ١٥٩
ذاته ﷺ نور من الله ٦٨
هو رحمة للعالمين ٧٦٥
هو منجي العالَم كله ٧٨٥
هو رسول الأمن والسلام ٦٩
هو شاهد عليكم ٦٢٣
هو أول المسلمين ٦٤٩
ظهر مجد الله وجلاله بواسطته ﷺ ٣٧٧، ٥٤٨
كان ﷺ صورة متجسدة للقرآن ٦٨
المراد من كونه ﷺ أمام أنظار الله ٧٤٢

مقارنته بالأنبياء الآخرين

بعض مماثلاته ﷺ بموسى ﷺ ٥٩٥
فضله ﷺ على موسى ٥٩٣
كان أكثر معرفة بالله من موسى ١١٥
مقارنته بموسى في رحابة الصدر ١١٦
مقارنته بموسى في إظهار الإيمان ١٧٨
مقارنة اليد البيضاء لموسى بيده ﷺ المباركة ١٥٩
أُعطي القرآنَ معجزةً مقابل عصا موسى ١٥٤
مقارنة أصحابه ﷺ بأصحاب موسى ١٦٠
مقارنته ﷺ بالمسيح الناصري ٨٤، ٣١٣

عشقه لربه

درجة عشقه ﷺ لربه ﷻ ٧٧
أكبر ألقابه ﷺ عند الصوفية هو "عبد الله" ٢٢٠
قوله ﷺ عند الوفاة "اللهم الرفيق الأعلى"٢٢٢، ٣١٥
قوله ﷺ أفلا أكون عبدا شكورا ٢٢٤
كانت قدماه تتورمان من طول قيام الليل ٢٢٤، ٥٢٠
كانت صلاته ونسكه وحياته وموته لله رب العالمين ٦٤٩
حصيلة حياته ﷺ ٥٥٣
قوله ﷺ "أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَها أحد قبلي" ٤٢٩
كلّمه الله مباشرة ٤١١
كمال الكلام المنـــزَّل عليه ٢٨٨
بُعث إلى العالم بأسره ٣١٠
كانت أبوته عامَّة ٣٠٧
جُعل أسوةً إلى يوم القيامة ٦٢٣
انتشار دينه إلى أكناف العالم ١٢٠
إيمان مختلف الشعوب والبلاد به ﷺ في أول عهده
٨٥، ٣١١
الجنّ المؤمنون به ﷺ ٤٢٨
ربوبية ربانية له ﷺ بشكل غير عادي ٣٠٣
لم يُشرِك ﷺ حتى قبل النبوة ٦٤٩
هو أرفع الأنبياء مكانةً ٢٨٤
خصوصيته المتميزة ﷺ عن سائر الأنبياء ٣٤٩
تميَّز عن سائر الأنبياء في حب الله تعالى ١٩٩
تميَّز عن سائر الأنبياء حيث آمن به قومه أجمع ٣٠٣
أهمية الصلاة بالجماعة عند النبي ﷺ ٣٩١

أخلاقه السامية

حمده وشكره لله تعالى ٢٧
تواضعه ١١٤
عزمه ٣٣٢
زهده ٤٣١
اعتراف قريش بصدقه ٣٣٤
طمأنينته النادرة رغم الأخطار المحيطة به ٦٨٨
همُّه لهداية الناس ١٠٥، ٣٧٥
دعاؤه لهداية الكفار في معركة أُحد ٨٦
حبُّه لخَلق الله ٨١
ظهور حبه لخَلق الله حتى في لحظاته الأخيرة ٨١
حبُّه للأجانب ٣١٢
عفوه لدى فتح مكة ٤٥٤
تعامَل مع الأعداء كتعامل يوسف مع إخوته ١٧٥،٣٠٦
عفوه عن عكرمة بن أبي جهل ٥٩
حبُّه لزوجته خديجة رضي الله عنها ٣٤
إذا سُرَّ ﷺ بأحد دعا له بالتفقه في الدين ٢٥٨

رسالته

كان رسولا إلى الناس أجمعين ١٢٠، ٣٠٧
كان شخصه بمثابة طور لموسى حيث تجلّى اللهُ ٧٦٠
حث القرآن الكفارَ على الإيمان به بسرعة ٧٨٧
سبب بعثته ﷺ بصفته خاتم النبيين في الجزيرة العربية
٢٣٩
عصَمه الله من الأعداء ٦٨٧
إنما هو منذر ولم يؤذن له بالإكراه ٥٤٩
اتّباعه ﷺ وسيلة وحيدة للوصول إلى الله ٨٠٦،٣٨٦

دلائل صدقه ٣، ٧، ١٢٨، ٦٤١، ٧٠١
نبوءات سابقة عن بعثته ٣٥٣
هو مصداق لنبوءة سِفر التثنية ٥٩٣
نبوءة بعثته ﷺ على لسان موسى ٥٩٢-٥٩٤، ٧١٣
نبوءة موسى بفتحه ﷺ مكة برفقه عشرة آلاف قديس ٦٤٧
تلقى موسى على الطور بشارة بعثته ﷺ ٥٩٣
وُصِف ﷺ بحجر الزاوية في نبوءات الأنبياء ١٢٤،٦٧٩
نبوءة إشعياء ببعثته ﷺ ٣٢١
في قصة لوط نبوءة عنه ﷺ ٤٨٠
أحداث موسى تتضمن الإشارة إلى هجرته ﷺ ٥٩٢
نبوءة هجرتِه ﷺ إلى المدينة وعودتِه إلى مكة ٥٤٧

دعوته وتبليغه
دعا ﷺ بني عبد المطلب في أوائل بعثته ٣٢
قوله ﷺ "اللهم هل بلَّغتُ" ٥٩٥
أُمر بدعوة العشيرة إلى الإسلام ٣٣٤
دعوته بعض العَجم إلى الإسلام بالإشارات ٣١٢

جهاده في سبيل الله
لم تكن فتوحاته ﷺ مرتبطة بالحروب ٥٥٣
صفته المميزة كفاتح ٤٥٧
إصابته ﷺ بالجروح في أُحد ٨٦،٦٧٥
مسيره ﷺ لقمع فتنة القبائل المسيحية ٥٠٣
إحرازه ﷺ واثنين من خلفائه فتوحاتٍ عظيمةً ٥٠٤

تعاليمه
تعاليمه الداعية إلى المساواة العالمية ٣١١
لقد تأسس علمُ النفس بالقرآن وعلى يده ﷺ ٥٦
أوصى في مرض الموت باجتناب الشرك ٤٨٤، ٧٧٣
نصَح ﷺ قبيل الوفاة بالإحسان إلى العبيد والنساء ٣١٥
نصح ﷺ الصحابة بالإحسان إلى أهل مصر ٤٥٥
سبب نهيه عن كتابة الأحاديث في حياته ٧٦٣-٧٦٤
سبب منعه من قراءة التوراة ٧٦٣

فيوضه وبركاته
انقلاب حصل في العرب بواسطته ﷺ ٤٦٠-٤٦١
استمرارية فيوضه ﷺ ٢٤٠
أناس تستمر بهم فيوضه ﷺ ٢٣٦
لا نبوة تامة مستقلة بعده بل نبوة تابعة له ٧١٣
أتباعه الصادقون يحظون بالبصيرة الكاملة ٢٨٨
اغتناء شخص بدعائه ﷺ ٦٣٢

وحيه ورؤاه وكشوفه
كيفية نزول الوحي عليه ٣٢٠
كشف رآه ﷺ في بيت ميمونة رضي الله عنها ١٤٠
بعض كشوفه التي شاركه فيها الآخرون ١٤٠

معجزاته
القرآن الكريم أكبر معجزاته ﷺ ٥٤٠
رميُه الحصى يوم بدر ٤٨١
ارتعاب عُمر منه ﷺ ٤٣٣

نبوءاته
نبأ قرآني عن فتح مكة ٦٤١
نبأ قرآني عن غلبته ﷺ وأتباعه ٥٥٢

حبُّ أصحابه وأتباعهم له ﷺ
أحبه ﷺ الصحابة حبا لا مثيل له ٤٠٢-٤٠٣، ٦٦٧
رثاء حسان إياه ﷺ ١٢٥
حبُّ الشعوب الأخرى له ﷺ ٣١٢
مدحُ رئيس عربي له ﷺ ٤٤٤
على المؤمن أن يحبه ﷺ أكثر من جميع أقاربه ٢٨٣
حقيقة الصلاة الإبراهيمية ٢٢٥
أهمية حب آل محمد ﷺ ٦٣٠

معارضته
هياج الكفر إثر بعثته ﷺ ٤٨٨
أعداؤه ﷺ التسعة ٤٧٧
قصة إيذاء أبي جهل إياه ﷺ ٨١
محاصرة الكفار النبي ﷺ في شعب أبي طالب ٨٣
معاملة أهل الطائف معه ﷺ ٨٤
تآمر اليهود مع كسرى ضده ﷺ ٦٦٦
اتهمته ﷺ قريش بتفريق شمل القوم ٤٧٢
دحض تهمة بكونه ﷺ شاعرا ٣٥٩
لقد اتُّهم ﷺ بالجنون ١٣٣
لم ينـــزل عليه ﷺ وحي من الشيطان ٣٢٨
أمور متفرقة عنه ﷺ
الفرق الأساسي بينه وبين أعدائه ٢٥٦
لم يسمح الله له بالاستغفار لوالدته ٣٤٦
انقلاب روحاني حصل في أعدائه الشرسين ٥٨
محمد إبراهيم الجموني ٧٧٧
محمد إقبال الدكتور الشاعر ٤٩٨
قوله "هذا العصر ينتظر إبراهيم" ٤٩٨
محمد بخش
قصة المفسر ﷺ معه ٧٥١
محمد حسين البطالوي ٤٣٢
كان ينهى الناس عن الذهاب إلى قاديان ١٠٩
محمد ظفر الله خان تشودري ٢٤٦
محمد علي الباب (مؤسس الحركة البابية)
تصرفات أتباعه أثارت المعارضة ضده ٤٨٨
محيي الدين ابن عربي رحمه الله ٢٣٦
مدْيَان ابن إبراهيم من زوجته قطورة ٢٨٢

مديَن
أولاد مديان وقوم شعيب عليه السلام ٢٨٢
مُرْدَخاي (زعيم يهودي) ٥٥٥
مريم ١٢٢، ٥١٥، ٧٢٠، ٧٥٦
القرآن الكريم يصفها عفيفة ٥١٥
رأت ابنَه معلقا على الصليب ٣١٤
دحض القرآن التُّهم التي ألصق بها اليهود ٥١٥
تأويل "مريم" إذا رآها أحد في الرؤيا ١٠٠
مسيلمة الكذاب ١٦٤
مظهر جان جانان مرزا رحمه الله ٢٤
طريقته الرائعة لأكل الحلوى ٢٤
معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه
صلحُ معاوية مع علي رضي الله عنهما ١٦٤
معين الدين الجشتي ١٦٤، ٢٣٦
المغول الوضع التعيس للأمراء المغول ٣٣
مقاتل ٥٣٩
الملا دو بيازه أبو الحسن ابن أبي المحاسن ٣٦٣
مناظرته مع أحد العلماء ٣٦٣
مناة أحد آلهة العرب ٩٣، ٩٨، ١٣٢، ٤٨٢، ٥٣٧
موآب ابن لوط ٢٧٩
موسوليني دكتاتور إيطالي ٥٠٣
عاقبته ٥٠٣
موسى عليه السلام ٤٥، ١٠٥، ١١٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٦، ٣٥٣، ٤١١، ٤١٨، ٤٨٣، ٤٨٤، ٥١٩، ٥٤٢، ٥٣٥، ٥٤٩، ٥٦٦، ٥٧٨، ٥٨٠، ٦٠٠، ٦٥٧، ٦٥٩، ٦٩٤، ٧٢٢، ٧٢٤،

أحداث من حياته

هدف القرآن من سرد وقائع حياته قبل بعثته ٥٧٣
قصة ولادته ٥٤١
سبب تسميته بحسب الكتاب المقدس ٥٧٤
توكُّل أم موسى على ربها ١٢٨
إلقاؤها إياه في اليمّ ٥٧٣
التقطتْه من اليمِّ بنتُ فرعون لا زوجته ٥٧٤
قتل موسى ﷺ مصريًا خطأً
١١٧، ١٢٩، ٥٤٢، ٥٦٦
القرآن الكريم يبرئه من القتل عمدًا ٥٧٥
دعاؤه للخلاص من القوم الظالمين ٥٦٨
هجرته من مصر إلى مدين ٦٦٥، ٧٢٤
عملُه للفتاتين تطوعًا ٥٧١
دعاؤه تحت الشجرة ٤٥
ما كان شعيب عليه السلام صهرًا لموسى عليه السلام ٥٧٢

بعثته

بُعث بعد هلاك قوم شعيب ٥٧٢
المكان الذي تجلى الله فيه لموسى أول مرة ٥٩٠
رؤيته النار وهو متوجه من مدين إلى مصر ٤١١
تجلي الله له في النار ونزول الوحي ٣٧١، ٥٨٠
النار كان مشهدًا للتجلّي الإلهي ٤١١
وُهِبت له الرسالة جانب الغربي من الطور ٥٤٣
طلبه من الله أن يجعل هارون وزيره ١١٤
أمره الله بالذهاب إلى فرعون ١٠١
حواره مع فرعون ١٣١
أُعطيَ قوة حُجج فرعون ١١٦
مواجهته للسحرة واعترافهم بالهزيمة ١٦٩
خوفه من كفر القوم ١٠٥

مكانته

ظهر الله تعالى له بسيناء ٥٣٥
رُزق القدرة على اتخاذ القرار الصائب ٥٤٢
كان نبيا مختص القوم ١١٩

أخلاقه

نموذج رائع لتوكله على الله ١٧٨
تواضعه ١١٤
لم تكن في لسانه لُكنةٌ ١٠٧

آياته ومعجزاته

قدَّم التأييد الإلهي له برهانا على صدقه ٥٨٥
إراءته الآيات والخوارق ١٣٦
الآيات التسع التي ظهرت في تأييده ٣٧٢، ٤٢٠
أوتيَ معجزة العصا واليد البيضاء ٤١٦، ٥٨١
حقيقة معجزة عصاه ١٤٦، ٤١٦، ٥٨١
حقيقة اليد البيضاء ١٤٧، ٤١٧، ٥٨١
حقيقة انفلاق البحر ١٨١

نبوءاته عن بعثة الرسول ﷺ

أنبأ موسى عن بعثة مثيله ﷺ ٤٥٠، ٧١٣
نبوءته عن نزول القرآن الكريم ٤٥٠
نبوءته عن فتح مكة ٦٤٧

أمّته

أُمر باصطحاب بني إسرائيل وتربيتهم ٥٨٠
لم يؤمن به قومه كلهم ٥٥٣
الانقلاب الحاصل في بني إسرائيل بتربيته ٤١٨
تقدُّم أمته ماديًّا وروحانيًا ٤١٨
قمة ازدهار قومه ١٦٥
وُعِد قومه بمنح كنعان ٥١٩
مقارنة بين قومه وقوم المسيح ٤٦٣

الكتاب المقدس وموسى

معجزة اليد البيضاء كان مرضًا بحسب التوراة
٤١٨، ٥٨١

غضِب الله عليه بحسب التوراة ٥٨١

معارضته

أثار قارونُ وداثانُ وأبيرامُ فتنةً ضده ٦٢٥

احتقار فرعون إياه ١٢٢

تعيير فرعون إياه ١٢٢

اتهمه المعارضون بالسحر ٥٩٨

موسى الرضا الإمام رحمه الله

سجَنه الملك هارون الرشيد ٣٣

موير وليام السير

إعجابه بما لاقى النبي ﷺ في سفره إلى الطائف ٨٥

إعجابه بتضحيات صحابة النبي ﷺ ١٦٢

ميكنـــزي، البروفيسور ٤٩٨

قال إننا بحاجة إلى مسيحٍ من أجل رقينا ٤٩٨

ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها

شاركت النبيَّ في أحد الكشوف ١٤٠

مينوداك (Menodack) ١٩١

اسم إله قوم إبراهيم عليه السلام ١٩١

نابليون بونا بارت ١٩٨

كانت لديه فرقة خاصة للحراسة ٤٣٣

سبب انتصاراته ٥٠٣

ناصر أحمد مرزا رحمه الله ٦٩

نبوخذنصر البابلي

هدمه لبيت المقدس واعتداؤه على بني إسرائيل ٦٦٥

نصرة جهان بيغم رضي الله عنها ٢٣

النضر بن الحارث ٤٧٧

شهادته على كون النبي ﷺ صدوقًا ٣٥٥

نظام الدين أولياء خواجه رحمه الله ١٦٥

قصته مع غياث الدين تغلق ٤٧

قصته ومريديه مع شابٍّ وسيم ٨٠

تعرُّض للمعارضة ١٦٤

نظام الدين مرزا

ذكْره في رؤيا المسيح الموعود عليه السلام ٦٧١

نمرود

ملك معاصر لإبراهيم عليه السلام ٣٨، ١٩٠

حواره مع إبراهيم ١٩٠

النملة (قبيلة)

مرور سليمان بوادي قوم النمل ٣٧٢

نور الدين رضي الله عنه الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام

٢٣، ٤٢، ١١٠، ١٣١، ١٣٣، ١٨٧، ٢٤٤ ، ٢٤٩، ٢٩٩، ٤٦٧، ٥١٧، ٦٠٧، ٧٠٧،

انكشاف المعارف عليه بصدد وحدانية الله ٦٥١

تفسيره الرائع لقوله تعالى "ولا الضالين" ٢٩٩

تفسيره لقوله تعالى "قبل أن يرتد إليك طرْفُك" ٤٦٧

روايته لما جرى في مناظرة بين المسيح الموعود عليه السلام والقس آتهم ١١٠

أوّلَ نار إبراهيم بنار المعارضة ثم غيّر رأيه ٧٠٧

ردُّه على كتابِ المرتدّ "دهرمبال" ٧٠٧

أخرج من مكتبه تفسيرا كتبه مرتدّ عن الأحمدية ٥٧٧

فتاوى التكفير ضده ١٨٧

روى طريقة وليّ لتلاوة القرآن ٦٠٧

أحد أحداث حياته بعد البيعة ٤٢

حادث مجنونة معه ١٣١

مساعدته ونصحه لأحد من السادات ٢٧

حديثه مع سارق ١٨، ٤٠٧

قصة بيّنها عن امرأة قانعة ٢٣

قصة بيَّنها بصدد اتباع عادات الآباء ١٩٣
قصة أخته التابعة لمتصوف زائف ٢٤٩
قصته ذكرها عن نحوي هندي شهير ٢٤٤
قصته مع رجل بسيط حثَّه على الصلاة ١٠٧

نوح عليه السلام ٥، ٩٤، ٢١٩، ٢٦٣، ٢٧٨، ٣٥٣، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٧٢، ٦٢٤، ٦٥٧، ٦٩٤، ٧٢٦،
تجلى الله عليه بالجودي ٥٣٥
هو أول نبي مشرَّع ٦٥٧
كان إبراهيم تابعا لشريعته ٢٦٩، ٦٥٧، ٦٩٤
حقيقة عمره الممتد إلى ألف عام إلا خمسين ٦٩٣
نصَح قومه بالتدبر والتفكير ٢٦٣
معارضته ٩٤
اضطر للهجرة نتيجة إيذاء قومه ٦٦٥
نجاته وهلاك معارضيه ٥، ٢٦٤، ٧٢٦

نور الدين كادها (اللاهوري) ٤٣٨

نوشيروان العادل ٢٠٧

نولديكه المستشرق الألماني ٦٤٢، ٦٥٥
اعترافه أن القرآن محفوظ من التحريف ٣٨٢

نَيُبْن نيف رئيس الكهنة في مصر زمن رعمسيس الثاني ٥٥٧

ورقة بن نوفل
أخبر النبيَّ ﷺ أن قومه سيخرجونه من وطنه ٦٤٨
كان يترجم التوراة من العبرية إلى العربية ٧٦٤

ولنغتون اللورد
قائد القوات الإنجليزية في حرب ووترلُو ٤٣٣

وليام موير (انظر موير وليام)

وليد ابن المغيرة
أحد أعداء النبي ﷺ ٤٧٧

ولهيلم قيصر ألماني
كانت لديه فرقة خاصة للحراسة ٤٣٣

ويري، ريفرند القس ١، ٤٥٦، ٦٤٢، ٦٥٥
طعنه في القرآن والرسول ﷺ ٤٦٨
حاول تشويه سمعة الإسلام بتفسيره للقرآن ٣٥٨
موقفه الخاطئ عن هامان ٥٥٤، ٥٦٠

هاتور
أحد آلهة المصريين ٥٥٨

هاجَرُ
لم تكن أمَةً بل من عائلة الملك المصري ٣٥٢
تركُ إبراهيم إياها في وادٍ غير ذي زرع ٦٩٥
نصَح النبي ﷺ المسلمين بالإحسان إلى أهل مصر بسببها ٤٥٥

هاران
أخ لإبراهيم عليه السلام ٢٨١

هاروت وماروت
حقيقتهما ٦٦٧

هارون عليه السلام ٥١٢، ٥٤٤، ٥٨٢، ٦٢٦
طلب موسى لجعل هارون وزيرا له ٥٤٣، ٥٧٩
جُعل نبيا استجابة لدعاء موسى ٥٨٢
كان نائبًا لموسى ٣٣، ١١٤
اتُّهِم بكونه ساحرا ٥٤٤، ٥٩٨
الكتاب المقدس يتهمه بالشرك والقرآن يبرِّئه ٥١١

هارون الرشيد الملك العباسي
زجرُ النبي ﷺ إياه في الرؤيا ٣٣

هالة بنت خُويلد
أخت خديجة رضي الله عنهما ٣٥
هامان ٦٥٩
اعتراض المستشرقين بأنه لم يكن معاصرا لموسى ٥٥٤
بحث تاريخي عن شخصيته ٥٥٦
أمره فرعون بتشييد الصرح ٥٨٥
كان حائزا على السلطة في الجيش المصري ٥٥٨
هامان
وزير الملك الفارسي أَحَشْوِيرُوش ٥٥٥
هبل أحد آلهة العرب ٤٨٢، ٧٢٤، ٧٢٦
هتلر ١٩٨
مصيره ٥٠٣
الهتلرية ١٧٦
الهدهد
هو اسم قائد في جيش سليمان عليه السلام ٣٧٢
بحث في هذا الاسم ٤٤٠
هِرقل
استفساره أبا سفيان عن النبي ﷺ ٣٥٢
هولاكو خان ٢٠٧
هند رضي الله عنها
بايعت يوم فتح مكة ٦٤٥
هود عليه السلام ٦، ٢٦٥، ٣٥٣، ٥٧٢، ٧٢٦
كذَّبه عاد ٢٦٥
يثرون هو صهر موسى عليه السلام بحسب التوراة ٥٧٢
يحيى عليه السلام ٢١٩، ٦٥٥
إشعياء عليه السلام
نبوءته عن بعثة النبي ﷺ ٣٢١، ٦٤٦
يعقوب عليه السلام ٢١٩، ٦٥٨
شمّ ريح يوسف ٥٦٩
تَلقِّي إبراهيم البشارة بولادته ٧١٧
نصح يعقوب أولاده بعبادة الله ٢٣٤
يعقوب ابن مريم
أخ للمسيح عليه السلام ١٢٢
يهوذا بن مريم
أحد إخوة المسيح عليه السلام ١٢٢
يهوذا الأسخريوطي الحواريي
وشى بالمسيح عليه السلام مقابل ثلاثين درهما ٧٢٩
يوسف عليه السلام ٥٦٩
عفو النبي ﷺ عن أهل مكة كعفو يوسف إخوته ٤٧٩
يوسف بن مريم
أحد إخوة المسيح عليه السلام ١٢٢
يوسف النجار زوج مريم ٥١٥
يونس عليه السلام ٦٩٣

(٣)

فهرس الأعلام

أماكن

آسيا ٣٧، ١٢١، ٣١٠، ٧٨٣
خيانة الآسيويين في التجارة ٢٩٢
أرمينيا ٦٩٣
أبرقة ٤٣٧
الأردن (النهر) ٥٢
إسبانيا ٤٧٤
إسرائيل
مستقبل إسرائيل بحسب القرآن ٦٥٨-٦٥٩
إسلام آباد (كشمير) ٢٩٣
أفريقيا ١٢١، ٢١٩، ٢٣٣، ٣١٠، ٤٧٤
تنبأ الصالحون في أفريقيا الغربية بأنها ستتطور عند مجيء مبشر أبيض ٢١٩
أفغانستان ١٢١، ٢٣٨، ٣١٠، ٥٠٢، ٧٢٨
ألمانيا ١٥٥، ٢٣٣، ٥٠٣، ٧٥٩
ألمانيا في عهد نابليون ٥٠٣
هجومها على بريطانيا في ١٩١٨م ٧٩١
أمانة الألمان في التجارة ٢٩٤
أمرتسر (الهند) ١٠٠، ٥١٨
مناظرة تمّت هنالك بين المسيح الموعود عليه السلام والقس عبد الله آتهم ١٠٠
أمريكا ١٢٠، ١٢١، ١٥٥، ٢٣٣، ٤٥٤، ٥٠٣، ٦٩٦، ٧٠٠، ٧٧٣، ٧٨٥
اكتشاف كولومبوس لأمريكا ٢٦٢
عفو إبراهيم لنكولن عن ولايات الجنوب ٤٥٤
هي قوة عظيمة ١٦٥
أهلها أمناء في التجارة ٢٩٤
الحظر على شرب الخمر فيها ثم إلغاؤه ٧٥٤
حمايتها لليهود ٦٨٦
دعمت إسرائيل على الاستيطان ٥٠
ارتكبت خطأ فادحا بدعم اليهود في فلسطين ٦٨٦
نحن في انتظار من يعتنق منهم الإسلام ٦٨٧
ستنهزم أمام الإسلام رغم تقدمها الهائل ٧٨٥
أمريكا الجنوبية ٤٥٤
الأناظول ٥٠٢
إنجلترا ١٥٥، ٢١٨، ٢٣٣، ٣١٠، ٥٠٣
انتصارها على نابليون ٥٠٣
حديث أحد رجال السفينة مع المفسر عند عودته من إنجلترا ٧٥
إندونيسيا ١٢١
تسعون بالمائة من سكانها مسلمون ١٢١
أُور (العراق)
وطن إبراهيم ولوط عليهما السلام ١٨٥، ٢٨١، ٧١٧
أورشليم (انظر في بيت المقدس)
أوروبا ٣٧، ١٢١، ٢٦٨، ٢٩٣، ٣١٠، ٥٠٢، ٥٠٣، ٧٨٥
سرُّ تقدُّمها ٢٦١
تقدمها الصناعي ٧٨٥
طريقتهم لشراء الغلال وبيعها ٦٢٣
في تاريخ أوروبا مثال واحد للعفو عن الشعب المهزوم ٤٥٤
زعمها أن حضارتها خالدة ٢٦٧
كثرة شرب الخمر عند أهلها ٢٤٧
أكبر عائق في اعتناقهم الإسلام ٦٨٧، ٧٨٥
شعور الأوروبيين بالدونية ٢٤٤

ستنهزم أمام الإسلام رغم تقدمها الهائل ٧٨٥
ميول الأحرار في أوروبا إلى الدين ٢٤٨
رحلة المفسر ﷺ إلى أوروبا ٥٣١، ٧٥٩
رجوع أوروبا إلى الله في الوقت الحرج ٧٩٢
ذكر القاضي المسلم ابن أبي ليلى في قصص أوروبية ٢٦٠
سفر المفسر ﷺ إلى أوروبا للعلاج ٥٣١، ٧٥٩
إلقاؤه محاضرة عن الإسلام في لندن ٥٣١، ٧٥٩
جعل أوروبا مسلمة على شاكلة مسلمي آسيا صعب ٧٨٣
نحن في انتظار من يعتنق منهم الإسلام ٦٨٧

إيران ١، ٥١، ٥٥، ١٢١، ٢٣٨، ٤٦٥، ٥٠٢، ٦٠٠، ٦٦٦، ٧٠١، ٧٥٨
محاولة كسرى تقديم الرشوة للمسلمين عند هجومهم ٤٦٥

إيطاليا ٢٣٣، ٤٧٤، ٥٠٣
فظائعها على الحبشة بعد احتلالها ٤٥٣

بابل ٢٦٨
قوم عاد هم مؤسسو حضارة بابل ٢٦٨
التقدم المذهل للشعب البابلي ٢٦٨
فتحُ قورش الفارسي لبابل وتحريره بني إسرائيل ٦٦٦

باهِرة
اشتملت كتيبة خصوصية للإمبراطور المغولي أكبر على أشراف باهرة ٤٣٣

بتالا (الهند) ٥١٨
محاولة الشيخ البطالوي منع الناس من الذهاب إلى قاديان ١٠٩

البحر الأحمر ٥٦٨
غرق فيه فرعون ١٣٦، ٤٢٠

البحرين
أوامر النبي ﷺ لملك البحرين ٣٩٨

بدر ١٧٩
نهاية مجد قريش في بدر ٤٧٧

البرازيل ١٢٠-١٢١

بُصرى (الشام) ٢٧٤، ٤٧٩

بغداد ٢٩٢، ٤٩٧

بلجيكا ١٧

بلوجستان ٢٠٠
قلة مياه الشرب فيها ٢٠٠

البنجاب ١٣٣، ٢٩٣، ٢٩٨، ٥٢٣، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٣٦
نبوءة المسيح الموعود عليه السلام بتفشّي الطاعون فيها ٥٢٣

البنغال ٤٧
هجوم غياث الدين تغلق عليها ٤٧

بهيرة ١٣٣، ١٧٨

بور سعيد ٣٣٧
رؤيا رآها المفسر ﷺ في بور سعيد ٣٣٧

بورما ١٢١

بوليفيا ١٢٠-١٢١

بيت المقدس ١٧١
تدمير نبوخذنصر لها ١٧١

بيروت ٤٩٧

تاتانغر (الهند) ٤٩٥
تبوك ٢٧٤
تركيا ٥٠٢
تشيلي ١٢٠
تهامة ٤٧١
ثور (جبل) ١٧٨
ثور (غار) ١٧٨
مساحته ووضعه ٦٤٤
جبرين (الشام) ٤٣٧
جبل الزيتون ٥٣٥
تجلى الله على المسيح على جبل الزيتون ٥٣٥
جتور (الهند) ٤٣٣
الجحفة
عند البعض نزلت بها آية "إن الذي فرض عليك القرآن" ٥٣٩
جهلم (نهر) ٢٩٨
منبعه ليس كبيرًا ٢٩٨
الجودي
تجلى الله به على نوح ﷺ ٥٣٥
الحبشة ٥٩، ١٢١، ١٢٨، ٣٤٣، ٤٥٣، ٥٠٢، ٧٧٩
أمر النبي ﷺ صحابته بالهجرة إليها ٧٧٩
أراد عثمان ابن مظعون ؓ الهجرة إليها ٤٧٣
حكومتها المسيحية قدَّمت اللجوءَ للصحابة ١٢٨
محاولة عكرمة للهروب إليها عند الفتح ٥٩
الحجاز ٤٧١
الحِجر عاصمة قوم ثمود ٢٧٤، ٤٧١
نهى النبي ﷺ الصحابةَ عن استعمال مائها ٥٨٧
حوريب (جبل) ٥٨٠
تجلى الله به على موسى أول مرة بحسب التوراة ٥٩٠
حيدر آباد دكّن (الهند) ٣٣٩
دلهوزي (الهند) ٢٣٢
دلهي ٤٧، ٣٣٩
قصة قول شهير للصوفي نظام الدين أولياء "ما زالت دلهي بعيدة" ٤٧
ذكر مرزا مظهر جان جانان من دلهي ٢٤
الوضع المزري لأولاد الأباطرة المغول في دلهي ٣٤
دمشق ٤٣٧، ٤٩٧
رفع بلال ؓ الأذان هناك أول مرة بعد وفاة الرسول ﷺ ٣١٣
جزيرة العرب ١١٥، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٦٨، ٣١٠، ٤٧٤، ٥٠٢، ٧٢٢، ٧٥٨
الوضع الجغرافي ٥٦٨
وحي النبي إشعياء بشأن أهلها ٦٤٦
ثورة روحانية عند أهلها بسبب القرآن ٤٧٤
الخلق السامي للعدو العربي الشريف ٧٥٨
المفسر ؓ يحث الأحمديين على إسكان المناطق العربية غير المأهولة ٢٣٣
ديوبند
حديث طالبَينِ من ديوبند مع المفسر ؓ ٧٣٦
ربوة (باكستان) ٧٧٧

رنغون (بورما)
نشر أحد البهائيين الكتابَ من رنغون ٧٧٤
روسيا ٣٧، ٤٧٤، ٥٠٢، ٥٠٣، ٦٩٣، ٧٠٠
قصة الملك الروسي بيتر مع تولستوي ٦٧٤
هزيمة نابليون أمام روسيا ٥٠٣
زعم أهلها أن حضارتهم خالدة ٢٦٧
روما ٣٤٣، ٥٠٣، ٦٦٥
لجوء أوائل المسيحيين هنا ٦٦٥
زمزم
بحث عبد المطلب عن بئر زمزم ٣٤٧
سالم
بلد المِلك صدق سالم ٧١٨
سبأ
ملكة سبأ وسليمان الطَّيْكِلا ٣٧٣
بعث سليمان رسالة إلى ملكة سبإ ٣٧٣
سدوم ٢٨١، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧٢٠
موطن لوط ٢٨١، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧٢٠
سرغودها (باكستان) ٢٣١
السند ٢٠١، ٥٠٢
رحلة المفسر ﷺ إلى السند ٦٣٢
قلة مياه الشرب هناك ٢٠١
سيالكوت
حماية إلهية لمسكن المسيح الموعود الطَّيْكِلا فيها من سقوط الصاعقة ٧٠٨
خروج حضرته الطَّيْكِلا من بيت قبل انهياره بناء على وحي الله ٧٠٩
معارضة سكانها رحلة حضرته الطَّيْكِلا ٦٧٠
إلقاؤه الطَّيْكِلا محاضرة هناك ٥١٧
سيناء ٤٣٧، ٥٩٨، ٦٢٨
ظهر الرب من سيناء ٦٤٧
تجلى الله على موسى الطَّيْكِلا بسيناء ٥٣٥
تلقى موسى أول وحي بغرب سيناء ٥٩٠
الشام ٥، ٣٧، ٥٥، ١١٥، ١٢١، ٢٥٣، ٢٦١
٢٩٦ ، ٣٤٣، ٣٩٩، ٤١٨، ٤٣٨، ٥٠٢
٥٠٣، ٦٠٠، ٦٦٥، ٧٢٢
هجرة إبراهيم مع لوط إلى الشام ٧١٧
سؤال هرقل أبا سفيان في الشام ١٦٠
شِعب أبي طالب
محاصرة أهل مكة النبي ﷺ وأهله فيه ٣٤، ٨٣، ٣٣٤
بقيت خديجة رضي الله عنها مع النبي ﷺ فيه ثلاث سنوات ٣٤
شعير
قال موسى أشرق لهم الرب من شعير ٦٤٧
شِمله (الهند) ٤٠٠
شِنْعَار (بابل) ٥٨٦
الصفا ٣٣٤
دعوة النبي ﷺ عشيرتَه إلى الصفا في أول البعثة ٣٣٤
صِقلية ٤٧٤
فرّ إليها أوائل المسيحيين من مصر ٦٦٥
الصين ٣٧، ٥٥، ١٢١، ٣١٠، ٤٧٤، ٦٠٠، ٧٠٠
الطائف
خروجه ﷺ إلى الطائف راجيا في إيمانهم ٨٤
اعتداء أهلها على النبي ﷺ ٨٤

إشادة وليام ميور بعظمة النبي ﷺ بسبب سفره إلى الطائف ٨٥
جبريل يسأل النبي ﷺ لعقاب أهلها ٨٦

الطهران ٤٩٧

طور سيناء ٥١١
رأى به موسى نارا ٥٤٣
تلقى موسى الرسالةَ جانب الغربي من الطور ٥٤٤
هنالك تنبأ موسى ببعثة النبي ﷺ ٥٩٣، ٥٩٦

عدن ٢٦٨، ٤٧١
وجود بنايات قوم عاد في ضواحيها ٢٦٨
زيارة المفسر ﷺ لآثار عادٍ الأولى هناك ٢٦٨

العراق ١١٥، ١٤١، ٣١١، ٤٠٣، ٥٠٢، ٦٦٥
موطن إبراهيم ﷺ ٧١٧
قول عمر ﷺ يا سارية الجبل عند رؤيته الجيش المسلم في العراق كشفًا ١٤٠

عسقلان ٤٣٧

العقبة (الخليج) ٢٨٢، ٥٦٨

عكاظ ٤٧٣

عليغره ٧٤٦

عمورة ٧١٧
مدينة مجاورة لمدينة سدوم ٧١٧

طيبة (عاصمة مصر قديمًا) ٥٥٦

غزة ٤٣٧

غواليار
إلقاء الملك جهانغير أحمدَ السرهنديَّ في سجن غواليار ١٦٥

فاران
نبوءة موسى عن نبي يظهر من فاران ٦٤٧

فارس ٣٤٣، ٦٦٦

فرنسا ١٥٥، ٧٥٩، ٧٩٢

فلسطين ٣٧، ١٢١، ١٦٥، ٨١، ٤٣٧، ٤٤٥، ٦٦٥
هجرة إبراهيم ولوط إليها ٢٨١، ٧١٧
خرابها على يد نبوخذنصر ٦٦٥
مساكن عربية على الطريق من فلسطين إلى اليمن ٤٤٥
الزبور يتضمن وعدا بإعادة فلسطين إلى الصالحين ٦٨٥
يصرِّح القرآن أن خروج فلسطين من يد المسلمين مؤقت ٦٨٦
عدد سكانها حاليا ٥٠

فيروز بور ١٤٦

الفيلبين ١٢٠، ٧٠٠

قاديان ٩٠، ١٠٧، ١١٠، ١٤٤، ١٧٣، ٣٤٤، ٤٨٧، ٥١٨
مجيء القس زويمر إليها ومقابلته مع المفسر ﷺ ١١٠

القاهرة ٤٩٧
جثة فرعون في متحف القاهرة ٥٨٨

قبرص
لجوء أوائل المسيحيين هنا ٦٦٥

كابول ٣٩٤
شهداء أحمديون في كابول ٦٦٩

كبور تهله ٣٦، ١٢٦، ٢٣٦

تعيين المسيح الموعود عليه السلام في مديرية التعليم فيها ١٢٦
ظهور آية على صدقه عليه السلام هناك ٣٦

كربلاء
"أجول في ميدان كربلاء كل حين" (المسيح الموعود) ٦٧٣

كرنك (مصر) ٥٥٨

كشمير ٢٩٣، ٣٩٤، ٥١٦، ٧٢٨
هجرة المسيح عليه السلام إليها ٥١٦، ٦٦٥
خسارة أهلها في تجارة المصوغات الفضية ٢٩٣

الكعبة ٦٨، ٥٠٢، ٧٩٣
وجود الكعبة دليل على وحدانية الله ٧٩٣
دعاء إبراهيم عند رفع قواعد البيت ٧٩٣
حفظ الكعبة من غارة أبرهة ٥٠٢، ٦٠٩
انقلاب عظيم بواسطة بيت الله ٧٩٥-٧٩٦
هي النقطة المركزية لاتحاد العالم ٧٩٥
بيت الله ضمان للأمن العالمي ٧٩٥

كلكوتا ١٧٣

كندا ١٢١

كنعان ٤١٨، ٦٢٧
هجرة إبراهيم ولوط إلى هناك ٧١٧
وُعِد بنو إسرائيل بإعطاء كنعان ١٥٩
فتح بني إسرائيل لها ٤١٨

كهجيار
رفع الأذان في جزيرة فيها أول مرة ٢٣٢

كوبا ١٢٠

الكوفة
غيَّر عمر رضي الله عنه ولاتها مرارا ٢٦٠
تعيين ابن أبي ليلى واليًا عليها ٢٦١

كولمبيا ١٢٠

غجرات ٤٢

غوبي "الصحراء" ٢٣٣

غورداسبور ١٠٧

غوليكي ٤٢

لاهور ١٤٦، ١٤٤، ٥١٨
تأبين رنجيت سنغ ٢٠٧
قصة طالب ملحد من كلية الطب بلاهور ٧٩١

لبنان ٤٢٥

لدهيانة ١٤٥

لكناؤ
ذهاب المفسر رضي الله عنه إليها ٣٠
موت مثير للعبرة لأحد أعداء الأحمدية فيها ٣٢

لندن ٤٩٧
سفر المفسر رضي الله عنه إليها للعلاج ٥٣١

مدْيَن ٥٨ ، ٥٧٧، ٥٧٦، ٥٦٩، ٧٢٢، ٢٨٢
وضعها الجغرافي ٥٦٨
مدينة قومِ شعيب ٢٨٢
بعثة شعيب إلى مدين ٢٨٢، ٦٥٩، ٧٢٢
مجيء موسى من مصر إليها ٥٦٨، ٥٤٢
رأى موسى نارا في طريقه من مدين إلى مصر ٦١١

إقامة موسى مع قومه في مدين بعد الخروج من مصر ٥٩١

المدينة المنورة ١، ٣٣، ٨٥، ٨٧، ١٠٣، ١٢٤، ١٤٠، ١٤١، ٢٧٤، ٣١٢، ٣٩١، ٤٥٩، ٤٨٠، ٥٩٢، ٥٣٩، ٧٥٨
أولاد تيماء بن إسماعيل سكنوا المدينة ٦٤٧
هجرة النبي ﷺ إليها ٨٥
أمَّر النبي ﷺ عليًّا عليها أثناء غيابه ٣٣
مؤامرات اليهود في المنفى ضد أهل المدينة ٧٥٨
نياحة في المدينة عند وفاة النبي ﷺ ٢٠٩
خطاب أبي بكر ﷺ إثر وفاة النبي ﷺ ١١٦

المسجد الأقصى ١٧١

المسجد الأقصى (بقاديان) ٤٨٧

مصر ٣٧، ١٢٠، ٢٣٨، ٢٩٦، ٣١٠، ٥٠٢، ٥٦٨، ٥٨٠، ٥٩١، ٦٠٠، ٦٦٥، ٦٩٣، ٧٢٢
كانت بلادًا متحضرة في عصر الفراعنة ٣١٠
ذكر هامان في تاريخ مصر ٥٥٧
هجرة بني إسرائيل من مصر ١٠٢
عدد بني إسرائيل عند خروجهم منها ٥٠
جثة فرعون في متحف القاهرة ٦٢
لجأ أوائل المسيحيين من روما إلى مصر ٦٦٥
نصح الرسول ﷺ بالإحسان إلى أهلها ٤٥٥
سفر المفسر ﷺ لتعلم العربية في مصر ٣٣٧

مكة المكرمة ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٩٣، ٤٥٤، ٤٥٩، ٤٧٤، ٤٨٨، ٤٩٧، ٥٠٢، ٥٩٢، ٦٢٧، ٦٤٧
وُضع أساس مكة في زمن إبراهيم ٤٧٤
إسكان مكة على يد إسماعيل ٥١٤
ظهور الله من مكة على يد إبراهيم ٥٣٥
وجود مدينة عامرة في وادٍ غير ذي زرع معجزة ٦٠٩
دعاء إبراهيم عليه السلام لأهل مكة ١٠١
دعاؤه لمكة أن تكون آمنةً ٧٩٣
منة الله على أهلها ٦٦٢
مكة آمنة لكونها داخل حدود الحرم ٦٦٢، ٧٩٣
جعلها الله حرما منذ زمن إبراهيم ٥٤٥، ٦٠٩
مظالم أهلها على النبي ﷺ ٨٣
مؤامرة أهلها في دار الندوة ٤٧٧
تعجُّب أهلها من فكرة إلهٍ واحدٍ ٩٣
بكاء الصحابة حنينًا إليها ٧٧٨
نبوءة موسى عن فتح مكة بيد النبي ﷺ ٦٤٧
أنباء عن هجرة النبي ﷺ منها وعودته إليها ٦٤٠-٦٤١
تمّ فتح مكة بغتةً ٣٢٦، ٧٧٥
عامل النبي ﷺ أهلها كمعاملة يوسف مع إخوته ١٧٥، ٣٠٦
سُمح للكافرين بالعيش فيها ٥٩
قصة قوم لوط تتضمن زجرا لكفار مكة ٢٨١
حلول عذاب مماثل لعذاب قوم لوط بأهلها ٤٨٠
حلول عذابين على أهلها ٤٧٨
خجل أهلها عند فتح مكة ٤٧٩
تفضيل عمر ﷺ المسلمين العبيدَ على أولاد رؤسائها ٢٥٢

المكسيك ١٢٠

موآب
تخيم بنو إسرائيل فيها بعد الخروج من مصر ٥٩١

مومباي (الهند) ٥٢٣، ٥٢٥
خيانة أهلها في التجارة ٢٩٢

مونت غومري ٢٣١

ميديا ٦٦٦

الناصرة ١١٣

النرويج ٢١٨، ٢١٩

نيبال ٢١٩

نينوى ٨٤، ٨٥

أطاح مِلك الفرس قورش بحكومة نينوى ٦٦٦

هزاره (مدينة باكستانية) ٣٩٤

الهند ٣٤، ٥٥، ٩٢، ١١٠، ١٣٤، ١٦٨، ٢١١، ٢١٩ ، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٦٢، ٣١٠، ٥٠٢ ، ٦٠٠، ٦٣٦

رؤية بعض ملوك الهند معجزةَ انشقاق القمر ١٣٦

حرمان "شودر" من المرافق الاجتماعية ٣٩٦

تفشّي الطاعون في الهند ٤٧٥، ٥٢٢، ٥٢٥-٥٢٦

احتلال الإنجليز لها ومظالمهم ٤٥٣

تعيينهم المسؤولين الهنود ليهينوا أهلها ٦٣٦

أهمية ظهور المجددين في الهند ٢٣٨

من عاداتهم الراسخة أكلهم "بان" ٩٢

وادي النمل

وضعه الجغرافي ٤٣٧

مرور سليمان عليه السلام به ٤٣٥

واشنطون ٤٩٧

ووترلُو

هزيمة نابليون فيها ٤٣٣

اليابان ٣٧، ١٢٠، ٣١٠

اليرموك ٦٠

اليمن ٢٦٨، ٤٤٥، ٥٠٢، ٦٤٦

قرى عربية على الطريق من فلسطين إلى اليمن ٤٤٥

رحلة سليمان عليه السلام إلى اليمن ٤٣٨

خروج حاكم اليمن لهدم الكعبة ٥٠٢

أمرُ كسرى حاكمَ اليمن باعتقال النبي ﷺ ٤٦

اليونان

إيمان اثنين من أهلها بالنبي ﷺ ٨٥، ٥٠٢، ٦٠٠

(٤)

المراجع والمصادر

مراجع عربية

القرآن الكريم

كتب التفسير

* الإمام فخر الدين الرازي، التفسير الكبير دار الكتب العلمية طهران

* أثير الدين محمد بن يوسف المعروف بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان

* العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، دار الحديث القاهرة

* العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

* عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان ١٩٨٥م

* الإمام جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان

* أبو الفضل بن حيسن بن الفضل الطبرسي الطوسي، مجمع البيان في تفسير القرآن

* محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنـــــزيل، دار الكتاب العربي بيروت لبنان

* علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، تفسير الخازن، المسمى لباب التأويـــل في معاني التنـــزيل، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ١٩٩٥م.

* أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، التفسير البغوي، المـــسمَّى معـــالم التنـــزيل، إدارة تأليف أشرفية ملتان

* أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي، تفسير فتح البيان، المكتبة العصرية، صيدا بيروت

الحديث

* الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري

* الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم

* الإمام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي

* الإمام أبو داود سيلمان بن الأشعث، سنن أبي داود

* الإمام الحافظ محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه

* الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل

* العلامة علاء الدين علي المتقي، كنـــز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

* الإمام جلال الدين أبو بكر السيوطي، الجامع الصغير في أحاديث البـــشير والنذير، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

* محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، سنن الدارمي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان
* الإمام أبو زكريا يحي الدمشقي النووي، رياض الصالحين، الناشر: عثمان ظفر، غوجرانوالا، ونعماني كتب خانه لاهور
* العلامة نور الدين علي بن محمد، المعروف بـ ملا علي القاري، الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة، المعروف بـ "الموضوعات الكبرى"، المكتبة الأثرية
* الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان
* الشيخ ولي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، مشكاة المصابيح
* علامة بدر الدين أبو محمد بن أحمد العيني، عمدة القاري

السيرة والتاريخ و غيرهما

* العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، السيرة الحلبية، دار الكتب العلمية بيروت
* ابن هشام، السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٥٥ هـ
* الإمام جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، أصح المطابع، كارخانه تجارت كتب آرام باغ كراتشي.

* الإمام شهاب الدين الحموي الرومي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي بيروت لبنان

* شهاب الدين أحمد بن علي المعروف ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

* أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان

* محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، ودار بيروت للطباعة، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان

* العلامة أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير، أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

* العلامة محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٥م

* الشيخ محمد خضري بك، تاريخ الأمم الإسلامية، الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى محمد شارع محمد علي بمصر

* أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

* الإمام أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، المطبعة المصرية بالأزهر عام ١٣٥٠ هـ، ومطبعة الموسوعات بمصر عام ١٣١٩ هـ

* أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف بيروت، ومكتبة النصر بالرياض

* الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، طبعة العيد المئوي ١٨٨٣ – ١٩٨٣

* الشيخ ميرزا عبد الحسين آواره، الكواكب الدرية في تاريخ ظهور البابية والبهائية، ترجمة عربية عن الفارسية: أحمد فائق رشد، نشره حفيد العلامة الشيخ سليم العطار الدمشقي عزت العطار.

* الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت

* رد المحتار على الدر المختار، في شرح تنوير الأبصار مكتبة كاجدية كراتشي، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ

* أطلس القرآن، أماكن، أقوام، أعلام، الدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر بيروت ٢٠٠٣

* محمد نذير عرشي، مفتاح العلوم شرح مثنوي مولانا روم، شيخ غلام علي وأولاده تاجران وناشران كتب لاهور

* أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامة، المغني لابن قدامة، دار المنار، ورثة السيد محمد رشيد رضا

* الشيخ عبد الرزاق القاشاني، اصطلاحات الصوفية، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

* أحمد حسين الزيات، تاريخ الأدب العربي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة شارع كامل صدقي

* محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقاقة بـيروت ١٩٦٣م

* حسان بن ثابت الأنصاري، ديوان حسان دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٦م

* السيد محمود شكري الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

* الشيخ عبد الغني النابلسي، تعطير الأنام في تعبير المنام، المطبعة العثمانية المصرية ومكتبة الجمهورية المصرية

* قاضي أبو الفضل عياض بن موسى، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، عبد التواب أكادمي، بيرون بوهر كيت ملتان، باكستان

* أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

* عبد الفتاح صبري بك، القراءة الرشيدة، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

* أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

* أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت

* محمد الخضري، المحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية بشارع محمد علي بمصر

* جرجي زيدان، كتاب العرب قبل الإسلام، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ١٩٠٨م

* محمد بن عمر بن واقد، كتاب المغازي للواقدي، مطبعة جامعة أكسفورد
* العلامة القاضي، أبو البقاء، كليات أبي البقاء، دار الإشاعة العربية كوئتة باكستان.
* العلامة سعيد الدين التفتازاني، مختصر المعاني، مطبعة مجتبائي دلهي بالهند ١٣٥٩ هـ
* العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي، تاريخ ابن خلدون، دار الإحياء التراث العربي بيروت لبنان

اللغة والأدب

* الإمام راغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن
* العلامة ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب
* محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس
* سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، أقرب الموارد
* المنجد في اللغة والأعلام
* مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان
* الدكتور إميل بديع يعقوب، موسوعة أمثال العرب، دار الجيل بيروت

كتب عربية للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

* نور الحق الحصة الثانية
* حمامة البشرى
* لجة النور
* منن الرحمن

مراجع إنجليزية

- BARKER, L.M., 1967-1968. *Pears encyclopaedia*, 76th ed. London: World Books.

- BLISHEN, E., *Junior Pears encyclopaedia*. Sixth ed. London: Reprint Society.

- BRILL, E.J., 1987. *First encyclopaedia of Islam*, vol. 8. Leiden: E.J. Brill.

- *Chambers twentieth century dictionary*, new ed. W & R Chambers.

- CONZE, E., *Buddhism, its essence and development*. Oxford: Bruno Cassirer.

- DARD, A.R., *Life of Ahmad, founder of the Ahmadiyya movement*. Lahore: Tabshir.

- DAVENPORT, J., *Mohammad and teachings of Quran*. Lahore.

- *Encyclopaedia biblica*, vol. 3. London: Adam and Charles Black.

- ESSLEMONT, J.E., *Bahậ'u'llậh and the new era*. New Delhi: The publishing committee of the national assembly of the Baha'is of India and Burma.

- FARB, P., 1968. *Man's rise to civilization as shown by the Indians of North America from primeval times to the coming of the industrial state*. E. P Dutton & Co., Inc.

- GASCOIGNE, B., *The encyclopedia of Britain*. Macmillan Publishing Company.

- ❖ MILLER, M.S., AND MILLER, J.L., 1954. *Black's bible dictionary*. London: Adam and Charles Black.

- ❖ MORET, A., 1927. *The Nile and Egyptian civilization*. London: Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., Ltd.

- ❖ MUIR, W., 1877. *The life of Mahomet*. New ed. London: Smith, Elder, & Co.

- ❖ *Nelson's encyclopaedia*, vol. 3. London: Thomas Nelson & Sons.

- ❖ PHILLIPS, S., *3000 proverbs*. New Delhi: Goodwill Publishing House.

- ❖ POLANO, H., *The Talmud. Selections from the contents of that ancient book, its commentaries, teachings, poetry, and legends*. London: Frederick Warne & Co.

- ❖ SALE, G., *The Korặn. Translated into English from the original Arabic*. London and New York: Frederick Warne & Co. Ltd.

- ❖ WHERRY, E.M., AND TRENCH, P.K., 1896. *A comprehensive commentary on the Quran (comprising Sale's translation and preliminary discourse by E M. Wherry)*. London: Trubner & Co. Ltd.

- ❖ *The encyclopaedia Britannica. A dictionary of sciences, literature and general information*, vol. 15, 11th ed. Cambridge: University Press, 1911.

- ❖ *The encyclopaedia of Islam. A dictionary of the geography, ethnography and biography of the Muhammadan peoples*, vol. 3. Leiden: E.J. Brill, London: Luzac & Co., 1936.

- ❖ *The holy bible, containing the old and new testaments*. King James Version, 1611. Philippine Bible Society.

- ❖ *The interpreter's bible*, vol. 7. New York: Abingdon Cokesbury Press.

- ❖ *The Jewish encyclopedia*.
  New York and London: Funk & Wagnalls, 1916.

- ❖ TISDALL, W.ST.C., *Sources of Islam (Urdu)*.

- ❖ TOYNBEE, A.J., 1948. *Civilization on trial*.
  New York: Oxford University Press.

- ❖ WILLIAMS, H.S., *The historians' history of the world*, vol. 1.
  London: The Encyclopaedia Britannica Co., Ltd.

- ❖ WILSON, T.W., *Through the Bible*. London and Glasgow: Collins.

مراجع أردية وفارسية

کتب حضرت مرزا غلام احمد قادیانی علیہ السلام ، (طبعہ روحانی خزائن) پبلشر نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ پاکستان

- براہین احمدیہ (ہر چہار حصص)
- براہین احمدیہ حصہ پنجم
- الحق مباحثہ لدھیانہ
- ازالہ اوہام
- جنگ مقدس
- آئینہ کمالات اسلام
- سرمہ چشم آریہ
- چشمہ معرفت
- تحفہ قیصریہ
- انجام آتھم
- کتاب البریہ
- تذکرۃ الشہادتین
- معیار المذاہب

- سراج منیر
- برکات الدعاء
- حقیقۃ الوحی
- تریاق القلوب
- الوصیت
- ایام الصلح
- نزول المسیح
- انوارالاسلام
- تذکرہ (مجموعہ الہامات،کشوف ورؤیا حضرت مرزا غلام احمد قادیانی)

الشرکۃ الاسلامیۃ لمیٹڈ ربوہ پاکستان

- ملفوظات جلد اول، دوم،سوم، چہارم،پنجم
- مجموعہ اشتہارات
- درثمین فارسی، نظارت اشاعت وتصنیف ربوہ

دیگر کتب واخبارات سلسلہ

- نورالدین بجواب ترکِ اِسلام ،حضرت حکیم مولوی نور الدین بھیروی صاحب ، محمد فخر الدین ملتانی ،مطبع وزیر ہند سٹیم پریس امرتسر باہتمام بھائی بہادر سنگھ،احمدیہ کتاب گھر (قادیان) 1923

- سیرت مسیح موعود علیہ السلام ، یعقوب علی عرفانی صاحب ،خواجہ پریس بٹالہ، احمد وجودی مالک ومطبع و پرنٹر کے اہتمام سے چھپوا کر تراب منزل قادیان سے شائع کی ۔12 مئی 1924
- حیات احمدؑ عہد جدید، بہ سلسلہ قدیم ، یعقوب علی عرفانی صاحب ۔ ایڈیشن سوم ۔اسلامی پریس حیدرآباد دکن 1952ء
- سیرت المہدی ،حضرت صاحبزادہ مرزا بشیر احمد صاحب ایم اے۔ باہتمام فخر الدین ملتانی احمدیہ کتاب گھر قادیان 1923
- اصحاب احمد، ملک صلاح الدین ایم اے جلد 4 شائع کردہ ملک صلاح الدین ایم اے قادیان پنجاب بھارت (جدید کمپیوٹرائزڈ ایڈیشن)
- بہائی تحریک پر تبصرہ ،مولانا ابوالعطا جالندھری
- تشحیذ الاذھان ، ماہنامہ ،ایڈیٹر صاحبزادہ مرزا بشیرالدین محمود احمد صاحب ، ماہ ستمبر 1913 ،قادیان ضلع گورداسپور
- بدر قادیان ،ایڈیٹر مفتی محمد صادق ،10 جنوری 1907ء ،جمعرات 27 اپریل 1907 قادیان
- الحکم قادیان ، ایڈیٹر شیخ یعقوب علی تراب احمدی ، 28 فروری 1903 قادیان ، 10 جون 1907ء ، 24 نومبر 1907ء
- روزنامہ الفضل قادیان ،1914 ،15 مارچ 1930ء

دیگر کتب

۔ سید احمد شہید، غلام رسول مہر، کتاب منزل، کشمیری بازار۔ لاہور۔

۔ تاریخ ارض القرآن، جلد اول ، دوم، مولانا سید سلیمان ندوی، معارف پریس دارالمصنفین اعظم گڈھ 1924

۔ دیوان خواجہ شمس الدین محمد حافظ شیرازی ، ناشر انتشارات فخر رازی۔

۔ تذکرۃ الاولیاء، از حضرت شیخ فریدالدین عطارؒ، مطبع پروگریسو بک 40 بی اردو بازار۔

۔ تذکرۃ الاولیاء تالیف فرید الدین عطّار کتب خانہ شان اسلام، راحت مارکیٹ اردو بازار لاہور

۔ تذکرۃ الاولیاء۔ رئیس احمد جعفری۔ شیخ غلام علی اینڈ سنز۔ کشمیری بازار لاہور۔

۔ تذکرۃ الاولیاء ہند، مرزا محمد اختر دہلوی، میور پریس دہلی محلّہ پیپل مہا دیو باہتمام منشی بلاقی داس مالک مطبع۔

۔ تاریخ ملل قدیمۃ، مصنفہ سینوس (فرانسیسی) مترجم اردو سید محمود اعظم فہمی، مسلم یونیورسٹی انسٹیٹیوٹ علی گڑھ

۔ انوار اصفیا، مرتبہ ادارہ تصنیف و تالیف ناشرین شیخ غلام علی اینڈ

سنز، پرنٹرز، پبلشرز، کشمیری بازار لاہور

- سر دلبراں، حضرت سید محمد ذوقی۔مطبع محفل ذوقیۃ ڈون ہاؤس للّی روڈ۔کراچی کینٹ۔

- بہاء اللہ وعصر جدید، جے ای ایسلمنٹ، ترجمہ عباس علی بٹ، محفل ملی بہائیان ہندو برہما

- اقتراب الساعۃ، نور الحسن خان، طبع فی مطبعہ مفید عام الکائنۃ فی آگرہ، بادارۃ المنشی محمد احمد خان 1301ھ

- تاتاریوں کی یلغار، ہیرلڈلیم ترجمہ احمد (1206ء) مطبع شیخ غلام علی اینڈسنز۔کتاب منزل لاہور

- تاریخ فرشتہ، ملا محمد قاسم، مطبع منشی نولکشور لکھنؤ انڈیا

- سقراط، منصور الحمید، مطبع طیب اقبال پرنٹرز دار التذکیر حمید سنٹر ۹ رائل پارک لاہور۔

- تواریخ اقوام کشمیر، محمد الدین فوق، نگارشات 24 مزنگ روڈ لاہور 2003

- امیر تیمور۔ مصنفہ ہیرلڈ ہیمب۔مترجم محمد عنایت اللہ دہلوی۔نفیس اکیڈیمی بلاسمس اسٹریٹ۔کراچی

- شرح دیوان غالب۔ شارح محمد الیاس ناصر دہلوی۔ مطبع شاہد پرنٹنگ سروسز صدر کراچی

- کلیات اقبال۔ اقبال اکیڈمی پاکستان۔ مطبع استقلال پریس لاہور
- اقبال نامہ مجموعہ مکاتیبِ اقبال مرتبہ شیخ عطاء اللہ ایم اے۔ ناشر شیخ محمد اشرف تاجر کتب کشمیری بازار لاہور
- کتاب مقدس، بائبل سوسائٹی، انارکلی، لاہور
- قاموس الکتاب لغات بائبل ،مولف ایف۔سی۔خیر اللہ۔ مسیحی اشاعت خانہ 36 فیروز پور روڈ لاہور۔
- ینابیع الاسلام، پادری ولیم سینٹ کلیر ٹسڈل صاحب ایم۔اے، فارسی کتاب سے اردو ترجمہ۔ مسٹر اکبر مسیح۔ پنجاب ریلجیس بک سوسائٹی۔ انارکلی لاہور۔1902
- نجات کی تعلیم، پادری طالب الدین بی اے، پنجاب ریلجیس بک سوسائٹی۔ انارکلی لاہور۔1905
- انوار حقیقت یعنی ستیارتھ پرکاش، رشی دیانند۔ترجمہ از چمپوتی ایم۔اے۔ مطبع سوامی ویدانند تیرتھ ادھشٹا تا چمپوتی ساہتیہ وبھاگ آریہ پتی ندھی سبھا پنجاب گوردت بھون لاہور۔
- مہارشی ویدویاس شریمد بھاگوت مہاپران، گیتا پریس گورکھپور